مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ الثّامِنُ والعِشرونَ

سورة الإسراء من الآية 06 إلى الآية 77

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلَاغِيِّ

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ الثّامِنُ والعِشرونَ

سورة الإسراء من الآية 06 إلى الآية 77

نُخْبَةٌ مِنْ عُلَماءِ مَجْمَعِ القُرْآنِ الكَريمِ بِالشّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2024

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والعشرون،
سورة الإسراء من الآية 06 إلى الآية 77
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م

الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والعشرون، سورة الإسراء من الآية 06 إلى الآية 77
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 28 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-25-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 28 : المجلد الثامن والعشرون، سورة الإسراء من الآية 06 إلى الآية 77.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-25-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9844230 بتاريخ 2024/11/05م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ الخَامِسَ عشَرَ

سُورَةُ الإِسْرَاءِ

﴿ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا ٦﴾ [الإسراء: 6]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الانتقال مِن ذِكْر التّأديب بسبب الإفساد، إلى ذِكْر التّمكين بسبب الطّاعة

بعد أن ذَكَر اللّهُ تعالى ما فعله بنو إسرائيلَ مِن تخريبٍ في الأرض المَقَدّسة وما ارتكبوه من جرائِمَ وقبائِحَ مِنَ التّكبُّر والتّجبُّر، وما بعثَهُ اللّهُ عليهم مِنَ العباد أوّلي البأسِ الشَّديد، فجاسوا خلالَ ديارهم، وفعلوا بهمُ الأفاعيل، ناسبَ أن يَذْكُر توبتَهم ورجوعَهم إلى حالتهم الأولى، ووصلوا ما كانوا قطعوه مع اللّه تعالى، أعاد اللّهُ لهم الغلبةَ والدّولةَ، وأمدّهم بالأموال والبنين، وجعلهمْ أكثرَ عددًا، ووعدهم اللّه تعالى بالنّصر إن هم أطاعوه، وإلّا عاقبهم بالخزي والعذاب إن رجعوا إلى فسادهم وعصيانهم، فجاء بيانُ ذلك كما ذكر اللّهُ تعالى في هذه الآية.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَدَدۡنَا﴾: الرّاءُ والدّالُ أصل واحِد مُطّرِد مُنقاس، وهو رَجْعُ الشّيءِ، تقولُ: رددتُ الشّيءِ أَرُدُّهُ رَدًّا[1]، والرَّدّ يُستعمل فيما كان مَرَّةً بعد أُخرى[2]، فالتّعبيرُ بالرّدّ هنا دليل على عَوْد دولتِهم إلى سابق عهدها بقوّة، ويناسبُ ذلك الرَّدَّ ذِكْرُ الكرّة، وهي الرُّجوع إلى الأمر الّذي سبق وجودُه بسُرعة مع قوّةٍ وشِدّةِ بأسٍ؛ لإنجاح هذه العَوْدَةِ وإظهارها.

2) ﴿ٱلۡكَرَّةَ﴾: الكافُ والرّاءُ أصلٌ صحيح يَدُلُّ على جمع وترديد، مِن ذلِك: كَرَرْتُ، وذلِك رُجوعُك إليهِ بعد المَرّةِ الأولى، فهو التّرديدُ[3]،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ردّ).
(2) الرّاغب، المفردات: (ردّ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كرّ).

ومعناها المِحوريّ: "معاودةُ الشّيء إتيانًا أوِ انتقالًا إليه، مَرّة بعد أُخرى لتحصيله"[1]، ولمّا كانت إعادةُ الدّولة مَرّة أُخرى إلى حالتها الأولى، ناسبَ ذلك التّعبيرُ بالكرّة؛ لأنّه يحتاج إقدامَ النُّفوس وقوّةَ القلوبِ، الّتي تقوى على إظهارها في مكانها اللّائق بها.

3) ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰكُم﴾: الميمُ والدّالُ أصل واحِد يدُلُّ على جَرِّ شيء في طول، واتّصالِ شيء بِشيء في استِطالة، تقولُ: مَددتُ الشّيء أَمُدُّهُ مَدًّا[2]، وأكثر ما جاء الإمْدادُ في المَحبوب[3]، ولمّا كان إنعامُ اللّه عليهم وعطاؤُه كثيرًا، عوضًا عمّا فاتهم وما ضاع منهم، جعل اللّهُ هذا إمدادًا لا ينقطع، كلّما غاص منه مَدٌّ فاضَ عليه مَدٌّ آخَرَ؛ ليكون عطاءً لا يبور.

4) ﴿نَفِيرًا﴾: النّونُ والفاءُ والرّاءُ: أصلٌ صحيح يدُلُّ على تجافٍ وتباعُد، مِنهُ: نَفَرَ الدّابّةُ وغيرُهُ نِفارًا، وذلِك تجافيه وتباعُدُهُ عن مكانِهِ ومَقرِّه، والنّفرُ مِن قياسِ البابِ؛ لِأنّهُم يَنفِرون لِلنُّصرة[4]، ومنهُ الاستنفارُ في القتال: الاستنجاد والاستنصار[5]، من تمام نعمه ﷻ على بني إسرائيلَ بعد أن أمدّهم بالأموال والبنين فَعَزّوا وكَثُروا، ذِكْرُ مِنّةٍ أُخْرَى وهي أن جعلَهم أصحابَ قوّةٍ ونفارٍ، يَرُدّونَ غائلةَ مَن أراد بهمُ السّوءَ والخَديعة.

المَعْنى الإِجْماليُّ:

العائِدُ عن ذَنبه كَمَن لا ذَنبَ له

في هذه الآية الكريمة تذكيرٌ لبني إسرائيلَ بجُملة مِن نِعَم اللّه عليهم، بعد أن أصابهم ما أصابهم مِن أعدائهم، فأعاد اللّهُ تعالى لهم الدّولةَ والغَلَبةَ على أعدائهم الذين قَهَروهم وأَذَلّوهم قبلَ ذلك،

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كرر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مدّ).
(3) الرّاغب، المفردات: (مدّ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفر).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نفر).

وذلك بعد أن أَحۡسَنوا العملَ والرُّجوعَ إلى اللّه تعالى، فالآيَةُ نموذَجٌ سلوكيٌّ للأُمَّة، بأنَّ النَّصر مِن عند اللّه تعالى، وأنَّهم إن أَحۡسَنوا العلاقةَ مع اللّه تعالى؛ استقامَتۡ حياتُهم، ورست سفينتُهم.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ العطف بحرف ﴿ثُمَّ﴾:

إعدادُ الأُمَّةِ مِن جديد بحاجة إلى مُهْلةٍ زمانيَّةٍ، مع العمل والإنابة

أفاد حرف ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ﴾ العطفَ، للتّرتيب مع التّراخي، والمراد: ترتيبُ الأخبار لا ترتيبُ المُخۡبَر عنه، ولهذا قيل: إنّها تأتي كثيرًا لتفاوُت ما بين رُتبتَين في قَصۡد المُتكلِّم، وعُطِفَتۡ هذه الجملةُ على قوله: ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾ لاتّفاق الجُملتين في الخبريّة، فوصل بينهما، وهنا إخبارٌ مِنَ اللّه تعالى لبني إسرائيلَ في التّوراة إن هم أنابوا ورجعوا أن تكون لهم الغلبة، واستعمال ﴿ثُمَّ﴾ دون غيرِها مِن أدوات العطف؛ لبيانِ أنَّه كان هناك تراخٍ في رَدِّ الكَرّة على بني إسرائيل، فإنَّ إعادة الأُمَّة إلى حالتِها الأولى، يحتاج إلى إعدادٍ نفسيٍّ وروحيٍّ وإيمانيٍّ وماديٍّ، وهذا لا يكون إلّا بعد فترة مِنَ الزَّمن؛ بإعانة اللّه تعالى، وهذا ما يُشير إليه حرفُ التّراخي.

سِرُّ التّعبير بمفردة الرّدّ:

إشاراتُ القرآنِ إلى الواقعِ التَّاريخيِّ دليلُ صِدقٍ وأمارةُ حَقّ

استعمل النَّظمُ الكريمُ مُفرَدَةَ الرَّدّ، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ﴾ دونَ الرُّجوع، والرَّدُّ: صرفُ الشّيء بذاته، أو بحالة مِن أحواله، يقال: رَدَدتُهُ فارۡتَدّ، وهو مِن تكرار الشّيء وتَردُّده، أمّا الرُّجوعُ فهو العَودُ إلى ما كان منه البَدۡءُ، أو تقدير البَدۡءِ، مكانًا كان أو فعلًا أو قولًا، وفيه إعادة قد تحتاج إلى زمن وبُعدٍ بينَ الرّجعة والرّجعة، والأليقُ بهذا السّياق مُفۡرَدةُ الرّدّ؛ ذلك أنَّ الرَّدَّ هو ما كان مَرّةً تِلۡوَ الأُخرى، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ هذا الصّنيعَ سيَصۡدُر عنهم مَرَّة ثانية، وسيكون الرَّدّ لهم مَرّة ثانية، أمّا الرّجوع فهو مطلق

العود إلى ما كان عليه الحال، وهم لن يرجعوا إلى ما كانوا عليه رجوعًا مطابقًا، بل سيعودون إلى سابق مُكنتهم في الأرض، ففرقٌ بين المُفردَتين في هذا الاستعمال، مِن حيثُ الإشارةُ إلى التّكرار، وأنّ العود لن يكون مطابقًا، وهي إشارةٌ تاريخيَّة كاشفةٌ عمّا كان عليه الأمر سابقًا.

دلالةُ التّعبيرِ بالماضي:

وعـــدُ الـلـه المستقبليّ أصدقُ ممَّا يراه البشر

التّعبير بالفعل الماضي ﴿رَدَدْنَا﴾ دالٌّ على تحقُّق الفعلِ وحصوله، ويُعبّر بالماضي لما هو مُتحقِّق الوقوع كالواقع، وفي هذا دليل على صدق الوعد ومَنْ وَعَد به؛ لأنّ وَعْدَه لا يتخلّف ولا يتبدّل، قال أبو حيّان: "وجُعِلَ ﴿رَدَدْنَا﴾ موضِعَ (نرُدُّ)؛ إذ وقتُ إخبارِهم لم يقعِ الأمرُ بعدُ، لكِنّهُ لمّا كان وَعْدُ اللّهِ في غايةِ الثِّقةِ أنّهُ يقعُ، عَبَّر عن مُستقبلِهِ بِالماضي"[1]، وقال الطّاهر بن عاشور: "وجيءَ بِفعلِ ﴿رَدَدْنَا﴾ ماضيًا جريًا على الغالِبِ في جوابِ (إذا)، كما جاء شرطُها فِعلًا ماضيًا في قولِهِ: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا﴾، أي: (إذا يجيءُ يبعثُ)"[2].

دلالةُ إضافة فعل (ردَّ) إلى نون العَظَمة:

عـنـايـة الـلـهِ بعباده الآيبين لا تنقطع

أُضيفَ فِعْلُ الرّدِّ إلى ضمير العَظَمة في قوله تعالى: ﴿رَدَدْنَا﴾ للتّعظيم وتشريف مَن كان لهم الحدث، ودلالةً على عناية اللّه تعالى بعباده الآيبين، ومَجيءُ نونِ العَظَمة في الفعل هنا إيجازٌ واختصار، وهو أخصر من أن يقال: ثمّ رَدّ اللّهُ ﷻ الكَرّة.

غرضُ تقديم الجارِّ والمَجرور:

قَصْرُ الرّدّ مَظِنَّةُ العناية بالأمر

أفاد تقديم الجارِّ والمَجرور على المفعول به في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ﴾ التّخصيصَ، فهو لكم لا لغيركم، كما أفاد التّقديمُ الاهتمامَ بأمر هؤلاء.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 10.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 32.

معنى التّعليل كنايةٌ عن قبول التَّوبة

دلالةُ اللّامِ في: ﴿لَكُمُ﴾:

اللّام في: ﴿لَكُمُ﴾ من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ﴾ إمّا أن تكون للتّعدية، وهي التي تعدّي العاملَ إذا عَجَز عنِ التَّعدّي بنفسه، أو أن تكون للتّعليل، وهي التي يصلح أن يقع موضعَها (من أجل)، والمعنى هنا على التّعليل: رددنا مِن أجلكم الكَرّة عليهم، ومعنى التَّعليل حاضر، وهو كنايةٌ عن قبول اللّه تعالى لتوبتهم.

المفرداتُ القُرآنيّة متناسبةٌ في الإشارة إلى المستقبل الغيبيّ

دلالةُ التّعبير بالكَرّة دونَ الغَلَبَة:

مِن بديع الاتّساق في هذه الآية انتقاءُ مفردة الكرّة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ﴾ مع الرّدّ، وهي مِنَ الكَرِّ، وهو "العطف على الشّيء بالذّات أو بالفعل، ويقال للحبل المفتول: كَرّ"[1]، والكَرَّةُ: تتابعٌ لا ينقطع، يتكرّرُ فيه الغَلَبُ والظَّفَر واللَّحاقُ المتتابعُ، أمّا الغَلَبَةُ: فهي مِنَ "القَهْر، يُقال: غلبتُه غَلْبًا وغَلَبة وغُلْبًا فهو غالب"[2]، والغَلَبة لا تكرارَ فيها، فقد تكون مَرّة واحدةً لا تتعدّد، ومِن هنا عُبِّر بالأكثر المُتتابِع، لا بالمنفرد المقطوع، فاستعمالُ الكَرّة فيه إشارةٌ إلى أنَّ هذا الأمر سيتكرّر في الأيّام القادمة، كما كانت الإشارة في مُفردة الرَّدِّ، وما ألصقَ المعانيَ وأَشَدّ تتابعَها في سياق الإشارة إلى المستقبل الغَيبيِّ!

المؤمنُ الرَّاجعُ إلى دينه راجعٌ إلى النَّصر المَرَّة تِلْوَ الأُخرى

بلاغةُ الاستعارة التَّصريحيّة في لفظ الكَرّة:

شُبِّهتِ الغَلَبة بالكَرَّة في قوله تعالى: ﴿رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ﴾، فجيء بلفظ الكَرّة، وفيها دلالةٌ على الرُّجوع والعَطف، فحذف المشبَّه - وهو الغلبة - وبقي المشبَّه به على سبيل الاستعارة التّصريحيّة، مبالغةً في متابعة النّصر والغَلَبة مَرّات ومَرّات؛ فشُبِّه رجوعُهُم وعَطْفُهم على عَدوِّهم بالفارس الّذي يَكُرُّ على عَدوّه متابعةً تِلوَ متابعةٍ.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (كرّ).

(2) الرّاغب، المفردات: (غلب).

براعةُ استعمالِ حرفِ الاستعلاء في الكشف التَّاريخيِّ:

لمّا كان المرادُ إظهارَ بني إسرائيلَ على عدوِّهم، وأن تكون لهم الغلبةُ؛ عَبّر بالجارّ والمَجرور في قوله تعالى: ﴿ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ كأنّهم عَلَوْهُم وأحاطوهم، فلم يستطيعوا فِرارًا منهم، ولمّا كان المَقصودُ إعلاءَ أمرِ هؤلاء ونُصرتَهم عُبِّر عنه بلفظ العُلوّ، "فقولُهُ: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ ظرفٌ مُستقِرّ هو حال مِنَ الكرّة؛ لِأنّ رُجوع بني إِسرائيلَ إِلى أورشليم كان بِتغلُّبِ مَلِكِ فارِس على مَلِكِ بابِل"[1]، كما هو ثابت في التّاريخ، واللّه تعالى يهيِّئُ أسبابَ النَّصر للأُمّة مِن حيثُ لا تحتسب، إن هي عادت وآبت إلى دين اللّه تعالى.

لِكُلِّ متمسِّكٍ بإيمانه يومٌ يعلو فيه على عَدُوِّه

تعيينُ المراد بالضَّميرِ في: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

الضّمير في قوله تعالى: ﴿ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ﴾ مُرادٌ به أعداءُ بني إسرائيلَ، وهم العِباد المُتَقَدّمُ ذِكْرُهم في قوله تعالى: ﴿بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾، فعاد الضّميرُ على مُتَقَدِّمٍ ذِكْرُه، أي: رددنا الدّولةَ والغَلَبَةَ على أعدائكم بعدَ هذا البلاءِ الشّديد.

الضّمير عائدٌ على أعداء بني إسرائيل

دلالة الواو في: ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰكُم﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰكُم﴾ عاطفةٌ على قوله: ﴿رَدَدۡنَا﴾، من قبيل عطف الجملة على الجملة؛ لكونهما متّفقتين في الخبريّة، وجاءت إخبارًا بذكر نعمة أخرى عليهم؛ فبعد أن أمكنَهم مِن غلبة عدوِّهم، عاد فذكر إمدادَهم بعَصَبِ الحياة، وهم الأموال والبَنون، وبين الجُملتين جهةٌ جامعة أدّت إلى العطف، فالإمدادُ هنا ثاني ثمرةٍ مِن ثمار كَرم اللّه عليهم، وفيه بيانُ أنَّ النَّصر وَحْدَه غيرُ كافٍ في الغلبة، فلا بدَّ معه مِنَ الإمداد للاستمرار.

ما بعد النَّصر مَددٌ مِنَ الله لاستمرار النُّهوض والغَلَبَة

دلالة التّعبير بـ: ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰكُم﴾:

ورد الفعل "مدّ" مزيدًا بالهمزةِ مبالغةً في زيادة العطاء؛ لأنّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 32.

اللّه تعالى إذا أعطى أدهش، وإذا أنعم أكرم وأغدق

(مَدّ) فيه معنى العطاء، يُقال: مددتُ فلانًا، إذا أعطيتَه، فإذا أردت الزيادةَ في المَدِّ قلتَ: أَمُدُّه بالهمزة مبالغةً في هذا الإمداد، وفي قوله تعالى: ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰكُم﴾ زاد معنى هذا العطاءِ فلم يكن مَدًّا بمَرّة، بل تَعَدّى الإمدادُ إلى كثرته، فصار إمدادًا كثيرًا متتابعًا لا ينقطع، ومن هنا قالوا: مَدَدتُ فلانًا أَمُدُّه مَدًّا، أي: زِدتُ فيه وواصلتُه؛ فأطلت إمدادَهُ حتَّى صار مِن كثرته لا ينقطع، وفيه مِنَ الدّلالة على المِنَّة ما لا يَسعُ المقامَ بيانُه؛ إذ هو إمدادٌ عظيم مِن ربٍّ كريم، والإمدادُ بعدَ التّوبة والإنابة الصّادقة يكون عظيمًا بقَدْرِ التَّوبة.

دلالةُ تقديم ﴿بِأَمۡوَٰلٖ﴾ على ﴿وَبَنِينَ﴾:

القُوّةُ الماليّة والبشريّة أصلُ الغَلَبَةِ السُّنَنِيَّة

تقديم الأموال على البنينَ في قوله تعالى: ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ﴾ من بابِ تقديم ما هو أكثر احتياجًا لبني إسرائيل، فإنَّ البنين موجودون، والأموالُ التي تؤدّي إلى المُكْنة هي الأقلّ حضورًا، فذُكِرت الأموالُ من باب تقديم الأهمِّ على المُهِمّ في هذا السّياق التّاريخيّ؛ إذ بالأموال تقوم الجيوشُ وتكون لها الغلبة، والمال مصدرُ إعدادٍ للأُمَّة إذا اعتُبِرت فيه الوجهةُ الصّحيحة؛ فالأموال هي التي يكون بها قِوامُ الحياة، والأساسُ الّذي تُبنى به، ثمّ البَنون الذين يتمنّاهُمُ الإنسانُ ولا يتأتّى له كمالُ النّعيم إلّا بهم، فالجمع بينَ هاتين النِّعمتين فيه إظهارٌ لمَدَى مِنّة اللّهِ عليهم، ومَدى كَرَمِه بهم سبحانه.

دلالةُ التّعبير بالبنينَ دونَ الأولاد:

الرّجالُ هم مادّة القُوَّة، وبهم يكون الإمدادُ والغَلَبة

التّعبير بالبنينَ في قوله تعالى: ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ﴾ يُراد به الرِّجالُ الّذين يقاتلون ويحملون السّلاح، أمّا الأولاد؛ فالمُراد بهم ما يَشملُ الذُّكورَ والإناثَ؛ بدليل قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾ [النّساء: 11]، ففي مقام القوّة والمُساندة والقتالِ يُعَبّر بالبنين، فدلَّ هذا الاختيارُ على أنَّ الأبناء قوّةٌ صلبة في الغَلَبة والتَّمكُّن،

وشرطُهم أن يكونوا على شرع اللّه وتقواه، وأنَّ للرّجال ما لا يكون للنِّساء في نهضة الأُمم، والتّسويَةُ بينَ الرّجال والنِّساء في كلّ شيء تسويَةٌ باطلة لا تقوم على حَقٍّ.

دلالةُ التّعبير بالواو في: ﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ﴾:

تـوالي الـنِّـعَـم التي امتنّ الله تعالى بها على بني إسرائيل

الواو عاطفة للجَعْل بالكثرة على ما سبق، من باب عطف الجملة على الجملة؛ لاتفاقهما في الخبريّة مع وجود الجِهَةِ الجامعة للوصل والتّشريك في الحُكم الإعرابيِّ، وهي الإخبار بنعمةٍ أُخرى مِنَ النِّعَم التي امتنّ اللّهُ تعالى بها على هؤلاء؛ لتُضاف إلى سابقتيها في أداء المُراد.

دلالة التّعبير بلفظ الجَعْل:

الجَعْلُ لإحداث قُوّتهم، وإمدادِ الله تعالى لهم بكَثْرة أعدادِهم ورجالهم

اختيرَ فعلُ (جعل) وهو لفظٌ عامٌّ في الأفعال كلِّها، وهو أَعمُّ مِن (فعل) و(صنع) وسائرِ أخواتِهما[1]، ومِن هنا جاء التّعبير بهذا الفعل في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ﴾؛ لإحداث قوّةٍ، وإمدادِ اللّه تعالى لهم بكَثْرة أعدادِهم ورجالهم، فينفِرون حالَ الحرب لبأْسِهم وقوّتهم، وأنَّه جَعَلَهم أكثرَ نفيرًا بالأفعال وصناعة السّلاح والأعمال الصّالحة في سبيل الدّين.

دلالة التّعبير بالأكثريَّة:

الكثرة في ميزان الشَّرع تتعيَّن بالعمل السُّنَنيّ لا بالأهواء والشّهوات

آثَرَ النَّظمُ استعمالَ صيغة ﴿أَكۡثَرَ﴾ لِلَمْحِ التَّقابلِ بينهم وبين أعدائهم، فالكثرة والقِلّة يستعملان في الكميّة المنفصلة الأعداد، والمرادُ أنّه ﷻ كاثَر بهم غيرَهم في العدد وفي الفعل أيضًا، ومنه المُكاثرة والتّكاثر، والمراد به: التّباري في كَثْرة المال والعِزِّ، فكاثرهم عددًا وعتادًا، وهو أدلُّ على الكثرة لديهم مِن أعدائهم، وفيه: أنَّ على المؤمن أنْ يعمل في إعداد العُدّة على ضوء منهج اللّه تعالى للنّصرة، لا أن يعتمد على الأمانيّ والتَّمنّي، فإنَّه غيرُ موصلٍ، لأنَّه

(1) الرّاغب، المفردات: (جعل).

غير متّصل بأمر اللّه فيما أراد مِن عباده أن يصنعوه في سبيل تحقيق نُصْرة هذا الدّين، فالنَّصر له قانونٌ تُبيِّنه الشّريعة، لا أهواءُ النّاسِ واجتهاداتُهم الدُّنيويّة.

وذهب ابن عاشور إلى أنَّ الأكثريّة بالنّسبة لما كانوا عليه، أي: أنَّه تفضيل على أنفُسِهِم، أي: جعلناكُم أكثرَ مِمّا كُنتُم قبل الجلاءِ، وهو المُناسِبُ لِمقامِ الامتنانِ[1]، ولا مانعَ مِن إرادة المَعنيين، فهم أكثرُ مِن أعدائهم، ومِن أنفسهم قبلَ هذا الإمداد.

بلاغة التّعبير بـ ﴿نَفِيرًا﴾:

إذا امتاز الرِّجالُ بالحركة وقُوّة النّشاط وُصِفوا بأنَّهم نفير

المراد بالنَّفير في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ العددُ، أي: جعلناكم أكثرَ عددًا مِنَ الرِّجال، وهو هنا تمييز لكلمة ﴿أَكْثَرَ﴾، أريد به التّمييزُ المُبيِّن لجهة الأكثريّة الواردة، وهو "اسمُ جمعٍ لِلجماعةِ الّتي تَنفِرُ مع المَرءِ مِن قومِهِ وعشيرتِهِ، ومِنهُ قولُ أبي جهل: لا في العيرِ ولا في النّفيرِ[2]، واختير النَّفيرُ دونَ الرّجال، باعتبار ما تدلُّ عليه هذه الكلمة مِنَ الحركة والاضطراب مع الإخافة وقوّةِ النّشاط والمُبادَرة.

۞ الفروق المعجميّة:

الرّدّ والرّجوع:

الـرُّجـوعُ يكـون لـلأصـل، ولا يُشترط ذلك في الرّدّ

الرّدُّ مُتَعَدٍّ، والرُّجوع لازم[3]، وقد يتعدَّى، والرُّجوع يكون لمنتهى القَصْد ولغيره، ألا ترى أنّه يُقال: رَجَعَ إلَى بعض الطَّريق، والرُّجوع هوَ المصير إلَى الموضع الَّذي قد كانَ فيهِ قبلُ[4]، في حين أنّ الرّدَّ لا يُشترط فيه ذلك، وقد يُقال: الرّجوع: حركة واحدة في سَمتٍ واحد، لكن على مسافة حركةٍ هي مِثْل الأولى بعينها[5]، في حين أنّ الرَّدَّ يكون تكرارًا مَرّةً بعد أُخرى.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 33.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 33.
(3) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/ 512.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 303.
(5) الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 109.

﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ٧﴾ [الإسراء: 7]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الانـتـقـال مِـنَ الإخــبــار عـنِ الــنَّــصــر، إلى المحـافـظـة على النَّصر

هذه الآية مِن جملة ما قضى اللّهُ تعالى به على بني إسرائيلَ في كتابهم لبيان أنّ إحسانهم لذوات أنفسهم، وإساءتهم عليهم لا تنفكُّ عنهم، فهو وعدٌ لاحِقٌ للعِباد ممّن لا يتخلّف وَعْدُه، "فلمّا ثبت بكون ما توعّد به سبحانه في أوقاته كما أخبر به بطشُه وحِلْمُه، فثبتت قُدْرَتُه وعِلْمُه، أشار إلى أنّ من سبب إذلاله لمَن يريد به الخيرَ المعصيةَ، وسبب إعزازه الطّاعة، فقال تعالى: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ﴾"[1]، فهو انتقال مِنَ الإخبار عمّا سيكون، إلى الإرشاد إلى المحافظة على ما سيكون مِنَ الإحسان للنَّفس بالتزام الطّاعة، واجتنابِ المعصية والفسادِ في الأرض.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَحۡسَنتُمۡ﴾: الحاءُ والسّينُ والنّونُ أصلٌ واحِد، فالحُسنُ ضِدُّ القُبحِ، والمحاسِنُ مِن الإنسانِ وغيرِه: ضِدُّ المُساوي[2]، وقال الرّاغب:" الحُسْنُ عبارةٌ عن كلّ مُبْهِجٍ مَرغوبٍ فيه، وذلك ثلاثة أضرب: مُستَحْسَن مِن جهة العقل، ومُستَحْسَن مِن جهة الهَوى، ومُسْتَحْسَن مِن جهة الحِسّ، والحسنةُ يُعَبّر عنها عن كلّ ما يَسرُّ مِن نعمة تَنالُ الإنسانَ في نفسه وبدنه وأحواله، والسّيّئةُ تضادُّها"[3]،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 301.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسن).
(3) الرّاغب، المفردات: (حسن).

وورودُ التّعبيرِ بالإحسان هنا حَثٌّ منه ﷻ لهم أنّ جزاء الإحسان عائدٌ عليهم، ففيه النّجاة لهم، وليس هذا تفضُّلًا منهم، بل هو ما يجب عليهم أن يفعلوه إذا كانوا يريدون أسبابَ الظّفَر والفَوز على أنفسهم أوّلًا، وعلى أعدائهم ثانيًا.

2) ﴿أَسَأۡتُمۡ﴾ و﴿لِيَسُـُٔواْ﴾: السّوءُ: كلّ ما يَغُمّ الإنسانَ مِنَ الأمور الدّنيويّة، والأُخرويّة، ومِنَ الأحوال النّفسيّة، والبَدنيّة، والخارجة؛ مِن فوات مال، وجاه، وفَقْد حميم، فمعنى الإساءةِ: ارتكابُ الذّنوبِ والمعاصي؛ لأنّها قبيحةٌ في المؤمنين، ومعنى ﴿لِيَسُـُٔواْ﴾، أي: ليُقَبِّحوا وجوهَكم، نُسِبَ ذلك إلى الوجه مِن حيثُ إنّه يبدو في الوجه أَثَرُ السّرورِ والغَمّ[1].

3) ﴿وَلِيُتَبِّرُواْ﴾: تدلُّ التّاءُ والباءُ والرّاءُ على الهلاك، ومنه قولهم: تبّر اللّهُ عملَ الكافرِ، أي: أهلكَهُ وأبطلَهُ[2]، فالتَّبْرُ: الكَسْرُ والإهلاك[3]، واستعمال التّتبير هنا المرادُ به: الهلاكُ والتّدميرُ نكايةً فيما يفعلونه.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

إحسانُ الأعمالِ سبيلُ الظَّفَرِ، والإساءَةُ طريقُ التَّبْرِ والهلاكِ

تُبيِّنُ الآيةُ الكريمة سُنَّةً مِن سُنَن اللّه تعالى في استمرار نَصْره للمؤمنين، وهو الإحسان للنّفس بالطّاعة والتزام شَرْعِ اللّهِ تعالى، فثوابُ هذا الإحسانِ بركةٌ في الدُّنيا ونعيمٌ في الآخرة، وفي المقابل تُبيِّن مصيرَ الإساءةِ بمخالفة أمر اللّه تعالى وشَرْعِه، وهو الهلاكُ والهزيمة والتّتبيرُ، ثمّ أخبر سبحانَه أنّ وَعْدَه لا يَتخلّف، فإذا جاءتِ المَرّةُ الأُخْرَى مِنَ الفساد الّذي ارتكبوه، قاصدينَ به قتلَ عيسى عليه السلام، فنجّاهُ اللّهُ منهم، فارتكبوا جنايةً أُخرى وهي قتلُ زكريا وابنِه

(1) الرّاغب، المفردات: (سوء).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (تبر).
(3) الرّاغب، المفردات: (تبر).

يحيى عليهما السلام؛ فنالَتْهُمُ المَساءَةُ والأحزان، ودخل عَدوّهم بيتَ المَقْدِس ونواحيَه، كما دخلَهُ في المَرّة الأولى.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستئناف البيانيّ:

الطّاعةُ سِرُّ السّعادة، والإساءَةُ مجلَبَةٌ للخُسْران

فُصِلَتْ جملة: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ﴾ عن سابقتها؛ لشِبْهِ كمالِ الاتِّصال، فكأنّه سبحانه لمّا رَدّ الكَرّة لهم، فأظفَرَهم على عدوّهم وأَمَدّهم بالأموال والبنين، وجعلَهم أكثرَ نفيرًا؛ سأل سائل: ماذا كان منه بعد ذلك؟ فقيل: التفتَ إليهم قائلًا: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ﴾ مُبيِّنًا لهم سببَ السّعادةِ إن هم أطاعوا، وسببَ الخُسران إن أساؤوا صنيعَهم، وأنّ وَعْدَ الآخرة لا يتخلّف، وإن كانتِ العواقبُ وخيمة.

براعةُ استعمال ﴿إِنۡ﴾:

التّلويحُ بالتّنبيه والتّحذيرِ مِن سبيل الإساءَة

استُعمِلَت ﴿إِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ﴾ في براعةِ نظمٍ بديعة، فلمّا كان أمر بني إسرائيلَ مُذَبْذَبًا لا إلى الإحسان ولا إلى الإساءة، وجاء ذِكْرُ الإحسان في مقابل الإساءة، لاحتمال أن تكون هذه الثّانية مِن شأنهم، فالأمر هنا ليس مقطوعًا بتحقيقه، ولا راجحَ الوقوعِ بل هو مشكوكٌ فيه مَرجوح[1]؛ فكان ذكر ﴿إِنۡ﴾ من باب التَّنبيهِ على ما قد يَصْدُر عنهم، فهم ليسوا معصومين عنِ الإساءة، ولا ثابتين في الإحسان، فكان التَّلويحُ بأداة ﴿إِنۡ﴾ تنبيهًا بديعًا في هذا السّياق.

سِرُّ التّعبيرِ بمُفْرَدة الإحسان:

الإحسانُ سياجُ العَدْل وأصلُ الإنعام على الآخَرين

جاء اختيار مُفردة الإحسان في قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ﴾؛ لرفع شأن القوم، ورفدهم بأصل النّجاة في الدّارين، والإحسانُ عبارة عن كلّ مُبْهِج مَرغوبٍ فيه، وهو أَعَمُّ مِنَ الإنعام

(1) الزّركشيّ، البرهان: 4/ 201.

الّذي هو إنعامٌ على الغَير، وهو فوقَ العَدل؛ لأنّ العدلَ هو إعطاءُ ما عليه مع أخذ ما له، أمّا الإحسان فهو إعطاءُ أكثر ما عليه وأخذُ ممّا هو له، وهو زائد على العدل، ولهذا قيل: تحرّي العدلِ واجبٌ، وتحرّي الإحسانِ نَدْبٌ وتَطوّع[1]، ومِن هنا ورد التّعبيرُ به لاشتماله على جميع هذه المعاني، فالإحسان سياجُ العدلِ، وأصل الإنعام على الآخرين.

دلالة التّعبيرِ بالماضي ﴿أَحۡسَنتُمۡ﴾:

تحرّي الإحسانِ سِمَةُ الصّادقين المُحبّين

التّعبيرُ بالفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿أَحۡسَنتُمۡ﴾ دون أن يقول: (تحسنوا)، مشيرٌ إلى طلب تَحَقُّق وقوعِ فعلِ الإحسان وحصولِه منهم في المستقبل، فعُبِّر بالماضي هنا تنزيلًا لما هو مطلوبٌ تحقُّقه، كأنّما وقع فعلًا بلا تَردُّد.

نُكْتَةُ حَذْفِ متعلّق فعلِ الإحسان الأوّل:

الطّاعَةُ قرينُ الإحسانِ، فبِذِكْرِه يحضر معناها

حُذِفَ متعلِّق الفعلِ ﴿أَحۡسَنتُمۡ﴾ الأوّل، والمراد: إن أحسنتم بفعل الطّاعات؛ فقد أحسنتُم لأنفسكم مِن حيثُ إنّه ببركة تلك الطّاعات يفتحُ اللّهُ عليكم أبوابَ الخيرِ والبركات[2]، وحُذِف المُتعلِّق هنا لكونه معلومًا بدلالة الحال، والنّفسُ متعلّقة بإثبات الفعل للفاعل دون الاهتمام بهذا المُتعلّق، مع ما في حذفه مِنَ الإيجاز والاختصار، وقد يُراد بالحَذْف إعمامُ وجوهِ الإحسانِ على اختلاف صورِه، ووجوهِه، عبادةً، ومعاملاتٍ.

نُكْتَةُ تَكرارِ فعل ﴿أَحۡسَنتُمۡ﴾:

الإحسانُ جسرٌ للنّجاة مِوَصّلٌ إلى السّعادة

لَمّا كان فعلُ الإحسانِ مِنَ الأمور الّتي تَسُرُّ النّفسَ وتُبهجُها، أعاد النَّظمُ فعلَ ﴿أَحۡسَنتُمۡ﴾ تنويهًا بشأنه وبشأن مَن يتّصف به؛ حثًّا على فعله، إذ هو باب النّجاةِ وسِرّ السّعادةِ، ولذلك لم يقل: (فلأنفسكم)، فمِن شأنِ الإظهار في تقاليب الألفاظِ ما لا يكون للإضمار مِن عنايةٍ تَحُثُّ - هاهنا - على السّعي لتَمَثُّل وجوهِ الإحسان، والاعتبارِ بمآلاته.

(1) الرّاغب، المفردات: (حسن).
(2) الرّاغب، المفردات: (حسن).

الفرق بينَ الإحسان الأوّلِ والآخِر:

هل جزاءُ الإحسانِ إلّا الإحسانُ

الإحسانُ الأوّل في قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ﴾ هو فعلُ الإحسان بفعل الطّاعات وغيرها، أمّا الإحسان الثّاني فهو الجزاءُ المُتَرتِّبُ على الأوّل، أي: إنْ أحسنتُم في الطّاعات أحسنتُم لأنفسكم في الدُّنيا والآخرة، فهو إحسانٌ حقيقيٌّ في المَعنَيين، الأوّل سببٌ، والآخِر نتيجةٌ، كما سُمّي جَزاء الإحسان إحسانًا في قوله تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ٦٠﴾ [الرحمن: 60].

معنى اللّام ودلالتُها:

الإحسان والإساءة كلاهما مُخْتَصٌّ بنفس الفاعل أوّلًا

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِأَنفُسِكُمۡۖ﴾ إمّا للاختصاص، بمعنى أنّ الإحسان والإساءة كليهما مُختصٌّ بأنفسكم، لا يتعدّى النّفعُ والضُّرُّ إلى غيركم، وإمّا للتّعديَة؛ لكون فعلِ الإحسان يتعدّاهم إلى غيرهم، فيصيبُهُ النّفعُ كما تَضُرُّه الإساءَةُ، ومنه قولهم: أَحْسَنَ إليّ فلانٌ بخيره، وأساء بفعاله، فتجاوز الفعلان القائم بهما إلى غيره.

بلاغةُ التّجريدِ:

دعوةٌ للتّفكّر في النّفس بتصوُّرِها مُنعزِلةً عن ذاتِها

في قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ﴾ تجريدٌ، وهو "أن يُنتَزع من أمر ذي صفة أمرٌ آخَرُ مثلُه في تلك الصِّفةِ مبالغةً في كمالها فيه"[1]، والتّجريد الوارد في الآية أنّ اللّه جعل للمُحْسِن ذاتين، فَجَرّد مِن ذات المُحْسِن الأولى ذاتًا ثانية يُحسن إليها مبالغةً في كمال هذه الذّات، فصار لدينا ذاتان؛ إحداهما مُحسنةٌ وأُخرى مُحَسَنٌ إليها، مبالغةً في أمر هذا الإحسان، وهذا مِن بديع الدَّعوة للتَّفكّر في النَّفس بتصوّرِها مُنعزلةً عن نفسِها، ويُؤيِّد مثلَ هذا الأسلوب قولُه تعالى: ﴿۞يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾ [النّحل: 111].

(1) القزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة: 6/ 54.

معنى الواو ودلالتُها التَّقابليَّة:

بضدِّها تتميّزُ الأشياء

الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ﴾ عاطفةٌ فعلَ الإساءةِ على فعل الإحسان المُتَقَدِّم، وهو مِن عطف الضِّدِّ على ضِدِّه، ومن عطف جملتي الشّرط إحداهما على الأُخرى؛ لمشاركتهما في حُكم إعرابيٍّ واحد، وكونهما خبريّتين، فوجبَ الوصلُ بينهما.

فائدةُ التّعبيرِ بأداة (إن) في قوله: ﴿وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ﴾:

التَّحذيرُ مِنَ الوقوع في الإساءة والإفساد

التّعبير بأداة (إنْ) في قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ﴾ جاء للتَّحذير من مَغَبَّة العودةِ للإفساد والإساءة، فأداةُ (إنْ) تكون في الأمر المَشكوك فيه، المَرجوحِ وقوعُه أو المَظنون، وهي تدخل على ماضٍ لفظًا مستقبلٍ معنًى، فهذه الأداة تلوِّح بإمكانيّة العودة للإساءة، وهذا من بديع تنبيهات القرآن في الأخبار الغَيبيَّة، وهي تصلُح لكلِّ أُمَّةٍ ترجو النَّجاةَ عند اللّه تعالى، فإنَّ الرّكون للنَّفس والثّقةَ بها مَهْلَكَةٌ أيُّ مهلكة.

بلاغةُ التَّوطئةِ باختيارِ مفردة الإساءة:

الطِّباعُ السّويّة تنفر مِن فعل الإساءة والاتِّصاف بها

الإساءة هي الأفعال القبيحة المُسترذَلةُ التي تنفِر منها الطِّباعُ السّويّة، والتّعبير بها في قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ﴾ مبالغةٌ لاجتناب هذه الأفعال المُحَرّمة، وما يشمل ذلك مِن فسادٍ وطغيان وغيرهما، وهي توطئةٌ لفظيَّةٌ لما سيأتي في قوله تعالى: ﴿لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ﴾؛ فإساءتُهم لأنفسهم، كانت سببًا في إساءة غيرِهم لهم.

دلالةُ التّعبيرِ بالماضي:

لا يُعاقب الله تعالى إلَّا بعد تحقُّقِ الإساءة يقينًا

التعبير بالماضي ﴿أَسَأۡتُمۡ﴾ يدلُّ على تحقُّق وقوعِ الفعل وحصولِه، وتنزيلُ ما هو متحقِّقُ الوقوعِ كالواقع، فاختيارُ صيغةِ الماضي هنا لبيان أنَّ اللّه تعالى لا يُعاقب إلّا بعدَ تحقُّقِ الإساءة يقينًا.

بلاغة عدمِ تكرار فعل ﴿أَسَأۡتُمۡ﴾:

تَكرارُ فعلِ الإحسان دونَ فعلِ الإساءة في الآية دالٌّ "على أنّ رحمة

إحسانُ النَّفس عائدٌ عليها، وإساءتها تأتي عقوبةً من غيرِها

اللّهِ تعالى غالِبةٌ على غضبِهِ؛ بدليلِ أنّهُ لّما حكى عنهُمُ الإحسانَ أعادَهُ مرّتينِ فقال: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ﴾، ولمّا حكى عنهُمُ الإساءة اقتصر على ذِكرِها مرّةً واحِدةً فقال: ﴿وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾، ولولا أنّ جانِبَ الرّحمةِ غالِبٌ، وإلّا لما كان كذلك"[1]، وهذه قاعدةٌ عامّة، لكن نُكْتَةُ تكرارِ فعل ﴿أَحۡسَنتُمۡ﴾ دون ﴿أَسَأۡتُمۡ﴾، أنَّ الإحسان آتٍ مِنَ المحسنين أنفسِهم لأنفسهم، وأمّا الإساءة إن وقعت فإنَّ عاقبتَها على أيدي الآخَرين: ﴿لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ﴾، وهذا واضحٌ بيِّن في كلِّ مَن يُعْرِض عن منهج اللّه تعالى؛ فإنَّ عقابَه على أيدي غيره، فالكافِرُ سَوطُ اللّه تعالى يُؤدِّب به عبادَه.

دلالةُ حَذْفِ متعلّقِ فعلِ الإساءة:

الإفساد في الأرض والعُلُوّ فيها إساءةٌ للنّفس

حُذِف متعلِّق فعلِ الإساءة في قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ﴾، والمعنى: إنْ أسأتم بارتكابِ المُحَرّمات والإفساد في الأرض والعُلوِّ فيها فقد أسأتُم لأنفسكم؛ لكونه معلومًا بدلالة الحال والسّياق، والنّفسُ مشغولةٌ بثُبوت الفعلِ للفاعل دون النّظرِ إلى هذا المُتعلّق، مع ما أفاده الحَذْف مِنَ الإيجاز والاختصار.

بلاغةُ المقابلة في الآية:

الأفعال تُقاس بمآلاتها وعواقبها

المطابقة: "هي أن تَجمعَ في كلامٍ واحد بين المتقابلين، سواء كان التّقابلُ صريحًا أو غيرَ صريح"[2]، وفي قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾ وقعَ الطِّباقُ بينَ الإحسان والإساءة، والأوّلُ دالٌّ على فعلٍ مِنَ الأمور الحَسَنة المَحمودة، التي يُثابُ عليها الإنسان ويُجازى بخيرها، والثّاني دالٌّ على فِعلٍ مِنَ الأمور القبيحة المُحَرّمة المَذمومة، التي يُعاقبُ عليها صاحبُها وتكون سببًا في هلاكه وخُسران دُنياه وآخِرته، ومِن هنا أبانتِ الآيةُ عن

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 10/ 160.
(2) الجُرجانيّ، الإشارات والتّنبيهات في علم البلاغة، ص: 235.

طَرفَي معادلةِ الحياة الدُّنيا، مع ذِكْر النّقيضين والجزاءِ عليهما تحبيبًا وتحذيرًا.

معنى الفاء في: ﴿فَلَهَاۚ﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾ رابطةٌ للجواب، وهي لازمة في جواب الشّرط إذا لم يكن فعلًا خبريّا، أيًّا كان ماضيًا أو غيرَه.

بلاغةُ استعمال اللّام في قوله: ﴿فَلَهَاۚ﴾:

كُلٌّ يُعامَل بما يَستَحِقُّه، والمُسيءُ يقع في مستنقعه

اللّام في قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾ للاستحقاق؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ﴾ [البقرة: 10]، قال البقاعيّ في توجيه نُكْتَة اختيارِ اللّام في هذا السّياق: "وذَكَرها باللّام تنبيهًا على أنّها أهلٌ لزيادة النّفرة؛ لأنّ كلَّ أحدٍ يتطيّر مِن نسبتها إليه بأيِّ عبارة كانت، فإذا تَطَيَّر مع العبارة المحبوبة فكيف يكون حالُه مع غيرها؟!"[1]، ويرى السّمين الحلبيُّ أنّها على بابها، وإنّما أتى بها دون حرف على؛ للمقابلة في قوله تعالى: ﴿لِأَنفُسِكُمۡۖ﴾ فأتى بها ازدِواجًا، وهذه اللّامُ يجوز أنْ تتعلّقَ بفعلٍ محذوفٍ على أنّها خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ، تقديرُه: فلها الإساءةُ لا لغيرِها[2].

سِرُّ التّعبيرِ بالإضمار دون الإظهار:

لِكُلِّ إساءةٍ ما يُناسبها مِنَ الجزاء

جاء التّعبيرُ بالضّمير العائد على الأنفُس في قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾ دون أن يقول: (وإن أسأتم فلأنفسكم)؛ وذلك مُتّسِقٌ مع ما تقدَّم مِن حَذْف الأنفسِ دونَ إثباتها، كما في الجملة المقابلة لها، ففيه تلويحٌ بأنَّ هذه الأنفسَ المُسيئةَ لا تستَحِقُّ أن تُذْكَر في مقابل الأنفس المُحسِنة، فأضمَرَها لمّا اختارتِ الإساءةَ، وهذا من عاجل عذابِها المَعنويِّ.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 301.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 7/ 313.

بلاغةُ التَّناسب بعطف الجملة بالفاء:

لِحاظُ التَّقسيم ومراعاةُ الجُمَل، مِن بديع نَظْم القُرآنِ في بيان المعاني

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ﴾ عاطفةٌ تفريعيّة على قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾، والتّقدير: (فإذا أسأتم وجاء وَعْدُ المَرّة الآخرة)، ووجه المناسبة بعطف هذه الجملة على السّابقة: أنَّه "لمّا انتُهِزَت فرصةُ التّرغيب في الطّاعة والتّرهيب مِنَ المعصية، عطفَ الوعيد الثّاني بالفاء، إشارةً إلى أنّه بعد نَصرِ بني إسرائيلَ على أهل المَرّة الأولى، ولعلّها أيضًا مُؤْذِنَةٌ بقُرْب مُدّتها من مُدّة الإدالَة؛ فقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ﴾، أي: أتى إتيانًا هو كالمُلجَأ إليه قَسْرًا، على خِلاف ما يريده الآتي إليه"[(1)]، "وقد حصل بهذا التّفريع إيجازٌ بديعٌ قضاءً لِحقِّ التّقسيم الأوّلِ في قولِه: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا﴾، ولِحَقِّ إفادةِ تَرَتُّبِ مَجيءِ وَعْدِ الآخرةِ على الإساءة، ولو عُطِفَ بالواوِ كما هو مُقتضى ظاهِرِ التّقسيمِ إلى مرّتين، فاتَتْ إفادةُ التّرتُّبِ والتّفرُّع"[(2)].

سِرُّ التّعبير بـ (إذا):

المستقبَلُ الّذي أخبر اللهُ به في حُكم الماضي الّذي رأتْهُ العيون

يَرِدُ التّعبيرُ بـ (إذا) الشّرطيّة، وهي ظّرفيّة زمانيّة، وحَقُّ زمانِها أن يكون مستقبلًا، وتستعمل للماضي مِنَ الزّمان، وهي مستعمَلة في الشّرط المقطوع بوقوعه، الرّاجحِ المُتَحَقّقِ الّذي لا تَردُّدَ فيه ولا شَكّ في وقوعه، ويَكثُر دخولُ (إذا) على الماضي؛ لكونه مُحَقّقَ الوقوع، ومَجيء ﴿وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ لمّا كان مُحَقّقَ الوقوعِ لا محالةَ؛ عُبِّر بـ "إذا" والماضي لهذا.

دلالةُ التّعبير بلفظ المَجيء ماضيًا:

تَحقُّقُ الوعدِ حَتْمِيٌّ فلا مجالَ للشَّكّ

التّعبيرُ بالفعل الماضي للدّلالة على تحقُّق المَجيء وحصوله، وتنزيلِ ما هو مُتَحَقِّقُ الوقوعِ كالواقع، فلمّا كان الأمرُ كذلك بوقوع مَجيء الوعدِ، وعَدمِ الشّكِّ في وقوعه، عُبِّر بالماضي ﴿جَآءَ﴾.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 301.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 35.

دلالةُ المذكور السّابق على المحذوف ديدَنُ النّظم القرآنيّ

بلاغةُ الاستغناءِ في حَذْفِ جوابِ الشّرط:

جواب (إذا) محذوفٌ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ﴾، والتّقدير: (بعثناهم ليسوءوا)، ودلَّ على الجواب جوابُ (إذا) الأوّل في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا﴾؛ فاستُغني بالجواب الأوّل عنِ الثّاني، فحُذِف مِنَ الثّاني ما دَلَّ عليه الأوّل.

وعدُ اللهِ إذا وقع أساء الوجوهَ وما رَفَع

بلاغةُ المَجازِ العقليّ:

الوعد مصدرٌ بمعنى اسم المفعول، بمعنى موعود، فأُطلِق المَصْدر في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ على طريق المجاز العقليّ لعلاقة المَصدريّة، مبالغةً في هذا القضاء الموعود، والمُراد به الزّمانُ المُقدّر لحصول المَرّة الأُخرى مِنَ الإساءة ودخولِ المسجد، وتدميرِ ما تبلغُه أيديهم ممّا يَخُصُّكم.

تقدير الموصوف المَحذوف:

حُذِف الموصوفُ في قوله تعالى: ﴿وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، والمراد به: المَرّةُ الآخِرة، وحُذِفت المَرّة للدّلالة عليها في قوله تعالى: ﴿مَرَّتَيۡنِ﴾، والمُراد بـ ﴿وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ المَرّةُ الآخِرةُ الّتي يقابلها ﴿وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا﴾.

مَرّتانِ مِنَ الإفساد لا ثالثَ لها

نُكْتَةُ التّعبيرِ بالآخِرة دون الثّانية في مقابلة الأُولى:

لمّا كان لفظُ الآخِرِ يقابل الأوّل، صَحّ أن يُطلق على المَرّة الثّانية مِن وَعْد الله تعالى إيّاهم بالآخِرة، إذ لو عُبِّر بالمَرّة الثّانية لَلَزِم أن يكون لها ثالثةٌ ورابعة وهكذا، ولذا ناسبَ التّعبيرُ في قوله تعالى: ﴿وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ الّتي لا تكرارَ فيها ولا معها، فهي إخبارٌ عمّا سيكون ممّا جاء الخبرُ به في القرآن الكريم.

إساءةُ وجوه بني إسرائيل مقدّرةٌ أزلًا

دلالة اللّام في قوله: ﴿لِيَسُـُٔواْ﴾:

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِيَسُـُٔواْ﴾ هي لام التّعليلِ الّتي يصلح أن يستعمل معها أو في موضعها "لأجل"، والمراد: فإذا جاء وعد الآخرة لأجل إساءتكم.

دلالةُ التّعبيرِ بالمساءَة:

المساءَةُ مِنَ السّوء، وهو ارتكاب القبيح والمُحَرّم، وقد أوثِر التَّعبيرُ بذِكرها في قوله تعالى: ﴿لِيَسُٓـُٔواْ﴾، وهي "كلّ ما يَغُمُّ الإنسانَ مِنَ الأُمور الدّنيويّة والأُخرويّة، ومِنَ الأحوال النّفسيّة، والبَدنيّة، والخارجة؛ مِن فوات مالٍ وجاهٍ، وفَقْدِ حميم"[1]، والمراد: أنّهم يُذيقونَهم مِنَ الآلام والهُموم ما يُنَغِّصُ عليهم حياتَهُم، ويُفْسِد عليهم دنياهم مِن جميع الأفعال القَبيحة، الّتي تأباها النُّفوسُ السّويّةُ؛ لكونهم خالفوا ما نهجَهُ اللّهُ تعالى لهم، وما أمرهم به في كتابهم.

الجَزاء مِن جنس العمل، فمَن جاء بالمساءَة سِيءَ به

توجيه القراءات المتواترة:

في قوله تعالى: ﴿لِيَسُٓـُٔواْ﴾ ثلاث قراءات متواترة؛ فقرأ: لِنَسُوٓءَ بالنّون وهمزة مفتوحة بعد الواو الكسائيُّ، وقرأ: لِيَسُوٓءَ بياء الغيبة وهمزة مفتوحة بعد الواو، ابنُ عامر وحمزةُ وخلفٌ وشعبةُ، وقرأ: ﴿لِيَسُٓـُٔواْ﴾ بياء الغيبة وواوين بينهما همزة مضمومة، باقي القُرّاءِ العَشَرة[2]، وكلُّهم أجمعوا على كسر اللّام.

اختلافُ الألفاظِ فيه تكاملُ المعاني وتكاثُرُها

أمّا قراءة: لِنَسُوٓءَ بالنّون وهمزة مفتوحة بعد الواو، فباعتبار أنّ الفعل مسندٌ إلى ضمير المُعَظِّم نفسَه، أي: (لِنَسوءَ نحن وجوهكم).

وأمّا قراءة: لِيَسُوٓءَ بياء الغيبة وهمزة مفتوحة بعد الواو، فهي على الإفراد، والفاعلُ إمّا ضمير عائد على اللّه تعالى، وفيها التفات مِنَ التّكلُّم في ﴿بَعَثۡنَا﴾، و﴿رَدَدۡنَا﴾، و﴿وَأَمۡدَدۡنَٰكُم﴾، و﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ﴾ إلى الغَيبة، وإمّا ضميرٌ عائدٌ على الوعد بمعنى المَوعود، وهو العذاب، أو على البعث الدّالِّ عليه جملةُ الجزاءِ المحذوفة، والتّقدير: (فإذا جاء وَعْدُ الآخِرة بعثنا)، فهذا الفعل هو جوابُ (إذا)، واللّام مُتعلّقة به.

(1) الرّاغب، المفردات: (سوأ).

(2) ابن الجزريّ، النّشر، تح: سويد: 5/ 1777، والدّمياطيّ، إتحاف فضلاء البشر: 2/ 193، 194.

وتوجيه قراءة ﴿لِيَسُـُٔوٓاْ﴾ بياء الغيبة وهمزة بعدها واو ساكنة، على أنّ الفعل أُسنِدَ إلى ضمير جمع الغائب، وهم العِبادُ المبعوثون عليهم، أولو البأسِ الشّديد، وجواب (إذا) محذوفٌ، وتقديره كما سبق آنفًا.

توجيه تخصيص الوجوه المُساءة بالذِّكر:

الـوجـهُ كفيلٌ بإظهار الخَفيَّات وفَضْحِ الخبيئات

خُصَّتِ الوجوهُ بذِكْرِ مساءَتِها دون بقيَّة أعضاء الجسد في قوله تعالى: ﴿لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ﴾، دون أن يُقال: (ليسوءوكم)؛ إذِ الوجهُ هو المَحلُّ الّذي تظهر عليه علاماتُ السُّرور والحُزن والفَرح والتّرح، فأُطلقَ الجُزءُ وأُريد الكلُّ، أو أُطلِق المَحلُّ وأُريدَ الحالُّ فيه على سبيل المَجاز المُرسل، لعلاقة الجزئيَّة أو المَحليّة؛ وسِرُّ ذلك "أنّ آثار الأعراضِ النّفسانيّةِ الحاصِلة في القلبِ إنّما تظهرُ على الوجهِ، فإن حصل الفرحُ في القلبِ ظهرتِ النُّضرةُ والإشراقُ والإسفارُ في الوجهِ، وإن حصل الحُزنُ والخوفُ في القلبِ ظهر الكُلوحُ والغبَرةُ والسَّوادُ في الوجهِ، فلهذا السّببِ عُزيتِ الإساءَةُ إلى الوُجوهِ في هذهِ الآيةِ"[1].

بلاغةُ الكنايةِ بجمع الوجوه:

الإســـاءةُ إذا نزلت لم يَنْجُ مِن سوادِها أحدٌ

ورد التّعبيرُ بالجمع في قوله تعالى: ﴿وُجُوهَكُمۡ﴾، إمّا مُرادًا به الذّواتُ جميعُها، أو السّاداتُ والكُبراءُ منهم، أو أراد جميعَهم، كبيرَهم وصغيرَهم، ورجالَهم ونساءَهم، بحيث لم يتركوا منهم أحدًا إلّا ساؤوا إليه ونَكّلوا به، فأُطلِقَ المجموعُ كلُّه كنايةً عنِ الإحاطة بهم جميعًا، فلم يبقَ أحدٌ إلّا نالتْهُ هذه المساءَةُ والإهانةُ والنّكالُ.

معنى الواو ودلالتُها:

إفـســادُ بني إسرائيل جَمَعَ عليهم ألوانًا مِنَ القَهْرِ

الواو في الفعلين في قوله تعالى: ﴿وَلِيَدۡخُلُواْ﴾ و﴿وَلِيُتَبِّرُواْ﴾ عاطفةٌ لهما على قوله تعالى: ﴿لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ﴾، من باب عطف

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 10/ 161.

الجُمَل على الجُمَل، وقد وُصِل بينها لاتّفاقها في الخبريّة، مع وجود الجِهة الجامعة بينها جميعًا، وهي عطف العِلّة على العِلّة.

تعيين مَرجِع الضّمير في: ﴿لِيَسُـُٔوا۟﴾:

لكلِّ إفسادٍ عبادٌ ملائمون له

الضّمائِرُ في قوله تعالى: ﴿وَلِيَدۡخُلُوا۟﴾ و﴿وَلِيُتَبِّرُوا۟﴾ راجعةٌ إلى محذوف دَلّت عليه لامُ التّعليلِ في قوله تعالى: ﴿لِيَسُـُٔوا۟﴾، إذ هو مُتعلّق بما دَلّ عليه قولُهُ تعالى: ﴿وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادًا لَّنَآ﴾، فالتّقديرُ: (فإذا جاء وَعْدُ الآخِرةِ بعثنا عليكُم عبادًا لنا ليسوءوا وُجوهَكُم)، وليست عائدةً إلى صريح لفظ قولِه تعالى: ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ في قولِه: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾؛ لأنّ الّذين أساؤوا ودخلوا المسجدَ هذهِ المَرّة أُمّةٌ غيرُ الّذين جاسوا خِلال الدّيارِ، بحسبِ شهادةِ التّاريخِ وأقوالِ المُفسِّرين[1].

معنى العطف ودلالتُه في جملة: ﴿وَلِيَدۡخُلُوا۟ ٱلۡمَسۡجِدَ﴾:

اجتمع على المُفسِدين مِن بني إسرائيلَ إهانةُ الذّوات وذَهابُ المُقدّسات

قوله تعالى: ﴿لِيَسُـُٔوا۟ وُجُوهَكُمۡ﴾ كنايةٌ عن إذلال الوجوهِ وقَهرِها، وإلحاقِ المَهانة بها، وهو ما يُذِلُّ النُّفوسَ، ويُلحِقُ بها العارَ بينَ الأُمم، ثمّ عطفَ على هذه الجملة قولَه تعالى: ﴿وَلِيَدۡخُلُوا۟ ٱلۡمَسۡجِدَ﴾، وهذا المسجد الّذي جعله اللّهُ تعالى مَحَلّ الأمنِ والعِزِّ والشَّرف والإكرام، دخلوه وأفسدوه؛ فَلَحِقَ بكم العارُ في نفوسكم وذواتكم وفي مَحَلِّ أمنكم، فاجتمع عليكم عاران، وهذا من قبيل عطف الخاصِّ على العامِّ، لكون إذلالِ النُّفوسِ أعمّ، وإهانةِ مَحَلِّ الكرامةِ أخصّ، أو هو من باب التّرقّي مِنَ الأدنى إلى الأعلى، مبالغةً في الذّمِّ.

نُكْتَةُ حَذْفِ الصّفةِ المُبيِّنَةِ للمسجد:

التَّعريضُ بقريش بالمُحاسَبة والمُراجعة قبلَ أن يَتَبدّلَ أَمنُهم خَوفًا

استُغني عن ذِكْر وَصْف المسجدِ بالأقصى في قوله تعالى: ﴿وَلِيَدۡخُلُوا۟ ٱلۡمَسۡجِدَ﴾؛ لكونه معلومًا وَصْفُه فيما سبق؛ فأغنى ذِكرُه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 37.

هناك عن إعادته هنا، وفيه "تعريضٌ بالتّهديد لقريش، بأنّهم إن لم يرجعوا أبدل أمنَهم في الحَرَم خوفًا وعِزَّهم ذُلًّا، فأدخل عليهم جنودًا لا قِبَلَ لهم بها، وقد فعل ذلك عامَ الفتحِ لكنّه فِعْلُ إكرامٍ لا إهانةٍ؛ ببركة هذا النّبيّ الكريمِ صلّى اللّه عليه وعلى آله وسلّم وشَرّف وكَرّم وبَجّل ومَجّد وعَظّم دائمًا أبدًا"(1).

نُكْتَةُ المَجَاز بذِكْر المسجد:

أفظعُ المهانةِ أن يُسْلَبَ الإنسانُ أشرفَ ما عندَه

المراد بالمسجد هنا بيتُ المَقْدِس، ولمّا كان المكانُ يُسمّى بأشهرِ ما فيه، سُمّي المكانُ كلُّه باسم هذا المَحَلِّ، فهذا مِن قبيل إطلاقِ الجُزء لكونه أشرفَ الأجزاء، وإرادةِ الكلِّ، وهو بيت المَقْدِس ونواحيه، أو الدّيارُ الّتي تُحيط به مِن جميع جوانبه، ولمّا كان المسجدُ هو رَمْزَ القَداسَة والعِزّة النّفسيّة جَعل الدُّخولَ إليه أمارةً للمَذلّة والقَهْر؛ ليكون ألمُ النّفسِ أشَدَّ، وتكون المهانةُ أفظعَ؛ أن يُهان الرّجلُ في أعزِّ شيء عندَه، وهو المكان الّذي شَرّفَهم به.

دلالة كاف التشبيه:

الكاف في قوله تعالى: ﴿كَمَا دَخَلُوهُ﴾ للتّشبيه، والمراد: وليدخلوا المسجدَ دخولًا كائنًا كدخولهم إيّاه أوّلَ مَرّة، والتّشبيهُ مقاربةُ الشّيءِ الشّيءَ، وتشبيهه به لوجود وجهِ شَبهٍ بينَ الدُّخولَين.

سِرُّ التّعبيرِ بالماضي في ﴿دَخَلُوهُ﴾:

عقابُ المُفسدين واقعٌ، ما له من دافع

التّعبيرُ بالماضي للدّلالة على تحقيق الدُّخول وحصوله، وتنزيلًا لما هو مُتَحَقِّقُ الوقوع كالواقع، فصار دخولُهم أمرًا مُتَحَقِّقَ الوقوعِ لا مناصَ عنه، وهذا شأنُ الفعلِ الماضي في دلالته.

سِرُّ التّعبيرِ بالتّتبير: ﴿وَلِيُتَبِّرُواْ﴾:

المعاني في التّعبيرات الثّلاثة واحدةٌ متقاربة، فالتّتبير هو الهَلاك

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 301.

والإبطال، والهَلاك: افتقادُ الشّيء واستحالتُه وفسادُه وبُطلانُه، والتّدمير: إدخالُ الهَلاك على الشّيء، ففي التّتبير هلاكٌ وإفسادٌ وجَعْلُ الشّيء مُفَتَّتًا مُكسّرًا، لا نفعَ يُرجَى منه، ولا فائدةَ تَتَحقّق، وهكذا يجمعُ التّتبير بينَ التّدمير والهَلاك والتّخريب، وفيه مناسبةٌ ظاهرةٌ بذِكْر العُلوّ في قوله تعالى: ﴿وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا﴾، فهو جَمَعَ معنى الهلاك والدّمار، ومناسبةَ تكسير ما استعلوا به وتكبّروا بسببه، ففيه إشارةٌ إلى تفتيت وتكسير أنفِ المُتَكَبّر بأعَزِّ ما عنده.

ملاحظةُ المناسبةِ بين المُفردة وسياقِها مِن أعذب المناسبات

دلالة التّعبيرِ بالمضارع ﴿وَلِيُتَبِّرُواْ﴾:

الفعل المضارع دالٌّ في أصل استعماله على التّجدُّد والاستمرار، مع استحضار الصّورة الماضية، فكأنّ تتبيرهم وتخريبَهم وإهلاكَهم وتدميرَهم وإفسادَهم صار مُشاهَدًا أمامَ أعينِهم، مُتَجَدِّدًا لا ينقطع.

دلالة التّعبير بالأداة ﴿مَا﴾:

استعَمَل النّظم الأداةَ ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا عَلَوۡاْ﴾ وهي اسمٌ موصولٌ لغير العقلاء؛ تغليبًا لغير العاقل؛ وتفخيمًا للأمر وتهويلًا؛ لأنّ ما يفيدُه الموصولُ هنا لا يفيده شيءٌ آخَر، والمعنى: ما علوا مِنَ الأبنية والعُمران، والمُعدّات، وغيرِ ذلك ممّا لا يُمكن وَصْفُه لكثرته وشِدّته.

شمولُ التّتبير لكلّ شيءٍ؛ لكثرته وشِدّته

بلاغةُ الاستعارةِ التّصريحيّة في لفظ العُلُوِّ:

العُلوّ المُراد في قوله تعالى: ﴿مَا عَلَوۡاْ﴾ عُلوٌّ مجازيٌّ؛ إذ شُبّهَ الاستيلاءُ والغَلَبَةُ بالعُلوِّ الّذي هو الارتفاع؛ لأنّ مَن استولى على قوم وغلبَهم كأنّه علاهم بقدرتِه وقوّته، ثمّ اشتُقَّ مِنَ العُلوِّ بمعنى الاستيلاء والغلَبة ﴿عَلَوۡاْ﴾، على سبيل الاستعارة التّصريحيّة التّبعيّة، والقرينةُ عقليَّةٌ لاستحالة أن يعلوهم حقيقةً، وإنّما هو مبالغةٌ في الإذلال والقَهْر.

إدمانُ الإفسادِ جالبٌ للإذلال والقَهْر

نُكْتَةُ التّعبير بالمَصدر مُنَكَّرًا ﴿تَتۡبِيرًا﴾:

اليقين في تحقُّق وَعْدِ اللهِ تعالى وإنفاذِهِ ودَيمُومَتِه

المَصْدَرُ أصلُ المُشتَقّات، واستعمالُه في قوله تعالى: ﴿تَتۡبِيرًا﴾ أبلغُ مِنِ استعمال الفعل؛ للدّلالة على معنى تحقيق الخَبر، والمعنى: ليُدمِّروا ويتبِّروا ويُخرِّبوا ما غَلَبوا عليه تخريبًا شديدًا، كما أفاد التّعبيرُ بالمَصْدر تحقُّقَ الوعدِ وإنفاذَهُ ودَيمومتَهُ؛ لأنّ المصدرَ دالٌّ على الدّوام المُفادِ مِن اسميَّته، وغرضُ تنكيرِه التّعظيمُ؛ لكونه تتبيرًا فظيعًا لا يوصَف، وللتّكثير لكونهم لم يتركوا مَكانًا أو دارًا إلّا دمّروها وخرّبوها، تدميرًا وتتبيرًا تامًّا لا مَزيدَ عليه.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ٨﴾ [الإسراء: 8]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

سَعَةُ رَحْمَةِ اللهِ تَعالى بِتَجاوُزِه عَمَّن تابَ إِلَيْهِ وأناب

لمّا أخبر اللّهُ ﷻ أنّه إذا حلَّ موعِدُ الإفسادِ الثّاني؛ سلَّطَ عليهم أعداءَهُمْ مرَّةً أخرى، فتظهَر عليهم آثارُ الذِّلَّةِ والهوانِ؛ لمّا كان ذلك؛ كان كأنَّهُ قيلَ: أما لهذهِ المَرَّةِ مِنْ كَرَّةٍ كالأولى؟ فجاء الجواب بإطْماعِ اللّهِ تعالى إيّاهُمْ بقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَسَىٰ﴾: العينُ والسّينُ والحرفُ المعتلُّ تدورُ اشتقاقاتُها على قُرْبِ شَيْءٍ وتَهَيُّئِه لِحُصولِ ما يُرادُ بِهِ مَعَ صلابةٍ ما[2]، تقول العَربُ: عَسا الشَّيْءُ يَعْسو، أي: اشْتَدَّ[3].

ومِن هذا: عَسى، وهي كلمةُ ترجٍّ، وإنَّما عُبِّرَ بها عَنِ التَّرجّي والطَّمَعِ في بلوغِ مَرْغوبٍ وتحصيلِهِ؛ لكونِ الرجاءِ والطَّمعِ فيه قويًّا في نَفْسِ الرّاجي[4].

والفِعْلُ عسى إذا أُسنِدَ إلى اللّه تعالى؛ يكون إيجابًا، ولذلك قال أهل العِلْم: عَسى مِنَ اللّهِ واجِبَةٌ، ووجهُ ذلك: أنَّ المؤمنينَ يعلمونَ أنَّ اللّه سُبحانَهُ لا يتْرُكُ أن يَفْعَلَ بِعِبادِهِ ما أَطْمَعَهُم فيهِ مِن الجزاءِ عَلى أَعْمالِهِمْ والعَوَضِ على طاعَتِهِم إيّاهُ[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 378.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عسو/ عسى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عسو/ ي).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عسو/ عسى).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 526.

2) ﴿عُدتُّمۡ﴾: العَيْنُ والواوُ والدّالُ تدلُّ تصريفاتُها على اسْتِمْرارِ شَيْءٍ على وَجْهِ الامْتِدادِ أَوِ التَّكْرارِ والتَّجَدُّد[1]، ومِنْهُ العَوْدَةُ، وهي الرُّجوعُ إلى الشَّيءِ بعد الانصراف عَنْهُ، إمّا انْصِرافًا بالذّاتِ، أو بالقولِ والعَزيمَة[2]، وقولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ﴾، أي: إذا رَجَعْتُم إلى الإِفْسادِ؛ رَجَعْنا إلى عُقوبَتِكُم[3].

3) ﴿حَصِيرًا﴾: الحاءُ والصّادُ والرّاءُ تدلُّ اشتقاقاتُها على الجَمْعِ والحَبْسِ والمَنْعِ، ومِنْهُ الحَصَرُ، وَهوَ العِيُّ، كَأَنَّ الكَلامَ حُبِسَ عَنْ صاحِبِهِ، وَمُنِعَ مِنهُ، والحَصَرُ: ضيقُ الصَّدْر[4]، ويُطْلَقُ الحَصْرُ على التَّضْييقِ، ومِنْهُ قولُ اللّه تعالى: ﴿وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ﴾[5] [التّوبة: 5]، وقولُ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾، أي: مَحْبَسًا[6].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

ارْتِكابُ المَعاصي ومُخالفةُ الأَوامِرِ الشَّرعِيَّةِ سَببانِ للذُّلِّ والهوانِ

يمتنُّ اللّه على بني إسرائيل فيفتحُ لهم بابَ الرّجاء في رحمته ويُحذِّرُهم عاقبةَ مخالفة أمره، فيقولُ: لعلَّ رَبَّكُم - يا بَني إسْرائيلَ - أَنْ يَرْحَمَكُم بَعْدَ انْتِقامِه مِنْكُم بِالقَوْمِ الذينَ يَبْعَثُهُم اللّهُ تَعالى عَلَيْكُمْ؛ لِيَسوءَ مبْعَثُهُ عَلَيْكُم وُجوهَكُم، وَلِيَدْخُلوا المَسْجِدَ، كَما دَخَلوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ، فيستنقِذَكم مِن أَيْديهِم، وينتشِلَكم من الذُّلِّ الذي يُحِلُّه بِكُمْ، فيُعِزَّكم بَعْدَ ذلِكَ، وَإِنْ عُدْتُمْ - يا بَني إِسْرائيلَ - لِمَعْصِيَتي وخِلافِ أَمْري؛ عُدْنا عَلَيْكُم بالقَتْلِ والسِّباءِ، وإِحْلالِ الذُّلِّ والصَّغارِ بِكُمْ، وجَعَلْنا جَهَنَّم لِلكافِرينَ سِجْنًا يُسْجَنونَ فيها[7].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عود).
(2) الراغب، المفردات: (عود).
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرحمن، ص: 454.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حصر).
(5) الرّاغب، المفردات: (حصر).
(6) ابن دريد، جمهرة اللغة: (حصر).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 389، ونخبة من أساتذة التفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 283.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ الآيَةِ عَمّا قَبْلَها:

أَثَرُ الاسْتِئْنافِ البَيانِيِّ في إِبْرازِ مُتابَعَةِ المُتَلَقّي وَشَوْقِه

فُصِلَ قولُ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ﴾ عمّا قَبْلَهُ، وهو قولُهُ: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ٧﴾ [الإسراء: 7]؛ لوقوعِه اسْتِئْنافًا بيانيًّا، فبينَ الجُملتين شِبْهُ كمالِ الاتِّصالِ؛ إذِ الجملَةُ الثّانيَةُ واردَةٌ جوابًا عَنْ سُؤالٍ يُفْهَمُ مِنَ الأولى، فإنَّ اللّهَ تعالى لَمّا بيَّن أنَّه إذا حلَّ حينُ الإفسادِ الثّاني؛ سلَّط عليهم أعداءَهُمْ مرَّةً أخرى، فيُذلّونَهُمْ، ويُهينونَهُم، فأورَثَ هذا في ذِهْنِ السّامعِ سؤالًا، وهوَ: أما لهذهِ المرَّةِ مِنْ كرَّةٍ كالأولى؟ فجاء الجوابُ بإطْماعِ اللّهِ سُبحانَهُ إيّاهُمْ بقَوْلِه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ﴾[1].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِاسْمِ اللهِ (الرَّبِّ):

مِنْ آثارِ اسْمِ اللهِ (الرَّبِّ) إِحْسانُهُ وَرَحْمَتُهُ بِخَلْقِهِ

اختيرَ اسمُ اللّهِ تعالى (الرَّبُّ) في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ﴾؛ لأنَّ اسْمَ اللّه (الرَّبَّ) دالٌّ على إحسانِهِ سُبحانَهُ بِخَلْقِه، فهو أنسَبُ لسياقِ ذِكْرِ شيءٍ مِنْ آثارِ هذا الإحسانِ، وهو رَحْمَتُهُ سُبحانَهُ بِخَلْقِه.

دِلالَةُ الخِطابِ في ﴿رَبُّكُمۡ﴾ و﴿يَرۡحَمَكُمۡۚ﴾:

تَوْجيهُ الخِطابِ أَنْسَبُ لِمَقامِ الوَعْدِ وَالوَعيدِ

جيءَ بأُسْلوب الخِطاب في ﴿رَبُّكُمۡ﴾ و﴿يَرۡحَمَكُمۡۚ﴾ مِنْ قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ﴾؛ لأنَّ تَوْجيهَ الخطابِ أنسَبُ في مقامِ الوَعْدِ وذِكْرِ الجزاءِ الحسنِ؛ لِما فيهِ مِنْ إظهارِ العنايَةِ بالمُخاطَبين، كما أَنَّ الخطابَ مناسِبٌ أيضًا لِمَقامِ الوعيدِ وذِكْرِ العقوبَةِ؛ لِما في التَّهديدِ على وَجْهِ الخطابِ مِن إرهابِ المخاطَبِ وتخويفِه ممّا ليسَ في غَيْرِه.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 378.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَرۡحَمَكُمۡۚ﴾:

تَعْظيمُ وَعْدِ اللهِ تَعالى وَالإِشْعارُ بِتَجَدُّدِ رَحْمَتِهِ وَدَوامِها عَلَيْهِمْ

عُبِّر بالفِعْلِ المضارع ﴿يَرۡحَمَكُمۡۚ﴾ مِنْ قولِ اللّهِ تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ﴾ لأمورٍ:

أوَّلُها: أنَّ ذلكَ جَرْيٌ على الأصلِ في خَبَرِ ﴿عَسَىٰ﴾؛ فإنَّ الغالبَ فيه أن يكونَ فعلًا مضارعًا مقرونًا بـ (أَنْ).

ثانيها: أنَّ المرادَ وَعْدُهُم وترغيبُهُم بأَمْرٍ مستقبليٍّ، ولا يصلُحُ لهذهِ الدّلالَةِ إلّا الفِعْلُ المضارِعُ.

ثالثُها: أنَّ في التَّعبيرِ بالفِعْلِ المضارعِ تعظيمًا لهذا الوَعْدِ؛ بالإشْعارِ بأنَّها رحمَةٌ متجدِّدَةٌ دائمَةٌ عَلَيْهِم.

دِلالَةُ الواوِ في ﴿وَإِنۡ﴾:

طَريقَةُ القُرْآنِ الكَريمِ الجَمْعُ بَيْنَ الوَعْدِ وَالوعيدِ

الواوُ في ﴿وَإِنۡ﴾ مِنْ قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ﴾ يجوزُ أن تكون عاطفةً، والمعطوفُ عليه هو قول اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ﴾ مِنْ بابِ عطفِ الوعيدِ على الوَعْدِ والتَّرهيبِ على التَّرغيب.

ويجوزُ أن تَكونَ الواوُ اعتراضيَّةً، والجُملَةُ بعدَهُ جملةً مُعترضةً لإرادَةِ التَّهديدِ[1]، ويمكنُ أن تكون الواو للحال، ويصير المعنى: عسى ربُّكم أن يرحمَكم، والحالُ أنَّه إن عُدتم للمعصية؛ عدنا عليكم بالعذابَيْن: الدُّنيويِّ والأخرويِّ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بـ (إِنْ):

تَيْئيسُهُمْ مِنَ الوُصولِ إلى المَلِكِ العَظيمِ

في التَّعبيرِ بحَرْفِ الشَّرْط (إن) مِنْ قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ﴾ - وهي دالَّةٌ في أصلِ وضعِها على الشَّكِّ، وعدمِ الجَزْمِ بوقوعِ الشَّرْطِ - إيماءٌ إلى أنَّه لا يَنْبغي لَهُمْ أَنْ يَعودوا[2]، فمع أنَّ العودَ متحقِّقٌ فيهم، إلّا أنَّه عاملَهم معاملةَ من يقعُ فيهم ذلك نادرًا، ففي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 38.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 22.

استعمالها خروجٌ عنِ الظّاهر دون مقتضى الحال، وفيها الإشْعارُ بأنَّهم بعْدَ العذابِ الشَّديدِ المُتقدِّم؛ (يَيْئَسونَ مِنْ أن يتحرَّكوا تَحَرُّكاتٍ يَرَوْن أنَّها قَد توصِلُهُم إلى الملكِ العَظيمِ الّذي يَطْمَعون فيهِ)[1].

دِلالَةُ الإسْنادِ في ﴿عُدۡنَاۚ﴾:

عَظَمَةُ عَذابِ اللهِ تَعالى لِمَنْ يُصِرُّ عَلى مَعْصِيَتِهِ وَمُخالَفَةِ أَمْرِهِ

أُسْنِدَ فعلُ العَوْدِ إلى ضمير العظمةِ (نا) في قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ﴾؛ للإيماءِ إلى عَظَمَةِ العذابِ الذي يُسَلِّطُه اللّهُ تعالى عَلَيْهِم حالَ عَوْدَتِهم لِمَعْصيتِه ومُخالفةِ أَمْرِهِ[2].

دِلالَةُ حَذْفِ مُتَعَلِّقِ العَوْدِ:

تَعْظيمُ العُقوبَةِ وَتَهْويلُها

حُذِفَ متعلِّقُ فِعْلِ العَوْدِ في المَوْضِعَيْنِ مِنْ قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ﴾، والتَّقديرُ: (إنْ عُدْتُم إلى المعصيةِ ومخالفَةِ أمرِ اللّهِ سُبحانَهُ؛ عُدْنا إلى عقوبَتِكُم وإذلالِكُم)[3].

وفي حذفِ المتعلِّقِ مِنَ الأوَّلِ إيماءٌ إلى أنَّه لا ينبغي لَهُمُ العَوْدُ إلى ما كانوا عليه منَ المعاصي، فطويَ مِنَ اللَّفْظِ إشارةً إلى عدَمِ صلاحيَّةِ إبرازِهِ في الواقِعِ، دفعًا لهم إلى التَّوبة من خلال سَترِ معاصيهم، وحُذِفَ المتعلِّقُ مِنَ الثّاني تعظيمًا وتهويلًا.

دِلالَةُ الواوِ في ﴿وَجَعَلۡنَا﴾:

اجْتِماعُ عَذابِ الدُّنْيا وَعَذابِ الآخِرَةِ في أَهْلِ الكُفْرِ

الواوُ في قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾، عاطِفَةٌ هذهِ الجملةَ عَلى جُملة: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ﴾، والقصْدُ مِنْ ذلك إفادَةُ أنَّ ما ذُكِرَ قَبْلُ مِنَ العقابِ إنَّما هوَ عقابٌ في الدُّنيا، وأنَّ وراءَ ذلك عقابًا عظيمًا في الآخِرَةِ[4].

دِلالَةُ فِعْلِ الجَعْلِ: ﴿وَجَعَلۡنَا﴾:

بَيانُ الوَصْفِ الَّذي خُلِقَتْ عَلَيْهِ جَهَنَّمُ ابْتِداءً

مِنْ مَعاني فِعْلِ الجَعْلِ التَّحويلُ والتَّصْييرُ، ولكنَّه في قولِ اللّهِ

(1) الميداني، معارج التفكر: 9/ 562.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 378.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 17.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 39.

سُبحانَهُ: ﴿وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾، بمعنى الخَلْقِ، أي: ابْتَدَأْنا خَلْقَ جَهَنَّمَ على هذا النَّحْوِ؛ إذْ لم تكُنْ جَهَنَّمُ مُنتفيًا عَنْها هذا الوصفُ، ثُمَّ أوجِدَ فيها، فهو كقول القائل: سبحانَ الذي جعل اللَّبَنَ أبيضَ! فاللَّبَنُ لم يكن له لونٌ غيرُ البياض، فحوِّلَ إلى البياض، وإنَّما خلقَه اللّٰه تعالى على هذا الوجه ابتداءً[1].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ الماضي: ﴿وَجَعَلۡنَا﴾:

التَّهْديدُ بِعَذابِ مَوْجودٍ أبْلَغُ وَأَوْقَعُ في النَّفْسِ

عُبِّر بالفعلِ الماضي ﴿وَجَعَلۡنَا﴾ في قولِ اللّٰهِ تَعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ لتحقيقِ هذا الإيجادِ، فإنَّ جَهَنَّمَ موجودَةٌ قد خلقها اللّٰهُ سُبحانَهُ، كما هي عقيدَةُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعَةِ، وهذا أبلغُ في التَّهديدِ والوعيدِ، فإنَّهُ إذا تُوُعِّدَ بعذابٍ موجودٍ؛ كانَ أوقعَ في النَّفْسِ مِنَ التَّوعُّدِ بعَذابٍ سيوجَدُ.

دِلالَةُ الإسْنادِ في: ﴿وَجَعَلۡنَا﴾

تَهْويلُ شَأْنِ جَهَنَّمَ وَتَفْخيمُه

أُسْنِدَ فِعْلُ الجَعْلِ إلى الضَّمير (نا) الدّالِّ عَلى العظَمَةِ في قولِ اللّٰهِ تَعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾، تهويلًا لشأنِ جهنَّمَ وشأنِ وَصْفِها المذكورِ في الآيةِ؛ إذِ الذي صيَّرها بذلكَ الوصْفِ هوَ اللّٰهُ العظيمُ ﷻ، وما يصدُرُ مِنَ العظيمِ عظيمٌ.

مَعْنى حرفِ الجرِّ (اللّام):

مُلازَمَةُ جَهَنَّمَ لِلكافِرينَ مُلازَمَةَ الشَّيْءِ لِمالِكِه

حَرْفُ الجرِّ (اللّام) في ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ مِنْ قَوْلِ اللّٰهِ سُبحانَهُ: ﴿وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ للاختصاصِ وشِبْهِ المِلْك، وفي ذلك إشعارٌ بملازَمَة جهنَّم للكافرينَ ملازمَةَ الشَّيءِ لمالِكِه، ولِمَنْ هوَ مختصٌّ بِهِ، فتكونُ الفائدة حينئذٍ التَّهكُّمَ منهم، وذلك مفيدٌ خلودَهُمْ فيها، وهَذا المَعْنى أكَّدَتْهُ الفاصِلَةُ - ﴿حَصِيرًا﴾ - وقوَّتْهُ؛ إذْ مِنْ معاني (الحَصيرِ): المَحْبَسُ الذي لا خَلاصَ لصاحبِهِ مِنْهُ.

---

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 14/ 8372.

سِرُّ التَّصْريحِ بِوَصْفِ الكُفْرِ في: ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾:

تَعْميمُ التَّهْديدِ بِجَهَنَّمَ لِلكافِرينَ جَميعًا

في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ تصريحٌ بالاسْمِ الظّاهرِ (الكافِرين) بَعْدَ الإضْمارِ عَلى وَجْهِ الخِطاب في قَوْلِه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَاۘ﴾، ففي الآيَة: إظهارٌ في موضعِ الإضمار، ونُكْتَتُه تَعْليقُ الحُكْم به على سَبيلِ الرُّسوخِ، وتعميمُهُ في المُخاطَبين وغيرِهم، والتَّسجيلُ على كُفْرِهِم بالعَوْدِ، وذَمُّهُمْ بذلِكَ[1].

سِرُّ التَّعبيرِ عَنْ كُفْرِهِمْ بِالاسْمِ في: ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾:

الإيماءُ إلى أنَّ كُفْرَهُمْ دائِمٌ مُلازِمٌ لَهُمْ

عُبِّر عَنْ كُفْرِهم بالاسم (الكافِرين) دون الفِعْلِ - بأَنْ يأتي الفِعْلُ صِلَةً لِمَوْصولٍ قَبْلَهُ - فلَمْ يَرد في النَّظْم القُرآنيّ: (وجَعَلْنا جهنَّم للذينَ كَفَروا)؛ لأَنَّ الاسْمَ دالٌّ على الثُّبوتِ، ويدلُّ عَلى اللُّزوم والدَّوام بالقرائِن، كَما في هَذا المَوْضِع؛ فإنَّ وعيدَهُم وتَهْديدَهُم قرينَةٌ على أنَّ كُفْرَهُمْ دائمٌ ملازِمٌ لَهُمْ، لَمْ ينفكّوا عَنْهُ، ولم يَرْعَووا.

نُكْتَةُ اخْتِيارِ جَمْعِ السّلامَةِ: ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾:

تَعْليقُ الحُكْمِ بِالوَصْفِ المُناسِبِ وَالتَّنْبيهُ عَلى عِلَّةِ الحُكْمِ

اختيرَ جَمْعُ السَّلامَةِ ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾؛ لإرادَةِ الوصفيَّة؛ لأَنَّ اسْمَ الفاعلِ يدلُّ على إرادَةِ الحدثِ، وهوَ مشابِهٌ للفِعْلِ في عمله، ولكنَّه يدلُّ على تمكُّن الفعل في صاحبه حتّى بات اسمًا له، فهو أنسَبُ لتعليقِ الحُكْم وإفادَةِ التَّعليلِ، بخلافِ (الكُفّار)، فإنَّها أنسَبُ في مقام الاسميَّة لا الوصفيَّة؛ إذْ إنَّ جَمْعَ التَّكسير يُبْعِدُ اللَّفْظَ عَنْ إرادَةِ الحدَثِ والوصف، ويُقرِّبُها إلى الاسميَّة.

مَعْنى لامِ التَّعريفِ في ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾:

اللّامُ في ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ مِنْ قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 379، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 158، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 22.

استِغْراقُ أَفْرادِ الكُفّارِ الكامِلينَ في الكُفْرِ بِالوعيدِ وَالتَّهْديدِ

﴿لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ تدلُّ على الاستغراقِ، فتكونُ الآيةُ عامَّةً في المخاطَبينَ وغَيْرِهِم من أصنافِ الكُفّارِ، فيكون قوله: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ جاريًا مجرى التَّذْييلِ[1].

ويجوزُ أن تكونَ اللّامُ للكمالِ، أي: جعلنا جهَنَّمَ حصيرًا للكاملينَ في الكُفْرِ؛ إذْ مِنَ الكُفْرِ ما هو كفرٌ أصْغَرُ لا يوجِبُ الخلودَ في جَهَنَّمَ.

ولا تعارُضَ بين الدِّلالتينِ؛ فإنَّه يجوزُ أن تكونَ اللّامُ دالَّةً على الكمالِ وعلى الاسْتِغْراقِ، أي: استغراق أفرادِ الكُفّارِ الكاملين في الكُفْرِ؛ فإنَّهُمْ هُمُ الذين وقعَ عليهم هذا الوعيدُ والتَّهديدُ.

دِلالَةُ صيغَةِ (فَعيلٍ):

جَهَنَّمُ مَكانٌ حابِسٌ لِلكافِرينَ لا يَخْرُجونَ مِنْهُ

لَفْظةُ ﴿حَصِيرًا﴾ مِنْ قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ على وَزْنِ (فَعيل)، وهو إمّا بمعنى اسم الفاعلِ أو بمعنى اسْمِ المفعولِ[2]، أي: إنَّ اللّهَ تعالى جَعَلَ جهنَّم مكانًا حاصِرًا وحابسًا للكُفّارِ، لا يَقدرون على الخروجِ مِنْهُ، أو إنَّ اللّهَ ﷻ جعلها مكانًا يُحْصَرُ فيه الكُفّارُ، وهما معنيانِ متآيلانِ.

وليست ﴿حَصِيرًا﴾ في الآيةِ صيغةَ مبالغَةٍ؛ إذْ لو كانَتْ كذَلِكَ؛ لَلَزِمَتْها التّاءُ لجريانِهِ على لفظٍ مؤنَّثٍ ﴿جَهَنَّمَ﴾، ولكنَّه بِمَعْنى اسْمِ الفاعلِ أَوِ المَفْعولِ، ويَجوزُ أَن يَكون ذلكَ عَلى مَعْنَى النَّسبِ، والتَّقديرُ: (وجعلنا جَهَنَّم للكافرينَ ذاتَ حَصْرٍ)، كما في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ [المزمل: 18] أي: ذاتَ انْفِطارٍ[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العَوْدُ وَالرُّجوعُ:

العَوْدُ أَعَمُّ مِنَ الرُّجوعِ عُمومًا مُطْلَقًا

الفرقُ بينَهما مِن وَجْهَيْنِ:

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 39.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 39.
(3) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 250.

يُطْلَقُ الرُّجوعُ على فِعْلِ الشَّيْءِ مرَّةً ثانيَةً، وعلى مَصيرِهِ إلى حالٍ كانَ عَلَيْها، أمّا العَوْدُ؛ فلَهُ استعمالانِ: أحدُهما: ما تقدَّم في الرُّجوعِ، وهوَ الاستعمالُ الحقيقيُّ لَهُ، والآخَرُ: في ابتداءِ الشَّيءِ مِنْ غيرِ تقدُّمِ فعلِهِ، وهذا الإطلاقُ على سبيلِ المَجازِ، ولذلكَ قال اللهُ تَعالى: ﴿۞قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ﴾ [الأعراف: 88]، فإنَّ المرادَ: تدخُلنَّ في ملَّتِنا؛ فإنَّ شُعَيْبًا عليه السلام لَمْ يكُنْ في ملَّتِهم قَبْلُ حتَّى يطلبوا مِنْهُ الرُّجوعَ إليها[1].

الرَّحْمَةُ وَالعَفْوُ:

الرَّحْمَةُ لِتَحْصِيلِ المَطْلوبِ وَالعَفْوُ لإزالَةِ المَكْروهِ

الفرقُ بينَهما مِن وَجْهَيْنِ: **أوَّلُهما**: أنَّ أصلَ الرَّحْمَةِ: الرِّقَّةُ والعَطْفُ[2]، وأصلَ العَفْوِ: المَحْوُ وَتركُ الشَّيْءِ[3].

ثانيهما: أنَّ الرَّحمةَ فيها تحصيلُ المطلوب[4]، والعَفْوَ فيه زوالُ المكروهِ مِنْ آثارِ الذُّنوبِ أوِ التَّقصيرِ؛ ولذا غلبَ استعمالُ العفوِ في تركِ الواجباتِ.

فالرَّحْمَةُ أبلغُ مِنَ العَفْوِ باعتبارِ أنَّ فيها تحصيلَ المطلوبِ والمرغوبِ، ولا يكونُ ذلك عادةً إلّا بعدَ زوالِ المكروهِ.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 17.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رحم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عفو)، وابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث والأثر: (عفا).
(4) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 3/ 66.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الإسراء: 9]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

فَضلُ القُرآنِ الكَريمِ عَلى كُلِّ كِتابٍ سابِقٍ

لمّا ثبت أنَّ ما أَنْزَلَهُ اللّهُ سُبْحانَه عَلى موسى عليه السلام كتابُ هدايَةٍ ونورٍ، وهو صادِقٌ في وَعْدِهِ ووعيدِه؛ بيَّن اللّهُ تعالى حالَ الكتابِ الذي أَنْزَلَهُ عَلى مُحَمَّد ﷺ؛ وأنَّهُ يزيدُ عليْهِ في كُلِّ مَعْنًى حسنٍ وأمْرٍ شريفٍ، فيما وردَ فيه مِنَ الوُعودِ الصّادقةِ، والأحكامِ العادِلَةِ، والمعاني الفائِقَةِ في النُّظومِ العَذْبَةِ الرّائِقَة، معَ الإعجازِ عَنِ الإتْيانِ بآيَةٍ مِن مِثْلِه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَقْوَمُ﴾: القافُ والواوُ والميمُ تدورُ اشْتِقاقاتُها على أصلين: أحدُهما: جماعةُ النّاسِ، والآخرُ: انتصابٌ أو عَزْمٌ، ومنَ الأخيرِ قولُهم: قام قيامًا؛ إذا انتصبَ، وقولُهم: قام بهذا الأمْرِ قيامَ عَزْمٍ[2]، ويُقال: قامَ الشَّيْءُ، واسْتَقام؛ أي: اعْتَدَل، واسْتَوى[3]، ومِنه القِوامُ وهو العَدْلُ، وقولُ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ أي: للتي هي أَعْدَلُ[4].

2) ﴿وَيُبَشِّرُ﴾: الباءُ والشّينُ والرّاءُ تدُلُّ تصاريفُها على ظُهورِ الشَّيءِ مَعَ حُسْنٍ وجَمالٍ[5].

والفعلُ (يُبشِّرُ): فِعْلٌ مضارعٌ مِنَ البِشارةِ - بكَسْرِ الباءِ - وهي:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 379 - 380.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قوم).
(3) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (قوم).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (قوم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بشر).

كلُّ خبرٍ صِدْقٍ تتغيَّر بَشرةُ الوجهِ بهِ، وَبناءً على هذا؛ فإنَّ البِشارَةَ تُستَعملُ في الخَيْرِ والشَّر، إلّا أنَّها في الخَيْرِ أغلَبُ.

وذهبَ بعضُ أهل العِلْم إلى أنَّ البِشارةَ هيَ الخَبَرُ السّارُّ وحدَهُ، واستعمالُه في غيرهِ من بابِ التَّهَكُّم[1].

3) ﴿أَجۡرٗا﴾: الهَمْزَةُ والجيم والرّاءُ تدورُ تَصاريفُها على معنى: الكِراء على العمَلِ، وجَبْرِ العظْم الكسيرِ، وبين هذين المَعْنَيَيْن نِظامٌ يجمعُهما؛ وذلك أنَّ الأجرةَ بمنزلةِ الشَّيءِ الذي تُجبَرُ بها حالُ العاملِ مقابلَ ما أصابَهُ من كَدٍّ وجُهْدٍ في عمله[2].

والأَجْرُ: ما يعود من ثواب العمل دنيويًّا كان أو أخرويًّا، ولا يُستعمَلُ إلّا في النَّفْعِ دون الضّرِّ[3]، والأجرُ في قول اللّه تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا﴾، هو ثوابُ العمَلِ الأخرَويُّ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

هِدايَةُ القُرآنِ الكَريمِ لِأَقْوَمِ سَبيلٍ وَأَعْدَلِها

يبيّن اللّه تعالى أنّ القرآن هو كتابُ الهداية الأخيرُ إلى البشرية، الذي أنزله اللّه تعالى عَلى نبيِّنا مُحمَّد ﷺ يُرْشِدُ، ويُسَدِّدُ مَن اهْتَدى بِهِ للسَّبيلِ التي هيَ أَعْدَلُ من غَيْرِها، وهو الإسلامُ، ويُبَشِّرُ هذا القرآنُ أَيْضًا – معَ هِدايَتِهِ – أهلَ الإيمانِ بأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللّهِ تَعالى أَجْرًا كبيرًا وثَوابًا عَظيمًا وجَزاء جَزيلًا؛ وذَلِكَ الأَجْرُ شامِلٌ لأجرَيِ الدُّنيا والآخرة[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ الآيَةِ عَمّا قَبْلَها:

أَثَرُ الاسْتِئْنافِ البَيانِيِّ في إِبْرازِ مُتابَعَةِ المُتَلَقّي وَشَوْقِهِ

فُصِلَ قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ عمّا

(1) الشَّريف الجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 45، والمُناويّ، التَّوقيف على مهمّات التَّعاريف، ص: 78.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أجر).
(3) الرّاغب، المفردات: (أجر).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 392 - 393، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 41، ونخبة من أساتذة التفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 283.

قَبْلَها؛ لوقوعِها استئنافًا بيانيًّا، وذلك أنَّ اللّهَ سُبحانَهُ لَمّا ذكرَ ما يدلُّ على أنَّ ما أَنْزَلَهُ عَلى نبيِّهِ موسى ﵇ هوَ كتابُ هدايَةٍ وصِدْقٍ في باب الوعدِ والوعيدِ؛ أَوْرثَ ذلك في نفس المتلقّي سؤالًا؛ وهوَ: ما حالُ الكتابِ الذي أنزلَهُ اللّهُ تَعالى على نبيِّه محمَّدٍ ﷺ؟ فجاءَ الجواب: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[1]، فكان بينَ الجملتينِ شِبْهُ كمالِ الاتِّصالِ.

وذهَبَ ابنُ عاشورٍ إلى أنَّ فصلَ الآيةِ لكونِها استئنافًا ابتدائيًّا، فلا يُقدَّر له سؤالٌ سابقٌ؛ وذلك لأنَّ الكلام عاد إلى المقصد الأهمِّ لهذه السّورةِ، وهو تأييدُ النَّبيِّ ﷺ بالآيات والبيِّناتِ، وأعظَمُ ذلك: القرآنُ الكريمُ[2].

سِرُّ تَأْكِيدِ الجُمْلَةِ في صَدْرِ الآيَةِ:

الاهْتِمامُ بِالخَبَرِ وَدَفْعُ إِنْكارِ المُنْكِرِينَ

أُكِّد قولُ اللّه تَعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ بـ ﴿إِنَّ﴾، والجملةِ الاسميَّةِ، وتَكرارِ ذكرِ المسنَد إليه، تارةً على أنَّه اسمُ ﴿إِنَّ﴾، وتارةً بإضماره فاعلًا للفعل ﴿يَهْدِى﴾، وذلك مراعاةً لحال بعضِ المخاطَبينَ، وهُمُ الذين لَم يَنقادوا إلى القرآن الكريم، وأمّا باعتبار أهلِ الإيمانِ؛ فإنَّ التَّوكيدَ في جانبِهم لأجل الاهتمام بمضمون الخبَرِ لا لسبْقِ شكٍّ أو إنكارٍ؛ فإنَّ المؤمنَ لا يصدُرُ منْهُ ذلكَ، وعلى هذا فإنَّ التَّوكيدَ مستعمَلٌ في مَعْنيَيْنِ؛ وهما: دفعُ الإنكارِ، والاهتمام بالخبَرِ، ولا تنافيَ بين الاعتبارَيْنِ[3].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِاسْمِ الإِشارَةِ ﴿هَٰذَا﴾:

قُرْبُ القُرآنِ الكَرِيمِ مِنْ أَهْلِ الإِيمانِ

في التَّعبير باسْم الإشارَةِ ﴿هَٰذَا﴾ مِنْ قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ إشارةٌ إلى عظَمَةِ ما جاءَ به النَّبيُّ ﷺ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 379 - 380.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 39.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 40.

مِنْ عندِ ربِّه، والإشارةُ متوجِّهَةٌ إلى حاضرٍ في أذهانِ النّاسِ مِنَ المقدارِ المنزَّلِ مِنَ القرآنِ قَبْلَ هذه الآيةِ الكريمَةِ(1).

وجاءَتِ الإشارةُ ههنا بالقريبِ دونَ البعيدِ؛ للإيماءِ إلى قُرْبِ القرآنِ من أهل الإيمان، وقُرْبِه إلى أذهان الذين يجادلون في آيات اللّٰه سبحانَهُ؛ وذلك لأنَّهم وإنْ كانوا يُدافعونَهُ عَنْ أنفُسِهم، إلّا أنَّه "يَسْري في أوساطِهِم سَريانَ النّورِ المُبْصِر في وسَطِ الضَّلال المُظْلِم، فهو قريبٌ مِن أذهانهم، وإن لم يُؤَثِّر في قُلوبِهم لِغَلَبةِ الهَوى والجاهِليَّة"(2).

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَهْدِى﴾:

دَوامُ هِدايَةِ القُرآنِ الكَريمِ وَتَجَدُّدُها

جاءَ التَّعبيرُ بفِعْلِ الهدايَةِ مضارعًا ﴿يَهْدِى﴾ في قول اللّٰهِ سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾، للإشعارِ بدوام هدايَةِ القرآنِ الكريمِ وتجدُّدِها، فإنَّ هدايَةَ القرآنِ الخَلْقَ ممتدَّةٌ في الأزمِنَةِ المتطاوِلَة، وسَيَبْقى هاديًا لَهُمْ.

دِلالَةُ حَذْفِ مُتَعَلِّقِ الهِدايَةِ فِي ﴿يَهْدِى﴾:

عَظَمَةُ هِدايَةِ القُرآنِ الكَريمِ وَعُمومُها

حُذِفَ متعلِّق فعلِ الهداية ﴿يَهْدِى﴾ مِنْ قولِ اللّٰه سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾، وذلك لإرادةِ العُموم؛ إذْ إنَّ حذْفَ المتعلِّق مُؤْذِنٌ بذلك، والتَّقديرُ: (إنَّ هذا القُرآن يهدي النّاسَ كافَّةً لا طائفةً مخصوصةً منْهُم)(3)، ولازِمُ ذلكَ إثباتُ عظَمَةِ هذه الهدايَةِ بحيث اسْتَوْعَبَتِ النّاسَ كُلَّهُمْ.

دِلالَةُ حَرفِ الجرِّ (اللّام) في ﴿لِلَّتِى﴾:

هِدايَةُ القُرآنِ الكَريمِ عامَّةٌ؛ تَشْمَلُ مَنْ حادَ عَنْهُ، إلَّا أنَّ المَدْعُوَّ قَدْ يَقومُ بِهِ مانِعٌ مِنْ سُلوكِ هَذِهِ الهِدايَةِ

قيل: إنَّ حرفَ الجرِّ (اللّام) مِنْ قولِ اللّٰهِ ﷻ: ﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ دالٌّ على الغايَةِ، فهو بمَعْنى (إلى)(4)، وتعديةُ فِعْلِ الهداية باللّامِ مُشْعِرٌ بتضمينِه مَعْنى الفِعْلِ (يَدْعو)، فالقرآنُ يُرشِدُ،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 22، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 40.
(2) محمد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4341.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 22.
(4) الواحدي، التفسير البسيط: 13/ 269.

ويَدْعو، وذلك لِأنَّ هدايتَهُ لمَّا كانَتْ ظاهرةً بيِّنَةً؛ فإنَّها لا تَقْتَصِرُ عَلى مَنِ اتَّبَعَهُ، بل إنَّ القرآنَ الكريمَ يدعو مَنْ حادَ عَنْهُ إلى الهُدى، وإلى التي هي أقومُ، إلّا أنَّ المَدْعوَّ قد يُمْنَع من سُلوك هذِهِ السَّبيلِ لِعِنادٍ أو كبرٍ أَوْ جُحودٍ أَوْ نحوِ ذلك، والحقُّ أنَّ فعل الهداية يتعدّى تارةً بنفسه في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة: 6]، وتارةً يتعدّى باللّام، وتارة بـ(إلى) كقوله: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ٢٣﴾ [الصافات: 23]، وعندما يتعدّى باللّام دون (إلى)، فإنَّه يُشعر بسهولة تغلغلِ الهداية ووصولِها إلى قلوبهم.

بَلاغَةُ حَذْفِ المَوْصوفِ في ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾:

في الإبْهامِ مِنَ الفَخامَةِ ما لا تَكونُ عِنْدَ التَّصْريحِ وَالبَيانِ

حُذِفَ الموصوفُ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾، فلم يقل: إلى الطَّريق أوِ المِلّة التي هي أقومُ، وذلك لِنِكاتٍ:

إِحْداها: أنَّ صاحبَ الذَّوق السَّليم يجدُ لحذْفِهِ ههنا روعةً وهِزَّةً؛ لِما في ذلك مِنَ الفخامَةِ بإبهامِهِ ممّا لا يجدُها عِنْدَ ذِكْرِهِ والتَّصريحِ بهِ[1].

ثانيها: أنَّ في حذْفِهِ اختصارًا واقتصادًا في اللَّفْظِ[2]، لِما يُحقِّقُهُ الحَذْفُ مِنَ الجمالِ والفخامَةِ في المَعْنى.

ثالِثُها: أنَّ في حذْفِهِ إفادَةً للعموم؛ وذلك لِبقاءِ اللَّفظِ صالِحًا؛ لِأَنْ يَكونَ اللَّفْظُ المقدَّرُ: يهدي لِلطَّريق التي هي أَقْوَمُ أو لِلْمِلَّة التي هي أَقْوَمُ، أو للطَّرائقِ أوِ الأحوالِ أوِ السُّنَنِ، أو نحوِ ذلكَ، ولَوْ نُصَّ على الموصوفِ؛ لَكانَ خاصًّا بالمذكورِ[3]، فلمّا حُذِفَ كان شاملًا ذلكَ كُلَّهُ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بـ(أَفْعَل) التَّفْضيل:

فضلُ القُرْآنِ الكَريمِ في هِدايَتِهِ عَلى كُلِّ هِدايَةٍ يَسْتَحْسِنُها البَشَرُ

عُبِّرَ بأفعلِ التَّفضيلِ ﴿أَقْوَمُ﴾ مِنْ قولِ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 380، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 22، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 40.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 40.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 59.

﴿يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾، لبيانِ فَوَقانِ القرآنِ الكريمِ في هدايتِهِ على كلِّ هدايةٍ يَسْتَحْسِنُها البَشَرُ، فالصّيغةُ على بابها في المفاضلة.

وذهبَ أبو حيّانَ إلى أنَّ صيغَةَ ﴿أَقۡوَمُ﴾ في الآية لا يُرادَ بها التَّفضيلُ، وذلك لعَدَمِ المشاركَةِ بين الطَّريقة التي يُرشِدُ إليها القرآن الكريمُ وبين طريقةِ غَيْرِه، وَإِنَّما المرادُ إثباتُ الاستقامَةِ لما يَهْدي القرآن الكريم إليه[1].

وكلامُ أبي حيّانَ فيه نَظَرٌ؛ لأنَّنا لَوْ قَصَرْنا الهِدايةَ في الآيةِ على أمورِ الدّيانَة؛ فإنَّ الكُتُبَ السّابقةَ - قبل دخول التَّحريف - فيها هدايَةٌ ولا شكَّ، وإذا حُمِلَتِ الهدايَةُ على عُمومِ الأحوالِ؛ فإنَّ التَّفضيلَ في غايَةِ الظُّهورِ؛ إذْ لا يُنْفى الإرشادُ والدِّلالَةُ عَنْ غيرِ القرآنِ الكريم نفيًا عامًّا.

دِلالَةُ حَذْفِ المُفَضَّلِ عَلَيْهِ:

ما يَهْدي إِلَيْهِ القُرْآنُ الكَريمُ هُوَ الغايَةُ في القَوامِ

حُذِفَ المفضَّلُ عليهِ في قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ لإفادَةِ العموم؛ إذْ إنَّ حذْفَ المتعلِّق مُشْعِرٌ بذلكَ، فكان التَّقديرُ: (إنَّ هذا القرآنَ يهدي للتي هيَ أَقْوَمُ مِنْ كُلِّ طريقةٍ وسُنَّةٍ وحالٍ دعا إليها كتابٌ مِنَ الكتبِ السَّماويَّة)[2].

فَفي الحذْفِ إيجازٌ؛ لظهورِ المَعْنى، وأنَّ المقصودَ: للتي هي أقومُ مِنْ كُلِّ ما غايَرَها، فما يَهْدي إليه القرآنُ الكريمُ هو النِّهاية في القوام[3].

دِلالَةُ الواوِ في ﴿وَيُبَشِّرُ﴾:

المُبالَغَةُ في بَيانِ عَظَمَةِ القُرْآنِ الكَريمِ

الواوُ في ﴿وَيُبَشِّرُ﴾ مِنْ قول اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عاطِفَةٌ جملةَ البشارَةِ على جملةِ الهدايَةِ ﴿يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾، زيادَةً في تعظيم القرآنِ الكريمِ ببيانِ أثَرِهِ المتعدّي إلى مُتَّبِعِه والقائمِ بحدودِه.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 18.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 381.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 441.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالبِشارَةِ في: ﴿وَيُبَشِّرُ﴾:

ذُكِرَتِ البشارةُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لأنَّهُ لمّا كانَ أهلُ الإيمانِ في أذًى لَحِقَهُمْ مِنَ المُشْرِكينَ بسببِ اتِّباعِهِم القرآنَ الكريمَ؛ ناسَبَ ذلك أن يُعجِّلَ اللّهُ سُبحانَهُ لهم البُشْرى في الدُّنيا بعقابِ الكفّارِ؛ تسليةً لَهُمْ وتَطْميناً[1].

تَسْلِيَةُ أَهْلِ الإيمانِ وَتَطْمينُهُمْ

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿وَيُبَشِّرُ﴾:

عُبِّرَ عَنِ البِشارَةِ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿وَيُبَشِّرُ﴾، مِنْ قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، للدَّلالة عَلى استمرارِ هذه البشاراتِ وتجدُّدِها، وأنَّها بشاراتٌ تَتْلوها أُخْرى.

اسْتِمْرارُ بِشاراتِ القُرْآنِ الكَريمِ وَتَجَدُّدُها

أَثَرُ تَعَدُّدِ القِراءاتِ في: ﴿وَيُبَشِّرُ﴾:

فِعْلُ ﴿وَيُبَشِّرُ﴾ مِنْ قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قُرِئَ بوجهينِ؛ أَحَدُهما: ﴿وَيَبْشُرُ﴾، وهيَ قراءة حمزةَ والكِسائيِّ، والآخر: ﴿وَيُبَشِّرُ﴾ وهي قِراءَةُ باقي العشرة[2].

التَّكامُلُ الدِّلاليُّ لِلْقِراءاتِ القُرْآنِيَّةِ

والمخفَّفُ ﴿وَيَبْشُرُ﴾ من قولهم: بَشَرْتُ الرَّجُلَ أَبْشُرُه، أي: غبطتُه بأمْرٍ سَرَّه[3]، والمُشَدَّد ﴿وَيُبَشِّرُ﴾ معناه: الإخبارُ بما تتغيَّر البشرةُ به سُرورًا، وعلى هذا فإنَّ المخفَّفَ أبلغُ؛ إذْ هوَ دالٌّ على حصولِ السُّرورِ قَطْعًا، وأنَّ هذا السُّرورَ لعظَمَتِهِ؛ غُبِطَ صاحبُهُ عليه.

وذهب كثيرٌ مِنْ أهل العلم إلى أنَّ الفعلين بمعنى واحد، وأنَّ المُخَفَّفَ لغةُ تِهامة، والمُشَدَّدَ لغةُ أهلِ الحِجاز[4]، ويَجوزُ أن يَكونَ التَّخفيفُ دالًّا على أَصْلِ البِشارَةِ، والتَّشديدُ دالًّا عَلى تَكْرارِها وكَثْرَتِها.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِوَصْفِ الإيمانِ في: ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

عُلِّقَتِ البِشارَةُ على وَصْفِ الإيمانِ دونَ وصفِ الإِسْلامِ، فقال

التَّرْغيبُ في الارْتِقاءِ إلى دَرَجَةِ الإيمانِ الكامِلِ

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 12.
(2) البنّا الدّمياطي، إتحاف فضلاء البشر، ص: 355.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 81.
(4) محيسن، المغني في توجيه القراءات العشر: 1/ 330 - 332.

اللّٰه سُبحانَهُ: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ تعليقًا لَها عَلى الوَصْفِ الأَكْمَلِ؛ إِذْ درجَةُ الإيمانِ أَعْلى مِن دَرَجَةِ الإسْلام، كَما يَدُلُّ عليه قَوْلُ اللّٰه تَعالى: ﴿۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الحجرات: 14]، والنُّكْتَةُ في ذِكْرِ وَصْفِ الإيمانِ التَّرغيبُ في الارْتِقاءِ إِلى هذِهِ الدَّرجة العَظيمَةِ لِتَحْصيل الجَزاءِ المُرَتَّبِ عَلَيْها.

دلالة التَّعريفِ في ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

عَظَمَةُ البِشارَةِ تابِعَةٌ لِقُوَّةِ رُسوخِ الإيمانِ في نُفوسِ أَهْلِهِ

اللّامُ في ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ مِن قَوْلِ اللّٰهِ تَعالى: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ لِلكَمال، أَي: الذينَ كَمُلَ إيمانُهُم، فمَعْنى ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، أَي: يُبَشِّرُ الرّاسِخين في وَصْفِ الإيمانِ[1].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بـ ﴿ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ﴾:

العَمَلُ الصّالِحُ مِنْ حَقيقَةِ الإيمانِ شَرْعًا

عُقِّبَ ذِكْرُ أهلِ الإيمانِ - ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ - بذِكْرِ صفتِهم بالمَوْصولِ وصلَتِهِ، الدّالّيْنِ على التَّعظيم، فقال سُبحانَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لِجَرَيانِ الوصفِ مَجْرى التَّعليلِ، أي: إِنَّهم اسْتَحَقّوا وَصْفَ الإيمانِ، فَقيلَ عَنْهُم: (مؤمنون)؛ لأَنَّهم عَمِلوا الصّالِحاتِ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالفعل المضارع ﴿يَعۡمَلُونَ﴾:

دَوامُ أَهْلِ الإيمانِ عَلى العَمَلِ الصّالِحِ

عُبِّرَ عَن فِعْلِ العمَلِ بِصيغَةِ المُضارِع، فقال سُبحانَهُ: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لإفادَةِ التَّجدُّد والاسْتِمْرارِ[2]، وأَنَّ عَمَلَهُمُ الصّالِحاتِ صارَ - لِدَوامِهِم عَلَيْها - بِمَنْزِلَةِ الطَّبيعَةِ والسَّجيَّةِ لَهُم.

دِلالَةُ حَذْفِ المَوْصوفِ في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

طَيُّ الكَلامِ الذي دَلَّتْ عَلَيْهِ القَرائِنُ اقْتِصادًا في اللَّفْظِ

في قولِ اللّٰهِ تَعالى: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إيجازٌ بالحذْفِ، فقد حُذِفَ الموصوف، وأُبْقيت الصِّفةُ، والتَّقديرُ:

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 381.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 381.

الذين يَعْمَلونَ الأعمالَ الصّالِحاتِ، وحُذِفَ اقتصادًا في اللَّفْظِ لظهورِ المحذوفِ وتعيُّنِه بقرينَةِ الفعلِ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ قَبْلَهُ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالجَمْعِ في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

تَـنَـوُّعُ صُنـوفِ الأَعْـمـالِ الصّالِحَةِ وَكَثْرَةُ أَفْرادِها

جُمِعَتِ الصّالحاتُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ للإيماءِ إلى تنوُّعِها وكثرةِ أفرادِها، فهذه الأعمالُ، وإنْ جمعَها وصفُ الصّلاحِ إلّا أنَّها مُفْترِقَةٌ متنوِّعَةٌ، فهي شامِلَةٌ للصّلاحِ في معاملَةِ اللّهِ تعالى مِنْ أنواعِ العباداتِ والطّاعاتِ، ومعاملَةِ خَلْقِهِ من صُنوفِ الإحسانِ وضُروبِ مكارِمِ الأخلاقِ[1].

دِلالَةُ اقْتِرانِ الإيمانِ بِالعَمَلِ الصّالِحِ:

الإيمانُ شَرْعًا قَوْلٌ وَعَمَلٌ وَاعْتِقادٌ

في اقْتِرانِ الإيمانِ بالعَمَلِ الصّالحِ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إشعارٌ بأنَّ حقيقَةَ الإيمانِ شرعًا ليسَ مجرَّدَ اعتقاداتٍ لا تُثْمِرُ عملًا، وإنَّما الإيمانُ في الشَّرْعِ قولٌ وعملٌ واعتقادٌ، فالعمَلُ رُكْنٌ مِنْ أركانِ الإيمانِ لا يُتصوَّرُ وجودُ إيمانٍ دونَهُ.

دِلالَةُ تَقْديمِ الجارِّ وَالمَجْرورِ ﴿لَهُمۡ﴾:

أَهْلُ الإيمانِ وَالعَمَلِ الصّالِحِ مُخْتَصّونَ بِعَظيمِ الأَجْرِ وَجَزيلِهِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾ على ﴿أَجۡرٗا﴾ مِنْ قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا﴾؛ لإفادَةِ القَصْرِ، أَيْ: إنَّ المَوْصوفينَ بالإيمانِ والعَمَلِ الصّالحِ مُخْتَصّون بالأجْرِ الكَبيرِ، وهوَ هُنا الجزاءُ في الدُّنْيا والآخِرَة، أو إنَّ المرادَ به الجنَّةُ، وعَلى كلا الوَجْهَيْنِ فَإِنَّ القَصْرَ حقيقيٌّ؛ إذِ الجَمْعُ بينَ الأَجْرَيْنِ الدُّنْيَويّ والأُخْرَويِّ، أو تَحْصيلُ الأجْرِ الأُخْرَويِّ بِدُخول الجنَّة مُخْتَصٌّ بأَهْلِ الإيمانِ لا يَشركُهُمْ فيهِ غَيْرُهُم.

وفي هذا حثٌّ عَلى التِزامِ هَذَيْنِ الوَصْفَيْنِ الجَليلَيْنِ لِتَحْصيلِ هذا الجَزاءِ الجَليلِ.

(1) محمَّد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4342.

نُكْتَةُ تَنْكيرِ لَفْظِ الأَجْرِ:

بَيانُ عَظَمَةِ الأَجْرِ وَبيانُ كَثْرَةِ أَفْرادِهِ

نُكِّر لفظُ الأَجْرِ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا﴾؛ تَعْظيمًا لقَدْرِهِ وتكثيرًا لأفرادِه، ولتذهبَ النَّفْسُ في تقديرِهِ مذاهبَ مختلفَةً شتّى، وذلك أَبْلَغُ أثرًا وأَعْمَقُ(1).

سِرُّ وَصْفِ الأَجْرِ بِالكِبَرِ:

الطَّريقُ الأَقْوَمُ يُثْمِرُ الرِّبْحَ الأَكْبَرَ وَالنَّفْعَ الأَعْظَمَ

وُصِفَ الأَجْرُ بالكِبَرِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا﴾؛ وذلكَ لأنَّهُ وُصِفَ القرآنُ الكريمُ بكونِهِ هاديًا للتي هي أقومُ وأعْدَلُ، فناسبَ ذلك أن يَظْهَرَ لِهذا الأَقْوَمِ والأَعْدَلِ أَثَرٌ؛ وذَلِكَ هو الأَجْرُ الكَبيرُ؛ إذِ الطَّريقُ الأَقْوَمُ لا بُدَّ وأن تُثْمِرَ الرِّبْحَ الأَكْبَرَ والنَّفْعَ الأَعْظَمَ(2).

تَوْجيهُ المُتَشابِهِ اللَّفْظِيِّ:

دِقَّةُ البَيانِ القُرْآنِيِّ في انْتِقاءِ الأَلْفاظِ المُلائِمَةِ لِسِياقاتِها

قال اللّه سُبحانه: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا﴾، وقال تَعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ٢﴾ [الكهف: 2]، وسرُّ المغايَرة بينَهما أنَّ آية الإسراء تقدَّمها قولُ اللّه ﷻ: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: 7]، فلما كان معنى ﴿حَصِيرًا﴾ في الآية: المحبسَ والسِّجْنَ؛ ناسبَهُ أن يكون الأجرُ كبيرًا مراعاةً لذلكَ، وليتناسبَ لفظُ ﴿كَبِيرٗا﴾ مع فاصلة ﴿حَصِيرًا﴾، بخلاف سورة الكهفِ؛ فقد صُدِّرت بقوله تعالى: ﴿قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ﴾ [الكهف: 2]، فلما نُصَّ على أنَّ البأسَ كان شديدًا قد بلغَ الغايةَ في الإساءَةِ؛ كان المناسبُ أن يكون الأجرُ ﴿حَسَنٗا ٢﴾ [الكهف: 2]؛ ليقَعَ التَّقابُلُ على الوجْهِ الأكمَلِ.

---

(1) محمَّد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4342.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 304.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القُرْآنُ وَالكِتابُ:

أَوْصافُ القُرآنِ الكَريمِ تَتَنَوَّعُ بِحَسَبِ الاعْتِباراتِ

القرآنُ والكِتابُ اسْمانِ مِن أسماءِ كلامِ اللهِ تَعالى المُنَزَّلِ عَلى مُحَمَّدٍ ﷺ، إلّا أنَّ الاختلافَ بَيْنَهُما بالاعْتبارات، فالقُرآنُ وَصْفٌ لَهُ باعْتِبارِهِ مَقْروءًا، والكتابُ وَصْفٌ لَهُ باعتبارِهِ مَجْموعًا مكتوبًا.

وقَدِ اخْتيرَ في كلِّ سياقٍ قُرْآنيٍّ ما يناسبُهُ، ففي قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾، اختير لفظُ ﴿ٱلۡقُرۡءَانَ﴾؛ لأنَّهُ قَدْ رُتِّبَتْ عليهِ الهدايَةُ، وهدايةُ القرآنِ الكريم مُتَوَقِّفَةٌ على قراءته لِفَهْمِ معانيه، ومن ثَمَّ الاهتداء بهدايته، وليس ذلك مُتَوَقِّفًا عَلى كونه مَكْتوبًا.

الأَجْر وَالثَّواب وَالجَزاء:

الأَجْرُ وَالجَزاءُ يُسْتَعْمَلانِ في المَنافِعِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالأُخْرَوِيَّةِ، بِخِلافِ الثَّوابِ فَإِنَّهُ خاصٌّ بِالأُخْرَوِيَّةِ

تدلُّ مادَّةُ الأجرِ - الهمزةُ والجيم والرّاء - على مَعْنَيَيْنِ: الكِراء على العمل، وجَبْرُ العَظْم الكَسير، ويُجْمَعُ بينَهُما بأنَّ أجرة العامل بمنزلة الشَّيءِ الذي تُجبَرُ بها حالُهُ فيما أصابَهُ من كَدٍّ في عملِهِ[1].

وأمّا الثَّوابُ؛ فدالٌّ على العَود والرُّجوعِ، والمرادُ به: ما يعودُ على الإنْسان من جَزاء عمله[2].

وأمّا الجزاءُ؛ فأصله: الغَناءُ والكفايةُ، ويُرادُ به: الكفايةُ مِنَ المُقابلة إن خيرًا؛ فخيرٌ، وإن شرًّا؛ فشرٌّ[3].

والفَرْقُ بينَها[4]: أنَّ الثَّوابَ يُستعمل في الجزاء بالخَيْرِ غالبًا، واستعمالُهُ في الشرِّ أقلُّ، وأمّا الجزاءُ فهو المقابلةُ على الخَيْرِ بالثَّواب وعلى الشَّرِّ بالعقاب، وأمّا الأجرُ؛ فلا يُستعمل إلّا في النَّفع دون الضّرِّ، ويتضمَّن معنَى المعاوَضة.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أجر).
(2) القاضي عياض، مشارق الأنوار: (ثوب).
(3) الرّاغب، المفردات: (جزا).
(4) محمّد محمَّد داود، معجم الفروق الدّلالية في القرآن الكريم، ص: 46 - 48، ومحمّد ياس الدُّوري، دقائق الفروق اللُّغويَّة في البيان القرآنيِّ، ص: 164 - 166.

فالأجرُ أخصُّ مِنَ الثَّواب والجزاءِ، من جهةِ اختصاصه بالخير، بخلاف الثَّواب والجزاء فَهُما أعمٌّ؛ لجريانِهما في الخير والشَّرِّ.

والثَّواب أخصُّ مِنَ الأجر والجزاء مِن جهة أنَّهُ لا يُستعمل في المنافع المادّيَّة أوِ الدُّنيويَّة، بخلاف الأَجْرِ والجزاء؛ فإنَّهما يَقَعانِ على المنافع الدُّنيَويَّة والمنافع الأُخْرَويَّة.

﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٠﴾

[الإسراء: 10]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

طَريقَةُ القُرْآنِ الكَريمِ الجَمْعُ بَيْنَ البِشارَةِ وَالنِّذارَةِ

لمّا بشَّر اللّهُ سُبحانَهُ أهْلَ الإيمانِ بما لَهُمْ مِنَ الجزاءِ الحسنِ، فقال سُبحانَهُ: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا﴾؛ أَتْبَعَهُ بذِكْرِ ما لِمُقابِلِهِمْ مِنْ أَهْلِ الكُفْرِ من الجزاءِ القبيح، فقال ﷻ: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَعۡتَدۡنَا﴾: العَيْنُ والدّالُ تدور اشتقاقاتُها على مَعْنَيَيْن كُلّيَّيْن؛ أحدُهما: الإحصاءُ - وهو العَدُّ - والآخرُ: تهيئةُ الشَّيءِ، وهو الإعدادُ[2].

ومِنَ الثّاني قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾؛ فإنَّ معناهُ: هيَّأنا وأَعْدَدْنا، وأصلُ ﴿أَعۡتَدۡنَا﴾: أَعْدَدْنا؛ فأُبْدِلتِ الدّالُ الأولى تاءً[3].

ويجوزُ أن يكونَ الفِعْلُ ﴿أَعۡتَدۡنَا﴾ من مادَّةِ العَيْنِ والتّاءِ والدّالِ؛ وهوَ دالٌّ على مَعْنى الحُضورِ والقربِ، يُقال: عَتُدَ الشَّيْءُ؛ إذ كانَ حاضرًا، وتقولُ العَربُ: أَعْتَدْنا الشَّيءَ، أي: هَيَّأْناهُ لِأَمْرٍ[4].

2) ﴿أَلِيمٗا﴾: الهمزَةُ واللّامُ والميمُ تدورُ اشْتِقاقاتُها على مَعْنى الوَجَعِ، ومِنْهُ الألَمُ، وهوَ الوجَعُ[5]، وخصَّهُ الرّاغِبُ بالشَّديدِ مِنَ الوجَعِ[6]، والأليمُ هوَ المُؤْلِمُ الموجِعُ[7]، وقولُ اللّهِ تَعالى: ﴿أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 381 - 382.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عد).
(3) النَّسفي، مدارك التَّنزيل: 2/ 248.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عتد).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ألم).
(6) الرّاغب، المفردات: (ألم).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ألم).

﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾، معناهُ: هيَّأنا لهُمْ عذابًا موجِعًا شديدَ الإيلامِ؛ وهوَ عذابُ جَهَنَّمَ[1].

المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

تَهْديدُ المُكَذِّبينَ بِالبَعْثِ وَالجَزاءِ بِشَديدِ العِقابِ في الآخِرَةِ

استأنف البيان القرآني في ذكر ما يقرع به القرآنُ مسامع المنذَرين المكذّبين الذين لا يُصدِّقونَ بِالمعادِ إِلى اللهِ سُبحانَهُ والرُّجوع إليهِ، ولا يُقرّون بالثّوابِ والعِقابِ؛ وَلِذلكَ لا يَتحاشَوْنَ مِنِ ارتكابِ المَعاصي؛ من أنّ اللّه تعالى أعدّ لَهُمْ يَوْمَ القيامَةِ عَذابًا موجِعًا شديدَ الإيلامِ في نارِ جَهَنَّم[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مَعْنى الواوِ في ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ﴾:

الإِخْبارُ بِعُقوبَةِ الكافِرينَ بِشارَةٌ لِلمُؤْمنينَ

الواوُ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ﴾ عاطفةٌ لهذه الجملَةِ على جملةِ ﴿أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرࣰا كَبِيرࣰا﴾، فيكون الإخبارُ بجزاءِ أهلِ الكُفْرِ داخلًا في بِشارَةِ المُؤْمِنينَ[3].

بَلاغَةُ تَعَلُّقِ فِعْلِ التَّبْشيرِ بِالعَذابِ في هَذِهِ الآيَةِ:

التَّهَكُّمُ بِأَهْلِ الكُفْرِ وَالاسْتِهْزاءُ بِهِمْ

جاء قولُ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ داخلًا في جملَةِ البِشارَةِ المذكورَةِ في الآيةِ المتقدِّمَة، وهي قولُه تَعالى: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾، وإنَّما تعلَّقَ فِعْلُ البِشارةِ بالعذابِ على سبيلِ التَّهكُّمِ والاستهزاءِ بالكَفَرَةِ[4]، ففي الآيةِ استعارةٌ تهكُّميَّةٌ.

ويجوزُ أن يُحْمَلَ ذلكَ على المشاكَلَةِ، وأنَّ تسميةَ الإخبارِ بالمَصيرِ السَّيِّئِ لأَهْلِ الكُفْرِ بشارةً؛ واقعٌ على وَجْهِ المناسبَةِ والملاءَمَةِ للإخبارِ

(1) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4343.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 393، ونخبة من أساتذة التفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 283.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 41.

(4) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 14/ 8393.

بالعاقبَةِ الحُسْنى لأهلِ الإيمانِ، فهو كقوله سُبحانَهُ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: 40][1].

ويَحْتَمِلُ أن يكونَ التَّعبيرُ بالبشارةِ في جانبِ العذابِ مجازًا مرسلًا بعلاقَةِ الإطلاقِ والتَّقييدِ، فإنَّ البِشارَةَ هي الإخبارُ بالخبَرِ السّارِّ، ثُمَّ جُرِّدَ عَنْ هذا القَيْدِ، واستُعْمِلَ في مُطْلَقِ الإخبارِ الشامِلِ للإخبارِ بما فيه سرورٌ، والإخبارِ بما ليسَ كذلكَ[2].

سِرُّ التَّعبيرِ بِـ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾:

المُقابَلَةُ بَيْنَ أَهْلِ الإيمانِ وَأَهْلِ الكُفْرِ

عُبِّر بـ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ دونَ (الكافِرينَ)، فَلَمْ يَرِد في النَّظْمِ القرآنيِّ: (وأنَّ الكافرينَ بالآخِرَةِ)؛ ليكونَ مناسبًا لمقابِلِه غايَةَ التَّناسُبِ؛ إذْ نُفيَ عَنْهُمْ ما أُثْبِتَ لأَهْلِ الإيمانِ، فإنَّ اللّهَ أخبرَ عَنْ مقابلِهِم، فَقال: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ المَنْفيِّ:

إغْراقُ أَهْلِ الكُفْرِ في كُفْرِهِمْ وَاسْتِمْرارُهُمْ فيهِ

عُبِّر بالفِعْلِ المضارعِ المنفيِّ ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ مِنْ قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ للإشْعارِ بأنَّهُم لا يتَجَدَّدُ مِنْهُمْ إيمانٌ[3]، والمرادُ بالنَّفْيِ: استمرارُ النَّفْيِ ودوامُهُ لا نفيِ الدَّوامِ، كما تدلُّ لذلكَ قرينَةُ وعيدِهم وتهديدِهم بالجزاءِ السَّيِّئِ في الآخِرَةِ.

سِرُّ التَّنْصيصِ عَلى عَدَمِ الإيمانِ بِاليَوْمِ الآخِرِ:

مَجيءُ العَذابِ مِنْ حَيْثُ لا يُحْتَسَبُ أَفْظَعُ وَأَفْجَعُ

خُصَّ اليومُ الآخِرُ بنفيِ إيمانِ الكُفّارِ بِهِ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾، دونَ بَقيَّةِ أَرْكانِ الإيمانِ لِنِكاتٍ[4]:

إحداها: أنَّ اليومَ الآخرَ مُعْظَمُ ما أُمِروا بالإيمانِ به.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 20/ 304.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 23.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 382.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 158.

ثانيتُها: أنَّ التَّنصيصَ على ذلك أنسَبُ بين أعمالِهم وجزاءِ الآخرةِ الذي أخبرَ اللّهُ ﷻ عَنْهُ بقوله: ﴿أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾، وهوُ عذابُ النّارِ، والمرادُ: أعْتَدنا لَهُم فيما كَفَروا بِهِ، وأنكروا وجودَهُ مِنَ الآخرةِ عذابًا شديدَ الإيلامِ، وهذا أبلغُ في الزَّجرِ؛ لِأَنَّ مجيءَ العَذابِ مِنْ حَيْثُ لا يُحْتَسَبُ أَفْظَعُ وأفْجَعُ.

ثالثتُها: أنَّ التَّنصيصَ على عَدَمِ الإيمانِ بِالآخرَةِ تنصيصٌ على السَّبَبِ؛ لأنَّ كُفْرَ الكفّارِ وشِرْكَهُم وعنادَهُم وسائرَ جرائِمِهم مُسبَّبَةٌ عَنْ عَدَمِ إيمانِهم بالبَعْثِ والجزاءِ، فذِكْرُ السَّبَبِ ذِكْرٌ للمسَبَّبِ[1].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بـ ﴿أَعۡتَدۡنَا﴾:

المُبالَغةُ في زَجْرِ الكافِرينَ وَتَهْديدِهِمْ

في التَّعبيرِ بالعتادِ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ استعارةٌ تهكُّميَّةٌ[2]، وذلك لأنَّ (أَعْتَدَ) تَرِدُ في الأصلِ بمعنى: أحضرَ، وهيَّأَ ما هوُ غايةٌ في الطّيبِ والنَّفاسَةِ، فاستعمالُهُ في جانبِ العذابِ المُؤلِم تهَكُّمٌ واستهزاءٌ بأهلِ الكُفْرِ، وذلك أَبْلَغُ في التَّهديدِ والزَّجْرِ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ الماضي ﴿أَعۡتَدۡنَا﴾:

التَّهْديدُ بِالعَذابِ المَوْجودِ أَوْقَعُ في النَّفْسِ وَأَبْلَغُ في الزَّجْرِ

عُبِّر بالفعلِ الماضي ﴿أَعۡتَدۡنَا﴾ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ لإرادَةِ تحقيقِه، فإنَّ العذابَ الأليمَ مُعَدٌّ لأهلِ الكُفْرِ في نارِ جَهَنَّمَ؛ إذْ جَهَنَّمُ موجودَةٌ قد خلقها اللّهُ سُبحانَهُ، كما هي عقيدَةُ أهلِ الحديثِ، وهذا أبلغُ في الوعيدِ والتَّهديدِ، فَإِنَّهُ إذا هُدِّدَ بالعذابِ المَوْجودِ؛ كانَ ذلكَ أوقعَ في النَّفْسِ، وأبلغَ في الزَّجْرِ مِنَ التَّهْديدِ بِعَذابٍ سَيوجَدُ.

دِلالَةُ إِسْنادِ الفِعْلِ (أَعْتَدَ):

ما يَصْدُرُ مِنَ العَظيمِ عَظيمٌ

أُسْنِدَ الفِعْلُ (أَعْتَدَ) إلى الضَّميرِ (نا) الدّالِّ عَلى العظَمَةِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾، تَهْويلًا لشَأْنِ هذا

---

(1) محمد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4342.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 382.

العَذابِ، وشأنِ وَصفِهِ المذكورِ في الآيةِ، وهو كَوْنُهُ مُؤْلِمًا؛ إذِ الذي أَعَدَّ هذا العذابَ هوَ اللّهُ العظيمُ ﷻ، وما يصدُرُ مِنَ العظيمِ عظيمٌ[1].

التَّهديدُ الشَّديدُ مِنَ الكُفرِ بِشَيْءٍ مِمّا أَوْجَبَ اللهُ سُبْحانَهُ الإيمانَ بِهِ

دِلالَةُ تَقْديمِ الجارِّ وَالمَجْرورِ ﴿لَهُمۡ﴾:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾ على ﴿عَذَابًا﴾ مِنْ قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾؛ لإفادَةِ القَصْرِ، أَيْ: إنَّ المَوْصوفينَ بتَرْكِ الإيمانِ بالآخِرَةِ مُخْتَصّون بالعذابِ الأليمِ، وهوَ عذابُ النّارِ، والقَصْرُ حقيقيٌّ ادِّعائيٌّ؛ لأنَّ العذابَ الأليمَ تُوُعِّدَ به غيرُهُمْ ممَّن يُؤمِنُ بالآخرةِ في الجُمْلَةِ، وكذلكَ هُدِّدَ به أصحابُ الكبائرِ مِنْ هذهِ الأُمَّةِ، إلّا أنَّ عذابَ الكَفَرَةِ بالآخرةِ أشدُّ وأعْظَمُ حتَّى كأنَّ عذابَ غيرِهِم بالنِّسْبَةِ لَهُمْ ليسَ بمُؤْلِم.

وفي هذا تحذيرٌ أكيدٌ ووعيدٌ شديدٌ مِنَ الكُفْرِ بشيءٍ مِمّا أَوْجَبَ اللّهُ تَعالى الإيمانَ بِه.

تَهْويلُ العَذابِ المُعَدِّ لِلكافِرينَ وتَعْظيمُهُ

دِلالَةُ تَنْكيرِ العَذابِ:

نُكِّرَ العذابُ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ لإرادَةِ تعظيمِهِ وتكبيرِهِ وتهويلِهِ، وأنَّه كائنٌ لا محالَةَ، وزادَهُ تهويلًا وتعظيمًا وصفُهُ بكونِهِ أليمًا[2].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفِعْلُ (أَعْتَدَ) أَخَصُّ مِنَ الفِعلِ (أَعَدَّ)

(أَعْتَدَ) و(أَعَدَّ):

كلٌّ مِنَ الفِعْلينِ يردانِ بمعنى: هيَّأَ، والفِعْلُ (أَعَدَّ) مِنْ مادَّةِ العَيْنِ والدّالِ، بخلافِ (أَعْتَدَ)، فيحتمِلُ أن يكون كـ (أَعَدَّ)، ويَحْتَمِلُ أن يكون مِنْ مادَّةِ العَيْنِ والتّاءِ والدّالِ.

وقَدْ وردَ الفِعْلانِ في القرآنِ الكريمِ في سياقاتٍ متبايِنَةٍ، ودلَّ الاستعمالُ القرآنيُّ على وجودِ خلافٍ بينَهما وإن كان يسيرًا.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 382.
(2) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4343.

وقد جاءَ فعل (أَعْتَدَ) في أكثر استعمالاتِهِ مع ذكر النّار والعذاب، كقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ١١﴾ [الفرقان: 11]، وقولهِ سُبحانَهُ: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ١٦١﴾ [النساء: 161]، وورَدَ مرَّةً واحدةً مع المُتَّكأ، في قولِهِ تَعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا﴾ [يوسف: 31]، وأُخْرى مع الرِّزْقِ الكريم في قولِهِ ﷻ: ﴿۞وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ٣١﴾ [الأحزاب: 31].

أمّا الفِعْلُ (أَعَدَّ)؛ فوردَ معَ ذِكْرِ الجنَّة، والنّارِ، والأجر، والمغفرةِ، والعُدَّةِ، وآلةِ الحرب، كقولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ [التوبة: 89]، وقولِه تَعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ٢٤﴾ [البقرة: 24]، وقولِه ﷻ: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ٣٥﴾ [الأحزاب: 35].

وحاصِلُ ما بَيْنَ الفِعْلَينِ؛ أنَّ بينهما تقارُبًا دِلاليًّا؛ إذْ يشْتَرِكان في مَعْنى التَّهيئَةِ، ويختصُّ (أَعَدَّ) بتنوُّعِ معانيه، واتِّساعِ دلالاته، ولذا وردَ مستعمَلًا مع الجنَّة والنّار والرِّزْق والأجرِ، ونحوِ ذلكَ، أمّا الفِعْلُ (أَعْتَدَ)؛ فأَكْثَرُ ما جاءَ في الاستعمالِ القرآنيِّ مع النّار والعذاب، وندَرَ اسْتِعمالُهُ مع غيرهما، وبهذا يتَّضِحُ أنَّ (أَعْتَدَ) أخصُّ من (أَعَدَّ)(1).

(1) محمد مُحَمّد داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، ص: 336 - 338.

﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ١١﴾

[الإسراء: 11]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إرْشادُ العِبادِ إلى وُجوبِ التَّأنّي لِلنَّظَرِ فيما يَدْعونَ بِهِ

لَمّا ذَكَرَ اللّهُ ﷻ ما لِكَلامِهِ مِنَ الدُّعاءِ إلى التي هيَ أَقْوَم؛ أَتْبَعَهُ بِما عَلَيْهِ الإنسانُ مِنَ العِوَجِ الدّاعي لَهُ إلى العُدولِ عَنِ التَّمسُّك بشرائعِ الدّينِ القَويمَةِ، وإلى الإقْدامِ عَلى ما لَيْسَ فيهِ فائدَةٌ؛ إرشادًا لَهُ إلى ما يَجِبُ عَلَيْهِ مِنَ التَّأنّي لِلنَّظَرِ فيما يَدْعو بهِ وَوَزْنِه بميزانِ الشَّرْعِ، فقالَ سُبحانَهُ: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيَدۡعُ﴾: الدّالُ والعَينُ والواوُ تدورُ اشتقاقاتُها على مَعْنى مَيْلِ الشَّيءِ إليكَ بصوتٍ وكلامٍ يكونُ مِنْكَ[2]، ومِنْهُ قولُكَ: دَعَوْتُ فلانًا دعاءً إلى وليمَةٍ أو اجتماعٍ أو نحوِ ذلك؛ لِما فيه مِنْ جذْبِهِ إلى ما دُعيَ إليه[3]، وَمِنْهُ قولُ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: 25].

والدُّعاءُ في الشَّرْعِ يَرِدُ بِمَعْنَيَيْنِ[4]: أحدهما: دعاءُ المسأَلَةِ؛ وهو طلبُ الحاجاتِ، ومِنْهُ قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ﴾.

والآخَرُ: دعاءُ العبادَةِ؛ وهوَ التَّعبُّدُ للّهِ تعالى طَلَبًا لِثوابِهِ وخَوْفًا مِن عِقابِهِ، ومِنْهُ قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 382 - 383.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دعو).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (دعو).
(4) ابن عثيمين، شرح ثلاثة الأصول، ص: 56.

﴿وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ۝٤٨ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم: 48 - 49].

2) ﴿بِٱلشَّرِّ﴾: الشّينُ والرّاءُ تدلُّ تصريفاتُها على الانتشارِ والتَّطايُر، ومِنْ ذلكَ: الشَّرارَةُ؛ وهيَ ما تطايَرَ مِنَ النّارِ، وجمعها: شَرَرٌ[1]، ومِنْهُ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ ۝٣٢﴾ [المرسلات: 32]، والشَّرُّ هوَ ما يَرْغَبُ عَنْهُ الجميعُ[2]، وحقيقَتُهُ: أنَّهُ كُلُّ أمرٍ لا نفعَ فيه، ويَسوءُ، ويُؤَدّي إلى فَسادٍ وضَرَرٍ[3]، وهذا هوَ المَعْنى المرادُ في قوله: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ﴾.

والشَّرُّ ضربانِ[4]: أحدُهما: شرٌّ مُطْلَقٌ، وهوَ ما يكون مرغوبًا عَنْهُ على كلِّ حالٍ، والآخَرُ: شرٌّ مقيَّدٌ، وهوَ ما يكون شرًّا لواحدٍ خَيْرًا لآخَرَ.

3) ﴿بِٱلۡخَيۡرِۖ﴾: الخاءُ والياءُ والرّاءُ تدور تصاريفُهُ على مَعْنى العَطْفِ والمَيْل، ومِنْهُ سُمّيَ الخيرُ وهوَ ما يَرْغَبُ فيه الجميعُ؛ لأنَّ كُلَّ أَحَدٍ يميلُ إليه[5]، وحقيقَةُ الخَيْر: أنَّهُ كُلُّ أمرٍ لا ضررَ فيهِ، ويُؤَدّي إلى نَفْعٍ وصلاح، كالجنَّة، وصلاحِ الولَدِ، والمالِ الحلالِ، ووَفْرَةِ العَقْلِ، وصحَّةِ البَدنِ، وهذا هوَ المَعْنى المرادُ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ﴾.

والخَيْرُ ضربانِ[6]: أحدهما: خيرٌ مُطْلَقٌ، وهوَ ما يكون مرغوبًا فيهِ على كلِّ حالٍ، والآخَرُ: خيرٌ مقيَّدٌ، وهوَ ما يكون خَيْرًا لواحدٍ شرًّا لآخَرَ.

4) ﴿عَجُولٗا﴾: العَيْنُ والجيمُ واللّامُ تدلُّ اشْتِقاقاتُها عَلى سَبْقِ تَحْصيلِ شَيْءٍ قَبْلَ أوانِهِ، ومِنْهُ سَمَّتِ العربُ ولَدَ البقرةِ عجلًا؛ لِولادَتِهِ قَبْلَ بُلوغِ الوَقْتِ الذي أَلِفَتِ العربُ أَنْ تَلِدَ النّوقُ بَعْدَهُ، فإنَّها تلِدُ لاثْنَيْ عَشَرَ إلى خَمْسَةَ عَشَر شهرًا، بخلافِ البَقَرِ فإنَّها تَلِدُ لِتِسْعَةِ أَشْهُرٍ[7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شرر).
(2) الرّاغب، المفردات: (شرر).
(3) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4343.
(4) الرّاغب، المفردات: (خير).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خير)، والرّاغب، المفردات: (خير).
(6) الرّاغب، المفردات: (خير).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عجل).

والعَجَلَةُ: طَلَبُ الشَّيءِ وتَحرّيهِ قَبْلَ وَقْتِهِ[1]، ومِنْهُ قولُ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾.

❁ المَعنى الإجماليُّ:

بَيانُ عَجَلَةِ الإنْسانِ بِدُعائِهِ عَلى نَفْسِهِ بِما يَكْرَهُ

من تَمامِ رحمةِ اللّه بالإنسان وفضلِه عليه أنّه لا يطاوعُه على ما يريدُ من إلحاقِ الأذى بنفسه، فالإنسان قد يَدْعو عَلى نَفْسِه وَوَلَدِه ومالِه بالشَّرِّ، فَيَقولُ: اللّهُمَّ أَهْلِكْهُ، والعَنْهُ - وذلكَ عِنْدَ ضجَرِه وغضَبِه - كَدُعائِهِ رَبَّهُ بِأَنْ يهَبَ لَهُ العافية، ويَرْزُقَه السَّلامةَ في نَفْسِه ومالِه ووَلَدِه، وَلَوِ اسْتَجابَ اللّهُ تَعالى له في دُعائه عَلى نَفْسه ومالِه وَوَلَدِه بالشَّرِّ، كَما يَسْتَجيبُ لَهُ في الخَيْرِ؛ لَهَلَكَ، وَلَكِنَّ اللّهَ سُبحانَهُ بِفَضْلِه ومَنِّهِ لا يَسْتَجيبُ لَهُ في ذَلِكَ، وكانَ الإِنْسانُ عَجولًا بِالدُّعاء عَلى نفسِه بما يَكْرَهُ[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلالَةُ الواوِ في ﴿وَيَدۡعُ﴾:

بَيانُ حالِ اعْوِجاجِ الإنْسانِ الدّاعي لَهُ إلَى الإقْدامِ عَلى ما لا يَنْبَغي

الواوُ في ﴿وَيَدۡعُ﴾ مِنْ قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ﴾ اسْتِئْنافيَّةٌ[3]، والجملةُ بعدها مستأنفةٌ استئنافًا نحويًّا؛ إذِ الآيةُ واردَةٌ لبيانِ حالِ الإنسانِ وما عَلَيْهِ مِنَ العَوجِ الدّاعي لَهُ إلى الإقدامِ على ما لا فائدَةَ فيه، بل على ما فيه ضرَرُهُ، ومنبِّهَةٌ لَهُ على التَّأَنّي في أمورِه كُلِّها.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿وَيَدۡعُ﴾:

اسْتِمْرارُ العَبْدِ عَلى الدّعاءِ بِما لا يَنْبَغي طَبْعٌ فيهِ

عُبِّرَ بالفِعْلِ المضارعِ ﴿وَيَدۡعُ﴾ مِنْ قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ﴾؛ للإشْعارِ بِتَكرُّرِ هذا مِنْهُ واسْتِمْرارِه عَلى هذِهِ الطَّريقَةِ، وذَلِكَ لِطَبْعِهِ عَلى العَجَلَةِ المُقْتَضيَةِ هذا التَّكْرارَ والدَّوامَ.

---

(1) الراغب، المفردات: (عجل).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 393 - 394، ونخبة من أساتذة التفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 283.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 399.

سِرُّ حَذْفِ الواوِ مِنَ الفِعْلِ ﴿وَيَدۡعُ﴾ في رَسْمِ المُصْحَفِ:

دُعاءُ الإنْسانِ بِالشَّرِّ يَسْهُلُ عَلَيْهِ، وَهُوَ مِمّا يُسارِعُ فيهِ

الأَصْلُ في الفِعْلِ ﴿وَيَدۡعُ﴾ أن يُكْتَبَ بالواوِ؛ لأنَّ الواوَ لا تُحذف في مثلِ هذا إلّا لِجازِمٍ، ولا جازمَ هنا، وإنَّما حُذِفَتْ من رسْمِ المُصحف إجراءً لرَسْمِ الكَلِمَةِ على حالِ النُّطْقِ بها وصلًا، كما في ﴿سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ١٨﴾[1] [العلق: 18]، وفي حذْفِها إيماءٌ إلى أنَّ دعاءَ الإنسانِ بالشَّرِّ يسْهُلُ عليه، وأنَّه ممّا يُسارِعُ فيه، وأنَّ إتيانَ الشَّرِّ إليهِ مِنْ جهةِ ذاتِهِ أقربُ إليه منَ الخَيْرِ[2].

دِلالَةُ اللّامِ في ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾:

الغالِبُ على الإنْسانِ عَدَمُ تَأَمُّلِهِ في عَواقِبِ الأُمورِ

اللّامُ في ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ مِنْ قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ﴾ يُرادُ بها الجنسُ، أي: إنَّ شأنَ الإنسانِ أن يفعَلَ ما ذُكِرَ في الآيةِ بحسبِ طبيعَةِ الخِلْقَةِ فيه، وذلك لعدَمِ تأمُّلِهِ في شأنِهِ وعواقِبِ الأمورِ عادةً[3].

وذهب ابنُ عاشورٍ إلى أنَّ المرادَ به صنفٌ خاصٌّ مِنَ الإنسانِ، وهوَ الإنسانُ الكافرُ الذي لا يُؤمن بالآخرَةِ، اعتمادًا على سياقِ الآيَةِ؛ كما هوَ مُستعمَلٌ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ٦٦ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ٦٧﴾ [مريم: 66 - 67]، وإطلاقُ لَفْظِ الإنسانِ على الكافِرِ كثيرٌ في القرآنِ الكريمِ[4].

مَعْنى الباءِ في ﴿بِٱلشَّرِّ﴾ و﴿بِٱلۡخَيۡرِۖ﴾:

اسْتِعْجالُ العِبادِ ما فيهِ ضَرَرُهُمْ

الباءُ في ﴿بِٱلشَّرِّ﴾ و﴿بِٱلۡخَيۡرِۖ﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ﴾ للإلصاقِ، والمرادُ تأكيدُ لصوقِ العاملِ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 43.

(2) ابن البنّاء المَرّاكُشي، عنوان الدليل من مرسوم خط التنزيل، ص: 89.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 441، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 20/ 305، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 24.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 42.

بمعمولِه، ونَظيرُها قولُ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ [المائدة: 6]، ويحتَمِلُ أَنْ يكونَ قَدْ عُدّيَ فِعْلُ الدُّعاءِ بالباءِ؛ لتضمُّنِهِ مَعْنى الاستعجالِ، فإنَّ فِعْلَ الاسْتِعْجالِ يَرِدُ مُعَدًّى بها[1]، كَما في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ﴾ [الشورى: 18].

وجوَّزَ بعضُ أهلِ العِلْمِ أن تكونَ الباءُ للظَّرْفيَّةِ، والمَعْنى: ويدعو الإنسانُ في حالِ الشَّرِّ دعاءَهُ في حالِ الخَيْرِ، فليس المدعوُّ به - عَلى هذا الوَجْهِ - الشَّرَّ والخيرَ، وفيه عتابٌ لِلنّاسِ عَلى أنَّهُم إذا أصابَهُمْ شَرٌّ؛ دَعَوْا، وألَحّوا في الدُّعاءِ، واسْتَعْجَلوا الفَرَجَ، كالدُّعاءِ الذي كانَ يَنْبَغي أنْ يَدْعوه في حالِ الخَيْرِ[2]، وحكى الآلوسيُّ هذا القولَ وقولًا آخَرَ - بأنَّ الباءَ للسَّببيَّةِ - وعَقَّبَ عليهِما بأنَّهما قولانِ مُخالِفانِ للظّاهِرِ[3].

مَعْنى الواوِ في: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾:

العَجَلَةُ طَبْعٌ مُتَجَذِّرٌ في الإنْسانِ

الواوُ في قَوْلِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾ يجوزُ أن تكون عاطفةً على جُمْلَةِ ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ﴾، ويكونُ هذا مِنْ عطفِ الجملَةِ الاسميَّةِ - لأنَّ حقيقةَ الجملَةِ الاسميَّةِ هوَ (تَصَدُّرُ الاسْمِ مَعَ وُقوعِهِ رُكْنًا إسْناديًّا فيها ... فَلا عِبْرَةَ في التَّصَدُّرِ بالعَناصِرِ غَيْرِ الإسْناديَّةِ التي لا تَقَعُ رُكْنًا مِنْ أَرْكانِ الجُمْلَةِ، سَواءٌ أكانَتْ أَسْماءً أَمْ أَفْعالًا أَمْ حُروفًا)[4] - على الجُمْلَةِ الفِعْليَّةِ، ولا إشكالَ في ذلكَ؛ لأنَّ الصَّحيحَ جوازُهُ والقرآنُ طافِحٌ بِهِ[5].

ويجوزُ أن تكونَ الواوُ حاليَّةً[6]، والجملَةُ بعدَها في موضعِ نصبِ حالٍ، أي: والحالُ أنَّ طَبْعَ الإنسانِ العَجَلَةُ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 42.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 19.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 24.
(4) علي أبو المكارم، الجملة الاسميَّة، ص: 17، بتصرُّفٍ يسيرٍ.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 210.
(6) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 399.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِفِعْلِ الكَوْنِ ﴿وَكَانَ﴾:

شِدَّةُ تَمَكُّنِ وَصْفِ العَجَلَةِ مِنْ بَني آدَمَ

فعلُ الكَوْنِ ﴿وَكَانَ﴾ مِنْ قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ يُفيدُ أنَّ اسمَ كانَ ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ متَّصِفٌ بخبرِها ﴿عَجُولًا﴾ اتِّصافًا شديدَ التَّمكُّنِ، حتّى صارَ طَبْعًا وجِبِلَّةً، فهو كقولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾[1] [الكهف: 54].

نُكتةُ إظهارِ لفظِ ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ وتَكرارِه في موضعِ إضمارِه:

العَجَلَةُ كائِنَةٌ في النَّوْعِ الإنْسانِيِّ، وَلَيْسَتْ مُخْتَصَّةً بِالكُفّارِ مِنْهُمْ

كُرِّرَ ذِكْرُ لفظِ ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ مع تقدُّمِ ذِكْرِهِ في صَدْرِ الآيةِ: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾، لتَخْرُجَ الجُمْلَةُ مخرجَ التَّذْييل الجاري مجرى المثَل؛ لاستقلالِها بالإفادَةِ مِنْ غيرِ افتقارٍ إلى ما قَبْلَها في الكَشْفِ عَنْ تمامِ المرادِ منْها.

وإذا حُمِلَ لفظُ ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ في صَدْرِ الآيَةِ على أنَّ المرادَ به خصوصُ الكافِرِ، فإنَّ لفظَ الإنسانِ كُرِّرَ؛ لأنَّه أَعَمُّ مِنْ سابقِهِ؛ إذِ المرادُ به الجنسُ، وهوَ الأنْسَبُ للتَّذْييل، والمرادُ أنَّ هؤلاءِ الكافرينَ الذي لا يُؤمنون بالآخرةِ هُمْ مِنَ النَّوْعِ الإنسانيِّ، وفي نوعِ الإنسانِ: الاستعجالُ، فلا عَجَبَ أَنْ كانَتْ فيهِمُ العَجَلَةُ[2]، ولو أُضْمِرَ لفظُ الإنسانِ بأن يَرِدَ في النَّظْمِ القرآنيِّ: (وكان عجولًا)؛ لكان الحُكْمُ بالعجلَةِ خاصًّا بأَهْلِ الكُفْرِ.

سِرُّ اخْتِيارِ وَصْفِ ﴿عَجُولًا﴾:

العَجَلَةُ طَلَبُ الشَّيْءِ في غَيْرِ وَقْتِهِ، وَالسُّرْعَةُ عَمَلُ الأَمْرِ في أَوَّلِ وَقْتِهِ

اختيرَ وصفُ العَجَلَةِ دونَ السُّرْعَةِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾؛ لأنَّ المرادَ عتابُ الإنسانِ عَلى هَذا الاسْتِعْجالِ، وحقيقتُهُ: طلبُ الشَّيءِ في غيرِ وقتِهِ الذي لا يجوزُ تقديمُهُ عليه، بخلافِ وصفِ السُّرْعَةِ؛ فإنَّه لا يُلائمُ هَذا السّياقَ؛ إذِ السُّرْعَةُ عَمَلُ الأَمْرِ في أوَّلِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 42.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 42.

وقتِهِ الذي هوَ أَوْلى بِهِ[1]، ولِذا قالَ اللّهُ تَعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [آل عمران: 133].

دِلالَةُ وَصْفِ الإنْسانِ بِالعَجَلَةِ في هَذِهِ الآيَةِ:

دِقَّةُ البَيانِ القُرْآنِيِّ في اخْتِيارِ اللَّفْظِ المُلائِمِ لِسياقِهِ

قال اللّهُ سُبحانَهُ: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾، وقال ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ٦٧﴾ [الإسراء: 67]، وقالَ تَعالى: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ١٠٠﴾ [الإسراء: 100]، ووجهُ المغايَرةِ بينَها: أنَّ الآيةَ الأولى صُدِّرت بقولِه: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ﴾، فلمّا كان الإنسانُ يستعجِلُ الإجابَةَ؛ ناسبَهُ قولُهُ: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾.

أمّا الآيَةُ الثّانيةُ، فقد وردَ فيها: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ﴾ [الإسراء: 67]، فلمّا كان الإعراضُ عَنْ شُكْرِ النِّعْمَةِ كُفْرًا؛ ناسبَهُ قولُه: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ٦٧﴾ [الإسراء: 67].

أمّا الآيَةُ الثّالثَةُ فقد صُدِّرت بقولِهِ: ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ﴾ [الإسراء: 100]، فلمّا كانَ ذلك بُخْلًا وتضييقًا؛ لاءمَهُ قولُهُ: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ١٠٠﴾ [الإسراء: 100].

بَلاغَةُ الكِنايَةِ في: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾:

إحاطَةُ عِلْمِ اللهِ تَعالى بِمُقْتَضى الحِكْمَةِ في تَوْقيتِ الأَشْياءِ

في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾ كنايَةٌ عن عَدَمِ تبصُّرِ الإنْسانِ، وأنَّ اللّهَ سُبحانَهُ أَعْلَمُ بِمُقْتَضى الحِكْمَةِ في توقيتِ الأشياءِ، كما قال اللّهُ سُبحانَهُ: ﴿وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ﴾ [يونس: 11]، ولكنَّ اللّهَ تَعالى درَّجَ لَهُم وصولَ كُلٍّ مِنَ الخيرِ والشَّرِّ لُطْفًا مِنْهُ بِهِمْ في الحالَيْنِ.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 384.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النِّدَاءُ وَالدُّعَاءُ:

الدُّعاءُ أَعَمُّ مِنَ النِّداءِ

الدُّعاءُ أعمُّ مِن النِّداء مُطْلقًا، وذلك أنَّ النِّداءَ هو رفعُ الصَّوْتِ بِما لَهُ مَعْنًى، بخلافِ الدُّعاءِ، فيكونُ برفْعِ الصَّوْتِ وخَفْضِهِ، فتقولُ: دَعوتُ فلانًا مِنْ بعيدٍ، وتقولُ: دعوتُ اللّهَ تعالى في نَفْسي، ولا يَصِحُّ أَن تقولَ: نادَيْتُ اللّهَ في نَفْسي(1).

العَجَلَةُ وَالسُّرْعَةُ:

العَجَلَةُ مَذْمومَةٌ والسّرعةُ مَحْمودَةٌ

الفَرْقُ بَيْنَهما: أنَّ السُّرْعَةَ هي التَّقدُّمُ فيما ينبغي أن يُتقدَّمَ فيه، أو هوَ عَمَلُ العَمَلِ في أوَّلِ وَقْتِهِ الذي هوَ أَوْلى بِهِ، بخلافِ العَجَلَةِ، فإنَّها طَلَبُ الشَّيءِ في غَيْرِ وقْتِهِ الذي لا ينبغي تقديمُهُ عليهِ، وعلى هذا فالعَجَلَةُ مذمومَةٌ والسُّرْعَةُ محمودَةٌ(2).

وقد تَرِدُ العَجَلَةُ مقيَّدَةً بما يُخْرِجُها عَنْ حيِّزِ الذَّمِّ، كما في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾ [طه: 84]، فتكونُ بمَعْنى السُّرْعَةِ(3).

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 38.
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 204، والبقاعي، نظم الدرر: 11/ 384.
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 204.

﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ١٢﴾ [الإسراء: 12]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بَيانُ النِّعَمِ الدُّنْيَوِيَّةِ التي أَنْعَمَ اللهُ تَعالى بِها عَلى العِبادِ بَعْدَ ذِكْرِهِ النِّعَمَ الدِّينِيَّةَ

لَمّا بيَّنَ اللّهُ سُبحانَهُ ما لصفاتِهِ مِنَ الكمالِ والعُلوِّ، وما لِصفَةِ الإنْسانِ مِنَ السُّفولِ، وأَعْقَبَهُ بِبَيانِ ما لأفعالِهِ سُبحانَهُ مِنَ الإتْقانِ والإِحْكامِ، ثُمَّ ما لِأَفْعالِ الإِنْسانِ مِنَ الاعْوِجاجِ الجاري مع طباعِهِ؛ بيَّنَ سُبحانَهُ ما أكرمَهُمْ به من نِعَمٍ دنْيَوِيَّةٍ بعد ما أنْعَمَ عَلَيْهِم بِهِ مِنْ نِعَمٍ دينيَّةٍ، فقالَ ﷻ: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ﴾[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ءَايَتَيۡنِۖ﴾: تثنيةُ آيةٍ، وجِذْرُها - وهو الهمزَةُ والياء والحرفُ المعتَلُّ[2] - يدلُّ على بقاءِ الشَّيء في مكانه شاخِصًا عَلامَةً لِشَيْءٍ[3]، ومِنْهُ قولُهم: خرجَ القوم بآياتِهم، أي: جماعتِهِمْ؛ فَلَمْ يَدَعوا شيئًا مِمّا مِنْ شأنِهِ أن يكونَ شاخصًا إلّا حمَلوهُ، وفيهِ معنَى الكثرةِ والجسامَةِ أيضًا، والآية: كلُّ شيءٍ ظاهرٍ ملازمٌ لشيءٍ باطنٍ يُعْرَفُ به حسّيًّا كان أو عقليًّا[4].

والآيةُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ﴾ العلامَةُ، أي: جعلنا اللَّيْلَ والنَّهارَ علامَتَيْنِ[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 384.
(2) في اشتقاق (الآية) خلافٌ، يُنظر: الآلوسي، روح المعاني: 1/ 242.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (أيي).
(4) الرّاغب، المفردات: (أي)، ومحمَّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/ 238.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 395.

2) ﴿فَمَحَوْنَآ﴾: الميمُ والحاءُ والحرفُ المعتلُّ تدلُّ اشتقاقاتهُ على الذَّهابِ بالشَّيءِ، ومِنْهُ: المَحْوُ، وهوَ إزالَةُ الأثر، ومِنْهُ قولُكَ: محوتُ الكتاب، أذْهَبْتُ بأثرِهِ[1]، والمَحْوُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ هوَ إزالَةُ الضَّوْءِ مِنْها[2].

3) ﴿مُبۡصِرَةً﴾: الباءُ والصّادُ والرّاءُ تدورُ أكثَرُ تصريفاتِها على مَعْنى العِلْمِ بالشَّيءِ، يُقالُ: هوَ بصيرٌ بالأَمْرِ، أي: عالمٌ بِهِ[3]، والبصيرَةُ: المَعْرِفَةُ التي يُمَيَّزُ بها الحقُّ مِنَ الباطِلِ[4]، ويُطْلَقُ البصَرُ على ما يُنْظَرُ بِهِ، كالواردِ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾ [النحل: 77]، ويُطْلَقُ على القوَّةِ النّاظِرَةِ التي فيهِ، ويُطْلَقُ أيضًا على القوَّةِ المُدْرِكَةِ التي في القَلْبِ[5].

و﴿مُبۡصِرَةً﴾ مِنْ قولِهِ ﷻ: ﴿وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةً﴾ أي: مُضيئَةً، تُمَكِّنُ مِنَ الإبْصارِ[6].

4) ﴿لِّتَبۡتَغُواْ﴾: الباءُ والغينُ والياءُ تدلُّ علَى مَعْنَيَيْنِ كُلّيَّيْنِ؛ أحدهما: طَلَبُ الشَّيْءِ، والآخرُ: ضَرْبٌ مِنَ الفَسادِ، ومِنَ الأوَّلِ: بَغَيْتُ الشَّيْءَ، أَيْ: طَلَبْتُهُ، والبُغْيَةُ: الحاجَةُ[7]، وهي الطِّلْبَةُ، والابْتِغاءُ: الاجْتِهادُ في الطَلَبِ، ويُحْمَدُ، أو يُذَمُّ بِحَسَبِ ما يُطْلَبُ[8]، وهوَ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ ابتغاءٌ محمودٌ؛ لتعلُّقِهِ بفضْلِ اللّهِ تعالى.

5) ﴿ٱلسِّنِينَ﴾: لفظُ (السِّنين) اختُلِفَ في لامِها؛ أهوَ الواوُ والهاءُ؟ مع اتِّفاقِهم على حذْفِها، والسّينُ والنّون والهاءُ تدلُّ تصريفاتُها على امْتِدادٍ مَعَ خُلوٍّ مِنَ الخَيْرِ أَوْ فَسادٍ، ومِنْهُ السَّنَةُ التي لا مطَرَ فيها، كما في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف: 130]، ثُمَّ استُعْمِلَ لفْظُ (سَنَةٍ) مجرَّدًا عَنْ قَيْدِ القَحْطِ، فاستُعْمِلَ بمعنى الزَّمَنِ، ثُمَّ بمَعْنى الحَوْلِ، كما قال اللّهُ ﷻ: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (محو)، والرّاغب، المفردات: (محو).
(2) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 47.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بصر).
(4) الواحدي، التفسير البسيط: 12/ 262.
(5) الراغب، المفردات: (بصر).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بصر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بغي).
(8) الرّاغب، المفردات: (بغي).

تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ [الحج: 47]، ومِنْهُ أيضًا قولُ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾[1].

6) ﴿فَصَّلۡنَٰهُ﴾: الفاءُ والصّادُ واللّامُ تدلُّ تصريفاتُها على تمييزِ شيءٍ مِنْ شيءٍ وإبانَتِه عَنْهُ، ومِنْهُ سُمّيَ الحاكِمُ فَيْصَلًا؛ لأنَّه يُميِّزُ الحقوقَ، وسُمّيَ اللِّسانُ مِفْصَلًا؛ لأنَّه به تُمَيَّزُ الأمورُ[2]، والفَصْلُ: إبانَةُ أَحَدِ الشَّيْئَيْنِ مِنَ الآخَرِ، حتَّى يكونَ بَيْنَهُما فُرْجَةٌ[3]، والتَّفصيلُ: التَّبيينُ[4]، ومِنْهُ قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا﴾ أيْ: بيَّنّاهُ تَبْيينًا[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيان حِكْمَةِ آيَةِ اللَّيلِ وَآيَةِ النَّهارِ

يبيّنُ اللّه تعالى حكمتَه في خلْقِ اللّيل والنّهارِ وتعاقُبِهما، فيقول: وجَعَلْنا اللَّيل والنَّهار علامَتَيْنِ دالَّتَيْنِ على وِحْدانيَّتِنا وقُدْرَتِنا، وخالَفْنا بينَ العلامَتينِ؛ بإظْلامِ علامةِ اللَّيْلِ - وهيَ القمَرُ - وإضاءَةِ عَلامَةِ النَّهارِ - وهيَ الشَّمْسُ - لِتَسْكُنوا في أحدِهما، وتَتَصرَّفوا في ابْتِغاءِ الرِّزْقِ في الآخَرِ، ولِتَعْلَموا باخْتِلافِهما عدَدَ السِّنين وانْقضاءَها، وابْتِداءَ دُخولِها، وحِسابَ ساعاتِ النَّهارِ واللَّيْلِ وأَوْقاتِها، وكُلَّ شَيْءٍ بَيَّناهُ بيانًا شافيًا لَكُمْ[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دِلالَةُ الواوِ في ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ﴾:

دِلالَةُ آيَةِ اللَّيْلِ وَآيَةِ النَّهارِ على الرَّبِّ الخالِقِ وَعَظيمِ قُدْرَتِهِ

الواوُ في ﴿وَجَعَلۡنَا﴾ مِنْ قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ﴾ عاطِفَةٌ هذهِ الجملَةَ على قولِه: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (سنه).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فصل).
(3) الراغب، المفردات: (فصل).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (فصل).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 397.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 395، ونخبة من أساتذة التفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 283.

﴿بِٱلۡخَيۡرِۖ﴾، ووجهُ ذلك أنَّ جُملةَ ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ﴾ تتضمَّنُ أنَّ تأخيرَ الوَعْدِ لا يرفعُهُ، وأنَّ الاستعجالَ لا يَنفَعُ صاحبَهُ؛ لأنَّ لكلِّ أمرٍ أجلًا لا يتقدَّمُ عَنْهُ، ولمّا كان الأجَلُ عبارةً عَنْ أَزْمِنَةٍ؛ كان مشْتَمِلًا على ليلٍ ونهارٍ متقضّيَيْنِ، فلمّا أُريدَ التَّنبيهُ على ذَلكَ؛ أُدْمِجَ فيه ما هوَ أبلَغُ وأَهَمُّ في بيانِ العبرَةِ بالزَّمنَيْنِ، وهو كونُهما آيتينِ على الرَّبِّ الخالقِ وعظيمِ قُدْرَتِه[1].

بَلاغَةُ الجمْعِ وَالتَّفْريقِ في الآيَةِ:

آيَـةُ الـلَّـيْـلِ آيَـةُ مَـحْـوٍ، وَآيَـةُ النَّهارِ آيَةُ إبْصارٍ

في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةً﴾ أسلوبُ الجَمْعِ والتَّفريقِ، وحقيقَتُهُ: أن يُدْخَل شَيْئانِ في مَعْنًى واحِدٍ، ويُفرَّقَ بينَ جِهَتَي الإِدْخالِ[2]، فقد أفادَتِ الآيةُ أنَّ اللَّيْلَ والنَّهارَ قَدِ اجْتَمَعا في كَوْنِهما آيتينِ مِنْ آياتِ اللّهِ سُبحانَهُ، وهذهِ هيَ جِهَةُ الاجتماعِ، وأنَّ آيةَ اللَّيْلِ آيةُ مَحوٍ، أي: إزالة سببِ رُؤيَةِ ذوي الأبصارِ للأشياء، وهوَ الضّياءُ، بخلافِ آيةِ النَّهارِ، فهيَ آيةُ إبصارٍ، أي: آيةُ إيجادِ سبَبِ رؤيَةِ ذوي الأبصارِ للأشياء، وهذه هي جِهَةُ الافتراقِ.

بَلاغَةُ أُسْلوبِ التَّقْسيمِ في الآيَةِ:

إضافَةُ ما لِكُلِّ آيَةٍ مِنَ الآيَتَيْنِ ما يَخُصُّهُ

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةً﴾ أُسلوبُ التَّقْسيم، وهوَ - في إِحْدى صوَرِهِ -: ذِكْرُ مُتَعَدِّدٍ، ثُمَّ إضافَةُ ما لكلٍّ إليهِ عَلى التَّعْيينِ[3]، والمتعدِّدُ: هوَ اللَّيْلُ والنَّهارُ، ثُمَّ أضيفَ إلى كُلٍّ مِنْهُما ما يخصُّهُ على وَجْهِ التَّعيينِ، وليسَ هذا لفًّا ونَشْرًا؛ لأنَّ مِنْ شرطِ اللَّفِّ والنَّشْرِ ألّا يقَعَ على سبيلِ التَّعيينِ، بل يوكَلُ الأمْرُ إلى السّامِعِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 43.
(2) عبد المتعال الصّعيدي، بغية الإيضاح: 4/ 605.
(3) أحمد المراغي، علوم البلاغة، ص: 332.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِفِعْلِ الجَعْلِ:

ابْتِداءُ خَلْقِ اللَّيلِ وَالنَّهارِ عَلى كَوْنِهِما آيَتَيْنِ

مِنْ معاني فِعْلِ الجَعْلِ التَّحويلُ والتَّصييرُ، ولكنَّه في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ﴾، بمعنى الخَلْق[1]، أي: ابتدأنا خَلْقَ اللَّيْلِ والنَّهارِ عَلى هذا النَّحْوِ؛ إذْ لم يَكُنِ اللَّيْلُ والنَّهارُ مُنتفيًا عنهما هذا الوصفُ، ثُمَّ أوجدَ فيهما، فهو كقول القائل: سبحان الذي جعل اللَّبَنَ أبيضَ! فاللَّبَنُ لم يكن له لونٌ غيرُ البياض، فحوِّلَ إلى البياض، وإنَّما خلقه اللّه تعالى على هذا الوجه ابتداءً[2].

دِلالَةُ إِسْنادِ فِعْلِ الجَعْلِ ﴿وَجَعَلۡنَا﴾:

تَعْظيمُ شَأْنِ آيَتَي اللَّيْلِ وَالنَّهارِ

أُسْنِدَ فِعْلُ الجَعْلِ إلى الضَّمير (نا) الدّالِّ عَلى العظَمَةِ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ﴾، تعظيمًا لشأنِ اللَّيْلِ والنَّهارِ وشأنِ وَصْفِهما المذكورِ، وهوَ كَوْنُهما آيَتَيْن؛ إذِ الذي صيَّرهُما بذلكَ الوصْفِ هوَ اللّهُ العظيمُ ﷻ، وما يصدُرُ مِنَ العظيم عظيمٌ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ الماضي ﴿وَجَعَلۡنَا﴾:

وَصْفُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ بِكَوْنِهِما آيَتَيْنِ أَدْعى إِلى تَدَبُّرِ هَذِهِ الحَقيقَةِ الكونيّة

عُبِّرَ بالفعلِ الماضي ﴿وَجَعَلۡنَا﴾ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ﴾؛ لتحقيقِ الوصْفِ المقْتَرِنِ باللَّيْلِ والنَّهارِ، لا لتحقيقِ أصلِ وجودِ اللَّيْلِ والنَّهارِ؛ لأنَّ هذا مِمّا يشْهَدُ بهِ الواقِعُ، ولا يُنْكِرُهُ أحدٌ، وتحقيقُ وصْفِ اللَّيْلِ والنَّهارِ بكونِهما آيَتَيْنِ أَدْعى إلى تَدَبُّرِ هذهِ الحَقيقَةِ وأَبْلَغُ في تثبيتِها.

دِلالَةُ ذِكْرِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ بَعْدَ ذِكْرِ دُعاءِ الإِنْسانِ:

أَحْوالُ العالَمِ مُتَغَيِّرَةٌ مُنْتَقِلَةٌ، كَما أَنَّ أَحْوالَ الإِنْسانِ كَذَلِكَ

لَمّا وصفَ اللّهُ سُبحانَهُ الإنسانَ بكونِهِ عجولًا، أي: منتَقِلًا مِنْ حالٍ إلى أُخْرى؛ بيَّنَ أنَّ أحوالَ هَذا العالَمِ كذلكَ في أَصْلِ الانتقالِ، وهوَ الانتقالُ مِنَ النّورِ إلى الظُّلْمَةِ وبالعَكْسِ، وانتقالُ نورِ القَمَرِ مِنَ النُّقْصانِ إلى الزّيادَةِ وبالعكْسِ[3].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 60.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 14/ 8372.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 20/ 305.

سِرُّ تقديم اللَّيْلِ على النَّهارِ:

تَقْديمُ اللَّيْلِ عَلى النَّهارِ مِن باب تَقْديمِ المَعْدومِ عَلى المَوْجودِ

قُدِّمَ اللَّيْلُ على النَّهارِ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ﴾، وقُدِّمَت آيَةُ اللَّيْلِ على آيَةِ النَّهارِ في التَّفريقِ؛ لأنَّ اللَّيْلَ ظلامٌ، وحقيقَةُ الظَّلامِ: عَدَمُ الضَّوءِ، والعَدَمُ مقدَّمٌ على الوُجودِ في هذهِ المخلوقاتِ[1].

بَلاغَةُ الطِّباقِ في الجَمْعِ بَيْنَ ﴿ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾:

تَرْغيبُ أَهْلِ النَّظَرِ في تَأَمُّلِ آياتِ اللهِ تَعالى وَنِعَمِهِ

في الجَمْعِ بين ﴿ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ مِنْ قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ﴾ طباقُ إيجابٍ، والجَمْعُ بينهما - وهُما متضادّانِ - يَكْسو الكلامَ جمالًا، ويزيدُه بهاءً ورَونقًا؛ إذِ الضِّدُّ يُظْهِرُ حُسنَهُ الضِّدُّ، وقد جَمَعت هذه الآيةُ الكريمَةُ بين اللَّيْلِ والنَّهار، وهما آيتانِ عظيمتانِ، ونِعْمَتانِ من نعم اللّهِ سُبحانَهُ على العبادِ، ورَحْمَةٌ منْهُ بهم، ثُمَّ نصَّت على الفَرْقِ بينَهما باعتبارِهما آيَتَيْنِ، وفي الجَمْعِ بَيْنَ الضِّدَّين في صَدْرِ الآية، ثُمَّ في ثَناياها تَرْغيبٌ لِأَهْلِ النَّظر في تأمُّلِ هذهِ الآيَةِ والنِّعمة[2].

والطِّباقُ المذكورُ في الآية رُشِّحَ بأفانينَ مِنَ البلاغَةِ؛ مِنَ الجَمْعِ والتَّفْريقِ، والتَّقْسيم - وهو قريبٌ من اللَّفِّ والنَّشْرِ - وحقيقَةُ التَّرشيح في الطِّباق: أن يوجَدَ مع التَّضادِّ صورٌ أخرى مِنْ صورِ البديعِ أو لونٌ مِنْ ألوانِ البلاغَة، فيتقوَّى الطِّباقُ بذلك، ويَكْتَسي الكَلامُ بهاءً وطلاوَةً، ويزداد المَعْنى اتِّضاحًا وظهورًا[3].

بلاغةُ المتشابِهِ اللَّفظيِّ:

تَصَرُّفُ البَيانِ القُرْآنِيِّ في الأَلْفاظِ إِفْرادًا وَتَثْنِيَةً بما يُلائِمُ المَقامَ

ثُنّيَ لَفْظُ (آيَةٍ) في قَوْلِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ﴾، وأُفْرِدَ في قولِه تَعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ﴾ [المؤمنون: 50]؛ للتَّنبيهِ على أنَّ كُلًّا مِنَ اللَّيْلِ والنَّهارِ آيةٌ مستقلَّةٌ؛ إذِ التَّقديرُ:

---

(1) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 47.

(2) بسيوني فيود، علم البديع، ص: 139 - 140.

(3) بسيوني فيود، علم البديع، ص: 152.

(وجَعَلْنا اللَّيْلَ آيةً، والنَّهارَ آيةً)، بخلاف آيةِ سورةِ (المُؤْمنونَ)، فأُريدَ بالآيةِ الجنْسُ، وقُصِدَ بالإفرادِ بيانُ أنَّ بينَ مريمَ وابْنِها حالًا مشْتَرَكةً هي آيةٌ واحدةٌ، ثُمَّ في كُلٍّ مِنْهما آيةٌ أخرى مستقلَّةٌ باختلافِ حالِ المتأمِّلِ في شأنِهما[1].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالفاءِ في: ﴿فَمَحَوْنَآ﴾:

لِمَحْوِ القَمَرِ مَعْنَيانِ خَلْقُهُ مَطْموسَ النّورِ، وَاسْتِفادَتُهُ النّورَ مِنَ الشَّمْسِ إلى المُحاقِ

الفاءُ في ﴿فَمَحَوْنَآ﴾ من قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ تفسيريَّةٌ، وذلك لأنَّ المحْوَ المذكورَ، وما عُطِفَ عليه لَيْسا ممّا يحصُلُ عقيبَ جَعْلِ اللَّيْلِ والنَّهارِ آيتين، بل هُما مِنْ جملة ذلك الجعْلِ ومكَمِّلاتِه، هذا إذا حُمِلَ مَحْوُ القمَرِ عَلى مَعْنى خَلْقِه مطموسَ النّورِ في نفسِه، أمّا إذا حُمِلَ المَحْوُ على نَفْسِ ما اسْتَفادَهُ القَمَرُ مِنَ الشَّمسِ شيئًا فشيئًا إلى المُحاقِ، فالفاءُ دالَّةٌ على التَّعْقيبِ[2].

وَيجوزُ أن تكون الفاءُ اعتراضيَّةً، والجملَةُ بعْدَهُ وقعَت اعتراضًا بين جُمْلَةِ ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ ومتعلِّقها، وهوَ قَوْلُهُ: ﴿لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾[3].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالمَحْوِ دونَ الإزالَةِ:

نـورُ القَمَرِ مُكْتَسَبٌ مِنْ نـورِ الشَّمْسِ، وَلَيْسَ نورًا ذاتِيًّا

في التَّعبيرِ عَنْ زوالِ نورِ القمَرِ بالمَحْوِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ نورَهُ مُكْتَسَبٌ، وأنَّ ذلك حاصِلٌ مِنَ الشَّمْسِ، وذلك لأنَّنا نرى في القمَرِ نورًا، مَعَ قَطْعنا بأنْ لا نورَ لَهُ الآن؛ فنعلَمُ مِنْ هذا أنَّ ذلك النّورَ ليسَ مِنْهُ، وإنَّما هو مستفادٌ مِنْ غيرِه، وفي التَّعبيرِ بالمَحْوِ إشارةٌ إلى أنَّهُ كان مضيئًا، ثُمَّ أُزيلَ ضَوْؤُهُ، فصارَ مُظْلِمًا[4].

وعَدَلَ النَّظْمُ القرآنيُّ عَنِ التَّعبيرِ بالإزالَةِ إلى التَّعبيرِ بالمَحْوِ؛ لأنَّ الإزالَةَ تُستعمَلُ غالبًا لإعْدامِ الذّاتِ أو تَنَحّيها عَنْ مَكانِها، فلو جاءَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 139.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 159.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 44.
(4) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 46 - 47.

النَّظْمُ القرآنيُّ: (فأزلنا آية الليل)؛ لتوُهِّم غيرُ المُرادِ، ورُبَّما توُهِّم تعارضُ القُرآنِ الكَريم مَعَ الحِسِّ والواقِعِ.

دِلالَةُ إِسْنادِ فِعْلِ المَحْوِ إلى الضَّميرِ:

مَحْوُ القَمَرِ صادِرٌ بِعَظَمَةِ اللهِ تَعالى الباهِرَةِ

أُسْنِدَ فِعْلُ المَحْوِ إلى الضَّمير (نا) الدّالِّ عَلى العظَمَةِ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ﴾، تعظيمًا لشأنِ هذا الوَصْفِ المذكورِ وهو كَوْنُ القَمَرِ مَمْحوًّا نورُهُ، وأنَّهُ صادِرٌ بعظَمَةِ اللّهِ تعالى الباهرَةِ[1]؛ إذِ الذي مَحاهُ هوَ اللّهُ العظيمُ ﷻ، وما يصدُرُ مِنَ العظيمِ عظيمٌ.

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ في اسْتِعْمالِ لَفْظِ المَحْوِ:

تَشْبيهُ اخْتِفاءِ الأَشْياءِ في الظُّلْمَةِ بِالمَحْوِ

في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ استعارَةٌ؛ حيثُ أُطْلِقَ المَحْوُ على انعدامِ النّورِ؛ لكَوْنِ النّورِ يُظْهِرُ الأشياءَ، والظُّلْمَةَ لا تُظْهِرُها، فشُبِّهَ اختفاؤُها بالمحوِ، فيكون مَعْنى ﴿فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ﴾: جعَلْناها لا تُبْصَرُ المرئيّاتُ فيها، كما لا يُبْصَرُ ما مُحيَ مِنَ الكتابِ، فتكونُ الاستعارَةُ تصريحيَّةً تبعيَّةً[2].

دِلالَةُ إِضافَةِ لَفْظِ ﴿ءَايَةَ﴾ إلى: ﴿ٱلَّيۡلِ﴾ وَإلى ﴿ٱلنَّهَارِ﴾:

تَحْقيقُ مَضْمونِ الجُمْلَةِ المُتَقَدِّمَةِ

إضافَةُ ﴿ءَايَةَ﴾ إلى ﴿ٱلَّيۡلِ﴾ وإلى ﴿ٱلنَّهَارِ﴾ في قَوْلِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ﴾ بيانيَّةٌ، والتَّقديرُ: (فَمَحَوْنا الآيَةَ التي هيَ اللَّيْلُ، وجَعَلْنا الآيَةَ التي هي نفسُ النَّهارِ مبصِرةً)، وذَلِكَ كَما في إضافَةِ العدَدِ إلى المعدودِ، نحو: خمسة رجال، وفائدةُ الإضافةِ البيانيَّةِ ههنا: تحقيقُ مضمونِ الجملَةِ السّابقَةِ، والمَعْنى: (جعلنا الآيَةَ التي هيَ اللَّيْلُ مَمْحوَّ الضَّوءِ مَطموسَهُ، لا يستَبينُ فيه شيءٌ، كما لا يستَبينُ ما في اللَّوحِ الممحوِّ)[3].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 385.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 20، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 44.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، 20/ 306، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 159، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 26.

تَذْكيرُ العِبادِ بنِعْمَةِ تَكْوينِ هَذينِ الخَلْقَيْنِ العَظيمَيْنِ

دِلالَةُ إعادَةِ لَفْظِ ﴿ءَايَةَ﴾:

في تَكرار لَفْظِ ﴿ءَايَةَ﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ تنبيهٌ على أنَّ المرادَ بالآيَةِ في الموضعِ الثّاني مَعْنًى غيرُ مَعْنى الآيَةِ في الموضِعِ الأوَّلِ؛ إذْ آيةُ اللَّيْلِ الملازِمَةُ لَهُ هي القمَرُ، وآيةُ النَّهارِ الملازِمَةُ لهُ هيَ الشَّمْسُ، وفي هذا التَّنبيهِ دليلٌ على بديعِ صُنْعِ اللّهِ سُبحانَهُ، وتذكيرٌ للعبادِ بنِعْمَةِ تكوينِ هذينِ الخَلْقَيْنِ العظيمينِ(1).

لا انْتِفاعَ بِالبَصَرِ إِلّا في الضِّياءِ

المَجازُ العَقْلِيّ في: ﴿مُبۡصِرَةً﴾:

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ إسنادُ الإبصارِ إلى الشَّمْسِ - وهيَ آيةُ النَّهارِ - لأنَّهُ لمّا كانت الشَّمْسُ في غايةِ الضّياءِ بحيث يُبْصِرُ بها كُلُّ مَنْ لَهُ بصَرٌ؛ أُسْنِدَ إليها الإبصارُ عَلى وَجْهِ المبالغَةِ، فيكون هَذا مِنَ الإسْنادِ المجازيِّ، كما في قولِهِمْ: لسانٌ مُتَكَلِّمٌ، أي: مُتَكَلَّمٌ بهِ، فالأَمْرُ قَدْ يُسنَدُ إلى ما يكون به مِنْ آلَةٍ وسبَبٍ، فيكون مَعْنى: ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي: مُبْصَرًا بِسَبَبِها، والمُبْصِرُ حقيقةً هوَ صاحِبُ البصَرِ، ولكنَّ صاحبَ البصَرِ لا ينتفِعُ ببصَرِهِ إلّا في الضّياءِ دونَ الظَّلامِ(2).

مِنْ حِكَمِ آيَةِ النَّهارِ تَسْهيلُ السَّعْيِ في طَلَبِ الرِّزْقِ

مَعْنى اللّامِ في: ﴿لِّتَبۡتَغُواْ﴾:

اللّامُ في ﴿لِّتَبۡتَغُواْ﴾ مِنْ قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلًا مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ يُرادُ بها التَّعليلُ، وهي عِلَّةٌ تختصُّ بآيَةِ النَّهارِ، أي: جَعَلْنا آيةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً لأجْلِ أَنْ تَسْعَوا في طَلَبِ الرِّزْقِ الذي هو مِنْ فَضْلِ اللّهِ عَلَيْكُم(3).

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 44.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 385، وابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 13، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 26، وابن باديس، مجالس التذكير، ص: 47.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 44 - 45.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِلَفْظِ الابْتِغاءِ:

عُبِّرَ بِلَفْظِ الابْتِغاءِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ دون لفظِ الطَّلَبِ؛ لكونِ الابتغاءِ أبلغَ وأخصَّ؛ إذْ معناهُ: الطَّلَبُ الشَّديدُ، ويكون بالسَّعْيِ إلى أمْرٍ على وَجْهِ المحبَّةِ لَهُ، وفي التَّعبيرِ عَنْ طَلَبِ أسبابِ الحياةِ بالابْتِغاءِ: إيماءٌ إلى الشَّرْطَيْنِ اللّازمين لتحصيلِ المَطْلوبِ؛ وهوُ السَّعْيُ والمحبَّةُ[1].

لِتَحْصيلِ المَطْلوباتِ شَرْطانِ السَّعْيُ وَالمَحَبَّةُ

بَلاغَةُ الاكْتِفاءِ في التَّعْليلِ لآيةِ النَّهارِ دونَ آيَةِ اللَّيْلِ:

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾ اكتفاءٌ، حيثُ نُصَّ على عِلَّةِ آيةِ النَّهار، وهي الابتغاءُ مِنْ فضلِ اللّهِ تعالى بالتَّصرُّفِ في المعاشِ، ولم يُنَصَّ على علَّةِ آيةِ اللَّيْلِ، وهي السُّكونُ فيه، وخُصَّت حِكْمَةُ آيةِ النَّهارِ بالذِّكْرِ؛ لأنَّ المِنَّةَ بها أوضحُ وأظهَرُ، ولأنَّ مَنْ تَنَبَّهَ إليها؛ يحصلُ له التَّنَبُّهُ إلى ضدِّها، وهي السُّكونُ في اللَّيْلِ[2].

حِكْمَةُ آيَةِ النَّهارِ الابْتِغاءُ مِنْ فَضْلِ اللهِ تَعالى، وَحِكْمَةُ آيَةِ اللَّيْلِ السُّكونُ فيه

دِلالَةُ تَنْكيرِ ﴿فَضۡلٗا﴾:

نُكِّرَت كلمةُ ﴿فَضۡلٗا﴾ مِنْ قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ تعظيمًا لَهُ، وتنبيهًا على سَعَةِ هَذا الفضلِ؛ ليَذْهَبَ الخَلْقُ في جميعِ نَواحيهِ، ويَأْخُذوا بِجَميعِ أَسْبابِه المَأْذونِ لَهُم فيها[3].

التَّنْبيهُ عَلى سَعَةِ فَضْلِ اللهِ تَعالى

مَعْنى ﴿مِّن﴾ في: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾:

حرفُ الجرِّ ﴿مِّن﴾ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ دالٌّ عَلى الابْتِداءِ، والمَعْنى: أنَّ الفضلَ الذي يطلُبُهُ الخَلْقُ عِنْدَ تصرُّفِهم في المعاشِ مصدَرُهُ مِنَ اللّهِ سُبحانَهُ.

مَصْدَرُ الفَضْلِ هو الله سُبْحانَهُ

سِرُّ التَّعْبيرِ باسْمِ اللهِ (الرَّبِّ):

اختيرَ اسْمُ اللّهِ (الرَّبّ) في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن

---

(1) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 48.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 44.

(3) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 48.

وُجوبُ الرِّضا بِما يَسَّرَهُ اللهُ تَعالى مِنَ الرِّزْقِ بَعْدَ الأخذِ بِالأَسْبابِ المَشْروعَةِ

﴿رَبِّكُمۡ﴾؛ لِتَضَمُّنِه معنى الإِحْسانِ، وهوَ الأَنْسَبُ لهذا السّياقِ؛ إِذِ المَعْنى: لِتَبْتَغوا فضلًا مِنَ المُحْسِنِ إليكم فيهما؛ بضياءِ أحدِهما وظلامِ الآخَرِ، ولأنَّ اسمَ (الرَّبِّ) دالٌّ على المالكِ المدبِّرِ لمملوكِه بالحِكْمَةِ، فيُعطيه في كُلِّ حالٍ من أحوالِهِ ما يناسِبُهُ، وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّ الخَلْقَ يَنْبَغي لَهُم أن يَرْضَوا بِما يسَّره اللّهُ لَهُم مِنَ الرِّزقِ بعدَ قيامِهم بالأَسْبابِ المَشْروعَةِ؛ ثقةً بعدلِ اللّهِ تَعالى وحِكْمَتِه[1].

مَعْنى اللّامِ في: ﴿وَلِتَعۡلَمُواْ﴾:

مِـنْ حِـكَـمِ اللَّـيْلِ وَالنَّهارِ حِسابُ الشُّهورِ وَالسِّنينَ

اللّامُ في ﴿وَلِتَعۡلَمُواْ﴾ مِنْ قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾ يُرادُ بها الحِكْمَةُ والتَّعليلُ، وهي حِكْمَةٌ حاصِلَةٌ مِنْ آيةِ اللَّيْلِ والنَّهارِ معًا؛ وهي حِكْمَةُ حسابِ السِّنينَ، وهي في اللَّيْلِ أَظْهَرُ؛ لانْضِباطِ حسابِ الشُّهورِ والسِّنينَ بحسابِ القَمَرِ[2].

دِلالَةُ عَطْفِ ﴿وَٱلۡحِسَابَۚ﴾ عَلى ﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ﴾:

الاهْتِمامُ بِشَأْنِ الحِسابِ

عَطْفُ ﴿وَٱلۡحِسَابَۚ﴾ عَلى ﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾ إطنابٌ بعطفِ العامِّ على الخاصِّ، وذلك لأنَّ الحسابَ يشمَلُ حسابَ الأيّامِ والشُّهورِ والفصولِ والأعوامِ، ونُكْتَةُ ذلكَ الاهتمامُ بشأنِ الخاصِّ[3]، وذلك مِنْ وجهينِ:

أحدهما: بذِكْرِهِ مقدَّمًا، ومِنْ طرُقِ الاهْتِمامِ التَّقديمُ.

ثانيهما: بذِكْرِهِ مرَّتينِ؛ إحداهما منفردًا على سبيلِ الاسْتِقْلالِ، وأُخْراهما: مُنْدَرِجًا ضِمْنَ أفرادٍ أُخْرى.

مَعْنى الواوِ في: ﴿وَكُلَّ﴾:

طَـيُّ ما دَلَّـتِ الـقَرائِنُ عَلَيْهِ اقْـتِـصـادًا في اللَّفْظِ

الواوُ في ﴿وَكُلَّ﴾ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا﴾ عاطفةٌ[4] الجملَةَ بَعْدَها على جملَةِ: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ﴾،

---

(1) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 48.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 45.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 45.
(4) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 15/ 20.

ولفظُ ﴿وَكُلَّ﴾ منصوبٌ على الاشْتِغالِ، فهو مفعولٌ بِهِ لِفعْلٍ محذوفٍ يُفسِّرُهُ ما بعدَهُ، والتَّقديرُ: فصَّلنا كُلَّ شيءٍ فصَّلْناهُ، لكن لا يصحُّ إظهارُهُ؛ لئلّا يُجْمَعَ بين المُفسِّرِ والمفسَّرِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِلَفْظِ ﴿وَكُلَّ﴾ وَإضافَتِها إلى ﴿شَيْءٍ﴾:

كُلُّ ما يَحْتاجُ النّاسُ إلَيهِ في المَعاشِ وَالمَعادِ بَيَّنَهُ اللهُ تَعالى

في التَّعْبيرِ بِلَفْظِ ﴿وَكُلَّ﴾ مُضافًا إلى ﴿شَيْءٍ﴾ في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلٗا﴾ مبالغةٌ في الإحاطَةِ والاستغراقِ، وأنَّ اللّهَ سُبحانَهُ قد بيَّنَ كُلَّ ما يفْتَقِرُ النّاسُ إليه في معاشِهِم ومعادِهِم[1].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِلَفْظِ التَّفْصيل:

تَمامُ البَيانِ لِكُلِّيّاتِ الأُمورِ وَجُزْئِيّاتِها

في التَّعْبيرِ بِلَفْظِ التَّفْصيلِ دونَ التَّبْيينِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلٗا﴾؛ لكونِ التَّفصيلِ أبلغَ وأقْوَى دِلالَةً؛ إذِ التَّفصيلُ مشْتَقٌّ مِنَ الفصْلِ بمعنى القطْعِ[2]، ويُرادُ به الإبانَةُ التّامَّةُ لِجُزْئيّاتِ الأَمْرِ المُبَيَّنِ كُلِّها دَقيقِها وجَليلِها.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ الماضي ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾:

عَظَمَةُ البَيانِ الذي بَيَّنَهُ اللهُ تَعالى لِعِبادِهِ

عُبِّرَ بالفعلِ الماضي ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلٗا﴾ لتحقيقِ وصفِ التَّفصيلِ والبيانِ، وأنَّ اللّهَ سُبحانَهُ لم يَدَعْ شيئًا يحتاجُهُ النّاسُ في المَعاشِ والمعادِ إلّا وبيَّنَهُ غايةَ البيانِ، ولعظَمَةِ هذا البيانِ وشمولِهِ أُسْنِدَ فِعْلُهُ إلى الضَّميرِ (نا) الدّالِّ على العَظَمَةِ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالمَصْدَرِ ﴿تَفْصِيلٗا﴾:

تَمامُ قُدْرَةِ اللهِ تَعالى

في التَّعْبيرِ بالمَصْدَرِ ﴿تَفْصِيلٗا﴾ بَعْدَ الفِعْلِ المُشْتَقِّ مِنْهُ (فَصَّلْنا) في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلٗا﴾ تأكيدٌ للأمرِ وتقريرٌ لَهُ، لقصْدِ التَّنْبيهِ على تمامِ القُدْرَةِ، وأنَّه سُبحانَهُ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 30.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 30.

يُريدُهُ، والمَعْنى: كُلَّ شيءٍ فصَّلناهُ حقًّا، وفصَّلناهُ، وبيَّنّاهُ على الوَجْهِ الذي لا مزيدَ عليهِ بحيثُ لا يَلْتَبِسُ مَعَهُ بغَيْرِهِ[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الآيَةُ وَالعَلامَةُ:

الآيَةُ أَخَصُّ مِنَ العَلامَةِ

الفرقُ بينَهُما أنَّ الآيَةَ هيَ العلامَةُ الثّابِتَةُ، وهيَ مِنْ قَوْلِهِم: تَأَيَّيْتُ بالمَكانِ، أي: تَحَبَّسْتُ بِهِ، وتَثَبَّتُّ، وعلى هذا فتكونُ الآيةُ أخصَّ مِنَ العلامَةِ خصوصًا مُطْلقًا[2].

المَحْوُ وَالإِزالَةُ:

المَحْوُ ذَهابٌ بِالشَّيْءِ بِإِزالَةِ أَثَرِهِ، وَالإِزالَةُ تَنْحِيَةُ الشَّيْءِ عَنْ مَكانِهِ

الفرقُ بينَهُما مِنْ وَجْهَيْنِ: **أَحَدهما**: أنَّ أصلَ المَحْوِ دالٌّ على الذَّهابِ بالشَّيءِ بإزالَةِ أثَرِهِ[3]، بخلافِ الإزالَةِ فإنَّ أصْلَ دِلالَتِها اللُّغويَّةِ هوَ تَنْحِيَةُ الشَّيءِ عَنْ مكانِه[4].

والآخَرُ: أنَّ المَحْوَ يكونُ غالبًا لِلْأَوْصافِ القائمَةِ بالذَّواتِ، بخلافِ الإزالَةِ فغالبُ اسْتعمالِها في إعدامِ الذّاتِ أو تَنْحيتِها عَنْ محلِّها.

السِّنونَ وَالأَعْوامُ:

غالِبُ اسْتِعْمالِ السَّنَةِ في الشِّدَّةِ، وَغالِبُ اسْتِعْمالِ العامِ في الخَيْرِ

السِّنونَ والأَعْوامُ بِمَعْنًى مُتَقاربٍ؛ إذْ كُلٌّ مِنْ مُفْرَدَيهما - السَّنَةِ والعامِ - دالٌّ علَى مُدَّةٍ مَخْصوصةٍ مِنَ الزَّمَنِ تَسْتَغْرِقُ اثْنَيْ عشَرَ شَهْرًا، إلّا أنَّهُ يُغايَرُ بينَهُما في غَلَبَةِ الاسْتِعْمالِ.

فالغالِبُ اسْتِعْمالُ السَّنَةِ في الحَوْلِ الذي فيهِ الجَدْبُ والشِّدَّةُ، ولِذا يُطْلَقُ علَى الجدْبِ: السَّنَةُ، كما قالَ اللّهُ سُبحانَهُ: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ [الأعراف: 130]، أي: بالقَحْطِ والجَدْبِ.

والغالِبُ في لفظِ العام استعْمالُهُ في الرَّخاءِ والخَيْرِ والخَصْبِ[5]،

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 20/ 307، والبقاعي، نظم الدرر: 11/ 386، وابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 13.

(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 71.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (محو).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زول).

(5) الرّاغب، المفردات: (عوم)، والسيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 2/ 368، والهرري، حدائق الرَّوح والريحان: 21/ 356.

ويَجْمَعُ ذِكْرَ العام والسَّنَةِ قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ٤٧ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٌ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ٤٨ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ٤٩﴾ [يوسف: 47 - 49]، فعُبِّر بالسِّنينَ عنِ زَمَنِ الاجْتِهادِ في الزَّرْعِ مَعَ عَدَمِ الاسْتِمْتاعِ الكاملِ بما حُصِدَ مِنْهُ، استِعْدادًا للأزمنةِ القادِمَةِ، ثُمَّ عُبِّر عنِ الأزْمِنَةِ الشِّدادِ بالسِّنينَ أيضًا في قولِهِ: ﴿سَبۡعٞ شِدَادٞ﴾ [يوسف: 48] أي: سَبْعُ سِنينَ؛ لحذْفِ التّاءِ في العَدَدِ، فذلكَ مُقْتَضٍ أنَّ مفرَدَ المعدودِ مؤنَّثٌ، وهوَ لفظُ سنَةٍ، ثُمَّ عُبِّر عَنِ الزَّمَنِ الذي يكونُ فيه الفرَجُ بالعامِ، فقال سُبحانَهُ: ﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ٤٩﴾ [يوسف: 49].

وقدِ اجتَمَعَ ذِكْرُ العامِ والسَّنَةِ أيضًا في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا﴾ [العنكبوت: 14]، فعُبِّر بلفظِ السَّنَةِ، ذَمًّا لأيّامِ الكُفْرِ والتَّكذيبِ، وبلفظِ العامِ في الاسْتِثْناءِ إيماءً إلَى أنَّ زمَنَ حَياةِ نوحٍ عليه السلام بَعْدَ إغْراقِهِمْ؛ كانَ عيشًا رَغيدًا واسِعًا حَسَنًا بإيمانِ المُؤمنينَ وخَصْبِ الأرضِ(1).

التَّفْصيلُ وَالبَيانُ:

التَّفْصيلُ أَخَصُّ

مِنَ البَيانِ

التَّفْصيلُ أخصُّ من البَيانِ خُصوصًا مُطْلَقًا، وذَلِكَ لأنَّ التَّفْصيلَ هو البَيانُ التّامُّ لِجُزْئيّاتِ الأَمْرِ المُبَيَّنِ كُلِّها دَقيقِها وجَليلِها، بِحَيْثُ لا يَبْقى أَيُّ لَبْسٍ، بِخِلافِ البَيانِ فَهوَ مُطْلَقُ الإيضاحِ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 404.

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الإسراء: 13]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بَيانُ عَظيمِ قُدْرَةِ اللهِ تَعالى وَسَعَةِ عِلْمِهِ

لَمّا ذكرَ اللّهُ سُبحانَهُ آيَتَيِ اللَّيْلِ والنَّهارِ، وكانَ ذلكَ أَمْرًا دَقيقًا؛ أَتْبَعَهُ ما هو أدَقُّ مِنْهُ وأَغْرَبُ في بيانِ قُدْرَةِ اللّهِ سُبحانَهُ وعِلْمِهِ مِن تَفاصيلِ أحوالِ العِبادِ، فقال تَعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَلْزَمْنَٰهُ﴾: اللّامُ والزّايُ والميمُ تدور اشتقاقاتُها على مصاحبَةِ شيءٍ لآخَرَ على وَجْهِ الدَّوام، ومِنْهُ: اللِّزامُ؛ وهوَ العذابُ الملازِمُ للكُفّارِ[2]، ومِنْ هذا البابِ قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [الفتح: 26]، أي: جَعَلَهُم يُمْسِكونَها في قُلوبِهِم علَى وَجْهٍ لا تتَفَلَّتُ مِنْهُم[3]، وقولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ﴾، أي: جَعَلَه يَصْحَبُهُ، ولا يُفارِقُهُ.

2) ﴿طَٰٓئِرَهُۥ﴾: الطّاءُ والياءُ والرّاءُ تدور اشتقاقاتُها على خِفَّةِ الشَّيءِ في الهواءِ، ثُمَّ يُستعارُ ذلكَ في كُلِّ سُرْعَةٍ، ويُقال لِكُلِّ مَنْ خفَّ: قَدْ طارَ، وَمِنْ ذلك: الطّائرُ، والجمعُ: طَيْرٌ، وهو كُلُّ ذي جناحٍ يَسْبَحُ في الهواءِ، وتقولُ العربُ: تطايرَ الشَّيءُ؛ إذا تفرَّقَ، واستطارَ الفَجْرُ والبَرْقُ، أي: انتشَرَ في الأفقِ، ومِنْ هذا المَعْنى قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإنسان: 7]، أي: منتَشِرًا[4].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 386.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لزم).

(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (لزم).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طير)، والرّاغب، المفردات: (طير)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (طير).

وأمّا قولُ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ﴾، أَيْ: عَمَلَهُ الذي طارَ عَنْهُ مِن خَيْرٍ وَشَرٍّ[1].

3) ﴿عُنُقِهِۦۖ﴾: العينُ والنّونُ والقافُ تدلُّ تصريفاتُها على امتدادٍ في شيءٍ، إمّا على وَجْهِ الارْتِفاعِ وإمّا على وَجْهِ الانْسياحِ، ومِنْهُ: العُنُقُ، وهوَ الوُصْلَةُ التي ما بينَ الرَّأسِ والجسَدِ[2]، وهوَ المرادُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ﴾.

4) ﴿يَلۡقَىٰهُ﴾: اللّامُ والقافُ والحرفُ المعتلُّ يدلُّ كثيرٌ من تصريفاتِها على توافي شيئينِ[3]، ومِنْهُ اللِّقاءُ، وهوَ استقبالُ الشَّخصِ أوِ الشَّيءِ قريبًا مِنْهُ[4]، واللِّقاءُ يُقالُ في الإدْراكِ بالحِسِّ وبالبصَرِ وبالبصيرَةِ[5]، وقولُ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ بِمَعْنى: يُصادِفُهُ ويُعايِنُهُ.

5) ﴿مَنشُورًا﴾: النّونُ والشّينُ والرّاءُ تدورُ اشتقاقاتُها على فَتْحِ شيءٍ وتشَعُّبِهِ، وَمِنْهُ قولُهم: نَشَرْتُ الكِتابَ، وهوَ يشبه قولكَ: طَوَيْتُهُ[6]، ونَشْرُ الثَّوبِ والصَّحيفَةِ: بَسْطُها[7]، وقولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ أَيْ: يُخْرِجُ اللّهُ تعالى لَهُ يَوْمَ القيامَةِ كِتابًا قَدْ سُجِّلت فيهِ أَعْمالُهُ يَراهُ مَفْتوحًا.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

كُلُّ إِنْسانٍ مُقْتَرِنٌ بِعَمَلِهِ

لقدِ اقتضتْ حِكمةُ اللّهِ وقُدرتُه وسَعةُ علمِه وشُمولُ عدْلِه أن يجعلَ لكلّ إنسانٍ ما قُضيَ لَهُ أنّه عامِلُهُ ملازمًا له، وهو صائرٌ إِلَيْهِ

(1) الرّاغب، المفردات: (طير).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عنق)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عنق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لقي).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (لقي).
(5) الرّاغب، المفردات: (لقي).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نشر).
(7) الراغب، المفردات: (نشر).

مِن شَقاء أو سَعادَةٍ بِعَمَلِه في عُنُقِه لا يُفارِقُهُ، فلا يُحاسَبُ بِعَمَلِ غَيْرِه، ولا يُحاسَبُ غيرُه بِعمَلِه، ويُخْرِجُ اللّهُ تَعالى لَهُ يومَ القيامَةِ كِتابًا قَد سُجِّلَت فيه أَعْمالُهُ يَراهُ مَفْتوحًا[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلالَةُ الواوِ في ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ﴾:

إحاطَةُ اللهِ تَعالى بِالخَلْقِ عِلْمًا

الواوُ في ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ﴾ عاطِفَةُ الجملةَ بعدَها على قولِه قَبْلُ: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾، مِنْ بابِ عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ؛ اهتمامًا بشأْنِ الفَرْدِ الخاصِّ، وذلك لأَنَّ اللّهَ سُبحانَهُ أخبرَ أنَّه محيطٌ بكلِّ شيءٍ تفصيلًا، ثمَّ لمّا كان أهمُّ الأشياءِ في هذا المقامِ إحاطةَ عِلْمِه بالأعمالِ كُلِّها؛ أعقبَ ذِكْرَ ما فصَّلَهُ اللّهُ ﷻ مِنَ الأشياءِ بالتَّنبيه على تفصيلِ أعمالِ العبادِ تفصيلًا لا يَقْبَلُ الرَّيْبَ[2].

دِلالَةُ إضافَةِ ﴿وَكُلَّ﴾ إلى ﴿إِنسَٰنٍ﴾:

لا يَخْرُجُ شَيْءٌ مِنْ أعمالِ العِبادِ عَنْ عِلْمِ اللهِ سُبْحانَهُ

في التَّعْبيرِ بِلَفْظِ ﴿وَكُلَّ﴾ مُضافًا إلى ﴿إِنسَٰنٍ﴾ في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ مبالغةٌ في الإحاطَةِ والاستغراقِ، وأنَّ اللّهَ سُبحانَهُ قد وسِعَ عِلْمُهُ كُلَّ شيءٍ، وأنَّه أحصى أعمالَ العبادِ كُلَّها، لا يَخْرُجُ منْها شيءٌ عَنْ عِلْمِه تَعالى.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالإِلْزامِ في: ﴿أَلْزَمْنَٰهُ﴾:

التَّنْبيهُ إلى أَنَّ أعمالَ العِبادِ مُلازِمَةٌ لَهُمْ

في التَّعبيرِ بالإِلْزامِ في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ تَنْبيهٌ إلى أَنَّ عمَلَ العَبْدِ لازِمٌ مقارنٌ لَهُ ممتَنِعُ الزَّوالِ عَنْهُ، وأنَّهُ واجبُ الحصولِ لَهُ لا محالَةَ[3].

التَّعْبيرُ بالماضي ﴿أَلْزَمْنَٰهُ﴾ وَإِسْنادُه إلى الضَّميرِ (نا):

عِلْمُ اللهِ سُبْحانَهُ بِجَميعِ أَحْوالِ الخَلْقِ

في التَّعبيرِ بالفِعْلِ الماضي ﴿أَلْزَمْنَٰهُ﴾ مِنْ قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَكُلَّ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 397، ونخبة من أساتذة التفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 283.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 46.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 20/ 309.

﴿إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ لتحقيقِ وصفِ الإلْزام، وأنَّ اللّهَ سُبحانَهُ محيطٌ بأعمالِ العبادِ عالمٌ بجميعِ أحوالِهِم، ولعظَمَةِ هذا الإلْزامِ أُسْنِدَ فِعْلُهُ إلى الضَّميرِ (نا) الدّالِّ على العَظَمَةِ؛ لأنَّ ما صدرَ مِنَ العظيمِ عظيمٌ[1].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالطّائِرِ عَنِ العَمَلِ:

ما قَدَّرَهُ اللهُ تَعالى عَلى العِبادِ مِنْ أَعْمالِهِمْ كائِنٌ لا مَحالَةَ

الطّائر في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ هوَ عملُ العبْدِ الذي قَدَّرهُ اللّهُ تَعالى عليهِ مِنْ خيرٍ أَوْ شرٍّ، وفي التَّعبيرِ عَنِ العَمَلِ بالطّائِرِ وَجْهانِ[2]:

أحدُهُما: أنَّه عُبِّرَ بِهِ جَرْيًا على عادَةِ العربِ، فإنَّهم كانوا لا يُقْدِمون، ولا يُحْجِمونَ في مهمّاتِ الأعمالِ إلّا بالطّائِرِ، وكان مِنْ عادتِها التَّيمُّنُ والتَّشاؤُمُ بالطَّيْرِ، فيقولونَ: جرى لفلانٍ الطّائِرُ بكَذا وكذا، فخاطَبَ اللّهُ سُبحانَهُ العربَ بما تَعْرِفُ.

والآخَرُ: أنَّه عُبِّرَ عَنِ العملِ الصّادِرِ عِنِ العَبْدِ باختيارِهِ حسبما قُدِّرَ لَهُ بالطّائرِ؛ لأنَّهُ كالذي طارَ إليهِ مِنَ الغَيْبِ والقدرِ، أو أنَّ ذلك ما وقع له في القسمةِ الإلهيَّةِ والتَّقديرِ الرَّبّانيِّ حسبَ استحقاقِهِ في عِلْمِ اللّهِ سُبحانَهُ، مِنْ قولِهِم: طارَ لَهُ سَهْمُ كَذا.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالحَرْفِ ﴿فِى﴾:

لُزومُ عَمَلِ العِبادِ في أَعْناقِهِمْ وَمُصاحَبَتُهُ لَهُمْ عَلى الدَّوامِ

عُبِّرَ بحرفِ الجرِّ ﴿فِى﴾ دون (عَلى) في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾؛ لدِلالَةِ ﴿فِى﴾ عَلى الظَّرْفيَّة، فَهيَ أدلُّ عَلى لُزومِ عمَلِ العِباد في أَعْناقِهِم ومُصاحَبَتِه لَهُم مُصاحَبَةً دائمَةً، بخِلافِ (على) فإنَّها دالَّةٌ عَلى مُطْلَقِ العُلوِّ أوِ الاسْتِعْلاء مِن غَيْرِ دِلالَةٍ عَلى مُلازمةٍ أَوْ دَوام.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 20/ 309.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 442، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 21، والبقاعي، نظم الدرر: 11/ 386 - 387، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 161.

سِرُّ التَّخصيص بِلَفْظِ العُنُق:

خُصَّ لفظُ العُنُقِ بالذِّكرِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ﴾ لِنكاتٍ[1]:

أوَّلُها: لأنَّ العُنُقَ محلُّ الزَّيْنِ بالقلادَةِ ونحوِها، ومحلُّ الشَّيْنِ بالغُلِّ ونحوِهِ، وكذا عَمَلُ العبادِ إمّا أن يكونَ خيرًا يَزينُهُم أَوْ شرًّا يشينُهُمْ.

ثانيها: أنَّه أبلَغُ في تَحْقيق مَقْصودِ الآيةِ مِنْ إفادَةِ اللُّزوم، أي: إنَّ عملَ العبدِ ملازمٌ لَهُ لا يقدرُ على الانفكاكِ عَنْ شيءٍ مِنْهُ، كما لا يُقْدَرُ على الانفكاكِ عَنِ العُنُقِ.

ثالثُها: أنَّ العُنُقَ هو العُضْوُ الذي يَبْقى مكشوفًا عادَةً، يظهَرُ ما عليهِ مِمّا يَزينُ أو يَشينُ، وكذا عَمَلُ الإنسانِ يظْهَرُ لَهُ ظهورًا لا لَبْسَ فيه ولا خفاءَ، ولذا خُتِمَت الآيةُ بقولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا﴾.

ظُهورُ العَمَلِ لِلعَبْدِ ظُهورًا لا لَبْسَ فيهِ وَلا خَفاءَ

بَلاغَةُ الكِنايَةِ في التَّعْبيرِ بالعُنُق:

في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ﴾ كنايةٌ عَنْ صِفَةٍ، وهي صفةُ الملازَمَةِ والقُرْبِ، فتكونُ الآيَةُ كِنايَةً عَنْ مُلازَمَةِ أَعْمالِ العِبادِ لَهُمْ، لا تُزايلُهُمْ، ولا تُفارِقُهُمْ يَوْمَ القيامَةِ، كما يُقالُ: جعلتُ هذا في عُنُقِكَ، أي: قلَّدتُكَ هَذا العَمَلَ، وألزمتُكَ الاحتفاظَ بِهِ، ومِنْهُ قولُهُم: قَلَّدَهُ السُّلْطانُ كذا، أي: صارَتِ الوِلايَةُ في لزومِها لَهُ في موضعِ القلادَةِ ومَكانِ الطَّوْقِ[2].

وفي التَّعبير بالعُنُقِ تصويرٌ لشدَّةِ اللُّزومِ وكمالِ الارتباطِ، أي: ألزمناهُ عملَهُ بحيثُ لا يُمكنُهُ مفارَقَتُهُ أبدًا[3].

شِدَّةُ لُزومِ الأَعْمالِ لِلعِبادِ وكَمالُ ارْتِباطِها بِهِمْ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 443، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 20/ 309، والبقاعي، نظم الدرر: 11/ 387، وإسماعيل حقي، روح البيان: 5/ 140.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 20/ 309، ومحمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4347.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 161، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 31.

ويَحْتَمِلُ أن تكونَ الآيةُ مِنْ بابِ التَّمثيلِ لحالٍ قَدْ تكونُ معروفةً عِنْدَ العربِ، وهيَ وضعُ علاماتٍ تُعَلَّقُ في رقابِ مَنْ يُعَيَّنُ لعملٍ ما، أَوْ ليُؤخذَ مِنْهُمْ شيءٌ، أو تكونَ الآيةُ تمثيلًا بالبعيرِ الذي يوسَمُ في عُنُقِهِ بوَسْمٍ لئلّا يَخْتلِطَ بغيْرِه، أو الذي يوضَعُ في عُنُقِهِ جُلْجُلٌ - وهوَ الجَرَسُ الصَّغيرُ - لئلّا يضِلَّ عَنْ مالكِه[1].

بَلاغَةُ المَجازِ:

أعْمالُ العِبادِ لا تخلو عن كونها خَيْرًا أَوْ شَرًّا

التَّعبير عنِ العملِ بالطّائِرِ في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ إشارةٌ إلى ما كان عِنْدَ العربِ مِنَ التَّفاؤُلِ والتَّشاؤُمِ، فاللّهُ ﷻ بيَّنَ أنَّ العمَلَ مشابِهٌ لما كانوا يتَّخِذونَهُ للتَّفاؤُلِ والتَّشاؤُمِ، ولكنَّهُ عملٌ هوَ خيرٌ لَكُمْ أو شرٌّ عليكُمْ، وذلك على طريقَةِ الاستعارَةِ التَّصريحيَّةِ، وعُبِّرَ عَنْهُ بملازَمَتِه الأعناقَ؛ لكونِ العنُقِ تكونُ به القلائدُ، فكان ذلكَ على سبيلِ الاستعارة التّصريحيّة[2].

دِلالَةُ الواوِ في: ﴿وَنُخْرِجُ﴾:

بَيانُ حالٍ أُخْرى مِنْ أَحْوالِ الآخِرَةِ

الواوُ في ﴿وَنُخْرِجُ﴾ مِنْ قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا﴾ عاطِفَةُ الجملةِ بَعْدَها عَلى جملةِ ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾؛ لِما بينَهُما مِنَ التَّوسُّطِ بين الكمالَيْنِ؛ إذِ اشتركَتِ الجملتانِ في الخبريَّةِ، وبينَهُما تناسُبٌ في اللَّفْظِ والمَعْنى، أمّا في اللَّفْظِ؛ فكلتا الجُملَتَيْنِ فِعْليَّةٌ[3]، وأمّا في المَعْنى؛ فلأنَّ مضمونَ الجملتَيْنِ في أحوالِ الإِنْسانِ في الآخِرَةِ.

أَثَرُ تَعَدُّدِ القِراءاتِ في ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ﴾ عَلى المَعْنى:

التَّكامُلُ الدّلاليُّ لِلْقِراءاتِ القُرْآنِيَّةِ

في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ﴾ ثلاثُ قراءاتٍ متواترةٍ[4]:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 47.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 30، ومحمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4348.

(3) جملةُ ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ﴾ جملةٌ فعليَّةٌ، لأنَّ لفظَ ﴿وَكُلَّ﴾ منصوبٌ على الاشتغالِ بفِعْلٍ محذوفٍ يُفسِّرُهُ المذكورُ.

(4) ابن الجزري، النشر: 2/ 306، والبنّا الدّمياطي، إتحاف فضلاء البشر، ص: 356.

أولاها: ﴿وَيُخْرَجُ لَهُۥ﴾ بياءٍ مضمومةٍ في أوَّلِهِ وفتحِ الرّاءِ، وهي قراءةُ أبي جَعْفَرٍ، على أنَّ (يُخْرَجُ) فعلٌ مُضارِعٌ مبنيٌّ للمفعولِ مِنَ الفِعْلِ الرُّباعيِّ (أَخْرَجَ)، ونائبُ الفاعِلِ ضميرٌ مستترٌ تقديرُهُ (هوَ)، يعودُ على ﴿طَٰٓئِرَهُۥ﴾ المذكورِ قَبْلُ في قولِهِ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾، و﴿كِتَٰبًا﴾: حالٌ، أو منصوبٌ على المفعوليَّةِ، وذلك جائزٌ[1].

ثانيها: ﴿وَيَخْرُجُ لَهُۥ﴾ بياءٍ مفتوحةٍ في أوَّلِهِ وضمِّ الرّاءِ، وقرأَ بها يعقوبُ الحضرمي، على أنَّ (يَخْرُجُ) فعلٌ مضارعٌ مبنيٌّ للمَعْلومِ مِنَ الفعلِ الثُّلاثيِّ (خَرَجَ)، وفاعِلُهُ ضميرٌ مستَتِرٌ تقديرُهُ (هوَ)، يَعودُ عَلى ﴿طَٰٓئِرَهُۥ﴾، و﴿كِتَٰبًا﴾ حالٌ.

ثالثُها: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ﴾ بنونٍ مضمومَةٍ في أوَّلِهِ وكسْرِ الرّاءِ، وبها قَرَأَ باقي العشَرَةِ، على أنَّ (نُخْرِجُ) فعلٌ مضارِعٌ مبنيٌّ للمَعْلومِ مِنَ الفِعْلِ الرُّباعيِّ (أَخْرَجَ)، وفاعِلُهُ ضميرٌ مُسْتَتِرٌ وجوبًا، تقديرُهُ (نَحْنُ)، و﴿كِتَٰبًا﴾ مفعولٌ بهِ[2].

دِلالَةُ تَقْديمِ الجارِّ وَالمَجْرورِ ﴿لَهُۥ﴾:

قُدِّمَ الجارُّ والمَجْرورُ ﴿لَهُۥ﴾ مِنْ قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا﴾، وحقُّ الجارِّ والمجرورِ التَّأَخُّر، ولم يَرِد في النَّظْمِ القرآنيِّ: (وَنُخْرِجُ يومَ القيامَةِ كِتابًا لَهُ)؛ لفائدتينِ:

كُلُّ عَبْدٍ يُخْرَجُ لَهُ كِتابٌ خاصٌّ بِهِ لا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ

إحْداهُما: أنَّ ذلك يوهِمُ خلافَ المقصودِ؛ إذْ يصيرُ الجارُّ والمَجْرور ﴿لَهُۥ﴾ صفةً لـ ﴿كِتَٰبًا﴾، فتكونُ الآيَةُ مفيدَةً أنَّ كتابًا للعَبْدِ يُخْرَجُ يوم القيامَةِ، مِنْ غيرِ بيانٍ لِمَنْ يُخْرَجُ لَهُ هذا الكتابُ.

ثانيهما: أنَّ الآيَةَ واردَةٌ لإرادَةِ الحَصْرِ، ولذا يتعيَّنُ تقديمُ الجارِّ والمجرورِ لإفادَةِ هذا المَعْنى، أي: نُخْرِجُ الكتابَ المخصوصَ لَهُ لا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 48.

(2) محمد سالم مُحَيْسِن، المغني في توجيه القراءات العشر المتواترة: 2/ 338.

لغَيْرِه، والمقصودُ: أنَّ كُلَّ عَبْدٍ يُخْرَجُ لَهُ كتابٌ خاصٌّ بِهِ، لا يَطَّلِعُ عليهِ غيرُهُ.

سِرُّ تَنْكِيرِ لَفْظِ ﴿كِتَٰبًا﴾:

لا يَفوتُ الكِتابَ شَيْءٌ مِنْ أَعْمالِ العِبادِ

نُكِّرَ لَفْظُ ﴿كِتَٰبًا﴾ من قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾، لإرادَةِ تَفْخيمِهِ وتَعظيمِهِ؛ إذْ مِنْ شأنِ هَذا الكِتابِ أنَّهُ لا يفوتُه شيءٌ مِنْ أَعْمالِ العِبادِ إلّا وهوَ مدَوَّنٌ فيهِ، كما قالَ اللّهُ سُبحانَهُ: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف: 49].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالمُلاقاةِ:

تَحْقيقُ مُلاقاةِ كُلِّ إنْسانٍ لِكِتابِهِ

عُبِّرَ بِالمُلاقاةِ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ على وَجْهِ الاستعارَةِ؛ إذِ استُعيرَ فعل (يَلْقى) لمَعْنى (يَجِدُ)؛ تَشْبيهًا لِوُجْدانِ النِّسْبَةِ بلقاءِ الشَّخْصِ، على سبيلِ الاستعارَةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ؛ وذلكَ تحقيقٌ لهذا الوُجْدانِ[1].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَلْقَىٰهُ﴾:

حَثُّ العِبادِ عَلى اكْتِسابِ ما تُسْعِدُهُمْ رُؤْيَتُهُ في كِتابِهِمْ

عُبِّرَ بالفِعْلِ المضارعِ ﴿يَلْقَىٰهُ﴾ مِنْ قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ للدَّلالَةِ عَلى حُدوثِ هذهِ الملاقاةِ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ، وَلِتَصْويرِ هذهِ المُلاقاةِ في صورَةِ ما يحدثُ الآنَ تعظيمًا لشأنِها وتهويلًا لَها؛ حثًّا للعبادِ على اكتسابِ ما تُسْعِدُهُم رُؤيتُه في كتابِهِم، واجتنابِ ما يَسوؤُهُم النَّظَرُ إليهِ فيهِ.

أَثَرُ تَعَدُّدِ القِراءاتِ في قَوْلِهِ: ﴿يَلْقَىٰهُ﴾ عَلى المَعْنى:

وَفْرَةُ المَعاني بِتَعَدُّدِ القِراءاتِ القُرْآنِيَّةِ

في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿يَلْقَىٰهُ﴾ قراءَتانِ مُتَواتِرَتانِ[2]:

إحْداها: ﴿يَلْقَىٰهُ﴾ بفتحِ الياءِ وسكونِ اللّامِ وقافٍ مُخَفَّفَةٍ، وبها قرأَ باقي العشرَةِ، على أنَّهُ فِعْلٌ مضارعٌ للفِعْلِ (لَقيَ) الثُّلاثيِّ، مبنيّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 48.

(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 306.

للفاعلِ، وفاعِلُهُ ضميرٌ مستَتِرٌ تقديرُهُ (هوَ) راجعٌ عَلى صاحبِ الكتابِ، وهوَ الإنسانُ المتقدِّمُ ذِكْرُهُ في قولِه: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾، والهاءُ في ﴿يَلْقَىٰهُ﴾ في محلِّ نصبٍ مفعولٌ بِهِ[1].

والقراءَةُ الأُخْرى: ﴿يُلَقَّىٰهُ﴾ بضمِّ الياءِ وفتحِ اللّامِ وقافٍ مشدَّدَةٍ، وبها قرأَ ابنُ عامرٍ وأبو جَعْفَر، على أنَّهُ فِعْلٌ مضارعٌ للفِعْلِ (لَقّى) مضعَّف العَيْنِ، مبنيٌّ للمفعولِ، ونائبُ الفاعِلِ ضميرٌ مستترٌ تقديرُهُ (هوَ) يعودُ على (الإنسانِ) المذكورِ في قَوْلِهِ قَبْلُ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ﴾، وهوَ مفعولُهُ الأوَّلُ، والهاءُ في ﴿يُلَقَّىٰهُ﴾ مفعولُهُ الثّاني، و﴿مَنشُورًا﴾ حالٌ.

وقراءَةُ التَّخفيفِ فيها إثباتُ اللِّقاءِ، وقراءةُ التَّشديدِ فيها مبالغَةٌ في إثباتِ هَذا اللِّقاءِ، أَوْ يُحْمَلُ على التَّلَقّي[2].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِـ ﴿مَنشُورًا﴾:

في التَّعبيرِ بالنَّشْرِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ تعجيلٌ للبُشْرى بالحسَنَةِ لأَهْلِ الإيمانِ والطّاعَةِ، وتعجيلٌ بالتَّوبيخِ بالسَّيِّئَةِ لأهلِ الكُفْرِ والعِصْيانِ[3].

تَعْجيلُ البِشارَةِ لِأَهْـلِ الإيـمانِ، وَتَعْجيلُ التَّوْبيخِ لِأَهْلِ الكُفْرانِ

بَلاغَةُ الكِنايَةِ في قَوْلِهِ: ﴿يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾:

﴿مَنشُورًا﴾ مِنْ قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾، معناهُ: غيرُ مطويٍّ، وذلك لِتُمْكِنَ قراءَتُهُ، وفي وصفِ الكتابِ بأنَّه مَنْشورٌ كنايَةٌ عَنْ سُرْعَةِ اطِّلاعِه عَلى جميعِ عَمَلِه، حتَّى إنَّ الكِتابَ يحضُرُ مِنْ قبْلِ وصولِ صاحبِهِ مفتوحًا للاطِّلاعِ عليهِ[4].

سُـرْعَـةُ اطِّـلاعِ الـعِـبـادِ عَـلى أَعْمالِهِمُ المُدَوَّنَةِ في كُتُبِهِمْ

(1) محمد سالم مُحَيْسِن، المغني في توجيه القراءات العشر المتواترة: 2/ 339.

(2) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4348.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 229.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 48.

﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤﴾ [الإسراء: 14]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بَيانُ حالٍ أُخرى مِنْ أَحْوالِ الآخِرَةِ

بعد أن بيَّن اللّهُ سبحانَهُ ما يلقاه العبدُ يومَ القيامة مِن كتاب عملِه، وأنَّه يلقاهُ منشورًا؛ بيَّنَ ﷻ ما يُقال لَهُ عِنْدَ هذهِ الملاقاة، فقال تَعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱقۡرَأۡ﴾: القافُ والرّاءِ والهَمْزَةُ تدُلُّ تَصْريفاتُها عَلى الجَمْع، ومِنْهُ: القِراءَةُ، وأَصْلُها: حِفْظُ المَقْروءِ أو استيعابُه في القَلْب، وذلك لِتَجَمُّعِه فيه[1]، ومِنْهُ قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ١٨﴾ [القيامة: 17 - 18]، قال ابنُ عَبّاسٍ: "إذا جَمَعْناهُ وأَثْبَتْناهُ في صَدْرِكَ؛ فاعْمَلْ بهِ"[2].

والقِراءَةُ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ﴾ يُراد بها: معرفةُ ما أُثْبِتَ للإنسانِ مِنَ الأعمالِ[3].

2) ﴿كَفَىٰ﴾: الكافُ والفاءُ والحرفُ المُعْتَلُّ تدلُّ تصريفاتُها على الحَسْبِ الذي لا مُسْتزادَ فيه، ومِنْهُ: الكُفْيَةُ، وهيَ القوتُ الكافي[4]، والكِفايَةُ: ما فيهِ سَدُّ الخَلَّةِ، وبُلوغُ المُرادِ في الأَمْرِ، وتقولُ العربُ: كافيكَ فُلانٌ مِن رَجُلٍ، أي: حَسْبُكَ مِن رَجُلٍ[5]، ومِنْهُ قولُ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾، أي: حسبُكَ باللّهِ تَعالى حافظًا لأعمالِ العبادِ ومجازيًا لَهُمْ عَلَيْها.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قرأ).
(2) الرّاغب، المفردات: (قرأ).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 49.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كفا).
(5) الرّاغب، المفردات: (كفى).

3) ﴿حَسِيبًا﴾: الحاء والسّين والباءُ تدُلُّ اشتقاقاتُها على معانٍ، منها: العَدُّ[1]، ومنها: الحِسابُ؛ وهو استعمالُ العَدَدِ[2]، ومنها أيضًا: الحَسَبُ، وهو الفَعالُ الحَسَنُ لَهُ ولآبائه، مَأْخوذ من الحِساب، وذلك لأنَّهم يَعُدّون ذلك في مناقبهم[3].

والحِسابُ مصدرٌ بمعنى المحاسبة، والمرادُ به: عَرْضُ كلِّ أعمال الشَّخص وتقويمُها[4]، والحَسيبُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبًا﴾ هوَ المحاسِبُ[5].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الشّاهِدُ على العِبادِ يَكونُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ

أكّدَ البيانُ الإلهيُّ أنّ الحجّةَ ستُقامُ على الإنسانِ من نفسِه، إذ يُقالُ له يومَ القيامَةِ: اقْرَأْ كِتابَ عَمَلِكَ الذي عَمِلْتَهُ في الدُّنيا، حَسْبُكَ اليَوْمَ نَفْسُكَ عَلَيْكَ حاسِبًا يَحْسِبُ عَلَيْكَ أعْمالَكَ، وَيُحْصيها عَلَيْكَ، لا نَبْتَغي عليكَ شاهِدًا غَيْرَها، ولا نَطْلُب عليك مُحْصيًا سِواها[6].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغَةُ مَوْقِعِ جُمْلَةِ ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ﴾:

زِيادَةُ التَّقْريعِ وَالتَّوْبيخِ

الآية منفصلة عن سابقتها لكمال الانفصال؛ لكون هذه الجملة إنشائيَّةً، وتلك الآية خبريَّةً، وفي قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ﴾ حذْفٌ، والتَّقديرُ: يُقالُ لَهُ: اقْرَأْ كتابَكَ، فطويَ ذلك اختصارًا، ولظهورِ القرينَةِ على تَعْيينِ ذلكَ المحذوفِ، وجملةُ ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ﴾ يجوزُ أن تكونَ صفةً أو حالًا، ويجوزُ أن تكون مستأنَفَةً استئنافًا

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حسب).
(2) الرّاغب، المفردات: (حسب).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (حسب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (حسب).
(5) الواحدي، التفسير البسيط: 13/ 282.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 401، ونخبة من أساتذة التفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 283.

نحويًّا، والمَقْصودُ بها زيادَةُ التَّقريعِ والتَّوبيخِ؛ ليكونَ ذلك إقرارًا مِنَ العَبْدِ بقراءَتِه على نفسِه[1].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِلَفْظِ القِراءَةِ دونَ التِّلاوَةِ:

القِراءَةُ أَعَمُّ دِلالَةً مِنَ التِّلاوَةِ

عُبِّر بالقراءَةِ دونَ التِّلاوَةِ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ﴾؛ لكونِ القراءَةِ أعمَّ دلالَةً مِنَ التِّلاوَةِ؛ إِذْ هيَ دالَّةٌ على مجرَّدِ التَّلفُّظِ بكلامٍ مَجْموعٍ بعضُهُ إلى بعضٍ، وهي في الآيةِ مستعملَةٌ في معرفةِ ما أُثْبِتَ للإنسانِ مِنَ الأعمالِ[2]، بخلافِ التِّلاوَةِ فإنَّ أصلَ اشتقاقِها يومئُ إلى أنَّها قراءَةٌ واتِّباعُ مُقْتَضى المقروءِ[3]، وهذا لا يصحُّ إرادَتُهُ في الآيَةِ؛ إِذْ لا يُطْلَبُ مِنْ قارئِ صحيفَةِ عملِه يومَ القيامَةِ اتِّباعُ شيءٍ فيها، وإنَّما المقصودُ إقامَةُ الحُجَّةِ عليهِ بمُطْلَقِ القراءَةِ.

دِلالَةُ الأَمْرِ في: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾:

الاحْتِجاجُ عَلى العِبادِ وَقَطْعُ العُذْرِ عَنْهُمْ

﴿ٱقۡرَأۡ﴾ مِنْ قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ﴾ فعلُ أَمْرٍ مِنَ القراءَةِ، والأَمْرُ فيه مستعمَلٌ في التَّسخيرِ، ومُكَنًّى به عِنْ قَطْعِ العذرِ عَنْهُمْ والاحْتِجاجِ عَلَيهم، كما يدلُّ لِذلك قولُهُ سُبحانَهُ بعدُ: ﴿كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾[4].

وفي الأَمْرِ أيضًا زيادَةُ توبيخٍ وتقريعٍ[5].

سِرُّ الإِظْهارِ في مَوْضِعِ الإِضْمارِ:

تَهْويلُ أَمْرِ الكِتابِ وَتَفْخيمُ شَأْنِهِ

أُظْهِرَ لَفْظُ الكتابِ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾، وكان مقتضى الظّاهِرِ إضْمارَهُ؛ لتقدُّمِ ذِكْرِه في قولِه: ﴿وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا﴾، فَلَمْ يَرِد في النَّظْمِ القرآنيِّ: (اقرأْهُ، كَفى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عليكَ حَسيبًا)؛

---

(1) الماوردي، النكت والعيون: 3/ 233، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 443، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 22، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 32.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 49.

(3) محمد محمّد داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، ص: 160.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 48.

(5) الماوردي، النكت والعيون: 3/ 233.

تهويلًا لأَمْرِهِ وتفخيمًا لشأنِه، ولأنَّ إظهارَهُ أَنْسَبُ لِحَمْلِ المخاطَبِ على الإقرارِ بما فيه.

دِلالَةُ الإضافَةِ في ﴿كِتَٰبَكَ﴾:

اختِصاصُ كُلِّ عَبْدٍ بِكِتابٍ يَشْتَمِلُ عَلى أَعْمالِهِ

أُضيفَ الكتابُ إلى ضَميرِ الخِطاب في ﴿كِتَٰبَكَ﴾ مِنْ قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ﴾؛ لإفادَةِ اختصاص كُلِّ عَبْدٍ بكتابٍ، فليسَ المأمورُ بِهِ أن يقرأَ مُطْلَقَ كتابٍ، بَلْ أَنْ يَقْرَأَ كتابَهُ المسجَّلَ عليه، وهوَ صادِرٌ مِنْهُ؛ إذْ فيه حسناتُهُ وسيِّئاتُهُ[1].

مَعْنى الباءِ في ﴿بِنَفۡسِكَ﴾:

تَعْظيمُ شَأْنِ المُحاسَبَةِ وَتَقْوِيَتُها

الباءُ في ﴿بِنَفۡسِكَ﴾ مِنْ قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ داخِلَةٌ على فاعِلِ ﴿كَفَىٰ﴾، والمرادُ بها توكيدُ النِّسْبَةِ[2]، تعظيمًا لشأنِ هذه المحاسبَةِ، وتقويةً لَها؛ لأنَّ ذلك أنسَبُ لسياقِ الحَمْلِ على الإقْرارِ.

ويجوزُ أن تكونَ الباءُ للتَّعديةِ، ويكونَ الفِعْلُ ﴿كَفَىٰ﴾ مضمَّنًا مَعْنى الفِعْلِ (اكتفِ)، والتَّقديرُ: (اقْتَنِعْ بنفسكَ اليومَ حسيبًا)، كما ذُكِرَ نظيرُهُ في قولِ اللّهِ سُبحانَه: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ١٦٦﴾[3] [النساء: 166].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِـ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾

كَفى بِالعَبْدِ حَسيبًا في جَميعِ هَذا اليَوْمِ الذي تُكْشَفُ فيهِ السَّرائِرُ

جاءَ التَّعبيرُ بـ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾، دون التَّعبيرِ بـ (يوم القيامَةِ)، فلَمْ يَرِد في النَّظْمِ القرآنيِّ: (كفى بِنَفْسِكَ يَوْمَ القيامَةِ عليكَ حَسيبًا)؛ لتقدُّمِ التَّصريحِ بِهِ في الآيَةِ المتقدِّمَةِ، في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا﴾، وللدّلالَةِ عَلى أنَّ هذه المقالَةَ تُقالُ لَهُ في ذلك اليومِ، والمَعْنى: كفى بنفسكَ في هذا اليومِ الحاضِرِ عليك

(1) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4349.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 387، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 49.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/ 45.

حسيبًا، فاللّامُ في ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ للعَهْدِ الحضوريِّ، ويجوزُ أن تكونَ للعَهْدِ الذِّكْريِّ الصَّريحيِّ، ولا تنافيَ بينَ الدّلالَتينِ؛ لإمكانِ الجَمْعِ بينَهُما.

وفي التَّعبيرِ بلَفْظِ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ إيماءٌ إلى استغراقِ أجزاءِ ذلك اليوم، والمَعنى: كفى بنفسكَ حَسيبًا في جميعِ هذا اليومِ الذي تُكْشَفُ فيه السَّرائرُ، وتَظْهَرُ جميعُ الأمورِ[1].

دِلالَةُ تَقْديمِ الجارِّ وَالمَجْرورِ ﴿عَلَيۡكَ﴾:

كُلُّ إنْسانٍ حَسيبٌ عَلى نَفْسِهِ لا عَلى غَيْرِهِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَيۡكَ﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾، فلَمْ يَرِد في النَّظْمِ القرآنيِّ: (كفى بنفسِكَ اليومَ حسيبًا عليكَ)؛ لإرادَةِ القصْرِ والحَصْرِ، أي: كفى بنفسِكَ حسيبًا عليكَ لا على غَيْرِكَ؛ إذْ كُلُّ واحدٍ يقرأُ كتابَ أعمالِهِ لا كتابَ أعمالِ غَيْرِهِ، ويكونُ مُقرًّا على نَفْسِهِ في أعمالِها، خيرًا كانَتْ أَوْ شرًّا.

وفي تقديمِ الجارِّ والمجرورِ - بالإضافَةِ إلى النُّكْتَةِ المَعْنويَّةِ المتقدِّمَةِ - ملحظٌ صوتيٌّ؛ وهوَ مراعاةُ التَّناسُبِ بينَ رؤوسِ الآيِ[2].

سِرُّ اخْتِيارِ التَّعْبيرِ بِـ ﴿حَسِيبٗا﴾:

بَراعَةُ خَتْمِ آيِ القُرْآنِ الكَريمِ بِما يُناسِبُ مَضامِينَها

لمّا كان الأَمْرُ بالقراءَةِ في قولِه: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ﴾ مُسْتَعْمَلًا في قَطْعِ العذْرِ عَنْهُمْ والاحتجاجِ عَلَيْهِم بالنَّظَرِ في أعمالِهِم التي عَمِلوها خيرًا كانَتْ أَوْ شرًّا، وكان هذا محاسبَةً؛ ناسبَهُ التَّعبيرُ بـ (الحَسيبِ).

وجيءَ بهذا الوصْفِ على زِنَةِ (فَعيلٍ) لإرادَةِ المبالغَةِ، أي: كفى بنفسكَ عليكَ بليغَ المحاسَبَةِ شديدَها[3].

دِلالَةُ تَعْدِيَةِ ﴿حَسِيبٗا﴾:

الإنْسانُ حَسيبٌ وَشَهيدٌ عَلى نَفْسِهِ يَوْمَ القِيامَةِ

عُدّيَ ﴿حَسِيبٗا﴾ بِحَرْفِ الجَرِّ (عَلى) في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾؛ لأنَّهُ بمَعْنى الحاسِبِ والعادِّ، وهوَ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 387.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 32.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 387 - 388.

مِمّا يَتَعَدّى بحرفِ الجرِّ (عَلى)، كما في قولِهِم: عَدَّدَ فلانٌ على فلانٍ قبائِحَهُ[1].

ويَحْتَمِلُ أَنْ يكونَ عُدّيَ بـ (عَلى) لتضمُّنِهِ مَعْنى الشَّهيدِ[2]، فإنَّهُ يُعدَّى بـ (عَلى)، كما في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ﴾ [المزمل: 15].

دقَّةُ البَيانِ القُرآنيِّ في التَّصَرُّفِ بالألْفاظِ تَذْكيرًا وَتَأْنيثًا

دِلالَةُ تَذْكيرِ ﴿حَسِيبًا﴾ مَعَ النَّفْسِ:

ذُكِّرَ لفظُ الحَسيبِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ مع النَّفْسِ وهو مذكَّر، والنّفس فيها معنى التأنيث، لوجوهٍ[3]:

أحدها: أنَّ تذكيرَهُ مراعاةٌ لمعنى النَّفْسِ في هذا السّياقِ، وهوَ الشَّخْصُ أو الإنسانُ.

ثانيها: أنَّه لَمّا كانَت كلمةُ (النَّفْسِ) خاليةً مِنْ علامَةِ التَّأنيث اللَّفْظيَّةِ؛ أُجْرِيَت مُجرى لَفْظِ (السَّماءِ) في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ﴾ [المزمل: 18].

ثالثُها: أنَّهُ لَمّا ذُكِرَ الحسابُ والكفايةُ، وهما مِمّا يتولّاهُ الرِّجالُ عادةً؛ ذُكِّرَ معها لفظُ الحسيبِ مراعاةً لذلكَ.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القِراءَةُ وَالتِّلاوَةُ:

التِّلاوَةُ أَخَصُّ مِنَ القِراءَةِ

التِّلاوَةُ في اللُّغةِ: الاتِّباعُ، يُقال: تلاهُ يتلوه؛ إذا تَبِعَهُ، ثُمَّ خُصَّت هذه الكلمَةُ في غالبِ الاستعمالِ القرآنيِّ في قراءة القرآنِ الكريم؛ لِما في قراءَتِهِ من تتابُعِ الآياتِ بصورةٍ مُنْتَظَمَةٍ، ولأنَّ المقصودَ من قراءَتِه اتِّباعُ ما دلَّ عليهِ.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 32.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 49.
(3) ابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 14، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 23، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 161، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 32، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 49.

أَمّا القراءَةُ في اللُّغةِ؛ فالجمعُ والضَّمُّ، وقراءةُ الكلامِ ضمُّ حروفه بعضِها إلى بعضٍ، والتَّلفُّظُ بها مجموعةً.

وبناءً عَلى هَذا؛ فتكونُ التِّلاوَةُ أخصَّ مِنَ القراءَةِ؛ لأَنَّ في التِّلاوَةِ دلالةً زائدةً، وهي الاتِّباعُ، فالتِّلاوَةُ: قراءَةٌ على وَجْهٍ مخصوصٍ، ولذا اخْتيرَ لَفْظُ القِراءَةِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ﴾[1].

(1) محمد محمَّد داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، ص: 158 - 160.

﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥﴾ [الإسراء: 15]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

طائِرُ الهِدايَةِ نَفْعٌ لِصاحِبِهِ وَطائِرُ الضَّلالِ ضُرٌّ لَهُ

لَمّا ذَكرَ اللّهُ تعالى أنَّهُ أَلْزَمَ كُلَّ إنسانٍ عَمَلهُ في عُنُقِهِ، وأنَّهُ يُخْرِجُ لَهُ يومَ القيامَةِ كِتابًا قَد سُجِّلَتْ فيهِ أَعْمالُهُ يَراهُ مَفْتوحًا، وأنَّه يُؤمَرُ بقراءتِهِ ليكونَ شاهدًا على نفسِهِ حسيبًا عليها؛ بيَّن في هذهِ الآيةِ اختلافَ الطّائرِ بين نافعٍ وضارٍّ، فطائرُ الهِدايَةِ نَفْعٌ لصاحبِهِ، وطائرُ الضَّلالِ ضُرٌّ لصاحبِهِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱهۡتَدَىٰ﴾: الهاء والدّالُ والحرفُ المعتلُّ تدلُّ كثيرٌ من تصريفاتِها على معنَى التَّقدُّمِ للإرشادِ، ومِنْهُ قولُهم: هَدَيْتُهُ الطَّريقَ، أي: تقدَّمْتُهُ لأُرْشِدَهُ، ومِنْهُ الهُدَى: ضدُّ الضَّلالَةِ[2].

والهدايةُ في الشَّرعِ نوعانِ: هدايةُ إرشادٍ ودِلالَةٍ، وهدايةُ توفيقٍ وإلهامٍ[3]، والمرادُ بالهداية في قولِه تَعالى: ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ﴾، هو سُلوكُ طَريقِ الحَقِّ واتِّباعُهُ.

2) ﴿ضَلَّ﴾: الضّادُ واللّامُ: تَدلُّ تصاريفُهُ على ضَياعِ الشَّيْءِ وذهابِهِ في غيرِ حقِّهِ[4]، ومِنْهُ يُقالُ لِمَنْ جارَ عَنِ القَصْدِ: ضالٌّ[5]؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 49.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هدي).
(3) عبد الرَّحمن البرّاك، شرح العقيدة الطَّحاويَّة، ص: 79.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضل).
(5) ابن فارس، مجمل اللّغة: (ضل).

لضياع سَعْيِه، ويرى بعضُ أئمَّة العربيَّةِ أنَّ أصلَ الضَّلالِ: الغَيْبوبَةُ[1]، ومِنْهُ قولُ اللّهِ حِكايَةً عَنِ الكُفّار: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۢۚ﴾ [السجدة: 10]، أي: اخْتَفَيْنا في الأرضِ بالدَّفْنِ وصِرْنا ترابًا وعظامًا؛ فلَمْ يَتَبيَّن شيءٌ من خَلْقِنا[2].

والضَّلال: ضدُّ الهُدَى، يُقال: ضَلَّ في الأَرْضِ؛ إذا لَم يَهْتَدِ لِلسَّبيلِ[3]، ومِنْهُ قولُ اللّه تعالى: ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ﴾.

3) ﴿تَزِرُ﴾: الواوُ والزّاي والرّاءُ تدورُ اشتقاقاتُها على أَصْلَيْنِ، أحدهما: الملجأُ، والآخَرُ: الثِّقَلُ في الشَّيءِ، فمِنَ الأوَّلِ قولُ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ١١﴾ [القيامة: 11]، وَمِنَ الآخَرِ: الوِزْرُ؛ وهو في الأصْلِ: حِمْلُ الرَّجُلِ؛ إذا بسَطَ ثوبَهُ أو رداءَهُ، فجعَلَ المتاعَ فيه وحَمَلَه، ومِنْهُ سُمّيَ الذَّنْبُ وِزْرًا، وكذا سُمّيَ الوزيرُ وزيرًا؛ لأنَّه يَحمِلُ الثِّقْلَ عَنْ صاحبِه.

وقولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ﴾ أَيْ: لا تَحمِلُ نفسٌ مذْنِبَةٌ إثْمَ نفسٍ مذنِبَةٍ أُخْرى.

4) ﴿نَبۡعَثَ﴾: الباء والعين والثّاءُ تدلُّ اشتقاقاتُها على إثارةِ الحيِّ مِن مكانٍ يَلْزَمُهُ بقوَّةٍ، فيَنْدَفِعُ ناهِضًا أو مُبْتَعِدًا، كَبَعْثِ النّائم والبَعير[4].

يُقالُ: انْبَعَثَ فُلانٌ لشَأْنِه؛ إذا ثارَ، ومَضَى ذاهِبًا لحاجَتِه[5]، ومنه قيل لنَشْرِ الميِّت وإحيائه: بَعْثٌ؛ لأنَّ فيه إثارةً له عن مكانِه[6].

و﴿نَبۡعَثَ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ بمعنى: حتَّى نُرْسِلَ إليهِم رسولًا يُقيمُ الحُجَّةَ عَلَيْهِم بالآياتِ التي تَقْطَعُ عُذْرَهُم[7].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

أوضح البيانُ الإلهيُّ أنّ عاقبةَ هدايةِ الإنسان أو ضَلالِه إنّما تعودُ على الإنسانِ نفسِه، فمَنِ اسْتقامَ عَلى طَريقِ الحقِّ، فاتَّبَعَه؛ فَلَيْس يَنْفَعُ إلّا نفسَهُ بِلُزومِه الاستقامَةَ وبإيمانِه

(1) الخطابيّ، غريب الحديث: 1/ 484.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ضل).
(3) ابن دُرَيْد، جمهرة اللُّغَة: (ضلل).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (بعث).
(5) الزَّبيديّ، تاج العروس: (بعث).
(6) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 2/ 543.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 402.

انْتِفاعُ الإِنْسانِ بِاهْتِدائِهِ لِنَفْسِهِ، وَضَرَرُهُ بِضَلالِهِ عَلَيْها

باللّهِ سُبحانَهُ ورَسولِه ﷺ، ومَن حادَ، واتَّبعَ طَريقَ الباطِلِ؛ فإنَّما يَعودُ عِقابُ ذَلِك عَلَيْهِ وَحْدَهُ، ولا تَحمِلُ نَفْسٌ مُذْنِبَةٌ إثْمَ نَفْسٍ مُذْنِبةٍ أُخْرى، وما كُنّا مُهْلِكي قَوْمٍ إلّا بَعْدَ الإعْذارِ إلَيْهِم بالرُّسُلِ، وإقامَةِ الحُجَّةِ عَلَيْهِم بالآياتِ التي تَقْطَعُ عُذْرَهُم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلالَةُ فَصْلِ هَذِهِ الآيَةِ عَمّا قَبْلَها:

بَيانُ اخْتِلافِ الطّائِرِ بَيْنَ النّافِعِ وَالضّارِّ

فُصِلَ قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ عمّا قَبْلَهُ؛ لوقوعِها بيانًا أو بدلَ اشتمالٍ لِما قَبْلَها، وهو قولُ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ﴾، فَيَكون بَيْنَ الجُمْلَتَينِ كمالُ الاتِّصالِ، وذلكَ لأنَّ الآيةَ واردَةٌ لبيانِ اختلافِ الطّائرِ بينَ ما كانَ نافعًا، وما كان ضارًّا، فطائرُ الهدايةِ نافِعٌ، وطائرُ الضَّلالِ ضارٌّ[2].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ الماضي ﴿ٱهۡتَدَىٰ﴾:

هِدايَةُ العَبْدِ مَنْفَعَتُها راجِعَةٌ إِلَيْهِ لا إِلى غَيْرِه

عُبِّرَ بالفِعْلِ الماضي ﴿ٱهۡتَدَىٰ﴾ مِنْ قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ﴾؛ للدّلالَةِ على تحقُّقِ الهِدايَةِ وثبوتِها، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ هدايَةَ العَبْدِ مَهْما رسَخَتْ وقَوِيَت وتحقَّقت فإنَّ منفعتَها راجِعَةٌ إليه نفسِه لا إلى غَيْرِه.

دِلالَةُ الفاءِ في قَوْلِه: ﴿فَإِنَّمَا﴾:

المُهْتَدي يَنالُ الجَزاءَ الحَسَنَ مِنْ عِنْدِ اللهِ سُبْحانَهُ

الفاءُ في ﴿فَإِنَّمَا﴾ مِنْ قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ رابطةٌ لجوابِ الشَّرْطِ، وهيَ دالَّةٌ على أنَّ ما بعدها مرتَّب عَلى ما ذُكِرَ قَبْلَها، وذلكَ لأنَّ الحسابَ إذا كان بكتابٍ منشورٍ يُحْصي عَلى العبْدِ أعمالَهُ جليلَها وحَقيرَها، وكانَ هذا الكتابُ مُخْتَصًّا بِهِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 401، ونخبة من أساتذة التفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 283.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 49.

ليسَ فيه مِنْ أعمالِ غَيْرِهِ شيءٌ؛ كانَت هدايَةُ مَنِ اهْتَدى لنفسِه؛ فَلا يُعَذَّبُ، وينالُ الجزاءَ الحسَنَ مِنْ عِنْدِ اللّهِ ﷻ[1].

بَلاغَةُ أُسْلوبِ القَصْرِ:

قَصْرُ نَفْعِ الهِدايَةِ عَلى صاحِبِها

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ أسلوبُ قَصْرٍ حاصِلٍ بـ (إنَّما)، وهو قصرُ صفةٍ عَلى موصوفٍ؛ إذْ قُصِرَ نفعُ الهدايَةِ وثوابُها على صاحبِها، بحيث لا يَتَعدّاهُ إلى غيرِه[2]، وهذا القصْرُ حقيقيٌّ مجازيٌّ وليسَ حقيقيًّا تحقيقيًّا؛ لأنَّ مِنْ صوَرِ اهتداءِ العَبْدِ ما يلحقُ ثوابُه غيرَهُ، فينتفعُ به، كَمَنْ عَمِلَ عملًا صالحًا أرشَدَهُ إليه آخَرُ، فإنَّه ينتفعُ بهذه الهدايَةِ، وينتفعُ الدّالُّ المُرْشِدُ؛ إذْ كانَ سببًا في هذه الهدايَةِ؛ لقولِ النَّبيِّ ﷺ: "إنَّ الدّالَّ عَلَى الخَيْرِ كَفاعِلِه"[3].

بَلاغَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ: ﴿يَهۡتَدِي﴾:

نَفْعُ الهِدايَةِ دائِمٌ مُسْتَمِرٌّ

عُبِّرَ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَهۡتَدِي﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ للإشارَةِ إلى التَّجدُّدِ والاسْتِمْرارِ، أي: إنَّ مَن تحقَّق بالهدايَةِ، وثَبَتَتْ لَهُ؛ فإنَّ اختصاصَ نَفْعِ هِدايَتِه لَهُ مُسْتَمِرٌّ ودائِمٌ، ولازِمُ ذَلِكَ: استِمْرارُ نَفْيِ انْتِفاعِ غَيْرِهِ بِها.

دِلالَةُ الواوِ في قَوْلِهِ: ﴿وَمَن ضَلَّ﴾:

بَيانُ أَحْوالِ العِبادِ المُتَبايِنَةِ

الواوُ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ﴾ عاطِفَةٌ الجملَةَ بعْدَها على جُملَةِ ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ﴾؛ لِما بَيْنَ الجملتينِ مِنَ التَّوسُّطِ بين الكَمالين؛ إذ إنَّ الجُمْلَتينِ خبريَّتان، وبَيْنَهُما جامِعٌ وهميٌّ، وهو التَّضادُّ، كما أنَّ بينَهُما تناسُبًا لفظيًّا؛ وهوَ اشتراكُهُما في الاسميَّة، فإنَّ كلتا الجُمْلَتَيْنِ اسميَّةٌ؛ لأنَّ اسْمَ الشَّرْطِ الذي صُدِّرتا بِهِ في محلِّ رفعٍ مبتدأٌ.

(1) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4350.

(2) الماوردي، النكت والعيون: 3/ 234، والبقاعي، نظم الدرر: 11/ 388.

(3) رواه الترمذيّ برقم: (2670)، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم: (1605).

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ الماضي ﴿ضَلَّ﴾:

ضَلالُ العَبْدِ ضرره عليه لا على غيره

عُبِّرَ بالفِعْلِ الماضي ﴿ضَلَّ﴾ مِنْ قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ﴾؛ للدّلالَةِ على تحقُّقِ الضَّلالِ وثبوتِه، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى أنَّ ضلالَ العَبْدِ مَهْما رسَخ، وقَوِيَ، وتحقَّق فيهِ؛ فإنَّ مضرَّتَهُ راجِعَةٌ إليهِ نَفسِهِ لا إلى غَيْرِهِ.

بَلاغَةُ أُسْلوبِ القَصْرِ:

قَصْرُ ضَرَرِ الضَّلالِ عَلى صاحِبِهِ

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ﴾ أسلوبُ قصْرٍ حاصِلٌ بـ (إنَّما)، وهو قصرُ صفةٍ عَلى موصوفٍ؛ إذْ قُصِرَ ضَرَرُ الضَّلالَةِ وإثْمُها عَلى صاحبِها، بحيث لا يَتَعدّاهُ إلى غيرِه[1]، وهذا القصْرُ حقيقيٌّ مجازيٌّ وليسَ حقيقيًّا تحقيقيًّا؛ لأنَّ مِنْ صوَرِ ضَلالِ العَبْدِ ما يلحقُ إثْمُهُ غيرَهُ، فيتضَرَّرُ بهِ في الآخِرَةِ، كَمَنْ عَمِلَ عملًا محرَّمًا أرشَدَهُ إليهِ آخَرُ، فإنَّ العامِلَ يتضرَّرُ بهذهِ الضَّلالَةِ التي ارتَكَبها، ويتَضَرَّرُ الدّالُّ المُرْشِدُ عَلَيْها؛ إذْ كانَ سببًا في هذه الضَّلالَةِ؛ لقولِ النَّبيِّ ﷺ: "وَمَنْ دَعا إِلَى ضَلالَةٍ، كانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثامِ مَنْ تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثامِهِمْ شَيْئًا"[2].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِاللّامِ مَعَ الهِدايَةِ وبِـ (عَلى) مَعَ الضَّلالِ:

الاهْتِداءُ نِعْمَةٌ وَغِنًى، وَالإِعْراضُ نِقْمَةٌ وَضَرَرٌ

في التَّعبيرِ باللّامِ مع فِعْلِ الهدايَةِ، وبـ (عَلى) مَعَ فِعْلِ الضَّلالِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ﴾ دِلالَةٌ على أنَّ الاهتداءَ نِعْمَةٌ وغِنًى، وأنَّ الإعراضَ والضَّلالَ ضرَرٌ على صاحبِه[3]؛ لأنَّ اللّامَ تدلُّ على المَنْفعَةِ و(عَلى) على المضرَّةِ، كَما في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ [البقرة: 286].

(1) الماوردي، النكت والعيون: 3/ 234، والبقاعي، نظم الدرر: 11/ 388، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 162، ومحمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4350.

(2) رواه مسلم في صحيحه، برقم: (1017).

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/ 309.

بَلاغَةُ المُقابَلَةِ في الآيَةِ:

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ﴾ مقابلةُ ثلاثةِ معانٍ بثلاثةٍ، حيثُ قوبِلَ ﴿ٱهْتَدَىٰ﴾ بـ ﴿ضَلَّ﴾، و﴿يَهْتَدِى﴾ بـ ﴿يَضِلُّ﴾، واللّام في ﴿لِنَفْسِهِۦ ۖ﴾ بـ (عَلى) في ﴿عَلَيْهَا ۚ﴾، وفي الجَمْعِ بينَ هذهِ الأشياءِ المُتقابلَةِ جمالٌ في الكَلامِ وبَهاءٌ في المَعْنى؛ لأنَّ كُلَّ ضِدٍّ مِنْ هذهِ الثَّلاثة يُظْهِرُ حُسْنَ ضِدِّهِ مزيدَ إظهارٍ وإيضاحٍ.

في الجَمْعِ بَيْنَ هَـذِهِ الأَشْـيـاءِ المُتَقابِلَةِ جَمالٌ في الكَلامِ وَبَهاءٌ في المَعنى

بَلاغَةُ العَطْفِ في: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ﴾:

قولُ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ﴾ واقعَةٌ موقع التَّعليلِ لِمَضْمونِ الجُمْلَةِ قَبْلَها، وَهيَ قولُهُ تَعالى: ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ﴾، وذلِكَ لِما في قولِهِ ﷻ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ﴾ مِنْ عموم الحُكْمِ، فإنَّ عَمَلَ أَحدٍ مِنَ النّاسِ لا يُلْحَقُ يَلْحَقُ نَفْعُهُ ولا ضَرَرُهُ بغَيْرِهِ، ولمّا كان مضمونُ هَذِهِ الجملةِ مَعْنًى مُهِمًّا؛ عُدَّ بِمَنْزِلَةِ الإفادَةِ الجديدَةِ للسّامِعِ، ولذلكَ عُطِفَتْ عَلى ما قَبْلَها ولم تُفْصَل، وقَدْ روعيَ فيها إبطالُ ما يُتوهَّمُ مِنْ أنَّ أوزارَهُمْ يَحْملُها غَيْرُهُم عَنْهُمْ[1].

إِبْطالُ ما يُتَوهَّمُ مِنْ أَنَّ أَوْزارَهُمْ يَحْمِلُها غَيْرُهُمْ عَنْهُمْ

سِرُّ التَّعْبيرِ عَنْ حَمْلِ الوِزْرِ بِالوِزْرِ:

عُبِّرَ عَنْ حَمْلِ الوِزْرِ بالوِزْرِ، فقال سُبحانَهُ: ﴿وَلَا تَزِرُ﴾؛ لأنَّ الوِزْرَ هُوَ سببُ حَمْلِه، فيكون ذلك مِنْ إطلاقِ السَّبَبِ وإرادَةِ المسبَّب[2]؛ للتَّنبيه على أنَّ حاملَ الوزرِ بمنزلةِ فاعلِه، وذلك مُنْتَفٍ؛ لأنَّه ظُلْمٌ؛ إذْ لا يُجْعَلُ من لَمْ يَفْعَلْ ذنبًا بمنزلَةِ مَنْ فَعَلَهُ، إلّا إذا كان متسبِّبًا فيه؛ فهو في الحقيقَةِ فاعِلٌ.

مَـنْ لَـمْ يَقترف ذَنْبًا ليس بِمَنْزِلَةِ صاحِبِ الذَّنْبِ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 49.

(2) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4350.

بَلاغَةُ التَّعْبيرِ عَنِ النَّفْسِ بِلَفْظِ ﴿وَازِرَةٌ﴾:

اعْتِبارُ الوِزْرِ المُتَعَدّي في مُحاسَبَةِ الأَنْفُسِ عَلى أَوْزارِ غَيْرِها

عُبِّر عَنِ النَّفْسِ بلفظِ ﴿وَازِرَةٌ﴾ على جِهَةِ الفرضِ والتَّقْدير، والمَعْنى: لو قُدِّرَت نفسٌ ذاتُ وِزْرٍ لا يُضافُ إلى وِزْرِها وِزْرُ غَيْرِها، فأفادَ هذا أنَّ النَّفْسَ التي لا وِزْرَ لها؛ لا تَزِرُ وِزْرَ غَيْرِها بطريقِ الأَوْلى والأَحْرى[1].

سِرُّ التَّعْبيرِ عَنِ الإِثْمِ بِالوِزْرِ:

تَشْنيعُ الإِثْمِ وَتَقْبيحُهُ

عُبِّر عَنِ الإثم بالوِزْرِ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، تشنيعًا للإثْمِ والذَّنْبِ وتقبيحًا لَهُ؛ لِما تُشْعِرُ بِهِ كلمَةُ (الوِزْرِ) مِنَ الثِّقَلِ الذي يشقُّ على صاحبِهِ المقارِنِ لَهُ.

بَلاغَةُ الجِناسِ في الآيَةِ:

أَثَرُ الجِناسِ في إِحْداثِ عُنْصُرِ المُفاجَأَةِ وَاخْتِلابِ الذِّهْنِ

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ جناسُ الاشتقاقِ بين ﴿تَزِرُ﴾ و﴿وَازِرَةٌ﴾ و﴿وِزْرَ﴾، وفي ذلك مِنَ التَّناسُقِ الصَّوْتي النّاشئ عَنْ تماثُلِ الكَلِماتِ تماثُلًا جُزئيًّا، فيكونُ لِذَلك أَثَرٌ بيِّنٌ في قَلْبِ المُتَلَقّي، وفيه أيضًا ما أحدثَهُ الجناسُ هَهُنا مِنْ عُنْصُرِ المفاجأةِ، واخْتِلابِ الذِّهْنِ؛ إذْ يتوَهَّمُ السّامِعُ أنَّ اللَّفْظَ مُرَدَّدٌ والمَعْنى مُكرَّرٌ؛ فإذا تأمَّلَهُ فَضْلَ تأمُّلٍ؛ تأخذُهُ الدَّهْشَةُ لتلكَ الدِّقَّةِ وذلكَ التَّعبيرِ.

دِلالَةُ العَطْفِ في: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾:

اشْتِراكُ الجُمْلَتَيْنِ في مُطْلَقِ نَفْيِ الإِثْمِ وَالمُؤاخَذَةِ

الواوُ في ﴿وَمَا﴾ مِنْ قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ عاطِفَةٌ الجُمْلَةَ بَعْدَها عَلى جُمْلَةِ ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾؛ لِما بَيْنَ الجملتينِ مِنَ التَّوسُّطِ بين الكَمالين؛ إذ إنَّ الجُمْلَتينِ خبريَّتانِ، وبينَهُما تناسُبٌ لفظيٌّ ومعنويٌّ، أمّا اللَّفْظيُّ؛ فَهوَ اشتراكُهما في الفِعْلِيَّةِ، فإنَّ كلتا الجُمْلَتَيْنِ فِعْلِيَّةٌ - إذا اعْتَدَدْنا بفِعْلِ الكَوْنِ في الجملةِ الثّانيَةِ - وأمّا المَعْنويُّ؛ فاشتراكُهُما في مُطْلَقِ نَفْيِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 51.

الإثمِ والمؤاخذَةِ، فالجملةُ الأولى في نفيِ مؤاخذةِ أحدٍ بجريرَةِ آخَرَ، والثّانيةُ في نفيِ أصلِ المؤاخذةِ قبلَ بعثةِ الرُّسُلِ.

دِلالَةُ النَّفْيِ في: ﴿وَمَا﴾:

بَعْثُ الرُّسُلِ غايَةٌ لِعَدَمِ وُقوعِ العَذابِ في وَقْتِهِ المُقَدَّرِ لَهُ، لا لِعَدَمِ وُقوعِهِ مُطْلَقًا

جاءَ النَّفْيُ في الآيَةِ بـ ﴿وَمَا﴾ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ تقويةً لهذا النَّفْيِ؛ إذْ إنَّ (ما) آكَدُ مِنْ (لَمْ)، وذلك أنَّها تقعُ جوابًا للقسَمِ، بخلافِ (لَمْ)[1].

والنَّفْيُ في الآيةِ مُتسلِّطٌ عَلى عَذابِ الاستئصالِ، أو لجنسِ العذابِ الشّامِلِ للدُّنْيَوِيِّ والأُخْرَوِيِّ، وأيًّا ما كان؛ فإنَّ بعْثَ الرُّسُلِ غايةٌ لعَدَمِ وقوعِ العذابِ في وقْتِهِ المقدَّرِ له لا لِعَدَمِ وقوعِهِ مُطْلقًا[2].

سِرُّ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ ﴿كُنَّا﴾:

امْتِناعُ التَّعْذيبِ شَرْعًا قَبْلَ بِعْثَةِ الرُّسُلِ

في التَّعبيرِ بفِعْلِ الكَوْنِ مَنْفيًّا ﴿وَمَا كُنَّا﴾ مِنْ قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾، للدّلالَةِ على امتناعِ ذلكَ شرعًا غايةَ الامْتِناعِ، والنَّفْيُ ليسَ لنفيِ الوقوعِ، وإنَّما المَعْنى: ما يصحُّ لنا التَّعذيبُ شرعًا حتّى نبعثَ رسولًا[3].

بلاغةُ الاكتفاءِ في التَّصْريحِ بالتَّعْذيبِ دونَ الإثابَةِ:

اقْتُصِرَ على ذِكْرِ التَّعذيبِ؛ لأَنَّ المقامَ مقامُ إعذارٍ وقطْعِ حُجَّةٍ

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ اكتفاءٌ؛ حيثُ اكْتُفِيَ بذِكْرِ التَّعذيبِ عَنْ ذكرِ الإثابَةِ، وكان مُقْتَضى الظّاهِرِ: (وما كنّا مُعذِّبين ولا مُثيبينَ حتّى نبعثَ رسولًا)، ولكِنِ اقْتُصِرَ على ذِكْرِ التَّعذيبِ؛ لأنَّ المقامَ مقامُ إعذارٍ وقطْعِ حُجَّة واستقصاءٍ في الإعذارِ لأهلِ الضَّلالِ زيادَةً على نفيِ مُؤاخذتهم بجرائمِ غيرِهم، وليس المقامُ مقامَ امتنانٍ بالإرشادِ[4].

---

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 570.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 162.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 61.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 51.

سِرُّ التَّعبيرِ بالاسْمِ ﴿مُعَذِّبِينَ﴾:

لا تعذيب بدون إرسال الرّسل وإقامة الحُجّة على النّاس

في التَّعبير بنفيِ التَّعذيبِ اسمًا في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ للدَّلالَةِ على دوامِ انتفاءِ هذا الحُكمِ وثباتِهِ في جميعِ الأحوالِ(1).

دِلالَةُ حَذْفِ مُتَعَلِّقِ ﴿مُعَذِّبِينَ﴾:

حَـذْفُ المَعْمولِ مُشْعِرٌ بِالعُموم

حُذِفَ مُتَعلِّقُ ﴿مُعَذِّبِينَ﴾ مِنْ قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾؛ لإفادَةِ العمومِ، وذلك لأنَّ حذْفَ المُتعلِّقِ مُؤذِنٌ بالعُمومِ والشُّمولِ، والمَعنى: ما كنّا معذِّبين أحدًا حتّى نَبْعَثَ رسولًا(2).

سِرُّ التَّعْبيرِ بِـ ﴿حَتَّىٰ﴾:

بِعثَةُ الرُّسُلِ متَّصِلةٌ بالعَذابِ كَشَأْنِ الغايَةِ

في التَّعبير بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ إيذانٌ بأنَّ بعثَةَ الرُّسُلِ متَّصِلةٌ بالعذابِ كشأْنِ الغايَةِ، وهذا الاتِّصالُ عُرْفيٌّ بحسب ما تقتضيهِ البِعْثَةُ مِنْ وَقْتٍ لإبلاغِ الرسالَةِ ثُمّ استمرارِ المُرْسَلِ إليهم على التَّكذيبِ، وإِمْهالِ المُكَذِّبين(3).

تَوْجيهُ المُتشابِهِ اللَّفْظِيِّ:

دِقَّةُ البَيانِ القُرْآنِيِّ في انْتِقاءِ الأَلْفاظِ المُلائِمَةِ لِسِياقاتِها

قالَ اللّهُ ﷻ: ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ﴾، وقال ﷻ: ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ١٠٨﴾ [يونس: 108]، وقال سُبحانَهُ: ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ ٤١﴾ [الزمر: 41]، وخُصَّت كلُّ آيةٍ بما فيها من جواب الشَّرْطِ؛ لأنَّ آية يونسَ تقدَّمها قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٧﴾ [يونس: 107]، فلمّا كان السّياقُ لنفي تصرُّفِه ﷺ فيهم؛ ناسبَهُ بيانُ أنَّه ﷺ لا يُطلَبُ مِنْهُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 51.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 388.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 52.

حفظُهم ممّا يُؤدّي إلى الهلاكِ، ومنْعُهُ عنهم، كما يُطلَبُ مِنَ الوكيلِ، بقولِه: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ١٠٨﴾ [يونس: 108]، بخلاف آيةِ الإسراء؛ فإنَّه تقدَّمها قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ١٣ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾، فلمّا كان السّياقُ متعلِّقًا ببيانِ أنَّ كلَّ إنسانٍ مسؤولٌ عن نفسِه؛ ناسبهُ توكيدُ ذلك، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ﴾، وأمّا آيةُ الزُّمَر، فتقدَّمها قولُ اللهِ ﷻ: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٣٨﴾ [الزمر: 38]، فلمّا بيَّن اللهُ سُبحانَهُ أنَّه هو الوكيلُ، وأُريدَ التَّسريةُ عَنِ النَّبيِّ ﷺ؛ لعظيمِ ما لهُ مِنَ الشَّفقة على مَن كفرَ، على الرُّغمِ مِنْ إصرارِهم على الشِّركِ؛ ناسبَهُ خطابُهُ لبيانِ أنَّه ليسَ وكيلًا على قومِه، فقال تعالى: ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ ٤١﴾ [الزمر: 41].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الوِزْرُ وَالإِثْمُ:

الإِثْمُ مَنْظورٌ فيهِ إلى عَدَمِ اطْمِئْنانِ النَّفْسِ إلَيْهِ، والوِزْرُ يُنْظَرُ فيهِ إلى ثِقَلِ الذَّنْبِ عَلى فاعِلِه

الإثْمُ في اللُّغَةِ يَرِدُ بمعنى البُطْءِ والتَّأَخُّرِ عن الخَيْرِ، ومِنْهُ قولُهُم: ناقةٌ آثِمَةٌ، أي: متأخِّرَةٌ في سَيْرِها، وصاحِبُ الإثْمِ بطيءٌ عَنِ الخَيْرِ متأخِّرٌ عَنْهُ.

والوِزْرُ في اللُّغَةِ: الثِّقَلُ، ومِنْهُ سُمّيَ الذَّنْبُ وِزْرًا؛ لأنَّهُ يُثْقِلُ صاحِبَهُ.

وفي حقيقَةِ الإثْمِ قولانِ: **أَحَدُهما**: أنَّه الفِعْلُ الذي يستَحِقُّ عليه صاحِبُهُ الذَّمَّ واللَّوْمَ.

والآخَرُ: أنَّه الذي تنفرُ مِنْهُ النَّفْسُ ولا يطمئِنُّ إليهِ القَلْبُ، ومِنْهُ قولُ النَّبيِّ ﷺ: "الإِثْمُ ما حاكَ في صَدْرِك، وكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النّاسُ"(1).

(1) رواه مسلم في صحيحه، برقم: (2553).

وحاصِلُ الاستعمالاتِ القرآنيَّةِ لِلَفْظِ الإثْمِ يدلُّ على أنَّ الإثْمَ فِعْلٌ قبيحٌ مُتَعَمَّدٌ تنفرُ منْهُ النَّفْسُ ولا يطمئنُّ إليهِ القَلْبُ، وهوَ ممّا يوجِبُ الذَّمَّ واللَّوْمَ، كما أنَّه يشمَلُ الصَّغائرَ والكبائرَ، واستعمالُها في الكبائرِ أَغْلَبُ.

ولَفْظُ الوِزْرِ دالٌّ على ثِقَلِ الذَّنْبِ على فاعله، فهو منظورٌ فيه إلى شعورِ مُرْتَكِبِه، خصوصًا في الآخِرَةِ حينَ يحْمِلُ كلُّ إنسانٍ ما كسبَ مِنْ خيرٍ أَوْ شرٍّ، فيكون للشَّرِّ ثِقَلُهُ الذي هو بمنزلَةِ حَمْلِ شيءٍ ثقيلٍ فوقَ ظَهْرِهِ[1].

البَعْثُ وَالإِرْسالُ:

البَـعْـثُ أوسـعُ معـنًـى ودلالـةً مِنَ الإرْسالِ

ذَكَرَ ابْنُ فورك أَنَّهُما بِمَعْنًى[2]، وَقالَ ذَلكَ جَماعَةٌ في سياقِ بَيانِهِمْ مَعْنى إحْدى اللَّفْظَتَيْنِ؛ فَإنَّهُمْ يُفَسِّرونَها بالأُخْرى[3]، كَقَوْلِ ابْنِ جَريرٍ: "قَوْلُهُ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا﴾ [القمر: 19]، يَقولُ تَعالى ذِكْرُهُ: إنّا بَعَثْنا عَلى عادٍ؛ إِذْ تَمادَوا في طُغْيانِهِمْ وَكُفْرِهِمْ بِاللّهِ ريحًا صَرْصَرًا"[4].

بَلْ مِنَ العُلَماءِ مَنِ اسْتَدَلَّ عَلى مَجيءِ البَعْثِ بِمَعْنى التَّخْلِيَةِ بِمَجيءِ الإرْسالِ لِذلِكَ المَعْنى[5]، فَكَأَنَّهُ أَعْطى لِلبَعْثِ جَميعَ ما لِلإرْسالِ مِنَ المَعاني.

وَفَرَّقَ بَيْنَهُما جَماعَةٌ، مِنْهُمْ أَبو هِلالٍ، فَقالَ في الفُروقِ: "يَجوزُ أَنْ يَبْعَثَ الرَّجُلُ إِلَى الآخَرِ لِحاجَةٍ تَخُصُّهُ دونَكَ وَدونَ المَبْعوثِ إِلَيْه، كالصَّبيِّ تَبْعَثُهُ إِلَى المَكْتَبِ، فَتَقولُ: بَعَثْتُه، وَلا تَقولُ: أَرْسَلْتُهُ؛ لأَنَّ الإِرْسالَ لا يَكونُ إِلّا بِرِسالَةٍ وَما يَجْري مَجْراها"[6].

(1) محمّد محمَّد داود، معجم الفروق الدلالية للقرآن الكريم، ص: 34 - 46.
(2) ابن فورك، تفسير ابن فورك: 1/ 221.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 470، و19/ 293، والواحدي، التفسير البسيط: 2/ 542، والماوردي، النكت والعيون: 1/ 123، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 127، والشنقيطي، العذب النمير: 4/ 59.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 22/ 132.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 15/ 394.
(6) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 289، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 9/ 176.

وَهَذا الفَرْقُ قَدْ تُشْكِلُ عَلَيْهِ آياتُ إِرْسالِ الرّياحِ، كَما هوَ ظاهِرٌ، إلّا إِنْ قيلَ: إِنَّ إِرْسالَ الرّياحِ يَكونُ بِرِسالَةٍ يُفْهِمُها اللهُ تَعالى إيّاها، وَيُفْهِمُها الأَرْضَ المَيِّتَةَ، وَلَكِنَّ هَذا مِنَ الغَيْبِ الذي لا يُمْكِنُ الجَراءَةُ عَلَيْهِ إلّا بِدَليلٍ مِنَ الشَّرْعِ.

وفرَّقَ بعضُ أهلِ العِلم بينَهُما من وجهٍ آخَرَ؛ وَهوَ أَنَّ الإِرْسالَ أَخَصُّ مِنَ البَعْثِ؛ مِنْ جِهَةِ أَنَّ "الإِرْسالَ يُفيدُ مَعْنى البَعْثِ مَعَ العُلُوِّ"[1].

وَفي تَفْسيرِ المَنارِ: تَقْريرٌ لِلفَرْقِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرى؛ وَهوَ أَنَّ البَعْثَ أَبْلَغُ مِنَ الإِرْسالِ؛ "لِأَنَّهُ يُفيدُ مَعْنى الإِثارَةِ والإِزْعاجِ إِلَى الشَّيْءِ المُهِمِّ، وَلَمْ يُذْكَرْ في القُرْآنِ إلّا في بَعْثِ المَوْتى، وَفي الرِّسالَةِ العامَّةِ، أَيْ: بَعْثُ عِدَّةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَفي بِعْثَةِ نَبِيِّنا وَموسى خاصَّةً، وَكَذا في بَعْثِ نُقَباءِ بَني إِسْرائيلَ، وَبَعْثِ مَنِ انْتَقَمَ مِنْهُمْ، وَعَذَّبَهُمْ، وَسَباهُمْ حينَ أَفْسَدوا في الأَرْضِ"[2].

وَيُشْكِلُ عَلَيْهِ ذِكْرُ إِرْسالِ الرّيحِ لِلعَذابِ في مَواضِعَ مِنَ القُرْآنِ الكَريمِ، كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ [الإسراء: 69]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝٤١﴾ [الذاريات: 41]، وَلَمْ يُسْتَعْمَلْ مَعَهُ البَعْثُ.

وَأَظْهَرُ مِنْ هَذا كُلِّهِ ما ذَكَرَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ الغَرْناطيُّ مِنْ أَنَّ الفِعْلَ (أَرْسَلَ) أَخَصُّ في بابِ الإِرْسالِ مِنَ البَعْثِ؛ "إِذْ لا يُقالُ: أَرْسَلَ، إلّا فيما كانَ تَوْجيهًا، فيهِ مَعْنى الانْتِقالِ حَقيقَةً أَوْ مَجازًا، أَمّا (بَعَثَ)؛ فَأَوْسَعُ؛ فَإِنَّهُ يَقَعُ بِمَعْنى الإِرْسالِ، وَبِمَعْنى الإِحْياءِ، وَمِنْهُ: البَعْثُ الأُخْراويُّ"[3].

وَبِناءً عَلَيْهِ؛ فالبَعْثُ أَكْثَرُ مَعانيَ مِنَ الإِرْسالِ، فَيَلْتَقيانِ في مَعْنًى، وَيَنْفَرِدُ البَعْثُ بِمَعْنًى آخَرَ، وَإِذا جُمِعَ بَيْنَهُما بِمَعْنًى يُرادُ بِهِ التَّنْويعُ في العِبارَةِ والتَّفَنُّنُ فيها.

---

(1) النيسابوري، غرائب القرآن: 3/ 302.

(2) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 9/ 34.

(3) الغرناطي، ملاك التأويل: 1/ 216.

﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦﴾ [الإسراء: 16]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بَيانُ أَسْبابِ حُلولِ العَذابِ عَلى المُخالِفينَ

لَمّا أشار اللّهُ تعالى إلى عذابِ المُخالِفينَ؛ قَرَّر أسبابَهُ، وبيَّنَ أنَّها واقعةٌ بِقَدَرِهِ، وأَنَّ قَدَرَهُ سُبحانَهُ لا يَمْنَعُ استحقاقَ العَذابِ، فقالَ تَعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُّهۡلِكَ﴾: الهاءُ واللّامُ والكافُ تدلُّ تصريفاتُها على كَسْرٍ وسقوطٍ، وَمِنْهُ الهلاكُ؛ وهوَ السُّقوطُ، ولذلكَ يُقال للمَيِّتِ: هَلَكَ[2]، ويُطلقُ الهلاكُ على بطلانِ الشَّيْءِ مِنَ العالَمِ وعَدَمِه رأسًا، ومِنْهُ قولُ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾[3] [القصص: 88]، والهلاكُ في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً﴾ هو الاستئصالُ بالعذابِ[4].

2) ﴿قَرۡيَةً﴾: القافُ والرّاءُ والحرفُ المعتلُّ تدورُ اشتقاقاتُها على مَعْنى الجَمْعِ والاجتِماعِ[5]، ومِنْهُ: القريةُ؛ وهي اسمٌ للمَكانِ الذي يَجْتَمِعُ فيهِ النّاسُ[6]، وتُطْلَقُ القريةُ على النّاسِ أنفسِهِم، ومِنْهُ قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً﴾ أي: أهلَها.

3) ﴿مُتۡرَفِيهَا﴾: التّاءُ والرّاءُ والفاءُ: كلمةٌ واحدةٌ، تدلُّ على

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 389.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هلك).
(3) الراغب، المفردات: (هلك).
(4) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 455.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قري).
(6) الراغب، المفردات: (قرى).

التَّنَعُّم[1]، ومِنْهُ التُّرْفَةُ وهو الطَّعامُ الطَّيِّبُ، والتَّرفُّهُ: الاتِّساعُ في التَّنعُّم بِنِعَم الدُّنيا، والمُتْرَفُ: المُتَنَعِّمُ المتوسِّعُ في ملاذِّ الدُّنيا وشهواتِها[2]، وهوَ المرادُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا﴾، ولذا فسَّره بعضُ أهلِ العِلْم بأنَّهم الجبابِرَةُ؛ لأنَّهم مِن شأنِهم التَّوسُّعُ في ملاذِّ الدُّنيا وَشَهَواتِها[3].

4) ﴿فَدَمَّرۡنَٰهَا﴾: الدّالُ والميمُ والرّاءُ تَدورُ اشتقاقاتُها على مَعْنى غشيانٍ بفسادٍ محيطٍ، ومِنْهُ الدُّمورُ وهو الدُّخولُ على قومٍ بغيرِ إذْنِهم؛ لأنَّهُ باطِّلاعِهِ على حالِهم ومخالَطَتِه إيّاهُمْ يُفْسِدُ مجلسَ مَنْ دَخَلَ عليهِمْ، والدَّمارُ: هوَ الهلاكُ المسْتَأصِلُ[4]، ومِنْهُ قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الإغْــراقُ في الباطِلِ سَبَبٌ في الإهْلاكِ التّامِّ

أكّد البيانُ الإلهي سُنّةً من سُنَن اللّه في العبادِ، وهي أنّ الإيغالَ في الانحرافِ والكفرِ سببٌ للاستئصالِ والهلاكِ، فقال: وإذا أَرَدْنا إهْلاكَ أَهْلِ قَرْيَةٍ بِسَبَبِ ظُلْمِهِم؛ أَمَرْنا مُتْرَفيهم بطاعَةِ اللّهِ تَعالى وتَوْحيدِهِ وتَصْديقِ رُسُلِهِ، وغيرُهُم تَبَعٌ لَهُم، فعصَوا أَمْرَ رَبِّهم، وكذَّبوا رسلَهُ، فَحقَّ عليهِم القولُ بالعَذابِ الذي لا يُرَدُّ، فاسْتَأْصَلْناهُم بالهَلاكِ التّامِّ[5].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلالَةُ العَطْفِ بِالواوِ في ﴿وَإِذَآ﴾:

تَـهْـديـدُ قـادَةِ الـمُـشْـرِكـيـنَ وَتَـحْـمـيـلُـهُـمْ تَبِعَةَ ضَلالِ مَنْ أَضَلّوهُمْ

ورِدَتْ هذه الآيةُ تفصيلًا للحُكْمِ السّابِقِ، والمرادُ تهديدُ قادَةِ المشركينَ وتحميلُهم تَبِعَةَ ضلالِ مَنْ أَضَلّوهُم، فقولُهُ تَعالى: ﴿وَإِذَآ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ترف).
(2) الراغب، المفردات: (ترف)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ترف).
(3) ابن أبي زَمَنِين، تفسير القرآن العزيز: 3/ 15.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دمر)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (دمر).
(5) نخبة من أساتذة التفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 283.

﴿أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً﴾ تفريعٌ لبيانِ أسبابِ حلولِ العذاب بَعْدَ بِعْثَةِ الرُّسُلِ وأُدْمِجَ فيه وعيدٌ للمُضلّين، وكان مقتضى الظّاهِرِ أن تُعْطَفَ الجملَةُ على قولِه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ بالفاءِ دونَ الواوِ، إلّا أنَّ النَّظْمَ القرآنيَّ آثَرَ العَطْفَ بالواوِ تنبيهًا على أنَّه خبرٌ مقصودٌ لذاتِه، باعتبارِ ما تضمَّنَهُ مِنَ التَّهديدِ والتَّحذيرِ مِنَ الوقوعِ في مِثْلِ الحالِ الموصوفةِ، وأَمّا مَعْنى التَّفريعِ؛ فيُستفادُ مِنْ طبيعَةِ الكلامِ، وعلى هذا يكونُ العَطْفُ بالواوِ في الآيةِ تخريجًا على خلافِ مقتضى الظّاهِرِ في الفصلِ والوصلِ[1].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ﴿وَإِذَآ﴾:

تَأْكيدُ التَّهْديدِ وَتَحْقيقُهُ

عُلِّقَ الشَّرْطُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا﴾ بـ: (إذا) دون (إنْ)؛ لأنَّ الأصلَ في (إذا) الدّلالَةُ على تحقُّقِ مدخولِها على جِهَةِ القَطْعِ والجَزْمِ، وذلك أَدْخَلُ وأبلَغُ في التَّهديدِ الذي جاءَ سياقُ الآيَةِ لَهُ، بخلافِ تعليقِ الشَّرْطِ بـ (إن) الدّالَّةِ في أصْلِ وضْعِها على الشَّكِّ في حصول مدخولِها؛ فإنَّ استعمالَهُ هَهُنا في مقامِ التَّهديدِ يُضْعِفُ هذا التَّهديدَ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ(نا) الدّالَّةِ عَلى العَظَمَةِ:

عَظَمَةُ الإرَادَةِ الإِلَهِيَّةِ الكَوْنِيَّةِ، بِحَيْثُ لا يَتَخَلَّفُ عَنْها شَيْءٌ

أُسْنِدَتْ جملةٌ مِنَ الأفعال في الآيةِ إلى الضَّمير (نا) الدّالِّ على العَظَمَةِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا﴾، وهي: ﴿أَرَدۡنَآ﴾ و﴿أَمَرۡنَا﴾ و﴿فَدَمَّرۡنَٰهَا﴾؛ للإيماءِ إلى عَظَمَةِ هذه الأفعالِ؛ وهي الإرادَةُ والأمرُ والتَّدميرُ، فإرادَةُ اللّهِ سُبحانَهُ إرادَةٌ عظيمَةٌ؛ إذْ بها يَنْفُذُ كلُّ ما أرادَهُ اللّهُ تعالى إرادَةً كونيَّةً، ولا يُمْكِنُ أن يتخلَّفَ عن هذه الإرادَةِ شيءٌ، وأمّا أمرُهُ تعالى؛ فهو عظيمُ القَدْرِ؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتَّنوير: 15/ 53.

لِصُدورِهِ مِنَ العظيمِ ﷻ، وأمّا التَّدميرُ؛ فهو إهلاكٌ عظيمٌ شديدٌ؛ لأنَّ عذابَ العظيمِ عظيمٌ[1].

سِرُّ التَّعْبيرِ بالهَلاكِ دونَ العَذابِ:

الإهْلاكُ أبْلَغُ مِنَ التَّعْذيبِ وأقْوى

عُبِّر بالهلاكِ دون العذاب في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾؛ لكَوْنِ الهلاكِ أَبْلَغَ وأقوى في التَّهديد؛ إذْ حقيقتُه: هو الاسْتِئْصالُ بالعذابِ[2]، فكانَ التَّعبيرُ به أنسَبَ لِسياقِ التَّهديدِ والوعيدِ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿نُّهۡلِكَ﴾:

تَعَلُّقُ الوَعيدِ بِكُلِّ مَنْ تَحَقَّقَ فيهِ وَصْفُ الفِسْقِ

عُبِّرَ بالفِعْلِ المضارِعِ ﴿نُّهۡلِكَ﴾ مِنْ قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾، للدِّلالَةِ علَى التَّجدُّدِ والاسْتِمْرار؛ لِئَلّا يتعَلَّقَ التَّهديدُ بحالٍ خاصَّة، بَلْ هَذا الوعيدُ متعلِّقٌ بكلِّ مَن تحقَّقَ فيه وصْفُ الفِسْقِ في أيِّ زمانٍ كانَ، وهذا أقْوى في التَّهديدِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِلَفْظِ ﴿قَرۡيَةً﴾ مُنَكَّرَةً:

شِدَّةُ التَّنْكيلِ بِإِهْلاكِ الفَسَقَةِ وَهَدْمِ صُروحِهِمْ وَطَمْسِ آثارِهِمْ

عُبِّر بلَفظ القريةِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ لأنَّ القريَةَ تدلُّ في أصلِ العربيَّةِ على المدينَةِ العظيمَةِ، ويجوزُ أن يُرادَ بها الدَّولةُ أوِ الأُمَّةُ أوِ الجماعَةُ أيًّا كان عددُها، فدلالاتُها أوسَعُ مِنْ دلالَةِ البلدِ مثلًا، وفي هذا زيادةُ تهويلٍ وتفظيعٍ؛ إذْ كُلُّ المَعاني المُحْتَمَلَةِ في لفظِ القريَةِ تجوزُ إرادَتُهُ في الآيَةِ، ويكونُ هذا إيماءً إلى شدَّةِ التَّنكيلِ بهم؛ بإهلاكِ الفسَقَةِ، وهَدْمِ صروحِهم ودورِهم، وطمسِ آثارِهم، وأنَّ الهلاكَ لا يصيبُ الأهْلَ فَحَسْب، بل يصيبُهم، ويصيبُ مَعَهُم مساكِنَهُمْ وأموالَهُمْ، وكلُّ ما احتوَتْهُ تلك القريَةُ؛ وهذا أَوْجَعُ للقَلْبِ وأَنْكى للعَدوِّ[3].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 391.

(2) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 455.

(3) جمال الدّين القاسمي، محاسن التأويل: 6/ 451، ومحمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4352، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 315.

التَّكامُلُ الدّلاليُّ لِلقِراءاتِ القُرْآنِيَّةِ

أَثَرُ تَعدُّدِ القِراءاتِ في: ﴿أَمَرْنَا﴾:

قرأَ جمهورُ العشرَةِ ﴿أَمَرْنَا﴾ من قول اللّه ﷻ: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ بهمزةٍ مقصورةٍ، وقرأَ يعقوبُ بهمزةٍ ممدودَةٍ ﴿آمَرْنَا﴾[1]، وقُرِئَ شاذًّا بقصر الهمزة وتشديدِ الميم (أَمَّرْنا)[2].

فقراءةُ الجمهورِ ظاهِرَةٌ؛ فهيَ منَ الأَمْرِ بمَعْنى الطَّلَبِ، وقراءةُ يعقوبَ بالمدِّ ﴿آمَرْنَا﴾، فهو بِمَعْنى التَّكثيرِ، مِنْ قولِهم: أَمِرَ القومُ، أي: كَثُروا، وآمَرَهُمُ اللّهُ تعالى، أي: كَثَّرهم، وقراءةُ التَّشديد (أمَّرنا) فهو بمعنى التَّسليطِ، أي: (سلَّطنا شِرارَها، فعَصَوا فيها)، أو بمعنى: (جعلناهُم أُمَراءَ)[3]، وهي معانٍ لا تنافيَ بينَها، بل يُكمِّلُ بعضُها بعضًا ويَعْضُدُهُ.

الاسْتِرْسالُ في التَّرَفِ وَالاسْتِرْخاءِ بَريدٌ لِلفِسْقِ وَالفُجورِ

بَلاغَةُ المَجازِ في: ﴿أَمَرْنَا﴾:

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ مجازٌ، إذا حَمَلْنا قولَهُ سُبحانَهُ: ﴿أَمَرْنَا﴾ على مَعْنى: أمرناهم بالفسقِ، فإنَّ مثلَ هذا لا يجوزُ أن يكونَ حقيقةً؛ فإنَّ اللّهَ سُبحانَهُ قال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: 28]، وإنَّما قوله: ﴿أَمَرْنَا﴾، مجازٌ، ومعناهُ: أنَّ اللّهَ تعالى فتحَ عليهِم أبوابَ الخَيْرِ والرّاحَةِ، فعِنْدَ ذلك تمرَّدوا، وطغَوا، وبغَوا، وتجبَّروا، فالأمر لا يُرادُ به الطَّلبُ، وإنَّما المرادُ تسهيلُ أسبابِ التَّرفِ وأسبابِ الاسترخاءِ الذي يُلازِمُهُ، ويَتْبَعُ ذلكَ غلبَةُ الأهواءِ والشَّهواتِ[4].

مِنْ بَراعَةِ النَّظْمِ القُرْآنِيِّ انْتِقاءُ الأَلْفاظِ الجامِعَةِ لِلدِّلالاتِ المُتَنَوِّعَةِ

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالأَمْرِ في: ﴿أَمَرْنَا﴾:

آثَرَ النَّظْمُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بلفظِ ﴿أَمَرْنَا﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾؛ لأنَّ المعانيَ الثَّلاثة -

---

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 306.

(2) الأزهري، معاني القراءات: 2/ 89.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 20/ 315 - 316، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 233.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 20/ 313، ومحمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4352 - 4353.

وَهيَ: الأَمْرُ والإمارَةُ والكَثْرَةُ - تَجْتَمِعُ فيها، ورَسْمُ (أَمَرْنا) يَحْتَمِلُ القراءاتِ الوارِدَةَ فيها كذلك: ﴿أَمَّرْنَا﴾ و﴿آمَرْنَا﴾، فكان ذلك ضربًا مِنْ ضروبِ الإيجازِ[1].

دِلالَةُ حَذْفِ مُتَعَلِّقِ الفِعْلِ ﴿أَمَرْنَا﴾:

حَـذْفُ ما دَلَّـتْ الـقَـرائِـنُ عَـلى تَعْيينِهِ اقْتِصادًا في اللَّفْظِ

حُذِفَ متعلِّقُ الفِعْلِ ﴿أَمَرْنَا﴾ مِنْ قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾، وقدَّره الزَّمخشريُّ بـ: (أمرناهم بالفِسْقِ)، بقرينَةِ قولِه بَعْدُ: ﴿فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾، ويكون الأمرُ مجازًا لا حقيقةً - كما تقدَّمَ - تنزيلًا لإسباغِ النِّعَمِ عليهم المُقْتَضي بطَرَهُم وكُفْرَهم؛ منزلةَ الأمر بذلك.

والتَّحقيقُ أنَّ تقديرَ المتعلِّق: أمرناهم بالطّاعَةِ، ففسَقوا، وهذا جارٍ على الأسلوبِ العربيِّ المعهودِ مِنْ قولهم: أمرتُه، فعصاني، أي: أمرتُه بطاعَةٍ، فعصى، وليس المَعْنى: أمرتُه بالمعصيَةِ، كما هوَ ظاهِرٌ، وحُذِفَ المتعلِّق مِنَ الآيةِ لظهورِه، أي: أَمَرْناهُم بما نأمُرُهم بِهِ عادَةً، مِنْ بعْثِ الرُّسُلِ إليهم، وأَمْرِهِم على ألسنَةِ هؤلاءِ الرُّسُلِ، فَعَصَوا، وفسقوا في قريتِهِم[2].

سِرُّ تَخْصيصِ المُتْرَفينَ دونَ غَيْرِهِمْ:

المُتْرَفونَ أَسْـرَعُ إلـى الـفُـجـورِ وَأَقْـدَرُ عَـلى الـوُصـولِ إلـى طُرُقِهِ وَأَسْبابِهِ

المُتْرَفون هُم المُنَعَّمون، وخُصّوا بالذِّكْرِ في قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾؛ لأنَّه قد جَرَتِ العادَةُ أنَّ مَنْ سواهُم يكونُ تبَعًا لهم؛ إذِ العامَّةُ والدَّهماءُ يُقلِّدونَهم في أفعالِهم، ولكونِ المُتْرَفينَ أسرَعَ إلى الفجورِ وأقدرَ على الوُصولِ إلى طُرُقِهِ وأسبابِهِ[3].

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 234.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 24، والزمخشري، الكشاف: 2/ 654، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 42، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 53، والشنقيطي، أضواء البيان: 3/ 76.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 234، وأحمد المراغي، تفسير المراغي: 15/ 26.

بَلاغَةُ التَّعْبيرِ بِالمُتْرَفينَ دونَ النّاسِ:

المُبالَغَةُ في التَّرَفِ إلى حَدِّ الفِسْقِ مِن موجِباتِ الإهْلاكِ

عُلِّقَ الأمرُ بالمترفينَ دونَ النّاسِ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا﴾ مع أنَّ الرّسلَ يُخاطبونَ النّاسَ جميعًا، وذلك لأنَّ عصيانَهُم الأمرَ الموجَّهَ إليهم هو سببُ فِسْقِهم وفسْقِ بقيَّةِ قومِهم؛ إذ هُم قادةُ العوامِّ ورؤساءُ الكُفْرِ، فالخطابُ في الأكثَرِ متوجِّهٌ إليهم، فإذا صدرَ مِنْهُم الفِسْقُ؛ اتَّبعهم العوامُّ، فانتشَرَ الفسقُ في القريَةِ، فاسْتحقَّتِ الهلاكَ[1].

وفي التَّنصيصِ على المُتْرفينَ دون النّاسِ إيماءٌ إلى العِلَّةِ الموجبةِ إهلاكَهُمْ؛ وهو التَّرفُ والاسترخاءُ[2].

دِلالَةُ الإضافَةِ في: ﴿مُتۡرَفِيهَا﴾:

مُتْرفو القَرْيَةِ سَبَبٌ في هَلاكِ أَهْلِها

أُضيفَ المُتْرَفونَ إلى الضَّميرِ الرّاجعِ إلى القريَةِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾؛ لإظْهارِ عَدْلِ اللّهِ سُبْحانَه، وأنَّ مُتْرَفي القَرْيَةِ هُم سببٌ في هَلاكِ أَهْلِها، لا أنّ كُلَّ مُتْرَفٍ في الأَرْضِ سَبَبٌ في هلاكِ قريةٍ من القُرى.

دِلالَةُ الفاءِ في: ﴿فَفَسَقُواْ﴾:

تَمْكينُ المُتْرَفينَ آيِلٌ إلى الفِسْقِ قَطْعًا

الفاءُ في ﴿فَفَسَقُواْ﴾ مِنْ قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ تَفْريعيَّةٌ؛ جيءَ بها لبيانِ أنَّ ما قَبْلَها سببٌ لِما بعدها، والمَعْنى: أنَّ تَمكينَ المُتْرَفينَ يؤولُ إلى الفِسْقِ قَطْعًا[3].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالظَّرْفِيَّةِ في: ﴿فِيهَا﴾:

تَغَلْغُلُ الفَسادِ وَانْتِشارُهُ سَبَبٌ في عَظَمَةِ الهَلاكِ

عُبِّرَ بالحَرْفِ الدّالِّ عَلى الظَّرفيَّةِ المجازيّةِ (في) مِنْ قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ دونَ (عَلى)؛ للدّلالَةِ على تَغَلْغُلِ فسادِهِم وانْتِشارِهِ وتجذُّرِهِ في القريَةِ، فالفسقُ كان بينهم وبين النّاس، ولكنَّه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 55، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 315.
(2) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4354.
(3) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4354.

جعله لشدَّة انتشاره مُتغلغلًا في القرية كلِّها، وَهو الذي تَسَبَّب في عَظَمَةِ الهَلاكِ الواقِع عَلَيْهِم.

بَراعَةُ التَّعْبيرِ فِي الآيَةِ:

إِحْلالُ العَذابِ حاصِلٌ بِمَشيئَةِ اللهِ تَعالى التّامَّةِ

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾ بُنيتِ الجملةُ بناءً بديعًا؛ وذلكَ أنّه لمّا كان ظاهِرُ موقعِ (إذا) يَقْتَضي أنَّ قولَهُ: ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا﴾ هو جوابُ (إذا)، فيلزَمُ مِنْهُ أنَّ إرادةَ اللّهِ سُبحانَهُ إهلاكَها متقدِّمَةٌ على حصولِ أَمْرِ المُتْرفينَ؛ لأنَّ الشَّأْنَ أن يسبقَ الشَّرْطُ جوابَهُ في الواقِع، فتكون إرادَةُ اللّهِ تَعالى قَدْ تعلَّقَتْ بإهلاكِ القريةِ ابتداءً، ثُمَّ يأمُرُ اللّهُ سُبحانَهُ المُتْرَفينَ مِنْ أهلِ القريَة، فَيَفْسُقون فيها، فيحقُّ عليها العذابُ الذي هو مظهَرٌ لإرادَةِ اللّهِ إهلاكَهُمْ، مع أنَّ إرادَةَ اللّهِ سُبحانَهُ إنَّما تتعلَّقُ بإهلاكِ قومٍ تكونُ بَعْدَ صدورِ الفِسْقِ مِنْهُم، لا العكسُ، إلّا أنَّ قرينَةَ السِّياقِ ظاهِرَةٌ، وتكونُ الواوُ عاطفةً الفِعْلَ ﴿أَمَرۡنَا﴾ عَلى ﴿نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾، ويكونُ أصلُ نَظْمِ الكَلامِ: وما كُنّا معذِّبينَ حتّى نَبْعَثَ رَسولًا، ونأمرَ مُتْرَفي قريةٍ بما نأمرُهم بِه عَلى لِسانِ الرُّسُلِ، فَيَفْسُقوا عَنْ أَمْرِنا، فيحقُّ عَلَيْهِم الوعيدُ، فنُهْلِكُهُم إهلاكًا مُسْتَأْصِلًا، فأفادَ هذا أنَّ قولَهُ: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً﴾ شَرْطٌ لِحُصولِ الإهْلاكِ، والمَعْنى: أنَّ ذلك بِمَشيئَةِ اللّهِ تَعالى، ولا مُكْرِهَ لَهُ[1].

دِلالَةُ الفاءِ فِي: ﴿فَحَقَّ﴾:

تَرَتُّبُ اسْتِحْقاقِ حُلولِ الإهْلاكِ عَلى الفِسْقِ مِنْ غَيْرِ مُهْلَةٍ

الفاءُ في ﴿فَحَقَّ﴾ مِنْ قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ﴾ عاطِفَةُ الفعلَ ﴿فَحَقَّ﴾ عَلى الفِعْلِ ﴿فَفَسَقُواْ﴾، وفي إيثارِ حرفِ العَطْفِ (الفاءِ) - وهي دالَّةٌ على التَّعقيبِ - إيماءٌ إلى أنَّ فِسْقَهُم ترتَّبَ عليهِ اسْتِحْقاقُهُم حُلولَ إهلاكِ اللّهِ تعالى إيّاهُمْ مِنْ غيرِ مُهْلَةٍ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 54.

دِلالَةُ تَقْدِيمِ الجارِّ وَالمَجْرورِ ﴿عَلَيۡهَا﴾:

حُلولُ العَذابِ عَلى مُستَحِقِّهِ دونَ غَيْرِه

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَيۡهَا﴾ على ﴿ٱلۡقَوۡلُ﴾ مِنْ قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ﴾ لإرادةِ القصرِ، أي: إنَّ العذابَ حلَّ على القريَةِ الفاسِقِ مُتْرَفوها لا على غَيْرِهِم مِمَّن لم يَفْسُقوا.

بَلاغَةُ التَّعْبيرِ عَنِ الوَعيدِ بِالقَوْلِ:

إحلالُ اللهِ تَعالى العَذابَ العَظيمَ بِمَنْ يَسْتَحِقُّهُ

عُبِّرَ عَنِ الوعيدِ بالقَوْلِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾ إيماءً إلى أنَّ إحلالَ هَذا العَذابِ العَظيمِ والهلاكِ الكبيرِ المُسْتَأْصِلِ هيِّنٌ عليهِ سُبحانَهُ؛ إذْ يَحُلُّ عليهم الدَّمارُ الكبيرُ بمجرَّدِ قولٍ مِنْهُ تَعالى.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفاءِ في: ﴿فَدَمَّرۡنَٰهَا﴾:

سُرْعَةُ حُلولِ الدَّمارِ وَالهَلاكِ المُسْتَأْصِلِ

جاءَ التَّعبيرُ بحرفِ العَطْفِ الفاءِ في ﴿فَدَمَّرۡنَٰهَا﴾ مِنْ قولِ اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾؛ لِلإِشْعارِ بِسُرْعةِ حُلولِ الدَّمارِ والهَلاكِ المُسْتَأْصِلِ الواقِعِ عَلَيْهِم، لأنَّ الفاءَ تدلُّ في أصلِ وضْعِها على التَّعقيبِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالتَّدْميرِ دونَ الإِهْلاكِ:

لَفْظُ (التَّدْميرِ) أَبْلَغُ في بَيانِ العَذابِ النّازِلِ وَأَقْوى

عُبِّرَ بالتَّدميرِ دونَ الإِهْلاكِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾؛ لأنَّ التَّدميرَ أقوى وأبلَغُ في بيانِ العذابِ النّازلِ عليهم؛ إذ هوَ إهلاكٌ مُسْتَأْصِلٌ، يَكونُ معهُ طَمْسُ الأثرِ وهدمُ البناءِ[1]، وهذا أنسَبُ لمقامِ الوعيدِ والتَّهديدِ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالمَصْدَرِ ﴿تَدۡمِيرٗا﴾:

المُبالَغَةُ في بَيانِ العَذابِ الواقِعِ بِهِم

في ذِكْرِ المَصْدَرِ ﴿تَدۡمِيرٗا﴾ بعد الفعل (دَمَّرْنا) من قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾ مبالغةٌ في بيانِ العذابِ الواقعِ بِهِم، وعِظَمِ التَّدميرِ، وأنَّه تدميرٌ عظيمٌ لا يُدْرَكُ كُنْهُهُ؛ لشدَّتِهِ وعظيمِ موقِعِه[2].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 27.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 234، والبقاعي، نظم الدرر: 11/ 392، والقِنَّوجِيُّ، فتح البيان: 7/ 369، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 55.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الهَلاكُ والعَذابُ:

الهَلاكُ أَخَصُّ مِنَ العَذابِ

بينَ الهلاكِ والعذابِ عمومٌ وخصوصٌ مُطْلَقٌ؛ إذِ الهلاكُ أخصُّ مِنَ العذابِ، وذلك لأنَّ الهلاكَ هو الاستئصالُ بالعَذابِ[1]، بخلافِ العذابِ فقَدْ يكونُ مستأصِلًا وقد لا يكونُ، ولذا سُمّي جَلْدُ الزّاني عذابًا، كَما قال اللّهُ سُبحانَهُ: ﴿وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢﴾ [النور: 2]، بَلْ يُطْلَقُ العذابُ على مُجَرَّدِ الألَمِ النَّفْسيِّ أو البدنيِّ اللّاحِقِ العَبْدَ، ولَو لَمْ يكُنْ عظيمًا، كما قال النَّبيُّ ﷺ: "السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ العَذابِ"[2].

القَرْيَةُ والمَدينَةُ والبَلَدُ:

دلالـةُ الـقَـرْيَـةِ أَوْسَعُ مِنْ دِلالَةِ البَلَدِ

ذُكرتِ القريةُ في القرآنِ الكريمِ في بضعةٍ وثلاثينَ مَوْضعًا، وتُسمّى القريةُ قريةً إذا قُصِدَ منْها: الأبنيةُ الجامِعَةُ للنّاسِ، وهوَ مأخوذٌ مِنْ قولِهم: قَرَيْتُ الماءَ في الحوضِ؛ إذا جَمَعْتَهُ، وسُمّيت القَرْيَةُ قريةً لاجتماعِ النّاسِ فيها، ولذا يُقالُ لبيتِ النَّمْلِ قريةٌ؛ لجَمْعِهِ النَّمْلَ داخلَهُ، ولفظُ القريَةِ يَدلُّ في أصلِ العربيَّةِ على المدينَةِ العظيمَةِ، ويجوزُ أن يُرادَ بها الدَّولةُ أوِ الأُمَّةُ أوِ الجماعَةُ أيًّا كان عَدَدُها، فدلالتُها أوسَعُ مِنْ دلالَةِ البلدِ[3].

وأمّا المدينَةُ؛ فَمَأْخوذَةٌ مِنْ قولِهم: مَدَنَ بالمكانِ؛ إذا أقامَ به، وحقيقتُها: البَلْدَةُ التي كَثُرَ سُكّانُها، وقد تُسمّى القريةُ مدينَةً؛ إذا اتُّخذَت للإقامَةِ والاستِقْرارِ فيها؛ لأنَّ المكانَ الصّالحَ لِلاستقرارِ يكثُرُ سُكّانُهُ.

وأمّا البَلَدُ؛ فهو المكانُ المُخْتَطُّ المحدودُ، فحقيقَتُهُ: كُلُّ موضعٍ مِنَ الأرضِ غامِرٌ أَو عامِرٌ، مسكونٌ أو خالٍ، والقِطْعَةُ مِنْهُ بَلْدَةٌ[4].

---

(1) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 455.

(2) رواه البخاري في صحيحه، برقم: (1804)، ومسلم في صحيحه، برقم: (1927).

(3) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4352، وعبد الجبار فتحي زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 312.

(4) الكفوي، الكليات، ص: 226.

﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ١٧﴾ [الإسراء: 17]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إهلاكُ اللهِ تَعالى للمُخالِفينَ مُشاهَدٌ في الواقِعِ

لَمّا بيَّنَ اللّهُ تعالى أنَّهُ يُهلِكُ أهلَ قريةٍ؛ إذا انتشرَ فيهم الفِسقُ، وعَمَّ فيهم مخالفةُ أوامرِ اللّهِ سُبحانَهُ؛ بيَّن في هذه الآيةِ أنَّه قد فعلَ ذلك الإهلاكَ بِمَنْ لا يُحصيهم العَدُّ مِنَ القُرونِ؛ إذِ الاعْتِبارُ بالمُشاهَدِ أوقَعُ في القَلْبِ وأهولُ عِنْدَ النَّفْسِ، فقالَ اللّهُ ﷻ: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡقُرُونِ﴾: القافُ والرّاءُ والنّونُ تدورُ اشتقاقاتُها على مَعْنَيَيْنِ كُلّيَّين؛ أحدهما: جمعُ شيءٍ إلى شيءٍ، والآخَرُ: شيءٌ يَنْتَأُ بقوَّةٍ[2].

ومِنَ الثّاني: قَرْنُ الحيوانِ؛ لكونِه ناتئًا في أعلى رأسِه، ومِنْهُ قيل لسيِّدِ القَوْمِ: قَرْنٌ - علَى وَجْهِ الاستعارَةِ - لِعِظَمِ قَدْرِهِ وظهورِهِ مِنْ بين النّاسِ، ومِنْه أيضًا سُمّيتِ الأُمَّةُ التي تأتي بعدَ الأمّة: قَرْنًا؛ وهي جيلٌ نشأَ بعد آخرَ؛ كأنَّها دَفعَةٌ مِن النّاسِ خارجةٌ أو ناشئةٌ بَعْدَ أخرى[3].

ويجوزُ أن يكونَ سببُ تسميةِ الجيلِ قَرْنًا؛ مِنَ الاقترانِ وهو اجْتِماعُ شَيْئَيْنِ أو أشياءَ، وذلك لأنَّ أفرادَ الجيلِ اقْتَرنوا في زمنٍ واحدٍ[4]، وهذا المَعْنى للقَرْنِ هوَ المرادُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ﴾.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 393.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قرن).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قرن).
(4) الرّاغب، المفردات: (قرن).

2) ﴿خَبِيرًا﴾: الخاءُ والباءُ والرّاءُ تدلُّ يدلُّ كثيرٌ مِنْ تَصْريفاتِها عَلى مَعْنى العِلْمِ، تقولُ: لي بفلانٍ خِبْرَةٌ، أي: عِلْمٌ[1]، وحقيقةُ الخُبْرِ: العِلْمُ بِالشَّيءِ عَلى حَقيقتِهِ[2].

والخَبيرُ مِن أسماءِ اللّهِ سُبحانَهُ: العالِمُ بِبَواطِنِ الأُمورِ، والمُطَّلِعُ عَلى السَّرائرِ والضَّمائرِ والخَفايا[3].

3) ﴿بَصِيرًا﴾: الباءُ والصّادُ والرّاءُ تدلُّ يدلُّ أكثرُ اشتقاقاتِها على العِلْمِ بالشَّيءِ، يقال: هو بصيرٌ به، أي: عليمٌ[4]، ومِنْهُ إطلاقُ البصَرِ على الإدراكِ بالعَيْنِ والإدراكِ بقوَّةِ القَلْبِ؛ إذْ بِكِلَيْهِما يحصلُ العلمُ[5].

والبصيرُ فعيلٌ بمعنَى مُفْعِلٍ، مثلُ أليم بمعنى مُؤلم[6]، والبصيرُ مِنْ أَسْماءِ اللّه تعالى: الذي أَحاطَ بَصَرُهُ بِجَميعِ المُبْصَراتِ في أقطارِ الأَرْضِ والسَّماواتِ[7].

المَعْنى الإجْماليُّ:

كَثْرَةُ البَغْيِ وَاشْتِدادُ الكُفْرِ موجِبٌ للإهْلاك

بيّن اللّه تعالى أنّ ما أصاب هؤلاء القومَ قد أصابَ غيرَهم من قبلُ، فتلك سنّةٌ ماضيةٌ في القوم المُجرمين الذين فسقوا وتَمرّدوا على أوامرِ اللّه وأحكامِه، فقال: وَكَثيرًا ما أَهْلَكْنا مِنَ الأُمَمِ من بَعْدِ نَبيِّ اللّهِ تَعالى نوحٍ عليه السلام وأَبَدْناهُمْ بالعَذابِ لَمّا كَثُر بَغْيُهُم، واشْتَدَّ كُفْرُهُم، وكَفى بِرَبِّكَ - أيُّها الرَّسولُ - أنّه عالِمٌ بِجَميعِ أَعْمالِ عِبادِه، لا تَخْفى عليهِ خافيَةٌ[8].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خبر).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خبر).
(3) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 251.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بصر).
(5) الرّاغب، المفردات: (بصر).
(6) الزّجّاج، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 42.
(7) السّعديّ، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 174.
(8) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 455، ونخبة من أساتذة التفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 283.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلالَةُ العَطْفِ بِالواوِ في: ﴿وَكَمۡ﴾:

استِقْلالُ الآيَةِ الكَريمَةِ بِوَقْعِ التَّحذيرِ مِن جِهَةٍ مُغايِرَةٍ

بيَّنَ اللّهُ تَعالى في هذه الآيةِ أنَّه أهلكَ بالفِعْلِ قرونًا خالَفوا أوامرَ اللّهِ سُبحانَهُ؛ لِيَكونَ ذَلِكَ أدخَلَ في التَّهديدِ الوارِدِ في الآيةِ قَبْلُ: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾، فكانَتِ الآيةُ الثّانيةُ مُفرَّعَةً على التي قَبْلَها، ولِذا كانَ مُقْتَضى الظّاهِرِ أن تُعطَفَ بالفاءِ الدّالَّةِ على التَّفريعِ، إلّا أنَّ النَّظْمَ القرآنيَّ آثرَ عَطْفَها بالواوِ؛ لإظهارِ استقلالِها بوقْعِ التَّحذيرِ مِنْ جِهَةٍ مبايِنَةٍ، فكان في هَذا العَطْفِ تخريجٌ للكلامِ على خلافِ مُقْتَضى الظّاهِرِ لهذا الاعتبارِ المناسِبِ[1].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِـ ﴿كَمۡ﴾ الخبريّة:

المُبالَغَةُ في الوَعيدِ وَالتَّهْديدِ

تُستعمَلُ (كَمْ) في الأصلِ لإرادَةِ الاستفهامِ عَنِ العددِ، وتُستعمَلُ خبريَّةً للدّلالَةِ على عَدَدٍ كثيرٍ مُبْهَمِ النَّوْعِ، ولذا تَفْتَقِرُ إلى تمييزٍ لنوعِ هذا العَدَدِ، و﴿كَمۡ﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ خبريَّةٌ، والمرادُ: وكثيرًا ما أَهْلَكْنا، وقولُه: ﴿مِنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ تَمْييزٌ للإبهامِ الذي اقتضَتْهُ (كَمْ)[2].

وفي هذا التَّكْثيرِ مبالغةٌ في الوعيدِ والتَّهديدِ؛ لأنَّه إذا كان اللّهُ سُبحانَهُ قد أهلكَ كثيرًا ممَّن خالف أَمْرَهُ، فحريٌّ بالمُهَدَّدينَ أن يُهلِكَهُمْ كما أهلكَ مَن قبلَهُمْ.

دِلالَةُ ﴿مِنَ﴾ في: ﴿مِنَ ٱلۡقُرُونِ﴾:

الإهْلاكُ بِالعَذابِ المُسْتَأْصِلِ لَمْ يَسْتَغْرِقِ الأَزْمِنَةَ كُلَّها

﴿مِنَ﴾ الأولى في قولِه: ﴿مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ﴾ يُرادُ بها بيانُ (كَمْ) وتَمْييزُها؛ لأنَّ (كَمْ) مقتضيةٌ للإبهامِ، فجاءَ قولُهُ: ﴿مِنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ تَمْييزًا لَها، كَما يُميَّزُ العددُ بذِكْرِ الجِنْسِ بَعْدَهُ، وأمّا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 56.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 163، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 56.

﴿مِنۢ﴾ في قولِه: ﴿مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ﴾؛ فهيَ لابتداءِ الغايةِ، وللدّلالَةِ على أنَّ الإهلاكَ بِالعَذابِ المُسْتَأْصِلِ لَم يَسْتَغْرِق أَزْمِنَةَ ما بَعْدَهُ[1].

دِلالَةُ التَّخْصيصِ بـ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ﴾:

قَـوْمُ نـوحٍ عليه السلام هُـمْ أَوَّلُ قَـوْمٍ أُهْلِكوا بِالعَذابِ المُسْتَأْصِلِ

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ﴾ تخصيصٌ مِنْ وَجْهَيْن:

أحدُهما: التَّخصيصُ بذِكْرِ نبيِّ اللّهِ تَعالى نوحٍ عليه السلام.

والآخَرُ: تخصيصُ الإهلاكِ بما بَعْدَ زمانِه عليه السلام - كما يَظْهَرُ باديَ الرَّأيِ مِنْ صياغَةِ النَّظْمِ القرآنيِّ - مع أنَّ الإهلاكَ واقعٌ على قومِهِ أيضًا.

فأمّا الأوَّلُ، وهو التَّخصيصُ بذِكْرِ نوحٍ عليه السلام دونَ آدمَ، فلم يَرِدْ في النَّظْمِ القرآنيِّ: (مِنْ بعدِ آدمَ)؛ وذلك لأَنَّ نوحًا عليه السلام هو أوَّلُ رسولٍ آذاهُ قَوْمُهُ، فَأَهْلَكَهُم اللّهُ تَعالى بالعَذابِ المُسْتَأْصِلِ لَهُمَ.

وأمّا الآخَرُ؛ فإنَّ التَّخصيصَ الذي يدلُّ عليهِ ظاهِرُ النَّظْمِ غيرُ مرادٍ؛ إذْ ليسَ في ذِكْرِ البعديَّةِ تخصيصٌ، وإنَّما جاءَ النَّظْمُ القرآنيُّ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ﴾ مِنْ بابِ الإيجازِ، وأصلُ التَّركيبِ: (وكَمْ أَهْلَكْنا من القرونِ مِنْ قومِ نوحٍ فَمَنْ بَعْدَهُمْ)[2]، ويَقْرُبُ مِنْهُ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ [النساء: 11]؛ فإنَّ معناه: (فإنْ كُنَّ نساءً، اثْنَتَيْنِ فما فوقُ).

بَلاغَةُ التَّذْييلِ في الآيَة:

إحاطَةُ عِلْمِ اللهِ تَعالى بِأَعْمالِ العِبادِ

في تذييلِ الآيةِ بقولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ ما تقدَّمَ مِنَ البَعْثِ والأَمْرِ وما يَليهِما مِنْ ذِكْرِ فِسْقِهِم لا يُرادُ به تحصيلُ العِلْمِ بما صدَرَ عَنْهُم مِنَ الذُّنوبِ والآثامِ؛

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 163، والبقاعي، نظم الدرر: 11/ 393، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 43، والشنقيطي، أضواء البيان: 3/ 81.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 43، وجمال الدّين القاسمي، محاسن التَّأويل: 6/ 451، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 57.

إذْ إنَّ ذلك حاصِلٌ قَبْلَ ذلكَ، وإنَّما المقصودُ هو قَطْعُ عذرِهِم وإلزامُهُمُ الحُجَّةَ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ[1].

التَّعْبير بِالفِعْلِ ﴿وَكَفَىٰ﴾ وَبِوَصْفَيْ ﴿خَبِيرًا بَصِيرًا﴾:

مُجازاةُ اللهِ تَعالى العِبادَ بما يُناسِبُ فَظاعَةَ جَرائِمِهِمْ

في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ تعريضٌ بأنَّه تَعالى يُجازيهم بما يُناسِبُ فظاعَةَ جرائِمِهم، ولذا جيءَ بالفِعلِ ﴿وَكَفَىٰ﴾ وبِوَصْفي الخَبيرِ والبَصيرِ المُكنَّى بذِكْرِهما عَنْ عَدَمِ إفلاتِ شيءٍ مِن ذنوبِهم المعلومةِ من ضمائرهم أوِ المرئيَّةِ، وفي هذا التَّعبير أيضًا: إيماءٌ إلى أنَّ النَّبيَّ ﷺ غيرُ محتاجٍ إلى أحدٍ ينتصِرُ لَهُ إلّا ربُّهُ سُبحانَهُ، فهو حسبُهُ وكافيهِ[2].

دِلالَةُ الباءِ في: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾:

تَحْقيقُ كِفايَةِ اللهِ تَعالى لِنَبِيِّهِ ﷺ

الباءُ في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾، يُرادُ بها التَّأكيدُ، وتجيءُ مثلُ هذهِ الباءِ غالِبًا في سياقِ مَدْحٍ أَوْ ذَمٍّ، فكأنَّها في هذهِ الآيَةِ تُعْطي مَعْنى: اكْتَفِ بربِّك، أَيْ: ما أكْفاهُ في هَذا![3].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِاسْمِ اللهِ (الرَّبِّ)

مِنْ آثارِ الرّبوبيّةِ الإِحْسانُ إلى العِبادِ بِالعَفْوِ عَنْهُمْ

اخْتيرَ اسْمُ اللّهِ (الرَّبُّ) في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾؛ لتضمُّنِهِ مَعنى الإحْسانِ؛ فإنَّ المرادَ بـ ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾، أي: المُحْسِنِ إِلَيْكَ بالعَفْوِ عَن أُمَّتِكَ، وتَرْكِ مُعاقَبَتِهم عِقابَ الاسْتِئْصالِ، فاسمُ الرَّبِّ أَنْسَبُ للدِّلالَةِ عَلى هَذا المَعْنى[4].

سِرُّ تَقْديمِ ﴿بِذُنُوبِ﴾ عَلَى ﴿خَبِيرًا بَصِيرًا﴾:

عِلْمُ اللهِ تَعالى لا يعزُبُ عنه شيءٌ من أعمال العباد

الجارُّ والمَجْرورُ ﴿بِذُنُوبِ﴾ متعلّقانِ بـ ﴿خَبِيرًا بَصِيرًا﴾، وقُدِّما عَلى مُتَعَلَّقِهِما؛ للدِّلالَةِ عَلى كَمالِ العِنايةِ، وللإيماءِ إلى أنَّ العِلْمَ بِذُنوبِ العِبادِ كانَ دَقيقًا مُبْصَرًا، وفي ذَلِك غايَةُ البيانِ عَلى أنَّه لا ظُلْمَ فيهِ[5].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 44.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 57.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 445.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 394.
(5) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4355.

دِلالَةُ تَقْديمِ الخَبيرِ عَلى البَصيرِ:

دِقَّةُ البَيانِ القُرآنِيِّ في التَّصَرُّفِ بِالأَلْفاظِ تَقْديمًا وَتَأْخيرًا

قُدِّم الخبيرُ عَلى البصيرِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾؛ لِنِكاتٍ[1]:

أولاها: لأنَّ متعلّقَ الخبيرِ الاعْتِقاداتُ والنّيّاتُ - إذِ الخبيرُ هو العالِمُ بِبَواطِنِ الأمورِ - والنّيّاتُ متقدِّمَةٌ؛ إذْ هيَ مبادِئُ الأعمالِ الظّاهِرةِ، فيكون التَّقديمُ وُجوديًّا.

ثانيها: أنَّ الخبيرَ متعلِّقٌ بالضّمائر والنّيات والاعتقاداتِ؛ وهيَ أصلُ الأعمالِ في الفسادِ والصَّلاح.

ثالثُها: أنَّ متعلّقاتِ الخبيرِ أعمُّ مِنْ مُتَعَلّقاتِ البصير؛ إذِ الخبيرُ يتعلَّق بالمعلومِ ولَوْ لَم يَكُنْ مُبْصَرًا.

تَوْجيهُ المُتَشابِهِ اللَّفْظِيِّ:

إحاطَةُ عِلْمِ اللهِ تَعالى بِأَعْمالِ العِبادِ ظاهِرِها وَباطِنِها

قال اللّهُ ﷻ: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾، وقال سُبحانَهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا ٣١﴾ [الفرقان: 31]، وخُصَّت كلُّ آيةٍ بما فيها مِنَ التَّمييزِ؛ لأنَّ الآيةَ الأولى صُدِّرت بقولِهِ تَعالى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ﴾، فلمّا كانَ الهلاكُ بِسَبَبِ الذُّنوب التي ارتكَبها هؤلاءِ لا لأَمْرٍ آخَرَ؛ ناسبَهُ قولُه تَعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ﴾، ولَمّا كانتِ الذُّنوبُ منها ما هوَ خَفيٌّ، ومِنْها ما هوَ ظاهِرٌ؛ ناسبَهُ خَتْمُ الآيةِ بالاسْمَيْنِ الدّالَّيْنِ عَلى الإحاطَةِ بِهَذَيْنِ الضَّرْبَيْنِ مِنَ الذُّنوب، فقال ﷻ: ﴿خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾.

وأمّا آيةُ سورَةِ الفُرْقانِ؛ فقَدْ صُدِّرَت بقَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ﴾ [الفرقان: 31]، ولَمّا كانَ ذلك مِمّا يُحْزِنُ النَّبيَّ ﷺ؛ ناسَبَهُ أن يُسَرّى عَنْهُ بِبَيانِ أنَّ اللّهَ سُبْحانَهُ هوَ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 163، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 43، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 57.

هادي المُتَّقين وناصِرُهم، فقالَ ﷻ: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ٣١﴾ [الفرقان: 31].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الذُّنوبُ وَالآثامُ:

الذَّنْبُ أَعَمُّ مِنَ الإِثْمِ

الذُّنوبُ جَمْعُ ذَنْبٍ، وهوَ في اللُّغةِ: الجُرْمُ والمعصيَةُ، أمّا الآثام؛ فجمْعُ: إثم؛ وهو في اللُّغَةِ يدلُّ على البُطْءِ والتَّأخُّر عنِ الخَيْرِ، مِنْ قولهم: ناقةٌ آثمَةٌ، أي: متأخِّرةٌ في سَيْرِها، وذلك لأنَّ صاحِبَ الإثْمِ بطيءٌ عَنِ الخيرِ مُتَأخِّرٌ عَنْهُ.

وقد جاءَ الذَّنْبُ في القُرآنِ الكريمِ مُفْرَدًا ومَجْموعًا، فمِنَ الأوَّلِ قولُ اللّه تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ﴾ [العنكبوت: 40]، وقولُه سُبحانَهُ: ﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١١﴾ [الملك: 11]، ومن الآخرِ قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ١١﴾ [آل عمران: 11]، وقولُه تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ٦﴾ [الأنعام: 6].

وتدلُّ استعمالاتُ لفظِ الذَّنْبِ في القُرآنِ الكَريمِ عَلى أنَّ الذَّنْبَ أعمُّ مِنَ الإثْمِ والخَطيئَةِ والسَّيِّئَةِ والحوبِ ونحوِها؛ لِشُمولِه الصَّغائرَ والكَبائِرَ، كَما يَعُمُّ كُلَّ أَمرٍ لا تُحمَدُ عقباهُ، كَما قالَ اللّهُ تَعالى حكايةً عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ١٤﴾ [الشعراء: 14]، فجَعَلَ لَهُم عَلَيْهِ ذَنْبًا، أي: جِنايةً تُسْتَوْخَمُ عُقباها عِنْدَهُم، وغالِبُ اسْتِعْمالاتِ الذَّنْبِ خاصَّةٌ بِما يكونُ بَيْنَ العَبْدِ وربِّه.

وأمّا الإثمُ؛ فقَدْ وَرَدَ في القُرآنِ الكَريمِ في مَواضِعَ، مِنْها: قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: 33]، وقولُهُ سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ٥٨﴾ [الأحزاب: 58]، وقولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌۖ﴾ [الحجرات: 12]، وغيرُ ذلك.

وتدلُّ استعمالاتُ لفظةِ الإثم في القرآن الكريم على أنَّ الإثم فِعْلٌ قبيحٌ مُتَعَمَّدٌ تنفرُ مِنْهُ النَّفْسُ ولا يطمئنُّ إليهِ القَلْبُ، وهوَ ممّا يوجِبُ الذَّمَّ واللَّوْمَ، كما أنَّه يشمَلُ الصَّغائرَ والكبائرَ، واستعمالُها في الكبائرِ أَغْلَبُ[1].

العِبادُ والعَبيدُ:

غالِبُ اسْتِعْمالِ (العِبادِ) في الطّائِعينَ للهِ تَعالى، وَغالِبُ اسْتِعْمالِ (العَبيدِ) فيما يُقابِلُ الأَحْرارَ

العبادُ والعبيدُ كلاهما جمعُ عَبْدٍ، إلّا أنَّ العبادَ جَمْعُ عَبْدٍ؛ الذي هوَ العابِدُ، أمّا العبيدُ؛ فهو جَمْعُ (عبْدٍ) الذي هوَ خلافُ الحُرِّ.

وأمّا في الاستعمالِ القُرآنيِّ، فَيَرِدُ لفظُ (العباد) للإيماءِ إلى عِباد اللّه الطّائعين المُخْلِصينَ لَهُ العبادَةَ غالبًا، ولذا يَنْسِبُهُم اللّهُ سُبحانَهُ إليهِ تشريفًا لَهُمْ، كما في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: 42]، وقوله سُبحانَهُ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: 105]، ومِنْ غيرِ الغالِبِ قولُهُ تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾، وفي هَذا إيماءٌ إلى أنَّ ذُنوبَهُم خالَفَت ما يَنْبَغي أن يَكونوا عَلَيْهِ مِنْ سُلوكِ سَبيلِ الطّاعَةِ.

وأمّا لَفْظُ (العبيدِ)؛ فهوَ في الأصلِ دالٌّ على المُسْتَعْبَدينَ مِنَ النّاسِ، وهُم أقَلُّ مَرْتَبَةً مِنَ الأحرارِ في مَقاييسِ المُجْتَمَعات، ولذا يُستعمل هذا الجَمْعُ في القرآنِ الكريم غالبًا في مَوضع التَّحقير وتصغير الشَّأن، كما في قول اللّه تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾[2] [آل عمران: 181 - 182].

---

(1) محمّد محمد داود، معجم الفروق الدلالية، ص: 31 - 41.

(2) الدوري، دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني، ص: 308 - 309.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ١٨﴾ [الإسراء: 18]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيانُ أحوالِ أهلِ الدّنيا بعد بيانِ المُهلَكين بسببها

بعد أن بيَّنتِ الآيةُ السّابقةُ إهلاكَ اللّه للقرون الذين خالفوا دينَه، وخرجوا عن أمرِه من بعد نوحٍ عليه السلام، ناسبَ أن يَذكُرَ في هذه الآية مصيرَ مَن جاء بعدَ تلك القرونِ، وأنَّه سبحانَه يُعامِلُهُم بعلمِه بجميع طَويّاتِهم من خيرٍ وشرٍّ، بما يكونُ مُرَغِّبًا في الآخرة، مُرَهِّبًا منَ الدّنيا؛ لأنّها المانعةُ مِن اتّباعِ الرُّسُلِ والتَّقيُّدِ بطاعتِهم، فقالَ تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ....﴾[1]، والآيةُ ناظِرةٌ إلى قوله تعالى: ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ [الإسراء: 283].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡعَاجِلَةَ﴾: جذرُ الكلمة هو (عجل) استعجلتُه؛ أي: حَثَثْتُه، وأَمَرْتُهُ أن يُعَجِّلَ في الأمر، وأعجَلْتَه وتَعَجَّلتُ خراجه؛ أي: كلَّفتُه أن يُعجِّلَهُ[2]، قال تعالى: ﴿أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ﴾ [الأعراف: 150]؛ سبقتموهُ[3]، وأرادَ في الآية الحياةَ الدّنيا أو الحياةَ الأولى؛ لأنّها تأتي قبل الآخرة، وهي ميدانُ الاختبار، والآخرةُ ميدانُ الجَزاء والحساب، وسمّاها بالعاجلة؛ لأنّ النّاسَ يتعجَّلون الغنيمةَ والكسبَ فيها.

2) ﴿يَصۡلَىٰهَا﴾: جذرُ الكلمة هو (صلو)؛ والصَّلا: الحَطَبُ، وصَلَيتَ اللَّحمَ صَليًا: شَوَيتَه، وإذا ألقَيتَه في النّار قلتَ: أصلَيتُه، والصَّلا اسمٌ للوَقود إذا اصطَلَى به القومُ، والصَّلا: النّار، وصَلَى

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/ 371.
(2) الخليل، العين: (عجل).
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (عجل).

الكافرُ نارًا فهو يَصلاها؛ أي: قاسَى حَرَّها وشِدَّتَها[1]، وهذا هو المعنى المُرادُ في الآية.

3) ﴿مَذۡمُومٗا﴾: جذرُ الكلمة هو (ذمّ)؛ الذّمُّ خلافُ المدحِ ونقيضُه[2]، واستذمَّ إلى فلانٍ؛ أَي: فَعَلَ ما يذمُّه عليه[3].

4) ﴿مَّدۡحُورٗا﴾: جذرُ الكلمة هو (دحر)؛ دَحَرتُه أدحَرُه دَحْرًا؛ أي: بعَّدتُه ونَحَّيتُه، ودحرَهُ طردَهُ وأبعدَهُ، قال تعالى: ﴿ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ﴾ [الأعراف: 18]، وفي التّنزيل: ﴿وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ٨ دُحُورٗاۖ﴾ [الصّافّات: 8 - 9][4]، فورودُ الكافر نارَ جهنّمَ هو غايةُ الدّحور والإبعاد عن رحمتِه سبحانَه، ومَدحورًا؛ أي: مَطرودًا[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

مَــن يُـقـدِّمِ العـاجلةَ على الـدّيـن يُـحـرَمِ الآجــلــةَ يـوم الدّين

تُبيِّنُ الآيةُ إرادةَ نوعٍ منَ النّاس، وهُمُ الّذين يريدونَ الدُّنيا، طالبينَ منافعَها والرّياسةَ فيها، مُبتعدين عنِ الانقياد للأنبياء والعُلماء والدُّعاةِ، والدّخولِ في طاعتِهم والإجابةِ لدعوتِهم؛ إشفاقًا من زوال الرّياسةِ عنهم، فهؤلاءِ يُؤتيهِمُ اللّهُ في الدّنيا قَدْرًا كما يشاءُ اللّهُ؛ ثمّ تكونُ عاقبتُهُم في الآخرة جهنّمَ يَدخلونَها فَيَصلونَها مَذمومينَ مَدحورينَ مَطرودينَ من رحمة اللّهِ تعالى[6]، والآيةُ في الكفّار، ويدخلُ فيها كلُّ مَنِ اتّصفَ بهذا الوصف[7] على الحقيقة.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الاستئناف:

التّـاريـخُ يُـعيـدُ نفسَه، والإنسانُ يُهلِكُ نفسَه

قولُه تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ استئنافٌ؛ والجملةُ شروعٌ

(1) الخليل، العين: (صلو).
(2) ابن سِيده، المُحكم، وابن دريد، جمهرة اللّغة: (ذمم).
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (ذمم).
(4) الرّاغب، المفردات: (دحر).
(5) الخليل، العين: (دحر).
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 316.
(7) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 190.

في بيانِ أحوالِ النّاس في شأن الدُّنيا والآخرة بعد بيان حالِ القرونِ السّابقةِ منهما كذلك، ومقصودُ الاستئناف التَّنبيهُ على العناية بأمر الآخرةِ، وعدم الوقوعِ في مَزلَق العاجلةِ.

بلاغةُ الحصر بطريق المُقابلةِ:

مَن أرادَ العاجلةَ وحدَها تركتهُ الآخرةُ وحدَه

في مقابلةِ قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ قصرٌ بديعٌ، إذ أتى بغير طرق الحصرِ المَشهورةِ، فقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ قسيمُ ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ فلو أرادَهما لم يَصِحَّ التّقسيمُ[1]. "فمعنى: ﴿كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾؛ أنّه لا يُريدُ إلّا العاجِلةَ؛ أي: دونَ الدّنيا بِقَرينةِ مُقابَلَتِهِ بقولِه: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾؛ لأنّ هذه المُقابَلَة تَقومُ مَقامَ الحصرِ الإضافيِّ، إذ ليسَ الحصرُ الإضافيُّ سوى جُملتَين؛ إثباتٍ لشيءٍ ونَفيٍ لخلافِه"[2].

غرضُ أسلوب الشَّرط التَّقابليّ:

مُريدُ العاجلةِ مَحصورٌ فيها، ومُريدُ الآخرة مَشمولٌ بهما

معنى الشَّرط أنْ يقعَ الشَّيءُ لوقوع غيرِه[3]؛ أي: يتوقَّف الثّاني على الأوّل[4]، وجاء قولُه تعالى: ﴿مَّن كَانَ﴾ شرطًا للعاقل، قال سيبويه: "(مَنْ)، وهي للمسألَةِ عنِ الأناسيّ، ويكونُ بها الجزاءُ للأناسيّ"[5]، فقرينةُ الكلام في قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا﴾ تقتضي أنّه لا يُؤتَى شيئًا منَ الآخرة، لأنَّه أراد العاجلة فحسب، فمَن كانَت نيّتُه مقصورةً على طلب الدّنيا فلا نصيبَ له في الآخرة، وقرينةُ الكلام في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ لا تمنعُ أن يُؤتَى نصيبًا في الدُّنيا[6]، والغرضُ من

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 19.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 58 - 59.
(3) المُبرِّد، المقتضب: 2/ 46.
(4) الزّركشيّ، البرهان: 2/ 354.
(5) سيبويه، الكتاب: 2/ 309.
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/ 456.

التّعبير بأسلوب الشّرطِ تحميلُ كلِّ إنسانٍ عاقبةَ اختياره، وفيه دعوةٌ للتّروّي قبل الاختيارِ والنّظرِ في المَآلاتِ وعَواقبِ الأمور.

نكتةُ ذكرِ ﴿كَانَ﴾:

إرادةُ العاجلةِ مَنهجٌ ثابتٌ لا نزعةٌ عابرةٌ

الإتيانُ بفعل الكونِ في قولِه تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا﴾ مُؤذِنٌ بأنَّ ذلك ديدنُهُ وقُصارى همِّهِ، ولذلك جُعِلَ خبرُ ﴿كَانَ﴾ فعلًا مُضارعًا؛ لدلالتهِ على الاستمرار زيادةَ تَحقيقٍ لِتَمَحُّضِ إرادتِهِ في ذلك[1].

دلالةُ التّعبير بالمُضارع ﴿يُرِيدُ﴾:

الدُّنيا دارُ رَهَقٍ لا يصبرُها إلّا أهلُ الرَّهق

عَبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ﴾؛ ليدلَّ على الاستقبال والتّجدُّد في الإرادة؛ إذ إنّ الإرادةَ هنا مَنوطةٌ بتطلُّعات النّفسِ، وما يُرافقُها من أحداثٍ قد تجدِّدُ تلك التَّطلّعاتِ، فَتُعَزِّزُها نحو حُبِّ الدّنيا أكثرَ فأكثر، فتكون الإرادةُ مُتجدِّدةً بغية كسب العاجلةِ والاستزادة منها، وقد دلَّ المضارعُ ﴿يُرِيدُ﴾ في قوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ﴾ على الاستقبال لدخول أداة الشّرطِ ﴿مَّن﴾ عليه[2].

سرُّ اصطفاء التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلۡعَاجِلَةَ﴾:

شدّةُ التّنافُسِ في استعجال الأجور والملْهيات والفجور

﴿ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ صِفةُ مَوصوفٍ مَحذوفٍ يُعلَمُ مِنَ السّياقِ؛ أي: الحياةَ العاجلةَ[3]، فهي كنايةٌ بالصّفة عنِ الموصوف، ومعناها كقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ١٥﴾ [هود: 15]، وفي معنى العاجلة هو استعجالُ الأجور، والتّحصيلُ في الدّنيا على ما يفعلُه الإنسانُ، فيُحقِّقُ بحسَبِ ما يعتقدُ عيشًا رغيدًا في الدّنيا، ولعلّ التّدافُعَ والتّنافُسَ في هذه الحياة

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 58.

(2) الرّضيّ، شرح الرّضيّ على الكافية: 2/ 250.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 59.

قائمٌ على الاستزادة منها، فَذَكَرَ العاجلةَ قُبالةَ الآخرة؛ لأنَّها لفظٌ يدلُّ على المطابقة مع الآخرة، فدلَّ على ترجيحِها على الآخرة، واختيارِها، والارتياحِ إليها، والعملِ لابتغاء تحصيلِها.

نكتةُ المُغايرة بالصّيغ بين الشّرط وجوابه:

التّلازمُ بين التّعجيل والإرادة

دلّ قولُه: ﴿عَجَّلۡنَا﴾ بالفعل الماضي على الاستقبال؛ لدلالتها على الوعدِ، مع القصد بوقوع ذلك الوعد[1]، فالقصدُ من ذلك أنّ الوعدَ أو الوعيدَ مُتحقِّقُ الوقوع، وهو هنا التّعجيل بأجر الدّنيا، فكما أنّه لا شكَّ في حدوث الفعل الماضي الّذي قد حَصَلَ، كذلك لا شكَّ في حدوث فعل التّعجيلِ بجزاء الدّنيا؛ إذ هي بمَنزِلةِ الماضي في تحقُّق الوقوعِ، فدلَّتِ المُغايرةُ بين الشّرط وجوابه على أنّ التَّجدُّدَ الحاصلَ في إرادة الدّنيا وملذّاتها يُقابلُه تعجيلٌ من عند اللّهِ للحصول عليها على قَدر مَشيئةِ اللّه تعالى وتقديرِه سبحانَه، فدلّتِ المُغايرةُ بالفعل على تلازُم التّعجيل بالجزاء مع ما يختارُهُ العبدُ لنفسه بإرادته؛ فقوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ﴾ دلّ على تلك الإرادةِ المُتجدِّدةِ الّتي سوف تُختَمُ بتعجيل اللّهِ ما يشاءُ سبحانَه، أو "أنّ المُرادَ التّعجيلُ العرفيُّ، وهو المُبادرَةُ المُتَعارَفَةُ؛ أي: أنْ يُعطَى ذلك في الدّنيا قبلَ الآخرة، فذلك تَعجيلٌ بالنّسبة إلى الحياة الدّنيا، وقرينةُ ذلك قولُه: ﴿فِيهَا﴾"[2].

غرضُ إسناد فعل التَّعجيلِ إلى ضمير العظمةِ:

تعجيلُ الدُّنيا مَنوطٌ بإرادةِ الله ومشيئتِه

أُسنِدَ فعلُ التّعجيلِ لضمير العظمةِ (نا) فقال تعالى: ﴿عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا﴾؛ وأرادَ بذلك توكيدَ حصول التّعجيلِ؛ إذ إنّ الوعدَ صادرٌ عنه سبحانَه؛ ومَن أصدقُ مِنَ اللّه قيلًا، وما في ذلك من عظيم شأنِ اللّه، وقدرتهِ وعظيم تحقُّقِ مشيئتِه في عباده؛ فتندَرِجُ إرادةُ الإنسان فيها، مُلازمةً لنواياه، وما يُريدُهُ، ليأخذَ حقَّه وجزاءَه، وليس كلَّ

---

(1) الرّضيّ، شرح الرّضيّ على الكافية: 2/ 221.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 59.

أعمالِهم؛ بل بعضَها الّذي تترتَّبُ عليه الأمورُ المذكورةُ بطريق الأجرِ والجزاءِ من أعمال البرِّ، وقد أُطلِقَت، وأُريدَ بها ثمراتُها؛ فالمعنى: نوصِلُ إليهم ثمراتِ أعمالِهم في الحياة الدّنيا كاملةً[1].

نكتةُ تقديم الجارِّ والمجرور على المفعول:

تطمينُ المتُعجِّلِ استدراجٌ لا إكرامٌ

يدلُّ تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿لَهُۥ﴾ في قوله تعالى: ﴿عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾ على ما فيه من تحقُّقِ النّفعِ الدّنيويِّ لِمَن أرادَ العاجلةَ، فإنّه لن يُبخسَ حقُّه فيها، ولا يكونُ ذلك إلّا بمشيئة اللّه، فيكونُ تقديمُ شبه الجملة ﴿لَهُۥ﴾ للاهتمام، ويكونُ كذلك اختيارُ مَنِ اختارَ العاجلةَ مُعجَّلًا له بإرادة اللّه ومشيئتِه، وأجرُهُ فيها واصلٌ له.

نكتةُ الإطناب بالتَّقييد بالجارِّ والمجرور:

الدّنيا مَحطُّ آمالٍ باليةٍ وأوهامٍ خاويةٍ

قُيِّد الفعلُ بالجارّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا﴾، وهذا الأسلوبُ هو منَ الإطناب؛ إذ كان بالإمكان أن يُقالَ: (مَن كان يريدُ العاجلةَ عجّلنا له ما نشاءُ)، فدلَّ على استحصالِه الدّنيويِّ بقوله: ﴿عَجَّلۡنَا﴾؛ لكنّه ذَكَرَ ﴿فِيهَا﴾ من قبيل الإيغالِ؛ وهو ذكرُ ما يتمُّ المعنى بدونِه؛ لفائدة التّوكيد، فإنّ سرَّ ورود ﴿فِيهَا﴾ هنا إنّما هو توكيدُ المعنى، فلا يكونُ له شيءٌ في سواها؛ أي: في الآخرة.

نكتةُ التّعبير بالاسم الموصول:

لا يعلمُ المُعجَّلَ إلّا الله سبحانَه

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ اسمٌ موصولٌ أفادَ إبهامًا، وهو واقعٌ على ذواتِ ما لا يعقلُ أو على صفات مَن يَعقلُ؛ إذ أُريدَ إبهامُ الشّيءِ على المُخاطَبين؛ فلا يعلمُ ذلك إلّا اللّهُ سبحانَه، أو أنّه يُفيدُ عُمومَ كلِّ شيءٍ ممّا أرادَ اللّهُ تعالى أن يُعجِّلَه للإنسان.

فائدةُ تقييد فعل التّعجيلِ باسمَين موصولَين:

قيّدَ فعلَ التّعجيل بتقييدين في قوله تعالى: ﴿مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/ 193.

إحاطةُ علم اللهِ وقيُّوميَّته بالمخلوقات وأرزاقِها

أحدُهما: تقييدُ المُعجَّلِ بمشيئتِه، والثّاني: تقييدُ المُعجَّلِ له بإرادتِه[1]، وقيَّدَ الفعلَ باسمَين موصولَين هما ﴿مَا﴾ و(من)، وفائدةُ هذا التّقييد بيانُ عظيمِ الإرادةِ الإلهيّةِ، ومشيئتِه سبحانَه، وأنّ كلَّ شيءٍ بقَدرٍ مُحتَّمٍ دقيقٍ لا يعزُبُ عنه مِثقالُ ذرّةٍ من أفعالِ العبادِ ونيّاتِهم، وما يجولُ في خواطِرهم، فهو سبحانَه يُقسِمُ لهُم بإرادتِهِ ما يشاءُ، مع ما في هذه الأسماءِ مِنَ العُمومِ والإبهامِ.

نكتةُ ذكر المَشيئة والإرادة:

المَشيئةُ عامَّةٌ في الأرزاقِ، والإرادةُ خاصّةٌ بالمَرزوقِين

الّذي يُفهَمُ من قولِه تعالى: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ عُمومُ المَشيئةِ وخصوصُ الإرادةِ، فإنَّ المَشيئةَ ارتبطَت بغيرِ العاقِلِ من أمورِ الأرزاقِ، وأمّا الإرادةُ فاختُصَّت بالعقلاءِ مِنَ النّاسِ، فمشيئتُهُ ﷻ عامَّةٌ في الأرزاقِ، وإرادتُهُ خاصّةٌ في المَرزوقين، وهما مِنَ الألفاظِ المُترادِفةِ؛ بمعنى: أنَّه إذا أُطلِقَتِ الإرادةُ في سياقٍ فيُرادُ المشيئةُ والعكس، بينما إذا اجتمعا فيجبُ البحثُ عن فرقٍ بينهما، فتنطبقُ عليهما قاعدةُ: إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا، وهذا تفريقٌ سياقيٌّ لا عرفيٌّ.

بلاغةُ البيان بعدَ الإبهام:

تعجيلُ الدُّنيا بإرادةِ الله تحذيرٌ للمُتعجِّل وفتنةٌ للمُؤمن

قولُه تعالى: ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ بدلٌ مِنَ الجارِّ والمجرور ﴿لَهُۥ﴾، "وهو بدلُ البعضِ مِنَ الكلِّ: لأنّ الضّميرَ يرجعُ إلى ﴿لِمَن﴾ وهو في معنى الكثرة"[2]، "فضميرُ ﴿لَهُۥ﴾ عائدٌ إلى ﴿لِمَن﴾، وهو عامٌّ لكُلِّ مُريدِ العاجلة؛ أي: عجَّلْنا لِمَن نريدُ منكُم، ومفعولُ الإرادة محذوفٌ دلَّ عليه ما سبقَه؛ أي: لِمَن نريدُ التّعجيلَ له[3]، وفيه خصوصيَّةُ البيانِ بعدَ الإبهام، ولو كانَ المَقصودُ غيرَ ذلك لَوَجَبَ التّصريحُ به[4]، وجاءَتِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 613.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 133.
(3) الشّربينيّ، السّرّاج المنير: 2/ 291.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 59.

الضّمائرُ هنا على اللّفظ لا على المعنى، فقيّدَ المُعَجَّل بإرادته، فليس مَن يريدُ العاجلةَ يَحصُلُ له ما يُريدُهُ، ألا ترى أنّ كثيرًا مِنَ النّاس يَختارون الدّنيا، ولا يَحصُلُ لهم منها إلّا ما قسمَهُ اللّهُ لهم، وكثيرًا منهُم يَتَمَنّونَ النَّزرَ اليسيرَ فلا يحصُلُ لهم، ويَجمَعُ لهم شَقاوةَ الدّنيا وشَقاوةَ الآخرة[1]؛ فدلَّ قولُه: ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ على أنّه لا يحصُلُ الفوزُ بالدّنيا لكُلِّ أحدٍ؛ بل كثيرٌ مِنَ الكفّارِ والضُّلّالِ يُعرِضون عنِ الدّين في طلب الدّنيا، ثُمّ يَبقونَ مَحرومينَ عنِ الدّنيا وعنِ الدّين، وهذا أيضًا فيه زجرٌ عظيمٌ للّذين يَترُكون الدّينَ لطلب الدّنيا[2].

دلالةُ صيغة المضارع في فِعلَي المَشيئة والإرادة:

تجدُّدُ المشيئة والإرادة كامِنٌ في آثارها المُشاهَدة

يدلُّ الفعلُ المضارعُ في قوله تعالى: ﴿مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ على أزمنةٍ عديدةٍ، أشهرُها دلالتُه على الحال والاستقبال[3]، كما هنا، فاللّهُ تعالى يقسِّمُ أرزاقَه مقدارًا ونوعًا بمشيئته، فيوزِّعُ ذلك على الأفراد بإرادتِه سبحانَه، والمضارعُ يفيدُ التَّجدُّدَ والاستمرارَ مع الزّمن، وهذا التَّجدُّدُ معلومٌ عندَه سبحانَه في عالم غيبِه منذ أن خلقَ الأرضَ فقدَّرَ فيها أقواتَها وأرزاقَها وأقدارَ النّاس، ولذلك قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾ بصيغة الماضي ليدلَّ على العلم والتّقدير المُسبَقِ منه سبحانَه، فالتَّعبيرُ بصيغة المضارع لبيان تجدُّد آثارِ المشيئةِ والإرادة فيما يراه النّاسُ.

دلالةُ استعمال حرف التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾:

لأهلِ الدّنيا رُتبتان؛ مُؤقَّتةٌ فانيةٌ ومُهلِكةٌ باقيةٌ

حرفُ العطف ﴿ثُمَّ﴾ يفيدُ التّرتيبَ والتّراخي؛ فعطف جملة ﴿جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾ بحرف ﴿ثُمَّ﴾ لإفادة التّراخي الرُّتَبيِّ[4]؛ أي: إنّه سيلقى حسابَه المُقدَّرَ عليه، وهو نصيبُه مِنَ العذاب مذمومًا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 28.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 317.
(3) الزّمخشريّ، المفصّل: 2/ 137.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 60.

مخذولًا، فاللّهُ تعالى يُمهِلُ أهلَ الأهواء والمَفاسدِ في الدّنيا حتّى تأتيَهُم السّاعةُ، فينالوا حسابَهم وعقابَهم، فمُؤثِرُ الحياة الدّنيا له رتبتان؛ رتبةٌ في الدّنيا الفانيةِ، ورتبةٌ على الضّدِّ في الآخرة الباقية.

دلالةُ التّعبير بالماضي ﴿جَعَلۡنَا﴾:

في الآخرةِ قَطعٌ للآمال وحَسمٌ للأماني

جاءَ التَّعبيرُ بصيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾ لفعلِ الجعل؛ لبيان علم اللّه تعالى الأزليِّ، فلمّا خلقَ الأرضَ، وقدَّرَ فيها أقواتَها، قدَّرَ لهؤلاء الّذين لا يؤمنون، والّذين يختارونَ العاجلةَ، أرزاقَهم في الدّنيا ثمّ مصيرَهُم في الآخرة، فقد كانَ ذلك في علم الغيب عندَه سبحانَه، فالماضي دلَّ على تحقُّقِ وقوع الفعل، وفي مقابلة صيغةِ الماضي ﴿جَعَلۡنَا﴾ بعد المضارع ﴿نَشَآءُ﴾ و﴿نُّرِيدُ﴾ دلالةٌ على الدّوام والاستقرارِ وقطع الأملِ مِنَ المَجعول في الآخرة.

غرضُ إسناد فعلِ الجَعل إلى ضميرِ العظمة:

وعيدُ الله عظيمٌ بعظمةِ قُدرته

فِعلُ ﴿جَعَلۡنَا﴾ بمعنى: صيّرَنا، وإسنادُ الفعل إلى ضمير العظمةِ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ﴾؛ للدّلالة على معنى العظمةِ، المُتضمِّن شديدَ الوعيد؛ فاللّهُ تعالى هو مَن تكفَّلَ بذلك الجعلِ، ونسبَهُ إلى نفسِه فلم يكتفِ بضمير التَّكلُّم؛ بل بضمير العظمةِ، وفي ذلك ما فيه من داعي التَّوعُّدِ بأولئك الّذين أرادوا العاجلةَ، واختاروا الحياةَ الدّنيا على عظيم ثوابِ الدّارِ الآخرة.

نكتةُ تقديمِ المَفعول الثّاني على الأوّل:

دَفعُ توهُّمِ النَّجاةِ من جهنّمَ لِمَن أُوتِيَ الدُّنيا

قُدّمَ المفعولُ الثّاني ﴿لَهُۥ﴾ في قوله تعالى: ﴿جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾ على المفعول الأوّل ﴿جَهَنَّمَ﴾[1]؛ للاهتمام ومَزيدِ الوعيدِ وتحقيق العذاب، فإنَّ مَن أوتي في الدُّنيا من أنواع النِّعم قد يظنُّ أنَّ الآخرةَ ستكونُ كذلك، فأشعرَ التّقديمُ بدفعِ هذا الوهم؛ فالمعنى: جعلنا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 28.

ذلك خاصًّا لَمَن أرادَ العاجلةَ، أو لِمَن أرادَ ثوابَ الدّنيا، مقصورًا عليه وعلى أمثالِه، من أهل هذه الإرادةِ أو النّيّةِ نفسِها.

سرُّ اصطفاء لفظ ﴿جَهَنَّمَ﴾ دون مُرادفاتِها:

جهنّمُ شديدةُ النّارِ عميقةُ القَعر

للنّار أسماءٌ كثيرةٌ من مثل: الجحيم، وجهنّم، ولظى، والسّعير، وسَقَر، والهاوية، واختيرَ اسمُ ﴿جَهَنَّمَ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا﴾، وهي من أسماء النّارِ المشهورةِ الواردةِ في كتاب اللّه تعالى؛ لدلالته على بُعدِ قعر النّارِ وعُمقِه، فناسبَ ذلك الوصفُ جزاءَ مَن أرادَ العاجلةَ دون الآخرة.

سرُّ التّقييدِ بجملة ﴿يَصۡلَىٰهَا﴾:

عاقبةُ دخولِ النّار صَليٌّ مُحرِقٌ

قولُهُ تعالى: ﴿جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا﴾، فجملةُ ﴿يَصۡلَىٰهَا﴾ بيانٌ أو بدلُ اشتمالٍ لجملةِ ﴿جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾؛ فتُبَيِّنُ للسّامع حالتَه، إذ جُعِلَت جهنَّمُ له؛ فقوله: ﴿يَصۡلَىٰهَا﴾؛ أي: يُحرَقُ بها ويُشوَى لحمُه فيها، فبعدَ أن قال: ﴿جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾ بيّنَ صفةَ ذلك الجعل؛ فقال: ﴿يَصۡلَىٰهَا﴾، يُقالُ: صَليَ النّارَ إذا أصابَهُ حَرقُها[1].

دلالةُ التّعبير بالمضارع ﴿يَصۡلَىٰهَا﴾:

تصويرُ عذابِ النّارِ ترهيبٌ قاهِرٌ

أفادَ المضارعُ في قوله تعالى: ﴿يَصۡلَىٰهَا﴾ تصويرَ تجدُّدِ العذابِ في جهنّمَ، وأنّه عذابٌ مُستمِرٌّ مُتجدِّدٌ، إذ يبقى الكافرُ الدُّنيويُّ في عذاب جهنّمَ يتجدَّدُ له من أنواع العذابِ ما لا يُتوقَّعُ، ويبقى يتجدَّدُ جلدُهُ، كلّما نضجَ بُدِّلَ بجلدٍ جديدٍ ليذوقَ العذابَ.

دلالةُ ذكر الذَّمِّ والدّحر:

الجمعُ بين العذاب المَعنويِّ والعذاب الدّائمِ

قولُهُ تعالى: ﴿مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا﴾ تضمَّنَ ذكرَ حالَين من ضمير الرّفع في ﴿يَصۡلَىٰهَا﴾، وقولُهُ: ﴿مَذۡمُومٗا﴾ فيه إشارةٌ إلى الإهانة والذَّمِّ، وقولُهُ: ﴿مَّدۡحُورٗا﴾ فيه إشارةٌ إلى البُعدِ والطّردِ عن رحمة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 60.

اللّه، وهي تُفيدُ كونَ تلك المَضَرَّةِ خاليةً عن شَوب النَّفعِ والرَّحمةِ، وتفيدُ كونَها دائمةً وخاليةً عنِ التَّبدُّلِ بالرّاحة والخلاصِ[1].

سرُّ تقديمِ الذَّمِّ على الدَّحر:

الإهانةُ حالٌ دائمةٌ بالدَّحر عنِ الرَّحمة

قولهُ: ﴿مَذۡمُومٗا﴾ إشارةٌ إلى الإهانة، وقولهُ: ﴿مَّدۡحُورٗا﴾ إشارةٌ إلى البُعدِ والطّردِ من رحمةِ اللّه[2]، والإنسانُ إذا ذُمَّ فإنَّه يَبحثُ عن مكانٍ آخرَ يجدُ فيه راحتَه وطمأنينتَه، فإذا بحثَ لم يجِدْ إلّا الطَّردَ، فأكَّدَ الدَّحرُ معنى الإهانةِ، وأنشأَ معنى البقاءِ والاستمرارِ، ولذلك قُدِّمَ الذَّمُّ على الدَّحر.

بديعُ جناس الاشتقاق:

مَن خذلَه اللهُ فقدِ استدرجَه بما يُحبُّ

أفادَ جناسُ الاشتقاق بينَ ﴿ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ و﴿عَجَّلۡنَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا﴾ أنّ الاستدراجَ في الإمداد من شهوات الحياة الدُّنيا؛ فاللّهُ تعالى يُعجِّلُ لِمَن أرادَ العاجلةَ، وهي الدّنيا الّتي فيها ما يشاءُ اللّهُ منَ الرّزق والشّهوات والأهواء، وما شاءَ العبدُ بحسب مَشيئةِ اللّه سبحانَه، ويُؤخِّرُ النّعيمَ المُقيمَ لِمَن أرادَ الآخرةَ، فتكونُ دلالتُها على أنَّ الجزاءَ في الدّنيا يكونُ من جنس الأعمال والنّيّات.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإرادةُ والمَشيئةُ:

المَشيئةُ تعني الإيجادَ، وأمّا الإرادةُ فهي طلبُ الشّيء

المَشيئةُ في الأصل مأخوذةٌ منَ الشّيء: وهو اسمٌ للموجودِ، وهي كالإرادة عند أكثر المُتكلّمين؛ وإنْ كانتا في أصل اللّغةِ مُختلِفتين، فإنّ المَشيئةَ تعني الإيجادَ، والإرادةَ طلبُ الشّيء، وفي غالب الاستعمال القرآنيِّ إذا أُضيفا إليه تعالى يكونان بمعنًى واحدٍ؛ لأنَّ الإرادةَ للّه تعالى من ضرورتها الوجودُ لا محالةَ، والفرقُ بينَهما في حقّ العباد.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 316.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 29.

﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ١٩﴾ [الإسراء: 19]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيانُ الفرق بين الأضداد

بعد أن بيَّنَ في الآيةِ السّابقةِ حالَ مَنِ اختارَ العاجلةَ، بيَّنَ هنا حالَ "المُؤمن التَّقيِّ الّذي اختارَ غنى الآخرة، فما يُبالي: أوتي حظًّا منَ الدّنيا أو لم يؤتَ؛ فإنْ أوتي فيها، وإلّا فقد يكونُ الفقرُ خيرًا له، وأعونَ على مُراده"[1]، فهو انتقالٌ من بيان حالٍ إلى بيانِ ضدِّها.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَسَعَىٰ﴾: جذرُ الكلمة هو (سعي)؛ والسَّعيُ: عَدوٌ ليس بشديدٍ، وكلُّ عملٍ من خيرٍ أو شَرٍّ فهو السَّعيُ، يقولون: السّعيُ العملُ؛ أي: الكسب[2]، والمَسْعاةُ في الكَرَم والجود[3]، والسّعيُ: القصدُ، وبذلك فُسِّرَ قولُه تعالى: ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: 9]، وقرأ ابنُ مَسعود: (فامضوا إلى ذكر اللّه)، وقال: لو كانَت فاسعَوا لَسَعيتُ حتّى يسقط ردائي، أرادَ بذلك شدّةَ العدوِ، والسّعي: الكسب، وهذا هو المعنى المُرادُ في الآية، ومِنَ المَجاز: هو يسعى على عيالِه: يكسبُ لهم ويقومُ بمصالحِهم[4]، وكلُّ عملٍ من خيرٍ أو شرٍّ: سعيٌ، قال تعالى: ﴿لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ١٥﴾ [طه: 15][5].

2) ﴿مَّشۡكُورٗا﴾: جذرُ الكلمة (شكر)؛ والشُّكرُ: عِرفانُ الإحسان ونشرُهُ[6]، قال اللّه ﷻ: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ٩﴾ [الإنسان:

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 657.
(2) الخليل، العين، وابن سِيده، المُحكم: (سعي).
(3) الخليل، العين: (سعي).
(4) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (سعي).
(5) ابن سِيده، المُحكم: (سعي).
(6) الخليل، العين، وابن سِيده، المُحكم: (شكر).

؟، والشّكرُ مِنَ اللّه تعالى: المجازاةُ والثّناءُ الجميلُ[1]، وهذا المعنى هو المقصودُ في الآية الكريمة[2].

المَعنى الإجْماليُّ:

بيانُ عظيمِ شأنِ الإيمانِ والسّعي للآخرة

تُبيِّنُ الآيةُ أنَّ مَن أرادَ بقولِه وعملِه ثوابَ الدّار الآخرة، وما فيها من عطاءٍ غيرِ مَقطوعٍ، وسعى لها سعيَها؛ أي: وسَعَى فيما كُلِّفَ به مِنَ الأعمالِ والأقوالِ السّعيَ المُعَدَّ للنَّجاة فيها، ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾؛ أي: حال كونِه مُؤمنًا باللّه تعالى، وهو الشّرطُ الأعظمُ في النّجاة، فلا تَنفعُ إرادةٌ ولا سَعيٌ إلّا بحصوله[3]، فَأولَئكَ الّذي فعلوا ذلك، كانَ سَعيُهُم للدّار الآخرة سعيًا مَشكورًا مِنَ اللّه تعالى؛ يقبلُهُ سبحانَه منهم، ويكافئُهُم عليه بما يستحقّون من ثوابٍ، لا يَعلَمُ مِقدارَهُ إلّا هو سبحانَه.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الوصل بين المُتَقابِلات:

استكمالُ أحوالِ النّاس لبيانِ المَرجوِّ عملُه

الواو عاطفةٌ في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ عطفَتِ الجملةَ على الجملة السّابقة ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ﴾ لاستكمال التّقابُلِ بينَهما، فوصلَتِ الواو بين جملتين خبريّتين مُختلِفتين بالمعنى، وفائدةُ هذا الوصلِ المُقابلةُ بين معنيين مُتعاكِسين؛ الأوّل: حالُ مَنْ يَطلُبُ العاجلةَ الفانيةَ، والثّاني: حالُ مَنْ يَطلبُ الآخرةَ الباقيةَ، وأفادَ هذا الوصلُ شمولَ أحوالِ النّاسِ جميعِها، وقابلَ بين حسنِها وسيِّئِها.

فائدةُ استعمال أسلوب الشّرطِ:

النّيّةُ المُعتَبَرَةُ والسّعيُ الصّحيحُ ركنا القبول

يدلُّ أسلوبُ الشّرط على تلازُمِ جملتين وارتباطهما، بأن يقعَ الشّيءُ بوقوع غيرِه[4]، بمعنى: أنْ يتوقَّفَ الثّاني على الأوّل[5]، فلا

(1) ابن سِيده، المُحكم: (شكر).
(2) الرّاغب، المفردات: (شكر).
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 29.
(4) المُبرِّد، المُقتضب: 2/ 46.
(5) الزّركشيّ، البرهان: 2/ 354.

تتحقَّقُ جملةُ جواب الشّرط ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾ إلّا بتحقُّقِ جملةِ فعلِ الشّرط: ﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا﴾؛ أي: اجتماع النّيّةِ والعملِ الصّالحِ، ويأتي السّعي للعمل الصّالح بصدق النّيّةِ، فتكون إرادةُ الآخرةِ إرادةَ يقينٍ وإيمانٍ بها وباللّه ورسالاته[1]، وفائدةُ استعمال أسلوب الشَّرطِ بيانُ أنَّ قبولَ الأعمال وشكرَها لا يكونُ إلّا باجتماع الرُّكنين، وهما الإرادةُ الصّادرةُ عن نيَّةٍ مُعتَبَرَةٍ، والسّعيُ الصّحيحِ.

بلاغةُ التَّقابُل بين الجمل:

الـرُّسـوخُ في الإيـمـان طـريـقُ إرادةِ الآخرة

اختلفَ التّعبيرُ في جملة الشّرط ﴿وَمَنۡ أَرَادَ﴾ عن جملة الشّرطِ في الآية السّابقةِ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ الّتي وردَ فيها الفعلُ مضارعًا في وصف أهل الدّنيا، حيث جاء الفعلُ في هذه الآية: ﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ ماضيًا واصفًا أهلَ الآخرة، وذلك للإيماء إلى أنّ ميولَ النّاس إلى العاجلةِ مُتكرِّرةٌ مُتجدِّدةٌ، وفيه تنبيهٌ على أنّ أمورَ العاجلة زائلةٌ، وجَعَلَ فِعلَ إرادةِ الآخرة ماضيًا لدلالة المُضيّ على الرّسوخ؛ تنبيهًا على أنّ خيرَ الآخرة أَولى بالإرادةِ، وأنَّه لا يُريدُها إلّا الرّاسخون في الإيمان، ولذلك جُرِّدَتِ الجملةُ من (كان) ومِنَ المضارع، وما شَرَطَ في ذلك إلّا أن يَسعى للآخرة سَعيَها، وأن يكونَ مُؤمِنًا[2].

نكتةُ اختلاف التّعبيرِ بالآخرة دون (الآجلة):

الآخـرةُ لـفـظٌ شـامـلٌ لمعاني الخيرِ كلِّها

تناولَتِ الآيتان مقابلةً بين حال أهلِ الدّنيا وحال أهلِ الآخرة؛ ولكنّه لمّا ذَكَرَ أهلَ الدّنيا عرّفَهُم بأنّهم يُحبّون العاجلةَ، فكانَ مُتَوَقَّعًا لمّا ذكرَ أهلَ الآخرة أن يذكُرَ (الآجلة) في مقابل التّعبيرِ بـ(العاجلة)، لكنّه آثرَ عليها لفظَ ﴿ٱلۡأٓخِرَةَ﴾، وذلك لدلالة الآخرةِ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/ 456.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 60.

على أنّها ختامُ كلِّ شيءٍ، وأنّ العِبرةَ في خواتيم الأشياءِ، وأنّه مَن فازَ بالآخرة فقد فازَ بالنّعيم كلِّه، وحقّقَ الفوزَ كُلَّه، بينما الآجلةُ لا تدلُّ على هذه المعاني كلِّها، فالآجلةُ تدلُّ على القضية المُؤَجَّلة، "والآجِلُ ضِدُّ العاجلِ، والأَجَلُ: الجِنايةُ الّتي يُخافُ منها آجِلًا، فكلُّ أَجلٍ جِنايةٌ، وليسَ كلُّ جِنايةٍ أجلًا"[1]، فالآجلةُ أكثرُ ما تصلحُ للجنايات لا لخيراتِ الآخرةِ مِنَ الجنّات ونعيمِها.

بلاغةُ الكناية:

الإرادةُ ترجمةُ النّيّةِ الصّادقةِ

في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾؛ أي: ثوابَ الآخرة؛ بأن يُؤْثِرَها على الدّنيا، ويَعقِدَ إرادتَهُ بها[2]، فتكونُ الإرادةُ هنا كنايةً عنِ النّيّة الصّالحة وحبِّ الآخرة، "فإنّه إنْ لم تحصُلْ هذه الإرادةُ وهذه النّيّةُ لم يُنْتَفَعْ بذلك العملِ، ولقوله ﷺ: "إنّما الأعمالُ بالنّيّات"[3]؛ ولأنّ المَقصودَ منَ الأعمال استِنارةُ القلبِ بمعرفةِ اللّهِ تعالى ومَحبّته، وهذا لا يَحصُلُ إلّا إنْ نَوى بعملِه عبوديَّةَ اللّه تعالى وطَلَبَ طاعتِه"[4]، وجاءَ التَّعبيرُ بالإرادة كنايةً عنِ النّيّةِ؛ لبيانِ أنَّ النّيّةَ القلبيَّةَ لا تتحقَّقُ إلّا بإرادةٍ وعزيمةٍ يتبعُها سلوكٌ.

نوعُ الواو ودلالتُها:

السّعيُ شرطُ تصديقِ لإرادة الآخرة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا﴾ إمّا أن تكونَ عاطفةً، أفادَتِ المُغايرةَ؛ فإنّ الإرادةَ ليسَت هي السّعيَ نفسَه، ودلالةُ هذه المُغايرةِ أنّ الإرادةَ المُجرَّدةَ عنِ العمل لا تكفي، وإنّما لا بدَّ أن يُضافَ إليها الجانبُ الفعليُّ، وهو السّعيُ للآخرة، والاجتهادُ بغيةَ تحصيلِها؛ إذ "شَرَطَ في مُريدِ الآخرة أن يَسعى لها سعيَها، وهو مُلازَمةُ أعمالِ

(1) الرّاغب، المفردات: (أجل).
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 29.
(3) البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (1)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (4927) وغيرهما.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 317.

الخيرِ وأقوالِه على حُكم الشَّرعِ وطُرُقِه؛ فأولئك يَشكُرُ اللّهُ سعيَهُم، ولا يَشكُرُ اللّهُ عملًا ولا سَعيًا إلّا أثابَ عليهِ وغَفَرَ بسببِهِ"[1].

أمّا إنْ قُصِدَ بإرادة الآخرةِ مَجازًا جميعُ ما يؤدّي إلى استحقاقِها؛ فتكون الواو هُنا من قبيل عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ أي: إنّه عطفَ السّعيَ الخاصَّ على جميع موجباتِ استحقاقِ الآخرةِ مِنَ النّيّة والقول والعمل المُتضمَّنِ في الإرادة العامّةِ لذلك كلِّه، والقولُ بالعطفِ أسعدُ بالقبولِ.

معنى اللّام ودلالتُها:

السّعيُ المَقبولُ هو المخصوصُ بالآخرة

معنى قوله تعالى: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا﴾؛ أي: عَمِلَ لها عملَها اللّائقَ بها، وهو: الإتيانُ بما أَمَرَ به، والانتهاءُ عمّا نَهَى عنه، وفائدةُ اللّام في قولِه: ﴿لَهَا﴾ اعتبارُ النّيّةِ والإخلاصِ[2]، فيكونُ معنى اللّام هو الاختصاصَ؛ أي: سعى لأجلِها على وجه الخصوصِ عند عقدِ النّيَّة، لا لأجل الظّهورِ واكتساب الشّهرةِ والمالِ، فقد اختُصَّتِ الآخرةُ بسعيٍ خاصٍّ لا يكونُ كالسَّعي للدّنيا.

بلاغةُ التّرقّي:

النِّيَّة أصلُ السَّعي، والسَّعيُ تابعٌ للإيمان

ذكرتِ الآيةُ ثلاثةَ شروطٍ لقبول المؤمنين في الآخرة في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾، وهذه الشّروطُ هي: الأوّل إرادةُ الآخرة، وهي النّيّةُ الصّالحةُ، والشّرطُ الثّاني السّعيُ للآخرة، والثّالث: أن يكونَ صادقَ الإيمانِ باللّه، وقد ترتَّبَت هذه الشّروطُ الثّلاثةُ على طريقةِ التَّرقّي؛ إذ إنّ النّيّةَ هي أوّلُ ما يُبنَى عليه السّعيُ والعملُ، ثمّ يُصدِّقُه السّعيُ، ويوجِّهُ ذلك كُلَّه الإيمانُ الصّادقُ باللّه تعالى، فالحالُ أنّ العاملَ مُؤمِنٌ إيمانًا صحيحًا لا شركَ معه ولا تكذيبَ، فإنّه العُمدَةُ[3].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/ 457.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 190.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 190.

بلاغةُ المجازِ المُرسَلِ:

الأعمالُ لا تتحقَّقُ إلّا بسعيٍ حثيثٍ

السّعيُ في قولهِ تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورٗا﴾ هو السّعيُ للآخرة، وهو الأعمالُ الصّالِحةُ؛ لأنّها سببُ الحصولِ على نعيم الآخرةِ، فذَكَرَ السّعيَ وأرادَ الأعمالَ الصّالحةَ على سبيل المَجاز المُرسَلِ، والعلاقةُ سببيَّةٌ، ونكتةُ ذكرِ السَّعي دونَ التّصريحِ بالأعمال الصّالحةِ؛ لبيانِ أنَّ الأعمالَ لا تأتي إلّا بسعيٍ حثيثٍ، وعملٍ دؤوبٍ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالسَّعي:

السَّعيُ برهانُ الحرصِ وأمارةُ الصِّدقِ

ذُكِرَ السّعيُ في قوله تعالى: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾، وهو المَشيُ دون العَدوِ؛ أي: سعي السّاعي للصّالحات كأنّه يسيرُ سيرًا سَريعًا إلى الآخرة؛ ليَصلَ إلى مرغوبِه منها[1]، قال تعالى: ﴿۞وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [آل عمران: 133]، وقوله: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [الحديد: 21]، فنكتةُ استعمالِ السّعي دونَ مُرادفاتِه هو بيانُ حرصِ السّاعي على تحقيقِ مُبتغاه، وتثبيتِ مَقاصِدِه.

براعةُ إضافةِ السَّعيِ إلى ضميرِ الآخرة:

للآخرةِ سعيٌ مَعهودٌ يُبذَلُ له كلُّ عملٍ محمودٍ

إضافةُ السّعي إلى ضمير الآخرةِ في قوله تعالى: ﴿سَعْيَهَا﴾ من إضافة المصدرِ إلى مفعوله في المعنى؛ أي: السَّعيَ لها[2]، والإضافةُ نسبةُ اسمٍ إلى اسمٍ آخرَ وإسنادُهُ إليه، والإضافةُ هنا بمعنى اللّام الّتي تدلُّ على الاختصاص؛ أي: سعى سعيًا يختصُّ بمَن يريدُ الآخرةَ، فعُرِّفَ نوعُ هذا السّعي بإضافته إلى الضّمير العائدِ على الآخرة، كما أنَّ في هذه الإضافة معنى الاختصاصِ، فكأنَّ للآخرة سعيًا مَعهودًا للمؤمنين، يعرِفُهُ كلُّ مُؤمنٍ، والآيةُ تتحدَّثُ عنه؛ أي: سعيَها الّذي تعرفونَه لا أيّ سعي تبتكرونَه.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 60.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 60.

فائدةُ التَّقييد بجملة الحالِ:

قولهُ تعالى: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ شرطٌ لا بدَّ منه؛ لأنّ الشّرطَ في كون أعمالِ البرِّ موجبةً للثّواب تقدُّمُ الإيمانِ عليها، فإذا لم يوجَدِ الشّرطُ لَم يَحصُلِ المَشروطُ، ثمّ إنّهُ تعالى أخبرَ أنّه عندَ تحقُّق هذه الشّرائطِ يصيرُ السّعيُ مَشكورًا والعملُ مَبرورًا[1]، وفائدةُ تقييدِ السَّعي بجملة الحالِ ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ قصرُ قبولِ الأعمالِ على الإيمان، فلا يُقبَلُ السَّعيُ إلّا ممَّنِ اتَّصفَ بهذه الحال لقبول العملِ وشكره منَ اللّه تعالى، مع ما تفيدُهُ هذه الجملةُ الاسميّةُ مِنَ الثّبات والرّسوخ والدّوام.

قصرُ قبولِ الأعمالِ على تحقُّقِ الإيمان

نكتةُ التَّعبيرِ باسميَّة الجوابِ:

عبَّرَ النَّظمُ بجملة الجوابِ اسميّةً: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾؛ لدلالتها على الثّبات والدّوام؛ أي: فأولئك يشكرُهُمُ اللّهُ على ما صدقوهُ منَ النّيّاتِ والأعمالِ والإيمان، شُكرًا دائمًا لا انقطاعَ فيه ولا نُقصانَ.

الشّكرُ الدّائمُ مِنَ اللهِ للمُؤمنين العامِلين

غرضُ استعمال اسم الإشارةِ للبعيد:

الإتيانُ باسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾ للتّنبيه على أنّ المُشارَ إليهم جَديرون بما سيُخبرُ به عنهم لأجلِ ما وُصِفوا به قبلَ ذِكرِ اسم الإشارة[2]، وأشارَ سبحانَه إليهم بـ(أولئك)؛ للإشعار بعلوّ درجاتِهم وسموّ مَراتبِهم[3]، فتكون فائدةُ استعمال اسم الإشارة تعظيمَ شأن المُشارِ إليهم؛ أمّا لامُ البعدِ فإنّ الإشارةَ إلى البعيد يُرادُ بها بُعدُ المَنزلة المُشارِ إليها وارتفاعُ مكانتها، مثل قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾ [البقرة: 5].

السّاعونَ للآخرة ساعونَ لمكانٍ شامخٍ وشأنٍ رفيعٍ

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 317.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 60.

(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 320.

دلالةُ التّعبير بفعل ﴿كَانَ﴾:

قبولُ السَّعي في الدّنيا، ونيلُ ثوابِه في الآخرة

استعمالُ فعل ﴿كَانَ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾؛ للدّلالة على أنّ الوصفَ تحقَّقَ فيهم مِن قبلُ؛ أي: في الدّنيا؛ لأنّ الطّاعةَ تَقتضي ترتُّبَ الشّكرِ عاجلًا والثّوابِ آجلًا[1]؛ فإنَّ قبولَ السَّعي حاصلٌ في الدُّنيا، ونيلَ ثوابه يكونُ في الآخرة، ففيه من طمأنينة القلبِ، وسكون الفؤادِ، وسعادة النَّفسِ ما تعجَزُ عن وصفه ألفاظُ البيان.

معنى الإضافة وفائدتُها:

سعيُ المُؤمنين كالشَّيءِ المَملوكِ مُختَصٌّ بصاحبِه

الإضافةُ في قوله تعالى: ﴿سَعۡيُهُم﴾؛ إمّا أن تكونَ بمعنى (اللّام)؛ أي: لبيانِ المُلكِ، تشبيهًا للسعي بما يُتملَّكُ من الحسّيات، فيفيد تصوير السَّعي، أو بمعنى (من)؛ أي: لبيان الاختصاصِ؛ وهي هنا كذلك؛ والمعنى: السّعي الّذي اختصّوا به، وهو سعيٌ يشكرُهُم اللّهُ عليه بالقبول والثّواب، أو أن تكونَ للمُلكِ؛ تشبيهًا للسّعي بما يُتملَّكُ مِنَ الحسّيّات، فيُفيدُ تصويرَ السَّعي.

بلاغةُ المَجاز العقليّ:

ذَكَرَ شكرَ السّعي، وأرادَ شكرَ السّاعي

في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾ ذَكَرَ شكرَ السّعي، وأرادَ شكرَ السّاعي، فهو مَجازٌ عقليٌّ؛ إذِ المقصودُ الإخبارُ عن جزاء عملِ السّاعي، وهو الّذي ﴿أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا﴾ لا عن حسن عملِه؛ فجَعَلَ الوصفَ للعمل؛ لأنّه أبلغُ في الإخبار عن عاملِه، بأنَّه مَرضيٌّ عنه.

دلالةُ التَّعبير بالجملة الاسميّة:

الجملةُ الاسميّةُ تُفيدُ الاستمرارَ بالقرائن

الجملةُ الاسميّةُ تفيدُ بأصل وضعِها ثبوتَ شيءٍ لشيءٍ، ولكنْ قد يكتنفُها مِنَ القرائنِ والدّلالاتِ ما يُخرجُها عن أصل وضعِها، فتفيدُ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 60.

الدّوامَ والاستمرارَ، كأن يكونَ الكلامُ في مَعرِض المدحِ أو الذّمِّ، ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾، فالجملةُ سيقَت في مَعرِض المَدح، والمدحُ قرينةٌ، ولهذا فالجملةُ قد خرجَت عن أصل وضعِها وهو الثُّبوتُ، وأفادَتِ الدّوامَ والاستمرارَ؛ أي: إنّ الشّكرَ لسعيهِم دائمٌ مُستمِرٌّ، ثمّ إنّ الجملةَ الاسميّةَ لا تفيدُ الثّبوتَ بأصل وضعِها، ولا الدّوامَ والاستمرارَ بالقرائن إلّا إذا كان خبرُها مُفردًا أو جملةً اسميّةً[1].

نكتةُ اختلاف التّعبيرِ بين جملتي جواب الشَّرط:

أهلُ الدُّنيا قلقون مُضطربون، وأهلُ الآخرة مُطمئنون ثابتون

الجملةُ الفعليّةُ موضوعةٌ أصلًا لإفادة الحدوثِ في زمنٍ مُعيَّنٍ، وقد تفيدُ الجملةُ الفعليّةُ الاستمرارَ التَّجَدُّديَّ بالقرائن، كأن يكونَ الكلامُ في مَعرِض المدحِ أو الذّمِّ، وفي الآيتين موضعُ المُقابلة؛ فإنّ الأولى منهما ذمٌّ والثّانية مدحٌ، وبذلك فإنّهما قد خرجَتا إلى معنيي التّجدُّد للفعليّة والثّبوت للاسميّة، فجاء التّعبيرُ في الأولى بجملةٍ فعليّةٍ ﴿عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا﴾ تدلُّ على التَّجدُّد، لِتدلَّ في الثّانية ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾ على الثّبوت، ويدلُّ ذلك على أنّ غيرَ المُؤمنين مُتَذَبذِبونَ في أعمالِهم، وأنّ المؤمنينَ راسِخو الإيمان، فأهلُ الدّنيا يتقلّبون في أهوائِهم، وأهلُ الآخرة مُستقرّون مُستمرّون على نهجِهِم.

(1) عتيق، علم المعاني، ص: 48.

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ٢٠﴾ [الإسراء: 20]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

عطاءُ الله تعالى يعمُّ ولا يخصُّ

بعد أن ذكرتِ الآياتُ السّابقةُ الصّنفين؛ أهل العاجلةِ، وأهل الآخرةِ، وبيَّنَتْ مآلَ كلِّ فريقٍ منهما، ذَكَرَ هنا إجمالًا أنّ اللّهَ تعالى يُمكِّنُ كِلا الفريقين؛ هؤلاء وهؤلاء من عطائهِ سبحانَه، الّذي لا ينفدُ ولا ينقصُ منه شيءٌ، فالمناسبةُ بين الآيات دفعُ توهُّمِ أنَّ إمدادَ اللّه تعالى للعبادِ مُقترِنٌ فقط بالإيمان.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿عَطَآءِ﴾: جذرُ الكلمة هو (عطو)؛ والعَطْوُ: التّناولُ باليدِ[1]، والإعطاءُ: الإنالةُ، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾ [التّوبة: 29]، واختَصَّ العَطيَّةَ والعطاءَ بالصِّلة[2]، قال: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٩﴾ [ص: 39]، وقوله: ﴿فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ ٥٨﴾ [التوبة: 58]، وقوله: ﴿عَطَآءِ رَبِّكَۚ﴾؛ أي: رزقُهُ للعباد، و(العَطيَّةُ) الشَّيءُ (المُعطَى)، والجَمعُ (العَطايا)، وفُلانٌ (يَتَعاطَى) كَذا؛ أي: يَخوضُ فيه[3].

2) ﴿مَحۡظُورًا﴾: جذرُ الكلمة هو (حظر)؛ الحَظرُ: المَنعُ[4]، وحظرَ عليه حظرًا: حجرَ ومنعَ[5]، وكلُّ شيءٍ حَجَزَ بين شيئَين فهو حِجاز وحِظار، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾؛ أي: مَمنوعًا[6].

(1) الخليل، العين: (عطو).
(2) الرّاغب، المفردات: (عطا).
(3) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (عطا).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حظر).
(5) ابن سِيده، المُحكم: (حظر).
(6) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حظر).

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

عطاءُ الله مُمتَدٌّ إلى النّاس جميعًا

ساقَ سبحانَه بعدَ ما ذكرَ فريقي الدّنيا والآخرة، ما يدلُّ على كمال قدرتِه، وسعة عطائِه، فقال: ﴿كُلَّا نُّمِدُّ﴾؛ أي: نمدُّ كلًّا منَ الفريقين من فضلِنا وإحسانِنا فَنُعطي ما نشاءُ إعطاءَه لِمَن يريدُ العاجلةَ، ولِمَن يريدُ الآجلةَ، دون أن ينقصَ ممّا عندنا شيءٌ، ودون أن يخرجَ عن مشيئتِنا شيءٌ، فعطاءُ اللّه تعالى واصلٌ ومُمتَدٌّ إلى النّاس جميعًا.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ التّذييل:

اللهُ تعالى قدَّرَ أرزاقَ النّاس جميعًا مُؤمنهم وكافرهم

قولهُ تعالى: ﴿كُلَّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾ تذييلٌ للآيتين السّابقتين، وهذه الآيةُ فَذلَكةٌ للتّنبيه على أنّ اللّهَ تعالى لم يَترُكْ خلقَهُ من أثر رحمتِه[1]. "وانتصَبَ ﴿كُلًّا﴾ بـ﴿نُّمِدُّ﴾، والإمدادُ المواصَلةُ بالشّيء، والمعنى: كلَّ واحدٍ منَ الفريقين نُمِدُّ، والظّاهرُ أنّ هذا الإمدادَ هو في الرّزق في الدّنيا؛ أي: إنَّ اللّهَ يَرزقُ في الدّنيا مُريدي العاجلة الكافرين، ومُريدي الآخرةَ المُؤمنين، ويَمُدُّ الجميعَ بالرّزق، وإنّما يقعُ التّفاوتُ في الآخرة، ويدلُّ على هذا التّأويلِ قوله: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾؛ أي: إنّ رزقَه لا يَضيقُ عن مُؤمنٍ ولا كافرٍ"[2].

غرضُ تقديم المفعول:

النّاسُ جميعًا يمدُّهُم اللهُ بعطائِه ورزقِه

قولهُ تعالى: ﴿كُلَّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ﴾؛ أي: كلَّ واحد منَ الفريقين، والتّنوينُ عوضٌ منَ المُضاف إليه[3]، وأفادَ هذا التّقديمُ تعميمًا؛ ودلّ على أنّ عطاءَ اللّه لكلا الفريقين لا ينقُصُ بسبب ما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 60 - 61.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 29.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 613.

اختاروهُ، فلا يُنقِصُ من أهل الدُّنيا، ولا من أهل الآخرةِ، بل يُمِدُّ اللّهُ عُمومَ النّاسِ من عطائه سبحانَه.

بلاغةُ المجازِ بالحذف:

رزقُ العبادِ بإرادة الله لا بأديانِهم

لفظُ (كلّ) هو لضمِّ أجزاءِ الشّيءِ، ويفيدُ معنى التَّمام، وجاء قولهُ تعالى: ﴿كُلًّا﴾ مُنوّنًا تنوينَ عوضٍ عنِ المضاف إليه؛ أي: نُمِدُّ كُلَّ واحدٍ منَ الفريقين[1]، فلا يُمنَعُ عطاءُ ربِّك عن أحدٍ من خلق اللّه تعالى، وهذا من قبيل تقسيم الأرزاقِ بحسب مشيئةِ اللّه سبحانه، ولفظُ ﴿كُلًّا﴾ هنا مفعولٌ به للفعل نُمِدُّ؛ أفادَ شمولَ أفراد الفريقين فردًا فردًا.

دلالةُ التّعبير بالمضارع في فعل الإمداد:

الإشارةُ إلى وعدِ اللهِ بالعطاء المتجدِّد للفريقين

معنى الإمدادِ في قوله تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ﴾؛ أمدَدتُ الشَّيءَ إذا زِدتُ فيه[2]، أو إذا سرّبتُ إليه شيئًا آخر يُكثِرُه، أو يَكثُرُ لديهِ[3]، وفائدةُ التّعبير بالمضارع الدّلالةُ على التَّجدُّدِ والاستمرار، فلا ينقطعُ عطاءُ اللّه لِكلا الفريقين إلى يوم القيامةِ، وهذا فضلُ اللّه تعالى على عبادِه مُؤمنين وكافرين، ففيه إشارةٌ إلى وعد اللّهِ بالعطاء، كي يقعَ الاختيارُ في العبادةِ على وجهه خالِصًا للّه تعالى.

غرضُ إسنادِ فعل الإمداد إلى الضّمير:

إذا وعدَ الكريمُ أنجزَ، وإذا أوعدَ فله الإرادة المُطلَقة

إسنادُ فعل الإمدادِ إلى ضمير العظمةِ في قوله تعالى: ﴿نُّمِدُّ﴾ لإفادةِ التَّحقُّقِ وضمانِ ذلك المدِّ للنّاس جميعًا من عطاء اللّه سبحانَه؛ "أي: أنّه تعالى يُمِدُّ الفريقين ويوسِّعُ عليهما في الرّزق منَ الأموال والأولاد، وغيرِهما من أسباب الحياة والزّينةِ في الدّنيا، فلا يضيقُ عطاءُ اللّه عن أحدٍ مؤمنًا كان أو كافرًا؛ لأنّه متاعُ الدُّنيا، فبيّنَ تعالى أنَّ عطاءَه ليس بمحظورٍ؛ أي: غيرُ مَمنوعٍ"[4]، ونكتةُ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 320.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/ 457.
(3) الثّعالبيّ، الجواهر الحِسان: 5/ 313.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 319.

الإسناد بيانُ أنَّ الإمدادَ عنه سبحانَه، ففيه تأكيدُ الإخبار، وتعظيمُ الأمر، وتوكيدُ تحقيقه.

موقعُ البدل ودلالتُه:

التّعجيبُ من عظيم سعة رزقِ الله وعطائِه

وقولُه: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ بدلٌ من قوله: ﴿كُلًّا﴾، هو بدلٌ مُفصَّلٌ من مُجمَلٍ، ومَجموعُ المعطوفِ والمعطوفِ عليه هو البدلُ، والمقصودُ مِنَ الإبدال التّعجيبُ من سَعة رزقِ اللّه تعالى لعبادِه، والإشارةُ بـ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ في المَوضِعين إلى مَن كان يُريدُ العاجلةَ، ومَن أرادَ الآخرةَ[1]، وهو على التّرتيب هذا ما يقضي به الظّاهرُ، وهو ما يؤكِّدُه النَّظرُ.

فنُّ اللّفِّ والنّشر المُرتَّبُ:

الخلقُ مُتساوون عندَ اللهِ في العطاء بحسب مشيئتِه سبحانَه

اللّهُ تعالى يرزقُ في الدّنيا مُريدي الآخرة المؤمنين، ومُريدي العاجلة مِنَ الكافرين، ويَمُدُّهُم بعطائِه منها، وإنّما يقعُ التّفريقُ والتّبايُنُ في الآخرة، ويَتناسَبُ هذا المعنى مع قوله: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾؛ أي: إنّ رزقَهُ في الدّنيا لا يَضيقُ عن مُؤمنٍ ولا كافرٍ، وقلَّما تَصلُحُ هذه العبارةُ لِمَن يُمَدُّ بالمَعاصي الّتي توبِقُه، و"المَحظورُ": المَمنوعُ[2]، والعبارةُ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ نشرٌ للّفِّ قبلَه، هو ما ورد في الآيتين السّابقتين؛ قوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ وقوله: ﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾، والأصلُ أن يكونَ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الأولى مَقصودًا بها مَن أرادَ العاجلةَ، والثّانية مَن أراد الآخرةَ، فيكون اللّفُّ والنّشرُ على التّرتيب، وهو نشرٌ مُجمَلٌ بعدَ لفٍّ مُفصَّلٍ، وفائدةُ هذا النّشر هو توكيدُ التّساوي عند اللهِ في إمداد خلقِه من فضلِه، ممّن أرادَ العاجلةَ أو الآخرةَ.

براعةُ تَكرارِ اسم الإشارة:

التّساوي في العطاء مُراعًى كذلك في ألفاظِ البيان

جاءَ تَكرارُ اسم الإشارةِ؛ لبيان أنَّ كلا الفريقين مُتساوٍ عند

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 61.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/ 458.

اللّه في العطايا الدّنيويّة، فلم يقُلْ: (كُلًّا نُمِدُّ المؤمنين والكافرين)، فلا فرقَ بينَهما بهذا الاعتبار وهو العطاءُ، ولا تمييزَ بينَهما؛ لأنَّهما صنفٌ واحدٌ من حيث الرّزقُ، فلم يتميَّزْ في النّشر - كما سبقَ ذكرُه - أهو على التّرتيب أم على العكس منَ اللّفِّ، لغرض بيانِ ذلك التّساوي عند اللّه في العطايا الدّنيويّةِ بين الفريقين، فلم يَمدحْ أحدَ الفريقين في النّشرِ، ويَذمَّ الآخرَ.

غرضُ التّعبير باسم الإشارة:

الدّلالةُ على قرب اللّه من عباده كلِّهم

يُجاءُ بـ (ها) في أوائل أسماء الإشارةِ لتنبيه المُخاطَب على حضور المُشار إليه، وقربِه، وللمُبالغة في إيضاحه؛ جاء في شرح الرّضيّ على الكافية: "فجيء في أوائلها بحروفٍ يُنبِّهُ المُتكلِّمُ المُخاطَبَ حين يلتفتُ إليه، وينظرُ إلى أيّ شيءٍ يشيرُ من الأشياء الحاضِرةِ"[1]، و(أولاء) للدّلالة على الجمع للقريب، فقوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ ليُنبِّهَ المُخاطَبين على الفريقين مع كثرتِهم، فإنّه سبحانَه يُمِدُّهُم جميعًا من عطائِه من خير الدّنيا مِنَ المال والولد وغير ذلك، ودلالةُ القُربِ هنا لفائدة علمِ اللّه بهم، وبما يَطلبون، وما يُصرِّحونَ به، وما يَكتمونَه في نفوسِهم، فهو سبحانَه أقربُ إليهم من أنفسِهم.

نكتةُ تقييد فعلِ ﴿نُّمِدُّ﴾ بالمجرور:

عطاءُ اللّه لعباده يكونُ بلا مُقابلٍ

قُيِّدَ فعلُ ﴿نُّمِدُّ﴾ بالمجرور في قوله تعالى: ﴿مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ﴾؛ فلو جُرِّدَ الفعلُ من هذا التّقييدِ لَفُهِمَ المعنى، ولأدّى أصلَ المعنى المرادِ منه، إذِ العطاءُ لا يكونُ إلّا مِنَ اللّه تعالى، ولكنْ بالتّأمُّلِ يُعلَمُ أنّ لهذا القيد غرضًا وفائدةً؛ لا تتحقّقُ إلّا بذكرِه، فهو أوّلًا التفتَ بالخطاب إلى رسول اللّه ﷺ مُبيِّنًا له عظيمَ عطاءِ اللّه، والخطابُ للرّسول ولكلّ واحدٍ من أمّتِه من بعدِه، وهو ثانيًا ذَكَرَ أنّه عطاءٌ، والعطاءُ يكون بلا مُقابلٍ.

---

(1) الرّضيّ، شرح الرّضيّ على الكافية: 2/ 32.

بلاغةُ الالتفاتِ مِنَ التَّكلُّم إلى الغَيبة:

الأرزاقُ مُقدَّرةٌ قديمةٌ للخلائق الآتية والقديمة

الالتفاتُ في قوله تعالى: ﴿كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ﴾ مِنَ المُتكلِّم ﴿نُّمِدُّ﴾ إلى الغائب ﴿رَبِّكَۚ﴾، وبلاغتُهُ أنّ اللّه تعالى قد ضَمِنَ ذلك العطاءَ، وهو مُقدَّرٌ عندَه منذ أن قَدَّرَ في الأرض الأرزاقَ والأقواتَ، قال تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ١٠﴾ [فصّلت: 10].

معنى حرف ﴿مِنۡ﴾ ودلالتُه:

كلُّ عطاءٍ ونعمةٍ هي من عند الله ابتداءً

أفادَ حرفُ الجرّ ﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ﴾ الابتداءَ؛ ودلالتُه في سياق الآية أنّ كلَّ عطاءٍ يصِلُ إلى هؤلاء وهؤلاء ابتداءً هو من عطاء اللّه لا من غيرِه، وهو إمدادٌ لهم من عنده سبحانَه، مهما كانَتِ الظّروفُ والأسبابُ، فأصلُ كلِّ عطاءٍ لا يكونُ إلّا بإذن اللّهِ ومِن عندِه سبحانَه.

غرضُ إضافة العطاءِ إلى لفظِ الرّبوبيّة:

الرّبُّ لا يقطعُ عطاءَه عن أحدٍ، وهنا بيتُ القصيد

الرّبُّ هو المُربّي والهادي والموجِّهُ والمُرشِدُ والرّازقُ والقيِّمُ، كلُّ هذه الصّفاتِ تدلُّ على الرّبِّ، فاختصرَ هذه الصّفاتِ كلَّها بقوله تعالى: ﴿رَبِّكَۚ﴾، لا من أحدٍ غيرِه ممّا يدَّعي بعضُهُم أنّها من أربابهم؛ لأنّ الرّبَّ أيضًا يمكنُ أن يُطلَقَ على غير اللّه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: 42]، وإضافةُ العطاء إلى الرّبِّ يُكسِبُهُ صفتي الدّيمومة والسَّعة؛ لأنَّ الرَّبَّ لا يقطعُ عطاءَه عن أحدٍ، وعطاؤُه بلا مُقابلٍ، "والتَّعرُّضُ لعنوان الرُّبوبيّةِ للإشعار بمَبدَئيَّتِها لكُلٍّ منَ الإمداد وعدمِ الحَظرِ"(1).

نكتةُ إضافة لفظ الرُّبوبيّةِ إلى الضّمير:

عطاءُ البشر جميعًا يُرضي الرَّحمةَ المُهداةَ

وُجِّهَ الخطابُ للرّسول ﷺ بأنّ كلَّ هؤلاء يأتيهم العطاءُ من ربِّكَ أنت يا محمّدُ لا من أربابٍ آخرين، فأضاف لفظَ الرّبوبيَّةِ إلى ضمير

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 46.

المُخاطَب وهو رسولُ اللّه ﷺ؛ للدّلالة على القُرب من رسول اللّه ﷺ والتّطمينِ له، وتشريفِه في سياق الامتنانِ على البشر جميعًا، ففيه إيماءٌ رقيقٌ بأنَّ ربَّكَ لن يمنعَ أحدًا من عطائِه، وهو يعلمُ سبحانَه أنَّ هذا العطاءَ ممّا يُرضي الرَّحمةَ المُهداةَ، والسّراجَ المُنيرَ، فكان للإضافة شأنٌ لا يَخفى على مَن تأمَّلَ هذا المعنى، وعَلِمَ هذا الإسنادَ الرَّبانيَّ في بدايات الدَّعوةِ إلى دينه سبحانَه.

دلالةُ واو الحال:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾ واو الحال؛ وهي الواو الدّاخلةُ على جملة اسميّةٍ أو فعليّةٍ مسبوقةٍ بمعرفة، ففائدتُها أنّها جمعَت ﴿عَطَآءُ رَبِّكَ﴾ بسَعة ما فيه، وأنّه لا يوجدُ ما يحظرُه عن أحدٍ.

دلالةُ التّعبير بالكون المنفيِّ:

وعدُ أمَّةِ النَّبيِّ العدنانِ بأنَّ العطاءَ لن يُحظَرَ

دلَّ التّعبيرُ بالكون المنفيِّ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾ على القدم، إذ إنّ عطاءَ اللّه لم يكنْ محظورًا عن أحدٍ، مُنذ أن خلقَ اللّهُ السّماواتِ والأرضَ، وقَدَّرَ أقواتَها وأرزاقَ الأحياء فيها، فاللّهُ تعالى هو الكريمُ الرّزّاقُ، الّذي لا تخفى عنه خافيةٌ، فمِن صفاتِه سبحانه أنّه ما كان عطاؤُه محظورًا مَمنوعًا، ففيه عِدةٌ كريمةٌ لأمَّة محمّدٍ ﷺ؛ بأنَّ العطاءَ لن يُحظَرَ عنها.

نكتةُ إظهار ما حقّه الإضمار:

إحاطةُ اللهِ تعالى بكلِّ ما يقعُ من عبادِه من طلبٍ أو سُؤالٍ

الإظهارُ والإضمارُ أمران مُتعلّقان بالأسماء، والأصلُ في الأسماء أن تكونَ ظاهرةً، وأنّه إذا ذُكِرَ الاسمُ ثانيًا أن يُذكرَ مُضمَرًا؛ للاستغناء عنه بالظّاهر السّابقِ، والغرضُ منَ الإظهار في مَوضعِ الإضمارِ في قوله تعالى: ﴿عَطَآءُ رَبِّكَ﴾ قصدُ تقويةِ داعيةِ الأمور، والإشعارُ بإحاطتِه سبحانَه بكلِّ شيءٍ يقعُ منهُم؛ من طلب العطاءِ منَ اللّه؛ دنيويًّا أو أُخرَويًّا، ممّا يكتمونَه في نفوسِهم، ويتظاهرونَ

به، وإخباره لهم به، ومُجازاتهم عليه، ولمزيد الاعتناءِ بشأن المُظهِرِ بعلّيَّته للحُكم ﴿مَحۡظُورًا﴾ مَمنوعًا عمّن يُريدُهُ؛ بل هو فائِضٌ على مَن قُدِّرَ له بموجبِ المَشيئةِ المَبنيّةِ على الحِكمةِ، وإنْ وُجِدَ فيه ما يَقتضي الحظرَ كالكُفرِ، وهذا في معنى التّعليل لشمولِ الإمدادِ لِلفَريقَين[1].

بلاغةُ التّذييل:

إجمالُ المعنى السّابق وتعليلُه

قولهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾ اعتراضٌ، فيكون إطنابًا على سبيل التّذييل، لِما فيه من إجمال المعنى السّابق؛ ليدلَّ على معنى الإمدادِ الّذي هو استرسالُ العطاءِ وتعاقُبُهُ، وجَعلُ الجديدِ منه مَدَدًا للسّالفِ بحيث لا يَنقطِعُ[2]، ويمكنُ اعتبارُ قوله: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾ جملةً تعليليّةً، وهي الّتي تقعُ في أثناء الكلام تعليلًا لِما قبلَها، كما في قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ﴾ [التوبة: 103]؛ لِتكونَ تذييلًا أيضًا لِما فيها مِن اكتناهِ المعنى السّابق.

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 46.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 61.

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ٢١﴾ [الإسراء: 21]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

خطابٌ للنَّبيِّ ﷺ لبيان سنّةِ التّفضيلِ في الدّنيا

لمّا كانَ العطاءُ المبذولُ للفريقين هو عطاءَ الدّنيا، وكانَ النّاسُ مُفضَّلين فيه بمشيئةِ اللّه تعالى، وخطاب النّبيِّ ﷺ في بيان مسألةِ ديمومةِ عطاء اللّه، فقد ناسبَ في هذه الآية أن يُلفِتَ نظرَ نبيّه ﷺ لَفْتَ اعتبارٍ وتدبُّرٍ، ثمّ ذَكَّرَهُ بأنّ عطاءَ الآخرة أعظَمُ عَطاءً، وقد فضَّلَ اللّهُ به المُؤمنين[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَضَّلۡنَا﴾: جذرُ الكلمة هو (فضل)؛ والفَضيلةُ: الدّرجةُ والرِّفعةُ في الفضلِ، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [المؤمنون: 24]؛ معناه: يريدُ أن يكونَ له الفضلُ عليكم في القَدْرِ والمَنزلةِ[2]، والتّفضيلُ في هذه الآية أُريدَ منه بيانُ سنّةِ التّفضيلِ في أرزاقِ النّاسِ في الدّنيا.

2) ﴿دَرَجَٰتٖ﴾: جذرُ الكلمة هو (درج)؛ والدَّرَجَةُ في الرِّفعة والمَنزلة، وتُجمَعُ الدَّرَج، ودَرَجاتُ الجنانِ: مَنازلُ أرفَعُ من مَنازلَ[3]، الدّرجةُ نحوَ المَنزلةِ، لكنْ يُقالُ للمَنزلة: دَرَجةٌ إذا اعتُبِرَت بالصّعود دونَ الامتدادِ على البسيطة، كدرجةِ السّطح والسُّلّم، ويُعبَّرُ بها عنِ المَنزلة الرّفيعة، قال تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ﴾ [البقرة: 228]؛ وقالَ: ﴿لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [الأنفال: 4][4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 63.
(2) الخليل، العين: (فضل).
(3) الخليل، العين: (درج).
(4) الرّاغب، المفردات: (درج).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

تفاضلُ النّاس في الدُّنيا تقريبٌ لمَشهد المُفاضلة في الآخرة

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾؛ أي: انظرْ أيّها المُخاطَبُ نظرَ تأمُّلٍ وتدبُّرٍ واعتبارٍ في أحوال النّاس، لترى عن طريق المُشاهَدة؛ كيف فضّلَ اللهُ تعالى بعضَ النّاس على بعضٍ في هذه الحياة، فهذا غنيٌّ وذاك فقيرٌ، وهذا قويٌّ وذاك ضعيفٌ، إلى غير ذلك منَ الأحوال الّتي تدلُّ على تفاوت النّاسِ في هذه الدُّنيا، على حسب ما تقتضيه إرادتُه، وحكمتُه، ومشيئتُه سبحانَه، أمّا في الآخرة فسيكونُ فيها النّاسُ على أكبر درجات التّفاضُلِ، والتّفاوتِ في الدّرجاتِ والمَنازلِ، ممّا كانوا عليه في الدّنيا[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

علّةُ فصلِ الجملة عنِ السّابقة:

التّفضيلُ بين النّاس في الأرزاق سنّةٌ في العطاءِ غير المحظور

بين هذه الآيةِ والّتي قبلَها كمالُ الانقطاع؛ لأنّ الأولى خبريّةٌ، وهذه إنشائيّةٌ، وبينَهما اختلافٌ في المعنى، فالجملةُ: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ مستأنَفةٌ، وهي انتقالٌ منَ الإخبار عنِ الأرزاق والعطايا إلى الأمر بالنَّظر في تفضيل النّاسِ بعضِهم على بعضٍ فيها، فهي كالدَّليل على الجملةِ السّابقة، وعليه فلنا أن نحملَ الجملةَ على الاستئناف البيانيِّ؛ كأنَّ سائلًا قد سألَ، وهل كان العطاءُ للجميع على رتبةٍ واحدةٍ؟ فجاء الجوابُ: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾.

دلالةُ التّعبير بمفردةِ النّظر:

النّظرُ بابُ التّفكُّر وطريقُ التّدبُّر

قولهُ تعالى: ﴿ٱنظُرۡ﴾ فعلُ أمرٍ، والفاعلُ ضميرٌ مُستتِرٌ تقديرُه: أنت، والنّظرُ بصريٌّ؛ لأنّ التّفاوتَ في الدّنيا مُشاهَدٌ، و(كيف) في موضعِ نَصْبٍ بعد حذفِ حرفِ الجرّ؛ لأنّ (نَظَرَ) يَتَعدَّى به[2]، ومآلُ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 321.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 29.

هذا النَّظرِ البصريِّ اعتباريٌّ، "ولمّا كان النَّظرُ مُفضيًا وسَببًا إلى العلم جازَ أن يُعلَّقَ، ويجوز أن يكونَ ﴿ٱنظُرۡ﴾ من نظر الفكرِ فلا كلامَ في تعليقِه، إذ هو فِعلٌ قلبيٌّ"[1].

غرضُ الأمرِ بالنّظر:

تنبيهُ المُخاطَبِ إلى عظيم شأنِ الله في عطاياه

الأمرُ طلبُ حصول الفعلِ على جهة الاستعلاءِ والتّكليفِ منَ الأعلى إلى الأدنى، هذا هو معناه الحقيقيّ، أمّا المعنى المجازيُّ الّذي خَرَجَ إليه الأمرُ في قوله: ﴿ٱنظُرۡ﴾ فهو التّنبيهُ إلى عظيم شأن الله تعالى، وأنّه لا تنفدُ خزائنُهُ لكثرة العَطايا لكلِّ فردٍ أو جماعةٍ منَ البشر، أيًّا كانَت أفعالُهُم، والأمرُ بالنّظر موَجَّهٌ إلى النّبيِّ ترفيعًا في درجات عِلمِه ﷺ، ويحصُلُ به توجيهُ العِبرَةِ إلى غَيرِه[2]، وقد خَرَجَ الأمرُ هُنا إلى معنى التّنبيه إلى عظيم شأنِ اللّه، والتّنبيه إلى عظيم سُنّتِه في الخلقِ والرّزقِ والتّقدير.

دلالةُ استعمال أداة الاستفهامِ ﴿كَيۡفَ﴾:

الإخبارُ بقصد التَّنبيه والاعتبار

﴿كَيۡفَ﴾ لفظٌ يُسألُ به عمّا يصحُّ أن يُقالَ فيه شبيهٌ، وغيرُ شبيهٍ كالأبيض والأسود، والصّحيح والسّقيم، و﴿كَيۡفَ﴾ هنا إخبارٌ لا استفهامٌ، والفرقُ بينَهما أنّ الاستخبارَ قد يكون تنبيهًا للمُخاطَب أو توبيخًا بحسب السّياق، ولا يقتضي عدمَ عِلمِ المُستَخبر، والاستفهامُ بخلاف ذلك، وجاءَ في المفردات: كلُّ ما أخبرَ اللّهُ بلفظ (كيف) عن نفسِه فهو إخبارٌ على طريق التّنبيه للمُخاطَبِ أو توبيخٌ، نحو قوله: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: 28] و﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾ [آل عمران: 86][3]، وهي في قوله: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ جاءَت للتّنبيه والاعتبار[4].

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 29.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 63، والزّركشيّ، البرهان: 4/ 331.
(3) الرّاغب، المفردات: (كيف).
(4) الزّركشيّ، البرهان: 4/ 330 - 331.

دلالةُ التّعبير بالماضي في ﴿فَضَّلۡنَا﴾:

العطايا والأرزاقُ مُحقَّقةُ الوقوع، مُقدَّرةٌ عندَه سبحانَه

التّفضيلُ عبارةٌ عن عطاء الدّنيا، فقد فَضَّلَ اللّهُ سبحانه بعضَهم على بعضٍ في الأرزاق؛ كأنّه قيلَ: في تفضيل شخصٍ على شخصٍ من كلا الفريقين. "فالمُرادُ التّفضيلُ في عطاء الدّنيا؛ لأنّه الّذي يُدركُه التّأمُّلُ والنَّظرُ، وبقرينةِ مُقابَلَتِه بقولِه: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ﴾"[1]، وجاءَ التَّعبيرُ بالماضي ﴿فَضَّلۡنَا﴾ ليدلَّ على أنّ أقدارَ اللّهِ مُحققَّةُ الوقوع، مَرئيَّةٌ، يراها النّاسُ، واللّهُ يُقدِّرُ الأقواتَ والأرزاقَ للعبادِ جميعًا.

غرضُ إسناد فعل التَّفضيلِ إلى الضّمير:

مَقصِدُ تفضيل المَرزوقين في الأرزاق عظيمٌ لصدوره عن العظيم

في إسناد فعلِ التّفضيلِ إلى ضمير العظمةِ في قوله: ﴿فَضَّلۡنَا﴾ إظهارٌ لعظيم شأنِ ذلك التّفضيل الّذي لا يَقدِرُ عليه إلّا الخالقُ العظيمُ، فاختيارُ ضمير العظمة دون ضمير المُتكلِّم؛ لإظهار كمالِ العنايةِ بتلك الأقدارِ وعظيم شأن اللّه بتحقيق وعدِه لعبادِه بذلك؛ ثمّ إنّ إسنادَ الفعل إلى ضمير العظمةِ يدلُّ على معنى التَّحقُّقِ، فاللّهُ تعالى هو مَن تكفَّلَ بذلك التّفضيلِ، ونسبَهُ إلى نفسِه؛ لبيان شأنِ التّفضيلِ وتقديرِ الأرزاقِ للعباد، وأنّه صادرٌ عن مَقام الرّبوبيّة.

نكتةُ إبهامِ المُفضَّلِ والمُفضَّلِ عليه:

لا علاقةَ بين الخيريَّةِ الأخرويَّةِ والتّفضيلِ في الرّزق

في قوله تعالى: ﴿فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ أبهمَ صفاتِ المُفضَّلِ والمُفضَّلِ عليه؛ ليُظهِرَ التّفاوتَ في الرّزق الدّنيويِّ دون ربطِ المُفضَّلِ بالخيريّة أو العكس، فاللّهُ تعالى فَضَّلَ بعضًا منَ النّاس على بعض من غَيْر تعيين الفاضلِ منَ المَفضول عليه؛ لأنّ ﴿فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾؛ أي: في رزق الدّنيا؛ ليتّخذَ بعضُهم بعضًا سُخريًّا.

معنى حرف الاستعلاءِ ودلالتُه:

استعملَ حرفَ الاستعلاء في قوله: ﴿عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾؛ للاستعلاء

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 63.

المجازيِّ المعنويِّ، فالاستعلاءُ فيه تَمكُّنُ صاحبِ المالِ منَ الأمر والنّهي، ومَن هو دونَه في المال يعملُ لديه دون أدنى تردُّدٍ أو إعراض، وهذا من تسخير اللّهِ تعالى لعباده ضمن سننٍ يَسيرُ عليها الخَلقُ، ويَظهرُ من حرف الاستعلاء جانبُ التّسخير وأهمّيّته في الحياة الدّنيا؛ إذ لولا المُفاضلةُ بين النّاس وتسخيرُ بعضِهم لبعضٍ لما استقرَّت حياةُ النّاس.

تسخيرُ بعضِ النّاس لبعضٍ بسنّة التّفضيل

معنى اللّام ودلالتُها:

اللّامُ في قوله: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ﴾ لتوكيد أنّ الآخرةَ هي أكبرُ درجاتٍ، وأكبرُ تفضيلًا منَ الدّنيا، فمهما بلغَ التّفضيلُ بين النّاس في هذه الحياةِ، ورفعَ بعضَهم فوق بعضٍ درجاتٍ، فإنّ درجاتِ الآخرةِ لا يسعُ النّاسَ تصوّرُ تفضيلِها، وعظيمِ شأنِها، وتفاوتِ بعضِها عن بعض.

درجاتُ الآخرة عظيمةٌ لا يُتصوَّرُ شأنُها

غرضُ تعريف المُسندِ إليه باللّام:

الغرضُ من تعريف المُسندِ إليه ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ﴾ بـ (أل) التّعريف هو إيضاحُ ما لم يكنْ واضِحًا للمُخاطَب، وتَبيينُهُ له، فقوله تعالى: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا﴾ توضِّحُ وتبيّنُ للمُخاطَبين عظيمَ شأن الآخرةِ في المُفاضلة بين النّاسِ، وما سينالُه العاملون على أعمالِهم منَ الفضلِ والجِنانِ والإحسانِ إليهم بعدَ بيانِ تفضيلِ النّاسِ بعضِهم على بعضٍ في الدُّنيا.

بيانُ عظيم شأن الآخرةِ ودرجاتِها وأفضالِها

دلالةُ الإخبار بصيغة أفعل التّفضيل:

في قوله تعالى: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ﴾ قد عبَّرَ عنِ المُسند (الخبر) بصيغة أفعل الّتي تدلُّ على المُفاضلة؛ إذ تسمحُ بتفضيل وصفِ شيءٍ على غيره؛ أي: تدلُّ على اشتراك شيئَين في صفةٍ وزيادة أحدِهما على الآخر فيها؛ فدلَّت هنا على أنّ نسبةَ التّفاضُلِ في درجات الآخرةِ إلى التَّفاضُلِ في درجات الدّنيا كنسبة الآخرة إلى الدّنيا[1].

تفاضُلُ درجات الآخرةِ لا يتَّسعُ لها نطاقُ الفَهم

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/ 336.

نكتةُ الاستعارةِ التّصريحيّة:

الدّرجاتُ في قوله تعالى: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ﴾ مُستعارةٌ لعظمة الشّرفِ، فهي استعارةٌ تصريحيّةٌ؛ إذ إنّ الارتقاءَ وعظيمَ الشّرفِ هي كالدّرجات العاليةِ لعلاقة المُشابهةِ بينَهما، والغرضُ من هذه الاستعارةِ تجسيدُ عظيم الشّرفِ بدرجاتٍ مُتفاضلةٍ، والتّفضيلُ: إعطاءُ الفَضلِ، وهو الجِدَةُ والنِّعمَةُ، والمعنى: النِّعمَةُ في الآخرة أعظمُ من نِعَم الدّنيا[1]، وإنّ هذه الدّرجاتِ والتّفضيلَ إنّما هو فيما بين المُؤمنين[2].

عظيمُ تفاضُلِ المؤمنين كعظيم شأنِ الدّرجات

فائدةُ تَكرار لفظة ﴿أَكۡبَرُ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا﴾، ولم يقُلْ: (ولا الآخرةُ أكبرُ درجاتٍ وتفضيلًا)، وسرُّ تَكرارِ كلمة ﴿أَكۡبَرُ﴾ المبالغةُ في وصف درجاتِ الآخرةِ، إذ لا يخطرُ ببال أحدٍ ذلك الكِبرُ لتلك الدّرجاتِ، ولكنَّ الأولى منها أكبرُ سَعةً في الدّرجة نفسِها، والثّانيةَ أكبرُ تفضيلًا بين درجةٍ وأخرى، فمهما حاولتَ تصوّرَ معنى ذلك التّفضيلِ، فإنّ كلمةَ ﴿أَكۡبَرُ﴾ ستوحي لك بصيغتِها وتكرارِها أنّ ذلك التّصوُّرَ قاصِرٌ عن حقيقة ما قد وُعِدَ المؤمنون يومَ القيامة.

التّفاوتُ في درجات الآخرة لا حدودَ لتصوّرِه

فنُّ بديعِ التّصدير:

أشارَ الباقلّانيُّ إلى هذه الآية في مَعرِضِ توضيح التّصديرِ، فقال: ومنَ البديع (ردُّ عَجز الكلام على صدرِه)، وهي كقول اللّه تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا﴾[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 64.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/ 458.
(3) الباقلّانيّ، إعجاز القرآن، ص: 93.

﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ٢٢﴾ [الإسراء: 22]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الشِّركُ سببُ الذَّمِّ الأبديِّ والخذلانِ السَّرمديِّ

بعد أنْ بيّنتِ الآيةُ السّابقةُ تفاضُلَ النّاس في الدّنيا، وأنّ درجاتِ الآخرةِ أكبرُ ممّا في الدّنيا، فقد بيَّنَتْ هذه الآية أنّ خُلاصَةَ أسبابِ الفوزِ تَركُ الشِّركِ، فذلك هو مبدأُ الإقبالِ على العمل الصّالحِ، وهو أوّلُ خُطواتِ السَّعي لِمُريدِ الآخرة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَتَقۡعُدَ﴾: جذرُ الكلمة هو (قعد)؛ قَعَدَ خلافُ قامَ، والقَعَد: القومُ الّذين لا ديوانَ لهم[2]، ومِنَ المَجاز: قعدَ عنِ الأمر: تركَه، وقعدَ له: اهتمَّ به، وقعد بمعنى صار، وهذا هو المُرادُ في الآية[3].

2) ﴿مَّخۡذُولٗا﴾: جذرُ الكلمة هو (خذل)؛ خَذَلَ خِذلانًا، وهو تركُكَ نُصرَةَ أخيكَ، وخِذلانُ اللّهِ للعبد: ألّا يَعصِمَه مِنَ السّوءِ[4]، وهذا هو المعنى المُرادُ في الآية الكريمة؛ لأنّ مَن أشركَ بالله استحقَّ الخِذلانَ منه[5]، والخِذلانُ تَركُ مَن يُظَنُّ به أن يَنصُرَ نُصرَتَه[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

مَن أشركَ بالله عاشَ مَذمومًا مَخذولًا

الخطابُ في الآية لكلِّ مَن يصلحُ له، فهو خطابٌ عامٌّ يَشعرُ كلُّ فردٍ أنّ هذا النّهيَّ موجَّهٌ إليه؛ لأنّ سلامةَ الاعتقاد مسألةٌ شخصيّةٌ مَسؤولٌ عنها كلُّ فردٍ بذاته.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 64.
(2) الخليل، العين: (قعد).
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (قعد).
(4) الخليل، العين: (خذل).
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/ 458.
(6) الرّاغب، المفردات: (خذل).

والقعودُ بمعنى المكثِ، أو بمعنى العجزِ، أو الصّيرورةِ؛ والمعنى: أنَّه يقعدُ حائرًا نادمًا على ما فَرَّطَ منه، والخذلانُ تركُ النّصرةِ عند الحاجةِ إليها؛ والمعنى: لا تجعلْ - أيّها المُخاطَبُ - مع اللّه تعالى إلهًا آخرَ في عبادتِك أو خضوعِك، فتقعدَ جامعًا على نفسك مُصيبتين: مصيبة الذّمِّ من اللّهِ تعالى ومِن أوليائِه؛ لأنّك تركتَ عبادةَ مَن له الخَلقُ والأمرُ، وعبدتَ ما لا يَملِكُ لنفسِه نفعًا ولا ضرًّا، ومصيبة الخذلانِ، فلا تجدُ مَن يعينُك أو ينصرُك في ساعةٍ، أنت أحوجُ ما تكونُ فيها إلى العون والنّصر[1]، فيكون معنى الآيةِ "أنّ مَن أشركَ باللّه كان مذمومًا مخذولًا"[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ التَّذييل:

محـورُ قبـول الإيـمان توحيدُ الله تعالى

الآيةُ تذييلٌ لِما قبلَها، فالعبارةُ فذْلكةٌ لاختلاف أحوالِ المُسلمين والمُشركين[3]، فالآيةُ هنا تدلُّ على أنّ قضيّةَ الفوزِ بالآخرة تُختصَرُ في مسألةٍ واحدةٍ هي عبادةُ اللّه وحدَهُ وتركُ الشّركِ بِه سبحانَه، وهو مبدأُ الإقبالِ على اللّه بالنّيّة الصّالحةِ، والسّعي الصّادقِ إلى العمل الصّالحِ.

علّةُ الفصل:

نبذُ الشّركِ دليلُ قبولِ الأعمال

هذه الآيةُ نهيٌ، والّتي قبلَها أمرٌ، فالآيتان إنشائيّتان؛ وبينهما كمالُ الانقطاع، وهذا هو الدّاعي للفصل بين الجملتين، والخطاب في قوله تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ للرّسول، وأرادَ به جميعَ الخَلقِ، والذّمُّ هنا لاحقٌ منَ اللّه تعالى، ومن ذوي العقول في أن يجعلَ الإنسانَ حجرًا أو مخلوقًا، يخصُّهُ بالكرامة، ويَنسُبُ إليه الألوهيَّةَ، ويُشرِكُهُ مع اللّه الّذي خلقَه ورزقَه وأنعمَ عليه[4].

---

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 314.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 320.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 64.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/ 458.

التَّعريضُ بمَن يُشرِكُ بالله تعالى

غرضُ النَّهي:

في قوله تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ نهيٌ؛ وهو طلبُ الكفِّ عنِ الفعل على وجه الاستعلاءِ والإلزام، وفائدتُه بيانُ عاقبةِ مَن يفعلُ هذا الفعلَ: ﴿فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا﴾، وقد خرجَ النّهيُ إلى التّعريض بأولئك الّذين يتّخذونَ غيرَ الله إلهًا، فالخطابُ للرّسول، وأُريدَ به النّاسُ جميعًا.

تنزيلُ جنس الإنسان مَنزِلةَ الفرد الواحد

تعيينُ المُرادِ بالخطاب بالنَّهي:

الخطابُ في قوله: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ﴾ يحتملُ أن يكونَ للرّسول ﷺ، والمُرادُ: جميعُ الخَلقِ[1]. "ويحتملُ أيضًا أن يكونَ الخطابُ للإنسان كأنّه قيلَ: أيّها الإنسانُ لا تجعلْ مع الله إلهًا آخرَ، وهذا الاحتمالُ أولى؛ لأنّه تعالى عَطَفَ عليه قولَه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا﴾، وهذا لا يَليقُ بالنّبيّ ﷺ؛ لأنّ أبَوَيهِ ما بلَغا الكِبَرَ عندَهُ، فَعَلِمنا أنّ المُخاطَبَ بهذا هو الإنسانُ عمومًا"[2].

التّحذيرُ من الشّرك بالله ومآلاته

غرضُ تقديم قوله: ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾:

قولُه: ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾ مضافٌ ومضافٌ إليه، وإنّ ﴿مَعَ﴾ ظرفُ مكانٍ للمعيَّةِ، منصوبٌ مُتعلِّقٌ بالمفعول الثّاني لـ ﴿تَجۡعَلۡ﴾، وتقديمُ ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾ للتّحذير من هذا الفعلِ، فضلًا عنِ الاهتمام بالمُتقدِّم، ومثالُه كذلك قولُه: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا﴾ [الأنعام: 14] وقولُه: ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ﴾ [الأنعام: 40].

تحقيقُ مُطلَقِ التّوحيد، ونبذُ مُطلَقِ الشِّرك

دلالةُ تقييد ﴿إِلَٰهًا﴾ بالصّفة:

في قوله تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ قُيّدَ إلهًا بالصّفة، ولو قالَ: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا﴾ لفُهِمَ المعنى، وهذا إطنابٌ، ودلالتُه

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 29.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 320.

تحقيقُ مُطلَقِ التّوحيدِ، فلا يصحُّ أيُّ إلهٍ مع اللّه تعالى، فلا آخرَ معه مهما كانَت صفاتُه وأحوالُه.

معنى الفاء ودلالتُها:

الشِّركُ علّةُ الأحوالِ المشينةِ والأوضاعِ الذَّميمةِ

الفاءُ في قولهِ تعالى: ﴿فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا﴾ سببيّةٌ، فإنّ مَن يُشركْ باللّه فيجعلَ معه إلهًا آخرَ تكُنْ عاقبتُهُ مجموعَ حالين، هما: ﴿مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا﴾، فقولُهُ: ﴿فَتَقۡعُدَ﴾ انتصبَ؛ لأنّه وَقَعَ بعدَ الفاء جوابًا للنّهي، وانتصابُهُ بإضمارِ (أنْ)، فما بعدَ الفاءِ مُتعلِّقٌ بالجملة المُتقدِّمةِ بحرفِ الفاء الّتي هي حرفُ العطفِ، وإنّما سمّاهُ النّحويّونَ جَوابًا لكونِه مُشابِهًا للجَزاءِ في أنّ الثّاني مُسبَّبٌ عنِ الأوّلِ، وتقديرُ الآيةِ إنْ جعلتَ مع اللّه إلهًا آخرَ قعدتَ مَذمومًا مَخذولًا[1]؛ أي: لا يكُنْ منك جَعْلٌ فقعودٌ[2].

بلاغةُ استعارةِ القعودِ للتَّلبُّسِ بالحال:

المذمومُ المخذولُ شأنُه القعودُ بأسوأ حالٍ

القعودُ المذكورُ في قوله: ﴿فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا﴾؛ بمعنى: المكث، فهي استعارةٌ تصريحيّةٌ تبعيّةٌ؛ أي: فيمكثُ المُشرك في النّاس مذمومًا مَخذولًا؛ كما تقولُ - لِمَن سألَ عن حال شخص -: هو قاعِدٌ في أسوأ حالٍ، ومعناهُ ماكِثٌ ومُقيمٌ، وسواءٌ كان قائمًا أم جالسًا[3]، إذ أُريدَ بهذه الاستعارةِ تَجريدُ معنى النّهي إلى أنّه نَهيُ تعريضٍ بالمُشركين؛ لأنّهُم مُتلبِّسونَ بالذّمِّ والخِذلانِ، فَإن لم يُقلِعوا عنِ الشّركِ داموا فيهما[4].

القعودُ كنايةٌ عنِ العجزِ والضَّعفِ:

القعودُ صورةٌ للعَجزِ والاستكانةِ

لمّا كان القيامُ أحدَ الأمور الّتي بها يَتِمُّ الفَوزُ بالخيراتِ، وكانَ القعودُ والجُلوسُ علامةً على عدمِ تلك المَكِنَةِ والقُدرةِ، فجُعِلَ القيامُ

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 320.
(2) الخرّاط، المُجتبى: 2/ 610.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 30.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 64.

كنايةً عنِ القُدرةِ على تحصيل الخيراتِ، وكذلك فإنّ القعودَ في قوله تعالى: ﴿فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا﴾ كنايةٌ عنِ العجزِ والضّعفِ[1]، وقيلَ: معنى ﴿فَتَقۡعُدَ﴾ فتَعجِز، والعربُ تقولُ: ما أَقعَدَكَ عنِ المَكارمِ[2].

نكتةُ إضمار الفاعلِ:

تعميمُ الخطابِ للنّاس جميعًا

في قولِه: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا﴾ أضمرَ الفاعلَ في كلا الفعلين، وفائدةُ ذلك أنّه خطابٌ للرّسول ﷺ - على قولٍ - وأُريدَ به النّاسُ جميعًا، أو لجنسِ الإنسانِ، فأفادَ هذا الإضمارُ تعميمًا، وإنّما جاء الخطابُ موجَّهًا للرّسول ﷺ، والمُرادُ الأمّةُ دفعًا للاستكبار عن قبول النّصحِ والإرشادِ والتّحذيرِ منَ المَخاطر.

توجيهُ تخصيص الذَّمّ والخِذلان بالذِّكر:

المَـذمـومُ هو المُتَّبِعُ شهواتِهِ وشُبهاتِهِ

الذّمُّ في قوله تعالى: ﴿فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا﴾ مِنَ اللّهِ تعالى، ومن ذوي العقولِ في أن يجعلَ الإنسانُ عودًا أو حَجَرًا أفضلَ من نفسِه، ويخُصُّهُ بالكرامةِ، ويَنسُبُ إليه الألوهيَّةَ، ويُشرِكُهُ مع اللّه الّذي خلقَه ورزقَه وأنعمَ عليهِ[3]، فلمّا ثَبَتَ بالدّليل أنّه لا إلهَ ولا مُدبِّرَ ولا مُقدِّرَ إلّا اللّهُ تعالى، فعلى هذا التّقديرِ تكونُ جميعُ النّعم حاصلةً منَ اللّهِ تعالى، فَمَن أشركَ باللّه فقد أضافَ بعضَ تلك النِّعَم إلى غيرِهِ تعالى، فحينئذٍ يستحِقُّ الذّمَّ؛ لأنّ الخالِقَ تعالى استحقَّ الشُّكرَ بإعطاءِ تلك النّعم، فلمّا جَحَدَ كونَها منَ اللّه، فقد قابَلَ إحسانَ اللّهِ تعالى بالإساءةِ والجُحودِ والكُفرانِ فاستوجبَ الذّمَّ[4].

المخذولُ الّذي يعتقدُ النَّصرَ في غير النّاصر

الحالُ الثّانيةُ ﴿مَّخۡذُولٗا﴾ هي تتميمٌ للحال الكلّيِّ الّذي وَقَعَ فيها المُشرِكُ؛ ثمّ إنّ الحالَين بالنّتيجة تعكسان نفسيّةَ المُشركِ ودواخلَه الباطنةَ؛ فقد تشكّلَت وتكوَّنَت بسبب ما وَقَعَ فيها مَنْ يُعظِّمُ غيرَ اللّه،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 320.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 30.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 30.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 320.

فهو قد اتّخذَ له إلهًا غيرَ اللّه يعبدُه ويستعينُ به، فلا يجدُ له مُجيبًا أو مُعينًا، ولا يَجدُ له ناصرًا في الأحوال كلِّها، وإنَّما قلْنا: إنّه يستحقُّ الخذلانَ، لأنّه لمّا أثبَتَ شريكًا للّه تعالى استحقَّ أن يُفَوِّضَ أمرَه إلى ذلك الشَّريكِ، فلمّا كانَ ذلك الشّريكُ مَعدومًا بَقيَ بلا ناصرٍ، ولا حافظٍ، ولا مُعينٍ، وذلك عينُ الخِذلانِ[1].

نكتةُ ترتيبِ الحالَين:

الـذّمُّ والخـذلانُ حالان مُتحقِّقان بالتّوالي

ترتيبُ الحالين واردٌ بحسب الحصول؛ لأنّ مَن وَقَعَ في ذمِّ اللّهِ والعقلاءِ مِنَ النّاس، فلا شكَّ أنّه سيقعُ في الخذلان تبعًا لذلك، فالذّمُّ هو التّركُ، وخذلانُ العبدِ أن لا يعصمَه اللّهُ مِنَ السّوء.

توجيهُ المُتشابِهِ اللّفظيِّ في السّياق الواحد:

استكمالُ أحوالِ المُشرِكِ في الدّنيا والآخرة

جاء قولُه تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا﴾ مع قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ٣٩﴾ [الإسراء: 39] لاستكمال حالَي المُشرِكِ في الدُّنيا والآخرة؛ لأنّ الأولى في الدُّنيا والثّانية في العُقبى[2]؛ فرتَّبَ على الأوّل كونَه مذمومًا مخذولًا؛ وذلك إشارةٌ إلى حال المُشرك في الدّنيا، ورتَّبَ على الثّاني أنّه يُلقَى في جهنّمَ مَلومًا مَدحورًا، وهذا حالُه في الآخرة، وفي القعود هناك والإلقاء ههنا إشارةٌ إلى أنّ للإنسان في الدّنيا صورةَ اختيارٍ بخلاف الآخرة[3].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الذّمُّ واللّومُ:

المـذمـومُ لقبح فعلِه، والمَلـومُ لسوء تدبيرِه

الذّمُّ هو تقبيحُ الأفعالِ المُنكَرَةِ، واللّومُ عتابٌ على الأفعال الخاطئةِ، كأنْ يُقالَ للمَلومِ: لمَ فعلتَ مثلَ هذا الفعل؟! وما الّذي

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 320.

(2) الكرمانيّ، أسرار التّكرار، ص: 164.

(3) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/ 350.

حملَكَ عليه؟! وما استفدتَ من هذا العملِ إلّا إلحاقَ الضّررِ بنفسِك[1].

الجعلُ والاتّخاذُ:

الجَعْلُ تأثيرٌ في الشّيء، والاتّخاذُ للشّيء المُستمرِّ

الجَعلُ تَغييرٌ بإيجاد الأثرِ في الشَّيء، تَقولُ جعلَ الطّينَ خزفًا، وَجعلَ السّاكِنَ مُتحرِّكًا، وَتقولُ: عَمِلَ الطّينَ خزفًا، ولا تقولُ: عَمِلَ السّاكِنَ مُتحرِّكًا؛ لأنَّ الحَرَكَةَ ليسَت بأثرٍ يُؤَثَّرُ بِهِ في الشَّيء، والجَعلُ أيضًا يكونُ بمعنى الإحداثِ، وهو قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: 1]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ﴾ [المُلك: 23]، ويجوزُ أَن يُقالَ: إنّ ذَلك يَقتَضي أنّه جعلَها على هذهِ الصّفةِ الّتي هي عليها[2]؛ فالجعلُ إنْ نُسِبَ إلى أفعال اللّهِ تعالى فإنّما يدلُّ على السُّنَنِ الكونيّةِ الّتي وضعَها في مخلوقاته سبحانَه، والاتّخاذُ؛ أخذُ الشَّيءِ لأمرٍ يستمرُّ فيه، مثلُ الدّارِ يتّخِذُها مَسكَنًا، والدّابّة يتّخِذُها قعدةً، ويكونُ الاتّخاذُ التّسميةَ والحُكمَ، ومنه قوله تعالى ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ﴾ [الفرقان: 3]؛ أي: سمَّوها بذلك، وحَكَموا لها به[3].

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/ 350.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 136.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 29.

﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣﴾ [الإسراء: 23]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

اجتنابُ الشّركِ، وعبادةُ الله وحدَه

لمّا نهى في الآية السّابقةِ عنِ الشّرك باللّه تعالى، وهو الأساسُ في قبول الأعمالِ، وتحقيقِ الإخلاص، وحذَّرَ من أحوال المُشركين، ناسبَ هُنا أن يدعوَ إلى عبادة اللّهِ وحدَه، ثمّ أتبعَهُ بذكرِ ما هو من شعائر الإيمانِ وشرائطِه(1)؛ وهو برُّ الوالدين، فإنَّ التَّوحيدَ شرطُ قبولِ الأعمالِ، والبِرَّ تاجُ الأعمال المَقبولة.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَقَضَىٰ﴾: جذرُ الكلمة هو (قضي)؛ القضاءُ: فَصلُ الأمر قولًا كان ذلك أم فعلًا، وفي هذه الآية قولُه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾؛ أي: أمرَ بذلك، وقال: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الإسراء: 4]؛ فهذا قضاءٌ بالإعلام والفَصلِ في الحُكم؛ أي: أعلَمناهُم وأوحَينا إليهم وحيًا جَزمًا(2)، و(قضي) يدلُّ على إحكام أمرٍ وإتقانِه وإنفاذِه لجهَتِه، قال تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصّلت: 12]؛ أي: أحكَمَ خَلقَهُنّ، والقَضاءُ: الحُكمُ، قال تعالى في ذكرِ مَن قالَ: ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ﴾ [طه: 72]؛ أي: اصنَعْ واحكُمْ، ولذلك سُمّيَ القاضي قاضيًا؛ لأنّه يُحكِمُ الأحكامَ ويُنفِذُها(3).

2) ﴿يَبۡلُغَنَّ﴾: جذرُ الكلمة هو (بلغ)؛ البُلوغُ والبَلاغُ: الانتهاءُ إلى

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 320.
(2) الراغب، المفردات: (قضى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قضي).

أقصى المَقصِد والمُنتَهى، مكانًا كان أم زمانًا، أم أمرًا منَ الأمور المُقدَّرة، مثل قوله تعالى: ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ﴾ [الأحقاف: 15]، وقوله تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦﴾ [غافر: 36]، ﴿أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا بَٰلِغَةٌ﴾ [القلم: 39]؛ أي: مُنتهيةٌ في التّوكيد[1]، وأيضًا بلغتَ المكانَ، إذا أشرفتَ عليه، وإنْ لم تدخلْهُ، فالمشارفَةُ قد تُسمَّى بلوغًا، قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ﴾ [الطلاق: 2].

3) ﴿ٱلۡكِبَرَ﴾: جذرُ الكلمة هو (كبر)؛ يدلُّ على خلافِ الصِّغرِ، ومنَ البابِ الكِبَرُ، وهو الهَرَمُ[2]، فيُقالُ: فلانٌ كَبيرٌ؛ أي: مُسِنٌّ، وقوله: ﴿إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ﴾، وقال: ﴿وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ﴾ [البقرة: 266]، ﴿وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾ [آل عمران: 40][3].

4) ﴿أُفّٖ﴾: جذرُ الكلمة هو (أفف)؛ أصلُ الأُفِّ كلُّ مُستقذرٍ، ويُقالُ ذلك لكلِّ مُستخَفٍّ استقذارًا له، نحو قوله تعالى: ﴿أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنبياء: 67]، ومنه قيلَ للضَّجَرِ[4]، و إذا تأفَّفَ من كَربٍ أو ضَجَرٍ، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾، ويَتأفَّفُ مِنَ الشِّدّةِ تُلِمُّ به، والأَفَفُ الضَّجَرُ[5].

5) ﴿تَنۡهَرۡهُمَا﴾: جذرُ الكلمة هو (نهر)؛ ويدلّ أصله على فتح وإرسال، ومنه النَّهَر، وهو الشَّقُّ في الأرْض يَسمَحُ بجريان الماء[6]، أو هو الزَّجرُ؛ وهو المنع من فعلٍ أو قَوْلٍ، والنَّهرُ والانتهارُ: الزّجرُ بمُغالَظةٍ[7].

المَعْنى الإجماليُّ:

القضاءُ في الآية بمعنى الأمرِ، فقد نهى اللّهُ تعالى عنِ الإشراك به نهيًا قاطعًا، وأمرَ أمرًا مُحكَمًا لا يحتملُ النّسخَ بأن لا تعبدوا أحدًا سواه؛ إذ هو الخالقُ لكُلِّ شيءٍ، والقادرُ على كلِّ شيءٍ، وغيرُهُ مخلوقٌ وعاجزٌ عن فعل شيءٍ إلّا بإذنه سبحانَه، وقوله ﴿وَقَضَىٰ﴾ يفيدُ الوجوبَ القطعيَّ الّذي لا رجعةَ فيه، ثمّ أتبعَ سبحانَه الأمرَ بوحدانيّته، بالأمر بالإحسان

(1) الراغب، المفردات: (بلغ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كبر).
(3) الراغب، المفردات: (كبر).
(4) الراغب، المفردات: (أف).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أف).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نهر).
(7) الراغب، المفردات: (نهر).

إلى الوالدين، فقال: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾؛ أي: وقضى بأن تحسنوا أيّها المُخاطَبون إلى الوالدين إحسانًا كاملًا لا يشوبُهُ سوءٌ أو مكروهٌ، ثم فَصَّلَ سبحانَه مظاهرَ هذا الإحسان فقال: ﴿إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا﴾؛ والمعنى: كُنْ مُحسنًا إحسانًا تامًّا بأبويك، فإذا ما بَلَغ عِندَكَ في رعايتِك وكفالتِك ﴿أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا﴾ سنَّ الكِبَرِ والضّعفِ، فلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ؛ أي: قولًا يدلُّ على التَّضجُّرِ منهما، والاستثقالِ لأيِّ تصرُّفٍ من تصرُّفاتِهما، والنّهيُ عن ذلك يدلُّ على المنعِ من سائر أنواع الإيذاءِ قياسًا بطريق الأولى، وقوله: ﴿وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا﴾؛ أي: ولا تزجرْهُما عمّا يَتعاطيانه منَ الأفعال الّتي لا تعجبُك، وقوله: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا﴾ أمرٌ بالكلام الطّيبِ معهما، بعدَ النّهي عنِ الكلام الّذي يدلُّ على الضّجرِ والقلقِ من فعلهما.

قضاءُ اللهِ بعبادتِه وحدَه سبحانَه

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواو ودلالتُها في صدر الآيةِ:

قولُه تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ عَطفٌ على الكلام السّابِقِ عَطفَ غَرَضٍ على غَرَضٍ تَخَلُّصًا إلى أعمدَةٍ من شَريعَةِ الإسلام بِمناسَبَةِ الفَذلَكَةِ المُتَقَدِّمَةِ؛ تَنبيهًا على أنَّ إصلاحَ الأعمالِ مُتَفَرِّعٌ عن نَبذِ الشِّركِ، أو نجعل الواو استئنافيّةً، وفائدةُ هذا الاستئناف أنّه جعلَ النّهيَ عنِ الشّرك، والأمرَ بعبادة اللّهِ وحدَه، مُتمِّمَين لبعضِهما، فنهى أن يتّخذَ الإنسان إلهًا من دون اللّه، ثمّ أمرَه بعبادة اللّهِ وحدَه، فلا تصلحُ واحدةٌ دون الأخرى، وفي المعنى الكلّيِّ، فالمَعنيان مُتقاربان؛ معنى العطف والاستئناف.

النّهيُ عنِ الشّركِ، والدّعوةُ إلى التّوحيدِ أمران مُتلازِمان

دلالةُ اختيار لفظة ﴿وَقَضَىٰ﴾:

قضى؛ بمعنى: حتَّمَ، كقولِه تعالى: ﴿فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾ [الزّمر: 42]؛ أي: حتَّمَه عليها، ثمّ يصيرُ الحتمُ بمعانٍ، كقوله:

القضاءُ هو أمرٌ حتميٌّ

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾؛ أي: أمرَ، فمجازُه: أمرَ ربُّك[1]، وهو بمعنى: حَكَمَ وأوجبَ وأمرَ، لا بمعنى القضاء[2]؛ أي: وأمرَ أمرًا مقطوعًا به؛ لأنّه لمّا أمرَ حتَّمَ بالأمر[3]، وقال هُنا: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾، ولم يقُلْ: (وأمرَ ربُّك)، لِما في معنى القضاءِ من دلالة الحتميّةِ الّتي لا يُرجَعُ فيها إلى مَن يُفتي في غير ذلك الأمر.

ويحتملُ أن تكونَ ﴿وَقَضَىٰ﴾ على مَشهورِها في الكلام، ويكون الضّميرُ في قوله ﴿تَعۡبُدُوٓاْ﴾ للمؤمنين منَ النّاس إلى يَومِ القيامة[4].

دلالةُ التَّعبير بالماضي:

قضاءُ الله قديمٌ مُقدَّرٌ في عالَم غيبِه

دلَّ الماضي في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ﴾ على الشّيءِ المَقطوعِ في أمره؛ للإشعار بخطورةِ مُخالَفةِ ما قطعَ اللّهُ به، وأنَّه ممّا لا يصحُّ أن يُخالَفَ.

سرُّ التّعبير بالمُسند إليه مُضافًا:

التّعريضُ بمَن يتّخذُ أربابًا من دون الله

الرّبُّ هو المُربّي والموجِّهُ والمُرشِدُ فهذه صفاتُ الرّبِّ، فاختصرَ هُنا هذه الصّفات بقوله: ﴿رَبُّكَ﴾؛ ولأنّه يمكنُ أن يكونَ للإنسان بحسب المعنى اللّغويِّ ربٌّ غير الله، باعتبار الّذي يُربّيه، ويقومُ على رعايتِه من أبٍ ومُعلِّم، ولكنْ عندما يخاطبُ اللّه ورسولَهُ ﷺ بقوله: ﴿رَبُّكَ﴾؛ إذ ليس لرسولِ اللّه ربٌّ إلّا اللّه سبحانه، فإنْ كانَ للنّاس أربابٌ؛ أي: مُرَبّونَ، فليس لرسول اللّهِ ﷺ إلّا اللّه هو الرّبُّ المُربّي والرّاعي، وهذا من تشريف النّبيِّ ﷺ وتكريمِه في الخطاب.

مناسبةُ اختيار الرّبوبيّة دون الألوهيّة:

الــوالــدانِ هما المُربِّيان فناسبَ معهما ذكرَ الرّبِّ

الخطابُ للنّبيِّ ﷺ في قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾،

(1) المثنّى، مجاز القرآن، ص: 374.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 192.
(3) الدّينوريّ، تأويل مُشكل القرآن، ص: 247.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/ 459.

فاصطفاءُ الرّبوبيّة مع أنّ العبادةَ يناسبُها التّعبيرُ بلفظ الألوهيّةِ؛ للإشعارِ بأنَّ توحيدَ الألوهيّةِ الأصلُ فيه توحيد الرُّبوبيّةِ، فمُقتضى الاعترافِ باللّه ربًّا أن يكونَ الإنسانُ له عبدًا، فهذه الآية دعوةٌ بطريق التَّعريض للمُشركين إلى عبادةِ اللّه تعالى بطريقٍ يعرفونها ويعترفون بها، وليبيّنَ أنّ قضاءَ ربِّك هو القضاءُ النّهائيُّ الّذي ليس بعدَه قضاءٌ أو حُكمٌ، والرّبُّ يُطلَقُ أيضًا على غير اللّهِ، كقولك: ربُّ البيت، وربُّ الأسرة، وربُّ المدرسة؛ لأنّ الرَّبَّ هو المُربّي، فجاءَ بهذا اللّفظِ تعريضًا بالنّاس الّذين اتّخذوا لهم أربابًا من دون اللّه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾ [آل عمران: 64]، ثمّ لأنّه أوردَ برَّ الوالدين، وهو من عظيم ما يُربَّى عليه الإنسانُ، فمهمّةُ الوالدين الأولى هي التّربيةُ، ومنه يُقالُ: ربُّ الأسرة، وربّةُ البيت، فناسبَ ذكرَ ﴿رَبُّكَ﴾ هُنا.

سرُّ البدء بالنّهي عن عبادة غيرِ الله:

إصلاحُ الاعتقاد مُقدَّمٌ على إصلاح العملِ

ابتدأتِ الآيةُ بالنّهي عن عبادة غيرِ اللّه تعالى؛ لأنّ ذلك هو أصلُ الإصلاح، ولأنّ إصلاحَ التّفكير مُقدَّمٌ على إصلاح العملِ، إذ لا يُشاقُّ العقلُ إلى طلب الصّالحاتِ إلّا إذا كانَ صالِحًا[1]، وإصلاحُ العلاقة باللّه مُقدَّمٌ على إصلاح العلاقاتِ بغير اللّه، مهما بلغَت منازلُهم عند العبدِ وعند ربِّه، كما أنَّه ابتُدِئَ هذا التّشريعُ بقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ بذكر أصلِ الشّريعةِ كلِّها، وهو توحيدُ اللّه؛ لأنَّه تَمهيدٌ لِما سَيُذكَرُ بعدَهُ مِنَ الأحكام[2].

فائدةُ الانتقال مِنَ المُفرد إلى الجمع:

الإنسانُ مأمورٌ بالعبادةِ باعتبارِه الذّاتيِّ، وباعتبارِه الجمعيِّ

و(أن): مُفسِّرَة، أو مَصدريّة؛ أي: بأنْ لا تَعبدوا"[3]، وجيءَ بخطاب الجماعةِ في قوله: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾؛ لأنّ النّهيَ يتعلَّقُ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 67.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 66.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 192.

بجميع النّاس، وهو تعريضٌ بالمُشركين، فالتفتَ الخطابُ مِنَ المُفرد إلى الجمع، "والخطابُ في قولِه: ﴿رَبُّكَ﴾ للنّبيّ ﷺ كالّذي في قوله قَبلُ: ﴿مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ﴾، ويجوزُ أن يكونَ لغير مُعيَّن؛ فَيَعُمّ الأُمّةَ"[1].

نكتةُ استعمال أسلوب القصرِ:

التَّخليةُ مُقدَّمةٌ على التَّحليةِ

جيء بأسلوب القصرِ في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ نفيًا استغراقيًّا لكلِّ معبودٍ سواه سبحانَه، ففيه إبطالٌ لكلِّ عبادةٍ موجودةٍ في الأرض كلِّها، وتمحيضُ العبادةِ الحقَّةِ للّه وحدَه، فليس المُرادُ الأمرَ بالعبادة للّه تعالى، بل تَخليةَ القلوبِ من مَعبوداتٍ سوى اللّه، فالتّخليةُ مُقدَّمةٌ على التَّحلية.

سرُّ التّعبير بالمقصور عليه ضميرًا:

القاضي بالعبادةِ هو الإلهُ الحقُّ

قال: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ دون أن يقولَ: (ألّا تَعبدوا إلّا اللّه) لتقدُّمِ ذكرِ (ربّك) عليه؛ فجاء الإضمارُ لموافقةِ مُقتَضى الظّاهر والحال، وليعلمَ أنّ ربَّك القاضي بالعبادةِ هو إلهُك سبحانَه، ولو أظهرَ فقال: (وَقَضَى رَبُّكَ أَلّا تَعبُدوا إلّا اللّه) لشكّكَ المُعارضون أنّ اللّهَ هو غيرُ ربِّك.

مناسبةُ عطف برِّ الوالدين على توحيد الله:

المُوجِدُ الحقيقيُّ هو اللهُ تعالى، والـوالـدان السّببُ الظَّاهرُ

عطفتِ الآيةُ الأمرَ ببرِّ الوالدين على عبادة اللّهِ سبحانَه، فنبّهَ ابتداءً على عظيم إنعام اللّهِ تعالى المُقتضي للشّكر، ثمّ نبّهَ بعد ذلك على عظيم نعمةِ الوالدين[2]، ولذلك أوجهٌ منَ المناسبة وهي:

الأوّل: السّببُ الحقيقيُّ لوجود الإنسانِ هو تخليقُ اللّه تعالى وإيجادُه، والسّببُ الظّاهريُّ هو الأبوان، فأمرَ بتعظيم الخالِق، ثمّ أتبعَه بالأمر بتعظيم الوالدين.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 67.

(2) الكيا الهرّاسيّ، أحكام القرآن: 4/ 253.

الثّاني: الاشتغالُ بشكر المُنعِم واجبٌ، ثمّ المُنعِمُ الحقيقيُّ هو الخالِقُ ﷻ، وقد يكونُ أحدٌ منَ المَخلوقين مُنعِمًا عليكَ، وشكرُهُ أيضًا واجبٌ لقولِه ﷺ: "مَنْ لم يشْكرِ النّاسَ لم يشْكرِ اللّه"[1]، وليسَ لأحدٍ منَ الخلائق نِعمةٌ على الإنسان مِثلَ ما للوالدَين[2].

غرضُ تقديم المجرور:

قولُه تعالى: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ﴾ مُتعلِّقٌ بقوله: ﴿إِحۡسَٰنًاۚ﴾، وقُدِّمَ ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ﴾ على ﴿إِحۡسَٰنًاۚ﴾ اعتناءً واهتمامًا بهما[3].

نوعُ الباء ومعناها:

إحسانُ الولد يجبُ أن يكونَ لَصيقًا بالوالدين على الدّوام

الباءُ في قوله: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ﴾ إمّا أن تكونَ للتّعدية[4]، "قال الحَوفيُّ: الباءُ مُتعلِّقةٌ بـ﴿وَقَضَىٰ﴾، ويجوزُ أن تكونَ مُتعلِّقةً بفعلٍ محذوفٍ تقديرُه: وأوصى بالوالدين إحسانًا، و﴿إِحۡسَٰنًاۚ﴾ مَصدرٌ؛ أي: تُحسِنوا إحسانًا، وأحسنَ وأساءَ يتعدّى بـ (إلى) وبـ (الباء)، قال تعالى: ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ﴾ [يوسف: 100]"[5]، وإمّا أن تكونَ الباءُ للإلصاقِ، وفائدتُها الدّلالةُ على إلصاق فعلِ الإحسانِ بهما، فيدلُّ على دوام الإحسانِ لهما.

نوعُ التّعريف في ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ﴾:

التّعريفُ في ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ﴾ للاستغراقِ باعتبارِ والِدَيْ كلِّ مُكَلَّفٍ ممّن شملَهُمُ الجمعُ في قوله: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ﴾[6]، فاستغرقَ التّعريفُ كلَّ والدين موجودين مهما كانت أحوالُهما إيمانًا أو كفرًا، غنىً أو فقرًا.

نكتةُ اختلاف التَّعبير بين المأمورات:

برُّ الوالدين عُرفٌ مُستقرٌّ في عقول المُخاطَبين وقلوبِهم

اختلفَ التَّعبيرُ بالأمر ببرِّ الوالدين عنِ الأمر بالعبادةِ، فانتصبَ

(1) التّرمذيّ، سنن التّرمذيّ، باب ما جاء في الشّكر لِمَن أحسنَ إليك، رقم الحديث: (1955): 3/ 403.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 321 - 322.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 323، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 35.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 67.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 34.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 67.

﴿إِحۡسَٰنًاۚ﴾ مصدرًا نائبًا عن فعل أمرٍ محذوفٍ، والتّقدير: (وأحسِنوا إحسانًا بالوالدين)، كما يقتضيه العطفُ على ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾؛ أي: وقضى ربُّك إحسانًا بالوالدين[1]، وقد خرجَ الأمرُ هُنا إلى معنى الوجوب، ونكتةُ ذلك المغايرةُ بين الأمرِ بالتّوحيد، والأمرِ بالإحسان إلى الوالدَينِ، فالأولى قامَت على التّخلية قبلَ التّحلية، والأخرى قامَت على التَّذكير بما هو مُعترَفٌ به، ثابتٌ في قلوبِ المُخاطَبين وعقولِهم.

غرضُ التّنكير ﴿إِحۡسَٰنًاۚ﴾:

أعظمُ إحسانٍ عرفَه البشرُ بعدَ التّوحيد الإحسانُ إلى الوالدَين

قال: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾ بلفظ التّنكير؛ لأنّ التَّنكيرَ هنا يدلُّ على التّعظيم؛ والمعنى: وقضى ربُّك أنْ تُحسِنوا إلى الوالدين إحسانًا عَظيمًا كاملًا؛ وذلك لأنَّه لمّا كانَ إحسانُهما إليكَ قد بلغَ الغايةَ العَظيمةَ وجبَ أن يكونَ إحسانُك إلَيهما كذلك، ثمَّ على جميعِ التّقديراتِ فلا تحصُلُ المكافأةُ؛ لأنّ إنعامَهُما عليكَ كانَ على سبيل الابتداءِ، وفي الأمَثال المَشهورةِ أنَّ الباديَ بالبرِّ لا يُكافَأُ[2].

توجيهُ تخصيص حالة الكِبَرِ بالذِّكر:

حاجةُ الوالدين في الكِبَرِ إلى رعايةِ الأبناء أشدُّ

قولهُ تعالى: ﴿إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا﴾؛ فخصَّ هذه الحالةَ بالذّكر، وهي حالةُ حاجتِهما إلى برِّه لتغيُّرِ الحال عليهما بالضّعف الشّديد بسبب الكِبَر، فألزمَ في هذه الحالة من مُراعاة أحوالِهما أكثرَ ممّا ألزمَ من قَبلُ؛ لأنّهما قد صارا في هذه الحالةِ كَلًّا عليه، فيحتاجان إلى أن يليَ من أمرِهما للضّعف النّازلِ منهما، ما كان يحتاجُه هو في صِغرِه، فذلك معنى تخصيصِ هذه الحالةِ بالذّكر، ليُبيّنَ ما يَلزمُ من مزيد البرِّ والتّعاهُدِ، وما يتّصلُ بخدمةٍ وإنفاقٍ[3].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 67.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 323.

(3) الكيا الهرّاسيّ، أحكام القرآن: 4/ 253.

توجيهُ استعمال أسلوبِ الشّرط:

اشتراطُ الكِبَرِ بالنّهي عن التّأفُّف باعتبارِ توقُّعِه لا باعتبارِ خصوصِه

معنى الشّرط أن يقعَ الشّيءُ لوقوع غيرِه، فيتوقَّفُ الثّاني على الأوّل[1]، و﴿إِمَّا﴾ مُكوَّنةٌ من (إن) الشّرطيّة، دخلَت عليها (ما) المُؤكِّدةُ، وقوله: ﴿فَلَا تَقُل﴾ جوابها[2]، وهو هُنا لمُجرَّد اقتران الشّرطِ بالجواب؛ لأنّ عليه ألّا يقولَ لهما ﴿أُفٍّ﴾ حتّى وإن لم يبلُغا الكِبَرَ، ولم يكنْ فارقُ السّنّ بينَهما كبيرًا، وخُصِّصَت هذه الحالةُ لحاجتِهما إليه احتياجًا خاصًّا؛ والمعنى: إنْ يبلُغْ أحدُ الوالدين، أو كِلاهُما حدَّ الكِبَرِ، وهُما عندك؛ أي: في كفالتِك، فَوَطِّئ لَهما خُلُقَكَ ولَيِّنْ جانبَكَ[3].

سرُّ التّعبيرِ بـ (إنْ) الشّرطيّة دون (إذا):

بلوغُ الوالدين حالةَ الكِبَرِ عند ولديهما ليسَ بلازمٍ في الواقع

"وممّا ضِمنَ معنى الشّرطِ (إذا) وهي كـ (إن)، ويفترقان في أنّ (إنْ) تُستعمَلُ في المُحتمَلِ المَشكوكِ فيه، وتكونُ (إذا) للجزم، فوقوعُه إمّا تحقيقًا نحو: إذا طلعَتِ الشّمسُ كان كذا أو اعتبارًا"[4]، فاستعملَ (إنْ) الشّرطيّة؛ لأنّه قد لا يبلغُ الكِبَرَ كِلا الوالدين أو أحدُهما عند بعضِ المُخاطَبين، فأتى بأداة الشّرطِ الدّالّةِ على الاحتمال.

غرضُ التّوكيد:

المَشقّةُ النّفسيّةُ يدفعُها توكيدُ المعاني وتحقيقُ الدّلالات

قولُه تعالى: ﴿إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا﴾، فـ ﴿إِمَّا﴾ لَفظةٌ مُركَّبةٌ من لَفظتين: (إنْ) و(ما)؛ أمّا كلمةُ (إنْ) فهي للشّرط، وأمّا كلمةُ (ما) فهي أيضًا للشّرط، كقوله تعالى: ﴿۞مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ﴾ [البقرة: 106]، فلمّا جَمَعَ بين هاتَين الكَلمتين أفادَ التّأكيدَ في مَعنى الاشتراطِ[5]، فـ ﴿إِمَّا﴾ هي الشّرطيّةُ زيدَت عليها (ما) توكيدًا لها، ولذلك دخلَتِ النّونُ المُؤكِّدةُ في الفعل ﴿يَبۡلُغَنَّ﴾[6].

(1) المُبرّد، المقتضب: 2/ 46.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 192.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 68.
(4) الزّركشيّ، البرهان: 2/ 360.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 323.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 35.

فتوكيدُ ذلك البلوغ للكِبَر لواحدٍ منهما، أو كليهما يَفرِضُ عليك تغييرَ أسلوبك في التّعامُلِ معهما ليكونَ على أفضلِ وجهٍ وأتّمِّه، وبأكملِ طريقةٍ، "كأنّه قيلَ: إنّ هذا الشّرطَ ممّا سيقعُ ألبتّةَ عادةً، فليكُنْ هذا الجزاءُ مُرتَّبًا عليه، وإلّا فالتّقريرُ والتّأكيدُ ليس يليقُ بالشّرط الّذي مَبناهُ على تردُّدِ الحُكم"[1].

دلالةُ التّعبير بالمضارع وتوكيدِه:

التّعبيرُ بالمضارع ﴿يَبۡلُغَنَّ﴾ يدلُّ على التَّجدُّد مع الزّمن؛ أي: أنّك ستُراقِبُ بلوغَ كلِّ واحدٍ منها مع الزّمن، فكلّما تقدَّمَ الزّمانُ زادَ بلوغُهما في كِبرِهما، وزادَ احتياجُهم إلى المُعين، فأكَّدَ بالنّون ليزدادَ مع الزّمن توكيدُ الوصيّةِ على المُخاطَب.

دلالة التثنية في المضارع على قراءة ﴿يَبۡلُغَآنِّ﴾:

التّساوي في وجوب رعاية الأبوين بوجود أحدِهما أو كِلَيهما

قَرَأَ حمزَةُ والكسائيُّ وخلف العاشر: ﴿إِمَّا يَبۡلُغَآنِّ﴾ على الاثنَينِ، وحجّتُهما أنّ الوالدين تقدَّمَ ذكرُهما في قولِه تعالى: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾ فأخرجا الفِعلَ على عددِهما مُثنًّى، فمَنْ أثبتَ الألفَ جَعَلَها ضميرًا للوالدين، وكنايةً عنهما لتَقدُّمِهما، فيرتفع ﴿أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا﴾ في ذلك بأنْ يكونَ بَدَلًا مِنَ الضَّمير في ﴿يَبۡلُغَآنِّ﴾، وقرأ الباقونَ ﴿إِمَّا يَبۡلُغَنَّ﴾ على واحِدٍ[2]، وحجّتُهم أنَّ الفِعلَ إذا تقدَّمَ لم يُثَنَّ، وَلم يُجمَعْ، ويرتفع ﴿أَحَدُهُمَآ﴾ بفعلِه، وهو ﴿يَبۡلُغَنَّ﴾[3]، ويكون ﴿أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا﴾ بدلًا من ألفِ المُثنّى تنبيهًا على أنّه ليسَ الحُكمُ لاجتماعِهما فَقَط، بل هو لِلحالَتَين على التّوزيع[4].

غرضُ تقديم الظَّرف:

الابنُ عندَ والديه في الصِّغر، ومُقتَضى العدل أن يكونا عندَه في الكِبَر

أفادَ تقديمُ الظَّرف في قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ﴾

---

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/ 339.

(2) ابن الجزري، النشر: 2/306.

(3) ابن خالويه، الحجّة في القراءات السّبع، ص: 216، وابن زنجلة، حجّة القراءات، ص: 399.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 69.

تخصيصَ المُخاطَب؛ وهو الابنُ بما يجبُ أن يستشعرَهُ في كلِّ وقتٍ وحين، وهما يَجلسان عندَه، بعد أن كانَ يعيشُ في أكنافِهما، كما أنّ من فوائد هذا التّقديم أنّ الكِبَرَ أمرٌ نسبيٌّ، إذ لا يُعتدُّ بسنٍّ مُحدَّدٍ له، ومن ثمّ فإنّ الآيةَ قد قيَّدَت بلوغَ الكِبَرِ كونه عند المُخاطَب ﴿عِندَكَ﴾، وكأنّها بهذا القيدِ قد وَكَّلَت إلى الابن بتقديرِهِ هو وبإحساسِه تجاه والديه أن يُحدِّدَ هذا الأمرَ، فيعلمَ حاجةَ كلِّ واحدٍ منهما إليه، مع مرور الزّمنِ وتقدُّمِهما في السِّنِّ، ونبَّهَت على ذلك كلِّه بتقديم الظَّرف ﴿عِندَكَ﴾.

سرُّ إضافة الظَّرف إلى ضمير المُخاطَب:

بـنـاءُ قـيـمـةِ الـشُّـعـور بالمسؤوليَّة تجاه الوالدين مُعينٌ على البِرِّ

إضافةُ الظّرف إلى ضمير المُخاطَب ﴿عِندَكَ﴾ له فوائدُ عدّةٌ في سياق الآيةِ منها: لفتُ نظرِ الابنِ إلى عِظمِ المسؤوليّةِ الّتي تُلقَى على عاتقِه تجاهَ أبويه عند الكِبَرِ، فإنّ الأبوين أمانةٌ كبيرةٌ عندَه، والخطابُ لكلِّ ابنٍ على الانفراد، كأنَّه هو المُخاطَب دونَ غيرِه، وقد بلغا مِنَ الضّعف والشّيخوخة إلى أنْ غدا كلٌّ منهما يعيشُ في كنفِه، وفي ظلال عطفِه ورعايتِه، بعد أن كان هو الّذي يعيشُ في كنفَيهما، وفي ظلال عطفَيهما ورعايتَيهما[1]، فتثيرُ هذه الكلمةُ كوامنَ الرّحمة في أعماقِ الإنسان، وتسمو به إلى أعلى درجات الاهتمامِ والمسؤوليّةِ، وما ذاك إلّا فضلُ اللّه عليه أن خوّلَه رعايةَ والديه عندَ بلوغِهما الكِبَرَ، أحدِهما أو كليهما.

نكتةُ إيثار ضمير المُفرد في الخطاب:

كلُّ ابنٍ مسؤولٌ عـن والـديـه مسؤوليَّةً كاملةً

توحيدُ ضمير الخطاب في قوله: ﴿عِندَكَ﴾؛ للاحترازِ عنِ التباس المُرادِ، فإنَّ المَقصودَ نهيُ كلِّ أحدٍ عن تأفيفِ والديه ونهرِهما[2]، ثمّ إنّ إيثارَ ضمير المُفردِ ﴿عِندَكَ﴾ دون ضميرِ الجمعِ؛ لأنّه خطابٌ

(1) ياسوف، جماليّات المفردة القرآنيّة، ص: 306.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 192.

يَختصُّ بمَن له أبوانِ من بينِ الجماعةِ المُخاطَبين، فكان الإفرادُ أنسبَ به، وإنْ كان الإفرادُ والجمعُ سواءً في المَقصود؛ لأنّ خطابَ غَيرِ المُعيَّن يُساوي خطابَ الجمع[1].

سرُّ تقديم ﴿أَحَدُهُمَآ﴾ على ﴿كِلَاهُمَا﴾:

أعظمُ أنواع الاحتياجِ لدى الوالدين عند الكِبَر يكونُ في الحالة النَّفسيَّة

وجهُ تقديم ﴿أَحَدُهُمَآ﴾ على ﴿كِلَاهُمَا﴾ دون جمعهِ ابتداءً بأن يُقالَ: (إمّا يبلغانِّ عندك الكِبَرَ كلاهما)، أو أن يبدأَ بالاثنين، ثمّ يَعطِفَ عليه الواحدَ بأن يُقالَ: (كلاهما أو أحدهما)، هو الاهتمامُ بتخصيص كلِّ حالةٍ من أحوال الوالدين بالذّكرِ، ولم يَستَغنِ بحالةٍ عنِ الأخرى؛ لأنّ لكُلِّ حالةٍ بَواعِثَ على التّفريط في واجِبِ الإحسان إليهما[2]، كما أنَّ فيها مراعاةً للواقع، وتعدُّدَ الأبناء، فحالةُ الكِبَرِ ندرَ أن يصلَها الأبوان، وهما في أتمِّ الاحتياجِ لابنهما؛ لأنَّ الأبوين يتساعدان نفسيًّا وبدنيًّا في حالةِ الكِبَرِ، فإذا انفردَ أحدُهما عنِ الآخر زاد احتياجُه لأبنائه ولا سيّما في الحالة النَّفسيَّة، ولذلك أفردَ ذكرَ ﴿أَحَدُهُمَآ﴾، ثمّ عَطَفَ عليه الحالةَ الثّانيةَ، وهي الأقلُّ وجودًا في الواقع وفي الاحتياج.

سرُّ التّعبير بالمعطوف مُضافًا ﴿كِلَاهُمَا﴾:

(كِلا) معناها التّثنية، ولفظُها مُفرَدٌ

كلا وكلتا هما توكيدُ الاثنين، وفيهما معنى الإحاطةِ، ولهذا قال الرّاغبُ هي في التّثنية كـ (كُلٍّ) في الجمع، ومفردُ اللّفظِ مُثنّى المعنى، عبَّرَ عنه مرّةً بلفظه، ومرَّةً بلفظ الاثنين اعتبارًا بمعناه، قال تعالى: ﴿إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا﴾، فلا خلافَ أنّ معناها التّثنيةُ، واختُلِفَ في لفظها بين الإفراد والتّثنية، والصّحيحُ الأوّلُ، لِعودِ الضَّميرِ إليها مُفردًا في قوله: ﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا﴾ [الكهف: 33]، فالإخبارُ عن ﴿كِلۡتَا﴾ [الكهف: 33] بالمُفرد دليلٌ على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 68.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 69.

أنّها مُفردٌ، ولو كان مُثنًّى لقالَ: (آتتا)، ودليلُ إضافتها إلى المُثنّى في قوله: ﴿أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا﴾، ولو كانَ مثنًّى لم يَجزْ إضافتُه إلى التَّثنية؛ لأنّه لا يجوزُ إضافةُ الشّيءِ إلى نفسه[1].

الضَّجرُ مُحرَّمٌ مع الوالدين، ولا يَمتثلُ إلّا المُحسِنُ

غرضُ النّهي عنِ التَّأفُّف:

دلَّ قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ على وجوب الصَّبرِ عليهما، فلا يَتبرَّمُ ولا يَضجَرُ، فإنّ العادةَ جاريةٌ في المُتَضَجِّر عند الأمرِ أنْ يقولَ: ﴿أُفّٖ﴾، فبيَّنَ اللّهُ سبحانَه تَحريمَ هذا القَدرِ مِنَ التَّبرُّم على الولدِ عند ضَعفِ الوالدين وحاجَتِهما إلى بِرِّه[2]، ومع أنّها أقصرُ الكلمات حرفًا إلّا أنّ فيها معنى التَّضجُّرِ والمللِ من رعاية الوالدين، وحسبُها ذلك أذىً وتجاوزًا في حقِّهما، ثمّ ما لذلك من أثرٍ سيّئٍ عليهما وعلى نفسَيْهما.

دفعُ توهُّم حُرمةِ التَّضجُّر عُمومًا

غرضُ تقديم الجارِّ والمجرورِ على لفظ ﴿أُفّٖ﴾:

في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ قدَّمَ الجارَّ والمجرورَ للاهتمام واختصاصِ النَّهي بهما، ولبيانِ أنّهما المَقصودان بالرِّعاية والعناية، ولِما في هذا التّقديم من لطفِ الإيقاع، بخلاف لو قالَ: (فلا تقل أفٍّ) فقد يُفهَمُ منه النَّهيُ عنِ الضَّجر عُمومًا.

وفحوى الخطابِ ما يُعقلُ عند الخطابِ لا بلَفظِه، ودلَّ هنا على المَنعِ، فكلُّ ما هو فوقَ كلمة ﴿أُفّٖ﴾ ممّا له أثرٌ مُؤذٍ عليهما داخلٌ في معناها[3].

كلمةُ (أفٍّ) كالخليّةِ الفاسدةِ في جسد التَّواصُلِ

نكتةُ اختيار لفظ ﴿أُفّٖ﴾:

كلمة ﴿أُفّٖ﴾ فيه لغاتٌ كثيرةٌ أشهرُها كلُّها؛ ضَمُّ الهمزةِ وتشديدُ الفاء[4]، وجَعَلَ اللّهُ تعالى هذه اللّفظةَ مثالًا لجميع ما يمكنُ أن يُقابِلَ

---

(1) الزّركشيّ، البرهان: 4/ 326.

(2) الكيا الهرّاسيّ، أحكام القرآن: 4/ 253.

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 61.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 70.

به الآباءَ ممّا يَكرَهونَ، فلَم تُرَدْ هذه في نفسِها؛ وإنّما هي مِثالٌ للأعظم منها والأقلِّ، فهذا هو مفهومُ الخطابِ المَسكوتِ عنهُ، حُكمُهُ حُكمُ المَذكورِ[1].

بلاغةُ التَّرقّي في الإيصاء بالوالدين:

النَّهيُ عنِ اقتراف الصَّغائرِ مُقدِّمةٌ للأمر بالمكارم

لمّا نهى اللّهُ تعالى أن يقولَ الابنُ لوالديه ﴿أُفِّ﴾، وهو ما مدلولُه (أتضجَّرُ منكُما)؛ ارتَقى إلى النّهي عَمّا هو من حيثُ الوضعُ أشدُّ من ﴿أُفِّ﴾، وهو نَهرُهُما، وإنْ كانَ النَّهيُ عن نهرِهما يدلُّ عليه النّهيُ عن قول ﴿أُفِّ﴾؛ لأنّه إذا نهى عنِ الأدنى كان ذلك نَهيًا عنِ الأعلى بجهة الأَوْلى؛ والمعنى: ولا تَزجُرهُما عَمّا يَتعاطَيانِه ممّا لا يُعجِبُكَ، ثمّ ارتقى إلى أمرِه بالإحسان إليهما بالقول الكريم فقال: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا﴾ بدلَ قولِ ﴿أُفِّ﴾ ونَهرِهما؛ أي: جامِعًا للمَحاسِنِ مِنَ البِرِّ وجَودةِ اللّفظ[2].

غرضُ عطفِ النّهي على النَّهي:

لـغـةُ الجسم يجب أن تكونَ بـكـمـالِ الأدبِ والرِّقَّةِ

الانتهارُ هو إظهارُ الغضب في الصَّوت واللَّفظِ، و(القول الكريم) هو القولُ الجامِعُ للمَحاسن: مِنَ اللّين، وجودةِ المعنى، وتَضَمُّنِ البِرِّ[3]، وعَطَفَ النّهي بقوله: ﴿وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا﴾ بعد أنْ قال: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾؛ وذلك للانتقال مِنَ التَّضجُّر اللّفظيِّ، إلى التَّضجُّر السّلوكيِّ، فإنَّ النَّهرَ هو الزَّجرُ، فيُصاحِبُه اللّفظُ والصّوتُ ولغة الجسم، وإيماءاتُ الوجه، فهو من عطفِ العامِّ على الخاصِّ.

بلاغةُ المقابلةِ في عطفِ الأمر على النَّهي:

الانـتـقـالُ مِـنَ النَّهي عنِ القول القبيح إلى الأمر بالقول الكريم

اختارَ النَّظمُ الكريمُ الأمرَ بالقول الكريم في قوله تعالى: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا﴾ دون أن يقولَ: (وأكرمهما بالقول)؛ ليُقابِلَ النَّهيَ

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/ 459.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 36.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/ 459.

عن قول ما يُفيدُ التَّأفُّفَ، ويأتي التّعبيرُ بالأمر بلفظ ﴿وَقُل﴾ ليدلَّ على الوجوبِ، وتمامِ ما قد وَقَعَ على الابن البارِّ بوالديه، وأنْ لا يُسمعَهما إلّا من طيّبِ القولِ وجميلِ الكلامِ، فقولُه: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ انتقلَ مِنَ النّهي عنِ القولِ القبيحِ إلى الأمر بالقول الكريم.

وأفادَتِ المُقابلةُ شمولَ جميع الفضائلِ مِنَ الأقوال، فنهى عن سيّئِها في الأولى، وأمرَ بكريمِها في الثّانية، وهذه مِن أوجزِ الوصايا وأشملِها للأبناء.

غرضُ تقديم المجرور:

لا يُقدَّمُ على تكريم الوالدين أحدٌ في الوجود

قُدِّمَ المجرورُ ﴿لَّهُمَا﴾ على المفعول ﴿قَوْلًا كَرِيمًا﴾ للاهتمام بالمُتقدِّم، كأنَّه قال: خُصَّهما بالأقوال الكريمة الجميلة، اللّائقةِ بمَقام الوالدين، مُشعِرًا إيّاهما بأنّهما في أعلى درجات العِناية والرِّعاية، كأنَّه لا يوجِّهُ القولَ لأحدٍ إلّا لهما، وهذا لا يُفيدُه لو كان النَّظمُ: (وقُلْ قولًا كريمًا لهما).

دلالةُ التَّعبير بالمفعول المُطلَق، وتقييده بالصّفة:

حضورُ القولِ الكريمِ مع الوالدين في جميع الأحوالِ

عَبَّرَ بالمَفعول المُطلَق ﴿قَوْلًا﴾ لتوكيد فعلِ القولِ المَوصوفِ بالكرم؛ وبيانِ طبيعةِ القول الكريم، وأنَّه مَحبوبٌ عندَهما، لذا وَجَبَ أن يكونَ حاضرًا في كلِّ الأحوال والأوقات.

وقَيَّدَ المفعولَ بصفة الكرم، لِما يقتضيه مَقامُ الوالدين مِنَ الرّعاية والكرامة، فهما أعظمُ مَن يستحقُّ الكرمَ والإحسانَ، ومعنى ﴿قَوْلًا كَرِيمًا﴾؛ أي: جميلًا كما يقتضيه حُسنُ الأدب؛ كأنْ تقولَ: يا أبَتاهُ يا أُمّاهُ[1].

الفُروقُ المُعجَميَّة:

الحُكمُ والقَضاءُ:

يقتضي القَضاءُ فصلَ الأمر على التَّمام، من قَولك: قَضاهُ؛ إذا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 36.

القضاءُ حكمٌ قاطِعٌ في الأمر، والحُكمُ أعمُّ منه، ويَغلبُ استعمالُه في الخصومة

أتمَّه، وَقَطَعَ عملَه، ومنه قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ﴾ [الأنعام: 2]؛ أي: فَصَلَ الحُكمَ بِهِ، وقولُه: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الإسراء: 4]؛ أي: فَصلْنا الإعلامَ بِهِ، وقالَ تعالى: ﴿قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ [سبأ: 14]؛ أي: فَصلْنا أمرَ مَوته، وقوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصّلت: 12]؛ أي: فَصَلَ الأمرَ بِهِ[1].

والحُكمُ يقتضي المَنعَ عَنِ الخُصومَة، مِن قَولك: أحكمتُهُ إذا منعتُهُ، ويجوزُ أن يُقالَ: الحُكمُ فصلُ الأمرِ على الأحكام، بِما يَقتَضيهِ العقلُ والشَّرعُ؛ فإذا قيلَ: حُكمٌ بالباطِلِ؛ فَمعناه أنّه جعَلَ الباطِلَ مَوضِعَ الحقِّ، ويُستَعملُ الحُكمُ في مَواضِعَ لا يُستَعملُ فيها القَضاءُ؛ كقولِك: حُكمُ هذا كَحُكم هذا؛ أي: هما مُتماثِلان في السَّبَبِ أو العِلَّةِ، أو نحو ذلك، وأحكامُ الأشياءِ تَنقَسِمُ قسمَينِ: حُكمٌ يُرَدُّ إلى أصلٍ، وحُكمٌ لا يُرَدُّ إلى أصلٍ؛ لأنَّهُ أوّلٌ في بابِه[2].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 190.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 190.

﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾ [الإسراء: 24]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الانتقالُ من إرشادِ الأقوالِ إلى إرشادِ الأفعالِ

بعد أنْ وجَّهتِ الآيةُ السّابقةُ الأبناءَ إلى تخيُّرِ الألفاظِ، والتَّجافي عن قبيحِها، انتقلَت إلى توجيه أفعالِ الأبناءِ في خفض الجَناح والتَّقرُّبِ لهما والدُّعاءِ بالرَّحمة والنَّجاةِ، فإذا حسُنَتِ الأقوالُ تبعَتها الأفعالُ، فبعدَ النَّهي عنِ الأقوال القبيحةِ حسُنَ الارتقاءُ في الوصيّة بالوالدين إلى التَّواضُعِ لهما، تَواضُعًا يَبلُغُ حدَّ الذُّلِّ لهما، بخدمتِهما إلى حدِّ إشغالِ الأوقاتِ في رعايتِهما، لإزالة وحشَةِ نفسيهما إنْ صارا في حاجةٍ إلى مَعونَةِ الولدِ، والقصد من ذلك التَّخلُّقُ بشكرِهِ على إنعامِهما السّابقةِ عليه(1).

وبينَ الآيتين ترقٍّ في درجات البرِّ؛ فَذَكَرَ أوّلًا النّهي عن أقلِّ تأفُّفٍ منهما أو من أحدِهما، ثمّ انتقلَ إلى الرّحمةِ بهما، وخفضِ الجناح لهما، وأخيرًا ارتقى إلى دُعاء اللّهِ لهما برحمتِهما فترةَ حياتِهما، وبعد موتِهما، فيستمرُّ الابنُ على هذا النّهج حتّى يقضيَ حياتَه، فدعاؤه لهما يكونُ على مدى الحياةِ كلِّها، وكأنّ الأبوين (عنده) في حياتِهما وبعد موتِهما.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱخۡفِضۡ﴾: جذرُ الكلمة هو (خفض)؛ الخَفْضُ: ضِدُّ الرّفعِ، وقوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ حثٌّ على تَليين الجانبِ والانقيادِ(2).

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 70.

(2) الرّاغب، المفردات: (خفض).

2) ﴿جَنَاحَ﴾: جذرُ الكلمة هو (جنح)؛ الجَناحُ جناحُ الطّائرِ، قال تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ [الأنعام: 38]، وسُمّيَ جانِبا الشّيءِ جناحَيه، وجَناحا الإنسانِ لِجانِبيه، قال تعالى: ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ [طه: 22]؛ أي: جانِبك، واضمُمْ إليكَ جناحَكَ عبارةٌ عنِ اليدِ لكونِ الجَناحِ كاليدِ، ولذلكَ قيلَ لِجناحي الطّائرِ يداه[1].

3) ﴿ٱلذُّلِّ﴾: جذرُ الكلمة هو (ذلل)؛ والذّلُّ: اللّينُ، فالذُّلُّ: ضِدُّ العِزِّ[2]، والذّلُّ ما كانَ عن قهرٍ، والذُّلُّ متى كانَ من جهة الإنسانِ نفسِه لنفسِه فمحمودٌ؛ نحو قولِه تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: 54]، وهو هنا التّواضُعُ[3].

4) ﴿رَبَّيَانِي﴾: جذرُ الكلمة هو (ربو)؛ رَبا إذا زادَ وعَلا، قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ﴾ [فصلت: 39]؛ أي: زادَت زيادةَ المُتَرَبّي، وأربَى عليه أشرفَ عليه، ورَبيتُ الولدَ فَرَبا، وقوله: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ [البقرة: 276]، والرَّبوُ: الانبهارُ؛ سُمّيَ بذلك تصوُّرًا لتَصعُّدِه، ولذلك قيلَ: هو يَتَنَفَّسُ الصُّعَداءَ[4]، وربا الشّيءِ يربو؛ إذا زادَ، وربا الإنسانُ الرّابيةَ يَربو؛ إذا عَلا، ويُقالُ: رَبَّيتُهُ وترَبَّيتُهُ؛ أي: غَذوتُهُ[5].

❁ المَعنى الإجماليُّ:

المُبالغةُ في التّواضُع والرّعاية للوالدين

أرشدَ قولُه تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ الابنَ إلى زيادة تبجيلِهما والتّلطُّفِ معهما في القول والفعلِ والمُعاملة على اختلاف ألوانِها، فبجانبِ القولِ الكريم الّذي يجبُ أن يقولَه لهما على الابن أن يكونَ مُتواضعًا معهما، مُتلطِّفًا في مُعاشرتِهما،

(1) الرّاغب، المفردات: (جنح).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذل).
(3) الدّامَغانيّ، قاموس القرآن: (ذلل).
(4) الرّاغب، المفردات: (ربو).
(5) ابن فارس، مجمل اللّغة: (ربو).

لا يرفعُ فيهما عينًا، ولا يرفضُ لهما قولًا، مع الرّحمة التّامّةِ بهما، والشّفقةِ الّتي لا نهايةَ لها عليهما، وقولُه: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ تذكيرٌ للإنسان بحال ضعفِه وطفولتِه، وحاجتِه إلى الرّعاية والحنان؛ أي: وقلْ في الدّعاء لهما: يا ربِّ ارحمْهما برحمتِك الواسعةِ، واشملْهُما بمغفرتِك الغامرةِ، جزاءَ ما بذلا من رعايةٍ لي في صِغري، فأنتَ القادرُ على مَثوبتِهما ومُكافأتِهما[1]، وينبغي بحكم هذه الآية أن يجعلَ الإنسانُ نفسَه مع أبَوَيهِ في خير ذِلَّةٍ في أقوالهِ واستكانتهِ ونَظَرِهِ[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

علّةُ عطفِ الجملةِ على الجملة:

الأقوالُ الكريمةُ لا تتكامَلُ إلَّا بالأفعال الجميلةِ

عُطِفَ قولُه تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ على الجملة السّابقةِ: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا﴾؛ حيث بيَّنَتِ الأولى حُسنَ التّعامُلِ والتّأدُّبِ مع الوالدين قولًا، وبيّنَتِ الثّانيةُ التّذلُّلَ إليهما فعلًا باعتبارِهما السّببَ الأوّلَ في وجود الابنِ، فعليه أن يَذِلَّ لأقوالِهما وأفعالِهما وأوامرِهما ونواهيهما، وهذه الحالةُ أطلقَ عليها البلاغيّون: التّوسُّطَ بين كمال الانقطاعِ وكمال الاتّصالِ؛ إذ توسَّطَتِ الواو بين الجملتين باعتبارِها أداةَ وصلٍ لأمرين؛ **الأوّل**: أنّ بين هاتين الجملتين اتّصالًا في كونِهما إنشائيّتين، ووجود العلاقة الجامعةِ الّتي تبرِّرُ عطفَ الثّانية على الأولى، الّتي هي علاقةُ تكامُلٍ بين القول والعمل، **والثّاني**: أنّ بينَهما مع الاتّصال اختلافًا من حيثُ المعنى.

بلاغةُ الاستعارة المَكنيّة التّمثيليّة:

خفضُ الذُّلِّ للوالدين في الدُّنيا رافعٌ للولدِ في الآخرة

خَفضُ الجناحِ في قوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 327 - 328.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/ 461.

﴿ٱلرَّحۡمَةِ﴾ استعارةٌ؛ إذ استعارَ للذُّلِّ جناحًا، وأضافَه إليه مبالغةً، فإنَّ الطَّيرَ إذا تذلَّلَ أرخى جناحَه إلى الأرض، كذلك الوَلدُ، ينبغي أن يخضعَ لأبويه، ويُلَيِّنَ جانبَهُ، ويَتذلَّلَ لهما غايةَ جهدِه، وذلك مِنَ الرَّحمَةِ؛ أي: من إفراط الرّحمةِ لهما والرِّقّةِ والشّفقةِ عليهما[1]، وهي استعارةٌ مَكنيّةٌ حُذِفَ فيها المشبّهُ به وهو الطّائرُ، وأبقى شيئًا من لوازمِه، وهو الجناحُ، وهي كذلك استعارةٌ أصليّةٌ؛ لأنّها حصلَت في الاسم. "وصيغَ التّعبيرُ عنِ التَّواضُع بتصويرِهِ في هيئةِ تذلُّلِ الطّائرِ عندَما يَعتَريهِ خَوفٌ من طائرٍ أشدَّ منه؛ إذ يَخفِضُ جناحَهُ مُتذَلِّلًا، ففي التّركيب استعارةٌ مَكنيّةٌ، والجَناحُ تَخييلٌ بمَنزِلةِ تَخييلِ الأظفارِ للمَنيَّةِ في قول أبي ذُؤَيبٍ:

وإذا المَنيَّةُ أَنشبَت أظفارَها*** ألفَيتَ كُلَّ تَميمةٍ لا تَنفَعُ.

ومَجموعُ هذه الاستعارةِ تَمثيلٌ[2]، ومثالُ إيضاحِ ما ليس بجليٍّ ليصيرَ جليًّا، وحكمةُ الاستعارة في هذا جعلُ ما ليسَ بمَرئيٍّ مَرئيًّا[3].

وقال الزّمخشريُّ[4]: ﴿جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ فيه وجهان؛ **أحدُهما**: أن يكونَ المعنى: واخفِضْ لهما جناحَك، كما قال: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾ [الحجر: 88]، فأضافَه إلى الذُّلِّ؛ على معنى: واخفِضْ لهما جناحَك الذَّليلَ أو الذَّلولَ، **والثّاني**: أن يجعلَ لذُلِّه جناحًا خفيضًا مبالغةً في التَّذلُّل والتَّواضُع لهما؛ والمعنى: أنّه جَعَلَ اللّينَ ذُلًّا، واستعارَ له جَناحًا، ثمّ رَشَّحَ هذا المَجاز بأنْ أمَرَ بخفضِه[5].

بلاغةُ الكناية في خفضِ الجَناحِ:

الولدُ البارُّ حسَنُ التّدبيرِ مع والديه مُتواضِعٌ لهما

ثمّ أمرَهُ تعالى بالمُبالغةِ في التَّواضُع معهما بقولِه: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 192.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 71.
(3) الزّركشيّ، البرهان: 3/ 433.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 658.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 26/ 2.

﴿جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾، وقال القفّالُ: في تَقريرِه وجهان: **أحدُهما**: أنّ الطّائرَ إذا ضمَّ فَرخَهُ إليهِ للتّربيةِ خَفَضَ له جناحَهُ، فَخَفضُ الجَناحِ كنايةٌ عن حُسنِ التّدبيرِ، وكأنّه قيلَ للولدِ: اكفُلْ والِدَيكَ بأنْ تَضُمَّهُما إلى نفسِك، كما فعَلا ذلك بكَ حالَ صِغَرِكَ، **الثّاني**: أنّ الطّائرَ إذا أرادَ الطّيرانَ والارتفاعَ نَشَرَ جناحَهُ، وإذا أرادَ تَركَ الطّيرانِ وتَركَ الارتفاعِ خفَّضَ جناحَهُ، فصارَ خَفضُ الجَناحِ كنايةً عن فِعلِ التَّواضُعِ مِن هذا الوجهِ[1].

نكتةُ تقديمِ المجرورِ على المفعولِ:

اختصاصُ الأبوين بحفاوةٍ لا تليقُ إلّا بهما

تقديمُ الجارِّ والمجرورِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ أفادَ التّخصيصَ، فقد خُصَّ الوالدان بهذا الاهتمامِ والحَفاوةِ، وبهذا الحذرِ في التّعامُلِ معهما، فرعايتُهما محورُ هذه الآيةِ القرآنيّةِ الّتي ابتدأَت بأمرِ اللهِ وقضائِهِ بعبادتِهِ وحدَه سبحانَه، وشفَّعَها بالأمرِ ببرِّ الوالدين.

توجيهُ المتُشابِهِ اللّفظيِّ:

التّذلُّلُ للوالدين لا يُشابِهُه تذلُّلٌ آخر

ذَكَرَ الذُّلَّ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ بينما خلا منه قولُهُ تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢١٥﴾ [الشّعراء: 215]؛ إذ بولِغَ بذكرِ الذُّلِّ مع الوالدين، وذلك بسببِ عِظَمِ حقِّ الوالدين على خلافِ عُمومِ المؤمنين، ولشرفِ المَأمورِ، فإنّه لا يُناسِبُ نسبةَ الذُّلِّ إليه[2]، فلا يصحُّ الذُّلُّ لأحدٍ مِنَ المَخلوقين إلّا للوالدين.

معنى حرف ﴿مِنَ﴾ ودلالتُه:

اندماجُ النّفسِ في رحمةِ الوالدين

حرفُ ﴿مِنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ يصحُّ أن يكونَ لبيانِ الجنسِ؛ أي: إنّ هذا الخفضَ يكونُ مِنَ الرّحمةِ المُستَكِنَّةِ في النّفسِ،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 36.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/ 461، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 36.

لا بأن يكونَ ذلك استِعمالًا[1]، ويصحُّ أن يكونَ ابتدائيًّا؛ أي: إنّ الذُّلَّ النّاشئَ عنِ الرّحمةِ، لا عنِ الخوف، أو عنِ المُداهَنة[2].

معنى التّعريف في ﴿ٱلرَّحۡمَةِ﴾:

بِرُّ الوالدين ناشِئٌ عن رحمةِ ولدهما بهما

التّعريفُ في لفظ ﴿ٱلرَّحۡمَةِ﴾ عِوَضٌ عنِ المُضاف إليه؛ أي: من رحمتِك إيّاهُما[3]، فتصيرُ رحمتُك بهما كشيءٍ لا يوصَفُ إلّا بقوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾، وتفيدُ كذلك اعتيادَ النَّفس على التَّخلُّق بالرَّحمة باستحضارِ وُجوبِ مُعاملَتِه إيّاهُما بها حتّى يَصيرَ له خُلُقًا[4].

دلالةُ العَطفِ بين الجمل:

جمعُ أنواع الرّحمةِ والبِرِّ للوالدين

قولُه تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا﴾ عطفُ أمرٍ على أمرٍ سابقٍ؛ فالجُملتان إنشائيّتان، وبينَهما اتّصالٌ واتّفاقٌ في النّوع، وهما مُتغايرتان في المعنى، وفائدةُ هذا الوصلِ جمعُ أصنافِ الرّحمةِ، ظاهرًا وباطنًا، قولًا وفعلًا، ودُعاءً في حال حياتِهما وبعدَ موتِهما، وكانَ ذِكرُ رحمةِ العَبدِ مُناسبةً للانتقالِ إلى رحمةِ اللّه، وتنبيهًا على أنّ التَّخَلُّقَ بمَحبّةِ الوَلَدِ الخيرَ لأبَويهِ يَدفَعُهُ إلى مُعاملتِه إيّاهُما به، فيما يَعلَمانِه، وفيما يَخفى عنهُما، حتّى فيما يَصِلُ إلَيهما بعدَ مَماتِهما[5].

دلالةُ الأمر ﴿وَقُل﴾:

وجوبُ الدُّعاء للوالدين

الأمرُ في قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا﴾ خَرَجَ إلى معنى الوجوبِ، فواجبٌ على الابنِ البارِّ الصّالحِ أن يبقى على عهدِه مع أبَوَيه، وإنْ فارقا الحياةَ، فمِن رحمتِه أن يدعوَ لهما، فيصيبَهُما بدعائِه عظيمَ الأجرِ والثّوابِ، فَتَحفَّهُما رحمةُ اللّه بدعاء ولدِهما لهما.

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/ 461.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 71.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 71.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 71.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 72.

غرضُ النّداء:

غرضُ النّداءِ في قوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا﴾ التَّوطِئةُ إلى الدّعاء، فبيَّنَ العِلَّةَ في لزوم الدّعاءِ لهما، وبيَّنَ أنّه يَلزمُ الولدَ من الدّعاء للوالدين، أكثرَ ممّا يَلزمُهُ في غيرهما[1]، والدّعاءُ للوالدين يكونُ في حال وجودِهما في الحياة فترةَ رعايتِه لهما، وأمّا بعدَ وفاتِهما فلا يبقى له من بِرِّهما سوى الدّعاءِ لهما.

الدّعاءُ للوالدين فـي حياتهما وبعدَ موتهما

نكتةُ حذفِ حرفِ النّداء:

حُذِفَت أداةُ النّداء في قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا﴾، فلم يقُلْ: (يا رَبّ)؛ لقربِ المُنادَى مِنَ المُنادي؛ لأنّ الدّعاءَ للوالدين مُستجابٌ، فكانَ المُنادَى لقربه لا يحتاجُ إلى واسطة.

سرُّ اصطفاء لفظِ الرُّبوبيَّة:

اختيرَ لفظُ الرّبوبيَّة في قولهِ تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا﴾ دون اسمِ (اللّه)؛ لأنّ الرّبَّ هو المُربّي، وهو الغفورُ الرّحيمُ، فجاء اصطفاءُ اسم الرّبِّ بالدّعاء للوالدين، وطلبِ رحمتِه منه سبحانَه؛ تنبيهًا على أنَّه المُربّي سبحانَه، فهو الّذي جَعَلَ من أسباب تربيةِ الولدِ الظّاهرةِ وجودَ الوالدين، فكان دعاءُ اللّهِ الرّبِّ الخالِقِ أنْ يرحمَ الوالدين المُربّيين له، تذكيرًا بدورِ الأبوين في تربية الابن.

مُقتضى الرُّبوبيَّةِ تهيئةُ الوالدين فـي الـتّربـيـة والرّعاية

غرضُ الأمر في طلب الرّحمةِ:

خرجَ الأمرُ في قوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا﴾ إلى معنى الدّعاء، وهو الطّلبُ مِنَ الأدنى إلى الأعلى، "والرّحمةُ حِفظٌ للوُجود من اجتناب انتِهاكه، وهو مُقتضى الشُّكرِ، فجَمَعَ الشُّكرَ على ذلك كُلِّه بالدّعاء لهما بالرّحمة"[2]، والدُّعاءُ هنا فيه معنى الإشفاقِ والخوفِ على المَدعوِّ لهما.

دعـاءُ الـولـدِ رحـمـةٌ وخـوفٌ وإشفاقٌ

(1) الكيا الهرّاسيّ، أحكام القرآن: 4/ 254.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 73.

بديعُ جناس الاشتقاقِ:

الرّحمةُ قاعدةُ البرِّ وأصلُ الإحسانِ

بينَ قولهِ: ﴿ٱلرَّحۡمَةِ﴾ وقولهِ: ﴿ٱرۡحَمۡهُمَا﴾ جناسُ اشتقاقٍ، وفائدتُه التّنبيهُ على أهمّيّة الرّحمةِ في التّعامُل مع الوالدين، وطلبها لهما في كلِّ حالٍ، فعندما يكونان في كنفِ الولدِ يكونُ في خدمتهما، فيَخفِضُ لهما جناحَ الذُّلِّ مِنَ الرّحمة، وعندما يُغادران الحياةَ فلا يكونُ له إلّا أن يدعوَ لهما ما دام على قيد الحياة.

نوعُ الكافِ ودلالتُها:

الكافُ محمولةٌ على التَّعليل أو التّشبيه

الكافُ في قوله تعالى: ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾؛ إمّا أن تكونَ للتّعليل؛ أي: ربِّ ارحمْهما لتربيتِهما لي، وجزاءً على إحسانِهما إليّ حالةَ الصِّغَرِ والافتقارِ؛ فنبَّهَ على العلّةِ الموجبةِ للإحسان للوالدين، والبرِّ بهما، واسترحام اللّهِ لهما، وهي تربيتُهما له صَغيرًا، وتِلكَ الحالةُ ممّا تَزيدُهُ إشفاقًا ورَحمةً لهما؛ إذ هي تذكيرٌ لِحالَةِ إحسانِهما إليه، وقتَ أنْ لا يَقدِرَ على الإحسان لنفسِه[1].

وإمّا أن تكونَ للتّشبيه الحقيقيِّ، قال الحَوفيُّ: الكافُ في مَوضِعِ نصبٍ، نعتٌ لِمصدرٍ محذوفٍ، تقديرُهُ: رَحمةً مِثلَ تَربيَتي صَغيرًا[2].

وإمّا أن تكونَ للتّشبيه المَجازيِّ، ويعبِّرُ عنه النّحاةُ بمعنى التّعليل في الكاف؛ أي: ارحمْهُما رحمةً تُكافِئُ ما ربيّاني صغيرًا، والمَقصودُ منه تمثيلُ حالةٍ خاصّةٍ، فيها الإشارةُ إلى تربيةٍ مُكيَّفةٍ برحمةٍ كاملةٍ، فإنّ الأبوّةَ تقتضي رحمةَ الولدِ، وصِغَرَ الولدِ يقتضي الرّحمةَ به، ولو لم يكُنْ ولدًا، فصارَ قولُه: ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ قائمًا مَقامَ قولِه: كما ربيّاني ورحماني بتربيتهما[3].

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 39.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 39.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 73.

فنُّ الاحتباك:

استحضارُ ثنائيّة الرّحمة والتّربية في الجانبين

في قولهِ تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ احتباكٌ؛ حيثُ حَذَفَ التّربيةَ مِنَ الأولى وذَكَرَها في الثّانية، وحَذَفَ الرّحمةَ مِنَ الثّانية وذَكَرَها في الأولى، والتّقديرُ: (ارحمْهما وربِّهما كَما رَبَّياني ورَحماني)، فصحَّ أن يكونَ لهما الرّحمةُ والتّربيةُ معًا، وقد ذَكَرَ أحدَهما في أحد الجانبين، والآخرَ في الآخر، كما يُلوِّحُ له التَّعرُّضُ لعنوان الرّبوبيّة[1].

فائدةُ جناس الاشتقاق:

تربيةُ الوالدين أثرٌ من آثار الرُّبوبيَّة

بين لفظِ ﴿رَّبِّ﴾ ولفظِ ﴿رَبَّيَانِي﴾ في قولهِ تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ جناسُ اشتقاقٍ، فائدتُهُ انسجامُ طلبِ الدّعاءِ مِنَ الرّبِّ الأعلى لرحمة المُرَبّيَينِ نَفسَيهِما في حال كونِهما عاجِزين أو مُتَوَفّيَين.

سرُّ التَّقييد بالحال ﴿صَغِيرًا﴾:

البِرُّ مُحاطٌ بتحقيق الرَّحمةِ لا بإقناع الوالدين

عنايةُ الوالدين بالولد يكونُ في جميع أحوالِه، لكنَّ التّقييدَ بحال كونِه ﴿صَغِيرًا﴾، يُظهِرُ جانبَ الرَّحمة، فإنَّ الوالدين أشدُّ ما يكونان رحمةً بابنهما حالَ كونِه صغيرًا، وتبدأُ التّربيةُ بالحوار والعقل والضّبط في حال كونِه كبيرًا، وليس المَطلوبُ مِنَ الابن أن يُعامِلَ والديه بالضّبط والحوار والإقناع، بل بالرّحمةِ والتّذلُّلِ والخضوع، فهذا سرُّ التَّقييدِ بالحال.

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 192.

﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ٢٥﴾ [الإسراء: 25]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

معرفةُ علمِ الله بالنّفوس طريقُ الإخلاص

بعد بيانِ الآياتِ السّابقةِ واجبَ البرِّ والإحسانِ بالوالدين، وجعلَ خاتمةِ الإرشاد بالدُّعاءِ لهما، وهو الفعلُ الّذي يخلدُ فيه الإنسانُ إلى نفسِه، فيدعو فيه اللّهَ تعالى بما شاءَ من أنواعِ الدُّعاءِ، فناسبَ أن يذكرَ علمَ اللّه تعالى بخفايا النّفوس، الّتي لا يعلمُها إلّا هو، فمَن كانَ صالحًا فاللّهُ أعلمُ بصلاحِه، وهو يَغفرُ له تقصيرَه، وحسُنَ التَّنبيه على الخفايا لِما يكونُ في البرِّ الظّاهرِ أمامَ النّاسِ من استجلاب الرّياءِ، فمُناسبةُ الآيةِ لِما قبلَها توجيهُ العباد إلى أن يكونَ إحسانُهُم للّه تعالى خالصًا.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صَٰلِحِينَ﴾: جذرُ الكلمة هو (صلح)؛ الصَّلاحُ: يدلُّ على خلاف الفسادِ[1]، قال تعالى: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: 56]؛ وهما مُختَصّان في أكثر الاستعمالِ بالأفعال، وقوبلَ في القرآن تارةً بالفساد، وتارةً بالسّيّئة، قال تعالى: ﴿خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التّوبة: 102][2]، ومعنى ﴿صَٰلِحِينَ﴾ أي: في طاعاتِكم وإقبالِكم على اللّه تعالى.

2) ﴿لِلۡأَوَّٰبِينَ﴾: جذرُ الكلمة هو (أوب)؛ وهو الرّجوعُ، آبَ فُلانٌ إلى سيفِه؛ أي: ردَّ يَدَه ليَستَلَّه، والفَعلَةُ الواحدةُ تَأويبَةٌ، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ٢٥﴾ [الغاشية: 25]، والمَآبُ: المَرجِعُ، والأَوبُ: النّحلُ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صلح).
(2) الرّاغب، المفردات: (صلح).

وذلك أنّها تؤوبُ مِن مَسارِحِها[1]، والتّأويبُ: التّسبيحُ في قولِهِ تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: 10]، والتّائبُ أوّابٌ[2]، وهذا هو المعنى المُرادُ في الآيةِ[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

علمُ الله تنبيهٌ للمُرائين وإرشادٌ للأوّابين

وخَتَمَ سبحانَه هذه الآياتِ الّتي سَمَتْ بمَنزِلةِ الوالدين، بما يدلُّ على كمالِ علمِه، وعلى التّحذيرِ مِن عقابِه، فقال تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾؛ أي: ربُّكُم - أيُّها النّاس - أعلَمُ بما في نُفوسِكم، وضمائرِكم، سواءٌ أكان خيرًا أم شرًّا، وسواءٌ كنتُم تُضمِرون البِرَّ بآبائِكم أم تُخفونَ الإساءةَ إليهما، ومع ذلك فإنّكم إنْ تكونوا صالحين؛ أي: قاصدين الصّلاحَ والبِرَّ بهما، والرّجوعَ عمّا فرطَ منكُم في حقِّهما أو في حقِّ غيرِهما، فاللّهُ تعالى يَقبَلُ توبتَكم، فإنّه سبحانَه بفضلِه وكرمِه كان للأوّابينَ - أي: الرّجاعينَ إليه بالتّوبة ممّا فَرطَ منهم - غفورًا لذنوبِهم[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ التّذييل:

التّذكيرُ بعلم الله يُناسبُ اختلافَ أحوالِ المأمورين

الآيةُ بمُجملِها تذييلٌ لآيةِ الأمرِ بالإحسانِ بالوالدين وما فَصَّلَ فيها، وما يَقتضيهِ الأمرُ مِنَ اختلافِ أحوالِ المَأمورين بهذا الأمرِ قبلَ ورودِه؛ بينَ موافِقٍ لِمُقتضاهُ، ومُفرِّطٍ فيه، ومِنَ اختلافِ أحوالِهم بعدَ ورودِه مِن مُحافِظٍ على الامتثالِ، ومُقصِّرٍ عن قصدٍ أو عن بادرةِ غَفلَةٍ[5].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أوب).
(2) ابن فارس، مجمل اللّغة: (أوب).
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/ 461.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 328.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 74.

نكتةُ الالتفات:

شمولُ رقابة الله تعالى لجميع الطّاعاتِ

انتقلَ الخطابُ مِنَ المُفردِ إلى الجمع في قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ﴾؛ "لأنّ هذا يَشترِكُ فيه النّاسُ كلُّهم، فَضميرُ الجمعِ أنسَبُ به"[1]، وليشمَلَ الأمرَ بالبِرِّ وغيره من أنواع الطّاعات والقُربات.

دلالةُ الاستئناف:

إيجازُ وصف أحوالِ المُخاطَبين

بعد أن ذَكَرَ في الجملة السّابقة التَّوجُّهَ إلى اللّه في سؤال الرّحمةِ بعنوان الرّبوبيّةِ، أَتبعَ هنا لفظَ الرّبوبيَّةِ بطريق الإخبارِ استئنافًا فقال: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ﴾؛ لبيانِ علم اللّهِ تعالى بالأنفس فاستأنَفَ؛ لأنّها توجِزُ حالَ المُخاطَبين، فجميعُهُم مُخاطَبٌ بما ذَكَرَ مِنَ الأمر ببرِّ الوالدين.

دلالةُ تقديم المُسند إليه مضافًا إلى الضّمير:

رقابةُ الله على العبادِ تنبيهٌ وتحذيرٌ

المُسندُ إليه المُضاف ﴿رَّبُّكُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ﴾ يتضمَّنُ تعظيمَ شأن المُضاف[2]، وفي إضافتِه إلى ضمير المُخاطَبين دلالةٌ على الرّقابة عليهم، وأنَّه يعلمُ كلَّ ما يصدرُ عنهم وما يَخفى، فأفاد التَّنبيهَ والتَّحذيرَ بعد الأمر والإرشاد.

فائدةُ إتيان المُسنَدِ بصيغة أفعل:

التَّعريضُ بمَن يُخفِي في نفسِهِ قُبحَ الأخلاقِ

أفادَت صيغةُ أفعل التّفضيل في قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ﴾ التّعريضَ بالمُخاطَبين الّذين يَظنّون أنّهم قد أخفوا ما في نفوسِهم من رغبةٍ في التَّخلُّص من مَشاقِّ الوالدين، أو كرهِهِما خِدمتَهُما والعملَ تحتَ أمرَيهما؛ أي: إنْ كنتُم تظنّون أنَّكم تُخفون خبيّاتِ النّفوس فاللّهُ أعلمُ بما فيها.

معنى حرف الجرِّ (الباء) ودلالتُه:

علمُ الله بدقائق النّفوس

معنى حرف الجرِّ الباء في قولِه تعالى: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 75.

(2) المراغيّ، علوم البلاغة، ص: 121.

﴿نُفُوسِكُمۡۚ﴾ الإلصاقُ، فدلّ على معرفةِ اللّهِ بدقائقِ ما في النّفوس، وما يجولُ فيها من أفكارٍ خافيةٍ على النّاس لا يُصرِّحُ بها صاحبُها، ولا يَكشِفُ أسرارَه للنّاس، لكنّ اللّهَ تعالى يعلمُ السِّرَّ وأخفى.

إيثارُ التّعبير بالاسم الموصول:

علمُ الله بعُموم ما في النّفوس

تقعُ (ما) على ذواتِ ما لا يَعقلُ، وعلى صفات مَن يَعقلُ، والاسمُ الموصولُ يوصِلُ بكلامٍ بعدَه هو من تمامِ مَعناه، فهي أسماءٌ ناقصةُ الدّلالةِ لا يتّضحُ معناها إلّا إذا وُصِلَت بالصّلة، فلمّا قال: ﴿بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ﴾ عُلِمَ أنَّ المَقصودَ هو خواطرُ النّفس، وما يُحدِّثُ الإنسانُ به نفسَه، وغرضُ التّعريف بالاسم الموصول (ما) إرادةُ عُمومِ ما يجولُ في النّفوس من خواطرَ حسنةٍ أو سيّئةٍ.

نكتةُ إيثار حرفِ الظَّرفيّةِ دون الباء:

النّفسُ مُستودعٌ خفيٌّ للأفكار، واللهُ عليمٌ بمَضامينها

آثرَ النَّظمُ استعمالَ حرف الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ﴾ دون أن يقولَ: (بنفوسكم)؛ لدلالته على الظّرفيّة المكانيّة المجازيّة؛ فجُعِلَت النّفسُ مُستودعًا للأفكار ومُحادَثاتِ النّفسِ الخفيّةِ غيرِ المُعلَنَةِ، الّتي لا يعلمُها النّاسُ، فصارَتِ النّفسُ وعاءً لتلك الأفكار، وهي على خلاف حرف الباءِ الّتي تفيدُ معنى الإلصاق في عُموم أحوالِها، فلو قالَ: (بنفوسكم) لأفاد التَّنبيهَ على كوامنِ النّفسِ الإنسانيّة من خصائصَ وطباعٍ، دونَ ما يجولُ فيها، ولِمّا أفادَ ما أفادَهُ حرفُ الجرّ ﴿فِي﴾ مِنَ الاحتواءِ لِتَجوالِ الأفكارِ وتردُّدِها فيها، وقوله: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ﴾ يشمَلُ جميعَ أحوال النّفوس، وجمعَت مع إيجازِها تيسيرًا بعدَ تَعسيرٍ، مَشوبًا بتَضييقٍ وتَحذيرٍ؛ ليكونَ المُسلمُ على نفسِه رَقيبًا[1].

غرضُ ذكرِ فعل ﴿تَكُونُواْ﴾:

عَبَّرَ النَّظمُ بفعل الكونِ في قوله تعالى: ﴿إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ﴾، وآثرَهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 75.

رقابةُ اللهِ لصلاحِ العبادِ في شأنِهم كلِّه شاملًا النّيّةَ والعملَ

على أن يقولَ: (إنْ تَصلُحوا)؛ فقد أفادَ التّعبيرُ القرآنيُّ: ﴿إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ﴾ الاهتمامَ بالمُستقبل مِنَ الزّمان، وفي هذا التّعبير ما فيه مِنَ التّشويق إلى الإصلاح في العمل الّذي سيكونُ سببًا للعفو والصّفح مِنَ اللّه تعالى، فيكونُ في العبارة دعوةٌ إلى إصلاح النّيّة، يعني: إنْ تكُنِ النّيّةُ صادقةً ببرِّ الوالدِ فإنّه غفورٌ لتلك البادرةِ[1]، وممّا يقعُ مِنَ الأخطاء والتّقصير في حقِّهما، فالفرقُ بين قولِه: ﴿إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ﴾ وبين (إنْ تَصلُحوا) هو دلالةُ نظم الآيةِ على صلاح الذّاتِ والنّيّة أوّلًا، ثمّ يأتي العملُ، أمّا (إنْ تَصلُحوا) فتدلُّ على صلاح العملِ، وأمرٍ آخرَ وهو اتّصافُ المُخاطَبين بالصَّلاحِ على الدَّوام بما يكونُ من شأنِهم ودَيدَنِهم.

نكتةُ تقديم المجرور:

تحفيزُ العبادِ إلى الاستغفار مُعينٌ على الاستكثار

قُدِّمَ المجرورُ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا﴾ على خبر كان ﴿غَفُورٗا﴾ للاهتمام، فقد استحقَّ الأوّابون المغفرةَ مِنَ اللّه تعالى، ونكتةُ التَّقديمِ إلهابُ الأوّابين طلبَ المَغفرة والرَّحمة مِنَ اللّه تعالى، بحسن الرُّجوعِ والاستغفارِ والتّوبةِ إليه سبحانَه.

بلاغةُ الاحتباك الجامعِ بين الصّفات:

لا صلاحَ بلا أوبةٍ، ولا أوبةَ بلا استغفارٍ

جاءَ ذكرُ صفة الأوّابين في جملةِ جواب الشَّرط في قولهِ تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا﴾؛ ومُقتضى الظّاهرِ أن تُذكرَ صفةُ الصّلاح، بأن يُقالَ: (فإنَّه كان للصّالحينَ غفورًا) بناءً على جملة الشّرطِ ﴿إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ﴾، ونكتةُ ذلك أنّ العبارةَ صيغَت على طريقة الاحتباكِ، والتّقديرُ: (إنْ تكونوا صالحينَ أوّابينَ إلى اللّه فإنّه كان للصّالِحين الأوّابين غفورًا)؛ لبيانِ أنَّ الصَّلاحَ لا يعني تركَ الأوبةِ إلى اللّه تعالى، وأنَّ الأوّابَ طالبُ غفرانِ الذّنوبِ، يقعُ في المَعاصي، ثمّ يَرجعُ عنها.

(1) السّيوطيّ، الإكليل، ص: 167.

بلاغةُ التّذييل:

لمّا شَمَلَ الصّلاحُ جميعَ ما سَبَقَ ممّا أَوصى اللّهُ به الأبناءَ وجوبًا عليهم تجاه الوالدين؛ فقد ذيَّلَهُ هنا بوصف الأوّابين المُفيدِ بعُمومه معنى الرّجوعِ إلى اللّه؛ أي: الرُّجوعُ إلى أمرِه وما يُرضيه، وهذا يَعُمُّ كلَّ مَن فرطَت منه جنايةٌ، وبهذا العموم كانَ تذييلًا لِما قد سبقَ مِنَ الصّلاح[1].

الأوبـةُ إلى الله تـعـالى أمـارةُ الصّلاحِ وبرهانُ الفلاحِ

نكتةُ المبالغةِ في استعمال صيغة (فعَّال):

آثرَ النَّظمُ استعمالَ صيغة (فعّال) في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا﴾ و(الأوّبُ) يكونُ مُطَّرِدًا، ويكونُ مُعرَّضًا للتّقصيرِ والتَّفريطِ، فيقتضي ذلك التّوبةَ والرّجوعَ والنّدمَ، وكلُّ ذلك (أوّبٌ)، وصاحبُهُ آيبٌ، فَصيغَ له مِثالُ المُبالغةِ (أوّابٌ)؛ لِتوافُق قوّةِ الوصفِ وكيفيَّتِه، وتناوبِ الحالةِ، فالمُلازِمُ للامتثالِ لأمر اللّه في سائر الأحوالِ، المُراقِبُ لنفسِه، (أوّابٌ) لشدّةِ مُحافظتِه على الأوبَةِ إليه، والمغلوبُ بالتّفريط يؤوبُ كلّما راجعَ نفسَهُ وذَكَرَ ربَّهُ، فهو أوّابٌ لِكثرةِ رجوعِهِ إلى أمرِ ربِّه[2].

الأوّابُ كـثيرُ الـرّجـوعِ بمراجعةِ نفسِه وتقصيرِها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 75.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 75.

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ٢٦﴾ [الإسراء: 26]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

الانتقالُ من خصوص الوالدين إلى عُموم القرابة

بعدَ التَّوصية بأصول الإنسانِ، وهما الوالدان، انتقلَ إلى التّوصية بفروع الوالدين، وهُمُ الأقاربُ في قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ﴾، فوصّى بغير الوالدين مِنَ الأقارب بعدَ أن توسَّعَ بالتّوصيةِ بالوالدين، كما أوصى بالمِسكين وابنِ السّبيلِ بعدَ التّوصيةِ باستصحاب الرّحمةِ في حقِّ الوالدين؛ لأنَّ الرَحمةَ هي أصلُ الإحسان، فالانتِقالُ هو من خصوص الوالدين إلى عُموم الأقاربِ، ومن خصوص الرّحمةِ بهما إلى عُمومِها بجميع النّاس.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾: جذرُ الكلمة هو (قرب)؛ والقُربُ والبعدُ يتقابلان، يُقالُ: قَرُبتُ منه أَقرُبُ، ويُستعمَلُ ذلك في المكان، وفي الزّمان، وفي النّسبة، وفي الحُظوة، والرّعايةِ، والقُدرةِ، وقد كَثُرَ استعمالُه في القرآن عنِ النّسبةِ نحو: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [النّساء: 8]، وقال: ﴿ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾ [النّساء: 7]، وقال: ﴿وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓۗ﴾ [فاطر: 18]، وقال: ﴿وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [الأنفال: 41]، وقال: ﴿وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [النّساء: 36]، وقال: ﴿يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ١٥﴾ [البلد: 15][1].

2) ﴿حَقَّهُۥ﴾: جذرُ الكلمة هو (حقّ)؛ أصلُ الحَقِّ: المُطابَقةُ والموافَقةُ[2]، فالحقُّ نقيضُ الباطلِ[3]، وحقَّ الشّيء وجبَ، قال تعالى:

(1) الرّاغب، المفردات: (قرب).
(2) الرّاغب، المفردات: (حق).
(3) ابن فارس، مجمل اللّغة: (بذر).

﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١﴾ [الزّمر: 71]؛ أي: وَجَبَت[1]، وهو يدلُّ على إحكام الشّيءِ وصحّتِه، وفي الآية: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ﴾، فإنْ كانوا فقراءَ عاجزينَ عنِ الكسب، وكان الرّجلُ موسِرًا، فعليه أن يُنفِقَ عليهم مع اختلاف آراءِ الفقهاءِ في تفاصيلِ ذلك[2].

3) ﴿تُبَذِّرۡ﴾: جذرُ الكلمة هو (بذر)؛ التّبذيرُ: التّفريقُ[3]، وأصلُه إلقاءُ البذرِ وطرحهُ، فاستُعيرَ لكُلِّ مُضَيّعٍ لِمالِه، فتبذيرُ البَذرِ: تَضييعٌ في الظّاهرِ لِمَن لم يَعرِفْ مآلَ ما يُلقيه، قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ﴾، وقال: ﴿وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا﴾[4]، بذرَ: بذرتُ البذرَ، وبذرتُ المالَ[5]، قال ابنُ مسعود وهو إنفاقُ المالِ في غير حقِّه، واستدلَّ به مَن قالَ: إنّ صَرفَ المالِ في وجوه الخيرِ ليس تبذيرًا[6].

المَعنى الإجْماليُّ:

أوامرُ مُوجَزَةٌ في إعطاء الحقوقِ لأهلها، ماليّة وغيرها

تُرشِدُ الآيةُ المُخاطَبَ إلى النَّفقة على أقاربِه أصحابِ الحقوقِ الثّابتةِ لهم مِنَ البِرِّ، وصلةِ الرّحم، والمُعاونة، والزّيارة، وحُسنِ المُعاشرةِ، والوقوفِ إلى جانبِهم في السَّراءِ والضَّرّاءِ، ونحو ذلك ممّا توجِبُه إرشاداتُ الشّرع الكريم، وتُرشِدُ كذلك إلى إعطاء المسكينِ وابنِ السّبيلِ حقوقَهُما الّتي شرعَها اللّهُ تعالى لهما، مِنَ الإحسان إليهما، ومعاونتِهما على ما يَسدُّ حاجتَهُما، وقولُه سبحانه: ﴿وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا﴾ نهيٌ عن وضع المالِ في غير مَوضِعِه الّذي شرعَه اللّهُ تعالى، وهو مَأخوذٌ من تفريقِ البذرِ وإلقائِه في الأرض، كيفما كان، من غير تَعهُّدٍ لمَواقِعِه، ثمّ استُعيرَ لتضييع المالِ في غير وجوهِه[7]،

(1) ابن فارس، مجمل اللّغة: (حق).
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 661.
(3) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مجمل اللّغة: (بذر).
(4) الرّاغب، المفردات: (بذر).
(5) ابن فارس، مجمل اللّغة: (بذر).
(6) السّيوطيّ، الإكليل، ص: 167.
(7) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 333.

قال مُجاهد: لو أنفقَ إنسانٌ مالَه كلَّه في الحقّ لم يكُنْ مُبذِّرًا، ولو أنفقَ مُدًّا في غير حقِّه كان تبذيرًا.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو ودلالتُها:

حقُّ القريب يأتي من حقوق الوالدين

الواو في قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وصلَت بين جُملتين إنشائيّتين بينَهما في المعنى كما بين الخاصِّ والعامِّ، وذلك بعد أن أمرَ ﷻ بالإحسان بالوالدين اللّذين هما مَنشأُ القرابةِ إلى غير ذلك ممّا لا يُحصى[1]، ولمّا حثّ على الإحسان إليهما بالخُصوص عمَّ بالأمر به لكُلِّ ذي رحم وغيرِه، فقال تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ من جهة الأبِ أو الأمِّ، وإنْ بَعُدَ[2].

غرضُ التّعبير بأسلوب الأمر:

إيــتــاءُ ذوي الـقـربـى قـائـمٌ عـلـى الـفـضـل والإحسان

الإيتاءُ: الإعطاءُ، وهو حقيقةٌ في إعطاء الأشياءِ، ومجازٌ شائعٌ في التّمكينِ مِنَ الأمور المَعنويّةِ كحُسن المُعاملةِ والنّصرةِ، وإطلاقُ الإيتاءِ في قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ صالحٌ للمَعنيين، كما هي طريقةُ القرآن في توفير المَعاني وإيجازِ الألفاظ[3]، وقد خَرَجَ الأمرُ هنا إلى معنى الوجوبِ لارتباطِه بذي القُربى من جهة الوالدين، فوَجَبَ أمرُ البِرِّ بهم والإحسانِ إليهم من جهة وجوبِ الأمرِ بالإحسان إلى الوالدين، وتفاصيلُ وجوبِ ذلك مَوضِعُه كتب الفروع، وجمالُه قائمٌ على الفضل والإحسان، لا العدلِ والميزان.

سرُّ استعمال تركيب ﴿ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾:

الإشـــارةُ إلى صحبة القرابة بـعـدَ صحبة الوالدين

التّعريفُ في ﴿ٱلْقُرْبَىٰ﴾ تعريفُ الجنس؛ أي: القُربى منكَ، وهو الّذي يعبِّرُ عنه بأنّ (ال) عِوَضٌ عنِ المُضاف إليه المَحذوفِ؛

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 4.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/ 376.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 76.

والتّقديرُ: أقارِبك، وقد آثرَ صيغةَ ﴿ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ على (القريب) مع أنّ هذه الأخيرةَ مناسبةٌ لِما بعدَها ﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾، وذلك لفائدة بيانِ الصّلةِ مع الوالدين، وتقديمِ حقّهِ على غيرِه ممّن ذُكِروا في الآية، والعنايةِ بالأقرَبِ فالأقرَب، فليس كلُّهم سواءً في الوصيّةِ وحقِّ الاعتناء، فإنَّ ذِكرَ ﴿ذَا﴾ يدلُّ على صحبة القَرابةِ، المُشيرةِ إلى صُحبة الوالدين.

معنى الإضافة في ﴿حَقَّهُۥ﴾ ودلالتُها:

قد جَعَلَ اللهُ حقًّا لذي القُربى، قد اختصَّهُم به

فائدةُ إضافة (حقّ) إلى ضمير الغَيبة إسنادُ الحقِّ إلى ذي القُربى، ويمكنُ أن تكونَ الإضافةُ بمعنى اللّام على صفة التّمليكِ؛ بمعنى: هو حقٌّ لذي القُربى، أو هو لاختصاص الحقِّ بهما في رعايتِهما وإيتائِهما ممّا يَحتاجون، ولا خَفاءَ بأنَّ صِلَةَ ذَوي القُربى واجِبةٌ على الإطلاق، ولا يتعيّنُ أن تكونَ الصّلةُ بالمال، ويحتملُ أن تكونَ خاصَّةً بالنّبيِّ ﷺ؛ لقرابَته، وبمَنْ قامَ مَقامَ النّبيِّ ﷺ، ويكونَ المرادُ بهذه الآية ما فُرِضَ لهم مِنَ الغَنيمةِ والفَيءِ؛ فإنّ الحقَّ المُختَصَّ بذوي القُربى مُختَصٌّ بهما، ويحتملُ أن تكونَ عامَّةً في المُؤمنين، وأنَّ الخطابَ معه خِطابٌ لأمَّتِه[1].

نكتةُ ترتيب المذكورين بالإحسان إليهم:

التّرتيبُ بحسب الأقرب فالأبعد على طريق التَّدلِّي

جاءَ ترتيبُ المَذكورين ابتداءً بالأقارب، باعتبارِهِمُ الألصقَ بالمُخاطَب، وانتهاءً بابن السّبيلِ باعتباره الأبعدَ عن المُخاطَب، ووسَّطَ بينَهما المسكينَ ليشمَلَ اليتيمَ المُحتاجَ والفقيرَ المُدقَعَ ممّن يُجاورُ في المجتمع، فشمَلَتِ الجملةُ الأصنافَ الثّلاثةَ، على التَّدلّي في ترتيب أصحابِ الحقوقِ، بحيث يشمَلُ الجميعَ الأقربَ فالأبعدَ فالأبعدَ.

(1) ابن نور الدّين، تيسير البيان: 3/ 409.

تعيينُ المَعطوف عليه ودلالتُه:

ما من تبذيرٍ قائمٍ إلّا بجانبه حقٌّ هالكٌ

العطفُ بين الجملتين الإنشائيّتين، أفادَ أن يكونَ معنى الآية تكميلًا لمعنى الأولى، بين نهي وجوبٍ، ونهي توجيهٍ وإرشادٍ، ومقصودها الاحترازُ من مُخالَفةِ الأولويّاتِ، فإنَّ إعطاءَ المعاويز أَولى مِنَ التّبذير، والتّبذيرُ لا يكونُ إلّا إنْ كانَت هناك حقوقٌ مُضيَّعةٌ، فحسُنَ بهذا العطف التَّنبيهُ على فسادِ الرِّعاية الاجتماعيَّة الّتي تكونُ سائدةً في أوساط النّاس.

ويرى ابنُ عاشور أنَّ قولَه: ﴿وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا﴾ ليسَ "مُتعلِّقًا بقوله: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ إلى آخره؛ لأَنّ التّبذيرَ لا يوصَفُ به بَذلُ المالِ في حقِّه، ولو كانَ أكثرَ من حاجةِ المُعطَى، فجملةُ ﴿وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا﴾ معطوفةٌ على جملة ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾؛ لأنّها من جملةِ ما قضى اللّهُ به، وهي مُعترِضَةٌ بينَ جملة ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ الآية وجملة ﴿وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ﴾ الآيةَ [الإسراء: 28]، فتَضَمَّنَت هذه الجملةُ وصيَّةً سادسةً ممّا قضى اللّهُ به"[1].

فائدةُ النّهي بعد الأمر:

تبذيرُ المال مَنهيٌّ عنه في الأحوال كلِّها

فائدةُ النّهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرۡ﴾ أنّ الآيةَ في سياق إعطاء الحقوقِ وبَذلِ ما يمكنُ بذلُه للنّاس، فجاء النّهيُ عنِ التّبذير، وهو إنفاقُ المالِ في غير حقِّه[2]؛ لأنَّ النّفسَ قَلَّما يكونُ فِعلُها قَوامًا بين الإفراطِ والتّفريطِ، ولذلك أتبَعَ ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرۡ﴾ بتفريق المالِ سَرَفًا، وبَذلِهِ فيما لا ينبغي[3]، فخرجَ النّهيُ إلى معنى التّوجيه والإرشاد إلى عدم تفريقِ المالِ في غير حقِّه، فلا يُعطي مالَه لِمَن لا يستحقُّه، ويقعدُ هو يتكفَّفُ النّاسَ، ويطلبُ عونَهم.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 78.

(2) ابن عادل، اللّباب: 12/ 263.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/ 376.

التّبذيرُ ضياعُ الدّارين وتفويتُ المَصلحتين

دلالةُ التّعبيرِ بالمفعول المُطلَق:

"وذَكَرَ المَفعولَ المُطلَقَ ﴿تَبۡذِيرًا﴾ بعد ﴿وَلَا تُبَذِّرۡ﴾ لتأكيد النّهي، كأنّه قيلَ: لا تُبَذِّرْ، لا تُبَذِّرْ، مع ما في المَصدر مِن استحضار جنسِ المنهيِّ عنه استِحضارًا لِما تُتَصَوَّرُ عليه تلكَ الحقيقةُ بما فيها مِنَ المَفاسدِ"[1]، وفيها النَّهي عنِ التّبذير المُفرِطِ، الّذي تكونُ صفتُه دائمةً عندَ الفرد، فلا يُبقي من مالِه شيئًا، فيأخذُ حكمَ التّحريم.

تَوجيهُ المُتشابِهِ اللّفظيّ:

بيانُ المُتشابه اللّفظيّ بين قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٣٨﴾ [الرّوم: 38]، والآيةِ مَوضِعِ التّفسيرِ قولِه تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا﴾، والفرقُ بين المَوضعين أنّ آيةَ الرّوم ذَكَرَ قبلَها سعةَ رزق اللّهِ للعباد، فقالَ تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ [الرّوم: 37]، ثمّ أتبعَها بهذه الآيةِ ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٣٨﴾ [الروم: 38] تيامنًا مع عظيم رزقِ اللّهِ، وأنّه سبحانَه القادرُ على أن يَرزقَ مَن يشاءُ ما يشاءُ، فيَبسُطُ رزقَه لِمَن يشاءُ، ثمّ بيَّنَ أنّ ذلك من قبيل الزّكاة المَفروضةِ على المُخاطَب، فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ٣٩﴾ [الرّوم: 39] فبيَّنَ أنّ الحقوقَ الماليّةَ المطلوبَ إنفاقُها على الأصناف المذكورةِ هي من قبيل فرضِ الزّكاةِ، وهذا على خلاف آيةِ الإسراء، إذ لم يأتِ هذا التّفصيل فنبّهَ هُنا على عدم التّبذير؛ لكي لا يُتوهَّمَ أنّ الإنفاقَ المَقصودَ في حقوق المسكينِ وابنِ السّبيلِ هو فوقَ ذلك.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 80.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

التَّبذيرُ والإسرافُ:

الإسـرافُ إنفاقٌ فـيـمـا ينبغي زيــادةً عـلى ما ينبغي، والتّبذيرُ إنـفـاقٌ فيما لا ينبغي

الإسرافُ يكونُ في كلِّ شيءٍ؛ فإنفاقُ أيِّ شيءٍ في غير مَحلِّه إسرافٌ، والتّبذيرُ هو الإسرافُ في المال، ولهذا جاءَت هُنا ﴿وَلَا تُبَذِّرۡ﴾؛ لأنّ الحديثَ عن إعطاء الحقوقِ، وأكثرُ ما يكون ذلك في المال؛ لأنّ مَن ذُكروا هم ﴿وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾، وهُم أكثرُ حاجةً إلى المال، أمّا ما يراهُ السّلفُ في مَعرفةِ مِقياسِ الإسرافِ وتبذيرِ المالِ فقد "قال عُثمان بن الأسود: كنتُ أطوفُ مع مجاهدٍ حول الكعبةِ، فرفع رأسَه إلى أبي قبيسٍ، وقال: لو أنَّ رجلًا أنفقَ مثلَ هذا في طاعة اللّه لم يكنْ مِنَ المُسرِفين، ولو أنفقَ دِرهمًا واحدًا في معصية اللّهِ كان مِنَ المُسرِفين، وعن عبد اللّه بن عمرو ﵄ مرَّ رسولُ اللّه ﷺ بسعدٍ ﵁، وهو يتَوضَّأُ، فقال: ما هذا السَّرفُ يا سعدُ؟ فقال: أفي الوَضوءِ سرفٌ؟ قال: "نعم، وإنْ كُنتَ على نَهرٍ جارٍ""[1].

---

(1) ابن حنبل، المسند، حديث رقم: (7065)، وابن ماجه، السنن، حديث رقم: (425)، وغيرهما، وينظر: ابن عادل، اللّباب: 12/ 263.

﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ٢٧﴾ [الإسراء: 27]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيانُ علّة النّهي عنِ التّبذير

بعد أن نهى عنِ التّبذير في الآية السّابقةِ ذَكَرَ هنا مُعلِّلًا ذلك النّهي بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ﴾؛ فَهُم ﴿إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ﴾؛ أي: في هذا الخُلقِ، فالمناسبةُ هي إتباعُ النَّهي بِبَيانِ آثارِهِ الدّينيّة الأخرويّة، وما يَجلبُ للإنسان مِن مَصائِبَ في آخرته.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَفُورًا﴾: جذرُ الكلمة (كفر)؛ الكُفرُ: سترُ الشَّيءِ وتغطيتُه، ووصْفُ اللّيلِ بالكافِرِ لسترِه الأشخاصَ، والزَّرّاعَ لسترِه البذرَ في الأرض، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: 20]، وكُفرُ النِّعمةِ وكُفرانُها: سترُها بترك أداء شكرِها، وأعظمُ الكُفرِ: جحودُ الوحدانيّة أو الشّريعة أو النُّبوّة، والكُفرانُ في جحود النِّعمة أكثرُ استعمالًا، والكُفرُ في الدّين أكثرُ، والكُفورُ فيهما جميعًا، قال: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ٥٠﴾ [الفرقان: 50]، وقوله: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾[1].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

المُبذِّرون يُشابِهون الشّياطينَ بكُفران النِّعم

الآيةُ تعليلٌ للنّهي عنِ التّبذير وتنفيرٌ منه بأبلغِ أسلوبٍ، والمُرادُ بأخوّةِ الشّياطين: المُماثَلةُ لهم في الصّفات السّيّئة، والسّلوكِ القبيحِ، أو التَّشبُّهِ بهم في هذا الفعلِ القبيحِ؛ والمعنى: كُنْ مُتوسطًا في نفقتِك؛ لأنّ المُبذِّرين يُماثلون الشّياطينَ في صفاتِهم القبيحة،

(1) الراغب، المفردات: (كفر).

وكان الشّيطانُ في كلِّ وقتٍ وفي كلِّ حالٍ جَحودًا لِنعَمِ ربِّه، لا يشكرُه عليها، بل يضعُها في غير ما خُلِقَت له هذه النّعم، وفي تشبيهِ المُبذِّرِ بالشّيطان في سلوكِه السَّيّئ، وفي عصيانِه لربِّه، إشعارٌ بأنّ صفةَ التّبذيرِ مِن أقبح الصّفاتِ الّتي يجبُ على العاقل أن يبتعدَ عنها، حتّى لا يكونَ مُماثِلًا للشّيطان الجاحِدِ لنعم ربِّه[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مَوقِعُ الجملة ممّا قبلَها ودلالتُها:

التّبذيرُ كُفرانٌ للنّعمة وإهدارٌ لطاقة المَال

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ﴾ تعليلٌ لِما قبلَها[2]، فبعدَ أن أمرَ بإيتاء ذي القُربى حقَّهُ من مالٍ وغيره، وإيتاءِ المسكين حقَّه، بمساعدته على قدر ما يستطيعُ مِنَ المال والطّعام والمَلبسِ والمَسكنِ، ثمّ ذَكَرَ ابنَ السّبيل الّذي انقطعَ عن أهله ومُعيِّنيه من عشيرته ومعارفِه، ونهى عنِ التّبذير في المال، وهو أن تضعَ المالَ في غير مكانِه، عَلَّلَ ذلك بأنّ التّبذيرَ من عمل الشّيطانِ لِما في المال من قوّةٍ وطاقةٍ يمكن أن تُستثمَرَ في الخير، فمَن وضعَها في غير الخيرِ فهو مُبذِّرٌ؛ لأنَّه سيضعُها في الشَّرِّ الّذي يدلُّه عليه الشّياطين.

غرضُ التّأكيد:

اشتراكُ المُبذِّرين بصفة الكُفران

أفادَت ﴿إِنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ﴾ التّوكيدَ، وهو الأصلُ فيها، وأفادَت غرضًا آخر وهو التّعليلُ، فقوله: ﴿وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا﴾ علّلَ سببَ النّهي عنِ التّبذير، بقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ﴾، فأدّت ﴿إِنَّ﴾ مهمةَ التّعليل وبيانَ السَّبب.

كما أنَّ الجملةَ الاسميّةَ تفيدُ الثّباتَ والتَّوكيدَ، فالتّبذير خصلةٌ مَذمومةٌ، فلا يُمدَحُ فاعلُها قطعًا في جميع الأحوالِ، كما أنّ الشّيطانَ لا يمكنُ أن يُذكَرَ أبدًا في مَوقِفٍ فيه مَدحٌ.

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 333.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/ 376.

دلالةُ التّعريف في لفظ ﴿ٱلۡمُبَذِّرِينَ﴾:

التّبذيرُ المَذمومُ سجيّةٌ راسِخةٌ

التّعريفُ في لفظ ﴿ٱلۡمُبَذِّرِينَ﴾ تعريفُ الجنسِ؛ أي: الّذين عُرِفوا بهذه القضيّةِ صفةً راسِخةً فيهم، وهي كالتّعريف في قوله: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾ [البقرة: 2](1)، فهُم في جميع أحوالِهم على نهج التّبذيرِ، والتّبذيرُ سجيّةٌ وخصلةٌ فيهم.

نكتةُ ذكر لفظ ﴿كَانُوٓاْ﴾:

أخـوّةُ الشّيطان منهجُ الخسران

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ﴾ ذُكِرَ لفظُ ﴿كَانُوٓاْ﴾ المُفيدُ أنّ تلكَ الأُخوَّةَ صفةٌ راسِخةٌ فيهم، وكفى بحقيقة الشّيطانِ كَراهَةً في النّفوس واستِقباحًا(2)؛ أي: كانوا على الدَّوام مُصاحِبين للشَّياطين.

بلاغةُ الاستعارة التَّصريحيَّة:

أخـوّةُ الشَّيطان مُلازِمةٌ للباطل

الإخوانُ جَمعُ أخٍ، وهو هُنا مُستَعارٌ للمُلازِم غيرِ المُفارِقِ؛ لأنّ ذلك شأنُ الأخِ، كقولِهم: أخو العلم؛ أي: مُلازِمُهُ والمُتَّصِفُ به، وأخو السّفَرِ لِمَن يُكثِرُ الأسفارَ(3)، فهي بمعنى المُلازِمِ للشّيطان كالأخ له؛ فحُذِفَ المُشبّهُ وصُرِّحَ بالمُشبَّه به، فهي استعارةٌ تصريحيّةٌ، وهي أصليّةٌ؛ لأنّها حصلَت في الاسم.

بلاغةُ التَّعليلِ للمُبالغة:

الـتّـبـذيـرُ هـدرٌ لـطـاقـات الأمّـةِ الماليَّةِ

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ﴾ تعليلٌ للمُبالغة في النّهي عنِ التّبذير، ودلالةُ ذلك تحريمُ التّبذير، وجعلُهُ من أكثر الأفعالِ مَقتًا عند اللّه تعالى؛ لِما فيه من هدر طاقاتِ الأفرادِ، ومجموعُها يؤدّي إلى هدر الطّاقاتِ الماليّةِ للأمّة، وهذا ينعكسُ سلبًا على كُلِّ طاقاتِ ومَكامنِ القوّةِ فيها، لذلك نجدُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 78.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 80.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 80.

هذا الوصفَ الفريدَ النّادرَ في القرآن الكريم، وهو التّحذيرُ مِنَ الطّبائع الشّيطانيّة.

دلالةُ عطف الجمل وغرضُه:

وصفُ بشاعة أفعال الشّيطانِ لتجنُّبها

عُطِفَت جملةُ ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا﴾ على جملة ﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ﴾؛ فالجملتان خبريّتان، مُختلفتان في المعنى، فلمّا كان الاقتصادُ أدعى إلى الشُّكر، والتّبذيرُ أقودَ إلى الكُفر، قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾؛ أي: هذا الجنسُ البعيدُ من كلِّ خيرٍ ﴿لِرَبِّهِۦ﴾؛ أي: الّذي أحسنَ إليه بإيجادِه وتربيته ﴿كَفُورٗا﴾؛ أي: سَتورًا لِما يَقدِرُ على سَترِه من آياتِه الظّاهرةِ، ونِعمِه الباهرةِ، مع الحُجَّةِ[1]، فاستحقّ هذا الوصفَ كونَهُ المخلوقَ المُتناهيَ في الكُفر، فَحَذَّرَتِ الآيةُ من بشاعة الشّيطانِ وبشاعة مُلازمتِه والاتّصافِ بصفاتِه.

تحذيرُ المُبذِّرين مِنَ الكُفر بربِّ العالَمين

وغرضُ جملة ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا﴾ التّحذيرُ الشّديدُ من أن يُفضيَ التّبذيرُ بصاحبِه إلى الكُفر تَدريجًا بسبب التّخلُّق بالطِّباع الشَّيطانيّةِ، ويجوزُ حَملُ الكُفرِ هنا على كُفرِ النِّعمةِ فيكونُ أقربَ دَرجاتٍ إلى حال التَّخلُّقِ بالتّبذير؛ لأنّ التّبذيرَ كفرٌ لنعمة اللّهِ بالمال، فالتَّخلُّقُ به يُفضي إلى التَّخلُّق والاعتياد لكُفران النِّعم، فإذا كانَ المُبذِّرُ مُؤاخيًا للشّيطان، وكان الشّيطانُ كَفورًا، فإنَّ المُبذِّرَ كَفورٌ بالمآل أو بالدّرجة القَريبة[2]، وفيها من وصف التّبذيرِ بما يؤدّي بالإنسان إلى كُفران النِّعمة، وما يؤدّي بعدَها إلى أكثر من ذلك.

نكتةُ استعمال لفظ الرّبوبيّة مُضافًا إلى الضّمير:

الشّيطانُ أسوأُ مثالٍ يُضرَبُ للإسراف

آثرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ لفظ الرّبوبيّةِ مُضافًا إلى الضّمير العائدِ على الشّيطان، فقال: ﴿لِرَبِّهِۦ﴾؛ أي: لربِّ الشّيطان، وهو اللّهُ ، وذلك لبيان سوء حالِ الشّيطانِ؛ إذ كان كفورًا بالرّبِّ الّذي خلقَه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/ 376.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 81.

وربّاهُ وتكفَّلَ له بالرّزق، ثمّ هو يكفرُ به أشدَّ الكفرِ، ويسعى للكُفر به، وتحريضِ خلقِه مِنَ النّاس على الكُفرِ به، وفيه تعريضٌ بالمُبذِّرين الّذين يَكفرون نعمَ اللّه تعالى عليهم، بأنَّهم على نهج الشّيطانِ.

نكتةُ تقديمِ المجرورِ على خبر كان:

الشَّيطانُ أكثرُ المَخلوقات جُرأةً على الكُفر

أفادَ تقديمُ المجرور ﴿لِرَبِّهِۦ﴾ على خبر كان ﴿كَفُورًا﴾ مُسارعةَ الشّيطانِ في الكُفر دون الاعتبارِ لعظيم شأنِ اللّهِ وفضلِه، لكنّ تكبُّرَ الشّيطان جَعَلَه أكثرَ المَخلوقات جرأةً على الكفر، وصار هو محورَهُ الدّاعيَ إليه.

دلالةُ التّعبير بصيغةِ المُبالغة:

الشّيطانُ مِثالُ الكفرِ، مُبتكِرٌ لفنونه وأساليبه

قولهُ ﴿كَفُورًا﴾ صيغةُ مبالغة؛ وهي اسمٌ مُشتَقٌّ مِنَ الفعل للدّلالة على معنى اسم الفاعل، وتدلُّ على تقويةِ المعنى وتوكيدِه، والمبالغةِ فيه، ووجهُ المُبالَغةِ في قوله: ﴿كَفُورًا﴾ أنّه ذَكَرَ الكُفرَ؛ ليدلَّ على أنّه صفةٌ مُتأصِّلةٌ فيه، وهو يَبتكرُ أساليبَه، ويوسوسُ للنّاس أفعالَ الكفر وأقوالَه.

﴿وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ٢٨﴾ [الإسراء: 28]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الأمر بما ينبغي فعلُه في حال العَوَزِ، بعد الأمر بما ينبغي في حالة الوُجْدان

لمّا أمر اللّهُ تعالى بما هو الأولى في حالة الوُجدان، مِنَ التّعامل مع أولئك المُستحقّين مِن ذوي القربى ومَن بعدهم، أمر بمثل ذلك حالةَ العدم، فقال مُؤكِّدًا تنبيهًا على أنَّه ينبغي أن يكون الإعراض عنهم في حيّز الاستبعاد والاستنكار: ﴿وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ﴾[1]، فلمّا علَّمنا اللّهُ تعالى ما نصنع في حالة الوُجد مِنَ الإيتاء لذوي القُربى واليتامى والمساكين، علَّمنا ما نصنع في حالة العَوَز؛ مِنَ الرَّد الجميل، والقول اللَّين الحَسَن[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُعۡرِضَنَّ﴾: أَصْلُ كَلِمَةِ الإِعْراضِ مِنَ العَرْضِ، وَهوَ الظُّهورُ والبُروزُ، يُقالُ: عَرَضَ الشَّيْءُ وَعَرِضَ يَعْرِضُ وَيَعْرَضُ عَرْضًا، أي: ظَهَرَ وَبرَزَ[3]، وَقيلَ: أَصْلُها مِنَ العَرْضِ، وَهوَ: خِلَافُ الطّولِ، يُقالُ: اعْتَرَضَ الطَّريقَ، إذا سارَ عَرْضًا، وَسُمّيَ الرَّفْضُ إعْراضًا؛ لأَنَّ الرّافِضَ أَظْهَرَ خِلَافَ الشَّيْءِ، أَوْ لأَنَّهُ كالواقِفِ عَرْضًا في وَجْهِ الشَّيْءِ[4]، والإعراض أيضًا: الصَّدُّ والتَّوَلّي والرَّفْضُ، تَقولُ: أَعْرَضَ عَنْهُ، أَي: صَدَّ وَتَوَلَّى عنهُ، والمُعْرِضُ: المُتَوَلّي، وَيُطْلَقُ الإِعْراضُ بِمَعْنَى: الانْصِرافِ عَنِ الشَّيْءِ بِالقَلْبِ، وَضِدُّ الإِعْراضِ: الإِقْبالُ والانْقيادُ والطّاعَةُ[5]، والمقصودُ بالإعراضِ في الآية: الصَّدُّ والتَّوَلّي والرَّفْضُ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 406.
(2) ابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 83.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عرض).
(4) الأزهري، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (عرض).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (عرض).

2) ﴿ٱبۡتِغَآءَ﴾: أصلُ (بَغَيَ): طَلَبُ الشَّيْءِ، تقول: ابْتَغَيْتُ الشَّيْءَ، وبَغَيْتُهُ، أَبْغيه بُغْيَةً وابْتِغاءً، أيْ: طَلَبْتُهُ[1]، والباغي: الَّذي يَطْلُبُ الشَّيْءَ الضّالَّ، وأَبْغاهُ الشَّيْءَ: طَلَبَهُ لَهُ وأعانَهُ على طَلَبِهِ[2]، وقيل: الابْتِغاءُ هو الاجْتِهادُ في الطَّلَبِ[3]، وأَصْلُه: الإرادَةُ والقَصْدُ، يُقالُ: ابْتَغَيتُ الأَجْرَ في عَمَلي، أي: قَصَدْتُهُ، ويأْتي بِمعنى الاتِّخاذ، تَقول: ابْتَغَيْتُ البَيْتَ سَكنًا لي، أيْ: اتَّخَذْتُهُ[4]، والمقصود بالابتِغاءِ في الآيةِ: الرَّغبةُ والطَّلَبُ.

3) ﴿تَرۡجُوهَا﴾: أصلُ الرَّجاءُ بالمدِّ: ضِدُّ اليَأْسِ، وهو التَّوَقُّعُ والأَمَلُ، وقيلَ: هو ظَنٌّ يَقْتضي حُصولَ ما فيهِ مَسَرَّةٌ، أو تَعَلُّقُ القَلْبِ بِحُصولِ مَحْبوبٍ مُسْتَقْبلًا[5]، يُقالُ: رَجا، يَرْجو، ورَجيَ يَرْجا، رَجاءً، وهمزَتُه مُنْقَلِبَةٌ عن واوٍ بِدليلِ ظُهورِها في رَجاوَةٍ[6]، والمرادُ بالرَّجاءِ في الآيةِ: ترقُّبُ الخَيرِ مع تغليبِ ظنِّ حُصوله.

4) ﴿مَّيۡسُورٗا﴾: أصلُ الكلِمَة يَدُلُّ على انْفِتاحِ شَيْءٍ وخِفَّتِه، فاليُسْرُ: ضِدُّ العُسْرِ والمَشَقَّةِ[7]، والتَّيسيرُ: التَّسْهيلُ، يُقال: يَسَّرَ الأَمْرَ، إذا سَهَّلَهُ ولَمْ يُعَسِّرْهُ، سواء على نَفْسِهِ أم على غَيْرِهِ، وهو مَأْخوذٌ مِنَ اليُسْرِ، أي: السَّهل، ومَعناه: اللّينُ والانْقيادُ، يُقالُ: رَجُلٌ يَسَرٌ ويَسَرٌ، أيْ: حَسَنُ الانقيادِ، والمَيْسورُ: ضِدُّ المَعْسورِ، وَقَدْ يَسَّرَه اللّه لليُسرى، أي: وفَّقَه لَها[8]، والمُرادُ بالقَولِ المَيسورِ في الآيةِ: اللَّيِّنُ الحَسَنُ المَقبولُ عندهُم[9].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الخِطابُ للنَّبيِّ ﷺ، ومِن وراء خطابه خطابُ أمَّته، والآية تأديبٌ كريمٌ، وتوجيه إلى ما يكون عندما لا يكون مالٌ يجب العطاء منه، أو عندما لا يكون موجب للعطاء، يقولُ تعالى: وإنْ تُعرِضْ - يا محمد ﷺ - عن إعطاءِ الأقارِبِ والمَساكينِ وأبناءِ السَّبيلِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بغي).
(2) الأزهري، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (بغي، بغا).
(3) الرّاغب، المفردات: (بغي)، والمناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 35.
(4) الخليل، العين، والفيروزابادي، القاموس المحيط، وابن منظور، لسان العرب: (بغا، بغي).
(5) الرّاغب، المفردات: (رجا)، والمناويّ، التوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 174.
(6) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (رجو، رجا).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (يسر).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (يسر).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 83.

تأديبُ الله تعالى لعباده إذا سألهم سائلٌ ما ليس عندهم

حُقوقَهم؛ لِقلَّةِ مالِك، وأنتَ تنتَظِرُ رِزقًا مِن عندِ ربِّك؛ تَرْجو أن يُيسِّرَه لك، فلا تُؤيِّسْهم مِن عَطائِك، ولا تُغلِظْ لهم القَولَ، وإنَّما قلْ لهم قَولًا حَسَنًا جميلًا، كالوعْدِ الجَميلِ بإعطائِهم، والدُّعاءِ لهم بالغِنى وسَعةِ الرِّزقِ[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ العطفِ ودلالتُه:

العطف إتمامًا للمعنى، وذلك بالأمر بميسور القول في حال الفقد

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ﴾ معطوف على قولِه: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الإسراء: 26]؛ مع ملاحظة محذوفٍ؛ يرشدُ إليه مضمونُ هذه الآية المعطوفة، والتّقدير: (وابن السبيل إن كان بيدك شيء، وإمّا تُعرضنَّ)، وأمّا آية: ﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ﴾ [الإسراء: 27]: فتعليلٌ لما قبلَها، واعتراضٌ بينها وبين هذه الآية، والمعنى: لا تقطع رجاءَ الفقير منك، بل إمّا أن تعطيَه إن كان معكَ شيءٌ، أو تردَّهُ بلُطف، كما كان مِن خُلُقه ﷺ، فكان إذا سُئِلَ أعطى أو وعد بالعطاء[2]، فعُطِفَ على قوله: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ﴾ [الإسراء: 26] لأنَّه من تمامه[3].

دلالة ﴿وَإِمَّا﴾ معنًى وتركيبًا:

توكيد الإعراض بتوكيد حاله أو توكيدِ موجِبه

﴿وَإِمَّا﴾ هي (إنْ) المُدغمة في (ما)، الواقعة بين (إنْ) وفعل الشّرط، وهي تُفيدُ توكيدَ الإعراض بتوكيد حاله أو توكيدِ موجِبه، ولذلك لحِق الفعلَ نونُ التَّوكيد الثَّقيلة، كما تكون عند القسم[4].

وفي إدغام (إن) في (ما) تنبيهٌ لطيف؛ على أنَّ هذا الإعراضَ إنّما ينبغي أن يكون قليلًا، وأنَّ على المُكلَّفِ أن يُباعِدَ بينَه وبينَ

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 569، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 249، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 69، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 3/ 86.
(2) الصّاويّ، حاشية الصّاويّ على تفسير الجلالين: 2/ 317.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 82.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4368.

الوقوعِ في هذا الإعراضِ؛ ما استطاعَ إلى ذلك سبيلًا؛ دعوةً له إلى الاستمرارِ في مقامِ الكمالِ والإحسانِ؛ الذي سبق طلبه في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾ [الإسراء: 23]؛ ويُصوِّرُ هذه الدّلالةَ الفَصْلُ الحاصلُ بين (ما) و (إنْ) والفعلِ ﴿تُعۡرِضَنَّ﴾، وهذا مِن دقائقِ البيانِ، ومِن دقتِه انسلالُه مِن حركة معنى سياقِ السّباق.

المُخاطَبُ بقولِه: ﴿وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ﴾، ودلالتُه:

توجيهُ الخطابِ إلى النبيِّ ﷺ؛ لكونه محلَّ القُدْوة

المقصودُ بالخِطاب النَّبيُّ ﷺ؛ لأنَّه على وِزان نظم قوله: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23]، فإنّ المواجهة بتعبير (ربّك) في القرآن جاءت غالبًا لخطاب النَّبيّ ﷺ، ويَعْدِلُهُ ما روي أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان إذا سأله أحدٌ مالًا ولم يكن عنده ما يعطيه، يُعْرِضُ عنه حياءً، فنبَّهَهُ اللّهُ إلى أدب أكمل مِنَ الذي تعهده مِن قبل، ويحصل من ذلك تعليمٌ لسائر الأُمَّة[1]، فالخطابُ للنَّبي ﷺ، ومن وراء خطابه خطابُ أُمّته، وهو تأديبٌ كريم، و توجيهٌ إلى ما يكون عندما لا يكون مالٌ يجب الإعطاء منه، أو عندما لا يكون موجبٌ للعطاء[2]، وتوجيه الخطاب إليه ﷺ من شأنه أن يتسبَّبَ في انفعالِ قلوب أُمّته بالمطلوب، فيكونُ منهم إسراعٌ وإتقانٌ في تحقيقِه؛ محبّةً ورضًا لتوجيهِ اللّهِ ﷻ.

معنى الإعراضِ بين الحقيقة والمجاز:

الإشارة إلى حيائه ﷺ وكَرَمِ نَفْسِه

في قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ﴾، الإعراض في الأصل إظهارُ العُرْضِ، أي: النّاحية، فمعنى: أعرض عنه، وَلَّى مُبديًا عُرْضَهُ، وقد يكون المُراد به هُنا حقيقتَه، بناءً على ما رويَ مِن أنَّه ﷺ كان إذا سُئِلَ شيئًا ليس عندَه صرفَ وجهه الشَّريفَ وسكت[3]، حياءً منه وبسبب

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 82.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4368.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 62.

عدم القُدرة على تلبية طلبه(1)، وقد يكون الإعراضُ مجازًا عن عدم النَّفع وتركِ الإعطاء؛ لأنَّ هذا شأن من لم يُعْطِ، فهو لازمٌ عُرفًا(2)، فعَدمُ النَّفعِ لازمٌ للإعراض؛ فيكون مجازًا مُرسلًا بعلاقة اللُّزوم، والمُراد بعدم النَّفع على هذا التّأويل: عدمُ القُدرة على النَّفع، لا بُخلًا بما عندَه بل انتفاءً لما يُعطيه، والقرينة عليه قولُه تعالى: ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾(3)، والحَملُ على المجازِ أوسعُ وأعلى مِنَ الحمل على الحقيقةِ؛ لأنّ انتفاءَ النّفع أعمُّ مِن أن يكونَ بحقيقة الإعراضِ حِسًّا، هذا كونُه أوسعَ، والحملُ على الأعمِّ في البيانِ القرآنيّ الخالد في كلِّ عصرٍ ومِصْرٍ وجِنْسٍ هو الأَوْلى؛ ما لم يَدْعُ داعٍ مُعتبَرٌ إلى الحملِ على الأخصِّ، ثمّ المُحْتفَلُ به هنا هو عدمُ النّفعِ وتركُ العطاءِ، كائنًا ما كانت صورتُه وطريقتُه؛ ليتسعَ المعنى القرآنيّ لكلِّ أحوال العِباد، فقد تكون بالإعراضِ الحِسيِّ، وقد تكون بصورٍ أخرى حِسيّةٍ أيضًا، وهذا بيانُ كونِه الأعلى.

نُكْتَةُ التَّعبير بالإعراض دونَ الإدبار:

الـتَّـوسُّـط بـيـنَ الإقـبـال المُطـمِع والإدبار المُوجِع

الإعراض: وسطٌ بينَ الإقبال والإدبار، والمراد: عدمُ الإعطاءِ ولكن برِفق، إذِ الإقبال مُطْمِعٌ، والإدبار موْجِعٌ، أمّا الإعراض معَ القول الحَسَنِ المَيسورِ فمُقنِع، فقد أمر اللّهُ بالإقبال على الآباء والقرابة والمساكين وأبناء السّبيل عند التّمكّن مِنَ العطاء، والقُدرة عليه، فإن كان عَجْزٌ عن ذلك جاز الإعراض، حتّى يرحم اللّهُ بما يُعاد عليهم به، فاجعل بدلَ العطاءِ قولًا فيه يُسرٌ(4)، فالتّعبيرُ بالإعراضِ توجيهٌ إلى ما ينبغي أن يكون في حالة انتفاء المساعدة بالعطاءِ، وهذا من واسعِ إحسانِ اللّه إلى المُعطي والمُعطَى معًا، ورحمتِه بهما.

(1) الطّنطاوي، التّفسير الوسيط: 8/ 333.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 253، والشِّهاب، عناية القاضي: 6/ 25.

(3) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 11/ 487.

(4) ابن العربي، أحكام القرآن: 3/ 1202.

مرجع الضَّمير في ﴿عَنۡهُمُ﴾، وعِلَّة إيثاره على الظَّاهر:

الضَّمير في ﴿عَنۡهُمُ﴾ عائدٌ على مَن تَقَدَّم ذِكْرُه مِن ذَوي القُربى والمساكين وبني السَّبيل، والأصلُ أن يُذْكَر الشَّيءُ بضميرِه بعد ذكرِه باسم ظاهرٍ، والآيةُ جرَت على هذا الأصلِ؛ إذ لا داعيَ للعدولِ عنه، فأمر اللّهُ تعالى نبيَّهُ في هذه الآية إذا سأله منهم أحدٌ، فلم يجد عنده ما يُعطيه، فقابله رسولُ اللّه ﷺ بالإعراض تأدُّبًا منه، في أن لا يَرُدَّهُ تصريحًا[1].

الاكتفاءُ بالإشارة إلى المَذكورين اختصارًا، ولِدَفْعِ تَوهُّمِ غيرِ المُرادِ

موقع لفظ ﴿ٱبۡتِغَآءَ﴾ الإعرابيّ ودلالتُه:

قوله: ﴿ٱبۡتِغَآءَ﴾ مفعول لأجله، وهو عِلَّةٌ مقدَّمةٌ على المعلول، والمعنى: وإمّا تُعرِضنَّ عنهم لأجل عُسْرِكَ، فقل لهم قولًا ميسورًا؛ اعتمادًا على اللّه، وطلبًا لرحمة مِن ربِّك ترجوها، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ الإنسان لا ينبغي له قطعُ رجائه مِنَ اللّه، بل يعتمد على اللّه دائمًا في عُسره ويُسره، فإنَّ الغِنى هو وُثوقُ القلبِ باللّه، فلا يعتمد على سبب مِنَ الأسباب، بل يتوكَّلُ على اللّه، ولا يقطع رجاءَه منه، ولا رجاءَ غيرِه فيه؛ ثقةً بربِّه[2].

الإشارة إلى أنَّ الإنسان لا ينبغي له قطعُ رجائه مِن خالقه

سِرُّ المجاز في التَّعبير بالابتغاء:

وُضِع الابتغاءُ موضعَ الفَقْد؛ لأنَّ فاقد الرِّزق مُبتغٍ له، فكان الفقد سببًا للابتغاء ومسبّبًا عنه، فوقع السَّبب - الذي هو الابتغاء - موضعَ المُسَبَّب الذي هو الفقد[3]، فهو مجاز مرسل بعلاقة السَّببيَّة، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ هذا علَّةُ الإعراض لانتظار الرّزق، لأنَّ فاقد المال يطلب رحمةَ اللّه وإحسانَه، فلمّا كان فَقْدُ المال سببًا لهذا الطَّلب، سُمِّيَ الفقرُ بابتغاء رحمةِ اللّه تعالى، والمعنى: أنّ عند حصول

الإشارة إلى أنَّ هذا الابتغاء عِلَّةُ الإعراض؛ تسبُّبًا عنِ الفقر وعدم الجِدَةِ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 450.
(2) الصّاويّ، حاشية الصاويّ على تفسير الجلالين: 2/ 317.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 407، وملّا حويش، تفسير القرآن العظيم: 2/ 478.

الفقر والقِلَّة، لا تترك تعهُّدَهم بالقول الجميل، والكلام الحسن، بل تَعَهّدْهم بالوعد الجميل[1]، ولا تنشغل بهذا الابتغاء، وفي اصطفاءِ الابتغاءِ: إشعارُ المخاطَبِ بفقره وعظيم احتياجِه للرّزق؛ مِمّا جعلَه يطلبُه بقوّةِ رغبةٍ وعظيمِ إقبالٍ؛ ليتذكَّرَ حالَ ذوي القُربى والمساكينِ وابنِ السبيل، فيُحتِّمَ على نفسِه إرضاءَهم وجبْرَ خواطرهم، ولو بالشّيءِ القليل مِنَ المال، ولو بالقول الميسور.

موقع الابتغاء من مُتَعلَّقات الشّرط والجواب:

لإفــادة عِـلّـيَّـةِ الإعــــراضِ، وإفــادةِ ابتغـاءِ رحمةِ الله، من خـلال الرَّحـمة بخَلْقه

قوله تعالى: ﴿ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ﴾ إمّا أن يتعلَّق بجواب الشَّرط مُقدَّمًا عليه، أي: فقل لهم قولًا سَهْلًا لينًا، وعِدْهم وَعْدًا جميلًا، رحمةً لهم، وتطييبًا لقلوبهم؛ ابتغاءَ رحمةٍ مِن ربِّك، فابتغِ رحمةَ اللّه التي ترجوها برحمتك عليهم، وإمّا أن يتعلَّق بالشَّرط؛ فيفيد عِلّيَّةَ الإعراضِ، أي: وإن أعرضت عنهم لفقد رزقٍ مِن ربِّك ترجو أن يُفتَحَ لك، فَردَّهم ردًّا جميلًا[2].

واستُشكِل جَعْلُ ﴿ٱبۡتِغَآءَ﴾ من متعلّقات الشّرط، بأنّا مأمورون بالرّدّ الجميل إنِ انتظرنا شيئًا يحصل لنا أو لم ننتظر، وأُجيبَ: بأنَّ المُراد بالقول الميسور الوعدُ بالعطاء عند رجاء حصول الخير؛ لأنَّه أطيبُ لنفس السّائل، فيكون مفادُ الآيةِ: لا تَعِدوا إلّا إذا كنتم على رجاءٍ مِن حصول ما تَعِدون به، فالتَّقييد بالابتغاء في غاية المُناسبة للشَّرط، لأنَّه لا يحسُن الوعدُ عند عدم الرّجاء؛ لما أنّه يؤدّي إلى الإخلاف[3].

دلالة التَّعبير عن الرِّزق بالرَّحمة مجازًا مرسلًا:

بيان كون الرِّزق الحَسَنِ من آثار الرَّحمة، وأنَّه نعمة إنْ قُوبلت بالشُّكر

الرَّحمة المَرجوَّة مِن اللّه: هي الرِّزق المُنْتَظَرُ من فضله ﷻ، والمعنى: وإن أعرضت عنهم لفقد رزقٍ مِن ربِّك ترجو أن يُفتَح لك،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 329.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 661.
(3) ابن جماعة، كشف المعاني: 232، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 62.

فسُمّيَ الرِّزق رحمة[1] مجازًا؛ لأنَّه مِن آثارها وهو مجازٌ مرسل؛ إقامةً للمُسبَّبِ مُقامَ السّبب؛ فإنّ الفَقْد سببٌ للابتغاء[2]، وهذا المَجازُ يَدُلُّ على أنَّ الرِّزق الحسن نعمةٌ إذا قوبلت بالشُّكر[3]، وفي اصطفاءِ الرّحمةِ: تليينٌ لقلبِ المُخاطَبِ، واستعطافٌ له؛ ليُحْسِنَ مع هؤلاء الأصناف إمّا بعدم الإعراض، وإمّا بالقول الميسور؛ بما فيه مِن تذكيرِه بافتقارِه إلى تلك الرّحمة الرّبّانيةِ؛ فهم كذلك يبتغون هذه الرّحمةَ مِن خلالِك، كسببٍ يسخِّرُه اللّهُ لهم.

سِرُّ إضافة الرّحمة إلى الرّبّ:

تقوية الرَّجاء في رحمة الله والصَّبر في تحصيلها

أُضيفت الرّحمةُ إلى الرّبّ في المعنى دون اللّفظ في هذا الموضع؛ لوجوه مِنَ المعنى:

الأوَّل: تقوية رجائه، فإنَّه يعلم سعةَ رحمةِ اللّه وغَمْرِه بها في كُلِّ حين، ومَن ذا الذي لم يجد نفحاتِ الرَّحمات في أكثر الأوقات، وفي أحرج السّاعات؟.

والثّاني: بعثه على الصَّبر والتَّسليم وعدمِ الضَّجر والسَّأم مِنَ الطَّلب والانتظار، فإنَّها رحمة الرَّبِّ، ومِن مقتضى ربوبيَّته تدبيرُه للخَلْق بحِكْمته، فما جاء منه، كيف جاء، وفي أيّ وقت جاء، أبطأ أم تأخّر، هو مقبولٌ منه محمودٌ منّا عليه.

والثّالث: بعثُ عاطفةِ الرَّحمة على غيره، فإنَّ من كان يرجو رحمةَ ربِّه جديرٌ بأن يكون رحيمًا بعباده، ورحمتُه بعباد اللّه تُعينه على القيام بما أُمِرَ به مِن حُسن المَقال عند العُسر، وجميل النَّوال عند اليسر؛ وتكون سببًا له في رحمة اللّه إيّاه، والرّاحمون يرحمُهم الرَّحمن، وإنَّما يرحم اللّه مِن عباده الرُّحماء[4].

---

(1) الشِّهاب، عناية القاضي: 6/ 25.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/ 422.

(3) ابن جزي، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 1/ 445، والخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 476.

(4) ابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 84.

سِرُّ تنكير ﴿رَحۡمَةٖ﴾:

الدّلالة على التّفخيم والتّعظيم لشأن هذه الرّحمة

جيءَ بالتّنوين والتّنكير في لفظ: ﴿رَحۡمَةٖ﴾؛ للدّلالة على التّفخيم والتّعظيم لشأن هذه الرّحمة؛ بقرينة إضافتها إلى الرّبِّ تعالى؛ لأنَّ كُلَّ ما جاء مِن الرَّبِّ العظيم فهو عظيم.

الموقع الإعرابيُّ لقوله: ﴿رَحۡمَةٖ﴾، ودلالتُه:

قولُه: ﴿رَحۡمَةٖ﴾ مضافٌ إلى: ﴿ٱبۡتِغَآءَ﴾، وهي موصوفٌ صفتُها محذوفةٌ، والتّقدير: (رحمةٍ كائنةٍ مِن ربّك)، والفَرقُ بينَ: ﴿رَحۡمَتِ رَبِّكَ﴾ [مريم: 2]، و﴿رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ﴾: أنّ الأوّل قد يُفْهِم أن هذه الرّحمة معهودة للمخاطَب، وهذا غير مراد، وأمّا: ﴿رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ﴾: فيَلْفِتُ إلى معنًى مِن شأنه أن يُحرِّكَ عاطفةَ الإحسان والإكرام في قلب المخاطَب تجاه ذوي القُربى ومَن ذُكِر معهم؛ وهو أن هذه الرّحمة لا تكون إلّا مِنَ الرّبّ ﷻ، ففي هذا النّظم: ﴿رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ﴾ تذكيرٌ بذلك؛ فينشأ عنه رِقّة القلب، ولِينُ المعاملة وحُسْنُها، وأمّا الإضافة اللّفظية في: ﴿رَحۡمَتِ رَبِّكَ﴾ [مريم: 2]: فتتضمّن أنّ هذه الرّحمةَ هي رحمة الرّبّ، ولا تكون إلّا منه، لكنّها لا تَلْفِتُ بقوّةٍ إلى هذا المعنى، كما يلفتُ إليه هذا النّظمُ: ﴿رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ﴾.

دلالة تقديم شبه الجملة ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ على ﴿تَرۡجُوهَا﴾:

الاهتمامُ بالمُقَدَّم، والتّشويقُ إلى المُؤَخَّر، وتوكيد المطلوب

في تقديم شبه الجملة: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ على جملة: ﴿تَرۡجُوهَا﴾ اهتمامٌ بالمُقَدَّم، فهو سبحانه مُنزلُ الرَّحمات، والمُتَفَضِّلُ على عباده بالأرزاق والهِبات، وفي تأخير فعل الرَّجاء تشويقٌ إليه بذِكره بعد عنوان الرُّبوبيَّة المُفضيَة إليه والمُرَغِّبة فيه؛ إشعارًا باشتياقِ ذوي القُربى ومَن ذُكِر معهم إلى فضلِ اللّه، مِن خلالِ المخاطب بالآية، وقد نتج عن هذا النّظم - تقديمًا وتأخيرًا - توسُّطُ ذِكرِ الرّبِّ ﷻ بين الرّحمة والرّجاء، فيُقرّر النّظمُ ويؤكّدُ مصدريَّةَ الرّحمةِ والرّجاءِ، وأنّهما مِن قِبَلِ اللّه تعالى؛ إبلاغًا في طلبِ الإحسان مِنَ المخاطَب في

معاملة هذه الأصنافِ بعدم الإعراض، أو بالقول الميسور، ولمّا قُدِّم: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ أفاد بالانضمام إلى الرّحمة: ﴿رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ﴾ أنّ هذه الرّحمة كائنةٌ مِنَ اللّه، ومِثْلُ رحمةِ اللّه هي التي تُرْجَى، فتأخَّر قولُه: ﴿تَرۡجُوهَا﴾؛ ليكون كالنّتيجة لما قبلَه؛ فيكون في ذلك تعليلٌ لطلب الرّفق والإحسان في معاملة هؤلاء الأصناف؛ فإنّهم يرجون رحمةَ اللّهِ منه فيكَ أيّها المخاطَب، ومِن خلالك، أو يكون المعنى: عليهم أن يَرجوا هذه الرّحمة مِنَ اللّه أوّلًا، ثمّ مِن خلالك كسببٍ ثانيًا.

سِرُّ التَّعبير بمفردةِ الرَّجاء:

السّعي إلى تحصيل الرّزق بالأسباب، وتجديدُ تَعليقِ القلب بالله

آثَر النَّظمُ مفردةَ الرَّجاءِ في قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا﴾ لمناسبة معاني السّياق؛ فإنَّ سبب الإعراضِ هو فَقْدُ الرّزق؛ ممّا ترتّب عليه ابتغاؤه، فالسّياقُ سياقُ سعيٍ؛ للحصولِ عليه بالأسبابِ، فهوفي دائرة الممكن، والشّيءُ المَرجوّ متوقَّعٌ ومأمولٌ، قال ابن منظور: "الرّجاء مِنَ الأمل، نقيض اليأس"[(1)]، وقال الرّاغب: "والرّجاء ظَنٌّ يقتضي حصولَ ما فيه مَسرّة"[(2)]، والطّمعُ قائم على كون الشّيء المطلوب غيرَ متوقَّعٍ؛ لكون الطّالب عادِمًا السّببَ المُؤدّي إليه، أو أنّ لديه السّببَ، لكنّه لا ينظر إليه ولا يعتبره ولا يعتدّ به، قال البقاعيُّ: "والطّمع تعلّقُ البالِ بالشّيء، من غير تقدّم سببٍ له"[(3)]، والطّمع ليس مرادفًا للرّجاء؛ لأنّ لكلّ منهما خاصيّة تُميّزُه عن غيره، فالشّيء الذي يُطمَع فيه قد يكون حصولُه متوقَّعا وقريبًا، ولهذا قالوا: إنّه يُستعمَل بمعنى الأمل، وقد لا يكون كذلك، ولهذا قالوا: "ومِن كلامهم: طَمِعَ في غير مطمَع، إذا أَمّل ما يبعُد حصولُه؛ لأنّه قد يقع كلّ واحد موقعَ الآخَرِ؛ لتقارب المعنى"[(4)].

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: (رجا).

(2) الرّاغب، المفردات: (رجا).

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/ 485.

(4) الفيوميّ، المصباح المنير: (طمع).

نُكْتَةُ التّعبيرِ بفعل الرَّجاءِ مُضارِعًا:

دَيمومَةُ الرَّجاءِ دليلُ ثباتِ الإيمانِ ونفي الخُذلان

جاء التَّعبيرُ بصيغةِ المضارع ﴿تَرۡجُوهَا﴾؛ للإيماءِ إلى أنّ الإنسان ينبغي أن يُجدِّد تعليقَ قلبِه بربِّه طمعًا في فضله، ويستمرَّ على هذا في سائر أحواله، فلا ينبغي له قطعُ رجائِه مِنَ اللّه، بل يعتمد على اللّه دائمًا في عُسْره ويُسْره، فإنَّ الغنى هو وُثوقُ القلبِ باللّه، فلا يَعتمِد على سبب مِنَ الأسباب، بل يتوكّلُ على اللّه، ولا يقطع رجاءَه منه، ولا رجاءَ غيره فيه؛ ثقةً بربِّه[1].

دلالة التَّعبير باسم الرَّب دون غيره:

تربيةُ المهابةِ في القلوب، وتقريرُ عَظَمةِ صفاتِ الرّبِّ وأفعالِه

في التّعرُّض لعنوان الرُّبوبيَّة، المُنبِئَة عن حُسْن التَّربية والإنعام، وتعاهُدِ العَبد بالتَّفضُّل والإكرام، تربيةٌ للمهابة في القلوب، وتقريرٌ لعَظَمة صفاتِ الرَّبِّ وأفعالِه سبحانه، فهو الرّازق الخالق المُدَبِّر، لا رَبَّ سواه، ولا إلهَ إلّا إيّاه، وفي خصوصِ التّعبيرِ به أيضًا: اللّفت إلى أنّه تعالى المُحْسِنُ الأوّلُ، والمُحسنُ الحقيقيُّ، ومن إحسانه أن تُحْسِنَ إلى ذوي القُربى ومَن معهم؛ لأنّه مصدرُ كلِّ إحسانٍ ﷻ، فيُقبِلُ المُخاطَبُ على الإحسان إليهم، باذلًا كلَّ ما يملك؛ في سبيل إرضاء ربّه المُحسنِ سبحانه.

سِرُّ الإضافة إلى ضمير الرَّسول ﷺ:

تشريف النَّبيّ ﷺ، وإظهار اللُّطف به

في إضافة الرّبّ إلى ضميره ﷺ مزيدُ تشريفٍ له عليه السلام، وإظهار لِلُّطف به ﷺ؛ لأنّ الرّسول كان يسكت عن إجابة الطّالب حياءً؛ فَسَرَّه اللّهُ وتلطَّفَ معه في الخطابِ في هذا السّياق؛ بتذكيره بإحسانه إليه، وأنّه ﷺ محلُّ الإحسان العظيم من ربّه، وفي هذه الإضافة أيضًا: إرشادٌ له ﷺ إلى أن يترقّى في باب الإحسان والإنعام المُشارِ إليه بالتّعبير بالرّبِّ؛ لأنّ السّورة سورةُ الإحسان، ولأنّه الأهلُ للمعيّة المَذكورةِ في مقطع سورة النّحل بعد أمره بالصّبر، ونهيه عنِ الحُزن

(1) الصّاوي، حاشية الصّاويّ على تفسير الجلالين: 2/ 317.

والضّيق: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾ [النحل: 128]، وعلى أُمّته التّأسي به في طلب الدّخول في زمرة المتّقين المحسنين.

براعة إدماج الأغراض مِن ضروب الإيجاز القرآنيّ:

بيانُ شَرطَي الإعراض أن يكون لابتغاء الرّزق، وأن يكون بقولٍ ليّنٍ لطيف

شُرِطَ الإعراضُ بشرطين: أن يكون إعراضًا لابتغاء رزقٍ مِنَ اللّه، أي: إعراضًا لعدم الجِدَة، لا إعراضًا لبخل عنهم، وأن يكون معه قولٌ ليّن في الاعتذار، وعُلِمَ من قوله: ﴿ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ﴾ أنَّه اعتذار صادق، وليس تَعَلُّلًا، فقوله: ﴿ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ﴾ حالٌ مِن ضمير ﴿تُعۡرِضَنَّ﴾ مصدر بالوصف، أي: مُبتغيًا رحمةً من ربِّك، و﴿تَرۡجُوهَا﴾ صفة لـ ﴿رَحۡمَةٖ﴾، والرَّحمة هُنا هي الرِّزقُ الذي يتأتَّى منه العطاءُ بقرينة السّياق، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الرِّزق سَبَبٌ للرَّحمة؛ لأنَّه إذا أعطاه مُستَحِقَّه أُثيبَ عليه، وهذا إدماج[1]، فَسَمَّى الرِّزق رحمة، ووضع الابتغاء موضع الفقد؛ لأنَّ فاقد الرِّزق مُبتغٍ له[2]، وهو كناية عن حالة العَوز والإعسار؛ لأنَّ شأن المُعْوِزِ المؤمنِ أن يكون كذلك[3]، وهذا الإدماج ضَربٌ مِن ضروبِ الإيجاز القرآنيّ.

مِن فوائد جواب الشَّرط:

تأديب المؤمن بإحسان القول في حال الفَقد

يدلُّ المعنى الظّاهر لجوابِ الشّرط: ﴿فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا﴾ ما هو تأديبٌ للمؤمن إن كان فاقدًا ما يبلغ به إلى فعلَ الخير؛ بأن يرجو مِنَ اللّه تيسيرَ أسبابه، وألّا يَحمِلَه الشُّحُّ على السُّرور بفقد الرِّزق للرّاحة مِنَ البذل، بحيثُ لا يَعْدَم البذلَ الآن إلّا وهو راجٍ أن يُسَهّل له في المستقبل؛ حرصًا على فضيلته، وأنّه لا ينبغي أن يُعْرِض عن ذي القربى والمسكين وابن السبيل إلّا في حال رجاء حصولِ نعمةٍ، فإن حصلت أعطاهم[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 83.
(2) النّيسابوري، غرائب القرآن: 4/ 343.
(3) ابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 83.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 83.

دلالة الأمر بالقول في: ﴿فَقُل لَّهُمۡ﴾:

الـنَّـهـي عـن الإعراض المُورِّثِ لـلـدَّهـشـة والوَحْشَةِ

قوله تعالى: ﴿فَقُل لَّهُمۡ﴾ الأمر بالقول هُنا مُستلزِمٌ لعدم الإعراض، والمعنى: وإن أردتَ الإعراض عنهم حياءً مِنَ الرَّدِّ - أي: رَدِّ السّائل - فلا تفعل الإعراضَ لأنَّه يورِث الدَّهشةَ و الوحشة، بل قل لهم قولًا لينًا جميلًا[1]، وفي هذا مِنَ الإيجاز ما فيه، وبه يتحَقّق الرّبطُ بين جُزئي الآية؛ مِن توكيد الثّاني للأوّل.

فائدةُ الإرشاد إلى القول الميسور:

بيانُ أنَّ القول الجميل يَسُدُّ مَسَدَّ العطاء الجميل عند تَعذُّرِه

من لطائف الإشارة في الآية كونها تُشيرُ إلى خُلُق الكَرَم فيه ﷺ، فهي تُشير إلى أنَّه ﷺ لا يُعْرِض عنِ الإعطاء إلّا عند عدم ما يُعطي منه، وأنَّ الرِّزق المنتظرَ إذا يَسَّره اللّهُ فإنَّه يُعطيهم منه، ولا يُعْرِضُ عنهم، وهذا هو غاية الجود وكَرم الأخلاق[2]، ويستوي في هذا كونُ القولِ الميسور وعدًا بالعطاء؛ إذا تيسَّرَ، وكونُه غيرَ ذلك.

عِلَّةُ وصفِ القولِ بالميسور دونَ (المعروف):

إيناسُ المحتاج؛ لمَا به مِن وَحْشةِ الاحتياج

في تفسير القول الميسور في هذا الموضع وجوه:

الأوّل: أنَّه الرَّدُّ بالطَّريق الأحسن، **والثّاني**: أنَّه القول اللّين السَّهلُ، قال الكسائيُّ: "يسرت أُيْسِر له القولَ، أي: لَيَّنتُه له"، **والثّالث**: أنَّ القول الميسور مثلُ قولِه: ﴿۞قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ﴾ [البقرة: 263] قالوا: والميسور هو المعروف؛ لأن القول المُتعارَف لا يُحْوِجُ إلى تكلّف، فهو يسير[3]، وقيل: القول الميسور الدّعاء لهم بالميسور، وهو اليُسر، مثل: أغناكم اللّه تعالى، ورزقنا اللّه وإيّاكم[4]، فالمعنى: ادعُ لهم بأن يُسَهّل اللّهُ عليهم أسبابَ الرّزق، أي: دعاءً فيه

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/ 487.
(2) الشّنقيطي، أضواء البيان: 3/ 365.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 329.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 253

يُسْرَة[1]، أو: أنَّه يُيسّر عليهم فقرَهم بدعائه لهم[2]، والظّاهر شُمولُ القولِ الميسور لكلِّ هذه المعاني، فيُؤْنِسُه بالقول الميسور، وهو الذي فيه التَّرجية بفضل اللّه تعالى، والتَّأنيسُ بالميعاد الحَسَن، والدُّعاءُ بِتَوْسِعَةِ اللّه ﷻ، وعطائه[3].

لطيفةٌ في التَّنبيه بالأدنى على الأعلى:

التَّنبيه على لُزوم الفعل الأجمل بالأمر بالقول الميسور

إنّك أيّها الإنسانُ، إن أمسكت لضيق ذات يدك عن أن تُؤدّيَ حَقّ ذي القُربى والمساكين وابن السَّبيل، مُنتظرًا رزقًا وسعةً في الرِّزق مِنَ اللّه، فلا يمنعنَّكَ هذا مِن أن تُحسن إليهم بالكلمة الطَّيِّبة[4]، وهذا أقلُّ ما يُحْمَلُ عليه القولُ الميسورُ في قوله تعالى: ﴿فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا﴾.

سِرُّ الاستعارة في التَّعبير بالميسور بدلَ المَقبول:

تصوير القول المقبول بالشَّيء اللَّيِّنِ لسُهولته

القول الميسور هو اللَّيِّنُ الحَسَن المقبول عندهم؛ فقد شبَّه المقبولَ بالمَيسور في قبول النَّفس إيّاه؛ لأنَّ غير المقبول عسيرٌ، بطريق الاستعارة التَّصريحيّة التَّبعيَّة، فأمر اللّهُ بإرفاق عدم الإعطاء لعدم المَوْجَدَة، بقول ليِّن حَسَنٍ بالاعتذار والوعد عند المَوْجَدَة، لئلّا يُحْمَلَ الإعراضُ على قِلّة الاكتراث والشُّحِّ[5].

دلالة صيغة (مفعول) في ﴿مَّيۡسُورٗا﴾:

جَعْلُ القولِ ميسورًا؛ لطفًا بالمُحتاجين

والميسور: اسم مفعول مِنَ اليُسر، وهو السُّهولة، وفعله مبنيٌّ لما لم يُسَمَّ فاعلُه، يُقال: يُسِرَ الأمرُ - بضم الياء وكسر السّين - كما يقال: سُعِدَ الرَّجلُ ونُحِسَ، والمعنى: جُعِلَ يَسيرًا غيرَ عسير[6]، واسم المفعول يأخذ حكمَ الفعل الماضي، فهو يدلُّ على وقوع الفعل على

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/ 343.
(2) خواجة الأنصاريّ، كشف الأسرار: 5/ 545.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 450، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 6/ 456.
(4) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 476.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 83.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 83.

المفعول في الزّمان الماضي، قال الطّوفيُّ: "ومِن لواحق ذلك: العدولُ عنِ المستقبل إلى اسم المفعول؛ لِتَضَمُّنِه معنى الماضي"، والمخاطَبُ مأمورٌ بأن يقول هذا القول الميسور، فهو لمّا يقَع، ووقوعُه سيكونُ في المستقبلِ؛ بالنّسبة لزمان الخطاب، فكان التّعبيرُ بصيغة: (مفعول) على خِلافِ الأصل والظّاهر؛ دلالةً على ضرورةِ تحقُّق كينونةِ هذا القولِ الميسورِ؛ لأن حالَ ذوي القُربى والمساكين وابن السبيل يقتضيه.

وقيل: الميسور مصدر، وجُعِلَ صفةً مبالغةً، أو بتقدير مُضاف، أي: قولًا "ذا يُسْرٍ؛ يشرحُ صُدورَهم، ويبسطُ رجاءَهم؛ لأنَّ ذلك أقربُ إلى طريق المتَّقين المحسنين"[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الصَّدُّ والإعراض:

الصَّدُّ هو العدول عن الشَّيء بقصد المنع، والإعراضُ مُجرَّدُ الإضرابِ عنِ الشَّيء

الصَّدُّ: هو المنْع عن قصد الشَّيءِ خاصَّة، ولهذا قالَ اللّه تعالى: ﴿وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [الأنفال: 34] أي: يمنعون النّاسَ عن قصده[2].

والإعراضُ: الإضراب عنِ الشَّيء، يُقال: أخذتُ عُرْضًا، أي: جانبًا غيرَ الجانبِ الذي هو فيه[3].

ويأتي الصَّدُّ بمعنى الإعراض، من ذلك قوله تعالى: ﴿رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ٦١﴾ [النِّساء: 61]، فالصَّدُّ: هو العدول عن الشَّيء بقصد الصَّرْف والمنْعِ، والإعراضُ أعمُّ[4].

الطَّمَعُ وَالرَّجَاءُ وَالأَمَل:

الطَّمع رجاء قويٌّ متضمِّنٌ لمعنى الحِرص، والأمل يتميَّز بِمَلْمَحِ طُولِ الزَّمن وبُعْدِ المطلوب

حاصل كلامِ اللُّغويّين: أنَّ بين الألفاظ الثَّلاثة تقاربًا دلاليًّا؛ إذ جميعُها دالٌّ على توقُّع الخَيْر، إلّا أنَّ الأمل يتميَّز بمَلْمَح طولِ الزَّمن

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 406.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 114.
(3) المناويّ، التّوقيف، ص: 56.
(4) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 28.

وبعد المطلوب؛ لأنَّ أصل مادَّته دالَّة على التَّثبُّت والانتظار[1]، كما أنَّ الأملَ يغلبُ عليه الفألُ الحَسَنُ، والتَّأمّلُ هو التَّثبُّت، وأمَلَةُ الرَّجلِ: أعوانه[2]، وسُمّوا أمَلَةً؛ لأنَّه بهم يحصلُ الخيرُ ويثبت، أمّا الرَّجاءُ فقد يَرِدُ لمعانٍ تُبعده عن نظيرَيْه - الطَّمع والأمل -، كمجيئه في معنى الخوف والمبالاة، كما في قول اللّه تعالى: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣﴾ [نوح: 13] أي: لا تخافون للّهِ تعالَى عَظَمَةً[3]، وهو ظَنٌّ "يقتضي حصولَ ما فيه مَسَرّة"[4]، وبهذا يتقارب مع الأمل، إذ كلاهما فيه مَسَرَّةٌ وفألٌ، إلّا أنَّ الأمل معذوقٌ بمعنى التَّثبت، وأمّا الطَّمع فيتميَّز بقوَّة الرَّغبة، وقربِ المطلوب والحرصِ عليه[5]، فالطَّمع: رجاء قويٌّ مُتَضَمِّنٌ لمعنى الحرص، ويغلبُ في الاستعمالِ أن يكون فيما لا خيرَ فيه، ولهذا ورد عن عمر رضي الله عنه أنَّه قال: "تعلَّمُنَّ أَن الطّمعَ فَقْرٌ، وَأَنَّ اليأْس غنًى"، ولهذا قيل في الطَّمع: "تَعَلّقُ البالِ بالشّيء من غير تقدّم سببٍ له"[6]، وَيُقال: ما أطمع فلانًا، على التَّعَجُّب من طَمَعه[7].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أمل).
(2) الأزهري، تهذيب اللّغة: (أمل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رجو).
(4) الرّاغب، المفردات: (رجا).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (طمع)، ومحمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 71 - 74.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/ 485.
(7) الأزهري، تهذيب اللّغة: (طمع).

﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ۝٢٩﴾ [الإسراء: 29]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التَّصريح بأدب الإنفاق بعد ذِكْرِ أدب المَنْع

لمّا أمر الحقُّ ﷻ بالجود الذي هو لازم الكرم، نهى عنِ البُخل الذي هو لازم اللّوم، في سياقٍ يُنفّر منه ومنَ الإسراف، فقال ممثلًا بادئًا بمثال الشّحّ: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ﴾[1].

وأيضًا: لمّا ذكر أدبَ المنع ونهى عنِ التَّبذير، صَرّح بأدب الإنفاق فقال: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَغۡلُولَةً﴾: أصلُ الكلمَة يدلُّ على تَخَلُّلِ شَيْءٍ، وثَباتِ شَيْءٍ، كالشَّيْءِ يُغْرَزُ، مِن ذلكَ قَولُ العَربِ: غَلَلْتُ الشَّيْءَ في الشَّيْءِ، إذا أَثْبَتَّهُ فيه، كأنّكَ غَرَزْتَهُ[3]؛ ومنه سُمّي الحِقدُ غِلًّا؛ لأنَّ الحِقْدَ يَتَخلَّلُ الصَّدْرَ[4]، والغُلَّةُ والغَليلُ: ما يتدرّعُه الإنسانُ في داخله منَ العَطش، ومن شِدّة الوَجد والغيظ، والغَلَّةُ: ما يتناوله الإنسان من دَخْل أرضه[5]، والغُلُّ: البُخلُ، ومنه قيلَ للبَخيل: هو مَغْلولُ اليدِ، أَي: كأنَّها مَمْنوعَةٌ مَجْعولٌ فيها غُلٌّ، وهو الحَديدَةُ الَّتي تَجْمَعُ يَدَ الأَسيرِ إلى عُنقه[6]، والمقصود بالغُلِّ في الآية: وَصْفٌ بِالبُخلِ في العَطاءِ، والمُراد به: النَّهي عَنِ البُخْلِ المُقابِلِ للتَّبذيرِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 407.
(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/ 344.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غل).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب: (غل).
(5) الرّاغب، المفردات: (غل).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (غل).

2) ﴿مَلُومًا﴾: أصلُ (لَوَمَ): يَدُلُّ على العَتْبِ والعَذْلِ، فاللَّوْمُ، وهو العَذْلُ[1]، تقولُ: لامَهُ على كذا لَوْمًا ولَوْمَةً، فهو مَلومٌ ومليم؛ إذا أَتى ذَنْبًا يُلامُ عليه، قالَ اللّه تعالَى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ١٤٢﴾ [الصّافات: 142]، والتَّلاوُمُ: أن يَلوم بعضُهم بعضًا، قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ٣٠﴾ [القلم: 30][2]، واللّائِمَةُ: الأمرُ الَّذي يُلامُ عليه الإنسانُ[3]، والمُرادُ بالمَلومِ في الآيةِ: الَّذي يُنكَرُ عليه ما فَعَلَهُ.

3) ﴿مَّحْسُورًا﴾: أصلُ (حَسَرَ): أَصْلٌ واحِدٌ، وهو مِنْ كَشْفِ الشَّيْءِ، يُقالُ: حَسَرْتُ عنِ الذِّراعِ، أَي: كَشَفْتَهُ، والحاسِرُ: الَّذي لا دِرْعَ عليهِ ولا مِغْفَرَ[4]، ومِنَ البابِ الحَسْرَةُ، وهي التَّلَهُّفُ على الشَّيْءِ الفائِتِ، ومنه أيضًا: الحَسْرُ: الإعْياءُ والتَّعَبُ، يُقالُ: بَعيرٌ حَسيرٌ، إذا أَتْعَبَهُ السَّيْرُ فَلَمْ تَبْقَ لَهُ قوَّةٌ[5]، والمَحْسورُ: الَّذي يُعطي كُلَّ ما عِنْدَه حَتّى يَبْقَى لا شَيْءَ عِنْدَه[6]، وَحَسَرَ البَصَرُ: إذا كَلَّ، وَهوَ حَسيرٌ؛ وذلك انكِشافُ حالِهِ في قِلَّةِ بَصَرِهِ وضَعْفِهِ[7]، والمقصودُ بالمَحْسورِ في الآيةِ: المُنقَطِعُ عنِ النَّفَقةِ والتّصرُّف؛ لِذَهابِ ما يَقوى به، وانحِسارِه عنه.

المَعْنى الإِجْماليُّ:

الأمرُ بالتَّوسط والاعتدال في الإنفاق، والنَّهيُ عنِ البُخل والإسراف

يرشدُ اللّهُ تعالى عبادَه إلى كيفيةِ إنفاقِ أموالِهم، والتَّصرّفِ فيها، وأفضلِ الطُّرقِ في ذلك، فيقولُ سبحانه: ولا تُمسكْ يَدَكَ بُخلًا عنِ النَّفَقةِ في الخيرِ كُلَّ الإمساكِ، وكأنَّها مُقيَّدةٌ إلى عُنُقك، فلا تستطيعُ أن تَمُدَّها لتُعطيَ أحدًا شيئًا مِنَ الخيرِ، ولا تَبسُطْ يدَكَ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لوم).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (لوم).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (لوم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسر).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (حسر).
(6) الزّبيديّ، تاج العروس: (حسر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (حسر).

بالعَطاءِ والإنفاقِ كُلَّ البَسطِ، فتُنفِقَ فَوقَ طاقتِك، وتبقَى بلا مالٍ لَدَيك، فتَبقى ملومًا عندَ اللّه تعالى، وعندَ النّاس، وعندَ نَفسِك، مُنقَطِعًا، لا شيءَ لديك لتُنفِقَه، عاجزًا عن إقامةِ شُؤونِك، فعليكَ أن تكونَ وسطًا بينَ الإفراط والتَّفريط، مُتَّصِفًا بصفاتِ عِباد الرَّحمن، الَّذين قال اللّهُ فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧﴾ [الفرقان: 67][1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

ارتباط جملة: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ﴾ في السّباق:

الاشتمال على زيادة بيان شأن التَّبذير، مع الاهتمام بمضمون معناها

في هذه الجملة الكريمة عودٌ إلى بيان التَّبذير والشُّحّ، فالجملة عطفٌ على جملة ﴿وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ٢٦﴾ [الإسراء: 26]، ولولا تخلُّل الفصل بينهما بقوله: ﴿وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ﴾ الآية، لكانت جملة: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ غير مقترنة بواو العطف على الأصل؛ لأنَّ شأن البيان ألّا يعطفَ على المُبيَّن، على أنَّ في عطفها عليها مع هذا الفاصل اهتمامًا بها، يجعلها مُستقلّةً بالقَصد؛ لأنَّها مشتملةٌ على زيادة في البيان، بما فيها مِنَ النَّهي عنِ البُخل المُقابل للتَّبذير[2].

غرضُ النَّهي وبلاغتُه:

النَّهي عن جانبي الإفراط والتَّفريط

معنى النَّهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا﴾، نهيٌّ عنِ البُخل بأبلغ تعبير[3]، حيثُ جاء النَّهيُ الجازمُ على وجهٍ استغرق شَطرَي القسمة، الجفاءَ والغُلوَّ، النَّقصَ بالغلِّ والزّيادةَ بالبَسْطِ كُلَّ البَسط، والمُراد: النَّهيُ للإنسان أنْ يُمسكَ إمساكًا يصير به مُضَيِّقا على نفسه وعلى

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 573، والواحديّ، التّفسير البسيط: 13/ 317، والبغويّ، معالم التّنزيل: 3/ 131، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 70، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 5/ 750.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 84.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4369.

أهله، وأن يوسِّعَ في الإنفاق توسيعًا لا حاجةَ إليه، بحيث يكون به مُسرِفًا، فهو نهي عن جانبي الإفراط والتَّفريط، ويحصل من ذلك مشروعيَّةُ التَّوسط، وهو العدلُ الذي ندب اللّهُ إليه[1]، فالنّهيُ عن البُخل والإسراف يستلزمُه الأمرُ بالتَّوسط والاعتدال، ويظهر حُسْنُ النّهي هنا بتجسيد المعقول في صورة المَحسوس، لما في تصوير الأمور المعقولة في صورة حِسّيّة مِنَ الإيضاح والبيان[2].

فائدةُ العُدولِ عن خطاب المجموعِ إلى خطابِ الواحد:

توجيهُ الخِطابِ لـلـفـردِ الأعـلـى لتكونَ الأُمَّة على سُنَّته الأعلى

ظاهرُ الخطابِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ للنَّبيِّ ﷺ، والمُراد أُمَّتُه، ولم يقل: (ولا تجعلوا أيديكم)؛ لمجموعةٍ مِنَ الفوائد التّربويّة، والمَزايا البلاغيَّة:

الأولى: لمّا كان النَّبيُّ ﷺ سيِّدَ الأُمَّةِ وواسطتَها إلى ربِّهم، جاء الخطابُ له، فعَبَّر به عنهم، على عادة العرب في ذلك[3]، فهو نَهيٌ يتناول كُلَّ مُكَلَّف.

الثّانية: وُجِّه الخِطابُ للنَّبيّ صلَّى اللّه عليه وآله وسلَّم تعريفًا للأُمَّة وإرشادًا لها، وإنْ كان الخطاب لكلِّ مَن يصلح له مِنَ المكلَّفين[4]؛ فالخطابُ خطاب مواجهة.

الثّالثة: توجيهُ الخطابِ لكلِّ فَردٍ وَحدَه كأنَّه المُخاطَب دون سِواه؛ لما في هذا الأمرِ مِن رسوخٍ في النَّفسِ، ولأهميَّةِ الامتثالِ لمضمون الخطاب.

الرّابعة: ما فيه مِنَ التَّعريض بالبُخلاءِ؛ فإنَّ النّاس جميعًا يعلمون أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان سيِّدَ الكُرماءِ، وإمامَ الأجواد، فكان توجيهُ

---

(1) القنوجي، نيل المرام من تفسير آيات الأحكام، ص: 365.

(2) السّيوطي، معترك الأقران: 1/ 211.

(3) ابن العربي، أحكام القرآن: 3/ 192.

(4) القنوجي، نيل المرام من تفسير آيات الأحكام، ص: 365.

الخِطابِ له - والمراد غيره - تعريضًا لطيفًا، لعلَّ البخيلَ الشَّحيح يرعوي عن مسلكِه ويتركُ إمساكَه.

الخامسة: في هذا العدولِ مجازٌ بديعٌ، واتِّساعٌ تربويٌّ فريد، له مِنَ القيم الهِدائيَّة، والإرشادات التَّربويّة الخيرُ الوفير، فإنَّ خطابَ الواحد وإرادةَ المجموعِ مجازٌ لم يعهده النّاسُ، لما فيه مِن قيَمٍ شرعيَّة، ووصايا إلَهيَّة.

السّادسة: في خطابِ الواحد وإرادةِ المجموع تعليمٌ للنّاس، بأنَّ مَن لم يستمسك بمضمون الخطابِ فليس بمتَّبعٍ لسُنَّة المُخاطَب، وذلك أنَّ الخطابَ وُجِّه للنَّبيِّ ﷺ، ويقينًا أنَّه ممتثلٌ له، فمَن أراد سُنَّته فعليه بسُنَّته في ذلك.

احتمالُ الكناية والاستعارة التَّمثيليّةِ ثراءٌ للصّورة وتَجَلٍّ للمَشهدِ

براعة تصويرِ المعاني بأساليب البيان:

استعمالُ اليد في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا﴾ له وجهان في البلاغة:

الوجه الأوّل: أن يكون ذلك كنايةً عنِ البُخْل والتَّبذير، فالكلام الأوّل كنايةٌ عنِ التّقتير، والكلامُ الآخَرُ كنايةٌ عنِ التّبذير، وكلاهما مَذموم، حتّى يقفَ كلُّ منهما عند حدِّه، ولا يجرى إلّا إلى أَمَدِه، وقد فَسّرَ هذا قولُه سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ۝٦٧﴾ [الفرقان: 67](1)، فإنَّ الكنايةَ هنا حاصلةٌ، واحتمال المعنى الحقيقيّ قائمٌ، إذ إنَّ إمساك اليدِ عنِ الإنفاقِ بُخْلٌ، كما أنَّ بَسْطَها تبذيرٌ، وإنَّما كانتِ الكناية باليدِ لكثرة استعمالِها في النَّفقة، والعربُ تصِفُ البَخيل بضيق اليدِ، فيقولون: فلانٌ ضيِّقُ الكَفَّين، إذا كان بخيلًا، وقصيرُ الباعِ، وفي ضِدِّه رَحْبُ الذِّراعِ، طويلُ الباعِ، طويل اليَدَين، ومنه قولُ النَّبيّ ﷺ لنسائه: "أَسْرَعُكُنَّ لَحاقًا بي، أَطْوَلُكُنَّ

(1) الشريف الرضي، تلخيص البيان: 2/ 199.

يَدًا"[1]، وإنّما أراد به كثرةَ الصّدقةِ، فكانت زينبَ بنتَ جحش ﵂، لأنّها كانت أكثرَهُنّ صَدَقةً[2]. فاستعمالُ اليدِ في جَعْلها إلى العُنق، وبسطها كلَّ البَسطِ، هو استعمالٌ كِنائيٌّ.

الوجه الآخَر: أن يكون ذلك مِن باب الاستعارةِ التَّمثيليّة، بتشبيه البَخيل عند الإمساك عنِ الفضائل بحال مَن يجعل يدَه مغلولةً إلى عنقِه، خائفًا على المال، مترقّبًا بُعْدَ سوءِ الحال، وكذلك هي بتشبيه المُبذِّر بحال مَن يبسط يدَه أبعدَ البَسْطِ، طالبًا المدحَ بحُسْنِ المَقالِ، وجميلِ الكلام، فهو تشبيهُ مركّب بمُركَّب، حُذِفَ الطّرفُ الأوّل وذُكِرَ الآخَرُ، وللاستعارة جمالٌ بديعٌ، حيثُ شَبَّهَتْ بُخْلَ البَخيلِ في إمساكِه، وتبذيرَ المُبذِّر لماله بهذه الصّورةِ المَحسوسةِ المَرئيَّة للمُشاهِدِ، وهو تصويرٌ بديعٌ أبلغُ مِنَ الحقيقة، بل هو عينُ الحقيقة عند التَّدقيق؛ لما فيه مِن تقريب الخَوفِ والقَلَقِ والاضطراب عند البخيلِ، وتقريبِ اللّامبالاة والسّفاهَة والطّيش عند المُبذّر، وسيأتي مزيدُ بيانٍ لهذه الاستعارة في المَعنَيَيْن.

وهذانِ الأسلوبان محتملان، وحَمْلُ الآيةِ على أحدِهما أو كليهما لا يتنافى مع مَهْيَع البلاغةِ، وأسلوبِ القرآن، فإنَّ تعدُّدَ الأوجه دانٍ مِن سعةِ النَّظم في الاحتمالِ.

براعةُ انتقاءِ مفردةِ: ﴿مَغۡلُولَةً﴾ دونَ (مقبوضة):

تصويرُ البَخيلِ بالمُعَوَّقِ في مِشيتِه وحَركَتِه

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ مفردة: ﴿مَغۡلُولَةً﴾ دون (مقبوضة)؛ وذلك أنَّ ﴿مَغۡلُولَةً﴾ تدلُّ على أنَّ صاحبَها قد غُلَّت يدُه في عنقِه بغُلٍّ، وجرتِ العادةُ أن يكون الغُلُّ مِن معدنٍ، فيَدُلُّ ذلك على وجودِ غالٍّ، وعلى استحكام الغُلِّ، ولو قال: (مقبوضة)؛ لفُهِم أنَّ الذي قبضَها هو صاحبُها، وأنَّ القبضَ كان باليدِ، فهو وَصْفٌ مُجَرَّدٌ عن دلالاتِ ﴿مَغۡلُولَةً﴾، مع ما فيها مِن تصويرِ صاحبِها بأنَّ يدَه قَدِ التصقتْ

(1) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (1420)، ومسلم في صحيحه، برقم: (2452)، عن عائشة ﵂.
(2) الكيا هراسي، أحكام القرآن: 4/ 256.

بِعُنقِه، لا يستطيعُ فكاكًا، فأشبهَ المُعَوَّق في مِشيته وحركته، وكأنَّ الشّيطانَ قد أخذ بِلِجامِه يوجِّهُهُ حيثُ يشاء، وكذلك شأنُ البَخيلِ في أعين النّاسِ، وهذا التّصويرُ البَديعُ لا تُؤدّيه مُطلقًا لفظةُ (مقبوضة).

براعة الاستعارة التَّمثيليَّة لحال الشَّحيح:

تصوير البخيل بصورة المَغلول؛ تحذيرًا مِن الشُّحِّ والبُخل

أصل لفظة ﴿مَغۡلُولَةً﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ مِنَ الغُلِّ، وهو الطَّوْقُ الذي يُجعَل في العُنُق وتُربَط به اليدُ، كما يُربَط المُذْنِبُ والأسيرُ، وهو هنا للدّلالة عنِ البُخل والتَّقتير[1]، وفيه استعارةٌ تمثيليَّة، حيثُ شَبَّه حالَ البخيل بمَن شُدَّت يدُه بِغُلٍّ مِن حديد إلى عُنُقه، فلا تَمتدُّ بعطاءٍ قط، و لا تستطيع سَدَّ حاجةِ مُعْوِزٍ، ولا إمدادَ مُستغيثٍ بقوّتٍ، والجامعُ في التَّشبيه: هو عدمُ العطاء؛ لأنَّ البخيلَ غَلَّهُ بُخلُه فلم يُعْط، والمَشْدودَ شُدَّت يدُه فلا تتحرك[2]، فشأنُ مَن جُعِلَت يَدُه مغلولةً إلى عُنُقه، عدمُ القُدْرةِ على التَّصرُّف، وشأنُ البخيلِ عدمُ التّصرّفِ في المال بالإنفاق وغيره[3]، وهذه الاستعارةُ استُعيرَ فيها المَحسوسُ للمعقول، وذلك أنَّ البُخل معنًى قائمٌ بالإنسان، يمنعُه مِنَ التَّصرُّف في ماله، فاستُعير له الغَلُّ الذي هو ضَمُّ اليد إلى العُنُق، فامتنع مِن تَصَرّف يدِه و إجالتِها حيثُ تُريد[4].

وفي هذه الاستعارةِ وهذا التَّصويرِ تحذيرٌ بالِغٌ مِنَ الشُّحّ والبُخل، فقد صوِّر بهذه الصّورةِ التي يبدو فيها البَخيلُ الشَّحيحُ، وقد غُلّت يدُه إلى عُنُقه، فلا ينتفع بها في أيّ وجهٍ مِن وُجوه النَّفع، كما أنّه لم يكن يوجِّهُها بخيرٍ إلى أحد، فهي يَدٌ مُعَطَّلة، فكان شَدُّها إلى عنقه إعلانًا عن صفتها التي أصبحت عليها[5].

(1) الطّنطاوي، التّفسير الوسيط: 8/ 334.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4369.
(3) الصّاوي، حاشية الصّاوي على تفسير الجلالين: 2/ 317.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 42.
(5) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 476.

براعةُ الاستعارةِ التَّمثيليَّة لحال المُسْرف:

تصوير المُسرِف بصورة مبسوط الكَفِّ؛ تحذيرًا مِنَ الإسراف والتَّبذير

وكما شَبَّه تعالى حالَ البخيلِ بمَن غُلّت يَدُه إلى عُنُقِه، شَبَّه حالَ المُسْرِف والمُبَذّر بحال مَن مَدَّ يدَه وبسطَها بسطًا كبيرًا، بحيث أصبحت لا تُمْسِكُ شيئًا يوضَع فيها، سواء أكان قليلًا أم كثيرًا[1]، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ﴾، والمُسرف الذي يُضَيّع مالَه شمالًا ويمينًا بغير حساب، يُشْبِهُ رجلًا يَبْسُط يدَه كُلَّ البَسْط، حتّى لم يَبْقَ في كَفِّه شيءٌ[2]، وهي استعارةٌ تمثيليَّة أيضًا، شُبِّهَ فيها المُسرفُ بمَن تُبسَط يدُه ويُؤْخَذُ ما فيها مِن غير إرادةِ صاحبها ومِن غير تقديره، ومِن غير تَعَرُّفِ مَن يستحِقّ فيعطيه، ومَن لا يَستَحِقّ فيمنَعُها، بجامعِ ضياعِ المال مِن غير إرادةٍ حكيمةٍ مُقَدّرة، تَضَع النَّدى في موضع المُنَدّى، وتمنع مَن يستحِقّ المَنْع[3].

دلالةُ مجموع التَّمثيلين على الاقتصاد والاعتدال:

التَّحذير مِنَ الشُّحِّ والبُخل لخروجهما عن حَدِّ الاعتدال

في مجموع التَّمثيلَيْن تحذيرٌ مِنَ الشُّحِّ والبُخل، وقد صوِّر بهذه الصّورة التي يبدو فيها البخيلُ الشَّحيحُ، وقد غُلَّت يدُه إلى عُنُقه، فلا ينتفع بها في أيّ وجهٍ مِن وجوه النَّفع، وكما أنَّ الشُّحّ مذمومٌ، فكذلك السَّرفُ مَذمومٌ، فكلاهما خروجٌ عن حَدِّ الاعتدال، الذي هو ميزان العدل، والحكمة، والبخيلُ والمُبَذِّر كلاهما ينتهي أمرُه إلى النَّدم والحَسْرة؛ البخيلُ إذ لم ينتفع بما بين يديه مِن نِعَم الله، والمُبَذِّرُ إذ ضَيَّع هذه النِّعَم[4].

سِرُّ عدمِ النَّصِّ على الواسطة بيْنَ المُتقابِلَين:

الدّلالة على المَحذوف بالمَذكور في جُملتي التَّقابل

لم يَرِدِ النَّصُّ على الواسطة بيْنَ المُتقابلين، وهو النَّصّ على التّوسّط والاعتدال والقصد في الفقر والغنى؛ لأنَّ أصول الإنفاق

(1) الطّنطاوي، التّفسير الوسيط: 8/ 334.
(2) الحجازي، التّفسير الواضح: 2/ 370.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4369.
(4) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 476.

في الاقتصاد في العيش، والتَّوسّط في الإنفاق دون بخلٍ ولا سَرفٍ، فالبخلُ إفراط في الإمساك، والتَّبذير إفراط في الإنفاق، وهما مذمومان، وخيرُ الأمور أوساطها، والفضيلة وسط بين رذيلتَين؛ فنهى اللهُ عنِ الطَّرفين: وأمر بالتَّوسّط بينهما، كما في قوله: ﴿إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ﴾ [الفرقان: 67][1]، والاقتصادُ هو حال الرَّسول ﷺ، فقد كان مُقتصِدًا في حال فقره وغِناه، فإن كان فقيرًا لم يُقَتّر خوفًا مِن نفاد الرِّزق، ولم يسرف فيَحْمِل ما لا طاقةَ له به[2]، فالواسطةُ بينَهما مفهومةٌ مِن فحوى الخطابِ، فلمّا ذَكَرَ الطَّرفين عُرفَ الوسَط، وسِرُّ عدمِ النَّصِّ عليها أمورٌ:

الأوّل: تباينُ أحوالِ النّاس، واختلافُ درجاتِ الواسطة بينهم، فكان عدمُ ذكرِها لاحتواءِ أحوال النّاس جميعًا.

الثّاني: لو ذَكَر الدّرجةَ الوسطَ التي يجب أن يكون النّاس عليها لضاق الأمر، فبعضُ النّاسِ يميلُ إلى الاقتصاد، وآخَرُ إلى التَّوسِعة؛ فتركَ ذلك تخفيفًا، وليكون الضّابط مَرِنًا، فيوصلُ النّاسَ إلى المطلوب بيُسرٍ ورَويَّة وتَدَرُّج.

الثّالث: لو نَصَّ على الدّرجة الوسط بين هَذَين الطَّرفين؛ لبَخِلَ البخيلُ، ومالَ المُبذِّر إلى الإسرافِ بتأويل الدّرجة المَذكورة، فكان الإطلاقُ أولى بالمصلحة.

الرّابع: من مقاصد الحَذْفِ تحريكُ العقولِ إلى دَرْك المصلحة، والقلوبِ إلى تحصيل التَّقوى باجتهادٍ وحُسْنِ نَظَر؛ فإنَّ الإلزام بالمعايير قد يُضيِّق الطّريقَ الموصِلَة إلى المطلوب.

الخامس: التّبذير والبُخل طرفان، "نهى عنهما، آمِرًا بالاقتصاد بينهما، الذي هو الكَرَم"[3]، وهذا الوسط هو المقصود، ولو نَصَّ عليه لظَنَّ النّاسُ أنَّ الكرمَ المَحمودَ واجبٌ بمعاييرهم التي يعرفونها، ولضاق ذلك على أصحاب الأموال، فتُرِك النّصُّ عليه في سياق ذَمِّ الطَّرفين؛ كي لا يُفهَم الوجوبُ بنظر العُرفِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ ۝٣٦ إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ تَبۡخَلُواْ وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ ۝٣٧﴾ [محمد: 36 - 37].

---

(1) ابن جزي، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 1/ 445.
(2) ابن رجب، تفسير ابن رجب الحنبليّ: 1/ 627.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 253.

براعةُ الجَمعِ بينَ الحكمة والبلاغة في التَّمثيلين المَذْكُورَيْن:

"أتت هذه الآيةُ الكريمةُ تعليمًا بمعرفة حقيقةٍ مِنَ الحقائق الدّقيقة، فكانت مِنَ الحكمة، وجاء نظمُها على سبيل التَّمثيل، فصيغت الحكمةُ في قالب البلاغة:

لِكلِّ خُلق طرفان ووسط، فالطّرفان إفراطٌ وتفريط، والوَسَط عدل ومحمود

فأمّا الحكمة فقد بَيَّنت أنَّ المحمود في العطاء هو الوسط الواقع بين طرفي الإفراط والتَّفريط، وهذه الأوساط هي حدود المحامد بينَ المَذامِّ مِن كُلِّ حقيقة لها طرفان، وقد تقرَّر في حكمة الأخلاق أنَّ لِكُلِّ خُلُقٍ طرفين ووسطًا، فالطَّرفان إفراط وتفريط، وكلاهما مَقَرُّ مفاسد للمصدر وللمورد، وأنَّ الوسط هو العدل، فالإنفاق والبَذلُ حقيقةٌ أَحَدُ طرفيها الشُّحُّ، وهو مفسدة للمحاويج ولصاحب المال إذ يَجُرُّ إليه كراهيَةَ النّاسِ إيّاه، وكراهيَتَه إيّاهم، والطَّرفُ الآخَر التَّبذيرُ والإسرافُ، وفيه مفاسد لذي المال وعشيرته؛ لأنَّه يصرف مالَه عن مستحِقّه إلى مصارف غيرِ جديرةٍ بالصَّرف، والوسط هو وضعُ المال في مواضعه، وهو الحَدُّ الذي عبَّر عنه في الآية بنفي حالين بين (لا) و(لا).

وأمّا البلاغة فبتمثيل الشُّحِّ والإمساك بِغَلِّ اليَدِ إلى العُنُق، وهو تمثيلٌ مَبْنِيٌّ على تخيُّل اليد مصدرًا للبذل والعطاء، وتخيُّل بسطِها كذلك وغَلِّها شُحًّا، وهو تخيُّلٌ معروف لدى البُلغاء والشُّعراء، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ ثم قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: 64]، وقال الأعشى[1]:

يَداكَ يَدا صِدقٍ فَكَفٌّ مُفيدَةٌ***وَأُخرَى إِذا ما ضُنَّ بِالزّادِ تُنفِقُ

ومِن ثَمّ قالوا: له يَدٌ على فلان، أي: نعمةٌ وفضلٌ، فجاء التَّمثيلُ في الآية مبنيًّا على التَّصرُّف في ذلك المعنى، بتمثيل الذي يَشِحُّ

(1) ميمون بن قيس، ديوان الأعشى، ص: 33.

بالمال بالذي غُلَّت يدُه إلى عُنُقه... فإذا غُلَّت اليدُ إلى العُنق تعَذَّر التّصرّف بها فَتَعَطَّلَ الانتفاع بها، فصار مصدَرُ البَذْلِ مُعطَّلًا فيه، وبضِدِّه مُثِّلَ المُسرِفُ بباسط يده غايةَ البَسْطِ ونهايتِه، وهو المُفاد من قوله: ﴿كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ﴾ أي: البسط كلّه، الذي لا بسط بعده، وهو معنى النِّهاية... وهذا قالبُ البلاغةِ المَصوغةِ في تلك الحِكمة"[1].

نُكْتَةُ التَّقييدِ بـ﴿كُلَّ﴾ النَّائب عنِ المفعول المُطْلَق، مضافًا إلى المصدر:

بيانُ نوع البَسْطِ المَذموم، والإشارةُ إلى أنَّ بعض البَسْطِ محمودٌ

قوله تعالى: ﴿كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ﴾: أي: البسطَ كُلّه، الذي لا بسطَ بعدَه، وهو معنى النّهاية[2]، و﴿كُلَّ﴾: نائبٌ عنِ المصدر المفعول المُطْلَق، ومضافٌ إلى المَصدر لبيان النَّوع، فجاء النّائبُ عنِ المصدر يُبَيِّنُ نوعَ البَسْطِ المَذموم[3]، بقوله: ﴿كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ﴾ أي: البسطَ كلّه الذي لا بسطَ بعدَه، فـ﴿كُلَّ﴾ أفادت معنى النّهاية، وذلك مِنَ العموم المعنويّ الذي أفاد استغراقَ المعنى، ولازمُ ذلك الخروجُ عن حَدّ العادة، فيبلغُ الإنسانُ بالبسطِ حَدّ الإسرافِ، فلا تَبسطها البسطَ كُلَّه، لأنَّ بعض البسطِ محمود، وهو الجود والكرم والتَّوسعة في البَذْل في غير معصية اللّه ﷻ، ولكن دون أن يصلَ هذا إلى حَدِّ الخروج عنِ الحِكْمة والرُّشد في التَّصرُّف، فقولُه: ﴿كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ﴾: هو عُمدة عناصرِ صورة المعنى في هذا التّركيب: ﴿وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ﴾.

بلاغةُ النَّظمِ في الجمعِ بينَ الكناية والاحتراس:

الفَرقُ بينَ التَّبذير والجُود، كالعَذْبِ الفُرات والمِلْحِ الأُجاج

كَنَّى النَّظمُ الكريمُ عنِ التّبذير بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ﴾ أي: ولا تبسطها البَسطَ كلّه، فضُربَ بَسطُ اليدِ مثلًا لذهاب المال[4]، ومعنى بسط اليد: فتحُها بحيثُ لا تَقْبِضُ شيئًا، يستولي على ما فيها مَن يستحِقُّ ومَن لا يستَحِقّ، فلا ينضبط عطاؤه، بل يُنْفِق من

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 84.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 84.
(3) بهجت عبد الواحد، الإعراب المفصل: 6/ 265.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 249.

غير ضابط يضبطه[1]، ولم يقل: (بعضَ البَسطِ)؛ لأنّ بعضَ البَسطِ محمود، وهو الجود والكَرم والتّوسعة في البَذل في غير معصية اللّه ﷻ، ولكن دون أن يصل هذا إلى حَدّ الخروجِ عنِ الحِكمة والرّشد في التّصرّف، فجَمَعَ هذا التّعبيرُ بينَ الكناية والاحتراس عن تَوَهّم إرادةِ الجودِ، إذِ الفرقُ بينَ التَّبذير والجودِ، كالفَرْق بينَ العَذْبِ الفُراتِ والمِلْحِ الأُجاج.

مِن محاسن المَجازِ المُركّب أو الكناية في التّركيبين:

التّقابلُ الكُليُّ والجُزئيّ إحسانٌ إلى المعنى القرآنيّ، وإلى المُتلقِّي معًا

مِن محاسنِ المجاز أو الكناية في التركيبين: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ﴾ التّقابلُ بينهما على الجملة؛ ووجه الحُسْنِ حينَئِذٍ أنّ كلًّا منهما يُؤكّد الآخر، فإذا تلقَّى المُتلقّي الطّرف الثّاني بعد الطّرف الأوّل، تمكَّن الطّرف الثّاني في نفسه، وكذلك الأوّلُ، وهذه عملية نفسيَّةٌ أوجزها البلاغيّون في قولهم: إن الطّباق أو المقابلة يوضّح المعنى ويُؤكّده، وهذه كلمة جليلة، ولكن لكثرتها وإلفتها ضاع جلالُها وجمالُها في نفوسنا، ومِن محاسنهما على التّفصيل: التّقابلُ الكائنُ بين بعض أجزائهما؛ فبه تقوى بلاغةُ التّقابُلِ في النّفس، وأثره في المعنى وعلى النّفس المُكلّفة، كالتّقابل بينَ البَسط ولازم الغَلّ، وهو القبض، فالتّقابل بينهما خفيّ، وهذا حُسْنٌ آخَر، وأبو تمّام تأسَّى به، لكنّه جعل الطّباق ظاهرًا، فقال في مدح المعتصم باللّه[2]:

تَعَوَّدَ بَسْطَ الكفِّ حَتَّى لَوَ انَّهُ *** ثَناها لِقَبْضٍ لَمْ تُجِبْهُ أَنامِلُهُ

دلالة الفاء في ﴿فَتَقۡعُدَ﴾:

السّببيّة لترتيب القعود على النّهيين السّابقين

في قوله تعالى: ﴿فَتَقۡعُدَ مَلُومًا﴾ الفاء لترتيب ما بعدَها على مجموع ما قبلَها، وما قبلَها هو البُخل والإسراف[3]، فجاء النَّصُ على

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4369.

(2) العسكريّ، ديوان المعاني: 1/ 25.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4369.

العِلَّة ﴿فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا﴾، والفاء نصٌّ في السَّببيَّة؛ إذ دخلت على مضارع منصوب بعد إنشاء النَّهي صَدْرَ الآية، وهي صورة ثالثة لحال مَن تجاوز إلى صورة مِنَ الصّورتين السّابقتين، وهو القعود مع اللَّوم والحسرة، فاللَّوم على التَّقتير، وهي خصلة ذميمة لا يرضاها اللّهُ، ولا العقلاء مِن أهل الجود والسَّخاء، والحسرة على الإسراف لضياع المال وفوات الفرصة[1].

بلاغة اللّف والنّشر:

الإيجازُ مع تجديدِ النّظر في الحالَين

قولُه تعالى: ﴿مَلُومٗا﴾ يرجع إلى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾، والحسرة ترجع إلى: ﴿وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ﴾؛ على سبيل اللّف والنّشر المُرتَّب.

بلاغة الكناية بقوله: ﴿فَتَقۡعُدَ﴾:

الدّلالة على بُطلان العمل، وخيبة السَّعي، وخَوَرِ القلب

قوله: ﴿فَتَقۡعُدَ﴾ القعود ضِدُّ القيام، والعربُ تُكَنّي بالقيام عن الجِدِّ في الأمر والعمل فيه سواء أكان العامل قائمًا أو جالسًا، فتقول: قام بحاجتي، إذا جدَّ وعمل فيها، ولو كان لم يمش فيها خُطوة وإنَّما قضاها بكلمة قالها، أو خطاب أرسله، وتكنّي كذلك بالقعود عن التَّرك للعمل وانحلالِ العزيمة وبطلان الهمَّة، سواء أكان الشَّخصُ واقفًا أو جالسًا، فتقول: قعد زيدٌ عن نُصرة قومه، إذا لم يعمل في ذلك عملًا، ولم تكن له فيه همَّة ولا عزيمة، ولو كان قائمًا يمشي على رجليه، فالقعود في الآية بمعنى المُكْثِ، كنايةً عن بُطلان العمل وخيبةِ السَّعي وخور القلب، وفَراغ اليدِ مِن كلّ خير[2].

ومِن محاسنِ صورة المعنى في الكناية: تصويرُها هيئةَ المَذموم المَخذولِ وقد حَطَّ به الخذلان فقعد، ويلقي ظِلَّ الضّعف، فالقعود هو أضعفُ هيئات الإنسانِ وأكثَرُها استكانةً وعجزًا، بحيث ينهار

(1) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 5/ 328، والعلوان، إعراب القرآن الكريم: 2/ 1253.
(2) ابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 62.

معه بناءُ الإنسان، وتنحلُّ قواه، فلا يقدر على الحركة، بل يتهاوى، ويسقط على الأرض، وعن يمينه وشماله، بقاياه ومخلّفاته، التي لا يأتيه منها غيرُ الذَّم والتَّأنيب، على ما فَرَطَ منه[1].

دلالة صيغة: ﴿مَلُومًا﴾:

الـدّلالـة على الرُّسوخ في اللَّوم مِن نفسه، ومِن النَّاس؛ تنفيرًا مِن حاله

قوله: ﴿مَلُومًا﴾ على وزن: (فعولًا)، أي: بليغ الرُّسوخ فيما تُلام بسببه عند اللّه؛ لأنَّ ذلك ممّا نهَى عنه، وعند النّاس[2]؛ لأنَّه يلوم نفسه، والنّاس أيضًا يلومونه على بُخْله وشُحِّه، وهذا مِن شأنه أن يُنفِّره مِن حال الحِرص والبُخل والشّحّ، والمَلومُ لا يُطيقُ نفسَه ويَضْجَر منها، كالذي يجعل يدَه مغلولةً إلى عُنُقه.

بلاغةُ الاستعارة في كلمة ﴿مَّحۡسُورًا﴾:

وصـف لـحـال المُسرف المُبذّر؛ مِـن ذهـاب ما يـقـوَى بـه في الحياة

المحسور: المَنهوكُ القوى، يقال: بعير حسير، إذا أتعبَه السَّيرُ فلم تَبْقَ له قوَّةٌ، والبعير الحسير هو الذي ذهبت قوّته فلا انبعاثَ به، ومنه البَصَرُ الحسير في قوله تعالى: ﴿يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ٤﴾ [الملك: 4]، والمعنى: غير قادر على إقامة شؤونك[3]، وقد استعاره القرآن لحال المُسرف المُبذّر؛ مِن ذهابِ ما يقوَى به في الحياة؛ استعارة تصريحيّة تبعيّة؛ لأنّ: ﴿مَّحۡسُورًا﴾ اسم مفعول على وزن (مفعولًا)، وهو مِنَ المُشتقّات، والمعنى: "﴿مَّحۡسُورًا﴾ أي: مُنقطعًا بكَ؛ لذهاب ما تقوى به، وانحساره عنك"[4].

وقيل: هو مِنَ الحسرة، وهي الغَمُّ والنَّدم على ما فاته بضياع ماله في غير حَقّه[5]، والمعنى: إن أسرفت في أموالكَ، فسُرعان ما تفقدها، فتصبح معْسِرًا بعد الغنى، ذليلًا بعد العِزّة، محتاجًا إلى

(1) الطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 322.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 407، والشّربيني، السّراج المنير: 2/ 335.
(3) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 3/ 470.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 407.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4369.

معونة غيرك بعد أن كنتَ معينًا له، وحينَئِذٍ تقع في الحسرة التي تقطع نياطَ قلبك، ويبلغ منك الأسى كلّ مبلغ، ولكن أنّى يفيد ذلك؟ وقد فات ما فات، فلا ينفع النَّدم، ولا تُجدي العِظَة والنّصيحة[1]، وعلى هذا المعنى فـ: ﴿مَّحْسُورًا﴾ حقيقة لغويّة، ولا مجازَ فيها.

بلاغةُ اللَّفِ والنَّشرِ المُرتَّب:

بيان جوابِ كِلَا النَّهيين على التَّوزيع

قوله تعالى: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ جوابٌ لكِلا النَّهيين على التّوزيع بطريقة النّشر المُرتّب، فالمَلوم يرجع إلى النّهي عن الشّحّ، أي: فتقعد إن بخلتَ ملومًا، يَلومُكَ النّاسُ ويَذُمّونكَ ويستغنون عنكَ كما قال زهير بن أبي سُلمى في المعلَّقة[2]:

وَمَنْ يَكُ ذا فَضْلٍ فَيَبْخَلْ بِفَضْلِهِ *** على قَوْمِهِ يُسْتَغْنَ عَنْهُ وَيُذْمَمِ

ومتى بسطت يدكَ فوق طاقتك، قعدتَ بلا شيء تنفقُه، فتكونَ كالحسير، فالمَحسور يَرجِع إلى النَّهي عنِ التّبذير[3]، ففي الكلام لَفٌّ ونَشرٌ مُرتَّب، فيكون مَلومًا في حال البخل، ومحسورًا في حال الإسراف[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القعود والجلوس:

الجلوسُ انتقالٌ مِنَ الأسفل للأعلى، والقعود مِنَ العُلُو للأسفل

ذهب بعضٌ من علماء العربيَّة إلى أنَّ القعودَ والجلوس بمعنًى واحدٍ[5]، وذهب آخرون إلى التَّفريقِ بينَهُما؛ فأصلُ الجلوسِ في اللُّغة الارتفاع في الشَّيء وهو يُطلق في حالة الانتقال مِنَ السُّفْل إلى العُلوِّ، والقعود هو الانتقال مِنَ العُلوِّ إلى الأسفل[6]. فالحركةُ في الجلوس معاكسة للحركة في القعود؛ يقال: كان قائمًا فقعد، وكان مُضطجعًا

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 15/ 39.
(2) زهير بن أبي سلمى، ديوان زهير، ص: 110.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 70، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 85.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4369.
(5) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (جلس).
(6) الفيوميّ، المصباح المنير: (جلس)، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (قعد).

فجلس، وبهذا يتبيَّنُ أنَّ هيئة القعود والجلوس واحدة، وينحصر الفرقُ بينهما في اختلاف الاتجاه بشأن كلٍّ منهما(1).

وهناك فرق آخر بينهما: وهو أنَّ القعود يكون للمُدَّة الأطول، بخلاف الجلوس، لذلك يُقال: قواعد البيت، ولا يُقال: جوالسه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ [البقرة: 127]، ومن هُنا يُقال للمرأة الكبيرة في السِنِّ قاعد، وجمعها قواعد، قال تعالى: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ [النّور: 60] جوالسُهُ(2)، وسُمّيت الجنَّةُ: مقعدَ صدقٍ، دون مجلس صدقٍ؛ لأنَّ أهلها خالدون فيها(3). أمّا الجُلوس؛ فتصريفاتُه دالَّةٌ على عدَم اللُّبْثِ طويلًا، ومِنْهُ قولُ اللّه تعالى: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ﴾ [المجادلة: 11].

ممّا تقدم تبيّن أنَّ الفرق بين الجلوس والقعود يتلخّص: في أنَّ الجلوس انتقالٌ مِنَ الأسفل للأعلى، وأنّ القعود مِنَ العُلوّ للأسفل، وأنّ القعود يدلّ على المُدّة الأطول، بخلاف الجلوس حيثُ يدلُّ على سرعة التّحوّل والتَّغيّر.

اللَّوم والذَّمِّ:

اللَّوم هو تنبيه الفاعل على موقع الضَّرر في فِعْلَةٍ، وتهجينُ طريقتِه فيها، واللَّوم مِمّا يُحَرِّضُ(4)، وقد يكون اللَّومُ على الفعل الحَسَنِ، كاللَّوم على السَّخاء، والذَّمُّ لا يكون إلّا على القبيح، واللّوم أيضًا يواجَه به المَلوم، والذَّمُّ قد يواجه بِهِ المَذْموم ويكون دونَه، فيُقال حَمِدْتُ هذا الطَّعام أو ذَمَمْتُه، ولا يُقال لُمْتُه(5).

اللَّوم تنبيه على موقع الضَّرر للحسن والقبيح، والذَّمُّ لا يكون إلَّا على القبيح

(1) باجودة، تأملات في سورة النساء، ص: 357، وطه السيد محمود، نفي التسوية في الذكر الحكيم: دراسة بلاغية تحليلية: 1/ 501.

(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (قعد)، والدّوري، دقائق الفروق اللّغويّة في البيان القرآنيّ، ص: 136 - 137.

(3) الشّايع، الفروق اللّغويّة وأثرها في تفسير القرآن، ص: 288 - 289.

(4) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 800.

(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 471.

اللَّوم أشَدُّ مِنَ العتاب، والعتابُ لا يكون إلَّا مِن مُحِبّ

اللَّوم والعِتاب:

أَمّا العِتاب: فهوَ الخطاب على تَضْييع حُقوق المَوَدَّة والصَّداقة في الإِخْلال بالزّيارة وَترك المعونة وما يشاكل ذَلِك، ولا يكون العِتاب إِلّا مِمَّن لَهُ مواتٌّ يُمَتُّ بها، فَهوَ مفارق لِلَّوم مُفارقَة بَينة(1).

فاللَّوم أشَدُّ مِنَ العتاب، فهو قد يكون للذي بينك وبينَه مودَّة، وقد يكون مع من ليس بينك وبينه مودَّة، أمّا العتاب فلا يكون إلّا مع مَن بينك وبينَه مودّة، ولا يكونُ العِتابُ إلّا مِن نفْسٍ صادِقةٍ فيها بَقيَّةُ إخْلاص وصِدْقُ مَودَّة، كما قال الشاعر:

أُعاتِبُ ذا المَوَدَّةِ مِن صَديقٍ *** إِذا ما رابَني مِنْهُ اجْتِنابُ

إِذا ذَهَبَ العِتابُ فَلَيْسَ وُدٌّ *** وَيَبْقَى الوُدُّ ما بَقي العِتابُ(2)

ولم يقل اللَّوم، فالتعبير باللّوم في الآية أدقُّ وأبلغُ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 53.

(2) ابن عبد ربّه، العقد الفريد: 2/ 163.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ٣٠﴾ [الإسراء: 30]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تسليةُ النَّبي ﷺ وأُمَّتِه بأنّ الـرِّزق بيد الله قبضًا وبسطًا

لَمّا كان سببُ البُخل خوفَ الفقر، وسببُ البَسْطِ محبّةَ إغناء المُعطَى، قال مُسلّيًا لرسوله ﷺ عمّا كان يُرهِقُه مِنَ الإضافة عنِ التَّوسعة على مَن يسألُه بأنَّ ذلك إنَّما هو لتربية العباد بما يصلحهم، لا لهوانٍ بالمُضَيَّق عليه، ولا لإكرام للموسَّع عليه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾[1]، فبعد أن جاء أسلوبُ النَّهي في الآية السّابقة مُجَسِّدًا لحال البخيل والمنفق بإسراف، من خلال لوحة تصويريَّة رائعة ودقيقة، جاءت هذه الآيةُ بعدَها لتُبَيِّن أنَّ بَسْطَ الرِّزقِ وقَبْضَه إنَّما هو بيد الله ﷻ، تسليةً لرسوله ﷺ والمؤمنين، بأنَّ الذي يُرهِقُهم مِنَ الإضافة ليس لهوانهم على اللّه، ولكن لمشيئة الخالق الرّازق[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَبۡسُطُ﴾: أصلُ (بَسَطَ): أَصلٌ واحِدٌ، وهو امْتِدادُ الشَّيءِ، في عِرَضٍ أو غيرِ عِرَضٍ، فالبِساطُ ما يُبْسَطُ، والبَساطُ الأَرْضُ، وهيَ البَسيطَةُ، ويَدُ فُلانٍ بِسْطٌ: إذا كانَ مِنْفاقًا، والبَسطَةُ في كُلِّ شَيءٍ السَّعَةُ[3]، والباسطُ: من أَسماء اللّه تعالَى، هوَ الَّذي يَبْسُطُ الرِّزقَ لِعِبادِهِ وَيوَسِّعُهُ عَلَيهِمْ بجوده وَرَحْمَتِهِ ويبسُط الأَرواح في الأَجساد عِنْدَ الحَياةِ، والبَسْطُ: نَقيضُ القَبْضِ[4].

2) ﴿ٱلرِّزۡقَ﴾: (رَزَقَ): أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على عَطاءٍ لِوَقْتٍ، ثُمَّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 407.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 15/ 40.
(3) ابن فارس، مجمل اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (بسط).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (بسط).

يُحمَلُ عليهِ غَيرُ المَوْقوتِ، فالرِّزْقُ: عَطاءُ اللّه جَلَّ ثَناؤُهُ[1]، وهو كُلُّ ما يُنْتَفَعُ بِهِ مِنْ مالٍ وَنَحْوِهِ، والجَمْعُ: أَرْزاقٌ[2]، والرَّزْقَةُ: المَرَّةُ الواحدةُ[3]، والرَّزْقُ - بِفَتْحِ الرّاءِ - العَطاءُ الدّائِمُ، يُقالُ: رَزَقَ يَرْزُقُ رَزْقًا، أَيْ: أَعْطَى وَوَهَبَ، والرّازِقُ: المُعْطي، وَهوَ اللّهُ[4]، وَكُلُّ ما يَصِلُ إلى الجَوْفِ وَيُتَغَذّى بِهِ فَهوَ رِزْقٌ، وَمِنْ مَعاني الرِّزْقِ أَيْضًا: الكَسْبُ، والهِبَةُ، والصَّدَقَةُ[5]، والمقصودُ بالرِّزق في الآية: اسمٌ لِما يَنْتَفِعُ به الإنسانُ في حاجاته، مِنْ طعامٍ ولباسٍ ومَتاعٍ ومَنْزِلٍ، سَواءٌ كانَ أَعيانًا أو أَثْمانًا.

3) ﴿وَيَقۡدِرُ﴾: أَصْلُ (قَدَرَ): يدلُّ على مَبْلَغ الشَّيْءِ وَكُنْهِهِ وَنِهايَتِه، يُقالُ: قَدْرُهُ كذا، أي: نِهايَتُهُ، ويأْتي بمعنى التَّقْدير، وهو: بَيانُ كَمّيَّةِ الشَّيْءِ، يُقال: قَدَرَ الشَّيْءَ بِالشَّيْءِ، يَقْدُرُه، قَدْرًا، وقَدَّرَه، أَيْ: قاسَهُ وبَيَّنَ مِقْدارَهُ[6]، وَتَقْديرُ اللّه الأشياءَ على وجهين؛ أَحدهما: بإعطاء القُدْرَة، يُقالُ: قَدَّرَني اللّهُ على كذا وقوّاني عليه، والثّاني: بأن يجعلها على مِقْدارٍ مخصوصٍ، ووَجهٍ مخصوصٍ حسبما اقتضتِ الحكمة، وعلى ذلك قوله: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ٢١﴾ [الحجر: 21]، وقد قيل: خذهُ بقدر كذا وبقدر كذا، وفلانٌ يخاصم بِقَدرٍ وقدَرٍ، والمراد في الآية: ضِدُّ يَبْسُطُ، وفيه دلالة عَنِ القِلَّةِ، أي: يوسِّعُه ويُضيِّقه، حسبَ مَشيئَتِه.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الأرزاق بيد الله يعطي مَن يشاء بحساب وتقدير، وعن عِلم وحِكْمَةٍ

أبان اللّهُ تعالى في الآية الكريمة ربطَ الرِّزق بمشيئته وإرادته؛ لِيُدركَ النّاسُ أنَّ تضييق الرِّزقِ أحيانًا على بعضهم ليس لِسوءِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رزق).
(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (رزق).
(3) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (رزق).
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (رزق).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (رزق).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (قدر).

حالهم عند اللّه، فقال سبحانه: إنَّ ربَّك يا محمَّدُ ﷺ يوسِّعُ رزقَه على مَن يَشاءُ مِن عِبادِه، ويُضَيِّقُه على مَن يشاءُ مِنهم، بحَسَبِ حِكمَتِه سُبحانَه؛ لأنَّه خَبيرٌ ببواطِنِ عِبادِه وأحوالِهم وأخبارِهم، بَصيرٌ بظَواهِرِهم وكيفيَّةِ تَدبيرِهم في أرزاقِهم وغَيرِها؛ فهو أعلَمُ بمصالِحِ عبادِه وما يَليقُ بكُلٍّ منهم، فيَعلَمُ مَن يَصلُحُ له الغِنى، ويَعلَمُ مَن يَصلُحُ له الفَقرُ(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

وجهُ فصلِ الجملة وبلاغتُها:

تَعليلُ الأحكامِ مَهيَعٌ بلاغيٌّ قائمٌ على الحِكمةِ والإفهام

مَوقعُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾، هو "موقعُ اعتراضٍ بالتَّعليلِ، لِما تقدَّمَ مِنَ الأمْرِ بإيتاءِ ذي القُربى والمساكينِ، والنَّهيِ عنِ التَّبذيرِ وعنِ الإمساكِ، المُفيدِ الأمْرَ بالقصدِ، بأنَّ هذا واجبُ النّاسِ في أموالِهم وواجِبُهم نحوَ قَرابتِهم وضُعفاءِ عشائرِهم، فعليهم أنْ يَمتثلوا ما أمَرَهم اللّهُ من ذلك، وليس الشُّحُّ بمُبَقٍّ مالَ الشَّحيحِ لنفْسِه، ولا التَّبذيرُ بمُغْنٍ مَن يُبذِّرُ فيهمُ المالَ؛ فإنَّ اللّهَ قدَّرَ لكلِّ نفْسٍ رِزْقَها"(2).

بلاغة تذييل جُمَلِ الأوامرِ السّابقة بهذه الآية:

الإشارة إلى كون مَرجِعِ الغنى والفقرِ إنَّما هو تقدير الله وحِكْمَتُه

إنّ موقع هذه الجملةِ السّخيَّ جعلها في إمكان أن تكون تذييلًا لما سبقها من آية: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الإسراء: 26]، ولعلّ فائدةَ التَّذييلِ بها: أنَّنا مأمورون بالقَصْد الذي أنتجته الآيةُ السّابقة عليها؛ لأنَّه حِكْمَةٌ، وأمّا الغنى والفقرُ فأمرٌ مَرجعُهُ إلى اللّه فقط(3)، فدلّ النَّظمُ بهذه الآية على التَّوكل والثِّقة؛ فإنَّ اللّه يَبْسُط الرِّزق؛ فـ ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الإسراء: 26] وغيرَه كذلك، ﴿وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ٢٦﴾ [الإسراء:

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 576، 577، والواحديّ، الوجيز، ص: 633، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 71، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 264.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 86.

(3) الحجازيّ، التّفسير الواضح: 2/ 370.

26]، واسكُنْ أنتَ مِنِ اضطرابك، ودعْ عنكَ حيلتَكَ، وسَلْ مَن بيده البَسْطُ، أن يوسِّعَ عليكَ الرِّزق[1]؛ فَتوَسِّعَ على نفسِك وعلى غيرِك.

إيثارُ ذِكْرِ ﴿رَبَّكَ﴾ دون اسم الجلالة:

الإشارة إلى وجوه الإحسان والإصلاح مِنَ الرَّب تعالى لعباده

قوله تعالى: ﴿رَبَّكَ﴾ أي: المُحسِن إليكَ بالخَلْقِ والإنعام[2]، والمقصودُ تعريفُ الرّسولِ في هذا السّياق بكونه تعالى ربًّا؛ والمقصودُ أُمّتُه؛ لتَهْدأَ نفوسُهم من جهة مسألة الرّزق؛ فالرَّبُّ هو الذي يُربّي المَربوبَ، ويقوم بإصلاح مُهمّاتِه، ودفعِ حاجاتِه على مِقدار الصَّلاحِ والصَّوابِ، فيوسِّعُ الرِّزقَ على البعض، ويُضيِّقُه على البعض[3]، فعلى العباد أن يقتصدوا في الإنفاق، وأن يَستنّوا بسُنَّتِه تعالى[4].

سِرُّ الإضافةِ إلى كاف الخطاب:

الإقبال بالخطاب على النَّبيِّ ﷺ، عنايةً به وإرشادًا لأُمّتِه

"يجوز أن يكون الكلامُ جاريًا على سَنَنِ الخِطاب السّابق لغير مُعَيَّن، ويجوز أن يكون قد حوِّل الكلامُ إلى خطاب النّبيّ ﷺ؛ فَوُجِّهَ بالخطاب إلى النّبيّ ﷺ؛ لأنَّه الأَوْلَى بعِلْم هذه الحقائقِ العالية، وإن كانت أُمَّتُه مقصودةً بالخطاب تبعًا له، فتكون هذه الوصايا مُخَلَّلَةً بالإقبال على خطاب النَّبيّ ﷺ"[5]، والمعنى: كُنْ أنتَ يا محمّد على ما رُسِمَ لك مِنَ الاقتصاد وإنفاقِ القَوام، ولا يَهُمّنَّك فَقْرُ مَن تراه كذلك، فإنّه بمَرأًى مِنَ اللّه ومَسْمَعٍ[6]، وبمشيئة.

وعلى القول بأنّ الآيةَ نازلةٌ لتسليَةِ المُعْسِرين مُطلقًا، يكون قد حصل له عليه السلام التَّسَلّي في ضمن هذه التَّسليَةِ العامَّة، وذلك لأنَّ المُخاطَب في قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الإسراء: 26] عامٌّ للكلِّ، بقرينة كونه معطوفًا على قوله: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ

(1) السّلميّ، حقائق التّفسير، ص: 118.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 408.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 330.
(4) الجاويّ، مراح لبيد: 1/ 623.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 86.
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 451.

﴿إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23]، فلمّا كان الخِطاب في هذه الآيات يَعُمّ الكُلّ، وأَمْرُ اللّهِ تعالى الموسِرين منهم بالإنفاق على المُعْسِرين منهم، سلّاهم بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ﴾(1).

دلالة المضارعة في ﴿يَبْسُطُ﴾ و ﴿وَيَقْدِرُۚ﴾:

إفـادَةُ التَّجدُّد والاستمرار

نُظِمَ كلٌّ مِن معنى البسط والقَدْر فِعلًا مضارعًا؛ تشاكلًا مع حدوث كلٍّ منهما في أوقاتٍ مختلفةٍ مُتَجَدّدةٍ، ولمّا كان ذلك كائنًا مِنَ اللّه سبحانه وبحمده في عباده؛ ما داموا في الدّنيا: كان المضارع فيه معنى الاستمرار؛ وذلك دالٌّ على كمال قدرةِ اللّه وعِلْمِه المحيطِ بجميع الأشياءِ، فالتَّعبيرُ بالمضارع ﴿يَبْسُطُ﴾ و﴿وَيَقْدِرُۚ﴾ لإفادة تجدُّد البَسطِ والقَدْرِ واستمرارِهما، فربُّنا ﷻ: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ۝٢٩﴾ [الرَّحمن: 29].

بَديعُ الطِّباقِ بين لفظتي البَسْطِ والقَبْض:

بالتّقابل بينَ البَسطِ والقبض تتكوَّنُ صورةٌ كليَّةٌ للنّظام الذي اختاره الله لعباده

بَسطُ الرِّزق: سعتُه وكثرتُه، وقَدْرُ الرِّزق: قلّتُه بالنِّسبة للرِّزق الكثير المبسوط، والمعنى: أنَّ اللّه ﷻ، هو الذي يَرزق النّاسَ، وهو سبحانه الذي يبسط الرّزق ويوسّعه لبعضهم، على حين يُعطي منه بقَدْرٍ لآخَرين، وهذا وذاك إنَّما هو بحساب وتقدير، وعن علم وحِكْمَةٍ، فلا يَدُلُّ البَسطُ على الكرامة، ولا القبضُ على الإهانة(2)، وبهذا التّقابل بينَ البَسطِ والقبض تتكوَّنُ صورةٌ كليَّةٌ للنّظام الذي اختاره اللّهُ لعباده؛ فيَرِدُ على الذّهن مِن صور أحوال العِباد ما يقوى ذِهنُه على إيرادِه، فيرسَخُ معنى الآية في قلبه، وينفعل به، فيُحقِّقُ المطلوبَ منه عنِ اقتناعٍ ومحبَّةٍ ورضًا بأمرِ اللّه، وهذه عملية نفسيَّةٌ تَحْدُثُ بالطّباق في حال التّدبّر والتّفكّر أثناءَ التّلقّي، ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ۝١٤﴾ [الملك: 14].

---

(1) محيي الدّين زادة، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 5/ 378.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 477.

نُكْتَةُ تعليقِ بَسطِ الرّزق وقَدْرِه على المَشيئة:

الـدّلالـة على الأُلـوهيّة؛ لأنَّ المشيئة دائرة مع الحِكْمة لا تُفارقها

يبسط رَبُّنا الرّزقَ لَمن يشاء؛ لينكشفَ شُكْرُه أو كُفْره، ويقبضه لمَن يشاء؛ لينكشفَ صبرُه أو سَخَطُه؛ فلَهُ تعالى حِكمةٌ في بَسْطِهِ وقَبْضِهِ، ثمّ هو يبسط ويقبض عن علم بحال مَن يبسطه له، وحالِ مَن يقبضه له؛ فكان تعليقهما على المشيئة؛ دلالةً على الأُلوهيّة الحَقَّةِ؛ بالدّلالة على الحِكْمة المطلقة، والقُدْرة التّامّة، والعلم المُحيط بكلّ شيء، والإخبارُ عن الله بأنّه خبير بصير بعباده في ختام الآية يؤيد ذلك.

سرُّ التَّعبير بالمشيئة دون المَحبَّة ونحوِها:

الـدّلالـة على الأُلـوهـيّـة، وشمول مشيئته سبحانه في الـرِّزق لجميع عباده

عُبِّر بالمشيئة - دون المَحبّة ونحوها -؛ لأنّها الأليق بالأُلوهيّة الموصوفة بالحِكمة والعَدْل والرّحمة والإحسان، في سياقٍ يُقَرِّرُ معنًى يتعلّق بجميع العِباد على حدٍّ سواءٍ؛ ألم يقل تعالى في تعليل لهذه الجملة: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾؟.

بلاغةُ الفصل في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾:

تعليل ما سبق من كلام حولَ بَسْطِ الرّزق وتقديره

جملة: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾ تعليلٌ لجملة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾ إلى آخرها، فكأنّ سائلًا سأل: لماذا يبسط اللّهُ الرّزق لَمن يشاء ويَقْدِر، فجاء الجوابُ: إنَّه يفعل ذلك لأنَّه عليم بأحوال عباده وما يليق بكلٍّ منهم؛ بحسب ما جُبلَت عليه نفوسُهم، وما يحُفّ بهم من أحوالٍ اقتضتْها الحكمةُ الإلَهيَّة المودَعة في هذا العالم[1]، وفي جملة التّعليل تحقيقٌ في المعنى للجُملة المُعلَّلَة.

توجيه صيغة الفعل ﴿كَانَ﴾:

الـدّلالـة على الكينونة الأزليَّة الدَّائمة

تعدّدت جهاتُ المعنى التي تُستَعمَلُ فيها: (كان)، والحُكم في ذلك للسّياق؛ فهي ترِد بمعنى المُضيِّ المُنقطع، وهو الأصل في معناها، وبمعنى: الحال، وبمعنى: الاستقبال، وبغير ذلك، وهي هنا بمعنى: الاستمرار، فليست على بابها مِنَ المُضيِّ، فالمعنى: كان، ولم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 86.

يزل كائنًا إلى يوم القيامة، وإلى أبد الآبدين في الدُّنيا، والآخرة[1]؛ بقرينةِ جريانها في سياق الحديث عن الله ربّ العالَمين؛ ولهذا قال البقاعيُّ: "﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾ أي: كونًا هو في غاية المُكْنَة"[2].

بيانُ الاعتناء بشأن المُقَدَّمِ، والتَّشويقُ إلى معرفة المؤَخَّرِ

سرُّ تقديمِ شبه الجملة ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾ على الخبر:

إنّ الآيةَ تُبرزُ بقوّةٍ الحِكمةَ الإلَهيّةَ في البَسْط والقَدْر، وقد صاحبَها معنى القُدرة التّامّة، والعِلْمِ المُحيط بكلّ شيء، ويُضافُ إلى ذلك معنى الرّحمة بالعِباد؛ مع الاقتدار على فعل شيء بهم؛ ممّا يستلزم العِلْمَ المَذْكور، وفي تقديم: ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾ هذه الرّحمة الرّبانيّة بهم، وهذا اللّطف الإلهيّ بهم، وفي هذا التّقديم استدلالٌ لطيفٌ على إثبات أنّه تعالى خبير بصير بهم؛ مِن حيثُ إنّ إضافتهم إليه تعالى تعليلٌ في المعنى لهذا الإثبات، وفي تأخير: ﴿خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾ تشويق إلى معرفته وتلقّيه؛ فيتمكن في النّفس خيرَ تمكُّن؛ ليكون المُتلقّي على ذِكْرٍ منه أبدًا؛ فإنّ الخبير البصير هو الذي مِن شأنه البَسْطُ والقَدْر.

تعلُّق الأرزاقِ بالعِباد، والإشارةُ إلى أحوال العرب مع بَسْطِها وتقديرِها

نُكْتَةُ ذِكْرِ العِلْم بأحوال العباد بعد ذكر البَسْط والتَّقدير:

ذَكَر النَّظمُ الكريم العِلْمَ بأحوال العِباد بعد ذِكْر البَسْط والتّقدير في الأرزاق؛ لكون الأرزاق متعلقةً بهم؛ فبها صلاحُ معاشِهم، وعليها مَدارُ حياتِهم، وللإشارة إلى حال العرب التي كانت يصلحها الفقرُ، فقد كانت إذا شبعت طَغَتْ، وقتَلَتْ غيرَها، وأغارت، وإذا كان خِصْبٌ وبَسْطٌ لهم أَشِروا، وقتل بعضُهم بعضًا، وجاء الفساد، وإذا كان الجوعُ والقَحْط شَغَلَهُم عن ذلك[3].

بيانُ شمول عِلْم الله ببواطن عباده وظواهرهم

سِرُّ تذييل الآية بالاسمين الجليلَين: ﴿خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾:

قوله تعالى: ﴿خَبِيرَۢا﴾ أي: بالغُ الخِبرة، و: ﴿بَصِيرٗا﴾ بالغُ البَصَر،

---

(1) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وبيانه: 5/ 329.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 408.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 436، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 451.

أيِ: بما يكون في كلٍّ مِنَ القبض والبسط لهم مِن مصلحة أو مَفسدة[1]، والخبير: العالِمُ بالأخبار، والبصير: العالِمُ بالمُبْصَرات، فالله خبير ببواطنهم، بصير بظواهرهم[2]، فيُسلِّمُ المُتَلقّي لأمر الله، ويرضَى بحُكْمِه مِن بَسْطِ الرّزق، أو قَدْرِه؛ لأنه تعالى العليمُ بما يصلحُهم؛ فهذان الاسمانِ الجليلان يرجعان إلى معنى بعضِ تعلُّقِ العِلْم الإلهيّ[3]، فيكون في ذكرهما توكيدٌ لمضمون جملة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾.

بلاغة نظمِ: ﴿خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾:

مَـنْ لـه صفات الـكـمـال تعالى يبسطُ الرّزق لمَن يشاء ويَقْدر

الأصلُ في الصّفات عمومًا أن لا يُعْطَفَ بعضُها على بعض؛ نظرًا لدلالتها على موصوف واحد، ولكن جاز تعاطفُها؛ لتغاير معانيها في ذاتها؛ لأنّها تدلُّ على غير الذّوات؛ والأوصافُ الجاريةُ على الله ﷻ جاريَةٌ مجرى الأسماء المترادفة، وفي هذا إشارةٌ إلى وَحْدَتها، وأنّ أبرز ما فيها هو الدّلالة على الذّات التي لا تتعدّد[4].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 408.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/ 457.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 86.
(4) محمد أبو موسى، دلالات التّراكيب، ص: 280 - 281.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ٣١﴾ [الإسراء: 31]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيان أشدّ أنواع الحرص والخوف مِنَ الفقر، بعد ذِكْر بسطِ الرّزق للعباد

لَمّا بَيَّنَ اللّهُ تعالى في الآيةِ السّابقة أنَّه المُتكَفِّلُ بأرزاقِ العِبادِ، وأنَّه يبسط الرِّزق لمن يشاء ويقدر، وأنَّ اللّه هو الرَّزاق ذو القوّة المتين، وكان أشدُّ أنواع الحرص والخوف مِنَ الفقر قَتْلَ الولدِ خشيةَ الفقر، جاء هنا بالنَّهي عن قتل الأولاد خشيةَ الإملاق[1] بِقَولِه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَشْيَةَ﴾: أصلُ (خَشيَ): يَدُلُّ على خَوْفٍ وذُعْرٍ، ثُمَّ يُحمَلُ عليه المَجازُ، فالخَشْيَةُ الخَوْفُ[3]، يُقالُ: خَشِيَه، يَخْشاهُ، خَشْيًا وخَشْيَةً، أي: خافَهُ وذُعِرَ مِنْهُ، وقيلَ: الخَشْيَةُ خوفٌ مع تَعظيم، وأكثر ما يكونُ ذلكَ عَن عِلْم بما يُخافُ مِنْهُ[4]، والخَشْيَةُ: اليابِسُ مِنَ النَّبات، يُقالُ: شجرةٌ خاشيةٌ، أي: يابِسَةٌ[5]، ويُقالُ هذا المَكانُ أَخْشَى مِنْ ذلكَ، أَي: أَشَدُّ خَوْفًا، وتأتي الخَشْيَةُ بمعنى تألُّم القَلْب بسبب توقُّع مكروهٍ في المُستَقبَل[6]، والمرادُ بالخَشْيَةِ في الآيةِ: شِدَّةُ الخَوْفِ.

2) ﴿إِمْلَٰقٍۖ﴾: أصلُ (مَلَقَ): يدلُّ على تَجَرُّدٍ ومَلاسةٍ، والإِمْلاقُ: فَقرٌ شَديدٌ، وتجَرُّدٌ عَنِ المالِ، يُقال: أَمْلَقَ الرَّجُلُ إذا لم يَبْقَ له ممّا

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4372.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 330.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خشي).

(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (خشي).

(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 49، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 428.

(6) المناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 155.

يمْلِكُ إلّا المَلَقاتُ، وهي الحِجارةُ العِظامُ المُلْسُ التي لا يتعَلَّقُ بها شَيءٌ، ولا يَنبتُ عليها زرعٌ؛ وذلكَ كنايَةٌ عن أنّه لا يملكُ ما يقوتهم به(1)، وعليه فالمراد بالإملاق في الآية: الافتقار.

3) ﴿خِطْـًٔا﴾: أَصْلُ الخَطَإ: المَيْلُ عَنِ المَقْصودِ، تَقولُ: أَخْطأَ الطَّريقَ مالَ عَنْهُ إلى غَيْرِه، والتَّخْطِئَةُ نِسْبَةُ الغَيْرِ إلى الخَطَأ، ويُطْلَقُ الخطأ على ما لَمْ يَتَعَمَّدْهُ الشَّخْصُ، وَضِدُّهُ العَمْدُ، والخاطِئُ مَنْ تَعَمَّدَ ما لا يَنْبَغي؛ فالخِطْء ما تُعمِّدَ، والخَطَأ ما لم يُتعَمَّدْ، والاسْمُ الخَطيئَةُ(2)، والخطأ أيضًا الغَلَطُ والزَّلَلُ، يُقالُ: أَخْطَأْتُمْ، أَيْ: غَلِطْتُمْ وَزَلَلْتُمْ، وَضِدُّهُ الصَّوابُ، ويأتي الخَطَأُ والخِطْءُ بِمَعْنَى: الإِثْمُ والذَّنْبُ، يُقالُ: خَطِئَ في دينِهِ خَطَأً وَخِطْأً إذا أَثِمَ فيهِ(3)، والمقصود بالخِطْءِ في الآية: إصابةُ الإثمِ عَنْ عَمْدٍ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

إنّ الله تعالى سيرزُقُ كُلَّ مخلوقٍ خَلَقَه؛ ما دامَت حياتُه باقيةً

نهى اللّهُ تعالى عن قتل الأولاد بعد بيان أنَّ الأرزاق بيده سبحانه، يبسطها لَمَن يشاء، ويُضيّقها على مَن يشاء، فقال: ولا تَقتُلوا - أيُّها الآباءُ - أولادَكم؛ خَوفًا مِن أن يُصيبَكم الفَقرُ بالإنفاقِ عليهم، نحن نُعطي أولادَكم رِزقَهم، ولَستُم الرّازِقينَ لهم، ونُعطيكم رِزقَكم أيضًا؛ فلا تَخشَوُا الفَقرَ بسَبَبِهم، إنَّ قتلَ الآباءِ لأولادِهم ذَنبٌ عَظيمٌ(4).

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة اتّصال هذه الآية عطفُها على ما قبلّها:

الزَّجرُ عن قتل الأولاد زجرًا عامًّا؛ لكونه فعلًا ناشئًا عن اليَأس مِن رزق الله

العطف هنا عطف جملةِ حُكم على جملة حُكم؛ للنَّهي عن فعلٍ ينشأ عنِ اليأس مِن رزق اللّه(5)، فلمّا ذُكر في الآية السّابقة أنَّ اللّه

(1) السجستانيّ، غريب القرآن، ص: 103، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ملق)، وابن سيده، المخصّص: 3/ 453، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4373.

(2) ابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (خطأ).

(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (خطأ).

(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (خطأ).

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 87.

يبسط الرِّزق لمن يشاء ويَقْدِر، أتبعَه بالنَّهي عن قتل الأولاد خشيَةَ الإملاق في المكان المناسب مِنَ السّياق، فما دام الرِّزق بيد اللّه، فلا علاقة إذن بينَ الإملاق وكثرة النّسل أو نوع النّسل؛ إنّما الأمر كلُّه إلى اللّه، ومتى انتفتِ العلاقة بينَ الفقر والنّسل مِن أذهان النّاس، وصُحِّحَت عقيدتُهم من هذه النّاحية، فقدِ انتفى الدّافع إلى تلك الفِعْلَة الوحشيّة المُنافيَة لفطرة الأحياء، وسُنّة الحياة، وجيء بالواو لعطف هذه الآية على ما قبلها؛ لتُفيدَ في نورِ هذا الاتصال بينهما زجرًا عن قتل الأولاد عامًّا مُطلقًا مُستقِلًّا، فيدخل فيه كُلُّ ما أُريدَ دُخولُه[1].

نُكْتَةُ البَدءِ في المنهيَات بالنَّهي عن قتل الأولاد:

الوصيةُ بالأبناء بعد الوصية بالآباء لأنَّ فيه نظامَ العالَمِ وبقاءَ النَّوعِ الإنسانيّ

النَّهيُ عن قتل الأبناء هو وَصاةٌ للآباء بما يجب عليهم نحو أولادهم، وذلك مُقابِلَ ما أوصى به سبحانَه الأولادَ بما يجب عليهم نحوَ آبائِهم[2]، فلمّا عَلَّم ربُّنا تعالى كيفيَّة البِرِّ بالوالِدَين في بعض الآيات المتقدّمة، عَلَّم في هذه الآية كيفيَّة البِرّ بالأولاد - فهذا النّهيُ أقربُ المَنهيّات إلى الحديث عن برّ الوالِدَين في سياق السّباق القريب -؛ ولهذا قال بعضهم: إنَّ الذين يُسَمَّون بالأبرار إنَّما سُمّوا بذلك لأنَّهم بَرّوا الآباءَ والأبناء، وإنَّما وَجَبَ بِرُّ الآباء مُكافأةً على ما صدر منهما مِن أنواع البِرِّ بالأولاد، وإنَّما وجب البِرُّ بالأولاد لأنَّهم في غاية الضَّعف، ولا كافلَ لهم غيرُ الوالِدَين[3]، فَبِرُّ الآباءِ مُكافأةٌ، وبِرُّ الأبناء ابتداءُ اصطناعٍ، وفيه نظامُ العالَمِ، وبقاءُ النَّوعِ الإنسانيّ؛ لأنَّ قتل الأولاد إن كان لخوف الفقر، فهو لسوءِ الظّنِّ باللّه، وإن كان لأجل الغَيرة على البنات، فهو سَعيٌ في تخريب العالَم[4].

---

(1) اطفيش، تيسير التّفسير: 8/ 169.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 8/ 478.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 330.
(4) النّيسابوريّ، تفسير غرائب القرآن: 4/ 344.

سِرُّ العدول مِن خطاب الإفراد إلى خطاب الجمع:

الإشارة إلى العادة الجاهليَّة الذَّميمة السَّائدة، وتنزيهُ رسول الله عنها

غيَّر النَّظمُ الكريمُ أسلوبَ الإضمار مِنَ الإفراد في الآية السّابقة إلى الجمع في هذه الآية؛ لأنَّ المَنهيّ عنه هُنا من أحوال الجاهليَّة؛ زَجرًا لهم عن هذه الخطيئة الذَّميمة[1]، ومِنَ الإحسان إليهم لفتُهم إلى ذلك بقوّةٍ؛ فقد كانوا يقتلون بناتِهم خوفَ الفقر، وكان اسم البنتِ قد صار عندهم - لطول ما استهجنوه - موجِبًا للقَسْوة، فقال في النّهي عن ذلك: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ﴾[2]، وعُدِل عنِ الإفراد بخطابه ﷺ في الآية السّابقة إلى الجمع هنا؛ "إعلامًا ببُعْده صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم عن هذا الخُلُق قبلَ الإسلام وبَعْدَه"[3]، وهذا إحسان إليه ﷺ وإلى أُمّته؛ لبيان قَدْرِه الشّريف لهم.

مدى قُوّة ﴿وَلَا﴾ في الدّلالة على النَّهي:

النَّهي الأكيد لمحاربة الآفة العارضة التي أصابت بعض أهل الجاهليَّة

النّهي في قوله: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ﴾ إنَّما هو لمحاربة آفةٍ عارضة، أصابت بعضَ القبائل العربيَّة في الجاهليَّة، فدفعت بهم إلى قتل أبنائهم، ووأدِ بناتِهم، والذي يتأمّل في هذه الظّاهرة التي فَشَت في بعض القبائل العربيّة، يجد أنّها إنّما قامت أصلًا على غريزة حُبّ الآباء للأبناء، وحرصِهم على كفالتهم، وضمانِ أمنِهم وسلامتِهم، وذلك أنَّ ما كان يلقاه الأعرابيُّ مِن فقر، وما يقاسيه مِن بلاء وضُرٍّ في سِنيّ الجَدْب والمِحَن، هو شيء مُفْزِع مُخيف، فإذا نظر الأعرابيّ إليه وهو يتَّجه إلى بنيه، ويَمُدّ يدَه إليهم، ويبسط جناحَه المشؤوم عليهم، هالَه ذلك وأفزعَه، ورأى الموتَ لبنيه رحمةً من هذا البلاء، وشفاءً مِن هذا الدّاء.! لهذا، كان التّخلُّص مِنَ الأبناء عند الولادة، هو المَهْرب الذي فَرَّ إليه بعضُ الأعراب بأبنائهم مِن وجه هذا المستقبل الكئيبِ الذي ينتزع أبناءَهم مِن بين أيديهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 87.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/ 377.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/ 377 - 378.

تحت وَطأة الجوعِ، ويسلبُهمَ الحياةَ نفسًا نفسًا، ويذيقهم الموتَ مَوْتاتٍ، لا موتةً واحدةً! قد يكون هو الجهل، وسوءُ التَّدبيرِ، وفسادُ العقيدةِ، ذلك الذي سوَّل لبعض الأعراب أن يصنعوا بأبنائهم هذا الفعلَ الشَّنيعَ المُنكر[1]، فكان في النّهي بـ: (لا) مواجهةٌ حاسمةٌ لهذه الظّاهرة الشّنيعة؛ لأنّها أصلُ أدواتِ النّهي.

دلالة صيغة المضارع:

إفـادةُ التَّجدُّد والاسـتـمـرار، وكونُ هذا القتلِ عادةً لهم

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ﴾، صيغَ القتلُ المَذكورُ فعلًا مضارعًا؛ لتصوير أنّ تلك الآفةَ الشّنيعة كانت عند العرب عادةً مُتكرِّرةً لهم، مُتجدِّدة فيهم جيلًا بعد جيل.

بلاغة ذِكْرِ الأبناء بصفة الوَلَدِيَّة، وإضافتِهم إلى الآباء المُخاطَبين:

التّذكير بأصل العلاقة بينَ الأصل والفرع، والإنكار لهذه الفعلة القبيحة

خطابُ الآباء في الآية جرى على مراعاة تغليبهم على الأُمّهات؛ نظرًا لكونهم القائمين بالقتل المَذكور؛ لما في جبلَّتِهم من جَسارةِ وقَسْوةٍ وشِدّةِ الذُّكورة، وقد راعَى التّنزيلُ الكريمُ هذه النّفسيَّةَ الصّعبةَ، وتلك القَسوةَ التي تمكَّنت فيها - في سياق نهيهم عنِ القتل المَذكور؛ فرقَّقَها واستعطفَها وليَّنَها واسترحمَها على فروعها؛ بالتّذكير بتَعَبِ الأُمِّ في الولادةِ، خصوصًا وما سبقَها وما يلحقها ممّا هو متّصلٌ بها عمومًا؛ مِنَ الحَمْلِ، ثمّ الرّضاعةِ، وغيرِ ذلك، وبتَعَبِ الأبِ في التّربية والإنفاقِ والتّوجيه وغيرِ ذلك؛ وذلك بالتّعبير عنهم بـ: (الأولاد)، وبإضافتهم إليهم، وفي هذه الإضافة أيضًا: تذكيرٌ بما هو الأصل من علاقة بين الأصل والفرع؛ من حُنوّ الأصل وعطفِه عليه، ورحمته به، والسّعي في إسعاده، قال البقاعيُّ: "... معبِّرًا بلفظ الولد؛ الذي هو داعيَةٌ إلى الحُنوّ والعَطفِ"[2].

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 479.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/ 378، بتصرف يسير.

عموم النّهي عن قتل الأولاد، والتّنبيه على أنّ الأُنثى لا تَقِلُّ قدْرًا عنِ الذَّكَر

المُراد بلفظ الأولاد في الآية:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾، المُراد بالأولاد بالدَّرجة الأولى خصوصُ البنات؛ لأنَّهنّ اللّواتي كُنَّ يُقْتَلْنَ وأدًا، لعجزهِنّ عنِ الكَسْب، وقُدرَةِ البَنين عليه، بالغارات والسَّلْب والنَّهْب، ولأنَّ فقرَهُنّ يُنَفِّرُ الأكفاءَ عنِ الرَّغبة فيهِنّ، فيحتاجون إلى تزويجِهنَّ لغير الأكفاء، وفي ذلك عارٌ أيُّما عارٍ عليهم[1]، ولكن عبَّر عنهُنّ بلفظ الأولاد في هذه الآية ونظائرها؛ لأنَّ البنت يُقال لها في الأصل: ولد؛ كما يقال للابن: ولد، وقد جرى الضّمير على اعتبار اللّفظ في قوله: ﴿نَرْزُقُهُمْ﴾، ويجوز أن يتناول النّهيُ قتلَ الذُّكورِ أيضًا؛ لأنَّ مخافةَ الفقرِ تقتضي العمومَ، فالنَّهيُ عنِ القتل مُطلَقٌ، وقَيْدُ ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ تنبيهٌ على ذلك[2]، فلفظ: ﴿أَوْلَٰدَكُمْ﴾ تشمَل الذّكورَ والإناثَ، ولكن كان مِن عادة بعضِ العرب أن يتخلّصوا مِنَ البنات أكثرَ مِن تخلّصهم مِنَ الذّكور، فقائلهم يقولُ: "وَأْدُ البناتِ مِنَ المَكرُمات"[3].

النّهيُ عن قتل الأولاد لأجل خَوْفِ الفقر المُتوقَّع

موقع لفظة ﴿خَشْيَةَ﴾ الإعرابيّ، ودلالتُها:

قوله تعالى: ﴿خَشْيَةَ﴾ مفعولٌ لأجله، أي: لأجل خوف فقرٍ وفاقة متوقّعٍ في المستقبل لم يقع بَعْدُ، إن تركتُموهُم أحياءً؛ فلا تقتلوهم مخافةَ فقرٍ، ولا لغير مخافة فـ ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ لا أنتُم[4]، وهذا الموقع الإعرابيُّ يدُلُّ على سيطرة مضمون العِلّة: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ على نفوسهم، ورسوخِها فيهم؛ حتّى صارَتْ سببًا أصيلًا قويًّا في القتل المَذْكور!.

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 15/ 41.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/ 492.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 88.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 408، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 16/ 83.

قوّةُ السّببيّة، وملاءمتُها للمُسَبَّب

سِرُّ التَّعبير بالإملاق دونَ الفقر:

الإملاقُ هو الفاقة، وشِدّةُ الفقرِ، وأصلها اللُّغويُّ: أملقَ الرَّجلُ، إذا لم يبقَ له ممّا يملكُ إلّا المَلَقات، وهي جمع مَلَقَة، وهي الحَجَرُ الأملس، الذي لا يقف الماءُ عليه، ولا ينبت زرعًا، وذلك كنايةً عن أنَّه لا يملك ما يقوتُهم به[1].

توجيه المتشابه اللّفظيّ:

جاء النّهي عن قتل الأولاد في موضعين، في سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ﴾ [الأنعام: 151]، وفي سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ﴾.

فقولُه تعالى: ﴿خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ﴾ في سورة الإسراء يدُلُّ على انتفاءِ وجود الإملاقِ حالَ القتل، وأمّا في الأنعام فيدُلُّ قولُه: ﴿مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ﴾ [الأنعام: 151] على ثبوتِ وجودِه حالَ القتلِ، واختصّت الإسراء بـ: ﴿خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ﴾؛ لأنّ سياقَ السّباقِ القريبِ يعالج مشكلةَ المال والرّزق في حياة النّاس فرادى ومجتمعين؛ فالخشيةُ مِنَ الإملاق قد تمنعُ الإنسانَ مِن أن يُؤتي ذا القُربى حَقّه والمسكينَ وابنَ السبيل، فيُعْرِض عنهم؛ فيكون كمَن يجعل يده مغلولةً إلى عُنُقه، فيقعد ملومًا، وقد تكون سببًا في التّبذير؛ بالإسراع إلى تحصيل كلّ ما يشتهيه الإنسانُ في وقتٍ قليلٍ؛ فيكون كمَن يبسط يدَه كلّ البَسْط، فيقعد محسورًا؛ فـ: ﴿خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ﴾ هي بنتُ سياقِ سباقها القريب في السّورة، فكانت مِن فرائدِ السّورةِ.

وأمّا موضع الإنعام: فسياقه تعدادُ بعضِ ما حرَّم اللّهُ تعالى على جهة الإجمال في ذِكْرِ المُحرّماتِ، وعلى جهة التّوصية السّريعةِ بمجانبتها، والمناسبُ لذلك ذِكْرُ هذه الحالةِ: ﴿مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ﴾ [الأنعام: 151]، والتي هي كالأدنى وكالأصلِ للحالة التي في سورة الإسراء، فليس

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4373.

في سياقها تفصيلٌ لمسألة الخوف مِنَ الرّزق والفقر كما في سورة الإسراء، فظهر بذلك وجهُ انفرادِ الأنعام بـ: ﴿مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ﴾ [الأنعام: 151].

وقد ترتَّبَ ما بعدَ كلٍّ مِن: ﴿خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ﴾، و﴿مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ﴾ [الأنعام: 151] عليه مِن جهة النّظم؛ وهما كالسّبب ومُسَبَّبِه؛ فإذا اختلف السّببُ اختلفَ المُسَبَّبُ لا محالة، فقدّم تعالى في موضع الإسراء ضميرَ الأولاد على ذكر الآباء وضميرِهم، فقال: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ﴾؛ لأنّ الآباء ليسوا فقراء في حالِ القتل، وإنّما يخشون الفقر في المستقبلِ بسببِ الأولاد، فذكَر تعالى أنّه يضمن رزقَهم، فقدّمهم؛ لِلَّفْتِ إلى ذلك، وقدّم تعالى ذِكْرَ الآباءِ وضميرِهم على ذِكْر الأولاد وضميرِهم، فقال: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ﴾ [الأنعام: 151]؛ لأنّ الآباء فقراء، فضلًا عنِ الأولاد، فكان تقديمُهم هو الأصل في هذا السّياق، قال البقاعيُّ: "﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ﴾ مُقدِّما ضميرَ الأولاد؛ لكون الإملاق مُترقَّبًا؛ مِنَ الإنفاق عليهم، غيرَ حاصلٍ في حال القتل، بخلاف آية الأنعام؛ فإن سياقها يدُلُّ على أنّ الإملاقَ حاصلٌ عند القتل، والقتلَ للعجز عنِ الإنفاق"[(1)]، وفيه تقديم الأولاد على الآباء في الإسراء: إشعارٌ بأصالتهم في إفاضة الرّزق[(2)]؛ مواجهة لكونهم عند آبائهم سببًا في قتلهم إيّاهم.

نوعُ الفصل في جملة: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ﴾، وسِرُّه:

تعليل للنّهي عن قتل الأولاد؛ بإبطال مُوجِبِه في زعمهم

صحَّح اللّهُ ﷻ ما وقع في تفكيرهم مِن خطأٍ أدَّى بهم إلى هذا التّفكير السّقيم، وذلك السُّلوك المُنحرف، فقال تعالى: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ﴾[(3)]، فالكلام تعليلٌ للنَّهي عن قتل الأولاد؛ بإبطال موجبه في زعمهم، وهو الفقر، أي: نحن نرزقهم، لا أنتُم، ونرزقكم أنتم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/ 378، وينظر: أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/ 423.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/ 423.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 482.

معهم، وما دام الأمرُ كذلك فلا تُقْدِموا على تلك الجريمة النَّكراء؛ وهي قتلُ الأولاد[1]، وهذا التّعليلُ هو تعليلٌ في المعنى ليس مِن شبه كمال الاتصال، وإنّما هو مِن باب كمال الاتّصال؛ لأنّ التّنزيل الكريم قَصَد أن يَستدلَّ بهذه الجملة على إثباتِ النّفي؛ فإنّ معنى النّهي: (ولا تقتلوا أولادكم خشيَةَ إنفاق) بعضُ لوازم هذه الجملة: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ﴾، فالثّاني يُؤكّد الأوّلَ مِن جهة المعنى، بطريق اللّزوم الخَفيِّ.

دلالةُ التَّعبيرِ بضمير العَظَمَة ﴿نَّحۡنُ﴾:

معالجة نفسيّة القاتل؛ ببيان عَظَمة اللهِ الخالق الرَّازق لِكُلِّ الخلائق

لا ريبَ أنّ الذي يُقْدِمُ على قتل ابنِه أو ابنتِه خشيةَ إملاق، قد غابَ مِن قلبه جلالُ اللّه وجمالُه؛ على حَدّ قول نبيّنا ﷺ: "لا يزني الزّاني حينَ يزني وهو مؤمن" إلى آخر الحديث[2]؛ لأنّ هذا القتلَ مِنَ الكبائر لا محالة، فكان محتاجًا إلى أن يُذكَّرَ بذلك؛ فعَبّر تعالى بصيغة العَظَمة في قوله: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ﴾، فلم يقل: (أنا أرزقهم)؛ لأنّ ذلك لا يعالج هذه المشكلةَ الإيمانيّةَ في نفس القاتل، وإنّما يعالجها ما عليه التّنزيلُ الكريم.

بلاغةُ تقديمِ المُسنَدِ إليه على الفعل المضارع:

الـدّلالـة على الاختصاص والحصر، ومواجهةُ هذه الفعلة الشنيعة

قُدِّم المُسْنَدُ إليه على خبره الفعليّ في قوله تعالى: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ﴾؛ لإفادة القصر، أي: نحن المُختصّون بإعطاء رزقهم في الصِّغر والكِبَرِ، أي: لا يرزقهم إلّا نحن؛ مواجهةً لحالة الخشية مِن الإملاقِ، الرّاسخةِ في نفوسِ المُخاطَبين مِنَ العرب، ومَن سيكون، وسوف يكون في حكمهم، واللّه أعلم.

سِرُّ فصل: ﴿إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا﴾ عمّا قبلَها:

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا﴾ عن سابقه؛

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 65.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، برقم: (2475)، ومسلم في صحيحه، برقم: (57)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

تعليلًا بما هو أعمُّ مِنَ القتل الأوّل الذي كان بسبب خشية الإملاق؛ فقوله تعالى: ﴿إِنَّ قَتۡلَهُمۡ﴾ أي: مطلقًا لهذا أو غيره[1]، ويجوز أن يكون التّعليلُ بجملة: ﴿إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا﴾ أعمَّ مِنَ التّعليلِ بجملة: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ﴾، فقتلهم خِطْءٌ كبير؛ سواءٌ رُزِقوا في المستقبل، أو لم يُقدَّرْ لهم أن يُرزقوا، فأضعفُ الإيمان أنْ تتوقّفوا عن قتلهم حتّى يأتيَكم ويأتيَهم الموتُ؛ مِن شِدّة الجوع، وحلولِ الفقرِ العظيم بهم جميعًا، فذلك أهونُ مِن أن تَسْبِقوا إلى قتلهم.

تعليل ما سبق بما هو أعمّ، في تغليظ القتل وتشنيعه بدون حقٍّ مطلقًا

تعَدّد التّوكيد في الآية ودلالتُه:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا﴾، أكَّد النّظمُ الكريم النَّهيَ بـ ﴿إِنَّ﴾ لتحقيقه؛ ردًّا على أهل الجاهليَّة؛ إذ كانوا يزعمون أنَّ وأدَ البناتِ مِنَ السَّداد، ويقولون: "دفنُ البنات مِنَ المَكرُمات"، فكان حالُهم حالَ مَن ينكر مضمونَ الجملة بشدّة، فأكَّد تعالى الخبرَ لهم بـ ﴿إِنَّ﴾، وذِكْرِ فعلِ الكون: ﴿كَانَ﴾؛ بما فيه من معنى الدّيْدَن والعادة والاستمرار، وبتَعَدّدِ القراءة في: ﴿خِطۡـٔٗا﴾، وتوكيدُ هذه الجملةِ توكيدٌ للنّهي؛ لأنّها عِلّتُه، وتحذيرٌ بالغٌ مِنَ الوقوعِ في مخالفته.

تحقيق تأكيد النَّهي، وتحذيرٌ مِنَ الوقوع في المنهيِّ

توجيه القراءات في قوله: ﴿خِطۡـٔٗا﴾:

قرأ الجمهور ﴿خِطۡـٔٗا﴾ بكسر الخاء وسكون الطّاء بعدها همزة، أي: إثمًا، وقرأ ابنُ ذكوان وهشام بخلفه عن ابن عامر، وأبو جعفر: ﴿خَطَـٔٗا﴾ بفتح الخاء وفتح الطّاء، والخَطَأ ضدُّ الصَّواب، أي: إنَّ قتلهم مَحْضُ خطأٍ ليس فيه ما يُعذر عليه فاعلُه.

وقرأ ابنُ كثير ﴿خِطَآءٗ﴾ بكسر الخاء وفتح الطّاء، وألفٍ بعد الطّاء بعدَه همزة ممدودًا، وهو فِعال، مِن خَطِئَ إذا أجرم، وهو لغة في خِطء، وكأنّ الفِعالَ فيها للمُبالَغَةِ[2].

بيانُ أنَّ هذا النَّوعَ مِنَ القتل جُرْمٌ وظُلْمٌ ومُجاوَزة لا يُعذَر صاحبُها

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 409.

(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 307، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 88.

وقد تكاملتِ القراءات في الجمع بين معنى الإثم والخَطأ والمبالغة فيهما، فقَتْلُ الأبناءِ ناشئٌ عن خَطأ في الرّأي، وإثم في السّلوك، وهذا الخطأ والإثمُ لا يُعْهَد لهما مثيلٌ في سلوكِ البشر.

نُكْتَةُ وصف ﴿خِطْـًٔا﴾ بـ ﴿كَبِيرًا﴾:

الإبلاغُ في بيان قَدْرِ مَن يُراد قتلُهم، وفي إنكار قتلهم

يدُلُّ تنكيرُ كلمة ﴿خِطْـًٔا﴾ على مضمون الوصف: ﴿كَبِيرًا﴾؛ بقرينة سياق معنى الآية وما قبلَها؛ مِن كون اللّه تعالى هو الذي يبسط الرّزق ويَقْدُره، وكونِه خبيرًا بصيرًا بعباده، وكونِه الرّازقَ للآباء وللأولاد، فما سببُ التّصريحِ بالوصف؟ والجوابُ: أنَّ القرآن يتشدَّدُ في رفض هذه الجريمة الشّنعاء، وطَرْدِ أسبابِها مِن نفوس القاتلين، ويبالغُ في إبطالها في نفوسهم؛ ممّا يعود على النّهي بالتّحقيق والاقتناع والتّوكيد، ومِن أجل ذلك أطنبَ بالتّصريح بهذا الوصفِ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإملاقُ والفقرُ:

الإملاق افتقار بعد غنًى، والفقر أعمُّ

أَصْلُ الإِمْلاقِ: الإِنْفاقُ، يُقالُ: أَمْلَقَ ما مَعَهُ إِمْلاقًا، ومَلَقَهُ مَلْقًا، إِذا أَخْرَجَهُ مِنْ يَدِهِ ولَمْ يَحْبِسْهُ، والفَقْرُ تابِعٌ لِذَلِكَ، فاسْتَعْمَلوا لفظَ السَّبَبِ في مَوْضِعِ المُسَبَّبِ، حَتَّى صارَ بِهِ أَشْهَرَ[1]، وسُمّي الفقرُ إملاقًا مِن حيثُ إنَّ الإسراف في الإنفاق يُؤَدّي إلى فناء المال وذهابه، حتَّى يؤديَ بصاحبه إلى العَوَز والحاجة، فَلَمّا كانَ الفَقيرُ في أكثر الحال خاضعًا مُتضرّعًا سُمّي مُمْلِقًا، ولا يكون إلّا بعد غنًى، كأنّه صار ذا مَلَق، كما تَقول: أطفلتِ المَرْأَةُ، إذا صار لَها طِفْلٌ، وَيجوز أَن يُقال: إنّ الإملاق نقل إِلَى عدم التَّمَكُّن مِنَ النَّفَقَة على العيال، وَلِهَذا قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ﴾ أَي: خشيَةَ العَجزِ عَنِ النَّفَقَة عَلَيهِم[2].

فالإملاق: افتقارٌ بعدَ غنًى، أمّا الفقرُ فهو ضِدّ الغِنى، وهو عبارة

(1) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث: 4/ 357، وابن منظور، لسان العرب: (ملق).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 178.

عن فَقْد ما يُحْتاج إليه، أمّا ما لا حاجةَ إليه فلا يُسَمَّى فقرًا[1]، ومن هُنا اقترن الفقرُ بضِدِّه في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمّد: 38]، فالفقرُ يأتي في موضع فَقْدِ الشَّيءِ وعَدمِ وجودِه.

الخِطْءُ والخَطَأ:

الْخَاطِئُ الْمُتَعَمِّدُ الْخَطَأَ، وَالْمُخْطِئُ الَّذِي لَا يَتَعَمَّدُهُ

الخَطأ: هو أن يَقْصِدَ المَرْءُ الشَّيءَ فَيُصيبَ غَيْرَهُ، واسْمُ الفاعِلِ منه مُخْطِئٌ، قالَ تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: 5]، والخِطْءُ مَصْدَرُ خَطِئَ: إذا أَصابَ إثْمًا، وَلا يَكونُ إلّا عَنْ عَمْدٍ، قال الرُّمّانيُّ: والخِطْأ - أي: بكسر ثمّ سكون - لا يكون إلّا تَعَمُّدًا إلى خِلاف الصّواب[2]، واسم الفاعل منه: خاطِئٌ، قال تعالى: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ١٦﴾ [العلق: 16]، وقال: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ٨﴾ [القصص: 8]، فالخاطِئونَ: الآثِمون أصحابُ الخطايا، الذين تعمَّدوا الذَّنبَ وقَصَدوه، أمّا المُخطئون: فقد أرادوا الصَّوابَ لكنَّهم لم يوفَّقوا إليه، فصاروا إلى غيره[3].

وعليه: فالخاطِئُ في الدّين لا يكون إلّا عاصيًا، أمّا المُخْطِئُ فلا يُعَدُّ عاصيًا، بل قد يكونُ المُخْطِئُ من طريق الاجتهادِ مُطيعًا مأجورًا؛ لأنّه قَصَدَ الحَقَّ، واجتهد في إصابته[4].

فالفَرْقُ بينهما: أنَّ الخَطَأَ خِلافُ الصَّوابِ في الفِعْلِ فَقَطْ، وفاعلُه تكون نيَّتُه حَسَنَةً، فهو غيرُ مُتَعَمِّد، فقد أصاب في الإرادة وأَخطأ في الفعل، وأمّا الخِطْءُ فهو الخَطأُ التّامُّ في الإرادة والفعل، فَمُرْتَكِبه سَيِّئُ القَصْدِ، مُتَعَمِّدٌ لما ارتكبه[5].

(1) الجوهريّ، الصّحاح، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ملق).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 409.
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (خطأ)، وابن منظور، لسان العرب: 1/ 67، والزّمخشريّ، تفسير الكشّاف: 4/ 606، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 277، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 287.
(4) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 221.
(5) الشّنقيطي، دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، ص: 279.

﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ٣٢﴾ [الإسراء: 32]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

النّهيُ عنِ التّسبُّب في إيجاد أسباب القتل بعد النّهي عنِ القتل

لَمّا نهى اللّهُ تعالى عن قَتلِ الأولادِ، نهى عنِ التّسَبُّبِ في إيجادِه مِنَ الطَّريقِ غَيرِ المَشروعةِ، فنهى عن قُرْبانِ الزِّنى، واستلزَمَ ذلك النَّهيَ عنِ الزِّنى؛ لأنَّ فيه معنى قتلِ الولدِ بتضييع نسبِه، وفيه تَسَبُّبٌ في إيجاد نفسِ الباطل، كما أنَّ القتل تَسَبُّبٌ في إعدامها بالباطل(1).

وأيضًا: لمّا كان في قتل الأولاد حَظٌّ مِنَ البُخل، وفي فعل الزِّنى داعٍ مِنَ الإسراف: أتبعه به، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ﴾(2).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَقۡرَبُواْ﴾: أصلُ (قَرَبَ): يَدُلُّ على خِلافِ البُعْدِ، يُقالُ: قَرُبْتُ منه أَقْرُبُ، وقَرَّبْتُهُ أَقَرِّبُهُ قُرْبًا وقُرْبانًا(3)، ويُستعمل ذلك في المكان، وفي الزَّمان، وفي النِّسبة، وفي الحُظْوَة، والرِّعاية، والقُدْرَة، فمِن الأَوَّل، نحو: ﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: 35]، وفي الزَّمان، نحو: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ [الأنبياء: 1]، وفي النِّسبة، نحو: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [النِّساء: 8]، وفي الحُظْوَة: ﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢٨﴾ [المطففين: 28]، وفي الرِّعاية، نحو: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ﴾ [البقرة: 186]، وفي القُدرَة، نحو: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ١٦﴾ [ق: 16]، والتَّقَرُّبُ: التَّحدّي بما يقتضي حُظْوَةً(4)، والمقصودُ بالقُرْبِ المَنْهيّ عَنْهُ: هو أَقَلُّ المُلابَسَةِ، وهو كنايَةٌ عَنْ شِدَّةِ النَّهْيِ عَنْ مُلابَسَةِ الزِّنا(5).

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 43.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 409.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قرب).
(4) الرّاغب، المفردات: (قرب).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 90.

2) ﴿ٱلزِّنَىٰٓ﴾: أصلُ الزِّناء: الوَطْءُ، والزِّنَى مَقْصورٌ لَغَةُ أَهْلِ الحِجازِ، والزِّناء مُمْدَودٌ لَغَةُ نجد: الفُجورُ والفاحِشَة، يُقال: زَنا، يَزْني، زِنًا وزِناءً، فهو زانٍ، وهي زانيَةٌ: إذا فَجَرَ، والجَمْعُ: زُناةٌ، والمرأة تُزاني مُزاناةً وزِناءً، أي: تُباغي[1]، والمُراد به في الآية: مُجامَعَةُ الرَّجُلِ امْرَأَةً غَيْرَ زَوْجَةٍ لَهُ، وَلا مَمْلوكَةٍ غَيْرِ ذاتِ الزَّوْجِ[2].

3) ﴿فَٰحِشَةً﴾: أَصْلُ (فَحَشَ): كَلِمَةٌ تَدُلُّ على قُبْحٍ في شَيْءٍ وَشَناعَةٍ، ويأْتي الفُحْشُ بِمعنى الزّيادَةِ ومُجاوَزَةِ الحَدِّ، ومنْهُ قيلَ لِلطَّويلِ طولًا زائِدًا: إنَّه لَفاحِشُ الطّولِ، وكُلُّ شَيْءٍ جاوَزَ قَدْرَهُ فهو فاحِشٌ[3]، والفاحِشَةُ: القَبيحُ والسَّيِّئُ مِن القَوْلِ أو الفِعْلِ، يُقال: فَحَشَ، وفَحُشَ، وأَفْحَشَ عَلَينا، أَيْ: سَبَّنا وقال قَوْلًا فاحِشًا[4]، والفاحِشُ أيضًا: مَنْ يَسُبُّ غَيْرَهُ ويَشْتِمُهُ، ومِنْ مَعاني الفاحِشَةِ: التَّعَدّي، والذَّنْبُ، والزِّنا، وجَمْعُها: فَواحِشُ[5]، والمراد بالفاحشة في الآية: الفِعْلُ الدَّنيءُ الذَّميمُ، والمقصود: إيلاجُ فَرْجٍ في فَرْجٍ مُحَرَّمٍ، كالزِّنا واللِّواطِ ونَحوِهِما.

4) ﴿سَبِيلًا﴾: أَصْلُ (سَبَلَ): أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على إرسالِ شَيْءٍ مِنْ عُلوٍّ إلى سُفْلٍ، وعلى امْتِدادِ شَيْءٍ، فالأَوَّلُ مِنْ قيْلِكَ: أَسْبَلْتُ السِّتْرَ، وَأَسْبَلَتِ السَّحابَةُ ماءَها وَبِمائِها، وأمّا الثّاني: فالمُمْتَدُّ طولًا: السَّبيلُ وما وَضَحَ مِنْهُ، وَهوَ الطَّريقُ؛ سُمّيَ بِذَلِكَ لِامْتِدادِهِ[6]، يُذَكَّرُ ويُؤَنَّثُ، والتَّأنيثُ أَغْلَبُ، وسَبيلُ اللهِ: طَريقُ الهُدى الذي دَعا إليهِ، وجمعُه: سُبُلٌ[7]، والمقصودُ بالسَّبيل في الآية: الطَّريقُ، وهوَ مُستعارٌ هنا للفِعْلِ الَّذي يُلازِمُهُ المَرْءُ، ويكونُ لَهُ دَأْبًا[8].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

يذكرُ اللّهُ تعالى بعضَ النَّواهي، فيقولُ: ولا تَقربوا - أيُّها النّاسُ - الزِّنا، وابتَعِدوا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (زنا، زنى).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 90.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فحش)، وابن الجوزيّ، كشف المشكل من حديث الصحيحين: 1/ 156.
(4) ابن سيده، المحكم، والزّبيديّ، تاج العروس: (فحش).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (فحش).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبيل).
(7) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (سبل).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 90.

عن مُقَدِّماتِه ودواعيه؛ كي لا تَقَعوا فيه؛ إنَّه كان ذنبًا عَظيمًا غايةً في القُبحِ؛ في الشَّرعِ، والعَقلِ، والفِطرةِ، وبِئسَ طريقًا طَريقُ الزِّنا؛ لأنَّه يُؤدّي إلى أنواعٍ مِنَ المَفاسدِ في الدُّنيا، وإلى العذابِ والخِزيِ في الآخِرةِ، فما أسوأَهُ مِن طَريقٍ[1].

التَّحذيرُ مِنَ القُربِ مِنَ الزِّنى، تحذيرٌ مِن مُباشرةِ دواعيه وأسبابه

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكْتَةُ ترتيبِ عطفِ النَّهي عنِ الزِّنى إثرَ النَّهي عن قتل الأولاد:

النَّهيُ عن الزِّنى متضمِّنٌ النَّهيَ عن قتل الأولاد مطلقًا لعِلّة مختلفة

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ عُطِفَ هذا النَّهْيُ على النَّهْيِ عن وَأْد البنات؛ إيماءً إلى أنَّهم كانوا يَعُدّون من أعذارهم في وَأْد البنات الخشيَةَ مِنَ العار الذي قد يَلْحَقُ مِن جَرّاء إهمالِ البنات النّاشِئ عن الفقر، الرّامي بهِنّ في مَهاوي العُهْر، ولأنَّ في الزِّنى إضاعةَ نَسبِ النَّسْلِ، بحيث لا يُعرَف للنَّسل مرجعٌ يأوي إليه، وهو يشبه الوَأْدَ في الإضاعة"[2]، ففي الزِّنى قتلٌ مِن نواحٍ شتَّى، منها: أنَّه قتلٌ ابتداءً لأنَّه إراقةٌ لمادَّة الحياة في غير موضعها، يتبعُه غالبًا الرَّغبةُ في التَّخلُّص من آثاره، بقتل الجنين قبل أن يتخلَّق، أو بعد أن يتخلَّق، قبل مولدِه أو بعدَ مولدِه، فإذا تُرِكَ الجنينُ للحياة تُرِكَ في الغالب لحياة بائسة مُهينة، فهي حياةُ ضياعٍ وانحرافٍ في المجتمع على نحوٍ مِنَ الأنحاء[3].

سِرُّ إسناد الفعل إلى ضمير الجماعة:

الإشارةُ إلى كون الزِّنى كان فاشيًا في أهل الجاهليَّة

جرى الإضمارُ هُنا في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ﴾ بصيغة الجمع، كما جرى في قوله: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ﴾ لمثل ما وُجِّهَ به تغييرُ الأسلوب هُنالك؛ فإنَّ المَنهيّ عنه هُنا أيضًا كان من غالب أحوال أهل الجاهليَّة[4].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 581، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 452، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 253.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 89.

(3) شحاتة، تفسير القرآن الكريم: 15/ 2846.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 89.

بلاغةُ إيثارِ ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ﴾ في النَّهي عن الزِّنى دونَ (ولا تزنوا):

مُبالغةً في النَّهي والتَّحرُّز منه، مع البُعد عن أسبابه ودواعيه؛ سدًّا للذَّريعة

نهى اللّهُ عبادَه عنِ القُرب مِنَ الزِّنى بمُباشرة أسبابِه ودواعيه، فضلًا عن مُباشرته هو؛ للمُبالغة في النَّهي عنه، وبيانِ شِدَّة قُبْحِه[1]، "والقُرْبُ المَنهيُّ عنه هو أقلُّ الملابسة، وهو كناية عن شِدَّة النَّهي عن ملابسة الزِّنى، وقريب من هذا المعنى قولهم: ما كاد يفعل"[2]، فالمقاربةُ المَنهيُّ عنها مُبالغةٌ في التَّحرُّز؛ لأنَّ الزِّنى تدفع إليه شهوةٌ عنيفةٌ، فالتَّحرُّز مِنَ المقاربة أضمَنُ، فعند المُقاربة من أسبابه لا يكون هناك ضمانٌ، ومن ثَمَّ يأخذ الإسلام الطَّريقَ على أسبابه الدّافعة؛ تَوَقّيًا للوقوع فيه؛ فإذا قيل للنّاس: (لا تقربوا هذا) فهذا آكَد من أن يقول لهم لا تفعلوا[3]، فهو أعمُّ من أن يُقال: (ولا تَزْنوا)، وإنَّما نَهَى عن قُرْبانِه على خلافِ ما سبَقَ ولحِقَ مِنَ القتْلِ؛ للمُبالغةِ في النَّهيِ عن نفْسِه، ولأنَّ قُرْبانَه داعٍ إلى مُباشرتِه[4]، فنهى عن قُرْبانِ الزِّنى، كـ (الخلوة، والسَّفر بدون مَحْرم، وإطلاق البصر)، لا عن فعله، فنبّه بالأدنى: (القُرْبان) على الأعلى (الزِّنى)؛ سَدًّا للذَّريعة، ولطفًا بالعباد؛ لأنَّه إن لم يبقَ إلّا الفاحشة فمِنَ الصُّعوبة الامتناعُ منها، لكنّ الكَفّ عن أسبابها وطُرقها سهلة لكلّ أحد، فالنَّهيُ عن قُرْبانِه أبلَغُ مِنَ النَّهيِ عن مُجَرَّدِ فِعلِه؛ لأنَّ ذلك يَشمَلُ النَّهيَ عن جَميعِ مُقَدِّماتِه ودواعيه؛ فإنَّ مَن حامَ حولَ الحِمى يوشِكُ أن يقَعَ فيه، خصوصًا هذا الأمرَ الذي في كثيرٍ مِنَ النُّفوسِ أقوى داعٍ إليه[5].

نُكْتَةُ توسيطِ النَّهيِ عنِ الزِّنى بينَ النَّهيِ عن قتلَين:

اعتبارُ ولدِ الزِّنى في حُكْمِ الميِّت

توسيط النّهي عنِ الزّنى بينَ النّهي عن قتل الأولاد والنّهي عن قتل النّفس المُحرّمة على الإطلاق؛ باعتبار أنّه قتل للأولاد؛ لما أنّه

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 15/ 42.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 90.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 331.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 169.
(5) السَّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 457.

تضييع للأنساب؛ فإنّ مَن لم يَثْبُت نسبُه مَيّتٌ حُكمًا[1]، فهو قتلٌ في صورة أُخرى، قتلٌ للجماعة التي يفشو فيها، فَتَضيّعُ الأنسابُ، وتختلطُ الدّماء، وتذهبُ الثّقة في العِرْض والولد، وتتحلَّل الجماعةُ وتتفكَّكُ روابطُها، فتنتهي إلى ما يُشْبِه الموتَ بينَ الجماعات، وهو قتلٌ للجماعة مِن جانبٍ آخر؛ إذ إنّ سهولة قضاء الشّهوة عن طريقه يجعل الحياةَ الزّوجيّة نافلةً لا ضَرورةَ لها، ويجعلُ الأُسرةَ تَبِعَةً لا داعيَ إليها، والأسرة هي المَحْضِن الصّالح للفِراخ النّاشئة، لا تَصِحّ فطرتُها، ولا تسلَمُ تربيتُها إلّا فيه[2].

دلالةُ فَصْل قولِه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ عمّا قبلَه:

كــــون هــــذه الجملة تعليلًا للنَّهي السَّابق

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ عمّا قبلَه لكونه تعليلًا للنَّهي عنِ الاقتراب منه، أي: ابتعدوا عن مُقدِّمات الزِّنى فضلًا عنِ الوقوع فيه ذاته، لأنَّه كان وما زال في شرع اللّه، وفي نظر كُلِّ عقلٍ سليم فعلةً فاحشة ظاهرة القبح[3].

التّأكيد في جملة التّعليل، ودلالتُه:

التَّأكيد على أنَّ وصف الفُحْشِ في الـزِّنى وصفٌ ثـابـت لـه في نفسه

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ تعليلٌ للنَّهي عن مُلابسته، تعليلًا مُبالغًا فيه من جهات؛ بوصفه بالفاحشة الدّالّ على فِعْلةٍ بالغةِ الحَدِّ الأقصى في القُبْحِ، وبتأكيد ذلك بحرف التَّوكيد: (إنَّ)، وبفعل ﴿كَانَ﴾ المُؤْذِنِ بأنَّ خبره وصفٌ راسخٌ مستَقِرٌّ،، والمُراد: أنَّ ذلك وصفٌ ثابتٌ له في نفسه، سواءٌ علِمَه النّاسُ من قبل، أم لم يعلموه إلّا بعد نزول الآية[4]، وداعي التّأكيد: الإبلاغُ في التّنفير عنه؛ لما للنّفس من شِدَّةِ الدّاعيَةِ إليه[5].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 170.
(2) شحاتة، تفسير القرآن الكريم: 15/ 2846.
(3) الطَّنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 8/ 340.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 409، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 90.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/ 378.

دلالة التَّعبير بـ ﴿كَانَ﴾ على إجماع الشَّرائع الإلَهيَّة على حُرمته:

الـدّلالـة على الـكـون الـدَّائـم الـمُـلازم وصـفًا لهذا الفِعْلِ

قولُه تعالى: ﴿كَانَ فَٰحِشَةً﴾ أي: كونًا لا ينفكُّ عنه[1]، فهو فاحشةٌ دوامًا، أي: كان كذلك، وما زال، وسيظل، ففعل ﴿كَانَ﴾ هنا معناه الوجود الدّائم، وبهذا الحُكم جاءت جميعُ الشَّرائعِ السَّماويَّة تنهى عنِ الزِّنى أشدَّ النَّهي؛ فقد كان مُحرَّمًا في مِلَّة اليهود، ويُستفاد مِنَ الأناجيل أيضًا حُرمتُه، فهو فعلٌ تُنكِرُه الفِطَرُ السَّليمةُ، والعقولُ المستقيمة، واشتمالُ جملة التعليل على ﴿كَانَ﴾ يجعلُها تتسِعُ؛ ليدخل فيها كونُ الزّنى حرامًا في غير شريعتنا.

سِرُّ التَّعبير بلفظ ﴿فَٰحِشَةً﴾ دون غيره:

بيان أنَّها فعلةٌ ظاهرةُ القُبح، مشتملةٌ على مفاسدَ كثيرةٍ

الفاحشة هي ما يُستفْحَش في الشَّرع والعقل والفِطْرة؛ لتضمُّنِه التّجَرُّؤَ على الحُرمة في حَقِّ اللّه، وحَقِّ المرأة، وحَقِّ أهلِها، أو زوجِها، وإفسادَ الفراش، واختلاطَ الأنساب، وغيرَ ذلك مِنَ المفاسد[2]، والفُحْشُ: المنكر، السّيّئ، القبيحُ، وهو الوصف الملازمُ للزِّنى دائمًا، هو أنَّه فاحشة، حيثُ يُطِلُّ منه هذا الوجهُ المنكر الكَريه الذي ينطق بالخيانة، والعدوان[3]، ويتجلَّى هذا اللَّفظُ ﴿فَٰحِشَةً﴾ في كونها فعلةً ظاهرةَ القُبْح، مشتملةً على مفاسدَ كثيرةٍ، أهمّها:

أوَّلًا: اختلاطُ الأنساب واشتباهُها، وإذا اشتبه المَرءُ في الولد الذي أتت بِهِ الزّانيَةُ، أَمِنْهُ هو أَمْ مِن غيره، لا يقوم بتربيته، ولا يستمِرّ في تعهُّده، وذلك ممّا يوجِبُ إضاعةَ النَّسلِ، وخرابَ العالَم.

ثانيًا: فتحُ بابِ الهَرْج والمَرْج والاضطراب بينَ النّاس دفاعًا عنِ العِرض، فكَمْ سمعنا بحوادثِ قَتْلٍ كان مبعثُها الإقدامَ على الزِّنى.

ثالثًا: إنَّ المرأة إذا عُرفَت بالزِّنى، وشُهرت به، استقذرها كلُّ

(1) البقاعيّ، نظمُ الدُّرر: 11/ 409.

(2) السَّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 457.

(3) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 483.

ذي طبع سليم، فلا تحدثُ ألفةٌ بينَها وبين زوجها، ولا يَتِمُّ السَّكَنُ والازدواج الذي جعله الله مودَّةً ورحمة بينَ النّاس، بقوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ﴾ [الرّوم: 21].

سِرُّ تخصيصِ الزّنى بوصف الفاحشة دونَ غيرِه:

الجمع بين تضييع حُرمةِ الحَقِّ، وهَتْكِ حُرمةِ الخَلْق

ترجّحَ الزّنى على غيره مِنَ الفواحش؛ لأنّ فيه تضييعَ حُرمةِ الحَقّ، وهَتْكَ حُرَمَة الخَلْق، ثُمَّ لما فيه مِنَ الإخلال بالنَّسب، وإفسادِ ذاتِ البين مِن مقتضى الأَنَفَة والغضب[1]، وبهذا الوصف يتلاقَى أوّلُ الآية وآخِرُها؛ فقد عُبِّر بالقُربانِ؛ تعظيمًا لفعل الزّنى سلبًا في النّفوس، وهذا مُؤسَّسٌ على اشتماله على المفاسد العظيمة التي تَجُرُّ إلى كلِّ شرٍّ مِن قتلٍ وغيرِه، وجاءت كلمة: ﴿فَٰحِشَةٗ﴾ في آخرها؛ لتُفْصِحَ بذلك، وتؤكّدَه، فالتقى طرفا الحَلَقَة التقاءً خفيًّا.

دلالة كلمة ﴿وَسَآءَ﴾، ووجه التَّعبيرِ بها عن قُبح الزِّنى:

إنشاءُ الذَّمِّ على سبيل المبالغة

قوله تعالى: ﴿وَسَآءَ﴾ أي: ما أسوأه مِن طريق[2]؛ فإنّ كلمة: (ساء) تُستعمَل بمعنى أفعل التَّعجّب، يُقال: في إنشاء الذّمّ على سبيل المبالغة، وهو مثل: بئس، أي: ما أسوأه سبيلًا وطريقًا في الحياة؛ لأنَّه اعتداء على الفضيلة، ويؤدّي إلى انحلال الأسرة، وانحلالُها انحلالٌ للمجتمع[3].

الموقع الإعرابي لـ: ﴿سَبِيلٗا﴾، وبلاغتُه:

السّبيل هو المقصود بالإساءة بقُوّةٍ، ورجوع العجز إلى الصّدر

وقع قولُه تعالى: ﴿سَبِيلٗا﴾ تمييزًا لـ: ﴿وَسَآءَ﴾، فهو المقصودُ بالإساءة، والمعنى: وساء سبيلُه سبيلًا، فاللّفتُ إلى سوءِ سبيله على طريقة التّمييز، أقوى وأفخمُ مِنَ التّصريح في نحو: (وساء سبيله)، وداعي اللّفتِ إليه بقوّة - بنظم السّبيل تمييزًا - عمومُ خطرِ هذا

(1) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/ 346.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 409.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4375.

الخُلُقِ الفاحشِ: (الزّنى)، وبهذا التّنبيه القويّ على سوء السّبيل بالتّمييز، يرجعُ آخرُ الآية على أوّلِها؛ مِنَ التّعبير بالقُربانِ؛ حيثُ النّهيُ عنِ الزّنى بالنّهي عن "أدنى قربٍ، بفعل شيءٍ مِن مقدّماته، ولو بإخطاره بالخاطر"[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في التَّعبير عنِ الطّريق بالسَّبيل:

الإشارة إلى كَثْرة الفعلِ الذي يُلازم المَرءَ إن تعاطاه، فيكون له دأبًا

السَّبيل: الطَّريق، وهو مُستعارٌ هُنا للفعل الذي يُلازِمُه المَرْءُ ويكون له دأبًا؛ استعارةٌ مبنيَّةٌ على استعارة السَّير للعمل، من قبيل الاستعارة التَّصريحيَّة الأَصليَّة، فبُنِيَ على استعارة السَّيْر للعمل بجامع المُلازمة[2]، والتَّعبيرُ عنه بالسَّبيل يدُلُّ أيضًا على كثرة مُتعاطيه بالدّلالة على سَعَة منهجه[3].

توجيهُ المتشابِه اللَّفظيّ:

زيادةُ التَّبشيع والتَّشنيع في الزِّنى بامرأة الأَبِ عن غيره

قال تعالى في سورة النساء: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾ [النِّساء: 22]، وفي سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا﴾، وللسّائل أن يسأل عن زيادة قوله: ﴿وَمَقۡتٗا﴾ [النساء: 22] في سورة النِّساء، وعدمِ استعمالِها في سورة الإسراء؟.

والجوابُ عن ذلك أن يقال: إنَّ المَقْتَ هو النَّقصُ والاستحقارُ، ومتزوّجُ امرأةِ أبيه فاعلُ رذيلةٍ يُمقَتُ فاعلُها، ويُشْنَأُ، وتَسْتَخِسُّهُ الطِّباعُ السَّليمةُ، فوُسِمَتْ فِعْلَتُه بالمَقتِ، وساوتِ الزِّنى فيما وراء ذلك؛ فلهذا زيدَ في آية النِّساء قوله: ﴿وَمَقۡتٗا﴾[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 4/ 378.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 90.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 410.
(4) ابن الزّبير الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/ 102.

﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا ٣٣﴾ [الإسراء: 33]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبۡلَها:

النّهيُ عن قتل النّفس عمومًا، بعد النّهي عن قتل الأبناء خصوصًا

بعد أن نهتِ الآيةُ السّابقةُ عن قتل الأولاد بيد الآباء؛ صيانةً للنَّفس مِن حيثُ هي نفسٌ، ورعايةً لهذه الصِّلة الوثيقة، وتلك الرّابطة القويَّة التي تربِطُ بين الآباء والأبناء، جاءت هذه الآيةُ ناهيةً عن قتل النَّفس أيِّ نفس؛ لتلك الاعتبارات التي تُمسكُ يدَ الآباء عن قتل أبنائهم، فالنّاس جميعًا أبناءُ نفس واحدة؛ وإن تفرَّقوا شعوبًا وقبائل، واختلفوا ألسنةً وألوانًا، فكما تقوم بينَ الآباء والأبناء صِلَةُ الدَّمِ التي تحجزهم، أو من شأنها أن تحجزهم عن قتلهم، كذلك تقوم صلةٌ بينَ الإنسان وأخيه الإنسان، مِن شأنها أن تَكُفَّ يَدَهُ عن قتله[1]، فلَمّا نهى اللّهُ تعالى عن قَتلِ الأولادِ، وعن إيجادِهم مِنَ الطَّريقِ غيرِ المَشروعةِ، نهى عن قَتلِ النَّفسِ، فانتقَلَ مِنَ الخاصِّ إلى العامِّ[2].

شَرۡحُ المُفۡرَداتِ:

1) ﴿ٱلنَّفۡسَ﴾: أصلُ (نفس): يَدُلُّ على خُروجِ النَّسيمِ كَيۡفَ كانَ، مِنۡ ريحٍ أَوۡ غَيۡرِها، وإليه تَرۡجِعُ فُروعُهُ، مِنۡهُ التَّنَفُّسُ: خُروجُ النَّسيمِ مِنَ الجَوۡفِ، وَنَفَّسَ اللهُ كُرۡبَتَهُ؛ وذلكَ أَنَّ في خُروجِ النَّسيمِ رَوۡحًا وَراحَةً، والنَّفَسُ: كُلُّ شَيۡءٍ يُفَرَّجُ بِهِ عَنۡ مَكۡروبٍ[3]، والنَّفۡسُ في كلام العرب على وجهين؛ أحدهما: قولك: خرجَتۡ نفسُ فُلانٍ، أي: روحه،

(1) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 483.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 44.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفس).

والثّاني: أنّ معنى النَّفْسِ حقيقةُ الشَّيء وجملتُه، يُقالُ: قتَلَ فلانٌ نفسَه[1]، ويُطْلَقُ النَّفْسُ على الدَّمِ؛ لأنَّهُ أَساسُ الحَياةِ، أو لأنَّ الرّوحَ تَخْرُجُ بِخُروجِه، يُقالُ: سالَتْ نَفْسُهُ، أيْ: دَمُهُ[2]، وتأْتي بِمعنى العَيْنِ، فيُقال: أَصابَتْ فُلانًا نَفْسٌ، أيْ: عَيْنٌ، ونَفْسُ الشَّيْءِ: عَيْنُهُ[3]، والمقصود بالنَّفس في الآية: الذّاتُ والشَّخْصُ.

2) ﴿حَرَّمَ﴾: أصلُ (حرم): أَصْلٌ واحِدٌ، وهو المَنْعُ والتَّشْديدُ، يُقالُ: حَرَّمَ الشَّيْءَ يُحَرِّمُهُ تَحْريمًا، أَيْ: مَنَعَ مِنْهُ وَلَمْ يُجِزْهُ، والحَرامُ: المَمْنوعُ، والتَّحريمُ: الحَظْرُ، وَشَيْءٌ مُحَرَّمٌ، أَيْ: مَحْظورٌ، وَضِدُّه الإباحَةُ والإِذْنُ والجَوازُ، والإِحْرامُ: الإِمْساكُ والامْتِناعُ؛ لِأَنَّ المُحْرِمَ مُمْتَنِعٌ مِنْ أَشْياءٍ، والمَحارِمُ: كُلُّ ما مُنِعَ مِنْهُ، ومَكانٌ حَرامٌ، أَيْ: يُمْنَعُ دُخولُهُ، وَمِنْهُ: سُمِّيَ الشَّهْرُ الحَرامُ بذلكَ؛ لِأَنَّ العَرَبَ تَمْتَنِعُ عَنِ القِتالِ فيه، والمقصود بالحرام في الآية: الشَّيْءُ المَمنوعُ منعًا شديدًا، والمرادُ به: طَلَبُ الشّارِعِ تَرْكَ الفِعْلِ تَرْكًا جازِمًا.

3) ﴿سُلْطَٰنًا﴾: أصلُ (سلط): أصلٌ واحدٌ، وهو القوَّةُ والقَهْرُ[4]، والسُّلْطانُ: الحاكِمُ والوالي، وأَصْلُ الكَلِمَةِ مِنَ السَّلاطَةِ، يُقالُ: سَلَّطَهُ عليْهِ، أَيْ: مَكَّنَهُ مِنْهُ وحَكَّمَهُ فيهِ، ويأْتي بِمعنى الخَليفَةِ، والإِمام، والقاضي[5]، والسُّلْطانُ أيضًا: الوِلايَةُ والحُجَّةُ والبُرْهانُ[6]، والسُّلْطان كذلك: قُدرةُ المُلْكِ، وقُدرةُ مَن جُعِلَ ذلك له، وإنْ لم يكن مَلِكًا[7]؛ سُمّيَ سُلطانًا لأنَّهُ يُكسِبُ المُستَدِلَّ به سُلطةً على مُخالفِهِ ومُجادِله[8]، والسَّليطُ مِنَ الرِّجالِ: الفَصيحُ اللِّسانِ الذَّرِبُ، وامرأَةٌ سَليطة: طويلة اللِّسان صخّابة[9]، والمقصود بالسُّلطان في الآية: السُّلْطَةُ والحَقُّ والصّالِحُ لِإرادَةِ إقامَةِ السُّلطانِ، والمُرادُ بِهِ: ما استقرَّ في عَوائدِهِم من حُكمِ القَوَدِ[10].

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (نفس).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (نفس).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفس).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلط).
(5) الجوهريّ، الصّحاح، وابن سيده، المحكم، والفيوميّ، المصباح المنير: (سلط).
(6) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سلط).
(7) الخليل، العين: (سلط).
(8) الخليل، العين: (سلط)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 232.
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سلط).
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 93.

4) ﴿مَنصُورًا﴾: أصلُ (نصر): يَدُلُّ على إِتْيانِ خَيْرٍ وَإِيتائِه، يُقالُ: نَصَرَ اللّه المُسْلِمينَ: آتاهُمُ الظَّفَرَ على عَدوِّهِم، يَنْصُرُهُمْ نَصْرًا، وانْتَصَرَ: انْتَقَمَ، وَهوَ مِنْهُ، والنَّصرُ: عَوْنُ المَظلوم، والنُّصْرة: حُسْنُ المَعونة[1]، والنَّصير: فَعيلٌ بِمَعْنَى فاعِل أَو مَفْعولٍ؛ لأَنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنَ المُتَناصِرَيْن ناصِرٌ ومَنْصورٌ، والاسْتِنْصار: اسْتِمْدادُ النَّصْر، والتَّناصُرُ: التَّعاون على النَّصْر[2]، وأَمّا الإتيانُ: فالعَرَبُ تَقولُ: نَصَرْتُ بَلَدَ كَذا، إِذا أَتَيْتَهُ؛ وَلِذَلِكَ يُسَمَّى المَطَرُ نَصْرًا، والنَّصْرُ: العَطاءُ[3]، والمقصود بالنُّصْرة في الآية: حُصولُ عاقبةِ القِتال المَرجوَّة، والمرادُ بها: أَنَّ وَليَّ المَقْتولِ كانَ منصورًا بِحُكْم القَوَد، فلمّاذا يتجاوَزُ الحَدَّ مِنَ النَّصرِ إلى الاعتداءِ والظُّلْم بالسَّرَفِ في القَتْلِ[4].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

تحريمُ قَتْلِ النَّفْسِ بغَيرِ حقٍّ شَرعيٍّ

نهى الحَقُّ سبحانَه عن قَتْلِ النَّفْس المعصومة الدَّم، بعد نهيه عن قَتْلِ الأولاد، وعن الاقتراب من فاحشة الزِّنى؛ ومعنى الآية: ولا تَقتُلوا النَّفسَ الَّتي حرَّم اللّهُ قتلَها إلّا إذا استَحقَّتِ القَتلَ شَرعًا، ومَن قُتِل ظُلمًا بغيرِ حَقٍّ، فقد جعَلْنا لوليِّ المَقتولِ سُلطةً وتسَلُّطًا على القاتِلِ؛ فهو بالخيار: إن شاء قتَلَه قِصاصًا، وإن شاء أخَذَ الدّيةَ، وإن شاء عَفا عنه، فلا يَتَجاوَزْ وَليُّ المَقتولِ ما حُدَّ له، فيتعدَّى بقَتلِ غَيرِ القاتِلِ، أو يَقتُل بالواحِدِ اثنَينِ أو أكثَرَ، أو يُمَثِّل بالقاتِلِ؛ إنَّ وَليَّ المَقتولِ كان مُعانًا على القاتِلِ بتَسليطِه عليه بالقِصاصِ، أو بأخْذِ الدّيةِ، أو بالعفوِ[5].

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصر).
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نصر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصر).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 94.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 582، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 73، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 457، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 342.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكْتَةُ ترتيبِ النَّهي عن قتل النَّفس إثر النَّهي عنِ الزِّنى:

تقديمُ دخول الإنسان في الوجود على إبطاله وإعدامه بعد الوجود

معلومةٌ حالة العرب في الجاهليّة؛ مِنَ التَّسرُّع إلى قتل النُّفوس؛ فلذلك كان حفظُ النُّفوسِ مِن أعظم القواعد الكليَّة للشَّريعة الإسلاميَّة، وكان النَّهيُ عن قتل النَّفس مِن أهمّ الوصايا التي أوصى بها الإسلامُ أتباعَه في هذه الآيات الجامعة، وهذه هي الوصيَّة التّاسعة من جملة الوصايا الكريمة في الآيات السّابقة[1]، وقد يَرِد سؤالٌ هُنا عنِ السَّبب في أن اللّه تعالى بدأ أوَّلًا بِذِكْر النَّهي عنِ الزِّنى، وثانيًا بِذِكْرِ النَّهي عنِ القتل.

وجوابه: أنَّ فَتْحَ باب الزِّنى يمنع مِن دخول الإنسان في الوجود[2]، والقتلُ عبارة عن إبطال الإنسان بعد دخوله في الوجود، ودخولُه في الوجود مُقَدَّمٌ على إبطاله وإعدامه بعد وجوده، فلهذا السَّبب ذكر اللّه تعالى الزّنى أوّلًا، ثمّ ذَكَر القتلَ ثانيًا[3].

سِرُّ إسناد الفعل إلى ضمير الجماعة:

الإشارة الى الحال السّائدة في أهل الجاهليَّة

هذا الحُكمُ منوطٌ بالقتل الحادث بينَ الأشخاص، وهو قتل العُدْوان، وقد كان مُنتشرًا سائدًا في الجاهليَّة، فحَذّر منه أهلَ الاسلام، وبهذا يُعلم التَّوجيهُ للإتيان بضمير جماعة المخاطَبين على ما تقدّم في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ﴾ وما عُطِف عليه مِنَ الضّمائر[4].

مدى دلالةِ ﴿وَلَا﴾ النّاهية على قوّة النَّهيّ:

الجزمُ بالنَّهي لكون القتل محرَّمًا حُرمةً مُغلَّظة

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ﴾ وما قبلَه مِنَ الأفعال، جَزْمٌ بالنَّهي[5]؛

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 91.
(2) المقصود: الوجود الطَّبيعي الذي تنتظم به الحياة وتستقيم به النفوس وتنضبط به المجتمعات.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 333.
(4) البغويّ، معالم التَّنزيل: 3/ 131، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 95.
(5) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/ 452.

إذِ الأصلُ في القتل هو الحُرْمَةُ المُغلَّظة[1]؛ لأنّ النّهيَ بـ: (لا) هو الأصلُ.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿ٱلنَّفْسَ﴾ في النَّهي عن القتل:

الإشارة إلى نفاستها وعِظَم شأنها؛ تعليلًا للنّهي؛ وإبلاغًا في إنكار القتل

النَّفس هُنا الذّاتُ، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ﴾ [النِّساء: 29]، وقوله: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسَۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٖ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ [المائدة: 32] وتُطلَقُ النَّفسُ على الرّوح الإنسانيّ، وهي النَّفس النّاطقة[2]، وفي التَّعبير بالنّفس - دون أن يقال مثلًا: ولا تقتلوا أحدًا - تعليلٌ في المعنى للنّهي، أي: لا تقتلوا النّفس؛ "بسبب ما جعَل خالِقُها لها مِنَ النَّفاسة"[3].

دلالةُ التَّعبير باسم الموصول ﴿ٱلَّتِي﴾، وأثرُها في المعنى:

كون تحريم قتلها معلومًا مِن قبلِ هذا النّهي

"وُصفت النَّفسُ بالموصول والصِّلة: ﴿ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾؛ بمقتضى كون تحريمِ قتلها مشهورًا مِن قبلِ هذا النَّهي، إمّا لأنَّه تقرَّر من قبلُ بآياتٍ أُخْرَى نزلت قبلَ هذه الآية وقبلَ آية الأنعام حُكمًا مُفرَّقًا، وجُمعتِ الأحكامُ في هذه الآية وآية الأنعام، وإمّا لتنزيل الصِّلةِ منزلةَ المعلوم؛ لأنَّها ممّا لا ينبغي جهلُه، فيكون تعريضًا بأهل الجاهليَّة الذين كانوا يَستخِفّون بقتل النَّفس، بأنَّهم جَهِلوا ما كان عليهم أن يعلموه، تنويهًا بهذا الحُكم، وذلك أنَّ النَّظر في خَلْق هذا العالم يهدي العقولَ إلى أنَّ اللّه أوجد الإنسان ليَعْمُرَ به الأرض، كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: 61]، فالإقدامُ على إتلاف نفسٍ هدمٌ لما أراد اللّهُ بناءَه، على أنَّه قد تواتر وشاع بينَ الأُممِ في سائر العصور والشَّرائع مِن عهد آدمَ صونُ النُّفوسِ مِنَ الاعتداء عليها بالإعدام، فبذلك وُصِفَت بأنّها ﴿ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾، أي: عرفت بمضمون هذه الصِّلة"[4].

(1) الخازن، لباب التّأويل: 3/ 129.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 91.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 410.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 92.

نُكْتَةُ ذِكْرِ التَّحريم بعد النَّهي:

تأكيدُ النَّهي السَّابق

مِن وجوه الإبلاغ والتّوكيد في بيان عظيم ارتكابِ هذا القتل في الآية، إعادةُ ذِكْرِ النّهي: ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ﴾ بصريح التحريم: ﴿ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾؛ إبلاغًا في طَرْدِ الإقبال على هذا القتل مِنَ النّفسِ.

تعليق التَّحريم بعين النَّفس:

بيان المقصود في تغليظ تحريم قَتْلِها، وعِلَّةِ ذلك التَّحريم

علَّق النَّظمُ الكريم التَّحريمَ بعينِ النَّفس، والمقصود تحريمُ قتلِها[1]، فإذا لم نعرف في الإنسان صفةً مِنَ الصِّفات إلّا مجرد كونه إنسانًا عاقلًا، حكمنا فيه بتحريم قتله، وما لم نعرف شيئًا زائدًا على كونه إنسانًا لم نحكم فيه بحلِّ دَمِه، ولولا أنَّ أصل الإنسانيَّة يقتضي حُرمةَ القتلِ لما كان كذلك، فثبت بهذه الوجوه أنَّ الأصل في القتل هو التَّحريم، وأنَّ حِلّه لا يَثْبُتُ إلّا بأسباب عَرَضيَّة[2].

سِرُّ التَّعبير باسم الجلالة دون غيرِه:

كون المقامِ مقامَ تعظيمٍ وترهيب

آثَرَ القرآنُ التّعبيرَ باسم الجلالة: ﴿ٱللَّهُ﴾ مُسنَدًا إليه التّحريمُ؛ لتفخيم التّحريم وتعظيمِه، والتّرهيبِ منه على أبلغ الوجوه؛ فيكون في ذلك تفخيمٌ للنّهي عنِ القتل، وتعظيمُه والتّرهيبُ البالغُ مِن إتيانه؛ ذلك أنّه الاسم الجامع لجميع أسماء اللّه وصفاته، ما علمنا منها وما لم نعلم، فكأنّه قال: (التي حَرّم الرّحمن إلّا بالحَقّ)، و: (التي حَرّم الرّحيم إلّا بالحَقّ)، و: (التي حَرّم المَلِكُ إلّا بالحَقّ)، وهكذا، وهذا يعني أن في هذا التّحريم مِنَ الحِكَم، ويترتب عليه مِنَ الآثارِ ما يتعلَّقُ بالأسماء الحسنى والصّفات العُلَى، وكفى بذلك تعظيمًا وترهيبًا مِنَ القتل، وترغيبًا في الحياة والعدل والفضل، والتّعبيرُ باسم الجلالة هنا ضربٌ مِن ضروبِ الإيجاز القُرآنيّ.

---

(1) الشِّهاب الخفاجيُّ، عِناية القاضي: 6/ 48، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 91.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 333.

دلالةُ الاستثناء:

بيان القيد الوارد على النَّهي المُطْلَقِ

الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾ مُفَرّغ، أي: لا تقتلوها بسبب مِنَ الأسباب إلّا بسبب الحقِّ[1]، فقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾ قيدٌ وارد على النَّهي المُطْلَقِ، وهو أنّه وإن كان للنَّفس الإنسانيَّة هذه الحُرْمةُ التي تعصمها مِنَ القتل، فإنَّ هُناك بعض النُّفوس تُرْفَع عنها هذه العصمةُ، فتَسْتَحِقُّ القتلَ، وذلك حين يستخِفُّ صاحبُها بنفس غيره، ويستبيح دمَه، هُنا يكون القصاصُ، ويكون قتلُ القاتلِ حقًّا مشروعًا، فذلك هو العدلُ الذي إن لم يستقم ميزانُه بين النّاس على هذا الوجه، اضطرب أمنهم، وشاع الفساد فيهم، واللّه سبحانه و تعالى يقول: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [البقرة: 179][2]، وأيضًا فإنَّ "القَوَدَ مِن جملة المستثنى بقوله: ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾ لأنَّ القَوَدَ مِنَ القاتل الظّالم هو قتلٌ للنَّفس بالحَقِّ، وهذه حالة خصَّها اللّه بالذِّكر لكثرة وقوعِ العُدْوان في بقيَّة أيّام الجاهليَّة"[3].

معنى الباء في ﴿بِٱلۡحَقِّۗ﴾:

بيانُ أنَّ القتل المُستثنَى هو القتلُ المُصاحِبُ للحَقِّ

الباء في قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّۗ﴾ للمُصاحبة، وهي متعلِّقة بمعنى الاستثناء، أي: إلّا قتلًا مُلابِسًا للحَقِّ[4]، "واستُثني مِن عموم النَّهي القتلُ المُصاحِبُ للحَقِّ، أي: الذي يشهد الحَقُّ أنَّ نفسًا معيَّنةً استَحَقَّت الإعدامَ مِنَ المجتمع، وهذا مُجملٌ يُفَسّره في وقت النُّزول ما هو معروفٌ مِن أحكام القَوَد على وجه الإجمال"[5].

سِرُّ إيثارِ لفظِ ﴿بِٱلۡحَقِّۗ﴾ على غيره:

خصوصيّةُ اللّفظة هي الأبَرُّ بسياق النّهي عنِ القتل

الحَقّ بمعنى العدلِ، أو بمعنى الاستحقاقِ، أي: حَقُّ القتل، كما في

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 67.
(2) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 483.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 93.
(4) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 4/ 388، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 92.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 92.

الحديث: "فإذا قالوها (أي: لا إله إلا اللّه) عَصَموا مِنّي دماءَهم وأموالَهم إلّا بحَقّها"[1]، ولعِظَم القتلِ في حياة النّاس سلبًا وإيجابًا: كان لا بُدّ مِن حصولِ ثُبوتِ حقّيَّةِ القتلِ المشروعِ، وصِحَّةِ سببِه ثبوتًا مُحْكَمًا؛ بحيث لا يكونُ فيه أدنى شُبْهةٍ، فيكون واجبَ التنفيذِ، وهذه الخصوصيةُ المعنويةُ ليست في لفظ العدل.

والحَقُّ الذي تُقتَل به النَّفسُ هو ما فسّره النّبيّ ﷺ في قوله: "لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِم، يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلّا اللّهُ وَأَنّي رَسولُ اللّهِ، إِلّا بِإِحْدَى ثَلاثٍ: الثَّيِّبُ الزّاني، والنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، والتّارِكُ لِدينِهِ المُفارِقُ لِلْجَماعَةِ"[2]، ويتّصلُ بهذه الأشياء قطعُ الطَّريق؛ لأنَّه في معنى قتل النّفس وهي الحِرابة، ومِن ذلك الزَّندَقة، ومسألةُ تَرْكِ الصّلاة لأنَّها في معنى الكُفْر بعد الإيمان[3]. "ولمّا كان الخطابُ بالنَّهي لجميع الأمَّة - كما دلَّ عليه خطابُ الجَمعِ في الفعل في سياق النَّهي - كان تعيينُ الحَقِّ المُبيح لقتل النَّفس موكولًا إلى مَن لهم تعيينُ الحقوق، ولمّا كانت هذه الآيةُ نازلةً قبلَ الهجرة، فتَعْيينُ الحَقِّ يجري على ما هو مُتعارفٌ بين القبائل، وهو ما سيُذْكَر في قوله تعالى عقب هذا: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا﴾"[4].

العطف وأثره في معنى المعطوف:

إمّا عَطْفُ قِصَّة على قِصَّة؛ وإمّا عَطفٌ على محذوفٍ

"جُملة: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا﴾ معطوفةٌ على جُملة: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾، وهو عطف قِصَّة على قِصَّة؛ اهتمامًا بهذا الحُكم؛ بحيث جُعِلَ مُستقلًّا، فعُطِفَ على حُكم آخَر، وإلّا فمقتضى الظّاهرِ أن تكون مفصولة، إمّا استئنافًا لبيان حُكم

(1) أخرجه البخاريُّ في صحيحه، برقم: (25)، ومسلم في صحيحه، برقم: (22) (36).
(2) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (6878)، ومسلم في صحيحه، برقم: (1676).
(3) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/ 452، والعُلَيْمي، فتح الرّحمن في تفسير القرآن: 4/ 96.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 92.

حالةٍ تَكْثُر، وإمّا بدلَ بعضٍ مِن جملة: ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾"[1]، ويجوز أن تكون معطوفةً على محذوفٍ يُقَدّره السّياقُ بـ: (فمَن قَتَل نفسًا بغير حَقّ فقد عصى اللّهَ ورسولَه)[2].

مِن فوائد وصل: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا﴾، بقوله: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ﴾:

جَعْلُ الجملةِ الثّانية بيانًا لإجمال الجملة الأُولى، وتقريرًا لمضمونها

"حين كان المسلمون وقتَ نزول هذه الآية مُختلِطين في مكَّةَ بالمُشركين، ولم يكن المشركون أهلًا للثِّقة بهم في الطّاعة للشَّرائع العادلة، وكان قد يَعْرِض أن يعتديَ أحدُ المشركين على أحد المسلمين بالقتل ظُلْمًا، أمر اللّهُ المسلمين بأنّ المظلوم لا يُظلَم، فقال: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ أي: قد جعَل لوليّ المقتولِ تَصرُّفًا في القاتل بالقَوَدِ أو الدّيَة"[3]، فقولُه تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ أي: في استيفاء القصاص مِنَ القاتل، وهذا الكلام يصلُح جَعْلُه بيانًا لذلك المُجْمَل، وتقريره: كأنَّه تعالى قال: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾، وذلك الحَقُّ هو أنَّ مَن قُتِلَ مظلومًا فقد جعلنا لوليه سلطانًا في استيفاء القصاص[4].

بلاغةُ التّعبيرِ بـ: (مَن)، والحملِ على لفظِها:

الدّلالة على العموم، والإرشادُ إلى ضرورة قِلّة القتل

كلمة: (مَن) موصولة، مبتدأ، مُراد بها العمومُ، أي: (وكلُّ الذي يُقْتَلُ مظلومًا)[5]، وفي العموم يظهر العدلُ الإلهيُّ، فهذه الكلمة لفظُها مُفْرَد، ومعناها الجمع الذي يُفسَّرُ بالعموم، وقد حُمِلَ على لفظِها في جملة الصِّلة: ﴿قُتِلَ مَظۡلُومٗا﴾ وفي جملة الخبر: ﴿فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ ... ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا﴾: إنباءً بمعنيين يُرشّحان النّهي ويُؤَكّدانه؛ الأوّل: قِلّة القتلِ الذي يكون بغير حَقّ، وهذا ما ينبغي أن

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 95.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/ 378.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 93.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 333.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 95.

يكون في حياة الأُمّة، والثّاني: أنّ قتل فردٍ واحدٍ ظُلمًا - أي: بغير حق - عظيمٌ عند الله ﷻ، فكيف إذا كان المقتولُ ظُلمًا جماعةً أو جماعاتٍ؟! والمعنى الأوّل مِن هَذَين لازمٌ للمعنى الثّاني.

سِرُّ النَّصّ على المَظلوميّة في القتل:

ضرورة التّحرّي الكامل، والعدلِ الإلهيّ

قد يقال: إن معنى: ﴿مَظۡلُومٗا﴾ يدُلُّ عليه قولُه: ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾، وقولُه: ﴿فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا﴾، فكان الظّاهِرُ الاستغناءَ عن التّصريح بـ: ﴿مَظۡلُومٗا﴾، ولكنَّ العدلَ الإلهي يَظْهَرُ في التّصريح به؛ للتّنبيه على ضرورة ظهور هذه المظلوميّة ظهورًا بيِّنا كاملًا؛ حتّى لا يُفْتَحَ البابُ لادِّعائِها؛ فيترتّبَ عليها القتلُ بغير حَقٍّ وبغير ظُلم، ومِن أجلِ هذه الفائدة أيضًا دخلت الفاء على خبر الموصولِ الذي يُعامَلُ معاملة الشّرط؛ إذا قُصِد به العمومُ، والفاء معناها هنا السّببيَّة؛ تنبيهًا على ظهورِ كون هذه المظلوميّةِ حقيقيةً في ذاتها، وموجودةً في مقام القتلِ والحُكم على القاتل؛ حتّى تكونَ سببًا في إيجابِ ما دخلت عليه الفاءُ: ﴿فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا﴾، وهكذا يكون التّوجيه إذا أعربنا: (مَن) أداة شرط، وقولَه: ﴿قُتِلَ مَظۡلُومٗا﴾: شرطًا، وقولَه: ﴿فَقَدۡ جَعَلۡنَا﴾ ... جوابَ الشّرط.

والتَّعبير بالمَظلوميَّة فيه دليلٌ على أنَّ القتل المنهيَّ عنه ما كان عمدًا وعُدوانًا؛ فإنَّ الخطأ لا يُسمَّى ظُلْمًا[1]، وقد فُهم من قوله: ﴿مَظۡلُومٗا﴾ أنَّ من قُتِلَ غير مظلوم ليس لوليه سُلطان على قاتله، وهو كذلك؛ لأنَّ من قُتِلَ بحقٍّ فَدَمُهُ حلال، ولا سُلطان لوليه في قتله؛ كما أشير بذلك في حديث ابن مسعود السّابق[2].

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/ 496.

(2) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 3/ 88.

بلاغةُ صيغةِ المفعول: ﴿مَظۡلُومٗا﴾:

دلالةً على وقوع الظّلم في الزّمن الماضي، وحذف الفاعل إيجازًا وللعموم

اسم المفعول يدُلُّ على وقوع الفعل على المفعول في الزّمن الماضي، وحُكمُهُ حُكمُ الفعلِ المبني لما لم يُسَمَّ فاعلُه، فالفاعلُ فيه محذوفٌ إيجازًا وللعموم، أي: بأيِّ ظُلم كانَ، ومِن أيِّ ظالم كانَ؛ إبرازًا لصِفة العَدل الإلهيّ الذي لا يُحابي أحدًا على حسابِ أحدٍ.

دلالةُ ﴿فَقَدۡ﴾، والدّاعي إلى التّعبير بها:

تحقيق مضمون جملة (جعلنا لوليه سلطانا)، وتَحَقُّقِه

قولُه تعالى: ﴿فَقَدۡ جَعَلۡنَا﴾ أي: جعلنا له حَقَّ التَّسلُّطِ على قتل القاتل والاستيلاءِ عليه، وإجبارِه بالقصاص منه، أو أخذِ الدّيَة بالعفو عنه إن شاء الوليّ[1]، و(قد) حرفُ تحقيق يُقَرّب الماضي مِنَ الحال، وهي هُنا تُفيد تحقيقَ هذا الجعل وتَحَقُّقَه[2].

سِرُّ إسنادِ الجَعْل إلى ضمير العَظَمة (نا):

الامتنان، وهيبةُ التّشريع، والتّرغيب فيه، والتّرهيب مِن مخالفته

إن معنى جَعْلِ سلطانٍ لولي المقتول لا يكون إلّا مِنَ اللّه الواحد الأحد، فكان إسنادُ الجعل إلى: (نا) إسنادًا له إلى ضمير العَظَمة؛ لمناسبته لمقام الامتنان بهذا الجَعْل المَذْكور، الذي هو ما أرشد اللّهُ إليه أهلَ الجاهليّة مِنَ القَوَد، ولإضفاء ظِلالِ الجلال والجمال على معنى هذه الجملة: ﴿فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾، فيكون للتّشريع هيبتُه، ووراء هذا مِن المعنى عظيمُ التّرغيب في تحقيق مضمون الخبر أو جوابِ الشّرط، وعظيمُ التّرهيب مِن مخالفته.

دلالة الإفراد في قوله: ﴿لِوَلِيِّهِۦ﴾:

الإشارةُ إلى جهة الولاية، وأثرها الإيجابيّ

قال تعالى: ﴿لِوَلِيِّهِۦ﴾ أي: مَن يلي أمرَه؛ مِن وارث أو سلطانٍ حاكم عند عدم الوارث، سلطةً على القاتل، وفي إفراده - دون أن يقال: لأوليائه - إرشادٌ إلى ضرورة أن يكون واحدًا فقط عند الحُكم

(1) ملا حويش، بيان المعاني: 2/ 484.
(2) الدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم: 5/ 333، وبهجت صالح، الإعراب المفصّل: 6/ 268.

وتنفيذ المطلوب؛ حتّى لا يكثُر القتلُ؛ بسبب اختلاف آراء القرابة وغيرهم، واللّه أعلم.

سِرُّ التَّعبير بالمصدر ﴿سُلۡطَٰنٗا﴾:

الدّلالة على الحقِّ اللّازم لولي الدَّم

السُّلطان: مصدر مِنَ السُّلطة، كالغُفْران، ومعناه: الحُجّة والمُلْك الذي جُعِلَ إليه مِنَ التَّخيير في قبول الدّيَة أو العفو، وما استَقَرّ في عوائدهم مِن حُكْم القوَد[1]، وسُمّيَ سُلطانًا؛ لأنّه لا يستطيع أحدٌ أن يُنازعَه في هذا الحَقِّ، أو أن يجبرَه على التّنازل عنه[2]. "وَمِنْ نُكَت القُرْآنِ وَبَلاغَتِهِ وَإِعْجازِهِ الخَفيِّ: الإِتْيانُ بِلَفْظِ: (سُلْطانٍ) هُنا الظّاهِرِ في مَعْنَى المَصْدَرِ، أَي: السُّلْطَةِ والحَقِّ والصّالِحِ لِإِرادَةِ إِقامَةِ السُّلْطانِ، وَهوَ الإِمامُ الَّذي يَأْخُذُ الحُقوقَ مِنَ المُعْتَدينَ إِلَى المُعْتَدَى عَلَيْهِمْ؛ حينَ تَنْتَظِمُ جامِعَةُ المُسْلِمينَ بَعْدَ الهِجْرَةِ؛ فَفيهِ إِيماءٌ إِلَى أَنَّ اللّه سَيَجْعَلُ لِلْمُسْلِمينَ دَوْلَةً دائِمَةً، وَلَمْ يَكُنْ لِلْمُسْلِمينَ يَوْمَ نُزولِ الآيَةِ سُلْطانٌ"[3].

دلالةُ التّنكير في قوله: ﴿سُلۡطَٰنٗا﴾:

الدّلالة على عموم السُّلطان وشموله

قولُه تعالى: ﴿سُلۡطَٰنٗا﴾ أي: سبيلًا وحُجّةً عليه، إن شاء قتلَه، وإن شاء عفا عنه، وإن شاء أخذ الدّيَة إذا اصطلحا[4]، ففي جَعْلِ الأمر بيد الولي فتحُ الباب لتَعَدُّدِ نوعِ الحُكم على القاتل، فهذا قرينة على أن تنكير: ﴿سُلۡطَٰنٗا﴾ للعموم.

بلاغةُ الإجمالِ في اختيارِ مفردة: ﴿سُلۡطَٰنٗا﴾:

الإيماء إلى سلطانِ الإسلامِ في أخذ الحقوقِ ونُصْرةِ المَظلوم

السُّلطان لفظٌ مُجْمَلٌ غيرُ مُكتفٍ بنفسه في الإبانة عنِ المراد؛ لأنَّه لفظ مشترَك يقع على معان مختلفة، فمنها: الحُجَّة، ومنها: السُّلطان الذي يلي الأمر والنَّهي، وغير ذلك، إلّا أنَّ الجميع مجمعون على أنَّه قد أُريد به القَوَدُ، فصار القَوَدُ كالمنطوق به في الآية، وتقديرُه: فقد جعلنا

(1) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 3/ 471.
(2) الطّنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 342.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 95.
(4) السَّمرقندي، بحر العلوم: 2/ 310.

لوليه سلطانًا، أي: قَوَدًا[1]، فتلك السَّلطنة مجملةٌ، ثُمَّ صارت مُفَسَّرة بالآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى﴾، إلى قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖ﴾ [البقرة: 178][2]، فهذا السّلطانُ الذي جَعَلَهُ اللّٰهُ لولي المقتول لم يُبينه هُنا بيانًا مفصّلًا، ولكنَّه أشار في موضعين إلى أنَّ هذا السُّلطان هو ما جعله اللّٰهُ مِنَ السُّلطة لولي المقتول على القاتل، مِن تمكينه مِن قتله إن أَحبّ، ولا ينافي ذلك أنَّه إن شاء عفا على الدّيَة أو مَجّانًا[3].

غرض التَّمهيد للخبر المقصود:

تعجيلُ ما يُطَمْئِنُ نفسَ وليّ المقتول

"قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ هو في المعنى مقدِّمةٌ للخبر بتعجيل ما يُطَمْئِن نفسَ وليِّ المقتول، والمقصود مِنَ الخبر التَّفريعُ بقوله تعالى: ﴿فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِ﴾، فكان تقديمُ قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ تمهيدًا لقبول النَّهي عنِ السَّرف في القتل؛ لأنَّه إذا كان قد جَعل له سلطانًا فقد صار الحكمُ بيده، وكفاه ذلك شفاء لغليله"[4].

دلالةُ الإشارة في أنَّ القصاص مِن مهامّ وليّ الأمر:

إبطالُ تَوَلّي وَليّ المقتول قتلَ القاتلِ دون حُكمٍ مِنَ السُّلطان

"مِن دلالة الإشارة، أنّ قوله: ﴿فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ إشارةٌ إلى إبطال تَوَلّي وَليِّ المقتول قتلَ القاتلِ دونَ حُكم مِنَ السُّلطان، لأنَّ ذلك مَظِنَّةٌ للخطأ في تحقيق القاتل، وذريعةٌ لحدوث قتلٍ آخَرَ بالتَّدافع بين أولياء المقتول وأهلِ القاتل، ويَجُرّ إلى الإسراف في القتل، الذي ما حدث في زمان الجاهليَّة إلّا بمثل هذه الذّريعة"[5]، وهذا عدل وإحسان في آنٍ.

(1) الجصّاص، أحكام القرآن: 5/ 24.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 335.
(3) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 3/ 88.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 15/ 95.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 15/ 96.

الإرشاد لوليّ المَقْتول إلى سلوك طريق العدل عند المُطالبة بحَقِّه

دلالة النَّهي عنِ الإسراف في القتل:

قوله تعالى: ﴿فَلَا يُسۡرِف﴾ أي: فلا يتجاوزِ الحَدَّ المشروعَ فيه، بأن يقتل اثنين مثلًا بإزاء واحد، كما كانوا يفعلون في الجاهليَّة، إذ كانوا يقتلون القاتلَ ويقتلون معه غيرَه إذ كان رجلًا شريفًا، وأحيانًا لا يَرْضَون بقتل القاتل، بل يقتلون بدلَه رجلًا شريفًا، يكون بتجاوز القاتلِ إلى سواه ممَّن لا ذنب لهم، كما يقع في الثَّأر الجاهليِّ الذي يُؤْخَذ فيه الآباءُ والإخوة والأبناء والأقارب بغير ذنب، إلّا أنَّهم من أُسرة القاتل، ويكون الإسرافُ - كذلك - بالتَّمثيل بالقاتل، والولي مُسَلَّط على دَمِه بلا مُثْلَة، وفي الآية إيماءٌ إلى أنّ الأَوْلى للولي ألّا يُقْدِم على استيفاء القتل، وأن يكتفي بالدّيَة أو يعفو[1]، ففي مُقابل هذا السُّلطان الكبير ينهاه الإسلامُ عنِ الإسراف في القتل استغلالًا لهذا السُّلطان الذي منحه إيّاه، فالسَّرفُ: الزّيادة على ما يقتضيه الحَقُّ، وليس خاصًّا بالمال، كما يُفهم من كلام أهل اللُّغة[2]، وفيه إرشادٌ لولي المَقتول إلى سلوك طريق العدلِ عند المُطالبة بحَقِّه[3].

دلالة ترتيب النَّهي عنِ الإسراف في القتل بعد ذِكْرِ السُّلطان:

ذِكْرُ قولِه: ﴿فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ﴾ بعد ذِكْرِ السُّلطان المَذكور، يُفيد أنَّ السُّلطان المذكورَ هو ذلك القتلُ المَنهيُّ عنِ الإسراف فيه[4].

النَّهي عنِ الإسراف في القتل مِنَ الظّالم ابتداءً، ومِن وليّ الدّمِ انتهاءً

توجيه معنى قراءتي: ﴿يُسۡرِف﴾ و ﴿تُسۡرِف﴾:

في قوله تعالى: ﴿فَلَا يُسۡرِف﴾ قراءتان، الأولى قراءة حمزة والكسائيّ وخَلَف ﴿فَلَا تُسۡرِف﴾ بالخِطاب، وقرأ الباقون بالغيب[5].

وفي القراءة بالياء وجهان مِن حيثُ المعنى؛ الأوَّل: التَّقدير: (فلا

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 15/ 43.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 94.
(3) الطَّنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 8/ 342.
(4) الشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 3/ 88.
(5) ابن الجزريّ، النَّشر: 2/ 307.

ينبغي أن يُسرف الوليُّ في القتل)، الثّاني: أنَّ الضَّمير للقاتل الظّالم ابتداءً، أي: فلا ينبغي أن يسرف ذلك الظّالمُ، وإسرافُه عبارةٌ عن إقدامه على ذلك القتل الظُّلم.

وقراءة ﴿فَلَا تُسْرِف﴾ بالتاء على الخطاب، أيضًا تحتمل وجهين؛ **أحدهما**: أن يكون الخطاب للمُبتدئ القاتل ظُلمًا، كأنَّه قيل له: (لا تسرف أيُّها الإنسان)، وذلك الإسراف هو إقدامُه على ذلك القتلِ الذي هو ظُلْمٌ مَحْضٌ، والمعنى: (لا تفعل، فإنَّك إن قتلتَهُ مظلومًا استوفيَ القصاصُ منك)، **والآخر**: أن يكون الخطاب للوليّ، فيكون التَّقدير: (لا تسرف في القتل أيُّها الوليُّ)، أي: (اكتفِ باستيفاء القصاص)، ولا تطلبِ الزّيادة[1]، فالقراءتان مآلُهما واحد، وتعدُّدُ وجوهِ المعنى عليهما مِن الإحسان الإلهيّ في هذا المقام.

معنى ﴿فِّي﴾ وأثرُها الدَّلاليُّ في مدخولها:

الدّلالة على أنَّ السَّرف المقصودَ مظروفٌ في باب القتل في هذا الموضع

﴿فِّي﴾ من قوله تعالى: ﴿فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ﴾ للظَّرفيَّة المجازيَّة، لأنَّ الإسراف يجول في كسبٍ ومالٍ ونحوه، فكأنَّه مظروف في جملة ما جال فيه[2]، فدخولُ: ﴿فِّي﴾ على: ﴿ٱلۡقَتۡلِۖ﴾: صوَّرَته شيئًا يجوز تعلّقُ الإسرافِ به كالمالِ؛ تنبيهًا على أنّ بعضَ النّاس قد يشتهي القتلَ ويُحِبُّه كالمال، فَصورةُ القتلِ في ذهنه ونفسه هي الذي جعلتْهُ يسرفُ فيه، فالتّعبيرُ بـ: ﴿فِّي﴾ وما أحدثَتْهُ مِن أثر في مدخولها: تعليلٌ في المعنى للإسراف.

سِرُّ الفصل في جملة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا﴾:

تعليل النَّهي السَّابق في مجاوزة الحدِّ في القتْل، وتوكيدُهُ

وقعت جملةُ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا﴾ استئنافًا بيانيًّا؛ جوابًا عن سؤال يُثيره النّهيُ: ﴿فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ﴾؛ وهو: لماذا لا يسرف في القتل؛ وقد قُتِل مظلومًا، فلم يستأنف هو سببًا للقتل؟؛ ومَن وَثِقَ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 336.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 96.

بذلك تركَ الإسراف؛ فإنّه يكون لخوف الفوت، أو للتّخويف مِنَ العَوْد، ومضمون هذه الجملة تعليلٌ في المعنى للنّهي: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾، وتوكيدٌ له.

تعيينُ مرجعِ الضّمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾، وأثرُه في الدّلالة:

الدّعوة للكفِّ عنِ الإسراف في القتل من خلال تأكيد نُصرة المقتول ووليّ دَمِه

في تحديد مرجع الضّمير في قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ مِن قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ ثلاثة أوجه:

الأوّل: أنّه للقتيل، والمعنى: إنّه كان منصورًا في الدّنيا؛ بما جبل اللّهُ في الطّباع مِن فُحْش القتل، وكراهة كلّ أحد له، وبُغْضِ القاتل والنّفرة منه، والأخذِ على يده، وفي الآخرة بأخذ حَقّه منه مِن غير ظُلْم ولا غَفْلة"[1].

والثّاني: أنّه للوليّ، والمعنى: "أنّه تعالى نصرَهُ بأن أَوْجبَ له القِصاصَ أو الدّيَةَ، وأمَر الحُكّامَ بمعونته في استيفاء حَقِّه، فلا يَبْغِ ما وراءَ حَقِّه، ولا يَسْتزِدْ عليه، ولا يَخْرُجْ مِن دائرة أمرِ النّاصر"[2].

والثّالث: أنّه للذي يقتله ظُلْمًا وإسرافًا[3].

دلالةُ توالي المؤكِّدات في الجملة:

طَردُ تَشهّي الإسراف مِن نفس المُسْرف

أُكِّدت جملةُ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ بحرف التَّوكيد، واسميَّة الجملة، وبإقحام: ﴿كَانَ﴾ الدّالّ على أنَّ الخبر مستقرُّ الثُّبوت؛ مواجهةً لاشتهاء الإسراف في القتلِ الذي به يُنَزَّلُ المُسرِفُ منزلةَ المُنْكِرِ بشَدّةٍ، لمضمون الجملة كائنًا ما كان مرجعُ الضّمير فيها، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ مَن تجاوز حَدَّ العدل إلى السَّرف في القتل لا يُنْصَرُ[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/ 378 - 379.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/ 425.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/ 425.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 94.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القتل والإماتة:

القتلُ هو الإماتةُ بفعل فاعل، والموت أشمل

القتلُ: هو الإماتةُ أو إزالةُ الرّوح عنِ الجَسَدِ بِفِعلِ المُتَولّي لذلك، وهو ضُروبٌ مُخْتَلِفَةٌ[1]، فالقتل: الإماتة بفعل فاعل، أي: إزالة الحياة عنِ الذّات[2]، والموتُ نقيض الحياة، فهو يشمل الموت بالقتل وبغيره، قال تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ [آل عمران: 144]، والموت والقتل يؤدّي كلٌّ منهما إلى انتهاء الحياة، لكنَّ القتلَ يُنهي الحياةَ بنقض البِنْيَةِ، ولذلك يَقْدِر البعضُ مِنَ البشر على البشر فيقتلون بعضَهم بعضًا، لكن لا أحد يستطيع أن يقول: أنا أريد أن أُميتَ فلانًا، فالموت هو ما يجريه اللّهُ على عباده مِن سلبٍ للحياة بنَزْعِ الرّوح[3]؛ وعليه: فالقتل إزالة الرّوح عن الجسد كالموت، لكن إذا اعتُبِر بفعل المُتولي يُقال: قَتَلَ، وإذا اعتُبِر بفوت الحياة فالموتُ.

السُّلطان والبُرهان:

البُرهان الحُجّة الفاصلة البَيّنة، والسُّلطان أعمُّ

البُرهان: الحُجّة الفاصلة البيّنة، يقال: بَرهَنَ يُبَرهِنُ بَرهَنَةً، إذا جاء بحُجّةٍ، قاطعة لِدفع الخَصم، فهو مُبَرهِنٌ[4]، فيُبَرهِنُ بمعنى يُبَيِّن، وقد بَرهَنَ عليه: أَقام الحُجّة، قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١١١﴾ [البقرة: 111]، وفي الحديث: "الصَّدقةُ بُرهان"[5] أي: هي دَليلٌ على صِحّة إيمانِ صاحبها؛ لطيب نَفسِه بإخراجها، وذلك لعَلاقةِ ما بين النّفس والمال[6].

أمّا السُّلطان عند العرب فيُطلَق على الحُجَّة، ويُذكَّر ويُؤَنَّث، فمَن ذَكَّر السُّلطان ذَهب به إلى معنى الرَّجل، أو الدّليل، ومَن أَنّثَه ذهب

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 104.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 91.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 3/ 1503.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (برهن).
(5) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (223).
(6) الزَّبيديّ، تاج العروس: (برهن).

به إلى معنى الحُجَّة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾﴾ [هود: 96] أَي: وحُجَّة بَيِّنة، والسُّلطان: الحاكم، وإِنَّما سُمّيَ سُلطانًا لأَنَّه حُجَّةُ اللّه في أَرضه، أو هكذا ينبغي أن يكون[1]، وقولُه تعالى: ﴿هَلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقة: 29] معناه: ذهبت عنّي حُجَّتي[2]، فالسُّلطانُ أعمُّ.

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 217.

(2) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 10/ 31، وابن جزي، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/ 407.

﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ٣٤﴾ [الإسراء: 34]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

النّهيُ عن إتلاف الأموال بعد النّهي عن إتلاف النّفوس، بجامع عِزّتهما في النّفوس

لَمّا ذكَرَ اللهُ تعالى النَّهيَ عن إتلافِ النُّفوسِ، أتبَعَه بالنَّهي عن إتلافِ الأموالِ؛ لأنَّ أعَزَّ الأشياءِ بعدَ النُّفوسِ الأموالُ، وأحَقُّ النّاسِ بالنَّهي عن إتلافِ أموالِهم هو اليَتيمُ؛ لأنَّه لِصِغَرِه وضَعفِه وكَمالِ عَجزِه يَعظُمُ ضَرَرُهُ بإتلافِ مالِه؛ فلهذا السَّبَبِ خَصَّهم اللهُ تعالى بالنَّهي عن إتلافِ أموالِهم[1].

وأيضًا: فإنَّه لَمّا نهى عنِ الإغارةِ على الأرواحِ والأبضاعِ التي هي سَبَبُها؛ أتبَعَه النَّهيَ عن نَهبِ ما هو عَديلُها؛ لأنَّ به قِوامَها - وهو الأموالُ -، وبدأ بأحَقِّ ذلك بالنَّهي؛ لشِدَّةِ الطَّمعِ فيه، لضَعفِ مالِكِه، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَالَ﴾: أصلُ (مول): كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، هي تَمَوَّلَ الرَّجُلُ: اتَّخَذَ مالًا[3]، فالمالُ: كُلُّ ما يَمْلِكُهُ الإنسانُ مِنَ الأَشْياءِ، كالعَقارِ، والنُّقودِ، والحَيَوانِ، يُقالُ: مالَ الرَّجُلُ، يَمولُ، مَوْلًا: إذا صارَ ذا مُلْكٍ، والتَّمَوُّلُ: طَلَبُ المالِ، تقول: تَمَوَّلَ الشَّيْءَ: إذا اتَّخَذَهُ مالًا، وسُمّيَ ما يَمْلِكُهُ الإنْسانُ مالًا؛ لأنّ النّاسَ يَميلون إليْهِ، ويُطْلَقُ على الذَّهَبِ والفِضَّةِ، والمالُ عِندَ العَرَبِ: الإبِلُ؛ لِكَوْنِه أَنْفَسَ أَمْوالِهِم[4]، والمُرادُ به في الآيَةِ: كُلُّ ما يَتَمَلَّكُهُ الإنسانُ وكانَ لَهُ قيمَةٌ.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 336.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 411.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مول).
(4) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، والفيوميّ، المصباح المنير، وابن منظور، لسان العرب: (مول).

2) ﴿أَشُدَّهُۥ﴾: (شدّ): أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على قوّةٍ في الشَّيْءِ، وَفُروعُهُ تَرْجِعُ إليهِ، يُقال: شَدَدْتُ العَقْدَ شَدًّا، أيْ: قَوَّيْتُهُ، والشَّدُّ: الرَّبْطُ والعَقْدُ، والشِّدَّةُ: الصَّلابَةُ، يُقال: حَجَرٌ شَديدٌ، أيْ: صُلْبٌ، وتأْتي بِمعنى الإِحْكام، وكُلُّ شَيْءٍ أُحْكِمَ فقد شُدَّ، والأَشُدُّ: العِشْرون، ويُقالُ: أَرْبَعونَ سَنَةً، وَبَعْضُهُمْ يَقولونَ: لا واحِدَ لَها، وَيُقالُ: بَلْ واحِدُها شَدٌّ[1]، والمراد بها في الآية: أن يتناهَى في الثَّباتِ إلى حدِّ الرِّجالِ، أو يبلُغ مُنْتَهى شَبابه وقوَّته.

3) ﴿ٱلْعَهْدَ﴾: أصلُ (عهد): يدلُّ على الاحتِفاظِ بِالشَّيءِ وإِحداثِ العَهْدِ بِهِ، والعَهْد يأتي في أَشياء مُختلفَة؛ فَمنها: الحِفاظُ ورعايةُ الحُرْمَة، وَمِنْها: الوصيّة؛ وَإِنَّما سُمّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّ العَهْدَ مِمّا يَنْبَغي الاحْتِفاظُ بِهِ[2]، والعَهْدُ: الأمان، وَمِنَ العَهْد أَيضًا: اليَمين يَحْلِفُ بها الرَّجُل، وكذلك: الالتِقاءُ والإلمامُ، يُقالُ: ما لي عَهْدٌ بكذا، وإنَّه لقريبُ العَهْد بِهِ، والعَهْدُ أيضًا: المنزلُ الَّذي لا يكادُ القوم إذا انْتَأَوْا عنه رجَعوا إليه[3]، والعهد كذلك: الميثاق، ومِنه قَوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ [النّحل: 91][4]، والمَعهَد: المَوضِعُ الَّذي كنتَ عهِدتَه أَو عهِدتَ بِهِ هوًى لَك[5]، والمقصودُ بالعَهْدِ في الآيةِ: الأمر الموثّق الَّذي لا يجوز نقضُه.

4) ﴿مَسْـُٔولًا﴾: أَصْلُ (سأل) كلمةٌ واحدة معناها: الاسْتِدْعاءُ والطَّلَبُ، يُقالُ: سَأَلَ يَسْأَلُ سُؤالًا وَمَسْأَلَةً، وَرَجُلٌ سُؤَلَةٌ: كَثيرُ السُّؤالِ[6]، ويُقالُ: سَأَلْتُهُ عَنْ عِلْمٍ سُؤالًا ومَسْأَلَةً، أي: طَلَبْتُ مَعْرِفَتَهُ، والمسؤولُ: كِنايَةٌ عَنِ المُحاسَبِ عليهِ، والسُّؤالُ إذا عُدّي بـ (عَن) فهو طَلَبُ معرفَة المَجْرور بـ (عَن)، وإذا عُدّيَ بِنَفْسِهِ فهو طَلَبُ إعطاءِ الشَّيءِ[7]، والمُراد بـ﴿مَسْـُٔولًا﴾ في الآية: الَّذي يسأَلُهُ مُستَحِقُّهُ ويُطالِبُ به.

---

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 254، والسّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 64، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب: (شد).

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (عهد).

(3) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (عهد).

(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عهد).

(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والنّوويّ، تهذيب الأسماء واللّغات: (عهد).

(6) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، ولسان العرب: (سأل).

(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 248.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقولُ تعالى: ولا تقرَبوا أموالَ اليتامى إلّا بالطَّريقةِ التي هي أحسَنُ لهم، بالمُحافظةِ عليها وتثميرِها وتنميتِها، حتّى يبلُغَ اليَتيمُ سِنَّ البُلوغِ والرّشدِ، ويتمكَّنَ مِنَ التّصرُّفِ في المالِ، فيُدفَعَ إليه مالُه، ثمّ يأمرُ اللّهُ تعالى بالوفاءِ بالعهدِ، فيقول: وأتِمّوا الوفاءَ بالعُهودِ، وكونوا أَوفياءَ بكلِّ ما عاهدتمُ اللّهَ على القيام به، مِن تنفيذ أوامره واجتناب نواهيه، وفي جُملة ذلك رعايةُ اليتامى وما عاهدتمُ النّاسَ عليه ممّا يَصِحّ فيه العَهْدُ شرعًا، فلا تُخَيّبوا رجاءَهم، ولا تقطعوا آمالَهم الَّتي عقدوها عليكم في إصلاح أمرهم، إنَّ العَهد سيسألكم عنه ربُّكم يومَ القيامة، فأوفوا به ولا تضيّعوه(1).

كلُّ تَصَرُّف مع اليتيم أو في ماله لا يقع في دائرة الأنفع والأحسن منهيٌّ عنه

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكْتَةُ ترتيبِ النَّهي عن قُرْبانِ مالِ اليتيم إثْرَ النَّهي عمَّا مضى:

تنهى هذه الآية الكريمة عن حُرمة من حُرُمات اللّه، وهي مال اليتيم، التي هي أشبه بحُرمة النَّفس، التي حَرَّم اللّه قتلَها إلّا بالحَقِّ(2)، وهي مِن أهَمّ الوصايا التي أوصى اللّهُ بها في هذه الآيات؛ لأنَّ العرب في الجاهليَّة كانوا يَستحلّون أموالَ اليتامى لضَعفهم عن التَّفطُّن لَمن يأكل أموالَهم، وقِلَّةِ نصيرهم لإيصال حقوقِهم، فَحَذَّر اللّهُ المسلمين مِن ذلك لإزالة ما عسى أن يبقى في نفوسهم مِن أثرٍ مِن تلك الجاهليَّة، وهذه الوصيّة العاشرة(3).

الإشارةُ إلى كونها عادةً مِن عادات الجاهليَّة، وتحذير المُسلمين منها

بلاغةُ التَّعبيرِ بالنهي عن قُربان مال اليتيم:

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ معنيان:

المُبالغةُ في حُرمة التَّصرُّف في مال اليتيم على وجه غير شَرْعيٍّ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 591، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 457، ومجمع البحوث، التَّفسير الوسيط: 5/ 755.

(2) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 485.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 96.

الأوّل: حرمة التّصرّف في ماله بغير وجه شرعيّ، أي: في حالة انتفاء معنى المُستثنى: ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾؛ فيكون القرآنُ قد عبَّر بالقُرْبانِ من مال اليتيم في سياق النّهي؛ مبالغةً في مراعاة حقِّه والحفاظِ عليه وعلى ماله، وتعظيمًا لمقامِه؛ لكونه مَحَلَّ الطّمع الشّديدِ؛ لما به مِن صِغَرٍ وضَعفٍ وهَوانٍ، وهذا إبلاغٌ في بيانِ حُرْمة التّصرّف في ماله على وجهٍ غير شرعيّ، وبهذا يتغايرُ هذا النّهيُ مع النّهي في آية: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ﴾؛ لأنَّه نهيٌ عن إتيانه وفعله في الأصل، وأمّا هنا فليس القُرْبانُ تعبيرًا عن التّصرّف فيه؛ فيكون التّصرّف فيه مقصودًا، فالقُرْبانُ هو المقصودُ.

والثّاني: جوازُ التّصرّفِ فيه؛ إذا كان بوجه شرعيّ، أي: في حالة ثبوت معنى المُسْتَثنى؛ فيكون القرآنُ قد عبَّر بالقُرْبانِ مِن مال اليتيم عنِ التّصرّف فيه في سياق النّهي؛ لنفس غرض المبالغة، وهذا إبلاغٌ في النّهي، ودعوةٌ إلى الحَذَر البالغ في حالة التّصرّف فيه، وعلى هذا يلتقي النّهي هنا مع النّهي في قوله: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ﴾؛ لأنّ كلًّا منهما نهي لازم القُرْبان؛ مِن فعل الزّنا هناك، ومِن التّصرّف في المال هنا.

والمعنى الجامع للمعنيين - وهو معنى الآية بإيجاز -: لا تتصرفوا في ماله "إلّا بالخصلة والطّريق التي هي أحسنُ الخصالِ والطّرائق، وهي حِفْظُه واستثمارُه"[1].

المَنهيُّ عنه مِن أحوال الجاهليَّة، وعلى المُجتمع الإسلاميّ مُخالفة أحوالهم

سِرُّ إسناد الفعل إلى ضمير الجماعة:

القول في الإتيان بضمير جماعة المخاطَبين كالقول في سابقيه؛ لأنَّ المَنهيّ عنه مِن أحوال أهل الجاهليَّة[2]، والخِطاب في هذه الآية للأوصياء الذين هم مُعدّون لقُرب مال اليتامى، ثُمَّ لَمن تَلَبّس بشيء

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/ 425.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 96.

مِن أمر يتيم مِن غير وصيّ[1]، وجاء النَّهي عن قُرب مال اليتيم إلّا بالتي هي أحسن في صيغة الجمع؛ لتكون الجماعة كُلُّها مسؤولة عنِ اليتيم وماله، فهذا عهدٌ عليها بوصفها جماعة، ولأنَّ رعاية مال اليتيم عهد على الجماعة أُلِحَق به الأمرُ بالوفاء بالعهد إطلاقًا[2].

دلالة الإضافة في قوله: ﴿مَالَ ٱلۡيَتِيمِ﴾:

كونُ مالِ اليتيم مستباحًا

خَصَّ النَّظمُ الكريم إضافةَ المالِ إلى اليتيم تعظيمًا لحُرمته، وتنبيهًا على رعاية حقِّه؛ لأنَّه إلى ذلك أحوَجُ، والطَّمعَ في ماله أكثَرُ[3]، وإذا كان اليتيم ذا مال، تهافت عليه الطّامعون، كما يتهافت الذُّباب على الطَّعام الحُلو الذي لا حاميَ له، فتُعْقَدُ نفسُ اليتيم بما يُحِسّ به مِن طمع النّاس، وأكلهم مالَه أكلًا لمًّا، ويُحِسّ كأنَّه في مأدُبة لِئام، ولأنَّه يناله الحِرمان والقهر، وهو ذو مال، ولذا نهى اللّهُ تعالى عن أخذ ماله، ووجوب رعايته، والمُحافظة عليه[4].

سِرُّ تخصيص اليتيم بالذِّكر مِن بين ضَعَفَةِ النَّاس:

حـالُ اليتيم ذُو أثر بالغ في مجتمعه سلبًا وإيجابًا

خُصِّصَ اليتامى بالوصيَّة لضعفهم، وكمال عجزهم عنِ التَّفطن لِمَن يأكل أموالَهم، وقِلَّةِ نصيرهم لإيصال حقوقهم[5]؛ ولأنّ حالَ اليتيم ذو أثر عظيم في مجتمعه، سلبًا وإيجابًا؛ فلهذا اختصّت الوصيةُ به، فاليتيم إمّا أن يكون قوَّةً بانيَةً في الجماعات، أو قوَّةً هادمة، فإن روعيَ حَقَّ رعاية، وحوفِظَ عليه بالصّيانة والتَّربية والتَّنشئة نشأةً صالحة، يُحِسُّ بأنَّ مَن حَوْلَه يرعاه ويَكلؤُه ويحميه، نشأ مُحِبًّا رحيمًا بغيره، لأنَّه عاش برحمة غيره، وإن نشأ في بيت لا يُؤنسه ولا يكرمه، ولا يعطيه محبّة ورفقة، نشأ عدوًّا للجماعة،

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/ 453.
(2) شحاتة، تفسير القرآن الكريم: 15/ 2853.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 3/ 241.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4377.
(5) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 15/ 44، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 96.

وكان فيه ما يُسمَّى عُقدةُ النَّفس، أو مُرَكَّبُ النَّقص، ولذا عُنِيَ به الإسلامُ أبلغَ عنايةٍ بنصوص القرآن الكريم مثلِ قولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾ [الضُّحى: 9]، وقولِه تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ﴾ [البقرة: 220]، والقرآنُ الكريم قد حَثَّ على مخالطة اليتامى لأنَّ المُخالطة مع الإكرام تؤنسهم وتبعد عنهم الوحشة[1].

التَّوفيق بين النَّهي عن قربان مال اليتيم إلَّا بشرطه، وبين الإذن بالأكل:

الإشارة إلى أنَّ الأكل بالمعروف من مال اليتيم هو مِن ثمرات الإحسان فيه

مالُ اليتيم، قد حرَّم اللّه ﷻ أن يقربه أحدٌ إلّا بالتي هي أحسن، أي: بما فيه إحسانٌ إلى اليتيم، وتنميَةٌ لماله، وتثميرٌ له، وبهذا يستحِقُّ القائمُ على هذا المال أنْ يأكل منه، في مُقابِل الجهد الذي يُبذل فيه، فلا يتعاندُ ما هنا مِن نهيٍ مع قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ﴾ [النِّساء: 6][2].

بلاغةُ القصر بالنّفي معَ الاستثناء:

الـدّلالـة على قَصْرِ قُربان مال اليتيم والتَّصرُّف فيه على صفة الوجه الأحسن

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ قَصْرٌ بالنَّفي والاستثناء، وهو قصر إضافيّ؛ لأنّ الخطابَ لقوم يثبتون حُكمًا عكسَ الحُكم الذي تُقَرِّرُه الآيةُ؛ فقد كان مِنَ العربِ مَن يستَحِلُّ أموالَ اليتامى؛ لما بهم مِن ضَعفٍ وهوانٍ بينَ الناسِ، ولذلك كان الفاعلُ ذلك كأنّه مُنكِرٌ بلسان حاله الحُكم الذي تضمَّنَتْه جملةُ القَصر؛ فجيء بالنّفي والاستثناء، وهو قصرُ موصوفٍ على صِفة، أي: قَصْرُ التّصرّف في مال اليتيم على صفةِ أن يكون بالطّريقة التي هي أحسنُ؛ حِفظًا وتنميةً واستثمارًا.

صيغة التّفضيل: ﴿أَحْسَنُ﴾:

﴿أَحْسَنُ﴾ على صيغة أَفْعَلُ، فإن كان في الأشكال فهو على غاية

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4377.
(2) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 485.

الحُسْن، و إن كان في الجَوهَر فهو على طَلَب الحُسْنِ؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزُّمر: 55] أي: اتَّبعوا ما هو طاعة[1]، والمعنى هنا: اقربوه بالفَعْلَةِ التي هي أحسن، والخَلَّةِ التي هي أجمل، وذلك أن تتصرّفوا فيه له بالتَّثمير والإصلاح والحيطة[2]، وذلك بالمحافظة عليه والعمل على تنميته، وإعطائه اليتامى في وقت قُدرتهم على إدارتهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ [النِّساء: 6][3].

الإرشـاد إلى التَّصرُّف بالفَعْلَةِ التي هي أحسن، والخَلَّةِ التي هي أجمل

دلالة حَذْفِ الموصوف:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ هو على الإضمار، أي: لا تقربوا مال اليتيم إلّا بالوجوه التي هي أحسن له وأنفع، وهو الحِفظ له وطلبُ الرِّبح والنَّماء[4]، وهذا فتحٌ لباب الإحسانِ إلى هذا اليتيم.

الإشـارة إلى تَعدُّد وجوهِ الإحسان في مال اليتيم

دلالة ﴿حَتَّىٰٓ﴾ وتعيين مُغيَّاها:

(حَتّى) من قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ غايةٌ لجواز التَّصرُّف على الوجه الأحسن المَدلولِ عليه بالاستثناء: ﴿يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾[5]، فليس غايةً للنَّهي؛ إذ ليس المعنى: فإذا بلغ أشُدَّه فاقربوه، لأنَّ هذا المعنى يقتضى إباحةَ أكلِ الولي لمال اليتيم بعد بلوغه، وإنَّما هو غاية لما يُفهَم مِنَ النَّهي، فيكون المعنى: لا تقربوا مالَ اليتيم إلّا بالطَّريقة التي هي أحسن، واستمِرّوا على ذلك حتَّى يبلغَ أشُدَّه، فيصيرَ بالغًا عاقلًا رشيدًا، فإذا ما صار كذلك، فَسَلِّموا إليه مالَه بأمانة واستعفاف عنِ التَّطلُّع إلى شيء منه[6].

الدّلالة على غاية جواز التَّصرُّف على الوجه الأحسن

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنَّة: 7/ 43.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 60.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4378.
(4) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنَّة: 7/ 43.
(5) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 16/ 106.
(6) الطَّنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 8/ 347.

صيغة: (الأَشُدّ) بينَ الجمع والإفراد:

الدّلالة على إيناس الرُّشد واستحكام القُوَّة بالبلوغ

في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ﴾، (الأَشُدُّ) قيل: جمع شُدّ، كالأَضُرِّ جمعُ ضُرّ، والشَّدُّ القوّة، وهو استحكام قوّة الشَّباب والسِّنّ، كما أنَّ شَدّ النَّهارِ ارتفاعُه، وقيل: هو جَمْعُ شِدَّة، مثل: نِعْمَة وأَنْعُم، وقال بعضُ البَصريين: هو واحدٌ، مثل الآنُك، والمُراد ببلوغه الأَشُدّ: بلوغُه إلى حيثُ يُمَكِنُه بسبب عقله ورُشْدِه القيامُ بمصالح مالِه، ثُمَّ التَّصرُّف بمال اليتيم بنحو الأكل على غير الوجه المأذون فيه مِنَ الكبائر[1]، فالأَشُدُّ: هو إيناس الرُّشْد منه بعد بلوغه[2].

دلالةُ ترتيب الأمرِ بالوفاء بالعهد عقِبَ ما سبقَه:

إتباعُ النَّواهي بالأوامر، وأنَّ كُلًّا منها هو مِن عهد الله

بعد أَنْ نهى اللّهُ عنِ الزِّنى والقتل وأكلِ مالِ اليتيم، أتبعَها بثلاثة أوامر، فقال: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ﴾ أي: وأوفوا بما عاهدتمُ اللّهَ عليه مِنِ التزام ما كلَّفَكُم به، وما عاهدتمُ النّاسَ عليه مِنَ العقود التي تتعاملون بها في البيوع والإجارة ونحوها، فكُلُّ ما أمر اللّهُ به ونهى عنه فهو مِنَ العهد[3].

وجه الرَّبْط بينَ النَّهي عن قُربان مال اليتيم وبين الأمر بالوفاء بالعهد:

بيانُ أنَّ الوصيَّة بمال اليتيم نوع مِن أنواع العهد

"قد يسأل سائل، فيقولُ: لماذا اجتمع الأمر بالوفاء بالعهد مع النَّهي عن قُرب مالِ اليتيم إلّا بالتي هي أحسن في آية واحدة؟.

والجواب: أنَّ ذلك يُشير أوَّلًا: إلى أنَّ اليتيم مع كافله كأنَّه في عهد أمانة، عاهد اللّهَ تعالى عليه فلا يُضَيّع ذلك العهدَ، ويُشير ثانيًا: إلى أنَّ العقد في مال اليتيم يجب الوفاءُ به كما يجب الوفاء في مال غيره، ويُشير ثالثًا: إلى أنَّه مسؤول أمامَ اللّه عمّا فعل في مال اليتيم"[4]، وأيضًا لمّا كانتِ الوصيةُ بمال اليتيم

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 68.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 411.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 15/ 44.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4380، بتصرف يسير.

نوعًا مِن أنواع العهد، أمر بوفاء ما هو أَعمُّ منها، فقال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ﴾[1].

دلالةُ صيغة الأمر في: ﴿وَأَوۡفُواْ﴾:

الدّلالة على وجوب الوفاء بالعهد والقيام بحفظه على الوجه الشّرعيّ

الأمرُ في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ﴾ للوجوبِ، أي: وجوبِ الوفاءِ بالعهد والقيام بحفظه على الوجه الشّرعيّ والقانونِ المَرضي[2]، والمعنى: أوفوا بما عاهدتمُ اللّهَ عليه مِنِ التزام ما كلّفكم به، وتحقيقِ ما تمّ عليهِ العَهدُ وافيًا تامًّا، بلا نقضٍ، ولا إخلافٍ، ولا نقص، وما عاهدتمُ النّاسَ عليه مِنَ العقود التي تتعاملون بها في البيوع والإجارة ونحوها، ممّا يسأل اللّهُ ﷻ عنِ الوفاء به، ويحاسبُ مَن يَنكُثُ به وينقضُهُ، وقد أَكّدَّ الإسلامُ على الوفاء بالعهد، وشَدَّد على إيجاب الوفاء به؛ لأنَّ هذا الوفاءَ مناطُ الاستقامةِ والثِّقة والنَّظافة في ضمير الفرد وفي حياة الجماعة، وقد تَكَرَّر الحديثُ عنِ الوفاء بالعهد في صور شتَّى في القرآن والحديث؛ سواء في ذلك عهدُ اللّه وعهدُ النّاس[3].

معنى الباء في قوله: ﴿بِٱلۡعَهۡدِۖ﴾:

إفادة السَّببيّة المُفضية إلى الوفاء

الباء في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡعَهۡدِۖ﴾ للسّببيّة، والمعنى: أوفوا بسببه؛ ليتحَقَّق الوفاءُ به، ولا يحصل فيه نقصٌ ما، وهو العقد الذي يُقَدّم للتَّوثُّق[4]، وعلى هذا فقوله: ﴿بِٱلۡعَهۡدِۖ﴾ لا يتعلّقُ بالوفاءِ عملًا؛ لأنّ المقصود مِنَ الأمر بالوفاء حينَئذٍ هو إثبات معناه في نفسه، مِن غير تعَلّق بشيءٍ، والمعنى: "﴿وَأَوۡفُواْ﴾ أي: أوقعوا هذا الجنس في الزّمان والمكان، وكلّ ما يتوقّفُ عليه الأمرُ المعاهَدُ عليه، ويتعلّق به"[5]، ويجوز أن يتعلّق به عملًا، فلا تكون الباء للسّببيّة، وإنّما هي للمُلابسة،

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 411.
(2) القنوجيّ، فتح البيان في مقاصد القرآن: 7/ 389.
(3) الهواريّ، تفسير كتاب الله العزيز: 2/ 414، وشحاته، تفسير القرآن الكريم: 15/ 2853.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 412.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/ 379.

وحينَئذٍ يكون في الأمر بالوفاء به مبالغةٌ؛ لأنّ الوفاءَ لا يتسلّط عليه مباشرة، وإنّما على مقتضاه ولازمه، أي: أنّ "الإيفاء بالعهد والوفاء به هو القيام بمقتضاه، والمحافظةُ عليه، ولا يكاد يُستعمل إلّا بالباء؛ فرقًا بينَه وبين الإيفاء الحِسّيّ، كإيفاء الكيل والميزان"[1].

دلالة التَّعريف في ﴿بِٱلۡعَهۡدِۖ﴾:

إفادةُ الجِنْسِ المُستغرِق للعهد بكلا نوعيه

التَّعريف في لفظة ﴿بِٱلۡعَهۡدِۖ﴾ للجنس المُفيد للاستغراق، حيثُ يشمَل العهدُ ما من شأنه أن يُراعَى ويُحفظ، كالوصيّة واليمين، وعهدُ اللّه: أوامرُهُ ونواهيه، وعهدُ النّاسِ: ما يتعاهدون عليه مِن معاملات وعقود، وغير ذلك مما تقتضيه شؤون حياتهم؛ فيكون في ذلك توكيدٌ للنّهي: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ﴾؛ لأنّ الأمر بالوفاء بالعَهْد على العموم، يدخل فيه الوفاءُ بهذا النّهي بطريق اللّزوم، فالمعنى: وأوفوا بالعهود التي بينكم وبينَ اللّه تعالى، والتي بينَكم وبين النّاس، بأن تُؤَدّوها كاملةً غيرَ منقوصة، وأن تقوموا بما تقتضيه مِن حقوقٍ شرعيَّة[2]، ومن هذا العهد الذي عاهدوا عليه النَّبيَّ، وهو البيعةُ على الإيمان والنَّصر، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾ [النَّحل: 91]، وقوله: ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ﴾ [الأنعام: 152]، وهذا التّشريع مِن أصول حُرمة الأُمّة في نَظَرِ الأُمَم، والثّقة بها[3]، فالعهد إذًا لفظٌ عامٌّ لكلّ عهدٍ وعَقْدٍ بينَ الإنسان وبينَ ربِّه، أو بينَه وبينَ المَخلوقين في طاعة[4].

إعادةُ لفظةِ العهد:

الاهتمامُ بالعَهْد، وبمضمون الجملة الآمِرة بالوفاء به

إعادة لفظِ العهد في مقام إضماره في قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ﴾؛ للاهتمام به، ولتكون هذه الجملةُ مُستقِلَّةً، فتَسْري مَسَرى المَثَل[5].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/ 425.
(2) الطَّنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 8/ 348.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 97.
(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/ 455.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 97.

سِرُّ فصل جملة: ﴿إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ عمّا قبلها:

بيانُ كونِها تعليلًا للأمر السّابق في وجوب الوفاء بالعهد

فُصِلَت جملة: ﴿إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ لكونها جاءت تعليلًا للأمر السّابق في الوفاء بالعهد، أي: للإيجاب الذي اقتضاه[1]، ولاختلاف الجُملَتين خَبرًا وإنشاءً، وجملة الأمر: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ﴾ مِن لوازم معنى جملة: ﴿إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾، فيكون في التّعليل توكيدٌ في المعنى للمُعلَّل، وهذا يتجاوز علاقةَ الإنشاء والخبر.

دلالةُ تَعَدّد المؤَكّداتِ في الآية وغرضُها:

التّأكيد على لُزوميَّة الوفاءِ بالعهد، والتَّخويفُ مِن نقضه وإضاعتِه

ما عُلِّلَ الأمرُ بالوفاء بالعهد إلّا لأهمّيَّتِه في السّياق، وللعِلْم بمُخالفته مِن كثيرين، يدُلُّ لسانُ حالهم على هوانِ هذا الأمر في نفوسهم، كأنّهم يُنكرونه ولا يُبالون به؛ فجاءَ هذا التّعليل مُؤَكَّدًا بأكثر مِن مؤكِّدٍ لذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾، فـ﴿إِنَّ﴾، واسميّة الجملة، و﴿كَانَ﴾ الدّالّة على الكون الدّائم الْمُلازم، أي: كونًا مُؤَكّدًا عنه[2]، كلُّ أولئك؛ لتأكيد لزوميَّة الوفاءِ بالعهد، والتَّخويفِ الشَّديد مِن نقضه وإضاعته.

أنواع المَجاز في قوله: ﴿كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾، ودلالاتُها:

إجراء الاستعارتين في تمثيل العهد كأنَّه ذاتٌ مِنَ الذَّوات؛ تَبكيتًا للنَّاكث

يجوز أن يكون السُّؤال في قوله تعالى: ﴿كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ موَجَّهًا للعَهْد، كأنَّه يُقال للعهد: لم نُكِثْتَ؟ وهَلّا وُفِّيَ بِكَ؟ كما يُقال للمَوؤدَة: بأيّ ذنبٍ قُتِلَت؟[3]، فلمّا كان العِلْم بالنَّكْثِ والوفاءِ مُتحَقِّقًا، كان العهدُ نفسُه كأنَّه هو المَسؤول عن ذلك، فيكون رقيبًا على الفاعل به[4]، وإسنادُ السُّؤالِ إلى العهد هُنا استعارةٌ تخييليَّة، قرينةٌ على الاستعارة المَكنيَّة؛ لأنَّ شرطها مُتَحَقِّقٌ، وهو كونُ المذكورِ مُشَبَّهًا والمُشَبَّهُ به متروكًا، ويُقال في إجراء الاستعارتين: شَبَّه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 97.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 412.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 665، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 3/ 254.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 412.

العهدَ بشخص يَصْدُر عنه النَّكْثُ ونقضُ العهدِ، وأسندَ إليه ما هو مِن خَواصّ المُشَبَّهِ به، وهو قابليّةُ السُّؤالِ، وحَذَفَ المُشَبَّه به، وهذا استعارةٌ مكنيَّة[1]، والتَّخييل في تمثيل العهدِ كأنَّه ذاتٌ مِنَ الذَّوات تُسألُ: لمَ نُكِثْتَ؟ دلالةً على المُطاوعة بنُكْثِه، وفي كلّ هذا تَبْكيتٌ للنّاكث، وإلزامُ ما يتَّرتب على نَكْثِه[2]، وفي مجموع الاستعارتين تنويهٌ بهذا العهدِ، وتشديدُ النَّكير على مَن يَغْدِر به، إذ جاء النَّظمُ مُصَوِّرًا العهدَ، بتلك الصّورةِ الحَيَّة العاقلة، التي ترى وتَعْقِل ما كان مِن أصحابها مِن غَدْرٍ أو وفاءٍ، فإن هي سُئِلَت أجابت[3].

ويجوز أن يكون المجازُ إسناديًّا؛ أي: إسنادُ اسم المفعول إلى ضمير العهد؛ حيثُ أُسنِد إلى ضمير المفعول الثّاني، والفعل لا يقع عليه في الحقيقة، وإنّما يقع على المفعول الأوّل، أي: ممثلِ صاحبِ العهدِ عنه، وفي هذا التّجوّز بالإسناد تبكيتٌ للنّاكِث؛ فالسّؤالُ لمْ يوجَّهْ إليه؛ استهانةً به، وإهمالًا لشأنه، فهو لا يَستَحِقّ شَرَفَ الخطابِ، وإنّما وُجِّهَ إلى العَهْدِ، وفي ذلك حَثٌّ بالغٌ على الوفاء بالعَهْد[4].

تـوبـيـخُ نـاكـثِ العَهدِ وتبكيتُه بتوجيه السُّؤال إليه

ويجوز أن يكون السُّؤال لناقض العهد، أي: إنَّ اللّه سائلٌ ناقضَ العَهدِ عن نَقْضِه إيّاه، فيُقال للنّاكث له على سبيل التَّبكيت والتَّوبيخ: لم نَكَثْتَ عَهْدَكَ؟ وهَلّا وَفّيتَ به، كقوله تعالى لعيسى عليه السلام: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ﴾ [المائدة: 116][5].

سِرُّ حذفِ مُتعلّق ﴿مَسْـُٔولٗا﴾:

الاكتفاءُ بدلالة الحال، وعِلْمِ المُخاطب بالمُراد

يجوز أن لا يكون في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولٗا﴾ مجازٌ؛ بأن حُذِفَ مُتعلِّق ﴿مَسْـُٔولٗا﴾؛ لظهوره؛ اكتفاءً بدلالة الحال، وعِلْمِ

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/ 500.

(2) البغويّ، معالم التَّنزيل: 5/ 92، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 46.

(3) الخطيب، التفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 485.

(4) عادل الأكرت، من أسرار اسم المفعول في القرآن الكريم، ص: 49 - 50.

(5) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 15/ 45.

المُخاطَب بالمُراد[1]، والمعنى: مسؤولًا عنه، أي: يسألكم اللّٰهُ عنه يومَ القيامة[2]، فيُسألُ النّاكِث، ويُعاتَبُ عليه، لمَ نَكَثَ[3].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العهْد والميثاق:

العَهْدُ أعمُّ مِنَ الميثاق في معناه، والميثاق عَهْدٌ مُؤكَّد

العَهْد: هو الالتزام بإلزام اللّٰه، أو إلزامُ العبد لنفسه[4]، فيُقال في العهد: عَهِدَ إليه في كذا: أوصاه به، والعهد في لسان العرب له معان؛ منها: الوصية، والضَّمان، والأَمر[5]، أمّا الميثاق: فهو ما وُثِّقَ به العَهْدُ مِنَ القبول والإلزام والحَلِف[6]، فالميثاق توكيدُ العَهْد، وهو مأخوذ من أَوْثَقْتُ الشَّيْءَ إذا أحكمتَ شَدَّهُ، وَأخذتَ الأَمر بالأوثق، أَي: الشَّديدِ المُحْكَم[7]، وَقالَ بَعضُهم: العَهْد يكون حالًا مِنَ المُتعاهِدَين ويَقْتَضي الإنجازَ، والميثاق يكون مِن أَحدهما[8]، فالعَهْدُ إلزامٌ والتزام، سواء كانت فيه يمينٌ أو لم تكن، والميثاق هو العهد الشَّديد المُؤَكَّدُ، فهو نوعٌ مِنَ العهد.

---

(1) الجصّاص، أحكام القرآن: 3/ 263.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 97.
(3) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 3/ 254.
(4) السِّعدي، تَيْسيرُ الكَريمِ الرَّحْمنِ: 1/ 83.
(5) الخليل، العين: (عهد)، والكَفَويُّ، الكُلِّيّاتُ، ص: 640، والقرافيّ، أنوار البروق: 3/ 37.
(6) المناويُّ، التَّوقيفُ، ص: 320.
(7) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (و ث ق).
(8) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 57.

﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ٣٥﴾ [الإسراء: 35]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الأمر بالوفاء في شؤون البيع والشِّراء، بعد الأمر بالوفاء بصفة عامَّة

بعد أن أمر اللّهُ ﷻ بالوفاء بصفة عامَّة، أتبع ذلك بالوفاء في شؤون البيع والشَّراء، بقولِه: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ﴾؛ لأنّ ذلك ممّا يرجع إلى المعاملة بالأموال[1]، التي أُشير إليها بقوله: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ﴾، وهو النّهي السّابق على الأمر بالوفاء بالعهد، الذي هو مُفصّلٌ بين ما قبلَه وما بعدَه من نواهٍ وأوامر، والرّجوعُ هنا ظاهرٌ، ولأنَّ الكَيْلَ والوَزْنَ من جُملةِ الأماناتِ الخَفيَّةِ، كالتصَرُّفِ لليَتيم، وكان الائتِمانُ عليه كالمَعهودِ فيه[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡكَيۡلَ﴾: أَصْلُ الكَيْلِ: ضَبْطُ الشَّيءِ وإِمْساكُهُ، وسُمّيَ المِكْيالُ بِذلِكَ[3]؛ لِأَنَّهُ يَضْبِطُ الحَبَّ وَنَحْوَهُ، وَيأْتي الكَيْلُ بِمَعْنَى: الإِعْطاءِ، كِلْتُ فُلانًا: أَعْطَيْتُهُ، واكْتَلْتُ عَلَيْهِ: أَخَذْتُ مِنْهُ، والاسْمُ: الكيلَةُ، والكَيّالُ: صاحِبُ حِرْفَةِ الكَيْلِ، والكَيْلُ أيضًا: تَحْديدُ قَدْرِ الشَّيْءِ وقياسُهُ، والجَمْعُ: أَكْيالٌ، والمِكْيالُ: آلَةُ الكَيْلِ تَكونُ مِنْ خَشَبٍ أو حَديدٍ أو غَيْرِهُ، كالصّاعِ ونَحوِهِ[4]، يُقالُ: كالَ الطّعامَ يَكيلُ كَيْلًا إذا حَدَّدَ مِقْدارَهُ[5]، والمُرادُ بالكَيْلِ في الآية: مَصْدَرٌ، يُطْلَقُ على ما يُكالُ بِهِ، وَهوَ المِكْيالُ؛ لِمُقابَلَتِهِ بالميزانِ.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 46.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 412.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كيل).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (كيل).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (كيل).

2) ﴿بِٱلْقِسْطَاسِ﴾: أصلُ (قَسَطَ): يَدُلُّ على مَعْنَيَيْنِ مُتَضادَّيْنِ، والبِناءُ واحِدٌ، فالقِسْطُ: العَدْلُ، يُقالُ: أَقْسَطَ الرَّجُلُ يُقْسِطُ فهو مُقسِطٌ، أَي: عَدَلَ[1]، وأمّا القَسْطُ - بِفَتْحِ القافِ - فهو: الجَورُ والظُّلْمُ، وقَسَطَ إذا جارَ وظَلَمَ، فهو قاسِطٌ، والقِسْطاسُ: اسمٌ للميزانِ، أَيْ: آلَةِ الوَزْنِ، واسمٌ للعَدْلِ، قيلَ: هو مُعَرَّبٌ مِنَ الرّوميَّةِ، مُرَكَّبٌ مِنْ كَلِمَتَيْنِ: قَسَطَ، أَي: عَدَلَ، وَطاسَ: وَهوَ كِفَّةُ الميزانِ[2]، والحَقُّ أنَّها عربيَّة صَميمة، في بنائها، وفي ميزانها الصّرفي، وقد تصرّف القرآن الكريم فيها على جميع الوجوه، كما يتصرّف في كلّ كلمة عربيّة متمكّنة في عروبتها[3]، والمقصودُ بالقِسْطاسِ في الآية: العَدْلُ والـميزانِ، فهما صالِحانِ لمعنى الآية.

3) ﴿تَأْوِيلًا﴾: أَصْلُ الكلِمَةِ: الإرْجاعُ، كَقَوْلِكَ: أَوَّلَ الشَّيْءَ إلى أَهْلِهِ، أَيْ: أَرْجَعَهُ ورَدَّهُ إلَيْهِم، والأَوْلُ: الرُّجوعُ[4]، والمَآلُ: مُنْتَهَى الشَّيْءِ ومَرْجِعُهُ ومَصيرُهُ وعاقِبَتُهُ، وقيل: أَصْلُهُ التَّأْويلِ، مِنَ الأَوَّلِ وهو مُبْتَدَأُ الشَّيْءِ، ومنه سُمّيَ التَّفْسيرُ تَأْويلًا؛ لأنّ فيه إرْجاعَ الكَلام إلى ما يَحْتَمِلُهُ مِنَ المَعاني، أو إرْجاعهُ إلى بدايَتِهِ، ومن مَعانيه أيضًا: التَّقْديرُ، التَّأويلُ: الإيضاحُ والبَيانُ والتَّفْسيرُ، يُقال: أَوَّلَ الكَلامَ إذا أَوْضَحَهُ وبَيَّنَ معناهُ، ويأْتي بمعنى الصَّرْفِ والتَّغْييرِ، يُقال: أَوَّلْتُهُ فَتَأَوَّلَ، أَيْ: صَرَفْتُهُ فانْصَرَفَ[5]، والمقصود بالتَّأويل في الآية: العاقِبَةُ، وهو ما يَؤول إليه الأمرُ، وما ينكشف مع الزَّمن منه[6].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

بعد أن أمر الحَقُّ تعالى بالوفاء بصِفة عامَّة، أتبَع ذلك بالوفاء في شؤون البيع والشِّراء، فقال سبحانه: وأوفوا النّاسَ الكَيلَ إذا كِلْتُم لهم، وأوفوهم حُقوقَهم - بالعَدلِ - تامَّةً من غَيرِ نَقصٍ، وزِنوا للنّاسِ بالميزانِ السَّويِّ الذي لا انحرافَ فيه ولا اعوِجاجَ، ولا غِشَّ ولا خديعةَ، ذلك الوَفاءُ في الكَيلِ والميزانِ خَيرٌ لكم - أَيُّها النّاسُ - مِنَ التَّطفيفِ، وأحسَنُ

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسط).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسط)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 98.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 486.
(4) الخليل، العين، الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (أول).
(5) الجوهريّ، الصّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس: (آل)، والجرجانيّ، التّعريفات، ص: 72.
(6) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 486.

إتمامُ الوزنِ بالعدل دونَ بخسٍ؛ ذلك خيرٌ للعَبد عند ربِّه، وأحسَنُ عاقبةً

عاقِبةً لكم، في دُنياكم: بالبَرَكة وانشِراحِ النَّفسِ وغيرِ ذلك، وفي أُخراكم: بالثَّوابِ مِنَ اللّهِ تعالى(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة ترتيب الأمر بالوفاء بالكيل عقبَ ما سبقه:

العطف بذِكْر الوفاء في صدق المعاملات مُتابعةً للأوامر والوصايا السّابقة

في الآية الكريمة حُكمان هما: الثّاني عَشَرَ والثّالثَ عَشَر مِنَ الوصايا التي قضى اللّهُ بها(2)، فبعدَ أن أمر سبحانَه بالوفاء بصِفة عامَّة، أتبع ذلك بالوفاء في شؤون البيع والشِّراء، فعطف النّظمُ الكريم بالأمر بإيفاء الكيل والميزان، وذلك في التَّبايع، فقد كانوا يبيعون التَّمرَ والزَّبيب كيلًا، وكانوا يتوازنون الذَّهب والفِضَّة، وكانوا يُطَفِّفون حرصًا على الرِّبح، فلذلك أمرهم بالوفاء(3)، فهو عطف متابعةٍ للأوامر والوصايا فذَكر سبحانَه بعد الوفاء بالعهد، الوفاءَ في صِدق الأعمال والأقوال(4).

سِرُّ العدول مِنَ النَّهي إلى الأمر:

لتكون النُّفوس مُلتفِتَةً إلى جانب الوفاء؛ تحقيقًا لمقام الإحسان

عَدَلَ النَّظمُ الكريم في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ﴾ عن أن يأتيَ فيه بالنَّهي عنِ التَّطفيف، كما في قول شعيب عليه السلام: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ﴾ [هود: 84]، إشارةً إلى أنَّهم مأمورون بالحدِّ الذي يتحقَّق فيه العدلُ وافيًا، وعدمُ النَّقصِ يساوي الوفاءَ، ولكنَّ في اختيار الأمر بالإيفاء اهتمامًا به؛ لتكون النُّفوسُ مُلتفِتَةً إلى جانب الوفاء، لا إلى جانب ترك التَّنقيص، وفيه تذكير لهم بالسَّخاء الذي يتمادحون به، كأنَّه قيل لهم: أين سخاؤكم الذي تتنافسون فيه؟ فهَلّا تُظهرونه إذا كِلْتُم أو وَزَنْتُم، فتزيدوا على

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 592، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 257، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 74، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 413، والسّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 457.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 97.

(3) الطَّنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 8/ 349.

(4) البقليّ، عرائس البيان: 2/ 360.

العدل، بأن توَفّروا للمُكْتال كرمًا بَلْهَ أن تسرقوه حَقَّه، وهذا تنبيهٌ لهم على اختلال أخلاقهم وعدم توازنها(1).

سِرُّ إسناد الفعل إلى ضمير الجماعة:

الإشارة إلى الأثر السَّيِّئ للتَّطفيف على الجماعة وارتداده إلى الفرد

الطَّمعُ في الكيل والوزن قذارةٌ وصَغارٌ في النَّفس، وغِشٌّ وخيانة في التَّعامل، تُزَعْزَع بهما الثِّقَةُ، ويتبعُهما الكسادُ، وتَقِلّ بهما البركة في محيط الجماعة، فيرتدُّ هذا على الأفراد، وهم يحسبون أنَّهم كاسبون بالتَّطفيف، وهو كسب ظاهريٌّ ووقتيٌّ؛ لأنَّ الكساد في الجماعة يعود على الأفراد بعد حين، وهذه حقيقة تُدْرَك بالنّظر في عالم التّجارة، ولم يكن الدّافع الأخلاقي أو الحافز الدّينيّ هو الباعث عليها، بل مُجرَّد إدراكها في واقع السّوق بالتَّجربة العمليَّة(2).

معنى ﴿ٱلْكَيْلَ﴾ وسِرُّ إيثاره على ﴿ٱلْمِكْيَالَ﴾:

النَّظر في هذا الموضع إلى الفعل، وفي سورة هود إلى الآلة

الكيل هو ذلك الفعل الذي يقوم به الإنسانُ قصدَ ضبط وتحديدِ قيمة، ومقدار، وطبيعة، وخصائص شيء، أو عمل معين، بالنَّظر إلى شيء آخر، مُقابل ما يحصل عليه، ويكون ذلك عَبْرَ مِكيال أو ميزان ضامن لمعادلته وتساويه قدرَ المستطاع والإمكان، تجنُّبًا للظُّلم والطُّغيان، وتحقيقًا للعدل والرّضا والتّوازن والتّساوي بين الطَّرفين، وهو ما ورد في قصّة شعيب مع قومه: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ۝٨٤ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ۝٨٥﴾ [هود: 84 - 85]، فالكيل من فعل (كال) يَدُلُّ على أنَّ فاعله مُباشر الكيل، فهو الذي يدفع الشَّيء المَكيل، وهو بمنزلة البائع، ويقال للذي يقبض الشّيءَ المَكيل: مُكتال، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ۝٣﴾ [المطففين: 2 - 3](3).

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 97.

(2) شحاته، تفسير القرآن الكريم: 15/ 2856.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 98.

سِرُّ الأمرِ بالوفاء وقتَ الكيل لا الاكتيال:

وقوعُ التَّطفيفِ حاصلٌ وقتَ الكيل

وقع الإيفاء مقيدًا بقوله: ﴿إِذَا كِلۡتُمۡ﴾؛ وهذا يعني: أنّ الإيفاء ليس إلزامًا حين يكتال المَرءُ، وإنّما هو إلزام حين يكيل، لذا قال: ﴿إِذَا كِلۡتُمۡ﴾، ولم يقل: (إذا كلتم واكتلتم)؛ فيكون في هذا القيد شديدُ إنذارٍ وترهيبٍ مُخيفٍ مِنَ التّطفيف، كما أنّ وراءَه شيئًا آخر؛ وهو أنّ مَن يكتال لنفسه ليس بحاجة إلى تنبيهٍ إلى الإيفاء، وإنّما الشّيطان راصد للبائع، لا المشتري، فاشتغل الذّكرُ الحكيم بتأكيد ما يقَع التّطفيف بصدده، قال أبو السّعود: وتقييدُ الأمر بذلك؛ لِما أنّ التّطفيف هناك يكون، وأمّا وقت الاكتيال على النّاس فلا حاجة إلى الأمر بالتّعبيرين"، والتّوكيد هنا جاء مِن أمرين؛ مِن ذِكر الأمر بالإيفاء مَرّتين؛ مَرّةً بالذِّكْر: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ﴾، وأُخرى بالحذف: (إذا كلتم فأوفوا بالكيل)، قال ابن عاشور: وزيادة الظّرف في هذه الآية - وهو: ﴿إِذَا كِلۡتُمۡ﴾ - دون ذِكْر نظيره في آية الأنعام؛ لما في (إذا) مِن معنى الشّرطيّة، فتقتضي تجدّد ما تَضَمّنَه الأمرُ في جميع أزمنة حصول مضمون شرط (إذا) الظّرفيّة الشّرطيّة؛ للتّنبيه على عدم التّسامح في شيء من نقص الكيل عند كلّ مباشرةٍ له؛ ذلك أنّ هذا خطابٌ للمسلمين، بخلاف آية الأنعام؛ فإنّ مضمونها تعريض بالمشركين في سوء شرائعهم، وكانت هنا أجدرُ بالمبالغة في التّشريع"، فظهر بذلك وجهُ مَجيء القيد في الإسراء، وغيابه في الأنعام.

دلالة عطفِ الأمر بالوزن المُقْسَط، بعد الأمر بالوفاء بالكيل:

وجوبُ الاحتراز مِن نقصان الكيل والوزن القليل

مِنَ الأوامر المذكورة في هذه الآية قوله: ﴿وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ﴾ فالأمرُ المتقدِّمُ في إتمام الكيل، وهذا الأمرُ في إتمام الوزن، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ٩﴾ [الرّحمن: 9]، وقولُه: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٨٥﴾ [هود: 85]، فقد أُفرِد الميزان بالأمر، كما أُفرِد الكيل من

قبلُ؛ إبلاغًا في بيان ما ينشأ عنهما مِن آثار سلبيّة هدّامة؛ وذلك "أنَّ التَّفاوت الحاصل بسبب نقصان الكيل والوزن قليلٌ، والوعيد الحاصل عليه شديدٌ عظيم، فوجبَ على العاقل الاحترازُ منه، وإنّما عَظُمَ الوعيدُ فيه لأنَّ جميع النّاس مُحتاجون إلى المعاوضات والبيع والشِّراء، وقد يكون الإنسان غافلًا لا يهتدي إلى حفظ ماله، فالشّارع بالغ في المَنع مِنَ التَّطفيف والنُّقصان، سعيًا في إبقاء الأموال على الملاك، وحرصًا على صِحّة المعاملات، ومنعًا مِن تلطيخ النَّفسِ بسَرقة ذلك المقدارِ الحقير"[1]، ولذا أهلك اللّهُ قومَ شعيب بسبب هذه الجريمة مقرونةً بالشِّرك، وعبادةِ غير اللّه تعالى[2].

توجيه المتشابه اللّفظيّ:

كـون آيـة الأنعام سيقت مَساقَ التَّذكير للمُشركين بما هم عليه مِنَ المَفاسد

مع أنَّ معنى العدل والميزان صالحان هُنا في لفظة القسطاس، لكنّ التي في الأنعام: جاء فيها ﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [الأنعام: 152] فهو العدل، في قوله: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [الأنعام: 152]؛ لأنَّها سيقت مَساقَ التَّذكير للمُشركين بما هم عليه مِنَ المَفاسد، فناسبَ أن يُذَكَّروا بالعَدْل؛ ليعلموا أنَّ ما يفعلونه ظلمٌ[3].

دلالة الباء في ﴿بِٱلۡقِسۡطَاسِ﴾:

مجيئُها في معنى الاستعانة والآلة، ومُفيدةٌ للملابسة أيضًا

والباء هُنا للمُلابسة؛ أي: وَزْنًا مُتلبِّسا بِالقِسْطاسِ[4]، "وهذه الآية جاءت خطابًا للمسلمين، فكانت أجدرَ باللّفظ الصّالح لمعنى آلة الوزن؛ لأنَّ شأن التَّشريع بيانُ تحديدِ العملِ، مع كونه يومئ إلى معنى العدلِ على استعمال المشترك في معنَييه، فالباء هُنا ظاهرةٌ في معنى الاستعانة والآلة، ومُفيدةٌ للملابسة أيضًا"[5].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 338.
(2) الدُّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 5/ 336.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 98.
(4) الشِّربينيّ، السّراج المنير: 2/ 338.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 98.

سِرُّ زيادة مبناه على (القسط) وفائدتها:

الدّلالة على المُبالغة مِنَ القسط

تصرَّف القرآن الكريم في هذه الكلمة على جميع الوجوه، فجاء منها بالفعل فقال تعالى: ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٩﴾ [الحجرات: 9]، وبالمصدر في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [الأعراف: 29]، وباسم الفاعل في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٤٢﴾ [المائدة: 42]، وهكذا تصرَّف القرآنُ بهذه الكلمة كما يتصرّف في كُلِّ كلمة عربيَّة مُتمكِّنةٍ في عروبتها، أمّا وزنها، فهو جارٍ على وزن المصدر مِنَ الفعل الرُّباعيّ، فـ (قِسطاس) على وزن (فعلال)، مِن قسطس، مثل: دِحْراج مِن دَحْرَج، وزِلْزال مِن زَلْزَل[1]، واللَّفظة منه للمُبالغة مِنَ القسط[2]، وداعي استعمالِ (القسطاس) الذي هو أبلغ مِنَ (القسط): هو الإحسان المطلوبُ مراعاته في الوصايا المذكورة في هذه السّورة.

عِلَّةُ الاكتفاء بوصف القسطاس بـ ﴿ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ﴾:

تمامُ الإيفاء لا يتِمُّ إلّا باستقامةِ آلةِ الكيل

﴿ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ﴾: السَّويُّ مِنَ الأشياء، وهو مشتق مِنَ القَوام، وهو اعتدالُ الذّات، يُقال: قوَّمتُه فاستقام[3]، ولعلَّ الاكتفاءَ باستقامةِ القِسطاسِ عنِ الأمرِ بإيفاءِ الوزنِ؛ لِما أنَّ عند استقامتِه لا يُتَصوَّرُ الجَوْرُ غالبًا، بخلافِ الكيلِ؛ فإنَّه كثيرًا ما يقَعُ التَّطفيفُ مع استقامةِ الآلةِ، كما أنَّ الاكتفاءَ بإيفاءِ الكيلِ عنِ الأمْرِ بتعديلِه؛ لِما أنَّ إيفاءَه لا يُتصوَّرُ بدونِ تَعديلِ المكيالِ[4].

بلاغة التّصريح بالوصف مع اشتمال الموصوف عليه:

الاحتياط الشّديد والتّحرّي في الميزان

إذا كانت كلمة: ﴿بِٱلۡقِسۡطَاسِ﴾ تؤكّد بمعناها معنى الفعل: ﴿وَزِنُواْ﴾؛ فقد قيل: إنّ القسطاس هو الميزان، أو العدل، أو غير ذلك للتّأكيدِ، فإنّ وصفَ القسطاس بـ ﴿ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ﴾ مستفادٌ مِن موصوفهِ،

---

(1) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 485.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/ 455.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 99.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 171.

وإنّما صُرِّحَ به "زيادةً في التّأكيد على عدم التّطفيف في الوزن، وهو ما يقتضي الاحتياطَ الشّديدَ والتّحرّي في الميزان؛ لأنّه ممّا يقع فيه التّطفيف أكثرَ مِنَ الكيل، كما أنّ الميزان هو آلةٌ يَتعامل بها أكثرُ النّاس، وما يشيعُ استعمالُه يجب التّشديدُ على الاحتياط فيه"(1).

سِرُّ فصلِ جملة: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ عمّا سبقها:

بيانُ ثمرةِ إيفاء الكيل والوزن بالقسطاس المستقيم

جملة: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ مُستأنفة، وفُصلت عن سابقتها؛ لاختلافهما في الخبريَّة والانشائيَّة، مع ما فيها مِن معنى التَّعليل والجواب لما سبق، فكأنَّ سائلًا سأل: ما هو جزاء مَن أوفى الكيل، ووزن بالقسطاس المستقيم؟، فجاء الجوابُ بأنَّ ثمرةَ ذلك هي خيريَّة الدّين والدُّنيا، وحُسنُ العاقبةِ في الآخرة(2).

دلالة الإشارة في الآية الكريمة:

الإشـارة إلى ماسَبَقَ ذِكرُه مِنَ الوصايا والأوامر

الإشارة في جملة: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ إلى المذكور، وهو الكيل والوزن المُستفاد مِن فِعْلَيْ: ﴿كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ﴾(3)، فيعود اسمُ الإشارةِ على خصوص إيفاء الكيل والميزان، فخيره في الدُّنيا لما فيه من إقبال المشتري على البائع، وفي الآخرة بحُسْن العاقبة، وقيل: إنَّ الإشارة راجعة إلى كُلِّ المَذكور، ابتداءً مِن قوله: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء: 22] إلى هُنا، والمعنى امتثالُ المأمورات، واجتنابُ المنهيّات، خيرٌ في الدُّنيا وأحسنُ تأويلًا، أي: عاقبة في الآخرة(4)، والأَوْلى بلاغةً وسياقًا أن يكون راجعًا إلى ما قبلَه مباشرة؛ لأنّ هذا ترغيب عظيم في تحقيق المطلوب مِنَ الأمرَين؛ ففي ختمهما بتلك الجملة: "خطابٌ للعقل والقلب؛ للأوّل بالتّنبيه على ما يترتّب على ذلك مِن مكاسب في الدّنيا، وللثّاني (القلب) بما يترتّب على ذلك في العاقبة"(5).

---

(1) إبراهيم الهدهد، في بلاغة القرآن ولغة العرب، ص: 361.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 99.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 99.
(4) الصّاويّ، حاشية الصّاويّ على تفسير الجلالين: 2/ 319.
(5) إبراهيم الهدهد، في بلاغة القرآن ولغة العرب، ص: 361.

الاستواء في مضمون الخبر

العدول عنِ المُثنّى إلى المفرد:

إذا كان قوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٌ﴾ راجعًا إلى: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ﴾، و﴿وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ﴾: كان فيه وضع للمُفرد موضعَ المُثنّى؛ إشارةً إلى استوائهما في الخير والحُسْن، وهذا يعني: أنّهما ظاهران فيهما ظُهورًا بيّنًا، وهذا إبلاغٌ في التّرغيب في تحقيق الأمرين.

الدّلالة على عموم وشمول الخير مِن جميع وجوهه ونواحيه

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿خَيۡرٌ﴾، ودلالتُه:

﴿خَيۡرٌ﴾ اسم تفضيل، أي: خيرٌ مِنَ التَّطفيف، أي: فُضِّل على التَّطفيف تفضيلًا؛ لخير الآخرة الحاصل مِن ثواب الامتثال على خير الدُّنيا الحاصلِ مِنَ الاستفضال الذي يُطفِّفُه المُطَفِّف، إذ هو أمانة توجب الرَّغبةَ في معاملته، والذِّكرَ الجميل[1]، وهو أيضًا أفضل منه في الدُّنيا، لأنَّ انشراح النَّفس الحاصلَ للمَرء مِنَ الإنصاف في الحقِّ أفضلُ مِنَ الارتباح الحاصل له باستفضال شيء مِنَ المال[2]، فبإيفاء الكيلِ والوزنِ العدلِ؛ يرغبُ النّاسُ في معاملتكم، ويثنون عليكم، ولا تتعرّضون لإساءة السُّمعة، أو عقابِ السُّلْطة، فقد ثبت بالتّجربة أنّ التّاجر الثّقةَ الصّدوقَ هو المَحبوبُ الرّابحُ، الذي يُقْبِلُ عليه النّاس، وأنَّ التّاجر الذي يُطَفِّفُ الكيلَ أو الوزنَ هو المَنبوذُ المَبغوضُ الخاسِرُ، الذي يُعْرِضُ النّاس عنه؛ فمَجيءُ اللّفظ مُنَكّرًا دالٌّ على عموم وشمول الخير مِن جميع وجوهه ونواحيه؛ إبلاغًا في التّرغيب في تحقيق الأمرَين الموصوفَين بهذه الكلمة: ﴿خَيۡرٌ﴾.

بيانُ وجوهِ العاقبة الحميدة في الآجل، بعد ذِكْرِ عاقبتِها في العاجل

دلالة مَجيء ﴿وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا﴾ بعد ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٌ﴾:

عَطَفَ جملة: ﴿وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا﴾ على ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٌ﴾ لبيان وجوهِ العاقبة الحميدة في الآجل بعد ذِكْرِ عاقبتها في العاجل، فإنّ عاقبة الوفاء بالعهد وإيفاء الكيل والوزن بالعدل خيرٌ لكم في الدّين

---

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 5/ 156.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 99.

والدُّنيا، في معاشكم ومعادِكم، وأحسنُ مآلًا و منقلبًا في آخرتكم، فلا تُؤاخَذون أو تعاقبون يومَ القيامة، وكُلٌّ مِنَ الوفاء بالعقود والعهود وإتمام الكيل والميزان قاعدةٌ حضاريّةٌ اجتماعيّةٌ ساميَةٌ، وأساسٌ راسخٌ ضروريٌّ في صَرْح التّعامل بينَ النّاس، يُؤدّي إلى توفير الثّقة والطّمأنينة، ويكون سببًا لتنمية العلاقات وزيادة الكسب والأرباح، ولا ريب عندي في الإيماء بقوله: ﴿وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا﴾ إلى مُراعاة الإحسان في تنفيذ الأمر بوفاء الكيل والوزن بالقسطاس المستقيم؛ فإنّ الجزاء مِن جنس العمل، وفي هذا مِن كمال التّرغيب في تنفيذ الأَمْرَين ما فيه.

بلاغةُ صيغةِ التّفضيل: ﴿وَأَحۡسَنُ﴾:

الكلامُ المُنصِف إحسانٌ إلى المُخاطَبين

صيغةُ التّفضيل على بابها؛ إبلاغًا في التّرغيبِ في تحقيق الأمر بوفاء الكيل، والوزن بالقسطاس المستقيم؛ بما فيها مِن إيهام أنَّ في التّطفيف خيرًا مطلقَ خيرٍ كما في هَذَين الأمرَين، وأنّ الخيرَ الذي في الأمرَين الإلَهيّين أزيدُ مِنَ الخير الذي في التّطفيف، وهذا ما يُسمَّى بالكلام المُنصِف، قال البقاعيُّ: "وأفعلُ التّفضيل هنا؛ لاستعمال النّصَفَة؛ لإرخاء العنان، أي: على تقدير أن يكون في كلٍّ منهما خير، فهذا الذي أزيد خيرًا، والعاقل لا ينبغي أن يرضى لنفسه بالدّون"[1]، وهذا الأسلوبُ من إحسان اللّه إلى المخاطَبين.

معنى التَّأويلِ ودلالةُ صيغةِ التَّفعيل:

بيان العاقبة الحَسَنة لمَن أوفى الكيلَ وأقسطَ في الوزن

"التَّأويل: تفعيل مِنَ الأَوْلِ، وهو الرّجوع، يقال: أَوّلَه إذا أَرْجَعَه، أي: أحسن إرجاعًا، إذا أرجعه المُتأمّل إلى مراجعه وعواقبه، لأنَّ الإنسان عند التّأمّل يكون كالمُنتقل بماهيّة الشّيء في مواقع الأحوال مِنَ الصّلاح والفساد، فإذا كانت الماهيّةُ صلاحًا استقرَّ رأي المُتأمِّل

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/ 380.

على ما فيها مِنَ الصَّلاح، فكأنَّه أرجعَها بعد التَّطوافِ إلى مكانها الصّالح بها، وهو مَقرُّها، فأُطلِقَ على استقرار الرّأي بعد التَّأمّل اسمُ التّأويل، على طريقة التَّمثيل، وشاع ذلك حتَّى ساوَى الحقيقةَ"[1].

وقولُه: ﴿وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ فيه وجهان؛ أحدهما: أَحۡسَنُ باطنًا، فيكون الخيرُ ما ظَهَر، وحُسۡنُ التّأويل ما بَطَن، والثّاني: أَحۡسَن عاقبةً، فلا يبقى على الموفي والوازن تبعةٌ، لا في الدُّنيا ولا في الآخرة.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 99.

﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦﴾ [الإسراء: 36]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذِكر ما تتحقَّق النُّفوسُ قُبْحَهُ في مقابلة ما تتحقّق حُسْنَه

لمّا كان الإيفاء بالعهد، والإيفاء بالكيل، والوزن بالقسطاس، ممّا تشهد القلوبُ بحُسْنه، وأضدادُها ممّا تتحقَّق النُّفوس قُبْحَه؛ لأنَّ الله تعالى جبل الإنسانَ على ذلك، تلاه سبحانه بما يَعُمُّه وغيره، فلمّا أمر تعالى بثلاثة أشياء: الإيفاء بالعهد، والإيفاء بالكيل، والوزن بالقسطاس المستقيم، أتبعَ ذلك بثلاثة مناهٍ: ﴿وَلَا تَقۡفُ﴾، ﴿وَلَا تَمۡشِ﴾، ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَقۡفُ﴾: (قفي): أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على إتباعِ شَيءٍ لِشَيءٍ، مِنْ ذلكَ القَفْوُ، يُقالُ: قَفَوْتُ أَثَرَهُ، وَقَفَّيْتُ فُلانًا بِفُلانٍ، إذا أَتْبَعْتَهُ إيّاهُ، وَسُمّيَتْ قافيَةُ البَيْتِ قافيَةً لِأَنَّها تَقْفو سائِرَ الكَلام، أَيْ: تَتْلوهُ وَتَتْبَعُهُ، والقَفا: مُؤَخِرُ الرَّأْسِ والعُنُقِ، كَأَنَّهُ شَيْءٌ يَقْفو الوَجْهَ[2]، والاِقْتفاءُ: اتّباع القَفا، كما أنَّ الارتداف اتِّباع الرَّدف، ويكنَّى بذلك عنِ الاغتيابِ وتَتَبُّعِ المعايب[3]، والمرادُ بالقَفْوِ في الآية: الاتِّباع، أي: لا تتَّبع ما لا دَليلَ عليهِ، ولا غَلَبَةَ ظَنٍّ بِهِ[4].

2) ﴿وَٱلۡفُؤَادَ﴾: (فَأَدَ): أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على حُمًّى وَشِدَّةِ حَرارَةٍ، مِنْ ذلكَ: فَأَدْتُ اللَّحْمَ: شَوَيْتُهُ، وهذا فَئيدٌ، أَي: مَشْويٌّ[5]،

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 413، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 47.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (قفي، قفا، قفو).
(3) الرّاغب، المفردات، السّمين، عمدة الحفّاظ: (قفا).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 100.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فأد).

والتَّفَوُّدُ: التَّوَقُّد، والفُؤادُ: القلبُ؛ لِتَفَوُّدِه وتوقُّدِه، مُذَكَّرٌ لا غَيْرُ، وَقيلَ: وسَطُه، وَقيلَ: الفُؤادُ غِشاءُ القلبِ، والقلبُ حَبَّتُه وسوَيْداؤُه، والفُؤادُ أيضًا: العَقْلُ، قالَ تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ [القَصَص: 10][1]، والجَمْعُ أَفئدةٌ، ورَجُلٌ مَفْؤودٌ: جَبانٌ ضَعيفُ الفُؤادِ، مِثْلُ المَنْخوبِ، ورَجُلٌ مَفْؤودٌ وفَئِيدٌ: لا فؤادَ لَهُ؛ وَلا فِعْلَ لَهُ[2]، والمقصود بالفؤاد في الآية: القَلْبُ، وما يتَّصل به مِن قِوى الإدراكِ والشُّعور[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الـدَّعـوةُ إلى إيـقـاظ مشاعر الإنـســـان، وتوجيه مَلَكاته إلى هذا الوجود

يقول الحقُّ تعالى: ولا تَقُلْ أو تفعَلْ شيئًا بمُجَرَّدِ الظَّنِّ، فتَتْبَع ما لا عِلمَ لك به، ولا دليلَ على صِحَّته، ومِن ذلك: رَميُ النّاسِ وقَذْفُهم بالباطِلِ، والشَّهادةُ عليهم بغَيرِ الحَقِّ، إنَّ سَمْعَ الإنسانِ وبَصَرَه وقَلْبَه، كُلُّ هذه الأعضاءِ العَظيمةِ، العاليةِ المنافِعِ، البَديعةِ التَّكوينِ، سيَسألُ اللهُ الإنسانَ عنها يومَ القيامةِ فيما استعمَلَها، وتُسألُ هي عمّا عَمِلَ فيها صاحِبُها، فتَشهَدُ عليه بما قالَ وفَعَلَ، مِن خَيرٍ وشَرٍّ[4].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة مَجيءِ هذا النّهي عَقِبَ ما قبلَه:

مواصلةُ الأوامر والـوصـايـا الكريمة وربطُ بعضِها ببعض

لمّا شَرَحَ الأوامرَ الثَّلاثة: الإيفاءَ بالعهد، والإيفاءَ بالكيل، والوزنَ بالقسطاس، عاد بعدَه إلى ذِكْرِ النَّواهي، فنهى عن ثلاثة أشياء: فبدأ بالآية التي تنهى عن أن يتبع ما ليس عندَه أسبابٌ للعِلْم به، أو ما يُنافيه العِلْم الصَّحيحُ، والوقائعُ البيّنةُ كشهادة الزّور، وقذفِ المُحصنات، وتَتَبُّع عوراتِ المؤمنين ليُعلنَها[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 99.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (فأد).
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 488.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 596، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 259، 260، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 255.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4381.

سِرُّ تحويل الخطاب من صيغة الجمع إلى المفرد في ﴿وَلَا تَقۡفُ﴾:

كـونُ الـبـواعـث هُنا فرديَّةً تتعلّق بشخصِ القائل والفاعل

اختلف النَّظمُ في هاتين الآيتين عنه في الآيات السّابقة، حيث جاء الخطاب ﴿وَلَا تَقۡفُ﴾ بلفظ المُفرَد، على حين كان الخطاب في الآيات السّابقة موَجَّهًا إلى الجمع، والسِّرُّ في هذا، هو أنَّ المَنهيَّ عنه في الآيات السّابقة كان عن أُمور لا تُحقَّقُ إلّا بأكثر من شخص، كقتل الأبناء، الذي هو في أضيق صوره، لا يتمّ إلّا بَيْنَ أبٍ وابنه، وكقتل النَّفسِ الذي لا يكون إلّا بَيْنَ قاتلٍ ومقتول، ومالِ اليتيم، الذي هو بَيْنَ اليتيم والوَصيِّ عليه، والزِّنى، الذي بَيْنَ رجل وامرأة، وكذلك الكيل والميزان، ونحوهما؛ فهي عمليات لا تَتِمُّ إلّا بَيْنَ آخذٍ ومُعْطٍ، أمّا ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ﴾، فهو شأنٌ مِن شؤون الإنسان وَحدَه، لا يكاد يَطَّلِع عليه أحدٌ سواه[1]، فدَلَّ على هذه الوصيَّة بأسلوب الخطاب الإفراديّ لأنَّ البواعث هُنا بواعث فَرديَّة.

بلاغةُ المَجاز المرسل في قوله: ﴿وَلَا تَقۡفُ﴾:

النَّهيُ عن تقليد الغير بغير عِلْمٍ أو هُدى

القَفْوُ: الاتّباع، يُقال: قفاه يقفوه، إذا اتَّبعه، وأصله مِنَ القَفْوِ والقَفا، وهو أن يتَّبِعَ الإنسانُ خَطْوَ غيرِه، ويسيرَ وراءَه، أي: يجيء مِن قفاه، وهو مُشتقٌّ مِن اسم القَفا، وهو ما وراء العُنُق[2]، وعُبّر بهذا الفعل هُنا عنِ العمل مِن قبيل المجاز المرسل، بعلاقة التَّقييد والإطلاق، حيثُ إنَّ القَفوَ - والذي هو اتّباع القفا - جُرِّد مِن قيد القفا، وبقي فيه معنى الاتِّباع[3]، ونُكْتَتُهُ: المبالغةُ في النَّهي عن متابعة المجهول؛ لما فيه مِنَ الخطر المُحْدِقِ بالتّابع، وذلك أنَّ النّاظرَ للقفا لا يرى وَجهَ صاحبِه، فهو يتبع مجهولًا، لا يدري أين يوصِلُه.

التَّـحـذيـر من بَـهْـتِ الـنَّـاس وقَذْفِ الأعراض

وعلى القول أنَّ أصل القَفوِ البَهْتُ والقذفُ بالباطل، تكون الإشارة

(1) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 486.

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (قفي، قفا، قفو).

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 100.

إلى تلك الخَلَّة مِن خلال الجاهليَّة، وهي الطَّعن في أنساب النّاس، فقد كانوا يرمون النِّساءَ برجال ليسوا بأزواجهن، ويليطون بعضَ الأولاد بغير آبائهم بُهتانًا، أو سوءَ ظنٍّ إذا رأَوا بُعْدًا في الشَّبَه بينَ الابن وأبيه...، تَخَرُّصًا وجَهْلًا بأسباب التَّشَكُّل، فإنَّ النَّسل ينزع في الشَّبه وفي اللّون إلى أصول من سلسلة الآباء أو الأُمّهات الأَدْنين أو الأبعدين، وجهلًا بالشَّبَه النّاشيئ عنِ الوَحَم[1].

دلالةُ مجيءِ الفعل المُضارع ﴿تَقْفُ﴾ بعد أداة النَّهي (لا):

الــدّلالــة على عموم النَّهي في كلِّ وقت وفي كلِّ قضية

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ جاء بعد أداة النَّهي (لاَ) الفعلُ المضارع ﴿تَقْفُ﴾، والقاعدة: أنَّ الفعل إذا ورد بعد النَّهي فإنَّه يدُلُّ على العموم، والمُحصِّلة مِن هذا هُنا: هي أنَّ اللّه تعالى نهى الإنسانَ أن يتَّبِع ما ليس له به علمٌ مطلقًا، وهذا يشمَل جميعَ الأحوال والأزمان والأمكنة؛ لأنَّ العموم ينصبّ على هذه الأمور جميعًا، فالعبدُ منهيٌّ عنِ اتِّباع ما ليس له به علمٌ في كلّ وقتٍ وفي كلِّ قضية، سَواءٌ أكانَتْ تتعلّق بحقوق اللّه، أو حقوق الآدميين، أو غيرِ ذلك مِنَ الأمور.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿مَا﴾ دون غيرها:

الــدّلالــة على الــعــمــوم والشُّمول المُطْلَق

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ﴾ عامٌّ لكلِّ شيءٍ؛ وذلك أنَّ لفظة ﴿مَا﴾ تُفيد العموم، فهذا يشمل الكلامَ في الأعراض مِنَ الغيبة والنَّميمة؛ لأنَّها تُقال مِن وراء الإنسان (القفا)، والقذفَ والبَهْتَ والكذبَ، وسائرَ أنواعِ الاعتقاداتِ الباطلة، هذا فيما يفعلُه الإنسانُ ويبتَدِئُه، وهكذا الشّأن فيما يتلقّفُه عن غيره؛ مِن تصديق الأقوال والإشاعات الكاذبة، واتهام الصّالحين، والوقيعة في أعراضهم، وتقبّلِ الأفكارِ الفاسدة، والمَذاهبِ المُنحرفة، والتَّقاليدِ المُستوردة، وهذا يكثر وقوعه في جانب النِّساء، مِن تتبّع ووقيعة في الأعراض،

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 257، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 100.

فالواجبُ على العبد أن يضبطَ جميعَ تصرفاتِه، فلا يحكم إلّا بعلمٍ، ولا يعتقد إلّا بعلمٍ، ولا يفعل شيئًا إلّا بعلم[1].

بلاغةُ الكناية:

التَّعريض بضرورةِ علمِ ما يُتَّبَع

معنى قوله تعالى: ﴿مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ﴾ أي: لا تكن في اتِّباعك ما لا عِلْمَ لك به مِن قولٍ أو فعلٍ، كمَن يَتَّبع مَسْلَكًا لا يدري أنَّه يوصلُه إلى مقصده، فهو ضالٌّ، والمُراد: النَّهي عن أن يقول الرَّجلُ ما لا يعلم، وأن يعمل بما لا يعلم، ويدخلُ فيه النَّهيُ عنِ التَّقليد الأعمى دخولًا ظاهرًا؛ لأنَّه اتِّباعٌ لما لا يَعْلَمُ صحَّتَه مِن فساده[2]، فهذه جملةٌ كنائيَّة عنِ الجهل، كأنَّه قال: لا تتبع ما تجهلُه، وآثَرَ هذه الجملةَ لبيانِ أنَّ الاتِّباعَ يجب أن يكون لما به عِلْمٌ.

سِرُّ تنكير ﴿عِلۡمٌۚ﴾ ودلالتُه:

الإحاطةُ والشُّمولُ لكلِّ ما يُعْلَم بالفِكْر أو الرُّؤية أو السَّماع

تنكير كلمة: ﴿عِلۡمٌۚ﴾ يدُلّ على الإحاطة والشُّمول لكلِّ ما يُعْلَم بالفكر، أوِ الرُّؤيةِ، أو السَّماعِ، والمعنى: لا تُتْبِعْهُ الحَدْسَ والظُّنونَ ثمَّ تقول: رأيتُ، ولم تَرَ، وسمعتُ، ولم تسمع، وعلمتُ، ولم تَعْلَم، فلا يَصِحُّ أن يقول إنسانٌ ما لا يعلم، أو يعمل بما لا عِلْمَ له به، ولا يليق به أن يَذُمَّ أحدًا بما لا يعلم، فلا يقول اللّسان كلمةً، ولا يروي حادثةً، ولا يَنْقُل روايةً، ولا يَحْكُم العقلُ حكمًا، ولا يُبْرِم الإنسانُ أمرًا، إلّا وقد تثبّتَ مِن كلّ جُزئيّة، ومِن كلّ مُلابسة، ومِن كلّ نتيجة، فلم يبق هنالك شَكّ، ولا شُبهةٌ في صِحّتها[3].

سِرُّ الفصل في قوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ﴾:

كونُ موقعِ الجملة موقعَ تعليلٍ لما سبق

موقع الجملةِ موقعُ تعليل، والمعنى على هذا: انتهِ عمّا لا يَحِلّ لك؛ لأنّ اللّه أنعم عليك بالسَّمع والبصر والعقل لتشكرَه، وهو مختبِرُكَ بذلك، وسائلُكَ عنه، فلا تستعمل نعمةَ اللّه في معصيته، قال تعالى:

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4381.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 666.
(3) ابن قتيبة، تفسير غريب القرآن، ص: 216، وشحاته، تفسير القرآن الكريم: 15/ 2857.

﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾ [النّحل: 78][1]، فيا أيُّها الإنسان إنَّك ستُسأل عمّا تُسنِده إلى سمعك وبصرِكَ وعقلك، بأنَّ مراجعَ القفوِ المنهيِّ عنه إلى نسبة سمعٍ أو بَصرٍ أو عقلٍ، في المسموعات والمُبصَرات والمُعتقَدات[2].

بلاغةُ الالتفات في الاستئناف بجملة التَّوكيد:

التَّفنُّن بالخطاب، وتنشيط السَّامعِ

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ التفاتٌ؛ وذلك أنَّ أوَّل الآية ورد بأسلوب الخِطاب: ﴿وَلَا تَقۡفُ﴾، وجاء هذا الموضع بأسلوب الغَيبة: ﴿كَانَ عَنۡهُ﴾، وفي هذا ما فيه مِنَ التَّفنُّن بالخطاب وتنشيط السّامع، وهذه الفائدة عامَّةٌ؛ فهي مصحِّحَة؛ تكون مع كلِّ التفاتٍ في القرآنِ وفي غيرِه، فلا يَظْهرُ بها خصوصيّةُ سياقِ الالتفاتِ، وإنما يجب أن تُذكر؛ لأنها مُعتَبرةٌ في نفسِها؛ لتعلُّقِها بتحسينِ البيانِ عند السّامع وفي قلبه؛ مِن حيثُ هو بيانٌ، وأما الفائدةُ الخاصّةُ هنا: فهي الإبلاغُ في التّرهيبِ مِن مُخالَفةِ النّهي المذكور: ﴿وَلَا تَقۡفُ﴾ الآية؛ بالإشعارِ بانصرافِ الخطابِ عنه؛ إشعارًا بالغضبِ الإلهيِّ، وهذا مؤسَّسٌ على عظيمِ أهميَّةِ هذا النّهي.

دلالةُ توالي المُؤكّدات في جملة الفصل:

التَّأكيد على أَهميَّة هذه الحواس، وعِظَمِ خَطَرِها

أكَّدَ القرآنُ مضمونَ جملة: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ بجملة مُؤكِّداتٍ؛ مِن ﴿إِنَّ﴾ وإعادة ذِكْر هذه الأعضاء بلفظ: ﴿كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ﴾، وذِكْرِ كلمة الكون: ﴿كَانَ﴾؛ وذلك لأنّ المقصود توكيدُ مضمونِ هذه الجملة في النّفس؛ لعظيم أهمّيّتها في السّياق؛ لما فيها مِنَ العموم الذي يجعلها تَتّسِع؛ ليدخلَ فيها كلّ

(1) ابن القيّم، مفتاح دار السَّعادة: 1/ 264.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 101.

الأوامر والنّواهي التي هي ذاتُ اتّصال بالسّمع والبصر والفؤاد، وتوكيدُها توكيدٌ للنّهي: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ مِن باب أولى.

نُكْتَةُ تخصيصِ هذه الأعضاءِ بالذِّكر:

كونُ هذه الأعضاء هي أشرفَ أعضاءِ المرْءِ وآلاتِ عِلْمِه وفَهْمِه

لَمّا كانت هذه الأعضاءُ الثّلاثةُ ﴿ٱلسَّمۡعَ﴾، ﴿وَٱلۡبَصَرَ﴾، ﴿وَٱلۡفُؤَادَ﴾ هي أشرَفَ الأعضاءِ ومُلوكَها، والمُتصَرِّفةَ فيها، والحاكِمةَ عليها؛ خَصَّها ﷻ بالذِّكرِ في السُّؤالِ عنها، فقال: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾؛ فسَعادةُ الإنسانِ بصِحَّةِ هذه الأعضاءِ الثّلاثةِ، وشَقاوتُه بفَسادِها، فاللّهُ تعالى أعطَى العبدَ السَّمعَ ليَسمَعَ به أوامِرَ رَبِّه ونواهيَه وعُهودَه، والقَلبَ ليَعقِلَها ويَفقَهَها، والبَصَرَ ليَرى آياتِه فيَستَدِلَّ بها على وحدانيَّتِه ورُبوبيَّتِه؛ فالمقصودُ بإعطائِه هذه الآلاتِ العِلْمُ وثَمَرتُه ومُقتَضاه[1]، وتخصيصُ الأمورِ الثّلاثة بالذِّكر لا يدُلُّ على حَصْرِ المُؤاخَذة فيها؛ لأنَّ الإنسان مُؤاخَذٌ على جميع تصرفاته، وإنّما خصَّصها بالذِّكر؛ نظرًا لعِظَم خَطَرِها، ولأنَّها الآلاتُ التي بها يحصل العِلْمُ النّافِعُ للعبد، وهو ما يُمَيِّز الإنسانَ عن غيره مِنَ الحيوان؛ إذ إنَّ العِلْمَ تدور رحاه على هذه الأقطاب الثّلاثة: ﴿ٱلسَّمۡعَ﴾ ﴿وَٱلۡبَصَرَ﴾ ﴿وَٱلۡفُؤَادَ﴾[2].

سِرُّ التَّرتيب في الذِّكر بين كُلٍّ مِن ﴿ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ﴾:

الإيذان بأهميَّة المُقَدَّم مِنَ الحواس

ذكر أهلُ التَّفسير بعضَ الحِكَم لتقديم السَّمع على البصر؛ إذ الواو لا تقتضي التَّرتيب، فالتَّقديم في الذِّكر مُؤْذِنٌ بأهميَّة المُقَدَّم؛ فالسَّمعُ آلةٌ لتلقّي المعلوماتِ والمعارف التي بها كمالُ العقلِ، وهو الطَّريق الأولى لتلقّي وَحْي السَّماءِ وهَدْي الأنبياء، وهو وسيلةُ بلوغِ الدَّعوةِ إلى أفهام الأُمم على وجهٍ أكمل مِن بلوغها بواسطة البصر لو فُقِدَ السّمع، لأنَّ أكثرَ ما يَنسِبُ النّاسُ أقوالَهم إلى السَّمع، ولأنّ

(1) ابن القيّم، مفتاح دار السَّعادة: 1/ 107.

(2) ابن تيميَّة، مجموع الفتاوى: 16/ 96.

السّمع تَرِد إليه الأصواتُ مِنَ الجهات السّتّ بدون تَوَجّهٍ، بخِلاف البصر فإنّه يحتاج إلى الالتفات والتَّوجّه، وأيضًا فإنَّ البصرَ لا يُدرَكُ به إلّا الأجسامُ والأجرام، بخلاف السَّمع، فإنَّ العبد يُدرِكُ به الأُمورَ الحاضرةَ والغائبة ممّا أُخبِرَ عنه، فالسّمعُ والبَصَرُ هما أعظمُ الحواسّ، وأقوى آلاتِ الإدراك، وإدراكُ السَّمعِ أعظمُ وأشمَلُ مِن إدراك البصر، ولذلك ذُكِرا قبلَ الفؤاد، وذُكِرَ الفؤادُ بعدَهما؛ لأنه مَقَرُّ الإدراكِ كلّه، فهو الذي تَنْقُل إليه الحواسُّ مُدْرَكاتِها، فهو مُنتَهى الحواسِّ، ومُسْتَقَرُّ المُعْتَقداتِ، ومبعثُ الإرادات، والسَّمْعُ والبَصَرُ طريقان له ونافذتان عليه، وبهما يَصِل إليه كثيرٌ مِنَ الأُمور النّافعة أو الضّارّة، فما تبصِرُه العينُ يُؤَثّر في القلب ولا شَكّ، كالنّظرة المُحَرّمة، وهكذا ما تسمع الأذنُ من خيرٍ وشَرّ، كالغناء، ففيه دَليلٌ على أنَّ العُلومَ مُستَفادةٌ مِنَ الحواسِّ ومِنَ العُقولِ، وجاء هذا على التَّرتيبِ القُرآنيِّ في البَدْءِ: بالسَّمعِ، ثمَّ يليه البَصَرُ، ثمَّ يليه الفُؤادُ[1].

دلالة جمع الفؤادِ مع الحواسّ:

الـدّلالـة على المُؤاخَـذَة بفعل القلب

في ذِكر الفؤاد هُنا مَعَ السَّمع والبصر دليلٌ على المُؤاخذة على الأفعال القلبيَّة، فيُثابُ على التّوحيد واليقين والرِّضا والتَّوكُّل، ويُعاقب على الشِّرك والاعتقادات الباطلة والأدواء القَلبيَّة؛ كالحِقد والحَسد والعُجْب؛ فهو مُؤاخَذٌ عنها، كما هو مُؤاخَذٌ على ما يَسْمَع ويُبْصِر[2].

لطيفُ الإشارة بذِكْر (الفؤاد) دون القلب:

الـفـؤادُ مَـقَـرُّ الإدراك كـلّه، وهـو مَـبْـعَـثُ الإرادات

الفؤادُ هو القلب، إلّا أنّ فيه معنى زائدًا على (القلب)، وهو أنَّه يُعتَبر في هذه اللَّفظة (الفؤاد) معنى التّفَؤُّد، أي: التَّوقُّد؛ إذ إنَّه مبعث الإرادات، وآلةُ الإدراك، ومُستقرُّ العِلْم والعقل، كما لا يخفى، ولهذا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 48.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 72.

فإنَّ التَّعبير بـ (الفؤاد) هنا أبلغُ مِنَ التَّعبير بـ(القلب)[1]؛ وذلك أنَّ التّعبير بالفؤادِ يُشيرُ إلى أنَّ الإنسان حين العمل يكون مُتوقِّدًا قلبُهُ شَغوفًا بما يعمل، فأُريد هذا المعنى، لا ذِكْرُ القلبِ باعتباره العَلَمي.

دلالة تَرْكِ ذِكْرِ اللِّسان في هذا الموضع معَ أهمِّيَّته:

دلالةُ السَّمع عليه وكونه مُشارًا إليه في مطلع الآية

لم يُذْكَر اللِّسانُ في هذا المقام في قوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ﴾، مع أنَّه مِن أعظمها؛ لأنَّ السَّمع يدُلُّ عليه، لأنَّه لا يَكُبّ النّاسَ على مناخرهم في نار جهنّم إلّا حصائدُ ألسنتهم[2]، وتلك الحصائدُ مِن قبيل المسموعات اللّازمة للسَّمع[3]؛ كما أنَّ اللِّسان مُشارٌ إليه في مطلع الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾، فكان مِنَ البلاغة والتّناسبِ عدمُ ذِكْره.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿كُلُّ﴾، وتقديمِها في الذِّكر:

الدّلالة على الإحاطة مِن أوّل الأمر مع إفادة التّوكيد

صيْغَتْ جملة: ﴿كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ على هذا النَّظم بتقديم ﴿كُلُّ﴾ الدّالّة على الإحاطة مِن أوّل الأمر[4]، وقد كان بالإمكان الاستغناءُ عن هذه اللّفظة، فيكونُ الكلام: (إنَّ السَّمع والبصر والفؤاد ستُسأل عمّا وقع منها، كما ستُسأل عن صاحبها)، إلّا أنَّه جاء بـ ﴿كُلُّ﴾ زيادةً في التَّوكيد، وتقريرِ المعنى، وفي إعادة الأعضاء بلفظ العموم: ﴿كُلُّ﴾ تنبيهٌ لطيف على أثر هاتيكَ الأعضاء في كلِّيَّةِ الإنسان حسًّا ومعنًى، وفي علاقتِه بغيره في مجتمعه.

نُكْتَةُ التَّعبير باسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ بدل الضَّمير (كلّها):

زيادةٌ في التَّمييز بعد التَّخصيص

جاء النَّظم الكريم باسم الإشارة دون الضَّمير؛ فلم يَقل: (كُلُّها كان عنه مسؤولًا)؛ لما في الإشارة مِن زيادة التَّمييز[5]، وجيء به دونَ:

(1) السّمين الحلبيّ، الدُّر المصون: 5/ 110.

(2) أصل هذا حديث أخرجه الترمذي في سننه عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، برقم: (2804)، وقال: حديث حسن صحيح.

(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 16/ 110.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 101.

(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 101.

(هذه)؛ إشارةً إلى أنّها أشياء عظيمةُ القَدْر، عاليَةُ المنافع، بديعَةُ التّكوين، وفي هاتين الخُصوصيّتَين في نور دلالتهما: تنبيهٌ على خطر هذه الأعضاء، وعِظَم شأنها؛ ففي التّعبير باسم الإشارة للبعيد تعليلٌ لطيفٌ؛ لاختصاصها بالذِّكر الدّالِّ على شرفِها، وعليِّ قَدْرِها.

سِرُّ الإشارة إلى تلك الحواسّ بـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

تنزيلُ تلك الحواسّ منزلةَ العقلاءِ؛ لأنَّها جديرة بذلك

اسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يعود إلى السَّمع والبصر والفؤاد، وهو مِن استعمال اسم الإشارة، الغالبِ استعمالُه للعاقل في غير العاقل؛ تنزيلًا لتلك الحواسّ منزلةَ العُقلاء؛ لأنَّها جديرةٌ بذلك، إذ هي طريق العقل، على أنَّ استعمال ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ لغير العقلاء استعمالٌ مشهور، قيل: هو استعمال حقيقيٌّ، أو لأنَّ هذا المجاز غلب حتَّى ساوى الحقيقة، قال تعالى: ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الإسراء: 102][1].

دلالةُ حَمْلِ الإشارة على الاستعارة أو عدمِها:

تصويرُها بصورة العُقلاء؛ لكونها سببًا للأفعال الصّادرة مِن العُقلاء

وبناءً على أنَّ (أولاء) مُختَصٌّ بالعُقلاء عند مَن يَخصُّها بذلك، يكون في الكلام استعارةٌ مَكْنيَّة، حيثُ شُبِّه السَّمْعُ والبَصَرُ والفُؤادُ بالعُقلاء، وحُذِفَ المُشَبَّه به، ورُمِزَ له بشيء من لَوازِمه، وهو الإشارة إليه بـ(أولاء)، بناءً على استعمالها في العاقل؛ فالقرينةُ الإشارةُ إليها بما يُشار به إلى العُقلاء، ووجهُ الشَّبَهِ سببيَّتُها للأفعال الصّادرة مِنَ العُقلاء[2].

دلالةُ دخولِ ﴿كَانَ﴾ في جملة التَّأكيد:

الدّلالة على رُسوخ الخبر

دخل فعل ﴿كَانَ﴾ في جملة التَّأكيد لدلالته على رسوخ الخبر[3]، إذ إنَّ هذا أمرٌ واقع لا محالة؛ فيَفْزَع القلبُ الحَيُّ؛ رغَبًا في الاستجابة لأمر الله في الآية، ورهَبًا مِن مخالفته.

(1) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 3/ 255، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 102.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/ 504.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 101.

مَرجِعُ الضَّمير المفرد في قوله: ﴿عَنۡهُ﴾:

وقوعُ السُّؤالِ على الانسان وعلى جوارحه، فيَقَعُ تكذيبُه مِن جوارحه

الضّمير في ﴿عَنۡهُ﴾ من قوله: ﴿كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ يعود على ﴿مَا﴾ من قوله: ﴿مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ﴾، وهذا الظّاهر، ويكون المعنى: إنّ اللّه تعالى يسأل سمعَ الإنسان وبصرَه وفؤادَه عمّا قال ممّا لا عِلْم له به، أي: عنِ انتفاء ما لا عِلْمَ له به[1]، ويدُلُّ على هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ [يس: 65]، وقولُه: ﴿شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ﴾ [فصلت: 20]، فيَقَعُ تكذيبُه مِن جوارحه، وتلك غايةُ الخِزي، والسّؤالُ هنا حقيقيٌّ لا مجازيٌّ؛ لكونه مِنَ اللّه تعالى، وهو الخبير بلُغَة هذه الأشياء على الحقيقة.

ويَحتمِل أن يعود على ﴿كُلُّ﴾ التي هي السَّمعُ والبصرُ والفؤاد، والمعنى: إنّ اللّه تعالى يسأل الإنسانَ عمّا حواهُ سمعُهُ وبصرُهُ وفؤادُهُ[2]، ويدُلُّ على هذا قولُه تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٢ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٣﴾ [الحجر: 92 - 93]، وقولُه: ﴿وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٣﴾ [النّحل: 93]، فكأنه قال: (كُلُّ هذه كان الإنسان عنها مَسؤولًا)، أي: عمّا حصل لهؤلاء مِنَ الإدراكات، ووقعَ منها مِنَ الخطأ، فالتَّقدير: (عن أعمالها مسؤولًا)، فهو على حَذْفِ مضاف[3].

دلالة تقديمِ الجارِّ والمَجرور:

التَّقديمُ للاهتمام، وللرَّعي على الفاصلة

قُدِّم المعمولُ ﴿عَنۡهُ﴾ على عامله ﴿مَسۡـُٔولٗا﴾، والقاعدة المعروفة في هذا الباب: هي أنَّ تقديم المعمولات على عواملها يُفيد الاهتمام، والمعنى: كُلُّ السَّمع والبصرِ والفؤادِ كان مسؤولًا عن نفسه، ومُطالَبًا بأن يُبيِّن مُستَندَ صاحبِه مِن حِسِّه[4].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 48.
(2) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 3/ 474.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 456.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 102.

دلالةُ الكناية في ﴿مَسۡـُٔولٗا﴾:

الدّلالة على المُؤاخَذَة بالتَّقصير، مع السُّؤال والتَّوبيخ

قوله تعالى: ﴿مَسۡـُٔولٗا﴾ السّؤالُ هُنا كنايةٌ عنِ المُؤاخَذَةِ بالتَّقصير وتجاوزِ الحَقِّ، كما يُقال: (أنتَ مسؤولٌ عن تصرفاتك)، أو ستُسْأل عن فِعْلِك هذا، كما في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤﴾ [النّور: 24] أي: يسأل السَّمع: هل سمعتَ؟ فيقول: لم أسمع، فيُؤاخَذُ صاحِبُه بأن أسند إليه ما لم يُبَلِّغْه إيّاه، وهكذا[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القلب والفؤاد:

القلب يُعبَّر به في المَواطِن الدَّالَّةِ على القوَّةِ والتَّعقُّلِ

الفُؤادُ: ألطفُ ما في الجَسَدِ على الإطْلاقِ، ولذا يُعبَّر به عَن جميعِ البدَنِ؛ لكونِه أشرفَ ما فيه، كما قال تَعالَى: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ [إبراهيم: 37]، وهو أشدُّ تألُّمًا بأدنى أذًى يَلْحَقُهُ، فالافئدة توصَفُ بالرِّقَّة[2]، والفؤاد فيه معنى التَّفوُّدِ، أي: التَّوقُّد؛ إذ إنَّه مبعثُ الإرادات، وآلةُ الإدراك، ومُستَقَرُّ العِلْم[3].

أمّا القلبُ: فَلَيْسَ مَدارُ الحديثِ عَنْهُ في القُرْآنِ الكَريمِ مِن حيثُ رِقَّتُهُ وسُرعةُ تأثُّرِه بما يطرَأُ عليه، بل يَرِدُ وصفُهُ بالقساوةِ وضدِّها، كما قالَ تَعالَى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزُّمر: 22]، وقال سُبحانه: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزُّمر: 23].

فالقَلْبُ مَوطِنُ القوَّةِ والجَلَدِ، ولذا يُعَبَّر به في المَواطِنِ الدّالَّة على القوَّةِ والتَّعقُّلِ[4]، وأمّا الفؤاد: كالقلب، لكن يُقال له: فؤاد، إذا اعتُبِرَ فيه معنى التَّفَؤُّد، أي: التَّوقُّد[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 102.
(2) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 433.
(3) السّمين الحلبيّ، الدُّر المصون: 5/ 110.
(4) الدّوريّ، دقائق الفروق اللُّغوية، ص: 106 - 112.
(5) المناويّ، التَّوقيف، ص: 265.

﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ٣٧﴾ [الإسراء: 37]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الانتقال مِنَ النّهي عن القول بلا علم، إلى بيان مسبّبات الجهل

لمّا كان الكِبْرُ والأَنَفة أعظمَ مانعٍ مِنَ العلم الدّاعي إلى كلّ خير، ومرضٍ بمرضِ الجهلِ الحاملِ على كلِّ شرّ[1]، انتقل القرآنُ الكريم مِنَ النّهي عن أن يتّبِعَ الإنسانُ ما لا علمَ له به، إلى النّهي عنِ التّفاخر والتّكبّر والإعجاب في النّفس، فيقول: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَرَحًاۖ﴾: (مَرِحَ): أَصْلٌ يدُلُّ على مَسَرَّةٍ لا يَكادُ يَسْتَقِرُّ مَعَها طَرَبًا[3]، فالمَرَحُ شِدَّةُ الفَرَحِ والنَّشاطِ حَتَّى يجاوزَ قَدْرَه، والمَرَح أيضًا: التَّبَخْتُر والاختيال، والمَرَحُ كذلك: الأَشَرُ والبَطَرُ، ومِنْه قولُه تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ ٧٥﴾ [غافر: 75][4]، ومِنَ الباب: عَيْنٌ مِمْراحٌ: غَزيرَةُ الدَّمْعِ، وَكَذَلِكَ مَرَّحَتِ المَزادَةُ: مَلَأْتُها لِتَتَسَرَّبَ وَتَسيلَ، وَمَرْحَى: كَلِمَةُ تَعَجُّبٍ وَإِعْجابٍ، وَتقولُ العَرَب للرّامي إذا أصاب: مَرْحَى، فَإِن أخطأ قالوا: بَرْحَى[5]، والمقصودُ بالمَرَحِ في الآية: الاختيالُ والتَّكبُّر، والمرادُ به: شِدَّةُ ازْدِهاءِ المَرْءِ وَفَرَحِه بحالِه في عَظَمَةِ الرِّزْق[6].

2) ﴿تَخۡرِقَ﴾: (خَرَقَ): أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ قَطْعُ الشّيءِ وشَقُّهُ وَجَوْبُهُ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 415.
(2) الطَّنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 8/ 352.
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (مرح).
(4) الخليل، العين، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (مرح).
(5) ابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (برح، مرح).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 103.

على سَبيلِ الفَسادِ مِنْ غَيْرِ تَدَبُّرٍ، ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ [الكهف: 71]، وَهوَ ضِدُّ الخَلْقِ[1]، والخَرْقُ: الثَّقْبُ، يُقال: خَرَقَ الجدارَ: إذا ثَقَبَهُ، والخَرْقاءُ مِنَ الشّياهِ وغَيْرِها: المَثْقوبَةُ الأُذُنِ[2]، ويأْتي الخَرْقُ بِمعنى المُرورِ والدُّخولِ في الشَّيْءِ، فَيُقالُ: خَرَقْتُ الأَرْضَ، أَيْ: جُبْتُها، واخْتَرَقَتِ الرّيحُ الأَرْضَ، إذا جابَتْها[3]، ويأْتي بِمعنى التَّحَيُّرِ والدَّهَشِ، فيُقال: خَرَقَ الغَزالَ: إذا طافَ به الصَّيّادُ فَدَهِشَ ولَصِقَ بِالأَرْضِ[4]، والمراد بالخَرْقِ في الآية: قَطْعُ الشَّيْءِ والفَصْلُ بَيْنَ الأَديم، فَخَرْقُ الأَرْضِ تَمْزيقُ قِشْرِ التُّراب، والمَقْصودُ مِنْهُ: التّهكّمُ والتَّشْنيعُ بِهَذا الفِعْلِ[5].

3) ﴿تَبْلُغَ﴾: البلوغُ: مَصْدَرُ: بَلَغَ الشّيءُ يَبْلُغُ بُلوغًا وَبَلاغًا، وَمَعْناهُ: لُحوقُ الشَّيْءِ والوُصولُ إِلَيْهِ أَوِ المُشارَفَةُ عَلَيْهِ، يُقالُ: بَلَغْتُ المَكانَ بُلوْغًا، أي: وَصَلْتُ إِلَيْه، وَكَذلِكَ إذا شارَفْتُ عَلَيْهِ[6]، والبُلوغُ مَجازٌ مَشْهورٌ في الحُصولِ على المُرادِ، والبُلْغَةُ: ما يُتَبَلَّغُ بِهِ مِنَ العَيْشِ، زادَ الأَزهريّ: وَلا فَضْلَ فيه، وتَبَلَّغَ بِكَذا، أَي: اكتفَى بِهِ[7]، والمقصود بالبلوغ في الآية: الوصول، أي: لن تَصِلَ بتطاولِكَ وتمايُلِكَ وفَخْرِكَ وإعجابك بنَفْسِك إلى قِمَمِ الجبال، وهذا تهكُّمٌ بالمُتكبِّرِ والمُخْتالِ.

4) ﴿طُولًا﴾: أَصلُ (طَوَلَ) يَدُلُّ عَلَى فَضْلٍ وامْتِدادٍ في الشَّيْءِ[8]، فالطّوْلُ: نَقيضُ القِصَرِ في النّاسِ وغيرِهِم مِنَ الحَيَوانِ والمَوات، ويُقالُ لِلشَّيْءِ الطَّويل: طالَ يَطولُ طوْلًا، فَهوَ طَويلٌ وطوالٌ[9]، وهو أيضًا خِلافُ العَرْضِ، وطالَ الشّيءُ، أَي: امتدَّ[10]، ويأْتي الطَّوْلُ بِمعنى الغِنَى وسَعَةِ المالِ والفَضْلِ، ومنه سُمّيَت القُدْرَةُ على الصَّداقِ طَوْلًا؛ لأنَّه إذا قَدِرَ على صَداقِها فقد طالَ عليها وزادَ[11]، والمقصود بالطّوْلِ في الآية: التَّطاولُ والارتفاع، أي: لا تَقْدِرِ أن تُطاوِلَ الجبال، وتُساويها بِكِبْرِك.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (خرق).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (خرق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خرق).
(4) البندنيجيّ، التقفية في اللّغة، ص: 603، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: (خرق).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 104.
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم: (بلغ).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (بلغ).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طول).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (طول).
(10) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (طول).
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (طول).

المَعْنى الإِجْماليُّ:

يَنهَى اللّهُ سبحانه عنِ التَّفاخرِ والتَّكبُّرِ والإعجابِ بالنَّفْسِ، فيقولُ: ولا تَمْشِ في الأرضِ مُختالًا مُتبَختِرًا مُتمايلًا مُتَكبِّرًا، كمِشيَةِ الجبّارينَ، إنَّك - أيُّها المُتكَبِّرُ المُتعاظِمُ في مَشْيِه - لن تَثقُبَ الأرضَ بشِدَّة وطْءِ قَدَميك عند اختيالِك في مَشْيِك، ولن يَبلُغَ طولُك - بتطاوُلِ بَدَنِك للأعلى في مِشيَتِك - طولَ الجبالِ؛ فما الَّذي يُغْريك بهذه المِشيةِ، وقُدرَتُكَ لا تَبلُغُ بِكَ هذا المَبلَغ؟! فَتَواضَعْ ولا تتكبَّرْ، واعرِفْ قَدْرَ ضَعْفِك وعَجْزِك؛ فأنتَ مَحصورٌ بين جَمادَينِ لا تَقدِرُ على التَّأثيرِ فيهما؛ الأرضِ التي تحتَكَ، والجبالِ الشّامِخةِ مِن فَوقِك[1].

النَّـهـيُ عـنِ الـخُـيَـلاءِ وتَحريمُه، والأمرُ بالتَّواضعِ والحَضُّ عليه

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ الوصل في قوله: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ﴾:

في هذه الآيةِ الكريمة نَهيٌ عن خصلة من خصالِ الجاهليَّة، وهي الكبرياء، فقد كان أهلُ الجاهليَّة يتعمَّدونها، وهذه الوصية الخامسةَ عشرةَ[2]، وفي وصل هذه الجملة بما سبقها: تنبيهٌ لطيفٌ على أنَّ نتيجةَ مخالفةِ النّهي السّابق: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ﴾ أنْ يصيرَ حالُ المخالِفِ كحالِ مَن يمشي في الأرضِ مَرَحًا؛ وإذا اتَّبَع الإنسانُ ما له به عِلْمٌ عرَفَ قَدْرَ نفسِه سلبًا وإيجابًا، ومَن عرَف نفسَه فقد عرَف ربَّه، فالنّهيُ في هذه الآيةِ كالنتيجةِ لما قبلَه؛ فبينهما مِنَ التّوكيدِ ما ترى.

التَّحذيرُ مِن سُلوكِ سبيلِ الكِبرِ والخُيلاءِ، بعدَ التَّحذيرِ مِن تقليدِ الغيرِ بغيرِ علمٍ

توجيه الخطاب وسِرّ إفراده:

كان الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ﴾ لغير معيّن؛ ليَعُمَّ كُلَّ مخاطب، وليس خطابًا للنّبيّ ﷺ؛ إذ لا يُناسِبُ ما

ليتناول كلّ فَرْدٍ مِنَ الجماعة الواحدة

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 597، والواحديّ، الوجيز، ص: 635، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 75، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 3/ 156، 157.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 103.

بعدَه[1]، ومِمّا يُلحظ في هذه الأوامر والنَّواهي: أنَّ الأمور التي يُكلَّف بها كُلُّ فَرْدٍ بصفته الفَرديَّة جاء الأمر أو النَّهي فيها بصيغة المُفرد؛ أمّا الأمور التي تُناط بالجماعة فقد جاء الأمرُ أو النَّهي فيها بصيغة الجمع، ففي الإحسان للوالدين وإيتاء ذي القُربى والمسكين وابن السَّبيل، وعدم التَّبذير، والتَّوسُّط في الإنفاق بينَ البُخل والسَّرف، وفي التَّثَبُّت مِنَ الحَقّ والنّهي عنِ الخُيلاء والكِبر، جاء غالبُ الأمر أو النَّهي فيها بصيغة المُفرد؛ لما لها مِن صبغة فرديَّة، وفي النَّهي عن قتل الأولاد وعنِ الزِّنى وعن قتل النَّفس، والأمر برعاية مال اليتيم والوفاء بالعهد، وإيفاء الكيل والميزان؛ جاء غالبُ الأمر أو النَّهي فيها بصيغة الجمع، لما لها مِن صبغة جماعيَّة.

دلالة التَّقييدِ بـ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

زيـادةِ تقرير معنى النَّهي، والتَّذكيرُ بما يُنفِّرُ مِنَ المَنهيِّ عنه

قولُه: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ﴾ فيه التَّقييدُ بـ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ على خلافِ الظّاهرِ؛ لأنَّ المَشيَ إنما يكونُ على الأرضِ؛ وذلك "لزيادةِ التَّقريرِ، والإشعارِ بأنَّ المَشيَ عليها ممّا لا يَليقُ بالمَرح"[2]؛ لأنَّه جزءٌ منها، فكأنَّه قيل: لا تمشِ فيما هو عنصرُكَ الغالبُ عليك، الذي خُلقت منه وإليه تعود، والذي قد ضَمَّ مِن أمثالك كثيرًا، فمَن كان كذلك كان جديرًا به أن يتواضع لا أن يتكبَّر، قال تعالى: ﴿۞مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ٥٥﴾ [طه: 55][3]، فالتَّقييدُ بالجارِّ والمَجرورِ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ للتَّذكير بالمَبدأ والمَعاد، المانِعَين مِنَ الكبر والخُيَلاء.

دلالة التَّعريف في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

الـدّلالـة على عموم البقاع، وأنَّ النَّهيَ مُتوجِّه إلى الماشي في سائر نواحيها

في تعريفِ كلمة ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ﴾ تنصيصٌ على أنَّ النَّهيَ عنِ المَشي مَرحًا في سائر البقاع

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 103.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 172.

(3) الطَّنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 8/ 352.

والأماكن، لا تختصّ به أرضٌ دونَ أرض(1)، وهذا إبلاغٌ في النّهي، وبيانُ سعةِ زمانه ومكانه.

دلالة التّعبير بـ: ﴿فِي﴾ في قوله: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

تذكير بالمَبدأ والمعاد، وأنّ الإنسان هو ابنٌ لهذه الأرضِ

الإنسانُ إنّما يمشي على الأرضِ لا فيها؛ بدلالةِ (على) على الاستعلاءِ على الشّيءِ حِسًّا أو حُكمًا، ودلالةِ ﴿فِي﴾ على الظّرفيّة كذلك؛ ففي التّعبيرِ بـ: ﴿فِي﴾ الإبلاغُ في إنكارِ المَشي على الأرضِ مرحًا؛ بالإيماءِ إلى أنّه ابنٌ لهذه الأرضِ، فهو مخلوقٌ منها، وإليه مآلُه؛ أي: بالتّذكير بالمبدأ والمعاد، وهو أردع عنِ المّشي مِشْيَةَ الفاخِر المُتكبّر، وأدعى لقبول الموعظة؛ كأنّه قيل: لا تمشِ فيما هو عنصركَ الغالبُ عليك، الذي خُلقتَ منه، وإليه تعود، والذي قد ضمّ مِن أمثالك كثيرًا، مِشْيةَ الفاخرِ المُتكبّر(2).

سِرُّ التَّعبيرِ بالمَرَح دونَ الفَرَح:

المَــرحُ محَلّ النّهي؛ ففيه شِدَّة ازدهاءِ المَرءِ واختيالِه وفَرحِه بحاله

المَرحُ في الأصل: شِدَّةُ الفرح، والتَّوسُّعِ فيه(3)، مع الخُيلاء والتَّعالي على النّاس، يُقال: مَرِحَ يَمْرَحُ مرحًا، إذا اشتدَّ فرحُهُ ومشى مشيةَ المُتكبّرين، ففيه معنى شِدَّةِ ازدهاء المَرء وفَرحِه بحاله(4)، فكأنَّه ضُمِّنَ معنى الاختيال، لأنَّ غلبة السُّرور والفرح يصحبُها التَّكبُّرُ والاختيال(5).

الموقع الإعرابي لكلمة ﴿مَرَحًاۖ﴾، وتوجيه المعنى عليه:

الحملُ على المصدر دونَ تأويلٍ باسم الفاعل هو الأبلغ

قولُه تعالى: ﴿مَرَحًاۖ﴾ مصدر، ويجوز لغةً أن يُحْمَلَ على ذلك، وأنْ يُؤَوَّل باسم فاعل، وذلك نحوُ أن تقول: جاء زيدٌ ركضًا وراكضًا، فـ: (ركضًا) أوكد؛ لأنّه يدُلُّ على توكيد الفعل(6)، وحملُه على

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 73، وهذه الدلالةُ أوردها الآلوسيّ في سياق بحثِه في بلاغة التّقييد بـ: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، ولم يستلطفها عِلّةً لهذا التّقييد.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 73.

(3) الرّاغب، المفردات: (مرح).

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 103، والطّنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 352.

(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 49.

(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 342.

المصدر أحسنُ سياقًا وأَوكدُ؛ فالمراد منه ألّا يمشيَ الإنسانُ مشيًا يدُلُّ على الكبرياء والعظمة، أي: لا تَمْشِ في الأرض مُختالًا فخورًا؛ لأنَّ المصدر إنّما يكون آكَدَ للاتّصاف إذا تُرك على حاله، كما في: (رجلٌ عَدْلٌ)(1)، وموقع لفظ ﴿مَرَحًاۖ﴾ الإعرابيّ أنَّها مصدر وقع حالًا مِن ضمير ﴿تَمۡشِ﴾، ومجيء المصدر حالًا كمجيئه صفة؛ يُراد منه المبالغة في الاتّصاف، وعلى تأويله باسم الفاعل يكون المعنى: لا تمشِ (مارحًا)، أي: مشيَةَ المارحِ، وهي المشيَةُ الدّالَّةُ على كبرياء الماشي بتمايل وتَبَخْتُرٍ(2)، لأنَّ مَن مشى مُختالًا يمشي مرَّة على عقبه ومرَّة على صدور قدميه، فقيل له: إنَّك لن تنقبَ الأرضَ إن مشيت على عقبَيكَ، ولن تبلغ الجبالَ طولًا إن مشيت على صُدور قدمَيك(3).

دلالة المَجاز العقليّ في إسناد المرح إلى المشيّ:

الدّلالة على حال صاحب المَرح وصفته، وتنفيره مِن حاله

على القول بأنَّ ﴿مَرَحًاۖ﴾ مفعولٌ مطلق مُبيِّنٌ لفعل ﴿تَمۡشِ﴾؛ لأنَّ للمشي أنواعًا، منها: ما يَدُلُّ على أنَّ صاحبه ذو مَرَحٍ: فإسنادُ المَرحِ إلى المشي على هذا المعنى مجازٌ عقليٌّ(4)، وفي هذا المجاز مِنَ التّنفير والتّبغيضِ مِنَ المنهيّ عنه ما فيه؛ فهو يعودُ على النّهي بالوَكادة والتّحقيق.

دلالةُ النَّهيّ على الأمر بِضِدّه:

الأمر بالتّواضع والتّطامُن من خلال ترذيل المَرحِ والخُيلاء

ليس النَّهيُ في الآية الكريمة عنِ المَشي نفسه؛ إنمّا النَّهيُ عن المَشي المَرح، فمناطُ النّهي هو: ﴿مَرَحًاۖ﴾، ثُمَّ النَّهي عن الشيء يوجبُ الأمر ضِدَّه، وهاهنا نهيٌ عنِ المَرح؛ فيكون أمرًا بالتَّواضع الذي وُصِفَ به عبادُ الرَّحمن: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفُرقان: 63](5)، فأمرَ اللّه تعالى بالتَّواضع، وذلك التَّطامن والتَّواضع

(1) شيخ زاده، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 5/ 385.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 103.
(3) الخازن، لباب التّأويل: 3/ 130، والبغويّ، معالم التّنزيل: 3/ 133.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 103.
(5) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 7/ 47.

الذي يدعو إليه القرآنُ بترذيل المَرح والخُيلاء، أدبٌ معَ اللّه، وأدبٌ مع النّاس، أدبٌ نفسيّ وأدب اجتماعيّ، وما يترك هذا الأدبَ إلى الخُيلاء والعُجب إلّا فارغٌ صغيرُ القلب، صغيرُ الاهتمامات، يكرهه اللّهُ لبَطَره ونسيان نعمته، ويكرهُه النّاسُ لانتفاشه وتعاليه[1]، ودلالةُ النّهي على الأمر بضدِّه مِن ضروبِ الإيجازِ القرآنيِّ.

سِرُّ الفصل في جملة: ﴿إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ﴾:

تعليل النَّهي السَّابق بتوجيه خطاب ثانٍ في هذا المعنى على سبيل التَّهكُّم

جملة: ﴿إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ استئنافٌ ناشِئٌ عنِ النّهي، بتوجيه خطاب ثان في هذا المعنى على سبيل التّهكُّم، أي: إنَّك أيُّها الماشي مرحًا لا تخرق بمشيكَ أديمَ الأرض، ولا تبلغ بتطاولِك في مشيك طولَ الجبال، فماذا يُغريك بهذه المِشية[2]، فهي جملة تعليليَّة، جاءت تعليلًا للنَّهي السّابق[3] فلهذا فُصِلت.

دلالة التّعبير بالخرق:

ضَعفُ المُتكبِّر المُختال وخِفَّتُه وحَقارتُه والتّهكّمُ به

المُراد مِنَ الخَرق هاهُنا: نقبُ الأرض، والمعنى: لن تجعل فيها خَرقًا ونَقَبًا بدوسِك لها، وشِدَّةِ وطأتِك[4]؛ لأنَّ المُتَكَبِّرَ يضرب الأرض برجليه اعتزازًا واهتزازًا، فالإنسان بجسمه ضئيلٌ هزيل، لا يبلغ شيئًا مِنَ الأجسام الضّخمة التي خلقها اللّهُ، إنّما هو قويٌّ بقوَّة اللّه، عزيزٌ بعِزّةِ اللّه، كريمٌ بروحه الذي نفخَهُ اللّهُ فيه، ليتّصلَ به ويراقبَه ولا ينساه، فمهما فعلتَ أيُّها المُختال فلن تَشُقّ الأرضَ، ولن تثقبَها بمشيكَ عليها حتّى تبلغَ آخِرَها[5]، وهذا ينطوي على اتصافه بغاية الضّعفِ والخِفَّةِ والحَقارة، قال البقاعيُّ: "﴿إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: تقطعَها سيرًا مِن مكانك إلى طرفها"[6]، وعلى هذا:

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 260، وشحاتة، تفسير القرآن الكريم: 15/ 2859.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 103.
(3) الدّرويش، إعراب القرآن الكريم: 5/ 435.
(4) إسماعيل حقّي، روح البيان: 5/ 159، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 15/ 46.
(5) الجزائريّ، أيسر التَّفاسير: 3/ 194 والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 16/ 111.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/ 381.

ففي التّعبير بالخَرْق تَهَكّمٌ به؛ لأنّ عدم خَرْقِه إيّاها معنى معلومٌ، ولكنَّ حالَه السّيّئةَ قدِ استدعَتْ ذلك.

بلاغة ذِكْرِ الأرضِ في قوله: ﴿إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ﴾:

المُتكَبّر المُختال كأنّه يُفاخِر الأرضَ ويَتكَبّر عليها

معْقِدُ المعنى وأُمُّه في جملة: ﴿إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ هو كلمةُ: ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾؛ لأنّها العنصرُ الأقربُ إلى حقيقة المُحَدَّث عنه؛ وقد قام عليها خطابُه مِن أوّلِ الآيةِ: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ﴾، فهي الطّرفُ الأوّلُ لحرَكة المعنى في الآية، والطّرفُ الثّاني المُقابِلُ لها هو الجبالُ، وذِكْرُ ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾ في هذه الجملةِ يُؤدّي شيئًا جديدًا مِن المعنى في حركتِه في الآية؛ وهو التّهَكّم والسّخريَةُ وما جرى في هذا الطّريقِ مِنَ المعنى؛ برميه بالغَباوَة، قال أبو السّعود: "﴿إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ تعليلٌ للنّهي، وفيه تَهَكُّمٌ بالمُختال، وإيذانٌ بأنّ ذلك مفاخَرة مع الأرض، وتكبُّرٌ عليها، أي: لن تخرق الأرضَ بدوسك وشِدّةِ وطأتِك"[1].

غرضُ إظهارِ لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾ المكرَّر في موضع الإضمار:

زيادةُ الإيقاظ والتّقريع والتّهكُّم، والتّقريرُ بإجرائها مجرى المثل

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ الإظهارَ على الإضمار في قوله: ﴿لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ﴾، حيثُ لم يقل: لن تخرقها؛ لزيادة الإيقاظ والتَّقريع[2]، وليكون هذا الكلامُ مُستقِلًّا عن غيره، جاريًا مَجرى المثل[3]، ولتكونَ دلالةُ ذِكْر: ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾ أقوى وأظهر.

دلالةُ ذِكْرِ قولِه: ﴿وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا﴾:

بيانُ تمامِ عَجْزِ الإنسان بين ما هو تحتَه وما هو فوقَه

ذكَر اللّهُ تعالى معنى جملة الجبال بعد ذكر معنى جملة الأرض؛ لبيان تمام عجزِ الإنسان؛ بذكر ما هو فوقَه بعد ذِكْر ما هو تحتَه، فالمعنى: أنتَ أيُّها المُتكبّر المُختالُ، ضَعيفٌ حقيرٌ عاجزٌ محصورٌ بين جمادَين! أنتَ عاجز عنِ التّأثير فيهما، فالأرضُ التي تحتَكَ لا تَقْدِر

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/ 428.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 74.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 104.

أن تُؤَثّر فيها؛ فتخرقَها بشِدّة وَطْئِكَ عليها، والجبالُ الشّامخة فوقَكَ لا يبلغ طولُكَ طولَها، فاعرِف قدرَكَ!، ولا تتكبَّر، ولا تَمْشِ في الأرض مرحًا[1]، وفي ذكر هذه الجملة أيضًا: "تعريضٌ بما عليه المُختالُ مِن رفع رأسِهِ ومشيِه على صُدورِ قَدَميه"[2].

بلاغة التّعبير بأداة النّفي ﴿لَن﴾:

مبالغةً في التّهكّم بالمُتكَبِّر المُختال

في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا﴾ كان بالإمكان التّعبيرُ بأداة نفي غير ﴿لَن﴾ كـ: (لا)؛ لتُؤدّي المعنى على الجملة، فتقرير المعنى لا يحتاج إلى هذا الحسم والجَزم والقطع الذي في ﴿لَن﴾؛ لأنّه معنًى معلوم؛ ولكنْ عُبِّر بها؛ للمبالغة في التّهكّم بالمُحَدّث عنه، ولتصويرِ عِظَم شناعةِ الحال التي هو فيها وعليها مِنَ المَرَح السَّيِّئ؛ لكونه في حالة غفلة شديدة؛ ممّا يحتاج معها إلى شِدّة إيقاظٍ وتنبيه، فعَبَّرَ سبحانه بـ ﴿لَن﴾ إحسانًا إليه، والسّورةُ سورةُ الإحسانِ.

بلاغة ترتيبِ الجملتين:

وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا﴾:

﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾: هي جوهرُ حركةِ المعنى في الآيةِ كلّها، وهذا ظاهر في الجملة الأولى: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ﴾، والثّانية: ﴿إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ﴾؛ لذِكْرِ كلمة: ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾ فيهما، وهو خفيٌّ في الجملة الثّالثة: ﴿وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا﴾؛ لعدم ذِكرِها صراحةً فيها، وبالتّأمّل نفهم أنّ الجملة الثّالثةَ من تمام الجملة الثّانية، والمعنى: أنّ المُحَدَّث عنه عاجزٌ في قُدْرَتِه وعِلْمِه عنِ السّيرِ على جميع الأرضِ عَرْضًا وأوتادًا، مِن مكانه إلى طرفها، فالجبالُ "بعضُ أجزاءِ الأرضِ"[3].

(1) الشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 3/ 431.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/ 428.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/ 428.

والسّيرُ على الأرضِ أسهلُ مِن السّيرِ على الجبالِ أو فيها، والتَّرَقّي مِنَ الأدنى إلى الأعلى في تقرير المعنى هو الأصلُ، وهو المناسبُ هنا لحال المُحَدّث عنه الغافلِ؛ لأنّه يُحَقّق له فائدةَ الإقناعِ والاستدلالِ، بالتّرقّي مِنَ السّهل إلى الصّعب، وأُخِّرَتِ الجملةُ الثالثةُ أيضًا؛ ليتحقَّقَ للآيةِ فنُّ تشابهِ الأطراف.

تشابهُ الأطراف في الآية لطيف

بلاغةُ رجوعِ آخِرِ الآيةِ إلى أوّلها:

مِن وجوه البلاغة والتّناسُبِ في الآية: أن يرجع آخِرُها إلى أوّلِها رجوعًا معنويًّا، كما فهِمَه البلاغيّون المُتأخّرون، وهو هنا خَفيٌّ؛ فإنّ ﴿ٱلۡجِبَالَ﴾ التي هي رمزٌ للطّولِ والعُلوِّ، ترجعُ إلى المرحِ في قوله: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ﴾، والمرحُ يكونُ مع شِدّة الفرحِ والخيلاءِ والتّكبُّر، وغير ذلك، وهذا مِن بديعِ التّناسُبِ في الذّكر الحكيم.

الإشارة إلى المخلوقات القويّة العظيمة؛ مع كونها خاضعةً مُتواضعةً

سِرُّ اختيارِ خَرْق الأرض، وبلوغ الجبال:

ذكر القرآنُ خَرْقَ الأرضِ وبلوغَ الجبالِ طولًا؛ لأنَّ مِنَ الخلائق من يَخْرق الأرضَ ويدخلها، ويبلغ طول الجبال، وهم الملائكةُ، ثُمَّ لم يتكبّروا على الله، ولا تعظّموا عليه، ولا على رسوله؛ بل خضعوا له؛ فمَن لم يبلغ في القوّة والشِّدَّة ذلك فهو أحرى أن يَخضع له، ويتواضع ولا يتكبر[1].

المبالغة في بيان معنى الجملة، وقصد الطُّول المُتكلَّف الذي يتكلّفه المُختال

دلالة ذكر: ﴿طُولٗا﴾ على خِلاف الظّاهر، ودلالتها:

معنى: ﴿طُولٗا﴾ مستفادٌ مِن ذِكْرِ ﴿ٱلۡجِبَالَ﴾؛ ففي النَّصِّ عليه إبلاغٌ في تقرير معنى النّفي في الجملة: ﴿وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا﴾، وفي التّعريضِ المُستفاد مِن مجموع الجملةِ، وقد سبَق بيانُه، وقولُه: ﴿طُولٗا﴾ منصوب على التَّمييز؛ أي: لن يبلغ طولُكَ الجبالَ؛ أي: تطاولُكَ، واستعلاؤُكَ، ففي ذِكْرِه تمييزًا: إشارةٌ إلى الطّول المُتكلَّف

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 7/ 47.

الذي يتكلَّفه المُختال، وهو تَهَكُّم بالمُتكبّر، وتعليلٌ للنَّهي بأنَّ التَّكبُّرَ حماقةٌ مُجرَّدة، ولن ينال الإنسانُ بِكِبْرِهِ وتعظُّمِه شيئًا مِنَ الفائدة[1].

بلاغة حَمْلِ الآية على المَجاز بالاستعارة التّمثيليّة:

التّهكّمُ المقصودُ منه التشنيعُ بالفعل القبيح

مِن وجوه البلاغة في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا﴾ أنْ يكون مُستعملًا "في التَّغْليظ؛ بِتَنْزيلِ الماشي الواطِئ الأَرْضَ بِشِدَّة، مَنْزِلَةَ مَنْ يَبْتَغي خَرْقَ وَجْهِ الأَرْض، وَتَنْزيلِه في تَطاوُلِه في مَشْيِه إِلَى أَعْلَى، مَنْزِلَةَ مَنْ يُريدُ أَنْ يَبْلُغَ طولَ الجبالِ، والمَقْصودُ مِنَ التَّهَكُّم: التَّشْنيعُ بِهَذا الفِعْل؛ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ المَنْهيَّ عَنْهُ حَرامٌ؛ لِأَنَّهُ فَسادٌ في خُلُقِ صاحِبِه، وَسوءٌ في نِيَّتِه، وإهانةٌ للنّاس؛ بِإِظْهار الشّفوف عَلَيْهِمْ، وَإِرْهابِهِمْ بِقوَّتِه"[2]. "وفي هذا التّهكّم والتّقريع لِمَن يعتاد هذه المِشية: كفايةٌ في الانزجار عنها"[3]، وفي لفظ المستعار منه: (الأرض، والجبال): ما يَشي بتحقيرِ المُستكبِر؛ فالأرض الّتي يمشي عليها أصلبُ مِن قوّته، والصّخورُ الجامِدَة المُكَدّسة جبالًا أطولُ مِن قامته، فلا يَزْعُمَنّ أنَّ شِدّة الوَطء، أو تطاولَ الجسم: يمنحانِه عِظَمًا حقيقيًّا.

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 5/ 159.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 104.

(3) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 6/ 461.

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا ٣٨﴾ [الإسراء: 38]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إنَّ مِنْ شُكْرِ اللهِ على إحْسانِهِ الإقْبالَ عَلَيْهِ والإعْراضَ عَمّا سِواه

تجاورَتِ الآيتانِ؛ ليَظْهَرَ إحسانُ اللّه إلى نبيهِ ورسولِه؛ بإحسانِه إلى أُمّته؛ بعدم تعجيلِ العذابِ لهم في الدّنيا، فإنّ آيةَ: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا﴾ مشتملةٌ على صورةٍ من صورِ الإفسادِ في الأرض، فهي تشيرُ إلى صورةٍ يكونُ فيها الإنسانُ مُقْبِلًا على غيرِ اللّه؛ مِنَ الشّهوات والآمال ورعونات النّفس ونقائصِها، مُعْرِضًا عنه؛ معَ أنَّ هذا ضِدّ كونِه خليفةَ اللّهِ في أرضِه؛ على ما يُفْهِمُه التّقييدُ بقولِه: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على خِلافِ الظّاهرِ؛ فقبَّحَها القرآنُ، ونفَّرَ منها أبلغَ تنفيرٍ؛ بأن جعَل جارَها قولَه تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا﴾؛ فهو أبلغُ ما تصْدُقُ عليه هذه الجملةُ ممّا سبقَ سوءًا وقُبحًا؛ بدلالةِ المجاورة؛ ليتخلَّى الإنسانُ عنها، فيُقْبِلَ على خالقِه بكُلّيَّتِه، ويُعرِضَ عن كلّ ما سواه، وذلك هو المقصودُ الأعظمُ للسّورةِ عند البقاعيِّ[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿سَيِّئُهُۥ﴾: أَصْلُ السّوءِ: القُبْحُ، وضِدُّه: الحُسْنُ[2]، والسّوءُ: الشَّرُّ والفَسادُ، يُقالُ: عَمِلَ سوءًا، أي: شَرًّا وفَسادًا[3]، والسّوءُ أيضًا: الحُزْنُ والغَمُّ، ويأتي بمعنى الضَّرَرِ والأَذَى، كقولِهم: بَلَغَهُ السّوءُ، أي: الضُّرُّ، وكُلُّ ما يُكْرَهُ فهو سوءٌ[4]، والإساءَةُ: فِعْلُ الشَّرِّ وما يُكْرَهُ، والسَّيِّئُ والسَّيِّئة: عَمَلان قبيحان؛ يصير السَّيِّئُ نَعْتًا للذَّكَر مِنَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/ 327.
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سوأ).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (سوأ).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (سوأ).

الأَعْمال، والسَّيِّئةُ للأُنثى، واللّه يَعْفو عَن السّيِّئات، والسَّيِّئة: اسْمٌ كالخَطيئة[1]، والمرادُ بالسَّيِّئِ في الآية: القبيحُ المَنهيُّ عنه فيما تقدَّم، وأمّا المأمور به، فلا يكون سيّئًا[2].

2) ﴿مَكۡرُوهٗا﴾: أصلُ (كَرِهَ): يَدُلُّ على خِلافِ الرِّضا والمَحَبَّة، يُقالُ: كَرِهْتُ الشَّيْءَ أَكْرَهُهُ كَرْهًا، والكُرْهُ الاسْمُ[3]، والمَكْروهُ: المَذموم، والكَراهَةُ: البُغْضُ، تَقولُ: كَرِهَ الشَّيْءَ يَكْرَهُهُ كَراهَةً، إذا أَبْغَضَه وذَمَّهُ وَلَمْ يُرِدْهُ، وَضِدُّهُ: المَحْبوبُ[4]، وَيَأْتي المَكْروهُ بِمَعْنَى: القَبيحُ، يُقالُ: كَرُهَ المَنْظَرُ إذا قَبُحَ، وَفِعْلٌ كَرْهٌ وكَريهٌ، أَيْ: قَبيحٌ، والكَراهَةِ أيضًا: مِنَ الكُرْهِ أَوِ الكَرْهِ، وهوَ المَشَقَّةُ والشِّدَّةُ، يُقالُ: قُمْتُ على كُرْهٍ، أَي: على مشقَّة، وَمِنْهُ سُمّيَت الحَرْبُ: كَريهَةً[5]، والمَكارِهُ: الشَّدائِدُ، والمَكْروهُ أيضًا: ما يَكْرَهُهُ الإِنْسانُ ويَشُقُّ عَلَيْهِ، وَمِنْهُ سُمّيَ ما نَفَّرَ عَنْهُ الشَّرْعُ والطَّبْعُ: مَكْروهًا؛ لِأَنَّ الطَّبْعَ والشَّرْعَ لا يُنَفِّرانِ إلّا عَنْ شِدَّةٍ وَمَشَقَّةٍ تَلْحَقُ بالمُكَلَّف[6]، والمقصود بالمكروه في الآية: المَذموم، والمُراد به التَّشْنيع، أَيْ: مَكْروهًا فِعْلُهُ مِنْ فاعِلِهِ[7].

۞ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

خَتَم اللّهُ تعالى تلك النَّواهيَ بقولِه: جميعُ ما ذُكِرَ في الآياتِ السّابقةِ مِنَ الأوامرِ والنَّواهي، كان سَيِّئُه - وهو ما نَهَى اللّهُ عنه - قَبيحًا مُبغَضًا عندَ رَبِّك، الَّذي أحسَنَ إليك إحسانًا لا ينبغي أن يُقابَل عليه إلّا بالشُّكرِ - يا مُحَمَّدُ ﷺ[8].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

المُناسبة بَيْنَ الآية وجميع ما قبلَها مِنَ النّواهي والأوامر، وسِرُّ الفصل فيها:

قوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا﴾ "تذييل للجُمَل المُتقدِّمَة، ابتداءً مِن قوله تعالى: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23]، باعتبار ما اشتملت عليه مِنَ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سوأ).
(2) الدُّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 5/ 340.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كره).
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (كره).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كره).
(6) الرّاغب، المفردات، والزَّبيديّ، تاج العروس: (كره).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 105.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 599، 600، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 77، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 416.

التّحذيرات والنّواهي، فكلّ جملة فيها أمرٌ هي مقتضيةٌ نهيًا عن ضِدِّه، وكلّ جملة فيها نهيٌ هي مقتضيةٌ شيئًا مَنهيًّا عنه، فقولُه: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23] يقتضي عبادةً مذمومةً منهيًا عنها، وقولُه: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾ [الإسراء: 23] يقتضي إساءةً منهيًّا عنها، وعلى هذا القياس"[1].

تذييلُ الجمل السَّابقة بما هو نتيجة لها وحُكمٌ عليها

الغرض الذي سيقت له الآية:

التنفير مِن الإقبال على المنهيات المذكورة مِن قبل

هذه الآيةُ "سيقت؛ لغرض التّنفير مِنَ الإقبال على شيء مِن هذه المَنهيّات صراحةً وضِمنًا، وزَجْرِ ورَدْعِ مَن يعملُها أو بعضَها؛ فقد وَصَفَتْها بأنّها أمورٌ سيِّئَةٌ، أي: في نفسها، وتسوءُ إلى صاحبها، فهي غير صالحة ولا مُصلِحة، فالسَّيِّئُ ضِدّ الأصلح، وأنّها مكروهةٌ قبيحةٌ عند اللّٰه تعالى، لا يُحِبّها، ولا يرضاها بحالٍ مِنَ الأحوال، ولا يأمر بها، ألا ترى أنّ وَصْفَ المَنهيِّ عنه السَّيِّئَ أو السّيّئةَ "بمُطْلَق الكراهة مع أن البعض مِنَ الكبائر؛ للإيذان بأنّ مُجرّد الكراهةِ عندَه تعالى كافيَةٌ في وجوب الانتهاء عن ذلك"[2]؟!، وقبل هذه الآية جملةٌ مِنَ الأوامر والنّواهي التي بتحقيقها يتحقّقُ إقبالُ العبد إلى ربّه تعالى وحدَه، وبتركها لا يكون ذلك الإقبالُ، وبقدْر التّقصير فيها يكون ضَعْفُ الإقبال[3].

دلالةُ عدمِ التّصريحِ بكون الأُمور المأمور بها حَسَنةً:

الأهمّ هو الإقلاع عنِ المنهي عنه

"وإنّما اعتُبِر ما في المَذكورات من معاني النّهي؛ لأنّ الأهمّ هو الإقلاع عمّا يقتضيه جميعُها مِنَ المفاسد بالصّراحة أو بالالتزام؛ لأنّ دَرْءَ المفاسدِ أَهَمّ مِن جَلْب المصالح في الاعتبار، وإن كانا مُتلازمين في مثل هذا"[4]، فعَدَمُ التّصريح هو الأَليقُ بما سيقت له الآيةُ مِن غرضٍ مَضَى تقريرُه.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 104.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 172، والآلوسيّ، روح المعاني: 15/ 76، وينظر: طه السّيّد محمود، البلاغة القرآنيّة في تفسير البقاعيّ (التذكير والتأنيث أنموذجا): 1/ 519.

(3) طه السّيّد محمود، البلاغة القرآنيّة في تفسير البقاعيّ (التذكير والتأنيث أنموذجا): 1/ 519.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 105.

سِرُّ التَّعبير باسم الإشارة: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الدَّالِّ على البُعْد:

قوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الخصال الخمسِ والعِشرين المَذكورة، مِن قوله تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء: 22][1]، إلى الآية التي قبل آية اسم الإشارة مباشرةً، أي: مِنَ الجَعل مع الله سبحانه إلهًا آخَر، وعبادةِ غيرِه تعالى، والتّأفيفِ، والنّهْر، والتّبذير، وجعلِ اليَدِ مغلولةً إلى العُنق وبسطها كلّ البسط، وقتلِ الأولاد خشيةَ إملاقٍ، وقتلِ النّفس التي حَرّم اللهُ تعالى إلّا بالحَقّ، وإسرافِ الولي في القتل، وقفوِ ما ليس بمعلوم، والمَشي في الأرض مَرحًا، كلّ ذلك كان مكروهًا عند ربّك، أي: مبغوضًا عنده[2]، والبُعدُ في اسم الإشارة على خلافِ الظّاهر؛ إذِ الأصل والظّاهرُ التّعبيرُ باسم الإشارة للقريبِ؛ لقُرب المُشار إليه مِنِ اسم الإشارة، وهذا البُعدُ بُعْدُ مكانةٍ، فهو يعني التّعظيمَ والتّفخيمَ؛ بقرينةِ اختصاصِ ما يَرجِعُ إليه اسمُ الإشارةِ بالذِّكْرِ؛ تنبيهًا إلى أهمّيتِه وخَطَرِه في بابِه.

"وفي اسم الإشارة البعيد أيضًا: إشارةٌ إلى تناهي الأوامرِ السّابقة في باب الفضائلِ والمكارم والمحاسن، ورسوخِها في هذا الباب، وبُعْدِ المنهيِّ عنه من ذلك الباب، وتناهيهِ ورسوخِهِ في باب الرّذائِل والقبائح والمَساوئ، قال البقاعيّ: "﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمرِ البعيدِ مِنَ المَكارِمِ"[3].

ويُؤْنِسُ بهذا ويُؤيدُه التّعبيرُ بمادة الكون: ﴿كَانَ﴾، مع إمكان الاستغناء عنه في الظّاهر؛ حيثُ يجوز أن يُقال في غير القرآن: (كلُّ ذلك سيئُهُ عند ربّكَ مكروهٌ)، و(كلُّ ذلك سيئةٌ عند ربّكَ مكروهٌ)، فهو دالٌّ على ما يتعلّق بالنّواهي صراحةً، وعلى ما يتعلّق بالأوامر ضمنًا، ودلالتُه على هذا الثّاني مع قراءة الإضافة، أقوى منه مع قراءة غير الإضافة، واستمرارُ العمل بمقتضى الأوامر والنّواهي في الشّرع قرينةٌ على أنّ فعل الكون هنا معناه الدّوامُ والاستمرارُ، قال البقاعي: "﴿كَانَ﴾ أي: كونا غيرَ مُزايل، ... ومِن حكمة هذه الأشياء المُشارِ إليها مِن الأوامر والنّواهي أنّها لم تَقْبل النّسخَ في شريعةٍ مِنَ الشّرائع، بل كانت هكذا في كلّ مِلَّةٍ"[4].

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 255.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 73، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 15/ 47.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/ 381.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/ 381 - 382، وينظر: طه السّيّد محمود، البلاغة القرآنيّة في تفسير البقاعيّ (التذكير والتأنيث أنموذجا): 1/ 532.

بلاغةُ العدولِ عنِ الجمع إلى الإفراد في ﴿ذَٰلِكَ﴾:

الــدّلالــة على الألــوهــيّــة، وسهولةُ تحقيقِ المطلوب أمرًا ونهيًا

في قوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ عدَلَ التّنزيلُ الكريمَ عنِ الجَمْع إلى المُفْرد في اسم الإشارةِ: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ "فإنّ المُراد به جميعُ ما تقدّم مِنَ الأوامر والنّواهي الصّريحة والضّمنيّة على القراءة الأولى، وهي قراءة الإضافة، وأنّ المُراد به مجموعةُ النّواهي الصّريحة والضّمنيّة على القراءة الثّانية.

وفي الإفراد: تنبيهٌ على استواء هذه الأمور في التّعلّق بعِلْم اللّه تعالى، فَعِلْمُه تعالى بالحُسْن والسّوء فيها كعِلْمه بهما في شيء واحدٍ منها، فالإفرادُ دالٌّ على الأُلوهيّة، وفي هذا مِنَ التّرغيبِ في فعل المأمور به، والتّرهيبِ مِن فعل المَنهيِّ عنه ما فيه، وفيه أيضًا: إشارةٌ إلى شِدّة القُرب والتّقارُب بينَ هذه الأمور، وما بينَها مِن رَحِمٍ وتناسبٍ، وفي هذا حَثٌّ على تدبُّرِها مِن هذه الجهة.

وفيه أيضًا: إرشادٌ إلى أنّ تحقيقَ الاستجابةِ لما أمَر به تعالى، والانتهاءِ عمّا نهى عنه، أمرٌ قريبٌ سهلٌ مُمْكِنٌ.

وفيه أيضًا: تنبيهٌ على وَحْدَة الغَرضِ العامِّ مِن كلّ تلك الأمور، وهو صلاحُ العبد في نفسه، ومع غيرِه، ومع ربّه، وبذلك يتحقّقُ كمالُ إقْباله على مولاه سبحانه.

وفيه أيضًا: أنّ بعض هذه الأمورِ يُكَمِّل بعضُها بعضًا، وأنّ الإنسان يفتقِرُ إلى جميعها، فهي أجزاءُ شيءٍ واحدٍ، لا تناقض بينَها، ولا تعاند، ولا تنافي"[1].

بلاغةُ التّعبير بالفعل الماضي: ﴿كَانَ﴾:

تحقيقُ معنى الآيةِ وحَسْمُه؛ إيقاظًا للمُتلقّي

قوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا﴾، مِنَ الظّاهر كونُ مضمونِ الآية كائنًا في جميع الأزمنة بالنّسبة للمُتلقّي،

(1) طه السّيّد محمود، البلاغة القرآنيّة في تفسير البقاعيّ (التذكير والتأنيث أنموذجا): 1/ 526 - 527.

فلماذا اصطفى القرآنُ الفعلَ الماضي: ﴿كَانَ﴾؟، والجواب: في التّعبيرِ به "دلالةٌ على أنّ معنى الآية أمرٌ مُحقَّقٌ مَحْسوم، قضى بهِ اللّهُ تعالى، وكلُّ أولئك إيقاظٌ وإحْياءٌ لفطرة العبدِ وقلبه؛ كي يُقبل على مولاه سبحانه حَقَّ الإقبال عليه، فيكونَ مِنَ المتّقين المُحسنين"(1).

بلاغة التّذكير والتّأنيث والإفراد في القراءتين:

تكليفُ العظيمِ عظيمٌ

في الآية قراءتانِ متواترتانِ في كلمة ﴿سَيِّئُهُۥ﴾؛ قرأ ابن عامر والكوفيّون بضمّ الهمزة وضمّ الهاء وصلتها، والباقون بفتح الهمزة وتاء تأنيث مفتوحة منوّنة، فصارت القراءاتان: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا﴾، والأخرى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئَةً عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا﴾(2)؛ فأمّا تذكير قولِه تعالى: ﴿سَيِّئُهُۥ﴾ فهو تنبيهٌ على هَيْبَة تلك الأوامر والنّواهي في ذاتها؛ مِن حيثُ إنّها أوامر ونواهي اللّهِ العظيم ذي الجلال والإكرام، الذي يجب له كلّ كمال، ويستحيل عليه كلّ نقصان، فعلى العبد أن لا يَغْفُلَ عنها، ولا يستهينَ بها.

وإساءةُ تلك الأمور القبيحة التي يبغضها اللّهُ تعالى عظيمة شديدةٌ، تستوجب غضبًا وعقابًا شديدَيْنِ، فبيْن تذكير (سَيِّئَ) وهذه العناصر مِنَ التّناسب ما ترى، ويكمنُ ضمن تذكير معنى الكره في: ﴿مَكۡرُوهٗا﴾، وفي هذا التّذكير أيضًا: إيماءٌ إلى قوّة معنى: ﴿مَكۡرُوهٗا﴾ وشدّتِه، وفي هذا تحقيق للتّنفير المقصود ما فيه، وتحقيقٌ للتّرغيب أيضًا، وفي تذكير: (سَيِّئَ) و: ﴿مَكۡرُوهٗا﴾ أيضًا: إشعارٌ بحصول غضب اللّه تعالى لِمَن يقع في واحدة مِن هذه الأمور المنهيِّ عنها.

وفي إفراد السَّيِّئَ في قوله: ﴿سَيِّئَةً﴾ على القراءة المتواترة إشارةٌ إلى حقارته وضعفه وبطلانه في ذاته، وفي ميزان اللّه تعالى؛ حيثُ هي أمور مكروهة عند اللّه، وفي جانب إحسانه سبحانه، وينسجم مع

(1) طه السّيّد محمود، البلاغة القرآنيّة في تفسير البقاعيّ (التذكير والتأنيث أنموذجا): 1/ 533.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 307.

الإفراد في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾، وفي كلّ هذا إبلاغٌ في تحقيق التّنفيرِ المقصودِ السّياقيِّ، وما كان هذا شأنه فلا بدّ أن يكون مكروهًا على أعلى وأبلغ ما تكون كراهةٌ، فالتّأنيث والإفراد تمهيد للتّذكير في: ﴿مَكۡرُوهٗا﴾[1].

سِرّ زيادةِ شبه الجملة: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾:

تشنيع الحال الـتـي عـليـها أهلُ العصيان، والـتّرغـيـبُ في مقابلةِ الإحسان بالإحسان

الأصلُ في بناءِ الجملةِ صناعةً المُسنَدُ إليه؛ وهو هنا: ﴿سَيِّئُهُۥ﴾، والمُسنَدُ، وهو هنا: ﴿مَكۡرُوهٗا﴾، فلماذا زيدَ في بنائها قولُه: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾؟

والجواب: لتشنيع الحالة وتبشيعها، أي: مكروهًا فعلُه مِن فاعله، وفيه تعريضٌ بأنّ فاعله مكروهٌ عند اللّه[2]، وفيه ترغيبٌ عظيمٌ في تحقيقِ ما يأمرهم بهِ اللّهُ وما ينهاهم عنه، وفي تحقيقه على جهة الإتقان؛ لأنّه سبحانه المُحْسِن إليهم؛ بدلالة التّعبير بالرّبّ؛ فهل جزاءُ الإحسان إلّا الإحسان؟!.

بلاغةُ تقديم: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ على: ﴿مَكۡرُوهٗا﴾:

الاهـتـمـام بالظّرف المضاف لاسم الجلالة

قولُه: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ متعلّق باسم المفعول: ﴿مَكۡرُوهٗا﴾، أي: هو مذمومٌ عند اللّه، فتقديمُه عليه؛ للاهتمام بالظّرف؛ إذ هو مضاف لاسم الجلالة[3]، ووجهُ الاهتمام: الإبلاغُ في تحقيق المطلوب مِن ذي الجلال والإكرام، ممّا يتعلّق بشأن الأوامر والنّواهي في سياقِ السّباق على وجه السّرعة.

بلاغةُ تعميمِ وصفِ المُشار إليه بالكراهة:

الإيـــذانُ بـأنّ مُـجـرَّدَ الكراهة عـنـده تـعـالى كافيَةٌ في وُجوبِ الانتهاءِ

قوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا﴾، وصفُ ذلك بمُطلَقِ الكراهةِ هو وصفٌ لجميع أفرادِ المُشار إليه بها؛ لأنّه تلخيصٌ لها، وقد كان ذلك، مع أنَّ بعضَ المشار إليه مِنَ الكبائرِ؛

(1) طه السّيّد محمود، البلاغة القرآنيّة في تفسير البقاعيّ (التذكير والتأنيث أنموذجا): 1/ 527 - 531.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/ 381، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 105.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 105.

للإيذانِ بأنَّ مُجرَّدَ الكراهةِ عنده تَعالى كافيَةٌ في وُجوبِ الانتهاءِ عن ذلك(1).

توجُّهُ الخطابِ في قوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾:

ناسب الخطاب بالإفراد في قوله سبحانه: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ مع السياق في التذكير في ﴿ذَٰلِكَ﴾، و﴿كَانَ﴾ و ﴿مَكْرُوهًا﴾ وفي سياق الرّبوبية، وفي سياق الإفراد في ﴿ذَٰلِكَ﴾، و﴿سَيِّئُهُۥ﴾، حيث إن كاف الخطاب في ﴿رَبِّكَ﴾ عائد على سيّدنا رسول اللّهِ محمّد ﷺ؛ فعليه يَعْظُم شأنُ المعنى، وشأنُ تلك الأوامرِ والنّواهي، فأعظمُ الخَلْقِ على الإطلاق الذي غَفَرَ اللّهُ له ما تقدّم مِن ذنبه وما تأخَّرَ: مأمورٌ بها، ومنهيٌّ عنها، فكيف بمَن هو أدنى منه؟!، ومراتبُ هذا الأدنى كثيرةٌ، لا تكاد تَنحصرُ.

ثمّ شأنُ المُحِبِّ أن يفعل فِعْلَ حبيبه، ومِنَ الإيمان حُبُّ رسولِ اللّه ﷺ، وأن يكون حُبُّه أعْلى وأعظمَ وأشَدَّ مِن حُبّ الإنسانِ نَفْسَه.

وأيضًا في كون الخطاب لرسول اللّه: إشعارٌ بأنّه البالغُ فيه حَدًّا لا يبلغُهُ أحدٌ غيرُه مِنَ البَشَرِ؛ لأنّه ليس كمثله أحدٌ مِنَ البشر في باب كمالِ وتمامِ العِلْم بمُراد اللّه ﷻ؛ لأنّ القوّة العمليّةَ مبنيّةٌ على القوّة العِلْميّة، والبقاعيّ نبَّه على هذا(2).

ويجوز أن يكون الخطابُ عامًّا لكلّ مَن يَصِحُّ أن يُخاطَب به، والغرضُ منه حَثُّ كلّ فردٍ على حِدَةٍ على فعلِ المأمور به، وترك المنهيِّ عنه؛ لأنّ كلّ واحد سيُسأل عن نفسه أولًا، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ٣٨﴾ [المدّثر: 38].

فائدة التعبير بالرّبوبيّة في: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾:

وفي التّعبير بالرّبّ - أيضًا - دون اسم الجلالة: إنكارٌ توبيخيٌّ

خَسِرَ مَن قابل رحمة الرّبوبية بسَوءة العِصيان

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 172.

(2) قال البقاعيّ: "ويجوز أن يكون المراد بهذا الإفراد النّبيّ ﷺ، إشارةً إلى أنّه لا يقْدِر أحدٌ غيرُه على امتثال هذا المعنى على ما ينبغي، لأنّه لا يعلم أحدٌ العلمَ على ما هو عليه سواء، ولأنّ الرّأس إذا خُوطِب بشيء كان الأتْباعُ له أقْبلَ، وبه أعنى"، يُنظر: البقاعي، نظم الدّرر: 4/ 381.

خفيٌّ على مَن يأتي هذه الأمورَ المنهيَّ عنها، كيف يقابل إحسانَ اللّه تعالى إليه بالمعصية؟!، ففيه تبشيعٌ لحاله، وتشهيرٌ بمقابلته الإحسانَ بالإساءة!، وفيه أيضًا: تهديدٌ خفيٌّ بقطع الإحسان عنه؛ فإنّ المعاصي تُزيل النّعم، وتجلِبُ النِّقَمَ، وإنّ اللّه لا يُغَيِّر ما بقوم حتّى يُغَيِّروا ما بأنفسهم[1].

وفيه أيضًا: إشارةٌ لنا إلى "أنّ مِن تمام حِكْمة التّربية وحُسْنِ التّدبير أنّ هذه المنهيّات في حُكْم اللّه وتقديره سيّئةٌ وخيمةُ العاقبةِ"[2]، يؤيّدُ هذا قولُه سبحانه في اللّحاق: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ [الإسراء: 39]، فاللّهُ تعالى لا يرضى لعباده شيئًا مِنَ السّوء أبدًا، فالتّعبيرُ به يُرَهِّب ويُرَغِّب أيضًا كباقي العناصر، وفي إفراد السَّيِّئ والسّيّئة والكراهة أيضًا: تنبيهٌ على تساويها واتّحادِها في معنى هذه الكلمات المُفرَدة"[3].

(1) وذكر الطاهر فائدةَ تشنيع الحالة، ينظر: ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 105.

(2) إبراهيم خليفة، دراسات في تفسير القرآن، ص: 226.

(3) طه السيد محمود، البلاغة القرآنية في تفسير البقاعي (التذكير والتأنيث أنموذجا): 1/ 527 - 531.

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ٣٩﴾ [الإسراء: 39]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الإشـارة إلى جملة التّكاليف السّالفة، وأنّها من مقتضى الحكمة الموحاة

بعد أن تناولت الآيات السّابقة جملةً كثيرة منَ التّكاليف، وعددًا منَ الأوامر والنّواهي غير قليل، أشارت هذه الآية بعد ذلك إلى أن هذا كله الذي نصت عليه السّورة، هو مما أوحاه اللّه إلى رسوله، مما اقتضته الحكمة الربانية العالية فقال: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾ فجمع في اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ بين "خمسة وعشرين نوعًا من التّكاليف"(1)، هي التي مضت بدءًا من قوله سبحانه: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء: 22] وما تلاه وصولًا إلى هذه الآية الكريمة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾: (حكم): أَصلٌ واحدٌ، وهو المَنعُ، وأَوَّلُ ذلكَ الحُكْمُ، وهو المَنعُ مِنَ الظُّلم، وَسُمّيَتْ حَكَمَةُ الدّابَّةِ لِأنّها تَمْنَعُها، يُقالُ: حَكَمْتُ السَّفيهَ وَأَحْكَمْتُهُ، إذا أَخَذْتَ على يَدَيْهِ، والحِكمَةُ هَذا قياسُها؛ لِأَنَّها تَمْنَعُ مِنَ الجَهل، تَقولُ: حَكَّمتُ فُلانًا تَحكيمًا مَنَعتُهُ عَمّا يُريدُ، وكُلُّ شَيءٍ مَنَعْتَهُ مِن الفَسادِ فقد حَكَمتَهُ وأَحْكَمتَهُ(2)، والحِكمَةُ أيضًا: إصابةُ الحقِّ بالعِلم والعَقلِ، فالحِكمَةُ من اللّه تعالى: معرفةُ الأشياء وإيجادُها على غايةِ الإحكام، ومن الإنسان: معرفةُ الموجودات وفِعل الخيرات(3)، والمقصودُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 343.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حكم).
(3) الرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (حكم).

بـ﴿ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾ في الآية: مَعرِفةُ الحَقائِقِ على ما هي عليهِ دونَ غَلَطٍ ولا اشتِباهٍ، وتُطلَقُ على الكَلامِ الدّالِّ عَليها[1].

2) ﴿فَتُلۡقَىٰ﴾: أَصلُ (لقي): يَدلُّ على طرحِ شَيءٍ[2]، واللَّقيُ: الشَّيءُ المُلقى المَنبوذ[3]، والإلقاءُ: طَرحُ الشَّيءِ حيث تلقاه، أي: تراه، ثمَّ صارَ في التَّعارف اسمًا لكلِّ طَرحٍ[4]، ويُطلَقُ على الإفضاءِ بالكلامِ ﴿يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾ [الشُّعراء: 223]، وعلى حُصولِ الشَّيءِ في النَّفسِ كأَنَّ مُلقيًا ألقاهُ، أي: مِن غيرِ سَبقِ تهيُّؤ: ﴿وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ﴾ [المائِدَة: 64][5]، والمُراد بالإلقاء: رَميُ الجِسمِ مِن أَعلى إلى أَسفَلَ، وهو يُؤذِنُ بالإهانَةِ[6].

3) ﴿مَلُومٗا﴾: أصلُ (لَوَمَ): يَدُلُّ على العَتبِ والعَذلِ، فاللَّوْمُ: العَذْلُ[7]، تقولُ: لامَهُ على كذا لَومًا ولَومَةً، فهو مَلومٌ ومليم؛ إذا أَتى ذَنْبًا يُلامُ عليه، قال تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ١٤٢﴾ [الصافات: 142][8]، والتَّلاوُمُ: أن يلوم بعضُهم بعضًا، قال تعالى: ﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ ٣٠﴾ [القلم: 30][9]، واللّائِمَةُ: الأمر الَّذي يُلامُ عليه الإنسان[10]، والمقصود بالمَلوم في الآيةِ: الَّذي يُنكَرُ عليهِ ما فَعَلَهُ[11].

4) ﴿مَّدۡحُورٗا﴾: أَصلُ الدَّحرِ: الطَّردُ والإبْعادُ، يُقال: دَحَرَ العَدوَّ، يَدْحَرُهُ دَحرًا ودُحورًا، فهو مَدْحورٌ، وأَدْحَرَه، أي: أَبعَدَهُ وطَرَدَهُ، والأَدحَرُ: المَطرودُ والمُبْعَدُ، ويأْتي بمعنى المَدْفوعِ بِعُنْفٍ، والأَهْوَنِ والأَذَلِّ، والمَقْذوفِ[12]، والمقصود بالمدحور في الآية: المَطرودُ المُهانُ المُبْعَدُ مِن رَحمةِ اللّهِ تعالى في الآخرة.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/ 160.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لقي).
(3) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (لقي).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، والزّبيدي، تاج العروس: (لقى).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/ 123.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 106.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لوم).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لوم).
(9) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (لوم).
(10) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (لوم).
(11) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 106.
(12) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (دحر).

المَعْنى الإجْماليُّ:

لا يصحّ مع الشّرك عملٌ، وليسَ للمُشرك مصيرٌ إلَّا النَّار

لمّا تمَّتِ الأوامِرُ والزَّواجِرُ على هذا الوجهِ الأحكَم، والنِّظامِ الأقوَم؛ أشار ﷻ إلى عَظيم شأنِه، ومُحكم إتقانِه، بقَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾ وفي ذلك دلالة على أنَّ هذه الأحكام والأوامِر والنَّواهي التي تَضَمَّنَتْها الآياتُ السّابقةُ، مِمّا أوحَى إليك ربُّك تعالى يا مُحَمَّدُ ﷺ من الحِكمةِ؛ لِتَعمَلَ بها وتدعوَ النّاسَ إليها، فلا تجعَلْ مع اللهِ مَعبودًا غيرَه، فتُرمَى في جهنَّمَ مَلومًا؛ تلومُك نَفسُك، ويَلومُك الخَلقُ، مُبعَدًا مَطرودًا من رَحمته ﷻ[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

غرض الافتتاح بـ﴿ذَٰلِكَ﴾:

الفذلكة في الآية بالإجمال بعد التّفصيل

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾ هو بمثابة (الفذلكة) لما مضى، حيث جمع فيه وأجمل كلّ التّكاليف الماضية؛ وهي خمسةٌ وعشرون تكليفًا مبتدَأة بقوله تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ٢٢﴾ [الإسراء: 22][2]، وقد أُشير إليها بـ (لام البعد) للدّلالة على علوّ مَرتبتِها وبُعد مقامها وارتفاعه، فهي تشريعاتٌ مُحكَمةٌ متقنةٌ؛ لأنّ الذي شرَعها هو الحكيم الخبير.

حرف الجرّ (من) ودلالته:

خزائن الله ملأى

(من) في الآية: ﴿مِمَّآ﴾ للتبعيض؛ أيْ: ذلك بعضُ ما أوحاه إليه ربّك مِن خَزائن حكمتِه الّتي لا تنفد أبدًا.

غرض التّعبير بالاسم الموصول (ما)

التّعبير بـ (ما) أجمع وأخصر

في إيثارِ التَّعبير بـ (ما) في الآية: ﴿مِمَّآ﴾ دلالة على كَثرة ما

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 601، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 264، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 77، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 458.

(2) خمسة وعشرون نوعًا من التكاليف، بعضُها أوامر وبعضها نواهٍ ذكرها الله تعالى في هذه الآيات وجعل فاتحتها قوله: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ٢٢﴾ [الإسراء: 22]، وخاتمتها قوله: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ٣٩﴾، ولتفصيلها يُرجى الرّجوع إلى: الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 343.

أوحاه اللّه تعالى مِنَ التَّشريعات الحَكيمَةِ، ومنها ما في هذه السّورة، ممّا أجمل بعد تفصيل باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾، ثمّ أجمل واختصر في التعبير بـ (ما)، كما يدلّ التّعبير بـ (ما) كذلك على سعة خزائن الحكمة الإلهية التي لا تنفد أبدًا، والتي منها وهب اللّه تعالى كلّ رسول مِن رسله عليهم صلوات اللّه وسلامه، ما يُلائم المخاطبين في زمانه من التّشريعات المحكمة، فغدت جميع الرّسالات الإلهيّة متّحدة الأصول، متنوّعة الشّرائع؛ ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٢٤﴾ [إبراهيم: 24].

دلالة التّعبير بالماضي ﴿أَوۡحَىٰٓ﴾:

تعليل وجه علوّ هذه التّشريعات في الحكمة

في التّعبير بـ ﴿أَوۡحَىٰٓ﴾ ما يُزيل وجه الاستغراب، ويُجيب عن سؤال: أنّى لرجل أُمّيٍّ أن يَصدر عنه هذه التّشريعات الّتي تعلو عن طاقة البشر؛ فبان بهذا التّعبير أنّها ليست من البشر، ولكنّها من خالقهم، ولأجلها كان إرسال الرّسل، ليبلغوها إلى النّاس، كما قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٣٩﴾ [الأحزاب: 39].

غرض تقديم ﴿إِلَيۡكَ﴾ على الفاعل ﴿رَبُّكَ﴾:

في الاهتمام بالمقدّم، إبراز للامتنان

جاء تقديم شبه الجملة ﴿إِلَيۡكَ﴾؛ للاهتمام به، ولإبراز الامتنان[1] عليه ببيان أنَّ ما جاء به مِن تشريعات فائقة الحكمة مُحال أن تكون مِنَ البشر، بل هي مِن خالق البشر، وأنّها بعضٌ ممّا تشتمل عليه خزائن الحكمة، وأنَّها ممّا امتنّ اللّه به على الرسول ﷺ.

نكتة تكرار ضمير المخاطب:

الاهتمام تشريف وتكريم، للمهتمّ به في السّياق

في توجيه الخطاب إليه ﷺ مجرورًا في الأول ﴿إِلَيۡكَ﴾، ومضافًا إليه في الثّاني ﴿رَبُّكَ﴾ دلالة على الاهتمام بشخصه ﷺ، وأنّ ذاته محلّ التّكريم والاهتمام والاعتناء، كما تدلّ الإضافة إلى اسم الرّبّ:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 106.

﴿رَبُّكَ﴾ على تشريفه ﷺ بهذه الإضافة، وبيان مكانته المنيفة عند ربّه ربِّه، الّذي أوحى إليه من الحكمة ما قد ذُكِر.

دلالة حرف الجرّ في ﴿مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾:

بيان المعاني المحتملة، دلالة ثراء المعاني

يحتمل فيها أن تكون: للبيان؛ والتّعلق حينئذ بمحذوف وقع حالًا من الموصول أو عائده المحذوف، أي: من الّذي أوحاه إليك ربّك (كائنًا مَن الحكمة)[1]، وهو المعنى الأنسب لمكان الوحي ومكانته.

أو تكون للابتداء، وفيه بيان لشرف المورد، وقيل: للتبعيض على أن معنى ﴿مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾ بعض الحكمة[2]، لكنِ الّتي قبلها في ﴿مِمَّآ﴾ للتّبعيض، فيبعد أن يكون المعنى: ذلك بعض ما أوحاه اللّه إليك من بعض الحكمة.

غرض تعريف ﴿ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾ بـ(الْ):

تعريف (الحكمة) بغرض تعظيم أمرها

(أل) في ﴿ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾ للجنس، وغرضها تعظيم أمر هذه الحِكمة، لكونها مِنَ اللّه تعالى، ولأنَّه إذا كان الذي علم منها بهذه الحكمة الفائقة، فكيف بجميعها؟

نكتة كون التّكاليف المشار إليها من الحكمة:

التّكاليف المشارُ إليها بقوله (ذلك)، كلّها من الحكمة باتّفاق كلّ الشّرائع

ذكرَ النَّظْمُ الكريمُ التّكاليف وسَمّاها حِكْمَةً؛ لأنّ حاصلها يرجعُ إلى الأمرِ بالتّوحيد، وأنواعِ الطّاعات، والإعراضِ عن الدّنيا، والإقبالِ على الآخرة، والعقولُ تدلّ على صحتها، وهي تكاليفُ حاصلة في جميع الشرائع الإلهية ولا تقبل النسخ[3].

دلالة الواو في: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ﴾:

النّواهي كلّها نسق واحد، وجميعها وحي

الواو في قوله: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ﴾ عاطفة لهذه الجملة على جُمَل

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 173، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 74، والسَّمين، الدُّرّ المصون: 7/ 358.

(2) السّمين، الدر المصون: 7/ 358.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 51.

النّهي[1] التي سبقت، فهي نسق عليها، ويكون ما بينهما بمثابة الاعتراض للتأكيد على أنَّ كلّ النّواهي مهابة معظمة لكونها وحيًا.

غرض التّعبير بأسلوب النّهي ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ﴾:

توحيد الله وعدم الإشراك به رأس الدّين

أسلوب النهي ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ﴾ غرضه تأكيد عدم الاعتقاد في شريك لله تعالى، أو بالأحرى "تأكيد مضمون جملة ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23]"[2]، ولذلك جاء الخطاب بصيغة الإفراد؛ وكأنّه موجَّه إلى كلّ فردٍ ممّن يُشرك بالله تعالى.

دلالة مرجع الضمير في ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ﴾:

خطاب الخاصّ وإرادة العامّ، دعوة للتّواضع للخطاب الإلهيّ

الخطاب بقوله: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ﴾ عام لكلّ مَنْ يصلح له، فهو خطاب موجّه إلى غير معيَّن[3] كشأن المناهي السّابقة عليه، على ما هو الأرجح، فهو صالح لكلّ مَن هو أهل له، ممّن يشركون بالله تعالى وفي توجّهه للخاصّ دعوة للتّواضع للخطاب الإلهيّ، إذ معناه أنّ النّبيّ ﷺ محلّ للنّهي عمّا لم يكن منه، فكيف يكون الحال بنهي من فيه المنهيّ عنه؟

نكتة تكرار النّهي، عن اتّخاذ إله مع الله:

تكرار جملة النّهي تأكيدٌ للاهتمام بالتّوحيد

أُعيد قوله: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، على أنّه قد مضى نصًّا؛ لقصد الاهتمام بأمر التّوحيد، بتكرير مضمونه، وبما رتّب عليه من الوعيد، بأن يجازى بالخلود في النّار مُهانًا[4]..

سرّ وضع المَناهي بين الجملة المُكرّرة ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ﴾

التّوحيد له حقّ التّقديم؛ لأنّ كلّ الأعمال مترتّبة عليه

السّر في أنّ ما ابتدأ به المناهي في هذه السّورة في الآية (22)، ثمّ اختتمها به في الآية (39) هو قوله: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، هو الإشارة إلى أنّ التّوحيد مبدأ الأمور ومنتهاها، وهو رأس

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 106.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 106.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 106.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 106.

الأشياء وأساسها، والأعمال بدونه باطلة لا تفيد شيئًا[1]، و"هو رأس كلّ حكمة وملاكها، ومَن عدمه لم تنفعه حِكَمُه وعلومُه، وإن بذَّ فيها الحكماء، وحكّ بيافوخه السّماء، وما أغنت عن الفلاسفة أسفارُ الحِكَم، وهم عن دين الله أضلّ من النّعم"[2].

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ﴾:

نهيُ المخاطب عن الإشراك في الحال والاستقبال

عبَّر النّظَم الكريم بالمضارع ﴿تَجۡعَلۡ﴾؛ لأنَّ النّهي كان عن واقع موجود وكائن، فالنَّهي مُسلَّطٌ على واقع الحال، وأيضًا لتأكيد عدم وقوعه في الاستقبال.

غرض تقديم ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾ على المفعول به ﴿إِلَٰهًا﴾:

التّقديم للأهمّ، ولكونه المقصود بالخطاب

قدَّم قوله: ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾ على المفعول به ﴿إِلَٰهًا﴾؛ لكونه الأهم، ولأنّه المقصود بالخطاب، فالنّهي مُتَّجه إلى إيجاب عدم الشرك به سبحانه، بغضِّ النظر عن هذا الشريك المُتَخَذ، فليس هذا محل الاهتمام.

معنى الفاء ودلالتها في ﴿فَتُلۡقَىٰ﴾:

بيان أنّ أسباب النّهي تحريض على سرعة اجتناب المَناهي

فالفاء مع كونها عاطفة ومُفيدةً للتّرتيب والتّعقيب هي مفيدة للسّببيّة الدّالّة على أنّ هذا الجزاء وهو الإلقاء في جهنم، مُسبَّب عن جعلهم للّه شريكًا، ونتيجة حتمية مُرتبة عليه، وفي التّحذير من ارتكاب المنهيّ عنه، إلهاب على الإسراع في تركه.

دلالة التّعبير بالفعل ﴿فَتُلۡقَىٰ﴾، مضارعًا مبنيًّا للمفعول:

حتمية الإلقاء، وأنّه بقوّة قادر قاهر فوق عباده

في التّعبير بالفعل مضارعًا مبنيًّا للمفعول ﴿فَتُلۡقَىٰ﴾، وهو جوابٌ لجملة النّهي، دلالة على حتميّة هذا الإلقاء في جهنم، وأنّه بقوة قادر قاهر فوق عباده لا يستطيع المشرك عنه فكاكًا، ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٣١﴾ [الشّورى: 31]، وفيه

(1) الصّاوي، حاشية الصّاوي على تفسير الجلالَيْن: 2/ 323.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 688.

من الدّلالات كذلك "الجري على سنن الكبرياء، وازدراء بالمشرك وجعله كخشبة يأخذها من كان، فيلقيها في التّنور"[1].

سرّ تقييد الإلقاء بشبه الجملة ﴿فِي جَهَنَّمَ﴾:

التّأكيد على مصير المشركين البئيس، تحريض لهم على الانتهاء عن الشّرك

في تقييد الإلقاء بشبه الجملة ﴿فِي جَهَنَّمَ﴾، قطع لأيّ احتمال آخر، ونفي لأيّ أمل يمكن أن يمرّ على خواطر المشركين في هذا الشّأن، كما أنّ فيه تيئيسًا لهم، وكلّ ذلك ممّا يلهبهم للانتهاء عن الشّرك.

سرّ التّعبير بـ ﴿جَهَنَّمَ﴾، دون غيره:

اسم جهنّم جامع للإيلام الجسديّ، والإيلام النّفسيّ

وفي النّص على ﴿جَهَنَّمَ﴾ دون أيّ اسم آخر من أسمائها، دلالة على أنّهم سيجمعون بين عقابين: هما الإيلام الجسديّ، والإيلام النّفسيّ بالتّجهّم الّذي سيلاقونه في جهنَّم.

سرّ التّعبير بحالي الملقى ﴿مَلُومًا مَّدۡحُورًا﴾:

تعدّد أحوال العقاب، تفظيع للشّرك المُسبّب لذلك

عبَّر بحالي الملقى ﴿مَلُومًا مَّدۡحُورًا﴾، إشارة إلى الجمع بينهما في العقاب، أي: بين اللّوم المفهوم منَ الحال ﴿مَلُومًا﴾، والطّرد المفهوم منَ الحال ﴿مَّدۡحُورًا﴾.

الموازنة بين الآيتيْن (39) و(22) من السورة:

المقابلة بين وصفي كلّ آية منهما وحاليهما

عند الموازنة بين (الملوم) و(المذموم) في قوله تعالى هنا: ﴿فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدۡحُورًا﴾، وقوله سبحانه في الآية الأخرى: ﴿فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومًا مَّخۡذُولًا ٢٢﴾ [الإسراء: 22]، نجد أنَّ المذموم يُذكر له قُبح الفعل الّذي أقدم عليه وكونه منكرًا، وإذا ذكر له ذلك، فبعد ذلك يُقال له: لم فعلت مثل هذا الفعل، وما الّذي حَمَلَكَ عليه، وما استفدتَ من هذا العمل إلّا إلحاقَ الضّرر بنفسك؟ وهذا هو اللّوم، فثبتَ أنّ أوّل الأمر هو أن يصير مذمومًا، وآخره أن يصير ملومًا.

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 75.

الموازنة بين ﴿مَّدۡحُورًا﴾ و﴿مَّخۡذُولًا﴾

المخذول هو الضّعيف، يُقال: تخاذلت أعضاؤه؛ أيْ: ضَعُفَتْ، وأمّا المدحور فهو المطرود، والطّرد عبارة عن الاستخفاف والإهانة، قال تعالى: ﴿وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ٦٩﴾ [الفرقان: 69]، فكونه ﴿مَّخۡذُولًا ٢٢﴾ [الإسراء: 22] معناها أنه متروك إعانته ومُفوَّضٌ إلى نفسه، وكونه ﴿مَّدۡحُورًا﴾ يعني أنّه مُهانٌ ومُستخفٌّ به، فثبت أنّ أوّل الأمر أن يصير مخذولًا، وآخره أن يصير مدحورًا"(1).

سبب إيثار ﴿مَذۡمُومًا مَّخۡذُولًا﴾ ثم ﴿مَلُومًا مَّدۡحُورًا﴾

أوثر في الآية الأولى: ﴿مَذۡمُومًا مَّخۡذُولًا ٢٢﴾ [الإسراء: 22] وفي الثانية ﴿مَلُومًا مَّدۡحُورًا﴾ ليجمع لهم بين عقاب الدّنيا وعقاب الآخرة، فقوله: ﴿فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومًا مَّخۡذُولًا ٢٢﴾ [الإسراء: 22]، هو في عقاب الدّنيا، وقوله: ﴿فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدۡحُورًا﴾ هو في عقاب الآخرة(2).

نكتة ترتيب الحالَيْن في السّياق:

اللّوم مُقدَّم على الطّرد في الواقع

قدّم البيان القرآني ﴿مَلُومًا﴾ على ﴿مَّدۡحُورًا﴾؛ لأنّ اللوم مُقدَّم على الدَّحر والطَّرد، فالإنسان يعاتب أولًا: لم فعلت كذا؟ وبعد أن يُسقَط في يده فلا يحير جوابًا؛ لانعدام الحجة، يأتي بعد ذلك الحكم بالطَّرد والدَّحر.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

الجعل والأخذ:

كلا الفِعْلَيْن من أفعال التّصيير من (أخوات ظنَّ)، والجَعْل أعمّ وأشمل

الجَعل: لفظ عامّ في الأفعال كلّها، وهو أعمّ من فعل وصنع وسائر أخواتها، في إيجاد شيءٍ من شيءٍ، وتكوينه منه، نحو قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجًا﴾ [النّحل: 72]، وقوله: ﴿وَجَعَلَ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 344، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 51.
(2) مفاتيح الغيب: 20/ 344، والبحر المحيط: 7/ 52، والكرمانيّ، متشابه القرآن، ص: 164.

﴿لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ [النّحل: 81]، وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [الزّخرف: 10][1].

الأخذ: حَوز الشّيء في الأثناء بغلظ، أي: قبض بقوّة، وقد جاء أكثر (أخذ)، بمعنى القبض الحقيقيّ أو المجازيّ، والاتّخاذ افتعال منه، فيقال: (اتّخذ) وما تصرّف منها، وقد بلغ في القرآن الكريم (نيفًا ومائة مرّة)، وأصل معناها أخذ - الشّيء - لنفسه فهي قبض أيضًا[2].

وعلى هذا فالجعل أعمّ من الاتّخاذ وأوسع دلالة؛ لأنّ الاتّخاذ هو القبض بقوّة، وأمّا الجعل فيشمل ما هو أقلّ منه، ولذا فالنّهي بالجعل أنسب؛ فالنّهي عن الشّرك باللّه يشمل ما كان على مستوى الاعتقاد التّامّ في الشّركاء من دون اللّه، ويشمل ما هو أقلّ منه، ولو تدنّى إلى مستوى الرّياء فقط أو عدم الإخلاص، فكلّ ذلك منهيّ عنه ومشمول في ﴿وَلَا تَجْعَلْ﴾.

الإلقاء والرَّمي:

الإلـقـاء يُشعر بـالـقـرب حـدَّ الرّؤية بالعين، والرّمي قد يكون بعيدًا

الإِلْقاءُ: طرح الشّيء حيث تلقاه، أي: تراه، ثمّ صار في التّعارف اسمًا لكلّ طرح[3]، ويبدو من قول الرّاغب: "حيث تراه" أنّه يعني طرح المُلقى في مكان بحيث يُرى للرّائي؛ لأنّ رؤيته مُلقًى في النّار يتقلَّب فيها، ويُكَبكَب هو من مظاهر إيلام المعذَّب نفسيًّا، وعلى هذا فالتّقارب الدّلالي ظاهر جدًّا بين اللّفظين، لكن يتميّز الإلقاء بدلالته على كونه في مرمى النّظر والرّؤية.

والرَّمْيُ هو نَبْذُ الشَّيْءِ[4]، وهو يقال في الأعيان كالسّهم والحجر، نحو: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: 17]، ويقال في

(1) الرّاغب، المفردات: (جعل)، والكفويّ، الكليات، ص: 347.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (أخذ).
(3) الرّاغب، المفردات: (لقي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رمى).

المقال، كناية عن الشّتم كالقذف، نحو قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ [النّور: 6]، ﴿يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ [النّور: 4][1]، وقد يُفهم من لفظ (الرّمي) الدّلالة على البعد، ولذا يقال لما يلقى بقاذف كالنِّبال: (رمي)، فيقال: رمى سهمه، إذا قذفه تجاه صيده أو نحوه.

جَهَنَّمُ والنّارُ:

كلاهما اسمٌ لدار العذاب، واسمُ (جهنم) يزيدُ بمعنى التّجهُّم والعبوس

قيل: إنّ اسم جهنّم مُعرَّب، وأصله فارسيّ[2]، وعلى القول بأنّه عربيّ، فهو مُشتقّ من الجَهْم أو الجهومة، وهو الشّيءُ المخوِّف العابس الكريه[3]، وعندئذٍ يكون ما يحمله لفظ (جهنّم) من معنى الكراهيّة والبُغْض والخوف، هو مسوِّغ اختياره هنا؛ فلكونهم أشركوا بالله، وجعلوا لهم إلهًا آخر من دونه، فليتحمّلوا حرَّ نار جهنّم الّتي يحمل اسمها صفة التّجهُّم والعبوس، جزاءً لشِرْكهم بالله، وكُفرهم بما أوحاه إليك من الحكمة.

(1) الرّاغب، المفردات: (رمى).

(2) الرّاغب، المفردات، والجوهريّ، الصّحاح: (جهنّم).

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 272، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 10/ 326، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 7/ 4138.

﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا ٤٠﴾ [الإسراء: 40]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التّنديد بالمشركين الّذين ادّعوا البنوّة لله وخصّوه بالإناث

بعد أن نبّه سبحانه أنّه تعالى لمّا نبّه على فساد طريقة من أثبتوا له شريكًا، واتّخذوا له نِدًّا ونظيرًا، ممّا يدلّ على جهلهم وسوء فعلهم، قفّى على ذلك بالتّنديد والتّقريع لمن أثبتوا له ولدًا، ثمّ إنّه قد بلغ بهم الجهل مبلغه، والوقاحة مبلغها حين اعتقدوا أنّ الولد قسمان، وأنّ أشرف القسمين البنون، وأخسّهما البنات، ثمّ بنوْا على ذلك أنّهم أثبتوا البنين لأنفسهم، مع علمهم بنهاية عجزهم ونقصهم، وأثبتوا البنات للّه مع علمهم بأنّ اللّه تعالى هو الموصوف بالكمال الّذي لا نهاية له، والجلال الّذي لا غاية له[1]، فقال سبحانه منكرًا عليهم هذا كلّه: ﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ﴾: (صفو): أصل واحد يَدلُّ على خُلوصٍ من كُلِّ شَوْبٍ، من ذلكَ الصَّفاءُ، وهو ضِدُّ الكدر؛ يُقالُ: صَفا يَصْفو، إذا خَلصَ، يُقالُ: لَك صَفوُ هذا الأَمرِ وصِفوَتُه، والصَّفيُّ: ما اصطفاهُ الإمامُ مِنَ المَغْنَم لِنَفْسِه، والجَمْعُ: الصَّفايا[2]، واستَصْفَى الشَّيء واصطفاهُ: اختاره كأنَّه أخذه؛ لأنَّه أصفَى جِنْسه أو أجوده، والمصطفى ﷺ صَفْوَةُ اللّه مِنْ خَلْقِه، ومن ذلك أصفاه بكذا: أعطاه الصَّفوة من الشَّيء[3]، والمقصود بالإصْفاءِ في الآية: جَعْلُ الشَّيْءِ صَفْوًا، أَيْ: خالِصًا، والمراد به: أَخْتَصَّكم ربُّكم فآثركم بصفوة الأولاد؟

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 345.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صفا).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صفا).

2) ﴿وَٱتَّخَذَ﴾: أصلُ الأخذ: حَوْزُ الشَّيْءِ وجَبيُه وَجَمْعُه، قالَ الخَليلُ: هوَ خِلافُ العَطاءِ، وَهوَ التَّناوُلُ(1)، والإِخذُ بالكسر: الاسمُ، والأمْر منه خُذْ، وأصلُه أُؤْخُذْ إلّا أنَّهم استثقلوا الهمزتين فحذفوهما تخفيفًا(2)، وهو مِنَ الأضداد: يقال: أَخذَ الشَّيْءَ عَنْوَة، إذا أخذه غَصْبًا وغلَبَة، وأَخذه عَنْوَةً إذا أَخذه بمحبَّة ورضًا من المأخوذ منه(3)، والاتِّخاذُ: افْتِعالٌ مِنَ الأَخْذِ وَهوَ التَّناوُلُ، والتَّناوُلُ يُشْعِرُ بِتَحْصيلِ ما لَمْ يَكُنْ قَبْلُ، فالاتِّخاذُ في الآية مُشْعِرٌ بِأَنَّهُ صُنِعَ، وذلكَ مِنْ تَمامِ التَّعْريضِ بالـمُخاطَبينَ(4).

3) ﴿قَوْلًا﴾: القَوْلُ: مَصْدَر قالَ، ومَعناهُ: الكَلامُ على التَّرْتيب، أو كُلُّ لَفْظٍ نَطَقَ به اللِّسانُ، سواء كان مُفيدًا أو لم يَكُن، يُقال: قالَ، يَقولُ، قَوْلًا، أيْ: تَكَلَّمَ كلامًا، والقَوْلُ يَقَعُ على الكَلامِ التّامِّ، وعلى الكَلِمَةِ الواحِدَةِ على سَبيلِ الـحَقيقَة، ويُسْتَعْمَلُ بمعنى جَميعِ الأَفْعالِ، كَقَوْلِهم: قالَ بيَدِهِ هكذا، أيْ: أَخَذَ، وقالَ بِرِجْلِه، أيْ: مَشَى، ومِنْ مَعانيهِ أيضًا: القيلُ، والمَقالَةُ، والمَذْهَبُ، والحُكْمُ، والجَمْعُ: أَقْوالٌ(5)، والقَوْلُ في الآية مُسْتَعْمَلٌ في الـمَقولِ اللِّسانيِّ، وهو يَقْتَضي اعْتِقادَ ما يَقولونَهُ مِنَ البُطلان.

المَعْنى الإِجْماليُّ:

آثارُ الشِّركِ ضَلالُ العُقُولِ في احتكامها إلى الهوى لا إلى المنطق المعقول

يبيِّنُ اللّه تعالى في الآية الدَّليل على استحالةِ أن يكونَ له شريكٌ أو ولدٌ، فيقول: أفخَصَّكم ربُّكم - أيُّها المُشركونَ - بالذُّكورِ من الأولادِ، فلم يجعَلْ لِنفسِه نَصيبًا منهم، وجعَلَ الملائكةَ بَناتٍ له كما

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أخذ).
(2) الجوهري، الصحاح: (أخذ).
(3) ابن الأنباري، الأضداد، ص: 79.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 109.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (قول)، والنّووي، تهذيب الأسماء واللغات: 4/ 106، والمناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 277.

تَزعُمونَ، والحالُ أنَّكم لا تَرضَونَ البناتِ لأنفُسِكم؟! فهذا خِلافُ المَعقولِ والمَعهودِ المُتعارَفِ عليه؛ فإنَّ السّادةَ لا يُؤثِرونَ عَبيدَهم بأفضَلِ الأشياءِ، ويتَّخِذونَ لأنفُسِهم أدْوَنَها، إنَّكم - أيُّها المُشرِكونَ - لَتَقولونَ علَى اللّهِ قَولًا عَظيمًا، باقتِرائِكم أنَّ المَلائِكةَ بَناتُه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

موقع الجملة ممّا قبلها ودلالته:

ترتيب الإنكار على النّهي، تأكيد له في سياق الآية الكريمة

هذه الجملة: ﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ﴾ متفرّعة على الجملة السّابقة: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾[2]، ومترتّبة عليها ترتّب الخاصّ على العامّ؛ فإنّه لمّا نهى نهيًا عامًّا عن جعل إلهًا آخر مع اللّه، نهى هنا عن اتّخاذ الملائكة آلهة للعباد بادّعاء أنّهم بنات اللّه، وعلّة التّخصيص بعد التّعميم هو أنّ فريقًا منهم كان يفعل هذا، كما أخبر عنهم سبحانه بقوله: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ ١٩﴾ [الزخرف: 19]، وقوله: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ٥٧﴾ [النّحل: 57].

غرض التّعبير بالاستفهام ﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ﴾:

هزّ نفوس المشركين بالاستفهام الإنكاريّ

غرض الاستفهام بالهمزة هنا التّكذيب، فالاستفهام معناه النّفي، والمعنى: كذبتم لم يكن منه اصطفاء للبنات، وهذا إنكار وتفضيح باختيار مذهب ظاهر الفساد[3].

دلالة (الفاء) بعد همزة الاستفهام:

الهمزة مُقدَّمة قبل الفاء ذِكرًا، والأصل فيها التّأخير

الفاء بعد الهمزة هي مقدّمة عن تأخير، إذ الأصل (فأَصْفاكُمْ)؟ وذلك أنّ الهمزة هنا زاحمتِ الفاء على الصّدارة، فكلّ منهما له حق الصدارة؛ الفاء لكونها عاطفة، والهمزة لكونها استفهامًا، وتقديم

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 602، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 77، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 458، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 3/ 157.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 107.

(3) شيخ زاده، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 5/ 387، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/ 207.

الهمزة على الفاء هذا أمر خاص بها دون بقية أدوات الاستفهام الأخرى، كما نرى ذلك في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: 25]، وقوله: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ٢٦﴾ [التكوير: 26]، وللزمخشري مذهبه في مثل هذا التقديم، هو أن يُقدِّر فعلًا محذوفًا بين الهمزة والفاء ليصح العطف عليه، والمعنى على هذا: أفخصّكم ربّكم على وجه الخلوص والصّفاء بأفضل الأولاد وهم البنون، لم يجعل فيهم نصيبًا لنفسه، واتّخذ أدونهم وهي البنات؟[1].

دلالة التّعبير بالماضي ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ﴾:

التّعبير بالماضي يـدلّ على الوثوق بالوقوع وتحقّقه، وهو ما أُنكِر عليهم

عبَّر الذِّكر الحكيم بقوله: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ﴾ فعلًا ماضيًا دخلت عليه همزة الاستفهام الإنكاريّ التّكذيبيّ على معنى: هل تحقّق لديكم ووثقتم وثوقًا كاملًا، بأنّ الله فضّلكم وأعطاكم البنين، وخصّ نفسه بالبنات، فقلتم هذا وادّعيتموه دون أن يخالجكم في صحّة هذا القول شكّ؟ والمراد نفي حدوث هذا مطلقًا، أي: ما حدث أنّ الله تعالى ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ﴾، فما كان ينبغي منكم أن تقولوا هذا القول.

غرض التّعبير بضمير الخطاب في: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ﴾:

خطاب المشركين بالتّكذيب تبكيتٌ لهم على كذبهم

كاف الخطاب الملحقة بالفعل هي ضمير موجه إلى المخاطبين بالنّهي، في قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، فقد أُنكر عليهم أو على فريق منهم أنّهم خصوا أنفسهم بالبنين، ونسبوا إلى الله تعالى البنات، وهم والملائكة،"وتعدية (أصفى)، إلى ضمير المخاطبين، على طريقة الحذف والإيصال، وأصله: أفأصفى لكم"[2].

غرضُ تقديم ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ﴾ على الفاعل ﴿رَبُّكُم﴾:

التّقديم يفيد الاهتمام والاختصاص

أمّا الاهتمام، فلأنّ المخاطَبين، قد أتوا أمرًا عظيمًا، استحقّوا به الخلود في جهنّم.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 688، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 173.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 108.

وأمّا الاختصاص، فهو مناسب لمقام المبالغة، في الإنكار عليهم ما فعلوه؛ أي: أفخصّكم ربّكم بهذا وميّزكم به؟

سرّ التّعبير بالفاعل مضافًا إلى ضمير الخطاب ﴿رَبُّكُم﴾:

الإضافة للتّخصيص في السّياق الكريم

التّعبير بالفاعل مضافًا لضمير الخطاب ﴿رَبُّكُم﴾، هو هنا لغرض التّخصيص، فلا ربَّ لكم سواه، وما اتخذتموه من دونه لا يمكن أن يكون لكم ربًّا، كما أنّ هذا التّخصيص يحمل التّعريض بما هم عليه من شرك، والتنديد بهذا الاختيار والإعراض عن عبادة مَن يستحق العبادة، وهو ربّهم الذي خلقهم ورزقهم.

نكتة إيثار التّعبير بـ (ربّ) على (الله):

إيثار التّرغيب على التّرهيب

وفي إيثار التّعبير بـ (ربّ) على التّعبير بلفظ الجلالة (اللّه) الّذي له كلّ مظاهر الهيبة والجلال والرّهبة؛ لفتٌ إلى مقام الرّبوبية الّذي يدلّ على مطلق الإنعام والرّعاية والتّربية، ترغيبًا لهم في الانصياع له سبحانه بسوق مبرّراته المدلول عليها بلفظ الرّبّ، وقد يُقصد ههنا بالتّعرّض لعنوان الرّبوبية: تشديدُ النّكير وتأكيدُه[1]، أي: إنّه في الحقيقة ﴿رَبُّكُم﴾ فكيف تكفرونه وتنسبون إليه الولد، بل أخسّ الأولاد في نظركم، وهنّ الإناث؟

سرّ التّقييد بقوله ﴿بِٱلۡبَنِينَ﴾:

تأكيد التكذيب زيادة تشنيع وتفظيع

قوله: ﴿بِٱلۡبَنِينَ﴾ الباء فيه إمّا مزيدة لتوكيد لصوق الفعل ﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ﴾ بمفعوله، وأصله: أفأصفى لكم ربّكم البنين، كقوله تعالى: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ [المائدة: 6]، أو ضمَّن ﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ﴾ معنى (آثَرَ) فتكون الباء للتّعدية، دالّة على معنى الاختصاص بمجرورها، فصار ﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ﴾ مع متعلّقه بمنزلة فعليْن؛ أيْ: قصر البنين عليكم دونه ....، وجعل لنفسه الإناث اللّاتي تكرهونهن[2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 173.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 108.

دلالة العطف في ﴿وَٱتَّخَذَ﴾:

في العطف بالواو لجملة: ﴿وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ﴾، على جملة ﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ﴾ دليل على مساواتها بها في الإنكار، وجوَّز بعضهم أن تكونَ الواوُ للحالِ، على تقدير (قد)[1].

العطف على التّكذيب زيادة في الإنكار

دلالة التّعبير بالماضي افتعل ﴿وَٱتَّخَذَ﴾:

عبّر القرآن الكريم بالماضي ﴿وَٱتَّخَذَ﴾؛ لأنّ الكلام مُتّجهٌ إلى ما كان قد صدر عنهم بالفعل ووقع، وهو زعمُهم أنّ الملائكة بنات اللّه.

إيراد التّكذيب في صورة المُحقّق الواقع

نكتة التّعبير بصيغة افتعل ﴿وَٱتَّخَذَ﴾:

من عجائب القول بالاتّخاذ هنا وغرائبه، أنّه يتناقض مع ادّعائهم أنّ الملائكة بنات اللّه؛ فالاتّخاذ يقتضي أنّه خلقه ليتّخذه، وذلك ينافي التّولُّد، فكيف يخلق الشّيء ثمّ يكون ابنًا له، فذلك في البطلان، ضغث على إبالة[2].

التّعبير بالاتّخاذ، دالّ على فساد قولهم وتناقضه

دلالة حرف الجرّ ﴿مِنَ﴾ في قوله ﴿مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾:

حرف الجرّ ﴿مِنَ﴾ هنا صلةُ ﴿وَٱتَّخَذَ﴾[3]، وهو على معنى: اتّخذ الملائكة إناثًا، والأعْلى أنّه ذو دلالة بيانيّة لجنس المُتّخذ في زعمهم، وفيه زيادة سخرية من دعواهم.

دلالة تقديم ﴿مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ على ﴿إِنَٰثًاۚ﴾:

في تقديم شبه الجملة ﴿مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ على المفعول به ﴿إِنَٰثًاۚ﴾ في دعوى القائلين بذلك، إفادة (الحصر) حيث كانوا يزعمون أنّ الملائكة بنات اللّه، من سروات الجنّ[4]؛ أيّ: من شريفات الجنّ.

بيان أنّ التّقديم للحصر والاختصاص

سرُّ التّعبير بلفظ (الإناث):

وأشير بذكر ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ عليهم السلام وإيرادِ الإناث مكانَ البنات إلى

إيثار الوصف بالأقلّ شأنا في نظرهم القاصر

---

(1) السّمين، الدّر المصون: 7/ 358.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 108.

(3) الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 4/ 190.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 121.

كفْرة لهم أخرى، وهي وصفُهم لهم ﷺ بالأنوثة التي هي أخسُّ صفات الحيوان - في نظرهم - كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ﴾ [الزّخرف: 19](1).

غرض التّعبير بشبه الطّباق ﴿بِٱلۡبَنِينَ﴾، ﴿إِنَٰثًاۚ﴾:

إبــرازُ مدى جـورهـم في إثبـات البنـوّة لله وتقسيمها بينهم وبينه تعالى

غرض هذه المقابلة بين لفظي ﴿بِٱلۡبَنِينَ﴾ و﴿إِنَٰثًاۚ﴾ هو إظهار مدى الجوْر والجهل في نسبتهم الولد إلى الله تعالى أوّلًا، ثمّ في اختصاص أنفسهم بالبنين، وربّهم بالإناث، وهذا حكمٌ معكوس من كلّ جهة، مِن جهة أصله، ثمّ مِن جهة تقسيمه.

دلالة الاستئناف في جملة: ﴿إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ﴾:

تأكيد التّكذيب، إلهاب للإقلاع عنه

بين هذه الجملة المستأنفة والّتي قبلها (كمال اتّصال)، لأنّها مؤكّدة لمضمونها، بحيث تعتبر معها كالجملة الواحدة.

غرض التّعبير بالجملة الاستئنافيّة وكونها اسميّة:

الاسميّة آكدُ دلالةً وأثبتُ معنًى

في إيثار التّعبير بالاسميّة في الجملة الاستئنافيّة، تثبيت وتأكيد للمعنى المقرّر سالفًا، وهو الإنكار عليهم فيما زعموه، من ادّعاء البنوّة للّه، ثمّ في التّقسيم غير المنضبط في التّوزيع.

دلالة توكيد جملة الاستئناف بأكثر من مؤكّد:

حشد المؤكّدات دليلٌ على عِظم أمر المؤكَّد

في قوله سبحانه: ﴿إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا﴾، عدد من المؤكّدات هي: تصدير الجملة بـ (إنَّ) الدّالّة على التّوكيد، واسميّة الجملة، والتّأكيد باللّام الدّاخلة على الخبر ﴿لَتَقُولُونَ﴾، وتأكيد فعل القول بمصدره ﴿لَتَقُولُونَ قَوۡلًا﴾.

حُشدت هذه المؤكّدات للدّلالة على عظم الأمر المؤكَّد، وهو إثبات بطلان قولهم الشّنيع أمره، الفظيع مضمونه، وهو قولهم الماضي ذكره: إنّ اللّه اتّخذ الملائكة إناثًا له، أيّ بنات، فجاءَ التّأكيد على

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 173.

بُطلانه بما ذُكِر منَ المؤكّدات، لتكافئ عظمة الحكم المؤكَّد شناعة القول المُدَّعى.

دلالة التّعبير بالمُسنَد جملةً فعليّةً مضارعيّةً:

تأكيد تكرّر هذا القول منهم واستمراره

دلَّ كون المُسنَد جملة فعليّة فعلها مضارع ﴿لَتَقُولُونَ﴾ على أنّ دعواهم اتّخاذ الملائكة إناثًا، لم يكنْ قولًا عابرًا، بلْ كان قولًا متكرّرًا متجدّدًا يدلّ على اعتقاد منهم في ذلك.

دلالة التّعبير بالقول في: ﴿لَتَقُولُونَ﴾:

إذا عَرِي القول عن الدّليل، فهو كلامٌ أجوف هزيل

في التّعبير عمّا قالوه بأنّه (قول) إشارة إلى تفاهته، فهو مجرّد كلام ليس له من الواقع ما يؤيده أو يُثبته، فكيف عرفوا أنّ اللّه تعالى اتخذ الملائكة إناثًا وما دليلُهم عليه؟ وفقدانهم لهذا الدليل هو ما عوَّل عليه القرآن الكريم في إنكاره عليهم بقوله: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ﴾ [الزخرف: 19] فقوله بالاستفهام الإنكاري: ﴿أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ﴾ [الزخرف: 19] يثبّت تفاهةَ كلامهم وتهافتَه من كلّ وجه.

سرّ التقييد بالمفعول المطلق ﴿قَوۡلًا﴾:

تأكيد فعل القول بمصدره، تأكيدٌ للإنكار

دلَّ تقييد فعل القول بالمفعول المطلق ﴿قَوۡلًا﴾ على تأكيد معنى الإنكار، فهو مِن تأكيد الفعل بمصدره؛ لإبراز أنّه "مجرّد قول لأنّه لا يعدو أن يكون كلامًا صدر عن غير رويّة، لأنّه لو تأمّله قائلُه أدنى تأمل، لوجده غير داخل تحت قضايا المقبول عقلا"[1].

سرُّ وصف المفعول المطلق بلفظ ﴿عَظِيمًا﴾:

وصف القول بالعظيم دالٌّ على أنّ فساده قد بلغ الغاية

ولئن كان المفعول المطلق مؤكّدا على فساد ادعائهم، كما مضى بيانه، فإنّ وصفه بالعظيم دال على أن فساده قد بلغ الغاية وحدَّ النهاية فـ "لا أبلغ في تقبيح قولهم من وصفه بالعظيم، لأنه قولٌ مدخول من جوانبه؛ لاقتضائه إيثار اللّه بأدون صنفي البُنوّة، مع

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 108.

تخويلهم الصنف الأشرف، ثم ما يقتضيه ذلك من نسبته خصائص الأجسام للّه تعالى من تركيب وتولد واحتياج إلى الأبناء للإعانة، وليخلفوا الأصل بعد زواله، فأي فساد أعظم من هذا!"[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإصْفاءُ والتَّفضيلُ:

التّعبير بالإصفاء هنا أقوى دلالةً وأنسب للمقام بلاغةً

أصل الصَّفاءِ: خلوصُ الشّيءِ من الشّوب ... واصْطِفاءُ اللّهِ بعضَ عباده، قد يكون بإيجاده تعالى إيّاه صافيًا عنِ الشّوب الموجود في غيره[2]، وبذا يظهر أنّ الإصفاء يعبر عن اختيار أصفى الشّيئين وأخلاهما من العيوب، وأمّا التّفضيل، فهو يَدُلُّ عَلَى زيادَةٍ في شَيْءٍ، ومِنْ ذَلِكَ الفَضْلُ فمعناه: الزّيادَةُ والخَيْرُ[3] ويقع التّفضيل بين شيئين أو أكثر بأن يكون أحدها أكمل منَ الآخر فيها، والتّعبير بـ (أصفى) أقوى؛ لأنّه يعني الخلو من العيوب، بخلاف التّفضيلة، فإنه يكون في مقام المفاضلة بين الأشياء، ولا يشتمل على نفي العيوب؛ ولذا فالتّعبير بالإصفاء في الآية أنسب لوفائه بما يقتضيه مقام المبالغة المقصود في الآية الكريمة.

الاتِّخاذُ والخَلْقُ:

الخلق الإنشاء على غير مثال سابق، والاتّخاذ التّصيير على صفة غير صفته

الأخذ هو: حوز الشيء في الأثناء بغلظ؛ أي: قبض بقوّة، وقد جاء أكثر (أخذ) بمعنى القبض الحقيقي أو المجازي، والاتّخاذ افتعال منه، فيقال: (اتخذ) وما تصرف منها، وأصل معناها أخذ - الشيء - لنفسه فهي قبض أيضًا[4]، والاتخاذُ فيه معنى التصيير، ولذا ينصب مفعولين إذا كان بهذا المعنى.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 108.
(2) الرّاغب، المفردات: (صفو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فضل).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (أخذ).

والخلق في اللُّغَة التَّقْدير، يُقال: خلقت الأَديم إِذا قدرته(1)، ويستعمل في إبداع الشّيء من غير أصل ولا احتذاء، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: 1] أي: أبدعهما، بدلالة قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: 117]، ويستعمل في إيجاد الشيء من الشيء نحو قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النساء: 1]، ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [النحل: 4]، وليس الخَلْقُ الذي هو الإبداع إلّا للّه تعالى، ولهذا قال في الفصل بينه تعالى وبين غيره: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧﴾ [النحل: 17]، وعلى هذا فالخلق معناه الإنشاء والإبداع على غير مثال سابق، أما الاتخاذ فهو تصيير هذا المخلوق وتحويله إلى شيء آخر، فهو تالٍ للخلق ومبنيٌّ عليه.

البَنونَ والذُّكورُ:

الأوَّل يأتي في سياق الزّينة والزّهو، والثاني في سياق الوهب والمنح

لا يكاد يظهر الفرق بين اللّفظين (البنين والذّكور)، من حيث دلالة كلّ منهما على الآخر، وأنّ كلًّا منهما يقال في مقابل الإناث، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ﴾، وقوله: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ١٥٣﴾ [الصافات: 153]، وقوله: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ٤٩﴾ [الشورى: 49]، وقوله: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ﴾ [آل عمران: 36]، فقد لاحظنا في هذه الآيات مقابلة لفظي (البنين والذكور) للفظي (البنات والإناث).

والمتدبّر آيات الكتاب العزيز يرى استخدام (البنين) في مقام الإنعام والتّزيين، وفي سياق الزهو والافتخار، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [الكهف: 46]، وقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 136.

﴿ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ﴾ [آل عمران: 14]، ولعل ذلك راجع إلى معنى زائد في لفظ (البنين) يفضل به لفظ (الذكور) يدلُّ له قول أبي عَمْرٍو: البَنينُ مِنَ الرِّجالِ العاقِلُ المُتَثَبِّتُ[1]، وأما لفظ (الذكور) فيستخدم في مقام الوهْب والمنْح، كما في قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾﴾ [الشورى: 49].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بنّ).

﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا ٤١﴾ [الإسراء: 41]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

اشتمال القرآن الكريم على أدلّة الإقناع قصدًا للتفنّن ومخاطبة العقل

بعد أن ذكرت الآية السّابقة قبيح فعل المشركين الّذين ادّعوا لله البنوّة، ولما كان هذا كلَّه منَ البيان القرآني في تفنيد دعواهم، صرَّحت هذه الآية: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ بأنَّ الله تعالى صرَّف لهم القول، ونوَّع أساليب البيان هنا، وفي سائر المواضع التي أثار فيها هذه الدّعوى، ليراجعوا أنفسهم بالتّدبّر والتّأمل في عاقبة قولهم، فيثوبوا إلى رشدهم، وأنّ نهج البيان القرآنيّ في هذا كاف لهدايتهم، لكن - الواقع - أنه لم يغن عنهم هذا البيان شيئًا، فهذه الآيات البينات والدلائل الواضحات، ولم يزدادوا بعدها إلّا بُعدًا عن الحقّ ونفورًا منه؛ لأنّ مشكلتهم هي مع الحقّ الواضح ذاته، وليست بسبب نقصان البيان عنه، وصدق الله: ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١﴾ [يونس: 101].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿صَرَّفۡنَا﴾: أَصْلُ الصَّرْفِ يدلُّ على القَلْبِ والرَّدِّ، يُقالُ: صَرَفَهُ عنِ الشَّيء، يَصرفه، صرفًا: إذا ردَّه عن وجهه[1]، والصَّرفُ أيضًا: أَن تَصرِفَ إنسانًا على وجهٍ يُريدهُ إلى مَصْرِف غيرِ ذَلِك[2]، والتَّصْريفُ: تَعَدُّدُ الصَّرْفِ، أو إبداله بغيره، يقال: صَرَفْتُهُ فانْصَرَفَ، وَهوَ النَّقْلُ مِنْ جِهَةٍ إِلَى أُخْرَى، وَمِنْهُ تَصْريفُ الرِّياحِ[3]،

(1) ابن سيده، المحكم، والزبيدي، تاج العروس: (صرف).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة: (صرف).
(3) الراغب، المفردات: (صرف).

والتَّصريفُ أيضًا: التَّنويعُ والتَّفنينُ، وصَرْفُ الكلامِ: تَزْيينُهُ والزّيادةُ فيه؛ وإنَّما سُمّيَ بذلِكَ لأَنَّهُ إذا زُيِّنَ صَرَفَ الأَسماعَ إلى اسْتِماعِهِ[1]، والمرادُ بالتَّصريف في الآية: كِنايَةٌ عَنِ التَّبْيينِ بمُخْتَلِفِ البَيانِ ومُتَنَوِّعِهِ[2].

2) ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾: أصلُ الذِّكْرِ: الحِفْظُ الَّذي تَذْكُرُه، وهو خِلافُ النِّسيانِ[3]، ثُمَّ حُمِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ باللِّسانِ، فالذِّكْرُ ما ذَكَرْتَهُ بِلِسانِكَ وأَظهرته، والذُّكْرُ - بضَمِّ الذّالِ - بالقَلْبِ، يُقالُ: ما زالَ مِنّي عَلَى ذُكْرٍ، أَي: لَمْ أَنْسَه[4]، والتَّذكِرَةُ: ما تُسْتَذْكَرُ بِهِ الحاجَةُ، واسْتَذْكَرَ الشَّيءَ: دَرَسَهَ للذِّكْرِ، والاسْتِذْكارُ: الدِّراسَةُ لِلْحِفْظِ، والتَّذَكُّر: تَذَكُّرُ ما أُنسيته[5]، والمقصود بالتَّذَكُّرِ في الآية: حُضورُ الصّورةِ في الذِّهْنِ، وأَصلُهُ يَتَذكَّروا، فَأُدْغِمَ التّاءُ في الذّالِ لِتَقارُبِ مَخرَجَيهما، وهو مِنَ الذُّكْرِ المَضْموم الذّالِ الَّذي هو ضِدُّ النِّسْيانِ.

3) ﴿نُفُورًا﴾: (نفر): أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على تَجافٍ وتَباعُدٍ[6]، يُقال: نَفَرَ، يَنْفِرُ، نُفورًا ونِفارًا: إذا فَرَّ وذَهَبَ، وانطَلَقَ مُسرِعًا بِقوَّةٍ، والمُنافَرَةُ: المُحاكَمَةُ إلى القاضي بَيْنَ اثْنَيْنِ، ومنه: نَفَرَ النّاسُ إلى العَدوِّ نَفْرًا: إذا أسرَعوا في الخُروجِ لِقِتالِهِ[7]، والنُّفورُ: هُروبُ الوَحْشيِّ والدّابَّةِ بِجَزَعٍ وخَشْيَةٍ مِنَ الأَذى؛ وذلكَ تَجافيها وتَباعُدها عَنْ مَكانِها ومَقَرِّها، والمرادُ بالنُّفورِ في الآيةِ: الفِرارُ مِنَ الشَّيْءِ، واسْتُعيرَ هُنا لإِعراضِهِم تَنزيلًا لَهُم مَنزِلَةَ الدَّوابِّ والأَنعام النّافرة[8].

❁ المَعْنى الإجماليُّ:

أَشارَ الحقُّ تعالى في الآية إلى مُعجِزته الكُبرى، وهو القُرآن، فقال: ولقد بَيَّنّا ونوَّعْنا وأكثَرْنا في هذا القُرآنِ العِبَرَ والمواعِظَ، والحِكَمَ والأمثالَ، والحُجَجَ والأدِلَّةَ؛

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سِيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (صرف).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 109.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والمحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ذكر).
(4) أبو عمرو الشيباني، الجيم، وابن دريد، جمهرة اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ذكر).
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ذكر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نفر).
(7) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم: (نفر).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نفر)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 110.

في القُرآنِ هَدْيٌ كافٍ ومقنع، ولكنَّ الضَّالين يَزدادُونَ منه نُفورًا

ليتَذَكَّروا ويتَّعِظوا، وما يزيدُ الظّالِمينَ هذا التَّصريفُ والتَّذكيرُ بآياتِ القُرآنِ إلّا ذَهابًا وهربًا من الحَقِّ، وتَباعُدًا عن الإيمانِ، وغفلةً عنِ النَّظَرِ والاعتبارِ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الواو في ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا﴾:

التّأكيد على عدم انتفاع الكافرين بالقرآن

غرضُ الفصل بيانُ عدمِ انتفاعهم ببيان القرآن رغم تنوعه وتفنّنه وإقناعه، والواو هنا إمّا أن تكون واو الاستئناف[2]، والجملة بعدها مستأنفة، أو واو الاعتراض[3]، والجملة بعدها معترضة.

غرض التّعبير بأسلوب القَسَم ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا﴾:

تأكيد مضمون الجملة في السّياق المحكم

غرض القسم المحذوف المفهوم من اللّام الّذي وطّأت له في: ﴿وَلَقَدۡ﴾، هو تأكيد سوق الأدلّة المتنوّعة الواضحة في القرآن، الكافية في الدّلالة على الحقّ، وعلى فساد دعاويهم، ثمّ تأكيد الإخبار بنفورهم عن هذا الحقّ الأبلج، ومجانبته، وفي هذا ما يدلّ على عنادهم، وسوء طبعهم.

دلالة (قد) في: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا﴾:

بيان أنّ التّحقيق تأكيد لحصول ما نصّ عليه السّياق

التّعبير بـ (قد) في قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا﴾ دالّ على تحقّق وقوع تصريف القول في القرآن الكريم، وذلك بغية إقناعهم.

معنى التّصريف ودلالته في سياق الآية:

التّصريف كناية عن التّبيين

التّصريف كناية عن التّبيين، لأنّ من حاول بيان شيء، فإنّه يصرف كلامه من نوع إلى نوع آخر، ومن مثال إلى مثال آخر، ليكمل الإيضاح ويقوّي البيان[4].

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 15/ 50.
(2) الخطيب وآخران، التّفصيل في إعراب التنزيل: 8/ 81.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 109.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 345.

دلالة التّعبير بالماضي ﴿صَرَّفۡنَا﴾:

تصريف المعاني في الكتاب العزيز، واقع محقّق

دلَّت (قد) على تحقّق وقوع تصريف القول في القرآن لإقناعهم، والتّعبير بصيغة الماضي ﴿صَرَّفۡنَا﴾ دالّ على تحقّق الوقوع.

غرض الإسناد في ﴿صَرَّفۡنَا﴾:

ما أُسند إلى العظيم فهو عظيم

أُسند الفعل (صرَّف) لضمير العظمة (نا) في قوله ﷻ: ﴿صَرَّفۡنَا﴾؛ للدّلالة على علوّ مكانة الأدلّة القرآنيّة المتنوّعة، وكفايتها في إيقاع الحجّة والإقناع.

الغرض من التّعبير باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾:

أدلة القرآن الإقناعيّة قريبة من العقل السّليم

في التعبير باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ الدال على القرب في قوله: ﴿هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ ما يدل على قرب أدلة القرآن الحجاجية الإقناعية مِنَ العقل الناضج الواعي، الطالب للحق، البعيد عن التعصب والجحود، وفيه تعريض بهم؛ إذ لم يهتدوا بأدلة القرآن مع قوّة حجيتها ووضوحها، بأنّهم ليسوا أصحابَ عقولٍ سويّة، وأنّهم أصحاب هوى وغَرَض.

غرض التّعبير باسم الإشارة وتعريف ﴿ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ باللّام:

ملامح التّشريف والدّلالة على الحصر

في التّعبير بقوله: ﴿هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾، تشريف للقرآن بالإشارة وبالتّعريف، ودلالة على الحصر؛ ففي هذا القرآن وحده الأدلّة الكافية لهم - لو كانوا صادقين - للتّذكُّر والرّجوع عمّا هم فيه من فساد في الرّأي والمعتقد، وفساد في الطّبع والعمل.

غرض حذف المفعول به من الفعل ﴿صَرَّفۡنَا﴾:

حذف المفعول لإفادة العموم

وفي حذف مفعول ﴿صَرَّفۡنَا﴾ قصد لإفادة العموم، والتقدير: (صرفناه) أي: صرفنا القول المشتمل على إبطال الإضافة المذكورة في هذا المعنى[1]، بما يحمله من مواعظ وأمثال وترغيب وترهيب،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 79.

ونحو ذلك من أفانين القول في القرآن، والمراد بالعموم المعبَّر عنه هنا: أي: عموم الآيات المتعلقة بإبطال[1] هذه الدعاوى، فكل آيات القرآن الحجاجية، التي تحمل أدلته الإقناعية وافية كافية فيما سيقت لأجله.

دلالة اللّام في الفعل ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾:

الـلّام للتّعليل، ولـهـا أثـــر في الدّلالة أصيل

واللام في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ﴾ لام تعليل؛ أي: صرفنا لهم القول ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ وينتبهوا لما هم فيه من ضلال.

نكتة التّعبير بالفعل ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ مُدغما:

التّضعيف يفيد التّكثير والتّكرير

في قوله: ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ بالإدغام والتضعيف في الفعل؛ إذ أصله (يتذكّروا) ما يدل على التكثير في معنى التّذكر، وذلك بتكراره وتجدده، فـ "يتذكروا ويتّعظوا ويطمئنّوا له، فإن التكرار يقتضي الإذعان واطمئنان النفس"[2].

سرّ تنوع القراءات القرآنية في ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾:

الـذِّكـرُ مفتاح التَّذكّر

قرأ الجمهور ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ بفتح الذّال والكاف وتشديدهما، والمعنى: ليتذكروا، فأدغمت التاء في الذال لقرب مخرجيهما، وقرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر ﴿لِيَذۡكُرُواْ﴾ ساكنة الذّال مضمومة الكاف، وهو ليس من التذكّر بعد النسيان، بل هو من التدبّر[3]، وأمّا قراءة حمزة والكسّائي وخلف العاشر ففيها وجهان: **الأوّل**: - كما في القراءة الأولى - أنّ الذِّكر قد جاء بمعنى التّأمّل والتّدبّر، كقوله تعالى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ [البقرة: 63]، والمعنى: (وافهموا ما فيه)، **والثّاني**: أن يكون المعنى (صَرّفنا هذه الدلائل في

(1) الشِّهاب الخفاجيُّ، عِناية القاضي: 6/ 34.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 79.

(3) الفارسي، الحجة للقراء السبعة: 5/ 104، وابن الجزري، النشر 2/307.

هذا القرآن؛ ليَذْكُروه بألسنتهم)، فإنّ الذّكر باللّسان قد يؤدّي إلى تأثّر القلب بمعناه[1].

نكتة إسناد الفعل لضمير الغيبة ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾:

أثر الالتفات من الخطاب إلى الغيبة

في قوله: ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ التفات إلى الغيبة من الخطاب في قوله: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ﴾ تطرية للكلام، ولفتًا للمعنيّين به إلى أهمية أن يتدبَّروا ويتّعظوا، وتعجيبًا مِن حالهم لكل من يطلع على تماديهم في فساد المعتقد وفساد العمل بعد ظهور الآيات، وإيذانًا "باقتضاء الحال أن يُعرض عنهم ويحكي للسامعين هناتهم"[2]، وبهذا يكون الذين وُبِّخوا بالخطاب في ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ﴾ هم أنفسهم المدعوّون إلى التّذكّر هنا، ويمكن أن يكون غرض الالتفات تحويل جهة الخطاب "من خطاب المشركين إلى خطاب المؤمنين"[3].

دلالة الواو في جملة: ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾:

حال أهل الضّلال عجيبٌ، يبين عن اضطرابهم الرّهيب

"جُمْلَة ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ في مَوْضِعِ الحالِ، وَهوَ حالٌ مَقْصودٌ مِنْهُ التَّعْجيبُ مِنْ حالِ ضَلالَتِهِمْ، إِذْ كانوا يزدادون نُفورًا مِن كلام فصل وبيِّن لِتذكيرِهِم، وشأنُ التّفصيلِ أن يُفيد الطُّمأنينة لِلمقصودِ"[4].

غرض التّعبير بأسلوب القصر:

التّهكّم والسّخريّة من أساليب البيان عن المراد

في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ بأسلوب القصر، استعارة تهكمية، غرضها تقريعهم وتوبيخهم؛ لأنّ الأصل أن يزيدهم القرآن هداية واستقامة، وقد زادها أسلوب القصر مبالغة في نفي كل إفادة إيجابية من قبلهم، وأن الأمر على عكس هذا، فما ازدادوا بسماع حججه إلا عنادًا وصدودًا.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 345، والواحدي، البسيط: 13/ 341، والفارسي، الحجة للقراء السبعة: 5/ 104.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 79.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 109.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 110.

سرُّ اصطفاء النّفي والاستثناء طريقا للقصر:

قوارعُ القرآن تزيدُ الكافرين نفورا

مِن شدة نفورهم من القرآن الكريم وصدودهم عن حججه وبيانه، آثر القرآن الكريم في نفي استجابتهم له وإثبات بعدهم عنه أشد أساليب الحصر وأقواها دلالةً عليه، وهو النفي ثم الاستثناء.

غرض الإتيان بالمفعول به ضمير غيبة (هم):

تأكيد تجاهلهم، بغاية إهمال شأنهم

عبّر بضمير الغيبة في قوله: ﴿يَزِيدُهُمۡ﴾ عن المفعول به، ليتّسق مع قوله: ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ الذي التفت فيه من الخطاب إلى الغيبة، وليتكامل معه في الدلالة على تجاهلهم.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿يَزِيدُهُمۡ﴾:

نفور المشركين في تزايد مستمرّ

دل التّعبير بالمضارع بقوله: ﴿يَزِيدُهُمۡ﴾ على تجدد هذه الزيادة؛ على معنى أنه كلما تكرر استماعهم للقرآن وحججه، ازدادوا منه بعدًا ونفورًا.

غرض التّنكير في لفظ ﴿نُفُورٗا﴾:

بيان التّفظيع والتّهويل، وملمح الاستعارة التّصريحيّة الأصليّة في اللّفظ

عبَّر بقوله: ﴿وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا﴾ بتنكير ﴿نُفُورٗا﴾ تهويلًا وتفظيعًا؛ فكأنه ليس نفورًا عاديًّا، وإنما هو أشبه بنفور الدواب النافرة من حيوان مفترس يسعى لافتراسها، والمعنى: ما ازدادوا من الحق إلا بُعدًا[1] وهو كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ١٢٥﴾ [التوبة: 124 - 125].وعلى هذا ففي كلمة ﴿نُفُورٗا﴾ استعارة تصريحية أصلية؛ لأن النُّفور: هو هُروبُ الوَحْشيِّ والدّابَّة بِجَزَعٍ وَخَشْيَةٍ مِنَ الأَذَى، فاسْتُعيرَ هُنا لِإعْراضِهِمْ تَنْزيلًا لَهُمْ مَنْزِلَةَ الدَّوابّ والأنعام النافرة[2].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 346.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 110.

﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ٤٢﴾ [الإسراء: 42]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

عـود إلى نقض الشّرك وحججه الباطلة

بعد أن ذكرت الآية السابقة، وأخبرت عما حواه القرآن الكريم من صنوف القول وأفانينه المفعمة بالأدلة والحجج والبراهين الإقناعية المثبتة لهم ما هم فيه من فساد، والمقررة في الوقت نفسه عقيدة الحق، لعلهم بمراجعتها وتدبُّرها أن يبدلوا وجهتهم، من السير في طريق الضَّلال إلى السير في طريق الهدى والنور؛ بعد هذا الفاصل الأسلوبي بهذا الاعتراض الذي حوته الآية السابقة، عادت بنا الآيات" إِلَى إِبْطالِ تَعَدُّدِ الآلِهَةِ، زيادَةً في اسْتِئْصالِ عَقائِدِ المُشْرِكينَ مِنْ عُروقِها"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَّٱبۡتَغَوۡاْ﴾: أصلُ (بغي): طَلَبُ الشَّيْءِ، تَقول: ابْتَغَيْتُ الشَّيْءَ، وبَغَيْتُه، أَبْغيه بُغْيَةً وابْتِغاءً، أيْ: طَلَبْتُهُ[2]، والباغي: الَّذي يَطْلُبُ الشَّيْءَ الضالَّ، وأَبْغاهُ الشَّيْءَ: طَلَبَهُ لَهُ وأعانَهُ على طَلَبِهِ[3]، وقيل: الابْتِغاءُ هو الاجْتِهادُ في الطَّلَبِ[4]، وهو أيضًا: الإرادَةُ والقَصْدُ، يُقالُ: ابْتَغيتُ الأَجْرَ في عَمَلي، أي: قَصَدْتُهُ، ويأتي بمعنى الاتِّخاذ، تَقول: ابْتَغَيْتُ البَيْتَ سَكَنًا لي، أيْ: اتَّخَذْتُهُ[5] والمقصود (ابْتِغاءُ السَّبيل) في الآية: طَلَبُ طَريقِ الوُصولِ إلى الشَّيءِ، أَي: تَوَخّيهِ والاجْتِهادِ لإصابَتِهِ[6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 110.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بغي).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (بغي، بغا).
(4) الراغب، المفردات: (بغي)، والمناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 35.
(5) الخليل، العين، والفيروزابادي، القاموس المحيط، وابن منظور، لسان العرب: (بغا - بغي).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 110.

2) ﴿ذِى ٱلْعَرْشِ﴾: أَصْلُ (عرش): يَدُلُّ عَلَى ارْتِفاعٍ في شَيْءٍ مَبْنِيّ، يُقال: عَرَشْتُ الشَّيْءَ وعَرَّشْتُهُ، أَعْرُشُه، تَعْرِيشًا، أيْ: رَفَعْتُه، ومنْهُ العَريشُ، وهو: بِناءٌ يُرْفَعُ يُسْتَظَلُّ بِه[1]؛ وسمّي مجلس السّلطان عَرْشًا اعتبارًا بعلوّه[2]. والعَرْشُ: سَريرُ المَلِك، يُقال: جَلَسَ المَلِكُ على عَرْشِه، أيْ: سَريرِه[3]، ويأْتي بمعنى سَقْفِ البَيْتِ[4]، والعَرْشُ حَقيقَتُهُ: الكُرسيُّ المُرْتَفِعُ الَّذي يَجْلِسُ عليه الـمَلِكُ، قالَ تعالَى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يوسف: 100]. والمقصود بالعَرْشِ في الآية: اسْمٌ لِعالَمٍ يُحيطُ بِجَميعِ السَّماواتِ؛ سُمّيَ عَرْشًا لأَنَّهُ دالٌّ على عَظَمَةِ اللهِ تعالى كما يَدُلُّ العَرْشُ على أَنَّ صاحِبَهُ مِنَ الـمُلوكِ[5]، والمرادُ بِذي العَرْشِ: هو اللهُ تَعالَى سُبحانَهُ.

3) ﴿سَبِيلًا﴾: (سبل): أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على إرسالِ شَيءٍ مِنْ عُلوّ إلى سُفْلٍ، وعلى امْتِدادِ شَيءٍ، فالأَوَّلُ مِنْ قيلِكَ: أَسْبَلْتُ السِّتْرَ، وَأَسْبَلَتِ السَّحابَةُ ماءَها وَبِمائِها، وأمّا الثّاني: فالمُمْتَدُّ طولًا: السَّبيلُ وما وَضَحَ مِنْهُ، وَهوَ الطَّريقُ؛ سُمّيَ بِذَلِكَ لِامْتِدادِهِ[6]، يُذَكَّرُ ويُؤَنَّثُ، والتَّأْنيثُ أَغْلَبُ، وسَبيلُ اللهِ: طَريقُ الهُدى الذي دَعا إليه، وجمعُه: سُبُلٌ[7]، والمقصودُ بالسَّبيل في الآية: طريقُ السَّعْيِ إِلَى الغَلَبَةِ والقَهْرِ، أَيْ: لَطَلَبوا مُغالَبَةَ ذي العَرْشِ وهو اللهُ تَعالَى[8].

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

العَوْدُ إلى إبطالِ تعدُّدِ الآلهةِ زيادةً في استِئصالِ جذورِ عَقائِدِ المُشْرِكينَ

قُلْ يأيُّها الرَّسول ﷺ لهؤلاء المشركين المغترّين العابدين للأصنام،

(1) الخليل، والعين، الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عرش).
(2) الرّاغب، المفردات: (عرش).
(3) السّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 335، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (عرش).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عرش).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8 - ب/ 165، و30/ 249، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/ 1512.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبيل).
(7) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (سبل).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 111.

وغيرها من دون اللّه - قُلْ لَهُم: لَو كانَ مَعَ اللّهِ مَعبوداتٌ سِواه - كما يَزعُمُ المُشرِكونَ -، إذَنْ لَطَلَبَتْ تلك المَعبوداتُ المَزعومةُ التَّقرُّبَ إلى اللّهِ، ونَيْلَ رِضاه بعبادتِه؛ لاعترافِهم بفَضلِه، وعِلْمِهم بقُدرتِه وعَجزِهم، فكيف تَعبُدونَهم مِن دونِه والحالةُ هذه[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الاستئناف في قوله ﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ﴾:

الاستئناف تأكيد لانتفاء الشّريك

الاستئناف في هذه الجملة المبدوءة بالفعل ﴿قُل﴾ قد يكون ابتدائيًّا بَعْدَ جُمْلَةِ ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا﴾، والمُخاطَبُ بالأَمْرِ بالقَوْلِ هوَ النبيّ ﷺ لِدَمْغِهِمْ بالحُجَّةِ المُقْنِعَةِ بِفَسادِ قَوْلِهِمْ[2]، وقد يكون الاستئناف بيانيًّا، فيكون بين هذه الجملة والمفصولة والجملة التي قبلها (شبه كمال اتصال) "فكأنه قيل: فما يفعل بهم؟ فقال تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ﴾"[3].

دلالة التّعبير بفعل الأمر ﴿قُل﴾:

إفادة (قُلْ) وجوب الاهتمام بهذا البلاغ بلفظه

في تصدير الآية بالأمر ﴿قُل﴾ دليل على الاهتمام بالأمر المطلوب تبليغه، وكأنه وحده مخصوص بالتبليغ، رغم أن القرآن كله في وجوب التبليغ سواء، فجميع القرآن مأمور بتبليغه[4]، كما قال سبحانه: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾ [المائدة: 67].

غرض التّعبير بأسلوب الشّرط:

البرهنة على عدم وجود إله مع الله تعالى، بالشّرطيّة الامتناعيّة

قوله تعالى: ﴿لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا﴾، وفيه ورود هذه الجملة الشّرطيّة، في مقام المحاجة على نفي

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 603، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 78، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 5/ 760.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 110.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 422.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 110.

الشريك للّه تعالى، هو برهان دالٌّ على هذا الانتفاء؛ إذ المعنى عليه: لو كان مع اللّه آلهة أخرى كما يزعمون ﴿لَّٱبۡتَغَوۡاْ﴾ - أي: الآلهة المزعومة - ﴿لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا﴾ أي: لطلبوا إلى مغالبة ذي العرش وهو اللّه تعالى وإزالة ملكه سبيلًا إلى ذلك، لأنهم حينئذٍ يكونون شركاءه وأنداده، ومِن حقهم مغالبته والانتصار عليه حتى لا ينازعهم هذا الملك، وينفردون به دونه، كما يفعل ملوك الدنيا بعضهم مع بعض، سبحان اللّه وتعالى عن ذلك علوًا كبيرًا![1] وهذه قضيّة شرطية متَّصلة كما يسميها المناطقة، وغايتها في الاستدلال: إثبات تلازم واتصال بين قضيتين أو نفيه، بحيث تتعلق إحداهما على الأخرى، فإن وجدت الأولى وجدت الثانية، وإلا، فلا، أي أن "القضية الشرطية لا تفيد إلا كون الشرط مستلزمًا للجزاء"[2]، وقد استخدم القرآن الكريم حرف الشرط ﴿لَّوۡ﴾ وهو حرف امتناع لامتناع، أي: امتناع وقوع الجزاء، وهو (الابتغاء) لعدم وجود الشرط، وهو (وجود آلهة مع اللّه)، ومِن ثمّ أعقب هذه الآية بقوله: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾، ويسمى هذا البرهان بحسب علماء الكلام (برهان التمانع)[3] وبحسب البلاغيين (المذهب الكلامي)[4] وقد استخدمه القرآن الكريم في عدد من المواضع للبرهنة على المطلوب منها: مثل قوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢﴾ [الأنبياء: 22].

غرض تقديم شبه جملة ﴿مَعَهُۥٓ﴾:

نفي وجود آلهة معه سبحانه مؤكّد

قدّم الظّرف وهو خبر كان على اسمها في قوله: ﴿لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ﴾، للاهتمام لكون المقصود هو نفي أن يكون معه سبحانه آلهة نفيًا مؤكدًا.

(1) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 3/ 158.
(2) الرّازيّ مفاتيح الغيب: 27/ 645.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 346، والشّهاب الخفاجيُّ، عِناية القاضي: 6/ 34.
(4) أحمد الخطيب، مفاتيح التّفسير: 2/ 793، ويُعرَّف بأنّه: "إيراد حجّة للمطلوب، على طريقة أهل الكلام"، وسمّاه بعضهم: (الاحتجاج النّظريّ).

غرض تنكير اسم كان (آلِهَةٌ):

في تنكير اسم كان ﴿ءَالِهَةٌ﴾ لفت إلى تقليل شأنها وتحقيرها، فالآلهة المتّخذة من دون اللّه حقيرة لا نفع لها ولا شأن.

نكتة الاعتراض بقوله ﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾:

انتزاع برهان التّوحيد من نفس دعواهم الفارغة

نكتة الجملة الاعتراضية ﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾ تظهر في الإشارة إلى تفاهة هذا القول وتهافته، لأنّه مجافٍ للحق مجانِبٌ للصّواب، فهو مجرّدُ قول أجوف خواء.

ومن دلالاتها أيضًا إقامة الحجّة عليهم بكلامهم، ثمّ انتزاع برهان التّوحيد من نفس دعواهم، وهذا أسلوب في الاحتجاج راق ومفحم.

وفيها كذلك الاحتراس والتّسجيل عليهم بهذا القول؛ كي لا يظنّ أنّه من كلام أحد سواهم.

دلالة التّعبير بالمضارع في ﴿يَقُولُونَ﴾:

تجدّد القول منهم وتكرُّره، دليلُ سفه عقولهم

دلّ التّعبير بقوله ﴿يَقُولُونَ﴾ مضارعًا على أنهم كانوا يكررون القول بعبارات الشّرك باللّه، كالقول بأنّ له البنات، وأنّ له شركاء كالأصنام، وغير ذلك مِن سائر عبارات الشرك باللّه.

سرّ تنوع القراءات بالغيبة والحضور في (تَقُولُونَ):

القراءتان في المعنى بمثابة آيتين، دلالة ومؤدّى

قرأ ابنُ كثيرٍ وحفصٌ ﴿يَقُولُونَ﴾ بالياءِ مِنْ تحت، والباقون بالتاء مِنْ فوقُ ﴿تَقُولُونَ﴾ وتوجيه ذلك: أن قراءة الياء ﴿يَقُولُونَ﴾ على الغائب محمولة قولِه: ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾، وأن قراءة الخطاب ﴿تَقُولُونَ﴾ محمولة على معنى: (قل لهم يا محمد ﷺ لو كان معه آلهةٌ كما تقولون ...)[1].

دلالة التّعبير بحرف الجواب ﴿إِذًا﴾:

(إذًا) حرف جواب مؤكّدة لمعنى جواب (لو)

وكلمة: ﴿إِذًا﴾ حرف جواب دالة على أن ما بعدها وهو ﴿لَّٱبْتَغَوْاْ﴾

(1) السّمين، الدّر المصون: 7/ 361.

جواب عن مقالة المشركين وجزاء لـ ﴿لَّوۡ﴾[1] ومؤكّدة لمعنى الجواب الّذي تدلّ عليه اللّام[2] في ﴿لَّٱبۡتَغَوۡاْ﴾.

دلالة اقتران جواب لو باللّام ﴿إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ﴾:

تأكيد استحالة حصول ظنّهم في الواقع

اللام في: ﴿لَّٱبۡتَغَوۡاْ﴾ واقعة في جواب ﴿لَّوۡ﴾ وهي تفيد معنى "أن الجواب جزاء عن الكلام المجاب"[3].

إيثار التّعبير بالمجرور مضافًا ﴿ذِي ٱلۡعَرۡشِ﴾:

التّعبير بـ (ذِي الْعَرْشِ)، دالّ على العلوّ الإلهيّ

في التّعبير بـ ﴿ذِي ٱلۡعَرۡشِ﴾ دلالة على العلوّ الإلهيّ، كما يدلّ له أيضًا، قوله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾ [غافر: 15]، وفيه تلميح إلى دنوِّ ما اتّخذوه آلهة من دونه سبحانه، وجعلوهم له شركاء، وتعريض كذلك بعابديها؛ إذ كيف يساوون بين آلهتهم وبين اللّه تعالى الّذي له العلوّ المطلق، والقدرة المطلقة، والكمال المطلق؟

غرض تقديم ﴿ذِي ٱلۡعَرۡشِ﴾ على ﴿سَبِيلٗا﴾:

التّقديم للاهتمام وإفادة الكمال في العلوّ

قدَّم قوله ﴿ذِي ٱلۡعَرۡشِ﴾ على المفعول به ﴿سَبِيلٗا﴾، لكونه الأولى بالتقديم، فالكلام مسوق لأجل إثبات صفات الكمال والعلو للّه، ونفيها عن آلهتهم، وأيضا نفي صفات النقص عنه سبحانه وإلصاقها بآلهتهم.

غرض تنكير المفعول به ﴿سَبِيلٗا﴾ في السّياق:

التّنكير للشّيوع والتّعميم

ونكَّر المفعول به ﴿سَبِيلٗا﴾، لفتح المجال أمام الآلهة المدعاة، لتسلك أي سبيل شاءت في المغالبة، دون التقيد بسبيل محدَّد.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

الابتغاءُ والسُّلوكُ:

السُّلوكُ: النّفاذ في الطّريق، يقال: سَلَكْتُ الطّريق، وسَلَكْتُ كذا

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 669.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 110.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 110.

الابتغاء اجتهاد في الطّلب، وهو أقوى، والسّلوك النّفاذ في الطّريق

في طريقه، قال تعالى: ﴿لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠﴾ [نوح: 20]، وقال: ﴿فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ [النّحل: 69][1].

وأمّا الابتغاء فهو الطلب، يُقال: "بَغَى الشيءَ يبغيه: طلبه"[2] بل هو نوع مخصوص منه، فهو الطّلب الذي بذل صاحبه في سبيل تحصيله جهدًا مُميزًا، وليس كذلك كل طلب "فالابتغاء افتعال من البغي، وقد غلب اختصاص هذه الكلمة للدلالة على الاجتهاد في الطّلب، سواء كان الطلب محمودًا أو مذمومًا، ثم إنه يُحمَد بحمده ويُذَم بذمه؛ أي: أن الطلب متى كان لشيء محمود فالابتغاء فيه محمود، ومنه ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ۝٢٨﴾ [الإسراء: 28]، وقوله تعالى:﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 265]، ومنه أيضًا الآية الّتي معنا: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الرّعد: 22]، ومتى كان الطلب مذمومًا، كان الابتغاء فيه مذمومًا، كما في قوله سبحانه: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ [التّوبة: 48][3] وعلى هذا فالتّعبير الابتغاء في الآية أقوى وأنسب؛ إذ معناه: لو كان مع الله آلهة كما زعمتم، لاجتهدت هذه الآلهة في مغالبته أيّما اجتهاد، لتنفرد بالألوهيّة دونه، أمّا السّلوك فهو مطلق النّفاذ في الطّريق، دون دلالته على معنى زائد على ذلك.

(1) الرّاغب، المفردات: (سلك).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (بغو).
(3) الراغب، المفردات، السمين، عمدة الحفاظ: (بغي).

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ٤٣﴾ [الإسراء: 43]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التّنزيه المُطلق لله تعالى عن افتراءات البنوّة والشّرك

لما أقام سبحانه في الآية السابقة الدليل القاطع على كونه منزّهًا عن الشركاء، وعلى أن القول بإثبات الآلهة الأخرى قول باطل، فإنما هو إلهٌ واحد لا شريك، أردفه بما يدل على تنزيهه سبحانه عن هذا القول الباطل[1] تنزيهًا كاملًا، وعلى تعاليه سبحانه عن مثل هذا الادعاء علوًا كبيرًا، فقال: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾: أصل السَّبْحُ: البُعْدُ، والتَّسْبيحُ: التَّبْعيدُ، ومنه قولُهُم: سَبَّحْتُ في الأَرْضِ، أي: أَبْعَدْتُ فيها[2]، والتَّسْبيحُ: التَّنْزيهُ والتَّقْديسُ والتَّبْرِئَةُ، يُقال: سَبَّحْتُ اللّهَ، وسَبَّحْتُ لَهُ، أُسَبِّحُهُ تَسْبيحًا وسُبْحانًا، أيْ: نَزَّهْتُهُ وبَرَّأْتُه من كُلِّ سوءٍ ونَقْصٍ[3]، وَسُبْحانَ: اسْمُ التَّسْبيحِ، وهو اسمُ مَصْدَرِ (سَبَّحَ) المُضاعَفِ وليس مَصْدرًا؛ لِأَنَّهُ لم يَجِئْ على أَبْنِيَةِ مصادرِ الرُّباعيِّ، وقيلَ: هو مَصْدَرُ (سَبَحَ) مُخَفَّفًا بِمَعْنَى نَزَّهَ فَيَكونُ كالغُفْرانِ والشُّكْرانِ، والكُفْرانِ مِنْ: غَفَرَ، وَشَكَرَ، وَكَفَرَ، وَقَدْ كَثُرَ اسْتِعْمالُهُ مَنْصوبًا عَلَى المَفْعوليَّةِ المُطْلَقَةِ بإضمار فعله كـ ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: 23][4]، ويُطْلَقُ التَّسْبيحُ أيضًا على التَّنَفُّلِ والتَّطَوُّعِ بالعِبادَةِ، والمقصود بـ ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ في الآية: التَّنْزيه والتَّبرئة ممّا ادَّعَوهُ مِنْ وُجودِ شُرَكاءَ لَهُ في الإِلَهيَّةِ.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 346.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والخطابيّ، غريب الحديث، ص: 685.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبح).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 413.

2) ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾: أَصْل (علو): يَدُلُّ على السُّموِّ والارْتِفاع، لا يَشِذُّ عَنْهُ شَيْءٌ[1]، فالعُلُوّ ضدُّ السُّفْل، والعُلْويُّ والسُّفْليُّ: المنسوبُ إليهما[2] والعُلُوّ: أصلُ البناء، ومنه العَلاءُ والعُلُوُّ، فالعَلاءُ الرِّفْعَةُ، والعُلُوُّ العَظَمَةُ والتَّجبُّر[3] والعَليُّ: هو الرّفيع القَدْرِ، مِنْ: عَلِيَ، وإذا وصِف اللّه تعالى بِهِ في قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٦٢﴾ [الحج: 62] فمعناه: يعلو أن يحيط به وَصف الواصفين بل عِلم العارفين؛ وعلى ذلك يُقال: تَعالَى، والمقصود بالتَّعالي في الآية: شِدَّةُ العُلوِّ، و﴿عُلُوًّا﴾: جيءَ بِهِ على غَيْرِ قياسِ فِعْلِهِ؛ للدَّلالَةِ على أَنَّ التَّعاليَ هو الاتِّصافُ بالعُلوِّ بِحَقٍّ لا بِمُجَرَّدِ الادِّعاءِ[4].

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

تنَزّه الله تعالى عمَّا يقوله المشركون، من نسبة الشَّريك والوَلَد له

نزَّه الحقُّ تعالى نفسه الكريمة تَنزيهًا يَليقُ بعَظَمتِه، وتعالى عُلوًّا كبيرًا عمّا يقولُ المُشرِكونَ مِن الكَذِب عليه، كنِسبةِ الوَلَدِ والشَّريكِ إليه[5]، ففي الآية إيماءٌ إلى وجود البون الشّاسع بين ذاته وصفاته سبحانه وبين ثُبوت الصّاحبة والولد والشُّركاء والأضداد؛ للمُنافاة الَّتي لا غاية وراءها، بين القديم والمُحْدَث والغنى، والغني والمحتاج[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئناف في قوله ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾:

التنزيه نتيجة إبطال دعاوى المشركين

قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾، كلام "مستأنف؛ لأنّه نتيجة لبطلان قولهم: إنّ مع اللّه آلهة، بما نهضت به الحجّة

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علو).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (علو).
(3) الخليل، العين: (علو).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 113.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 604، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 266، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 78، والسّعديّ، تيسير الكريم الرحمن، ص: 458.
(6) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 15/ 50

عليهم من قوله: ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾"[1] ولأجل هذا التّرابط القويّ بين تلك الجملة وسابقتها، وما بينهما من (كمال الاتّصال) فُصِلَت عنها.

الغرض من التّعبير بأسلوب التّعجّب:

كلمة (سُبْحَانَ) بمعنى تنزَّه، وتأتي للتّعجّب مجازًا

كلمة ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ كلمة دالّة على التّنزيه المطلق للّه تعالى، عمّا لا يليق بذاته المقدّسة، فهي مصدر سبَّح بمعنى نزَّه وبرَّأ[2]، وتقال عبارة (سبحان اللّه) للتّعجّب عند شدّة الهول، وعظم الخطب، ولكن هذا على سبيل المجاز[3] وما هنا محتمل للمعنيين معًا، التّنزيه المطلق للّه ﷻ مع التّعجيب من حال هؤلاء الّذين ادّعوا للّه ﷻ، ما لا يليق به، فإنّ ما ادّعوه عليه سبحانه من البنوّة أمر عظيم، وخطره شديد، يستدعي هذا التّعجب بكلمة ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ المنطويّة على معنى التّنزيه المطلق للذّات العليّة، عن كلّ ما لا يليق بكمالها الإلهيّ.

دلالة العطف في قوله ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾:

الجمع بين التّنزيه والتّقديس

قوله ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ معطوفة على الجملة السابقة والتي تقديرها: (نسبح اللّه سبحانه)[4] وغرض العطف بالواو هو الجمع بين تنزيهه سبحانه عن صفات النقص، وأيضًا إثبات صفات العلو والكمال اللائقة بذاته في آن.

دلالة التّعبير بصيغة التّفاعل ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾:

عبّر بصيغة التّفاعل، إيذانًا بالمبالغة

عبر الذِّكر الحكيم بصيغة التفاعل ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ إيذانًا بالمبالغة، ولذلك أتى بالمصدر المجرَّد في قوله تعالى: ﴿عُلُوًّا﴾ لهذا الإيذان بأنَّ الفعل (تعالى) مجرد في الحقيقة، وإن أُتِي به على صيغة التفاعل[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 113.
(2) الشِّهاب الخفاجيُّ، عِناية القاضي: 6/ 34.
(3) الشِّهاب الخفاجيُّ، عِناية القاضي: 5/ 46.
(4) الخطيب وآخران، التّفصيل في إعراب التنزيل: 8/ 88.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 423.

سرّ التّعبير بالجارّ والمجرور ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾:

تفاهة القول مؤذنة بتهافته وسقوطه

التّعبير بقوله: ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾، يشير إلى ما أشار إليه قوله تعالى في الآية السابقة ﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾ أي: إلى تفاهة هذا القول وتهافته، لكونه مجافيًا للحق مجانبًا للصّواب، فهو مجرد قول أجوف خواء.

غرض التّعبير بـ (ما) الموصولة:

التّعبير بـ (ما) الموصولة أجمع وأخصر

غرض التّعبير بـ (ما) الموصولة دون غيرها؛ لكونها أجمع لكل ما قيل في حقه سبحانه مما لا يليق به، وأخصر في بنية الكلمة من (الَّذي).

دلالة التّعبير بالمضارع، وإيثاره على الماضي:

تجدّد هذا القول منهم وتكرّره

دلّ التّعبير بقوله ﴿يَقُولُونَ﴾ مضارعًا على أنهم كانوا يكررون القول بعيارات الشرك باللّه، كالقول بأن له البنات، وأن له شركاء كالأصنام، وغير ذلك من سائر عبارات الشرك باللّه.

غرض حذف المفعول به لـ ﴿يَقُولُونَ﴾:

حذف المفعول، للعلم به، ولإفادة العموم

حذف مفعول القول لكونه معلومًا مما سبق وهو ادعاؤهم أن للّه سبحانه البنات، وأيضًا للتعميم ليشمل كل قول شركي يصدر عنهم.

تنوّع القراءات بالخطاب والغيبة في ﴿يَقُولُونَ﴾:

خطاب الغيبة لسفل مكانهم، وخطاب الحضور تبكيت لهم

قرأ حمزة والكسّائي وخلف العاشر ورويس بخلفه: ﴿عَمَّا تَقُولُونَ﴾ بالتاء على الخطاب، وباقي السبعة بالياء ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾[1] على الغيبة، وتوجيه القراءتين مترتب على توجيه القرائتين في: ﴿يَقُولُونَ﴾، ﴿تَقُولُونَ﴾ في الآية السّابقة: ﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾، أي أنّ قراءة الخطاب هنا محمولة على قراءة الخطاب في الآية السّابقة، وقراءة الغيبة هنا على قراءة الغيبة في الأولى أيضًا، ولذلك فالعادة

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 54، وابن الجزري، النشر 2/307.

أنّ العلماء يوجّهونهما معًا في الموضع الأول فقط[1]، فخطاب الغيبة دالّ على سفل مكانتهم، وخطاب الحضور تبكيت لهم.

دلالة التّعبير بالمفعول المطلق ﴿عُلُوّٗا﴾:

الــدّلالــة على أنّ المـراد العلوّ بحقّ، لا ادّعاء

قوله تعالى: ﴿عُلُوّٗا﴾ مفعول مطلق عامله ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾، جيء به على غير قياس فعله، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧﴾ [نوح: 17] للدّلالة على أنّ التّعالي هو الاتّصاف بالعلوّ بحقّ، لا بمجرّد الادعاء[2]، ومن البلاغة العالية والتّناسب العجيب في ذكر العلو هنا، هو أنه ذكره بعد أن ذكر عنوانه في الآية السابقة في قوله: ﴿لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا﴾، وهذا في أعلى مراتب البلاغة[3].

سرّ وصف المفعول المُطْلق بلفظ ﴿كَبِيرٗا﴾:

المـنـافـاة بين أوصـافـه سبحانه، وبين مـا ادَّعـاه له المشركون

معنى وصف العلوّ بالكبر: المبالغة في معنى البراءة والبعد مما وصفوه به[4]؛ لأن المنافاة بين ذاته وصفاته سبحانه، وبين ثبوت الصاحبة والولد والشّركاء والأضداد والأنداد، منافاة بلغت في القوّة والكمال إلى حيث لا تعقل الزيادة عليها؛ لأن المنافاة بين الواجب لذاته والممكن لذاته، وبين القديم والمحدث، وبين الغني والمحتاج، منافاة لا تعقل الزيادة عليها، فلهذا السبب وصف الله تعالى ذلك العلو بالكبير[5].وفيه أيضًا تنديد بقالة المشركين في ادعاء البنوة له سبحانه؛ لأن وصف علوه سبحانه بـ ﴿كَبِيرٗا﴾ يعني أنّه تعالى في أقصى غايات الوجود، وهو الوجوب الذّاتي، وما يقولونه من أنّ معه آلهة، وأنّ له أولادًا في أدنى مراتب العدم، وهو الامتناع الذّاتي[6].

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 346، والسّمين، الدّر المصون: 7/ 361.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 113، والشِّهاب الخفاجيُّ، عِناية القاضي: 6/ 34.
(3) الشِّهاب الخفاجيُّ، عِناية القاضي: 6/ 34.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 660.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 347.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 79.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤٤﴾ [الإسراء: 44]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الكون كلّه مُسبِّحٌ لله، والبشر لا يفقهون تسبيحهم

بعد أن تكلّمت الآيات السّابقة عن حال الّذين أشركوا بربّهم، وكيف أنّهم ادَّعوا البنوّة للّه سبحانه - تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا - ثم ردَّت عليهم الآيات ببيان عِظَم جرمهم، وبتنزيه اللّه تعالى تنزيهًا مطلقًا عن كلّ فرية لاكتها ألسنتهم، في هذا الشّأن، بعد ذلك أخبر اللّه تعالى أنّه غنيّ عنهم وعن عبادتهم؛ وأنّه سبحانه يسبّح له الكون كلّه، فقال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُسَبِّحُ﴾: أصلُ (سبح) يدلُ على جِنْسٍ مِنَ العِبادَةِ، وأَصْلُه مِن السَّبْحِ، وهو: البُعْدُ، والتَّسْبيحُ: التَّبْعيدُ، ومنه قولُهُم: سَبَّحْتُ في الأَرْضِ، أي: أَبْعَدْتُ فيها[1]، والتَّسْبيحُ: التَّنْزيهُ والتَّقْديسُ والتَّبْرِئَةُ، يُقال: سَبَّحْتُ اللّهَ، وسَبَّحْتُ لَهُ، أُسَبِّحُهُ تَسْبيحًا وسُبْحانًا، أيْ: نَزَّهْتُهُ وبَرَّأْتُهُ مِن كُلِّ سوءٍ ونَقْصٍ[2]، ويأْتي بِمعنى قَوْلِ سُبْحانَ اللّهِ، فيُقال: سَبَّحَ الرَّجُلُ، أَيْ: قال: سُبْحانَ اللّهِ، ويُطْلَقُ التَّسْبيحُ أيضًا على التَّنَفُّلِ والتَّطَوُّعِ بالعِبادَةِ[3]، والمرادُ بالتَّسبيحِ في الآيةِ: قَولٌ أَو مجموعُ قَولٍ مع عَمَلٍ يدُلُّ على تَعظيمِ اللّه تعالى وتَنزيهِهِ.

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبّح)، والخطّابيّ، غريب الحديث، ص: 685.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبح).

(3) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (سبح)، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 96.

2) ﴿تَفۡقَهُونَ﴾: (فقه) أَصْلٌ واحِدٌ صَحيحٌ، يَدُلُّ على إِدْراكِ الشَّيْءِ والعِلْمِ بِهِ[1]، وأَصْله الفَتْحُ والشَقُّ، ومنه سُمّيَ العِلْمُ فِقْهًا؛ لأَنَّهُ يَحْمِلُ معنى التَّعَمُّقِ في الأَمْرِ والتَّبَصُّرِ فيه كَمَن يَشُقُّ الشَّيْءَ ليَكْتَشِفَ ما فيه[2]، ويأْتي الفِقْهُ بمعنى الفَهْمِ[3]، يُقال: فَقِهْتُ الحَديثَ، أيْ: فَهِمْتُهُ، والفِقْهُ أيضًا: الإِدْراكُ والعِلْمُ بالشَّيْءِ، يُقالُ: فَقُهَ الرَّجُلُ، فَقاهَةً وفِقْهًا، وفَقَّهَهُ اللّهُ وتَفَقَّهَ، أيْ: تَعَلَّمَ[4]، ثمَّ خُصَّ بِهِ عِلْمُ الدّينِ لِشَرَفِهِ على جَميعِ العُلومِ[5]، والمقصودُ بالفِقْهِ في الآية: إِدْراكُ الأَشْياءِ الخَفيَّة[6].

3) ﴿حَلِيمًا﴾: أصلُ الحِلْمِ - بِكَسْرِ الحاءِ -: التَّأَنّي والصَّبْرُ، يُقال: حَلُمَ، يَحْلُمُ، حِلْمًا، فهو حَليمٌ، أيْ: تَأَنَّى، وصَبَرَ، ولم يَتَعَجَّلْ، ويأْتي الحِلْمُ بمعنى السُّكونِ وضَبْطِ النَّفْسِ[7]، فيُقال: تَحَلَّمَ فُلانٌ، أي: تَكَلَّفَ ضَبْطَ النَّفْسِ، والحَليم: الَّذي لا يسْتَخِفُّهُ عِصْيانُ العُصاة، ولا يَستفِزُّه الغَضَبُ عليهم، ولكنَّهُ جَعَلَ لكلِّ شيءٍ مِقْدارًا[8]، والحليمُ في صفة اللّه تعالى معناه الصَّبور[9]، ومِن مَعانيه أيضًا: العَقْلُ، والعِلْمُ[10]، وضِدُّه: العَجَلَةُ، والجَهْلُ، والسَّفَهُ، وجَمْعُ حِلْمٍ: أَحْلامٌ وحُلومٌ[11]، والمرادُ بالحليم في الآية: المَوصوفُ بالحِلْمِ، وهي صِفَةٌ تَقْتَضي الصَّفحَ والرَّحمة بالمَخْلوقِ.

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

تُسَبِّحُ للّه السماوات السَّبعُ والأرضُ، ومَن فيهنَّ مِنَ المَلائِكةِ والإنسِ والجِنِّ وجميع المَخلوقاتِ، فتُنَزِّهُه عمّا لا يليقُ به، وما مِن شَيءٍ من المَخلوقاتِ إلّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِ اللّه تعالى

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فقه).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (فقه).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (فقه).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (فقه).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فقه).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/ 133.
(7) الرّاغب، المفردات: (حلم).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (حلم).
(9) الخليل، العين، وتهذيب اللّغة: (حلم).
(10) ابن سيده، المخصّص: 1/ 251، والزّبيديّ، تاج العروس: (حلم).
(11) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط، والزّبيديّ، تاج العروس: (حلم).

تسبيح الكون لله تعالى إمَّا بالأقوال، وإمَّا بدلالةِ الأحوال

فيُنَزِّهُه تنزيهًا مَقرونًا بوَصفِه بصِفاتِ الكَمالِ مع محَبَّتِه وتَعظيمِه - ﷻ - ولكن لا تَعلَمونَ - أيُّها النَّاسُ - تَسبيحَ المَخلوقاتِ؛ لأنَّها على غيرِ لُغَتِكم، إنَّ اللهَ كان حَليمًا، فلا يُعاجِلُ بالعُقوبةِ مَن يكفُرُ به ويَعصيه، غفورًا لِمَن تابَ مِن عِبادِه، فيَستُرُ ذُنوبَهم، ويتَجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الاستئناف في قوله ﴿تُسَبِّحُ﴾:

إبراز غنى الله سبحانه عن تنزيه مَنْ لا يؤمن به

في هذا الاستئناف "بيان عظمة هذا التّنزيه مقرونًا بالوصف بالكمال"(2) والغرض إبراز أنّ اللّه تعالى غنيّ عن تسبيح مَنْ لا يؤمن به؛ لأنّ الكون كلّه يسبّح له، محبةً وتعلقًا، وحتّى لو لم يسبّح له أحد، فإنّه سبحانه هو الغنيّ الحميد، والكون كلّه مفتقر إليه.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿تُسَبِّحُ﴾:

الكون كلّه مُسبّح لله باستمرار، وبلا انقطاع

دلّ التّعبير بالمضارع ﴿تُسَبِّحُ﴾ على دوام هذا التّسبيح وتكرّره وتجدّده وعدم توقّفه، إذ إنّ التّسبيح للّه ﷻ لا ينقطع لحظة، بل يستمرّ كأثرٍ لتعدّد المسبِّحين وتنوّعهم، سواء في الأرض أو في الملأ الأعلى.

دلالة ﴿تُسَبِّحُ﴾ بين الحقيقة والمجاز:

دلالة المقال بالتّسبيح، ودلالة الحال بالتّنزيه

هذه من المسائل والمواضع الّتي خاض فيها العلماء وأسهبوا، كذات الخلاف في معنى السّجود في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩ ١٥﴾ [الرعد: 15] وفي أمثاله، فيتحصَّل من ذلك رأيان:

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 605، والسّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 312، 313، والخازن، لباب التّأويل: 3/ 131، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 79، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 459.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 423.

الأوّل: أنّ التّعبير حقيقيّ، والتّسبيح هنا يدلّ على ما يعنيه لفظ التّسبيح، لكنّه تسبيح خاصّ بكلّ جنس، وكلّ نوع، بما يناسبه؛ لقوله تعالى في نفس الآية: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾، فإنّه يدلّ على أنّ للسّموات والأرض وما فيهما تسبيحًا حقيقيًّا يناسبها، ولا يعني عدم فقهنا له، عدم وجود حقيقته، فهو إذن "تسبيحٌ حقيقيّ، ولكنّا لا ندركه لحكمة، ولا يستغرب هذا، وقد "سبّح الحصى" في كفّ نبيّنا عليه أفضل الصّلاة والسّلام، "وسلّمت عليه الحجارة""[1]، فإذا كانت نسبة التّسبيح للسّماوات والأرض، باعتبار من فيهن من (ملك وإنس وجنّ)، أي: من الأجناس العاقلة، يمكن تفهّم كون النّطق بالتّسبيح من قبله على الحقيقة، فإنّ "ما لا حياة فيه ولا نمو - قد - يحدث اللّه له نطقًا، وهذا هو ظاهر اللّفظ"[2]، وهذا القول أرجح وأظهر، لدلالة قوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾، عليه دلالة واضحة.

والثّاني: حمل التّسبيح على المجاز، فقيل: في قوله ﴿تُسَبِّحُ﴾ (استعارة تصريحيّة تبعيّة)، حيث استعير التّسبيح للتّنزيه[3]، واشتقّ منه ﴿تُسَبِّحُ﴾ بمعنى (تنزّه) أي: تنزهه ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ ﴿وَٱلۡأَرۡضُ﴾، وقيل: بل (استعارة تصريحية تمثيلية) حيث شبه دلالتها على وجود الواجب لذاته (اللّه تعالى) منزهًا عن سمات النقص وعن لوازم الإمكان والحدوث بالتّنزيه عن ذلك بالمقال (التسبيح)[4]، ويجوز كذلك أن تكون (استعارة مكنية) بأن يكون شبّه ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ ﴿وَٱلۡأَرۡضُ﴾ بإنسان يسبّح، ثم حذف المشبّه به ودلّل عليه بشيء من لوازمه، وهو التّسبيح، وأبقى المشبّه وهو ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ ﴿وَٱلۡأَرۡضُ﴾، ولو نظرنا إلى التّركيب باعتبار الإسناد، وهو إسناد التّسبيح إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ ﴿وَٱلۡأَرۡضُ﴾، فهو (مجاز عقلي).

إذن لو أُريد حملُه علَى المجاز، فهو محتمل لكل هذه الوجوه، والأرجح هو حملُه على الحقيقة لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾، ومع هذا، فاللّفظ يتّسع للجمع بين

(1) الشِّهاب الخفاجيُّ، عِناية القاضي: 6/ 35، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/ 515.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 54.
(3) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 11/ 515.
(4) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 11/ 515.

الدّلالتين دلالة المقال بالتّسبيح، ودلالة الحال بالتّنزيه، ولعلّه أحد أسرار التّعبير، بقوله: ﴿تَفۡقَهُونَ﴾ دون (تسمعون)[1].

دلالة اللّام في قوله: ﴿لَهُ﴾ في السّياق:

حرف المعنى ذو أثر في الدّلالة

اللّام قد تكون لام التّعدية، إذا كان الفعل ﴿تُسَبِّحُ﴾ متضمّنًا معنى (تشهد)، ويجوز أن تكون اللّام المسماة (لام التّبيين) كالتي في قوله سبحانه: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ١﴾ [الشرح: 1] وفي قولهم: حمدت اللّه لك[2].

سرّ تقديم الجارّ والمجرور ﴿لَهُ﴾:

التّقديم للاختصاص، وهو من بليغ البيان

الغرض من تقديم الجارّ والمجرور على الفاعل ﴿لَهُ﴾، هو إفادة الاختصاص، فله وحدَه تسبِّح السماوات والأرض وما فيهن من كائنات وجمادات.

دلالة التّعبير بالفاعل مُعرَّفًا باللّام جمعًا:

دلالة التّعريف على استغراق الجنس

قوله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾، التّعريف في الفاعل بالألف واللّام، للدّلالة على استغراق الجنس، فكلّ السماوات وكلّ الأرضين وما فيهن تسبّح للّه تعالى.

سرّ تقييد الفاعل بالصّفة ﴿ٱلسَّبۡعُ﴾:

التّقييد بالسّبع تأكيدٌ لدلالة (أل) على الاستغراق

قيد السماوات بالصّفة ﴿ٱلسَّبۡعُ﴾ فيما يظهر، لتأكيد ما دلت عليه

(1) هذا الاتّساع عند الزّمخشريّ يتحقق فقط بحمل اللفظ على المجاز، فقد قال: "فإن قلت: ﴿وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ يسبّحون على الحقيقة وهم الملائكة والثّقلان، وقد عطفوا على السماوات والأرض، فما وجهه؟ قلت: التسبيح المجازي حاصل في الجميع فوجب الحمل عليه، وإلّا كانت الكلمة الواحدة في حالة واحدة محمولة على الحقيقة والمجاز"، ينظر: الزمخشري، الكشّاف: 2/ 670.

على أنّ هنالك من الأصوليين مَن يرى أنّه لا مانع من حمل اللّفظ على معنييه الحقيقيّ والمجازيّ في آن، وهو رأي الشافعي، كما ذكر أبو حيان، حيث قال: "وأمّا الشافعي فجرى على منوال واحد، فجوَّز استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، وحمله عند الإطلاق عليهما"، يُنظر: أبو حيان، البحر المحيط: 2/ 400.

وهنالك تفصيل وتحليل في المسألة، ذكره السعد التفتازاني في التلويح على التنقيح، فقد تناول المسألة وبدأ كلامه عنها بقوله: "لا نزاع في جواز استعمال اللفظ في معنى مجازي يكون المعنى الحقيقي من أفراده كاستعمال الدابة عرفًا فيما يدب على الأرض، ووضع القدم في الدخول، ولا في امتناع استعماله في المعنى الحقيقيّ والمجازيّ، بحيث يكون اللّفظ بحسب هذا الاستعمال حقيقة ومجازًا"، يُنظر: السّعد التّفتازاني، التّلويح على التّنقيح: 1/ 164.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 114.

اللام من الاستغراق، فالسماوات فيما نصّت عليه كثير من آيات القرآن، وكثير من الأحاديث هي سبع، و"لا خلاف أنّ السماوات سبع بنصّ القرآن والحديث ..."[1] ومن أدلّة قصديّة العدد (سبع) كذلك، هو أنّها وردت على جمع السّلامة ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ لقلّة عددها[2]، ومن ثمّ، فالتّعبير بـ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ﴾ هو في قوّة (السّماوات كلّها) دلاليًّا.

دلالة العطف في لفظ ﴿وَٱلۡأَرۡضُ﴾:

العطف بالواو غرضه الجمع بين السماوات والأرض وما فيهما، في الاشتغال بتسبيح ذي الجلال والإكرام والانشغال به.

السماوات والأرض بمَن فيهما مشغول بتسبيح الله

غرض الطباق في: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ ﴿وَٱلۡأَرۡضُ﴾:

المقابلة بين المتضادين ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ - ﴿وَٱلۡأَرۡضُ﴾ كظرفين لتسبيح اللّه، يؤكد للمُعرِض عن تسبيحه سبحانه كم هو وحيد ضئيل جدًا، في مواجهة المسبِّحين، فماذا يمثل هذا المشرك المعرض عن تسبيحه سبحانه في مقابل السماوات والأرض وما فيهما ومن فيهما؟

كشف حجم المشرك أمام نفسه، في تقاعسه عن الانضمام للكون المسبّح

دلالة إفراد ﴿وَٱلۡأَرۡضُ﴾ في مقابل جمع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾:

(أل) في الأرض للجنس، فيصدُق بالجمع من حيث الدلالة، ويدلُّ على ما دلَّ عليه لفظ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ المجموع، وأما عن إفراده، فهذه عادة قرآنية، فلم يرد أبدًا في الكتاب العزيز لفظ الأرض مجموعًا على (أرضين) لأنها ترد غالبًا مرادًا بها الجهة فهي "بمنزلة السّفل والتّحت ... فلا معنى لجمعها كما لا يجمع الفوق والتحت والعلو والسفل"[3] ولذا لما استُدْعيَ في تركيبٍ أن يُجمَع لفظ الأرض في مقابلة لفظ السماء المجموع، لكونه أراد الذّات والعدد، وليس الجهة، انظر ماذا فعل القرآن وبماذا عبَّر؟ وذلكم المعنيّ هو

(أل) في الأرض للجنس، والمراد تسبيح جميع الأرضين

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 295.
(2) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/ 6.
(3) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/ 6.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾ [الطلاق: 12] "فإنّ الأرض لا نسبة إليها إلى السماوات وسعتها، بل هي بالنسبة إليها كحصاة في صحراء فهي وإن تعددت كالواحد القليل فاختير لها اسم الجنس"[1] ومن أسباب إفراده كذلك في القرآن استثقال جمعه (أرضون)[2].

دلالة العطف في ﴿وَمَن فِيهِنَّۚ﴾:

الجمع في التّسبيح بين المكان والمكين

قوله ﴿وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾، وفائدة هذا العطف، شمول الخبر للمكان وهو السماوات والأرض، والمكين، وهم سكان كل منهما، من حيث قيام جميعهم بالتّسبيح للّه.

غرض التّعبير باسم الموصول (مَنْ):

العقلاء في الكون يسبّحون ربّهم، وغير العقلاء مدرجون معهم

عبَّر بالاسم الموصول (مَن) الدالّ على العاقل، ليعلم أنّ العقلاء من سكان السماوات والأرض، كالملائكة في السّماء، والإنس والجنّ في الأرض، كلهم يسبحون للّه، حتى من لم يؤمن باللّه منهم، فهو يسبّحه بانقياده له، فلئن أحجبوا عن التّسبيح بلسان المقال، فإنّه لا سلطان لهم على انقياد الحال، وإذا خصّ العقلاء بالذّكر من خلال (من) الموصولة؛ فإنّ غير العقلاء أدخل في باب التسبيح منهم.

سرّ التّعبير بالجارّ والمجرور ﴿فِيهِنَّۚ﴾:

ما تحتويه السماوات والأرض مشغول بتسبيح الله

سرُّ التّعبير بقوله: ﴿فِيهِنَّۚ﴾، الدّلالة على أنّ جميع من تحويهم السماوات والأرض من العقلاء، يسبّحون ربّهم، كلّ بطريقته، و"أعاد على السّماوات والأرض ضمير من يعقل، لما أسند إليها فعل العاقل وهو التسبيح"[3].

(1) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 4/ 6.
(2) السّيوطيّ، الإتقان: 2/ 355.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 459.

دلالة الإدماج في ضمير جمع العقلاء ﴿فِيهِنَّۚ﴾:

إدماج العقلاء مع غير العقلاء ذو أثر في بيان المراد من السّياق

الضّمير، في قوله ﴿فِيهِنَّۚ﴾ أدمج فيه كلّ العقلاء من سكّان السماوات والأرض، وهم الملائكة والإنس والجنّ، وفيه دلالة على اتّحاد العمل.

دلالة العطف في ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ﴾:

المعطوف مُؤكّدٌ للمعطوف عليه

فجملة: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾، معطوفة على جملة: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ﴾، للإخبار بالأمرين معًا، على أنه لا يخفى كون مضمون الثانية المعطوفة يحمل تأكيدًا لما في سابقتها من عموم، فيكون من باب عطف التأكيد على المؤكَّد.

غرض التّعبير بأسلوب القصر:

كلُّ ما في الكون يقصر تسبيحه على الله تعالى وحده

الغرض من التعبير بأسلوب القصر في: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ قصر تسبيح جميع الأشياء على الله تعالى وحده، دون سواه.

سر إيثار النّفي والاستثناء طريقًا للقصر:

أسلوبُ القصر من أعظم مؤكّدات المعنى

في إيثار النّفي والاستثناء طريقًا للقصر في قوله تعالى ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ دلالة على أنّ المراد بالقصر هنا تأكيد المعنى.

سرُّ التّعبير بأسلوب الاستغراق في ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ﴾:

بيان الدّلالة على العموم والشّمول

في التّعبير بقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ﴾ بتنكير ﴿شَيۡءٍ﴾، والإتيان بها في سياق النّفي، دلالة على استغراق الأفراد، فكلّ فردٍ في الوجود، عاقل وغيرِ عاقل يسبح بحمده سبحانه، حالًا وقالًا، فإن امتنع بعض المكلفين عن التسبيح بالقال لسوء معتقده، فإن حاله وجميع أعضائه ومكوِّناته منقادة للّه تعالى، وتسبح بحمد ربها، بدليل أن هذه الأعضاء ستأتي يوم القيامة لتتبرَّأ من ضلال صاحبها وتشهد عليه، كما قال سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٠ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ

عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ [فصلت: 20 - 21].

سرُّ التّعبير بالمضارع في ﴿يُسَبِّحُ﴾:

التّعبير بالمضارع دالٌّ على الاستمرار والتّكرار

التّعبير بالمضارع في قوله: ﴿يُسَبِّحُ﴾ دالّ على كون هذا التّسبيح من جميع الكائنات مستمرّ ومتكرر، وأنّها تجدد تسبيحه سبحانه، في كلّ حال يقتضيه، وإن فترت فسريعًا ما تنشط لاستئنافه.

سرّ تقييد التّسبيح بالجارّ والمجرور ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾:

الله ﷻ أهل للحمد مُستحقٌّ للثناء

قيَّد التّسبيح بكونه ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾، لملاءمته لسياق العموم والشمول الذي مضت الآية في سلكه، فالتّسبيح بحمد الله يستغرق كلّ الأحوال، في الشّدة والرخاء، في العسر واليسر، في الضراء والسراء، فلا يقتصر التسبيح بحمده على حال النعماء دون حال الضراء، هذه هي ضرورة الإيمان، وطبيعة الحمد لمن يستحق الحمد كله فـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الفاتحة: 2]، كما أن التسبيح بالحمد متجه إلى كونه تعالى أهلًا لأن يحمد، أي لذاته وليس فقط لعطائه، وفيه دلالة على فضل الذكر بـ (سبحان الله وبحمده) وقد أخرج البخاري في صحيحه عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ ﷺ: أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قالَ: "مَنْ قالَ: سُبْحانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، في يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، حُطَّتْ خَطاياهُ، وَإِنْ كانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ"، وعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ ﷺ أيضًا، عَنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: "كَلِمَتانِ خَفيفَتانِ عَلَى اللِّسانِ، ثَقيلَتانِ في الميزانِ، حَبيبَتانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحانَ اللهِ العَظيمِ، سُبْحانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ"[1].

تنوّع القراءات بالياء والتّاء في ﴿تُسَبِّحُ﴾:

توجيه قراءتي (تُسبِّح - يُسبِّح) إثراء للمعنى مفيد

قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ﴾: قرأ أبو عمروٍ وحمزة والكسائي وحفصٌ ورويس بخلفه بالتاء ﴿تُسَبِّحُ﴾، وقرأ الباقون بالياء مِنْ تحت[2]، وهما

---

(1) الحديثان أخرجهما البخاري في صحيحه، كتاب: الدعوات، باب: فضل التسبيح، حديث رقم: (6405)، (6406).

(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 307.

واضحتان؛ لأنَّ التأنيثَ مجازيٌّ، ولوجودِ الفصلِ أيضًا[1]، وأضاف ابن خالويه أن الحجّة لمن قرأه بالياء ﴿يُسَبِّحُ﴾: أنه جمع قليل، والعرب تذكّره[2]، ومراده بالجمع القليل هو جمع السماوات حيث إنه جمع جمع سلامة للدلالة على قلة عددها فهي سبع.

دلالة العطف في ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ﴾:

الــواو لـلحال أو أنّها عاطفة لدفع التّوهّم

وذلك أنّ هذه الجملة ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۚ﴾، تحتمل أن تكون واو الحال، أي: والحال أنّكم ﴿لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۚ﴾، أو أنّها عاطفة، ويكون سبب العطف وما فيها من استدراك بـ﴿وَلَٰكِن﴾ دفع توهّم أنّ كلّ الكائنات تسبّح كما يسبّح الإنسان بالنّطق بـ (سبحان اللّه)، كما ينطق، فجاءت هذه الجملة، لتدفع ذاك التوهم، فيكون فيها الجواب لمن عساه أن يقول: كيف تسبح كما نسبح، ونحن لا نسمع تسبيحها؟

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿تَفْقَهُونَ﴾:

عدم فقه تسبيح المخلوقات مستمرٌّ متجدّد

دل التّعبير بالمضارع المنفيّ بـ﴿لَّا﴾ على استمرار هذه الحالة - وهي عدم فقه تسبيح هذه المخلوقات - وتجدّدها حالًا واستقبالًا، وفيه "إشارة إلى ما عليه الأكثر من الغفلة، وعدم العمل بمقتضاه"[3].

سرّ التّعبير بالمفعول به مضافًا للضّمير:

الإضافة فيها مدح للمسبّحين، وتعريض بالمستنكفين

إضافة المفعول به إلى الضّمير ﴿تَسْبِيحَهُمْۚ﴾، هي إضافة لأدنى ملابسة، ومن دلالاتها هنا مدح هذه الكائنات بقيامها بتسبيح ربّها، والتّعريض بالنّاكصين عن تسبيح ربّهم.

دلالة جملة الاستئناف:

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ استئناف يظهر مدى حلمه

---

(1) السمين، الدر المصون: 7/ 362، والشِّهاب الخفاجيُّ، عِناية القاضي: 6/ 35، والفارسي، الحجة للقراء السبعة: 5/ 107، وابن خالويه، الحجة في القراءات السبع، ص: 218.

(2) ابن خالويه، الحجة في القراءات السبع، ص: 218.

(3) الشِّهاب الخفاجيُّ، عِناية القاضي: 6/ 35.

بيان حلمه سبحانه على العصاة، وعدم معاجلتهم بالعقوبة

سبحانه بعدم تعجيل العقوبة على مستحقّيها، لمنحهم الفرصة للرّجوع والانتفاع بذاك الإمهال، وفيها تعريض بأنّ مقالتهم تقتضي تعجيل العقاب لهم في الدّنيا، لولا أنّ اللّه عاملهم بالحلم والإمهال، وفي ذلك أيضًا حثّ وحضّ على الإقلاع عن مقالتهم ليغفر اللّه لهم[1].

سرّ الختم بالجملة الاسميّة المؤكّدة:

تأكيد مضمون الجملة، للدّلالة على حلم الله وغفرانه

في الجملة عدد من المؤكّدات الدّالة على أنّ اللّه تعالى حليم بعباده غير متشوّف إلى عقوبتهم، ومن أمارات ذلك أنّه لا يعاجلهم بالعقوبة بعد معصيتهم، بل يمهلهم ويعظهم ويمدّ لهم الحبل لعلّهم يرجعون، ومن هذه المؤكّدات: استهلال الجملة بـ (إنَّ) التّوكيديّة، واسميّة الجملة مبتدءًا وخبرًا، وفيه الدّلالة على ثبات الوصف وتحقّقه، وإقحام ﴿كَانَ﴾ المجرّدة عن الزّمان، في الجملة، واقتران وصفي (الحليم، والغفور) وهما من الأسماء الحسنى، التي تبرز الجمال الإلهي في معاملة الخلق، ولو كانوا من العصاة، بإمهالهم وترغيبهم في التوبة، ليتفادوا العقوبة.

سرّ التّعبير بالكون في ﴿كَانَ﴾:

دلالة (كان) على تحقّق الوصفيْن المذكوريْن لله تعالى

إقحام ﴿كَانَ﴾ في الجملة يدل على أن صفتي (الحلم والغفران لله تعالى) صفتان مُحقّقتان له سبحانه[2].

وغنيٌّ عن البيان أن ﴿كَانَ﴾ في مثل هذا التعبير مُجرَّدة عن الزمان؛ أيْ: ليست دالة على الزمان الماضي كما هو أصل معناها؛ لأنَّ اللّه تعالى متّصف بهاتين الصّفيتين اتصافًا ثابتًا لا يتغيّر بزمان ولا بغيره.

نكتة الاقتران بين الاسميْن الجليليْن ﴿حَلِيمًا غَفُورًا﴾:

في ختم الآية الكريمة وتذييلها بهذا الاسمين الجليلين ﴿حَلِيمًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 115.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 115.

﴿غَفُورًا﴾ ما يفيد أنه سبحانه لا يعاجل المقصِّرين بالعقوبة مع كفرهم وقصورهم في النظر، ويدل أيضًا على أنهم لو تابوا لغفر لهم ما صدر منهم؛ فكأنه قيل: ما أحلم اللّه وأكرمه! وهذا في غاية البلاغة والانتظام[1]، وفي هذا التذييل أيضًا من الدلالات إبراز الفرق بين البشر وخالقهم، وذلك أنه "لما كان الغالب على أحوال البشر أن حليمهم إذا غضب لا يغفر، وإن عفا كان عفوه مكدَّرًا، قال تعالى: ﴿غَفُورًا﴾ مشيرًا بصيغة المبالغة إلى أنه على غير ذلك ترغيبًا في التوبة[2].

تذييل مضمونه عدم معاجلة المذنب بالعقوبة، والغفران له عند التّوبة

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفِقْهُ والعِلْمُ:

فالفِقْه: هوَ العلم بالشَّيْء والفهم لَهُ والفطنة وَ(فَقه)، كعلِم، أي: فَقِه، معناه: فهم، وكمَنَع، أي: فَقَه، معناه: سبق غَيره بالفهم، وككرُم، أي: فَقُه، معناه: صار الفِقْه لَهُ سجية.

الفقه أعلى مرتبة من العلم، فكلّ فقه علم؛ وليس كلّ علم فقهًا

والفِقْه في العرف: الْوُقوف على الْمَعْنى الخَفي يتَعَلَّق بِهِ الحكم، وَإِلَيْهِ يُشير قَوْلهم: هوَ التَّوَصُّل إِلَى علم غائِب بِعلم شاهد أَعني أنه تعقل وعثور يعقب الإحساس والشعور[3].

والعِلْمُ: إدراك الشّيء بحقيقته، وذلك ضربان: أحدهما: إدراك ذات الشّيء، والثّاني: الحكم على الشّيء بوجود شيء، هو موجود له، أو نفي شيء هو منفيّ عنه[4].

وعلى ذلك فالتّعبير بالفقه، هو تعبير عن حالة أدق من العلم فإذا كان الشّيء دقيقًا سمي فقهًا، فهو على ذلك علم وزيادة.

---

(1) الشِّهاب الخفاجيُّ، عناية القاضي: 6/ 35.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 428.
(3) الكفويّ، الكليّات، ص: 690.
(4) الرّاغب، المفردات: (علم).

وإلى هذا المعيار لجأ السّيوطي في الموازنة بين اللّفظين لورودهما متعاقبين في فاصلتين في سورة الأنعام، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنعام: 97 - 98] فقال: ختم الأولى بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنعام: 97] والثّانية بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنعام: 98] ... وذلك؛ لأنّ حساب النّجوم والاهتداء بها، يختصّ بالعلماء بذلك، فناسب ختمه بـ ﴿يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنعام: 97] وإنشاء الخلائق من نفس واحدة، ونقلهم من صلب إلى رحم، ثمّ إلى الدنيا، ثمّ إلى حياة وموت، والنّظر في ذلك والفكر فيه أدق، فناسب ختمه بـ ﴿يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنعام: 98]؛ لأن الفقه فهم الأشياء الدقيقة[1]، وبذلك نعرف أن التّعبير بـ ﴿تَفْقَهُونَ﴾ في الآية التي معنا ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۗ﴾، أدلّ من التّعبير بـ (تعلمون)؛ لأنّنا قد علمنا وصدَّقنا بما علمنا من خلال الخبر الصّادق أنّ هذه الكائنات تسبّح للّه، لكنّنا لا ندرك كنه هذا التّسبيح، فهو أوسع من علمنا، لأنّه خفي علينا، وإدراك الخفيّ فقه لا علم، ونفيه هو نفي للفقه لا للعلم.

(1) السّيوطيّ، الإتقان: 3/ 349.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ٤٥﴾ [الإسراء: 45]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

انتقال بالحديث عن النّبوّة، إثر الحديث عن الألوهيّة والتّوحيد

بعد أن أبرزت الآية السّابقة لهم، ولجميع النّاس، أن الوجود كله بمن فيه يسبح للّه تعالى، ومع ذلك لم يزدد المعرضون إلا بُعدًا عن الإيمان ونفورًا من دلائل التوحيد في القرآن، بعد هذا كله انتقلت الآيات لتُخبر النبي ﷺ، أن زيغهم عن الإله وضلالهم في الشرك به، سيتبعه حتمًا صدود عن رسالته، ومحاربة لدعوته؛ فلا تعبأ أيها الرسول بصدودهم ولا بهجومهم، واستمر في طريق دعوتك، واللّه حاميك وعاصمك منهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حِجَابًا﴾: (حجب): أَصْلٌ واحِدٌ، وهو المَنْعُ والسَّتر(1)، يُقالُ حَجَبْتُهُ عَنْ كذا، أَي: مَنَعْتُه، وحجبتُ الشَّيْءَ أحجبه حجبًا إذا سترته(2)، والحِجابُ: السّاتِرُ لِلْمَرْئِيِّ مِنْ حائِطٍ أَوْ ثَوْبٍ، وكل شَيْءٍ حجَبَكَ فقد سَتَرَكَ(3)، وحاجب كل شَيْءٍ: حرفه، وَيُقال: بدا حاجب من الشَّمْس أي بَدَت ناحيَة مِنْها(4)، وحَقيقَةُ الحجاب في الآية: السّاتِر الَّذي يَحْجُبُ البَصَرَ عَنْ رُؤْيَةِ ما وَراءَهُ(5).

2) ﴿مَّسْتُورًا﴾: أَصْلُ السَّترِ: التَّغْطيَةُ، يُقال: سَتَرَ الإِناءَ، أيَ: غَطّاهُ، وشَيْءٌ مَسْتورٌ، أيَ: مُغطًى غَيْرُ مَكْشوفٍ، والسِّتارُ والسُّتْرَةُ:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (حجب).
(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (حجب).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 234.
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (حجب).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 116.

الغِطاءُ، السَّتْرُ: الإِخْفاءُ والإِضْمارُ، يُقال: سَتَرَ الشَّيْءَ، يَسْتُرُه، سَتْرًا، أيْ: أَخْفاهُ، وضِدُّهُ: الإظْهارُ والإبْرازُ والكَشْفُ، ورَجُلٌ سُتورٌ وسِتّيرٌ، أيْ: كَثيرُ السَّتْرِ على الآخَرينَ، ومِن مَعانيه أيضًا: الكِتْمانُ والحَجْبُ[1]، وقوله تعالى: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾، أي: حِجابًا على حِجاب، والأوَّل مستورٌ بالثّاني، يُراد بذلك كثافة الحِجاب؛ لأنَّه جَعَل على قلوبهم أكِنَّةً وفي آذانهم وقرًا[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

إنَّ الله تعالى لم يجعَلِ الكُفَّارَ أهلًا لفَهمِ كَلامِه، ولا لمَعرِفتِه وتوحيدِه

يقولُ تعالى مبيِّنًا حال المشركينَ عندَ سماعِهم للقرآنِ: وإذا شَرَعْتَ يا محمَّدُ ﷺ في قراءةِ القُرآنِ، فسَمِعَه مُشرِكو قومِك، الَّذين لا يُصدِّقونَ بالبَعثِ، ولا يُقِرّون بالثَّوابِ والعِقابِ؛ جَعَلْنا بينك وبينَهم حجابًا مَستورًا عن الأعينِ، لا يُرَى، يَمنَعُهم مِن فَهمِ القُرآنِ وتدَبُّرِه والانتفاعِ به، ويحولُ بينَهم وبينَ الإيمانِ به[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ﴾:

التنبيه على أنّهم لا يفهمون لسان القال، فضلًا عن لسان الحال

الجامع بين الجملتَيْن (المعطوف والمعطوف عليها) هو أنه لما قرر في سياق التوحيد أنهم في الحضيض من الغباوة، التفت إلى سيد أولي الفهم، فقال مشيرًا إلى النبوة عاطفًا على قوله: ﴿لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۚ﴾ قوله: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ منبهًا على أنهم لا يفهمون لسان القال فضلًا عن لسان الحال[4].

غرض التّعبير بأسلوب الشّرط ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ﴾:

الأداة الشّرطيّة الظّرفيّة دالّة على تحقّق المؤقّت

سرّ إيثار التّعبير في الشّرط بـ (إذا)، دون (إنْ)، الدّلالة على

(1) الأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (ستر).

(2) الجوهريّ، الصّحاح: (ستر).

(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 607، والبغويّ، معالم التنزيل: 3/ 136، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 257، وابن جزيّ، التّسهيل لعلوم التنزيل: 1/ 447، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 459.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 428.

تحقّق قراءته ﷺ للقرآن على المشركين، فذلك أمر مجزوم به؛ لأنّه بعث لتبليغه إلى النّاس، وأيضًا لما تفيده (إذا) من معنى الظرفية المحققة، فهي تحقق المؤقت، والمعنى: أنك عندما تقرأ القرآن يجعل اللّه تعالى بينك وبينهم ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ يعصمك من أذاهم.

دلالة التّعبير بالماضي ﴿قَرَأْتَ﴾ دون المضارع (تقرأ):

الماضي هنا ممحَّض للاستقبال لدخول (إذا) عليه

عبّر بالماضي للدلالة على ما تفيده صيغة الماضي من تحقق الوقوع، لكن الماضي هنا قد محضته (إذا) للدلالة على الاستقبال.

دلالة الإتيان بالمُسنَد إليه ضميرَ خطاب:

تشريف المخاطب ﷺ، وتخصيص له بالعِدة المذكورة

التّعبير بـ (تاء الخطاب) عن المسند إليه، في قوله: ﴿قَرَأْتَ﴾ تشريف للمخاطب ﷺ، وتثبيت لفؤاده؛ وتأنيس له لما يلاقيه من قومه من إعراض ونفور عن سماع القرآن والانتفاع به، وتخصيص له بهذه العِدة المذكورة، وهي أن يحجبه عن عيون المؤذين له، ومن ثمّ عن أذاهم، عند قراءته القرآن، كلّ ذلك تفيده (تاء الخطاب)؛ لأن الّذي يخاطبه ويطمئنه هو ربه، موجهًا إليه هذه العِدَة مباشرة.

بيان أنّ عصمة الرّسول ليست حال تلاوته القرآن فحسب:

الرّسول ﷺ معصوم في كلّ الأحوال من الشّيطان

لا دلالة في الآية على ارتباط العصمة بحال التّلاوة فقط؛ لأنّ كونه ﷺ معصومًا بإطلاق مأخوذ من دليل آخر(1)؛ وهذا الدّليل هو قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: 67]، فإن قيل: إذن ما فائدة العصمة عند التّلاوة مع كون العصمة المطلقة حاصلة؟ وما في الآية عصمة مخصوصة زائدة على العصمة العامّة، وقد أفصح عنها آخر الآية ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ وهو أنه لا يُعصم فقط من أذاهم، بل من رؤيتهم إياه حال القراءة، فيكون شبيهًا بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ۝٩﴾ [يس: 9].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 68.

غرض التّعبير بالمفعول به معرّفا بـ (ألْ):

لفظ (القرآن) يصدق على قليل القرآن وكثيره

عرَّف المفعول به وهو لفظ ﴿ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ بـ (أل) لإرادة اسم الجنس، فيصدق على قليل القرآن وكثيره[1].

دلالة التّعبير بجواب الشّرط ماضيًا:

ما يقرّره السّياق القرآنيّ، هو أمر الله الواقع لا محالة

آثر التّعبير بجواب الشّرط ماضيا ﴿جَعَلۡنَا﴾؛ لما تفيده صيغة الماضي من تحقّق الوقوع، وإن كان الماضي هنا في معنى الاستقبال.

سرّ إسناد الفعل إلى (نا) الدّالة على التّعظيم:

فعل العظيم عظيم لا محالة

أسند الفعل (جعل)، للأداة (نا)، وهي ضمير العظمة الذي يعود إلى المتكلم، وهو رب العالمين - ﷻ - ليزداد المخاطب ﷺ ثقة ويقينًا وطمأنينة إلى الحماية الربانية العظيمة المحققة.

غرض تقديم ﴿بَيۡنَكَ﴾:

التّقديم للاهتمام بالمخاطب ﷺ

وقدَّم الظّرف ﴿بَيۡنَكَ﴾ المضاف إلى ضمير المخاطب، وهو النّبيّ ﷺ، للاهتمام به تشريفًا لضميره، أن يكون مقدمًا على موصول الكافرين ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ ولأنّه ﷺ المقصود بالسّتر عنهم.

جملة ﴿جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ﴾ بين الحذف وعدمه:

الرّاجح عدم الحذف؛ لأنّه أولى عند الاحتمال على كلّ حال

قدَّر بعض العلماء مضافين محذوفين، أي: (جعلنا بين فهم قراءتك ...)[2]، وهذا التقدير يستبعد كون المعنى في عصمة النبي ﷺ من أذى المشركين الّذين كانوا يتربّصون به عند قراءته القرآن، ويجعل المعنى مُنحصرًا في الحيلولة بين الّذين لا يؤمنون بالآخرة، وفهم القرآن، لكنّ هذا المعنى نفسه، دلَّت عليه الآية التّالية، وهي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ﴾، فيترتّب على القول به، أن يكون المعنى نفسه مكرّرًا، وأنّ هذا التّكرير للتّأكيد والبيان.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 68.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 517، والشّهاب الخفاجيُّ، عِناية القاضي: 6/ 35، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 84.

وعلى القول بأنّ الآية الأولى في عصمته من الأذى، يترتّب من الفوائد ما يلي:

أوّلًا: أن تكون كلّ آية منهما مستقلّة بمعنى جديد ومؤسّسة له، والتّأسيس أولى من التّأكيد.

ثانيًا: عدم الحاجة إلى تقدير محذوف، وبناء النّص على عدم الحاجة إلى هذا التّقدير - عند الاحتمال - مقدّم على القول بالحذف والتّقدير؛ لأنّه الأصل. "وإنّما يحسن الحذف إذا كان فيه زيادة مبالغة، والمحذوفات في القرآن على هذا النّمط"[1]، وعلى ذلك "فالأولى أن تُحمل - الآية - على ما روي من أنّها نزلت في أبي سفيان وأبي جهل والنّضر وأمّ جميل، إذ كانوا يؤذونه إذا قرأه، فحجب اللّه أبصارهم عنه، فكانوا يمرّون ولا يرونه[2].

سرُّ العدول عن المضاف إليه إلى الاسم الموصول:

عدم الإيمان هو السّبب في كلّ سوء وشرّ، يصدر من الكافرين

عدل عن التّعبير بالمضاف إليه ضميرًا، كما في قوله: ﴿بَيْنَكَ﴾ إلى التعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ﴾ ذمًّا لهم، وللتّسجيل عليهم بما تضمنته جملة الصلة من الإخبار عن عدم إيمانهم بالآخرة، وكونه السبب في كل شرّ وسوء يصدر عنهم، وأوله الشرك، "وتمهيدًا لما سينقل عنهم من إنكار البعثِ واستعجالِه ونحو ذلك"[3].

دلالة التّعبير بجملة الصّلة مضارعًا منفيًّا:

استمرار عدم الإيمان سبب في موتهم على الكفر

عبَّر القرآن الكريم بجملة الصّلة مضارعًا منفيًّا ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ للدّلالة على أنّ هؤلاء الّذين عنَتْهُم الآية - وكانوا يؤذون النّبيّ ﷺ

(1) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 2/ 274.
(2) الشّهاب الخفاجيُّ، عِناية القاضي: 6/ 35.
وخالف القونويّ في هذا مُرجّحًا القول بالتقدير، وبأن الآية الثانية بيان للأولى، ومُدافعًا عن القول به من وجوه، لا تخلو عند النّظر من تكلُّف، ومن مخالفة القول به لقاعدتي: (الحمل على عدم الحذف أولى عند الاحتمال) و(التّأسيس مقدم على التأكيد) وهما من القواعد المعتمدة في الترجيح، يُنظر: القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 517.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 175.

عند قراءته القرآن، مستمرّون في عدم إيمانهم؛ بل منهم من ختم اللّه على قلوبهم، فهم لا يؤمنون أبدًا، من أمثال أمّ جميل، والنّضر بن الحارث وأبي جهل[1] وغيرهم ممّن كان يفعل هذا.

سرّ تقييد الفعل بالجارّ والمجرور ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

المشركون كانوا مُطبقين على إنكار البعث

سرُّ تقييد عدم إيمانهم بكونه ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾، للدّلالة على أنّهم ما كانوا ينكرون وجود اللّه ولا كونه خالق السماوات والأرض وما فيهما، بل كانوا يشركون معه غيره، كما حكى ذلك سبحانه عنهم بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ [العنكبوت: 61]، غير أنّ المشركين جميعًا كانوا مجمعين على عدم وقوع البعث بعد الموت، أي: أنّهم مع شركهم، وعدم إنكارهم وجود اللّه تعالى فقد كانوا جميعًا ينكرون البعث بعد الموت، ومُطبقين على هذا المعتقد، وقد حكى القرآن عنهم ذلك في كثير من المواضع، منها الآية الآتية قريبًا، وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا﴾.

غرض تأخير المفعول به وتنكيره ﴿حِجَابٗا﴾:

التّأخير والتّنكير في لفظ (حجابا) للتّهويل

أخّر المفعول به في الذِّكر في قوله: ﴿جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا﴾ ولم يقل: (جعلنا حجابًا مستورًا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة) لتحقيق مجموعة من الأغراض؛ منها: التّهويل على المشركين وهو أيضًا غرض التّنكير، فقد نكَّر ﴿حِجَابٗا﴾ تهويلًا وتفخيمًا لشأن الحجاب، بما يتناسب بوصفه بكونه ﴿مَّسۡتُورٗا﴾، وللتّشويق للرّسول ﷺ وللمؤمنين.

بلاغة المجاز العقليّ في الحجاب المستور:

القول بأنّ ذلك من المجاز الإسناديّ (العقليّ)، هو قول جائز

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 27، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 30/ 349.

سَتْرُ الله نبيّه ﷺ عن أذية الكفار مُعجزٌ

فيه، وأهل البلاغة يمثلون به لهذا النوع من المجاز[1]، وتفصيل بناء الكلام على المجاز العقلي هو أن الحجاب في الأصل لا يكون مستورًا، بل يكون ساترًا، لكننا رأينا الوصف أسند إلى المفعول، على طريقة مجاز الإسناد وهو (المجاز العقلي) والمقصود به الفاعلية؛ أي: (الحجاب ساترًا) والهدف هو المبالغة في الدلالة على ستره عن أعينهم، حتى لكأن الحجاب الذي هو في الأصل ساتر قد أصبح ﴿مَّسْتُورًا﴾ فمن باب أولى ان يكون ساترًا لمن خلفه.

أو يقال في تعليل وصف الحجاب بكونه مستورًا: إنه وصف الحجاب بالمستور مبالغة في حقيقة جنسه، أي: حجابًا بالغًا الغاية في حجب ما يحجبه هو حتى كأنه مستور بساتر آخر، فذلك في قوّة أن يقال: جعلنا حجابًا فوق حجاب، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الفرقان: 22]، أو أريد أنه حجاب من غير جنس الحجب المعروفة، فهو حجاب لا تراه الأعين، ولكنها ترى آثار أمثاله[2].

وهناك مَن لا يجعل الحجاب المستور من باب المجاز العقلي، وأنه محتمل للوجوه الآتية:

أوّلًا: يحتمل بأن يكون ﴿مَّسْتُورًا﴾ على بابه؛ أيّ: على معناه الحقيقيّ، والمعنى: مستورًا عن أعين الخلق لا يدركه أحد برؤية كسائر الحجب، وهذا من قدرة اللّه وكفايته[3].

ثانيًا: أو يكون من باب (التّمثيل)؛ أي: تمثيل لهم في عدم إسماع الحق، بمَن كان وراء جدار وحجاب[4].

ثالثًا: وقيل: هو على النسب، أي: ذو سِتْرٍ كقولِهم: مكان مَهول

(1) الشِّهاب الخفاجيُّ، عِناية القاضي: 6/ 36.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 117.
(3) ابن عطيّة، المحرر والوجيز: 3/ 460.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 84.

وجاريةٌ مَغْنوجة، أي: ذو هَوْل وذات غُنْجٍ، ومنه قوله تعالى: ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ٦١﴾ [مريم: 61][1].

بلاغة الطباق الخفي في ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾:

الحجاب ساتر ومستور معًا

في الجمع بين ﴿حِجَابًا﴾ و﴿مَّسْتُورًا﴾ طباق[2]، والطباق هنا خفي؛ وفي ذلك دلالة على أنه ساتر له ﷺ عن أذيّة المشركين، وهو في الوقت ذاته نفسه مستور عنهم، وهو حجاب عظيم معجز، فلا سبيل لهم إلى هتك ما يرونه.

(1) السّمين، الدّر المصون: 7/ 362، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 83.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 117.

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ٤٦﴾

[الإسراء: 46]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تكثُّف الحُجب على المشركين وتنوّعها للحيلولة بينهم وبين القرآن وفهمه

لمّا قال الله تعالى الآية السّابقة: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾؛ فأبرزت حماية الله تعالى لرسوله ﷺ من أذى المتربصين به أثناء تلاوته القرآن بإيذائه، والتشويش على قراءته، وأنه سبحانه ضاعف حمايته بما عبر عنه بالحجاب المستور، بعد ذلك جاءت هذه الآية لتفيد حماية أخرى، وعصمة أخرى لكنها للقرآن ذاته، من أن يفقهه هؤلاء المؤذون لك أيها الرسول عليك صلاة الله وسلامه؛ لكونهم ليسوا أهلًا لذلك، فالقرآن لا يوفّق لفهمه حقَّ فهمه؛ إلا أهله الذين اختارهم الله للقرآن وجعلهم أهله وخاصته، فقال سبحانه في هذا: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَجَعَلْنَا﴾: أصلُ (جعل): كلمات غير مُنقاسة، لا يُشبه بَعضها بعضًا، فالجَعْلُ: النَّخل يَفوتُ اليَدَ، والواحِدَةُ جَعْلَةٌ[1]، والجُعْلُ والجَعالَةُ والجَعيلَةُ: ما يُجعل للإنسان على الأمر يفعله، وجَعلتُ الشَّيء صنعتُه[2]، والجَعْلُ يُطْلَقُ بِمَعْنَى الإيجاد، فَيَتَعَدَّى إِلَى مفعول واحِدٍ، كما في قَولِه تَعالَى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: 1]، ويُطلَقُ بِمَعْنَى التَّصيير فتعدَّى إلى مَفْعولَيْن، وكِلا المَعْنَيَين صالِحٌ هنا[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جعل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 385.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 54.

2) ﴿أَكِنَّةً﴾: (كَنَّ): أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على سَتْرٍ أَوْ صَوْنٍ، يُقالُ: كَنَنْتُ الشَّيءَ في كِنِّه، إذا جَعَلْتَهُ فيهِ وَصُنْتَهُ، وَأَكْنَنْتُ الشَّيءَ: أَخفيتُهُ، والكِنانَةُ المَعروفَةُ، وهي القياسُ[1]، والكِنُّ: كلُّ شيءٍ وَقى شَيْئًا فَهوَ كِنُّه وكِنانُه، والفِعْلُ مِنْ ذلك كَنَنْتُ الشَّيءَ، أي: جَعَلْتُهُ في كِنٍّ، وكَنَّ الشيءَ: سَتَرَهُ، قال تعالى: ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة: 235] أي أخفَيْتم[2] والأَكِنَّةُ: الأَغطيَةُ؛ وَمِنَ البابِ الكُنَّةُ، كالجَناحِ يُخْرِجُهُ الرَّجُلُ مِن حائِطِه، وهو كالسُّتْرَةِ، ومنه أيضًا: الكانونُ؛ لأَنَّهُ يَستُرُ ما تَحْتَهُ[3]، والمقصود بالأَكِنَّةِ في الآية: جَمْعُ كِنانٍ، وهو الغِطاءُ؛ لِأَنَّهُ يُكِنُّ الشَّيْءَ، أَيْ يَحْجُبُهُ.

3) ﴿وَقْرًا﴾: (وقر): أَصْلٌ يَدُلُّ على ثِقَلٍ في الشَّيءِ، يُقالُ: وَقَرَ الشَّيْءُ يَقِرُ وَقْرًا أَيْ ثَقُلَ[4]، ومِنْهُ الوَقْرُ: الثِّقَلُ في الأُذُنِ، يُقالُ مِنْهُ: وَقِرَتْ أُذُنُه تَوْقَرُ وَقْرًا[5]، قالَ الكِسائيُّ: وُقِرَتْ أُذُنُه فَهيَ مَوْقورَةٌ، والوِقْرُ: الحِمْلُ، وَيُقالُ نَخْلَةٌ موَقَّرَةٌ وموقِرٌ، أَيْ ذاتُ حَمْلٍ كَثيرٍ، وَمِنْهُ الوَقارُ: الحِلْمُ والرَّزانَةُ[6]، والمُراد بالوَقْرِ في الآية: ثِقَلُ السَّمْعِ المانِعُ مِنْ وُصولِ الصَّوْتِ إلى الصِّماخِ[7].

4) ﴿وَحْدَهُۥ﴾: أَصْلُ (وحد): أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على الانْفِرادِ[8]، يُقالُ: لَقيتُ القَوْمَ مَوْحَدَ مَوْحَدَ، وَلَقيتُهُ وَحْدَهُ، وَلا يُضافُ إلّا في قَوْلِهِمْ: نَسيجُ وَحْدِه، وَعُيَيْرُ وَحْدِه، وَنَسيجُ وَحْدِهِ؛ أَيْ: لا يُنْسَجُ غَيْرُهُ لِنَفاسَتِه، وَهوَ مَثَلٌ، والواحِدُ: الَّذي لا يَتَجَزَّأ، وَلا يُثَنَّى، وَلا يَقْبَلُ الانقِسام، وَلا نَظيرَ لَهُ وَلا مِثْلَ[9]، وإذا وصِفَ اللّه تعالى به فمعناه: هو الَّذي لا يصحُّ عليه التَّجزّي ولا التَّكثُّر[10]، فهو مُنْفَرِد بالذّات، في عَدم المِثْل والنَّظير[11]، والواحِدُ أيضًا:

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كنَّ).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (كنَّ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كنّ).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (وقر).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة،: (وقر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وقر).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 355.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وحد).
(9) الرّاغب، المفردات، وابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: (وحد).
(10) الرّاغب، المفردات: (وحد).
(11) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: (وحد).

اسمٌ بُنيَ لِمُفْتَتَحِ العَدَدِ، تقولُ: جاءَني واحِدٌ مِنَ النّاسِ[1]، والمقصود بـ ﴿وَحْدَهُۥ﴾ في الآية: المُنْفَرِدُ، والمراد به: أنَّهُ موَحَّدٌ في ذِكْرِك وَكَلامِك، أيْ: ذَكَرْتَهُ مَوْصوفًا بِالوَحْدانيَّةِ[2].

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

الآية الكريمة بيانٌ لِما جعله اللّه سبحانه على حواسهم بسبب جُحودهم وعنادهم، فقال تعالى: وجَعَلْنا على قُلوبِ هؤلاءِ الذينَ لا يُؤمِنونَ بالآخرةِ أغشيةً وأغطيةً تحجُبُها؛ كراهةَ أنْ يَفهَموا معانيَ القُرآنِ فَهمًا ينتَفِعونَ به، وجَعَلْنا في آذانِ المُشرِكينَ صَمَمًا وثِقَلًا يَمنَعُهم من سَماعِ القُرآنِ سَماعَ قَبولٍ له، وانتِفاعٍ به، وإذا وحَّدْتَ ربَّك - يا مُحمَّدُ ﷺ في تِلاوَتِك للقُرآنِ، فقُلْتَ: لا إلهَ إلّا اللّهُ، وأنت تَتلوه؛ أعرَضَ المُشرِكونَ عنك، نافرينَ مُستَكبِرينَ عن توحيدِ اللّهِ؛ مِن شِدَّةِ كَراهيَتِهم لهذا الحَقِّ، ومَحَبَّتِهم لِما هم عليه مِنَ الباطِلِ[3].

عند مواضع التَّوحيد يَفِرُّ الكفَّار إنكارًا واستبشاعًا لرفض آلهتهم واطّراحها

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة العطف في ﴿وَجَعَلۡنَا﴾:

جملة: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً﴾ معطوفة على جملة: ﴿جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا﴾؛ للدلالة على أن اللّه تعالى عاقب المؤذين لرسول اللّه ﷺ بما تضمنته جملتا (جعل).

مَنْ يؤذِ رسول الله ﷺ يُعاقَبْ بالخزي

دلالة إعادة الفعل ﴿وَجَعَلۡنَا﴾:

في إعادة الفعل ﴿وَجَعَلۡنَا﴾ إيذانٌ بترجيح أن كل آية منهما تؤسّس لمعنى جديد، وأن ليست الثانية بيانًا للأولى "فيرجح أن يكون

تكرير الجَعْل لاختلاف دلالة كلّ جعل

(1) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر، وابن منظور، لسان العرب: (وحد).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 118.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 609، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 271، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 82، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 3/ 160.

جعلُ الحجاب المستور جعلَ الصرفة عن الإضرار، ويكون هذا جعلَ عدم التدبر في القرآن خلقة في نفوسهم"[1].

التّعبير بالمضيّ ﴿وَجَعَلۡنَا﴾، وإسناده إلى ضمير العظمة:

المشركون مطبوعون على عدم فهم الحقّ

عبر بالفعل ﴿وَجَعَلۡنَا﴾ ماضيًا ومسندًا إلى ضمير العظمة، "للدّلالة على أنّه أمر ثابت فيهم لا يزول عنهم، كأنهم مجبولون عليه"[2] أي: خلقهم وطبعهم على هذه الخصلة الذميمة، والتعقل المنحرف، الذي يمنعهم من اتّباع الحق[3].

دلالة التّعبير بحرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾:

بيان أنّ الأكنّة مستعلية عليهم قاهرة لهم

التّعبير بحرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ دلالة أنَّ الأكنّة كائنة فوق قلوبهم، مستعليةٌ عليها؛ لتَحول دون وصول الحقائق والمعارف القرآنية إليها.

غرض تقديم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ على ﴿أَكِنَّةً﴾:

الأكنّة جاثمة على صدور المشركين دون سواهم

قدَّم الجار والمجرور ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ على المفعول به ﴿أَكِنَّةً﴾ للدلالة على الاختصاص، فهذه الأكنَّة جاثمة على قلوبهم هم، دون غيرهم ممن فتح اللّه لهم باب الفهم في القرآن، وهم المؤمنون المخلصون، وفيه تنديد بهم؛ إذ إن إصرارهم على إيذاء النبي ﷺ في قراءته، وعلى الإعراض عن القرآن، قد عرَّضهم لهذا الحكم الإلهي.

وقيل: إن فائدة هذا التقديم هو التنبيه على تعلق الجار والمجرور بـ ﴿وَجَعَلۡنَا﴾ من أول الأمر[4].

دلالة جمع لفظ ﴿أَكِنَّةً﴾:

الجمع محتمل للقلّة والكثرة لكونه متعيّنًا في جمع (كِنان)

قوله ﴿أَكِنَّةً﴾ جمع ومفرده: كِنان، وأصل مادته: (كنن)، "و(أفعِلَة) يتعين في (فِعال) المكسور الفاء، إذا كان عينه ولامه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 117.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 14.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 179.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 180.

مثلين"(1) ومعنى كونه متعيَّنا أي: سواء قصد به جمع القلة أو الكثرة، فليس له إلا هذا الجمع(2)، وعلى هذا، فإن كان المراد جمع الكثرة - وهو الأظهر - فالمعنى واضح، أي: جعلنا على قلوبهم أغطية كثيرة لحجبها عن معرفة الحقائق القرآنية، ولو كان المراد به جمع القلة، فالمعنى: إن غطاءً واحدا على القلب يكفي في حجبه عن وصول الحقائق إليه، فكيف إذا كانت على القلب أغطية تغلفه، وليس غطاء واحدا؟ والمقام يرجح الأول وهو معنى الكثرة(3).

دلالة حذف حرف الجرّ من المصدر المؤوّل ﴿أَن يَفۡقَهُوهُ﴾

المنع قاهر أبدًا لا يزول

قوله: ﴿أَن يَفۡقَهُوهُ﴾ منصوب على المفعول لأجله، على تقدير مضاف كراهةَ ﴿أَن يَفۡقَهُوهُ﴾(4).

وقيل أصل العبارة: (من أَن يَفقَهوهُ) فحذف حرف الجر، فصار المصدر منصوبا على نزع الخافض أي: من أن يفقهوه والجار والمجرور متعلقان بـ ﴿أَكِنَّةً﴾ لأن فيها معنى المنع من الفقه، فكأنه قيل: ومنعناهم أن يفقهوه(5).

وقيل: بل النصب على أنه مفعول به على تأويل الجملة، بمعنى المنع، كقوله تعالى: ﴿فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ﴾ [البقرة: 249] فإنه في معنى: لم يُطيعوه(6).

إيثار التّعبير بالمصدر المؤوّل دون الصّريح:

المصدر المؤوّل يدلّ على الاستمرار والتّجدّد

أوثر التّعبير بالمصدر المؤوّل ﴿أَن يَفۡقَهُوهُ﴾، على المصدر الصّريح؛ لاشتماله على الفعل المضارع، وهو أدل على المعنى المراد وهو الاستمرارية والتجدد، في عدم فقههم عن القرآن مراداته.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 179.
(2) السّمين، الدّرّ المصون: 4/ 577.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 84.
(4) السّمين، الدّرّ المصون: 4/ 577، والهمدانيّ، الكتاب الفريد: 4/ 193.
(5) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 450.
(6) الطّيبيّ، حاشية الطّيبي على الكشّاف: 9/ 307.

الغرض من التّعبير بالمفعول به ضميرًا غائبًا:

التّعيين يقتضي الحذف للعلم به

عبَّر عن المفعول به بالضّمير الغائب، في قوله: ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ للعلم بعائده، فهو عائد إلى القرآن المصرّح به في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾.

دلالة الواو في ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾:

الواو عاطفة جامعة

الواو في قوله ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۚ﴾ هي العاطفة لهذه الجملة على الّتي قبلها ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أي: (وجعلنا في آذانهم وقرا)؛ فالواو دلّت على أن اللّه تعالى جمع لهم بين هذين النوعين من الحوائل بينهم وبين الفهم الصحيح عن القرآن، لعدم أهليتهم له، فالقرآن لا يسكُن إلا القلوبَ العامرة بالإيمان، ولا يفهم عنه إلا الموفَّق من قبل الرحمن؛ لأنه كما قال اللّه تعالى عنه: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ٧٧ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ٧٩﴾ [الواقعة: 77 - 79].

نكتة حرف الظرفيّة ﴿وَفِيٓ﴾ مقابل حرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾:

الوقر متمكّن منهم مستقرّ فيهم

إذا كانت ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ قد أوثرت لإفادتها الاستعلاء، وهي الأنسب في مكانها لكون الأغطية إنما تكون فوق الشيء وعليه لا في داخله؛ فإن ﴿وَفِيٓ﴾ في قوله: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ المفيدة للظرفية، أنسب كذلك في مكانها للدلالة على تمكن الوقر من آذانهم واستغراقه منفذها وتجويفها.

غرض تقديم ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ على ﴿وَقْرًاۚ﴾:

الدّلالة على الاختصاص، وتعلّق المفعول بالفعل (جَعَلْنَا)

في تقديم الجار والمجرور ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ على المفعول به ﴿وَقْرًاۚ﴾ للدلالة على الاختصاص، فهم دون غيرهم قد جعل اللّه لهم في آذانهم الوقر، كما جعل على قلوبهم الأكنة. وفائدة الاختصاص إخراج المؤمنين من هذا الحكم، والتنديد بمن صدق عليهم هذا الحكم الإلهي، وقيل: إن فائدة هذا التقديم هو التنبيه على تعلق

الجار والمجرور بـ ﴿وَجَعَلْنَا﴾ من أول الأمر[1]؛ كما مضى في تقديم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أيضًا على المفعول ﴿أَكِنَّةً﴾.

غرض تنكير المفعول به ﴿وَقْرًا﴾:

التّنكير للتّفخيم والتّهويل

نكَّر المفعول به ﴿وَقْرًا﴾ لتفخيمه وتهويله، فكأن ما أصابهم هو صمم شديد يحول بينهم وبين سماع أي لفظ من القرآن، "فكأنه - أي: الوَقر - جمع خرقها، فصيرها صلدًا كالصخرة الصماء لا ينفذ فيها شيء"[2].

دلالة التّمثيلات المتلاحقة:

الجمل التّمثيلية ودلالاتها

نحن هنا أمام ثلاث صور بلاغيّة، في ثلاث جمل تمثيليّة هي: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ على وجه آخر فيها، فقد مضى احتمال كونها مجازًا عقليًّا، و ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾، و ﴿وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾.

وهذه تمثيلاتٌ مُعرِبةٌ عن كمال جهلهم بشؤون النّبيِّ ﷺ وفرطِ نُبوِّ قلوبهم عن فهم القرآنِ الكريم، ومجِّ أسماعِهم له؛ جيء بها بيانًا لعدم فقهِهم لتسبيح لسانِ المقالِ، إثرَ بيانِ عدمِ فقههم لتسبيح لسانِ الحال، وإيذانًا بأنَّ هذا التسبيحَ منَ الظهورِ بحيثُ لا يُتصوَّرُ عدمُ فهمِه إلا لمانع قوي يعتري المشاعرَ فيُبطِلها، وتنبيهًا على أن حالَهم هذا أقبحُ من حالهم السابق[3].

دلالة العطف في ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ﴾:

بيان زيادة تجافيهم عن القرآن وصدودهم عنه

هذه الجملة ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ﴾ معطوفة على الجملة السابقة، لبيان مزيد من تجافيهم عن القرآن وصدودهم عنه عند قراءتك إياه.

نكتة التّعبير بأسلوب الشّرط ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ﴾:

سر إيثار التّعبير في الشّرط بـ (إذا) دون (إنْ) الدّلالة على

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 180.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 429.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 176.

الأداة الشّرطيّة والظّرفيّة، وهي دالّة على تحقّق المؤقّت

تحقّق قراءته ﷺ للقرآن على المشركين، فذلك أمر مجزوم به؛ لأنّه بعث لتبليغه إلى النّاس، وأيضًا لما تفيده (إذا) من معنى الظّرفية المحقّقة، فهي تحقّق المؤقّت، والمعنى: أنّك عندما تقرأ القرآن وتذكر الله تعالى وحده يحصل منهم هذا النفور.

دلالة التّعبير بالماضي ﴿ذَكَرۡتَ﴾:

تمحُّض الماضي لـلاستقبال لدخول (إذا) عليه

عبر بالماضي للدلالة على ما تفيده صيغة الماضي من تحقق الوقوع، لكن الماضي هنا قد محضته (إذا) للدلالة على الاستقبال.

غرض إسناد الفعل ﴿ذَكَرۡتَ﴾:

الخطاب للرّسول ﷺ وفيه تشريف له

التّعبير بـ (تاء الخطاب) عن المسند إليه في قوله: ﴿ذَكَرۡتَ﴾ تشريف للمخاطب ﷺ، وتهيئة لفؤاده؛ كي لا يستوحش ممّا سيلاقيه من قومه من إعراض ونفور عند قراءته القرآن، وذكره ربه في قراءته.

دلالة التّعبير بالمفعول به مضافًا ﴿رَبَّكَ﴾:

في الخطاب تشريف للمخاطب المعصوم

في إضافة اسم (الرّبّ) تعالى مضافًا إلى ضمير المخاطب ﷺ، تشريف للمخاطب، وإبراز لقدره العلي عند ربه.

سرُّ تقييد الفعل بالجارّ والمجرور ﴿فِي ٱلۡقُرۡءَانِ﴾:

تأثّر العرب بالقرآن، بإعراضه عن ذكر آلهتهم بالحسنى

الّذي يظهر، هو أنّ المشركين كانوا يُفرّقون بين أن يذكر الرسول ﷺ خارج القرآن، أو أثناء تلاوته القرآن، وذلك لأنهم كانوا يولون القرآن الكريم عناية خاصة وانتباهًا خاصًّا؛ لما يشتمل عليه من تراكيب بلاغية راقية ذات دلالات عالية، بحيث كان القرآن يجذبهم إلى سماعه جذبًا، لكونهم عربًا خلَّصًا مطبوعين على البلاغة والانجذاب للكلام الراقي البليغ، فكيف إذا كانت هذه البلاغة هي بلاغة القرآن المعجزة، وبينا هم على هذه الحالة يفاجئهم الرسول ﷺ، بأن يذكر الله تعالى وحده في تلاوته للقرآن، فيصيبهم ما يشبه الصدمة حيث لم تذكر آلهتهم مع الله، لأنّهم كانوا ينشدون الشرك لا الوحدانية،

ولهذا كان لذكر الجار والمجرور ﴿فِي ٱلْقُرْءَانِ﴾ ما يدل على هذا، وأما ذكره لربه الواحد خارج القرآن، فلم يكن يُحدِث فيهم ما كان يُحدِثه ذكره سبحانه في القرآن، لِما ذكرنا، وقيل: تخصيص الذكر بالكون في القرآن؛ لمناسبته الكلام على أحوال المشركين في استماع القرآن، أو لأنّ القرآن مقصود منه التّعليم والدّعوة إلى الدين، فخلوّ آياته عن ذكر آلهتهم مع ذكر اسم اللّه، يفهم منه التعريض بأنّها ليست بآلهة، فمن ثم يغضبون كلّما ورد ذكر اللّه، ولم تذكر آلهتهم، فكونه في القرآن هو القرينة على أنّه أراد إنكار آلهتهم[1].

إعراب قوله: ﴿وَحْدَهُۥ﴾ وسرّ تقييد الفعل بالحال:

قوله تعالى (وَحْدَهُ) منصوب على الحال

قوله تعالى: ﴿وَحْدَهُۥ﴾ - على الأرجح - منصوب على الحال، من قوله: ﴿رَبَّكَ﴾ وهو وإن كان معرفةً لفظًا، لكنه في قوةِ النكرة؛ إذ هو في معنى (منفردًا)، ثم اختلف هل هو مصدرٌ أو اسمٌ موضوعٌ موضعَ المصدرِ، الموضوعِ موضعَ الحال، فـ ﴿وَحْدَهُۥ﴾ وُضِعَ موضعَ (إيحاد)، و(إيحاد) وُضع موضعَ (مَوَحَد) وهو مذهب سيبويه، والمعنى على توجيه سيبويه: وإذا ذكرْتَ ربَّك موَحِّدًا للّٰه[2].

سرُّ تقييد الفعل بالحال:

تـولّي المشركين بسبب عدم ذكر آلهتهم

وقوله ﴿رَبَّكَ﴾ هو صاحب الحال ﴿وَحْدَهُۥ﴾، وهو أيضًا مفعول ﴿ذَكَرْتَ﴾ "ومعنى الحال الدّلالة على وجود الوصف في الخارج ونفس الأمر، أي: كان ذكرك له، وهو موصوف بأنّه وحده في وجود الذّكر، فيكون تولّي المشركين على أدبارهم حينئذ من أجل الغضب من السكوت عن آلهتهم، وعدم الاكتراث بها، بناء على أنهم يعلمون أنه ما سكت عن ذكر آلهتهم، إلا لعدم الاعتراف بها"[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 119.
(2) السمين، الدر المصون: 7/ 363.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنّوير: 15/ 118.

التعبير بالماضي عن المستقبل إفادة لتحقّق الوقوع

دلالة التّعبير بجواب الشّرط ماضيا ﴿وَلَّوۡاْ﴾:

آثر التّعبير بجواب الشّرط ماضيًا ﴿وَلَّوۡاْ﴾؛ لما تفيده صيغة الماضي من تحقّق الوقوع، وإن كان الماضي هنا في معنى الاستقبال.

الكناية في قوله (عَلَى أَدْبَارِهِمْ)

سرّ تقييد الفعل ﴿وَلَّوۡاْ﴾ بالجارّ والمجرور:

التّعبير بقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ﴾ كناية عن شدة الإعراض والصدود عن القرآن، وعن ذكر توحيد اللّه فيه، فمعنى ﴿وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ﴾ أي: عادوا إلى الوراء إعراضًا عن القرآن، بدل أن يمضوا إلى الأمام إقبالًا عليه، وعدّي الفعل ﴿وَلَّوۡاْ﴾ بـ ﴿عَلَىٰٓ﴾ الدالة على الاستعلاء، أي: استعلاء طريق السّير، حيث نزلت الأدبار التي يكون السير في جهتها، منزلة الطّريق الّذي يسار عليه[1].

تنوّع إعراب ﴿نُفُورٗا﴾ وأثره على المعنى:

في لفظ ﴿نُفُورٗا﴾ ثلاثة وجوه إعرابيّة:

أحدُها: أنّه مصدرٌ على غيرِ الصَّدْر - أي: من غير فعله - لأنَّ التولّيَ والنّفور بمعنى فيكون كالشُّكور والكُفور، فهو إذن بمعنى تَوليَةً، أو لأنَّ وَلَّوْا بمعنى: نفروًا.

ثانيها: أنّه حال مِنْ فاعل ﴿وَلَّوۡاْ﴾، وهو حينئذ جمع نافرٍ، كقاعِد وقُعود وجالس وجلوس.

والمعنى: ولَّوا أو رجعوا نافرين، والضّميرُ في ﴿وَلَّوۡاْ﴾ الظّاهر عودُه على الكفّارِ[2].

ثالثها: ويجوز جعله مصدرًا منصوبًا على المفعوليّة لأجله؛ أي: ولوا بسبب نفورهم من القرآن[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/ 163.
(2) الهمذاني، الكتاب الفريد: 4/ 193، والسمين، الدر المصون: 7/ 364، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 429.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 119.

سر تقييد الفعل بـ ﴿نُفُورًا﴾:

تأكيد وجه التّولّي فضح لهم

سر تقييد الفعل ﴿وَلَّوۡاْ﴾ بـ ﴿نُفُورًا﴾ هو كونه مصدرًا مؤكدًا له، وإن كان من غير فعله؛ لأن (وَلَّوۡا) و(نفروا) متقاربا المعنى، أو هما بمعنى[1]، فيقال: نفر عن الشيء إذا تولى عنه وأعرض وفزع عنه، وعكسه نفر إليه، أي: فَزِع إليه، وأقبل عليه، كما يُقال: نفر إلى الحرب[2].

---

(1) الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 4/ 193

(2) الرّاغب، المفردات: (نفر).

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾ [الإسراء: 47]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

استماع الهدى على وجه التّكذيب والاستهزاء لا التّدبُّر وطلب الاهتداء

لما أُخبِر - فيما سبق - عن ذلك البعد الّذي فرضه اللّه على المشركين بين فهمهم، وبين المعاني الصادقة للقرآن الكريم، حتى لكأنه بينهم وبين سماع القرآن بصدقٍ من الرّسول ﷺ حجاب مستور محصَّن، ولكأنَّ قلوبهم مُغطّاة بأغْطية، وأسماعهم قد صبَّ فيها ما يحول بينها وبين السماع اللائق بالقرآن، وهو سماع الفهم والتدبُّر، ولما كانوا مكابرين حتى في الاعتراف بهذا البعد بينهم وبين فهم القرآن، فـ "ربما ادعوا السمع والفهم، فشككوا بعضَ من لم يرسخ إيمانُه، أتبعه تعالى ما يؤكّد ما مضى، ويثبت السامعين فيه، فقال تعالى على طريقة الجواب، مهدّدًا ودالًّا على أنّ مداركهم معروفة: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾"[1] مبينًا سبحانه أنهم ما كانوا يسمعون القرآن للفهم، والتدبّر، ولكن للاستهزاء والتكذيب والإرجاف.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾: (سمع): أَصْلٌ واحِدٌ، وهو إيناسُ الشَّيءِ بالأُذُنِ مِنَ النّاسِ وكُلِّ ذي أُذُنٍ، تَقولُ: سَمِعْتُ الشَّيءَ سَمْعًا[2]، والسَّمْعُ: قوّةٌ في الأُذن تُدرك بها المسموعات، وفِعله يُقالُ له السَّمْعُ أيضًا[3]، والجَمع أسماع، والسَماعُ: ما سَمِعْتَ بِهِ فشاع وتُكُلِّمَ بِهِ، والسَميعُ من صِفات اللّه وأسمائه[4]، والاِسْتِماعُ: الإصغاء[5]،

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 11/ 436.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سمع).
(3) الرّاغب، المفردات، السمين، عمدة الحفاظ: (سمع).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن الأثير، النهاية: (سمع).
(5) الرّاغب، المفردات: (سمع).

والمقصود بالسَّمْعِ في الآية: الإِحساسُ الَّذي به إِدراكُ الأَصواتِ الَّذي آلَتُهُ الصِّماخُ[1].

2) ﴿نَجۡوَىٰٓ﴾: أصلُ (نجو): كلمةٌ تَدلُّ على سَتْرٍ وإِخْفاءٍ، فالنَّجْوُ والنَّجْوَى: السِّرُّ بَيْنَ اثْنَيْن، وقيل: أصلُه مِنَ النَّجاةِ، وهو أن تَنْجوَ بسرِّك مِنْ أنْ يطَّلع عَليك، وناجَيْتُه، وَتَناجَوْا، وانْتَجَوْا، وهو نَجيُّ فُلانٍ، وانْتَجَيْتُهُ: اخْتَصَصْتُهُ بِمُناجاتي، والنَّجيُّ: المُناجي، ويُقالُ للواحدِ والجَمْعِ، قال تعالى: ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ۝٥٢﴾ [مريم: 52][2]، والمقصود بالنَّجوى في الآية: المُحادَثةُ سِرًّا.

3) ﴿مَّسۡحُورٗا﴾: أصلُ (سحر) يدلُّ على خَدْعٍ وَشِبْهِهِ[3]، وحقيقةُ السِّحْرِ صَرْفُ الشَّيءِ عَنْ حَقيقَتِهِ إِلى غَيْرِهِ، فكأَنَّ السّاحِرَ لَمّا أَرَى الباطلَ في صورَةِ الحَقِّ وخَيَّلَ الشَّيءَ على غيرِ حَقيقَتِهِ، قَدْ سَحَرَ الشَّيءَ عَنْ وَجْهِهِ أَي صَرَفَهُ، تَقولُ العَرَبُ للرَّجُلِ: ما سَحَرَكَ عَن وَجْهِ كَذا وَكَذا؟، أَي: ما صَرَفَك عَنهُ[4]، والمَسْحور: ذاهِبُ العَقْلِ المُفْسَدُ[5]، والسِّحْرُ: الأُخْذَةُ؛ وكلُّ ما لَطُفَ مَأْخَذُه ودَقَّ، فَهوَ سِحْرٌ، والجَمْعُ أَسحارٌ وسُحورٌ، ورجلٌ ساحِرٌ مِنْ قَوْمِ سَحَرَةٍ، والسِّحْرُ: البيانُ في فِطْنَةٍ[6]، والمقصود بالسِّحرِ في الآيَة: تَخْييلُ ما ليس بِكائِنٍ كائِنًا[7].

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

تأكيد علمه تعالى باستماع المشركين إلى القرآن، واتّهامهم الرّسول بالباطل

لقد ساقَ الحقُّ سبحانه ما يدلُّ على كمالِ عِلمه، وأنَّه تعالى سيُجازي هؤلاء الكافرين بما يَستحِقّونَ مِنْ عِقابٍ، فقال ﷻ: ﴿نَّحۡنُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 232.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (نجو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سحر).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سحر).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (سحر).
(6) ابن منظور، لسان العرب، الزّبيديّ، تاج العروس: (رهق).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 26.

﴿أَعۡلَمُ﴾ يا مُحمَّدُ ﷺ باستِهزاءِ المُشرِكينَ واستِخفافِهم بالقُرآنِ، وتَكذيبِهم به وَقتَ استِماعِهم إليك وأنت تَتلوه؛ نعلَم بما يتناجَى به مُشرِكو قَومِك في أمْرِك، ويُسارُّ بَعضُهم بَعضًا بشأنِك، حينَ يقولُ المُشرِكونَ وهم يَتناجَوْنَ فيما بينَهم: ما تتَّبِعونَ - إنِ اتَّبَعتُم مُحَمَّدًا ﷺ - إلّا رَجُلًا مَغلوبًا على عَقلِه بالسِّحرِ، يَهذي بكَلامٍ، ولا يَدري ما يَقولُ(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئناف في: ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ﴾:

الجواب عن التّساؤلات قبل حصولها فضحٌ للمشركين

لما كان موقف المشركين من القرآن الكريم بسبب اشتماله على الدعوة إلى التوحيد وذم الشرك معروفًا من شأنه أن يُثير سؤالًا: لماذا إذن كانوا يحرصون على استماع القرآن من النبي ﷺ مُظْهِرين ذلك أحيانًا، ومُتلصّصينَ على قراءته أحيانًا أخرى؟ فجاء الجواب محمَّلًا بإبراز الأسباب: ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا﴾.

سرُّ التّعبير بضمير ذي الجلال ﴿نَّحۡنُ﴾:

تصدير جملة الاستئناف بضمير العظمة يبرز كمال العناية بمضمونها

الغرض من إسناد العلم بغايات استماع المشركين للقرآن إلى ضمير العظمة الإلهية ﴿نَّحۡنُ﴾ يبرز كمال الاعتناء بمضمون الآية الكريمة، حيث يكون المعنى: أن الله يعلم علمًا حقًّا داعي استماعهم، فإنْ كثُرت الظنون فيه، فلا يعلم أحدٌ ذلك السبب(2) على حقيقته إلا الله تعالى؛ لأنّه صاحبُ العلم المطلق بحقائق الأشياء، حيثُ لا يحول بينَه وبينها شيء.

---

(1) مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان: 2/ 534، وابن جرير، جامع البيان: 14/ 611، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 83، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 459.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 120.

دلالة المجيء بالمسند أفعل تفضيل ﴿أَعۡلَمُ﴾:

أفعل التّفضيل (أَعۡلَمُ) ليس للمفاضلة؛ بل للدّلالة على مُطلق علم الله

وبيانُ هذا أنّ صيغة (أفْعَلُ) هنا ليست دالَّة على المفاضلة بين علمه سبحانه وعلم غيره، فهذا غير مُرادٍ قطعًا؛ بلْ هي دالّة العلم المطلق للّه، فإنَّ "﴿أَعۡلَمُ﴾ اسم تفضيل مُستعمَلٌ في معنى قوة العلم وتفصيله، وليس المراد أن اللّه أشد علمًا من غيره، إذ لا يقتضيه المقام"(1).

معنى الباء ودلالتها في قوله ﴿بِمَا﴾:

الباء في (بِمَا) للتّعدية، وهي ذات أثر في المعنى

الباء في قوله: ﴿بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾، جاءت لتعديّة اسم التّفضيل ﴿أَعۡلَمُ﴾ إلى متعلقه؛ لأنّه قاصر عن التّعدية إلى المفعول بنفسه، فاسم التفضيل المشتق من العلم ومن الجهل يُعدَّى بالباء، وما سواهما باللّام تقول: هو أعلم بحاله، وأكسى للفقراء(2).

نكتة التّعبير باسم الموصول (ما):

التّعبير بـ (ما) أجمع وأشمل وأخصر

في قوله تعالى: ﴿بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ أوثر التّعبير بـ (ما) الموصولة؛ لكون التّعبير بها أجمع وأخصر؛ أي: نحن أعلم بجميع الأغراض التي لأجلها كانوا يستمعون للقرآن، مهما حاولوا إخفاءها، أو إخفاء بعضها، وقد أبان عن بعض ما اختزل فيها وجمعه قوله تعالى: ﴿إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ﴾.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿يَسۡتَمِعُونَ﴾:

الإشارة إلى حرصهم على استماع القرآن للتربُّص والتّصيُّد

التّعبير بالمضارع ﴿يَسۡتَمِعُونَ﴾ دالٌّ على حرصهم على استماع القرآن، وتكرره كلَّما سنحت لهم فرصةٌ للاستماع إليه؛ لتحقيق أغراضهم المتنوعة من اتهام القرآن - على غير قناعة منهم - بأنّه سحر أو كهانة ونحو هذا، فهم كانوا أعرف الناس بأن القرآن أبعد ما يكون عن هذه الأوصاف، كما تدل لذلك الأخبار الكثيرة.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 120.

(2) الشِّهاب الخفاجيُّ، عِناية القاضي: 6/ 37.

ونتخيَّر منها خبر أنيس أخي أبي ذر الغفاري الصحابي الجليل ﵁، وكان أنيس بن جنادة أخو أبي ذر الغفاري ﵁ من الشعراء، وقد سبقه أخوه أبو ذرٍّ إلى الإسلام، فنزل أنيس مكة، وكان ما يزال على الكفر فسمع بأمر النبي ﷺ ودار بينه وبين أخيه أبي ذر حوار رواه مسلم في صحيحه وفيه: "فقال أُنيس: إن لي حاجة بمكة فاكفني، فانطلق أنيْس حتى أتى مكَّة، فراثَ عليَّ، ثم جاء فقلت: ما صنعت؟ قال: لقيتُ رُجلا بمكَّة علَى دينِك؛ يزعم أن اللّه أرسله، قلت: فما يقول الناس؟ قال: يقولون: شاعرٌ، كاهنٌ، ساحرٌ، وكان أنيس أحد الشعراء، قال أنيس: لقد سمعت قول الكهنة، فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أقراء الشّعر، فما يلتئم على لسان أحد بعدي؛ أنّه شعر، واللّه! إنه لصادق، وإنّهم لكاذبون"[1].

الباء للملابسة أو للسّببية، واستعمالها في الحالَيْن مفصحٌ مبينٌ

معنى الباء في ﴿بِهِۦٓ﴾ ودلالتها:

الباء الجارَّة للضمير في ﴿بِهِۦٓ﴾ للملابسة، والمعنى: نحن أعلم بملابسات استماعهم، وقيل: الباء سببية[2] والمعنى: نحن أعلم بسبب استماعهم.

الـدّلالـة على العـلم الإلـهيّ بـما يـحرصون على إخفائه حال استماعهم

سرّ تقييد الفعل بالحال المؤوّلة ﴿بِهِۦٓ﴾:

قوله ﴿بِهِۦٓ﴾ في موضع الحال، كما تقول: مستمعين بالهزؤ[3]، أو متلبِّسين به[4]، فاستماعُهم وما يحيط به من مظاهر وأحْوالٍ كلُّه مكشوفٌ على حقيقته للّه تعالى؛ لأنَّ منهم مَن كان يُخفي عن الناس أسبابه الحقيقية لاستماعه، كمن كان يُظهر لقومه أنَّه يستمع للقرآن بغرض التربّص والإرْجاف، بينما كان يُخفي غرضه الأساس مِنَ السَّماع، وهو التّلذذ به[5].

---

(1) مسلم، صحيح مسلم، كتاب: فضائل الصّحابة ﵃، باب: من فضائل أبي ذرّ ﵁: 4/ 1920.
(2) الشِّهاب الخفاجيُّ، عِناية القاضي: 6/ 36.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 351.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 130.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 58، ويُنظر ما جاء في السيرة عن بعضهم أنّه كان يتسمّع القرآن، يُنظر: ابن هشام، السيرة النبوية: 1/ 315.

عِلمُ الله تعالى مُمتدّ إلى ما يُلابسهم لا إليهم وحدهم

مرجع الضّمير في ﴿بِهِۦٓ﴾ ودلالته:

الضمير المجرور في ﴿بِهِۦٓ﴾ عائد إلى (ما) في قوله: ﴿بِمَا يَسۡتَمِعُونَ﴾ على معنى: نحن لسنا أعلم فقط باستماعهم، ولكن "بالشَّيء الذي يُلابسهم حين يستمعون إليك"[1].

وعيد الله لهم شديد، أمّا علمه فمطلق أكيد

سرُّ تقييد الفعل بالظّرف ﴿إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ﴾:

﴿إِذۡ﴾ في قوله: ﴿إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ﴾ ظرف لـ ﴿أَعۡلَمُ﴾؛ أي: نحن أعلم بغرضهم من الاستماع حين هم مستمعون إليك، مُضمرون له[2]، وليس المُراد بالظرف تقييد علمه سبحانه بأغراضهم بهذا الوقت؛ أي: وقت استماعهم، فعلمه سبحانه مُطلَقٌ غير محدودٍ، بلْ المراد الوعيد الشديد لهم[3]؛ بسبب ما كانوا يضمرونه له ﷺ من سوء الغرض.

مَن استمع ليستهزئ بالرّسول؛ كان عاقبة أمره الهوان

دلالة التّعبير بـ ﴿يَسۡتَمِعُونَ﴾ صيغة وزمنا:

التّعبير بالمضارع ﴿يَسۡتَمِعُونَ﴾ دالّ على تكرّر هذا الاستماع وتجدّده، وفيه فضح لهم.

السّينُ والتّاءُ إمّا زائدتان للطّلب، فهم كانوا يسلكون للاستماع للقرآن كلّ سبيل طلبًا لسماعه، أو أنّهما لتقوية الفعل، دلالة على كثرة الاستماع للقرآن، والمبالغة "في الإصغاء والميل لقصد السّمع ... إرادة الوقوع على سقطة يجعلونها موضع تكذيبهم واستهزائهم"[4]، ولتحقيق سائر أغراضهم الظّاهرة والباطنة، مِن وراء هذا الاستماع.

حِرْصُ المشركين للاستماع من الرّسول للهُزء لا للانتفاع

سرّ تقييد الفعل بالجارّ والمجرور ﴿إِلَيۡكَ﴾:

قيَّد الفعل ﴿يَسۡتَمِعُونَ﴾ بالجار والمجرور ﴿إِلَيۡكَ﴾ للدّلالة على أن

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 130.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 257.
(3) الشِّهاب الخفاجيُّ، عِناية القاضي: 6/ 37.
(4) البقاعيّ، نظم الدرر: 11/ 436.

حرصهم على الاستماع للقرآن، إنما كان مقيدًا بكونه منه ﷺ لا من سواه؛ لأنّ تحقيق أغراضِ الاستماعِ لن تكونَ على وجهٍ أكمل إلا إذا كان الاستماع منه ﷺ.

سرّ العدول عن (يستمعونك) إلى ﴿يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ﴾:

الدلالة على أنّ غرضهم بالاستماع، لم يكن للفهم بل للهزء

وإنّما لم يقل: (يَسْتَمِعونَهُ) ولا (يَسْتَمِعونَكَ)، وقال: ﴿يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ﴾؛ لأنّه لم يكن الغرض الإخبار عن الاستماع فقط، بل كان مقصودًا أن الاستماع كان على طريق الهزء بأن يقولوا: مجنون أو مسحور، فجاء الاستماع بالباء في ﴿يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾، وإلى في قوله: ﴿يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ﴾، ليُعلم أنّ الاستماع ليس المراد به تفهم المسموع، دون هذا المقصد[1]، فإن كان قد عبَّر عن تكلُّفهم في السماع واجتهادهم في تحصيله بكلمة ﴿يَسۡتَمِعُونَ﴾، فإنه دلَّل بكلمة ﴿إِلَيۡكَ﴾ على البعد المعنويّ[2] بينهم وبين ما يستمعون إليه.

دلالة الواو في ﴿وَإِذۡ﴾:

الاستماع والتّناجي تحت عِلم الله ﷻ

وجملة: ﴿وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ﴾ معطوفة على جملة: ﴿إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ﴾، فكلاهما الاستماع والتّناجي خاضعان لعلم اللّه تعالى، وفيه تعريض وتهديد لهم لما يترتّب على علمه منَ العقاب الشّديد.

غرض التّعبير بالجملة الاسميّة ﴿هُمۡ نَجۡوَىٰٓ﴾:

تناجيهم وتآمرهم دائم على القرآن الكريم

التّعبير بالجملة الاسميّة يفيد الثّبوت، وعليه فالتّعبير بقوله: ﴿هُمۡ نَجۡوَىٰٓ﴾، يدلّ على تناجيهم وتآمرهم الدّائم على القرآن الكريم، وكانوا ثابتين على هذا، ولذا تمخَّضت مجالسهم هذه عن اتهام القرآن بأنّه شعر، أو سحر، أو كهانة، أو أساطير الأولين، كذلك تمّ التّواصي في هذه المجالس - بعد اليأس من جدوى الطّعن في القرآن باللّغو فيه أثناء تلاوته؛ لعلّهم يغلبون بالتّشويش عليه،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 58.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 436.

وقد كشف القرآن عن تواصيهم هذا بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ [فصّلت: 26].

غرض التّعبير بالمسند إليه مُعرّفًا بالضّمير:

ما سبق ذكره يعبّر عنه بالضّمير من بعد الذّكر

عبَّر بالضّمير ﴿هُمۡ﴾ عن المسند إليه للعلم بهم، لسبق ذكرهم، فهم ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾، وضمائر الغيبة اللاحقة لهذه الجملة بدءًا من قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا ٤٦ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ﴾ راجعة إليهم.

دلالة التّعبير بالمُسنَد مصدرًا:

المبالغة في الدّلالة على كثرة تناجيهم وتبييت المكر للإسلام وأهله

في الإخبار عن المُكذّبين بالمصدر ﴿نَجۡوَىٰٓ﴾ - حسب الرأي القائل بأنَّه مصدر - مبالغةٌ في الدلالة على كثرة تناجيهم عند استماع القرآن تشاغلًا عنه[1]، أو المراد تناجيهم بعد الفراغ من الاستماع إليه، ليتدبَّروا ما سيقولونه عنه، ويذهب بعض العلماء فيه إلى تقدير مضاف محذوف: أي ذوو نجوى[2]، وجوَّز آخرون أَنْ يكونَ قوله: ﴿نَجۡوَىٰٓ﴾ جمعَ نَجِيّ كقتيل وقَتْلَى[3] وليس مصدرًا.

سرّ التّعبير بالبَدَل في قوله ﴿إِذۡ يَقُولُ﴾:

اتّهام النّبيّ الأكرم بأنّه مسحور من أفظع اتّهاماتهم وأشنع افتراءاتهم

قوله تعالى: ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بدل من قوله ﴿وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ﴾، بدل بعض من كلّ، لأنّ نجواهم غير منحصرة في هذا القول، وإنّما خص هذا القول ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا﴾، بالذّكر لأنّه أشدّ غرابة من بقيّة آفاكهم[4]، وأنّه من أفظع اتّهاماتهم، وأشنع افتراءاتهم؛ إذ لا تلاقي أبدًا بين حال النّبيّ ﷺ وحال المسحور.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 120.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 671، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 176.

(3) السّمين، الدّرُّ المصون: 7/ 365.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 120.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿يَقُولُ﴾:

الدّلالة على تكرّر هذا القول منهم بوجود المضارع

دلّ التّعبير عن فعل القول بصيغة المضارع ﴿يَقُولُ﴾، على تكرّر هذا القول منهم؛ أي: أنّه لم يصدر عنهم مرّة واحدة فقط، ولكنّه تكرّر مرّات ومرّات.

غرض وضع المظهر ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

إبراز الوصف الّذي حملهم على التّناجي بالسّوء في حقّ القرآن الكريم

وضع المظهر وهو لفظ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ موضع المضمر؛ لأجل إبراز الوصف الّذي حملهم على التّناجي بالسّوء في حقّ القرآن الكريم[1]، فوصفوه بما وصفوه به من السّحر والشّعر والكهانة وغيرها، وهو الظّلم لا غير؛ فتناجيهم كان ظُلمًا لا شكّ في هذا، ومن دلالاته كذلك: بيان أنّ تناجيهم هو قولهم: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسۡحُورًا﴾[2].

دلالة تعريف المسند إليه بـ (الْ) ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

التّعبير باسم الفاعل دلالة على رسوخهم في الظّلم

(ألْ) في قوله: ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ هي العهديّة، والمعهودون هم الّذين قالوا عن الرسول ﷺ: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسۡحُورًا﴾، وهم الّذين استمعوا وتناجوا، وفي التعبير عنهم باسم الفاعل ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ دون التّعبير بالفعل (ظلموا) للتّسجيل عليهم، وللدّلالة على رسوخهم في الظّلم، وأنّه فيهم طبع وسجيّة.

غرض القصر في جملة ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسۡحُورًا﴾:

الجملة حكاية لقولهم السّاخر اللّئيم

جملةُ مقول القول هي قوله سبحانه حكاية عن الظّالمين: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسۡحُورًا﴾، وهو قصرٌ موصوفٌ على صفة، وكان غرضهم من هذا القصر، حصر النبي ﷺ ودعوته في كونه مسحورًا، أي: مجنونًا قد ذهب عقله، أو مخدوعًا، فالمسحور كما قال ابن الأعرابي: "الذاهب العقل الّذي أفسد، من قولهم: طعام مسحور إذا أفسد عمله، وأرض مسحورة أصابها من المطر أكثر ممّا

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 437.

(2) الطيّبي، فتوح الغيب: 9/ 309.

ينبغي فأفسدها، وقيل: هو المخدوع؛ لأنّ السحر الحيلة والخديعة، وذلك لأنهم زعموا أنّ محمّدًا ﷺ كان يتعلّم من بعض النّاس، وكانوا يخدعونه بذلك التّعليم"[1].

سر اصطفاء النّفي والاستثناء طريقًا للقصر:

الدلالة على التّأكيد من الفصيح المفيد

في إيثار النّفي والاستثناءِ طريقًا للقصرِ، دلالة على أنّ المراد بالقصر هنا تأكيد المعنى.

سرّ التّعبير بالمضارع ﴿تَتَّبِعُونَ﴾:

لَومُ المخاطبين على ما هم عليه وقت الخطاب

سرّ التّعبير بالمضارع ﴿تَتَّبِعُونَ﴾، مقصود به توجيه اللّوم والعتب على المؤمنين، في وضع التّناجي والإسرار؛ لاستمرارهم على متابعة الرّسول ﷺ، بل الحرص عليها والاستزادة منها، على معنى نحن نلوم عليكم الحالة الّتي أنتم عليها الآن من اتّباعكم ﴿رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾.

سرّ التّعبير بالمقصور نكرة ﴿رَجُلًا﴾:

التّقليل من شأن مقام النُّبُوّة محاولة بائسة منهم

في التّعبيرِ بالنّكرة ﴿رَجُلًا﴾؛ أي: مجرد رجل وليس رسولًا، وهي محاولة بائسة من قبلهم للتقليل من شأنه ﷺ، وتوهين شأنه في عين أتباعه، وحاشاه وحاشاهم، فقد كان الرّسول ﷺ أجل في أعينهم مِن كلّ أحد إلا من ربّه الذي أرسله، وكان أحب إليهم مِنَ النفس والولد والنّاس أجمعين.

سرُّ وصف المقصور عليه باسم مفعول ﴿مَّسْحُورًا﴾:

المسحور هو الّذي سُحِرَ فزال عقله

سرُّ وصف المقصور عليه بـ ﴿مَّسْحُورًا﴾، بصيغة اسم المفعول، تحايل منهم ومحاولة للتّلبيس في شأنه ﷺ على المؤمنين به؛ والمسحور هو الذي سُحِرَ فزال عقله[2]، على معنى: ما هذا الذي تتبعونه إلا رجلًا يخضع لتأثير السحر عليه، حتى صار مسحورًا فاقدًا عقله، إذن فالسحرة الذين أوقعوا به السحر حتى أزالوا عقله

(1) صديق حسن خان، فتح البيان: 7/ 402.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 257.

هم أقوى منه، فكيف يكون رسولًا متَّبَعًا؟ ومن شأن الرسول أن يكون معصومًا من تسلط شياطين الإنس والجن عليه، وهذا المعنى قائم على أن قولهم: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ هو من خطابهم للمؤمنين، وإن كان من جملة خطاب بعضهم لبعض عن التناجي فالمعنى: "أنكم إن اتبعتموه فقد اتبعتم رجلًا مسحورًا"[1].

الكناية في قوله: ﴿رَجُلًا مَّسۡحُورًا﴾

المثليّة تمنع الاختصاص بالرّسالة

من المعاني الّتي وردت في معنى ﴿مَّسۡحُورًا﴾ أنّه من السَّحَر وهو طرف الحلقوم، والرّئة[2]، والمعنى عليه: ما تتبعون إلّا رجلًا يتنفس ويأكل ويشرب مثلكم[3]، فيكون من باب (الكناية)، ويكون شبيهًا بقولهم الذي حكاه القرآن: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ٩٤﴾ [الإسراء: 94]، وأيضًا قولهم المحكي: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ [الفرقان: 7].

الفروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الاتِّباعُ والإيمانُ:

الإيمان يكون في القلب، وهو أسبق وجودًا من الاتّباع

الإيمان هو التصديق واليقين والاعتقاد، وفي التعبير عن التصديق بالإيمان معنى زائد على التصديق وهو الأمان[4]، فالإيمان يحقق الأمان القلبي والنفسي، بل الأمان في الباطن والظاهر، والإيمان يزيد بالحرص عليها، وينقص بالتفريط فيها، أو على حد تعبير أهل العلم: يزيد بالبر وينقص بالجفاء.

وأمّا الاتّباع، فهو من اتبعهُ: بِالتَّشْدِيدِ بِمَعْنَى سار خَلفه[5]، الانقياد والاقتداء، والاتّباع مسبوق بالإيمان، أي: أنّه يكون بعد

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 351.
(2) الرّاغب، المفردات: (سحر).
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 257.
(4) الكفويّ، الكليّات، ص: 212.
(5) الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 35.

الإيمان لا قبله، ويُعبّر عنِ الاتِّباع بالعمل على خطى المنهج، أي: أداء الشرائع والاقتداء بالرسول ﷺ فيما يأمر به وينهى عنه، كما هو ظاهر قوله سبحانه: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٢﴾ [آل عمران: 31 - 32].

والاتِّباع هو المقصود بعمل الصّالحات الّذي يأتي ردف الإيمان في تعبير القرآن كثيرًا، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٧﴾ [البقرة: 277]؛ فالإيمان يكون بالتّصديق القلبيّ، والاتّباع يظهر أثره في اتّباع الشّرائع، وأيضًا فإنَّ الإيمان مقدَّم على الاتّباع في الوجود والاتباع لاحقُه لترتّبه عليه، وعليه أيضًا فالتّعبير بـ ﴿تَتَّبِعُونَ﴾ أنسب، وهو من كلام الكفار للمؤمنين، ومن الطبيعي أن يحاكموهم إلى الظّاهر، وهو الاتّباع فيذكروهم به، وليس إلى الباطن وهو الإيمان، فلا علم لهم به.

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ٤٨﴾ [الإسراء: 48]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبلَها:

افتراءاتهم على الرّسول ﷺ أثناء لقاءاتهم وتناجيهم

بعد أن ذكرت الآية السّابقة خطط المشركين في الاستماع للقرآن، لإلقاء الشّبه فيه، ثمّ اجتماعهم للتناجي في شأنه وفي شأن الرّسول ﷺ، ثمّ خلوصهم إلى القول: إنّكم لا تتّبعون إلّا رجلًا قد ذهب عقله واختلط، بعد ذلك كشفت لنا هذه الآية الّتي أمامنا صورة ممّا كان يجري في اجتماعاتهم وفي نجواهم، حيث كانوا يتسابقون إلى اختلاق الأوصاف الّتي يرونها أنسب وأكثر تأثيرًا وفاعليّة في حملة الإرجاف الّتي نشطوا فيها لتشويه صورته ﷺ أمام النّاس، فراحوا يضربون له الأمثال الّتي هي بعيدة عنه كلّ البعد، فقالوا عنه: هو كاهن وساحر وشاعر، وإنّما يعلّمه بشر، وقالوا عن القرآن: أساطير الأوّلين، فقال سبحانه في التّعجيب من حالهم: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾.

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿ضَرَبُواْ لَكَ﴾: أَصلُ الضَّرب: إيقاعُ شَيْءٍ على شَيءٍ وإصابَتُهُ بِهِ، يُقالُ: ضَرَبَهُ بِالعَصا، يَضرِبُهُ، ضَرْبًا، أَيْ: أَوْقَعَها عليه[1]، والضَّربُ الصِّنف من الأشْياء؛ يُقال: هَذا من ضَربِ ذاك، أَي: من نَحوه، وجمعُه ضروب[2]، وضَربُ الأَمْثالِ: اعْتِبارُ الشَّيْءِ بِالشَّيْءِ وتَمْثِيلُه بِهِ، يُقال: ضَرَبَ اللّه مَثَلًا، أَي: وَصَفَ وبَيَّنَ، قيل مأخوذ: من ضَرْبِ الدِّرْهَم صَوْغُه لإيقاعِ المَطارِق، سُمّيَ بِهِ لتَأْثيره في النُّفوسِ، وقيلَ: إِنَّه مأْخوذٌ من الضَّريبِ أَي المَثِيلِ، تَقولُ: هوَ ضَريبُه، وهُما

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضرب).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ضرب).

مِنْ ضَريبٍ واحِد؛ لأنَّه يَجْعَلُ الأوَّلَ مِثْلَ الثّاني[1]، والمقصودُ بقوله: ﴿ضَرَبُواْ لَكَ﴾ في الآية: بيَّنوا ومثَّلوا؛ تَشْبيهًا لِلشَّيْءِ المُبَيَّنِ بالشَّيْءِ المُثْبَتِ[2].

2) ﴿ٱلْأَمْثَالَ﴾: (مثل): أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على مُناظَرةِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ[3]، والمِثْلُ يُستَعمَلُ للتَّسويَةِ بين شَيئَيْنِ، يُقالُ: هذا مِثْلُه ومَثيلُه، كما يُقالُ: شِبْهُهُ وشَبيهُهُ، ويأتي بمعنى نَفْسِ الشَّيْءِ وذاتِه[4]، والمقصود بالأمثال في الآية: جمع مَثَل، وهو النَّظيرُ والمُشابِهُ.

3) ﴿فَضَلُّواْ﴾: أصلُ (ضَلَّ) يدلُّ على ضَياعِ الشَّيْءِ وَذَهابِهِ في غَيْرِ حَقِّهِ[5]، والضَّلال: الغَيبوبَةُ والخَفاءُ والسَّتْرُ، يُقالُ: ضلَّ الماءُ في اللَّبَن، إذا غاب، وضلَّ الكافِرُ: غابَ عَنِ الحُجَّة، وضلَّ النّاسي، إذا غابَ عَنهُ حِفْظُه[6]، والضَّلالُ أيضًا: الانحرافُ والميلُ عن الطَّريقِ، يُقالُ: ضلَّ فلانٌ، يَضلُّ، ضلالًا: إذا انحرفَ وضاعَ ولم يهتدِ إلى الطَّريق[7]، ورجلٌ مُضَلَّل؛ أي: لا يوفَّق لخيرٍ، وصاحبُ غَواياتٍ وبَطالاتٍ[8]، وضِدُّه: الاهتداءُ، والاستقامةُ، والرَّشادُ، والمقصود بالضَّلالِ في الآيةِ: الحَيْرَةُ في الطَّريقِ وعَدَمُ الاهْتِداءِ، أَيْ: ضَرَبوا لكَ أَشْباهًا كَثيرَةً؛ لِأَنَّهُمْ تَحيَّروا فيما يَعْتَذِرونَ بِهِ عَنْ شَأْنِكِ العَظيم[9].

4) ﴿سَبِيلًا﴾: (سبل): أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على إرسالِ شَيءٍ مِنْ عُلوٍّ إلى سُفْلٍ، وعلى امْتِدادِ شَيءٍ، فالأَوَّلُ مِنْ قيلِكَ: أَسْبَلْتُ السِّتْرَ، وَأَسْبَلَتِ السَّحابَةُ ماءَها وَبِمائِها، وأمّا الثّاني: فالمُمْتَدُّ طولًا: السَّبيلُ وما وَضَحَ مِنْهُ، وَهوَ الطَّريقُ؛ سُمّيَ بِذَلِكَ لِامْتِدادِه[10]، يُذَكَّرُ ويُؤَنَّثُ، والتَّأنيثُ أغْلَبُ، وسَبيلُ اللهِ: طَريقُ الهُدى الذي دَعا إِليهِ، وجمعُه: سُبُلٌ[11]، والمقصودُ بالسَّبيل في الآية: الطَّريق[12].

---

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (ضرب).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 121.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مثل).
(4) الخليل، العين، الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم: (مثل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضلّ).
(6) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ضلَّ).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ضلَّ).
(8) الخليل، العين: (ضلَّ).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 122.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبل).
(11) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (سبل).
(12) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 122.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

وَعِيدُ الله سبحانه للمُشركين وإيناسُه لرسولِه الأكرم

يقولُ الحقُّ سبحانه: انظُرْ يا مُحَمَّدُ ﷺ مُتعَجِّبًا كيف مثَّلَ لك المُشركونَ الأمثالَ الباطِلةَ، وشبَّهوا لك الأشباهَ، فشَبَّهوك بالمَسْحورِ، وقالوا عنكَ: شاعِرٌ، مَجنونٌ، ساحِرٌ، كذّابٌ، فَضَلَّ المُشرِكونَ عن طريقِ الحقِّ بضَربِ هذه الأمثالِ الباطِلةِ المُتناقِضةِ لكَ وتَحيَّروا فلم يَقدِروا أن يَسلُكوا طَريقًا يُخرِجُهم مِن هذا الضَّلالِ، ويوصِلُهم إلى الحَقِّ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئناف في جملة ﴿ٱنظُرۡ﴾:

حال المشركين يدعو إلى العجب

جملة ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ مستأنفة استئنافًا ابتدائيًّا[2]، مسوقة لأجل التعجيب من حالهم، وجرأتهم على الترويج للكذب والافتراء، وتحذير كل مَن يصلح للخطاب من سلوك نفس سبيلهم، وإلا فليحذر هذا المقتدي بهم، أن ينال ما نالوا من الوصف بالظلم والضلال، وما أدراك ما عقاب الظالمين الضالين؟

غرض التّعبير بأسلوب الأمر:

الأمر بالفعل (انْظُرْ) دالّ على وضوح كذبهم وافترائهم

التّعبير بفعل النظر ﴿ٱنظُرۡ﴾ إشارة إلى أن كذبهم وافتراءهم على الرّسول ﷺ فيما وصفوه به مِن أوصاف ملؤها الحقد والحسد، ولا وجودَ لها في الواقع، قد بلغ من الوضوح أن يكون منظورًا[3] مشاهدًا، بحيث لا تخطئُه العين.

غرض الاستفهام بـ ﴿كَيۡفَ﴾:

الاستفهام مراد به التّعجيب من أفعالهم وأقوالهم

قوله: ﴿كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾، المراد بالاستفهام هنا التّعجيب مِن جرأتهم على الافتراء والكذب، وبيان أنّ أمرهم بما بلغه من

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 613، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 273، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 459.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 121.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 121.

الاستغراب، استأهل أن يساق التّعجيب منه في هيئة هذا السّؤال: ﴿كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾، أي: انظر كيف اجترأ هؤلاء الضلّال، فضربوا ﴿لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾، وهي الأشباه الّتي هي أبعد شيء عن صفتك من قولهم - مشبّهين إيّاك -: ساحر وشاعر ومجنون ونحوه[1].

غرض التّعبير بالاستعارة في ﴿ضَرَبُواْ﴾:

الضّرب مستعار للإبراز والبيان

وذلك أنّ أصل معنى (ضرب) وضع الشّيء وتثبيته، يقال: ضرب خيمة، إذا ثبت قوائمها في الأرض وشدَّها، ويُطلق كذلك على صوغِ الشيء على حجم مَخصوص، يقال: ضرب دنانير، وهو هنا مُستعار للإبراز والبيان، تشبيهًا للشيء المُبْرَز المُبين بالشيء المثبت[2]، على طريقة الاستعارة التّصريحيّة التّبعيّة.

غرض تقديم الجارّ والمجرور ﴿لَكَ﴾:

تقديم العلّة علَى المعلول، من فصيح البيان

قدَّم الجار والمجرور ﴿لَكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ على المفعول ﴿ٱلْأَمْثَالَ﴾ تقديمًا للعلّة على المعلول؛ بإبراز كون العلّة في ضرب هذه الأمثال، هو أنّها ﴿لَكَ﴾ أي: لك يا رسول الله عليك صلاة الله وسلامُه؛ لأنّهم حاروا في شأنك، وفي إقبال النّاس على دعوتك، حتى بدأ الأتْباعُ يكثرون من حولك رغم ما يعانون منِ اضطهاد وتنكيل،"واللام في ﴿لَكَ﴾ للتعليل والأَجَل، أي: ضربوا الأمثال لأجلك، أي: لأجل تمثيلك، أي: مثلوك، يقال: ضربت لك مثلًا بكذا، وأصله مثلتك بكذا، أي: أجد كذا مثلًا لك"[3].

سرُّ تعريف المفعول ﴿ٱلْأَمْثَالَ﴾ بـ (ألْ):

بيان أنّ إفادة الشّمول والعموم هي سرّ جمع لفظ (الأمثال)

وذلك أنّ الّذي صُرِّح به هنا، وحُكيَ عنهم هو مثل واحد، وهو قولهم عنه: رجل مسحور؛ "لأنّ المقصود التّعجيب مِن هذا المثل

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 437.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 121.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 121.

ومن غيره، فيما يصدر عنهم من قولهم: هو شاعر، هو كاهن، هو مجنون، هو ساحر، هو مسحور"[1].

دلالة الفاء مع الفعل ﴿فَضَلُّواْ﴾:

الترتيب والتّعقيب ذو أثر في المعنى مفيد

جملة ﴿فَضَلُّواْ﴾ معطوفة على جملة ﴿ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ ومترتبة عليها، وهي مفيدة أن حصول الضلال أثر سريع لضربهم الأمثال بالباطل لرسول الله ﷺ، والمراد بالضلال هنا هو الضلال الخاص بافترائهم على الرسول ﷺ، وهو زائد فوق ضلالهم العام؛ لأنّهم في الأصل ضالّون حتى قبل هذا الافتراء وضرب المثال.

دلالة التّعبير بالماضي ﴿فَضَلُّواْ﴾:

ضلالهم محقّقٌ ثابت، لا ريب فيه

عبَّر بالماضي لإكساب الحكم بالضّلال ما تفيده صيغة الماضي، من تحقّق الوقوع وتأكيده، فوقوعهم في الضّلال كأثر لما وقع منهم من افتراء، هو أمر مُحقّق ومُؤكّد.

دلالة ﴿فَضَلُّواْ﴾ بين الحقيقة والمجاز:

الضّلال حيرة وتمزّق يؤول إلى فقد السّبيل المنجي

الأوّل: أن يكون التّعبير على حقيقته وأصل معناه، وهو الحيرة في الطّريق وعدم الاهتداء[2]، والمعنى: أنّهم ضلّوا في الوصولِ إلى طريقةٍ يُفسدون بها أمرك، ويخذلون النّاس من خلالها عن الإيمان بك، وذلك أنّهم ركبوا كلّ حيلة معه ﷺ فلم يفلحوا في الوصول إلى غايتهم.

والثّاني: أن يكون المراد بالضّلال معنى مجازيًّا، وأنّه جزء من الاستعارة التّمثيليّة في جملة ﴿ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾، وسيظهر دوره مع الكلام عن الاستعارة التّمثيليّة، عند الكلام عن قوله ﴿سَبِيلًا﴾.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 121.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 122.

دلالة الفاء في ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾:

الضّلال يسبّب عدم الاهتداء لأيّ سبيل صحيح

الفاء عاطفة، دالَّة على ترتيب عدم استطاعتهم على ضلالهم وحيرتهم، في تنكُّب طرق الافتراء للنيل من رسول اللّه ﷺ.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾:

جهود المشركين كذبٌ وافتراءٌ

دلَّ التّعبير بالمضارع في قوله: ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾ على مدى جهدهم المستمر المبذول في سبيل الوصول إلى غايتهم، فلم يستطيعوا، والسين والتاء الزّائدتان في قوله: ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾ للدلالة على عِظم البذل والجهد، وكثرة التّردّد بين الطرق التي ظنوها فاعلة للنيل منه ﷺ، فباءت جميعها بالفشل، وباؤوا بعدها باليأس والفشل.

دلالة ﴿سَبِيلًا﴾ بين الحقيقة والمجاز:

سبيل المعنى، كسبيل الحسّ

يُحمل قول الذِّكر الحكيم: ﴿سَبِيلًا﴾ على الحقيقة أو المجاز، أما إن كان المراد بالسبيل الحقيقة فمعناه سبيل الهدى والإيمان، وذلك مبنيٌّ على أنّ المراد بالضلال معناه الحقيقي، وإلا يكون الكلام على التمثيل والمجاز (استعارة تمثيليّة)؛ أي: بأن يكون تمثيلًا لحال ضلالهم بحال الذي وقف في فيفاء، لا يدري من أية جهة يسلك إلى المقصود، والمعنى على هذا: أنّهم تحيروا كيف يصفون حالك للناس لتوقّعهم أنّ النّاس يكذّبونهم، فلذلك جعلوا ينتقلون في وصفه من صفة إلى صفة، لاستشعارهم أنّ ما يصفونه به باطل لا يُطابقه الواقع(1).

۞ الفروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

السَّبيلُ والطَّريقُ:

اقتران لفظ السبيل بالخير أكثر، واقتران لفظ الطريق بسياق الشّر أكثر، وكلاهما يصلح للحالين

قال الزّركشي في التّفريق بينهما: قد كثر استعمال السبيل في القرآن - في الخير - حتى إنه وقع في الربع الأول منه في بضع وخمسين موضعًا: أولها قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 122، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 59.

ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 273]، ولم يقع ذكر الطريق مرادًا به الخير إلا مقترنًا بوصف، أو بإضافة، ممّا يخلصه لذلك كقوله تعالى: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٠﴾ [الأحقاف: 30](1)، لكنه قد يُستعمل في غير الخير؛ كما في هذه الآية: ﴿فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا﴾، على أن المراد أنّهم لا يستطيعون أن يسلُكوا معه سبيلًا من سُبل الشّر المُجدية معه بالتأثير السّلبي، فكلّ سبُلهم التي سلكوها قدْ بارت، وهكذا أيُّ سبيل آخر مِن جنسها لو سلكوه فسيبور أيضًا؛ لأنّه لن يكون له تأثير عليه ﷺ، وعلى أنّ كون المراد به الهداية والإيمان، كما مضى ذكره كاحتمال، فإنّه يكون أيضًا مستعملًا في الخير، لكنّه الخير المنفي عن المخبر عنهم، وقال الرّاغب في التفريق بينهما: السبيل الطريق التي فيها سهولة(2)، وعلى ذلك فهو أخص من الطريق، فكلّ سبيل طريق، وليس كلّ طريق سبيلًا.

(1) الزّركشي، البرهان في علوم القرآن، 4/ 80، والسيوطي، الإتقان: 2/ 264
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 395.

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ٤٩﴾

[الإسراء: 49]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

حديث عن البعث والمعاد بعد حديث عن الإلهيات والنبوّات

بعد أن تكلّمت الآيات السّابقة عن أهمّ شؤون الاعتقاد إقرارًا لصحيحها، وردًّا لافتراءات المفترين في الإلهيات أولًا، ثم في النبوات ثانيًا، ذكرت ثالثًا ما يتعلق بمعتقد البعث والمعاد؛ لأنَّه المعتقد الذي ضل فيه ناس كثيرون، وآثروا الكفر على الإيمان بسببه، فساقت هذه الآية شبهات القوم في إنكار المعاد والبعث والقيامة، وبجانب إنكارهم البعث وعدم تصديقه واستغرابهم إياه، فقد اعتبروه شبهة كبرى تقدح في نبوته ﷺ، ودعمًا وتصديقًا لوصفهم إياه بكونه مسحورًا فاسد العقل، فذكروا أنَّ مِن جملة ما يدل على فساد عقله، وأنَّهم صادقون في وصفهم إياه بذلك أنّه يدَّعي أنَّ الإنسان بعد ما يصير عظامًا ورفاتًا، فإنَّه يعود حيًّا عاقلًا كما كان[1]، فأشارت الآية إلى حكايتهم هذه، وانتقلت لترد على شبهاتهم حول البعث، في سياقٍ وظِّف له عدد مِنَ الآيات، كان أوّلها: عرض دعواهم وتصويرها، فقال سبحانه: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَرُفَٰتًا﴾: (رفت): أَصلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على فَتٍّ وَلَيٍّ، يُقالُ: رَفَتُّ الشَّيءَ بيَدي، إذا فَتَتُّهُ حَتَّى صارَ رُفاتًا، وارْفَتَّ الحَبْلُ، إذا انْقَطَعَ، واشْتُقَّ مِنْهُ رَفَتَ عُنُقَه، إذا دَقَّها ولَفَتَها ولَواها[2]، والرُّفاتُ: الحُطام مِنْ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 352.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رفت).

كُلِّ شَيْءٍ تكسَّر، يُقالُ: رَفَتَ العَظْمُ يَرْفِتُ رَفْتًا: صارَ رُفاتًا[1]، وَوَزْنُ فُعالٍ يَدُلُّ على مَفْعولِ أَفْعالِ التَّجْزِئَةِ، مِثْلَ: الدُّقاقِ، والحُطامِ، والجُذاذِ، والفُتاتِ، والمراد بالرُّفاتِ في الآية: الأَشياءُ المَرْفوتةُ، أَي: المُفَتَّتَةُ[2].

2) ﴿جَدِيدًا﴾: أصلُ (جَدَّ): يَدُلُّ على القَطْعِ، يُقالُ جَدَدْتُ الشَّيْءَ جَدًّا، وَهوَ مَجْدودٌ وَجَديدٌ، أَيْ مَقْطوعٌ، وَقَوْلُهُم: ثَوْبٌ جَديدٌ، كَأَنَّ ناسِجَهُ قَطَعَهُ الآنَ، هذا هو الأَصلُ، ثُمَّ سُمّيَ كُلُّ شَيْءٍ لَمْ تَأْتِ عليه الأَيّامُ جَديدًا؛ ولذلكَ يُسَمَّى اللَّيْلُ والنَّهارُ الجَديدَيْنِ والأَجَدَّيْنِ؛ لِأَنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنْهُما إِذا جاءَ فَهوَ جَديدٌ[3]، والجِدَّةُ: نَقيضُ البِلى، والجَمْعُ أَجِدَّةٌ وجُدُدٌ وجُدَدٌ[4]، والجديد: ما لا عهد لَك بِه، وَلِذَلك وصِفَ المَوْتُ بالجديد[5]، والمقصود بالجَديد في الآية: الشَّيْءُ الَّذي في أَوَّلِ أَزْمانِ وُجودِه.

❁ المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

القــول بإنكــار البعث هو غاية الإنـكــار لأدلّــة الإمكان والوقوع

قال المشركون منكرين البعث مُستبعدين له: أئذا صِرْنا عِظامًا وتُرابًا، وقد بَلِيَت أجسادُنا في قُبورنا، فهل يَبعَثُنا اللّهُ أحياءً من جديدٍ كما كنّا قبل مَوتِنا؟! هذا أمرٌ مُحالٌ لا يُمكِنُ وُقوعُه، وهذا القولُ منهم هو غايةُ الإنكارِ لأدلَّةِ الإمكان والوقوع، أمّا الإمكان فلأنَّ اللّه الَّذي خلَقَ النّاس ابتداء باعترافهم قادر على إعادتهم وبعثهم من قبورهم للحساب؛ لأنَّ الإعادة أيسر من الابتداء عادة، وأمّا الوقوع فلأنَّه تعالى عادلٌ فلا يعقل أن يترك المحسن دون إثابة، والمسيء دون عقاب، فلا بدَّ مِنَ البَعْثِ لينال كلٌّ جزاء ما قدَّمت يداه[6].

---

(1) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (رفت).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 124.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (جدد).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (جدد).
(5) ابن سيده، المحكم: (جدد).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 614، 615، والسّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 314، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 273، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 84، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 459، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 5/ 764.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الواو في جملة: ﴿وَقَالُوٓاْ﴾:

تتابع مقالات المجرمين تبشيع لعملهم المُهين

الواو عاطفة لهذه الجملة: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ - فيما يظهر - على جملة: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ على اعتبارها مقولة أخرى ممّا تناجوا به.

دلالة التّعبير بالماضي ﴿وَقَالُوٓاْ﴾:

التّعبير بالماضي دلّ على تحقّق الوقوع واستمرارهم على القول الشنيع

دلّ التّعبير بالفعل قالوا ماضيًا على تحقّق وقوع هذا القول منهم، وليس على أنّهم قالوه في الماضي فقط؛ لأنّ منكري البعث - الذين ماتوا على كفرهم - ظلوا على حالتهم هذه مِنَ الإنكار حتّى مماتهم.

غرض الإسناد إلى الغيبة في ﴿وَقَالُوٓاْ﴾:

الإسناد إلى ضمير الغيبة وجمعه إشارة إلى اتّفاق المتناجين عليه

الغرض من إسناد الفعل إلى ضمير الغيبة في ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ هو كونهم معروفين، فهم الظالمون المعنيون بقوله سبحانه: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾، وفي التعبير بـ ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ بالإسناد إلى ضمير الجمع، إشارة على أنّ هذا القول قد صدر مِن جميعهم في مجالس التناجي، أو أنه صدر مِن بعضهم وصدَّق الباقون عليه، ولا غرو فكلّ الكفار حتمًا لا يؤمنون بالبعث.

غرضُ التّعبير بأسلوب الاستفهام ﴿أَءِذَا﴾:

الاستفهام بالهمزة غرضه الإنكار والاستبعاد

سيق هذا الاستفهام منهم لغرض الإنكار والاستبعاد، فلئن كان المشركون يثبتون وجود الخالق، لكنهم يشركون معه في العبادة آلهة أخرى، غير أنّهم في مسألة البعث قد كانوا مطبقين على إنكاره واستبعاده، فـ"الهمزة للاستفهام الإنكاريّ، مفيدة لكمال الاستبعاد والاستنكار للبعث، بعد ما آل الحال إلى هذا المآل، كأنهم قالوا: إن ذلك لا يكون أصلًا"[1].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 87.

دلالة التّعبير بالماضي ﴿كُنَّا﴾:

(كان) بمعنى صار، وإيثار الماضي في التّعبير بها لكون الموت أمرًا محقّقًا

الظاهر أن (كان) هنا بمعنى: صار، كالتي في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٣٤﴾ [البقرة: 34]، أي: وصار من الكافرين، والمعنى: (أئذا صرنا عظاما ورفاتا ...)؟ ودلالة التعبير بفعل الكون ماضيًا، هو كون أمر الموت وتحول الجسد إلى عظام ورفات لم يكن محل إنكار بالنسبة لهم، بل محل تحقّق وتثبّت؛ لكونه واقعًا مشاهدًا.

دلالة تقديم الظّرف ﴿أَءِذَا كُنَّا﴾، وسرّ النّص عليه:

تقديم الظّرف للاهتمام، وذِكْرُه ليس قيدًا حقيقيًّا للإنكار

أمّا عن تقديم الظّرف من قوله: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا﴾، فلأجل الاهتمام به؛ لأن مضمونه هو دليل الاستحالة في ظنّ منكري البعث[1]، وتقييدُه بالوقت المذكور ليس لتخصيصه به، فإنَّهم منكرون للإحياءِ بعدَ الموتِ، وإنْ كانَ البدنُ على حالِه، بل لتقويةِ الإنكارِ للبعثِ بتوجيهه إليه في حالةٍ منافيةٍ له[2].

غرض التّعبير باسم (كان) ضمير جمع (نا):

بيان إيقانهم بأنّهم لا محالة إلى الموت صائرون

أوثر التّعبير بضمير الجمع ﴿كُنَّا﴾ في جملة: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا﴾؛ لأنّه من واقع التجربة والمشاهدة، بحيث لا يحتاج إلى دليل من النقل أو العقل، أنّ الموت لا يستثني أحدًا، فلا محالة أن جميعهم صائرون إلى هذا المصير، وقد كانوا يتداولون هذا ويتحدثون به، وقد أخرج الطبراني في حديث مطوَّل عن أخبار قسّ بن ساعدة خطيب العرب عَنِ ابْنِ عَبّاسٍ، قالَ: قَدِمَ وَفْدُ عَبْدِ القَيْسِ عَلَى رَسولِ اللّه ﷺ، فَقالَ: "أَيُّكُمْ يَعْرِفُ قُسَّ بْنَ ساعِدَةَ الإياديَّ؟" قالوا: كُلُّنا نَعْرِفُهُ يا رَسولَ اللّه، قالَ: "فَما فَعَلَ" قالوا: هَلَكَ، قالَ: "فَما أَنْساهُ بِعُكاظٍ في الشَّهْرِ الحَرامِ وَهوَ عَلَى جَمَلٍ أَحْمَرَ وَهوَ يَخْطُبُ النّاسَ، وَيَقولُ:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 123.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 177.

أَيُّها النّاسُ، اجْتَمِعوا واسْمَعوا وَعوا، مَنْ عاشَ ماتَ، وَمَنْ ماتَ فاتَ، وَكُلُّ ما هوَ آتٍ آتٍ، إنَّ في السَّماءِ لَخَبَرا، وَإنَّ في الأَرْضِ لَعِبَرًا، مِهادٌ مَوْضوعٌ، وَسَقْفٌ مَرْفوعٌ، وَنُجومٌ تَمورُ، وَبِحارٌ لا تَغورُ، وَأَقْسَمَ قُسٌّ قَسَمًا حَقًّا، لَئِنْ كانَ في الأَرْضِ رِضًا لَيَكونَنَّ بَعْدَهُ سُخْطٌ، إنَّ للّه لَدينًا هوَ أَحَبُّ إلَيْهِ مِنْ دينِكُمُ الَّذي أَنْتُمْ عَلَيْهِ، ما لي أَرَى النّاسَ يَذْهَبونَ وَلا يَرْجِعونَ؟ أَرَضوا بِالإِقامَةِ فَأَقاموا، أَمْ تُرِكوا فَناموا؟" ثُمَّ قالَ ﷺ: "أَمِنْكُمْ مَنْ يَرْوي شِعْرَهُ؟" فَأَنْشَدَهُ بَعْضُهُمْ:

في الذّاهِبينَ الأَوَّلينَ *** مِنَ القُرونِ لَنا بَصائِرْ
لَمّا رَأَيْتُ مَوارِدًا *** لِلْمَوْتِ لَيْسَ لَها مَصادِرْ
وَرَأَيْتُ قَوْمي نَحْوَها *** يَسْعَى الأَصاغِرُ والأَكابِرْ
لا يَرْجِعُ الماضي إلَيَّ *** وَلا مِنَ الباقينَ غابِرْ
أَيْقَنْتُ أَنّي لا مَحالَةَ *** حَيْثُ صارَ القَوْمُ صائِرْ(1)

غرض تنكير خبر (كان):

إيثار التّنكير لقصد العموم

التَّنكير في خبر كان ﴿عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ لإفادة الشيوع والعموم، فهم يشاهدون أن جميع مَن يموت يصير عظامًا ورفاتًا.

دلالة العطف في لفظ ﴿وَرُفَٰتًا﴾:

الجمع بين المتعاطفين، سوّغ العطف بالواو دون حرف التّرتيب

عطف ﴿وَرُفَٰتًا﴾ على ﴿عِظَٰمًا﴾ بالواو، لاجتماع كليهما في الوقوع، فالجسد بعد الموت يتحلّل حتّى يصير عظامًا ثم رفاتًا، فكونه (رفاتًا) مترتِّب على كونه (عظامًا)، فالعظام هي تلك المتصلبة بعد خلوها من اللحم بعد تحلُّله بالموت، "والرفات ما تَكسَّر وبلي" مِن هذه العظام، وكأنَّه آثر العطف بينهما بالواو المفيدة للجمع، إشارة إلى تداخل المرحلتين معًا بحيث لا يبدو أنّ هنالك فاصلًا أصلًا بينهما يستأهل العطف بحرف ترتيب كـ (الفاء أو ثم).

(1) الطبّرانيّ، الأحاديث الطّوال، حديث قسّ بن ساعدة الإياديّ، رقم: (22)، ص: 230.

غرض التّعبير بأسلوب الاستفهام ﴿أَءِنَّا﴾ وتكراره:

الاستفهام الآخر غرضه التّعجب والإنكار

وذلك أنه قد سبقه قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَامٗا وَرُفَٰتًا﴾، وهو كما مضى ذكره استفهام إنكاري "متسلط على جملة ﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾"[1]، وقد يَحمِل الاستفهام معنى التعجب مع الإنكار، فيكون استفهامًا إنكاريًّا تعجبيًّا[2].

سرّ إعادة الاستفهام في السّياق:

تتابع الإنكار آية العناد

لعل سائلًا يسأل: لمَ أعيد الاستفهام في الجملة الجديدة ﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ رغم أن الاستفهام السابق مسلّط أساسًا على ﴿لَمَبۡعُوثُونَ﴾، وأيضًا لم يختلف غرض الاستفهام الثاني عن غرض الاستفهام الأول[3]، والأوجه أن يُقال: إنه أفرد كل جملة منهما باستفهام للإشارة إلى أهلية كل واحدة منهما باستقلال التّعجب والإنكار من قبل منكري البعث، ولذا لم يحمل الجملة الثانية على استفهام الجملة الأولى وأفردها باستفهام مستقل.

غرض التّوكيد بأكثر من مؤكّدين:

حشد المؤكّدات في الجملة تأكيد لإنكارهم

ومما يلفت هنا حشدُ المؤكدات في الجملة الاستفهامية، حيث أُكِّدت بـ (إنَّ) و(اللام) واسميَّة الجملة، رغم أنَّها واردة في محل إنكار البعث وليس إثباته، والجواب: قيل: إن تحلية الجُملةِ بإنَّ واللّامِ لتأكيدِ الإنكارِ، لا لإنكارِ التأكيدِ[4]، وقد حرص القرآن الكريم عند عرض عقيدة البعث أن يسوق الحديث عنها مؤكَّدًا، كما في قوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧﴾ [التغابن: 7]، فلما كان الإخبار عن البعث إخبارًا مؤكَّدًا، كان المناسب أن يقابل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 123.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4397.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 177.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 177.

في الإنكار بمثل تأكيده، فأدخلوا (إنّ) وما تلاها من مؤكدات وفاء للغرض[1].

غرض إيراد اسم (إنّ) ضمير مُتكلّم جمعًا:

آفتهم الكبرى جميعًا إنكار البعث

غرض إيراد اسم إنّ ضمير متكلّم جمعًا في قوله: ﴿أَءِنَّا﴾ دلالة على أنّ الإنكار واقع من جميعهم؛ إذ ليس منهم مَن كان يصدّق بالبعث بعد الموت، وكانوا مُطبقين على إنكاره، كما أخبر عنهم القرآن بذلك، في كثير مِن مَواضعه، ومنها قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ٧٩﴾ [يس: 78 - 79].

دلالة التّعبير بخبر (إنّ) اسما مفعولًا جمعًا:

وورود خبر (إنّ) اسمًا مفعولًا جمعًا، أفاد الدلالة على أنَّ إنكار البعث واقع من جميع المشركين.

غرض تنكير لفظ ﴿خَلۡقًا﴾:

التّوافق بين التّنكير ومقام الإنكار

وغرض التّنكير فيما يبدو هو تأكيد معتقدهم في استبعاد البعث وإنكاره، ولذلك قالوا ﴿خَلۡقًا﴾ يعني أيّ خلق، فلم يعتنوا أن يقولوا مثلًا (إنسانًا)؛ لأنّهم مُنكرون للفكرة أصلًا، فقد اختير التّنكير ليكون أنسب لمقام الإنكار وأوفق.

سرُّ تقييد الخبر بالصّفة ﴿جَدِيدًا﴾:

الإغراق في الاستبعاد بإنكار الخلق الجديد

إصرارهم على الوصف ﴿جَدِيدًا﴾، يؤكّد استبعادهم البعث والإعادة؛ لأنّ إعادة العظام والرُّفات في نظرهم مستحيلة، فلا يبقى إلّا أن يخلقوا من جديد، وهذا في نظرهم أبعد وأبعد، وهل إذا كان الخلق جديدًا، سيكونون هم أنفسهم؟ كيف والخلق إنّما يكون على غير مثال سابق.

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/ 209.

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى عظمة القرآن في منهجه الجدليّ، ودقّته في طرح أدلّته، وخصوصًا في جواب هذه المسألة، فالقرآن عادةً يتحدّث عن بعث وعن إعادة، وليس عن خلق جديد، وقد ناقشهم القرآن الكريم، وأفحمهم في استبعاد مسألة الإعادة؛ لأنّ من يستبعد الإعادة، فإنّه يجب عليه أن يستبعد الخلق الجديد، من باب أولى، وإذا كانوا مقرّين بأنّ اللّه تعالى هو الّذي خلقهم، بدليل وجودهم، وهو ما لم ينكروه بل أقرّوا به، كما حكاه القرآن في بعض آياته، ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزّخرف: 87] فكان لزامًا عليهم أن يؤمنوا بالإعادة؛ لإيمانهم بالخلق الأوّل، وإلّا كانوا منتكسي التّفكير، فاقِدي العقل المنير، وهاك برهانًا قرآنيًّا ملزمًا لهم قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الرّوم: 27]، وكلّ شيء على اللّه هيّن، لكنّه عبَّر باسم التّفضيل ﴿أَهْوَنُ﴾ [الرّوم: 27]، إلزامًا لهم وتسجيلًا عليهم، على مبدأ: من يقدر على الأصعب، يقدر حتمًا على الأهون.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البَعْثُ والخَلْقُ:

الخلق إبداع الشّيء وابتداؤه على غير مثال سبق، والبعث إعادته بعد موته

يستعمل لفظ الخلق في إبداع الشّيء من غير أصل ولا احتذاء، قال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: 1]، أي: أبدعهما، بدلالة قوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: 117]، ويستعمل في إيجاد الشّيء من الشّيء نحو: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النّساء: 1]، و: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [النّحل: 4][1]، أما البعث فأصله إثارة الشّيء وتوجيهه[2]، ومنه بعث الرّسل بمعنى توجيههم إلى مَنْ أُرسلوا إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النّحل: 36]؛ أي:

(1) الراغب، المفردات: (خلق).

(2) الراغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللغة: (بعث).

وجَّهنا وأرسلنا، وعقيدة البعث تعني إخراج الناس من قبورهم وتوجههم إلى المحشر للحساب، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [يس: 51 - 52] فالخلق هو ما كان ابتداء على غير مثال سابق، والبعث هو إعادة ما خلق من قبل، وإخراجه من قبره ليوم الحساب.

﴿۞قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ۝٥١ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٥٢﴾ [الإسراء: 50 - 52]

۞ مُناسَبَةُ الآياتِ لِمَا قَبْلَها:

الردُّ على شُبُهات مُنكِري البعثِ

لـمّا جرت عادة القرآن بإثبات المعاد بالحُجج الدَّامغة، واستفهم الكفّار عن إمكانِ بعْثِهم مُنكرين ذلك بشبهةٍ تَحوُّل أجسادهم إلى عظام مُفتَّتةٍ وترابٍ؛ أمر اللّه رسوله بأن يُجيبهم عن شُبهتهم بهذه الآياتِ المُقرِّرة للقدرة الإلهية على البدء والإعادة، فدفع اللّه سبحانه مَثَلهم هذا بمَثَلٍ هو أشدُّ إنكارًا عندهم للبعث[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حِجَارَةً﴾: (حرج) أصل واحد مُطَّرد تدلُّ تصريفاته على المنع والإحاطة، والبابُ كلُّه محمول على الحَجَرِ المعروف، ومأخوذ منه؛ لشدَّته وصلابته[2]، وورد ذِكْرُ الحجارة في وقود جهنَّم بقوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ﴾ [البقرة: 24]، كما وصف اللّه بها قلوب الكفّار بقوله: ﴿فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ﴾ [البقرة: 74][3]، ومعنى قوله ﷻ: ﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً﴾ على أنَّه جمْعُ حَجَرٍ، وهو الجوهر الصُّلب المعروف.

2) ﴿حَدِيدًا﴾: أصله (حدَّ)، والحاء والدّال أصلان؛ الأوّل: المنع،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 439، والخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 8/ 498.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حجر).
(3) الراغب، المُفردات: (حجر).

والثاني: طَرَف الشّيء، فالحدُّ: الحاجز بين الشّيئَيْن، وفلان محدود؛ إذا كان ممنوعًا، وسُمِّي الحديد حديدًا لامتناعه وصلابته وشدَّته[1]، وحدَّدْتُ السِّكين: رقَّقت حَدَّه، ثمّ يُقال لكلِّ ما دقَّ في نفسه من حيث الخِلقة أو من حيث المعنى كالبصر والبصيرة: حديدٌ[2]، والحديد: الجوهر المعروف، سُمّي بذلك لأنَّه منيع؛ أيْ: صُلب[3]، وهو المعنى المُراد في الآية الكريمة.

3) ﴿خَلْقًا﴾: (خلق) مِنَ الفِعْلِ خَلَقَ يَخْلُقُ خَلْقًا، والخاءُ واللّامُ والقافُ أصْلانِ: أحدُهما تقديرُ الشَّيءِ، والآخَرُ ملاسَةُ الشَّيءِ، ومن ذلك: الخُلُقُ؛ وهي السَّجِيَّةُ؛ لأنَّ صاحبه قد قُدِّرَ عَلَيْهِ، وَأَمَّا الأَصْلُ الثّاني؛ فَصَخْرَةٌ خَلقاءُ؛ أيْ: مَلْساءُ، وَمِنْ هذا البابِ أَخْلَقَ الشَّيْءُ، وَخَلِقَ؛ إذا بَلِيَ[4]، والخَلْقُ المُراد في هذه الآية من الأصل الأوّل، وهو مصدر يُراد به المخلوقُ[5] دون تعيين.

4) ﴿فَطَرَكُمْ﴾: أصلُهُ (فطر)، والفاء والطّاء والرّاء أصلٌ صحيح يدلُّ على فتح شيء وإبرازه، ومن ذلك الفِطْرَةُ: وهي الخِلْقَةُ[6]، وفطَرَ اللّه الخلقَ بمعنى: إيجاده وإبداعه على هيئة مُترشِّحَةٍ لفعل من الأفعال[7]، وسائر ما في القرآن من مفردات التركيب - باستثناء معنى الشّقِّ - هو بمعنى الخَلْق[8]؛ ومنه الآية الكريمة؛ أيْ: خَلَقَكم أوَّل مرَّةٍ.

5) ﴿فَسَيُنْغِضُونَ﴾: أصلُه (نغض) رأسُهُ يَنْغَضُ ويَنْغِضُ نَغْضًا ونُغوضًا؛ أي: تحرَّك، والنّون والغَيْن والضّاد أصلٌ صحيح يدلُّ على هزٍّ وتحريكٍ[9]، وترجع اشتقاقات هذا الأصل إلى تحرُّك الشَّيء حركةً مختلفةً؛ لخِفَّته ورَخاوته، أو لضعف امتساكه واشتداده بأصله، كتحرُّكِ (السِّنِّ والرَّحل والكَتِفِ والرَّأس) حركةَ اهتزازٍ بقوَّةٍ، ومنه إنغاض الرَّأس الموصوف في هذه الآية: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾؛ أيْ: تحريكها تعجُّبًا واستبعادًا[10].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حدّ).
(2) الراغب، المُفردات: (حدّ).
(3) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (حدد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلق).
(5) الرّاغب، المُفردات: (خلق).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فطر).
(7) الرّاغب، المُفردات: (فطر).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (فطر).
(9) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نغض).
(10) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (نغض).

6) ﴿وَتَظُنُّونَ﴾: أصله (ظنّ)، والظّاء والنّون أصل صحيح يدلُّ على معنيَين مختلفَين: يقين وشكٍّ[1]، وهو اسمٌ لما يحصل عن أمارة، ومتى قويتْ أدَّتْ إلى العلم، ومتى ضعفتْ جدًّا لم يتجاوز حدَّ التَّوهُّم[2].

والظنُّ في الأصل: قوّة أحد الشّيئيّن على نقيضه في النّفس، والفرق بينه وبين الشّكِّ: أنَّ الشّكَّ هو التردُّد في أمريْن لا مَزيَّة لأحدهما على الآخر[3]، ويحتمل الظنُّ في قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أن يكون الظَّنُّ على بابه من الشَّكِّ أنَّهم لم ينفصلوا عن الدُّنيا إلّا في زمنٍ قليلٍ؛ إذ كانوا في ظنِّهم نائمين، كما يحتمل أيضًا أن يكون هنا بمعنى اليقين، من حيث علموا أنَّ ذلك مُنقضٍ مُتصرِّمٌ[4].

7) ﴿لَّبِثْتُمْ﴾: (لبث) واللّام والباء والثّاء حرف يدلُّ على تَمَكُّثٍ، يُقال: لَبِثَ بالمكان: أقام[5]، وتدور اشتقاقاته حول ملازمةٍ للمكان ممتدَّةٍ، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعٗا ٢٥﴾ [الكهف: 25]، وليس في القرآن من التَّركيب إلا اللُّبث المكانيُّ أو الزَّمانيُّ[6]، واللُّبث المذكور في الآية: هو الإقامة لمدَّةٍ زمنيَّةٍ قليلةٍ.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

القـــادرُ على الخَلقِ أوَّلَ مرَّةٍ قادرٌ على الإعادة

عندما أنكر الكفّار أن يُخلقوا خلقًا جديدًا بعد أن تُبلى عظامهم وتصير فتاتًا، أَمَرَ اللّه رسوله الكريم أن يقول لهم على جهة الرَّدِّ على استبعادهم، والتَّحقير من شأنهم، والتَّعجيز لهم: كونوا حجارةً أو حديدًا في الشِّدَّة والقُوَّة، أو كونوا خلقًا يَعْظُم، ويُسْتَبْعَد في عقولكم قبوله، فسيقولون مُنكرين: مَن يردُّنا إلى الحياة بعد

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظنَّ).
(2) الرّاغب، المُفردات: (ظنَّ).
(3) ابن الجَوْزيّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 424.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 65.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (لبث).
(6) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (لبث).

الموت؟ قل لهم: يُعيدكم ويُرجعكم اللّه الذي أنشأكم من العدم أول مرَّة، فسيَهُزّون رؤوسهم ساخرين مُتعجِّبين، ويقولون مُستبعِدين: متى يقع هذا البعث؟ قل: وما يدريكم أنَّ هذا البعث الذي تُنكرونه وتستبعدونه ربَّما كان قريبَ الوقوعِ، يوم يناديكم خالقكم للخروج من قبوركم، فتستجيبون لأمر اللّه حامدين، وتنقادون له، وتظنّون - لِهَوْلِ يوم القيامة - أنَّكم ما أقمتم في الدنيا إلّا زمنًا قليلًا؛ لطول لبثكم في الآخرة(1).

وترشدُ الآياتُ الكريمةُ إلى بيان ما كان عليه المشركون من شدَّة إنكارهم للبعث الآخر، وبيانِ أنَّ قدرةَ اللّه تعالى لا يُعجزها شيء، وأنَّ إعادةَ الحياة إلى الجسم أمر مُمكن، بل هو أهونُ على اللّه من خلقه أوَّلَ مرَّة - وهو أهونُ بالنسبة إلى إدراكنا وحكمنا، وإلّا فخَلْقُ الجبال والناس جميعًا عند اللّه كخلق ذَرَّة واحدة، والإعادةُ تحت قدرة اللّه لا تُوصف بالسهولة أو الصعوبة، فكلُّ المُمكِنات عنده سواء؛ لأنَّه لا يعجزُه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو السميع العليم، وإلى تعليمِ اللّه تعالى لرسوله، كيف يجيبُ المُنكرين المُستهزئين بالتي هي أحسن، وبيانِ الأسلوبِ الحواريِّ الهادئ الخالي من الغلظة والشِّدَّة، وإلى استقصارِ مدة اللُّبث في القبور مع طولها؛ لما يُشاهدُ من أهوال البعث(2).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ فَصْلِ الآيةِ عن سابقتِها:

طريقةُ القرآنِ المتَّبعة في حكاية المحاورات

جاء قوله تعالى: ﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا﴾ مفصولًا عن الجملة السّابقة، وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا

(1) طنطاويٌّ، التفسير الوسيط: 3/ 369، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 287.
(2) حجازيٌّ، التفسير الواضح: 2/ 379، ومجمع البحوث الإسلامية، التفسير الوسيط: 5/ 766، وطنطاويّ، التفسير الوسيط: 3/ 369، والجزائريُّ، أيسر التفاسير: 3/ 203.

﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ٤٩﴾ [الإسراء: 49] جريًا على طريقةٍ مُتَّبعةٍ في القرآن في حكاية المحاورات، وهي طريقةٌ عربيَّة، وإنَّما حذَفوا العاطف في أمثاله؛ كراهيةَ تكرير العاطف بتكرير أفعال القول، فإنَّ المحاورة تقتضي الإعادة في الغالب، وإن كان قوله: ﴿قُلۡ﴾ ليس مبدأ محاورة؛ بل المحاورة بالمقول الذي بعده، ولكن الأمر بالجواب أُعطي حكم الجواب؛ فلذلك فُصِلت جملة ﴿قُلۡ﴾[1].

أوجهُ ارتباطِ الآيةِ بسابقتِها:

تناسُبُ الجوابِ مع السُّؤالِ لتحقيقِ اتِّساقِ النَّظمِ

قوله تعالى: ﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا﴾ ردٌّ وجوابٌ عن قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ٤٩﴾ [الإسراء: 49]، وفي بيان وجه ارتباط ردِّ مقالتهم بقوله: ﴿كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا﴾ غموض؛ لأنَّهم إنَّما استبعدوا، أو أحالوا إرجاع الحياة إلى أجسام تفرَّقت أجزاؤها، وانخرم هيكلها، ولم يُعلِّلوا الإحالةَ بأنَّها صارت أجسامًا ضعيفة، فيُرَدُّ عليهم بأنَّها لو كانت من أقوى الأجسام؛ لأُعيدت لها الحياة، وفي بيان وجه الارتباط بين الرَّدِّ على مَقالتهم وبين مقالتهم المردودة ثلاثة وجوهٍ:

الوجه الأوَّل: أن تكون صيغة الأمر في قوله: ﴿كُونُواْ﴾ مستعملةً في معنى التَّسوية، ويكون دليلًا على جواب محذوف تقديره: إنَّكم مبعوثون سواء كنتم عظامًا ورفاتًا أم كنتم حجارة أو حديدًا، تنبيهًا على أنَّ قدرة الله تعالى لا يَتَعاصى عليها شيء، وذلك إدماجٌ يجعل الجملة في معنى التّذييل.

الوجه الثاني: أن تكون صيغة الأمر في قوله: ﴿كُونُواْ﴾ مستعملةً في الفَرْض؛ أي: لو فُرِضَ أن تكون الأجسادُ من الأجسام الصُّلبة، وقيل لكم: إنَّكم مبعوثون بعد الموت لأَحَلْتم ذلك، واستبعدتم إعادةَ الحياة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 124.

فيها، وعلى كلا الوجهيْن يكون قوله: ﴿مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ﴾ نهاية الكلام، ويكون قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ﴾ مُفرَّعًا على جملة: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا﴾ [الإسراء: 49] تفريعًا على الاستئناف، وتكون الفاء للاستئناف، وهي بمعنى الواو على خلاف في مجيئها للاستئناف، والكلام انتقال لحكاية تكذيب آخر من تكذيباتهم.

الوجه الثالث: أن يكون قوله: ﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً﴾ كلامًا مُستأنفًا ليس جوابًا عن قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا﴾ [الإسراء: 49]، وتكون صيغة الأمر مستعملةً في التَّسوية، وفي هذا الوجه يكون قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ﴾ مُتَّصلًا بقوله: ﴿كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا﴾، ومُفرَّعًا على كلام محذوف يدلُّ عليه قوله: ﴿كُونُواْ حِجَارَةً﴾؛ أيْ: فلو كانوا كذلك لقالوا: مَن يُعيدنا؛ أيْ: لانتقلوا في مدارج السَّفسطة من إحالة الإعادة إلى ادِّعاء عدم وجود قادرٍ على إعادة الحياة لهم لصلابة أجسادهم.

وبهذه الوجوه يلتئم نظمُ الآية، وينكشف ما فيه من غموض[1].

دلالة التَّعبير بفعل الأمر ﴿قُلۡ﴾:

الجوابُ مجانسٌ لطريقة السُّؤال

آثر النَّظم الحكيم التَّعبير في قوله تعالى: ﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا﴾ بفعل الأمر ﴿قُلۡ﴾ جوابًا عن قولهم: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ۝٤٩﴾ [الإسراء: 49]، وهذا الفعل يأتي في قضايا مهمَّة، تحتاج من النَّبيِّ ﷺ أن يُتابعها، وأن يُبلِّغها بنفسه، فأمر اللّه رسوله ﷺ بأن يُجيبهم بذلك، وقرينة ذلك مقابلةُ فعل ﴿كُنَّا﴾ [الإسراء: 49] في مقالهم بقوله: ﴿كُونُواْ﴾، ومقابلة ﴿عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا﴾ [الإسراء: 49] في مقالهم بقوله: ﴿حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا﴾ مقابلة أجسام واهية بأجسام صُلبة، ومعنى الجواب: أنَّ وهن الجسم مساوٍ لصلابته بالنسبة إلى قدرة اللّه تعالى على تكييفه كيف يشاء[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 125.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 124.

بلاغةُ التَّعبير بالأمر ﴿كُونُواْ﴾ رغم عجزهم:

خروجُ الأمر عن الوجوب إلى أغراضٍ يُجلّيها السِّياق

ورد في قوله تعالى: ﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا﴾ التَّعبير بفعل الأمر ﴿كُونُواْ﴾ الذي يُفيد وجوب إيقاع الفعل في أصل الصِّيغة، غير أنَّ هذا الأمر ليس في مقدورهم، فدلَّ السّياقُ على أنَّ غرض الأمر هنا هو التَّعجيز مع الإهانة [1]، وإنَّما خرج مخرج الأمر؛ لأنَّه أبلغ في الإلزام[2]، واعترض بعض العلماء على كون الأمر هنا للتَّعجيز، مُحتجّين بأنَّ التَّعجيز يكون حيث يقتضي بالأمر فعلُ ما لا يقدر عليه المخاطَب كقوله تعالى: ﴿فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾ [آل عمران: 168] ونحوه، وأمَّا هذه الآية؛ فمعناها: كونوا بالتَّوهُّم والتَّقدير كذا، وكذا الذي فطركم كذلك هو يُعيدكم، وقال مجاهد: المعنى: (كونوا ما شئتم؛ فستُعادون)[3].

وفي كلِّ الأحوال؛ فقد خرج الأمر هنا عن دلالة الوجوب إلى دلالة إثبات قدرة الله عليهم مع ثبوت عجزهم.

دلالةُ توالي أفعالِ الأمرِ:

توالي أفعال الأمر يدلُّ على قوَّة السِّياق

في قوله تعالى: ﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا﴾ فعلا أمرٍ؛ الأوَّل هو: ﴿قُلۡ﴾، والثاني هو ﴿كُونُواْ﴾، فأمَّا الأوَّل ﴿قُلۡ﴾؛ فهو أمرٌ للنبيِّ ﷺ بأن يبلِّغ عن الله كلامه للنّاس على جهة الوجوب، وأمّا الثاني ﴿كُونُواْ﴾؛ فهو أمر للكفّار على جهة التَّعجيز والإهانة، ويدلُّ توالي أفعال الأمر على قوَّة السّياق، فهو محاججة للكفّار المُنكِرين للبعث.

نكتة تنكير الحجارة والحديد:

العموم والشيوع، والتَّحقيرُ والتَّقليل من شأن المشركين

جاءت في قوله تعالى: ﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا﴾ كلمةُ ﴿حِجَارَةً﴾ وكلمة ﴿حَدِيدًا﴾ نكرتَيْن، والنُّكتة في ذلك هو قصد العموم والشيوع،

(1) درويش، إعراب القرآن: 5/ 454.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 274.
(3) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/ 462.

فليس المقصود نوعًا خاصًّا من الحجارة أو الحديد؛ بل جنس هاتيْن المادتيْن الصُّلبتيْن عمومًا، فضلًا عن احتمال التَّنكير هنا لغرض التَّحقير والتَّقليل من شأنهم، وسبب ذلك أنَّ القوم استبعدوا أن يَردَّهم اللّٰه إلى حال الحياة بعد أن صاروا عظامًا ورفاتًا، فأمرهم اللّٰه أن يفترضوا انتهاء هذه الأجسام بعد الموت إلى صفةٍ أخرى أشدَّ منافاةً لقبول الحياة من كونها عظامًا ورفاتًا، مثل أن تصير أجسامُهم حجارةً أو حديدًا، فإنَّ المنافاة بين الحجرية والحديدية وبين قبول الحياة أشدُّ من المنافاة بين العَظْمية وبين قبول الحياة، وذلك أنَّ العظم قد كان جزءًا من بدن الحي، أمّا الحجارةُ والحديدُ؛ فما كانا البتَّة موصوفيْن بالحياة، فبتقدير أن تصير أبدانُ النَّاس موصوفةً بصفة الحَجَرية والحديدية بعد الموت، فإنَّ اللّٰه تعالى يُعيد الحياة إليها، ويجعلها حيًّا عاقلًا، كما كان بقدرته العظيمة ﷻ[1].

بلاغة الإرصاد والتَّخيير في الآية:

القادرُ على البدء قادرٌ على الإعادة

في قوله تعالى: ﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ﴾ فنّان بديعان من فنون البلاغة:

الأوَّل: التمكين (الإرصاد):

فنٌّ يُسمّى (التَّمكين)، وبعضهم يُسمّيه (الإرصاد)، وحقيقته أن يُمهِّد المُتكلِّم لقافيته أو سجعة فقرته تمهيدًا تأتي القافية فيه مُتمكِّنة في مكانها مُستقرَّة في قرارها، غير نافرة ولا قلقة؛ فإنَّ السَّامع يعلم أنَّه أراد حجارة أو حديدًا بجاذب من قلبه، ووحيٍ من هاجسه دون أن يسمع بقية الآية.

الثاني: التخيير:

في هاتيْن الآيتيْن هو التَّخيير، وهو أن يُؤتى بقطعة من الكلام، أو بيت من الشعر جملة، وقد عَطف بعضها على بعضٍ بأداة التَّخيير،

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 20/ 352.

وأن يتضمَّن صحَّة التَّقسيم، فيستوعب كلامه أقسام المعنى الذي أخذ المُتكلمُ فيه، فانظر إلى التَّخيير في هاتيْن الآيتيْن وصحَّة التَّقسيم وحسن التَّرتيب في الانتقال على طريق البلاغة، من الأدنى إلى الأعلى حتى بلغ سبحانه النهاية في أوجز إشارة وأعذب عبارة، إذ قال بعد الانتقال من الحجارة: ﴿أَوۡ حَدِيدًا﴾، فانتقل من الحجارة إلى ما هو أصلب منها وأقوى، ثم قال بعد ذلك: ﴿أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ﴾، غير حاصر لهم في صنف من الأصناف، فيتكامل المعنى، ويُشرق في النَّفس إشراقًا تغرق النَّفس فيه؛ أي: إنَّكم تستبعدون أن يُجدِّد اللّه خلقكم، ويردَّه إلى حال الحياة وإلى رطوبتها وغضاضتها بعد ما كنتم عظامًا يابسةً، وذلك ديدنكم في الإنكار ودأبكم في العناد، فَهَبْكُم لم تكونوا عظامًا! بل كنتم أقسى منها، وأصلب وأبعد عن رطوبة الحياة، هَبْكُمْ حجارةً طبيعتُها القساوةُ والصَّلابةُ، بل هَبْكُمْ حديدًا، وهو أشدُّ أنواع المادة بُعْدًا من الحياة ومنافاة لها، بل أتركُ الأمر لكم لتتصوَّروا ما هو أقسى وأصلب وأنأى عن قبول الحياة، ممّا لا يخطر إلا لذوي العناد من أمثالكم، فإنَّه لقادر على أن يردَّكم إلى الحياة؛ لأنَّ القادر على البدء قادر على الإعادة بل هي أهون عليه بالنسبة لأفهامنا لا إليه تعالى، وهذا من بديع الكلام ومعجزه؛ بل هو من النَّمط الذي استحقَّ ألّا يكون من كلام البشر[1].

فائدة تقديم الحجارة على الحديد:

بلاغة الترقّي من الصُّلب إلى الأصلب

ورد في قوله تعالى: ﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا﴾ تقديمُ الحجارة على الحديد، والنُّكتة في ذلك أنَّه بدأ أوَّلًا بالصُّلب، ثم ذَكَر على سبيل التَّرقّي الأصلب منه، ثم الأصلب من الحديد؛ أيِ: افرضوا ذواتكم شيئًا من هذه، فإنَّه لا بدَّ لكم من البعث على أية حال كنتم[2].

(1) ابن أبي الإصبع، بديع القرآن: 236، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 455.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 69.

عموم قدرة الله في إحياء المخلوقات

نكتة تنكير ﴿خَلْقًا﴾:

آثر الذِّكر الحكيم في قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ الإتيان بلفظ ﴿خَلْقًا﴾ نكرةً، والنُّكتة في ذلك هو قصدُ العموم، فقال بعد الانتقال من الحجارة: ﴿أَوْ حَدِيدًا﴾، ثم قال بعد ذلك: ﴿أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ غير حاصر لهم في صنف من الأصناف؛ أي: افترِضوا ما هو أقسى وأصلب وأنأى عن قبول الحياة، ممّا لا يخطر إلا لذوي العناد من أمثالكم؛ فإنَّه لقادر على أن يردَّكم إلى الحياة، وقال بعضهم: الَّذي يكبُر هو الموت؛ أي: لو كنتم الموت؛ لأماتكم ثم أحياكم، وقيل: الذي يكبر هو السَّموات والأرض والجبال؛ لمّا ذُكِرَ أنَّهم لو كانوا أصلب شيء وأبعده من حلول الحياة به؛ كان خلق الحياة فيه ممكنًا[1].

المبالغة في التَّعبير بالمصدر دون المُشتقّ

غرضُ التَّعبير بالمصدر ﴿خَلْقًا﴾:

ورد في قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ التَّعبير بالمصدر ﴿خَلْقًا﴾ بمعنى اسم المفعول، أي: المَخلوق، والنُّكتةُ فيه قصد المبالغة بالتركيز على الحدث (الخلق) دون ربطه بذات المفعول، قال سيبويه: "وقد يجيء المصدر على المفعول، وذلك قولك: لبنٌ حَلَبٌ، إنَّما تريد محلوبٌ، وكقولهم: الخَلْق، إنَّما يريدون المخلوق"[2]، ومعنى المصدر في الآية: أو مخلوقًا آخرَ ممّا يعظُم في نفوسكم عن قبوله الحياة، ويستحيل عندكم على الله إحياؤه مثل الفولاذ والنُّحاس[3].

دقّة السّياق القرآني في اختيار حروف المعاني

معنى (مِن) في قوله تعالى: ﴿مِمَّا﴾:

في قوله تعالى: ﴿أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ حرف الجرِّ

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 69.

(2) سيبويه، الكتاب: 4/ 43.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 127.

(مِن) مدغمًا في (ما) الموصولة، ومعنى (مِن) هنا بيان الجنس؛ أيّ: جنس الخَلْق الصُّلب الذي استبعدوا حلول الحياة فيه، ولهذا قال بعضهم: إنَّ الذي يكبُر في صدورهم، هو السَّموات والأرض والجبال[1].

نكتة التَّعبير بالاسم الموصول (ما):

التـوصُّـل إلى الوصف بالاسم الموصول

ورد في قوله تعالى: ﴿أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ﴾ حرف (ما) الموصولة، والنُّكتةُ البلاغيةُ في إيثار وضع الاسم الموصول موضع الاسم الظاهر: أنَّه يسمح بوصفه بجملة الصلة؛ أي: افترِضوا الذي هو أقسى وأصلب وأنأى عن قَبول الحياة، فإنَّه لقادرٌ على أن يردَّكم إلى الحياة[2].

دلالة التَّعبير بصِلَةِ الموصول ﴿يَكۡبُرُ﴾:

(كَـبُر) في القَدر دالٌّ على القوَّة في النوع والصفات

جاء في قوله تعالى: ﴿أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ﴾ الفعل ﴿يَكۡبُرُ﴾، وهو مضارع كبُر - بضم المُوحَّدة - فهو إذا عظُم في القدر، فهو نظير قوله تعالى: ﴿كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ﴾ [الكهف: 5]، ومعنى ﴿يَكۡبُرُ﴾ هنا: يعظُم، وهو عِظَمٌ مجازيٌّ بمعنى القويِّ في نوعه وصفاته[3]، وأمّا الفعل (يكبَرُ) - بفتح الموحَّدة - فهو مضارع (كَبِرَ) كـ(عَلِمَ)؛ إذا زاد في السنِّ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ﴾ [النساء: 6]؛ أيّ: ولا تعتدوا على أموال اليتامى بإنفاقها في غير موضعها؛ إسرافًا ومبادرةً لأكلها قبل أن يَكْبَروا في أعمارهم، فيأخذوها منكم.

بلاغة الحذف في الآية:

استبعادُ الكفّار بـعـثـهـم بـعـد الموت

في قوله تعالى: ﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ٥٠ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ﴾ حذفٌ دلَّ عليه الكلام المردود، وهو قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 69.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 69.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 127.

﴿وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ [الإسراء: 49]، والتَّقدير: (كونوا أشياءَ أبعد عن قبول الحياة من العظام والرُّفات)، والمعنى: (لو كنتم حجارة أو حديدًا؛ لأحياكم اللّه)؛ لأنَّهم جعلوا كونهم عظامًا حجَّةً لاستحالة الإعادة، فرُدَّ عليهم بأنَّ الإعادة مُقَدَّرَةٌ للّه تعالى ولو كنتم حجارة أو حديدًا؛ لأنَّ الحجارة والحديد أبعدُ عن قبول الحياة من العظام والرُّفات؛ إذ لم يسبق فيهما حلول الحياة قطُّ، بخلاف الرُّفات والعظام(1).

معنى ﴿فِي﴾ في قوله: ﴿فِي صُدُورِكُمۡ﴾:

الصدور ظرف ووعاء للقلوب ومكنوناتِ النُّفوس

آثر القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡ﴾ استعمال حرف الجرِّ ﴿فِي﴾ الدّالِّ على الظَّرفيَّة المكانيَّة في عبارة ﴿فِي صُدُورِكُمۡ﴾، والنُّكتةُ في ذلك أنَّ ذِكْر الصُّدور؛ المُرادُ منه ما تتضمَّنه من القلب والبواطن والضمائر؛ جريًا على معروف اللغة من إضافة الخواطر النَّفسيَّة إلى الصَّدر والقلب؛ لأنَّ الانفعالاتِ النَّفسانيَّةَ وتردُّدات التَّفكُّر ونيّات النُّفوس كلَّها يُشعَرُ لها بحركات في الصُّدور؛ فكانت الصُّدور ظَرْفًا ووعاء للقلب ومكنونات النُّفوس.

نكتةُ إيثار الصُّدور على القلوب:

القلب هو موطن المشاعر والضمائر والبواطن

في قوله تعالى: ﴿أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡ﴾ أُوثر التعبير بالصدور على القلوب مجازًا بعلاقة الحلول، والمُراد: ضمائر أنفسهم، والعرب يُطلقون القلب على العقل؛ لأنَّ القلب هو الذي يُحِسُّ الإنسانُ بحركته عند الانفعالات النَّفسية من الفرح وضده والاهتمام بالشيء(2)، والدليل على المجاز هنا قوله تعالى في آية أخرى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحَجّ: 46]، فهي صريحة في إطلاق المَحلِّ (الصَّدْر) وإرادة الحالِّ فيه من (القلب).

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 127.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 173.

معنى الفاء والسّين في: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾:

تنوُّع الدّلالات القرآنيَّة حسب دلالة حروف المعاني

ورد الفعل (يقولون) في قوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ﴾ مُقترنًا بالفاء والسّين، فأمّا الفاء؛ فتحتمل العطف أو الاستئناف؛ لأنَّه يحتمل في سياق الآية أن يتمَّ الكلام عند قوله: ﴿مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ﴾، فيكون قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ﴾ مُفرَّعًا على جملة: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا﴾ [الإسراء: 49] تفريعًا على الاستئناف، فتكون الفاء للاستئناف؛ وهي بمعنى الواو، والكلام انتقالٌ لحكاية تكذيب آخر من تكذيباتهم.

كما يحتمل سياقُ الآية العطفَ بأن يكون قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ﴾ متّصلًا بقوله: ﴿كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا﴾، ومُفرَّعًا على كلامٍ محذوفٍ يدلُّ عليه قوله: ﴿كُونُواْ حِجَارَةً﴾؛ أي: فلو كانوا كذلك؛ لقالوا: مَن يعيدنا؟ أيّ: لانتقلوا في مدارج السَّفسطة من إحالة الإعادة إلى ادِّعاء عدم وجود قادر على إعادة الحياة لهم لصلابة أجسادهم[1]، وفي كلا الاحتماليْن تكون السّين للاستقبال؛ أيّ: سيكون هذا جوابهم بعد أن تقولَ لهم - أيُّها الرسولُ - ذلك.

نكتةُ السُّؤال عن المُعيد لا عن أصل الإعادة:

التّمادي في التّكذيب بالسُّؤال عن المُعيد

في قوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ﴾ سؤال من الكفَّار عن المُعيد لهم، وذلك أنَّه لـمَّا قال لهم: كونوا حجارة أو حديدًا، أو شيئًا أبعد في قبول الحياة من هذين الشيئين، فإنَّ إعادة الحياة إليه ممكنة، فعند ذلك قالوا: من هذا الَّذي يقدِر على إعادة الحياة إليه؟ وجعلوا سؤالهم هنا عن المُعيد لا عن أصل الإعادة؛ لأنَّ البحث عن المُعيد أَدْخَلُ في الاستحالة من البحث عن أصل الإعادة، فهو بمنزلة الجواب بالتَّسليم الجدلي بعد الجواب بالمنع، فإنَّهم نَفَوا إمكان إحياء الموتى، ثم انتقلوا إلى التَّسليم الجدلي؛ لأنَّ التَّسليم الجدلي أقوى في معارضة الدَّعوى من المنع[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 125.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 128.

دلالة ﴿مَن﴾ في: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ﴾:

أسماء الله تعالى وصفاته توقيفيّة

ورد في قوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ﴾ اسْتِعمالُ اسم الاستفهام ﴿مَن﴾ الَّذي يَرِدُ في اللغة غالبًا للاستفهام عن العاقل من المخلوقات[1]، والاستفهام من قِبَل المشركين إنكارٌ لوجود البعث والحساب، وإذا تعلَّق اسم الاستفهام باللّه ﷻ؛ فإنَّ اللّه تعالى يُوصفُ بصفة العلم، ولا يُوصفُ بصفة العقل؛ لأنَّ أسماء اللّه تعالى وصفاته توقيفيَّةٌ لا مجال للاجتهاد فيها، فلا يجوز تسمية اللّه تعالى، أو وصفه بما لم يأتِ في الكتاب والسُّنَّة.

غرضُ الاستفهام في: ﴿مَن يُعِيدُنَاۖ﴾:

استهزاء الكفّار بمسألة البعث بعد الموت

جاء في قوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ﴾ أسلوبُ استفهام، والغرضُ من هذا الاستفهامِ التَّهكُّم[2]؛ لأنَّهم استعظموا بَعْثَهم وإعادتهم إلى الحياة مع ما بينهم وبين الإعادةِ من المُباعدةِ والمُباينة، فقالوا استهزاءً: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ﴾[3].

نكتةُ فصل قوله: ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ﴾:

طريقة القرآن في حكاية المحاورات

أتى قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ﴾ مفصولًا عن الجملة السّابقة، وهي قوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ﴾؛ جريًا على طريقة مُتَّبعة في القرآن في حكاية المحاورات بجُمَلٍ مفصولةٍ، وإنَّما حذَفوا العاطفَ في أمثاله؛ كراهيةَ تكرير العاطف بتكرير أفعال القول، فإنَّ المحاورة تقتضي الإعادة في الغالب، فطردوا الباب، فحذفوا العاطف في الجميع، وهو كثير في التَّنزيل، فلذلك فُصلتِ جملة ﴿قُلِ﴾[4].

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 327.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 128.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 439.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 124.

دلالة الأمر في الفعل: ﴿قُلِ﴾:

وظيفة الرّسول التّبليغ والبيان

في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾ ورد التَّعبيرُ بفعل الأمر: ﴿قُلِ﴾ جوابًا عن قولهم: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ﴾، فلمَّا كان قولُهم هذا محقَّقَ الوقوع في المستقبل؛ أمر اللّه رسوله ﷺ بأن يُجيبهم عندما يقولونه جوابَ تعيين لِمَنْ يُعيدهم؛ إبطالًا للازم التَّهكُّم[1].

نكتةُ الإتيان بالاسم الموصول وصلته:

مَنِ ابتدأ الخلق قادرٌ على إعادته

جاء في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾ إيرادُ الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾ وصلته: ﴿فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾؛ لنكتةٍ بلاغيةٍ، وهي قصدُ ما في الصِّلة من الإيماء إلى تعليل الحكم بأنَّ الذي فطرهم أوَّل مرَّةٍ قادرٌ على إعادة خلقهم، فضلًا عن دلالة الاسم الموصول هنا على التَّعظيم، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ﴾ [الرّوم: 27]، فإنَّه لقدرته التي ابتدأ بها خلقكم في المَرَّة الأُولى قادرٌ أن يَخلقكم مرَّةً ثانيةً[2].

بلاغةُ أسلوبِ الحكيمِ في الرَّدِّ عليهم:

بـلاغـةُ تـلـقّـي المُخاطَب بما هو أولى من سؤاله

ورد قولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾ جوابًا عن قولهم: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ﴾، وقد جاء هذا الجواب على طريقة أسلوب الحكيم في الرَّدِّ، وهو عند البلاغيِّين تلقّي المخاطَب بغير ما يترقَّب، بحمل كلامه على خلاف مُرادِه؛ تنبيهًا على أنَّه الأَوْلى بالقصد[3].

فلمّا كان سؤالهم ﴿مَن يُعِيدُنَاۖ﴾ تهكُّمًا وإنكارًا منهم لوجود البعث والحساب، وكان قولهم هذا محقَّقَ الوقوعِ في المستقبل؛ أمرَ اللّه رسوله ﷺ بأن يُجيبهم عندما يقولونه جواب تعيين لِمَنْ يُعيدهم؛ إبطالًا للازم التَّهكُّم، وهو الاستحالة في نظرهم بقوله: ﴿قُلِ ٱلَّذِى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 124.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 128.
(3) الصعيدي، بغية الإيضاح: 1/ 145.

﴿فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ﴾؛ إجراء لظاهر استفهامهم على أصله بحمله على خلاف مُرادهم؛ لأنَّ ذلك أجدر على طريقة أسلوب الحكيم لزيادة المُحاجَّةِ، كقوله في مُحاجَّة موسى لفرعون: ﴿قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ أَلَا تَسۡتَمِعُونَ ٢٥ قَالَ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٦﴾ [الشعراء: 25 - 26][1].

نكتة التَّعبير بـ﴿فَطَرَكُمۡ﴾:

تأكيد قدرة الله تعالى على إيجاد الخلق مرارًا

في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ﴾ عبَّر السياق القرآني بالفعل ﴿فَطَرَكُمۡ﴾، وهو إيجاد الشَّيء وإبداعه على غير مثالٍ سابقٍ، والنُّكتة في ذلك إفحامُ مُنكري البعث بأنَّ الذي أوجدكم من غير مثالٍ سابقٍ قادرٌ على إيجادكم من جديدٍ، وتأكيد قدرة اللّه تعالى على كل شيء، وهذه حُجَّةٌ عقليةٌ دامغةٌ.

علَّةُ التَّعبيرِ بقوله ﴿أَوَّلَ مَرَّةٖۚ﴾:

إثباتُ البعثِ بالتذكيرِ بالنَّشأةِ الأُولى

جاء التَّعبيرُ بـ﴿أَوَّلَ مَرَّةٖۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ﴾ تذكيرًا للمشركين بأصل الخِلقة ومُنشئها، فالقادر على البدء قادرٌ على الإعادة وردِّكم إلى الحياة، بل هي أهون عليه بالنسبة لأفهامكم لا إليه تعالى، فالكُلُّ هيّنٌ عليه، ولكن خاطبهم بما يعقلون، فهو نظير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [الروم: 27].

معنى الفاء والسّين في: ﴿فَسَيُنۡغِضُونَ﴾:

أثر حروف المعاني في توضيح السّياق القرآني

اتّصلت الفاء والسِّين بالفعل (ينغضون) في قوله تعالى: ﴿فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ﴾، وجاءت الفاء لتفصح عن جواب شرط مقدَّر؛ أيّ: (إن قلتَ لهم... فسينغضون)، وهي التي تُسمَّى الفاء الفصيحة، وبعضُهم يُسمِّيها فاء الفضيحة؛ لأنَّها كشفت عن الشَّرط، وأمّا السِّين فهي للاستقبال، وقد أفادت الإخبار بردَّة فعلهم في المستقبل بعد سماع الحُجَّة الدَّامغة.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 128.

الإنغاضُ تحريكُ الرّأسِ للتهكُّمِ والإنكارِ

نكتة التَّعبير بـ﴿فَسَيُنْغِضُونَ﴾:

ورد في قوله تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ لفظ ﴿فَسَيُنْغِضُونَ﴾، بمعنى: يحرِّكونها استهزاءً، وقيل: يُحرِّكون رؤوسهم تكذيبًا لهذا القول.

وقال الزَّجَّاج: "فسيُحرِّكون رؤوسهم تحريكَ مَنْ يُبطل الشَّيءَ، ويستبطئه"[1]، وهو من الفعل (أنغض)، يُقال: أنغض رأسه ينغضها؛ أيْ: يُحرِّكها إلى فوق، وإلى أسفل إنغاضًا، فهو منغضٌ؛ إذا أخبر الرجلُ بشيءٍ، فحرَّك رأسه إنكارًا له، فقد أنغضَ، وأمَّا نغض ثلاثيًّا، ينغَض وينغُض بالفتح والضَّمِّ، فبمعنى: تحرَّك، لا يتعدَّى، يُقال: نَغَضَتْ سِنُّه؛ أي: تحرَّكتْ، تَنغِضُ نغضًا، ونغوضًا[2].

توجيه حركة إنغاض الرأس إلى الرَّسول ﷺ

غرض تعدية ﴿فَسَيُنْغِضُونَ﴾ بـ (إلى):

في قوله تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ أتى لفظ ﴿فَسَيُنْغِضُونَ﴾ متعدّيًا بحرف الجرِّ (إلى) الدَّالِّ على انتهاء الغاية، وتعديتُه بحرف (إلى) تنبيهٌ على شدَّة توجيه حركة إنغاض الرأس إلى الرَّسول ﷺ، لما في (إلى) من معنى الانتهاء، حتى كأنَّ الإنغاض انتهى عند المجرور بـ (إلى) انتهاء تمكُّن واستقرار.

تخصيصُ الكفّار استهزاءهم بالرَّسول ﷺ

نكتة تقديم ﴿إِلَيْكَ﴾ على المفعول:

جاء في قوله تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ تقديمٌ لشبه الجملة ﴿إِلَيْكَ﴾ على المفعول ﴿رُءُوسَهُمْ﴾؛ لنكتةٍ بلاغيةٍ هي الاختصاص، ويجعل أئمة علم المعاني التّخصيص لازمًا للتقديم[3]، بمعنى اخْتِصاصِهم النَّبيَّ ﷺ بإنغاض الرّأس استهزاء؛ أيْ: إنَّهم قصدوا النَّبي ﷺ خصوصًا دون غيره؛ لأنَّه هو المُتوعِّد لهم بالبعث والإحياء.

(1) الزَّجَّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 244، والواحديُّ، البسيط: 13/ 361.

(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 12/ 306.

(3) السّكّاكي، مفتاح العلوم، ص: 233.

معنى الواو في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾:

اقترانُ إنغاض الكفار رؤوسهم استهزاءً بسؤالهم عن يوم البعث

استُعمل حرف (الواو) في قوله تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ وهو دالٌّ على العطف والاقتران؛ ومعنى ذلك اقتران إنغاضهم الرؤوسَ استهزاء بسؤالهم عن يوم البعث استهزاءً أيضًا.

نكتة التَّعبير بالأفعال المُضارعة في الآية:

استحضارُ صورة الحَدَثِ وتكرُّره واستطالته

ورد في قوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ التعبيرُ بالأفعال المضارعة في القول مرتيْن، وفي الإعادة، وفي الإنغاض، دون غيرها من الأزمنة؛ لما يُفيده المضارع من افْتِراضِ تَكَرُّرِ الحَدَثِ وتجدُّده واستمراره[1]؛ فالكفَّار يستمرُّون في تكذيب الرسول ﷺ، ويتكرَّر استهزاؤهم بالبعث والجزاء، فضلًا عن إفادة هذه الأفعال المضارعةَ هنا في هذا السّياق لاستحضار الصُّورة.

معنى ﴿مَتَىٰ﴾ في قولهم: ﴿مَتَىٰ هُوَ﴾:

استبطاءُ الكفَّارِ ليوم البعث واستبعادهم له

استُعمل اسم الاستفهام ﴿مَتَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾، وهو اسمٌ يَرِدُ في اللغة للسُّؤال عن الزَّمان، نحو: (متى السفرُ)؟ وقد يخرج عن الاستفهام الحقيقيِّ إلى معانٍ أخرى[2]؛ كالاستبطاء، والاستبعاد نحو وروده في هذه الآية، وكذلك في قوله تعالى مثلًا: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٨﴾ [يونس: 48].

غرضُ الاستفهام في قولهم: ﴿مَتَىٰ هُوَ﴾:

تهكُّم الكفّار وسُخْريتهم من البعث

ورد في قوله تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ الاستفهام بـ ﴿مَتَىٰ﴾ عن يوم البعث، وغرضهم من الاستفهام

---

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 78.

(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 267.

هو التَّهكُّم والسُّخرية[1]، نظير استفهامهم السَّابق: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ﴾، فغرضُهُم من هذه الأسئلة جميعًا هو التهكُّم بالرَّسول ﷺ والسُّخرية من توعُّدِهم بالبعث.

فائدة عود الضمير ﴿هُوَۖ﴾:

حيدةُ المُشركين وانتقالُهم لما لا يُسأل عنه

في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ﴾ جاء الضمير ﴿هُوَۖ﴾، وهو عائد إلى العَود المأخوذ من قوله: ﴿يُعِيدُنَاۖ﴾، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة: 8][2]؛ أيّ: متى العَوْدُ؟ ولم يقولوا ذلك على سبيل التَّسليم للعَوْد، ولكن حيدةً وانتقالًا لما لا يُسأل عنه؛ لأنَّ ما يُثبَت إمكانُه بالدليل العقلي لا يُسأل عن تعيين وقوعه، ولكن أجابهم عن سؤالهم بقرب وقوعه لا بتعيين زمانه؛ لأنَّ ذلك ممّا استأثر اللّه تعالى بعلمه[3].

نكتة فصل جملة ﴿قُلۡ عَسَىٰٓ ....﴾:

طريقة القرآن في حكاية المحاورات

فُصِل قوله تعالى: ﴿قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا﴾ عن الجملة السّابقة؛ وهي قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ﴾؛ جريًا به على طريقة حكاية المحاورات بجُمَلٍ مفصولةٍ، وإنَّما حُذف العاطف في أمثاله كراهيةَ تكرير العاطف بتكرير أفعال القول؛ فإنَّ المحاورة تقتضي الإعادة في الغالب، فطردوا الباب، فحذفوا العاطف في الجميع، وهو كثير في التَّنزيل، فلذلك فُصِلت جملة ﴿قُلۡ﴾[4].

دلالةُ الأمر بـ﴿قُلۡ﴾ وغرضُ إعادته:

وجوبُ التبليغِ على الرسول ﷺ

ورد في قوله تعالى: ﴿قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا﴾ التَّعبير بفعل الأمر ﴿قُلۡ﴾ جوابًا عن قولهم: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ﴾؛ فأمر اللّه رسوله ﷺ بأن يُجيبهم بقربه، فإنَّ اللّه تعالى لمّا بيَّن بالبرهان الباهر

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 129.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 129.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 63.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 124.

كون البعث مُمكنًا في نفسه، فقولهم: ﴿مَتَىٰ هُوَۖ﴾ كلامٌ لا معنى له، فإنَّه لمَّا ثبت بالدَّليل العقليِّ كونه ممكنَ الوجود في نفسه؛ وَجَبَ الاعتراف بإمكانه، فأمَّا أنَّه متى يوجد؛ فذاك لا يمكن إثباته من طريق العقل؛ بل إنَّما يمكن إثباته بالدلائل السَّمعيَّة، فإن أخبر اللّٰه تعالى عن ذلك الوقت المُعيَّن؛ عُرِفَ، وإلّا فلا سبيل إلى معرفته[1].

وجهُ التَّعبير بحرف التَّرجِّي ﴿عَسَىٰٓ﴾:

توعُّد المشركين، وكلُّ ما هو آتٍ قريب

عبَّر السياق القرآني في قوله تعالى: ﴿قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا﴾ بـ ﴿عَسَىٰٓ﴾ التي للرَّجاء على لسان الرسول ﷺ؛ والمعنى: لا يبعد أن يكون قريبًا[2]، وقال المفسِّرون: (عسى) من اللّٰه واجبةٌ؛ والمعنى: وهو قريب، وهي وإن كانت في الآية من النَّبيِّ عليه السلام، ولكنَّها بأمر اللّٰه، فيقرِّبها ذلك من الوجوب، وفي ضمن هذا اللفظ تَوَعُّد لهم [3].

بلاغةُ اقتران الفعل بـ ﴿أَن﴾:

تهديدُ المشركين على استهزائهم بيوم البعث وتأكيد وقوعه

ورد في قوله تعالى: ﴿قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا﴾ اقتران الفعل المضارع ﴿يَكُونَ﴾ بـ﴿أَن﴾ المصدرية، وسبب ذلك أنَّ اقتران خبر (عسى) بـ (أنْ) كثير، وتجريده من (أنْ) قليل، وهذا مذهب سيبويه، ومذهبُ جمهور البصريين أنَّه لا يتجرَّد خبرها من (أنْ) إلّا في الشِّعر، ولم يرد في القرآن إلّا مقترنًا بـ (أنْ) في نحو ثلاثين موضعًا، نحو قول اللّٰه تعالى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ﴾ [المائدة: 52][4]، واقترانُ الفعلِ (عسى) بالحرفِ المصدريِّ (أنْ) في القرآنِ الكريمِ من الأساليبِ البلاغيةِ التي تُفيدُ معانيَ متعددةً، وهنا أفاد تهديدَ المشركين على ما مضى من صور استهزائهم بيوم البعث، وتأكيد وقوعه.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 20/ 353.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 129.
(3) ابن عطيّة، المُحرِّر الوجيز: 3/ 463.
(4) ابن عقيل، شرح الألفية: 1/ 327.

نكتة التَّعبير بـ ﴿يَكُونَ﴾ مضارعًا:

دلالة صيغة المضارع على الاستقبال

في قوله تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ ورد الفعل ﴿يَكُونَ﴾ بصيغة المضارع؛ لأنَّه وقع موضع الخبر للفعل ﴿عَسَىٰٓ﴾، وقد تقرَّر في النَّحو أنَّ (عسى) من أفعال المقاربة التي تدخل على المبتدأ والخبر، فترفع المبتدأ اسمًا لها، ويكون خبره خبرًا لها في موضع نصب، ولا يكون الخبر في هذا الباب إلّا مضارعًا في الغالب[1]، وكذلك لأنَّ السِّياق هو في السُّؤال عن يوم البعث، وهو آتٍ في المستقبل، فعبَّر بالمضارع الدَّالِّ على الاستقبال.

الموقعُ الإعرابيُّ لقوله: ﴿أَن يَكُونَ﴾ وفائدته:

دلالة (كان) بين التَّمام والنُّقصان

عُبِّر في قوله تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ بالفعل ﴿يَكُونَ﴾، وهو مضارع الفعل (كان)، ويجوز أن تكون الناقصة، واسمها مُستترٌ فيها يعود على البعث والحشر المدلول عليهما بقوة الكلام، أو لتضمُّنه في قوله: ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الإسراء: 49] و﴿أَن يَكُونَ﴾ خبرها، كما يجوز أن تكون التّامَّة مُسنَدة إلى ﴿أَن﴾ وما في حيِّزها، وفاعل ﴿يَكُونَ﴾ ضمير البعث، وهو مُستترٌ يدلُّ عليه السّياق[2].

الموقع الإعرابي لقوله: ﴿قَرِيبًا﴾ ودلالته:

وقوع البعث في زمن قريب

ورد في قوله تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ لفظ ﴿قَرِيبًا﴾ منصوبًا، وفي توجيه نصبه وجهان:

أحدهما: أنَّه خبر (كان)، وهو وصف على بابه.

الثاني: أنَّه ظرف؛ أيْ: زمانًا قريبًا، و﴿أَن يَكُونَ﴾ على هذا تامَّة؛ أيْ: عسى أن يقع العَوْد في زمان قريب[3].

وكون البعثِ قريبًا قد يحمل على الحقيقة، كما دلَّ عليه قوله

(1) ابن عقيل، شرح الألفية: 1/ 324.
(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 12/ 307.
(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 12/ 308.

ﷺ: "بُعِثْتُ أنا والسَّاعَةَ كَهذِه مِن هذِه، أوْ: كَهاتَيْنِ وقَرَنَ بيْنَ السَّبَّابَةِ والوُسْطَى"(1).

ويحتمل أن يريد بالقُرب أنَّ إتيان السَّاعة مُتَناهٍ، وكلُّ ما كان متناهيًا من الزمان فهو قليلٌ، بل أقلُّ من القليل بالنِّسبة إلى الزَّمان الَّذي بعده؛ لأنَّه غير مُتناهٍ، كنسبة العدد المُتناهي إلى العدد المُطلق؛ فإنَّه لا يُنسب إليه بجزء من الأجزاء، ولو قلَّ، ويُقال في المثل: (كلُّ آتٍ قريب)(2).

بلاغة أسلوب الحكيم في الآية:

معاندة الكفّار بعد قيام الحُجَّة بالبعث

أتى قوله تعالى: ﴿قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا﴾ جوابًا عن قولهم: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ﴾، فهم قد سألوا عن تحديد يوم البعث استهزاء وتهكُّمًا، ولكنَّ الرسول ﷺ أُمِرَ بأن يجيبهم جوابًا حقًّا؛ إبطالًا للازم التَّهكُّم على طريقة (أسلوب الحكيم) في الرَّدِّ، وهو عند البلاغيِّين تلقّي المُخاطَب بغير ما يترقَّب، بحمل كلامه على خلاف مُرادِه؛ تنبيهًا على أنَّه الأَوْلى بالقصد(3)؛ فكان الجواب بأنّه لا يبعد أن يكون قريبًا(4).

كما أنَّ هذا السُّؤال فاسدٌ من أصله؛ لأنَّهم حكموا بامتناع الحشر والنَّشر بناءً على شبهة عدم القدرة على إحياء الرُّفات، ثم إنَّ اللّه تعالى بيَّن بالبرهان الباهر كونه ممكنًا في نفسه، فقولهم: ﴿مَتَىٰ هُوَۖ﴾ مجرَّد معاندة، فإنَّه لمّا ثبت بالدليل العقليِّ كونه ممكنَ الوجود في نفسه؛ وجب الاعتراف بإمكانه، فأمّا أنَّه متى يوجد؛ فذاك لا يمكن إثباته من طريق العقل، بل يمكن إثباته بالدلائل السَّمعية؛ فإن أخبر اللّه تعالى عن ذلك الوقت المُعيَّن عُرِفَ، وإلّا فلا سبيل إلى معرفته.

(1) رواه البخاريّ في صحيحه، الحديث رقم: (5301).
(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 12/ 307.
(3) الصعيدي، بغية الإيضاح: 1/ 145.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 129.

تعدُّد المعاني القرآنيَّة بتنوُّع التَّخريجات الإعرابيَّة

الموقع الإعرابيُّ لقوله: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ﴾، وأثره:

استُعمل الظَّرف ﴿يَوۡمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ﴾، وقد قيل في إعرابه خمسةُ أوجه يختلف المعنى باختلافها، وكلُّها معقولٌ مقبولٌ: **الأول:** أنَّه بدلٌ من ﴿قَرِيبًا﴾؛ إذا أعربنا ﴿قَرِيبًا﴾ ظرف زمان؛ والمعنى: عسى أن يكون يومُ البعث يومَ يدعوكم؛ أيِّ: بالنداء الذي يُسمعكم، وهو النفخة الأخيرة؛ كقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ۝٤١﴾ [ق: 41]، **والثاني:** أنَّه منصوبٌ بـ ﴿يَكُونَ﴾، **والثالث:** أنَّه منصوبٌ بضمير المصدر الذي هو اسم ﴿يَكُونَ﴾؛ أيِّ: عسى أن يكون العَودُ يومَ يدعوكم، **والرابع:** أنَّه منصوب بفعلٍ مُقدَّرٍ؛ أيِّ: اذكر يومَ يدعوكم، **والخامس:** أنَّه منصوب بالبَعْث المُقدَّر[1].

عمومُ البعث للكُفّار والمؤمنين، وتخصيص الكُفَّار بالوعيد

دلالةُ عَودِ الضَّمير في ﴿يَدۡعُوكُمۡ﴾:

آثر الذِّكر الحكيم في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ﴾ استعمالَ ضمير الخطاب للجمع بقوله: ﴿يَدۡعُوكُمۡ﴾، وقد اختلف العلماء في تعيين مَرجِعِه على قولَين:

الأوَّل: أنَّه خطابٌ مع الكُفّار بدليل أنَّ ما قبل هذه الآية كلَّه خطابٌ مع الكفّار؛ والمعنى: عسى أن يكون بعْثُكم - أيُّها الكفّار - يوم يدعوكم؛ أيِّ: بالنِّداء الذي يُسْمعكم، وهو النَّفخة الأخيرة، كما قال: ﴿يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ۝٤١﴾ [ق: 41].

الثّاني: أنَّ الكلام مع الكفّار قد تمَّ عند قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾، وأمّا قوله: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ﴾؛ فهو خطابٌ مع المؤمنين لا مع الكافرين؛ لأنَّ هذا الكلام هو اللّائق بالمؤمنين؛ لأنَّهم يستجيبون للّٰه بحمده، ويحمدونه على إحسانه إليهم، والقولُ الأوَّل هو المشهور، والثّاني ظاهر الاحتمال[2].

---

(1) السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المَصون: 7/ 369، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 12/ 308.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 20/ 354.

معنى ﴿يَدۡعُوكُمۡ﴾ بين الحقيقة والمجاز:

نداءُ الخلائقِ للخروج من القبور؛ للبعث والجزاء

ورد في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ﴾ استعمالُ الفعل ﴿يَدۡعُوكُمۡ﴾، واختُلِفَ في دلالته، فحمله أكثرُ العلماء على حقيقته؛ أيْ: دعاء الله الناس إلى المَحْشر بكلام تسمعه الخلائق، يدعوهم الله تعالى فيه بالخروج، وقيل: بالصيحة التي يسمعونها، فتكون داعيةً لهم إلى الاجتماع في أرض القيامة، وحمل بعضهم ﴿يَدۡعُوكُمۡ﴾ على الأمر التّكوينيّ بإحيائهم، فأطلق عليه الدُّعاء؛ لأنَّ الدُّعاء يستلزم إحياء المدعو وحصول حضوره، فهو مجاز في الإحياء والتَّسخير لحضور الحساب[1].

أو المعنى: (يوم يبعثكم فتنبعثون) استعار لهما الدُّعاء والاستجابة؛ للتَّنبيه على سرعتهما وتيسُّر أمرِهما، وأنَّ المقصود منهما الإحضار للمحاسبة والجزاء[2].

معنى الفاء في قوله: ﴿فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ﴾:

استجابةُ الخلائق للمنادِي نافذٌ على الفورية

جاء التَّعبير القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ﴾ بحرف الفاء الذي يدلُّ في اللُّغة على معنى الترتيب والتعقيب، ومدلوله أنَّ استجابة الخلائق يعتقب نداءهم بلا تأخير، ويدلُّ على سرعة استجابتهم قوله سبحانه في آية أخرى: ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ۝٤٣﴾ [المعارج: 43]، أي: يقومون من القبور؛ إذا دعاهم الربُّ ﷻ لموقف الحساب سراعًا، كأنَّهم إلى غاية يسعون إليها.

نكتة التَّعبير بـ﴿فَتَسۡتَجِيبُونَ﴾:

الاستجابة أوكد دلالة من الإجابة

في قوله تعالى: ﴿فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ﴾ جاء استعمال الفعل ﴿فَتَسۡتَجِيبُونَ﴾، و(استجاب) عند جمهور أئمَّة اللغة بمعنى: أجاب، فالسين والتَّاء للتَّأكيد، مثل: استوقد، واستخلص.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 129.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 258.

وذهب الفرّاء وعليٌّ بن عيسى الرَّبَعي إلى أنَّ (استجاب) أخصُّ من (أجاب)؛ لأنَّ (استجاب) يُقال لِمَنْ قَبِل ما دُعي إليه، و(أجاب) أعمُّ، فيُقال لِمَنْ أجاب بالقبول وبالرَّدِّ: والاستجابة هي التَّحرِّي للجواب والتَّهيُّؤ له، لكن عبَّر به عن الإجابة لقِلَّة انفكاكها منها[1]؛ فجاء النَّظْم القرآنيُّ بأبلغ تعبير بقوله: ﴿فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ﴾؛ للدَّلالة على موافقة الدَّاعي فيما دعا إليه، فيقومون من قبورهم لا يتخلَّف أحدٌ.

معنى ﴿فَتَسۡتَجِيبُونَ﴾ بين الحقيقة والمجاز:

تصوير سرعة الإحياء والحضور للحساب

الاستجابةُ في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ﴾ قد تكون على حقيقتها، وذهب بعض العلماء إلى كون الدعاء والاستجابة مجازًا، فقالوا: إنَّ الاستجابةَ مُستعارة لمطاوعة معنى يدعوكم؛ أيْ: فتَحْيَوْن، وتَمْثُلون للحساب؛ أيْ: يدعوكم وأنتم عظام ورفات، وليس للعِظام والرُّفات إدراك واستماع، ولا ثَمَّ استجابة؛ لأنَّها فرع السماع؛ وإنَّما هو تصوير لسرعة الإحياء والإحضار وسرعة الانبعاث والحضور للحساب، بحيث يحصل ذلك كحصول استماع الدعوة واستجابتها في أنَّه لا معالجة في تحصيله وحصوله ولا ريث ولا بطء في زمانه[2].

معنى الباء في ﴿بِحَمۡدِهِۦ﴾:

المُلابسة للمبالغة في انقيادهم للبَعْث، أو التَّعلُّق بمحذوف

ورد في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ﴾ حرف الجرِّ الباء من قوله: ﴿بِحَمۡدِهِۦ﴾، ومعناها: الملابسة؛ فهي في معنى الحال؛ أيْ: حامدين، فهم إذا بُعِثوا؛ خُلِقَ فيهم إدراك الحقائق، فعلموا أنَّ الحقَّ للّه.

وهذا مبالغة في انقيادهم للبعث، كقولك لِمَنْ تأمرهُ بعملٍ يشقُّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/ 202.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 129.

عليه: (ستأتي به وأنت حامدٌ شاكرٌ)؛ أيْ: ستأتي إلى حالةٍ تحمدُ اللّه، وتشكر على أن اكتفى منك بذلك العمل، وهذا يُذْكَرُ في معرض التَّهديد(1).

ويجوز أن يكون ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ مُتعلِّقًا بمحذوفٍ على أنَّه من كلام النَّبيِّ ﷺ، والتَّقدير: (انطق بحمده)، كما يُقال: (باسم اللّه)؛ أي: أبتدئ، وكما يُقال للمُعَرِّس: باليُمْنِ والبركة؛ أي: (احمد اللّه على ظهور صدق ما أنبأتكم به)، ويكون اعتراضًا بين المتعاطفات(2).

معاني الحمد في قوله: ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾:

حمْدُ الكفَّار لله وتقشُّعُ إنكارهم وعنادهم حين لا ينفعهم الحمد

في تفسير (الحمد) في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ عدَّة أقوال؛ منها: ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾: بأمره، وقيل: بطاعته؛ لأنَّهم لمّا أجابوه بالتَّسبيح والتَّحميد؛ كان ذلك معرفةً منهم وطاعةً، ولكنَّهم لا ينفعهم ذلك في ذلك اليوم، وقيل: يُقرّون بأنَّه خالقهم وباعثهم، ويحمدونه حين لا ينفعهم الحمد؛ أي: حالهم تكون حال الحامد الرَّاغب العالِم بقدرة اللّه تعالى لَا حال المُستَنكِر أو المُستغرِب، وكأنَّهم يكونون في حال غير الحال التي كانوا عليها في الدُّنيا من كُفرٍ وإنكار، بل هم على حال الإقرار باللّه تعالى، وأنَّه وحده المُستحِقٌّ للألوهيَّة ﷻ(3)، وهذا على أنَّه خطابٌ للكفَّار.

وقيل: هذا خطاب للمؤمنين، وقيل: يخرجون من قبورهم، وينفضون التُّراب عن رؤوسهم، ويقولون: سبحانك وبحمدك، وهو قوله: ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾.

وقال أهل المعاني: أيْ: تستجيبون حامدين، كما تقول: جاء بغضبه؛ أي: جاء غضبان، وركب الأمير بسيفه؛ أيْ: وسيفه معه(4).

---

(1) السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المَصون: 7/ 369، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 12/ 308.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 130.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4399.
(4) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 12/ 309.

معنى الواو في: ﴿وَتَظُنُّونَ﴾:

دلالة الواو على الإشراك في الحُكْم أو الحال

ورد قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ معطوفًا على قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ بحرف الواو؛ لإشراكهما في الحكم، فقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ﴾ معطوف على ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ﴾، أي: وتحسبون أنَّكم ما لبثتم في الأرض إلّا قليلًا، وقال بعضهم: إنَّها واو الحال، والتقدير: (وأنتم تظنون)، والجملة حالية[1].

نكتة التَّعبير بـ﴿وَتَظُنُّونَ﴾:

تـردّدَ الظنُّ بين الشَّكِّ واليقين

آثر النَّظمُ القرآني التعبير بفعل الظنِّ في قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ وهو من أفعال الأضداد؛ أيْ: يَرِدُ للمعنى وضدِّه، والسِّياق هو الذي يُحدِّد المعنى المقصود، ففي هذه الآية إذا كان الخطاب للكُفّار، وهو الظَّاهر، فيحتمل أن يكون الظَّنُّ على بابه، فيكون لمّا رجعوا إلى حالة الحياة؛ وقع لهم الظَّنُّ أنَّهم لم ينفصلوا عن الدُّنيا إلَّا في زمن قليل إذ كانوا في ظنِّهم نائمين، كما يحتمل أيضًا أن يكون الظَّنُّ هنا بمعنى اليقين من حيث علموا أنَّ ذلك مُنقضٍ مُتصرِّمٌ[2].

دلالة حرف ﴿إِن﴾:

شدَّةُ نفي الكُفَّار طـولَ لبثهم في الدنيا

في قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ استُعمل حرف النفي ﴿إِن﴾، وهو أشدُّ نفيًا من الحرف (ما)، ومعلِّقٌ للظنِّ عن العمل فيما بعدها، وقلَّ مَن ذَكَر (إن) النَّافية في أدوات تعليق هذا الباب[3]، وهو حرفٌ موضوعٌ لنفي الحال عند الإطلاق، وإن قُيِّدَ كان بحسب ذلك القيد، ويدخل على الفعل المضارع والماضي، فإن دخل على الفعل المضارع؛ كان في الغالب لنفي الحال، فإنَّ الكفّار يوم يُبعَثون يَنفون لُبْثَهم في الدنيا إلّا الشَّيء اليسير[4].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 65.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 65.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 136/ 16، والهلال، تفسير الثّري الجامع: 15/ 52.
(4) فاضل السّامرّائيّ، معاني النحو: 4/ 199.

فائدة التَّعبير باللُّبث:

اللُّبثُ إقامةٌ دالَّةٌ على مُدَّة محدَّدةٍ بزمنٍ

ورد في قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ التَّعبير بالفعل ﴿لَّبِثۡتُمۡ﴾ دون غيره من الأفعال لنكتةٍ بلاغية، وهي أنَّ هذا الفعل يرِدُ كثيرًا في المُدَّة المحدودة بزمنٍ، كقوله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ٤٢﴾ [يوسف: 42]، بخلاف (المُكْث) الذي هو غير محددٍ بزمنٍ معينٍ في الغالب، كقوله تعالى: ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا ٣﴾ [الكهف: 3]، واستعمالُ اللُّبْث في هذه الآية: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ مناسب لقلَّة المدَّة باعتبار الآخرة.

بلاغة القصر في: ﴿إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا﴾:

التّعجيب من ظنون المشركين وإثارة النّدم في قلوبهم

في قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ قَصْرٌ مُسْتَفادٌ مِنْ جَمْعِ النفي بـ ﴿إِن﴾ وَالاسْتِثْناءِ بـ ﴿إِلَّا﴾، وَهُوَ قَصْرُ مَوْصوفٍ عَلى صِفَةٍ؛ أيْ: قصر لبثهم على مدةٍ قليلةٍ، وهو قصرٌ إضافيٌّ.

والغرض من هذه القصرِ التعجيبُ من هذه الحالة، ولذلك جاء في بعض آيات أخرى سؤال المولى حين يُبْعَثون عن مدَّة لبثهم تعجيبًا من حالهم، قال تعالى: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ١١٣ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١٤﴾ [المؤمنون: 112 - 114]، وهذا التَّعجيب فيه تنديمٌ للمشركين؛ للتَّعبير عن الندم والحزن واللَّوم الذي ينالهم على تفريطهم في فوات الفرصة، أو التقصير في العمل في الدنيا، وتأييد للمؤمنين؛ فالمقصود أنَّهم ظنّوا ظنًّا خاطئًا، وهو محلُّ التَّعجيب(1).

نكتةُ تنكير ﴿قَلِيلٗا﴾:

الحياة الدّنيا قصيرة وإن طالت

ورد في قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ لفظ ﴿قَلِيلٗا﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 130.

منكَّرًا، والغرضُ البلاغيُّ من التَّنكير فيها هو التَّقليل؛ لأنَّ الإنسان لو مكث ألوفًا من السِّنين في الدُّنيا أو في القبور، عُدَّ ذلك قليلًا في مدة القيامة والخلود(1).

الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

الإنغاضُ والتَّحريكُ والهَزُّ:

التَّحريك عامٌّ، والإنغاض خاصٌّ بالتَّهكُّم والسُّخرية

بين ألفاظ (الإنغاض) و(التَّحريك) و(الهزِّ) فروقٌ دلالية دقيقة تتضح من خلال المفهوم اللُّغوي لكلٍّ منها، فالتَّحريك عامٌّ في الأشياء، والهزُّ تحريك خاصٌّ يدلُّ على اضطرابٍ في شيءٍ، وأمّا الإنغاضُ؛ فهو تحريك الرَّأس خصوصًا، ويكون لغرض التَّعجُّب والاستهزاء، كما في قوله تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ﴾؛ أيْ: يُحرِّكون رؤوسهم تعجُّبًا واستهزاءً واستبعادًا للبعث.

المُكثُ واللُّبثُ والإقامةُ:

اللُّبث يكون لمدةٍ مُعيَّنةٍ، والمُكثُ لمدَّةٍ غير محدودةٍ

يتَّضح الفرق بين ألفاظ (المُكث) و(اللُّبث) و(الإقامة)، في كون الإقامة لفظًا عامًّا لأيِّ بقاء بمكانٍ مُعيَّنٍ، وأمّا (المُكث) و(اللُّبث)؛ فيحملان معنى الإقامة في مكانٍ، غير أنَّ بينهما فرقًا يتجلّى في آيات القرآن الكريم، فنلاحظ أنَّ (اللُّبث) في القرآن يصاحبه ذِكْرُ مدَّة معيَّنة، نحو: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: 14] ...إلى آخره.

وأمّا (المُكْث)؛ فقد ورد في القرآن دون تحديد مدَّة زمنية - في الغالب - للإقامة، نحو قوله تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [النَّمل: 22]، وقوله: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [طه: 10].

ويشهد لهذا الفرق بين (المُكث) و(اللُّبث) استخدامهما في

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 12/ 309.

الآيتين: ﴿لَّبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ٢٣﴾ [النَّبأ: 23]، و﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ٧٧﴾ [الزُّخرف: 77].

فالآيتان تصفان العذاب في النّار - والعياذ بالله - غير أنَّ الأُولى حدَّدت المُدّة ﴿أَحۡقَابٗا ٢٣﴾ [النبأ: 23]، فاستخدمت معنى (اللبث)، والثَّانية لم تُحدِّد مدَّة، فاستخدمت معنى (المُكث).

﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ٥٣﴾ [الإسراء: 53]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الكلمة الطَّيّبة مع الكفّار لدفع شرِّهم

لـمّا كان إنكار الكفّار للبعث مدعاةً لإيذاء المؤمنين، ومجلبةً لبغض المؤمنين إيّاهم، ومعاملتهم بما عاملوهم؛ أمر اللّه تعالى نبيَّه الكريم ﷺ أن يُوصي المؤمنين بالرِّفق بالكفّار، واللُّطف بهم في القول، وألّا يعاملوهم بمثل أفعالهم وأقوالهم[1].

ولمّا أمر سبحانه رسوله الأمينَ ﷺ بإبلاغهم هذا الكلام، وفيه من التهكُّم بهم، والتبكيت لهم، والاستخفاف بعقولهم، ما لا يعلم مقداره إلّا مثلهم من البلغاء والعرب العرباء، وكان - لكونه كلام العليم بالعواقب الخبير بما تجنُّ الضمائر - ربَّما استنَّ به المؤمنون، فخاطبوهم بنحوه من عند أنفسهم؛ نهاهم عن ذلك؛ لئلّا يقولوا ما يُهيّج شرًّا، أو يُثيرُ ضُرًّا[2].

شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

1) ﴿لِّعِبَادِي﴾: جمعٌ، مُفردُه (عَبْدٌ)، والعين والباء والدّال أصلان صحيحان، كأنَّهما متضادان، الأوّل: يدلُّ على لِين وذُلٍّ، والآخر: على شدَّة وغلَظ[3]، والمقصود هنا الأوّل، والنّاس كلُّهم عِبَادُ اللّه؛ بل الأشياء كلُّها كذلك، لكن بعضها بالتَّسخير وبعضها بالاختيار[4]، والعبوديَّة قسمان: عامَّة لأهل السموات والأرض كلِّهم مؤمنهم وكافرهم، فالجميع عبيدٌ للّه خاضعون لأمره الكونيِّ، وخاصَّة؛ وهي

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 65.
(2) البقاعي، نَظْمُ الدُّرَر: 11/ 441.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عبد).
(4) الرَّاغب، المُفردات: (عبد).

عبوديَّة الطّاعة والمحبَّة واتِّباع الأوامر[1]، وهي المقصودة في هذه الآية، ولهذا أضافهم الله ﷻ إلى ذاته العليَّة تشريفًا بقوله: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى﴾.

2) ﴿يَنزَغُ﴾: (نزغ)، تقول: نَزَغَ يَنْزَغُ (وفي لغة يَنْزِغُ) نَزْغًا، والنون والزاء والغين أصل يدلُّ على إفساد بين اثنين[2]، وتدور اشتقاقاته حول نَخْسٍ حِسّيٍّ (في البدن) أو معنويٍّ للتَّحريك والإثارة، ومنه نَزَغَ بينهم: أَغْرَى وأَفسدَ وحملَ بعضَهم على بعض، وليس في القرآن من التَّركيب إلّا (نزغ الشّيطان)، فهو نزغ تحريضٍ وتحريشٍ؛ للإيقاع بين غير المتعاديَيْن، ولزيادة الفساد بين المتعاديَيْن[3]، وهو المعنى المقصود في هذه الآية.

المَعْنى الإِجْماليُّ:

دفعُ نزغِ الشيطان بالحِرْص على طيّبِ الكلامِ

بعد أَن بيَّن الله جحودَ الكفّار للبعث ومعاداةَ الحقِّ؛ أمرَ رسوله ﷺ في هذه الآية أن يوصي عباده المؤمنين في تخاطبهم وتحاورهم مع الكفّار أو فيما بينهم بالكلام الحَسَنِ الطَّيب؛ فإنَّهم إن لم يفعلوا ذلك؛ ألقى الشيطان بينهم العداوة والفساد والخصام، فالشيطان للإنسان عدوٌّ ظاهرُ العداوة على الدّوام[4].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ من لطف الله تعالى بعباده أَمْرَهم بأحسن الأخلاق، والأعمال، والأقوالِ الموجِبة للسعادة في الدنيا والآخرة، وهو أمر بكلِّ كلام يقرِّبُ إلى الله من قراءةٍ وذِكْرٍ وعِلمٍ وأمرٍ بمعروف ونهيٍ عن منكر، وكلامٍ حسنٍ لطيف مع الخَلْق على اختلاف مراتبهم ومنازِلهم، وأنَّه إذا دار الأمرُ بين أمريْن حَسنَيْن؛ فإنَّه يأمر بإيثار أحسنهما إن لم يُمكن الجمعُ بينهما، وتُرشدُ إلى

(1) ابن القيّم، مدارج السّالكين، ص: 180.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نزغ).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤَصّل: (نزغ).
(4) مجمع البحوث الإسلاميّة، التّفسير الوسيط: 5/ 767، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 287.

النَّهي عن الكلمةِ الخَشِنَةِ المسيئةِ، وإلى بيانِ أنَّ الشيطان يسعى للإفسادِ دائمًا، ويُزيِّن القبيحَ للإنسان، فيدفعه المؤمن بالقول الطيب والعمل الطيب(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَقُل﴾:

الاستئنافُ بإيراد الحُجج على المخالفين بالطَّريق الأحسن

ورد قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُۚ﴾ مصدَّرًا بحرف الواو الدّالِّ على الاستئناف، فإنَّ اللّه ﷻ لمّا ذَكَر الحُجَّة اليقينيَّة في إبطال الشِّرك في قوله: ﴿لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِى ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ۝٤٢﴾ [الإسراء: 42]، وذَكَر الحُجَّة اليقينيَّة في صحَّة المعاد في قوله: ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ﴾، قال في هذه الآية: وقل يا محمد ﷺ لعبادي: إذا أردتم إيراد الحُجَّة على المخالفين؛ فاذكروا تلك الدَّلائل بالطَّريق الأحسن(2).

فائدة الأمر بـ﴿وَقُل﴾:

الأمرُ بإبلاغ المؤمنين طُرقَ الهُدى

في قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُۚ﴾ ورد التَّعبير بفعل الأمر ﴿وَقُل﴾ الدّالِّ على وجوب التَّبليغ، فلمّا أمر اللّه الرَّسول ﷺ في الآيات السابقة تبليغَ المشركين أقوالًا تعظهم من قوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ﴾ [الإسراء: 42]، وقوله: ﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً﴾ وقوله: ﴿قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا﴾ ثُني العِنان إلى الأمر بإبلاغ المؤمنين تأديبًا ينفعهم في هذا المقام على عادة القرآن في تلوين الأغراض، وتعقيبُ بعضها ببعض أضدادَها؛ استقصاءً لأصناف الهُدى ومختلف أساليبه ونفع مختلف الناس(3).

(1) السَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 460، ومجمع البحوث الإسلامية، التّفسير الوسيط: 5/ 768، والجزائريّ، أيسر التّفاسير: 3/ 204.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 20/ 355.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 131.

تقويةُ الكلام وزيادةُ تبليغه إلى السّامع باللّام

معنى اللّامِ في قوله: ﴿لِّعِبَادِى﴾:

جاء في قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُۚ﴾ استعمالُ حرف اللّام في قوله: ﴿لِّعِبَادِى﴾، وتُسمَّى هذه اللّامُ (لامَ التَّبليغ)، وهي الَّتي تدخل على اسم أو ضمير السّامع لقول أو ما في معناه، نحو: قلتُ له، وأذنتُ له، وفسَّرتُ له، وذلك عندما يكون المقولُ له الكلام معلومًا من السّياق، فيكون ذكر اللام لزيادة تَقَوّي الكلام وتبليغه إلى السامع، ولذلك سُمّيت لام التبليغ(1).

تشريف المؤمنين بإضافتهم إلى ربِّهم الكريم

نكتة التَّعبير بلفظة العباد ودلالة الإضافة:

ورد في قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُۚ﴾ استعمالُ عبارة (عبادي)، والمُراد بها: المؤمنون، كما هو المعروف من اصطلاح القرآن في هذا العنوان، وإنَّما خصَّهم اللّه بوصف العبودية المُضاف إلى ضمير اللّه تعالى؛ تشريفًا لهم، وذلك يُؤذن بالاهتمام بما سيُقال، وبأنَّه سيُقال لهم عن ربِّهم، وهذا وضع لهم في مقام المخاطبة من اللّه؛ وهي درجة عظيمة من القُرْب(2).

سرعةُ امتثال المؤمنين لأوامر ربِّهم

الموقع الإعرابيُّ لقوله: ﴿يَقُولُواْ﴾ ودلالته:

في قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُۚ﴾ جاء الفعل ﴿يَقُولُواْ﴾ مجزومًا على حذف لام الأمر، وهو وارد كثيرًا بعد الأمر بالقول، ونظيره قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: 31]، ويمكن أن يكون ﴿يَقُولُواْ﴾ جوابًا منصوبًا في جواب الأمر مع حذف مفعول القول؛ لدلالة الجواب عليه، والتَّقدير: (قل لهم: قولوا الَّتي هي أحسن يقولوا ذلك)، فيكون على هذا كناية على أنَّ الامتثال شأنهم، فإذا أُمِروا امتثلوا (3).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 05.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 131.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 132.

نكتة التَّعبير بالمضارع في: ﴿يَقُولُواْ﴾:

الإحسانُ في المجادلة ينبغي أن يكون خُلُقًا دائمًا للمؤمنين

الفعل ﴿يَقُولُواْ﴾ ورد في قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ بصيغة المضارع؛ وذلك للدلالة على أنَّ الإحسان في المجادلة ينبغي أن يكون خُلُقًا دائمًا مُستمرًّا للمؤمنين؛ وذلك لأنَّ استعمال الفعل بصيغة المضارع يُفيد افتراض تكرُّر الحدث ودوامه واستمراره[1].

علَّةُ التَّعبير بالاسم الموصول وصلته: ﴿ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾:

ضرورة الإحسان في كلِّ مقولات المؤمنين

وَرَدَ في قَوْلِه تَعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ التَّعبير بالاسم الموصول وصلته: ﴿ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾، والنُّكتة في استعماله أنَّه يحتمل أن يكون صفةً لمحذوفٍ يدلُّ عليه فعل ﴿يَقُولُواْ﴾، تقديره: بالَّتي هي أحسن، أو: يقولوا التي هي أحسن من كلمة التَّوحيد والإقرار بالنُّبوَّة[2]، وقيل المعنى: وقل لعبادي المؤمنين إذا جادلوا الكفار في التوحيد أن يقولوا الكلمة التي هي أحسن[3]، وقيل نزلت في المشركين الذين كانوا يؤذون المؤمنين[4]، وقيل نزلت في عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين شتمه بعضُ الكفرة؛ فشتمه عمر، وهَمَّ بقتله؛ فكاد أن يُثير فتنةً[5].

غرضُ توسُّط ﴿هِيَ﴾ بين الاسم الموصول وصلته:

تأكيدُ الإحسان في المجادلة في الأحوال كلِّها

جاء في قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ توسُّط الضمير ﴿هِيَ﴾ بين الموصول وصلته: ﴿ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾؛ لما تشتمل عليه الجملةُ الاسمية من مزيد تأكيد الجملة الفعلية، ولدلالتها على ثبوت المجادلة والتزامها بالحُسنى في الأحوال كلِّها، كما أنَّ مجيء الضمير المُؤنَّث ﴿هِيَ﴾ يشعر بأنَّ المحذوف مؤنَّث، تقديره: الكلمة التي هي أحسن، أو: الطريقة ونحوها.

---

(1) فاضل السّامرّائيّ، معاني النحو: 4/ 78.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 458.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 277.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 132.
(5) الواحديّ، أسباب النزول، ص: 164.

فائدة التَّعبير بصيغة التَّفضيل: ﴿أَحۡسَنُۚ﴾:

تأثير الجدال بالحسنى في القلوب

آثر الذِّكْر الحكيم في قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ التعبيرَ بصيغة التَّفضيل ﴿أَحۡسَنُۚ﴾، واسم التَّفضيل مُستعملٌ في قوَّة الحُسن؛ أيْ: بالمجادلات التي هي بالغةُ الغاية في الحُسْن، ووجه الحُسن ألّا يكون ذِكْرُ الحُجَّة مخلوطًا بالشَّتم والسَّبِّ والتَّعيير والاستخفاف، ونظير هذه الآية قوله: ﴿۞وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: 46]؛ وذلك لأنَّ ذِكْرَ الحُجَّة لو اختلط به شيء من السَّبِّ والشتم؛ لقابلوكم بمثله، كما قال: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ﴾ [الأنعام: 108]، ويزداد الغضب، وتتكامل النَّفرة، ويمتنع حصول المقصود، أمَّا إذا وقع الاقتصار على ذِكْر الحُجَّة بالطَّريق الأحسن الخالي عن الشَّتْم والإيذاء؛ أثَّر في القلب تأثيرًا شديدًا[1].

نكتةُ فصلِ ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾:

فاسدُ الأقوال يُثيرُ مفاسدَ من عمل الشَّيطان

وَرَدَ قَوْله تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ مفصولًا عن الجملة السّابقة، وهي قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾؛ لوجود كمال الاتِّصال بينهما، وهو اتِّحاد الجملتَيْن اتِّحادًا تامًّا وامتزاجًا معنويًّا، بحيث تنزَّل الثّانية من الأولى منزلة نفسها[2]، فقد وقعت جُمْلَةُ ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ تعليلًا للأمر بقول التي هي أحسن، والمقصود من التَّعليل ألّا يستخفّوا بفاسد الأقوال؛ فإنَّها تُثير مفاسد من عمل الشَّيطان[3].

وقد يكونُ سببُ فصلِها عن سابقتها شبهُ كمال الاتِّصالِ، أو ما يُسمّى بالاستئنافِ البيانيِّ جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ: لِمَ أمرهم بذلك؟

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 20/ 355.
(2) القزوينيّ، الإيضاح: 3/ 108.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 132.

دلالة تأكيد جملة: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾:

تأكيد تعليل الأمر بالمجادلة بالحسنى مع الكفّار

أتى قَوْله تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ مؤكّدًا بحرف التّأكيد ﴿إِنَّ﴾ واسميَّة الجملة، وذكر المُسند إليه مرَّتيْن: مرَّةً بكونه مبتدأ، ومرَّةً بكونه فاعلًا مُضمرًا؛ لفرط التَّحذير من كيد الشَّيطان في الوسوسة في قلوب النّاس لإيقاع الشَّرِّ بينهم، ولتأكيد عِلِّيَّةِ الأمر أيضًا بالتزام الكلمة الحُسنى، وذلك لدَرْءِ نزغات الشياطين.

معنى (أل) في: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾:

شمول التَّعريف لشياطين الإنس والجنِّ

وَرَدَ في قَوْله تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ لفظ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ معرَّفًا باللّام، ويمكن أن تكون (أل) في الشَّيطان لتعريف الجنس؛ لأنَّ الشياطين كثيرة مرئية وغير مرئية، بل المرئيُّ ربَّما يكون أشدَّ، ويمكن أن تكون (أل) فيه للعهد، أي: الشّيطان المعهود وهو إبليس؛ لأنَّ جميع المعاصي برضا هذا الشَّيطان، والراضي يجري مَجرى الفاعل له، وتدخل ذرّيته فيه تبعًا[1].

نكتة التَّعبير بـ ﴿يَنزَغُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

نزغات الشّياطين كغرز الإبر والسّكاكين

في قَوْله تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ جاء استعمال الفعل ﴿يَنزَغُ﴾، والنَّزغ: النَّخْسُ والغَرْزُ[2]، وقيَّده بعضهم بأنَّه دخول شيءٍ في شيءٍ لإفساده، وقريب منه الفسخ بالسِّين، وهو الغرز بإبرة أو نحوها للوشم، وقلّما يُستعمل في غير فعل الشّيطان[3]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠﴾ [الأعراف: 200]، ومعنى النَّزْغ: حركة الشَّيطان بسرعة ليُوجِب فسادًا، فهذا يُخرج اللَّفظة عن مجرَّد الوسوسة.

---

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 1/ 94.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 200.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 229.

وفيه لغتان: (ينزَغُ) بفتح الزّاي، وهي المشهورة وبها القراءة، و(ينزِغُ) بكسر الزّاي على الأصل(1).

بلاغة الاستعارة في التَّعبير بالنَّزغ:

التّأثيرات الخفيَّة لـوسـاوس الشَّيطان الرَّديَّة

صورة بيانية بديعة تضمَّنها قَوْله تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾؛ وهي قوله: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ﴾، وإطلاق النَّزغ هنا على وسوسة الشَّيطان استعارة: شبَّه حدوث الوسوسة الشيطانية في النفس بنزغ الإبرة ونحوها في الجسم بجامع التأثير الخفيِّ، وشاعت هذه الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة بعد نزول القرآن حتى صارت كالحقيقة(2).

وجهُ عَوْدِ الضمير في ﴿بَيۡنَهُمۡۚ﴾:

اختصاصُ المؤمنين بإضافةِ التَّشريفِ وبالامتثال

وَرَدَ في قَوْله تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ ضمير جماعة العقلاء (هم) مُتَّصلًا بالظَّرف (بين)، واختلف العلماء في مرجعه بناء على اختلافهم في تفسير ﴿ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾؛ فقالت فرقة: ﴿ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ هي: (لا إله إلا اللّه)، ويلزم على هذا أن يُراد بقوله تعالى: ﴿لِّعِبَادِي﴾ جميع الخلق؛ لأنَّ جميعهم مدعوٌّ إلى توحيد اللّه وإفراده بالعبادة، ويجيء قوله بعد ذلك: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ غير مناسب للمعنى، إلَّا على تكرُّهٍ، بأن يجعل بَيْنَهُمْ بمعنى خلالهم وأثناءهم، ويجعل النزغ بمعنى الوسوسة والإضلال(3).

وذهب جمهور العلماء إلى أنَّ مرجع الضَّمير (هم) هم المؤمنون، لوجهيْن؛ **الأوَّل:** أنَّهم أُضيفوا إليه، وهذه إضافةُ شرفٍ لا يكون إلَّا للمؤمنين به، و**الثّاني:** أنَّ الَّذين يُخاطَبون بهذا الإرشاد ويكون منهم الامتثال، إنَّما هم مَن حصَّلوا أصل الإيمان(4).

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/ 463، والسَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المَصون: 7/ 371.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 229.
(3) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/ 464.
(4) ابن باديس، مجالس التَّذكير، ص: 113.

غرضُ تتابع المؤكِّدات في الفاصلة:

ضرورةُ معاداةِ الشَّيطانِ واجتنابِ موالاتِه

في قَوْله تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾ تتابعُ عدَّة مؤكِّدات لفظية ومعنوية، والنُّكتة في ذلك هي فرط التَّحذير من عداوة الشَّيطان الشَّديدة للإنسان، فافتُتِحَتِ الجملة بـ ﴿إِنَّ﴾ الَّتي هي أمُّ باب التَّوكيد، ثمَّ توسَّطها الفعل ﴿كَانَ﴾ الدّالُّ على الدَّوام والاستمرار، ثمَّ اختُتِمت بالصِّفة ﴿مُّبِينٗا﴾ المؤكِّدة لشدَّة العداوة بين الشَّيطان والإنسان، فضلًا عن أنَّ الجملة الاسميَّة تُفيد التَّوكيد، وكذلك ذُكر المُسند إليه مرَّتيْن: مرَّةً ظاهرًا، ومرَّةً مُضمرًا، فحريٌّ بالمؤمنين الاتِّعاظُ بهذا التَّحذير بمعاداة الشَّيطان واجتناب موالاته.

نكتة دخول ﴿كَانَ﴾ على خبر ﴿إِنَّ﴾:

عداوة الشَّيطان للإنسان قديمة مستمرَّة

في قوله تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾، استعمالُ الفعل ﴿كَانَ﴾ الَّذي يأتي في الأصل للاتِّصاف بالخبر في الماضي مع الانقطاع، غير أنَّه يخرج لدلالة الدَّوام والاستمرار بمعنى (لم يزل)، فتختصُّ (كان) بمرادفة (لم يزل كثيرًا)، أي: إنَّها تأتي دالَّة على الدَّوام[1]، وهي الدلالة المقصودة في هذه الآية، فالعداوة الحاصلة بين الشَّيطان وبين الإنسان عداوةٌ قديمة مُستمرَّة في خلقته قد جُبِل عليها، وهي مُتقرِّرة من وقت نشأة آدم عليه السلام ومُتجدِّدة لذرّيَّته على الدَّوام، قال تعالى حكاية عنه: ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا ٦٢﴾ [الإسراء: 62].

معنى اللّام في ﴿لِلۡإِنسَٰنِ﴾:

اختصاصُ الإنسانِ بعداوةِ الشَّيطانِ

وردَ في قوله تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾ استعمالُ حرف الجرِّ (اللّام) متَّصِلًا بـ(الإنسان)، ومعنى هذه اللّام هو الاختصاصُ؛ أي: اختصاصُ الإنسان دون غيره بعداوة الشَّيطان.

(1) السّيوطيّ، همع الهوامع: 1/ 120.

نكتةُ تقديم ﴿لِلۡإِنسَٰنِ﴾ على خبر ﴿كَانَ﴾:

البيانُ بتقديم ما حقُّه التأخيرُ للاهتمامِ

وَرَدَ في قَوْله تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾، تقديمُ شبه الجملة ﴿لِلۡإِنسَٰنِ﴾ على الخبر ﴿عَدُوّٗا﴾؛ لنكتةٍ بلاغية وهي الاختصاص، ويجعل أئمة علم المعاني التّخصيص لازمًا للتّقديم[1]، كما يدلُّ على ذلك استعمال حرف الجرِّ (اللام) الدّالِّ أيضًا على الاختصاص؛ أي: اختصاص الإنسان دون غيره بعداوة الشَّيطان، كما يمكن حَمْلُه على الاهتمام؛ لأنَّ السِّياقَ في نصح الإنسان وتحذيره من نزغات الشَّياطين.

نكتةُ تنكيرِ ﴿عَدُوّٗا﴾:

عداوةُ الشَّيطانِ للإنسانِ تفوقُ الوصفَ

وَرَدَ في قَوْله تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾ لفظ ﴿عَدُوّٗا﴾ نكرةً، والنُّكتة البلاغية في ذلك أنَّ التَّنكير يدلُّ على الإبهام، والإبهامُ له علاقةٌ مباشرةٌ بالتَّعظيم والتَّفخيم، فإنَّ مَن أراد أن يُعظِّم شيئًا؛ أبهمه بحيث لا يُكتَنَهُ وصفُه، وتذهب النَّفس فيه كلَّ مذهب، فعداوة الشَّيطانِ للإنسانِ عظيمةٌ لا يُقدَّر قَدرها، وقد أقسم عليها بالأيمان المغلَّظة في قوله تعالى حكاية عنه: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢﴾ [ص: 82]، ويمكن أن يكون سببُ التَّنكير: التَّحقيرُ والتَّهوين لشأن الشَّيطان.

فائدة وصف عداوة الشَّيطان بـ﴿مُّبِينٗا﴾:

عداوة الشَّيطان صريحة ظاهرة أو خفيَّة مُستترة

جاء التّعبير بلفظ (المبين) وَصفًا لعداوة الشَّيطان في قَوْلِه تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾، ومعنى المبين: الظَّاهر العداوة، وقد ظهرت عداوته سافرةً في رفضه السُّجود لآدم عليه السلام أمام جميع الملائكة، ثمَّ توعُّده المُتكرِّر بإغواء ذرّية آدم عليه السلام في آيات كثيرة؛ مثل: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢﴾ [ص: 82]، وقوله:

---

(1) السّكّاكي، مفتاح العلوم، ص: 233.

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧﴾ [الأعراف: 16 - 17] فأيُّ عداوة أبين من هذه؟!

رأيٌ آخر للمُفسِّرين:

ذهب بعض المفسِّرين إلى أنَّ المبين هنا من (أبان) بمعنى (بان)؛ أيَ: بَعُدَ، وليس من أبان الذي همزته للتَّعدية بمعنى: أظهر؛ لأنَّ الشَّيطان لا يُظهر لنا العداوة، بل يُلبِّس لنا وسوسته في لباس النَّصيحة أو جلب الملائم، ولذلك سمّاه اللّه وليًّا، فقال: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ١١٩﴾ [النساء: 119]، إلّا أنَّ اللّه فضحه؛ فلم يَبْقَ مسلمٌ تروج عليه تلبيساته حتى في حال اتِّباعه لخطواته، فهو يعلم أنَّها وساوسه المُضرَّة إلّا أنَّه تغلبه شهوته وضعف عزيمته ورقَّة ديانته(1).

نكتةُ العدولِ من الجملةِ الفعليَّةِ إلى الاسميَّةِ:

ثبوتُ عداوةِ الشَّيطانِ وتجدُّد نزغاتِه في كلِّ آنٍ

جاءت الجملة الفعلية ﴿يَنزَغُ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ بصيغة المضارع الدَّالَّة على التَّجدُّد الاستمراريِّ، فوساوسُ الشَّيطانِ لا تنقطع عن ابن آدم، وتتجدَّد في كلِّ حالٍ، ولهذا أُمر المسلمُ بالاستعاذة منه مرارًا في كلِّ أحواله ليلًا ونهارًا.

وورد قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾ جملة اسميَّة لدلالتها على الاستقرار والثبوت، بخلاف الجملة الفعلية، فعداوة الشيطان صفة جِبِلِّيَّة ثابتة له لا مَحيدَ له عنها، وقد قرَّر علماءُ المعاني أنَّ موضوع الاسم ثابتٌ به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدُّده شيئًا بعد شيء، وأمّا الفعل؛ فموضوعه على أنَّه يقتضي تجدُّد المعنى المُثبَت به شيئًا بعد شيء(2).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 104.
(2) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 174.

۞ الفروقُ المُعجَمِيَّةُ:

النّزغُ والوسوسةُ:

وســـــاوسُ الشَّيطانِ أعـمُّ دلالةً من النَّزغِ

يشترك لفظ (النّزغ) و(الوسوسة) في أنَّ كليهما من أفعال الشَّيطان الخفيَّة، ويختلفان في أنَّ النزغ الشّيطانيّ مأخوذ من نزغ الإبرة ونحوها في الجسم بجامع التأثير الخفي، وشاعت هذه الاستعارة بعد نزول القرآن حتى صارت كالحقيقة(1)، والوسوسة مأخوذة من الوسواس؛ وهو الصوت الخفي للحُلِيِّ.

كما يختلفان أيضًا في الاستعمال، فالنَّزغ يختصُّ بأنَّه دخولُ شيءٍ في شيءٍ لإفساده، والمقصود منه الإفساد بين النّاس، إخوة كانوا أو أصدقاء أو غيرهم.

أمّا (الوسوسة)؛ فدلالتها أعمُّ من دلالة (النزغ)، فتشمل كلَّ الشُّرور من تزيين المعصية، وإحداث الفتن، والتَّثبيط عن الطَّاعات وغيرها، وتكون بصوتٍ مسموعٍ وغير مسموعٍ؛ لأنَّها قد تكون من الإنس الذين يبثّون الشرَّ والشُّكوك في صدور الناس، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ [الناس: 5 - 6].

ويشهد لهذا التَّفريق قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِى وَبَيۡنَ إِخۡوَتِىٓۚ﴾ [يوسف: 100]، فاستُعمل النزغُ للعداوة والفساد التي زرعها الشَّيطان بين يوسف عليه السلام وإخوته، وأمّا في قوله تعالى: ﴿فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ۝١٢٠﴾ [طه: 120]؛ فقد زيَّن له معصية الأكل من الشجرة، فاستعمل الوسوسة دون النَّزغ لعدم وجود خصومة.

الإغواء والإضلال:

يشترك لفظا (الإغواء) و(الإضلال) في أنَّ كليهما من أعمال

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 09/ 229.

الضَّلال عدمٌ، والغَواية وجودٌ فاسد

شياطين الإنس والجنِّ، وهما مشتقّان من (الغيّ) و(الضّلال)، والهمزة للتعدية، وقد ورد هذان اللفظان في آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ [النّجم: 2]، والعطف يقتضي المغايرة؛ فقال بعض العلماء في الفرق بينهما إنَّ الضَّلال: عدم الاهتداء إلى الطريق المُوصل إلى المقصود، وهو مجاز في سلوك ما يُنافي الحق، والغَواية: فسادُ الرأي وتعلُّقه بالباطل(1)، كما أنَّ الضَّلال يُستَعمل في مقابلة الهدى، والغيُّ في مقابلة الرُّشد، قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: 146] وقال تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [البقرة: 256]، إضافةً إلى أنَّ الضَّلال أعمُّ استعمالًا في الوضع؛ تقول: ضلَّ بَعيري ورَحْلي، ولا تقول: غَوَى، فالمُراد من الضَّلال ألّا يجد السالك إلى مقصده طريقًا أصلًا، والغَواية ألّا يكون له طريق إلى المَقصِد مستقيمٌ.

يدلُّك على هذا أنَّك تقول للمؤمن الذي ليس على طريق السَّداد: إنَّه سفيهٌ غير رشيدٍ، ولا تقول: إنَّه ضالٌّ، ويُؤيِّد ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء: 6]، فنقول: الضَّلال كالعدم، والغَواية كالوجود الفاسد في الدرجة والمرتبة(2).

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 92.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 20/ 355.

﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ٥٤﴾ [الإسراء: 54]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الهدايةُ والضَّلالُ بيدِ اللهِ وحدَه

لـمَّا أمر اللّه سبحانه بقول الكلمة التي هي أحسن؛ جاء في هذه الآية تفسيرها بأن يقولوا لهم هذه الكلمة: ربُّكم أعلم بكم، إن يشأ يرحمكم بالتّوفيق للإيمان، أو إن يشأ يُعذِّبكم بالإماتة على الكفر، وأن يعلِّقوا أمرهم على مشيئة اللّه تعالى[1].

وبعد أن بيَّن اللّه أحوال الكافرين، ودعا المؤمنين إلى التزام القولِ الحسن، وحذَّرهم من إغواء الشيطان؛ خاطبَ المُكلَّفين جميعًا بأنَّه مُطَّلع على أعمالهم وأقوالهم ونياتهم[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُعَذِّبۡكُمۡۚ﴾: أصله (عذب)، والعين والذَّال والباء أصل صحيحٌ، لكنَّ كلماته لا تكاد تنقاس، واختلف في أصل العذاب؛ فناسٌ يقولون: أصل العذاب الضَّرب، ثم استُعير ذلك في كلِّ شدَّة[3]، وقيل: أصل التَّعْذيبِ إكثارُ الضَّرب بِعَذَبَةِ السَّوطِ؛ أي: طرفها، وقيل: هو من قولهم: ماءٌ عَذَبٌ إذا كان فيه قَذًى وكَدَرٌ، فيكون (عَذَّبْتُهُ)، كقولك: كدَّرتُ عيشَهُ[4]، ومعنى التَّعذيب في الآية: بأن يخذلكم عن الإيمان، فتموتوا على شرككم، فيعذِّبكم يوم القيامة بكفركم به[5].

2) ﴿وَكِيلٗا﴾: أصله (وكل)، والواو والكاف واللّام أصلٌ صحيحٌ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 91.
(2) مجمع البحوث الإسلامية، التفسير الوسيط: 5/ 768.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عذب).
(4) الرّاغب، المُفردات: (عذب).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 624.

يدلُّ على اعتماد غيرك في أمرك، وسُمّي الوكيل؛ لأنَّه يُوكَل إليه الأمر[1]، والوَكيلُ فعيلٌ بمعنى المفعول، قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٨١﴾ [النِّساء: 81]؛ أي: اكتفِ به أن يتولّى أمرك، ويَتَوَكَّل لك، وهو المعنى المقصود في الآية؛ إذ لم يجعل اللّه النَّبيَّ وكيلًا عن الكافرين يتولّى أمر هدايتهم، ويُجبرهم على الإيمان، إنَّما عليه البلاغ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

تعليم المؤمنين كيفية الدعوة إلى صراط الله المستقيم

يقول اللّه تعالى للنّاس: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ﴾، فيوفِّقكم للإيمان والعمل الصالح، أو إن يشأ يخذلْكم عن الإيمان، ويُمِتْكم على الكفر، فيعذِّبكم، فمثل هذا الكلام ينبغي أن يقولَه المؤمنون للكافرين، لا أن يُصدروا الحُكم عليهم بأنَّهم أهل النار، فيُزعجَ ذلك المشركين، فيتمادَوا في العناد والمكابرة، وما أرسلناك - أيُّها الرسول - عليهم وكيلًا تُدَبِّر أمرهم، وتُجازيهم على أفعالهم، وإنَّما مُهمَّتك تبليغُ ما أُرْسلتَ به، وبيان الصراط المستقيم[2].

وترشد الآيةُ الكريمة إلى أنَّ اللّه تعالى لا يريد للعباد إلّا ما هو خير، ولا يأمرهم إلّا بما فيه المصلحة لهم؛ إذ قد تريدون شيئًا والخير في خلافه، وإلى بيان وظيفة الرسول ﷺ بأنَّه مُبلِّغ عن اللّه ما أمره بتبليغه[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصلِ الآيةِ عن سابقاتِها:

تخيُّرُ أحسنِ الألفاظِ في مخاطبةِ المشركين

ورد قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ﴾ مفصولًا عن الجملة السابقة؛ لأنَّه استئناف واقع موقع التعليل للأمر بقول الأحسن؛ أي: ربكم - أيها العباد - أعلم بكم، وبما يؤول أمركم إليه من سعادةٍ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وكل).

(2) الجزائريُّ، أيسر التفاسير: 3/ 240، ونخبة من العلماء، التّفسير المُيسَّر، ص: 287.

(3) السَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 460.

وشقاوة، إن يشأ يرحمكم بهدايتكم، أو إن يشأ يُعذِّبكم بإضلالكم، فلا تحتقروا ـ أيها المؤمنون ـ المشركين، فتقطعوا بأنَّهم من أهل النار، فتُعيِّروهم بذلك، فإنَّه يجرُّ إلى الإحَنِ ووَحَرِ الصدور وغيظِ القلوب بلا فائدة؛ لأنَّ الخاتمة مجهولة، ولا تتجاوزوا فيهم ما آمركم به من قول وفعل، فإنَّه الأحسن[1].

فائدة التَّعبير بـ ﴿رَّبُّكُمۡ﴾ وسرُّ إضافته:

الـرَّبُّ أعلم بدخائل النُّفوس وقابليَّتها للاصطفاء

ورد في قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ﴾ التَّعبير بلفظ الرُّبوبيَّة مُضافًا إلى ضمير المؤمنين الشّامل للرَّسول؛ تذكيرًا بأنَّ الاصطفاء للخير شأنٌ من معنى الرُّبوبيّة التي هي تدبير شؤون المربوبين بما يليق بحالهم؛ ليكون لإيقاع المُسند على المُسند إليه بعد ذلك بقوله: ﴿أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ﴾ وَقْعٌ بديعٌ؛ لأنَّ الَّذي هو الرَّبُّ، هو الذي يكون أعلم بدخائل النُّفوس وقابليتها للاصطفاء[2].

غرضُ التَّعبير بصيغة المبالغة ﴿أَعۡلَمُ﴾:

علمُ اللهِ تعالى المحيطُ بكلِّ شيءٍ

جاء في قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ﴾ التَّعبير باسم التَّفضيل ﴿أَعۡلَمُ﴾ الذي يقتضي في اللُّغة المفاضلة في صفة بين اثنيْن، وقد ذهب بعضُ العلماء إلى نفي المُفاضلة، فقال: إنَّ قوله: ﴿أَعۡلَمُ﴾ هنا بمعنى: عَليمٍ، نحو قولهم: اللّه أكبر؛ بِمَعْنَى: كَبير[3].

وأثبت بعضُهم المفاضلة على بابها، فقال: إنَّ ربَّكم أعلم؛ أيْ: من كلِّ عالمٍ بمَنْ في السموات والأرض منهم ومن غيرهم، بأحوالهم ومقاديرهم وآجالهم وما يستأهل كل واحد منهم؛ لأنَّه هو الذي خلقهم، وفاوت بينهم في أخلاقهم وهيئاتهم[4].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 442.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 133.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 278.

(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 443.

معنى الباء في قوله: ﴿بِكُمۡۖ﴾:

تعدية أفعل التفضيل بالحرف

أتى في قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ﴾ حرف الجرِّ في ﴿بِكُمۡۖ﴾؛ دالًّا على المُلابسة والتَّعدية؛ وذلك لأنَّ أفعل التفضيل لا ينصب بنفسه مفعولًا به؛ لضعف شبهه بالفعل؛ بل يتعدّى إلى المفعول بـ(الباء) أو بـ(اللّام) أو بـ (إلى)، ونصبه المفعول نادر[1].

نكتةُ فصل جملة: ﴿إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ﴾ عمّا قبلها:

علمُ اللهِ بمَن يستحقُّ الرَّحمة أو العذابَ

ورد قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ﴾ مَفْصولًا عن الجملة قبلها: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ﴾؛ لوجود كمال الاتِّصال بينهما، وهو اتِّحاد الجملتيْن اتِّحادًا تامًّا وامتزاجًا معنويًّا، بحيث تُنزَّل الثّانية من الأولى منزلةَ نفسها[2]؛ فقد وقعت جُمْلَةُ: ﴿إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ﴾ مُفسِّرةً ومُبيِّنة للمقصود من جملة: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ﴾[3].

المقصودُ بالخطابِ في الآية:

تردُّد المعنى بين خطاب المؤمنين أو خطاب الكافرين

اختلف المُفسِّرون في المخاطَب بقوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ﴾؛ تبعًا لخلافهم في المقصود من قوله: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾؛ فقيل: المُراد به: المؤمنون، فعلى هذا التَّقدير فقوله: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ﴾ خطاب للمؤمنين؛ والمعنى: إن يشأ يرحمكم، والمُراد بتلك الرحمة: الإنجاءُ من كفّار مكَّة وأذاهم، أو إن يشأ يعذبكم بتسليطهم عليكم، ثم قال: وما أرسلناك - يا محمد - عليهم وكيلًا؛ أيّ: حافظًا وكفيلًا، فاشتغِل أنت بالدعوة، ولا شيء عليك من كفرهم، فإن شاء اللّه هدايتهم هداهم، وإلّا فلا.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/ 30.

(2) القزويني، الإيضاح: 3/ 108.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 134.

وقيل إنَّ المراد من قوله: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى﴾ هم الكفّار؛ وذلك لأنَّ المقصود من هذه الآيات الدعوة، فلا يبعد في مثل هذا الموضع أن يُخاطَبوا بالخطاب الحَسَن؛ ليصير ذلك سببًا لجذب قلوبهم ومَيْل طباعهم إلى قبول الدين الحق[1].

معنى ﴿إن﴾ وسرُّ التَّعبير بها دون (إذا):

عدم الجزم بمصير أيِّ إنسان

جاء في قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ﴾ اسْتِعْمالُ حرف الشَّرط الجازم ﴿إن﴾ دون (إذا)؛ لنكتة بلاغية، وهي أنَّ ﴿إن﴾ يَرِد عمومًا في المعاني المحتملة الوقوع، والمشكوك في حصولها، والموهومة والنّادرة والمستحيلة، وسائر الافتراضات الأُخْرى، أو ما تُنزَّل هذه المنزلة؛ خروجًا عن مقتضى الظّاهر دون مقتضى الحال، وأمّا (إذا) فيُستعمل عندما يكون الشرط فيها مقطوعًا بوقوعه[2].

فلمّا كان سياق الآية الإخبار بعدم القطع بمصير أيِّ عبدٍ لا إلى جنَّةٍ ولا إلى نارٍ؛ ناسَبَه التَّعبير بـ﴿إن﴾ المُفيدة لاحتمال الوقوع، وهو أدلُّ على المَعْنى من: (إذا شاء اللّه)؛ لأنَّ ﴿إن﴾ تُعلِّقُ وُقوعَ الأمرِ بمشيئةِ اللّه، فقد يشاء ﷻ تحقُّق الأمر، وقد يشاء غير ذلك، وذلك بحسب المصلحة التي يعلمها اللّه ﷻ وحده، وهو أعلم بما ينفعُ النَّاس، أمَّا لو قيل: (إذا شاء اللّه)؛ فكأنَّه جزمٌ بأنَّ اللّه ﷻ سيشاءُ، وفي ذلِكَ مُخالفَةٌ صريحةٌ للمقصود.

نكتة التَّعبير بفعل المشيئة بالمضارعيَّة:

مشيئةُ اللّه قديمةُ النَّوع متجدِّدةُ الآحادِ

في قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ﴾ استُعمل فعل المشيئة بصيغة المضارع؛ وذلك لأنَّ المُضارِع يُفيد افتراضَ تجدُّد الفعل واستمراره، فصفة مشيئة اللّه عند

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 20/ 355.

(2) فاضل السَّامرّائيّ، معاني النحو: 4/ 69.

أهل السُّنَّة والجماعة قديمة النَّوع مُتجدِّدة الآحاد، فاللّه ﷻ كلَّ يوم في شأن، فيقضي ما يشاء في عباده من مقادير، واللّه ﷻ لم يزل، ولا يزال، يفعل ما يشاء، ويتكلَّم إذا يشاء، قال تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۝٤٠﴾ [آل عمران: 40][1]، كما يُستفاد من صيغة المضارع: الاستقبال، وهو مناسب لما يقوله المُفسِّرون من أنَّ الرحمة المذكورة والعذاب سيكونان يوم القيامة في الجنَّة أو النّار، ولهذا عبَّر بالاستقبال.

فائدة التَّعبير بالجملة الشَّرطيَّة:

ارتباط الرّحمة والعذاب بمشيئة ربِّ الأرباب

ورد في قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ﴾ التَّعبير بالجملة الشَّرطيَّة؛ لأنَّ معنى الشرط أن يتوقَّف وقوع الثاني على وقوع الأول، فإذا وقع الأول؛ وقع الثاني، وكذلك في هذه الآية فإنَّ نزول الرحمة أو العذاب موقوف على مشيئة اللّه ﷻ وحده، وقد تكرَّر كثيرًا في القرآن الكريم ربط الرَّحمة والعذاب بمشيئة اللّه، نحو: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ۝٢١﴾ [العنكبوت: 21].

نكتة حذف فاعل ﴿يَشَأۡ﴾:

الإضمار في موضعِ الإظهارِ لتفادي التَّكرار

أتى الفاعل في قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ﴾ ضميرًا مستترًا عائِدًا إلى الرَّبِّ ﷻ دون الاسم الظاهر تفاديًا للتَّكرار، فقد تقدَّم ذِكر اسم اللّه في قوله: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ﴾ في الآية نفسها، وكذلك فإنَّه لـمَّا كان معلومًا أنَّ مشيئة الرَّحمة أو العذاب لا تكون إلّا للّه ﷻ؛ أيْ: إنَّ ما شاء اللّه كان، وما لم يشأ لم يكن؛ جازَ عدم ذِكر الفاعل ثقة في ظهوره، والبلاغةُ الإيجازُ.

غرضُ حذفِ مفعولِ المشيئةِ:

للإيجازِ ولدلالةِ جوابِ الشّرطِ عليه

جاء في قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ﴾

(1) ابن أبي العزّ، شرح الطحاوية، ص: 85.

استعمالُ فعل المشيئة في سياق الشَّرط دون ذكر مفعوله، والنُّكتةُ في ذلك أنَّ شأن فعل المشيئة والإرادة ونحوهما إذا وقع متَّصلًا بما يصلح لأن يدلَّ على مفعوله؛ حُذِفَ المفعول، مثل وقوعه صلة لموصول يحتاج إلى خبر نحو: ما شاء اللّٰه كان؛ أيْ: ما شاء كونه كان؛ لظهور أنَّ الجواب هو دليل المفعول[1]، وكذلك في هذه الآية؛ فمفعول فعل المشيئة محذوفٌ؛ لأنَّ المُراد منه ما يساوي مضمون جواب الشرط، فحُذِفَ إيجازًا، والتقدير: (إن يشأ رحمتَكم يرحمكم، أو إن يشأ تعذيبَكم يعذبكم)[2]، إلّا أنَّ البلاغة في أن يُجاء به محذوفًا؛ لما فيه من دقيق الصَّنعة ومن جليل الفائدة، فهو إضمارٌ على شريطة التفسير، فيُعطي هذا الحذفُ النَّظمَ حُسنًا وغرابة، وذلك أنَّ في البيان إذا ورد بعد الإبهام وبعد التحريك له لطفًا ونبلًا لا يكون إذا لم يتقدَّم ما يحرِّك، فمتى علَّق المتكلِّم أمرًا بمشيئة علم السامع أنَّه يعلِّق هذه المشيئة في المعنى بشيء، فهو يضع في نفسه أنَّ ههنا شيئًا تقتضي مشيئته له أن يكون، أو ألّا يكون، غير أنَّه لا يظهر؛ لأنَّ الواجب في حكم البلاغة ألّا ينطق بالمفعول به المحذوف، وألّا يظهر في السياق، ومتى ظهر؛ صار الكلام غثًّا يمجُّه السَّمع، وتعافه النفس[3].

الموقع النَّحويُّ لقوله: ﴿يَرۡحَمۡكُمۡ﴾ ودلالته:

أتى الفعل ﴿يَرۡحَمۡكُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ﴾ جواب شرط لفعل الشرط، وهو ﴿يَشَأۡ﴾؛ فإنَّ الرحمة موقوفة على مشيئة اللّٰه ﷻ وحده.

الرَّحمة موقوفة على مشيئة الله ﷻ وحده

معنى ﴿أَوۡ﴾ في الآية:

ورد في قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ﴾

الرّحمة والتّعذيب لا يجتمعان على العباد

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 321.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 134.
(3) الجُرجاني، دلائل الإعجاز: 1/ 163.

استعمال حرف العطف ﴿أَوۡ﴾ الدَّالِّ على أحد الشّيئَيْن؛ لأنَّ الرّحمة والتّعذيب لا يجتمعان، فمجيئها هنا للتّقسيم[1].

نكتةُ تكرار التَّعبير بـ﴿يَشَأۡ﴾ وجوابه:

تجدُّدُ الفعل، ودلالته على الدَّوام والاستقبال

في قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ﴾ ورد التَّعبير عن فعل الشرط والجزاء بصيغة المضارع؛ وذلك لأنَّ المُضارِع يُفيدُ افْتِراض تجدُّد الفعل واستمراره، كما يُفيد الاستقبال، فالرَّحمةُ والعذاب سيكونان يوم القيامة في الجنَّة أو النّار، ولهذا عبَّر عنهما بالاستقبال.

الموقع النَّحويُّ لقوله: ﴿يُعَذِّبۡكُمۡۚ﴾ ودلالته:

العذابُ موقوفٌ على مشيئة الله ﷻ وحده

ورد في قوله تعالى: ﴿أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ﴾ الفعل ﴿يُعَذِّبۡكُمۡۚ﴾ جواب شرط لفعل الشرط، وهو ﴿يَشَأۡ﴾؛ فإنَّ العذاب موقوفٌ على مشيئة اللّه ﷻ وحده.

فائدةُ إعادة شرط المشيئة:

عدم القطع لمعيَّن بجنَّة أو نار

أُعيد شرط المشيئة في قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ﴾ في الجملة المعطوفة لتأكيد أنَّ كلًّا من الرَّحمة والعذاب لا يكونان إلّا بمشيئة اللّه، فدخول الجنَّة أو النّار موقوفٌ على مشيئة اللّه وحده، ولا يمكن القطع لأيٍّ مخلوق بهما، فهما من خصائص الرُّبوبية.

سرُّ التَّعبيرِ عن الهدايةِ والضَّلالِ بالرَّحمةِ والعذابِ:

الاهتداء سبب للرّحمة، والضّلال سبب للعذاب

في قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ﴾ صورةٌ بيانية بديعة، حيث ذَكَرَ اللّه تعالى الرَّحمة والتَّعذيب، وكنّى بهما عن الاهتداء والضَّلال؛ بقرينة مقارنته لقوله: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ﴾ الذي هو كالمقدمة، وسلك سبيل الكناية بهما

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 134.

لإفادة فائدتيْن: صريحهما وكنايتهما، ولإظهار أنَّه لا يُسأل عمّا يفعل؛ لأنَّه أعلم بما يليق بأحوال مخلوقاته، فلمّا ناط الرحمة بأسبابها والعذابَ بأسبابه، بحكمته وعدله؛ عُلِمَ أنَّ معنى مشيئته الرحمة أو التعذيب هو مشيئةُ إيجاد أسبابهما، وفعل الشرط محذوف، والتَّقدير: (إن يشأ رحمتَكم يرحمْكم، أو إن يشأ تعذيبَكم يُعذِّبْكم)، على حُكم حذف مفعول فعل المشيئة في الاستعمال[1].

نكتة تقديم مشيئة الرَّحمة على مشيئة العذاب:

رحمة الله سبقت غضبه

ورد في قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ﴾ تقديمُ مشيئة الرَّحمة على مشيئة العذاب؛ وذلك موافق لما ورد في حديث أبي هريرة ﵁ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: "إنَّ اللّه كَتَبَ كِتابًا قَبْلَ أنْ يَخْلُقَ الخَلْقَ: إنَّ رَحْمَتي سَبَقَتْ غَضَبِي، فَهو مَكْتُوبٌ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ"[2]، وكذلك فإنَّ الربَّ تعالى تَسمّى بالغفور الرحيم، ولم يَتسمَّ بالمُعذِّب ولا بالمعاقِب؛ بل جعل العذابَ والعقابَ في أفعاله، كما قال تعالى: ﴿۞نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ۝٥٠﴾ [الحِجْر: 49 - 50] وهو كثير في القرآن الكريم.

وكذلك بالنسبة لأهل النّار، فإنَّ رحمته فيهم سبقت غضبه، فإنَّه رحمهم أنواعًا من الرحمة قبل أن يغضبوه بشركهم، ورحمهم في حال شركهم، ورحمهم بإقامة الحجَّة عليهم، ورحمهم بدعوتهم إليه بعد أن أغضبوه، وآذَوا رسله، وكذَّبوهم، وأمهلهم، ولم يعاجلهم بل وسعتهم رحمته[3].

بلاغةُ الطِّباقِ بين الرَّحمةِ والعذاب:

توضيحُ المعنى بجمعِ اللفظِ وضدّهِ

في قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ﴾ طباقٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 134.
(2) مُتفقٌ عليه، رواه البخاري (7554)، ومسلم (2751).
(3) القمّاش، مصباح التفاسير: 7/ 645.

بديع بين لفظي ﴿يَرۡحَمۡكُمۡ﴾، و﴿يُعَذِّبۡكُمۡۚ﴾، وهو مُحسِّنٌ معنويٌّ، فبين تقابُلِ الرَّحمة والعذاب وتخالفِهما تضادٌّ يُروِّع النَّفس، ويُثير الذِّهن، ويجذب الانتباه، ويزيد الكلام حُسنًا وطرافة، كما يُقوّي المعنى؛ إذ بضدِّها تتمايز الأشياءُ.

معنى الواو في قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾:

بيانُ الهدايةِ والضَّلال من الله، أو تقريرُ رفع الحرج عن الرّسول الكريم

وُصِلت جملة: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾ في الآية الكريمة بما قبلها بحرف الواو العاطفة؛ لزيادة بيان أنَّ الهداية والضَّلال من الله تعالى، وأن النَّبيَّ ﷺ غير مسؤول عن استمرار مَن استمرَّ في الضَّلالة، أو أنَّ الواوَ استئنافية[1]؛ لتقرير إزالة الحرج عنه فيما يجده من عدم اهتداء مَن يدعوهم؛ أيْ: ما أرسلناك لتُجبرهم على الإيمان؛ وإنَّما أرسلناك داعيًا[2].

معنى حرفِ النَّفي (ما):

المبالغةُ في توكيدِ مُهمَّةِ الرسولِ بالتبليغِ

جاء النَّفي في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾ بِحَرۡفِ (ما) النّافية، لتأكيد أنَّ الهداية والضَّلال من تقدير الله تعالى وحده، وأنَّ الرَّسول لا أثر له في ذلك سوى التَّبليغ، وكلّما كان السِّياقُ القرآنيُّ يحتاج إلى مبالغةٍ في توكيد النَّفي؛ جيء به منفيًّا بـ (ما) النّافية؛ لما تتميَّز به عن سائر حروف النَّفي من خصائص: كنفي الحال، ونفي الجنس مُتَّصلة بمنفيِّها أو منفصلة عنه، واقتران اسمها بـ (من) الزائدة الدَّالَّة على الاستغراق والتّوكيد[3].

بلاغةُ الالتفاتِ من الغَيْبةِ إلى التكلّم:

رســولُ الــرَّبِّ العظيمِ عظيمٌ كريمٌ

ورد في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾ الالتفات من ضمير الغيْبة في الجمل السّابقة في قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ

(1) دعّاس، إعراب القرآن: 2/ 194.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 135.
(3) فاضل السّامرّائيّ، معاني النحو: 1/ 253.

﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ إلى ضمير التكلُّم في قوله: ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾؛ لأنَّه خطاب للنبيِّ ﷺ، تسلية له عن كفر قومه، وخُفِّف عنه بأنَّ وظيفته البلاغ لا الهداية، ودلَّت نون المعظِّم نفسه سبحانه أنَّ النَّبيَّ ﷺ مرسل من عظيم، ورسول العظيم عظيم.

نكتةُ تعدية فعل الإرسال بـ(على):

وظيفةُ الرَّسول التبليغ لا المغالبة على الإيمان

في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أتى الفعل (أرسل) متعدّيًا بـ(على) دون (إلى)؛ لتضمُّنه معنى الغلبة والسُّلطة، فالنبيُّ لم يُرسل لإكراه النّاس وإرغامهم على الهداية ومنعهم من التَّكذيب، فهو نظير قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُۗ﴾ [الشورى: 48] [1]، وقوله: ﴿۞لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُۗ﴾ [البقرة: 272].

سرُّ تقديم شبه الجملة: ﴿عَلَيْهِمْ﴾:

الاهتمام بقوم النَّبيِّ ﷺ

تقدَّم شبه الجملة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على متعلقها ﴿وَكِيلًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾، والنُّكتةُ في تقديمه الاهتمامُ بقوم النَّبيِّ ﷺ، إضافة إلى رعاية الفاصلة [2].

الموقعُ النَّحويُّ لـ﴿وَكِيلًا﴾ ودلالته:

هدايةُ القلوب بيد الله تعالى وحده

لفظُ ﴿وَكِيلًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ جاء حالًا من كاف ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾، وهو فعيل بمعنى مفعول؛ أيْ: موكولًا إليك أمرهم، فتحاول هدايتهم [3].

نكتةُ تنكيرِ ﴿وَكِيلًا﴾:

بيانُ أصل الحالِ، وقصْدُ الإبْهام والتَّعْظيم

ورد في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ لفظ ﴿وَكِيلًا﴾ منكَّرًا، والغرضُ البلاغيُّ من التَّنكير فيه هو قَصْدُ الإبْهام

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 287.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 135.
(3) درويش، إعراب القرآن: 5/ 459.

والتَّعْظيم، إضافةً إلى أنَّ الأصلَ في الحال أن يكون نكِرةً، كما هو مُقرَّرٌ في علم النَّحو.

فائدةُ الخبر: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾:

استيعابُ نفي أسباب التَّبعة عنه في عدم إيمانهم

تضمَّن قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾ خبرًا للنَّبيِّ صلّى عليه وسلَّم فائدته: ما أنت بوكيل منّا عليهم، أو: ما أنت بوكيلٍ منهم على تحصيل نفعهم كإيفاء الوكيل بما وكَّله عليه مُوكِّله، وهذا استيعابٌ لنفي أسباب التَّبِعَة عنه في عدم إيمانهم، فلا تبعةَ عليك - أيُّها الرسول - منهم ولا تقصير؛ لانتفاء سبب التَّقصير، إذ ليس مقامك مقام وكيل، فالخبر أيضًا مُستعمَلٌ في التَّذكير بلازِمِه، لا في حقيقته من إفادة الْمُخبَرِ به، وعلى كلا المعنيَيْن لا بدَّ من تقدير مُضافٍ في قوله: عليهم؛ أيِّ: على نفعهم.

تسلية النبي ﷺ

والغرض منه تسليةُ النَّبيِّ ﷺ؛ ليُزيح عنه كَرْبَ إعراضهم عن الإسلام؛ لأنَّ ما يحصل له من الكَدَر لإعراض قومه عن الإسلام يجعل في نفسه انكسارًا، كأنَّه انكسار مَن عُهِدَ إليه بعملٍ فلم يتسنَّ له ما يُريده من حُسن القيام، فذكَّره اللّه تعالى بأنَّه قد أدَّى الأمانة، وبلَّغ الرِّسالة، وأنَّه لم يبعثه مُكرِهًا لهم ليأتي بهم مسلمين؛ وإنَّما بعثه مُبلِّغًا لرسالته؛ فمن آمن فلنفسه، ومن كفر فعليها(1).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 07/ 426.

﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ٥٥﴾ [الإسراء: 55]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

شمولُ علم اللهِ تعالى لكلِّ المخلوقاتِ

لمّا أمر الله سبحانه عباده بأن ينسبوا الأعلميَّة بهم إليه سبحانه؛ أخبر بما هو أعمُّ من ذلك، فأخبر تعالى عاطفًا على ما سبق إعلامًا بأنَّ علمه ليس مقصورًا عليهم؛ بل هو محيطٌ بكلِّ مخلوقات السّماوات والأرض[1]، وفيه انتقال من بيان كمال علمه بأحوال الناس إلى بيان كمال علمه بجميع مَنْ في السموات والأرض.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَضَّلۡنَا﴾: (فضل) الفاء والضّاد واللّام أصلٌ صحيح يدلُّ على زيادةٍ في شيء، ومن ذلك الفضل: الزيادة والخير[2]، والفَضْلُ ضربان: محمودٌ كفضل العلم والحِلْم، ومذمومٌ: كفضل الغضب على ما يجب أن يكون عليه، وكلُّ ما في القرآن من هذا التَّركيب هو التَّفضيل والتّفضُّل والفَضْل[3]، والتَّفضيل هنا هو ما خصَّ الله به بعض الأنبياء دون بعض، كتفضيل إبراهيم بالخُلَّة، وموسى بالتَّكليم، ومحمد ﷺ بالمغفرة، وكثرة الأتباع وغيرها[4].

2) ﴿زَبُورٗا﴾: أصله (زبر)، والزّاء والباء والراء أصلان: أحدهما يدلُّ على إحكام الشَّيء وتوثيقه، والآخر يدلُّ على قراءة وكتابة وما أشبه ذلك، فالأوَّل قولهم: زَبَرْتُ البِئْرَ؛ إذا طويتَها بالحجارة، ومنه زُبْرَةُ الحديد؛ وهي القطعة منه، والجمع زُبَرٌ، والأصل الآخر: زَبَرْتُ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 443.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فضل).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فضل).
(4) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 3/ 204.

الكِتَابَ؛ إذا كتبتَه، وَمِنْهُ الزَّبُورُ[1]، ولم يأتِ في القرآن من مفردات التَّركيب إلا (الزَّبور) وجمعه، وجمع زُبْرة الحديد[2]، وخُصَّ الزَّبورُ بالكتاب المُنزَّل على داود عليه السلام[3]، وهو المقصود.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

علمُ اللهِ المطلقُ وتفضيلُه لبعض النَّبيّين

يُخبِر اللّه تعالى رسولَه والمؤمنين - ضمنًا - أنَّ علمه يحيط بكلِّ مَن في السموات والأرض، وهو أعلم بهم، فضلًا عن هؤلاء المشركين، فهو أعلم بما يصلحهم، وأعلم بما كتب لهم أو عليهم من سعادةٍ أو شقاءٍ، وأسباب ذلك من الإيمان أو الكفر؛ فلهذا اختار مَن يعلمُ أنَّهم صفوة البشر أنبياء، وفضَّل بعض النَّبيِّين على بعض بالفضائل وكثرة الأتباع وإنزال الكتب، وأعطينا داود عليه السلام الزَّبور[4].

وتُرشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ اللّه تعالى يعلم مَنْ في السموات ومَنْ في الأرض، وهو أعلم بخَلْقه، فيَهبُ كلَّ عبدٍ ما أهَّله له، وأنَّه سبحانه اختارَ الأنبياء منهم، وإلى مفاضلته بين أنبيائه ورسله عليهم السلام في الكمالات الرُّوحية والدرجات العالية[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو في قوله: ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ﴾:

شمولُ علمِ اللهِ لكلِّ ما في السَّمواتِ والأرض

جاء قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ موصولًا بالواو الدّالَّة على العطف على الآية السّابقة ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ﴾؛ لأنَّه تعالى لمَّا أمرهم بأن ينسبوا الأعلميَّة بهم إليه سبحانه؛ أخبر بما هو أعمُّ من ذلك، فقال تعالى عاطفًا على ﴿رَّبُّكُمۡ﴾ إعلامًا بأنَّ علمه ليس مقصورًا عليهم؛ بل هو محيط،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زبر).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصَّل: (زبر).
(3) الرّاغب، المُفردات: (فضل).
(4) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 3/ 204، ونخبة منَ العلماء، التّفسير المُيسَّر، ص: 287.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4403، والجزائريّ، أيسر التّفاسير: 3/ 204.

قاصرًا الخطاب على أعلم الخلق به سبحانه، إشارة إلى أنَّه لا يعلم هذا حقَّ علمه غيره[1].

نكتة الالتفات من المُتكلِّم إلى الغيْبة:

اللهُ المُصطَفِي فهو أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالتَه

ورد في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ الالتفاتُ من ضمير المُتكلِّم في الآية السّابقة: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾ إلى الغيْبة في: ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾؛ لنكتةِ تخصيص النَّبيِّ ﷺ بالخطاب، وذلك إيماء إلى أنَّ الغرض من هذه الجملة عائد إلى شأنٍ من شؤون النَّبيِّ ﷺ الَّتي لها مزيدُ اختصاصٍ به، تقفيةً على إبطال أقوال المشركين في شؤون الصِّفات الإلهيَّة، بإبطال أقوالهم في أحوال النَّبي ﷺ، وذلك أنَّ المشركين لم يقبلوا دعوة النَّبيِّ ﷺ؛ بغرورهم أنَّه لم يكن من عظماء أهل بلادهم وقادتهم، وقالوا: أبعث اللّه يتيم أبي طالبٍ رسولًا؟ أبعث اللّه بشرًا رسولًا؟ فأبْكَتَهُمُ اللّه بهذا الردِّ بقوله: ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾، فهو العالم حيث يجعل رسالته[2].

فائدةُ التَّعبيرِ بلفظِ الرُّبوبيَّةِ مع إضافتِهِ:

الشّفقةُ بالمَرْبوبِ، وتشريفُ الرَّسولِ وقُربُهُ من ربِّه

في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ جاء التَّعبير بلفظ الرُّبوبيَّة مع إضافته إلى ضمير المخاطَب ﴿وَرَبُّكَ﴾؛ تخصيصًا للنبيِّ ﷺ وتكريمًا له، بمعنى: ربّك المحسن إليك بأن جعلك أكمل الخلق[3]، كما أنَّ التعبير بوصف (ربّك) دون اسم الجلالة؛ لما في وصف الرُّبوبية من الدلالة على الشفقة بالمربوب، ومحبَّة الخير له، وللإشارة إلى أنَّه الخالق والقائم على خلقه، ولتتأتَّى الإضافة المُفيدة للتَّشريف والقرب[4].

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدّرر: 11/ 443.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 136.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 443.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/ 202.

وفوق كلِّ ذي عِلمٍ عليمٌ

غرضُ التَّعبير بصيغة المبالغة ﴿أَعۡلَمُ﴾:

آثر السياق القرآني في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ التَّعبيرَ باسم التَّفضيل ﴿أَعۡلَمُ﴾ الذي يقتضي في اللغة المفاضلة في صفة بين اثنَيْن، وقد ذهب بعض العلماء إلى نفي المُفاضلة، فقال: إنَّ قوله: ﴿أَعۡلَمُ﴾ هنا بمعنى: عَليم، نحو قولِهم: اللّه أكبرُ؛ بمعنى: كَبير[1].

وأثبت بعضهم المفاضلةَ على بابها؛ فقال: إنَّ ربَّكم أعلم؛ أيْ: من كلِّ عالمٍ بمَنْ في السموات كلِّها والأرض منهم ومن غيرهم[2]، فيكون قوله: ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ كالمُقدِّمة لقوله: ﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، فأعاد تذكيرهم بأنَّ اللّه أعلم منهم بالمستأهل للرِّسالة بحسب ما أعدَّه اللّه فيه من الصِّفات القابلة لذلك، كما قال تعالى عنهم: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: 124][3].

إبطالُ أقوالِ المشركين وشُبهاتِهم

فائدةُ الإخبارِ بعلمِ اللهِ:

تضمَّن قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ خبرًا لازمُ فائدته تذكيرُ المشركين بأنَّ اللّه أعلم منهم بالمُستأهِل للرّسالة بحسب ما أعدَّه اللّه فيه من الصِّفات القابلة لذلك، والغرضُ من ذلك إبطال أقوال المشركين جميعها من استبعاد إرسال رسول من البشر، أو إرسال رسول ليس من عظمائهم، أو إرسال مَن لا يأتي بمثل ما جاء به موسى عليه السلام، وغيرها من الأباطيل عبر العصور والرجال والأمم أحياء وأمواتًا؛ ولهذا كان للتَّعميم موقع عظيم في قوله: ﴿بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾؛ فقد كان أيضًا كالمقدِّمة لجملة

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 278.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 443.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 136.

﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ﴾، مُشيرًا إلى أنَّ تفاضل الأنبياء ناشئٌ على ما أودعه الله فيهم من موجبات التفاضلِ(1).

نكتة تغيير أسلوب الخطاب:

تخصيص النَّبيِّ ﷺ بالخطاب وتكريمه

بعد الآية السابقة: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ﴾ تغيَّر أسلوب الخطاب من ضمير الجمع إلى ضمير المخاطب في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾؛ إيماءً إلى أنَّ الغرض من هذه الجملة عائدٌ إلى شأنٍ من شؤون النَّبيِّ ﷺ الَّتي لها مزيد اختصاص به وتكريمه، وذلك بإبطال أقوالهم في أحوال النَّبيِّ ﷺ، فالمشركون لم يقبلوا دعوة النَّبيِّ ﷺ بغرورهم أنَّه لم يكن من عظماء أهل بلادهم وقادتهم.

معنى الباءِ في قولِهِ: ﴿بِمَن﴾:

تعديةُ أفعل التّفضيل بالحرف

ورد في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن﴾ حرفُ الجرِّ الباء من ﴿بِمَن﴾ دالًّا على الملابسة والتَّعدية؛ وذلك لأنَّ أفعل التفضيل لا ينصبُ بنفسه مفعولًا به لضعف شَبَهِهِ بالفعل؛ بل إنَّما يتعدّى إلى المفعول بـ (الباء) أو بـ (اللّام) أو بـ (إلى)، ونصبه المفعول نادر(2).

دلالةُ الاسمِ الموصولِ ﴿بِمَن﴾:

بلاغة الموصول بالإشعار بعلَّة الحكم

في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ ورد استعمالُ الاسم الموصول المشترك (مَن)؛ للدلالة على العاقل مُفردًا كان أو مثنًّى أو مجموعًا، مُذكَّرًا أو مؤنَّثًا، وذلك لأنَّ السّياق في تبيين علَّة علم اللّه الواسع، وهو اختيار النَّبيِّ، وهو لا يكون إلّا من العقلاء، فاستعمل الاسم الموصول (مَن) الدّالَّ على العقلاء، فضلًا عن دلالةِ هذا الاسم على العموم.

نكتة التَّعبيرِ بصِلَةِ الموصول:

ورد في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 136.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/ 30.

شمولُ علمِ اللهِ ﷻ لمخلوقاتِ السَّمواتِ والأرضِ

استعمالُ الاسم الموصول، والنُّكتةُ البلاغية في إيثار وضع الاسم الموصول موضع الاسم الظاهر أنَّه يسمح بوصفه بجملة الصِّلة، فبيَّن قولُه: ﴿بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ أنَّ شمولَ علمه مُتعلِّق بجميع الموجودات والمعدومات، ومُتعلِّقٌ بجميع ذوات الأرضين والسَّموات، فيعلم حال كلِّ واحد، ويعلم ما يليق به من المصالح والمفاسد، فلهذا السبب فضَّل بعض النَّبيين على بعض وآتى موسى التّوراة وداود الزَّبور وعيسى الإنجيل، فلم يَبعد أيضًا أن يُؤتي محمَّدًا ﷺ القرآنَ، ولم يبعد أن يُفضِّله على جميع الخلق[1].

فائدةُ التَّعبيرِ بالظَّرف ﴿فِي﴾:

احتواء السَّماوات والأرض للمخلوقات

في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ يظهر استعمالُ حرف الجرِّ ﴿فِي﴾ الدَّالِّ على معنى الظَّرفيَّة، وهي ظرفيّةُ احتواءٍ، فيشمل علمُ اللّه ﷻ جميعَ مخلوقات السماوات والأرضين، كما يُستفاد من الظَّرفية أيضًا الإحاطة؛ فالسموات والأرض حيِّزٌ محيطٌ بجميع المخلوقات.

معنى (أل) في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾:

تعريفُ الجنسِ يقتضي العمومَ

كلمتا (السّماوات) و(الأرض) في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ جاءتا مُعرَّفتيْن بأداة التَّعريف (أل) الدَّالّة على تعريف الجنس، سواء أُريد بالسّماء الجنسُ الصّادق بجميع السَّماوات على طريقة العموم الحقيقي، أم الصَّادق بسماوات مشهورة على طريقة العموم العُرْفي، وهي السّماوات السَّبع[2]، وكذلك الأرض، فتعريفها تعريفُ الجنس المُقتضي لعموم الأرضين السَّبع، ويمكن حملُ التَّعريف على العهد الذِّهنيِّ أيضًا، على معنى السَّماء والأرض التي تعرفونها.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 20/ 356.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 97.

نكتةُ تقديمِ (السَّمواتِ) على (الأرضِ):

الآيــــاتُ في السَّموات أعظمُ منها في الأرض

تقدَّمت (السَّمواتِ) على (الأرضِ) في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ويذكر العلماء لذلك نكتًا بلاغيَّة، من ذلك: أنَّ السموات والأرض تُذكَرانِ غالبًا في سياق آيات الرَّبِّ الدَّالَّة على وحدانيته وربوبيته، ومعلوم أن الآيات في السَّموات أعظم منها في الأرض؛ لسَعتها وعِظمها وما فيها من كواكبها، وشمسها ... إلخ، ولهذا أمر سبحانه بأن يُرجع النَّاظر فيها البَصَرَ كرَّةً بعد كَرَّةٍ، ويتأمَّل استواءَها واتِّساقها وبراءتها من الخلل والفطور، وبعضهم يرى أنَّ تقديم السَّموات على الأرض إنَّما هو لشرفها وفضلها، فلم يُعصَ اللّه تعالى فيها إلّا مرَّةً واحدة، بخلاف الأرض؛ فالآية فيها أعظم من الأرض(1).

سرُّ إفراد (الأرض) دون (السَّموات):

إفــرادُ الأرضِ لِثِقَلِ جمعها

ورد في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ذِكرُ (السّماوات) مجموعةً، وذِكْرُ (الأرض) مفردةً، وقد ذَكَر العلماء في نكتة ذلك أقوالًا كثيرة، ومن أحسنها: أنَّ الأرض حيث وقعت في القرآن ذُكِرت مُفردة ولم تُجمع - بخلاف السّماوات - لِثِقَلِ جمعها وهو (أرَضون)، وهو جمعٌ شاذٌّ كما قال ابن مالك:

أُولو، وعالمون، عِلِّيُّــون *** وأرضــــون شــذَّ والسُّــــنونا

ولهذا لـمّا أُريد ذِكْرُ جميع الأرضين؛ قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطّلاق: 12]، وأمّا السماء؛ فذُكِرت تارةً بصيغة الجمع، وهو غالب ورودها في كتاب اللّه، إذْ تكرَّرت في نحو مائة وثلاثة وثمانين موضعًا بالجمع، وتارة بصيغة الإفراد، وهو الأقل في ذِكْرها في القرآن الكريم؛ لنُكتٍ تليق بكلِّ محلٍّ بخصوصه، والحاصل أنَّه من

(1) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/ 130.

حيث الأغلب إذا أُريد العدد؛ أتي بصيغة الجمع الدَّالَّة على سَعة العَظَمَة والكثرة، نحو: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الحديد: 1]؛ أيْ: جميع سكانها على كثرتهم، و﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الجمعة: 1]؛ أيْ: كلُّ واحد على اختلاف عددها، وحيث أُريد الجهة أتي بصيغة الإفراد، نحو: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ [الذّاريات: 22] و﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ [المُلك: 16]؛ أيْ: من فوقكم [1].

بلاغةُ الطِّباقِ بين ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

توضيحُ المعنى بجمعِ اللَّفظِ وضدِّه

في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ طباقٌ بديعٌ بين لفظي (السّماوات) و(الأرض)، وهو مُحسِّنٌ معنويٌّ يوضِّح معنى شمول علم الله لمخلوقات السَّموات والأرض، فبين تقابل السَّموات والأرض وتخالفهما تضادٌّ يثير الذِّهن، ويجذب الانتباه، ويزيد الكلام حسنًا وطرافة، كما يُقوّي المعنى؛ إذ بضدِّها تتمايز الأشياء.

معنى الواو في ﴿وَلَقَدْ﴾:

اللهُ أعلمُ بمستحقِّ التَّفضيلِ من العباد

عُطِفَ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ على قوله: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بالواو التي تُفيد الجمع والاقتران؛ لأنَّ قوله سبحانه: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كالمقدِّمة لقوله: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، فعَطَفَهُ عليه لتذكيرهم بأنَّ الله أعلم منهم بالمُستأهل للرّسالة، بحسب ما أعدَّه الله فيه من الصّفات القابلة لذلك، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: 124]؛ مشيرًا إلى أنَّ تفاضل الأنبياء ناشئٌ عمَّا أودعه اللّه فيهم من مُوجِبات التّفاضل [2].

---

(1) السّيوطيّ، الإتقان: 2/ 355.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 136.

دلالةُ اللّامِ في ﴿وَلَقَدۡ﴾:

تأكيدُ سُنَّةِ اللهِ في التفضيلِ بين الأنبياءِ

ورد في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ﴾ حرف اللّام متَّصلًا بحرف (قد)، وتسمَّى هذه اللام باللّام المُوطِّئة للقَسَم، ومعنى ذلك أنَّه لولا هذه اللّام لم يُعلم أنَّ في الكلام قَسَمًا مُقدَّرًا، فقد مهَّدت له الجواب، ولذا تُسمَّى ممهِّدة ومُؤذِنة[1]، فيؤكِّد اللّه ﷻ على سُنَّة التَّفضيل بين أنبيائه.

معنى (قد) ونكتة دخولها على ﴿فَضَّلۡنَا﴾:

الطعنُ في نبوَّةِ مُحمَّدٍ ﷺ طعنُ استكبارٍ وحَسَدٍ

جاء الفعل ﴿فَضَّلۡنَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ﴾ بصيغة الماضي المصحوب بـ (قد) الدّالَّةِ على التّحقيق، وقد دخلتِ اللّامُ على (قد) مبالغةً في التَّأكيد، وكثر في الكلام اقترانُ جملة جواب القَسَم بـ (قد)؛ لأنَّ القَسَم يُهيِّئُ نفسَ السّامع لتوقُّع خبرٍ مُهمٍّ، فيُؤتى بـ(قد)؛ لأنَّها تدلُّ على تحقيق أمرٍ مُتوقَّعٍ، والغرضُ من تأكيد هذا الخبر هو إبطال شبهاتِ المشركين في قبول دعوة النَّبيِّ ﷺ بادِّعائهم أنَّه لم يكن من عظماء أهل بلادهم وقادتهم.

بلاغةُ الالتفاتِ من الغَيْبةِ إلى التَّكلُّم:

عظمةُ الله ﷻ في تفضيل الرُّسل بعضهم على بعض

في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ﴾ التفاتٌ من الغيْبة في الآية السّابقة: ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ إلى التكلُّم في ﴿فَضَّلۡنَا﴾، فأتى بـ(نا) التي تدلُّ على التَّعظيم وعلوِّ القدر وتنزيله منزلة الجمع؛ لتعدُّد صفاته الحميدة ومواهبه الجزيلة، فإنَّ مثل هذا التَّعبير يُعبَّر به الملوك والعظماء النّافذ أمرُهم ونهيُهم، وفيه أيضًا التَّنويه بشأن الرُّسل، وتفخيم قدرهم وإدخال المهابة في قلوب أُممهِم[2].

(1) الشِّهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 2/ 173.

(2) الشِّهاب، عناية القاضي: 6/ 208.

ومن فوائد هذا الالتفات أيضًا وكونه بنون المُعظِّم نفسَه أنَّه هو مَن فضَّلَ الرُّسل بعضهم على بعض، فناسبَ أن يكون السِّياقُ في غاية من التَّعظيم لتأكيد نبوَّة مُحمَّد ﷺ وتفضيله على غيره من الأنبياء، فإسنادُ الكلام إلى المُتكلِّم العظيم أبلغُ من إسناده إلى ضمير الغائب، كما أنَّ الالتفات من افتنان العرب في الكلام وحُسن تصرُّفهم فيه، ولأنَّ الكلام إذا نُقِلَ من أسلوبٍ إلى أسلوبٍ؛ كان ذلك أحسنَ تطريةً لنشاط السَّامع، وإيقاظًا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوبٍ واحدٍ[1].

علَّةُ تفضيلِ بعضِ الأنبياءِ دون تعيينٍ:

إبـــرازُ سـنَّـةِ التَّـفـضيلِ بين الأنـبـيـاء دون أعيانِهم

ورد في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ﴾ تأكيدُ تفضيل بعض الأنبياء دون تعيين أحدٍ منهم؛ لأنَّ الغرضَ مسوق إلى الفعل ﴿فَضَّلۡنَا﴾ دون المفعول، والغرض منه تأكيد سنَّة تفضيل اللّه بين الأنبياء بما أودعه اللّه فيهم من موجبات التَّفاضل، وليس السِّياق في بيان المُفضَّل منهم، ومعلوم إذا كان الكلام مُنصبًّا إلى غرض من الأغراض؛ جعل سياقه له وتوجُّهه إليه، كأنَّ ما سواه مرفوضٌ مُطَّرحٌ[2].

معنى (أل) في ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾:

شمولُ التّفضيل لعمومِ النبيّين بالاصطفاءِ

جاءت كلمة ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ في قَولِه تَعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ﴾ مُعرَّفةً بأداة التَّعريف (أل) الدّالّةِ على تعريف الجنس المُقتضِي للعموم، فيشمل جميع النَّبيِّين الذين اصطفاهم اللّه ﷻ لتبليغ رسالاته إلى عباده.

غرضُ حذفِ متعلِّقِ التَّفضيلِ:

في قَولِه ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ﴾ ذِكْرُ

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/ 14، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/ 245.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 8.

التَّفضيل بين الأنبياء، دون النَّصّ على مُتعلّقه؛ لأنَّ سياق الكلام في تأكيد سُنَّة تفضيل الله بين الأنبياء بما أودعه الله فيهم من موجبات التَّفاضل، وليس السِّياقُ في بيان وجه التَّفضيل بينهم، ومعلومٌ إذا كان الكلام مُنصبًّا إلى غرضٍ من الأغراض؛ جعل سياقه له وتوجُّهه إليه، كأنَّ ما سواه مرفوضٌ مطَّرحٌ[1].

تأكيدُ سُنَّةِ التَّفضيلِ دونَ المُفضّلين

بلاغةُ العطفِ في قوله: ﴿وَءَاتَيۡنَا﴾:

جاء قَوله تَعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ معطوفًا على قوله: ﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ﴾ لنكتةٍ بلاغيةٍ، وهي أنَّه لـمَّا كان القصد إلى بني إسرائيل في هذه السُّورة سابقها ولاحقها ظاهرًا، والتَّعريض بهم في كثير منها بيِّنًا، وكان داود ﵇ هو المؤسِّس للمسجد الأقصى الذي وقع الإسراء إليه، وكان من أتباع موسى الذي آتيناه الكتاب، وجعلناه هدًى لبني إسرائيل ألّا يتَّخذوا من دوني وكيلًا؛ ناسب السّياق عطفه على ذِكْر التَّفضيل[2].

تخصيصُ بني إسرائيلَ بالخطابِ

نكتة التَّعبير بالإيتاء دون الإعطاء:

آثر النّظْم القرآني في قَوله تَعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ التَّعبير بفعل الإيتاء دون الإعطاء، وقد ذَكر بعض العلماء أنَّ النُّكتة في ذلك هي أنَّ الإيتاء أقوى من الإعطاء في إثبات مفعوله؛ لأنَّه لا مطاوعَ له، فإذا كان الأمر عظيمًا استُعمل فيه الإيتاء دون الإعطاء، ولا شكَّ أنَّ النُّبوَّة اصطفاءٌ عظيمٌ لُمهمَّة جليلةٍ، وهي تبليغ الوحي عن الله إلى عباده[3]، وقد ورد استخدام فعل الإيتاء في مقام الوحي ونزول الكتب الإلهيَّة كثيرًا في القرآن الكريم، مثل قوله تعالى في إبراهيم: ﴿فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ٥٤﴾ [النِّساء: 54].

الإيتاء أقوى من الإعطاء في إثبات مفعوله

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 8.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 445.
(3) السّيوطيّ، الإتقان: 2/ 368.

سرُّ النَّصِّ على داود ﷺ دون الأنبياء:

التَّفضيل بالعلم والدّين لا بالمال والجاه، واجتمَعَ له ما لم يجتمِعْ لِغَيرِه

وَرَدَ في قَوله تَعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ تخصيصُ داود ﷺ بالذِّكر دون غيره من الأنبياء، وقد أفاض العلماء في سبب هذا التَّخصيص على وجوه:

الوجه الأوَّل: أنَّه تعالى ذَكَر تفضيله بعض النبيِّين على بعض، ثم قال: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾؛ يعني: أنَّ داود كان مَلِكًا عظيمًا، ثم إنَّه تعالى لم يذكر ما آتاه من المُلك، وذَكَرَ ما آتاه من الكتاب، تنبيهًا على أنَّ التّفضيل الذي ذَكَرَه قبل ذلك، المُراد منه التّفضيل بالعلم والدّين لا بالمال.

الوجه الثَّاني: أنَّه تعالى كتب في الزَّبور أنَّ محمَّدًا خاتم النَّبيِّين، وأنَّ أمَّته خير الأمم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥﴾ [الأنبياء: 105]، وهم محمَّد ﷺ وأمَّته.

الوجه الثَّالث: أنَّ كفّار قريش ما كانوا أهل نظرٍ وجدلٍ؛ بل كانوا يرجعون إلى اليهود في استخراج الشُّبُهات، واليهود كانوا يقولون: إنَّه لا نبيَّ بعد موسى، ولا كتاب بعد التّوراة، فنقض اللّه تعالى عليهم كلامهم بإنزال الزَّبور على داود ﷺ[1].

الوجه الرابع: أنَّه اجتمَعَ له ما لم يجتمِعْ لِغَيرِه منَ الأنبياءِ، وهو الرِّسالةُ والكتابةُ والخطابةُ، والخِلافةُ والمُلك والقَضاءُ، في زمَنٍ واحدٍ، قال تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ٢٠﴾ [ص: 20]، وقال: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ص: 26][2].

(1) الفخرُ الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 20/ 356.
(2) الأنصاريُّ، فتح الرحمن، ص: 327.

نكتةُ ذِكْرِ تفضيلِهِ بالزَّبورِ:

التعريضُ بنصرِ المسلمين على المشركين

في قَوله تَعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ ذِكرُ تفضيل داود عليه السلام بالزَّبور، وقد ذَكَرَ بعضُ العلماء أنَّ النُّكتة في ذلك هي التَّلميحُ إلى أنَّ مُحمَّدًا ﷺ أفضلُ الأنبياء، وأُمَّته أفضلُ الأُمم؛ لأنَّ ذلك مكتوبٌ في زبور داود، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥﴾ [الأنبياء: 105]، وهم محمَّد ﷺ وأمَّته[1]، وفي ذِكْرِ إيتائِه الزَّبور أيضًا التَّعريضُ للمشركين بأنَّ المسلمين سيرثون أرضهم، وينتصرون عليهم، ويحتملُ نكتةً أخرى وهي المماثلة، بمعنى: كما آتينا داود الزَّبور، فلا تُنكروا أن يُؤتى محمَّدٌ ﷺ القرآنَ، وفي ذلك مُحاجَّةٌ لليهود[2].

غرضُ تنكيرِ ﴿زَبُورٗا﴾:

دلالـةُ التَّنكيرِ عَلى التَّعْظِيمِ

ذُكِر لفظ (الزَّبور) نكرةً في قَوله تَعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾، والنُّكتة البلاغيَّة في ذلك الدّلالة على تعظيم حاله؛ لأنَّ الزَّبور عبارة عن المزبور، فكان معناه: الكتاب، فكان معنى التَّنكير أنَّه كاملٌ في كونه كتابًا[3].

وقد ورد في القرآن تعريفُ الزَّبور تارةً وتنكيرُه أخرى، إمّا لأنَّه في الأصل فَعولٌ بمعنى المفعول كالحَلوب، أو مصدر بمعناه كالقول، وإمّا لأنَّ المُرادَ: آتينا داودَ زبورًا من الزُّبُر، أو بعضًا من الزبور فيه ذِكْرُه ﷺ[4].

ويجوزُ أن يكونَ (الزَّبورُ) من الأعلام التي يُستعمَلُ بـ (أل) وبدونِها، كـ (العبَّاس)، و(الفضل)، أو أنَ يكونَ نكَّرَهُ في موضِع تنكيرِه، بمعنى: آتيناه بعضَ الزُّبُرِ؛ وهي الكُتُبُ، أو أراد به ما فيه

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 2/ 673.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 278.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 20/ 356.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 179.

ذِكرُ النبيِّ ﷺ من الزَّبورِ، فسمَّى بعضَ الزَّبورِ زَبورًا، كما سَمَّى بعضَ القُرآنِ قُرآنًا في قَولِه تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء: 106] (1).

القراءاتُ المتواترةُ في ﴿زَبُورًا﴾:

الزَّبورُ مفردٌ، والزُّبورُ جمع

وَرَدَت في قَولِه تَعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ قراءتان، فقرأ حمزة وخَلَف بضمِّ الزَّاي ﴿زُبُورًا﴾، وقرأ الباقون بفتحها ﴿زَبُورًا﴾ (2)، فالحُجَّة لِمَنْ فتح أنَّه أراد واحدًا مُفرَدًا وهو عَلَمٌ على كتاب داود عليه السلام، والحُجَّة لِمَنْ ضمَّ: أنَّه أراد الجمع؛ أيْ: كتبًا وصُحفًا جمع: زَبْر وزبُور، كبَيْتٍ وبُيوت، فأمّا زُبَرُ الحديد؛ فواحدتها: (زُبْرَةٌ)؛ كقولك: سُدْفَةٌ وسُدُف (3).

نكتة التَّقديم والتَّأخير بين مفعولَي الإيتاء:

تخصيص داود عليه السلام بالزَّبور

في قوله تَعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ تقديمُ المفعول به الأوَّل ﴿دَاوُۥدَ﴾ على المفعول به الثَّاني ﴿زَبُورًا﴾؛ لأنَّ الأصل في أفعال المَنْح والعطاء تقديمُ ما هو من المفعولَيْن فاعل في المعنى (4)، فداود عليه السلام الآخذ، والزَّبور مأخوذ.

وكذلك يمكن القول: إنَّ التقديم هنا للتَّخصيص، فقد خُصَّ داود بالزَّبور دون غيره من الأنبياء، كما خصَّص اللّه ﷻ موسى عليه السلام بالتَّوراة، وعيسى عليه السلام بالإنجيل، ونبيَّنا ﷺ بالقرآن الكريم.

فائدةُ الخبرِ: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾:

إبطالُ أقوالِ المشركين وشبهاتِهم

تضمَّن قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ خبرًا لازمًا، فائدتُه التَّلميحُ إلى أنَّ مُحمَّدًا ﷺ أفضلُ الأنبياء، وأُمَّتُه أفضل الأمم؛ لأنَّ

(1) الأنصاريُّ، فتح الرحمن، ص: 327 - 328.
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 253.
(3) ابن خالوَيه، الحجّة، ص: 128.
(4) ابن عقيل، شرح الألفية: 2/ 153.

ذلك مكتوبٌ في زبور داوود، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ۝١٠٥﴾ [الأنبياء: 105]، وهم مُحمَّد وأمَّته، وفائدتُهُ أيضًا التّعريضُ للمشركين بأنَّ المسلمين سيرثون أرضهم وينتصرون عليهم[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النَّبِيُّ والرَّسولُ:

الـرَّسـولُ مَـنْ أُوحـي إلـيـه بـشـرعٍ جديدٍ، والـنَّـبـيُّ تـابـعٌ لشرعٍ قبلَه

فرَّق كثير من العلماء بين (الرَّسول) و(النَّبيِّ)، ويكاد لا يسلم أيُّ تفريق من الاستدراك، ويذكر الحافظ ابن حجر أنَّ (النَّبي) و(الرَّسول) اشتركا في أمرٍ عامٍّ، وهو النَّبأ، وافترقا في الرِّسالة، فإذا قلتَ: فلانٌ رسولٌ تضمَّن أنَّه نبيٌّ رسولٌ، وإذا قلتَ: فلانٌ نبيٌّ لم يستلزم أنَّه رسولٌ، ويختلف لفظ (النَّبيِّ) عن لفظ الرَّسول في أصل الوضع اللغويِّ، فإنَّ النَّبيَّ من النَّبأ وهو الخبر، فالنَّبيُّ في العُرف هو المُنبأ من جهة اللّه بأمرٍ يقتضي تكليفًا، وإن أمر بتبليغه إلى غيره؛ فهو رسول، وإلّا فهو نبيٌّ غير رسولٍ، وعلى هذا فكلُّ رسولٍ نبيٌّ بلا عكس[2].

ويرى الشيخ محمد الأمين الشنقيطي أنَّ ما اشتهر على ألسنة أهل العلم من أنَّ النَّبيَّ هو مَن أوحي إليه وحي، ولم يُؤمر بتبليغه، وأنَّ الرَّسول هو النَّبيُّ الذي أُوحي إليه وأُمر بتبليغ ما أُوحي إليه غير صحيح؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: 52] يدلُّ على أنَّ كلًّا منهما مُرسَلٌ، وأنَّهما مع ذلك بينهما تغاير[3].

وممّا يقوِّي هذا التفريق أنَّه لا يمكن أن يُنزِّل اللّهُ وحيًا لإنسانٍ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 673.

(2) ابن حَجَر، فتح الباري: 11/ 112.

(3) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 5/ 802.

واحدٍ فحسب، ولا يبلِّغه أحدًا، والنَّبيُّ ﷺ يقول: "عُرِضَتْ عليَّ الأمم، فرأيتُ النَّبيَّ ومعه الرَّهط، والنَّبيَّ ومعه الرّجل والرّجلان، والنَّبيَّ وليس معه أحد ..."[1].

فنخلص إلى أنَّ أقوى فرقٍ بين النَّبيِّ والرَّسول: أنَّ الرَّسول مَن أُوحي إليه بشرعٍ جديدٍ، والنَّبيُّ هو المبعوث لتقرير شرعِ مَن قبلَهُ، وأكثر أنبياء بني إسرائيل كذلك، وهو الأقرب للصَّواب[2].

الإعطاءُ والإيتاءُ:

الإيتـاء غالبًا أقـوى مـن الإعطاء

كثيرًا ما يُستعمل الإعطاءُ والإيتاءُ بمعنًى واحد، ولا يكاد اللغويّون يُفرّقون بينهما، ولكن ذهب الجُوَيْنيُّ إلى أن الإيتاء أقوى من الإعطاء في إثبات مفعوله؛ لأنّ الإعطاءَ له مطاوِعٌ، تقول: أعطاني فَعَطَوْتُ، ولا يُقال في الإيتاء: آتاني فأَتَيْتُ؛ وإنّما يُقال: آتاني فأخذتُ، والفعل الّذي له مُطاوع أضعفُ في إثبات مفعوله من الفعل الذي لا مطاوعَ له، لأنّك تقول: قطعتُه فانقطَعَ، فيدلُّ على أنّ فعل الفاعل كان موقوفًا على قبول في المحلّ لولاه ما ثبت المفعول، ولهذا يصحّ: قطعتُه فما انقطع، ولا يَصحُّ فيما لا مطاوِعَ له ذلك، فلا يجوز ضربتُه فانْضَرَب أو فما انْضَرَب؛ لأنّ هذه أفعالٌ إذا صَدَرت من الفاعل ثَبَتَ لها المفعولُ في المحلِّ، والفاعلُ مستقِلٌّ بالأفعال التي لا مطاوِعَ لها؛ فالإيتاءُ أقوى من الإعطاءِ[3].

ويرى الزَّبيديَّ أنَّ القاعدة التي ذكرها الجوينُيّ في المطاوعة لا يكاد ينسحب حُكمها على كلّ الأفعال؛ بل الذي يظهر خلافُ ما قاله؛ فإنَّ الإعطاء أقوى من الإيتاء، ولذا خُصّ في دفع الصدقات الإيتاءُ ليكون ذلك بسهولة من غير تطلُّع إلى ما يدفعه، وتأمَّلْ سائرَ

(1) مُتفق عليه، رواه البخاريّ (5705)، ومسلم (220).
(2) الأشقر، الرُّسل والرّسالات، ص: 14.
(3) السّيوطيّ، الإتقان: 2/ 368.

ما ورد في القرآن تجدُ معنى ذلك فيه، والكوثَرُ لما كان عظيمًا شأنُه، غيرَ داخل في حيّز قدرة بشرية؛ استُعمل الإعطاء فيه، وقال الزَّبيديُّ بأنّ كلام الأئمة وسياقهم في الإيتاء لا يخالف ما ذكره[1].

والظّاهر أنّ تفريقَ الجُوينيِّ مقبولٌ غير أنّه أغلبيٌّ قد يتخلّف حسب السّياق، وسياقُ الآية المُصطفى فيه لفظُ الايتاء يُوافق توجيه الجوينيِّ من حيث إنّ شأن كتاب أعمال المرء الذي يُؤتاه يوم القيامة عظيمٌ بوصفه مُتضمِّنًا دقائقَ أعماله، وتفصيلاتِها.

(1) الزّبيديّ، تاج العروس (أتي).

﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ٥٦﴾ [الإسراء: 56]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إظهارُ عجزِ آلهةِ المشركين المزعومةِ

لـمَّا أثبتَ تعالى أنَّ شأنه فِعْلُ ذلك وأمثاله من التَّفضيل والتَّحويل على حسب علمه وقدرته؛ ثبت بغير شُبهةٍ ألَّا مفزع إلّا إليه، فأمر اللّه رسوله ﷺ تحقيقًا لذلك أن يأمرهم بما يُظهر به عجزَ شُركائهم؛ ردًّا عليهم في قولهم: لسنا بأهل لعبادته استقلالًا، فنحن نعبد بعضَ المقرَّبين؛ ليشفع لنا عنده، فقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ﴾[1].

شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

1) ﴿زَعَمۡتُم﴾: (زعم) الزّاء والعين والميم أصلان؛ أحدهما: القولُ من غير صحَّة ولا يقين، والآخر: التَّكفُّلُ بالشَّيء، فالأوَّل الزَّعْمُ والزُّعْمُ، وهو القول على غير صحَّة، والأصلُ الآخر: زَعَمَ بالشَّيء؛ إذا كَفَلَ بِهِ، ومن الباب الزَّعامَةُ؛ وهي السّيادة؛ لأنَّ السيِّد يَزْعُمُ بالأمور؛ أيْ: يَتَكَفَّلُ بِهَا[2]، والأصل الأوَّل هو المقصود هنا، وهو حكاية قولٍ يكون مظنَّةً للكذب، ولهذا جاء في القرآن في كلِّ موضع ذُمَّ القائلون به[3]، وهو المعنى الُمراد في الآية.

2) ﴿ٱلضُّرِّ﴾: أصله (ضرَّ)، والضّاد والرّاء ثلاثة أصول؛ الأوَّل: خلاف النَّفع، والثّاني: اجتماع الشَّيء، والثّالث: القوَّة، والمقصود هنا الأوَّل، وهو ضدُّ النَّفع[4]، وكثيرًا ما يُقابِل القرآنُ الضُّرَّ بالنَّفع، والضَّرَّاء بالسَّرَّاء والنَّعماء، ثمَّ يُحمَل على هذا كلُّ ما جانسه أو

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 449.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زعم).
(3) الرّاغب، المفردات: (زعم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضرّ).

قاربه[1]، فيكون الضُّرُّ المقصود في الآية: هو كلُّ ما يُصيب الإنسان َمن المؤذيات، كالمرض والفقر والقحط وسائر البلاء.

3) ﴿تَحۡوِيلًا﴾: أصله من (حول)، والحاء والواو واللّام أصل واحد، وهو تحرُّك في دَوْرٍ[2]، وحَوَّلْتُ الشيء، فَتَحَوَّلَ: غيَّرته، إمَّا بالذّات، وإمَّا بالحُكم والقول، ومنه قولُك: حوَّلتُ الكتابَ؛ وهو أن تنقل صورة ما فيه إلى غيره دون إزالة الصّورة الأولى، وقوله تعالى: ﴿لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ١٠٨﴾ [الكهف: 108]؛ أيْ: تحوُّلًا [3]، ومنه معنى التَّحويل في هذه الآية: فالمشركون لا يملكون تحريكَ العذاب وتغييره عنهم، أو نقله إلى غيرهم.

المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

توحيدُ المعبودِ الحقِّ، وبيانُ عجزِ المعبودِ بالباطل

ما زال السّياق في تقرير التَّوحيد، فيقول تعالى لرسوله: قل - أيُّها الرسول - لأولئك المشركين: ادعوا المعبوداتِ التي تنادونها لكشف الضُّرِّ عنكم؛ فإنَّهم لا يملكون أن يكشفوا الضُّرَّ عن مُبتلًى، ولا يستطيعون تحويله عنه إلى آخر عدوٍّ له؛ فالقادر على ذلك هو اللّٰه وحده [4].

وتُرشدُ الآيةُ إلى أنَّ حُكمَها عامٌّ في كلِّ ما يُدْعى من دون اللّٰه، ميتًا كان أو غائبًا، من الأنبياء والصَّالحين وغيرهم، بلفظ الاستغاثة أو الدُّعاء أو غيرهما، فلا معبود بحقٍّ إلا اللّٰه، وإلى أنَّ دعاءَ مَن بهذه الصِّفة من كونهم لا كمالَ لهم ولا فِعالَ نافعة، فاتخاذهم آلهةً نقصٌ في الدِّين والعَقْل وسَفَهٌ في الرَّأي، وتُقرِّرُ التوحيدَ بالحُكم على عدم استجابةِ الآلهةِ المُدَّعاة لعابديها[5].

---

(1) الرّاغب، المُفردات: (ضرّ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حول).
(3) الرّاغب، المُفردات: (حول).
(4) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 7/ 306، ونخبة مَن العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 287.
(5) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: 460، والجزائريّ، أيسر التّفاسير: 7/ 306، ونخبة مَن العلماء، التّفسير المُيسَّر، ص: 287.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ فصل قوله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ﴾:

بيان المُقرَّبين وإبطال الأصنام المزعومين

وردت الجملة في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ مفصولةً عن الكلام قبلها؛ وذلك لأنَّها وقعت معترضة بين جملة: ﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ والجملة بعدها: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾؛ إذْ لمَّا جرى ذِكْرُ الأفضلِين من الأنبياء في أثناء آية الردِّ على المشركين مقالتهم في اصطفاء محمد ﷺ - للرِّسالة واصطفاء أتباعه لولايته ودينه، وهي آية ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ إلى آخرها؛ جاءت المناسبةُ لردِّ مقالة أخرى من مقالاتهم الباطلة: وهي اعتذارهم عن عبادة الأصنام بأنَّهم ما يعبدونهم إلّا ليُقرِّبوهم إلى اللّه زلفى، فجعلوهم عبادًا مقرَّبين ووسائل لهم إلى اللّه، فلمّا جرى ذِكْر المقرَّبين حقًّا؛ جاءت مناسبة ذِكْرهم لتكون مَخْلَصًا إلى إبطال ما ادَّعَوْهُ من وسيلة أصنامهم، على عادة إرشاد القرآن من اغتنام مناسبات الموعظة(1).

دلالةُ فعلِ الأمرِ ﴿قُلِ﴾:

إرشادُ النَّبيِّ ﷺ في محاجَّةِ قومِهِ

جاء في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ فعل الأمر (قل)، وهو أمر من اللّه لرسوله ﷺ بأن يُجيبهم بهذا القول؛ وذلك أنَّه لمّا ابتلى اللّه قريشًا وأهلَ مكَّة بالقحط سنين، فشكَوا إلى رسول اللّه ﷺ؛ فأمر اللّه نبيَّه الكريم بأن يُجيبهم بهذا الجواب(2).

دلالة فعل الأمر ﴿ٱدۡعُواْ﴾:

التهكُّمُ بآلهةِ الكفّارِ وإثباتِ عجزِها

عبَّر النَّظم الحكيم في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ بفعل الأمر ﴿ٱدۡعُواْ﴾، الذي يُفيد وجوبَ إيقاعِ الفعلِ في أصل الصِّيغةِ، غير أنَّ هذا الأمر خرج مخرجَ التَّهكُّم بهم، زيادة على كون

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 136.

(2) الواحديّ، البسيط: 13/ 368.

الأمر مُستعملًا في التّعجيز، لكنَّ التّهكُّم أسبق للقطع بأنَّ ما يدعونه لا يُغني عنهم شيئًا، فأمَرَ اللّه ﷻ رسوله صلّى اللّه عليه وعلى آله وسلَّم تحقيقًا لذلك أن يأمرهم بما يظهر به عجز شركائهم(1).

نكتةُ تعاقب فِعْلي الأمرِ:

قوَّةُ السّياقِ في إبطالِ شِركِ الكفّارِ

ورد في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ فِعْلا أمرٍ، الأوّل هو: ﴿قُلِ﴾، والثّاني: ﴿ٱدۡعُواْ﴾؛ فأمّا الأوَّل ﴿قُلِ﴾؛ فهو أمرٌ للنَّبيِّ ﷺ بأن يُبلِّغ عن اللّه كلامه للنّاس على جهة الوجوب، وأمّا الثَّاني ﴿كُونُواْ﴾؛ فهو أمرٌ للكُفَّار على جهة التَّعجيز والتَّهكُّم، ويدلُّ توالي أفعال الأمر على قُوَّة السّياق، فهو مُحاججةٌ للكفَّار المُتَّخذين مع اللّه آلهةً ليُقرِّبوهم إليه زلفى.

وجهُ ارتباطِ هذه الأوامرِ بما تقدَّمها:

إبطالُ الشِّركِ ببرهانِ العقلِ وبرهانِ الحِسِّ

جاء قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ متَّصلَ المعنى بآية ﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ٤٢﴾ [الإسراء: 42]، فبعد أن أبطل أن يكون مع اللّه آلهة ببرهان العقل، عاد إلى إبطال إلهيَّتِهم المزعومة ببرهان الحِسِّ، وهو مشاهدة أنَّها لا تُغني عنهم كشف الضُّرِّ.

فأصل ارتباط الكلام هكذا: (ولقد فضَّلنا بعض النَّبيين على بعضٍ، وآتينا داود زبورًا، أولئك الّذين يدعون يبتغون) .. الآية، فبمناسبة الثَّناء عليهم بابتهالهم إلى ربِّهم، ذَكَرَ ضدَّ ذلك من دعاء المشركين آلهتهم، وقدَّم ذلك على الكلام الذي أثار المناسبة؛ اهتمامًا بإبطال فعلهم ليكون إبطالُه كالغَرَضِ المقصود، ويكون ذِكْرُ مقابله كالاستدلال على ذلك الغرض(2).

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 449.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 139.

نكتة التَّعبير بـ ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم﴾:

كـذبُ المشركين وضعفُ عقولهم في ادِّعـاء آلهةٍ مع الله سبحانه

آثر النظم الكريم التَّعبيرَ بالاسم الموصول وصلته ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ﴾، والنُّكتةُ البلاغية في إيثار وضع الاسم الموصول موضع الاسم الظّاهر أنَّه يسمح بوصفه بجملة الصِّلة، فعبَّر عن آلهتهم بأنَّها مزعومة، فضلًا عن دلالة الاسم الموصول هنا على الذَّمِّ والتَّشهير بآلهتهم وبهم، قال ابن عباس: كل (زعم) في كتاب اللّه؛ فهو كذب[1]، فسمحت الصِّلة بأن يصير المعنى: الذين ادَّعيتم - كذبًا - أنَّهم آلهة من دون اللّه، فأشار إلى ضعف عقولهم، وعدم تثبُّتهم بالتّعبير بالزّعم[2].

معنى ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾:

انـحـطـاطُ رتـبـةِ الآلهةِ المزعومةِ عن رتبةِ المعبودِ الحقِّ

ورد في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ استعمالُ حرف الجرِّ ﴿مِّن﴾، وهي هنا بيانية بمعنى بيان انحطاط آلهتهم المزعومة، وسفول رتبتها عن رتبة المعبود الحقِّ سبحانه[3]، سواء أكانت الآلهة المزعومة ملائكةً، أم جِنًّا، أم أصنامًا، أم عُزَيْرًا، أم المسيح.

عود الضَّمير في ﴿دُونِهِۦ﴾:

حـذفُ ما يُعلم جـائـزٌ إذا دلَّ عليه دليلٌ

يعود الضمير في قوله تعالى: ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ إلى اللّه ﷻ، والتقدير: (من دون اللّه)، وقد جاء الضمير، ولم يتقدَّم مرجعه؛ لأنَّ عود الضمير يُكتفَى فيه بكلِّ ما يُفهم، حتى قد يعود على ما لا ذِكر له، نحو: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ٣٢﴾ [ص: 32][4].

نكتةُ الالتفاتِ من التكلُّم إلى الغَيْبة:

حكايةُ حِجَاج الـرَّسـول ﷺ للمشركين

في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ التفاتٌ بديعٌ من مقام التَّكلُّم في الآية السابقة، وهي قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ

(1) الواحدي، البسيط: 13/ 368.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 449.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 449.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/ 135.

﴿زَبُورًا﴾ إلى مقام الغيبة في قوله: ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾، والنُّكتةُ فيه أنَّه حكاية لقول الرسول ﷺ للمشركين عندما اشتكوا إليه القحط.

كما أنَّ الالتفات من افتنان العرب في الكلام وحُسن تصرُّفهم فيه، ولأنَّ الكلام إذا نُقِلَ من أسلوب إلى أسلوب؛ كان ذلك أحسن تطريةً لنشاط السّامع، وإيقاظًا للإصغاء إليه، من إجرائه على أسلوبٍ واحدٍ[1].

معنى الفاء في قوله: ﴿فَلَا يَمۡلِكُونَ﴾:

الفاءُ الفصيحةُ تؤكّدُ جوابَ الشّرطِ المُقدَّرِ

جاء قوله تعالى: ﴿فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ مقرونًا بالفاء، وتُسمَّى الفاء الفصيحة؛ لأنَّها أفصحت عن جواب شرطٍ مُقدَّرٍ، تقديره: (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله؛ فإن دعوتموهم؛ فلا يملكون كشف الضُّرِّ عنكم ولا تحويله)، والغرضُ من استعمال الفاء الفصيحة تأكيد الجواب.

معنى (لا) في السِّياق:

نفيُ إغناءِ الآلهةِ المزعومةِ عن المشركين

في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ استُعملت (لا) الدالَّةِ على النفي؛ وهي أقدم حروف النَّفي في العربية، وتتميَّز بدخولها على الأسماء والأفعال[2]؛ فهي غير مُختصَّة؛ ولهذا لا تَعمل.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿يَمۡلِكُونَ﴾:

معبوداتُ المشركين آلهةٌ باطلةٌ عاجزةٌ على الدَّوامِ

في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ استُعمل الفعل (يَمْلِكُ) من المِلْكِ بمعنى الانتفاع والقدرة، كما في قوله: ﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾ [المائدة: 17]، وقوله: ﴿قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ﴾ [المائدة: 76]، والمقصود من ذلك بيان البون بين الدُّعاء الحقِّ والدُّعاء الباطل، ومن نظائر هذا

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 1/ 14، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/ 245.

(2) فاضل السّامرّائي، معاني النحو: 4/ 69.

المعنى في القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٧﴾ [الأعراف: 196 - 197]، كما أنَّ مجيء الفعل ﴿يَمۡلِكُونَ﴾ بصيغة المضارع يقتضي استمرارَ عجزهم عن كشف الضُّرِّ، وتجدُّد العجز؛ فهم عاجزون على الدَّوام.

عود الضَّمير في ﴿يَمۡلِكُونَ﴾:

تغليب العاقل على غير العاقل من معبوداتهم

ورد في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ ضميرُ الجمع (الواو) الدالُّ على جماعة العقلاء؛ ولهذا فقد ذهب بعض المُفسِّرين إلى أنَّ مرجعه لا بدَّ أن يكون من العقلاء، فالذين أمر رسول اللّه ﷺ أن يقول لهم في هذه الآية، ليسوا عَبَدة الأصنام، وإنَّما هم عَبَدة مَن يعقل، واختلف في ذلك، فقال ابن عباس: هي في عَبَدة عُزيرٍ والمسيح وأمِّه ونحوهم، وقال ابن عباس أيضًا، وابن مسعود: هي في عَبَدة الملائكة، وقال ابن مسعود أيضًا: هي في عَبَدة شياطين كانوا في عهد رسول اللّه ﷺ؛ فأسلم أولئك الشياطين، وعَبَدتُهم بقُوا يعبدونهم؛ فنزلت الآية في ذلك[1].

كما استدلَّ أصحابُ هذا القول بأنَّ المُراد ليست الأصنام؛ بل مَنْ يعقل؛ لأنَّه تعالى قال في صفتهم في الآية الآتية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾، وابتغاءُ الوسيلة إلى اللّه تعالى لا يليق بالأصنام البتَّة[2].

وذهب بعض المفسِّرين إلى العموم تغليبًا للعاقل على غيره، فيشملُ الضَّميرُ الأصنامَ والشَّمس والقمر والكواكب والملائكة والجنَّ وعُزيرًا والمسيح وأمَّه، وكلَّ معبود من دون اللّه[3].

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/ 72.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/ 172.
(3) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/ 72.

بلاغةُ الاستعارةِ عن إزالةِ الضُّرِّ بكشفِهِ:

تضمَّن قوله تعالى: ﴿فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ استعارةً تصريحيَّةً بليغةً، وهي التّعبير عن دفع الضُّرِّ والفقر والجوع والمرض والبؤس، بكشف الضرِّ بجامع الانجلاء، فمادة (كشف) في الأصل تعني: إبعاد السِّتار، أو اللِّباس أو ما شابهه عن شيء مُعيَّن، فإذا استُخدِمَت في تعبير ﴿كَشۡفَ ٱلضُّرِّ﴾؛ فتعني: إبعاد الحزن والغمِّ والمرض، والسَّبب في ذلك أنَّ هذه الأمور تُعَدُّ كالسّتار الذي يُغطِّي وجهَ الإنسان وجسمَه، إذ تُغطّي الوجه الحقيقيَّ الذي هو عبارة عن السَّلامة والراحة والهدوء، ولذلك فإنَّ إزالة الغمِّ والحزن يُعَدُّ كشفًا للضرِّ.

الـدِّلالـةُ على كـشـفِ الـبـلاءِ الـذي يُـغـطِّـي وجـهَ الإنـسـانِ وجسمَه

معنى (أل) في ﴿ٱلضُّرِّ﴾:

وَرَدَ لَفْظُ ﴿ٱلضُّرِّ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ مُعَرَّفًا بأداةِ التَّعريفِ (أل) الدَّالَّةِ على تعريف الجنس المُقتضي للعموم؛ أيْ: جنس الضُّرِّ المعلوم الَّذي يُصيبكم، فكلُّ ما يدعوه المشركون لا يكشفُ عنهم أدنى ضرٍّ، ولو شوكة يشَاكونها، فضلًا عن الأضرار الجسيمة؛ كالمجاعة والبؤس والهلاك.

تعريفُ الجنسِ يقتضي عمومَ ما يُصيبُ المشركين

معنى الواو في قوله: ﴿وَلَا تَحۡوِيلًا﴾:

في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ استُعمل حرف (الواو) الدالِّ على العطف، فالآلهة المزعومة التي يتَّخذها المشركون من دون اللّه، لا تستطيع إزالة الضُّرِّ عن الجميع، ولا إزالته عن واحدٍ إلى غيره، فهم إذًا لا يملكون هذه ولا هذه.

عـجـزُ آلـهـةِ الـمـشـركـيـن المزعومة عن أيِّ نفعٍ

نكتةُ تنكيرِ ﴿تَحۡوِيلًا﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿تَحۡوِيلًا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾، والغرضُ البلاغيُّ من التّنكير فيها هو التّقليل، فمعبوداتهم الباطلة لا يستطيعون أقلَّ تحويلٍ لما يُصيبهم من الجَهد والبلاء، فضلًا عن أكثره من باب أَوْلى.

بـلاغـةُ نـفـيِ القليلِ فضلًا عن نفي الكثيرِ

الإيجازُ، وإظهارُ العجزِ المتأصِّلِ في الآلهةِ الباطلةِ

غرضُ حذفِ مُتعلِّقِ التَّحويلِ:

حُذِفَ متعلِّقُ التَّحويل في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾، والتَّقدير: (ولا تحويل الضُّرّ)، فحُذِف إيجازًا؛ لكونه معلومًا من السّياق، وكذلك لأنَّ سياق الآية أبرزَ عجز آلهتم الباطلة من أصله دون أفراده، إضافةً إلى رعاية الفاصلة للآيات السّابقة.

بلاغةُ التَّدلِّي من الأعلى إلى الأدنى

علَّةُ تقديمِ كشفِ الضُّرِّ على تحويلِهِ:

ورد في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ تقديمُ كشف الضُّرِّ على تحويله على سبيل التَّدلِّي، فهم لا يستطيعون لا الأعلى ولا الأدنى منه، وفي هذا دلالةٌ واضحةٌ على أنَّ تلك الآلهة العاجزةَ ليست لها القدرة للتّأثير الكامل في حلِّ المشكلات بصفةٍ نهائيةٍ، ولا القدرة على التَّأثير النّاقص في تغيير هذه المشكلات وحلِّها بصفة جزئيّةٍ، قال ابن عباس: "﴿وَلَا تَحۡوِيلًا﴾؛ يريد: من السِّقم والفقر إلى الصِّحة والغِنَى"[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الظَّنُّ أعمُّ دلالةً من الزَّعم

الزَّعم والظَّنّ:

يتجلّى الفرق بين الزَّعم والظنِّ في علاقة العموم والخصوص بينهما، فالظنُّ عامٌّ في كل ما يحصل عن أمارة، ومتى قويت؛ أدَّت إلى العلم، ومتى ضعفت جدًّا؛ لم يتجاوز حدَّ التَّوهُّم[2]، في حين أنَّ الزَّعم خاصٌّ، ويُطلق في الغالب على القول الباطل والاعتقاد الفاسِد والمشكوك فيه، ولهذا قال الليث: "سمعتُ أهلَ العربية يقولون: إذا قيل: ذَكَرَ فلانٌ كذا وكذا؛ فإنَّما يُقال ذلك لأمرٍ يُستَيقنُ أنَّه حقٌّ،

(1) الواحديّ، البسيط: 13/ 369.
(2) الرّاغب، المُفردات: (ظنّ).

فإذا شكَّ فيه، فلم يدرِ لعلَّه كذبٌ أو باطل؛ قيل: زعم فلان"[1]، وقد جاء في القرآن في كلِّ موضع ذُمَّ القائلون به بحكاية قول يكون مظنَّةً للكذب[2].

على أنَّ الآلوسيَّ قد ذَكَر أنَّه كثر استعماله أيضًا بمعنى: القول الحقِّ، وفي الحديث عن النَّبيِّ ﷺ: "زعم جبريل"[3]، وقد أكثر سيبويه في (الكتاب) من قوله: زعم الخليل كذا - في أشياء يرتضيها - في أكثر من ثلاثين موضعًا، وفي (شرح مسلم) للنَّوويِّ أنَّ (زعم) في كل هذا بمعنى: القول[4].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (زعم).

(2) الرّاغب، المُفردَات: (زعم).

(3) من حديث خالد بن الوليد رضي الله عنه: «أنَّه شَكا إلى النَّبيِّ ﷺ فَزَعًا يَجِدُه باللَّيلِ، فقالَ: ألا أُعلِّمُك كَلِماتٍ عَلَّمَنيهنَّ جبْريلُ؟ زَعَمَ أنَّ عِفريتًا مِن الجِنِّ يَكيدُني، فقالَ: قُلْ: أعوذُ بكَلِماتِ اللهِ التّامّاتِ الَّتي لا يُجاوِزُهنَّ بَرٌّ ولا فاجِرٌ ...» وذَكَرَ الحَديثَ؟ وهو مُرسَل، يُنظر: أبو حاتم الرَّازيّ، عللُ ابن أبي حاتم (2086).

(4) الآلوسي، روح المعاني: 3/ 65.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ٥٧﴾ [الإسراء: 57]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تسابقُ الأنبياء والصَّالحين والملائكةِ إلى مرضاةِ الرَّبِّ والقُرب منه

لـمّا بيَّن سبحانه أنَّ معبودات المشركين المزعومة لا ضرَّ لهم ولا نفع؛ بيَّن في هذه الآية أنَّ مَن يعبدونهم من أهل الصَّلاح هم الذين يتسابقون إلى القرب إلى اللّٰه الأحد؛ رجاء أن ينفعهم وخوف أن يضرَّهم، فقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَدۡعُونَ﴾: الدّال والعين والحرف المعتلُّ أصلٌ واحد، وهو أن تُميل الشَّيءَ إليك بصوتٍ وكلامٍ يكون منك، وسائرُ اشتقاقات الباب ترجع إليه، فيقولون: دعا اللّٰه فلانًا بما يَكره: أنزل به ذلك، وتداعت الحيطان: سقط واحد، وآخر بعده، فكأنَّ الأوَّل دعا الثّاني، ودواعي الدَّهر: صروفه، كأنَّها تميل الحوادث[2]، والدُّعاء بمعنى التّضرُّع إلى اللّٰه ﷻ في طلب أمرٍ، وهو كثير[3]؛ وهو المقصود في هذه الآية.

2) ﴿يَبۡتَغُونَ﴾: (بغى) الباء والغين والياء أصلان: أحدهما طلب الشّيء، والثّاني جنس من الفساد[4]؛ والمقصود هنا الأوَّل، وبمعناه جاءت في القرآن كلُّ صيغ (ابتغى)، (ابتغاء): ﴿ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 450.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دعو).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دعو).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بغي).

ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: 207]، وكذلك صيغة (بغى) التي ليست لمعنى التّجاوز[1]، ومنه معنى ﴿يَبۡتَغُونَ﴾ في هذه الآية؛ أيّ: يطلبون القربة بالطّاعة[2].

3) ﴿ٱلۡوَسِيلَةَ﴾: أصلها من (وسل)، والواو والسّين واللّام: أصلان متباينان جدًّا، الأوّل: الرَّغْبَةُ والطَّلَبُ، يُقال: وَسَلَ؛ إذا رَغِبَ إلى الله ﷻ، ومن ذلك القياس الوَسيلَةُ، والآخر: السَّرِقَةُ، يُقال: أَخَذَ إبلَه تَوَسُّلًا؛ أيّ: سَرَقة[3]، والمقصود هنا الأوّل؛ فيكون معنى الوسيلة في الآية: الطّاعة، والقُربة، والزُّلفى إلى الله، وكل ما يَتقرَّب به العبد إلى الله[4].

4) ﴿مَحۡذُورٗا﴾: اسم مفعول من (حذر)، والحاء والذّال والرَّاء أصل واحد، وهو من التّحرُّز والتّيقُّظ، يُقال: حَذِرَ يَحْذَرُ حَذَرًا[5]، وكل مفردات التَّركيب القرآنيّة هي بمعنى التّحرُّز[6]، وهو المعنى المُراد في الآية بأنَّ عذاب الله ينبغي أن يتحرَّز منه بتقوى الله وتوحيده، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

مَـنْ يَعْبُـد الله وحدَه لا يستحقُّ أن يُعْبَد

يُخبر اللّهُ تعالى المشركين بأنَّ أولئك الذين يعبدونهم من الجنِّ أو الملائكة أو الأنبياء أو الصّالحين أو غيرهم هم أنفسهم في شغل شاغل عنهم باهتمامهم بالافتقار إلى الله؛ إذ يطلبون ما يُقرِّبهم إلى الله من العمل الصالح، ويتنافسون في القُرْب من ربِّهم بما يقدرون عليه من الأعمال الصَّالحة، ويأملون رحمته، ويخافون عذابه، فعذابه سبحانه هو ما ينبغي أن يحذره العباد، ويخافوه[7].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (بغو - بغى).
(2) السّيوطيّ، تفسير الجلالَيْن، ص: 372.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وسل).
(4) الرّاغب، المفردات: (وسل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حذر).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (حذر).
(7) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 3/ 207، ونخبة منَ العلماء، التّفسير المُيسّر، ص: 287.

وقد كان بعض العرب يعبدون الملائكة، وبعضهم يعبدون الحقَّ ﷻ، كما كان بعض اليهود والنصارى يتخذون أَحبارَهم ورهبانهم أربابًا من دون اللّه والمسيحَ ابن مريم، فنزلت هذه الآية في شأن من يعبدون غير اللّه، قال عبد اللّه ابن مسعود رضي الله عنه: (نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفرًا من الجن، فأسلم الجنّيُّون، والإنسُ الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون، فنزلت: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾)[1].

وترشد الآية الكريمة إلى أنَّ الخوفَ والرَّجاءَ والمحبَّةَ التي وصف اللّه بها هؤلاء المُقرَّبين عندَه، هي الأصل في كل خيرٍ، فمَن تمَّت له؛ تمَّت له أموره، وإذا خلا القلب منها؛ ترحَّلت عنه الخيراتُ، وأحاطت به الشُّرور[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصلِ الآيةِ عن سابقتِها:

خضوعُ آلهةِ المشركين الباطلةِ لله الحقِّ

ورد قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ مفصولًا عن الآية التي قبلها، وهي قوله تعالى: ﴿فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾؛ لوجود كمال الاتِّصال بينهما، وهو اتحاد الجملتين اتِّحادًا تامًّا وامتزاجًا معنويًّا، بحيث تُنزَّل الثانية من الأولى منزلة نفسها[3]، فقد وقعت جُمْلَةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ بيانًا للمدعوّين من دون اللّه، ولمّا بيَّن سبحانه أنَّه لا ضرَّ لهم ولا نفع؛ بيَّن أنَّهم يتسابقون إلى القرب إليه رجاء أن ينفعهم وخوف أن يضرَّهم[4].

(1) مسلم، صحيح مسلم، برقم: (3030)، وأصله في البخاريّ، صحيح البخاريّ، برقم: (4714)، دون التّصريح بسبب النّزول.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 460.
(3) القزوينيّ، الإيضاح: 3/ 108.
(4) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 11/ 450.

ويمكن أن يكون سبب الفصل بينها وبين سابقتها شبه كمال الاتِّصال جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ في الذِّهن تقديره: ما شأنهم؟ أو ما جزاؤهم؟.

غرضُ الاستهلال باسم الإشارة البعيد:

عُلُوُّ قَدْرِ النَّبِيِّين ومَن على نهجِهِم عند الرَّبِّ العظيمِ

استُهلَّ قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ باسم الإشارة للبعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، وقد اختلف المُفسِّرون في المشار إليهم؛ فقال بعضهم: إنَّ المقصود هو النَّبيُّون، فتكون نكتةُ الإشارة إليهم باسم الإشارة المُستعمل؛ للبعيد لزيادة تمييزهم والدَّلالة على بُعد مرتبتهم وشرفهم، والمعنى: أولئك الذين إن دَعَوا؛ يَستجِبْ لهم، ويكشف عنهم الضرَّ، وليسوا كالذين تدعونهم، فلا يملكون كشف الضرِّ عنكم بأنفسهم ولا بشفاعتهم عند اللّٰه، كما رأيتم من أنَّهم لم يُغنوا عنكم من الضُّرِّ كشفًا ولا صرفًا[1].

وقال بعضهم: إنَّ المُشار إليه هي الآلهة المزعومة، إن كانت ملائكةً أو جِنًّا أو أصنامًا أو عُزَيْرًا أو المسيح عليه السلام، وضمير الصِّلة محذوف؛ أيْ: يدعونهم، ويؤيِّده قراءةُ ابن مسعود رضي الله عنه: **(تَدْعُون)** بالتّاء على الخطاب، وسببُ النزول السابق في صحيح مسلم من كتاب التفسير عن عبد اللّٰه بن مسعود رضي الله عنه، فتكون نكتةُ الإشارة إليهم باسم الإشارة المستعمل للبعيد؛ للدلالة على بُعدهم عن استحقاق العبادة، فأولئك المعبودون ملائكةٌ أو غيرهم يرجعون إلى اللّٰه في طلب المنافع ودفع المضارِّ، ويرجون رحمته، ويخافون عذابه، وإذا كان كذلك؛ كانوا موصوفين بالعجز والحاجة، واللّٰه تعالى أغنى الأغنياء؛ فكان الاشتغال بعبادته أولى[2].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 140.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 20/ 358، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 1/ 279.

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ وصلتِهِ:

مدحُ الأنبياءِ المقرَّبين بالتضرُّعِ وابتغاءِ رضا ربِّ العالمين

ورد في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ التَّعبير بالاسم الموصول وصلته: ﴿ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾، والتَّعبير بالاسم الموصول هنا لرفع شأنهم والثَّناء عليهم، والنُّكتةُ البلاغيَّة في إيثار وضع الاسم الموصول موضع الاسم الظَّاهر أنَّه يسمح بوصفه بجملة الصِّلة، فوصفَ أنبياءَهُ بالتضرُّع إليه بالدُّعاء وابتغاء القرب والزُّلفى إليه، وفي ذلك ثناءٌ عليهم وتكريمٌ.

وروى عطاءٌ عن ابن عباس في هذه الآية، قال: ثم ذَكَرَ أولياءَه، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ الآية، قال الواحديُّ: "وعلى هذا القول تكون الآيةُ صفةً للمؤمنين"[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ: ﴿يَدۡعُونَ﴾:

التزامُ المُقرَّبين التَّضرُّعَ بالدعاءِ وتجدُّده منهم

عبَّر النَّظم القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ بالمضارع ﴿يَدۡعُونَ﴾ دون غيره من الأزمنة؛ لما يُفيده المضارع من افتراض تكرُّر الحدَث وتجدُّده واستمراره[2]، وفي ذلك دلالةٌ على التزامهم التَّضرُّعَ بالدعاء وتجدده منهم، باعتبار أنَّ الدُّعاء من أبرز أعمال العبودية.

غرضُ حذفِ مفعولِ: ﴿يَدۡعُونَ﴾:

الاقتصارُ على معنى الفعلِ لأهمّيّته

ورد في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ حذفُ مفعول ﴿يَدۡعُونَ﴾؛ لغرض التّركيز على فعل الدُّعاء دون المدعو لوضوحه من السّياق، والتّقدير: (الذين يدعونهم من الملائكة ونحوهم)، ولمّا كان واضحًا؛ جاز حذفه، فالغرض من ذِكْرِ الفعل مُجرَّدًا الاقتصارُ على إثبات معنى الفعل؛ لإفادة الوجود المُجرَّد في الشيء دون التَّعرُّض للمعمول[3]، فيجعل المتعدِّي كغير

---

(1) الواحدي، البسيط: 13/ 368.

(2) فاضل السّامرّائيّ، معاني النحو: 4/ 78.

(3) الجُرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 153.

المُتعدِّي في أنَّك لا ترى له مفعولًا لا لفظًا ولا تقديرًا، وإذا كان الكلام مُنصبًّا إلى غرضٍ من الأغراض؛ جعل سياقه له وتوجُّهه إليه، كأنَّ ما سواه مرفوضٌ مطَّرح[1].

فائدةُ الجملةِ الخبريَّة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾:

مدحُ عبادِ اللهِ المقرَّبين بتمامِ العبودية

تضمَّن قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ خبرًا، فائدته مدح عباد الله المُقرَّبين بتمام العبودية والخضوع لله، فهم يطلبون إلى الله الزُّلفى والقربة، ويتضرَّعون إلى الله تعالى في طلب الجنة، فهؤلاء حقًّا مَنْ يستحقّون إجابة دعائهم وكشف الضُّرِّ عنهم.

نكتةُ فصلِ قوله: ﴿يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾:

ابتغاءُ الوسيلةِ والزُّلفى بالدُّعاءِ

ورد قولُه تعالى: ﴿يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ مفصولًا عن قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾؛ لوجود كمال الاتِّصال بينهما، وهو اتحاد الجملتيْن اتِّحادًا تامًّا وامتزاجًا معنويًّا، بحيث تُنزَّل الثّانيةُ من الأولى منزلةَ نفسها[2]، فقد وقعت جُمْلَةُ ﴿يَبۡتَغُونَ﴾ حالًا من ضمير ﴿يَدۡعُونَ﴾، أو بيانًا لجملة ﴿يَدۡعُونَ﴾ [3]، فوجب فصلها.

نكتةُ تعديةِ الفعل ﴿يَبۡتَغُونَ﴾ بـ ﴿إِلَىٰ﴾:

منتهى المأمول في الحصول على الرضا والقبول

تعدَّى الفعل: ﴿يَبۡتَغُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ بحرف الجرِّ ﴿إِلَىٰ﴾ الدَّالِّ على انتهاء الغاية؛ لأنَّ غاية مطلوب العباد الحصول على القُرْب من ربِّهم، والحصول على الجنَّة، وهي الوسيلة[4]، وهي المُنتهى والمُرتجَى.

نكتةُ استعمال لفظ الرُّبوبيَّة وإضافته:

واجبُ العبيدِ في التّضرُّع لمُربِّيهم بالنِّعم

ورد في قوله تعالى: ﴿يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ التَّعبير بوصف

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 8.
(2) القزوينيّ، الإيضاح: 10/ 279.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 140.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 278.

﴿رَبِّهِمُ﴾ دون سواه من أسماء اللّه وصفاته؛ لِما في وصف الرُّبوبيَّة من الدَّلالة على الشَّفقة بالمربوب، ومحبَّة الخير له، وللتَّنبيه على أنَّ واجب العبيد التَّضرُّع والتَّقرُّب لمُربِّيهم بالنِّعَم، كما أنَّ إضافة الرَّبِّ إلى ضميرهم أفادت التَّشريف لهم وقربهم منه، فهو ربُّهم[1]، ومَن يدعو ربَّه مُحبًّا له معتمدًا عليه بقلبه مُلتَجئًا إليه؛ مُبشَّرٌ بالقُرب؛ لقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: 186].

علَّة تقديم شبه الجملة على المفعول:

تخصيص الرَّبِّ ﷻ بالدُّعاء والتَّضرُّع

جاء في قوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ تقديمُ شبه الجملة: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمُ﴾ على المفعول: ﴿ٱلْوَسِيلَةَ﴾، والنُّكتة في ذلك: تخصيص الربِّ ﷻ بالدعاء والتضرُّع وطلب الزُّلفى لديه؛ وذلك لأنَّ الدُّعاء هو العبادة، كما قال النبيُّ ﷺ "الدُّعاءُ هو العبادة"[2]؛ لكون العبد يكون متذلِّلًا لربِّه مُنقطعًا إليه، راجيًا ما عنده، مُعرِضًا عن غيره، مُثنيًا عليه بأسمائه وصفاته العُليا، فوجب إفراد اللّه بهذه العبادة.

معنى (أل) في ﴿ٱلْوَسِيلَةَ﴾:

الوسيلة بين عموم القُرَب وخصوص الجنَّة

اختلف المُفسِّرون في لفظ ﴿ٱلْوَسِيلَةَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾، وهم في معناها بين مُطلِقٍ ومُقيِّد؛ فمَن أطلق قال: إنَّ الوسيلة هي كلُّ ما يُتقرَّب به إلى اللّه تعالى[3]، وعليه تكون (ال) فيها للجنس المفيد للعموم والاستغراق، فيدخل فيها كل قربة للّه، وقيَّد بعضهم الوسيلة بأنَّها الجنَّة[4]، فتكون (ال) فيها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/ 202.
(2) أخرجه أبو داود، السُّنن: (1479)، والتِّرمذيُّ، السنن: (2969)، وابن ماجه، السُّنن: (3828)، وصحح إسناده الألبانيُّ في صحيح التّرمذيّ: (3247).
(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 12/ 306.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 278.

للعهد الذِّهنيّ، فالجنَّة عند المسلمين هي دار الكرامة التي أعدَّها الله لأوليائه.

نكتةُ فصل قوله: ﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾:

كمالُ الاتِّصال بين البَدَل والمُبْدَلِ منه

ورد قوله تعالى: ﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ مفصولًا عن قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾؛ لوجود كمال الاتِّصال بينهما، وهو اتِّحاد الجملتيْن اتِّحادًا تامًّا وامتزاجًا معنويًّا، بحيث تُنَزَّلُ الثانيةُ من الأولى منزلة نفسها[1]، فقد وقعت جُمْلَةُ: ﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ بدلًا من ضمير ﴿يَبۡتَغُونَ﴾ بدل بعض، أو بدلًا من جملة ﴿يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾[2]، ويمكن أن يكون سبب الفصل لكمال الانقطاع بينهما للاختلاف في الخبريَّة والإنشائيَّة، فالجملة الثّانية استفهاميَّة إنشائيَّة.

معنى (أيّ) ودلالتها الإعرابية:

تغيُّر الدِّلالة المعنوية باختلاف الوظيفة الإعرابية

اختلف العلماء في لفظ (أيّ) في قوله تعالى: ﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾، وقد اختلف فيها العلماء؛ فمنهم مَنْ جعلها موصولةً، والمعنى: الذي هو أقرب من رضا الله يبتغي زيادة الوسيلة إليه؛ أيْ: يزداد عملًا؛ للازدياد من رضا الله عنه واصطفائه، ومنهم مَنْ جعل (أي) هنا استفهامية؛ أيْ: يبتغون معرفةَ جواب: أيُّهم أقرب عند الله؟[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بـ﴿أَقۡرَبُ﴾:

تنافسُ العبادِ في القربِ من المولى الجوّادِ

ورد في قوله تعالى: ﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ لفظ ﴿أَقۡرَبُ﴾، وهو على وزن أفعل التَّفضيل، وهو مشتقٌّ من القرب المقابل للبُعد من قَرُبَ يَقْرُبُ كَكَرُمَ، وزنه أَفْعَل، والمُفضَّل عليه محذوف؛ أي: أقرب من غيره، والمعنى: الذي هو أقربُ من رضا الله يبتغي زيادة الوسيلة إليه؛ أيْ: يزداد عملًا للازدياد من رضا الله عنه واصطفائه[4].

(1) القزويني، الإيضاح: 3/ 108.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 140.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 140.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 140.

فائدةُ حذف مُتعلّق ﴿أَقْرَبُ﴾:

حذفُ ما يُعلم جائزٌ وبليغٌ

جاء في قوله تعالى: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ لفظ ﴿أَقْرَبُ﴾ اسم تفضيل، ومتعلِّقه محذوف دلَّ عليه السّياق؛ والتَّقدير: (أيُّهم أقرب إلى ربِّهم)[1].

معنى الواو في ﴿وَيَرْجُونَ﴾:

جمع العباد بين رجاء الرَّحمة وخوف العذاب

في قوله تعالى: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ جاءت جملة ﴿وَيَرْجُونَ﴾ موصولة بالواو؛ لما بينها وبين ما قبلها من المناسبة التّامَّة في المعنى، فالجامع بين الجملتَيْن هو الحرصُ على أيُّهم يكون أقربَ إليه تعالى بالطّاعة والعبادة، ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ﴾ بها، ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ بتركها، كدأب سائرِ العباد، فأين هم من كشف الضُّرِّ فضلًا عن الإلهية؟[2].

نكتة التَّعبير بالأفعال المضارعة ﴿وَيَرْجُونَ﴾ و﴿وَيَخَافُونَ﴾:

دوامُ التقرُّب بالطاعاتِ بين الرجاءِ والخوفِ

آثر السياق القرآني التعبير بالمضارعة في قوله تعالى: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ في كلٍّ من: ﴿وَيَرْجُونَ﴾ و﴿وَيَخَافُونَ﴾، دون غيرها من الأزمنة؛ لما يُفيده المضارع من افتراض تكرُّر الحَدَثِ وتجدُّده واستمراره[3]، وفي ذلك دلالةٌ على دوام التّقرُّب برجاء الرّحمة وخوف العذاب، وهذا دأب الصّالحين في سيرهم إلى ربِّ العالمين، فهم بمنزلة الطَّائر؛ فالمحبَّة رأسه، والخوف والرَّجاء جناحاه، فمتى سَلِم الرَّأس والجناحان؛ فالطائر جيِّدُ الطيران، ومتى قُطِعَ الرأسُ؛ مات الطائر، ومتى فُقِدَ الجناحان؛ فهو عُرضة لكل صائدٍ وكاسر[4].

فائدةُ تقديم ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ﴾:

سَعةُ رَحْمَةِ الله وسَبقُها غَضَبه

ورد في قوله تعالى: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 140.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 179.
(3) فاضل السّامرّائيّ، معاني النحو: 4/ 78.
(4) ابن القيّم، مدارج السّالكين: 2/ 188.

﴿عَذَابَهُۥٓ﴾ تقديم ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ﴾ على قوله: ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾؛ للاهتمام بالرَّحمة، فالعبد يحسن الظنَّ بربِّه الكريم، وسعة مغفرته، ورحمته، وعفوه، وجوده، وأنَّ رحمَتَه سبقت غضبَه، وذلك تأكيدًا لما ورد في حديث أبي هريرة ﵁ أنَّ النَّبيَّ ﷺ، قال: "إنَّ اللّه كَتَبَ كِتابًا قَبْلَ أنْ يَخْلُقَ الخَلْقَ: إنَّ رَحْمَتي سَبَقَتْ غَضَبِي، فَهو مَكْتُوبٌ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ"(1)، وكذلك فإنَّ الربَّ تعالى تَسمّى بالغفور الرحيم، ولم يتسمَّ بالمعذِّب، ولا بالمعاقِب، بل جعل العذاب والعقاب في أفعاله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ ١٦٥﴾ [الأنعام: 165](2).

وفي ذِكر خوف العذاب بعد رجاء الرحمة في هذه الآية إشارة إلى أنَّ العباد في موقف الأدب مع ربِّهم، فلا يزيدهم القرب من رضاه إلّا إجلالًا له وخوفًا من غضبه، وهو تعريض بالمشركين الذين ركبوا رؤوسهم، وتوغَّلوا في الغرور، فزعموا أنَّ شركاءهم شفعاؤهم عند اللّه(3).

بلاغةُ الطِّباقِ بين ﴿وَيَرۡجُونَ﴾ ﴿وَيَخَافُونَ﴾:

الخوفُ والرجاءُ جناحان متقابلان في السَّير إلى الله

ورد في قوله تعالى: ﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ الطِّباق بين ﴿وَيَرۡجُونَ﴾ ﴿وَيَخَافُونَ﴾، والنُّكتة فيه توضيح المعنى بالجمع بين المعنى وضدِّه، فيجب للمؤمن أن يجمع بينهما ليستقيم حاله في الدنيا والآخرة، فهما كالجناحيْن للطَّائر لا يستغني عن أحدهما، فإذا استويا؛ استقامت أحواله، ومتى فقد أحدهما؛ اختلَّ توازنه، وفسد طيرانه.

(1) مُتفقٌ عليه، رواه البخاري (7554)، ومسلم (2751).
(2) القمّاش، مصباح التفاسير: 7/ 645.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 140.

توضيح المعنى بجمع اللفظ وضدّه

بلاغة الطِّباق بين الرّحمة والعذاب:

في قوله تعالى: ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ طباقٌ بديعٌ بين لفظي ﴿رَحۡمَتَهُۥ﴾ و﴿عَذَابَهُۥٓۚ﴾، وهو محسِّنٌ معنويٌ، فبين تقابل الرحمة والعذاب وتخالفهما تضادٌّ يروِّع النفس، ويثير الذهن، ويجذب الانتباه، ويزيد الكلام حُسْنًا وطرافةً، كما يقوّي المعنى؛ إذ بضدِّها تتمايز الأشياء.

توكيدُ الحُكم وإبرازُه في صورةٍ كلِّيَّةٍ

نكتةُ فصل قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾:

ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ مفصولًا عن الكلام السّابق، وهو قوله تعالى: ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾؛ لأنَّه وقع تذييلًا له، وفائدة التّذييل غالبًا توكيدُ المُذيَّل، وإبرازُ حُكمه في صورةٍ كلِّيةٍ[1]، فكانت الجملةُ الثّانيةُ مؤكِّدة للجملة الأولى، بما يُشبه أن يكون توكيدًا لفظيًّا أو معنويًّا، ففُصِلت لكمال الاتِّصال بينهما.

ويمكن أن يكون سببُ الفصل أيضًا شبه كمال الاتِّصال جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ: لماذا يخافون؟

تنزيلُ خالي الذِّهنِ منزلةَ السَّائلِ المُتردِّدِ

غرضُ التَّأكيدِ بجملةِ مؤكِّداتٍ:

أُكِّد قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ بـ﴿إِنَّ﴾ والجملة الاسميَّة، ومجيء خبر ﴿إِنَّ﴾ جملة اسميَّة، والغرض في ذلك هو العدول عن مُقتضى الظَّاهر، بتنزيل خالي الذِّهن منزلة السّائل المُتردِّد، إذا تقدَّم في الكلام ما يُشير إلى حُكم الخبر؛ وذلك لأنَّ الإشارة إلى حُكم الخبر أوَّلًا تُورث تشوُّقًا واستشرافًا لمعرفة تمام الحُكم، فكان هذا التَّشوُّق والاستشراف كالسُّؤال من المخاطَب، فحَسُنَ خطابُه؛ إذ ذاك بخطاب السّائل المُتردِّد[2]، فكأنَّ سائلًا سأل:

(1) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 6/ 386.

(2) ابن باديس، مجالس التّذكير: 2/ 97.

لماذا يخافون عذابه؟ فجاء الجواب مؤكّدًا له: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝٥٧﴾ [الإسراء: 57]، وسلوك هذه الطريقة شُعبة من شُعَبِ البلاغةِ.

نكتةُ إضافة العذاب إلى لفظ الرُّبوبيّة:

تهويلُ عذاب الرَّبِّ العظيم

ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ إضافة العذاب إلى لفظ الرُّبوبيَّة؛ للتهويل والتّعظيم، واستحضار الجلالة بوصف الربوبيّة، فعذاب الرَّبِّ العظيم عظيم، وفي ذلك استحقاق أن يتَّقى لعظمته، وإلى جدارة العباد بأن يحذروه؛ لأنَّ حقيقته تقتضي حذر المُوَفَّقين، فهو جدير بذلك[1].

إضافة لفظ الرُّبوبيَّة إلى كاف النّبوّة:

تشريفُ النَّبيِّ ﷺ والتّعريض بعقوبة مخالفيه

أُضيف في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ لفظ الرُّبوبيَّة إلى ضميره ﷺ إضافة تشريف وتعظيم لرسوله، وللتعريض بأنَّ العذاب واقع على مَن كذَّب بالرَّسول ﷺ؛ لأنَّه ربُّه، فمَنْ كذَّب به؛ فقد كذَّب برسالة الرَّبِّ ﷻ على لسان نبيِّه، فيستحقُّ العذاب، وقيل أيضًا في نكتة الإضافة إنَّ العذاب حقيق بأن يحذرَه كلُّ أحدٍ، حتى الملائكةُ والرُّسلُ عليهم الصلاة والسَّلام[2].

وجهُ دخول ﴿كَانَ﴾ على خبر ﴿إِنَّ﴾:

وجوبُ دوامِ الحذرِ من العذابِ

ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ دخول ﴿كَانَ﴾ على خبر ﴿إِنَّ﴾؛ لدلالته على رسوخ الخبر في الاسم، فعذاب الرَّبِّ العظيم من شأنه أن يكون محذورًا على الدَّوام، وهذا نظيره قوله تعالى: ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ۝٤١﴾ [النّمل: 41]، دون أن يقول: أم لا تهتدي؛ لأنَّها إذا رأت آية تنكير عرشها ولم تهتدِ؛ كانت راسخةً في الاتِّصاف بعدم الاهتداء[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 141.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 179.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 427.

وجوب الحذر الدائم من عذاب الجبّار

نكتة الإتيان بـ ﴿مَحۡذُورٗا﴾ مادَّةً وصيغةً:

عبَّر القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ باسم المفعول ﴿مَحۡذُورٗا﴾ من حَذِرَ يحذَرُ حَذَرًا، من باب تَعِبَ، وحذِرَ الشَّيءَ؛ إذا خافه، فالشيءُ محذور؛ أيْ: مخوف، وحَذَّرْتُهُ الشَّيءَ، فحَذِرَهُ[1]، ومعنى كون العذاب محذورًا؛ أيْ: جديرًا بأن يحذَرَهُ كلُّ أحدٍ من مَلَك مُقرَّب ونبيٍّ مرسَل، فضلًا عن غيرهم؛ لما شُوهد من إهلاكه للقرون ومن صنائعِه العظيمة[2]، فإن لم يحذره بعض الناس لجهله، فهو لا يخرج من كونه يجب الحذر منه[3].

مناسبةُ السياق لمقام التَّرهيب وتعليل العذاب

علّةُ اقتصار فاصلة الآية على تعليل العذاب:

ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ تعليل العذاب دون الرَّحمة؛ مناسبةً لسياق الآيات، ففيها خطابٌ للمشركين بأن يدعوا آلهتهم المزعومة التي لا تُغني شيئًا من كشف الضُّرِّ أو تحويله، فلمَّا كان المقامُ مقامَ تحذير من الشِّرك؛ ناسبه الاقتصار على تعليل العذاب[4].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخوفُ شعورٌ نفسيٌّ، والحذرُ تصرُّفٌ عمليٌّ

الحَذَرُ والخَوْفُ:

يتجلّى الفرق بين الحذر والخوف في أنَّ الخوف توقُّع الضَّرر المشكوك في وقوعه، ومَن يتيقَّن الضَّرر لم يكن خائفًا منه، والحذرُ تَوقّي الضَّرر، وسواء أكان مظنونًا أم متيقَّنًا، والحذر يدفع الضَّرر، والخوف لا يدفعه، ولهذا يُقال: خذ حذرك، ولا يُقال: خذ خوفك[5]؛ لذا قال الله في الاستعداد لملاقاة العدوِّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ

---

(1) الفيّوميّ، المصباح: 1/ 126.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 451.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 20/ 358.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 179.
(5) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 240.

حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴿٧١﴾ [النِّساء: 71]؛ أيْ: فاخرجوا لملاقاته جماعة بعد جماعة، أو مجتمعين، من باب توقِّي الأضرار الحاصلة من المواجهة معه، وقال في صلاة الخوف في جبهات القتال: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن كَانَ بِكُمۡ أَذٗى مِّن مَّطَرٍ أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡۖ وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡۗ﴾ [النساء: 102]، فنفى عنهم في هذه الحالة إن كان بهم أذًى من مطرٍ، أو كانوا في حال مرضٍ أن يتركوا أسلحتهم، مع أَخْذِ الحذر من العدوِّ.

كما أنَّ الخوف سبب، والحذر مسبَّب عنه، فالخوف شعورٌ نفسي، قال تعالى: ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾ [طه: 67]، والحذرُ تصرُّفٌ عمليٌّ بأخذ الأسباب، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴿٧١﴾﴾ [النِّساء: 71].

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ۝٥٨﴾ [الإسراء: 58]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تهديد المشركين بعموم الإهلاك للظّالمين

لمّا عرَّض سبحانه بالتهديد للمشركين في قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾، وتحدّاهم بقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ﴾؛ جاء بصريح التَّهديد وتعميمه بأنَّ كلَّ قرية مثل قريتهم في الشِّرك سيعمُّها الإهلاك أو العذاب[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿قَرْيَةٍ﴾: أصلها من (قري)، والقاف والرّاء والحرف المعتلُّ أصل صحيحٌ يدلُّ على جمع واجتماع، من ذلك القَرْيَةُ، سُمّيت قرية لاجتماع الناس فيها، وإذا همز هذا الباب؛ كان هو والأوَّل سواء، ومنه القُرْآنُ، كأنَّه سُمّي بذلك لجمعه ما فيه من الأحكام والقصص وغير ذلك[2]، ولم يأتِ من التركيب في القرآن إلّا القرية، وجمعها (القُرى)[3]؛ فالقَرْيَةُ اسم للموضع الذي يجتمع فيه النَّاس، أو النّاس جميعًا[4]، ولهذا يحتمل المعنى المُراد في الآية الموضعَ أو أهلَه.

2) ﴿مُهْلِكُوهَا﴾: (هلك) الهاء واللّام والكاف أصل يدلُّ على كسرٍ وسقوطٍ، منه الهَلاكُ: السُّقوط، ولذلك يُقال للميّت: هَلَكَ[5]، والهَلَاكُ في القرآن على أوجه منها: نفاد الشيء؛ كقوله تعالى: ﴿هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ۝٢٩﴾ [الحاقة: 29]، ومنها: هلاكُ الشيء باستحالة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 141.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قري).
(3) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (قري).
(4) الرّاغب، المُفردات: (قرى).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هلك).

وفساد؛ كقوله: ﴿وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ﴾ [البقرة: 205]، ومنها: الموت؛ كقوله: ﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ﴾ [النّساء: 176]، ومنها: بُطلان الشّيء من العالم وعدمه رأسًا، وذلك المُسمَّى فناء[1]، وهو المعنى المقصود في الآية.

3) ﴿مَسۡطُورٗا﴾: (سطر) السّين والطّاء والرّاء أصلٌ مطَّردٌ يدلُّ على اصطفاف الشَّيء[2]، والسَّطْرُ والسَّطَرُ: الصَّفُّ من الكتابة، ومن الشَّجر: المغروس، ومن القوم: الوقوف، وسَطَّرَ فلان كذا: كتب سطرًا سطرًا، قال تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١﴾ [القلم: 1]، وجمعُ السَّطر: أَسْطُرٌ، وسُطُورٌ، ومنه معنى الآية: ﴿مَسۡطُورٗا﴾؛ أيّ: مثبتًا محفوظًا[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

قضاء الله بإهلاك القرى الظالمة وعذابها

يؤكِّدُ اللّه تعالى ما حذَّر به المشركين في آخر الآية السابقة من عذابه، ويتوعَّد الكفَّار بأنَّه ما من قريةٍ كافرةٍ مُكذِّبةٍ للرُّسل، إلّا وسيُنزل بها عقابه بالهلاك في الدُّنيا قبل يوم القيامة، أو بالعذاب الشَّديد لأهلها، كتابٌ كتبه اللّه، وقضاء أبرمه لا بدَّ مِن وقوعه، وهو مسطورٌ في اللَّوح المحفوظ[4].

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى أنَّه إذا كَثُر الخَبثُ في النَّاس من الفسوق والفجور والمعاصي؛ قَرُبَ الهلاك لجميعهم، قال ابن مسعود رضي الله عنه: "إذا ظهر الزِّنى والرِّبا في قريةٍ؛ أَذِن اللّه في هلاكهم"[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو في قوله: ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ﴾:

تعميمُ حكم الإهلاكِ أو التَّعذيبِ على كلِّ القرى المُكذِّبةِ

صُدِّر قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ

(1) الرّاغب، المُفردات: (هلك).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سطر).
(3) الراغب، المُفردات: (سطر).
(4) نخبة منَ العلماء، التّفسير المُيسّر، ص: 287.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 107.

﴿أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ﴾ بحرف (الواو) الدّالِّ على العطف؛ فإنَّ اللّه ﷻ لمّا ذكر العذاب بقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾، وكان المعنى: فاحذرونا، فإنّا أبدنا الأممَ السالفة، ودمَّرنا القرى المشيَّدة؛ عطف عليه قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا﴾؛ لبيان عموم الحُكم لكلِّ القُرى مع أهلها، فلا بدَّ وأن يرجع حالها إلى أحد أمريْن: إمّا الإهلاك، وإمّا التَّعذيب[1].

معنى (إنْ):

دلالـةُ القصرِ بالجمعِ بين النَّفيِ والإثباتِ

استُعمل حرف النفي (إن) في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ﴾، وهو حرف موضوع لنفي الحال عند الإطلاق، وإن قُيِّدَ كان بحسب ذلك القيد[2]، وهي أعرق في النَّفي من (ما)، وقد أفاد في هذه الآية أسلوب القَصر المسْتَفاد من جَمْعِ النفي بـ (إن) وَالاسْتِثْناءِ بـ (إلّا).

معنى ﴿مِّن﴾ في ﴿مِّن قَرۡيَةٍ﴾:

استغراق جميع القرى الكافرة بالعذاب

جاء حرف الجرِّ ﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ﴾، وذهب بعضه المُفسِّرين إلى أنَّها حرف أصليٌّ لبيان الجنس[3]، وفيه نظر من وجهيْن: أحدهما: (من) الَّتي للبيان لا بد أن يتقدَّمها مُبهم ما تُفسِّره؛ كقوله تعالى: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ﴾ [فاطر: 2]، وهنا لم يتقدَّم شيءٌ مبهمٌ.

والثّاني: أن شرط ذلك أن يسبقها مُحلًّى بأل الجنسية، وأن يقع موقعها (الّذي) كقوله: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ [الحجُّ: 30][4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 358.
(2) فاضل السّامرّائيّ، معاني النحو: 4/ 199.
(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/ 466.
(4) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 12/ 317.

وذهب بعضهم إلى أنّها حرف جرٍّ زائد، والنُّكتة في زيادتها بعد (إن) النّافية هو تأكيد استغراق مدخولها، باعتبار الصِّفة المُقدَّرة؛ أي: استغراق جميع القرى الكافرة؛ كيلا يحسبَ أهل مكة عدم شمولهم[1].

نكتة تنكير ﴿قَرۡيَةٍ﴾:

قصد العمومِ والشّيوعِ للقرى الموصوفة

وردت في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ﴾ كلمة ﴿قَرۡيَةٍ﴾ نكرةً، والنُّكتة في تنكيرها هو قصد العمومِ والشّيوعِ، فالهلاكُ والعذابُ شاملٌ لجميع القرى الكافرة على عمومها.

غرضُ حذف صفة القرية:

حذف الصِّفة كثير، ودلالةُ السّياق على تعيين المحذوف

ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ﴾ كلمة ﴿قَرۡيَةٍ﴾ مُطلقةٌ من غير تقييد، فذهب بعض المُفسِّرين إلى العموم الظّاهر بأنَّ الله تعالى يُخبر في هذه الآية أنّه ليس مدينةً من المدن إلا هي هالكة قبل يوم القيامة بالموت والفناء، هذا مع السّلامة وأخذها شيئًا فشيئًا، أو هي معذبة مأخوذة مرةً واحدةً، فهذا عموم في كلِّ مدينة[2]، فيكون فناء القرى الصالحة بالموت؛ وأمّا الطالحة؛ فبالعذاب[3].

القائلون بالتَّقييد بالصِّفة:

وذهب بعض المُفسِّرين إلى التقييد بالصفة، وأنَّ المُراد: القرى الكافرُ أهلها لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ١١٧﴾ في سورة هود [117]، وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ٥٩﴾ في سورة القصص [59]، وحذف الصِّفة في مثل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 142.
(2) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/ 466.
(3) مُقاتل، التّفسير: 2/ 537.

هذا معروفٌ كقوله تعالى: ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ٧٩﴾ [الكهف: 79]؛ أي: كل سفينة صالحة، بقرينة قوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: 79].

والرأي: الثاني المقيَّد بالصفة أقرب إلى الصَّواب؛ لأنَّ هناك آياتٍ كثيرةً تؤيِّده، وليس المقصود شمول ذلك القرى المؤمنة، على معنى أن لا بدَّ للقرى من زوال وفناء في سنَّة اللّه في هذا العالم؛ لأنَّ ذلك معارض لآيات أخرى، ولأنَّه منافٍ لغرض تحذير المشركين من الاستمرار على الشِّرك، فلو سلَّمنا أنَّ هذا الحكم لا تنفلت منه قرية من القرى بحكم سنَّة اللّه في مصير كل حادثٍ إلى الفناء لما سلَّمنا أن في ذِكْر ذلك هنا فائدة[1].

بلاغة القصر ونوعه:

تهديد أهل مكة بالهلاكِ بسبب الظُّلم

ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أسلوب القَصْر المُستَفاد من الجمع بين النَّفي بـ (إن) والاستثناء بـ (إلّا)، وهو قصرُ موصوفٍ على صفةٍ قصرًا إضافيًّا، غرضُه: قَصْرُ القُرى الظَّالمة على الهلاك أو التَّعذيب، وهو يشمل جميع القُرى الكافرة؛ لدفع توهُّم اعتقاد أهل مكَّة عدم شمولهم[2].

نكتةُ الالتفاتِ بالضَّمير: ﴿نَحْنُ﴾:

استحضارُ عظمةِ الجبّارِ، والدَّعوةُ إلى الاعتبارِ

ثمة التفات بديع في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾؛ وهو التفات من الغيبة في الآية السّابقة: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ إلى التكلُّم في هذه الآية بالضَّمير ﴿نَحْنُ﴾ الدّالِّ على العظمة وعلوِّ القدر، وتنزيله منزلة الجمع؛ لتعدُّد صفاته الحميدة ومواهبه الجزيلة، فإنَّ مثل هذا التَّعبير يُعبِّر به الملوك والعظماء النافذ أمرهم ونهيهم، وفيه أيضًا إدخال المهابة في قلوب العباد[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 141.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 142.
(3) الشِّهاب، عناية القاضي: 6/ 208.

براعةُ التَّعبير بـ﴿مُهۡلِكُوهَا﴾ مادَّةً وصيغةً:

توعُّدُ الكفَّار بالهلاك في الحال والاستقبال

ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا﴾ استعمال اسم الفاعل ﴿مُهۡلِكُوهَا﴾، وقد جاء على صيغة الجمع للتعظيم، مفرده (مُهلِك)، اسم فاعل من (أهلك) الرباعي، والمُراد من الإهلاك: الاستئصال بالكلّية وهو في الأحياء بالموت، وفي العُمران بالخراب والفناء، وفي اختيار صيغة الفاعل في هذا الموضع - وإن كانت بمعنى المستقبل - من الدّلالة على التَّحقُّق والتَّقرُّر ما فيه؛ والمعنى: ما من قرية من قرى الكفّار إلا نحن مُخرِّبوها البتَّة بالخسف بها، أو بإهلاك أهلها بالمرَّة؛ لما ارتكبوا من عظائم المُوبقات المُستوجِبة لفنائهم[1].

فائدة التَّقييد بالظَّرفيّة ﴿قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

تحذير المشركين بقُرْب الهلاك الموعود

تقيَّد الإهلاك في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ بالظّرفيّة الزّمانيّة بقوله: ﴿قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؛ لأنَّ الإهلاكَ يومئذٍ غيرُ مُختصٍّ بالقرى الكافرة، ولا هو بطريق العقوبةِ، وإنَّما هو لانقضاء عُمرِ الدُّنيا[2]، والغرضُ من هذه الآية هو تحذيرُ المشركين من الاستمرار على الشِّرك، فهدَّدهم بأنَّ الهلاك هو في الحياة الدُّنيا، قبل يوم القيامة، كما أنَّ التقييد بكونه قبل يوم القيامة فيه زيادةٌ في الإنذار والوعيد، كقوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ١٢٧﴾ [طه: 127][3].

معنى ﴿أَوۡ﴾ في ﴿أَوۡ مُعَذِّبُوهَا﴾:

تفصيلُ مصير المشركين بين عذاب الاستئصال أو عذاب الانتقام

وردفي قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ﴾ استعمالُ حرف العطف ﴿أَوۡ﴾ الدّالِّ على

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 98.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 180.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 141.

التَّقسيم، وهو تقسيمٌ يُفيد تفصيل مصيرهم بين الإهلاك التّامِّ أو العذاب الدُّنيويِّ بالقتل والذُّل والأَسْرِ والخوف والجوع، فإنَّها تُؤذن بأنَّ أحد الأمريْن غير مُعيَّن الحصول؛ لأنّه مستقبلٌ، ولكن لا يخلو حالهم عن أحدهما[1].

نكتةُ التَّعبير بـ ﴿مُعَذِّبُوهَا﴾ مادَّةً وصيغةً:

تـوعُّـد الـكفّارِ بــالــهــلاكِ فــي الــحــالِ والاستقبالِ

في قوله تعالى: ﴿أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ﴾ جاء استعمال اسم الفاعل ﴿مُعَذِّبُوهَا﴾ على صيغة الجمع للتَّعظيم، ومفرده (مُعذِّب) اسم فاعل من (عذّب) الرباعي، وفي اختيار صيغة الفاعل في هذا الموضع وإن كانت بمعنى المستقبل من الدَّلالة على التحقُّق والتقرُّر ما فيه، والمعنى: ما من قرية من قرى الكفار إلّا ستُهلَك، أو تُعذَّب دون ذلك من قتل كبرائهم وتسليط المسلمين عليهم بالسَّبي واغتنام الأموال وأخذ الجزية، وغيرها من صور العذاب[2].

علَّةُ عطفِ العذابِ على الإهلاكِ:

تهديدُ المشركين بأعلى العذابِ وأدناه

ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ﴾ عطفُ العذاب على الإهلاك على سبيل التدلّي والتَّقسيم، من الأعلى وهو الإهلاك بالاستئصال والموت، إلى ما هو أدنى منه من أنواع العذاب الدُّنيوي من البلاء والمِحَن والفِتَن والنَّقص في الأموال والأنفس والثَّمرات، وكالقَحط الذي قال بعض المفسِّرين بأنَّه سبب نزول الآية.

نكتة توكيد العذاب بالمفعول المُطْلق:

زيـادةُ التَّهديد بـعـذاب الـلـه البالغ الغاية في الإيلام والإيجاع

جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ﴾ توكيد العذاب بالمفعول المُطلق دون الإهلاك، فلم يَرِدْ على نحو: (مهلكوها إهلاكًا شديدًا)؛ لأنَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 09/ 152.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 20/ 358.

الإهلاكَ موتٌ واستئصالٌ تُدمَّر به القرى الظالمة دُفعة واحدة، كالذين أرسل الله عليهم ريحًا شديدة ترميهم بحجارة من طين مُتتابع، وهم قوم لوط، وكمَن أخذته الصيحة، وهم قوم صالح وقوم شعيب، وكمَن خسف الله به الأرض كقارون، وكمَن أغرقه جلَّ وعزَّ، وهم قومُ نوح وفرعونُ وقومُه، كم قال سبحانه: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: 40]، أمّا عذابُ الانتقام؛ فهو ابتلاء القرى بالفتن والمصائب والجفاف وسائر أنواع البلاء مع بقائها، أو بالسيف والذُّل والأسر والخوف والجوع، وهو يأتي على أهل القرية الظَّالمة، مثل صرعى بدر، كلُّ ذلك في الدنيا[1]، ولمّا كان عذابُ الدُّنيا يجري على نظام أحوال الدُّنيا: من شدَّةٍ وضعفٍ وعدم استمرار، أكَّده بالمفعول المُطلق عذابًا وبالصِّفة شديدًا؛ للدّلالة على أنَّه بالغ الغاية في الإيلام والإيجاع زيادة في تهديدهم.

وذهب بعضهم - في رأي مرجوح - إلى أنَّ اللّه توعَّد أهل القرى الظالمة بعذاب شديد لا يُكْتَنَهُ كُنْهُه، والمُراد به ما يعمُّ البلايا الدّنيوية من القتل والسَّبي ونحوهما، والعقوبات الأخروية ممّا لا يعلمه إلّا اللّه تعالى، حسبما يفصح عنه إطلاق التعذيب عمّا قيَّد به الإهلاك من قبلية يوم القيامة، ولا يخصُّ بالبلايا الدّنيويّة، كيف وكثير من القرى العاتية العاصية قد أُخِّرت عقوبتها إلى يوم القيامة؟[2].

نكتةُ فصل قوله: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾:

ورد قوله تعالى: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ مفصولًا عن الكلام قبلها، وهو قوله تعالى: ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ﴾؛ لوجود

رُفعت الأقلامُ، وجفَّت الصُّحفُ، وكُتِبَ القَدرُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 141.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 98.

كمال الاتِّصال بينهما، وهو اتّحاد الجملتيْن اتّحادًا تامًّا وامتزاجًا معنويًّا، بحيث تُنزَّل الثّانية من الأولى منزلة نفسها(1)، فقد وقعت جُمۡلَةُ: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾ نعتًا للهلاك والعذاب المذكوريْن، فالإهلاك والتَّعذيب مكتوبان في اللَّوح المحفوظ، لم يغادَرْ منه شيءٌ إلّا بُيِّن فيه بكيفيّاته وأسبابِه الموجبةِ له ووقتِه المضروبِ له(2).

غرضُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ:

أقدارُ اللهِ عظيمةٌ رفيعةُ القَدْرِ

ورد في قوله تعالى: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾ التَّعبير باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ إشارةً إلى الأمر العظيم من الإهلاك أو التَّعذيب، فاستُعمِل للدَّلالة على عِظَم قدره وبُعْدِ منزلته اسمُ الإشارة المُخصَّص للبعيد؛ استعارة لكون المشار إليه بعيد المكانة بعد ارتفاعٍ مجازيٍّ، وهو العِظَمُ.

معنى الظّرفيّة في ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

احتواءُ اللوح المحفوظ على كلِّ المقادير

استُعمِل في قوله تعالى: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾ حرف الجرِّ ﴿فِي﴾ الدَّالُّ أصالة على الظّرفيّة؛ بمعنى: أنَّ كتاب اللّه المحفوظَ يشتمل على كل المقادير المكتوبة، لا يُغادر منها شيءٌ إلّا بُيِّن فيه بكيفيّاته وأسبابه المُوجِبة له ووقته المضروب له.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

تعريف لفظ الكتاب بين الجنسيَّة والعهديَّة

ورد في قوله تعالى: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾ لفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ مُعرَّفًا بأداة التعريف (أل)، ويحتمل نَظْمُ الآية أن يكون لفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ مُستعارًا لعلم اللّه وسابق تقديره، فيكون تعريفه للعهد، أو أن يكون قد أُريد به الكتب المنزَّلة على الأنبياء، فيكون تعريفه للجنس، فيشمل القرآن وغيره(3).

(1) القزوينيّ، الإيضاح: 3/ 108.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 180.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 142.

نكتة تقديم شبه الجملة ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

اختصاصُ اللَّوح المحفوظ بالاشتمال على كلِّ المقادير

في قوله تعالى: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾ تقديم شبه الجملة ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ على مُتعلِّقها ﴿مَسۡطُورٗا﴾؛ لإفادة الاختصاص؛ أي: اختصاص اللَّوح المحفوظ بالاشتمال على مقادير الإهلاك والعذاب وسائر المُقدَّرات صغيرةً أو كبيرةً، كما أخبر النَّبيُّ ﷺ: "إنَّ أوَّلَ ما خلق اللّهُ القلَم، فقال له: اكتُبْ، قال: ما أكتُبُ؟ قال: اكتُبِ القدَرَ: ما كان، وما هو كائنٌ إلى الأبَدِ"[1]، والتّقديم كذلك لرعاية تناسب الفواصل مع الآيات السّابقة.

فائدةُ التَّعبير بـ﴿مَسۡطُورٗا﴾ مادّة وصيغة:

كتابةُ المقادير في اللوح المحفوظ ثابتةٌ محفوظةٌ

ورد في قوله تعالى: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾ التَّعبير بـ﴿مَسۡطُورٗا﴾، وهو اسم مفعول من (سطر) بمعنى المكتوب أسطارًا[2]، والسَّطْرُ والسَّطَرُ: الصَّفُّ من الكتابة، وسَطَّرَ فلان كذا: كتب سطرًا سطرًا، قال تعالى: ﴿وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١﴾ [القلم: 1]، ومعنى كونه مسطورًا؛ أيْ: مثبتًا محفوظًا[3].

۞ الفُروقُ المُعجَمِيَّة:

الإهلاكُ والعذابُ والأخذُ:

عمومُ العذابِ، واختصاصُ الإهلاكِ بالظالمين

يتجلّى الفرق بين ألفاظ الإهلاك والعذاب والأخذ في علاقة العموم والخصوص بينها؛ فأمّا العذاب فعامٌّ سواءً كان بسبب ذنب أو بسبب غيره، فمن شواهد العذاب المسبوق بذنب قوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ١٠﴾ [البقرة: 10]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ﴾ [آل عمران: 4].

(1) أخرجه أبو داود، السُّنن، الحديث رقم: (4700)، وأحمد، المُسند، الحديث رقم: (22705) بنحوه، والتّرمذيّ، السُّنن، الحديث رقم: (3319) باختلاف يسير.
(2) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/ 466.
(3) الرّاغب، المُفردات: (سطر).

ومن شواهدِ العذاب غير المسبوق بذنب قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٤٩﴾ [البقرة: 49].

وممّا يؤكّد أن عذاب فرعون لبني إسرائيل لم يكن مسبوقًا بذنب منهم قولُ اللّه ﷻ: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤﴾ [القصص: 4][1].

أمّا الإهلاك؛ فخاصٌّ بالكفّار عقوبة، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ٥٩﴾ [القصص: 59]، وقال ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ١١٧﴾ [هود: 117].

وأمّا الأخذ؛ فهو في الأصل حَوْزُ الشَّيء وتحصيله، وذلك تارة بالتّناول، نحو: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف: 79]، وتارةً بالقهر نحو قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ٢٥﴾ [النّازعات: 25]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم﴾ [النّحل: 61]، فتخصيص لفظ المؤاخذة تنبيه على معنى المجازاة والمقابلة لما أخذوه من النِّعَم، فلم يُقابلوه بالشُّكر[2].

(أليم) و(شديد) و(عظيم):

عـذاب العظيم سبحانه عظيمٌ شديدٌ أليمٌ

في القرآن الكريم عدَّة أوصاف للعذاب؛ فوصفه اللّه بأنَّه أليم، وشديد، وعظيم، ويتجلّى الفرق بينها في القَدْر والأثر المترتِّب عنها، فأمّا العذاب الأليم؛ فهو فعيل بمعنى مُفْعِل؛ أيْ: يتسبَّب لصاحبه في غاية الألم، وهو عذابٌ حِسّيٌّ شديدٌ مُوجِعٌ، أو معنويٌّ كعذاب الحَسَرات.

وأمّا وصف الشّديد؛ فهو وصف للعذاب في حدِّ ذاته، فهو في غاية الشِّدَّة والقوَّة، بالغ الذّروة فيها.

---

(1) داود، الفروق الدلالية، ص: 342.

(2) الرّاغب، المُفردات: (أخذ).

وأمّا وصف العذاب بالعظيم؛ فلأنَّه منسوبٌ لقدرة اللّه، وعذاب العظيم عظيم، فالبشر مهما بالَغَ في أنواع العذاب إلّا أنَّه محدود؛ لأنَّه ينتهي بموت المُعذَّب، فيقتصر تعذيبهم على الدُّنيا، وكم من شخص هرب من مُعذِّبه بالموت.

أمّا عذاب العظيم - والعياذ باللّه - فلا حدَّ له ولا مقدار، فيعجز الإنسان عن تخيُّل قدره، واللّه ﷻ قادرٌ على أن يُعَذِّب الإنسان في الحياة وبعد الموت إلى أبد الآبدين؛ كقوله تعالى في جزاء فرعون: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ٤٥ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾ [غافر: 45 - 46].

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ٥٩﴾ [الإسراء: 59]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرَّبطُ بين هلاك القرى وعذابها، وبين كون اللّاحقين على نهج سابقيهم

لمّا ذكرتِ الآياتُ الدَّليلَ على فساد قول المُشركين في اقتراحاتهم الَّتي طلبوها إلى رسول اللّه ﷺ، وأتبعَ ذلك بالوعيد؛ جاءَت هذه الآيةُ لبيان سبب عدمِ الإجابةِ إلى مُقترحاتهم الَّتي كانوا يطلبونها إلى الرَّسول ﷺ[1].

ومِنَ المناسبة أيضًا: أنَّه لمّا أفادَتِ الآيةُ السّابقةُ أنَّ المُكذِّبين مِنَ النّاس آخرُهُم كأوَّلِهم مُستحِقّون - بما فيهم مِن غريزة الفسادِ والفسقِ - لحلول الهلاكِ وسائر أنواعِ العذاب؛ لعدم إيمانِهم بالآيات الّتي اقترحوها على أنبيائِهم، وأنزلَها اللّهُ إليهم؛ جاءَت هذه الآيةُ لبيان سببِ عدمِ الإجابةِ إلى مُقترحات كفّارِ مكَّةَ بقوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾، فالمرادُ أنَّ الَّذي منعنا أن نُرسلَ بالآيات الَّتي يقترحونها أنَّ السّابقين منهم اقترحوها، فأرسلناها إليهم، فكذَّبوا بها، فأهلكناهم، وكفّارُ مكَّةَ حالُهم كحال السّابقين.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿مَنَعَنَآ﴾: (منع): أصلٌ واحدٌ هو خِلافُ الإعطاءِ[2]، والمَنْعُ: أَن تَحولَ بَينَ الرَّجل وبَينَ الشَّيءِ الَّذي يُريدهُ، يُقال: مَنَعْتُهُ، فامتَنَعَ[3]، والمانِعُ: مِن صِفاتِ اللّه تعالى، لَهُ مَعنَيانِ: الأوَّل: يُعطي مَنِ استحقَّ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 10/ 425.
(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (منع).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (منع).

العطاءَ، ويَمنَعُ مَن لَم يَستَحِقَّ إلّا المَنعَ، ويُعطي مَن يشاءُ، ويَمنَعُ مَن يشاءُ، وهو العادِلُ في جميعِ ذَلِكَ، والثّاني: أنَّه ﷻ يَمنَعُ أهلَ دينِه، أي: يَحوطُهم، ويَنصُرُهُم[1]، وحَقيقَةُ المَنعِ في الآية: كَفُّ الفاعِلِ عَن فِعلٍ يُريدُ فِعلَه، أو يَسعى في فِعلِه، وهذا مُحالٌ عَنِ اللّه تعالى؛ إذْ لا مُكرِهَ للقادِرِ المُختارِ[2].

2) ﴿ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾: أصلُ (أول) يدُلُّ على ابتداءِ الأمرِ، فالأوَّلُ: هو مُبتَدَأُ الشَّيءِ، والمُؤَنَّثَةُ الأولَى[3]، يُقالُ: أوَّلُ المَطرِ قطرَةٌ، أي: بدايَتُه، والأَوَّليَّةُ: ابتداءُ الشَّيءِ، ويُطلَقُ الأوَّلُ أيضًا على الواحِدِ، يُقالُ: جاءَ النّاسُ الأوَّلَ فالأولَ، أي: بالتَّرتيبِ الواحدُ بَعدَ الآخَرِ، ويُستَعمَلُ الأوَّلُ بمعنى القَديم، كقولِ: ما تَرَكَ لَهُ أَوَّلًا ولا آخِرًا، أي: قَديمًا ولا حديثًا[4]، والمرادُ بالأوَّلينَ في الآية: هُمُ السّابِقونَ مِنَ الأمَمِ الَّذينَ كذَّبوا رُسُلَهُم.

3) ﴿ثَمُودَ﴾: (ثمد) أصلٌ واحِدٌ، وهو القَليلُ مِنَ الشَّيءِ، فالثَّمَدُ: الماءُ القَليلُ لا مادَّةَ لَهُ، وثَمَدَتْ فُلانًا النِّساءُ؛ إذا قَطَعْنَ ماءَهُ[5]؛ ومنه سُمّيت قَبيلَةُ ثمود؛ لِقلَّةِ مائِها، وثَمودُ أُمَّةٌ مِنَ العَرَبِ البائِدَةِ العارِبَةِ، وهُم أنسابُ عادٍ، وثَمودُ: اسمُ جَدِّ تلكَ الأُمَّةِ، ولَكِنْ غَلَبَ على الأمَّةِ؛ فلذلكَ مُنِعَ مِنَ الصَّرفِ للعَلَميَّةِ والتَّأنيث باعتبارِ الأمَّةِ أوِ القَبيلَةِ[6]، والمرادُ بثَمود في الآية: اسمُ جَدٍّ سُمّيَتْ بِه القَبيلَةُ.

4) ﴿مُبۡصِرَةٗ﴾: أصلُ البَصَرِ وُضوحُ الشَّيءِ، يُقالُ: بَصُرَ الطَّريقُ، أي: استَبانَ ووضُحَ[7]، ويُطلَقُ البَصَرُ على حاسَّةِ العينِ، تقولُ: جاءَ كَلَمحِ البَصَرِ، أي: كَلَمحِ العَينِ، والجَمعُ: أبصارٌ[8]، والبَصيرُ والمُبصِرُ: النّاظِرُ لغَيرِه، وضِدُّهُ الأعمى، ويأتي البَصَرُ أيضًا بمعنى: العِلمِ والإدراك، وهي الرُّؤيَةُ بالقَلبِ، كَقَولِكَ: بَصُرتُ بالشَّيءِ؛ إذا عَلِمتَهُ وأدرَكتَهُ، والبَصيرَةُ: قوَّةُ الإدراكِ والفِطنَةُ والعِلمُ، والجَمعُ: بَصائِرُ[9]، والمقصودُ بـ ﴿مُبۡصِرَةٗ﴾ في

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (منع).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 142.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أول).
(4) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (أول).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ثمد).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ثمد)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 116.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بصر).
(8) ابن سِيده، المُحكم، وابن منظور، لسان العرب: (بصر).
(9) ابن منظور، لسان العرب، ونخبة من اللغويين، المعجم الوسيط: (بصر).

الآية: واضِحَةُ الدَّلالةِ، اسمُ فاعِلِ (أَبصَرَ) المُتَعَدّي إلى مَفعولٍ، أي: جَعَلَ غَيرَهُ مُبصِرًا وذا بَصيرَةٍ، فالمرادُ بها: أنَّها مُفيدَةُ البَصيرَةِ، أي: اليَقينِ، أي: تَجعَلُ مَن رَآها ذا بَصيرَةٍ، وتُفيدُهُ أنَّها آيةٌ[1].

5) ﴿تَخۡوِيفٗا﴾: أصلُ الخَوفِ الذُّعرُ والفَزَعُ، خافَه يَخافُه خَوفًا وخيفةً، كأنَّ الَّذي يخافُ منخوبُ الفُؤادِ[2]، والتَّخويفُ والإخافَةُ: الإفزاعُ والإرهابُ[3]، وضِدُّه: الأمنُ، وأصلُه: النَّقصُ، يُقالُ: تَخَوَّفْناهُم، أي: تَنَقَّصناهُم، وناقَةٌ خَوفاءُ، أي: ناقِصَةٌ بها داءٌ[4]، والمقصودُ بالتَّخويفِ في الآية: جَعْلُ المَرءِ خائِفًا.

المَعْنى الإجْماليُّ:

عدمُ إرسالِ المُعجزاتِ للمُسلمين؛ تفاديًا لمصيرٍ مُشابهٍ للمُمتحَنين بالنّاقة

يُبيِّنُ اللّهُ تعالى بعضَ مظاهرِ فضلِه على هذه الأمَّةِ، فيقولُ: وما منَعَنا أن نأتيَ بالمُعجزاتِ الَّتي يقترِحُها كُفّارُ قَومِك - أيُّها الرَّسول - إلّا تكذيبُ الأوَّلينَ بها بعدَ أن سألوها، فكذَّبوا، فعَجَّلْنا بهلاكِهم، فإذا كذَّبَ بها قَومُك؛ استحَقّوا ما استحَقَّه أولئك مِنَ الهلاكِ والعذابِ، وممّا يُؤكِّدُ ذلك أنّا آتَينا ثمودَ النّاقةَ آيةً وحُجَّةً واضِحةً موجِبةً للتَّبصُّرِ واليقينِ، ودالَّةً على وحدانيَّةِ اللّه تعالى وقُدرتِه، وصِدقِ رسولِه صالحٍ عليه السلام، فكَفَروا باللّهِ، ووقَعوا في الظُّلمِ بقَتلِها، فلمّا لم يُؤمِنوا؛ كان في إجابتِهم إلى ما سألوا مِنَ الآياتِ هلاكُهم واستِئصالُهم، وما نُرسِلُ بالآياتِ الموجبةِ للعِبَرِ والعِظاتِ إلّا تخويفًا للعبادِ؛ ليُؤمِنوا، ويرتَدِعوا عمّا هُم عليه[5].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى بيانِ المانعِ من عدمِ إعطاءِ الرَّسولِ ﷺ المعجزاتِ الَّتي طلبَتها قريشٌ؛ إذ "قال أهلُ مكَّةَ للنَّبيِّ ﷺ: اجعلْ لنا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 144.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خوف، خيف).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (خوف).
(4) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 428.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 638، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 73، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 91، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 461.

الصَّفا ذهبًا، ونؤمِنُ بك، قال: وتفعلون؟ قالوا: نعم، قال: فدعا، فأتاه جبريلُ، فقال: إنَّ ربَّك يقرأُ عليك السَّلامَ، ويقولُ لك: "إن شئتَ؛ أصبحَ لهم الصَّفا ذهبًا، فمَن كفرَ بعد ذلك؛ عذَّبتُه عذابًا لا أعذِّبُهُ أحدًا مِنَ العالَمين، وإنْ شئتَ؛ فتحتُ لهم أبوابَ التَّوبةِ والرَّحمةِ، قال: بل بابُ التَّوبة والرَّحمة، فأنزل اللهُ سبحانَه هذه الآيةَ""[1].

وهؤلاءِ القومُ لو جاءَتْهُمُ الآياتُ الكبارُ؛ لم يؤمنوا، فإنَّه ما منعَهُم مِنَ الإيمانِ خَفاءُ ما جاء به الرَّسولُ واشتباهُه هل هو حقٌّ أو باطلٌ؟ فإنَّه قد جاءَ مِنَ البراهينِ الكثيرةِ ما دلَّ على صحَّةِ ما جاءَ به، الموجِبُ لهداية مَن طلبَ الهداية، فغيرُها مثلُها، فلا بدَّ أن يسلكوا بها ما سلكوا بغيرِها، فتركَ إنزالَ المُعجزاتِ الَّتي طلبَها المشركون، والحالةُ هذه خيرٌ لهم وأنفعُ[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في قوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ﴾:

كَشْفُ شُبهةٍ أخرى مِن شُبَهِ تكذيبِهم في سؤالِهمُ المُعجزاتِ

الواو في قوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾[3] عاطفةٌ، إذ عَطَفَتْ هذه الجملةَ على جملة ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا﴾ [الإسراء: 58]، ويكون المعنى: (إنَّما أمهلنا المُتَمَرِّدينَ على الكُفرِ إلى أَجَلِ نزولِ العذابِ، ولم نُجِبْهُم إلى ما طلبوا مِنَ الآيات؛ لعدم جدوى إرسالِ الآياتِ لِلأوَّلينَ من قبيلِهم في الكُفر على حَسَب اقتراحِهم، فكذَّبوا بالآيات)، فبهذا العطف كَشَفَ شُبهةً أخرى من شُبَهِ تكذيبِهم؛ إذ كانوا يَسألون النَّبيَّ أن يأتيَهُم بآياتٍ على حَسَب اقتراحِهم، ويقولون: (لو كان صادقًا، وهو يَطلبُ منّا أن نُؤمِنَ به؛ لجاءَنا بالآيات الَّتي سألْناهُ)، غُرورًا بأنفسِهم أنَّ اللهَ يَتنازَلُ لِمُباراتِهم[4].

---

(1) أخرجه أحمد، المُسند، برقم: (2166)، وقال مُحقِّقو المُسند: "إسناده صحيح على شرط مُسلم"، ويُنظر: البيهقيّ، دلائل النّبوّة: 2/ 272.

(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 461.

(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 16/ 153.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 142.

المانعُ مِن إرسال الآياتِ تجنيبُ المؤمنين عاقبةَ التَّكذيب المُهلِك

طالبُ المُعجزة مع التَّكذيب بها، مُستوجِبٌ للاستئصال الماحِق

تشريفُ أمَّةِ الإسلام بتركِ إرسالِ الآياتِ الموجِبةِ للعذاب

بلاغةُ أسلوبِ القصرِ في أثناء السّياق:

في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾ أسلوبُ قَصرٍ، والاستثناءُ مُفرَّغٌ مِن أعمِّ الأشياء، أي: (ما تَرَكْنا إرسالَها لشيءٍ مِنَ الأشياء إلّا لتكذيب الأوَّلينَ، فإنْ كذَّبَ بها هؤلاء - كما كذَّبَ بها أولئك لاشتراكِهم في الكفر والعناد - حلَّ بهم ما حلَّ بالسّابقين).

وأبانَ هذا الأسلوبُ أنَّ اللّه ﷻ قادرٌ على إرسال ما يطلبون وما يقترحون مِن آياتٍ خارقةٍ، مِن نوع الآياتِ المادّيّات اللّواتي تدركُنَ بالحواسّ الظّاهرة، إلّا أنَّ مِن سُنَّته - جلَّت حكمتُه - أنَّه إذا استجابَ لمطالب القوم، فأجرى لرسوله الآيةَ أو الآياتِ الَّتي اقترحوها، أو الَّتي يقترحونها، فلم يؤمنوا أن يهلكَهُم بعذابٍ، ويستأصِلَ شأفتَهم؛ إذ لا يكون مِنَ الحكمةِ إمهالُهم وتأخيرُهُم إلى آجالهم، وقد أثبتَتِ التَّجاربُ البشريَّةُ أنّ الخوارقَ الَّتي يقترحُها الكافرون المُعاندون الجاحدون على رسل ربِّهم، إذا أجراها اللّه ﷻ؛ فإنَّها لا تُغيِّرُ من واقع حالِهم شيئًا، إذ هُم في قلوبهم مُستيقنون، إلّا أنَّهم جاحدون.

فالحاصلُ: أنَّ المانعَ مِن إرسال الآياتِ الَّتي اقترحوها هو أنَّ الاقتراحَ مع التَّكذيب موجِبٌ للهلاك الكلّيِّ وهو الاستئصال[1]، وما كان سببُ تركِ الإرسال بالآيات إلّا تكذيبَ الأوَّلينَ[2].

بلاغةُ المجاز في ﴿وَمَا مَنَعَنَآ﴾:

حَقيقةُ المَنعِ: كَفُّ الفاعلِ عن فعلٍ يُريدُ فعلَه، أو يسعى في فعلِه، وهذا مُحالٌ عنِ اللّه تعالى، إذ لا مُكرِهَ للقادرِ المُختار، فالمَنعُ هُنا مُستعارٌ للصَّرف عنِ الفعل وعَدَمِ إيقاعِه دونَ مُحاولةِ إتيانِه[3].

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 283.

(2) زكريا الأنصاريّ، فتح الرّحمن، ص: 168.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 142.

وهو مجازٌ مُرسَلٌ بمعنى التَّركِ بعلاقة اللُّزوم، أي: ما تركنا إرسالَ الآياتِ المُقترَحةِ إلّا لتكذيب الأوَّلين بها[1]، فاستُعير المنعُ لتَركِ إرسالِ الآياتِ مِن أجل صارفِ الحِكمة[2].

وفي هذا المجاز دَليلٌ على تشريفِ هذه الأُمَّة، وتفضيلِ رسولِها على سائرِ الرُّسُلِ صلواتُ اللّه عليه وعليهم؛ وذلك أنَّه ﷻ كان مِن حُكمِه في الأمم السّالفةِ أن نَزَّلَ العذابَ بكلِّ مَن كَفَر بآياته، فصرفَه عن هذه الأمَّة بتركِ إرسالِ الآياتِ الموجِبةِ للعذابِ على مَن كَفَر بها[3].

سرُّ التَّعبيرِ بالمنَع مع عدم وجودِ مَن يمنعُ:

الحِكمةُ الّتي أرادَها اللهُ مِنَ الآياتِ هي الّتي تمنعُ إرسالَها

عبَّرَ القرآنُ الكريمُ بالمَنعِ، ولا يوجدُ مَن يَمنعُ في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ الحِكمةَ الّتي أرادَها ربُّ العالَمين مِنَ الآيات هي الَّتي تَمنعُ، فاللّهُ تعالى هو الَّذي منعَ ذاتَه العَليَّةَ، كقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾ [الرّوم: 47][4].

نُكتَةُ إسنادِ المنَعِ والإرسالِ إلى ضمير العَظمةِ:

تجلّي مظاهرِ العَظَمةِ في أفعالِ اللهِ ﷻ وكمالِها

أسندَ المنعَ إلى نون العظمةِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ﴾؛ للدَّلالة على عَظَمتِه سبحانَه، وقُدرتِه لِما يريدُ فعلَه سلبًا أو إيجابًا، والمعنى: على ما لنا مِنَ العَظمةِ الّتي لا يعجزُها شيءٌ، ولا يمنعُها مانعٌ، مِن أن نُرسِلَ الآياتِ الّتي اقترحوها إرسالًا يُظهِرُ عَظَمتَنا على وجه العُموم[5].

دلالةُ لفظِ الإرسالِ بينَ الحقيقةِ والمَجازِ:

تصويرُ إظهارِ الآياتِ بصورةِ الشَّيءِ المُرسَلِ المُتَتابِع

قد يكونُ الإرسالُ على حقيقتِه، فيكون مفعولُ ﴿أَن نُّرۡسِلَ﴾

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 72، والخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 72.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 674، والمظهريّ، التّفسير المظهريّ: 5/ 451.
(3) القصّاب، النّكت الدّالّة على البيان في أنواع العلوم والأحكام: 2/ 174.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4409.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 455، والشّربينيّ، تفسير الخطيب الشّربينيّ: 2/ 351.

محذوفًا، دلَّ عليه فِعلُ ﴿نُّرۡسِلَ﴾، والتَّقديرُ: (أنْ نُرسِلَ رسولَنا بالآيات)، ويجوزُ أن يكونَ الإرسالُ مُستعارًا لإظهار الآياتِ وإيجادِها بطريق الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّة؛ حيثُ عبَّرَ عنْ إيتاء الآياتِ بالإرسال، كأنَّها تتعاضدُ، وتتداعى للنُّزول، لكنَّ التَّكذيبَ وتَعَرُّقَ الفسادِ في فِطَرِ النّاسِ يَمنَعُ مِن ذلك[1].

سِرُّ التَّعبير بالمصدر المؤوَّلِ:

بيانُ القُدرة والعظمةِ المُطلَقةِ للخالِق سبحانَه

جاءَ التَّعبيرُ القرآنيُّ بالمصدر المُؤوَّلِ ﴿أَن نُّرۡسِلَ﴾ دون المصدر الصَّريحِ (إرسالَ)؛ لوجود فَرْقٍ بينَهما، فالمصدرُ الصَّريحُ يدُلُّ على الحَدَث مِن غير زمنٍ، وهذا غيرُ مُرادٍ هنا، أمّا المصدرُ المُؤوَّلُ؛ فيَدلُّ على الحدث مع مراعاة الزَّمنِ في الرَّدِّ على مُقترحات المُشركين، في أيِّ توقيتٍ يريدُ اللّهُ فيه إرسالَ الآيات، وهذا دليلٌ على القُدرةِ والعَظمةِ المُطلَقةِ للخالق سبحانَه.

سِرُّ التَّعبير بالباء في قوله: ﴿بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾:

الرَّدُّ على مُقترحات المُشركين التَّعجيزيَّة الَّتي كانوا يقترحونها

قد تكون الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾ للمُصاحبة، أي: مُصاحِبًا للآيات الَّتي اقترحَها المُشركون، إذا كان معنى الإرسالِ على حقيقته، فيكون مفعولُ ﴿أَن نُّرۡسِلَ﴾ محذوفًا دلَّ عليه فعلُ (نرسل)، والتَّقديرُ: (أن نرسلَ رسولَنا)، ويجوز أن تكونَ الباءُ لتأكيد تَعلُّقِ فعلِ ﴿نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾، وهذا إذا كان الإرسالُ مُستعارًا لإظهار الآيات، وتكون ﴿بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾ مفعولًا في المعنى، كقوله تعالى: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ [المائدة: 6][2]، وعلى كِلا المَعنيين فالآية ردٌّ على مقترحات المُشركين الَّتي كانوا يقترحونها على النَّبيِّ، وهي أن يأتيَهم بآيةٍ، كما أُرسِلَ الأوَّلون إلى أقوامِهم، قال تعالى: ﴿فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ٥﴾ [الأنبياء: 5]، وجاؤوهُم بآياتٍ ماديَّةٍ، كعصا موسى،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 142.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 142.

وناقة صالح، فهذه الآياتُ الّتي يقترحُها المشركون، قد جاءَت إلى أقوامٍ مثلِهم، فكفروا بها، ولم يَرَوا فيها الدّلائلَ الّتي تدلُّهم على اللّه.

معنى (أَلْ) في ﴿بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾:

الإشارةُ إلى مُقترحاتهم المعهودة، ومطالبهم غير المعقولة

دلَّت (ال) في قوله: ﴿بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾ على العهد، أي: الآياتِ المعهودةِ مِن اقتراحهم الّتي أخبرَ القرآنُ عنها، كقولهم: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ٩٠﴾ [الإسراء: 90]، وقوله: ﴿قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ﴾ [القصص: 48]، وقوله: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: 124][1]، إلى غير ذلك ممّا اقترحوه مِنَ الآيات.

سرُّ التَّعبير بلفظ ﴿بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾ دون غيرها:

اشتمالُها على العِبرةِ والعظةِ وعلى قُدْرة الله

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالآيات دونَ غيرِها، مثل: (بالمُعجزات)؛ لأنَّ الآيةَ هي العلامَةُ الثّابتةُ، وفيها العِبرةُ والعِظَةُ والدَّلالةُ على وجود اللّه وقدرته كناقة صالح، قال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ﴾ [الأعراف: 73]، ولأنَّها تشمَلُ الآياتِ الكونيَّةَ والقرآنيَّةَ.

دلالةُ التَّعبير بصيغة الجمع في قوله: ﴿بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾:

تعدُّدُ مَطالبِهم في الآيات المُقْتَرَحَةِ، وشِدَّةُ تعنُّتِهم في الطَّلب

عبَّرَ القرآنُ الكريمُ بلفظ الجمع ﴿بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾ دونَ الإفراد (الآية)؛ للدَّلالة على تعدُّد مَطالبِهم في الآيات الَّتي اقترحوها، إذ طلبوا آياتٍ كالَّتي سبقَت مع الرُّسل، وأيضًا طلبوا جعْلَ جبلِ الصَّفا ذهبًا، وإزالةَ جبالِ مكَّةَ، ووجودَ الأنهارِ، إلى غير ذلك ممّا يدُلُّ على تعدُّد الآياتِ الَّتي طلبوها، وفي هذا دليلٌ على شدَّة تعنُّتِهم، وإعراضِهم عن رسول اللّه ﷺ.

بلاغةُ المَجاز العقليِّ في إسناد المَنع إلى تكذيب الأوَّلين:

دورُ السّياقِ في تسليةِ النَّبيِّ الأكرم، وتثبيتِ أفئدة المؤمنين

إسنادُ المَنع إلى تكذيب الأوَّلينَ بالآيات في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾ مَجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ التَّكذيبَ سببُ الصَّرف،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 143.

والمعنى: أنّنا نعلَمُ أنَّهم لا يُؤمنون كما لم يُؤمِنْ مَن قبلَهُم مِنَ الكفرةِ لّمّا جاءَتهم أمثالُ تلكَ الآياتِ، فَعَلِمَ النّاسُ أنَّ الإصرارَ على الكفر سَجيَّةٌ للمُشرِكِ لا يَقلَعُها إظهارُ الآياتِ، فلو آمنَ الأوَّلون عندَ ما أُظهِرَت لهُمُ الآياتُ؛ لكان لهؤلاء أن يجعلوا إيمانَهُم مَوقوفًا على إيجاد الآياتِ الّتي سَألوها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ [يونس: 96 - 97]، وفي هذا المَجاز تثبيتٌ لأفئدة المُؤمنين؛ لئلّا يَفتِنَهُمُ الشَّيطانُ، وتَسليَةٌ للنَّبيِّ ﷺ لحرصِهِ على إيمان قومِهِ، فلعلَّه يتمنَّى أن يُجيبَهُمُ اللّهُ لما سألوا مِنَ الآياتِ، ولحُزنِه من أن يظُنّوهُ كاذبًا[1]، ولا يخفى أيضًا معنى الرِّعاية لشأن مَن سيولدُ مِن بعضِهم مِنَ المؤمنين، ولِمَن سيُؤمِنُ من هؤلاء المُقترِحين، إلى غير ذلك مِنَ الحِكَم الّتي لا يعلمُها إلّا هو سبحانَه[2].

بَراعةُ التَّعبير بالمضارع في الإرسال، والماضي في التَّكذيب:

منعُ إرسال الآياتِ في اللّاحقين؛ لكونهم على سَنَنِ السّابقين

عبَّرَ القرآنُ الكريمُ بالمضارع في قوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ﴾، وبالماضي في الحديثِ عن تكذيبِ الأمم السّابقةِ بقوله: ﴿إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾؛ لبيان السَّببِ الَّذي من أجلِه لم يَجِيءِ الرَّسولُ صلواتُ اللّه وسلامه عليه إلى قومه بآيةٍ كتلك الآياتِ؛ لأنَّها كانت بلاءً على مَن جاءَت إليهم، ولم يُؤمنوا بها، ولن يكونَ حالُ هؤلاء المشركين مع أيَّة آيةٍ يأتيهم بها النَّبيُّ بأحسن من حالِ الّذين سبقوهُم، واللّه ﷻ يقولُ عن هؤلاء المُشركين: ﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ۝١٥﴾ [الحجر: 14 - 15][3].

وفي هذا دليلٌ على أنَّ التَّكذيبَ للآيات الّتي يُنزلُها اللّهُ على يَدِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 143.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 380.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 508.

رسلِه طبيعةٌ متأصِّلةٌ في الكفّار؛ فلا فرقَ بين كفّارِ الأُمم السّابقة وكفّار مكَّةَ؛ لذلك عبَّرَ بالماضي المُضَعَّفِ ﴿كَذَّبَ﴾؛ لعِلْم اللّهِ ﷻ بأنَّهم سيُكذّبون بها إذا جاءَتهم، كما كذَّبَ بأمثالها أشباهُهُمُ الأوَّلون، وفي هذه الحالة: فإنَّهم سَيستَحقّون مثلَهم عذابَ الاستئصال، كما جرَت بذلك سُنَّةُ اللّهِ معَ السّابقين(1).

سِرُّ تقديمِ الجارِّ والمَجرور:

الاهــتـــمـــامُ بـشـأن آيـاتِ ربِّ الـعـالَمين، والتَّنويهُ بعِظَمِ أمرِها

في تقديم الجارِّ والمَجرور ﴿بِهَا﴾ على المُسند إليه ﴿ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾ اهتمامٌ بهذه الآيات، فإنَّ مَرجِعَ الضَّميرِ إليها، وتأخيرُ المُسنَدِ إليه تشويقٌ لمعرفةِ المُؤَخَّرِ الَّذي كان قُدوةً للمُكذِّبين مِنَ المُتأخِّرين.

نُكْتَةُ التَّعبير بلفظ ﴿ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾:

هـذه الأُمَّـةُ الخاتِمةُ، أهلُها هُـمُ الآخِـرون مقابلَ سابقيها الأوّلين

عبَّرَ القرآنُ الكريمُ بلفظ ﴿ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾ دون نحو: (السّابقون)؛ لأنَّ المُرادَ بالأوَّلين في هذه الآية هُم كلُّ الأمم قبلَ الأمَّةِ الأخيرةِ - الأمَّةِ الإسلاميَّةِ - وهؤلاء المُخاطَبون هُمُ الآخِرون، كما قال ﷺ: "نَحنُ الآخِرونَ مِن أهلِ الدُّنيا، والأوَّلونَ يَومَ القيامةِ، المَقضيُّ لهم قَبلَ الخلائِقِ"(2)، فلا وجهَ لإرسال المُعجزاتِ المُقترَحةِ مع الرَّسول الأخير بمثل ما أُرسِلَ الأوَّلون؛ لأنَّ هذه الأُمَّةَ عَلِمَ اللّهُ أنَّ فيهم مَن سيُؤمِنُ منهم، وكذلك مِن أولادِهم، ولأنَّ هذه الرِّسالةَ الأخيرةَ تختلفُ عن سائر الرِّسالاتِ السّابقةِ ببقائها إلى يوم القيامةِ، وهذا البقاءُ يَلزَمُ منه عَدَمُ الإهلاكِ، والمعنى: (فلا نرسلُ بالآيات إليكم - أيُّها الآخِرون - إلّا على سبيل الإنذارِ والوعظ)(3).

---

(1) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 5/ 451، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 380.

(2) أخرجه مُسلم في صحيحه، الحديث رقم: (856).

(3) الجرجانيّ، درج الدُّرر: 2/ 218.

سِرُّ عدمِ إرسال الآياتِ المُقْتَرَحة:

منعُ عذابِ الاستئصال تكريمٌ للمُصطفى ﷺ

لم يُرسِلِ اللّهُ ﷻ الآياتِ الَّتي اقترحَها كفّارُ مكَّةَ؛ لِعِلْمِ اللّهِ تعالى الأزليِّ بأنَّهُم لم يُؤمنوا بها، ويَلْزَمُ على عدم إيمانهم بها - إن أُرسِلَتْ - أن يستحقّوا عذابَ الاستئصال، وهذا غيرُ مُرادٍ؛ لأنَّ اللّهَ يريدُ أن يُخرِج من أصلابهم من يؤمن باللّه، وبيانًا لفضل رسولِ اللّه ﷺ على هذه الأُمَّة؛ لأنَّ اللّهَ ﷻ منعَ عذابَ الاستئصالِ تكريمًا له ﷺ، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ﴾ [الأنفال: 33].

معنى الواو في قوله: ﴿وَءَاتَيۡنَا﴾:

تبيانُ الحُكمِ السّابق بِذِكرِ مثالٍ عليه يَعرفُه المُخاطَبون

عُطِفَت جملة ﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ﴾ على ما يُفصحُ عنه النَّظمُ الكريمُ، كأنَّه قيلَ: (وما منعنا أن نُرسِلَ بالآيات إلّا أن كذَّبَ بها الأوَّلون؛ إذ آتيناهُم ما اقترحوا مِنَ الآياتِ الباهرةِ فكذَّبوها، والدَّليلُ على ذلك: ﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ﴾ بسؤالِهم واقتراحِهم على نبيِّهم صالح عليه السلام، وأخرجناها لهم مِنَ الصَّخرة، فعقروها[1]؛ فأرسلْنا عليهمُ العذابَ).

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿وَءَاتَيۡنَا﴾ صيغة ومادّة:

إظهارُ قدرةِ اللهِ وعَظَمتِه بفصيح البيان، تحقُّقُ إرسالِ ناقةِ قومِ صالحٍ بيقين البرهان

عبَّرَ القرآنُ الكريمُ عن إجابةِ مَطلبِ قومِ صالحٍ في أمر النّاقة بقوله: ﴿وَءَاتَيۡنَا﴾ الَّذي يُدَلِّلُ على السُّهولة في فعل الشَّيءِ مهما كانت صعوبتُه؛ لأنَّ اللّهَ لا يعجزُهُ شيءٌ، ولو كان خارجًا عن نطاق العقلِ والعادةِ، كما في مَطلَبِ قومِ صالح، فأمرُهُ بينَ الكاف والنّون، وهذا دليلٌ على عَظَمَةِ قُدرتِه، وأنَّه لا يَحُدُّها شيءٌ؛ لذلك كان إسنادُ الإيتاءِ إلى نون العظمةِ دليلًا على مُطلَقِ قُدرتِه وعَظَمتِه.

وعبَّرَ بالفعل الماضي ﴿وَءَاتَيۡنَا﴾ في أمر ناقةِ صالح؛ للدَّلالة على تحقُّقِ الوقوع، وأنَّها أُرسِلَت لقومِ صالحٍ، ورأَوْها، وشَرِبوا مِن لَبَنِها، ومع ذلك اعتَدَوا عليها.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 98، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 5/ 177.

نكتةُ إسناد إتيان النّاقةِ لثمودَ دون صالحٍ ﷺ:

بيانُ أنَّهم طلبوها وجحدوها، فصارَت حُجَّةً عليهم

خصّ القرآنُ الكريمُ إتيانَ النّاقةِ إلى قبيلة ثمودَ دونَ إسنادِها لصالحٍ ﷺ في قوله: ﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ﴾، مع أنَّ اللّهَ آتاها لصالحٍ حُجَّةً له عليهم؛ لأنَّهم هُمُ الّذين طلبوها، ومع ذلك كفروا بها، وضلّوا، فصارَت حُجَّةً عليهم.

سِرُّ إيثارِ (ناقة ثمود) بالذِّكر دون غيرها مِنَ المُعجزات:

آثارُ هلاكِ ثمودَ معلومةٌ لأهل مكّةَ قريبةٌ منهم

خُصَّت ناقةُ ثمودَ بالذِّكر دون غيرِها في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ﴾؛ لأنَّ آثارَ هلاكِهم في بلاد العربِ قريبةٌ منهم، يُبصرُها صادرُهم ووارِدُهم[1]، ولهم مِن عِلمِها، وعِلْمِ مَساكنِهم بقُربِها إليهم، وكونِها في بلادِهم، ما ليسَ لهُم من عِلْمِ غَيرِها[2]؛ لذا قدَّمَ تعالى تكذيبَ قبيلةِ ثمودَ على عادٍ بيوم القيامة، مع كونهم مُتأخِّرين زمنًا عليهم بقوله: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ۝٤﴾ [الحاقّة: 4]؛ لأنَّهم أكثرُ الأُمم المُكذِّبة شُهرةً عند المُشركين من أهل مكَّةَ؛ ولأنَّهُم مِنَ الأمم العربيَّةِ؛ ولأنَّ ديارَهُم مجاورةٌ لهُم[3]، وقد كانت قِصَّةُ هذه النّاقة، وقِصَّةُ صالحٍ ﷺ وقومِه مُتداولةً بينهم، وفي هذا التَّخصيص تحذيرٌ لكفّار مكّةَ بسبب أنَّ ثمودَ عربٌ مثلُهم، اقترحوا ما كان سببًا لاستئصالِهم.

النّاقةُ خارجةٌ مِنَ الصَّخرِ، والمقامُ إثباتُ قُدرةِ اللهِ على الإعادة

ويرتبط ذكر النّاقة بسياق السورة في إثبات القُدرةِ على إعادة الخلق - حتى لو كان حِجارةً أو حديدًا - قال تعالى: ﴿۞قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ۝٥٠﴾ [الإسراء: 50]؛ فطالما كانت الناقة حَيَوانًا أخرجَهُ اللّهُ مِنَ الحَجَر كدليل وبرهان ماثل، كان أمر حصول مثله مفهومًا في عقول المتأملين؛ وفي ذلك دلالة على دقَّة العبارةِ وعظيمِ مَوقعِها[4].

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/ 360، وحجازيّ، التَّفسير الواضح: 2/ 381.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 456.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 115.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 456.

بلاغةُ استعارة لفظ ﴿مُبۡصِرَةٗ﴾ للنّاقة:

جَدارةُ النّاقةِ بكونها للاستبصار، وأنَّ وجودَها للاعتبار

استعارَ القرآنُ الكريمُ لفظَ ﴿مُبۡصِرَةٗ﴾ للنّاقة للتَّعبير عنِ الوضوح والاعتبار، فقوله تعالى: ﴿مُبۡصِرَةٗ﴾، أي: واضحةَ الدَّلالة، وفي وصفها بأنّها مُبصِرةٌ إشارةٌ إلى أنّها كانت آيةً واضحةً، وأنّها كانت تعيشُ معَ النّاس، بينَ سمعِهم وبصرِهم، وتتمشّى بينَهم، يَمرّون بها مُصبحين ومُمسين، وليسَت كعصا موسى، ولا يدِ عيسى عليهما السلام، فكلتاهما تظهرُ المعجزةُ فيهما بإذنٍ مِن صاحبِها، ثُمَّ تختفي، دون أن يُتاحَ للنّاس تقليبُها، وترديدُ النَّظر فيها[1].

وقد يكون معنى: ﴿مُبۡصِرَةٗ﴾ ذاتَ إبصارٍ، أي: فيها إبصارٌ لِمَن تأمَّلَها، يُبصِرُ بها رُشدَهُ، ويَستدِلُّ بها على صدقِ ذلك الرَّسولِ[2]، فالإبصارُ على هذا المعنى استعارةٌ تصريحيَّةٌ أصليَّةٌ؛ شَبَّهَ فيها النّاقةَ بالبرهان السّاطعِ والدَّليلِ القاطِعِ المُفضي إلى التَّصديق والاعتبار، والمعنى: جعلْنا النّاقةَ آيةً مُبصِرةً للعاشي، ومُذكِّرةً للنّاسي، ومظنَّةً لاعتبار المُعتبِر، وتفكُّرِ المُفكِّرِ؛ لأنَّ مِن عجائب تلك النّاقةِ تمَخُّضَ الصَّخرةِ بها مِن غير حَملِ بطنٍ، ولا فَرْعِ فَحْلٍ، فهي جديرةٌ بأن يَستبصرَ بها كُلُّ مَن شاهدَها[3].

دلالةُ صيغةِ اسم الفاعل ﴿مُبۡصِرَةٗ﴾:

الإشارةُ إلى كونِها مُفيدةً للبصيرة، مُرَسِّيَةً لليقين

ورَدَ التَّعبيرُ بـ﴿مُبۡصِرَةٗ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ﴾ اسمَ فاعلٍ من (أبصر) المُتعدّي إلى مفعولٍ، أي: جعلَ غيرَهُ مُبصِرًا وذا بَصيرة، والمعنى: أنَّها مُفيدةُ البَصيرةِ، أي: اليقين، أي: تَجعلُ مَن رآها ذا بصيرةٍ، وتُفيدُهُ أنّها آيةٌ، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١٣﴾ [النَّمل: 13][4]؛ فصيغةُ

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 508.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 359.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 456.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 144.

اسم الفاعل حالٌ مِنَ النّاقة، والمرادُ ذاتُ إبصارٍ أو ذاتُ بصيرةٍ، يُبصرُها الآخَرُ، ويَتبصَّرُ بها(1).

بلاغةُ المَجازِ العقليّ في إضافة الإبصارِ إلى النّاقة:

النّاقةُ سببٌ في التَّبصُّر، وآيةٌ للتَّفكُّر

أُضيفَ الإبصارُ إلى النّاقة في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ﴾ على سبيل المَجازِ، والتَّقديرُ: (آيةٌ مُبصِرَةٌ)(2)، فهو إسنادٌ مجازيٌّ؛ إذِ المرادُ إبصارُ أهلِها، ولكنَّها لمّا كانت سببًا في الإبصار؛ نُسِبَ إليها على سبيل المجاز العقليّ، والظّاهرُ أنَّ المرادَ الإبصارُ المعنويُّ، وهو الاهتداءُ بها، والتَّوصُّلُ بها إلى تصديق نبيِّهم، وعلى هذا تظهرُ السَّببيَّةُ، فإنَّ وجودَها سببٌ في هذا المعنى(3)؛ لأنَّها سببٌ في التَّبصُّر والاعتبار والاهتداء(4).

معنى الفاء في قوله: ﴿فَظَلَمُواْ﴾:

الفاء في ﴿فَظَلَمُواْ﴾ للسَّببيَّة؛ إذ جعلوا الآيةَ سبَبًا لكفرهم لِسَقَمِ قلوبِهم، مع أنَّها سببٌ للإيمان في نفس الأمر(5).

نُكْتَةُ العُدولِ عن ذِكرِ التَّكذيبِ إلى ذِكرِ الظُّلم:

بيانُ معنى الظُّلمِ في عُمومِه وشمولِه

آثرَ التَّعبيرَ بالظُّلم بدلًا مِنَ التَّكذيب في قوله تعالى: ﴿فَظَلَمُواْ بِهَاۚ﴾؛ لأنَّه يجوزُ أن يكونَ الظّلمُ بمعنى الكفرِ؛ لأنَّه ظُلْمُ النَّفسِ، ويجوزُ أن يكونَ الظُّلمُ مُضَمَّنًا معنى الجَحْدِ، أي: كابَروا في كونها آيةً، كقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ [النَّمل: 14]، ويجوزُ بَقاءُ الظُّلم على حقيقتِه، وهو الاعتداءُ بدون حَقٍّ، أي: ظلموا النّاقةَ حينَ عَقَروها، وهي لم تَجنِ عليهم، فكانَ عَقْرُها ظُلمًا، والاعتداءُ على العَجماوات ظُلْمٌ؛ إذا كان غيرَ مَأذونٍ فيه

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 98.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 72.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 380.
(4) الصّاويّ، حاشيته على تفسير الجلالين: 2/ 325.
(5) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/ 534.

شرعًا كالصَّيد[1]، والمعنى على كلِّ هذا: فكفروا بها ظالمين، أي: لم يكتفوا بمجرَّدِ الكفرِ بها، بل فعلوا بها ما فعلوا مِنَ العَقر، وظلموا أنفسَهم، وعرَّضوها للهلاك بسبب عَقرِها[2].

دلالةُ القيد بالجارّ والمَجرور ﴿بِهَاۚ﴾:

إفادةُ التَّعدية وتأكيدُها بحسب معاني الظُّلم

يجوزُ أن تكونَ الباءُ للتَّعدية؛ إذا استُعمِلَ الظُّلمُ بمعنى الكفرِ؛ لأنَّ فعلَ الكفرِ يُعدَّى إلى المَكفورِ بالباء، وإذا كان الظُّلمُ على حقيقتِه؛ فالباءُ صِلَةٌ لتوكيد التَّعدية؛ لأنَّ الظُّلمَ يتعدَّى بنفسِه، فالمعنى: فظلموا أنفسَهم بقتلِها، أي: بسببِه[3].

معنى الواو في جملة: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ﴾:

بيانُ حال إرسالِ الآيات، وكونه تخويفًا مِنَ العذاب

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ للحال، والجملةُ حاليَّةٌ مِن ضمير ﴿فَظَلَمُواْ﴾، أي: فظلموا بها، ولم يخافوا العاقبةَ، والحالُ: أنّا ما نُرسِلُ بالآيات الَّتي هي من جُملَتِها إلّا تَخويفًا مِنَ العذابِ الَّذي يَعقِبُها، فنَزَلَ بهم ما نَزَلَ[4].

نُكتَةُ إسنادِ الإرسالِ إلى ضمير العَظَمةِ في ﴿نُرۡسِلُ﴾:

تجلّي مظاهرِ العَظَمةِ في أفعال الله ﷻ

في إسناد الإرسال إلى ضمير العَظَمةِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ بيانٌ لعظمة هذا الإرسال، أي: (بما لنا مِنَ الجلالةِ الَّتي هي بحيث تذوبُ لها الجبالُ)[5].

عِلَّةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾:

بيانُ تنوُّعِها وكونِها مُتعدِّدةَ الحِكَمِ والغايات

عَبَّرَ القرآنُ الكريم بالآيات؛ لأنَّها تُطلَقُ على معانٍ عديدة اختُلِفَ في تفسيرها في قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ على وجوهٍ، أهمُّها: **الأوَّل**: أنَّ المُرادَ بها العِبَرُ والمُعجزاتُ الَّتي جعلَها الله

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 144.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 5/ 177.
(3) الأنصاريّ، فتح الرّحمن: 168، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 144.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 98.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 456.

على أيدي الرُّسلِ، مِن دلائل الإنذارِ تخويفًا للمُكذِّبين، و**الثّاني**: أنَّها آياتُ الانتقامِ تخويفًا مِنَ المَعاصي، و**الثّالث**: آياتُ القرآن، **والرّابع**: الموتُ الذَّريع.

والمُناسِبُ للمَقام أن تُفسَّرَ الآياتُ المذكورةُ بالآيات المُقترَحة، أي: لا نرسلُ الآياتِ المُقترَحةَ إلّا تخويفًا مِن نزول العذابِ، فإنْ لم يخافوا؛ وقعَ عليهم[1].

سِرُّ التَّعبير بالجمع دون الإفرادِ في لفظ ﴿بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾:

لفظُ الآياتِ يدُلُّ على التَّعدُّدِ؛ لاشتمالها على آياتٍ كثيرةٍ

عبَّرَ القرآنُ الكريمُ بالجمع في ﴿بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾ دونَ الإفراد؛ لأنَّها وإن كانَت واحدةً في ذاتها فهي مُتعدِّدةٌ في اشتمالها على آياتٍ كثيرةٍ، فالنّاقةُ - مثلًا - وإنْ كانت شيئًا واحدًا، لكنَّها مُشتملةٌ على آياتٍ كثيرةٍ؛ مِن ظُهورها مِنَ الصَّخرة الصَّمّاء، وظُهور سقيها عقيبَ خروجِها، وعِظَم ضَرعِها، وكثرةِ دَرِّها، وغير ذلك[2].

بلاغةُ القصر في ختام الآية:

الإرسالُ بالآيات بعِلَّةِ التَّخويف رحمةٌ بالأمَّة مِنَ الرَّبِّ اللَّطيف

القصرُ في قوله: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ لقَصْر الإرسالِ بالآيات على عِلَّة التَّخويف، وهو قصرٌ إضافيٌّ، أي: لا مباراةَ بين الرُّسل وأقوامِهم، أو لا طمعًا في إيمان الأقوامِ، فقد علمنا أنَّهم لا يؤمنون.

وفي هذا القَصر بيانٌ لحِكمةٍ أُخرى في ترك إرسالِ الآياتِ إلى قريش، تُشيرُ إلى أنَّ اللّهَ تعالى أرادَ الإبقاءَ عليهم؛ ليَدخُلَ منهُم في الإسلام كثيرٌ، ويكونَ نشرُ الإسلام على يدِ كثيرٍ منهم، وتلك مَكرُمَةٌ للنَّبيِّ ﷺ، فلو أَرْسَلَ اللّهُ لهم الآياتِ كما سألوا - مع أنَّ جبلَّتَهُمُ العِنادُ - لأصَرّوا على الكفرِ، فَحَقَّت عليهم سُنَّةُ اللّهِ الّتي قد خلَت في عبادِه، وهي الاستئصالُ عَقِبَ إظهارِ الآيات؛ لأنَّ إظهارَ الآياتِ

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 7/ 412، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 383.
(2) زاده، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 5/ 397.

تخويفٌ مِنَ العذاب، واللّهُ أرادَ الإبقاءَ على هذه الأمَّةِ، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ﴾ [الأنفال: 33] الآيةَ، فعوَّضْنا تخويفَهم بَدَلًا عن إرسال الآياتِ الّتي اقترَحوها[1].

نُكْتَةُ ذِكرِ التَّخويف في مَقامِ إرسالِ الآياتِ:

حَملُ النّاس على التَّفكُّر والتَّأمُّل مِن خلال تخويفِهم بالآيات

المقصودُ الأعظمُ مِن إظهارِ الآياتِ أن يُسْتَدَلَّ بها على صِدقِ المُدَّعي، ولكن حُصِرَ المَقصودُ هُنا مِن إظهارِها في قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ في التَّخويف؛ لأنَّ النَّبيَّ إذا أظهرَ الآيةَ وسَمِعَ الخَلْقُ أنَّه أظهرَ آيةً؛ فَهُم لا يَعلمون أنَّ تلك الآيةَ مُعجِزةٌ أو مُخَوِّفةٌ، إلّا أنَّهم يُجَوِّزون كونَها مُعجِزةً، وبتقدير أن تكونَ مُعجِزةً، فَلَو لم يتفكَّروا فيها، ولم يَستدِلّوا بها على الصِّدقِ؛ لاستحقّوا العِقابَ الشَّديدَ، فهذا هو الخوفُ الّذي يَحمِلُهم على التَّفَكُّرِ والتَّأمُّلِ في تلك المُعجزاتِ، وهو المُرادُ بإرسال الآياتِ[2].

وإنْ أرادَ بالآياتِ هُنا المُقترَحة؛ فالمعنى: أنَّه يُرسِلُ بها تخويفًا مِنَ العذابِ العاجلِ وهو الإهلاكُ، وإنْ أرادَ المُعجزاتِ غيرَ المُقترَحةِ؛ فالمعنى: أنَّه يُرسِلُ بها تخويفًا من عذاب الآخرةِ؛ ليَراها الكافرُ، فيُؤمن[3].

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

المَنع والصَّدُّ:

الصَّدُّ عُدولٌ عن الشَّيءِ بقصدِ المَنعِ، والمَنعُ أعمُّ وأشملُ

المَنعُ: أن تَحولَ بينَ الرَّجُلِ والشَّيءِ الَّذي يُريدُه، يُقال: مَنعتُه فامتنعَ، ورَجلٌ مَنيعٌ: لا يُخْلَصُ إليه، وفلانٌ في عزٍّ ومَنعةٍ[4]، والصَّدُّ: هو المَنعُ عن قصد الشَّيءِ خاصَّة، ولهذا قالَ اللّه تعالى: ﴿وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [الأنفال: 34]، أي: يمنعون النّاسَ عن قصده[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 144.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 359.
(3) ابن جُزَيّ، التّسهيل: 1/ 449.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (منع).
(5) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 114.

البَعْثُ والإرسال:

البعثُ فيه التَّنبيهُ والإيقاظ، والإرسالُ فيه الرِّفقُ والتُّؤَدةُ والهُدوءُ

أصلُ البَعثِ في اللُّغة: الإثارةُ والتَّوجيهُ والتَّنبيهُ[1]، ثمَّ يختلفُ البعثُ باختلاف ما عُلِّقَ به، فتارةً يكون عامًّا في معنى توجيهِ الحَيِّ وإثارتِه مِن مكانٍ يَلْزمُه بقوَّةٍ، فيندفعُ ناهضًا[2]، كما يُقالُ: بعثتُ البعيرَ، أي: سَيَّرتُه، وبعثتُ رسولًا، أي: وجهتُه، والبَعثُ إيقاظٌ مِنَ النَّوم، وتنبيهٌ مِنَ الغفلة والضَّلالة، وإحياءُ اللّه للمَوتى: بَعثٌ لهم، وتجتمعُ هذه المعاني في التَّوجيه والتَّنبيه.

وأمّا الإرسال؛ فأصلُه في اللُّغة: توجيهُ الشَّيء برفقٍ وتُؤَدَةٍ ورحمةٍ، ومنه التَّرسُّلُ في الكلام والمَشْي، أي: الهُدوء والتَّأني وعدمُ العَجَلةِ، ومنه قولهم: على رِسْلك، أي: تَرَفَّقْ وتَأَنَّ في القول أو الفعل، والرَّسْلُ: السَّيْرُ السَّهلُ، والاسترسالُ: الطُّمأنينةُ والسُّكونُ.

وبهذا يتَّضِحُ أنَّ البعثَ والإرسالَ يشتركان في معنًى لغويٍّ عامٍّ، هو التَّوجيه[3]، ويختلفان في: أنَّ البَعثَ: يتميَّزُ بمَلْمَحِ التَّنبيهِ والإيقاظِ، والإرسالَ: يتميَّزُ بالرِّفق والتُّؤدة والهدوء.

والاستعمالُ القرآنيُّ للكلمتين يدورُ حول المعاني اللُّغويَّة المَذكورة، ولكن لِكُلِّ سياقٍ ملامحُ دلاليَّةٌ تُميِّزُ اللَّفظَ[4].

الإيتاء والإعْطاء:

الإيتاءُ أقوى مِنَ الإعطاءِ دلالةً واستعمالًا

لا يكادُ أهلُ اللُّغة يُفرِّقون بينَ الإيتاء والإعطاء، لكن نجدُ في الاستعمال القرآنيِّ بعضَ الفروق الدَّقيقة الَّتي توحي ببلاغة القرآن وعظمته، وذلك مِن حيثُ إنَّ الإيتاءَ أقوى مِنَ الإعطاء في إثبات مَفعوله؛ لأنَّ الإعطاءَ له فعلُ مطاوعٌ، تقول: أعطاني فعَطوتُ، ولا يُقالُ في الإيتاء: آتاني فأتيتُ، وإنَّما يُقالُ: آتاني

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (بعث).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بعث).
(3) الرَّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رسل).
(4) محمّد داود، معجم الفروق الدّلالية، ص: 136.

فأخذتُ، والفعلُ الَّذي له فعلٌ مطاوعٌ أضعفُ في إثبات مفعولِه مِنَ الَّذي لا مطاوعَ له(1).

فالإيتاءُ أقوى مِنَ الإعطاء، قال تعالى: ﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26]؛ لأنَّ المُلْكَ شيءٌ عظيمٌ لا يُعطاهُ إلّا مَن له قوَّة، وكذا ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ﴾ [البقرة: 269]، والحِكمةُ شيءٌ عظيمٌ أيضًا، وقال: ﴿ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾ [الحِجر: 87] لعِظَم القرآنِ وشأنه(2).

في الإيتاءِ وُجوبٌ والتِزامٌ، وفي الإعطاءِ تَفَضُّلٌ وإكرامٌ

ومِنَ الفروق أيضًا: أنَّ الإتيانَ فيه معنى الوجوبِ والالتزام، أمّا الإعطاءُ؛ ففيه معنى التَّفضُّلِ والإكرام؛ فمثلًا بعد أن أسعدَ اللّهُ المؤمنين بدخول الجنَّة قال: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ١٠٨﴾ [هود: 108]، وقال: ﴿عَطَآءً حِسَابٗا ٣٦﴾ [النّبأ: 36].

ومِنَ الفروق أيضًا: أنَّ العطاءَ يكون في الأشياء المادّيَّة، ويُفيدُ التَّكرارَ، نحو: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾ [الكوثر: 1]، أي: (سيتكرَّرُ شُربُك - يا محمَّد ﷺ - كثيرًا مِن نهر الكوثر)، ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ٥﴾ [الضّحى: 5]، أي: (سيكون عطاءُ اللّه لكَ مُكرَّرًا حتَّى تبلغَ درجةَ الرِّضا)(3)، أمّا الإيتانُ؛ ففي الأشياء المادّيَّة والمعنويَّة، قال سُبحانه: ﴿۞وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ﴾ [الأنبياء: 51]، وقال: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ٢٠﴾ [ص: 20](4).

الإعطاءُ دَليلُ التَّمَلُّكِ

ومِنَ الفروق أيضًا: أنَّ الإعطاءَ دليلُ التَّملُّكِ دونَ الإيتاء(5)، فالإيتاءُ يشملُه النَّزعُ، بمعنى: أنَّه ليس تمليكًا، ولكنَّ العطاءَ تمليكٌ، والإيتاء ليس بالضَّرورة تمليكًا؛ لأنَّ الإعطاءَ هو إيصالُ الشَّيء إلى الآخذ له، وكَثُرَ استعمالُ الإعطاء، حتَّى صار لا يُطلَقُ إلّا على التَّمليك، فيُقالُ: أعطاه مالًا؛ إذا ملَّكَهُ إيّاه.

(1) السّيوطيّ، الإتقان: 2/ 367 - 368، والكفويّ، الكلّيَّات، ص: 212.
(2) السّيوطيّ، الإتقان: 2/ 367، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 212.
(3) الكفويّ، الكلّيّات: 212، والسّيوطيّ، الإتقان: 2/ 367.
(4) صلاح لاشين، من أسرار التَّعبير في القرآن الكريم: 71 - 77.
(5) الكفويّ، الكلّيّات: 1/ 360، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 86.

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنٗا كَبِيرٗا ٦٠﴾ [الإسراء: 60]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقة بين تكذيب السّابقين، وتطمين الرّسولِ على حمايته وحفظه

لمّا طالبوا الرَّسولَ ﷺ بالآياتِ المقترَحةِ، وأخبَرَ اللّهُ بالمصلحةِ في عدمِ المَجيءِ بها؛ طعَنَ الكفّارُ فيه، وقالوا: لو كان رسولًا حقًّا؛ لأتَى بالآياتِ المقترَحةِ، فبيَّن اللّهُ في هذه الآية أنَّه ينصرُه، ويؤيِّدُه، وأنَّه أحاطَ بالنّاس، فقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾[1].

فذكر سُبحانَه ما يزيدُ النَّبيَّ ﷺ ثباتًا على ثباته، ويقينًا على يقينه، وما يدُلُّ على شمول عِلمِه تعالى، ونفاذ قُدرتِه، وبليغ حكمتِه[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَحَاطَ﴾: أصلُ (حيط) يدُلُّ على شَيءٍ يُطيفُ بالشَّيءِ[3]، ومنه الحائطُ: الجدارُ الَّذي يَحوط بالمكان، والإحاطَةُ تُقالُ على وجهين: أحدهما: في الأجسام، نحو: أَحَطْتُ بمكان كذا، أو تُستَعمَلُ في الحفظ، نحو: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ٥٤﴾ [فصّلت: 54]، وتُستعمَلُ في المَنع، نحو: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ﴾ [يوسف: 66][4]، والإحاطَةُ بالشَّيءِ: الكَونُ حَولَهُ كالحائِطِ، ويُكنّى بها عَنِ التَّمكُّنِ مِنَ الشَّيءِ بحَيث لا يَفوتُ مِنهُ[5]، والثّاني: في العِلم، نحو قوله: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 360، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 73.
(2) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 8/ 383.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حوط).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (حيط).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 171.

﴿١٢﴾ [الطّلاق: 12][1]، والمقصودُ بالإحاطَةِ في الآية: الأَخذُ مِن كُلِّ جانِبٍ، وهي مُستَعمَلَةٌ هنا في مَعنى الغَلَبَةِ.

2) ﴿ٱلرُّءۡيَا﴾: أصلُ (رَأى) يدُلُّ على نَظَرٍ وإبصارٍ بعَينٍ أو بَصيرَةٍ، فالرَّأيُ: ما يَراهُ الإنسانُ في الأمرِ، وجَمعُهُ الآراءُ[2]، والرُّؤيَةُ: إدراكُ المَرئيِّ، والرُّؤيا: على وزن فُعْلى، مصدر رأى، وهي ما يَراهُ النّائمُ في مَنامِهِ، أو المَشاهِدُ الَّتي تُدرِكها النَّفسُ بواسِطَةِ الخيالِ في أثناء النَّوم، فيراها النّائمُ بعَينِ خَيالِهِ، كأنَّهُ يراها بعَينِ رأسِهِ، وألفُ التَّأنيث فيها قد جُعِلَ عِوضًا عن تاءِ التَّأنيثِ في "الرُّؤيَة"، للفَرقِ بين ما يَراهُ النّائمُ واليَقظانُ، والجَمعُ: رُؤًى[3]، قال ابن الأنباريِّ: "المختارُ في هذه الرُّؤية أن تكونَ يقظةً، ولا فرقَ بينَ أن يقولَ القائلُ: رأيتُ فلانًا رؤيةً، ورأيتُه رؤيا، إلّا أنَّ الرُّؤيةَ يقلُّ استعمالُها في المَنام، والرُّؤيا يكثُرُ استعمالُها في المَنام، ويجوز كلُّ واحدٍ منهما في المعنيين"[4].

3) ﴿فِتۡنَةً﴾: الفَتْن أصله الإحراقُ[5]، يُقالُ: فَتَنْتُ الذَّهَبَ، أي: أحرَقتُهُ بالنّارِ؛ لِتَمييزِ الجَيِّدِ مِنَ الرَّديءِ، ويُسَمَّى الصّائغُ: الفَتّانَ، وكذلك الشَّيطان[6]، والفِتنَةُ: الكفرُ، وسَمَّوا ذلك فِتنَةً؛ لأنَّها تَزيدُ النّاسَ تَوغُّلًا في الكُفرِ[7]، وتأتي بمعنى: الامتحان، يُقالُ: فَتَنْتُهُ، أفْتَنْتُه، فَتْنًا وفُتونًا؛ إذا امتَحَنتُهُ[8]، والمقصودُ بالفتنة في الآية: اضطِرابُ الرَّأيِ، واختِلالُ نِظامِ العَيشِ[9].

4) ﴿ٱلۡمَلۡعُونَةَ﴾: أصلُ (لعن) يدُلُّ على الطَّردِ والإبعادِ، يُقالُ: لَعَنَهُ اللهُ، أي: أبعَدَهُ وطَرَدَهُ عن الخَيرِ[10]، واللَّعينُ: المُبعَدُ المَنبوذُ، واللِّعانُ: الدُّعاءُ باللَّعنِ، وأمّا الَّذي يَصدُرُ

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (حيط).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رأى).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (رأي)، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (رأى).
(4) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 34.
(5) الخليل، العين: (فتن).
(6) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فتن).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 263.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فتن).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 147.
(10) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (لعن).

مِنَ الخَلقِ؛ فهو بمعنى السَّبِّ والشَّتم، فيُقالُ: لَعَنَهُ لعنًا، أي: سَبَّهُ[1]، ويأتي اللَّعنُ بمعنى التَّعذيبِ والإهلاك، واللَّعنَةُ: العَذابُ[2]، ومن مَعانيه أيضًا: المَسخُ[3]، والمقصودُ باللَّعنِ في الآية: الإبعادُ وتحقيرُ المَلعونِ، والمُرادُ بالشَّجَرَة المَلعونَةِ شَجَرَةُ الزَّقُّوم، وجُعِلَت مَلعونةً، أي: آكلوها، فاتَّسعَ في الكلام، وسُمّيَت بذلك؛ لأنَّ كُلَّ طعامٍ كريهٍ يُقالُ له: مَلعونٌ[4].

5) ﴿طُغۡيَٰنٗا﴾: (طغى) أصلٌ صَحيحٌ مُنقاسٌ، وهو مُجاوزَةُ الحَدِّ في العِصيانِ[5]، يُقالُ: طَغَى السَّيلُ، إذا جاءَ بماءٍ كثيرٍ يتَجاوزُ حدَّ ما كانَ يجري عليه، وطَغى البحرُ؛ إذا هاجَتْ أمواجُه[6]، والطُّغيانُ: تَجاوُزُ الحَدِّ في التَّعاظُم والظُّلم والكُفرِ، وفِعلُه يائيٌّ وواويٌّ، يُقالُ: طَغيَ يَطغَى كَرَضيَ، وطَغا يَطغو كَدَعا[7]، والطّاغيةُ: الجبّارُ العَنيدُ، والهاءُ للمُبالَغَة[8]، والمقصودُ بالطُّغيانِ في الآية: مُبالَغَةٌ في الطَّغي، وهو الإفراطُ في التَّمادي والغَيِّ.

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

تأكيدُ الرَّدِّ على المُشركين، بأنَّ الآياتِ يُنزلُها اللهُ وفْقَ مَشيئتِه وعلمِه

في هذه الآية يُدخلُ اللهُ السَّكينةَ والطُّمأنينةَ على نفس رسوله ﷺ بقوله: اذكرْ - يا محمَّدُ - ﷺ، وعْدَنا إيّاك أنَّ ربَّكَ أحاطَ عِلْمُهُ، وشَمِلَت قُدرتُهُ النّاسَ جميعًا، ومنهم المشركون، فلا يمكِّنُهم من إيذائك، أو إيقاع الضَّررِ بك، وهو سبحانَه سيجزي كلًّا منهم بما يستحِقُّه من جزاءٍ، وما جعَلْنا رُؤيا عَينيكَ الَّتي أريناكَ ليلةَ الإسراءِ

(1) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (لعن).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (لعن).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (لعن).
(4) ابن سِيده، المُحكم، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (لعن).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طغي).
(6) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (طغي).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 314.
(8) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة: (طغي).

والمعراجِ مِنَ الغَرائبِ والعَجائِبِ إلّا اختبارًا وبلاءً للنّاس؛ ليتبيَّنَ مَن يُصَدِّقُك ومَن يُكَذِّبُك، أو ما رأيتَه مَنامًا بتبشيرِ اللّهِ لك بانتصارِكَ على قريشٍ في بدرٍ وغيرِها، وما جعَلْنا الشَّجَرةَ الملعونةَ في القرآنِ - وهي شجرةُ الزَّقّومِ النّابتةُ في الجَحيمِ - إلّا فِتنةً للنّاسِ أيضًا؛ ليتبيَّنَ مَن يُصَدِّقُ بها، ومَن يكَذِّبُ، ويَستهزِئُ بها؛ إذ قالَ المُشرِكون: يُخبِرُنا مُحمَّدٌ أنَّ في النّارِ شَجرةً نابتةً، والنّارُ تأكُلُ الشَّجَرَ، فكيف تَنبُتُ فيها، ونُخوِّفُ المُشرِكين بما نتوعَّدُهم به مِنَ العَذابِ، فما يَزيدُهم تخويفُنا لهم إلّا تماديًا في الكُفرِ والضَّلالِ[1].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ: إلى بيان عِلَّة الإسراءِ والمعراجِ، وذِكرِ شجرةِ الزَّقّومِ في القرآن الكريم، وإلى أنَّ اللّهَ لا يعجزُهُ شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء، وإلى أنَّ عدمَ التَّصريحِ في الكتاب والسُّنَّةِ بذكرِ الأمورِ العظيمةِ الَّتي حدثَت في الأزمنةِ المُتأخِّرةِ أولى وأحسنُ؛ لأنَّ الأمورَ الَّتي لم يشاهِدِ النّاسُ لها نظيرًا ربَّما لا تقبلُها عقولُهم؛ لو أُخبروا بها قبلَ وقوعِها، فيكونُ ذلك رَيْبًا في قلوبِ بعضِ المُؤمنين، ومانعًا يَمنعُ مَن لم يَدخلِ الإسلامَ، ومُنفِّرًا عنه[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في قوله: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ﴾:

تأكيدُ حِفظِ النَّبيِّ ﷺ من كيدِ الكافرين ومَكرهم

جملة: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ﴾ يجوز أن تكونَ معطوفةً على جملة: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾ من باب الوصل، ويكون فيها بيانٌ لوجوب وقوعِ الوعيدِ الدُّنيويِّ[3]، ويجوز أن تكونَ الجملةُ مُعترِضةً[4]، ويكون

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 652، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 92، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 461.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: 461، ومجمع البحوث الإسلاميّة، التّفسير الوسيط: 5/ 776، والجزائريّ، أيسر التّفاسير: 3/ 209.
(3) المهائميّ، تبصير الرّحمن: 1/ 432.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 145.

في هذه الآية إخبارٌ للنَّبيِّ ﷺ بأنَّه محفوظٌ مِنَ الكَفَرَةِ آمِنٌ، أي: فَلْتُبلِّغْ رسالةَ ربِّك، ولا تتهيَّبْ أحدًا مِنَ المَخلوقين[1].

دلالةُ التَّعبير بالظَّرف ﴿وَإِذۡ﴾:

بيانُ الإشارة إلى الوقت الَّذي قيلَ فيه هذا القول

عبَّرَ القرآنُ الكريمُ بـ﴿وَإِذۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ﴾؛ للإشارة إلى الوقتِ الَّذي قيلَ فيه هذا القولُ للنَّبيِّ ﷺ؛ تسليةً له على حُزنه من تكذيبِ قومِه إيّاه، ومِن إمهال اللّهِ لأئمَّة الكفرِ الَّذين فَتَنوا المُؤمنين والمُؤمنات، فكان التَّعبيرُ بالظَّرفيَّة للتَّذكير بوعدِه للنَّصر عليهم.

وفيه إشارةٌ للرَّدِّ على المُشركين الَّذين يقترحون الآياتِ على رسول اللّه ﷺ، بأنَّ إنزالَها يكون وفْقَ مشيئةِ اللّهِ وعِلْمِه[2].

بلاغةُ الحذفِ في قوله: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا﴾:

تذكيرُ النَّبيِّ ﷺ، بما يجعله مُطمَئِنًّا لوعد ربِّه الأكيد

(إذ) في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ﴾ مُتعلِّقةٌ بفعلٍ مَحذوفٍ، أي: (واذكرْ - يا محمَّدُ ﷺ - إذ قُلنا لكَ: إنَّ ربَّكَ أحاطَ بالنّاس، والتَّذكيرُ بمضمونها يجعلُك مُطمَئِنًّا لوعد ربِّك لكَ، ولِلَّذينَ آمنوا بكَ، واتَّبعوكَ بالنَّصر)، والمُرادُ مِنَ التَّذكير إعادةُ الخَبرِ إلى الذّاكرةِ العقليَّةِ.

دلالةُ إسناد القول إلى نون العَظَمةِ:

بيانُ عَظَمةِ القولِ الصّادرِ مِنَ الرَّبِّ العظيمِ

قوله تعالى: ﴿قُلۡنَا﴾، أي: على ما لنا مِنَ العظمةِ المُحيطةِ[3]؛ فلأجل تعظيمِ هذا القول جيءَ بالفعل مُسنَدًا إلى نون العَظمةِ وضميرِ الكبرياءِ؛ لكونه صادرًا مِنَ الرَّبِّ العظيم، الَّذي عظمتُه فوقَ كُلِّ عظمة، وجلالُه أرفعُ من كُلِّ جلال، وفيه دلالةٌ على أنَّ قُدرةَ اللّه تعالى الَّتي تحيطُ بالنّاس عظيمةٌ؛ لذلك ناسبَ التَّعبيرَ بنون العظمةِ، وفيه إشارةٌ إلى تشريف القولِ وتعظيمِه، وأنَّه جديرٌ بالانتباه إليه.

(1) الثّعالبيّ، الجواهر الحِسان: 3/ 482.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/ 511.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 457.

بيانُ مزيدِ العنايةِ والرِّعايةِ بالرَّسول الكريم

وجهُ تقييد القولِ بالجارِّ والمَجرور ﴿لَكَ﴾:

دلَّ التَّقييدُ بالجارِّ والمَجرور في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ﴾ على بيان مزيدِ عنايةٍ ورعايةٍ مِنَ الرَّبِّ العظيم لهذا الرَّسول الكريم، فالقولُ لكَ، والبشارةُ مخصوصةٌ بك، والمعنى: بشَّرناكَ بأنَّ اللهَ يغلِبُ أهلَ مكَّة، ويقهرُهُم، ويُظهرُ دولتَكَ عليهم، وهذه بشارةٌ بوقعة بَدر[1].

التَّسليةُ للنَّبيِّ الخاتمِ ﷺ، والتَّبشيرُ له ولأصحابه الأكارم

بلاغةُ الالتفاتِ:

في الالتفاتِ مِنَ التَّكلُّم إلى الخطابِ في قوله: ﴿لَكَ﴾ تسليةٌ للنَّبيِّ ﷺ على حُزنه من تكذيب قومِه إيّاهُ، ومِن إمهالِ عُتاةِ أعداءِ الدّينِ الَّذين فَتنوا المُؤمنينَ، فذكَّرَهُ اللهُ بوعدِهِ نَصرَهُ[2]، فكأنَّه جوابٌ عمّا خَطَرَ ببالِه ﷺ من أنَّ عدمَ إرسال ما اقترحَه القومُ مِنَ الآياتِ يوجِبُ أن يزدادَ عِنادُهم إلى حيثُ يمنعُه من تبليغ رسالته وإظهارِ دينِه، كأنَّه قيلَ: لا تتوهَّم ذلك، واذكرْ ما أُوحيَ إليك من ربِّك، مِن أنَّ النّاسَ في قبضة قُدْرتي، أَنصُرُك وأعصمُكَ منهم على ما أنت عليه[3].

إيثارُ لفظ ﴿رَبَّكَ﴾ بدلًا مِن اسم الجلالة (الله):

آثَرَ التَّعبيرَ بالرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾؛ لإظهار مزيدٍ مِنَ التَّفضُّل بالإحسان على النَّبيِّ ﷺ، والرِّفقِ بأمَّته[4]، فإنَّ في إظهار مزيدِ اللُّطفِ به مَزيدَ تكريمٍ له واجتباءٍ.

إبرازُ العنايةِ الإلَهيَّةِ بالرَّسول ﷺ

فائدةُ إضافةِ الرَّبِّ إلى ضمير المُخاطَب:

أوْمَأَ جَعْلُ المُسنَدِ إليه لفظَ: ﴿رَبَّكَ﴾ مُضافًا إلى ضمير الرَّسولِ، إلى أنَّ هذا القولَ مَسوقٌ مَساقَ التَّكرِمَةِ للنَّبيِّ ﷺ، وأنَّه بِمَحَلِّ عنايَةِ

---

(1) ملا حويش، بيان المعاني: 2/ 519، والجاويّ، مَراح لبيد: 1/ 630.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 145.
(3) زاده، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 5/ 400.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 457.

اللّه به؛ إذ هو رَبُّهُ، وهو ناصرُهُ، قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطّور: 48][1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿أَحَاطَ﴾ دون غيره:

بيانُ كمالِ قُدرة الخالِقِ الأبرِّ في سلطانِه على البشر

آثرَ التَّعبيرَ بالإحاطة في قوله تعالى: ﴿أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ﴾ دونَ الهلاك؛ لأنَّها مُستلزِمةٌ له؛ فهي كنايةٌ عن شُمول قُدرته، بحيثُ يكونون في قبضتِه، فيتصرَّفُ فيهم على وفْق إرادتِه، ولأنَّ فيه دلالةً على أنَّهم لا يُعجِزونَ اللّهَ شيئًا أراده[2].

وفيها دلالةٌ على أنَّ الإهلاكَ لكفّار قريش من كلِّ جانب، فليس لهم ملجأٌ يلجؤون إليه، ولا ملاذٌ يلوذون به عنه، فهُم في قبضتِه لا يقدرون على الخروج من مَشيئتِه، ونحن مانعوك منهم، فلا تتهيَّبْ منهم أحدًا، وامضِ لِما أمرناك به من تبليغ رسالتِنا[3]، والكلامُ مَسوقٌ لتسلية رسولِ اللّه ﷺ عمّا عَسى يَعتريه من عدم الإجابةِ إلى إنزال الآياتِ المُقترَحةِ؛ لِمُخالفتِها للحِكمة من نَوع حُزنٍ من طَعن الكَفَرَة؛ إذ كانوا يقولون: لو كُنتَ رسولًا حقًّا؛ لأتيتَ بهذه المُعجزة، كما أتى بها مَن قبلِكَ مِنَ الأنبياء عليهم السلام، فكأنَّه قيلَ له: اذكرْ وقتَ قولِنا لك: إنَّ ربَّكَ اللَّطيفَ بِكَ قد أحاطَ بالنّاس، فهُم في قبضة قُدرتِه لا يَقدِرونَ على الخروج مِن رِبقَةِ مَشيئتِه، فهو يَحفظُكَ منهم، فلا تَهتمَّ بهم، وامضِ لِما أمرتُكَ به مِن تبليغِ الرِّسالة[4].

نُكْتَةُ التَّعبير بصيغة الماضي ﴿أَحَاطَ﴾:

التَّنبيهُ على تحقيق وقوع إحاطةِ اللهِ بالنّاس

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بصيغة الماضي ﴿أَحَاطَ﴾ دون المضارع؛ للتَّنبيهِ على تحقيق وقوعِ إحاطةِ اللّهِ بالنّاس في المُستقبَلِ القريب[5]،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 145.
(2) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 11/ 537.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 479.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 101.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 259.

ولعلَّ هذا إشارةٌ إلى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ﴾ [الرَّعد: 41]، والمعنى: فلا تحزنْ لافترائِهم وتَطاولِهم، فَسَنَنْتَقِمُ منهم[1]، فأحاطَ، بمعنى: يُحيطُ، عبَّرَ عنِ المُستقبل بالماضي؛ لأنَّه واقعٌ لا محالةَ، يُؤكِّدُ ذلك الوقتُ الَّذي وقعَت فيه الإحاطةُ بهم، مع تعدُّدِ المُرادِ به، فقيل: يومُ بدرٍ، ويجوزُ أن يكونَ ذلك في أمر الخندقِ، ومَجيءِ الأحزابِ يَطلبونَ ثأرَهُم ببدرٍ، فَصَرَفَهُمُ اللّه بغيظِهم لم يَنالوا خيرًا، والأشبهُ أنَّه يومُ الفتحِ، فإنَّه اليومُ الَّذي أحاطَ أمرُ اللّه بإهلاك أهلِ مكَّةَ فيه، وأمكَنَ منهم، وعلى كلٍّ فالآيةُ إخبارٌ له أنَّه مَحفوظٌ مِنَ الكفرةِ، آمِنٌ من أن يُقتَلَ، ويُنالَ بمَكروهٍ عظيمٍ[2].

معنى الباء في قوله: ﴿بِٱلنَّاسِۚ﴾:

كمالُ قدرةِ اللهِ على النّاس تنبيهٌ لِمَن طغى وكفر

دلَّتِ الباءُ في قوله تعالى: ﴿أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ﴾ على أنَّ قُدرةَ اللّهِ تعالى مُحيطةٌ مُتلبِّسةٌ بالنّاس جميعًا، فهُم في قبضته، ولا ينفكّونَ عن إرادته، وفي هذا تهديدٌ للكفّار وطمأنةٌ لرسول اللّه ﷺ.

دلالة (أَلْ) في قوله: ﴿بِٱلنَّاسِۚ﴾ والمُراد بهم:

توجيهُ الخطاب على العُموم أو الخصوص

(ال) في ﴿بِٱلنَّاسِۚ﴾ في هذا المَوضِعِ فيها قولان:

القول الأوَّل: أنَّ (ال) للاستغراق، والمُرادُ استغراقُ جميع أفرادِ الجِنسِ، والمعنى: أنَّ قُدرةَ اللّهِ مُحيطةٌ بالنّاس جميعًا، فهُم في قبضتِه ومَشيئَته، ومتى كان الأمرُ كذلك؛ فهُم لا يَقدرونَ على أمرٍ مِنَ الأمور إلّا بقضائِه وقدَرِه.

والقول الثّاني: أنَّ المُرادَ بـ(ال) في النّاس للعهد، والمعهودُ أهلُ مكَّةَ، وإحاطةُ اللّه بهم هو أنَّه تعالى يفتحُها للمُؤمنين، فكان المعنى: وإذ بشَّرناك بأنَّ اللّه أحاطَ بأهل مكَّةَ، بمعنى: أنَّه يغلِبُهُم ويَقهرُهُم، ويُظهِرُ دولتَكَ عليهم، ونظيرُه قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 146.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 73.

﴿ٱلدُّبُرَ ٤٥﴾ [القمر: 45]، وقال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ﴾ [آل عمران: 12][1]، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: "النّاسُ هُنا أهلُ مكّةَ، وإحاطَتُهُ بهم إهلاكُهُ إيّاهُم"[2].

دلالةُ تَعدّي الإحاطةِ إلى النّاس لا إلى أحوالهم:

بيانُ أنَّ الإحاطةَ مُستعمَلةٌ في الغَلَبة

لمّا تعدَّتِ الإحاطةُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ﴾ إلى ذات النّاسِ لا إلى أحوالِهم؛ تعيَّنَ أنَّها مُستعمَلَةٌ في الغَلَبَةِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ [يونس: 22][3].

معنى الواو في قوله: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا﴾:

عــرضُ بـعـضِ القضايا الّتي أثارَ عليها المشركون ضجيجًا

عَطَفَ النَّظمُ الكريمُ جملةَ: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا﴾، والَّتي تليها على قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ﴾، وما بينَهما مِنَ الجملِ مُعتَرِضاتٌ[4]، لبيان ما تشتملُ عليه الجملُ مِن قضايا أثارَ عليها كبراءُ المُشركين وأئمَّتُهم ضجيجًا وعجيجًا؛ بغيةَ الصَّدِّ عن تصديق الرَّسولِ محمَّد ﷺ، والتَّأثير في بعض الَّذين آمنوا، ولم يتغلغلِ الإيمانُ في قلوبهم، وهذا واضحٌ في قضية الرُّؤيا الَّتي دلَّ عليها قولُ اللّه ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ﴾، أي: (وما جعلنا الرُّؤيةَ الَّتي أريناك ليلةَ أسرينا بكَ مِنَ المَسجد الحرام إلى المَسجد الأقصى، وعَرَجْنا بكَ إلى السَّماء السّابعة فَسِدرَةِ المُنتهى، وما جعلْنا أمرَنا لكَ بالحديث عن هذه المِنَّة العظيمةِ إلّا فتنةً)، أي: امتحانًا وابتلاءً للنّاس، وأيضًا في قضية ذِكر الشَّجرةِ الملعونةِ في القرآن الَّتي اعترضوا عليها؛ لكونِها تنبتُ في النّار على خِلاف ما اعتادوا عليه.

سِرُّ التَّعبيرِ بالفعل ﴿جَعَلۡنَا﴾:

عِلْمُ اللهِ تعالى بما سيؤولُ إليه الكفّارُ، مِن عدم الإيمانِ به

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالجَعْل في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 360.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 281.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 146.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 146.

﴿ٱلرُّءۡيَا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ أمرَ الرُّؤيةِ مَقصودٌ؛ لأنَّ الجَعْلَ يأتي بمعنى التَّصييرِ والتَّحويلِ، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ عدمَ الإجابةِ للآيات المُقترَحةِ مِن كفّار قريشٍ يَدُلُّ على أنَّه مَقصودٌ لعِلْمِ اللهِ تعالى بما سيكونون عليه مِن عدم الإيمانِ، ويُؤكِّدُ ذلك ما نَتَجَ عن أمر الرُّؤيا من فتنةٍ أدَّت إلى السُّخريةِ والاستهزاءِ بها وعدمِ الإيمانِ.

غرضُ التَّعبير بصيغة الماضي ﴿جَعَلۡنَا﴾:

أمرُ الله نافِذٌ ومُتحقِّقُ الوقوعِ لا مَحالةَ

دلَّ التَّعبيرُ بالماضي في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا﴾ على أنَّ أمرَ الرُّؤيةِ - الَّتي أراها اللهُ لرسوله ﷺ، وما نتجَ عنها مِن آثار - أمرٌ قدَّرَه اللهُ في اللَّوح المَحفوظِ، ولعِلْمِه بما سيكونُ منهم كانَ التَّعبيرُ بالماضي؛ للدَّلالة على وقوع ذلك.

دلالةُ إسناد الجَعل إلى نون العَظمةِ:

الإشارةُ إلى عَظَمةِ الجَعْلِ الصّادرِ مِنَ الرَّبِّ الجليلِ القادرِ

في إسناد الجَعْلِ إلى ضمير الكبرياءِ والعَظمةِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا﴾ دليلٌ على عظمة هذا الجعلِ الصّادرِ مِنَ الجليل العظيم، أي: بما لنا مِنَ القوَّةِ الباهرةِ الَّتي لها الغنى المُطلَق[1].

سِرُّ اصطفاء لفظ ﴿ٱلرُّءۡيَا﴾ دون (الرُّؤية):

مُشابَهةُ هذه الرُّؤيةِ العينيَّة لرؤيا المَنام، فيما شوهِدَ فيها

آثرَ السّياقُ الكريمُ التَّعبيرَ بالرُّؤيا في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا﴾ عن رؤية العينِ، مع أنَّ أشهرَ استعمالِها في رؤيا النَّوم؛ لأنَّ بعضَ أهلِ العربيَّةِ ذَهَبَ إلى عدم الفرق بينهما، فيقول: لا فرقَ بين أن يقولَ القائلُ: رأيتُ فلانًا رؤيةً، ورأيتُه رؤيا، إلّا أنَّ الرُّؤيةَ يقِلُّ استعمالُها في المَنام، والرُّؤيا يكثرُ استعمالُها في المَنام، ويجوزُ كلُّ واحدٍ منهما في المَعنيَين[2]، واستُعمِلَت هُنا في رُؤية العينِ، كما نُقِلَ عن ابن عبّاس في هذه الآية، قال: "هي رُؤيا عينٍ أُريَها النَّبيُّ ﷺ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 457.

(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 34.

ليلةَ أُسريَ به إلى بيتِ المَقدسِ"[1]، ويؤيِّدُ هذا الوجهَ قولُهُ: ﴿ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ﴾، فإنَّه وصْفٌ للرُّؤيا؛ ليُعْلَمَ أنَّها رُؤيةُ عَينٍ[2]، وقولُه بعدَها: ﴿إِلَّا فِتۡنَةٗ﴾؛ لأنَّه لو كانَ رُؤيا مَنامٍ لم يكُنْ بحيثُ يستبعدُهُ أحدٌ؛ فلَم يكُنْ فتنةً، ولعلَّهُ إنَّما سمّاها رُؤيا - وهي لِلمَنام - على وجه التَّشبيهِ بطريقِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ الأصليَّةِ؛ لِما فيه مِنَ الشَّبه بالخوارقِ الَّتي هي بالمَنام أليقُ في مَجاري العاداتِ[3]، أو لأنَّها وقعَت باللّيل، وتَقَضَّت بالسُّرعة، كأنَّها منامٌ، فيكون الشَّبهُ بينَهما في سرعتها ووقوعِها ليلًا[4]، أو مِن باب مشاكلةِ تسميَةِ الكفّارِ لها رؤيا؛ لِما روي أنَّ بعضَهم قالَ للنَّبيِّ ﷺ لمّا قصَّ عليهم أمرَ الإسراء؛ قال: لعلَّه شيءٌ رأيتَهُ في مَنامِكَ[5].

دلالةُ التَّعبير بقوله: ﴿ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ﴾:

بيانُ تحديدِ رؤيةِ المِعراجِ وتعيينُها

دلَّ التَّعبيرُ بقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ﴾ لتحديد رؤية الإسراءِ والمِعراجِ وتعيينها، وإخراجِ ما عداها مِنَ الرُّؤى الَّتي تعدَّدت لرسول اللّه ﷺ، كما في غزوة بدرٍ، وذكرَها اللّهُ بقوله: ﴿إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ﴾ [الأنفال: 43]، وكما في رؤية عام الحُديبيَّة الَّتي ذكرَها اللّهُ بقولِه: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾ [الفتح: 27]، وللتَّدليل على أنَّها رؤيةٌ بالعين للمَشاهِدِ الَّتي رآها في ليلة الإسراء والمِعراج.

بلاغةُ التَّعبير بقوله: ﴿أَرَيۡنَٰكَ﴾:

الإراءةُ فضلٌ مِنَ اللهِ الأوحدِ، لا اكتسابًا بفعلِ الرَّسولِ المُرْشِدِ

دلَّ التَّعبيرُ بقوله: ﴿أَرَيۡنَٰكَ﴾ دون (رأيت)؛ للدَّلالة على أنَّ الأمرَ ليس مِن فعل رسولِ اللّه ﷺ، إنَّما الَّذي أراه هو اللّهُ، وفي هذا دليلٌ على أنَّها مَحضُ فضلٍ مِنَ اللّه، وليسَت اكتسابًا بفعل الرَّسولِ، وتدُلُّ

(1) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (3888).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 146.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 458.
(4) إسماعيل حقّي، روح البيان: 5/ 178.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 101.

على إكرام اللهِ له، وعُلوِّ مَنزِلته؛ لأنَّ الّذي تولَّى الإراءةَ له هو اللهُ ﷻ، وليس مَلَكًا مِنَ الملائكة.

فائدة الوصف بقوله ﴿ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ﴾:

تمييزُ الرُّؤيا العينيَّة عنِ الرُّؤيا الناميّة

في قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ﴾ وصفٌ للرُّؤيا؛ ليُعلَمَ أنّها رُؤيةُ عينٍ، وتمييزٌ لتلك الرُّؤيا عن رؤيا المَنام الّتي يراها أيُّ إنسانٍ[1]، ومجيء السياق مشتملًا على مادّة الرّؤية هو من باب جِناسِ الاشتقاق.

نُكْتَةُ إضافةِ الإراءةِ إلى نون العَظمةِ:

أهمِّيَّةُ تعظيم الإراءةِ؛ لكونها مِنَ الله العظيم

قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ﴾، أي: بتلك العَظمةِ الَّتي شاهدتَها ليلةَ الإسراء[2]، ففي إضافة الإراءةِ إلى ضمير العَظَمةِ والكبرياءِ تعظيمٌ لها؛ لأنَّها مِنَ الله العظيم، وفي هذا مِنَ التَّكريم للنَّبيِّ ﷺ ما لا يَخفى.

بلاغةُ القصر في سياق الآية الكريمة:

امتحانُ النّاس؛ لمعرفة المُصدِّقين والمُكذِّبين

دلَّ القَصرُ في قوله: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ﴾ على كونها امتحانًا للنّاس؛ لمعرفة المُؤمنين الصّادقين، والكافرين المُكذِّبين، معرفةً ينكشفُ بها حالُهم أمامَ النّاس، لا بالنِّسبة إلى اللّه تعالى، فهو على عِلم سابقٍ بكلِّ ما سيحصل، وقد كذَّبَ بها قومٌ، وكفروا، وصدَّقَ بها آخرون، ويكون المعنى: وما جعلْنا ما رأيتَه وعاينتَه - ليلةَ إسرائنا بكَ - مِن غرائبَ إلّا فتنةً للنّاس؛ ليتميَّزَ قويُّ الإيمان مِن ضعيفه، وسليمُ القلب مِن مريضِه، وكان ما رآه ﷺ في تلك اللَّيلة فتنةً للنّاس؛ لأنَّه لمّا قَصَّ عليهم ما رآه؛ ارتدَّ بعضُهُم عنِ الإسلام، وتردَّدَ بعضُهم الآخر في قَبوله.

سرُّ التَّعبيرِ بقوله: ﴿فِتۡنَةٗ﴾:

أثرُ وقعِ حادثةِ الإسراءِ في أهل مكَّةَ أمِّ القُرى

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بلفظ الفتنةِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 147.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 457.

﴿جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ﴾؛ لتعدُّدِ معانيها حسب ورودِها في سياقات آياتِ القرآنِ الكريم، فكلُّ سياقٍ يحدِّدُ معناها؛ لأنَّها وردَت في القرآن بمعانٍ عديدة؛ فجاءَت بمعنى الكُفرِ والشِّركِ والإيقاعِ في الحيرةِ، والعذابِ، والبلاءِ، والمِحنةِ، والقتلِ، والهلاكِ، إلى غير ذلك مِنَ المعاني الَّتي ذكرَها صاحبُ بصائر ذوي التَّمييز، ولمّا كانَ السّياقُ هنا يتحدَّثُ عن أثر الرُّؤيا بعد أن قصَّها رسولُ اللّه ﷺ، حيثُ أدَّت إلى ارتداد بعضِ المُسلمين، وتردَّدَ البعضُ الآخرُ في قَبول هذا الحدثِ؛ لأنَّ عقولَهم ضاقَت عنِ استقباله أو تصديقِه؛ لأنَّه أمرٌ لا يَتصوَّرُ العقلُ وقوعَه في ليلةٍ واحدةٍ؛ كان التَّعبيرُ بالفتنة هو المناسب لهذا السّياق.

دلالةُ التَّعبير بالإظهار دون الإضمار:

تعيينُ كفّار مكَّة الّذين اعترضوا على هذه الرُّؤيا الخارقة

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالظّاهر في قوله: ﴿إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ دونَ أن يقولَ: (لهم)، مع سبق ذِكرِ هذه اللَّفظةِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ﴾؛ للدَّلالة على تعيينهم وتخصيصهم، وهم كفّارُ مكَّةَ الّذين اعترضوا على هذه الرُّؤيا وسَخِروا منها، وقالوا: (كيف يزعمُ محمَّدٌ ﷺ أنَّه ذهبَ إلى المَسجد الأقصى في ليلةٍ واحدةٍ؟) بخِلاف التَّعبيرِ بالمضمر الذي يعيّنُ الرّجوع إلى لفظ (الناس) الأوّل في قوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ﴾؛ وعلى ما سبق في دلالة (ال) في لفظ النّاس الأوّل، ويؤكِّدُ الخصوصَ في لفظ (النّاس) الثاني في قوله: ﴿لِّلنَّاسِ﴾ دلالةُ اللّام، فهي تفيدُ التَّخصيصَ بكفّار مكَّةَ؛ لأنَّ الحدثَ وقعَ في مكَّةَ، وقصَّهُ رسولُ اللّه ﷺ على أهلها دون غيرِهم؛ لأنَّ الدَّعوةَ ما زالَت في عهدِها المكّيِّ، ويؤكِّدُ ذلك التَّصريحُ بكونها فتنةً للظّالمين، في قول اللّه تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ٦٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ ٦٣﴾ [الصّافّات: 62 - 63]، فهي فتنةٌ لهم، كما أنَّ الرُّؤيا كانت فتنةً لهم.

سِرُّ العطفِ بالواو في قوله: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ﴾:

بيانُ الفتنةِ الثّانيةِ الّتي أحدثَت خلافًا في المجتمع المكّيّ

قولُه تعالى: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِۚ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلرُّءْيَا﴾ منصوبٌ مثله، أي: (وما جعلْنا الرُّؤيا الّتي أريناك والشَّجرةَ الملعونةَ إلّا فتنةً للنّاس)، فجمعَتِ الواو بينَ الفِتنتَين: الفِتنَةِ في الرُّؤيا الَّتي ذُكِرَت مِن قبلُ، والفِتنَةِ في الشَّجرة المَلعونةِ الّتي أَحدثَت اعتراضًا واستهزاءً، مِن ذلك ما وقَعَ مِن أبي جهلٍ الّذي قال: (إنَّ ابنَ أبي كَبْشَةَ يوعِدُكُم بنارٍ تُحرِقُ الحجارةَ، ثُمَّ يَزعُمُ أنَّه يَنبُتُ فيها شجرةٌ، وتعلمونَ أنَّ النّارَ تُحرِقُ الشَّجرَ)[1]، فبدلَ أن يَعتبِروا بما فيها مِن إرهابٍ وإفزاعٍ، فُتِنوا بالألفاظ، فقالوا: إنَّها تخرجُ في أصل الجحيم، ونارُ الجحيم تأكلُ الحِجارةَ، فكيف تَنبتُ فيها الأشجارُ؟ وأخذوا مَفتونين يردِّدونَ هذا القولَ، كأنَّهُم أخذوا على القرآن أمرًا مُختلِفًا، فكانَت هي الأخرى فتنةً لهم، والضّالُّ لا يتَّجِهُ إلى الحقِّ اتِّجاهًا مُستقيمًا، فهو يتعرَّجُ به في المَعارج من غير اتِّجاهٍ إلى صراط مُستقيمٍ[2].

دلالةُ إسناد الفتنةِ إلى الشَّجرة:

بيانُ استبعادِ المُشركين نباتَ شجرةٍ في وسط الجحيم

أسندَ القرآنُ الكريمُ الفتنةَ إلى الشَّجرة في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ﴾ حيثُ عطفَها على ﴿ٱلرُّءْيَا﴾، ويكون التَّقديرُ: (وما جعلْنا الرُّؤيا والشَّجرةَ الملعونةَ إلّا فتنةً للنّاس)؛ لأنَّه لمّا سَمِعَ المشركون ذِكرَها؛ استبعدوا حصولَ ذلك، وعَدّوه من باب السُّخرية والاستهزاء أن تَنبُتَ شجرةٌ في أصل الجحيم، مع وجود ما يَدُلُّ على قُدرة اللّهِ تعالى على فعلِ ذلك، بأن حَمَى وبَرَ السَّمَنْدَر من أن تأكلَه النّارُ - وهو طائرٌ بالهند لا يحترقُ بالنّار - وأحشاءَ النّعامةِ من أذى الجمرِ، إلى غير ذلك ممّا لا يتأثَّرُ بالنّار[3].

---

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/ 141، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 485، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 283.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4409.

(3) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 11/ 539.

دلالةُ وصْفِ الشَّجرةِ باللَّعنِ بينَ الحقيقةِ والمَجاز:

لَعْنُ الشَّجرة لها في ذاتِها، أو لِلَعْنِ أصحابِها وخُبْثِ طَعْمِها

اختُلِفَ في نسبة اللَّعنِ إلى الشَّجرة في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ﴾؛ فمنهم مَن قال: إنّه مَجازٌ عقليٌّ علاقتُه السَّببيَّةُ؛ لأنَّ الشَّجرةَ لا ذنبَ لها حتّى تُلعَنَ على الحقيقة، فليس معنى لعْنِها: أنَّها مَطرودةٌ، كما يُطْرَدُ العُصاةُ المَسؤولون؛ لأنَّها لا توصَفُ بالعصيان والمسؤوليَّة، وإنَّما وُصِفَت بلَعْن أصحابِها على المَجاز، فالمُرادُ بلَعْنِها لَعْنُ أصحابِها على أحد الوجوه في دلالتها[1]، ومنهم مَن قالَ: إنَّه على الحقيقة، ويُرادُ باللَّعن هنا معناه اللُّغويُّ الحقيقيُّ، وهو البُعْد، فهي لكونها في أبعد مكانٍ مِنَ الرَّحمة، وهو أصلُ الجحيم الَّذي تَنبتُ فيه، فهي ملعونةٌ حقيقةً[2]، وقيلَ: إنَّها ملعونةٌ؛ لأنَّها ضارَّةٌ مَكروهةٌ، والعربُ تقولُ لكلِّ طعامٍ كانَت هذه صفتُه: إنَّه ملعونٌ[3].

دلالةُ عطفِ (الشَّجرة) على أسلوب القصرِ قبلَها:

انــدراجُ ذِكْـر الشَّجرةِ الملعونة فيما سبَق؛ لشِدَّةِ الفتنةِ بها

عُطفَ قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ﴾ على أسلوب القَصْر الوارِدِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً﴾، ويكون التَّقديرُ: (وما جعلْنا الشَّجرةَ الملعونةَ في القرآن إلّا فتنةً للنّاس)، كما في قولك: كسوت زيدًا جُبَّةً وعَمرًا، أي: وكسوت عَمرًا جُبَّةً كذلك[4].

وهذه الفتنةُ ظاهرةٌ، عبَّرَ عنها أبو جهل بقوله: (يتوعَّدُكم محمَّد ﷺ بنارٍ تُحرِقُ الحجارةَ، ثُمَّ يقول ينبتُ فيها الشَّجرُ؟ وما نعرفُ الزَّقّومَ إلّا التَّمرَ بالزُّبد)، ثُمَّ يأمرُ جاريةً له، فتحضر تمرًا وزُبدًا، ثمَّ يقول لأصحابه: تزقَّموا[5]! وقد وجدَ هذا القولُ سبيلًا إلى بعض

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 676، والخازن، لباب التّأويل: 3/ 135.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 148.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 459.
(4) ابن التّمجيد، حاشيته على هامش حاشية القونويّ على تفسير البيضاويّ: 11/ 540.
(5) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/ 141، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 485، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 283.

ضِعافِ الإيمانِ، وصغارِ الأحلامِ مِنَ الَّذين دخلوا في الإسلام، فَوقَعَ الشَّكُّ في نفوسِهم، فكان ذلك داعيَةً لهم إلى أن يرتدّوا عنِ الإسلام، خاصَّةً وأنَّهُم في وجه مِحنةٍ قاسيةٍ، وبلاءٍ عظيم، لا يمسكُهُم عليه إلّا إيمانٌ وثيقٌ، فإذا زاحمَ هذا الإيمانَ شيءٌ مِن هذه الشُّكوكِ الكاذبةِ، الَّتي يسوِّقُها إليهم المشركون، وجدَ ضعافُ الإيمانِ منهمُ الفرصةَ سانحةً للخروج مِن هذا البلاء بأوهى سببٍ! وهذا ما يُشيرُ إليه قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾، فهاتان آيتانِ من آيات الله المادّيَّة، وهما القولُ بالإسراء، والقولُ بتلك الشَّجرةِ الَّتي تَنبُتُ في أصل الجحيم، وفي هاتين الآيتين فتنةٌ للنّاس، أي: لهؤلاء المشركين.

فائدةُ قيدِ الجارِّ والمَجرورِ ﴿فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾:

الإشــــارةُ إلى أوصاف الشَّجرة الـذَّمـيـمـةِ في الآيات الكريمة

دلَّ التَّقييدُ بالجارّ والمَجرور مِن قوله: ﴿فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ على ذكر هذه الشَّجرة في آياتٍ مِنَ القرآن الكريم، ففي سورة الصّافّات ذَكَرَ اللهُ هذه الشَّجرةَ، وهي مِنَ القرآن المَكّيِّ، وقد تَهدَّدَ بها الله ﷻ المشركين، وأذاقهُم طعامَها النَّكدَ في هذه الدُّنيا، قبلَ أن يملؤوا منها بطونَهم في جهنَّمَ، فقال تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ٦٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ ٦٣ إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ ٦٤ طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ٦٥ فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ مِنۡهَا فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ٦٦ ثُمَّ إِنَّ لَهُمۡ عَلَيۡهَا لَشَوۡبٗا مِّنۡ حَمِيمٖ ٦٧ ثُمَّ إِنَّ مَرۡجِعَهُمۡ لَإِلَى ٱلۡجَحِيمِ ٦٨﴾ [الصّافّات: 62 - 68]، وفي سورة الواقعة، وهي مكّيَّةٌ أيضًا، جاء قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ ٥١ لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ ٥٢ فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ٥٣ فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ٥٤ فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ٥٥ هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ ٥٦﴾ [الواقعة: 51 - 56]، وفي سورة الدُّخان، وهي مكّيَّة أيضًا، جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ٤٣ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ٤٤ كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ٤٥ كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ ٤٦﴾ [الدُّخان:

43 - 46]، فهذه الشَّجرةُ قد ذَكرَها اللّه ﷻ في القرآنِ المكّيِّ، وعرضَها في هذه المَعارض، مُهدِّدًا بها المُشركين، مُتوعِّدَهم بها، مذيقَهم طعامَها الَّذي يغلي في البطون كغلي الحميم(1).

معنى الواو في قوله: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾:

تهديدُ المشركين وتخويفُهم تسليةٌ للنَّبيِّ المُرسَلِ إليهم

الواو في قوله تعالى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ عاطفةٌ، حيثُ عطفَت هذه الجملةَ على جملة: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾، وهذا العطفُ دالٌّ على أنَّهم مُتصلِّبون في كُفرهم، مُكابرون، مُعاندون، وفيه زيادةٌ في تسليَة النَّبيِّ ﷺ، حتَّى لا يأسفَ من أنَّ اللّهَ لم يُرِهم آياتٍ؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ حريصٌ على إيمانهم، كما قال موسى عليه السلام: ﴿فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٨٨﴾ [يونس: 88](2).

إيثارُ التَّعبيرِ بالتَّخويف دونَ التَّرهيبِ:

فسحُ المجالِ أمامَ مشركي مكَّةَ ليعودوا إلى رُشدِهم

آثرَ السّياقُ الكريمُ التَّعبيرَ بالتَّخويف في قوله تعالى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ دون التَّرهيب، كأن يُقال: (ونُرَهِّبهم)؛ لوجود فرقٍ بينَهما، فمادَّةُ الخوفِ تدُلُّ على توقُّع حدوثِ المَكروه في المُستقبل، ومادَّةُ التَّرهيبِ تدُلُّ على شِدَّة الخوفِ ومُلازمته؛ لذلك آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالتَّخويف؛ ليفسحَ المجالَ أمام مشركي مكَّةَ ليعودوا إلى رشدِهم في الإيمان باللّه ورسوله؛ بخلاف التَّرهيبِ فهو يدُلُّ على شِدَّة الخَوفِ ومُلازمته، وعلى ذلك فالرَّهبةُ أخصُّ مِنَ الخَوف؛ لأنَّها تتعلَّقُ معَ الخوف بأمرٍ زائد، وهو التَّحرُّزُ مِنَ المُخوِّف، وأيضًا أنَّ التَّرهيبَ فيه زيادةُ مُدَّة الخوفِ واستمرارِه، وهذا يعني عدمَ فتح البابِ أمامَ مُشركي مكَّةَ للتَّخلُّصِ من عنادِهم واستكبارِهم في عدم الإيمانِ برسول اللّه(3).

(1) الخطيب، التَّفسير القرآنّي للقرآن: 8/ 510.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 148.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 241.

سرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بالمُضارع ﴿وَنُخَوِّفُهُمۡ﴾:

الإشارةُ إلى تخويفٍ حاصلٍ لهم، ومُتجدِّدٍ عليهم

جيءَ بصيغة المضارعِ في قوله تعالى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمۡ﴾؛ للإشارة إلى تخويفٍ حاضرٍ، فإنَّ اللّهَ خوَّفَهم بالقَحْط والجوع حتَّى رأَوا الدُّخانَ بين السَّماء والأرض، وسألوا اللّهَ كَشْفَه فقال تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ١٥﴾ [الدُّخان: 15]، فذلك وغيرُه مِنَ التَّخويف الّذي سبقَ، فلم يَزِدْهُم إلّا طُغيانًا، والظّاهرُ أنَّ هذه الآيةَ نزلَت في مُدَّة حُصول بعضِ المُخَوِّفات[1]، وإنَّما عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بصيغة المُضارع الدّالّة على الاستقبال، مع أنَّ تخويفَهُم وازديادَ طغيانِهم قد وقَعا؛ للإشعار بالتَّجَدُّد والاستمرار[2]، وفيه إشارةٌ إلى استحضار صورةِ التَّخويف وتجدُّدِهِ في حياة المُشركين؛ كلّما اعترضوا على الرِّسالة.

دلالةُ التَّعبيرِ بنون العَظَمةِ في ﴿وَنُخَوِّفُهُمۡ﴾:

بيانُ عَظَمةِ المُخوِّفِ وهو الله، وما يُخَوِّفُ به مِن آياته العظام

دلَّ التَّعبيرُ بنون العَظَمةِ في قوله تعالى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمۡ﴾ على عَظَمة المُخوِّف، وهو اللّهُ سبحانَه الّذي له صفاتُ الجلالِ والعظمةِ والجبروتِ، وعلى عظمة ما يُخوِّفُ اللّهُ به مِنَ الآيات مِنَ القَحْط والجوع، حتّى رأوا الدُّخانَ بينَ السَّماء والأرض، وسألوا اللّهَ أن يكشفَهُ عنهم بقوله: ﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ١٢﴾ [الدّخان: 12].

غرضُ حَذْفِ مُتعلّق ﴿وَنُخَوِّفُهُمۡ﴾:

حُذِفَ مُتعلِّقُ الفعل ﴿وَنُخَوِّفُهُمۡ﴾؛ لإفادة العُمومِ، والمعنى: نخوِّفُهُم بمخاوف الدُّنيا والآخرة[3].

دلالةُ الفاءِ في قوله: ﴿فَمَا يَزِيدُهُمۡ﴾:

الإشارةُ إلى تَكرُّرِ طغيانِهم وتَجَدُّدِهِ بحسب تَكَرُّرِ التَّخويفِ

دلَّتِ الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَمَا يَزِيدُهُمۡ﴾ على ترَتُّبِ طغيانِهم على تخويفِهم؛ فكُلَّما تجدَّدَ التَّخويفُ؛ تجدَّدَ طُغيانُهم وعَظُمَ[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 148.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 385.
(3) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 11/ 540.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 1489.

بلاغةُ قَصْرِ الصِّفةِ على الموصوف:

توصيفُ قسوة قلوبِهم، وتماديهم في الطُّغيان والغَيِّ

في قوله تعالى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنٗا كَبِيرٗا﴾ قَصْرُ صفةٍ على موصوف، فالطُّغيانُ بمَنزلةِ الموصوفِ، والمقصودُ مِن هذا القَصْر ذِكرُ سببٍ آخَر في أنَّه تعالى ما أظهرَ المُعجزاتِ الَّتي اقترحوها؛ وذلك لأنَّ هؤلاء خوِّفوا بمخاوف الدُّنيا والآخرة، وبشجرة الزَّقّوم، فما زادَهم هذا التَّخويفُ إلّا طُغيانًا كبيرًا، وذلك يدُلُّ على قسوة قلوبِهم وتَماديهم في الغيِّ والطُّغيان، وإذا كان الأمرُ كذلك؛ فَبِتقديرِ أن يُظهِرَ اللّه لَهم تلك المُعجزاتِ الّتي اقترحوها، ولم يَنتَفعوا بها، ولا يَزدادون إلّا تماديًا في الجهل والعِناد، وإذا كان كذلك؛ وجَبَ في الحِكمة ألّا يُظهِرَ اللّه لهم ما اقترَحوهُ مِنَ الآياتِ والمُعجزاتِ[1].

سِرُّ التَّعبير بجملة ﴿يَزِيدُهُمۡ﴾:

الإشــارةُ إلى الـزِّيـادة المكروهةِ، وهي زيادةُ الشَّيءِ مِن جنسه

عبَّرَ القرآنُ الكريمُ بالزّيادة في قوله تعالى: ﴿فَمَا يَزِيدُهُمۡ﴾ على أنَّ التَّخويفَ بالآيات الكونيَّةِ والابتلاءاتِ النَّفسيَّةِ والجسديَّةِ لا يزيدُهم إلّا عِنادًا وعتوًّا وتجاوزًا، وكلُّ ذلك مِنَ الطُّغيان؛ لذلك ناسبَ التَّعبيرَ بالزّيادة الَّتي تدُلُّ على زيادة الشَّيءِ مِن جنسه، وهذا مِنَ الزّيادةِ المَكروهة، كما في قوله: ﴿مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ٤٢﴾ [فاطر: 42]، وقولِه: ﴿زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ﴾ [النَّحل: 88][2].

إيثارُ استعمالِ لفظِ ﴿طُغۡيَٰنٗا﴾ دون غيره:

شُمولُ مادَّة الطُّغيانِ للظُّلم والكُفر والغلوِّ في مُعاداة الحقِّ وأهله

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالطُّغيان في قوله تعالى: ﴿فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنٗا كَبِيرٗا﴾ دونَ غيرِه؛ لأنَّ أصلَ الطُّغيانِ يدُلُّ على مُجاوزة الحدِّ في العصيانِ[3]، وهو الاعتداءُ في حُدودِ الأشياءِ ومقاديرِها[4]،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 362.
(2) الرّاغب، المفردات: (زاد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طغى).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (طغى).

فكلُّ شَيءٍ زادَ وتَمادَى؛ فقد طَغَى[1]، ولتَعدُّد معانيه، حيثُ يَرِدُ في القرآنِ الكريم لمعانٍ أربعةٍ، وهي: الضَّلالُ، والعِصيانُ، والارتفاعُ، والكَثرَةُ، والظُّلمُ، ولِكُلِّ واحدٍ مِن هذه المعاني شواهدُ[2].

ولمّا كان الطُّغيانُ في هذا المَوضعِ هو تجاوزَهُمُ الحدودَ المُعتادَةَ في الكفرِ والفجور، وغلوَّهم في مُعاداة الحقّ ومُقاومةِ دعوة الرَّسولِ، ومحاولةَ إطفاءِ نورِ اللّه بأفواههم، وصدَّ النّاسِ عن كتاب اللّه المجيدِ؛ لذلك ناسبَ التَّعبيرُ بالطُّغيان دونَ غيرِهِ السياقَ.

براعةُ الاستعارةِ في وصف الطُّغيانِ بالكِبَرِ:

بيانُ عِظَمِ طغيانِهم وشِدَّتِه في نوعه وخطورته

تظهرُ بلاغةُ التَّعبيرِ بالاستعارة في وصف الطُّغيان بالكِبَرِ في قوله: ﴿إِلَّا طُغۡيَٰنٗا كَبِيرٗا﴾؛ لأنَّ الكبيرَ في الأصل هو عظيمُ الجُثَّةِ مِن نوعِه، وهو مَجازٌ في القَويِّ والشَّديد، وهو استعارةٌ أصليَّةٌ تصريحيَّةٌ مبنيَّةٌ على تشبيه المَعقول بالمَحسوس، الشَّديدُ القويُّ في نوع الطّغيان بعظيم الجُثَّة في الأفراد؛ لأنَّه مألوفٌ في أنَّه قويٌّ، وهو هنا بمعنى العظيم في الطُّغيان بقرينة المَقام، مثل تَسميةِ الذَّنبِ كبيرةً[3].

بلاغةُ التَّذييل بذِكْرِ الطُّغيان الكبير:

بيانُ ما جُبِلَ عليه المُشركون مِن جحودٍ وغِلٍّ

خُتِمَتِ الآيةُ الكريمةُ بقوله تعالى: ﴿إِلَّا طُغۡيَٰنٗا كَبِيرٗا﴾؛ وهو تذييلٌ قُصِدَ به بيانُ ما جُبِلَ عليه هؤلاء المشركون من جُحودٍ، وقَسوةِ قلبٍ، أي: ونخوِّفُ هؤلاء المُشركين بعذاب الدُّنيا، وبعذاب الآخرة، وبشجرة الزَّقّوم الَّتي طلعُها كأنَّه رؤوس الشَّياطين، فما يزيدُهُم هذا التَّخويفُ والتَّهديدُ إلّا طغيانًا مُتجاوِزًا في ضخامته وكِبَرِه كُلَّ حَدٍّ، وكُلَّ عقلٍ سليمٍ[4].

(1) الهرويّ، الغريبين: 4/ 1172.
(2) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النَّواظر: 414 - 415.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 149.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 385.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفتنة والابتلاء والاختبار:

الفتنةُ أشَدُّ الاختبار، والابتلاءُ تحمُّلُ المَشاق، والاختبارُ بهما وبالمَحبوب

الفتنةُ أشَدُّ الاختبار وأبلغُه، ويكون في الخير والشَّرِّ، ومنه قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾ [التّغابن: 15]، وقولُه تعالى: ﴿لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ١٦ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾ [الجنّ: 16 - 17]، فجعَلَ النِّعمةَ فتنةً؛ لأنَّه قَصدَ بها المبالغةَ في اختبار المُنعَم عليه بها، كالذَّهب إذا أُريدَ المبالغةُ في تَعرُّفِ حاله أُدخِلَ النّارَ، واللّهُ تعالى لا يَختبرُ العبدَ لتغيير حالِه في الخير والشَّرِّ، وإنَّما المرادُ بذلك شِدَّةُ التَّكليف[1].

أمّا الفرقُ بينَ الاختبار والابتلاء؛ فهو أنَّ الابتلاءَ عادةً لا يكونُ إلّا بتحميل المكاره والمَشاق[2]، والاختبارُ يكون بذلك وبفعل المَحبوب، يُقالُ: اختبرَه بالإنعام عليه، ولا يُقالُ: ابتلاه بذلك، ولا هو مُبتلًى بالنِّعمة، كما قد يُقالُ: إنَّه مُختبَرٌ بها، ويجوزُ أن يُقالَ: إنَّ الابتلاءَ يقتضي استخراجَ ما عند المُبتلَى مِنَ الطّاعة والمَعصية[3]، والاختبارُ يقتضي وقوعَ الخَبرِ بحالِه في ذلك، والخَبرُ العِلْمُ الَّذي يقعُ بكنهِ الشَّيءِ وحقيقتِه، فالفرقُ بينهما بيِّنٌ، والفتنةُ تأتي أيضًا بمعنى الابتلاء، كما في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣﴾ [العنكبوت: 1 - 3][4].

وممّا سبق: يتبيَّنُ أنَّ الفتنةَ أشَدُّ مِنَ الابتلاء، بل هي أثرٌ من آثارِه، قد يحدثُ أو لا يحدثُ، فالأموالُ والأولادُ والأزواجُ وغيرُ ذلك مِنَ النِّعم هي ابتلاءاتٌ قد تَؤولُ إلى فتنٍ؛ إذا اغترَّ بها المُنعَمُ عليه، وقد لا تكونُ كذلك؛ إذا أدّى الإنسانُ واجبَ الشُّكرِ للّه عليها؛ كما أنَّ

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 217.

(2) ابن منظور، لسان العرب (بلا)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 34.

(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 216.

(4) مجموعة مؤلفين، نضرة النَّعيم: 1/ 8.

الفتنةَ أخصُّ مِنَ الابتلاء؛ إذا كان الفاعلُ لها غيرَ اللّه، فهي دائمًا مِحَنٌ ومضارٌّ مُهلِكَةٌ، كالعذاب والإحراق والإضلال، أمّا الابتلاءُ فيكونُ بالخير، كما يكون بالشَّرِّ، سواء أكان الفاعلُ هو اللّهَ، أم كان مِنَ المَخلوقين[1].

الطُّغيان والعُدْوانُ:

الطُّغيانُ تجاوُزُ الحَدِّ، والعُدْوانُ تجاوُزُ المقدارِ المأمورِ به

الطُّغيانُ: هو تجاوُزُ الحَدِّ الَّذي كان عليه مِن قَبلُ، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ [الحاقّة: 11]، والعُدوانُ: تجاوُزُ المِقدارِ المأمورِ به بالانتهاءِ إليه والوقوفِ عندَه، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: 194][2].

(1) محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 153.
(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 584.

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ٦١﴾ [الإسراء: 61]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقة بين إحاطة قُدرة الله، وتأبّي إبليسَ عنِ السُّجود لآدمَ

لمّا ذكرَ اللّهُ تعالى في الآياتِ السّابقة عنادَ المشركين وتصلُّبَهم في قبول دَعوتِه بما اقترحوه مِنَ الآياتِ الخارقةِ للعادة، كجعل جبلِ الصَّفا ذهبًا، وتفجيرِ الأنهارِ في مكَّةَ، ونحوِ ذلك، ممّا جعلَ رسولَ اللّهِ ﷺ في مِحْنةٍ عظيمةٍ، وحُزْنٍ شديدٍ على قومه لِمعاندتِهم ومُعارضتِهم؛ بيَّنَ في هذه الآية أنَّ حالَ الأنبياءِ مع أقوامِهم كحالِك مع قومِك، وأوَّلُ الأنبياءِ آدمُ عليه السلام، لقي مِحنةً شَديدةً من إبليس - لعنَه اللّهُ - لِكِبْرِه وحَسَدِه.

ومنها أيضًا أنَّ اللّهَ تعالى لمّا وصفَ الكافرينَ بقولِه: ﴿فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنٗا كَبِيرٗا﴾؛ بيَّنَ ما هو السَّبَبُ لحُصولِ هذا الطُّغيانِ، وهو إبليسُ وعداوتُه لبني آدمَ، ممثَّلةً في آدمَ عليه السلام، فلأَجلِ هذا المَقصودِ ذكَرَ اللّهُ تعالى قصَّةَ إبليسَ وآدمَ[1].

ولمّا ذَكَرَ القرآنُ الشِّركَ والمُشرِكين، وناقشَهم، وألزمَهُمُ الحُجَّةَ؛ أخذَ يُبَيِّنُ لهم أصلَ الدّاء، والسَّببَ الحقيقيَّ لعلَّهُم يتّعظون، وهو أنَّ إبليسَ اللَّعينَ أخذَ على عاتقه إغواءَهم والوسوسةَ لهُم مع بيان مَوقفِه من آدمَ أبي البشر[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسۡجُدُواْ﴾: (سجد) أصلٌ مُطَّرِدٌ يدُلُّ على تطامُنٍ وذُلٍّ، يُقالُ: سَجَدَ؛ إذا تَطامَنَ، وكُلُّ ما ذلَّ؛ فَقَد سَجَدَ، وأسجَدَ الرَّجلُ؛ إذا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 365، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 149.
(2) حجازيّ، التّفسير الواضح: 2/ 383.

طأطأَ رأسَهُ وانحَنى، وسَجَدَ: إذا وضَعَ جَبهتَهُ بالأرضِ[1]، وجعل ذلك عبارةً عنِ التَّذلُّلِ للّه وعبادته، وهو عامٌّ في الإنسان، والحيوانات، والجمادات، والمَساجِدُ: السُّجودُ ومَواضِعُه مِنَ الجَسَدِ والأرضِ، والواحِدُ: مَسجِدٌ[2]، والإسجادُ: إدامةُ النَّظرِ مَعَ سُكون[3]، والمقصودُ بالسُّجود في الآية: هيئةٌ خاصَّةٌ لإلقاءِ المَرءِ نَفسَهُ على الأرضِ، يُقصَدُ منها الإفراطُ في التَّعظيمِ، وأمّا سُجودُ المَلائكة؛ فهو تَمثيلٌ لحالَةٍ فيهم، تَدُلُّ على تعظيم[4].

2) ﴿إِبۡلِيسَ﴾: (بلس) أصلٌ يدلّ على اليأس، يُقالُ: أبلَسَ؛ إذا يَئِسَ[5]، والإبلاسُ: الحُزنُ المُعترِضُ من شِدَّةِ اليأسِ[6]، وأبلَسَ الرَّجلُ: قُطِعَ بِه، وأبلَسَ: سَكَتَ، وأبلَسَ من رَحمَةِ اللّه، أي: يَئِسَ ونَدِمَ، وإبليس - لَعَنَهُ اللّه - مُشتَقٌّ منهُ؛ لأنَّه أُبلِسَ من رحمَةِ اللّه، كأنَّهُ يَئِسَ مِن رَحمَتِه تعالى[7]، وإبليسُ اسمُ الشَّيطانِ الأوَّلِ الَّذي هو مولِّدُ الشَّياطين، فكانَ إبليسُ لنَوعِ الشَّياطينِ والجنِّ بمَنزِلَةِ آدمَ لِنوعِ الإنسانِ[8].

3) ﴿طِينٗا﴾: أصلُ (طين): كلمةٌ واحدةٌ، وهيَ الطّينُ، وهو مَعروفٌ[9]: التُّرابُ والماءُ المُختَلِط، وقد يُسَمَّى بذلكَ، وإنْ زالَ عنه قوَّةُ الماءِ، قال تعالى: ﴿مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ ١١﴾ [الصّافّات: 11]، يُقالُ: طِنْتُ كذا، وطَيَّنْتُهُ[10]، وطينةُ الرَّجُلِ: خِلقَتُه وأَصلُه، وإنَّه ليابِسُ الطّينةِ؛ إذا لَم يَكُنْ وطيئًا سَهلًا[11]، والمُرادُ بالطّينِ في الآية: التُّرابُ المَخلوطُ بالماءِ.

❁ المَعنى الإجماليُّ:

ينبِّهُ ﷻ عبادَه على شِدَّة عداوةِ الشَّيطانِ وحِرصِه على إضلالِهم، فيقول في هذه الآية: واذكُرْ - أيُّها الرَّسول ﷺ- حين قُلْنا للملائكةِ: (اسجُدوا لآدَمَ سجودَ تحيَّةٍ وتكريمٍ، لا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سجد).
(2) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن سِيده، المُحكم: (سجد).
(3) ابن سِيده، المُحكم: (سجد).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 422، 9/ 52.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بلس).
(6) الرّاغب، المفردات: (بلس).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (بلس).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 424.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طين).
(10) الرّاغب، المفردات: (طين).
(11) ابن منظور، لسان العرب: (طين).

سجودَ عبادةٍ)، فامتثل الملائكةُ كُلُّهم، وسجدوا له إلّا إبليسَ، عصَى أمرَ اللّهِ، فلم يَسجُدْ حَسَدًا له وكِبرًا، مع رُؤيتِه لآياتِ اللّهِ وعَظَمتِه وقُدرته، فلم يَنفَعْه ما عَلِمَه، وراه، وقال إبليسُ مُخاطِبًا ربَّه باستِنكارٍ: (أتأمُرُني أن أسجُدَ لِمَن خلقتَهُ مِن طينٍ، مع أنَّني أفضلُ منه؟)(1).

إعلانُ إبليسَ تَمَرُّدَهُ وعصيانَهُ، وخروجَهُ على مولاه الَّذي لعنَه وأهانَه

وتُرشِدُ الآيةُ الكريمةُ إلى فسادِ هذا القياسِ الباطلِ الَّذي أوردَهُ إبليسُ، وإلى مشروعيةِ التَّذكيرِ بالأحداثِ الماضيةِ للتَّحذيرِ مِنَ الوقوعِ في الهلاكِ، وإلى ذَمِّ الكِبرِ، وأنَّه مِن شَرِّ الصِّفاتِ، وإلى استحقاقِ إبليسَ الطَّردَ مِن رحمةِ اللّه؛ لِتَمرُّدِه وعصيانِه، وخروجِه على طاعة خالقِه(2).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ عطفِ جملة: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا﴾ على ما قبلَها:

تسليَةُ النَّبيِّ ﷺ بِذِكرِ مُكابرة إبليسَ عن مُكابرة قومِه

قولُه تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ عطفٌ على جملة: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ﴾، أي: واذكرْ إذ قُلنا للملائكةِ، والمقصودُ من هذا العَطفِ: تذكيرُ النَّبيِّ ﷺ بما لَقيَ الأنبياءُ قبلَه مِن مُعاندة الأعداءِ والحَسَدَةِ من عهد آدمَ، حين حَسَدَهُ إبليسُ على فضلِه، وأنَّهم لا يَعْدَمونَ معَ ذلك مُعترِفينَ بفضلِهم، وهُم خيْرةُ زمانِهم، كما كانَتِ الملائكةُ نحو آدمَ عليه السلام، وأنَّ كِلا الفَريقَين في كُلِّ عصرٍ يمُتُّ إلى أحد الفَريقين الَّذي في عهد آدمَ، فلِفَريقِ الملائكةِ المؤمنون، ولِفَريقِ الشَّيطانِ الكافرون، كما أومَأ إليه قولُه تعالى: ﴿قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ﴾.

ومِن أغراض ذلك العطفِ تسليةُ النَّبيِّ ﷺ، فأمَرَ اللّهُ نبيَّهُ

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 653، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 286، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 93.

(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: 461، ومَجمع البحوث الإسلاميّة، التّفسير الوسيط: 5/ 778، والجزائريّ، أيسر التّفاسير: 3/ 211.

بأن يَذكرَ ذلك مَوعظةً للنّاس بحال الفَريقَين؛ ليَنظرَ العاقلُ أينَ يَضعُ نفسَهُ(1).

بلاغةُ الحَذْفِ في قوله: ﴿وَإِذۡ﴾:

التَّذكيرُ بأوَّلِ عصيانٍ، مُشابهةً لحال المُشركين في كلِّ زمانٍ

حَذفَ النَّظْمُ القرآنيُّ الفعلَ (اُذكُرْ) عاملَ النَّصبِ في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾، والتَّقدير: (واذكرْ ما وقَعَ مِنَ الطُّغيان مع رؤية الآياتِ في أوَّلِ هذا الكونِ، مِن إبليسَ الَّذي هو مِن أعلم الخلقِ بآياتِ اللّهِ وعَظَمتِه(2)، حين أَمرَه ربُّه بالسُّجود له، فعصاهُ، وأبى السُّجودَ له حَسدًا واستِكبارًا)(3)، ففي الحَذْفِ تذكيرٌ لِما جَرى منه تعالى مِنَ الأمر، ومِنَ الملائكةِ مِنَ الامتثالِ والطّاعةِ، ومِن إبليسَ مِنَ العصيانِ والاستِكبارِ(4)، بعد ذِكْرِ تمادي هؤلاء المُشركين في غيِّهم وارتدادِهم، عُتوًّا على ربِّهم بتخويفِه إيّاهم.

مُتعلَّقُ الظَّرف ﴿وَإِذۡ﴾ ودلالته:

الإشارةُ إلى وقت الأمرِ، وما كان فيه مِنَ الأحداث

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا﴾، أي: (اذكرْ يا محمّد ﷺ وقتَ قولِنا للملائكة: اسجدوا لآدمَ)(5)، ولكلِّ مُتلَقٍّ أن يضعَ في ذاكرتِه هذا المَشهدَ مِن أمر الملائكةِ بالسُّجود لآدمَ، وامتناعِ إبليسَ، وقد تقدَّم ذِكرُه في مَواضِعَ عديدةٍ، تحدَّثَت عن خَلقِ آدمَ وأمرِ السُّجودِ(6)، حيثُ ذُكِرَت هذه القِصَّةُ في القرآن سبعَ مرّاتٍ بأشكالٍ مُختلفةٍ، وصورٍ مُتبايِنةٍ تتناسَبُ معَ الغَرضِ العامِّ في السّورة، والغَرضِ الخاصِّ المُناسِبِ للسّابق واللّاحق مِنَ الآيات(7).

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 149.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 462.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 80.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 103.
(5) إسماعيل حقّي، روح البيان: 5/ 179.
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 469.
(7) حجازيّ، التّفسير الواضح: 2/ 383.

دلالةُ التَّعبيرِ بنون العَظَمةِ في قوله: ﴿قُلۡنَا﴾:

بيانُ عَظَمةِ القَولِ الصّادرِ مِنَ الرَّبِّ العظيم

أسند القَولُ إلى نون العَظَمةِ في قوله تعالى: ﴿قُلۡنَا﴾؛ لأنَّه مَقامٌ يُناسِبُ العَظَمَةَ؛ إذِ السُّجودُ للتَّعظيم، فلمّا أَمرَ به لغيرِهِ؛ أشارَ إلى كِبريائِهِ وعظَمَتِهِ في ذاتِهِ، وفيه إشارةٌ إلى زيادة المَهابةِ وإظهارِ الجلالةِ تناسُبًا مع أمر السّجودِ.

وذَكَرَ اللّه تعالى أَمرَه للملائكةِ بالسُّجود مُضيفًا الأمرَ إلى ذاتِه العَليَّة؛ بيانًا لمركز آدمَ، واللّه تعالى بذاته العَليَّة وجَّهَ الأمرَ إلى الملائكة بالسُّجود[1].

عِلَّةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾:

بيانُ عُلوِّ مكانةِ الملائكةِ، ودَفعُ توهُّمِ التَّقليلِ مِن شأنهم

دلَّ التَّعبيرُ بالملائكة على عُلوِّ شأنِهم ورِفْعَةِ مَقامِهم، ودفعًا لأيِّ توهُّم قد يَرِدُ في الخاطر من تقليل شأنِ الملائكةِ في مَوقفِها مع آدمَ، لمّا قال اللّه لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: 30]؛ فكان التّعبيرُ بذِكْر المَلائكةِ مُظهَرًا دَفْعًا لهذا التَّوهُّم.

دلالةُ فعلِ الأمر ﴿ٱسۡجُدُواْ﴾:

الإشـارةُ إلى عظيم شأنِ امتثالِ الأمرِ الإلهيِّ الأعلى

جاءَ فعلُ الأمرِ في قوله تعالى: ﴿ٱسۡجُدُواْ﴾ دالًّا على الوجوب؛ تكريمًا لآدمَ عليه السلام، والسُّجود وإن عُلِّقَ بآدمَ عليه السلام في قوله عز وجل: ﴿لِأٓدَمَ﴾، فهو للّه في حقيقة الأمر؛ لأنَّ المَقصودَ هو امتثالُ الأمر، وهذا يُغنينا عن صَرف السُّجودِ إلى معنًى آخَر يُخالفُ الظّاهرَ[2].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بـ اللّام في شِبه الجملة ﴿لِأٓدَمَ﴾:

عُلوُّ منزلَتِه ورِفْعَةُ مكانتِه عند الله تعالى

تعديةُ السُّجودِ في قوله تعالى: ﴿ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ باللّام دون (إلى) دالٌّ على أنَّهم كُلِّفوا بالسُّجود لذاته، وهو أصلُ دلالة لام التَّعليلِ إذا عُلِّقَ بمادَّة السُّجودِ؛ فليس هناكَ أعظمُ تكريمًا للإنسان

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4414.

(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/ 218.

بأصلِه وجنسِه مِن أمرِ اللّه تعالى ملائكتَهُ بالسُّجود لآدمَ عليه السلام؛ ليَعْلَمَ البَشَرُ عُلوَّ منزلتِهِم، ورِفعةَ مكانتِهِم عند اللّه، فيتجاوبوا معَ هذا التَّكريم، ويكونوا على مستوى حُسنِ الظَّنِّ بهم، والعملِ بما يُرضي اللّهَ مِن أفعالهم وأقوالهم، وقد تَكَرَّرَ الإخبارُ بهذا الأمرِ الإلهيِّ في بَدْءِ الخَليقةِ في القرآن سَبعَ مرّاتٍ؛ للتَّذكيرِ والعظة[1].

دلالةُ الفاء في قوله: ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾:

بيانُ سُرعةِ امتثالِ الملائكةِ لأمرِ اللّه تعالى

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ﴾ عاطِفَةٌ للتَّعقيبِ على ﴿قُلۡنَا﴾، والفاءُ تدُلُّ على التَّرتيبِ والتَّعقيب، ففي قولِه: ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ إشارةٌ إلى مُسارعةِ الملائكة إلى امتثال أمرِ اللّهِ تعالى لَهُم بالسُّجود، فَسُجودُهم كان في أعقاب أمرِ اللّه تعالى لهم مباشرةً، بدون تأخيرٍ أو تسويفٍ[2]، وفي بيانِ سُرعة الامتثال تعريضٌ بالإشارة إلى عاقبة أولئك الّذين عاندوا الحَقَّ، واقترحوا الآياتِ، وكذَّبوا الرَّسولَ صلى الله عليه وسلم؛ فإنَّهم داخلون في الذُّرِّيَّة الَّذين احتنكَهُم إبليسُ واتَّبعوه اتِّباعَ الظِّلِّ لذَويه دُخولًا أوَّليًّا، ومُشاركون له في العِناد أتمَّ مُشاركة[3]، وفيه إشارةٌ إلى مبادرة الملائكةِ لتعظيم آدمَ عليه السلام بما له مِن حَقٍّ عليهم في تعليمِهم الأسماءَ، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾ [البقرة: 33]؛ فعلَّمَهم ما لم يَعلَموه مِنَ الأسماء.

نوعُ الاستثناء ومعناه في قوله: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾:

بيانُ أنَّ إبليسَ ليس مِنَ الملائكة، في الأصلِ ولا في التَّصرُّف

الاستثناءُ في قوله: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ استثناءٌ مُنقطِعٌ على الصَّحيح[4]؛ لأنَّ إبليسَ ليس مِنَ الملائكة، بدليل قولِ اللّه تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ [الكهف: 50]؛ ولأنَّه مَخلوقٌ من

(1) الصّاويّ، حاشيته على تفسير الجلالين: 2/ 326، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4414.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 386.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 103، وملا حويش، بيان المعاني: 2/ 525.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 71.

نارٍ، والملائكة مخلوقون مِن نورٍ، وأمّا دخولُهُ في الأمر؛ فلأنَّه قد أُمِرَ بالسُّجود معهم، فغُلِّبوا عليه تغليبَ الرِّجالِ على المَرأة، في قول القائلِ: خرجوا إلّا فلانة[1]، أو لأنَّه لّما كان يعملُ بعمل الملائكةِ في الظّاهر؛ كان الأمرُ شاملًا له.

وعلى كلٍّ؛ فهو مأمورٌ بالسُّجود قَطعًا، بدليل قولِ اللّه تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ﴾ [الأعراف: 12].

سِرُّ إيثارِ لفظ ﴿إِبۡلِيسَ﴾ دونَ الشَّيطان:

وصفُ الشَّيطانِ يُطلَقُ على كلِّ مَن تَعدَّى أذاه إلى غيره

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بلفظ ﴿إِبۡلِيسَ﴾ في سياق الامتناع عنِ السُّجود في المَواضِعِ السَّبعةِ الواردةِ في القرآن الكريم، بدءًا مِن سورة البقرة: [الآية: 34]، وسورةِ الأعراف: [الآية: 11]، والحِجر: [الآية: 31]، والإسراء: [الآية: 61]، والكهف: [الآية: 50]، وطه: [الآية: 116]، وسورة ص [الآية: 74]، ولم يستعملْ لفظَ (الشّيطان)؛ لوجود فَرْقٍ بينَهما، فإبليسُ في مَواطِنِ السُّجودِ لم يَتعدَّ أذاه إلى غيرِه، بل اقتصرَ على نفسِه، وكان العِقابُ له باللَّعنِ والطَّردِ إلى يوم القيامة؛ لأنَّ أذاه قاصِرٌ عليه، لكن لّما تعدَّى الأذى منه إلى آدمَ وزوجِه بإغوائِهما مِنَ الأكلِ مِنَ الشَّجرة، وكانَتِ النَّتيجةُ خروجَهما مِنَ الجنَّة؛ عبَّرَ القرآنُ عن ذلك الفعل بوصف الشَّيطانِ، فقال: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [البقرة: 36]، ولم يقُلْ: (فأزلَّهُما إبليسُ)، ولذلك فوَصْفُ الشَّيطانِ يُطلَقُ على كلِّ مَن تعدَّى أذاه إلى غيرِهِ مِنَ الإنس أو الجنِّ.

دلالةُ فصل قوله: ﴿قَالَ ءَأَسۡجُدُ﴾:

عدمُ سجودِ إبليسَ عصيانٌ لأمرِ اللهِ، ناشِئٌ عن جَهْلِه وغُرورِه

فُصِلَت جملةُ: ﴿قَالَ ءَأَسۡجُدُ﴾ عمّا قبلَها؛ لأنَّها مُستأنَفَةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ استثناءَ إبليسَ مِن حُكمِ السُّجود لم يُفِدْ أكثرَ مِن عدمِ السُّجود، وهذا يُثيرُ في نفسِ السّامِعِ أن يسألَ عن سببِ التَّخلُّفِ عن

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 16/ 157.

هذا الحُكم منه، فيُجابُ بما صَدَرَ منه حينَ الاتِّصافِ بعَدمِ السُّجودِ أنَّه عِصيانٌ لأمرِ اللّهِ، ناشِئٌ عن جَهْلِه وغُرورِه[1].

دلالةُ الاستفهامِ الإنكاريِّ في قوله: ﴿ءَأَسۡجُدُ﴾:

إفادةُ النَّفي، وامتناعُ سجودِ إبليسَ لآدمَ؛ اعتراضٌ على أمر الله

الاستفهامُ في قوله: ﴿ءَأَسۡجُدُ﴾ إنكاريٌّ بمعنى إنكارِ الوقوعِ، أي: النَّفي، أي: لم أكُنْ لأفعلَ[2]، مُعترِضًا على ربِّه، كما قال سبحانَه عنه في آيةٍ أُخرى: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ٧٦﴾ [ص: 76][3]، وتتجلّى في هذا الاستفهام بلاغةُ التَّعبيرِ بالكناية في قوله تعالى: ﴿ءَأَسۡجُدُ﴾ كنايةً عنِ الامتناعِ الَّتي أوثِرَت؛ لِما تنطوي عليه من بيانِ كبريائِه[4].

دلالةُ التَّعبير بالاسم الموصول ﴿لِمَنۡ﴾ وصلتِه:

احتقارُ إبليسَ لآدمَ، وانتقاصُه لأصله الطّينيِّ

جاءَ التَّعبيرُ بالموصول في هذا المَوضِعِ في قوله تعالى: ﴿لِمَنۡ﴾ مِن جواب إبليسَ على سبيل الاحتقارِ لآدمَ ﵇، والانتقاص مِن قَدْرِه وأَصْلِه الَّذي خُلِقَ منه، فاعترضَ على ربِّه بتفضيل آدمَ ﵇، وأبى أن يَسجدَ له افتخارًا عليه واحتقارًا له[5]؛ والمعنى: (أأَسجد، وأنا العظيمُ الكبيرُ لهذا الضَّعيف الَّذي خلقتَهُ مِنَ الطّين؟ فكيف يَصحُّ للعالي أن يَسجدَ للدّاني!).

وجهُ الإيجازِ بالحذف في جملة: ﴿خَلَقۡتَ﴾:

بيانُ اعتراض إبليسَ على حكمة اللهِ من خَلقِه

في قوله: ﴿خَلَقۡتَ﴾ إيجازٌ بالحذف، حيثُ حذَفَ مفعولَ ﴿خَلَقۡتَ﴾، والأصلُ: (خَلَقْتَهُ[6] مِنَ الطّين، وأنا مَخلوقٌ مِنَ النّار)، كما جاء في الآية الأخرى: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ١٢﴾ [الأعراف: 12]، فكَفَرَ بِرَدِّ أمرِ اللّهِ عليه، حيثُ نسبَه إلى الجَور

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 150، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 386.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 36.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4414.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/ 218.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 85.
(6) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/ 218.

بتخيُّلِه أنَّه أفضلُ مِن آدمَ؛ لأنَّه مَخلوقٌ مِن نارٍ، وأنَّ النّارَ الَّتي هي أصلُهُ أكرمُ مِنَ الطّين الَّذي هو أصلُ آدمَ، وقد فاتَه أنَّ الطّينَ أنفعُ مِنَ النّار، ولَئِن سُلِّمَ غيرُ هذا؛ فالأجسامُ كُلُّها مِن جنسٍ واحدٍ، واللّه هو الَّذي أوجدَها مِنَ العدم، ويُفَضِّلُ بعضَها على بعضٍ بما يُحْدِثُ فيها[1].

دلالةُ التَّقييد بالحال ﴿طِينًا﴾:

الإيماءُ لعِلَّة الإنكارِ المدلول عليه بقول (أأسْجُدُ)

قولُه تعالى: ﴿طِينًا﴾ حالٌ مِن اسم الموصول[2]، أي: الَّذي خلقتَهُ في حال كونِه طينًا، فيُفيد معنى: أنَّك خلقتَهُ مِنَ الطّين، وإنَّما جعلَ جنسَ الطّين حالًا منه؛ للإشارة إلى غلبة العنصرِ التُّرابيِّ عليه؛ لأنَّ ذلك أشَدُّ في تحقيرِه في نظر إبليسَ[3].

سرُّ التَّعبيرِ بقوله: ﴿طِينًا﴾:

بيانُ مَظهرٍ من مظاهر استكبارِ إبليسَ على السُّجود لآدمَ

آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بقوله: ﴿طِينًا﴾؛ إيماءً لعلَّة الإنكارِ المدلول عليه بقوله: ﴿ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا﴾، فقولُه هذا مَبنيٌّ على كون أصلِه أشرفَ مِن أصل آدمَ ﷺ، كأنَّه قال: (كيفَ أسجدُ له، وسجودُ الأشرف للأدنى غيرُ مَعقول)[4].

فاعتقدَ إبليسُ - لعنَه اللّه - أنَّ النّارَ أكرمُ أصلًا مِنَ الطّين، وأنَّه أكرمُ ممَّن خُلِقَ مِنَ الطّين، وذهبَ عليه بجهلِه أنَّ الجواهرَ كُلَّها مِن جنسٍ واحدٍ، وأنَّ اللّه ﷻ يصرفُها بالإعراض كيف شاءَ، مع كَرَم جوهرِ الطّينِ بكثرة ما فيه مِنَ المَنافِع[5].

ويجوزُ أن يكونَ هذا القولُ صدرَ مِن إبليسَ اعتقادًا منه أنَّ

---

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 15/ 69.
(2) جازَ وقوعُ الحال جامدةً لدلالتها على الأصالة، كأنَّه قال: مُتأصِّلًا من طين، يُنظر: الخرّاط، المُجتبى من مُشكل إعراب القرآن: 2/ 621.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 150.
(4) المظهريّ، التَّفسير المظهريّ: 5/ 454، وزاده، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 5/ 402.
(5) الواحديّ، الوسيط في تفسير القرآن: 3/ 115.

آدمَ إلى هذه اللَّحظة كان طينًا، ولم يُخلَقْ بَعْدُ، وكأنَّه يُنكرُ أنَّ اللّهَ سوّاه، وعلى كلٍّ فهذا مَظهرٌ مِن مظاهرِ استكبارِ إبليسَ على السُّجود لآدمَ(1).

وممّا يُذكَرُ في سِرِّ التَّعبير أيضًا أن يُقالَ: إنَّ إبليسَ قال ذلك باعتبار تَغيُّرِ مَراحلِ الخَلْقِ لآدمَ ﷺ؛ فَذَكَرَ مرحلةً مِن مَراحلِ هذا الخَلقِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الشَّيطان وإبليس:

فرَّقَ الاستعمالُ القرآنيُّ بينهما، مِــن حـيـثُ الاشــتــقــاقُ والدَّلالةُ

يظنُّ البعضُ أنَّه لا يوجدُ فرقٌ في الاستعمال بينَ الشَّيطانِ وإبليسَ، لكن بالتَّتبُّعِ للاستعمال القرآنيِّ وُجِدَ فرقٌ بينهما:

أوَّلًا: مِن ناحية الاشتقاق، فإبليسُ مُشتَقٌّ مِنَ الإبلاسِ، وهو الإبعادُ مِنَ الخيرِ، أو اليأسُ مِن رحمةِ اللّهِ، وأصلُ (بلس): يَدُلُّ على اليأسِ(2)، أمّا الشَّيطانُ؛ فهو مُشتقٌّ مِن شَيَطَ، أو مِن شَطَنَ، أي: بَعُدَ عن رحمة اللّهِ تعالى.

وثانيًا: مِن ناحية الدَّلالة، فالقرآنُ الكريمُ استعملَ لفظَ إبليسَ في امتناعِه عنِ السُّجود لآدمَ، حيثُ وردَت هذه القصَّةُ في القرآن الكريم في مَواضِعَ مُتكاثرةٍ، وسببُ ذلك أنَّ شَرَّهُ مَقصورٌ على نفسه، ولم يتعدَّ لغيرِه؛ بدليل عقابِ اللّهِ له باللَّعن والطَّرد مِن رحمة اللّهِ، والآياتُ في هذا ظاهرةٌ واضحةٌ لا تحتاجُ إلى تمثيلٍ، أمّا عندما تعدَّى أذاهُ إلى غيرِه؛ فسمّاه القرآنُ شيطانًا، قال تعالى في فعل إغوائه لآدمَ وزوجِه وذرّيَّته من بعدِه: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ﴾ [البقرة: 36]، وقال في سورة الأعراف: ﴿فَوَسۡوَسَ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4414.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (بلس)، والواحديّ، الوسيط في تفسير القرآن: 2/ 367.

﴿لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [الأعراف: 20]، وقال في حَقِّ ذرّيَّة بني آدمَ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف: 27]، وعلى هذا، فالشَّيطانُ وصْفٌ يقعُ على كلِّ عاتٍ مُتمرِّدٍ مِنَ الجنِّ والإنس، بخلاف لفظ إبليسَ فهو عَلَمٌ على هذا المخلوق مِنَ الجنِّ الَّذي تمرَّدَ على السُّجود لآدمَ، وردَّ أمرَ اللّهِ عليه؛ لذا فالشَّيطانُ أعمُّ مِن إبليسَ.

﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء: 62]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تكملةُ اعتراضِ إبليسَ على أوامرِ ربِّه، بإساءة الأدبِ جِهارًا

لمّا ذَكرَ اللّهُ تعالى في الآية السّابقةِ في حديثِه عنِ المُشركين الَّذين اقترحوا على رسول اللّهِ الآياتِ، وبيَّنَ في ختامِها أنَّهم يَزدادون طغيانًا بقوله: ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾؛ ناسبَ في هذه الآية أن يذكرَ السَّببَ بقولِه عن إبليسَ: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1].

ومِنَ المُناسبة أن يُقالَ: لمّا أنكرَ إبليسُ أن يسجدَ لآدمَ في الآية السّابقةِ بقوله: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ تحقيرًا لشأن آدمَ؛ جاءَت هذه الآيةُ لبيان تطاولِ إبليسَ في الاعتراض والإنكار، كأنَّه يقولُ: (أخبرني عن حال هذا المُشاهَدِ المَحسوسِ المُكوَّنِ مِنَ الطّين، كيف يرتفعُ عليَّ، وأنا أفضلُ منه)[2].

ولمّا أخبرَ تعالى في الآية السّابقةِ بتكَبُّر إبليسَ وتمرُّدِه عنِ امتثال أمرِ ربِّه، ونكولِه عنِ السُّجود لآدمَ اجتراءً على الجناب الأعلى، مُعلِّلًا كلَّ ذلك بأنَّ أصلَه مِنَ الطِّين، ظنًّا منه أنَّ النّارَ خيرٌ مِنَ الطّين؛ بيَّنَ في هذه الآية سوءَ أدبِ إبليسَ وتماديه في الاعتراض على اللّه، مُسيئًا الأدبَ معه سبحانَه، مُستفهِمًا على سبيل الاستبعاد والاستنكار ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾: أصلُ (رأى) يدُلُّ على نَظَرٍ وإبصارٍ بعَينٍ أو

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 11/ 5.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 329/ 9.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 463، والشّيخ علوان، الفواتح الإلهيّة: 1/ 458.

بَصيرةٍ، فالرَّأيُ: ما يَراهُ الإنسانُ في الأمرِ، وجَمعُهُ الآراءُ[1]، والرُّؤيَةُ: إدراكُ المَرئيّ، والرَّأيُ: اعتقادُ النَّفسِ أحدَ النَّقيضين عن غلبة الظَّنّ، وعلى هذا قوله: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾ [آل عمران: 13]، والرُّؤيا: ما يُرى في المَنام[2]، والرُّؤيَةُ بالعَينِ تَتَعَدَّى إلى مَفعولٍ واحدٍ، وبمعنى العِلمِ تَتَعَدَّى إلى مَفعولَينِ، وللنَّحويّين في: ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾ الإخباريَّة خِلافٌ طويلٌ بالنِّسبة إلى الفاعل وتفيدُ التَّنبيهَ، وبين الَّتي بمعنى العِلمِ والظَّنّ، وهو تَركيبٌ شهيرُ الاستِعمالِ، يُفتَتَحُ بمثلِهِ الكلامُ الَّذي يُرادُ تحقيقُهُ والاهتِمامُ بِهِ[3]، والمقصودُ بالإراءة في الآية: كلمةٌ تُقالُ عندَ الاستِخبارِ، ومعناها: أَخبِرني عمّا رأيت.

2) ﴿كَرَّمْتَ﴾: أصلُ الكَرَم شَرَفُ الشَّيءِ، يُقالُ: كَرُمَ الشَّيءُ يَكرُمُ كَرَمًا، أي: شَرُفَ، ورَجُلٌ كَريمٌ، أي: شريفٌ ذو فَضائِلَ[4]، والإكرامُ والتَّكريمُ: أن يوصَل إلى الإنسان إكرامٌ، أي: نَفعٌ لا يَلْحَقُه فيه غَضاضَة، أو أن يَجعَلَ ما يوصَلُ إليه شيئًا كَريمًا، أي: شريفًا[5]، ويأتي التَّكريمُ بمعنَى: التَّفضيل، والكَرَمُ: الفَضلُ، ومنه قَوله تعالى: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾، أي: فضَّلتَ[6]، ومِن معاني التَّكريم أيضًا: التَّوقيرُ، والتَّنزيهُ، والتَّقديسُ، والتَّكثيرُ، والتَّعزيزُ[7]، والمُرادُ بالتَّكريمِ في الآية: جَعْلُه كَريمًا مُفضَّلًا، أي: نَفيسًا غيرَ مَبذولٍ ولا ذَليلٍ.

3) ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾: (حَنَكَ) أصلٌ واحدٌ، وهو عُضوٌ مِنَ الأعضاء، ثمَّ يُحمَلُ عليهِ ما يُقارِبُهُ مِن طَريقةِ الاشتِقاقِ، فأصلُ الحَنَكِ حَنَكُ الإنسانِ، أقصَى فَمِهِ، يُقالُ: حَنَّكتُ الصَّبيَّ؛ إذا مَضَغتَ التَّمرَ، ثمَّ دَلَّكتَهُ بِحَنَكِهِ، فهو مُحَنَّكٌ[8]، واحتَنَكَ الجرادُ الأرض: أتى على نَبتِها، وأكلَ ما عليها، والحَنَكُ: الجَماعَةُ مِنَ النّاسِ يَنتَجِعون بَلَدًا يَرعَونَهُ، يُقالُ: ما تَرك الأَحناكُ في أرضنا شَيئًا، يعني: الجَماعاتِ المارَّةَ[9]، وحَنَكَ الدّابَّةَ يَحنُكُها؛ إذا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رأى).
(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، والزّبيديّ، تاج العروس: (رأى).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 221، 15/ 150.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كرم).
(5) الرّاغب، المفردات: (كرم)، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 4/ 344.
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (كرم).
(7) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (كرم).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حنك).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (حنك).

رَبطَ حَبلًا في حَنَكِها الأسفَلِ، يَقودُها به حيثُ يشاءُ[1]، والمقصودُ بالاحتِناكِ في الآيةِ: إمّا أن يكونَ مأخوذًا مِن احتَنَكَ الجرادُ الأرضَ؛ إذا أتى على نَبتِها، أو مِن وضْعِ الرّاكِبِ اللِّجامَ في حَنَكِ الفَرَسِ ليَركَبَهُ ويُسَيِّرَهُ، والمرادُ به: جَلبُ ذُرّيَّةِ آدَمَ إلى مُرادِهِ مِنَ الإفسادِ والإغواءِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

عـداوةُ إبليسَ لآدمَ حَسَدًا على تكريمِ اللهِ له ولذُرِّيَّتِه

يُخبرُ اللّهُ عن إبليسَ لَمّا تبيَّنَ له تفضيلُ اللّهِ لآدمَ عليه، قال مُخاطِبًا ربَّه ﷻ بكُلِّ جُرأةٍ: أخبِرْني أهذا هو الّذي فضَّلْتَه عليَّ؟ فلِمَ تأمُرُني بالسُّجودِ له، وأنا خَيرٌ منه؟ وقالَ لَعَنَهُ اللّهُ: أُقسِمُ بكَ لَئِن أخَّرتَ إهلاكي إلى يومِ القيامةِ؛ لأستولِيَنَّ على ذُرّيَّةِ آدَمَ، فأُضِلَّنَّهم عن طريقِ الحَقِّ، وأقودَنَّهم إلى حيثُ أشاءُ مِن طُرُقِ الباطلِ، إلّا قليلًا منهم، وهُم عبادُك المُخلَصون.

وترشدُ الآيةُ إلى مَعرفة إبليسَ أنّه لا بدَّ أن يكونَ من بني آدمَ مَن يعاديه، ويَعصيه، وهُم عبادُ اللّه المُخلَصون المُتوكِّلون على اللّه، وإلى مبالغة إبليسَ في اللَّدد والعِناد، فلم يتوعَّدْ ذرّيَّةَ آدمَ، ويُهدِّدْهُم مدَّةَ حياتِه هو، بل إلى يوم القيامة، فإنْ كانَتِ البدايةُ مع آدمَ؛ فلن ينجو، ولن تنجو ذرّيَّتُه أيضًا[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علّةُ فصلِ جملة ﴿قَالَ﴾ عمّا قبلَها:

إعـادةُ إنكـارِ التَّفضيلِ ببلوغِ الغايةِ في إساءةِ الأدبِ

فُصِلَت جملةُ: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ﴾ عن جملة ﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ﴾[3]؛ لأنَّها بدلُ اشتمالٍ من جملة ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾؛ باعتبارِ ما تشتملُ عليه مِن احتقار آدمَ وتغليطِ الإرادةِ من تفضيله، فقد أُعيدَ إنكارُ

(1) ابن سِيده، المُحكم، وابن منظور، لسان العرب: (حنك).

(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: 461، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ - الخواطر: 14/ 8663.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 150.

التَّفضيلِ بقوله: ﴿أَرَءَيۡتَكَ﴾ المفيدِ الإنكارَ، وعلَّلَ الإنكارَ بإضمار المَكْرِ لذُرّيَّته؛ لأنَّه لمّا أخبرَ تعالى بتَكَبُّرِ إبليسَ، كان كأنَّه قيلَ: إنَّ هذه لوقاحَةٌ عظيمةٌ، واجتراءٌ على الجَناب الأعلى، فهل كان غيرُ هذا؟ فقيل: نعم! ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَكَ﴾[1]، فأتى بالغاية في إساءة الأدب.

سِرُّ تكرارِ فعل القولِ في ذِكرِ اعتراضِ إبليس:

الإيـذانُ بعدمِ اتِّصالِ الكلامِ الثّاني بالأوَّل، وعدمِ ابتنائِه عليه

في إعادة الفعلِ ﴿قَالَ﴾ بين كلامي اللَّعين إيذانٌ بعدم اتِّصال الثّاني بالأوَّل، وعدمِ ابتنائِه عليه، بل على غيره؛ اكتفاءً بما ذُكِرَ في مَواضِعَ أخرى مِنَ القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ١٥﴾ [الأعراف: 14 - 15]، فبعدَ الإنظارِ المُتَرتِّب على استِنظاره المُتفرِّعِ على الأمر بخروجه مِن بين المَلأ الأعلى باللَّعنِ المُؤبَّد، قالَ بعدَ طَردِهِ مِنَ المَحلِّ الأعلى ولعنه واستنظارِه وإنظارِه: ﴿أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا﴾؛ لذلك فُصِلَت ﴿قَالَ﴾ للإيذان بعدم اتِّصال الثّاني بالأوَّلِ، وعدمِ ابتنائِه عليه، بل على غيرِه[2].

معنى الاستفهامِ في قوله: ﴿أَرَءَيۡتَكَ﴾:

تهوينُ إبليسَ مِن شأن آدمَ عليه السلام

الهمزةُ في قوله: ﴿أَرَءَيۡتَكَ﴾ للاستفهام، وهو استفهامٌ قالَه على وجه التَّعجُّبِ وإنكار أمرِ الأَشرفِ على زعمِه بخِدمة الأَدون[3]، ومقصودُ إبليسَ من هذا الاستفهام: التَّهوينُ من شأن آدمَ عليه السلام، والتَّقليلُ من مَنزلته، ولم يُجبْهُ سبحانَه عن سؤاله؛ تحقيرًا له، وإهمالًا لشخصِه؛ بسبب اعتراضِه على أمر خالقِه عز وجل[4].

بلاغةُ المَجاز في قوله: ﴿أَرَءَيۡتَكَ﴾:

تحقيقُ مَضمونِ الاستفهامِ والطَّلبِ والاهتمام به

قولُه: ﴿أَرَءَيۡتَكَ﴾ تركيبٌ يُفتَتَحُ به الكلامُ الّذي يُرادُ تحقيقُه

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 463.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 183، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 103.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 15/ 70.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 366، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 387.

والاهتمامُ بِهِ، ومعناه: أخبرني عمّا رأيتَ، وهو مُركَّبٌ مِن هَمزة استفهام، و(رأى) الَّتي بمعنى (عَلِمَ)، و(تاءِ المُخاطَب) المُفرَدِ المَرفوعِ، ثُمّ يُزادُ على ضمير الخطابِ كافُ خطابٍ تُشبهُ ضميرَ الخطابِ المنصوبِ؛ لتأْكيدِ الخطابِ، بحسب المُخاطَب واحدًا أو مُتعدِّدًا، يُقالُ: أرَأيتَكَ وأرَأيتكم، كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ [الأنعام: 40](1).

فالإراءةُ هُنا بمعنى الإخبارِ، ففيه مجازٌ مُرسَلٌ، مِن باب إطلاقِ السَّببِ على المُسَبَّبِ؛ لأنَّ شأنَ مَن كان رائيًا لشيءٍ أن يُخبرَ به(2)، والعلاقةُ ما بين الرُّؤيةِ والإخبارِ مِنَ السَّببيَّة والمُسببيَّة، واللّازميَّة والمَلزوميَّة(3).

وأُطلِقَ الاستفهامُ، وأُريدَ منه الطَّلبُ، ففيه مجازٌ مُرسَلٌ على مَجاز، والمعنى: أخبرني عن هذا الَّذي كرَّمتَه عليَّ بأن أمرتَني بالسُّجود له، لِمَ كرَّمتَه عليَّ، وفضّلتَه بالخلافة والسُّجود، وأنا خيرٌ منه؛ لأنَّه خُلِقَ مِن طينٍ، وخُلقتُ مِن نارٍ(4)؟

سِرُّ اختيار التَّعبيرِ بالرُّؤيةِ في قوله: ﴿أَرَءَيۡتَكَ﴾:

الإراءةُ تنبيهُ المُخاطَب؛ ليستجمعَ ما يُخاطَبُ به

آثرَ السّياقُ الكريمُ التَّعبيرَ بقوله: ﴿أَرَءَيۡتَكَ﴾ دونَ غيرِها؛ لأنَّها تُطلَقُ على معانٍ عديدةٍ، منها: (عَرِّفني، أَخبِرني)، ويكونُ المعنى على لسان إبليسَ: أَخبِرني عن هذا الّذي كرَّمتَ عليَّ، ولِمَ كَرَّمتَهُ عَلَيَّ، وقد خَلَقتَني مِن نارٍ، وخَلقتَهُ مِن طينٍ، ويجوزُ أن يكونَ معنى أرأيتَ: (أتأمَّلْتَ) ونَحوُهُ على أنَّ المُخاطِبَ بها يُنَبِّهُ المُخاطَبَ؛ ليَستجمِعَ لِما يَنصُّهُ عليه بَعدُ(5).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 150.
(2) الصّاويّ، حاشيته على تفسير الجلالين: 2/ 326.
(3) الصّاويّ، حاشيته على تفسير الجلالين: 2/ 326، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 103.
(4) إسماعيل حقّي، روح البيان: 5/ 180.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 57.

دلالةُ الكاف بعد تاءِ الخطابِ:

تأكيدُ معنى الخطاب مُبالغة في التَّنبيه

هذه الكافُ في قوله: ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾ عندَ البصريّين تأكيدٌ لمعنى الخطابِ الَّذي تُفيدُه تاءُ الخطابِ الَّتي في محلِّ رفعٍ، وهو يُشبهُ التَّوكيدَ اللَّفظيَّ، وقال الفرّاءُ: "الكافُ ضميرُ نصبٍ، والتَّركيبُ: أرأيتَ نفسَكَ"[1]، فهي كافُ خطابٍ ومُبالغةٍ في التَّنبيه، كأنَّ المُخاطِبَ بها يُنبِّهُ المُخاطَبَ ليستجمعَ لِما يَنصُّه بعدُ[2].

عِلَّةُ حذفِ المَفعول الثّاني لقوله: ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾:

التَّساؤلُ عن علَّة أمرِ اللهِ، هو غايةُ الغرور والصَّلف

حُذِفَ المفعولُ الثّاني لقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾؛ لدلالة الصِّلة عليه، والمعنى: أخبرني عن هذا الَّذي كرَّمتَهُ عليَّ بأن أمَرتَني بالسُّجود له، لِمَ كرَّمتَهُ عليَّ[3]؟

نُكتةُ تكريرِ الخطابِ في هذه الآية بعدَ الخطابِ في سابقتِها:

الدَّلالةُ على أنَّ المُخاطَبَ به أمرٌ عظيمٌ

في تكرير الخطابِ هُنا في قوله: ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾ مُناسبةٌ حَسنةٌ، كنظيرِه في قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ في سورة الأنعام [الآية: 40]؛ لدلالته على أنَّ المُخاطَبَ به أمرٌ عظيمٌ، وهو هُنا كذلك؛ لأنَّ إبليسَ - لعنَهُ اللّهُ - ضَمِنَ بقولِه: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ إغواءَ أكثرِهم[4].

سِرُّ التَّعبير باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾:

إرادةُ إبليسَ تحقيرَ آدمَ عليه السلام وإهانتَهُ

عبَّرَ القرآنُ باسم الإشارةِ ﴿هَٰذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ دون (ذلك)؛ لأنَّه مُستعمَلٌ في التَّحقير، كقول قوم إبراهيمَ: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: 36]، والمعنى: أخبرني عن هذا الَّذي كرَّمتَهُ عليَّ بلا وجهٍ[5]، فإبليسُ لعنادِه - أبعدَهُ اللّهُ -

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/ 142، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 150.
(2) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 3/ 483.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 183.
(4) الأنصاريّ، فتح الرّحمن: 331 - 332، والكرمانيّ، البرهان في متشابه القرآن، ص: 166.
(5) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/ 365، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 151.

قال: ﴿هَٰذَا﴾، ولم يَقُلْ: (ذلك)، بإشارة القُربِ إهانةً له مع إقرارِه بأنَّ اللّه كرَّمَه عليه(1).

غَرضُ حَذْفِ الاستفهامِ مع اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾:

الحَذفُ لغرضٍ بلاغيٍّ مِن فصيح البيان

أعربَ البعضُ قولَه: ﴿هَٰذَا﴾ على أنَّه مبتدأٌ محذوفٌ منه حرفُ الاستفهام، و﴿ٱلَّذِي﴾ مع صلتِه خَبَرٌ، تقديرُهُ: أخبرني أهذا الَّذي كرَّمتَ عليَّ؟ وذَلِكَ على وجه الاستِصغارِ والاستِحقارِ، وإنَّما حُذِفَ حرفُ الاستفهامِ مع اسمِ الإشارةِ؛ لأنَّ وجودَهُ فيما سَبَقَ من قوله: ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾ أغنى عن تكرارِهِ مرَّةً أخرى(2).

إيثارُ استعمالِ الفعلِ ﴿كَرَّمْتَ﴾:

استبعادُ تَوهُّمِ وجودِ فضلٍ لإبليسَ على آدمَ

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالتَّكريم دونَ التَّفضيل، كأنْ يُقالَ: (فضَّلْتَ)؛ لأنَّ التَّكريمَ فيه اعترافٌ بفضل آدمَ ﷺ على إبليسَ، وذلك إمّا من جهة الطّاعةِ من آدمَ، وعدمِها من إبليسَ، أو كان التَّكريمُ من ناحية النُّبوَّةِ، ولم يُعبِّرْ بالتَّفضيل خشيةَ أن يُتوهَّمَ وجودُ فضلٍ لإبليسَ؛ لأنَّ مادَّةَ التَّفضيلِ تشيرُ إلى ذلك في بنيتِها؛ لذلك كان التَّعبيرُ بالتَّكريم هو الأنسبَ؛ لأنَّ إبليسَ - لعنَه اللّهُ - أقرَّ بالفضيلة لآدمَ والإكرامِ له، إمّا من جهة الطّاعةِ له، وإمّا من جهة النُّبوَّةِ الَّتي أعطاها اللّهُ له، وإنِ ادّعى لنفسِه الفضيلةَ عليه من جهة الخِلْقَةِ بأنَّه ناريٌّ، وهو طينيٌّ؛ لأنَّ التَّكريمَ منظورٌ فيه إلى تكريمِه في ذاتِه، والتَّفضيلَ منظورٌ فيه إلى تشريفِه فوقَ غيرِه، على أنَّه فضَّلَه عليه بالعقل الَّذي به استصلاحُ شؤونِه، ودفعُ الأضرارِ عنه، وبأنواع المَعارف والعلوم(3)، وفيه دلالةٌ على التَّمهيد لتكريم بني آدمَ، قال تعالى: ﴿۞وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: 70].

(1) أطفيش، تيسير التَّفسير: 8/ 209.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 11/ 6.

(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنَّة: 7/ 75، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 166، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4414.

دلالةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿عَلَيَّ﴾:

دلَّ التَّعبيرُ بـ ﴿عَلَيَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ﴾ على أنَّ هذا التَّكريمَ لآدمَ مصدرُهُ عُلويٌّ، وهذا يدُلُّ على عُلوِّ مَنزلةِ آدمَ وتحقيرِ إبليسَ.

بلاغةُ حذفِ المفعول في ﴿كَرَّمۡتَ﴾:

استكبارُ إبليسَ عنِ النُّطق باسم آدمَ عليه السلام تعالٍ وغرورٌ

حَذَفَ مفعولَ الفعلِ مِن قولِه: ﴿كَرَّمۡتَ﴾، والتَّقدير: (لِمَ كرَّمتَ آدمَ عليَّ، وأنّا خيرٌ منه؟) فاختصرَ الكلامَ بحذفِ ذلك لكونِه مَعلومًا[1]، وأيضًا لأنَّ نَفْسَ اللَّعينِ لا تُساعدُهُ على ذِكْرِهِ؛ لئلّا يقعَ التَّكريمُ على الضَّمير العائدِ على آدمَ لفظًا، واللَّعينُ ينفيه معنًى، وفي هذا الحَذْف ما فيه مِنَ التَّناسُقِ بينَ الحَذفِ وبينَ الإنكارِ الَّذي أعلنَه إبليسُ[2].

عِلَّةُ فصلِ الجملة القَسَميَّةِ عمّا قبلَها:

استبعادُ أن يجترئَ أحدٌ هذه الجَراءةَ على المَلِك الأعلى

فُصِلَت جملةُ القَسَم: ﴿لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؛ لأنَّها مُستأنَفةٌ استِئنافًا ابتدائيًّا، وهي جُملةٌ قَسَميَّةٌ[3]، فلمّا كان اعتراضُ إبليسَ وإنكارُه باستفهامِه، وقوله: بِمَ كرَّمتَهُ عليَّ معَ ضعفِه وقوَّتي؟ فكأنَّه قيلَ: لقد أتى بالغايةِ في إساءة الأدبِ، فما كان بعدَ هذا؟ فقيلَ: قالَ مُقسِمًا؛ لأجل استِبعادِ أن يجترئَ أحدٌ هذه الجَراءةَ على المَلِك الأعلى: ﴿لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ﴾[4].

غرضُ حَذفِ القَسَمِ والاكتفاء باللّام الموطِّئة له:

التَّوكيدُ والتَّقرير في الإغواء، وتصويرُ طريقتِه وأسلوبِه في الإضلال

اللّامُ في قولِه: ﴿لَئِنۡ﴾ موطِّئةٌ للقَسَم المَحذوف مع الشَّرط، وجوابُهُ قولِه: ﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾، وجوابُ الشَّرطِ محذوفٌ؛ لدلالة جوابِ القَسَمِ عليه، ونلمحُ هُنا أنَّ القَسَمَ مَحذوفٌ، وقد أشارَت إليه

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 677، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/ 365.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 15/ 158، والمطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/ 218 - 219.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 151.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 463.

اللّامُ الموطِّئةُ؛ لأنَّ الحذفَ هُنا أبلغُ مِنَ الذِّكر؛ لأنَّ سياقَ الكلامِ، وما توعَّدَ به إبليسُ ذرّيَّةَ آدمَ، يقتضي الإيجازَ، فهنا مبادرةٌ إلى المطلوب مِن جانب إبليسَ، وكأنَّه - لعنَه اللّهُ - تركَ لفظَ القَسَم مُبادرةً إلى مطلوبِه وغرضِه ومَقصودِه مِن إغواء بني آدمَ، ولكنَّه ضَمَّ إلى هذا القصدِ القَسَمَ المُقدَّرَ؛ ليكونَ كلامُه قد جَمَعَ بينَ التَّأكيدِ على العزم في الإغواء مع التَّصوير لطريقتِه وأسلوبِه في الإضلال، فوراءَ هذا القَسَمِ المُقدَّرِ نَفسٌ انطوت على حقدٍ وعَداوةٍ لا يعلمُ قدرَهُما إلّا اللّهُ ﷻ، وهو ما جاء مُنسجِمًا مع القَسَمِ المُقدَّرِ الذِّكر في الآية، ومِن هنا كان الحذفُ أبلغَ مِنَ الذِّكر؛ إذ عبَّرَ أدقَّ تعبيرٍ عن نيَّةِ إبليسَ وعزمِه على الإضلال والخداع لبني آدمَ، حتَّى يصرفَهُم عن طريق الحَقِّ والهُدى، فَغَرَضُ القَسَمِ التَّوكيدُ والتَّقريرُ، وهذا الكلامُ صدرَ مِن إبليسَ إعرابًا عمّا في ضميره[1].

دلالةُ الجملةِ الفعليَّةِ ﴿أَخَّرۡتَنِ﴾:

بيانُ أنَّ الإخبارَ هُنا مُستعمَلٌ في معنى الدُّعاء

هذه الجملةُ الفعليَّةُ بعد الشَّرطِ مُستعملَةٌ في الدُّعاء، فهو في معنى قوله: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٧٩﴾ [ص: 79][2]، وفي هذه الجملة تتجلّى بلاغةُ الإيجاز بالحذف أيضًا؛ لأنَّ تقديرَ الكلام: (أخَّرتَ مَوتي إلى يوم القيامة)[3]، ولا يخفى موقعُهُ في النَّفس، فالحَذفُ مِن أساليب تشويقِ المُتلقّي في الكلام.

سِرُّ التَّعبيرِ بالتَّأخير دونَ الإمهال:

الإشـارةُ إلى مُعاقبة إبليسَ، على ما بَدَرَ منه، مِنَ الإغواء والإضلال

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالتَّأخير في قوله تعالى: ﴿لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ﴾ دونَ أن يُقالَ: (لَئِن أمهلتَني)؛ لأنَّه يختلفُ عنِ الإمهال، فالتَّأخيرُ يقابلُه التَّقديمُ، قال تعالى: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ١٣﴾ [القيامة: 13]، وفي هذا إشارةٌ إلى معاقبة إبليسَ على ما تقدَّمَ منه مِن

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 183، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 151.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 151.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/ 219.

الامتناع عنِ السُّجود لآدمَ، وما تأخَّرَ مِن إغوائِه لبني آدمَ، ولأنَّ التَّأخيرَ مُتعلِّقٌ بالآجال، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٤﴾ [الأعراف: 34] بخلاف الإمهالِ، فإنَّه يحملُ معنى التُّؤَدَةِ والسُّكونِ، يُقالُ: مَهَلَ في فعلِه، وعَمِلَ في مُهْلَةٍ، وهذا المعنى غيرُ مُرادٍ في هذا السّياق، فالمَقامُ مَقامُ ذمٍّ لإبليسَ[1].

وفيه إشارةٌ إلى أنَّه سيبقى مُغويًا وضالًّا إلى آخرِ بني آدمَ، وبناءً على هذا فذُرّيَّةُ آدمَ تتقدَّمُهُ، وتَفنى، ويكون هو الآخر بعدَها، فلا يوجَدُ لذُرّيَّة آدمَ وجودٌ بعدَهُ.

دلالةُ تعدّي فعلِ التَّأخير بـ ﴿إِلَىٰ﴾:

تعدَّى فعلُ التَّأخير في قوله تعالى: ﴿لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ بـ ﴿إِلَىٰ﴾ دون اللّام؛ لأنَّ ﴿إِلَىٰ﴾ تُفيدُ الغايةَ بخلاف اللّام، فإنَّها تفيدُ معنى الاختصاص، ومرادُ إبليسَ ليس اختصاصَ اليوم في حدِّ ذاته، بل غايتُهُ إضلالُ ذرّيَّةِ آدمَ إلى آخر الزَّمنِ الَّذي به تنتهي الدُّنيا؛ لذلك كانَ التَّعبيرُ بـ ﴿إِلَىٰ﴾ هو المناسبَ مع غايتِه.

غـايـةُ إبـلـيـسَ إضلالُ ذرّيّةِ آدمَ إلى آخِـرِ الزَّمنِ الَّـذي به تنتهي الدُّنيا

سرُّ التَّعبيرِ بيوم القيامة:

عبَّرَ القرآنُ الكريمُ بيوم القيامةِ في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ في مَطلَبِ إبليسَ بالتَّأخير إلى يوم القيامةِ الَّذي هو نهاية الدُّنيا وبدايةُ الآخرة، وهو يومُ قيامِ السّاعةِ الَّتي تنتهي بقيامها ظروفُ الحياةِ الدُّنيا كلِّها، وهذا يدُلُّ على أنّ نبأَ قيامِ السّاعةِ، ونبأَ البعثِ للحساب، وفصلِ القضاء، وتنفيذِ الجزاء، قد كان مَعلومًا للجنِّ؛ إذ إبليسُ واحدٌ منهم، وكان مَعلومًا حتمًا للملائكة، وأنّ الجنّ كانوا مَوضوعين مَوضِعَ الامتحانِ في الحياة الدُّنيا قبلَ الإنس.

نبأُ قيامِ السّاعةِ مَعلومٌ للجِنِّ، وامـتـحـانُـهـم في الـدُّنـيـا قبلَ الإنس

براعةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ﴾:

تتجلّى بلاغةُ تصويرِ النَّظمِ القرآنيِّ في تعبيره بـ﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ﴾

تـمـثـيـلُ إغـواءِ إبـلـيـسَ ذرّيَّـةَ آدمَ بمثلِ تسييرِ الدّابَّةِ واقتيادِها

---

(1) الرّاغب، المفردات: (مهل).

الَّذي يدُلُّ معناه على وضع الرّاكِبِ اللِّجامَ في حَنَك الفرسِ ليركبَه ويُسَيِّرَه[1]، والاحتناكُ هُنا تمثيلٌ لِجَلْبِ ذرّيَّةِ آدمَ إلى مُرادِه مِنَ الإفسادِ والإغواءِ، بتسييرِ الفَرَسِ على حَسَب ما يُريدُ راكبُهُ[2]، بطريق الاستعارةِ المَكنيَّةِ؛ إذ شبَّهَ ضِعافَ الإيمانِ في استيلائِه عليهم وإغرائِه إيّاهم على الكفر والمعاصي بالمَطايا الَّتي يسيطرُ عليها راكبوها، ويوجهونها كيف شاؤوا، ثُمَّ حَذَفَ المشبَّهَ به، ورمزَ له بخاصَّةٍ مِن خواصِّه، وهي وضْعُ اللُّجُمِ في أحناكِها للتَّمكُّنِ مِنَ السَّيطرة عليها، وسلبِها حريَّةَ الحركةِ[3]، فالمعنى: لأقودنَّهم إلى المَعاصي كما تُقادُ الدّابّةُ بحَنكِها، غيرَ مُمتَنعةٍ على قائدِها المُتصرِّفِ فيها بثني العَنان تارةً، وبكبح اللِّجامِ مرَّةً[4].

سرُّ التَّعبيرِ بقوله: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾:

تصويرُ شِدَّة التَّمكُّن والاستيلاء على إرادة الإنسانِ

آثرَ الذِّكرُ الحكيمُ التَّعبيرَ بالاحتناك في قوله تعالى: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾ دونَ غيرِه مِنَ الألفاظ المُقاربة؛ لأنَّه يدُلُّ على شِدَّة التَّمكُّن والاستيلاء، ولأنَّ في هذه العبارة الَّتي اختيرَت لوسوسة الشَّيطان واستيلائه على إرادة الإنسانِ بجامع الانقيادِ والإتباعِ في كلٍّ منهما، وقعًا شديدًا لإبرازِهِ بصورة مُخجلةٍ مُضحكةٍ مُؤلِمةٍ، وهي تُظهِرُ الإنسانَ الَّذي كرَّمَه اللّٰهُ تعالى وخلقَه بأحسن صورةٍ، وهو يعبثُ به الشَّيطانُ، ويجرُّه إلى الرَّدى، كما تُجَرُّ الدّابَّةُ مِن حَنَكِها إلى حيثُ مَهلِكُها، صاغرًا ذليلًا مُطيعًا مُحتَقَرًا بين يدي عدوِّهِ اللَّدودِ إبليس، الَّذي ناجزَه العداوةَ، وقطعَ وعدًا بأن ينقلَه خطوةً فخطوةً، حتّى يوصِلَ مَن يستجيبُ له مِن بني آدمَ إلى دَرَكَةِ الكافرين المُجرمين، الَّذين يستحقّون العذابَ الأبديّ الخالدَ في الجحيم.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (حنك).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 151.

(3) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/ 219.

(4) جعفر شرف الدّين، الموسوعة القرآنيّة خصائص السّور: 5/ 108.

بلاغةُ الإيجازِ في قوله: ﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ﴾:

تنويعُ الدَّلالةِ، وتوسيعُ المعنى وتكثيرُه

جاءَت هذه الكلمةُ ﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ﴾ في جواب القسم بإيجازها، مُحتمِلةً لأكثر مِن معنى حول الإغواء والإضلالِ مِن جانب إبليسَ - لعنَه اللّه - فقد يكونُ المعنى: (لأُلْجِمنَّهم بإغوائي وحبائلي، كما يُلجَمُ حَنَكُ الدّابَّةِ بالرَّسَن).

أو معناه: (لأَستأصِلنَّ ذرّيّتَه، ولأَستَقصيَنَّ إهلاكَهم بالإضلال)، من قولهم: احتنكَ الجرادُ الأرضَ؛ إذا أهلكَ نباتَها، وجَرَدَ ما عليها، واحتنكَ فلانٌ مالَ فلانٍ، إذا أخذَه وأكلَه[1].

وقال بعضُهم: هو مِن حَنَّكتَ الصَّبيَّ وأحنكتَه؛ إذا جعلتَ في حَنكِه حلاوةً، ويكونُ المعنى: لأُلقيَنَّ في أحناكِهم حلاوةَ المعاصي، حتّى يستلذّوها، ويرغبوا فيها، ويطلبوها[2].

وقد جاءَت لفظة ﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ﴾؛ لتُعبِّرَ عن كثيرٍ مِنَ المعاني، وهذه ميزةٌ مِن ميزاتِ الاستعارةِ - كما ذكر علماءُ البلاغة - إذ تُعطيك الكثيرَ مِنَ المعاني باليسير مِنَ اللَّفظ، حتَّى تُخرجَ مِنَ الصَّدَفَةِ الواحدةِ عِدَّةً مِنَ الدُّرر، وتجني مِنَ الغُصن الواحدِ أنواعًا مِنَ الثَّمَر[3].

لطافةُ تَعَدُّدِ المُؤَكِّداتِ في لفظ ﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ﴾:

الدَّلالةُ على شِدَّة العزمِ على الإغواء والإضلال وقوَّة التَّمكُّنِ منه

جاءَ فعلُ الاحتناك مُؤكَّدًا باللّام الموطِّئة للقَسَم، وبالقَسَم، ونونِ التَّوكيد الثَّقيلة الدّالَّة على أعلى درجات العزم على الإغواء والإضلال، وقد جَزَمَ إبليسُ بالاحتناك لعلمِه من قول المَلائكة: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا﴾ [البقرة: 30]، ولم يُنكِر اللّه عليهم أنَّهم يُفسدون، ويَسفكون، أو لِعِلم الملائكة وإخبارِهم له بذلك، أو لكونه لمّا رآهُ قبلَ

(1) الرّاغب، المفردات: (حنك)، والبغويّ، معالم التَّنزيل: 3/ 142.
(2) الكرمانيّ، غرائب التّفسير: 1/ 633.
(3) الجرجانيّ، أسرار البلاغة، ص: 43.

نفخ الرّوحِ فيه أجوفَ؛ قالَ: إنَّه لا يتمالكُ، فيكون يعصي، كالجنّ على أنَّهم قبلَ إبليسَ، وعلمَ أنَّه يأكلُ، وبعد نفخِ الرّوحِ عَلِمَ ذلك أيضًا[1]، فقال: بَنو هذا في الضَّعف مثلُه[2].

دلالةُ اقتصار إغواء إبليسَ على ذرّيَّة آدمَ:

مَقالتُهُ واقعةٌ بعد أن أغوى آدمَ، وأُخرِجَ مِنَ الجنَّةِ، وشفى غليلَه منه

إنَّما اقتصرَ على إغواءِ ذرّيَّةِ آدمَ في قول اللّه حكايةً عنه: ﴿ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾، ولم يذكرْ إغواءَ آدمَ، وهو أولى بالذِّكر؛ إذ آدمُ هو أصلُ عَداوةِ الشَّيطانِ النّاشئةِ عنِ الحَسدِ مِن تفضيلِه عليه؛ لأنَّ هذا الكلامَ قالَهُ بعد أنْ أغوى آدمَ، وأُخرِجَ مِنَ الجنَّة، فقد شفى غليلَهُ منه، وبقيَت العداوةُ مُسترسِلَةً في ذرّيَّة آدمَ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ﴾ [فاطر: 6][3].

سرُّ التَّعبيرِ بالذُّرّيَّةِ دونَ الأبناء:

الـذُّرّيَّةُ مَنظورٌ فيها إلى الخَلقِ والكثرةِ من أصلٍ واحدٍ

آثرَ السّياقُ الكريمُ التَّعبيرَ بالذُّرّيَّة دونَ الأبناءِ في قول اللّه حكايةً عن إبليسَ: ﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾؛ لوجود فرقٍ بينَهما، فالذُّرّيَّةُ تُطلَقُ على نسلِ الرَّجلِ وما توالدَ منه ومن أبنائِه وبناتِه، فهي تعمُّ الأبناءَ ذكورًا وإناثًا؛ بخلاف الابنِ فهو يُطلَقُ على كلِّ ما وُلِدَ ذكرًا، ويُطلَقُ على كلِّ ما ترتَّبَ على غيره بالسَّببيَّةِ أو التَّبعيَّةِ أو المُلازمَة أو المُشابهةِ، وبناءً على ذلك؛ فالذُّرّيَّةُ أعمُّ مِنَ الأبناء والأولاد؛ لأنَّ الذُّرّيَّةَ مَنظورٌ فيها إلى الخَلقِ والكثرةِ من أصلٍ واحدٍ، ويشمَلُ جميعَ النَّسل، بخلاف الأبناءِ والأولادِ؛ لذلك كانَ التَّعبيرُ بالذُّرّيَّة الَّذي يفيدُ العمومَ هو المناسبَ لعداوةِ إبليسَ مِن آدمَ وذرّيَّتِه؛ فيريد أن يدخلَ الجميعُ تحت غَوايته وإضلاله.

دلالةُ تغاير الجوابِ مع الشَّرط في الآية:

شـدّةُ تـمـرُّدِ إبليسَ، وعشقه للمعصية، أورداه المَهالكَ

مَن يقرأ قولَه تعالى: ﴿لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ

(1) أطفيش، تيسير التّفسير: 8/ 209.

(2) الهواريّ، تفسير كتاب الله العزيز: 2/ 425.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 151.

﴿ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ يرَ تغايرَ الجوابِ مع الشَّرط؛ لأنَّ إبليسَ لمّا طلبَ التَّأخيرَ والبقاءَ إلى يوم القيامة؛ كان طالبَ نعمةٍ ومنَّةٍ مِنَ اللّه، والمُقتَضى العقليُّ والشَّرعيُّ أن يُقابلَ ذلك بالشُّكر، لكن أن يُقابلَ ذلك بالمَعصية بقوله: ﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا﴾، فهذا دليلٌ على شدَّة تمرُّدِ إبليسَ وعشقِهِ للمعصية؛ فكأنَّه يقولُ لربِّه على سبيل التَّأكيدِ: إنَّك وإنْ أخَّرتَني إلى يوم القيامة لأحتَنِكَنَّ ذرّيَّةَ آدمَ، أو يكون قولُه هذا على سبيل تمنّي الأمرين منه جميعًا: التَّأخير واحتناك ذرّيَّته[1].

سرُّ ظنِّ إبليسَ بذرّيَّة آدمَ:

فهمُه أنَّ ذرّيَّةَ آدمَ يكونون مثلَه في ضعف العزمِ؛ بترك ما أُمِروا به

ظنَّ إبليسُ ظنًّا غير يقينٍ أنَّه سيُضِلُّ بني آدمَ، وأنَّهم سيطيعونه في معصيةِ اللّهِ، وصَدَرَ ذلك الظَّنُّ من إبليسَ في قوله تعالى: ﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ عن وجدانٍ أُلقيَ في نفسِه صادَفَ مُرادَ اللّهِ منه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٠﴾ [سبأ: 20]، فصدَّق ظنَّه عليهم، فإنَّ اللّهَ لمّا خلقَهُ؛ قَدَّرَ له أن يكونَ عُنصرَ إغواءٍ إلى يوم القيامة، وأنَّه يُغوي كثيرًا مِنَ البشر، ويَسلَمُ منه قليلٌ منهم[2].

أو أنَّه سمعَ الملائكةَ يقولون: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: 30]، فعرَفَ هذه الأحوالَ، أو أنَّه لما وسوسَ لآدمَ، ولم يجِدْ له قوَّةً في العزم يحفظُ بها ما أُمِرَ به، فَفَهِمَ أنَّ أولادَه يكونون كذلك في ضَعف العزم، أو لِعلمِه بخصائصَ تركيبةِ آدمَ وذرّيَّته مِنَ القوَّة الشَّهوانيَّة والغضبيَّةِ والوهميَّة، ووجودُ هذه القوى جَعَلَ لإبليسَ سبيلًا إلى الوصول إلى آدمَ وذرّيَّته بطبيعة الخصائصِ الموجودة فيها[3].

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 7/ 67.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 151، والشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 3/ 440.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 11/ 7.

دلالةُ التَّعبير بالقليل دون المُخلَصين:

التَّعبيرُ عنِ الكراهيَّة الَّتي يكنُّها إبليسُ لآدمَ وذرّيّتِه

آثرَ السّياقُ الكريمُ التَّعبيرَ بالقليل في قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ لأنَّ المُرادَ بالقليل مَن لا يتأثَّرُ بوساوسِه وتسويلاتِه مُطلَقًا، وهُمُ المُحسنونَ، والأبرار، وكاملو التَّقوى، وهم المُخلَصون مِنَ اللّه والمُخلِصون في أعمالِهم لربِّهم، فهو ليس له تسلُّطٌ على المؤمنين باللّه ورسوله، وعلى ربِّهم وحدَه يعتمدون، كما جاء في النُّصوص الأخرى[1]، وهذا القليلُ هُمُ الَّذين عناهُمُ اللّه تعالى بقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحِجر: 42][2]، وبقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩﴾ [النّحل: 99]، ولم يعبّر هنا بالمُخلَصين، بل بالقلة لأنّ القلة مقصودة في حدّ ذاتها هنا؛ فقد يكون المُخلَصون كثرةً، وهو لا يريدُ ذلك، فكان التَّعبيرُ بالقليل مُنبِئًا عن مدى الكراهيةِ الَّتي يحملُها إبليس لآدمَ وذرّيَّتِه.

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

التَّأخير والتَّأجيل:

التَّأخيرُ أعمُّ مِنَ التَّأجيل، إذ يكون التَّأخيرُ بأجَلٍ وبغير أجلٍ

التَّأخير في اللُّغة ضدُّ التَّقديم، ومُؤخَّرُ كُلِّ شيءٍ: خلافُ مُقدَّمه[3]، والتَّأجيلُ في اللُّغة: أن تضربَ للشَّيء أجلًا، ومدَّةُ الشَّيءِ المَضروبَةُ له تُسمَّى أجلًا[4]، يُقالُ: أجَّلتُه تأجيلًا؛ أي: جعلتُ له أجلًا، ففي التَّأجيل توقيتٌ[5]، والتَّأجيلُ بالموعود إلى يوم الفصلِ تحديدُ الأمرِ للجزاء على جميع العِبادِ فيه[6]، وعلى هذا فالتَّأخيرُ أعمُّ مِنَ التَّأجيل؛ إذ يكونُ التَّأخيرُ بأجَلٍ وبغير أجلٍ.

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 103.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 15/ 70.
(3) ابن سِيده، المُحكم: (أخر).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (أجل).
(5) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنَّة: 10/ 379.
(6) ابن فورك، تفسير ابن فورك: 3/ 117.

﴿قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا ٦٣﴾ [الإسراء: 63]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيانُ ذِكرِ إجابة طلب إبليسَ الإنظارَ إلى يوم القيامة

لمّا ذكرَتِ الآيةُ السّابقةُ طلبَ إبليسَ من ربِّه التَّأخير والإمهال إلى يوم القيامة لإضلال ذرّيَّةِ آدمَ؛ جاءَت هذه الآيةُ لبيان أنَّ اللّهَ أجابَ إبليسَ في طلبِه الإنظارَ، وأخَّره إلى يوم الوقتِ المعلوم[1]، وتشاءُ إرادةُ اللّه أن يُطلَقَ لرسول الشَّرِّ والغَوايةِ الزِّمامَ، يُحاولُ محاولتَه مع بني الإنسان: ﴿قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا﴾، أي: اذهبْ، فحاولْ مُحاولتَك، اذهبْ مأذونًا في إغوائهم[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱذۡهَبۡ﴾: أصلُ الذَّهاب المُضِيُّ، يُقالُ: ذَهَبَ يَذهَبُ ذَهابًا وذُهوبًا[3]، والذَّهبَةُ: المَرَّةُ الواحِدَةُ مِنَ الذَّهاب، ويقولون: ذَهَبَ لِذَهَبِه، أي: لِمَذْهَبِه الَّذي يَذهَبُ إليه[4]، والمَذهَبُ: مَصدَرٌ، كالذَّهاب، وذَهَبَ بِهِ وأذهَبَه غيرُهُ: أزالَه[5]، وحقيقةُ الذَّهابِ في الآية ليسَ مُرادًا به الانصِرافُ، بل هو مُستَعمَلٌ في الاستِمرارِ على العَمَلِ، أي: امضِ لِشأنِكَ الَّذي نَويتَهُ[6].

2) ﴿تَبِعَكَ﴾: أصلُ (تبع) التُّلُوُّ والقَفوُ، يُقالُ: تَبِعتُ فُلانًا؛ إذا تَلوتَهُ واتَّبَعتَهُ، وأتبَعتُهُ؛ إذا لَحِقتَهُ[7]، كأنَّما لَحِق، أو التصقَ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 16/ 159.
(2) شحاتة، تفسير القرآن الكريم: 15/ 2882.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذهب).
(4) الخليل، العين: (ذهب).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (ذهب).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 152.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (تبع).

به، وتَطَلَّبَه مُتَّبعًا له[1]، والاتِّباعُ: اقتِفاءُ أثَرِ الماشي، ثمَّ استُعمِلَ في العَمَلِ بمِثلِ عَمَلِ الآخرين[2]، يُقالُ: تَبِعتُ الرَّجُلَ؛ إذا مشيتَ مَعَه، واتَّبعتُه؛ إذا مشيتَ خَلفَه لِتلحقَه[3]، وأتبعَ فلانٌ فلانًا؛ إذا تبعَه يُريدُ بِهِ شرًّا، كما أتبعَ فِرعَونُ موسَى، وأمّا التَّتبُّعُ؛ فأنْ يتتبَّعَ في مُهلةٍ شَيئًا بعدَ شَيءٍ[4]، والمرادُ بالاتِّباعِ في الآيةِ: اقتفاءُ أثَرِ الشَّيءِ بحيث لا يفوته، والمعنى: فمَن أطاعَك منهم.

3) ﴿جَزَآءَ﴾: (جزي) أصلٌ واحِدٌ، هو الاكتِفاءُ بالشَّيءِ، يُقالُ: اجتَزَأتُ بالشَّيءِ اجتِزاءً؛ إذا اكتَفَيتُ بِه، وأجزَأني الشَّيءُ إجزاءً؛ إذا كَفاني، ويُقالُ: جَزَيتُ فُلانًا أجزيه جَزاءً، وجازَيتُه مُجازاةً[5]، والجَزاءُ: ما فيه الكفايةُ مِنَ المُقابلة، إنْ خيرًا؛ فَخيرٌ، وإنْ شرًّا؛ فَشَرٌّ[6]، والجَزاءُ أيضًا: القَضاء، قالَ اللّه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ [البقرة: 48]، وتَقولُ: جَزَى عَنّي هذا الأَمرَ يَجزي، كما تَقولُ قَضى يَقضي[7]، ويُقالُ: جزيتُه بكذا، وجازيتُه، والمقصودُ بالجَزاء في الآية: العِوضُ عن عَمَلٍ، وهو هنا بمعنى اسمِ المَفعولِ كالخَلقِ بمَعنَى المَخلوقِ[8].

4) ﴿مَّوۡفُورٗا﴾: (وفر) كلمةٌ تدُلُّ على كَثرَةٍ وتَمام، وفَرَ الشَّيءُ يَفِرُ، وهو مَوفورٌ، ووفَرَهُ اللّه، ومِنهُ وفرَةُ الشَّعرِ: وهي دونَ الجُمَّة، واشتِقاقُ اسمِ المالِ الوفرِ منهُ، والمَوفورُ: التّامُّ مِن كُلِّ شيءٍ، وفي المَثَل: توفَرُ وتُحمَدُ[9]، والجَزاءُ المَوفورُ: الَّذي لم يَنقُص منهُ شيءٌ، يُقالُ: هُم مُتَوافِرون، أي: هُم كثيرٌ أو فيهم كَثرَةٌ، ويُقالُ أيضًا: استَوفَرَ علَيهِ حقَّهُ؛ إذا استَوفاهُ، والمقصودُ بالمَوفورِ في الآية: اسمُ مَفعولٍ مِن وفَرَهُ؛ إذا كثَّرَهُ.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (تبع).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 423.
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (تبع).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (تبع).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جزي).
(6) الرّاغب، المفردات: (جزاء).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جزي).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 152.
(9) يُضرَبُ هذا المَثَلُ للرَّجلِ تُعطِيهِ الشَّيءَ، فيردُّه عليكَ مِن غَيرِ تسخُّط، يُنظر: الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (وفر).

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

العذابُ واقِعٌ على إبليسَ، ومَن تَبِعَهُ مِن أبناءِ آدمَ إلى يوم القيامة

لمّا توعَّدَ الشَّيطانُ ذرّيَّةَ آدمَ بالإغراء والإغواء - كما سَبَقَ - لصرفِهم عن عبادة اللّهِ تعالى؛ زجرَهُ اللّهُ سبحانَه بهذه الآية مُهدِّدًا إبليسَ وأتباعَه، فقال: امضِ لشأنِك - أيُّها الشَّيطان - الَّذي اخترته في طريق غَوايتِك وإغوائِك، مَطرودًا مِن رحمتي أنتَ ومَن اتَّبعَك مِنَ البَشر، فافعلْ ما بدا لكَ مع بني آدمَ، وقد أخَّرتُك، وهذا كما تقولُ لِمَن يُخالِفُك: افعَلْ ما تُريدُ، فمصيرُك وإيّاهُم جهنَّم تُجزون فيها جزاءً موفورًا تامًّا، وبئسَ المصيرُ[1].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى تقرير عداوةِ إبليسَ والتَّحذيرِ منها.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ فصلِ جملة ﴿قَالَ﴾ عمّا قبلَها:

بعدَ اجتراءِ إبليسَ، جواب اللهِ لهُ على طريقة المُحاوراتِ

فَصَلَ قولَه تعالى: ﴿قَالَ ٱذۡهَبۡ﴾عمّا سَبَقَ؛ لأنَّها جوابٌ مِنَ اللّه تعالى عن سؤال إبليسَ التَّأخيرَ إلى يوم القيامة، فكأنَّه قيلَ: لقد أطالَ إبليسُ في الاجتراء، فما قالَ له ربُّه بعدَ الثّالثة؟ فقيل: ﴿قَالَ﴾ مُهَدِّدًا له: ﴿ٱذۡهَبۡ﴾[2]، ولذلك فُصِلَت جملةُ ﴿قَالَ﴾ على طَريقة المُحاوراتِ[3].

دلالةُ فعلِ الأمر ﴿ٱذۡهَبۡ﴾ بين المَجاز والحقيقة:

الطَّردُ لإبليسَ، على وجه الإهانةِ المُزريَةِ، والتَّهديدِ الصّارِمِ

قوله تعالى: ﴿ٱذۡهَبۡ﴾، أي: امضِ لما قَصدتَهُ، وهو طَردٌ وتَخليَةٌ بينَه وبينَ ما سوَّلَت له نفسُهُ[4]، امضِ لِما قصدتَهُ، فالذَّهابُ ليسَ مُرادًا به الانصرافُ الّذي هو نقيضُ المجيء بل هو مُستعمَلٌ في الاستمرار على العملِ، أي: امضِ لشأنِكَ الَّذي

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 655، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 93، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 15/ 70، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 3/ 168.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 464.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 152.

(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 260.

نَويتَهُ، فالمُرادُ بـ﴿ٱذۡهَبۡ﴾ معنًى مجازيٌّ له، وهو التَّخليةُ[1]، وهو من قبيل المَجازِ المُرسَلِ.

وصيغةُ الأمر مُستعمَلةٌ في التَّسويَةِ، وهو كقول النَّبهانيِّ من شعراء الحَماسَةِ:

فإنْ كُنتَ سَيِّدَنا سُدْتَنا *** وإن كُنْتَ لِلخالِ فاذهَبْ فَخَلْ[2]

أو يكون الفعلُ بمعنى الطَّردِ له على وجه الإهانةِ والتَّهديد، تقولُ لِمَن لا يقبلُ منك: اذهبْ، وكُنْ على ما اخترتَ لنفسِك[3]، فلمّا سَمِعَ سبحانَه منه ما سمعَ؛ قالَ ساخطًا عليه طاردًا له أشدَّ طردٍ وتبعيدٍ[4].

ويجوزُ أن يكونَ مِنَ الذَّهاب ضدَّ المَجيء، فمعناه حينَئذٍ كمعنى قولِه تعالى: ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ۝٣٤﴾ [الحجر: 34]، فيكون قد اجتمعَ له طردان: طرد الإهانة مع الطّردِ الحسّيِّ، والأظهرُ هُنا المجازُ بدلالة تعقيبِه بالوعيدِ في قوله سبحانَه: ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ﴾[5].

معنى الفاء في قوله: ﴿فَمَن﴾:

استعمالُ الفاء للتَّفريع والإفصاح، مُحبَّذٌ في الجمل الفِصاح

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ﴾ تفريعٌ على التَّسوية والزَّجر، كقوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ﴾ [طه: 97][6]، ولذلك فالمرادُ بها في قوله: ﴿فَمَن تَبِعَكَ﴾ تفريعٌ على التَّخليةِ المذكورةِ[7].

وهي أيضًا للإفصاح عن شرطٍ مُقدَّرٍ، والمعنى: إن ذهبتَ، وأغريتَ، وحاولتَ السَّيطرةَ على نفوسِهم، فمَن تَبِعَكَ إلى ما تدعوهُ إليه؛ ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا﴾[8].

(1) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 11/ 543.
(2) البيت مِنَ المُتقارب، المرزوقيّ، شرح ديوان الحماسة: 184، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 152.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 677، وابن جُزَيّ، التَّسهيل: 1/ 450.
(4) الشَّيخ علوان، الفواتح الإلهيَّة: 1/ 458.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 105.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 152.
(7) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 11/ 543.
(8) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4416.

سرُّ التَّعبير بقوله: ﴿فَمَن﴾:

عبَّرَ القرآنُ الكريمُ بـ(مَن) دون غيرها؛ لإفادة العُموم فيدخل تحتَها كلُّ مَن تبعَ إبليسَ مفردًا كان، أم مثنًّى، أم جماعةً، مذكَّرًا كان أم مُؤنَّثًا، وفي هذا إشارةٌ إلى دلالة القرآنِ على كثرة أتباعِ إبليسَ.

الإشارةُ إلى كثرة أنصارِ إبليسَ الَّذين سيكونون له تبعًا

نكتةُ التَّعبيرِ بالاتِّباع في قوله: ﴿فَمَن تَبِعَكَ﴾:

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالاتِّباع الَّذي يدلُّ على شدَّة المُتابعة؛ لأنَّ الاتِّباعَ في اللُّغة يدلُّ على شدَّة المُلازمة، فمعنى تَبِعَه واتَّبَعَه: قفا أثَرَهُ، وذلك تارةً بالجسم وتارةً بالارتسام والائتمار[1]، وهذا للتَّفريق بين مَن كان من أولياء الشَّيطانِ وبين العُصاةِ الَّذين ارتكبوا ذنبًا، فعادوا، وأنابوا إلى اللّه؛ فَمِثْلُ هؤلاء لا يُقالُ عليهم من أتباعِ الشَّيطان، وفيه دلالةٌ على كلامٍ محذوفٍ يُفهَمُ مِن هذا التَّعبير: (ومَن لم يَتبَعْكَ؛ فأولئك هُمُ الفائزون).

الـدَّلالـةُ على شـدَّة متابعةِ إبليسَ

دلالةُ التَّعبير بالجملة الشَّرطيَّة:

معنى الجملةِ الشَّرطيَّة: ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ﴾، أي: فمَن تَبِعَكَ مُختارًا مُستجيبًا لإغرائك، فأنتَ وهُم قد صرتم جمعًا واحدًا، جزاؤُك وجزاؤُهُم واحدٌ[2]، وجملة: ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ﴾ في محلِّ جزم جواب الشَّرط هذا، وإن نَعُدَّ جوابَ الشَّرط مَحذوفًا؛ فتقديره: فلا خيرَ فيهم، فتكون الجملةُ الاسميَّةُ تعليلًا للنَّفي المُقدَّر[3].

بـيـانُ وحــدَةِ الــجــزاء بَـيـنَ التّابع والمتَبوع

علَّةُ التَّعبيرِ بالإضمار في قوله: ﴿مِنۡهُمۡ﴾:

آثرَ السّياقُ الكريمُ التَّعبيرَ بالإضمار ﴿مِنۡهُمۡ﴾ عنِ الذُّرّيَّة؛ فلَم يقُلْ: (فمَن تَبِعَكَ من ذرّيَّته)، فقوله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ﴾

الإشــــارةُ إلى المَذكورين آنفًا تـهـويـنٌ لـهـم لعصيانهم

(1) الرّاغب، المفردات: (تبع).

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4416.

(3) الدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم إعراب وبيان: 5/ 369.

للعلمِ بهم؛ لأنَّهم ذُكِروا من قبلُ في قوله: ﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾، وللإشارة للتَّهوين مِن شأنِهم؛ بسبب طاعتهم للشَّيطانِ، وضلالِهم عنِ الحقِّ.

بلاغةُ الالتفاتِ في السّياق:

تنزيلُ الغائبِ مَنزلةَ المُخاطَبِ، لكونه تَبَعًا له في المَعصيةِ والعُقوبة

مِن حَقِّ الضَّميرِ في الجزاءِ ﴿جَزَآؤُكُمۡ﴾ أن يكونَ على لفظِ الغَيبةِ (جزاؤهم)؛ ليرجِعَ إلى ﴿فَمَن تَبِعَكَ﴾، ولكنَّ التَّقديرَ: (فإنَّ جهنَّمَ جزاؤُهُم وجزاؤُك)، ثمَّ غُلِّبَ المُخاطَبُ على الغائِبِ، فقيلَ: ﴿جَزَآؤُكُمۡ﴾، فجُعِلَ الغائِبُ تَبَعًا للمُخاطَبِ، كما كان تَبَعًا له في المَعصيةِ والعُقوبةِ، فحَسُنَ أن يُجعَلَ تَبَعًا له في اللَّفظِ، وهذا مِن حُسنِ ارتباطِ اللَّفظِ بالمعنى واتِّصالِه به، ويجوزُ أن يكونَ للتّابعينَ على طريقِ الالتِفات[1].

الدَّلالةُ على أنَّ الخطابَ لإبليسَ جاء ابتداءً ولِمَن استجابَ له تَبَعًا

فورَدَ النَّظمُ بالخطاب تغليبًا لجانب المُخاطَبِ - وهو إبليس - على جانب الغائبِ - وهُم أتباعه - لأنَّه هو السَّببُ في إغواء هؤلاء الأتباعِ[2].

سِرُّ جمع الخطاب والتَّسوية في الجزاء:

معنى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ﴾، أي: فمَن يتَّبِعْكَ مُختارًا مُستجيبًا لإغرائك؛ فأنتَ وهُم قد صرتُم جمعًا واحدًا، جزاؤُك وجزاؤُهم واحدٌ، ولذا خاطبَهم جميعًا باعتبار أنَّهم جميعًا صاروا جمعًا واحدًا، وكان الخطابُ بالجمع؛ لأنَّ الخطابَ له ابتداءً، ولهم بالتَّبع[3].

فائدةُ تَكرارِ لفظِ الجزاءِ في السّياق:

تأكيدُ أهمّيَّةِ الجزاءِ مع مُراعاةِ حسنِ جريانِ الوصفِ عليه

تكرَّرَ لفظُ الجزاءِ في الآية في قوله: ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا﴾، ولم يكتفِ بذكرِه مرَّةً واحدةً بأن يقولَ: ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 677، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 260، وابن القيّم، بدائع الفوائد: 4/ 185.

(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 388.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4416.

﴿جَزَآؤُكُمۡ﴾، وكان يكفي في إيقاع الجزاءِ على إبليسَ وأتباعِه؛ لكنَّه أُعيدَ للتَّأكيد؛ اهتمامًا وفَصاحةً، ولأنَّه أحسنُ في جَرَيان وصف المَوفورِ على مَوصوفٍ مُتَّصلٍ به دونَ فَصلٍ[1]، ولأنَّه مَصدَرُ جَزَى يجزي عن عملٍ، أي: (أعطاه عن عمله عِوضًا)، وهو هُنا بمعنى اسم المَفعولِ كالخَلقِ بمعنى المَخلوقِ.

سرُّ التَّعبير بالجزاءِ دونَ غيرِه:

عـمـومُ لـفظِـه، وفـيـه الـكـفـايـةُ للزَّجر والتَّهديد

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالجزاء دونَ غيرِهِ من ألفاظ العقابِ، لِما يتميَّزُ به هذا اللَّفظ في استعمالات القرآنِ في الخير والشَّرِّ، فهو لفظٌ عامٌّ، وإيرادُه هنا مُناسِبٌ لفعل إبليسَ مع ذرّيَّة آدمَ، حيث بيَّنَ التَّعبيرُ أنَّ الجزاءَ يأتي على قدر اتِّباعِهم لإبليسَ والرُّكون إلى وعوده وأمانيه، فكانَ التَّعبيرُ فيه الكفايةُ للزَّجر والتَّهديد.

نكتةُ وصف الجزاءِ بالوفرة:

بلوغُ التَّهديدِ إلى الغاية القُصوى

وصفَ جزاءَ جهنَّمَ بأنَّه جزاءٌ مَوفورٌ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا﴾، أي: كاملًا على قدر ما أساؤوا، ووفاقًا لِما أجرموا، و﴿مَّوۡفُورٗا﴾، أي: مُكَمَّلًا وافيًا بما تَستحقّونَ على أعمالِكم الخبيثة[2].

وممّا يؤكِّدُ لك ما ذكرَه اللّٰهُ تعالى في وصف جزائِهم في آيةٍ أخرى في قوله تعالى في سورة الحِجر: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٤٣ لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ ٤٤﴾ [الحِجر: 43 - 44][3]، وفي هذا الوصف غايةُ التَّهديد، وفيه إشارةٌ وبيانٌ بألّا مراءَ ولا تفويتَ، ولو أخَّرَ عقوبةَ قومٍ؛ فإنَّ ذلك إمهالٌ لا إهمالٌ، واستدراجٌ لا إنعامٌ وإكرامٌ[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 152.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 464.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4416.
(4) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/ 357.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

جهنَّم والنّار:

جهنَّمُ اسمُ عَلَم على نار الآخرة، ولفظةُ النّار أعمُّ

جَهَنَّمُ: اسمُ عَلَم للنّار، قال تعالى ﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ [فاطر: 36]، وجَهَنّام (بتثليث الجيم): بعيدةُ القَعْر، ومنه اشتقاقُها، فَسُمّيَت نارُ الآخرة جهنَّمَ لبُعدِ قعرِها[1]، وقيلَ هي مِنَ الجهامة، وهي كراهةُ المَنظَر[2]، والمشهورُ عندَ النُّحاةِ أنَّها لفظةٌ عربيَّةٌ[3]، ووزنُها فعنَّل، واختُلِفَ في نونِها بين الزّيادةِ والأصالةِ، وقيلَ: هي اسمٌ لجميع نارِ الطَّبقاتِ السَّبعِ، لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٣ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ [الحِجر: 43 - 44][4].

فالتَّعبيرُ بلفظ (جهنَّم) هو تعبيرٌ خاصٌّ بنار الآخرة[5]، ولم يُعبِّرِ القرآنُ الكريمُ بـ(جهنَّم) عن نار الدُّنيا، في حين أنَّ لفظَ (النّار) يُعبَّرُ به عن نار الدُّنيا ونار الآخرة، كمثل قوله تعالى ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ۝٧١﴾ [الواقعة: 71]، وقوله تعالى: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥﴾ [البروج: 5]، فالنّارُ من هذه الحيثيَّة تعبيرٌ عامٌّ، و(جهنَّم) تعبيرٌ خاصٌّ، كما أنَّ جهنَّمَ فيها دلالةٌ على ذاك المكانِ البعيدِ الَّذي جعلَه اللّهُ سُبحانَه لِمُعاقبة الخارجين عن حدود سلطنتِه، بما فيه من هولٍ وضيقٍ وحَبْسٍ ونيرانٍ لا مثيلَ لها، أمّا النّارُ؛ فهي لفظٌ يدلُّ على ذلك النَّوع مِنَ اللَّهب المُحرِقِ بذاتِه، ولذلك هو يُستعمَلُ في المَوردين معًا.

---

(1) الماورديّ، النُّكت والعيون: 2/ 378.
(2) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 407.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (جهم)، والواحديّ، التّفسير البسيط: 4/ 81.
(4) الرّاغب، المفردات: (جهنم)، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 2/ 317، والسَّمين، عُمدة الحفَّاظ: (جهن)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جهنم).
(5) المناويّ، التَّوقيف لمهمات التّعاريف، ص: 133.

﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ٦٤﴾ [الإسراء: 64]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربطُ مصير بني آدمَ في اتِّباع إبليسَ، بتَسَلُّطِه عليهم بصنوف الإغواء

لمّا طَلَبَ إبليسُ مِنَ اللّه تعالى في الآية السّابقةِ الإمهالَ إلى يوم القيامة؛ لأجلِ أن يَحتَنِكَ ذرِّيَّةَ آدمَ؛ ذكرَ اللّه تعالى أشياءَ في هذه الآية مضمونُها: افعلْ ما تقدِرُ عليه مع حكمة اللّهِ البالغةِ في هذا التَّمكين لإبليسَ وجنودِه في الإغواء والإغراء، بأن يفعلَ كلَّ ما يقدِرُ عليه من إضلال بني آدمَ[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ﴾: أصلُ (فَزَّ) يدُلُّ على خِفَّةٍ وما قارَبَها، تَقولُ: فَزَّهُ واستَفَزَّهُ؛ إذا استَخَفَّهُ، ورَجُلٌ فَزٌّ، أي: خَفيفٌ[2]، وفَزَّه فَزًّا وأفَزَّه: أفزعَه وأزعجَه وطَيَّرَ فؤادَه، واستَفَزَّه مِنَ الشَّيءِ: أخرجَه، واستَفَزَّهُ: خَتَلَه حتَّى ألقاه في مَهلكةٍ[3]، والمقصودُ بالاستِفزازِ في الآية: طَلَبُ الفَزِّ، وهو الخِفَّةُ والانزعاجُ وتركُ التَّثاقُل، والسّينُ والتّاءُ فيه للجَعلِ النّاشِئَ عَن شِدَّةِ الطَّلَبِ والحَثِّ الَّذي هو أصلُ معنَى السّينِ والتّاءِ، والمرادُ: استَخِفَّهُم وأَزعِجْهُم إلى المَعصيةِ[4].

2) ﴿بِصَوۡتِكَ﴾: (صوت) أصلٌ صحيحٌ، وهو الصَّوتُ، وهو جِنسٌ لِكُلِّ ما وقَرَ في أُذُنِ السّامِعِ، يُقالُ: هذا صَوتُ زَيدٍ[5]، أي: ما سُمِعَ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 367، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 469.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (فزَّ، فزز).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (فزز).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 153.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صوت).

مِنهُ مِن كلامٍ ونَحوِهِ، ورَجُلٌ صَيِّتٌ، أي: قَويُّ الصَّوتِ[1]، ويأتي بمعنى النِّداءِ، فيُقالُ: صاتَ بِهِ، أي: ناداهُ، وصاحَ عَلَيهِ، وجَمعُه: أصواتٌ[2]، والصَّوتُ في حقيقته يُطلَقُ على الكلامِ كثيرًا؛ لأنَّ الكلامَ صَوتٌ مِنَ الفَمِ، واستُعيرَ في الآيةِ لإلقاءِ الوسوسَةِ في نُفوسِ النّاسِ، ويَجوزُ أنْ يكونَ مُستعمَلًا - هنا - تَمثيلًا لِحالةِ إبليسَ بحالِ قائِدِ الجَيشِ، فيكونُ مُتَّصِلًا بقولِه: ﴿وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ﴾[3].

3) ﴿وَأَجۡلِبۡ﴾: أصلُ الجَلْبِ سَوقُ الشَّيءِ، يُقالُ: جَلَبتُ المتاعَ جَلبًا[4]، وأجلَبَ القَومُ: جاؤوا مِن كُلِّ صَوبٍ، ومنه: الجَلَبُ، وهُمُ التُّجّارُ الوارِدون على السّوقِ[5]، وأجلَبتُ عليه: صُحتُ عليه بقهرٍ[6]، وأجلَبَ الرَّجُلُ الرَّجُلَ؛ إذا تَوعَّدَهُ بِشَرٍّ، وجَمَعَ الجَمعَ عَلَيهِ[7]، والإجلابُ: جَمعُ الجَيشِ وسَوقُهُ، مُشتَقٌّ مِنَ الجَلَبَةِ بفتحَتَينِ، وهي الصّياحُ؛ لأنَّ قائِدَ الجَيشِ إذا أرادَ جَمعَ الجَيشِ؛ نادَى فيهِم للنَّفيرِ أو للغارَةِ والهُجومِ[8]، وهذا هو المرادُ في الآية.

4) ﴿بِخَيۡلِكَ﴾: (خيل) أصلٌ واحِدٌ يدُلُّ على حَرَكَةٍ في تَلَوُّنٍ، فَمِنْ ذلكَ الخَيّالُ، وهو الشَّخصُ، وأصلُهُ ما يَتَخَيَّلُهُ الإنسانُ في مَنامِهِ؛ لأنَّهُ يَتَشَبَّهُ ويَتَلَوَّنُ[9]، والخَيلُ مَعروفَةٌ، وهي في الأصلِ اسمٌ للأفراسِ والفرسانِ جميعًا[10]، لا واحِدَ لَهُ من لَفظِه، وسُمّيَتِ الخَيلُ خَيلًا لاختيالِها؛ لأنَّ المُختالَ في مِشيَتِهِ يَتَلَوَّنُ في حَرَكَتِهِ ألوانًا[11]، والخَيّالَةُ: أصحابُ الخُيولِ[12]، والمقصودُ بالخَيلِ في الآية: اسمُ جَمعِ الفَرَسِ، والمُرادُ بِهِ كلُّ راكِبٍ في المَعصيةِ والفَسادِ[13].

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (صوت).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (صوت)، والمُناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 219.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 153.
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (جلب).
(5) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 518.
(6) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (جلب).
(7) ابن سِيده، المُحكم، والرّاغب، المفردات: (جلب).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 153.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خيل).
(10) الرّاغب، المفردات: (خيل).
(11) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سِيده، المُحكم، وابن منظور، لسان العرب: (خيل).
(12) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن سِيده، المُحكم، وابن منظور، لسان العرب: (خيل).
(13) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 153.

5) ﴿وَرَجِلِكَ﴾: الرَّجِلُ والرّاجِلُ: الماشي، مشتقَّةٌ مِن الرِّجْلِ، والرَّجَلُ، بالتَّحْريكِ: مَصْدَرُ قَوْلِكَ: رَجِلَ بالكَسْرِ، أَي: بَقِيَ راجِلًا، والرَّجْلان أَيْضًا: الرّاجِلُ، والجَمعُ رَجْلَى، والرّاجِل خِلافُ الفارِسِ[1]، يُقالُ: رَجِلْتُ - بالكَسْرِ - رَجَلًا، أَي: بَقيتُ راجِلًا، ويُقالُ: رَجُلٌ راجِلٌ، أَي: قويٌّ على المشي، جمعه: رِجالٌ، والرُّجْلة: المَشْيُ راجِلًا[2]، وتَرَجَّلَ القومُ: إِذا نَزَلوا عَنْ دَوابِّهِم في الحَرْبِ لِلقِتالِ[3]، والمرادُ بالرَّجِلِ في الآية: جمعُ راجِل، وهو مَنْ يمشي على رِجلَيْهِ إلى غايته في المعصيةِ والفَسادِ.

6) ﴿وَشَارِكْهُمْ﴾: أصلُ (شرك) يدُلُّ على مُقارَنَةٍ وخِلافِ انفرادٍ، الشِّرْكَةُ: وهو أن يكونَ الشَّيءُ بين اثنَينِ لا يَنفرِدُ به أحدُهُما، يُقالُ: شارَكْتُ فُلانًا في الشَّيءِ؛ إذا صِرتَ شَريكَهُ، وأَشْرَكْتُ فُلانًا؛ إذا جَعَلْتَهُ شَريكًا لَكَ[4]، والشِّرْكُ: يأتي بمعنى المُشارَكَةِ، وهي الانضِمامُ والمُخالَطَةُ بين الشَّريكَينِ، يُقالُ: شَرِكْتُهُ في الأمرِ وشارَكْتُهُ؛ إذا انضَمَمْتُ إليهِ، وخالَطتُهُ، وصِرتُ شَريكًا لَهُ[5]، والمقصودُ بمُشارَكَةِ الأموالِ في الآية: بتحريضِهم على كَسبِ الأموالِ المُحرَّمةِ، وإنفاقِها فيما يُغضِبُ اللهَ، وأمّا مُشارَكَةُ الأولادِ؛ فهي بتَزيينِ إنجابِهم عن طريقِ الزِّنى، أو التَّخلُّصِ منهم، وتجاوزِ حدودِ الشَّرعِ.

7) ﴿غُرُورًا﴾: أصلُ الغُرورِ النُّقصانُ، وقيلَ: مِن غَرِّ الثَّوبِ، وهو أَثَرُ كَسرِهِ[6]، والغَرورُ: كُلُّ ما خَدَعَ الإنسانَ مِن مَتاعِ الدُّنيا كالمالِ والقوَّةِ، يُقالُ: غَرَّهُ، يَغُرُّهُ، غَرًّا وغُرورًا وغِرَّةً، أي: خَدَعَهُ، وأطمَعَهُ بالباطلِ، والمَغرورُ: المَخدوعُ، والغَرَرُ: الخَطَرُ والجَهلُ[7]، ويأتي الغُرورُ بمعنى الغِشِّ والتَّلبيسِ، يُقالُ: غَرَّهُ في بَيعٍ، أي: غَشَّهُ، ومِن مَعانيه أيضًا: الإخفاءُ والتَّزيينُ، والمرادُ بالغُرورِ في الآيةِ: إظهارُ الشَّيءِ المَكروهِ في صورَةِ المَحبوبِ الحَسَنِ[8].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (رجل).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (رجل).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (رجل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شرك).
(5) ابن قتيبة، غريب القرآن: 27، والفيّوميّ، المصباح المنير: (شرك).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غرَّ).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سِيده، المُحكم، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (غرَّ، غرر)، والجرجانيّ، التّعريفات، ص: 161.
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 155.

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

إتاحةُ المجال لإبليسَ، كي يغويَ ذرّيَّةَ آدمَ، بكلِّ وسائل الزَّيغ والفساد

يأمرُ اللّهُ تعالى إبليسَ - على سَبيلِ التَّهديدِ بعاقِبتِه الوخيمةِ - أن يفعلَ كلَّ ما يقدِرُ عليه من إضلالٍ، قائلًا له: واستَخِفَّ وأزعِجْ - يا إبليسُ - مَنِ استطَعتَ أن تَستخِفَّه مِن بني آدَمَ بدُعائِك لهُم إلى مَعصيةِ اللّهِ، واجمَعْ على بني آدَمَ جُنودَك - الرُّكبانَ منهم والمُشاة - الَّذين يَدعونَهم إلى مَعصيةِ اللّهِ، فيَحمِلوا عليهم بكُلِّ ما يَقدِرونَ عليه مِن وسائِلِ الفِتنةِ والكَيدِ لإضلالِهم، ولْيَكُنْ لك نَصيبٌ معهم في كُلِّ مالٍ تعَلَّقَت به مَعصيةُ اللّهِ ﷻ، بأن يكسِبوها مِنَ الحرام، وينفقوها فيه، وليكنْ لك معهم شِركةٌ في الأولاد بتزيين الزِّنى والمَعاصي، ومخالفةِ أوامرِ اللّه حتّى يكثُرَ الفجورُ والفسادُ، وعِدْهم بالوُعودِ الكاذِبةِ، وما يَعِدُهُمُ الشَّيطانُ البَعيدُ عنِ الرَّحمةِ وكُلِّ خيرٍ إلّا أمانيَّ باطلةً في الحَقيقة[1].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ اللّهَ ابتلى العبادَ بهذا العدوِّ المُبين الدّاعي لهم إلى معصيةِ اللّه بأقوالِه وأفعالِه، وإلى بيانِ مشاركةِ إبليسَ أتباعَه في أموالِهم وأولادِهم ونسائِهم، وأنّه يدخلُ في مشاركة الشَّيطانِ في الأموال والأولادِ ترْكُ التَّسميةِ عند الطَّعام والشَّراب والجِماع، وأنَّه إذا لم يُسَمَّ اللّهُ في ذلك؛ شاركَ فيه الشَّيطانُ، وإلى بيانِ أنَّ أصواتَ الأغاني والمَزاميرِ والمَلاهي وأنديتَها وجمعياتِها من جند إبليسَ، الّذي يُحارِبُ به الآدميَّ الضَّعيفَ، وإلى أنَّ مَواعيدَ الشَّيطانِ ما هي إلّا أباطيلُ زائفةٌ وأوهامٌ خادعةٌ؛ لأنَّ طبيعتَه قائمةٌ على التَّغريرِ والخِداعِ والنِّفاقِ[2].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 658، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 288، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 93، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 3/ 168.

(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: 461، ومَجمع البحوث الإسلاميّة، التّفسير الوسيط: 5/ 779، والجزائريّ، أيسر التّفاسير: 3/ 211.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في قوله: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ﴾ جملةٌ أمريَّةٌ عُطِفَت على مثلِها من قوله: ﴿ٱذۡهَبۡ﴾[1]، وعَطَفَ عليه ما بعدَه مِنَ الأوامر، وكلُّها بمعنى التَّهديدِ[2]؛ إذ أمرَهُ اللّٰه أن يفعلَ كُلَّ ما يَقدِرُ عليه مِن إضلالِهم[3]، فأضافَ سُبحانَه إلى إهانتِه وتحقيرِه لإبليسَ أوامرَ أخرى[4]، وفي هذا تأكيد الإمهالِ والخِذلانِ[5].

تكرارُ الأمرِ إهانةٌ لإبليسَ، وتحقيرٌ له، وتأكيدٌ لإمهاله وخِذلانه

إيثارُ لفظِ ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ﴾ دونَ غيره:

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالاستفزاز في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ﴾ دونَ غيرِه من مُرادفاتِه كالتَّحريض والإثارة؛ لِما يحملُه هذا اللَّفظُ من معانٍ عديدةٍ؛ إذ يُطلَقُ الاستفزازُ على طَلَبِ الفزِّ، وهو الخفَّة والانزعاج وترك التَّثاقل، وأصلُه القطعُ، يُقالُ استفزَّه، أي: استزلَّهُ بِقَطعِهِ عَنِ الصَّواب[6]، والسّينُ والتّاءُ فيه لِلجعلِ النّاشئ عن شِدَّة الطَّلبِ والحثِّ الَّذي هو أصلُ معنى السّين والتّاء، أي: استَخِفَّهم وأزعِجْهم واخدعْهُم حتّى يقعوا في إرادتك[7].

الاستفزازُ لونٌ مِنَ الاستخفافِ والخداع مع الإزعاج

وممّا يُذكرُ في سرِّ التَّعبيرِ به الإشارةُ إلى وجود فطرةٍ إيمانيَّةٍ عند بني آدمَ، وهي الَّتي ذكرَها اللّٰهُ تعالى في قوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ﴾ [الأعراف: 172]، وفيها دليلٌ على مدى الجهد الَّذي يبذلُه إبليسُ لإخراجِهم عن هذه الفطرة؛ لذلك كان التَّعبيرُ بالاستفزاز هو

---

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 4/ 405.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 79.
(3) السَّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 538.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 389.
(5) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/ 366.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 469.
(7) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 3/ 470، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 153.

المُناسِبَ، وتؤكِّدُ ذلك البِنيةُ اللُّغويَّةُ لفعل الاستفزازِ، وما تحملُهُ من صفات الصَّفير؛ فكأنَّه يُنادي عليهم.

دلالةُ الأمرِ في قوله: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾:

جاءَ التَّعبيرُ بالأمر في قولِه: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾ على غير أصلِه، والغرضُ منه التَّهديدُ والتَّنديدُ من فعل إبليسَ لعنَه اللّه.

سرُّ التَّعبيرِ بالفعل ﴿ٱسْتَطَعْتَ﴾ دونَ غيرِه:

مجالُ لفظ الاستطاعةِ المعاني الَّتي يُتمكَّنُ بها من إحداث الفعل

آثرَ السّياقُ الكريمُ التَّعبيرَ بالاستطاعة في قوله تعالى: ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتَ﴾ دون أن يُقالَ: (مَن قَدَرت)؛ لأنَّها أعمُّ مِنَ القُدرة، إذ تُطلَقُ على المعاني الَّتي بها يتمكَّنُ الإنسانُ ممّا يريدُهُ من إحداث الفعلِ، وهذا ظاهرٌ في سياق الآيةِ بما أعطاه اللّهُ لإبليسَ من وسائلَ عديدةٍ لإغواء بني آدمَ، وعلى هذا فكلُّ مُستطيعٍ قادرٌ، وليس كلُّ قادرٍ يكونُ مُستطيعًا.

بلاغةُ المَجازِ في تخصيص الاستفزازِ بصوت إبليسَ:

أصواتُ الشَّيطان نشازٌ في الآذان، وانحرافٌ عن مُراد الرَّحمن

الصَّوتُ يُطلَقُ على الكلام كثيرًا؛ لأنَّ الكلامَ صوتٌ مِنَ الفم، وأُطلِقَ هُنا في قوله تعالى: ﴿بِصَوْتِكَ﴾ مَجازًا، على أنَّ المرادَ بالصَّوت صوتُ الغناءِ والمَزاميرِ واللَّهو[1]، وجعل ذلك صوتًا له من حيث كان الدّاعي إليه والحامل عليه، وعلى هذا الفهم فإنَّ كلَّ ما يدعو إلى الغواية، مِن أصواتِ الغناءِ والدّعايةِ الإعلاميَّةِ الَّتي تنشرُ الرَّذيلةَ والتَّحلُّلَ؛ صوتٌ من أصوات الشَّيطانِ، وصورةٌ من صور غوايتِه؛ إذِ الصَّوتُ الشَّيطانيُّ يستفزُّ بني آدمَ، وصوتُ الشَّيطانِ كلُّ صوتٍ في غير طاعةِ اللّه، فصوتُ الغناءِ، وصوتُ النَّوحِ، وصوتُ المَعازفِ كلُّها من أصوات الشَّيطانِ، الَّتي يستفزُّ بها بني آدمَ، فيستخفُّهم ويزعجهم؛ ولهذا قال السَّلفُ في هذه الآية: (إنَّه الغناء)، ولا ريبَ أنَّه من أعظم أصواتِ الشَّيطانِ الَّتي يستفزُّ بها

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 288.

النُّفوسَ ويزعجُها ويقلقُها، وهو ضدُّ القرآنِ الَّذي تطمئنُّ به القلوبُ، وتسكنُ وتخبتُ إلى ربِّها؛ فصوتُ القرآن يسكِّنُ النُّفوسَ، ويُطمئِنُها، ويوقِّرُها، وصوتُ الغناء يستفزُّها ويزعجُها ويهيِّجُها، وكذلك صوته الَّذي يستفزُّ به النُّفوسَ عندَ المصيبة، وهو النَّوح، فيستفزُّها بهذا الصَّوت إلى الحزن والأسف والسُّخط بما قضى اللّهُ، ويستفزُّها بذلك الصَّوت إلى الشَّهوة والإرادة والرَّغبة فيما يبغضُه اللّهُ، فينهاها بصوتِ النّوحِ عمّا أمرَها اللّهُ به، ويأمرُها بصوت الغناءِ بما نهاها اللّهُ عنه، وهذا الصَّوتُ هو أحدُ الأسبابِ الخمسةِ الَّتي أقسمَ الشَّيطانُ أن يحتنِكَ بها ذرّيَّةَ آدمَ، ويستأصلَهم إلّا قليلًا، وهي استفزازُهُم بصوته[1].

بلاغةُ المَجازِ المُرسَلِ في التَّعبير بالصَّوت عنِ النِّداء:

التَّحقيرُ للشَّيطان ولصوتِه، بسبب هوانِه ودنوِّ شأنِه

عبَّرَ القرآنُ الكريمُ عن نداء إبليسَ لذرّيَّةِ آدمَ بقوله: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ﴾؛ لأنَّ المُرادَ بالصَّوت الدُّعاءُ إلى معصية اللّهِ عن طريق الوسوسةِ، وعبَّرَ عنِ الدُّعاء بالصَّوت تحقيرًا له حتَّى كأنَّه لا معنى له كصوت الحمارِ[2]، وعلى كلا الاحتمالين في المُراد بالصَّوت يكون معناه مَجازًا مُرسَلًا.

سرُّ تقديمِ الاستفزازِ بالصَّوت:

أهمّيَّتُه وكثرتُه، والوسائلُ بعدَه مُشترِكةٌ فيه

قدَّمَ القرآنُ الكريمُ الاستفزازَ بصوت الغناءِ والمَزاميرِ ونحو ذلك على بقيَّة وسائلِ إغراءِ إبليسَ لذرّيَّةِ آدمَ؛ لأهمّيَّته وكثرته، فكلُّ الوسائلِ بعدَه مُشترِكةٌ فيه، ولكثرة الَّذين يستقطبُهم إبليسُ بهذا الصَّوت الخبيث.

دلالةُ الإضافةِ في قوله: ﴿بِصَوۡتِكَ﴾:

تهوينُ ما يفعلُه إبليسُ، وتحذيرُ بني آدمَ من عداوتِه

دلَّتِ الإضافةُ في قوله: ﴿بِصَوۡتِكَ﴾ على التَّحقير والتَّهوين فيما

---

(1) ابن القيّم، الكلام على مسألة السّماع: 1/ 256.

(2) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/ 544، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 6/ 474.

يفعلُه إبليسُ، وكأنَّ صوتَه مُنكَرٌ، وفيه إشارةٌ إلى بذلِه بنفسِه هو فضلًا عن أتباعِه؛ لتحذير بني آدمَ من عداوتِه.

معنى عطف قوله: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم﴾ على ما قبلَه:

جميعُ وسائلِ الإضلالِ والغَوايةِ، بعضُها موصولٌ ببعض

قولُه: ﴿وَأَجْلِبْ﴾، أي: هوِّل، والجَلَبةُ الصَّوتُ الكثيرُ المُختلِطُ الهائلُ[1]؛ وفي هذا العطف جمعٌ لوسائل الغَوايةِ والإحاطةِ والاستيلاءِ على القلوبِ والمشاعرِ والعقولِ، فهي المعركةُ الصّاخبةُ، يستخدمُ فيها الصَّوتَ، فيزعجُ الخصومَ، ويخرجُهم من مراكزِهم الحصينةِ، أو يستدرجُهُم للفَخِّ المنصوب والمكيدةِ المُدبَّرة، فإذا استُدرِجوا؛ أخذَتهُم خيلُ المَعصيةِ ورَكبُها، وأحاطَت بهم رجالُ إبليسَ[2].

إيثارُ استعمالِ الفعلِ الفريدِ ﴿وَأَجْلِبْ﴾ في الآية:

الـدَّلالـةُ على معاني المُكايدة قولًا وفعلًا

آثرَ السّياقُ الكريمُ التَّعبيرَ بفعل الجَلَبةِ في قوله: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم﴾؛ لِما يحملُه هذا الفعلُ من معانٍ تميّزُهُ عن غيره مِنَ الإعلان والصّياح، فأصلُ الإجلابِ: الصّياحُ بصوتٍ مَسموعٍ، يُقالُ: أجلبَ فلانٌ على فرسِه، وجلبَ عليه؛ إذا صاحَ به ليستحثَّه على السُّرعة في المشي[3]، والإجلابُ في الحرب: جمعُ الجيشِ وسَوقُه؛ لأنَّ قائدَ الجيشِ إذا أرادَ جمعَ الجيشِ؛ نادى فيهم للنَّفيرِ أو لِلغارةِ والهُجوم[4]، والمعنى هُنا: صِحْ عَلَيهم، واجمعْ ما تقدِرُ عليه من مكايدِك وحبائلِك، واستعنْ عليهم، وتصرَّفْ فيهم بكلِّ ما تقدرُ، فلن أعجزَ عن منعِك ومنعِهم؛ إذا شئتُ[5].

دلالةُ التَّعبير بالمضارع في قوله: ﴿وَأَجْلِبْ﴾:

استحضارُ صورة معركةِ إبليسَ الـضَّـروس مع بني آدمَ

عبَّرَ القرآنُ الكريمُ بالمضارع في قوله: ﴿وَأَجْلِبْ﴾؛ للدَّلالة على

(1) الثّعالبيّ، الجواهر الحِسان: 3/ 484.

(2) شحاتة، تفسير القرآن الكريم: 15/ 2882.

(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 465، والسّيواسيّ، عيون التّفاسير: 3/ 24، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 389.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 153.

(5) العليميّ، فتح الرّحمن: 4/ 115، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/ 150.

تجدُّدِ حدوثِ هذه الجلبةِ مِنَ الشَّيطان وأتباعه ضدَّ ذرّيَّةِ آدمَ؛ فكلَّما وجدَهم في مَوضِع الطّاعةِ أجلبَ عليهم؛ كأنَّه في حربٍ؛ ليخرجَهُم مِن هذه الطّاعة، وفيه استحضارٌ لصورة هذه الجلبةِ، وممّا يُؤَكِّدُ ذلك ما يحدثُ له عندَ مغفرةِ اللّه تعالى لأهل عرفةَ مِنَ المَهانة والذِّلَّة: "ما رُئيَ الشَّيطانُ يومًا هو أصغَرُ ولا أدحَرُ ولا أحقَرُ ولا أغيظُ منهُ في يومِ عَرَفَةَ، وما ذلكَ إلّا لِما يرى مِن تَنَزُّلِ الرَّحمةِ، وتَجاوزِ اللّهِ تعالى عنِ الذُّنوبِ العِظامِ"(1)؛ ممّا يُؤذِنُ بأنَّه خسِرَ المعركةَ.

نكتةُ التَّعبيرِ بحرف (على):

تمكُّنُ الشَّيطانِ ممَّن اتَّخذَهم أعوانًا وأتباعًا

دلَّ التَّعبيرُ بـ(على) في قوله تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم﴾ على تمكُّنِ الشَّيطانِ من إغواء بني آدمَ؛ لأنَّ (على) تفيدُ الاستعلاء، وفي هذا إشارة إلى أنَّ الَّذين اتَّخذَهُم إبليسُ من ذرّيَّةِ آدمَ أعوانًا وأنصارًا وأتباعًا، تمكَّنَ منهُم تمكُّنَ الرّاكبِ من دابَّتِهِ، وهُم يَستحقّون هذه المَنزِلة؛ إذ بسبب تركِهم الإيمانَ صاروا كالأنعام، بل هُم أضلُّ.

سرُّ التَّعبيرِ بالإضمار في قوله: ﴿عَلَيْهِم﴾:

التَّهوينُ من شأن الَّذين اتَّبعوا الشَّيطانَ، وصاروا من جنوده

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالإضمار دون الإظهارِ في قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِم﴾، ولم يقُلْ: (على ذرّيّة آدمَ)؛ للتَّهوين من شأن هؤلاء الَّذين اتَّبعوا إبليسَ، وصاروا من جنودِه، فهُم ليسوا أهلًا للذِّكر في الآية، وفي هذا دلالةٌ على أنَّ أولياءَ الرَّحمنِ في مَوضِع العنايةِ والذِّكرِ والتَّشريف.

بلاغةُ المَجازِ في التَّعبير بلفظ الخيلِ:

الإشارةُ إلى فرسان إبليسَ وأعوانه مِنَ الإنس والجنِّ

الخيلُ اسمُ جمعِ الفَرَس، فالخيلُ يُطلَقُ على (الأفراس) حقيقةً، ولا واحدَ له من لفظه، وقيلَ: إنَّ واحدَه خائلٌ؛ لاختيالِه في مَشيه(2)، والمُرادُ به عند ذِكرِ ما يدُلُّ على الجيش الفرسانُ، ومنه ما جاء

(1) أخرجه مالك في الموطَّأ: 1/ 422، والبيهقيّ في شعب الإيمان، برقم: (4069).
(2) الشّهاب الخفاجيّ، عنايةُ القاضي: 6/ 79.

في الأثر: (يا خيلَ اللّهِ اركَبي)[1]، والمعنى: يا فُرسانَ خيلِ اللّه اركبي للجهاد في سبيل اللّه، والذَّبِّ عن حياض الدّين، وهذا من أحسنِ المَجازاتِ وألطفِها[2]، فأطلقَ الخيلَ هنا في الآية الكريمة على الفُرسان من أعوانِ إبليسَ إنسًا وجنًّا، الَّذين يزيِّنون المَعاصي، ويَدفعونَ إليها، وهذا مجازٌ مُرسَلٌ علاقتُه المحليَّة، وتكون بذكر لفظِ المحلِّ، ويُرادُ به الحالُّ، فذُكِرَت هاهُنا الخيل، وهي المَحلُّ، وأُريدَ بها الحالُّ، وهُمُ الفُرسان[3].

معنى (الباء) في ﴿بِخَيۡلِكَ﴾:

تنوُّعُ دلالاتِ الباءِ بين المُصاحبةِ والملابسة مفيدٌ في السّياق

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿بِخَيۡلِكَ﴾: إمّا لتأكيد لُصوقِ الفعلِ لمفعولِه، فهي لمُجرَّدِ التَّأكيدِ، ومَجرورُها مَفعولٌ في المَعنى لفعل ﴿وَأَجۡلِبۡ﴾، مثلَ قولِه تعالى: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ [المائدة: 6]، وإمّا لتضمين فِعلِ ﴿وَأَجۡلِبۡ﴾ معنى: اغزُهم، فيكونُ الفعلُ مُضمَّنًا معنى الفعلِ اللّازم، وتكونُ الباءُ للمُصاحبة[4]، وإمّا أن تكونَ الباءُ للمُلابسة؛ والمعنى: صِحْ عليهم حالَ كونِك مُلتبِسًا بجنودِك الرُّكّاب والمُشاة منهم، فالمرادُ بالخيل ركّابُها، وذلك كقُطّاع الطُّرق، الّذين يركبونَ الخيلَ، ويأخذون الأموالَ، ويقتلون النُّفوسَ[5].

أثرُ القراءات في قوله: ﴿وَرَجِلِكَ﴾:

كسرُ الجيم وإسكانُها واحدٌ يُرادُ به الكثرة

في قوله تعالى: ﴿وَرَجِلِكَ﴾ قرأَ حفصٌ وحدَه بالكسر، وهي لغةٌ

---

(1) عزاه غير واحد من أهل التّفسير إلى النّبيّ ﷺ، ولم أقفْ عليه من كلامِه ﷺ بهذا اللّفظ، والمنقول عنه ما رويَ عن سَمُرة بن جُندُب: قال: "أمّا بعد، فإنّ النَّبيَّ ﷺ سمَّى خيلَنا خيلَ اللهِ"، رواه أبو داود في سننه، برقم: (2560)، والظّاهرُ أنَّ عبارةَ "ياخيلَ الله اركَبي" من كلام غيره، فقد روى الحاكمُ في مُستدركِه عَن أُسَيرِ بنِ جابِرٍ قالَ: فَنادَى مُنادِي عَلِيٍّ رضي الله عنه: "يا خَيلَ اللَّهِ اركَبي وأبشِري"، يُنظر: المُستدرك على الصّحيحين، برقم: (3386)، وقال الذّهبيّ: صحيح على شرط مُسلم.

(2) ابن الأثير، النّهاية: 2/ 94.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 367، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 79، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 153.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 153.

(5) الصّاويّ، حاشيته على تفسير الجلالين: 2/ 327.

في (رجُلٍ) مَضمومِ الجيمِ بمعنى (راجل)، وهو الواحدُ مِنَ الرِّجال، فـ(رجُلٌ) على هذه القراءة واحدٌ يُرادُ به الكثرةُ.

وقرأَ الباقون بسكون الجيم ﴿وَرَجْلِكَ﴾ على أنَّه جمعُ (راجل)، نحو راكِبٍ وركْبٍ، وصاحِبٍ وصَحْبٍ، ويجوزُ أن تكونَ قراءةُ سكونِ الجيمِ مخفَّفةً من (رجُل)، نحو: عَضُد وكَتُف، وهي كذلك على هذه القراءةِ واحدٌ يُرادُ به الكثرة[1].

معنى الواو في قوله: ﴿بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾:

كلُّ راكبٍ أو ماشٍ في معصية اللهِ، فهو من جند الشَّيطانِ

دلَّتِ الواو في قوله: ﴿بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ على أنَّ إبليسَ له جندٌ مِنَ الشّياطين، بعضُهم راكبٌ وبعضُهم راجِلٌ، قال ابنُ عبّاس رضي الله عنهما: "كلُّ راكبٍ أو راجلٍ في معصية اللّهِ؛ فهو من خيلِ إبليسَ وجنودِه"، وقيلَ: المرادُ ضرْبُ المَثلِ، كما يُقالُ للرَّجلِ المُجِدِّ في الأمر: جئتَ بالخيل والرَّجْل[2].

بلاغةُ المَجازِ في التَّعبير بـ﴿وَرَجِلِكَ﴾:

الدَّلالةُ على كثرة أعوانِ إبليسَ، وتنوُّعِهم، قوَّةً ومَكرًا

الرَّجِلُ فَعِلٌ بمعنى فاعلٍ، فهو صفةٌ كحَذِرٍ بمعنى حاذرٍ، يُقالُ: فلانٌ يمشي رَجِلًا، أي: غيرَ راكبٍ[3]، وقد كانَت جيوشُ العربِ مُؤلَّفةً من رجّالةٍ يُقاتلونَ بالسُّيوف، ومن كتائبِ فُرسانٍ يُقاتلونَ بنَضحِ النِّبالِ، فإذا الْتَحَموا؛ اجتلَدوا بالسُّيوفِ جميعًا[4].

والتَّعبيرُ عن أعوان إبليسَ بالخيل والرَّجِل يدُلُّ على كثرتِهم وتنوُّعِهم، فمنهُم مَن يعملُ بسرعةٍ وقوَّةٍ، كما هو شأن الفُرسانِ في المَعركة، ومنهم دون ذلك كالرَّجّالة الّتي تُناطُ بهم مُهمّاتٌ تختلِفُ عن مهمَّة الفرسان[5]، فهو مَجازٌ مُرسَلٌ أيضًا، وهذا التَّعبيرُ المجازيُّ،

(1) ابن أبي مريم، الموضّح في وجوه القراءات وعللها: 2/ 761، وابن الجزريّ، النّشر: 2/ 308، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 153.
(2) ابن عادل، اللّباب: 12/ 330.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 105.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 153.
(5) الخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 79.

وهذه الألفاظُ الحربيَّةُ المخيفةُ، ينبغي أن توقظَ الإنسانَ، وتنبِّهَه إلى جديَّةِ ما يعملُه الشَّيطانُ في سبيل إغوائِه وتضليلِه وإهلاكِه بهذه الجيوشِ المُتنوِّعةِ الجرّارةِ الّتي لا تَني في بثِّ الرَّذائلِ والشُّكوكِ، الَّتي تنخرُ في جسدِ الإنسانِ وروحه[1].

بلاغةُ الكنايةِ في الإجلاب بالخيلِ والرَّجِل:

تمكينُ الشَّيطان مِن جَمعِ كُلِّ ما يستطيعُ جمعَه من قوّاتٍ ووسائلَ

في قوله تعالى: ﴿وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ كنايةٌ عن تمكينِه من جَمعِ كُلِّ ما يستطيعُ جمعَه من قوّاتٍ تنتشرُ في الأرض؛ لإغراءِ النّاسِ وإغوائِهم وإضلالِهم، وسوقِهم إلى مَعصيةِ اللّهِ فعذابِه، فكلُّ راكبٍ في معصيةِ اللّهِ فهو خيّالةُ الشَّيطان، وكلُّ ماشٍ في معصيةِ اللّهِ فمِن رجّالتِه[2].

بلاغةُ الاستعارةِ في تمثيل صراعِ إبليسَ مع البشر:

تصويرُ استفزازِ إبليسَ، بقائدٍ يقودُ معركةً حاميةَ الوطيس

صوَّرتِ الجملةُ الكريمةُ في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ استفزازَ إبليسَ في تمثيلٍ عجيبٍ لحربِه وحربِ أعوانِه على ذرّيَّةِ آدمَ؛ إذِ المعنى: أجمِعْ لِمَن اتَّبعَكَ من ذرّيَّةِ آدمَ وسائلَ الفتنةِ والوسوسةِ لإضلالِهم، فَجُعِلَت وسائلُ الوسوسةِ بتزيينِ المَفاسدِ وتَفظيعِ المَصالحِ كاختلافِ أصنافِ الجيشِ، فَهَذا تمثيلُ حالِ الشَّيطانِ وحالِ مُتَّبِعيه من ذرّيَّةِ آدمَ بحالِ مَن يَغزو قومًا بجيشٍ عظيمٍ من فرسانٍ ورَجّالةٍ[3]، وهي استعارةٌ تمثيليَّةٌ بديعةٌ مُركَّبةٌ، استُعيرَ فيه المَجموعُ والهيئةُ لِلمَجموعِ والهيئةِ، ووجهُهُ ما ذكرَهُ مِن استئصالِهم وإهلاكِهم، أو غَلَبَتِه وتسخيرِه لَهم[4]، فَصوَّرَت استفزازَ إبليسَ بصوتِه وإجلابِه بخيلِه ورجلِه، ومُثِّلَت حالُه في تَسَلُّطِه على مَن يُغويهِ بِمِغوارٍ أوقَعَ على قَومٍ، فَصَوَّتَ

---

(1) شحاتة، تفسير القرآن الكريم: 15/ 2882.
(2) ابن القيّم، الكلام على مسألة السّماع: 1/ 256.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 154.
(4) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/ 474.

بِهِم صَوتًا يَستفِزُّهم من أماكنِهم، ويُقلِقُهم عن مَراكزِهم، وأجلَبَ عليهم بجندِهِ من خَيّالةٍ ورَجّالةٍ حتّى استأصلَهُمُ[1].

دلالةُ التَّعبير بالمُفاعلة في قوله: ﴿وَشَارِكۡهُمۡ﴾:

المُفاعلةُ على بابها في الكسب مِنَ الحرامِ وإنفاقِه فيه، وتزيين المعاصي

عبَّرَ القرآنُ الكريمُ بالمُشاركةِ في قوله تعالى: ﴿وَشَارِكۡهُمۡ﴾ على وزن المُفاعلة؛ للدَّلالة على وجود دورٍ حقيقيٍّ له؛ لأنَّه إذا تسبَّبَ في كسب المالِ الحرامِ؛ كان شريكًا لهم؛ فإذا صرفوها فيما يأمرُهم به إبليسُ كان ذلك من باب المُشاركة.

سرُّ تخصيص مشاركة إبليسَ في الأموال والأولاد:

أهمّيَّةُ الأموالِ والأولادِ، وشدَّةُ التَّعلُّقِ بهما في أحوال العباد

خصَّصَ القرآنُ الكريمُ مشاركةَ إبليسَ في الأموال والأولاد في قوله تعالى: ﴿وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾ دون غيرهما؛ لأهمّيَّتهما وشدَّة التَّعلُّقِ بهما؛ فالأولادُ يُستأنَسُ بهم في حال الوحشةِ أو للاستنصارِ بهم على العدوِّ، أو للذِّكرِ بعدَ الوفاةِ، وكذلك الأموالُ يُطلبُ بها الانتفاعُ في حال الحياةِ للمَعيشة وغيرها، أو للمَعونة على الأعداء، أو للذِّكر بعدَ الموتِ بفعل الصَّدقاتِ الَّتي يتركونها بعدَ الموت[2].

بلاغةُ المَجازِ في التَّعبير بالمُشاركة في الأموال والأولاد:

التَّنبيهُ على أنَّ إبليسَ هو الدّافعُ للإنسان إلى كُلِّ تصرُّفٍ قبيحٍ

بيَّنَتِ الآيةُ الكريمةُ مُشاركةَ إبليسَ بني آدمَ في أموالهم في قوله تعالى: ﴿وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ﴾ الَّتي هي عبارةٌ عن كُلِّ تصرُّفٍ قبيحٍ في المال، سواءٌ كان ذلك القبيحُ بسبب أخذِهِ من غير حقِّه، أم وضعِهِ في غير حقِّه، ويدخُلُ فيه الرِّبا والغَصبُ والسَّرقةُ والمُعاملاتُ الفاسِدةُ[3]، ومنها أن يكونَ للشَّيطان نصيبٌ في أموالِهم وهي أنعامُهم وزروعُهم؛ إذ سوَّلَ لهُم أن يجعلوا نصيبًا في النِّتاج والزِّراعة للأصنام، وهي من مَصارف الشَّيطان؛ لأنَّ الشَّيطانَ هو

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 261، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 80.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 7/ 80.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 367.

المسوِّلُ للنّاس باتِّخاذِها، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ﴾ [الأنعام: 136][1]؛ فقد جعلَ المشركون جزءًا ممّا خلقَ اللهُ مِنَ الزُّروعِ والثِّمارِ والأنعام يقدِّمونَه للضّيوف والمساكين، وجعلوا قسمًا آخرَ من هذه الأشياءِ لشركائِهم مِنَ الأوثان والأنصاب.

وأمّا مُشاركةُ إبليسَ بني آدمَ في أولادِهم؛ فهي أن يكونَ للشَّيطان نصيبٌ في أحوال أولادِهم، مثلَ: تسويلِهِ لهم أن يَئِدوا أولادَهم، وأن يَستَولِدوهم مِنَ الزِّنى، وأن يُسَمّوهم بعبَدَةِ الأصنام، كقولهم: عبدُ العُزَّى، وعبدُ اللّات، وزيدُ مَناة، ويكون انتسابُهُ إلى ذلك الصَّنم[2].

فمشاركةُ الشَّيطانِ للإنسان في أمواله وأولادِه لا يمكنُ حملُها على الحقيقة، وإنَّما شَرِكَتُهُ معهم بما هو سببٌ في حملِهم على كسبِها ممّا لا ينبغي، وصرفِها فيما هو غير شرعيٍّ، على وجه التَّمرُّدِ والعصيانِ اللَّذين هما من طبائع الشَّيطانِ، ولذلك نرى المُفسِّرين يَذكرون وجوهًا لهذه الشِّركةِ، كلُّها يمكنُ أن تكونَ صحيحةً.

وفي كُلِّ هذه الوجوهِ فإنَّ مُشاركةَ الشَّيطان هاهُنا هي مجازٌ مُرسَلٌ علاقتُه السَّببيَّةُ؛ لأنَّ إبليسَ هو الدّاعي إلى كُلِّ ذلك، وهذا وجهُ شركته مع الإنسان الغافلِ أو المُتغافِلِ عن حيَلِ الشَّيطان ومكره، ويجوزُ أن يكونَ المرادُ بالمُشاركة في الإثم والعذاب؛ لأنَّه يشاركُهُم فيها بالأخذ، بل يريدُ منهُم الإغواءَ، فهو يغويهم ويشاركهم في المَأثم فقط[3].

سرُّ تأخيرِ قوله: ﴿وَعِدۡهُمۡۚ﴾ عن كلِّ ما سبق:

حبائلُ إبليسَ بين التَّهديد والتَّلطُّف والمُنى الكاذبة

جاءَ قولُه تعالى: ﴿وَعِدۡهُمۡۚ﴾، في آخر الأسبابِ الخمسةِ الَّتي

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 319، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 3/ 442.
(2) الخازن، لباب التّأويل: 3/ 136، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/ 366.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4417.

أقسمَ الشَّيطانُ أن يحتنِكَ بها ذرّيَّةَ آدمَ، ويستأصلَهُم إلّا قليلًا منهم؛ وذلك أنَّه يعطيهم المَواعيدَ بحصول ما يَرغبونَه، كما يُسوِّلُ لهم بأنَّهُم إن جَعلوا أولادَهُم للأصنام سَلِمَ الآباءُ مِنَ الثَّكل، والأولادُ مِنَ الأمراض، ويُسوِّلُ لهم أنَّ الأصنامَ تَشفعُ لهم عند اللّهِ في الدُّنيا، وتضمَنُ لَهُمُ النَّصرَ على الأعداء[1]. فالشَّيطانُ يُعلنُ الحربَ على أبناءِ آدمَ، ويأتي بكُلِّ ما معَه من عَددٍ وعُدَّةٍ، ويَجلبُ بخَيله ورَجِله، ويشارِكُهُم في أموالِهم وأولادِهم؛ وذلك بما يفسدُ عليهم من أموالٍ وبنينَ، ثُمَّ إذا لم يَجدْ في ذلك ما يُمَكِّنُه منهُم، فإنَّه يأتيهم مُتَلَطِّفًا مُتودِّدًا، بعد أن جاءَهم مُهَدِّدًا، مُتوعِّدًا، مُفسدًا، فيمدُّ لهم في حبل الأماني، ويُكثِرُ لهم مِنَ الوعود المَعسولةِ الكاذبة[2].

سرُّ التَّعبيرِ بالوعد فيما يُمليه إبليسُ على بني آدمَ:

إيهامُ حصولِ الوعدِ فيما يُستقبلُ، فلا يزالُ الأغرارُ ينتظرونه

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالوعد في قوله تعالى: ﴿وَعِدۡهُمۡۚ﴾؛ لأنَّه يوهِمُهم حُصولَه فيما يُستقبَلُ، فلا يَزالون يَنتظرونَهُ كشأن الكذّابِ أن يحترزَ عنِ الإخبار بالعاجل لقُرب افتضاحِه، فَيجعلُ مواعيدَه كُلَّها للمُستقبل[3].

دلالةُ الإيجازِ بالمفعول:

تعميمُ موعوداتِ الشَّيطانِ؛ لأنَّ المَقامَ دالٌّ على المَقصود

حُذِفَ المفعولُ الثّاني من قوله تعالى: ﴿وَعِدۡهُمۡۚ﴾؛ للتَّعميم في المَوعود به، والمقامُ دالٌّ على أنَّ المقصودَ أن يَعِدَهم بما يرغبون؛ لأنَّ العِدَةَ هي التزامُ إعطاءِ المَرغوب[4].

ويكون المرادُ في ﴿وَعِدۡهُمۡۚ﴾، أي: (المواعيدَ الباطلةَ)؛ كشفاعة الآلهة، ونَفعِ الأنسابِ الشَّريفةِ فيمَن لَم يُطِعِ اللّه تعالى أصلًا، وعدمِ خلودِ أحدٍ في النّار؛ لمنافاةِ ذلك عِظمَ الرَّحمةِ وطولَ أملِ البقاءِ في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 154.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 8/ 518.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 184، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 155.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 155.

الدُّنيا، ومِنَ الوعدِ الكاذبِ وعدَه إيّاهُم أنَّهم إذا ماتوا؛ لا يُبعَثون، وغيرُ ذلك ممّا لا يُحصَى كثرةً.

دلالةُ الأوامرِ الواردةِ في الآيةِ الكريمة:

الاستخفافُ بإبليسَ وبكيده، والتَّنديدُ به وتهديدُهُ واستدراجُهُ

بعدَ النَّظرِ في سياق هذه الأفعالِ وطريقة عرضها نجدُ أنَّ هناك خمسةَ أفعالٍ للأمر مُتنوِّعةٍ ومُتتابعةٍ في السّياق الكريم، هي: ﴿ٱذۡهَبۡ﴾ - ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ﴾ - ﴿وَأَجۡلِبۡ﴾ - ﴿وَشَارِكۡهُمۡ﴾ - ﴿وَعِدۡهُمۡۚ﴾، ونستطيعُ أن نستشفَّ معانيَ أُخر، منها: الإمهالُ المَشوبُ بالتَّهديد والوعيد، والتَّهديد والاستدراج لا التَّكليف؛ لأنَّها كُلَّها معاصٍ، واللّٰهُ لا يأمرُ بها[1]، فمعنى صيغة الأمرِ هُنا التَّهديدُ، كما يُقالُ: اجهدْ جهدَك؛ فسترى ما ينزلُ بك[2]، فكلُّها تهدفُ إلى التَّنديدِ به وتهديدِهِ واستدراجِهِ[3].

سرُّ التَّفصيلِ في مَوطِنِ الإجمال:

التَّدليلُ والتَّنبيهُ على طُرق إبليسَ في تدليسِه على النّاس

نلاحظُ أنَّ الأفعالَ الأربعةَ الأخيرةَ: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ﴾ - ﴿وَأَجۡلِبۡ﴾ - ﴿وَشَارِكۡهُمۡ﴾ - ﴿وَعِدۡهُمۡۚ﴾ هي تفصيلٌ وتنويعٌ لفعل التَّهديدِ في الآية السّابقةِ: ﴿ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ﴾ الَّذي يدُلُّ على إمهال إبليسَ بكلِّ ما يفعلُه من وسوسةٍ وانحرافٍ للخَلقِ، والتَّفصيلُ بذكر الأفعالِ الأخرى هو للتَّدليل والإيحاءِ إلى طرق إبليسَ في تدليسِهِ على النّاس وختلِهم وإغوائِهِم، فكانَت بذكرِها فائدةٌ تفصيليَّةٌ ومعنى آخر، غايتُه البيانُ من أجل تنبيهِ الآخرين على عدوِّهِم من خلال توجيهِ الخطابِ له على وجه الفضيحةِ وكشفِ الأسرارِ، وهو كمَن يقولُ لأحد الأشرارِ مُخاطِبًا إيّاه: افعلْ كذا، وكذا بالنّاس، وغايتُهُ تنبيهُ السّامعينَ على أعمالِه وحيلِه الَّتي يتَّبعُها هذا الشَّريرُ في الإضرار بالآخرين بُغيةَ الحذرِ منه[4].

(1) الجمل، الفتوحات الإلهيَّة: 4/ 328.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 367.
(3) درويش، إعراب القرآن الكريم: 5/ 468.
(4) ملا حويش، بيان المعاني: 2/ 527.

بلاغةُ الالتفاتِ في قوله ﴿وَعِدۡهُمۡۚ﴾:

تقويةُ الاعتراضِ بصرف الخطابِ عنِ الشّيطان للإشعار بعليَّة شيطنته

وقعَ الالتفاتُ مِنَ الخطاب إلى الغَيبة في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾، وكان المُقتضَى أن يقولَ: (وما تَعِدُهُم)، لكنَّه عَدَلَ عن ذلك؛ لتقويةِ معنى الاعتراضِ مع ما فيه من صرف الكلامِ عن خطابه وبيانِ حالِهِ للنّاس، ومِنَ الإشعار بعليَّة شيطنتِه للغُرور، وهو تزيينُ الخطأ بما يوهِمُ أنَّه صوابٌ[1]، كما أنَّه التفتَ إلى الصّالحين من عبادِه فأخبرَهم تثبيتًا لهم وتنبيهًا لغيرِهم على أنَّه ليس بيده شيءٌ[2].

بلاغةُ القصر بـ(ما) و﴿إِلَّا﴾ في ختام الآية:

التَّحذيرُ مِنَ الشَّيطان، وأمانيه الباطلة ومُغرياته

ظهرَتِ البلاغةُ النّاصعةُ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ بقَصر صفةٍ على مَوصوفٍ بالنَّفي والاستثناء، والمعنى: أنَّ ما سوَّلَه الشَّيطانُ للنّاس في حصول المَرغوب، هو إمّا باطِلٌ لا يَقعُ، مثلَ ما يُسَوِّلُهُ للنّاس مِنَ العقائدِ الفاسدةِ، وكونِهِ غُرورًا؛ لأنَّه إظهارٌ لما يَقعُ في صورة الواقعِ، فهو تلبيسٌ، وإمّا حاصِلٌ لكنَّه مَكروهٌ غيرُ مَحمودٍ[3].

وفي هذا القَصرِ تحذيرٌ مِنَ الشَّيطان، وأمانيه ومُغرياتِه الَّتي يُمنّي بها النّاسَ، ويغريهم بها، فما هي إلّا ضلالٌ في ضلالٍ، وأباطيلُ لا تجيءُ إلّا بالأباطيل! وتحذيرُ النّاسِ مِنَ الشّيطان ومُغرياتِه، وإنْ كانَ لا يَرُدُّ شيئًا ممّا قضى به اللّه في عبادِه، فإنَّه تحذيرٌ مِنَ الشَّرِّ، وترغيبٌ في الخيرِ، وعلى التَّحذير والتَّرغيب يعتدلُ ميزانُ النّاس، إذ يجدونَ القانونَ الَّذي يَحتكمونَ إليه[4].

بلاغةُ الاعتراضِ ببيان صفةِ وعدِ الشَّيطان:

سيقَت جملةُ قوله: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ اعتراضًا لبيان ذمِّ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 184.

(2) المهائميّ، تبصير الرّحمن: 1/ 432.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 155.

(4) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 518.

مَواعيدِ الشَّيطانِ؛ لأنَّها وقعَت بين الجُمَلِ الّتي خاطبَ اللّه بها الشَّيطان[1].

إيثارُ إظهارِ لفظ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾:

تحقيرُ الشَّيطانِ وتقبيحُ أمرِه والتَّنفيرُ منه

جاءَ التَّعبيرُ بلفظ الشَّيطانِ مُظهرًا بدلًا من إضمارِه؛ لغرض تحقيرِه، تقبيحًا لأمرِه وتنفيرًا منه، إذ قال تعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾[2]، وفي إظهار اسم الشَّيطانِ في هذا السّياق - دونَ الاكتفاءِ بأن يُؤتَى بضميرِهِ المُستَتِرِ، كأنْ يقولَ: (وما يَعِدُهُم إلّا غُرورًا) - إبرازٌ لحضورِه وأحابيلِه؛ لأنَّ هذا الاعتراضَ جملةٌ مُستقِلَّةٌ، فلو كانَ فيها ضميرٌ عائدٌ إلى ما في جملةٍ أخرى؛ لكانَ في النَّثرِ شِبهُ عيبِ التَّضمينِ في الشِّعر، ولأنَّ هذه الجملةَ جاريةٌ مَجرَى المَثَلِ، فلا يَحسُنُ اشتِمالُها على ضميرٍ ليسَ مِن أجزائِها[3].

علَّةُ إيثارِ لفظ ﴿غُرُورًا﴾:

تزيينُ الباطلِ في صورةِ الحقِّ للتَّضليلِ والخداعِ

الغرورُ: إظهارُ الشَّيءِ المكروهِ في صورة المَحبوبِ الحسنِ، كقوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦﴾ [آل عمران: 196]، وقوله: ﴿زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾ [الأنعام: 112]، وعليه يكون المعنى: إنَّ الشَّيطانَ يزيّنُ لهم الباطلَ بصورة الحقِّ إيهامًا، فيظنُّ المغرورُ به أنَّه صوابٌ[4].

التّعدُّدُ الإعرابيُّ لقوله: ﴿غُرُورًا﴾، وأثرُ ذلك في المعنى:

تعدُّدُ التَّوجيهات الإعرابيَّةِ إثراءٌ للمعنى

تعدَّدتِ الأقاويلُ في إعراب قولِه تعالى: ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾، فمنهم مَن قالَ: إنَّه منصوبٌ على أنَّه نعتُ مَصدرٍ مَحذوفٍ، وهو نفسُه مَصدر، الأصلُ: إلّا وعدًا غُرورًا، فيجيءُ فيه ما في (رَجُلٍ عَدلٍ)، أي: إلّا وعدًا ذا غُرورٍ، أو منصوبٌ على المُبالغةِ، أو على تقدير: وعدًا غارًّا،

(1) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 5/ 455، والقنّوجيّ، فتح البيان: 7/ 420.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 470.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 155.

(4) ملا حويش، بيان المعاني: 2/ 527.

ونَسَبَ الغُرورَ إليه مَجازًا، أو أنَّه مَفعولٌ من أجلِه، أي: ما يَعِدُهُم مِمّا يَعِدُهُم مِنَ الأمانيِّ الكاذبةِ إلّا لأجلِ الغُرورِ، ويجوز أن يكونَ مَفعولًا به على الاتِّساع، أي: ما يَعِدُهُم إلّا الغرورَ نفسَه[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القُدرَة والاستِطاعة:

كلُّ مُستطيع قادرٌ، وليسَ كلُّ قادرٍ مُستطيعًا

القدرةُ على الشَّيء مُلكُه[2]، والاستطاعةُ: هي استفعالٌ مِنَ الطّاعةِ والانقيادِ[3]، فالاستطاعةُ طاعةُ الجوارحِ للفعل والانقياد له، ويُقالُ: أطاعَه؛ إذا انقادَ له، فهي انطباعُ الجوارح للفعل، فتكون الاستطاعةُ أخصَّ مِنَ القُدرة، فكلُّ مُستطيعٍ قادرٌ، وليس كلُّ قادرٍ مُستطيعًا، فيُقالُ: فلانٌ قادرٌ على فعل الشَّيءِ، لكنْ لا يستطيعُه لمانعٍ يمنعُه[4].

(1) ابن عادل، اللّباب: 12/ 333.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (قدر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (طوع).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة: 1/ 110.

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ٦٥﴾

[الإسراء: 65]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقةُ بين تمكين الشّيطانِ مِنَ الغواية، وحماية الصّالحين من سلطانِه

بعد أن ذكرَتِ الآيةُ السّابقةُ وسائلَ إغواءِ إبليسَ لآدمَ، وإرخاءَ العَنانِ له في قوله: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم﴾؛ رجعَ الكلامُ في هذه الآيةِ الكريمةِ إلى مواجهةِ إبليسَ بما يُحَقِّرُ أمرَهُ، فإنَّ المواجهةَ بالتَّحقيرِ أنكأُ، مُصَرِّحًا بنتيجةِ ذلك، وهي أنَّه غيرُ قادرٍ إلّا بإذنِه سُبحانَه، ومَمنوعٌ عنه ما لم يُقَدِّرْه لهُ، دَفعًا لِما قد يوهِمُه ما مضى من أنَّه يُؤثِّرُ شيئًا استِقلالًا، فقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌۚ﴾[1].

ولمّا قالَ اللّهُ في الآيةِ السّابقةِ للشَّيطان على سبيل الوعيدِ والتَّهديدِ: افعلْ ما تَقدِرُ عليه؛ جاءَت هذه الآيةُ لِرَبطِ جأشِ سائرِ المُكلَّفين بقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌۚ﴾، فَخَتَمَ سبحانَه الآياتِ بغرس الطُّمأنينةِ في قلوبِ المُؤمنينَ الصّادقينَ[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿سُلْطَٰنٌۚ﴾: أصلُ الكلمةِ مِنَ السَّلاطَةِ، وهي القوَّةُ والتَّمَكُّنُ والقَهرُ[3]، يُقالُ: سَلَّطَهُ عليه، أي: مَكَّنَهُ منهُ، وحَكَّمَهُ فيه، والسُّلطانُ: قُدرةُ المَلِك، وقُدرةُ مَن جُعِلَ ذلك له، وإنْ لم يكن مَلِكًا[4]، سُمّيَ سُلطانًا؛ لأنَّهُ يُكسِبُ المُستدِلَّ به سُلطةً على مُخالفهِ ومُجادِله[5]،

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 470.
(2) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 8/ 392.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلط).
(4) الخليل، العين: (سلط).
(5) الخليل، العين: (سلط)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 232.

ويأتي بِمعنى الخَليفَةِ، والإمام، والقاضي، والسَّليطُ مِنَ الرِّجالِ: الفَصيحُ اللِّسانِ الذَّرِبُ[1]، والسُّلطانُ أيضًا: الوِلايَةُ والحُجَّةُ والبُرهانُ، قال تعالى: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ٢٩﴾ [الحاقّة: 29]؛ أي: حُجّيَّتُه، والمقصودُ بالسُّلطانِ في الآية: التَّسَلُّطُ والتَّصَرُّفُ المَكينُ، والمرادُ بنفيه بقولِه: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ هو الحُكمُ المُستَمِرُّ بحيثُ يكونونَ رعيَّته ومِن جُندِه[2].

2) ﴿وَكَفَىٰ﴾: (كفى) أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على الحَسبِ الَّذي لا مُستَزادَ فيه، يُقالُ: كَفاكَ الشَّيءُ يَكفيكَ، وقد كَفَى كِفايةً؛ إذا قامَ بالأمرِ[3]، واستكفيتُه أمرًا فكفانيه، وكفاكَ هذا، أي: حَسْبُكَ[4]، والكُفْيَةُ: القوتُ الكافي، والجَمعُ كُفًى[5]، والمرادُ بـ ﴿وَكَفَىٰ﴾ في الآية: أجزَأَ وأغنَى عَن غيرِه.

3) ﴿وَكِيلًا﴾: أصلُ (وكل) يدُلُّ على اعتِمادِ غَيرِكَ في أمرِكَ، مِن ذلك الوُكَلَةُ، والوكَلُ: الرَّجُلُ الضَّعيفُ[6]، والتَّوكُّلُ يُقالُ على وجهين، يُقالُ: تَوكَّلْتُ لفلانٍ بمعنى: تولَّيتُ لَه، ويُقالُ: وكَّلتُه، فَتَوكَّلَ لي، وتَوكَّلْتُ عليه بمعنى: اعتمدتُه، قال ﷻ: ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٥١﴾ [التّوبة: 51][7]، وواكَلَ فُلانٌ؛ إذا ضَيَّعَ أمرَهُ مُتَّكِلًا على غيرِه، وسُمّيَ الوكيلُ بذلك؛ لأنَّه يوكَلُ إليه الأمرُ، والمواكَلَةُ: إذا اتَّكلتَ عليه واتَّكَلَ عليكَ[8]، والمقصودُ بالوكيلِ في الآية: فَعيلٌ بمعنى مَفعولٍ، أي: مَوكولٍ إليه، والمرادُ: كافيهم اللّه تعالى أمورَهُم وأسبابَهُم، فمَنِ اتَّخذَهُ وكيلًا؛ كفاه.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

يخاطبُ الحقُّ ﷻ إبليسَ في هذه الآية بقولِه: إنَّ عبادي الَّذين أطاعوني فاتَّبعوا أَمري وعصوك، ليس لك عليهم - يا إبليسُ - تَسَلُّطٌ ولا حُجَّةٌ، ولا تَستطيعُ إغواءَهم أو إضلالَهم،

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلط).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 156.
(3) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (كفى)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (كفا).
(4) الخليل، العين: (كفي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كفا).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وكل).
(7) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (وكل).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وكل).

عبودية الله والتَّوكُّل عليه بيقينٍ، عصمةٌ مِنَ الشَّيطان اللَّعين

فاللّهُ يَحفَظُهم ويَحرُسُهم ويُؤَيِّدُهم، وكفى بربِّك - أيُّها الرَّسول - حافِظًا مِن كيدِ الشَّياطينِ ومَكرِهم، وناصِرًا ومُؤَيِّدًا للمُتوكِّلينَ(1).

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ عبوديةَ اللّه والقيامَ بالإيمان والتَّوكُّلَ على اللّه ممّا يُعتصَمُ به من فتنة الشّيطانِ الرَّجيم، وإلى حفظِ اللّه تعالى لأوليائه وعبادِه الصّالحينَ من نزغات الشَّيطانِ، ونجاتِهم من إغوائِه وأَباطيلِه، وهم المؤمنونَ المُتَّقونَ(2).

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصل جملة ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ عمّا قبلَها:

الجملةُ من تمام الكلامِ المَحكيِّ سابقًا

فُصِلَت جملةُ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌۚ﴾ عمّا قبلَها؛ لأنَّها من تمام الكلامِ المَحكيِّ بقوله: ﴿قَالَ ٱذۡهَبۡ﴾؛ وهي جُملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن قوله: ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ﴾، وقوله: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم﴾؛ فإنَّ مفهومَ ﴿فَمَن تَبِعَكَ﴾ و﴿مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ﴾ ذرّيَّة آدمَ، من قبيل مفهوم الصِّفة، فيُفيدُ أنَّ فريقًا من ذرّيَّة آدمَ لا يتَّبعُ إبليسَ، فلا يَحتنِكُه، وهذا المفهومُ يُفيدُ أنَّ اللّه قد عَصَمَ أو حَفِظَ هذا الفريقَ مِنَ الشَّيطان، وذلك يُثيرُ سؤالًا في خاطر إبليسَ؛ ليَعلَمَ الحائلَ بينَه وبينَ ذلك الفريق، بعدَ أن عَلِمَ في نفسِه عِلمًا إجماليًّا أنَّ فريقًا لا يَحتنِكُهُ لقوله: ﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: 62](3)، فجاء الجوابُ المُؤَكَّدُ هُنا بعصمة الخُلَّصِ من عباد اللّهِ الصّالحين؛ دَفعًا لِما قد يوهِمُه ما مضى من أنَّه يُؤَثِّرُ شيئًا استِقلالًا(4)، فلذلك فُصِلَت هذه الجُملةُ عمّا سَبَقَها.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 666، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 462، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 3/ 171.

(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: 462، ومَجمع البحوث الإسلاميّة، التّفسير الوسيط: 5/ 780، والجزائريّ، أيسر التّفاسير: 3/ 211.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 156.

(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 470.

دلالةُ التَّأكيدِ في صدر الجملةِ الكريمةِ:

مَزيدُ الاعتناءِ بالعبادِ الصّالحين، بتأكيد نجاتِهم من إبليسَ المَهين

ابتدأ صدرُ الآية الكريمةِ بالتَّأكيد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾، أي: الّذين أخلصوا دينَهُم لي، ليس لك - يا إبليسُ - تسلُّطٌ واقتدارٌ على إغوائهم، وإضلالهم، وصرفهم عنِ السَّبيل الحقِّ إلى السَّبيل الباطلِ، وقد جاء هذا المعنى مُؤكَّدًا هنا، وفي نظائرها مِنَ القرآن الكريم قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩﴾ [النّحل: 99]، وقال سُبحانه ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ٤٢﴾ [الحجر: 42][1]، وتأكيدُ الحُكمِ مع اعتراف الخَصم به لمزيد الاعتناء[2].

سِرُّ اصطفاء لفظ العبوديَّة في الآية:

الـدَّلالـةُ على تمحُّضهم للعبادة وتحقيقهم لها

وقعَتِ الإشارةُ إلى تعيين هذا الفريق النّاجي من إغواء الشَّيطانِ وإضلاله بالوصف المُفيدِ للتَّشريف لهم في قوله تعالى: ﴿عِبَادِى﴾ الدّالِّ على أنَّهم تَمحَّضوا لعبوديَّة اللّه تعالى، كما تدُلُّ عليه الكلمةُ والإضافةُ، فمَن تحقَّقَ بالعبوديَّة للّه؛ نجا من سلطان الشَّيطان[3]، فأعظمُ ما يُعتصَمُ به من فتنتِه، هو عبوديَّةُ اللّه، والقيامُ بالإيمان[4].

دلالةُ إضافةِ (عباد) إلى ياء المتُكلِّم:

تعظيمُ شأن المُخلَصين في عبادة ربِّهم وتشريفُ مقامِهم

دلَّتِ الإضافةُ إلى ياء المتكلِّم في قوله تعالى: ﴿عِبَادِى﴾ على علوِّ قدرِهم وعظيم إخلاصِهم؛ لذلك كانَتِ[5] الإضافةُ هنا للتَّعظيم، فتدلُّ على وصف العبادِ بالمُخلَصين، كما وقَعَ التَّصريحُ به في الآيات الأخرى؛ "فلهم شرف الانتساب إلى اللّه تعالى؛ لأنَّهم قاوموا غرورَ الشَّيطان وخداعَه وإغواءَه، فكانوا جديرين بأن يختصَّهُمُ اللّه بأنَّهم

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 392.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 107.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 156.
(4) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 539.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 471.

عبادُهُ، وإنْ كان الجميعُ عبادًا؛ لأنَّه خلقَهُم، فالطّائعُ والعاصي عبادُ اللّهِ، لكنَّ الاختصاصَ هُنا للطّائعين"[1].

ولقرينة كونِ اللّهِ تعالى وكيلًا لهم يحميهم من شَرِّ الشَّيطانِ، فإنَّ مَن هو كذلك لا يَكونُ إلّا عبدًا مُكَرَّمًا مُختصًّا به تعالى، وكثيرًا ما يُقالُ لِمَن يَستولي عليه حُبُّ شيءٍ، فَينقادُ له: عَبدُ ذلك الشَّيءِ، ومنه عَبدُ الدّينارِ والدِّرهمِ، وفي هذه الإضافة إيذانٌ بعلَّة ثبوتِ الحُكمِ في قوله سبحانَه بعدَ ذلك: ﴿لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞ﴾[2].

وفيه إشارة إلى أنَّ الآخرين أتباعُ الشَّيطان، فهُم كعبادِه، ولذلك يُقالُ عنهم: عَبدةُ الشَّيطان، وعَبدةُ الطّاغوت[3].

فائدةُ نفي سُلطان إبليسَ على عباد اللهِ المؤمنين:

لَحظُ صفةِ العبوديَّةِ للرَّحمن، وبيان فضلِها في عصمة أهل الإيمانِ

نفى القرآنُ الكريم سلطانَ إبليسَ في قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ لَكَ﴾، أي: بوجهٍ مِنَ الوجوه[4]، ونفى السُّلطانَ، وهو الحُجَّةُ والاقتدارُ على إغوائِهم عنِ الإيمانِ، ويدُلُّ على لَحظِ الصِّفةِ قولُهُ: ﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ﴾ [النّحل: 100][5].

سرُّ النَّفي بلفظ ﴿لَيۡسَ﴾ دونَ غيرها من أدوات النَّفي:

نفي تمكُّنِ إبليسَ من عباد الله المُخلَصين، ظاهرًا وباطنًا

آثرَ القرآنُ الكريمُ النَّفيَ بـ ﴿لَيۡسَ﴾ دونَ غيرِها من أدوات النَّفي؛ لأنَّها أبلغُ في النَّفي ومُتمحِّضةٌ فيه، والدَّليلُ على ذلك أنَّ اللّهَ ﷻ لمّا نفى المماثلةَ عن نفسِه؛ قال: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾؛ لذلك كان النَّفيُ بها هنا أولى للدَّلالة على عدم تمكُّنِ إبليسَ من عباد اللّهِ المُخلَصين في الظّاهر والباطن.

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4417.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 107.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4417.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 471.
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 81.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿لَكَ﴾:

زجرُ إبليسَ والتَّحقيرُ من غَوايته

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾؛ لزجر إبليسَ وللتَّحقير من غَوايتِه، ولبيان أنَّ ما يفعلُه مع بعض ذرّيَّةِ آدمَ هو بقدَرِ اللّٰهِ وإذنه له.

إيثارُ استعمال لفظ ﴿سُلْطَانٌ﴾ دونَ غيره:

بيانُ قوَّةِ السُّلطانِ في كونه يتسلَّطُ على نفس المُعارِضِ ويُقنِعُه

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بلفظ السُّلطانِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾؛ لدلالته على معانٍ عدَّةٍ؛ أحدها: القوَّة والقهر، ثانيها: الحجَّة والبرهان، ثالثها: الولاية.

فأمّا القدرةُ والقهرُ؛ فليس له عليهم ذلك؛ لأنَّ اللّٰهَ لم يجعلْ له قدرةَ القهرِ عليهم، وكذلك ليس له عليهم الحُجَّةُ فيما يدعوهم إليه، ويأمرُهُم به، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ [إبراهيم: 22]، وأمّا سلطانُ الولايةِ؛ فإنَّه له ذلك على مَن اختارَ له اتِّباعَهُ وتوليتَهُ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ [النّحل: 100]، وعلى هذا؛ فالسُّلطانُ المَنفيُّ في قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ هو الحُكمُ المُستمِرُّ بحيث يَكونونَ رَعيَّتَهُ ومن جُندِهِ، وأمّا غيرُهُم؛ فقد يَستهويهِمُ الشَّيطانُ، ولكنَّهُم لا يَلبثونَ أن يَثوبوا إلى الصّالحاتِ، ويكفي من ذلك دَوامُ توحيدِهم للّٰه، وتصديقُهم رسولَهُ، واعتبارُهم أنفسَهم عبادًا للّٰه، مُتَطَلِّبينَ شكرَ نعمتِهِ، فشتّانَ بينَهُم وبينَ أهلِ الشِّركِ، فالمُؤمنُ لا يتولَّى الشَّيطانَ أبدًا، ولكنَّه قد يَنخَدِعُ لِوسواسِهِ، وهو مع ذلِكَ يلعنُهُ فيما أوقَعَهُ فيه مِنَ الكبائرِ، وبمِقدارِ ذلك الانخِداعِ يَقتربُ من سلطانِه[1].

فائدة عطف جملة: ﴿وَكَفَىٰ﴾:

الجملةُ المعطوفةُ من قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ﴾ مُقرِّرةٌ لما قبلَها، وهذا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 156.

تقريرُ مَضمون الجملةِ السّابقة بتعيين الفريقِ النّاجي

التَّقريرُ فيه تعيينٌ للفريق النّاجي من حبائل الشَّيطانِ بالسَّببِ بعدَ تعيينِهم بالوصفِ، فقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ يُفيدُ أنَّهم توكَّلوا على اللّه، واستعاذوا به مِنَ الشَّيطان، فكان خيرَ وكيلٍ لهم؛ إذ حاطَهم مِنَ الشّيطان، وحَفِظَهُم منهُ[1]، وفيه توصيةٌ للمُؤمنين بأن يتوكَّلوا على ربِّهم؛ ليحميَهُم من إغواء الشَّياطين، فمَن توكَّلَ على اللّه؛ كفاه، فصانَه، وحماهُ، وفيه أيضًا التَّذكيرُ بعنصرٍ من عناصرِ القاعدةِ الإيمانيَّة، وهو أنَّ اللّه عليمٌ قديرٌ حكيمٌ، لا يجري شيءٌ في الكون إلّا بتقديره، أو تمكينِه وإذنِه، فإذا عَلِمَ صحَّةَ إيمانِ عبدِه، وصدقِه، وتوكُّلِه عليه؛ وفَّقَهُ للعمل بمَراضيه؛ لأنَّه وليُّه[2].

إيثارُ لفظِ الرَّبِّ في كفايةِ العبدِ، وإضافته إلى ضمير المُخاطَب:

فيه التفاتةُ حفظٍ ورحمةٍ إلى نبيِّه، أو توبيخٌ وتنبيهٌ للشَّيطان

اصطفى النَّظمُ المُباركُ لفظَ الرُّبوبيَّةِ في الكفايةِ للعبد، بدلًا من اسم الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾، أي: الموجدِ لك، المُدبِّرِ لأمرِكَ، إذ فيه التفاتةُ حفظٍ ورحمةٍ إلى نبيِّه محمَّدٍ ﷺ: بأنْ كفاك - يا مُحمَّدُ - ربُّك حفيظًا، وقيِّمًا بأمرك، فانقَدْ لأمره، وبلِّغْ رسالاتِه هؤلاءِ المُشركين، ولا تخفْ أحدًا، فإنَّه قد توكَّلَ بحفظِك ونصرتِك، على أن تكون الجملةُ مُعترِضَةً في آخر الكلام، فتكونُ كافُ الخطابِ ضميرَ النَّبيِّ ﷺ تَقريبًا للنَّبيِّ بالإضافة إلى ضمير اللّه[3].

وإضافةُ الرَّبِّ إليه - على أنَّ الخطابَ في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ موجَّهٌ إلى الشَّيطان، كما في الجملة السّابقة، أي: وكفى بربِّكَ - أيُّها الشَّيطان - وكيلًا للمُؤمنين من عبادِه، فليعوذوا بي مِن شَرِّك، فإنّي أُعيذُهُم منه - للتَّوبيخ والتَّنبيه على أنَّه ضيَّعَ طريقَ السَّدادِ بمُخالفة ربِّه؛ قهرًا له وإلزامًا له بسلطان الرُّبوبيَّةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 156.

(2) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 11/ 547.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 666، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 471، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 157.

الَّذي خَرَجَ بكفرِهِ عن سلطانِه، وأنَّه مَقهورٌ مَخذولٌ، ليس له على عباد اللّهِ سلطانٌ، وكذا حال مَن يحذو حذوهُ، فاحذروا عن متابعتِه، واشكروا له على نعمِه الَّتي أنعمَ عليكم[1].

دلالةُ حرفِ الجرِّ الدّاخلِ على كلمة الرُّبوبيَّة:

الزِّيادةُ في المبَنَى دالَّةٌ على توكيد معنى التَّوكُّل

وردَتِ الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِرَبِّكَ﴾ دالَّةً على توكيد أنَّ اللّه هو المُتولّي تدبيرَ شؤونِ خلقِه بعِلمِه، وكمالِ قدرتِه، وشمولِ حكمتِه، وهو الَّذي تولَّى أولياءَه، فيسَّرَهم لليُسرى، وجنَّبَهم العُسرى، وكفاهم الأمورَ، والتَّركيبُ بدون الباءِ تقديرُهُ: (كفى ربُّك وكيلًا يتوكَّلون عليه)، فهو يكفيهم غرورَ الشّيطان، ويردُّ إغواءَه عنهم؛ لأنَّهم استمسكوا بالعُروة الوثقى، وارتضوا طريقَ الخير طريقًا[2].

سرُّ مجيء جملةِ الكفايةِ بأسلوب الخطابِ الإفراديِّ:

استشعارُ المسؤوليَّةِ الشَّخصيَّةِ في تلقّي خطاب اللهِ

لم يأتِ النَّظمُ في جملة الكفايةِ بصيغة الجمعِ هكذا: (وكفى بربِّكم)، بل جاءَ النَّظمُ القرآنيُّ بصيغة خطابِ المُفردِ في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾؛ وذلك ليَنظُرَ كُلُّ إنسانٍ إلى خاصَّةِ نفسِه، وليَعملَ ما وسِعَهُ العملُ على أن يتوقَّى هذا الشَّيطانَ المُترصِّدَ له، والمُتربِّصَ به، وليَكنْ مِمّا يستعينُ به على ذلك أن يتوكَّلَ على اللّه، وأن يستعينَ به، وليَجعلَ في يقينِه أنَّه من عباد اللّه، الَّذين لا سُلطانَ للشَّيطان عليهم[3]، فجاءَ الخطابُ في العبارة بأسلوب الخطابِ الإفراديِّ؛ ليشعرَ كلّ مُخاطَبٍ أنَّه موجَّهٌ له من ربِّه ﷻ وعَظُمَ سلطانُه.

إيثارُ لفظ ﴿وَكِيلًا﴾ فاصلةً للآية الكريمة:

مناسبةُ الحفظِ لذكر نفي سلطان إبليسَ على المُخلَصين

وردَت فاصلةُ الآيةِ بقوله تعالى: ﴿وَكِيلًا﴾، أي: حَفيظًا، وقيِّمًا بأمرِكَ[4]، وهو من أسماءِ اللّهِ الحُسنى، فهو سبحانه وكيلُ عبادِه، أي:

---

(1) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/ 547، والخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 520.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4417.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 520.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 666.

كافيهم أمورَهم وأسبابَهم، فمَنِ اتّخذَهُ وكيلًا؛ كفاه، يحفظُ كلَّ ما هو وكيلٌ فيه مِن كُلِّ ما يُمكِنُ أن يُفسِدَهُ[1]؛ ذلك أنَّ جميعَ ما يفعلُه مِنَ الخير إنَّما يفعلُهُ مَنفعةً للعباد، فإنَّ الشَّيطانَ، وإنْ كان قادرًا على الوسوسة، فإنَّ اللّهَ أرحمُ بعباده، فهو يدفعُ عنهم كيدَ الشَّيطان[2]، وفي الختم بذكر الحِفظِ مُناسبةٌ لذكر نفي سلطانِ إبليسَ على عباد اللّهِ المُخلَصين.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

البرهان والسُّلطان:

البرهانُ الحُجَّةُ الفاصلةُ البيّنةُ، والسُّلطانُ أعمُّ وأشملُ

البُرهانُ: الحُجَّةُ الفاصلةُ البيّنةُ، يُقالُ: بَرهَنَ يُبَرهِنُ بَرهَنةً؛ إذا جاءَ بحُجَّةٍ قاطعةٍ لِدفع الخَصم، فهو مُبَرهِنٌ[3]، فيُبَرهِنُ بمعنى يُبَيِّنُ، وقد بَرهَنَ عليه: أقامَ الحُجَّةَ، قال تعالى: ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١١١﴾ [البقرة: 111]، وفي الحديث: "والصَّدقةُ برهانٌ"[4]، أي: هي دَليلٌ على صحَّةِ إيمانِ صاحبِها لطيب نَفسِه بإخراجها؛ وذلك لعَلاقة ما بين النَّفس والمال[5].

أمّا السُّلطان عند العربِ؛ فيُطلَقُ على الحُجَّة، ويُذكَّرُ ويُؤَنَّثُ، فمَن ذكَّرَ السُّلطانَ؛ ذَهَبَ به إلى معنى الرَّجلِ، ومَن أنَّثَهُ؛ ذَهَبَ به إلى معنى الحُجَّة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٩٦﴾ [هود: 96]، أي: وحُجَّةٍ بَيِّنةٍ، والسُّلطانُ: الحاكمُ، إنَّما سُمّيَ سُلطانًا؛ لأنَّه حُجَّةُ اللّه في أرضه، أو هكذا ينبغي أن يكونَ[6]، وقوله تعالى: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ٢٩﴾ [الحاقّة: 29]؛ معناه: ذهبَت عني حُجَّتي[7]؛ فالسُّلطانُ أعمُّ.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 471.
(2) الجاويّ، مراح لبيد: 1/ 631، والعسكريّ، الوجوه والنّظائر، ص: 489.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (برهن).
(4) أخرجه مُسلم في صحيحه، برقم: (223)، من حديث أبي مالك الأشعريِّ.
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (برهن).
(6) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 217.
(7) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 10/ 31، وابن جُزيّ، التّسهيل: 2/ 407.

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزۡجِى لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِى ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٦٦﴾ [الإسراء: 66]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إتباعُ ذِكرِ الحفظِ ببعضِ الأفعالِ الدّالّةِ عليه

لمّا ذكرَ ﷻ أنَّه الوكيلُ الَّذي لا كافيَ غيرُهُ في حِفظِه، لاختصاصه بشمولِ علمِه وتَمامِ قُدرتِه؛ جاءَت هذه الآيةُ شارحةً لهذه الوكالة، وما يجيءُ منها من إمدادات الخيرِ للإنسان والإحسان إليه من ربِّ العالَمين، فاللهُ سبحانَه هو الّذي سخَّرَ للنّاس البحارَ والأنهارَ لِتجريَ فيها الفُلكُ بأمرِه، حاملةً النّاسَ وأمتعتَهم من بلدٍ إلى بلدٍ دونَ أن يَطغى الماءُ على الفُلك، أو يمسكَها على ظهرِه بلا حَراكٍ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُزۡجِى﴾: التَّزجيةُ: دفعُ الشَّيءِ لينساقَ، والرَّمي بالشَّيءِ وتَسْييره مِنْ غير حَبْسٍ. يُقَالُ: أَزْجَتِ البقرةُ ولَدَها، إذا ساقَتْهُ[2]، ومنه تَزجية رديءِ البعيرِ وتَزجيةُ الرّيح السَّحابَ، قال تعالى: ﴿يُزۡجِى سَحَابٗا﴾ [النّور: 43]، وقال تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزۡجِى لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِى ٱلۡبَحۡرِ﴾[3]، والمعنى: يُجري ويُسَيِّرُ برِفقٍ.

2) ﴿ٱلۡفُلۡكَ﴾: (فلك) أصلٌ يَدلُّ على استدارةٍ في شيء، من ذلك فَلْكَةُ المِغْزَلِ، سُمّيتْ لاستدارتها، وأطلِقَ الفُلْكُ على السّفينة، فلعلّها لأنّها تُدارُ في البحر[4]، ويُستخدمُ ذلك للواحدِ وللجمع، وتقديرُهما مُختلفان، فإنَّ الفُلكَ - وإنْ كانَ واحدًا - كان كبناءِ قُفْلٍ، وإنْ كان جمعًا فكَبِناءِ حُمُرٍ، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِى ٱلۡفُلۡكِ﴾ [يونس: 22]،

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 522.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زجا).
(3) الرّاغب، المفردات: (زجا).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زجا).

قال تعالى: ﴿وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ [البقرة: 164]، والفَلَكُ: مَجرَى الكواكبِ، وتَسميَتُهُ بذلك لكونِهِ كالفُلْكِ يُدورُ، قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٤٠﴾ [يس: 40][1]، والمعنى هنا: السُّفُنُ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

فضلُ الله على خلقِه ببعض إنعامِه، بتسخيرِ الفُلك في البحر

يذكُرُ تعالى نعمتَه على العباد بما سخَّرَ لهم مِنَ السُّفنِ والمَراكبِ، وألهمَهُم كيفيةَ صُنعِها، فبيّنَت هذه الآيةُ أنَّ ربَّكُم وحدَهُ هو الّذي يستحقُّ العبادةَ؛ لأنَّه يُسيّرُ لكم السُّفنَ في البحر، ويدفعُها بقوَّة الرّيح وتيارِ الماءِ أو قوَّةِ البخارِ، فيَجعلُ الفُلكَ تمخُرُ عُبابَ الماء حاملةً النّاسَ والتِّجارةَ؛ ليبتغوا من فضل اللّهِ ورزقِه، وكلُّ ذلك ليس بمُستغرَبٍ على اللّه؛ لأنَّه بعباده رحيمٌ مُنعِمٌ بدقائق النِّعم وجليلها[2].

وترشدُ الآيةُ إلى رحمةِ اللّهِ بعباده؛ فإنَّه تعالى لم يَزلْ بهم رحيمًا رؤوفًا، يؤتيهم من كلِّ ما تعلَّقَت به إرادتُهم ومَنافِعُهم، وإلى بيان كمالِ قدرتِه، وتذكيرٍ ببعض النِّعم؛ حملًا لنا على الإيمان الكاملِ به سبحانَه[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علّةُ فصلِ الجملة عمّا قبلَها:

تقريرُ أدلَّة الانفرادِ بالوحدانيَّة

فُصِلَت جملةُ ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي﴾ عمّا قبلَها؛ لأنَّها استئنافٌ ابتدائيٌّ، وهو عَودٌ إلى تقرير أدلَّةِ الانفرادِ بالتَّصريفِ في العالَمِ المَشوبَةِ بما فيها من نِعَمٍ على الخَلقِ، فلمّا أخبرَ اللّه ﷻ، بأنَّ الشَّيطانَ مُسلَّطٌ على بني آدمَ، إلّا مَن عصمَه منهم، وحفظَه بين أوصاف الحافظِ للخَلقِ من تسلُّطِ الشَّيطانِ، كأنَّه قال: (ربُّكم الحافظُ لكم هو الَّذي يُزجي)[4]؛ دلالةً على إتقانِ الصُّنعِ وإحكامِ

(1) الرّاغب، المفردات: (فلك).

(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: 462، وحجازيّ، التّفسير الواضح: 2/ 385.

(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: 462، وحجازيّ، التّفسير الواضح: 2/ 385.

(4) الصّاويّ، حاشيته على تفسير الجلالين: 2/ 328.

التَّدبيرِ لنظام هذا العالَمِ وسيادة الإنسانِ فيهِ وعليهِ، فلمّا جرى الكلامُ على الإنذارِ والتَّحذيرِ؛ أُعقِبَ هُنا بالاستدلالِ على صحَّةِ الإنذارِ والتَّحذيرِ[1].

تلطُّفُ اللهِ بعباده بذكرِ بعضِ نعمِه

سِرُّ مجيءِ المُسند إليه بصفة الرُّبوبيّةِ مُعَرَّفًا بالإضافة:

افتُتِحَت الجملةُ بالمُسندِ إليه مُعرَّفًا بالإضافة ﴿رَّبُّكُمُ﴾ ومُستحضَرًا بصفة الرُّبوبيَّةِ الدّالَّةِ على الإنعام والإحسانِ[2]؛ لاستدعاء إقبالِ السّامعين على الخبر المُؤذِنِ بأهمّيَّتِه، حيث افتُتِحَ بما يُتَرَقَّبُ منه خَبَرٌ عظيمٌ؛ لكونِهِ من شؤون الإلهِ الحقِّ، وخالقِ الخَلقِ، ومُدبِّرِ شؤونِهم تدبيرَ اللَّطيفِ الرَّحيم، فَيوجِبُ إقبالَ السّامع بشَراشِرِه (توجُّهه إليه بكُلّيَّته)، إنْ مُؤمنًا مُتَذَكِّرًا، أو مُشركًا ناظرًا مُتَدَبِّرًا[3].

تعدُّدُ المُرادِ بالمُخاطَبين مُفيدٌ في البيان المُبِين

دلالةُ جمعِ الضَّميرِ المُضاف إليه:

الخطابُ في قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ﴾ لجماعة المُشركين كما يقتضيه قوله عَقِبَهُ: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ﴾ [الإسراء: 67]، أي: أعرضتُم عن دُعائِه، ودَعوتُم الأصنامَ، وقولُه: ﴿ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾ [الإسراء: 67][4].

وقد يُحمَلُ الخطابُ هُنا على مُخاطبةِ جميعِ النّاسِ، فبَعدَ أن خوطِبَ الإنسانُ مِنَ اللهِ ﷻ، بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا﴾، جاءَ الخطابُ إلى النّاس جميعًا، شارحًا هذه الوكالة، وما يجيءُ منها إلى الإنسان من إمداداتِ الخيرِ والإحسانِ من ربّ العالَمين، فاللّه سبحانَه، هو الَّذي سخَّرَ للنّاس البحارَ والأنهارَ، تجري فيها الفُلكُ بأمرِهِ حاملةً النّاسَ وأمتعتَهُم من بلدٍ إلى بلدٍ، دون أن يطغى الماءُ على الفُلك، أو يمسكَها على ظهرِهِ بلا حَراكٍ، فهو سبحانَه بهذه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 157.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 471.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 158.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 158.

الوكالةِ القائمةِ على النّاس قادرٌ على أن يدفعَ عنهُم ما يكيدُ به الشَّيطانُ لهم، إذا هم آمنوا باللّه[1]؛ فالخطابُ وإنْ كانَ للمُشركين ابتداءً، فهو يشمَلُ جميعَ النّاس انتهاءً.

إيثارُ الجملةِ الاسميَّةِ في مُفتَتَحِ الآيةِ الكريمة:

الـدَّلالـةُ على الثَّبات والـدَّوام في الإحـسـان والإنعام

وجيءَ بالجملة الاسميَّةِ ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى﴾؛ لدَلالتِها على الدَّوام والثَّبات[2]، فقد تعرَّفَ سبحانَه إلى عباده بخلقِه وإنعامِه، المُتجدِّدِ المُتتابعِ، فما مِن حادثٍ من عينٍ أو أثرٍ أو طَللٍ أو غبرٍ إلّا وهو شاهدٌ على وحدانيَّتِه، دالٌّ على رُبوبيَّتِه[3].

بلاغةُ التَّعبيرِ بأسلوب القصر:

تسخيرُ السُّفن وتَسـيـيرُها في البحر، لا يقدرُ عليه أحـدٌ إلّا الله

ورَدَ أسلوبُ القصرِ في الجملة بقوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى﴾ بتعريف طرفيها للدَّلالة على الانحصار، أي: (ربُّكُم هو الّذي يُزجي لكُم الفُلكَ، لا غيرُهُ مِمَّن تَعبُدونَهُ باطِلًا، وهو الَّذي لا يزالُ يَفعَلُ ذَلِكَ لكُم)[4].

بلاغةُ الاستعارةِ بلفظ الإزجاءِ:

تـصـويـرُ حـركـةِ الـسُّـفـنِ، وهـي تـمـخُـرُ عُـبـابَ الـبـحـار بـرفْـقٍ ولينٍ

في هذا التَّعبير ﴿يُزْجِى﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، شُبِّهَ فيها تسخيرُ الفُلكِ للسَّير في الماء بإزجاء الدّابّةِ المُثقلَةِ بالحِمل[5]، في صورةٍ مَهيبةٍ جليلةٍ تدُلُّ على حركة سيرِ السُّفنِ، وهي تمخرُ عُبابَ البحارِ برفْقٍ وأناةٍ بتسخير الخالقِ الجبّارِ؛ لأنَّ الإزجاءَ سوقُ الثَّقيل السَّيرِ، إمّا لضَعفٍ أو ثِقَلِ حَملٍ أو غَيرِه[6]، وهو السوق شيئًا فشيئًا، يُقالُ: أزجى فلانٌ الإبلَ؛ إذا ساقَها برفقٍ، وأزجَتِ الرّيحُ السَّحابَ،

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 522.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 158.
(3) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/ 358.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 158.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 158.
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 471.

أي: ساقَته سوقًا رفيقًا[1]، فمعنى قوله تعالى: ﴿يُزۡجِي﴾، أي: يسوقُ سَوقًا رفيقًا بطيئًا.

سِرُّ انتخاب لفظ الإزجاءِ دون غيرِه:

لفظُ الإزجاء أوفقُ بالمَقام وأعظمُ في الإنعام

اختيارُ هذا اللَّفظ ﴿يُزۡجِي﴾ دونَ غيرِه مِنَ التَّسيير والإجراء؛ لأنَّه أدلُّ على التَّسخير وأوفقُ بالمَقام، وأعظمُ في الإنعام، أي: هو ﷻ القادرُ الحكيمُ الّذي يُجري لنفعِكُم السُّفُنَ في البحر بالرّيح اللَّيِّنَةِ وبالآلات حسبما جَرَت به عادتُهُ تعالى، وذلك من رحمتِه بعبادِه[2].

وكذلك الدَّلالةُ على أنَّ اللّهَ هو الّذي يسوقُ السَّفينةَ وأحمالَها، وهو الَّذي يجريها وسطَ الأمواجِ المُتلاطمةِ، وهو سبحانَه حفيظٌ عليها في وسط الرّياحِ الَّتي تهزُّها هزًّا[3].

معنى التَّعبيرِ بالمُضارع ﴿يُزۡجِي﴾:

جيءَ بالصِّلة في ﴿يُزۡجِي﴾ فِعلًا مُضارِعًا للدَّلالة على تَكَرُّرِ ذلك وتجدُّده[4].

دلالةُ تقديم الجارِّ والمجرورِ في قوله: ﴿لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ﴾:

الاهتمامُ بهذا التَّسخيرِ العظيمِ والتَّشويقِ للسُّفُن المُنتفَعِ بها

في تقديم الجارِّ والمجرورِ ﴿لَكُمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ﴾ اهتمامٌ بهذا التَّسخيرِ العظيم، وتشويقٌ للمُؤَخَّرِ، وهو ذكرُ الفُلكِ الَّتي يَنتفِعُ بها النّاسُ في معاشِهم، أي: يسوقُها لمنافعِكُم فتسيرُ بهم في البحر إلى حيث يريدون، من أجل أن يطلبوا رزقَ اللّه لهم بالتِّجارة من إقليم لآخر، فالتَّسخيرُ لكم لِتصلحَ به منافعُكم؛ رحمةً بكم، وإنعامًا منه عليكم، هذا هو الحُكم الحقُّ، أمّا الأصنامُ والأوثانُ؛ فهي مَخلوقةٌ للّه مَربوبةٌ له، لا تملِكُ لنفسها فضلًا عن غيرها، نفعًا ولا ضرًّا[5].

---

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 393.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 81، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 108.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4419.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 158.

(5) إسماعيل حقّي، روح البيان: 5/ 182، والجزائريّ، أيسر التّفاسير: 3/ 213.

غرضُ الامتنانِ بإزجاء الفُلكِ في البحر دون غيرِها:

بيانُ عظيم قدرة اللهِ ولطيف مِنَّته

خصَّصَ القرآنُ الكريمُ الامتنانَ بنعمة إزجاءِ الفُلكِ في البحر، مع وجود الدّوابِّ في البرِّ الَّتي نقطعُ بها الأماكنَ البعيدةَ؛ لأنَّ إزجاءَ الفُلكِ في البحر أمرٌ دقيقٌ يُظهرُ قدرةَ اللّهِ تعالى بأن يجعلَ الشَّيءَ الثَّقيلَ يكون على سطح الماءِ مع ثقله، ومن طبع الشَّيءِ الثَّقيلِ التّسرُّبُ في الماء والتَّسفُّلُ فيه، لكن أن يجعلَ اللّهُ من خصائصِه أنَّ الشَّيءَ الثَّقيلَ يكونُ على سطح الماءِ، فما عداه يكون أيسرَ؛ لذلك خصَّهُ بالذِّكر دونَ غيرِه، لِما فيه من عظيم القُدرةِ ولطيف العِلم.

معنى اللّام في قوله: ﴿لِتَبۡتَغُواْ﴾:

تعليلُ إزجاءِ الفُلكِ في البحر، والانتفاعُ بها

قولُه تعالى: ﴿لِتَبۡتَغُواْ﴾؛ لكي تطلبوا من وراء رُكوبها الرِّزقَ الّذي يُصلِحُ معاشَكم، الّذي هو لونٌ من ألوان فضلِ اللّه عليكم، فاللّام للتَّعليل، وقولُه: ﴿لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ تعليلٌ لإزجاء الفُلكِ، وتصريحٌ بوجوه النَّفعِ الّتي تفضَّلَ اللّه تعالى بها عليهم[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالابتغاء:

الإلماحُ إلى معنى الإخلاصِ والعبادة

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالابتغاء دونَ الطَّلبِ في قوله تعالى: ﴿لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾؛ ليُلمَحَ معنى الإخلاصِ والعبادة، فكلُّ ابتغاءٍ طلبٌ، وليسَ كلُّ طلبٍ ابتغاءً، ويُؤكِّدُ ذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠﴾ [اللّيل: 20]، وقوله تعالى: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ﴾ [البقرة: 198].

معنى حرف التَّبعيض ﴿مِن﴾ في السّياق:

بيانُ سعة فضلِ اللهِ وكثرة وجوهِ الانتفاعِ به

قولُه تعالى: ﴿لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾، أي: (لتطلبوا مُبتغين مُريدين بعضَ فضلِه)، فـ﴿مِن﴾ هُنا للتَّبعيض؛ لأنَّ الفضلَ الَّذي يُبتغَى بالسَّفائن، إنَّما هو سببٌ واحدٌ من أسباب الكسبِ الحلالِ؛ وهو الاتِّجارُ، ونقلُ البضائعِ بين الأمصار عملٌ ذو أخطار، وهناك فضلٌ

(1) الدّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 5/ 473، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 393.

كثيرٌ لله غيرُهُ، فهُناك الزِّراعةُ، وهناك استخراجُ المعادن من باطن الأرضِ، واللآلئ والجواهر من جوف البحارِ، فكلُّ أولئك من رحمةِ الله تعالى وفضلِه(1).

نكتةُ اصطفاء لفظِ الفضل:

الامـتـنـانُ على الـنّـاس كُـلِّـهـم مُناسِبٌ لعُموم الدَّعوة

قوله تعالى: ﴿مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾ من رزق ربِّكم الَّذي يتفضَّلُ به عليكم أيُّها النّاس؛ إذ كلُّ ما تنالونَه بكسبِكم، ممّا تجدون فيه خيرًا لكم في دنياكم وآخرتِكم، هو من فضل الله عليكم، وهذا امتنانٌ على النّاس كُلِّهِم مُناسِبٌ لِعُموم الدَّعوةِ؛ لأنَّ أهلَ مكَّةَ ما كانوا يَنتفِعونَ بركوب البحرِ، وإنَّما يَنتَفِعُ بذلك عَرَبُ اليَمَن، وعَرَبُ العِراقِ، والنّاسُ غيرُهم(2).

علَّةُ فصل جملة التذييل عمّا قبلَها:

تـعـليلٌ وتنبيهٌ لمَوقِـعِ الامتنانِ على العباد

فَصَلَ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾؛ لأنَّها تعليلٌ ثانٍ لهذا الإزجاء، أي: يُزجي لكم الفُلكَ في البحر؛ لتطلبوا من وراء ذلك ما ينفعُكُم(3)، وتصلوا بها إلى أرزاقِكم الَّتي في البلاد النائيةِ البعيدةِ(4)، فكأنَّ سائلًا سألَ: ما سرُّ هذا التَّسخير والفضل؟ فجاء الجوابُ بأنَّ ذلك جارٍ على سَنَنِ الرَّحمة، فبرأفتِه سبحانَه ورحمته سخَّرَ لكم ذلك(5)، ففصلُ جملةِ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ عمّا قبلَها تعليلٌ وتنبيهٌ لمَوقِعِ الامتنان؛ ليرفضوا عبادةَ غيرِ اللهِ ممّا لا أثرَ له في هذه المِنَّةِ(6).

فائدةُ الفعل ﴿كَانَ﴾:

الـدَّلالــةُ على الكينونةِ الدّائمةِ الَّـتـي تُـصاحِبُ كُلَّ الأزمنة

يدلُّ فعلُ ﴿كَانَ﴾ في ختام الآيةِ الكريمةِ على الكينونةِ الدّائمةِ، الّتي تُصاحبُ كُلَّ الأزمنةِ، الماضيةِ، والحاضرةِ، والمُستقبلةِ؛ لأنَّها

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4419.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 158 - 159.
(3) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/ 367، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 393.
(4) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 7/ 83.
(5) ابن سلّام، تفسير يحيى بن سلّام: 1/ 149.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 471، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 159.

تتعلَّقُ بصفةٍ من صفات اللّٰه ﷻ وعَظُمَ سلطانُه، وهو بمنزلة فعلٍ مُؤكِّدٍ للإسناد في الجملة؛ لأنَّه ﷻ رحيمٌ بكم دائمًا في حياة الابتلاء الّتي وضعَكُم فيها.

لطيفةُ تقديم ﴿بِكُمۡ﴾ على خبر ﴿رَحِيمٗا﴾:

بيانُ كمالِ عنايةِ اللّٰهِ بخلقه والاهتمام بالإنعام وبالرَّحمة بهم

قدَّمَ النَّظمُ ﴿بِكُمۡ﴾ الجارَّ والمجرورَ المُتعلِّقَين بخبر ﴿كَانَ﴾ في قوله تعالى: ﴿بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ على الخبر ﴿رَحِيمٗا﴾؛ لكمال عنايةِ اللّٰهِ تعالى بخلقه، وللاهتمام بالإنعام وبالرَّحمة بهم، فالإنسانُ مَحوطٌ بنِعمه مَغمورٌ بها، ولكنْ قليلٌ من بين عبادِهِ الشَّكورُ، وكثيرٌ الكفورُ[1].

سرُّ التَّذييل بذكرِ الرَّحمة:

تعليلٌ للإزجاء والابتغاء للفضل بأخصر عبارةٍ وأجمعها

ذُيِّلَتِ الآيةُ بذكر صفةِ الرَّحمةِ في قوله تعالى: ﴿كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾؛ إذ هيَّأ سبحانَه لكم ما تَحتاجونَ إليه، وسَهَّلَ عليكم ما يَعسُرُ من مَباديه، وهذا تذليلٌ فيه تعليلٌ لِما سَبَقَ مِنَ الإزجاءِ والابتغاءِ للفضل، فاللّٰهُ رحيمٌ بكُم دوامًا، وتفضُّلُهُ عليكم هو من آثار رحمته، فالجملةُ تتضمَّنُ معنى التَّعليلِ لِما يتفضَّلُ اللّٰهُ به على عبادِه[2].

نكتةُ إيثار صيغةِ الرَّحيم:

بيانُ الرَّحمة الشّاملةِ لمَنافِع جميعِ العبادِ

آثرَ السّياقُ الكريمُ صيغةَ (الرَّحيم) في قوله تعالى: ﴿كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ المرادَ بالرَّحمة الرَّحمةُ الدُّنيويَّةُ، والنِّعمةُ العاجلةُ المُنقسِمةُ إلى الجَليلةِ والحَقيرةِ؛ لأنَّ الرَّحمةَ الأخرويَّةَ خاصَّةٌ بعبادِ اللّٰهِ المُؤمنين[3].

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الرَّغبة والابتغاء:

الرَّغبةُ: إرادةُ الشَّيء بالحرصِ عليه[4]، وأمّا الابتغاءُ؛ فهو

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4420.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 109.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 185.
(4) الكفويُّ، الكلّيّاتُ: (الرَّغبة).

الاجتهادُ في الطَّلب، وقيلَ: هو الاشتدادُ في طلب شيءٍ ما[1]، ويُحمَدُ أو يُذَمُّ بحسب ما يُطلَبُ[2].

في الرَّغبة معنى الحرص، وفي الابتغاء معنى الشِّدَّة والاجتهاد

فيُلاحَظُ في الرَّغبة معنى الحرصِ، وفي الابتغاء معنى الشِّدَّةِ والاجتهادِ؛ والاجتهاد في الطَّلب، وكلاهما قد يُستَعمَلُ في بعضِ السّياقاتِ استعمالَ الآخَرِ[3].

(1) المُناويُّ، التّوقيفُ على مهمَّات التَّعاريف، ص: 179.
(2) الرَّاغب، المفردات: (بغي).
(3) جماعة مِنَ المُختصِّين، نَضرة النَّعيم: 6/ 2126.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ٦٧﴾ [الإسراء: 67]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

توحيد الله في التّصرُّف في الخَلْق

لمّا ذكر تعالى وصفَ المشركين في اعتقادهم آلهتهم وأنّها تضرّ وتنفع، وأتْبعَ ذلك بقصة إبليس مع آدم، وتمكينه من وسوسته إلى ذرّيّته وتسويله لهم، ذكر ما يدلّ من أفعاله على وحدانيَّته، وأنَّه هو النافع الضّارُّ المُتصرِّف في خَلْقِه بما يشاء، فذكرَ إحسانه إليهم بَحرًا وبَرًّا، وأنّه تعالى مُتمكِّنٌ بقدرته ممّا يريده[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَسَّكُمُ﴾: أصل (مسس) يَدُلُّ على جَسِّ الشَّيءِ باليَدِ[2]، يُقالُ: مَسِسْتُ الشَّيءَ أَمَسُّه مَسًّا: لَمَسْتَه بيَدِكَ، وهو مَجازٌ في إصابةِ الشَّيءِ وحُلولِه، وأَكثَرُ ما يُطلَقُ في إصابَةِ الشَّرِّ[3]، والمَسوسُ من المياه: ما نالته الأيدي[4]، وحاجةٌ ماسَّة؛ أيْ: مُهِمَّة[5]، ومعنى ﴿مَسَّكُمُ﴾ في الآية الكريمة: أصابكم.

2) ﴿ٱلضُّرُّ﴾: أصل (ضرر) النُّقْصانُ يَدْخُلُ في الشَّيءِ، يُقالُ: دَخَلَ عليه ضَرَرٌ في مالِه[6]، وضِدُّه: النَّفْعُ والسَّعَةُ، والضَّرَرُ: المَكروهُ والأَذَى، وضَرَّ فُلانًا ضُرًّا وضَرَرًا[7]، وكلّ ما كانَ من سوء حالٍ وفَقْرٍ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 81.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مسس).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عبّاد، المحيط في اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (مسس)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 316.
(4) الخليل، العين: (مسس).
(5) الجوهري، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (مسس).
(6) الخليل، العين، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (ضر)، وابن سِيده، المخصص: 4/ 103.
(7) المعجم الوسيط: 1/ 537.

في بدنٍ فهو ضُرٌّ، وما كانَ ضِدًّا للنّفع فهو ضَرٌّ[1]، والضُّرُّ المقصود في الآية: الإِشْرافُ على الغَرَق[2].

3) ﴿ٱلْبَحْرِ﴾: الأَصْلُ (بحر) يدلُّ على الاتّساعِ والانْبِساطِ، والبَحْرُ: الماءُ الكَثير، مِلْحًا كان أو عَذْبًا، وخِلافُه: البَرُّ، وبَحَرْتَ كذا: وسَّعْتَه، ومنه سُمّيَ البَحْرُ؛ لاتّساعِهِ وانبِساطِه، وبه سَمَّوا كلَّ مُتوسِّعٍ في شيْءٍ بَحْرًا كالعالِم[3]، ويُطلَق البَحْرُ على الشَّقِّ، وبَحَرْتُ البَعيرَ: شَقَقْتَ أُذُنَه شَقًّا، وسُمّيَتْ به البِحارُ والأنهار؛ لأنَّها مَشْقوقَةٌ في الأَرض شَقًّا، والعَرَبُ تُسَمّي النَّهْرَ بَحْرًا كالفُراتِ ودِجْلَةَ[4]، والجَمعُ: بِحارٌ، وأَبْحُرٌ، وبُحورٌ.

4) ﴿ضَلَّ﴾: أصلُ (ضَلَّ) يدلُّ على ضَياعِ الشَّيْءِ وذَهابِهِ في غَيْرِ حَقِّه[5]، والضَّلالُ: الغَيْبوبَةُ والخَفاءُ والسَّتْرُ، وضلَّ الكافِرُ: غابَ عن الحُجَّة، وضلَّ النّاسي: غابَ عَنهُ حِفْظُه[6]، والضَّلالُ أيضًا: الانحرافُ والمَيْلُ عن الطَّريقِ، وأَضْلَلْتُه: أضَعْتَه[7]، وضِدُّه: الاهتداءُ والاستقامةُ والرَّشادُ، والمقصود بالضَّلالِ في الآيةِ: سُلوكُ طَريقٍ غَيْرِ موصِّلَةٍ لِلْمَقْصودِ خَطَأً[8].

5) ﴿ٱلْبَرِّ﴾: البرّ خِلافُ البَحْرِ، وأَبَرَّ الرَّجُلُ: صارَ في البَرِّ، وأَبْحَرَ: صارَ في البَحْرِ[9]، والعَرَبُ تَسْتَعْمِلُ ذلكَ نَكِرَةً، يَقولونَ: خَرَجْتُ بَرًّا، وخَرَجْتُ بَحْرًا، والبَرّيَّةُ: الأَرض المنسوبةُ إِلى البَرِّ، وهيَ بَرّيَّةٌ إذا كانَتْ إِلى البرِّ أَقربَ مِنْها إِلى الماءِ، والجمعُ: البراري، ويأْتي البَرُّ بِمعنى: الصّادِق[10]، والمُرادُ بالبرّ في الآية: اليابِسُ مِن الأَرْضِ.

6) ﴿أَعْرَضْتُمْۚ﴾: الإِعْراض: الظُّهورُ والبُروزُ، يُقالُ: عَرَضَ الشَّيْءُ وعَرِضَ يَعْرِضُ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (ضر).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 159.
(3) الخليل، العين، والأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بحر).
(4) الجوهري، الصِّحاح، وابن سِيدَه، المُحْكَم، والزَّبيديُّ، تاج العروس: (بحر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضلَّ).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عبَّاد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ضلَّ).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (ضلَّ).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 159.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بر).
(10) الأزهريُّ، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديُّ، تاج العروس: (بر).

ويَعْرَضُ عَرْضًا[1]، وقيلَ أَصْلُها من العَرْضِ وهو خِلافُ الطّولِ[2]، والإعراض: الصَّدُّ والتَّولّي والرَّفْضُ، ويُطْلَقُ الإعْراضُ بِمَعْنَى: الانْصِرافِ عن الشَّيْءِ بالقَلْبِ، وضِدُّ الإعْراضِ: الإقْبالُ والانْقيادُ والطَّاعةُ[3]، والمقصود بالإعراضِ في الآية: التَّرْكُ؛ أَيْ: تَرَكْتُم دُعاءَ اللّه[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الإنسانُ عند الشَّدائد والمِحَن لا يتضرَّع إلّا إلى الله تعالى وحدَه

يقول اللّه تعالى: وإذا أصابَتْكم الشِّدَّةُ في البَحرِ - كما لو أمسَكَتِ السَّفينةُ عن الجَري، أو اشتَدَّت عليكم الرّيحُ، وهاجَت بكم الأمواجُ واضطَرَبت، وخَشيتُم الغَرَقَ - غاب عن قُلوبِكم كلُّ مَن تَدعونَهم من دونِ اللّهِ، ولم تَستغيثوا إلّا باللّهِ وحدَه؛ لِعلْمِكم بأنَّه لا يُنَجّيكم أحدٌ سِواه، فلمّا نجّاكم اللّهُ من الغَرَقِ، وأوصَلَكم إلى البَرِّ؛ أعرَضْتُم عن شُكرِه وتَوحيدِه، والإخلاصِ له سُبحانَه، وكان الإنسانُ مَطبوعًا على الجُحودِ لنِعَمِ اللّهِ عليه؛ فهذه سَجيَّتُه إلّا مَن عَصَمَه اللّهُ تعالى[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في الآية:

إحسانُ الله إلى العباد بحرًا وبرًّا

صُدِّرَ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ بحرف الواو الدّالّة على العطف، وذلك لأنّه سبحانه لمّا ذَكَر وصْفَ المشركين في اعتقادهم في آلهتهم، وأنّها تضرّ وتنفع، وأتبع ذلك بقصّة إبليس مع آدم، وتمكينه من وسوسته إلى ذُرّيَّته وتسويله لهم؛ ذَكَر ما يدلّ من أفعاله على وحدانيته، وأنّه هو النّافع الضّارُّ المُتصرِّف في خلقه

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرض).
(2) الأزهريُّ، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (عرض).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديُّ، تاج العروس: (عرض).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 160.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 668، وابن القيّم، عدّة الصّابرين، ص: 192، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 96.

بما يشاء، وذكر إحسانَه إليهم بَحرًا وبَرًّا، وأنّه تعالى مُتمكِّنٌ بقُدرته ممّا يريده[1].

دلالةُ تعليق الشَّرْطِ بالأداة (إذا):

لا ملجأ للعباد من الله إلّا إليه

جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ تعليق الشَّرْطِ بالأداة (إذا)، وذلك لأنّ الأصل في استعمال (إذا) أن تكون للمقطوع بحصوله، وللكثير الوقوع[2]، فالتجاؤهم إلى الله تعالى في زمن الضُّرِّ مقطوعٌ به، وكثيرًا ما يصيبهم خوف الغرق في البحر، فلا يلجَؤون إلّا إليه سبحانه.

دلالة الفعلِ الماضي في ﴿مَسَّكُمُ﴾:

خوفُ الغرق في البحر خطرٌ مُتحقِّق

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ استعمال الفعل الماضي ﴿مَسَّكُمُ﴾، وذلك لأنّه حكاية عن حالٍ ماضية، كما أنّ الإخبار عن الشّيء بصيغة الماضي مُضمَّنه تحقّق الخبر، فخطر الغرق في البحر مُتحقّقٌ لكلّ مَنْ يركَبُه.

نكتة عدم التّصريح بالفاعل:

التأدّب في خطاب الله ﷻ

أُسند الفعل ﴿مَسَّكُمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ إلى الضُّرِّ، ولم يَقُلْ: (أَمِسُّكُم) بالإسناد إلى نفسه تأديبًا لنا في مخاطبته بنسبة الخير دون الشَّرِّ إليه، مع اعتقاد أن الكلّ من تقديره سبحانه، وتنبيهًا على أنَّ الشَّرَّ ممّا ينبغي التَّبرُّؤ منه والبُعد عنه[3].

بلاغةُ الأسلوب الخبريّ في الآية:

تقرير الكفّار بالاعتراف بتوحيد الألوهيّة

تضمّن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أسلوبًا خبريًّا، والنّكتة فيه أنّه خبرٌ مُستعمَل في التّقرير

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 81.
(2) فاضل السّامرائيّ، معاني النحو: 4/ 69.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 482.

وإلزام الحُجَّة؛ إذْ لا أحد يُخْبِرُ عن فعله إخبارًا حقيقيًّا[1] فهو تقرير للكفّار بتوحيدهم للإله الحقّ الّذي يُنجّيهم من الغرق في البحر.

بلاغةُ الاستعارة في الآية:

شيوع لفظ (المَسِّ) في الشَّرِّ

في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾ استعارة تصريحيّة تبعيّة في قوله: ﴿مَسَّكُمُ﴾، فاستعار لفظ (المسّ) للدّلالة على الإصابة بجامع الاتّصال في كلٍّ، فالمسّ حقيقته اتّصال الجسم بجسم آخرَ وهو مجاز في إصابة الشّيء وحلوله، ومسّه الفقر والضَّرُّ إذاً حلَّ به، وأكثر ما يُطلق في إصابة الشرّ، قال تعالى: ﴿۞وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا﴾ [الزُّمر: 8] ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا﴾ [يونس: 12] ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ ۝٥١﴾ [فُصِّلت: 51] ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾ [الأعراف: 73]؛ فالمعنى هنا: حلّ بكم الضرّ[2].

مَعْنى اللّام في ﴿ٱلضُّرُّ﴾ ودلالتها:

تعريف الجنس يقتضي العموم

ورَدَ لَفظُ ﴿ٱلضُّرُّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ مُعَرَّفًا بأداةِ التَّعريفِ (أل) الدّالّة على تعريف الجنس المقتضي للعموم؛ أيْ: جنس الضّرّ المعلوم الّذي يصيبكم في البحر، فالمشركون يلجؤون إلى الله وحده إذا أصابهم أيُّ ضرّ، وبخاصّة الغرق، وهم يوقنون أنّ آلهتهم لا تُغني عنهم شيئًا في كشف أدنى ضرّ يحلّ بهم.

نكتة التعبير بـ ﴿ٱلضُّرُّ﴾ دون (الضَّرر):

خصوص الضّرر بالعاهات وعموم الضَّرّ بالابتلاءات

في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ آثر النظم القرآني التّعبير بلَفْظ ﴿ٱلضُّرُّ﴾ دون الضَّرر للفرق الدّلاليّ بينهما، فالضُّرُّ عامٌّ في كلِّ بلاء يُصيب الإنسان من مرض أو فقرٍ أو نحوهما، وهو ظاهر الآيات التي ورد فيها نحو: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾ [الأنعام: 17]، ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 159.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 316.

﴿أَوۡ قَآئِمٗا﴾ [يونس: 12] وغيرها، فليس الضُّرُّ مقصورًا على نوعٍ بعينه من البلاء؛ بل هو عامٌّ في كل بلاءٍ يُصيب الإنسان.

أمّا لفظ (الضَّرر) فلم يَرِد في كتاب اللّه سوى مرّةً واحدةً، في قوله تعالى: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ [النِّساء: 95]، والمُراد بالضّرَر: المرض أو العاهة من عَمًى أو عرَجٍ أو نحوِهما، وقال بعض العلماء أنّ أشهر استعمالات الضَّرَر في العَمَى، ولذلك يُقال للأعمى: ضرير، ولا يُقال ذلك للأعرج والزَّمِن، كما أنّ بناء الضَّرَر على صيغة (فَعَل) مثل بناء العمى والعَرَج والحَصَر ونحوها، وهذا يدلّ على أنّ المُراد به العاهة[1]، وممّا يُؤيّد هذا التّفريق أنّ الآية نزلت في ابن أم مكتوم الضّرير، فتعيَّن أنّ المُراد بالضّرر في هذه الآية: العمى[2].

مَعنى حرف الجرِّ ﴿فِي﴾:

البحرُ مكانٌ للمخاطرِ والهلاكِ

في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ آثر النظم الحكيم استِعمالَ حرف الجرّ ﴿فِي﴾ الدّالّ على الظّرفيّة المكانيّة، وذلك في عبارة ﴿فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾، والنّكتة في ذلك أنَّ الإنسان مُعَرّضٌ للهلاك في البحر أكثر من أيّ مكان آخر، والإشراف على الغرق مُرْعِبٌ للنّفوس، وراكب البحر يخاف من هَيَج الماء واغْتِلامِه لعُصوف الرّيح وطُموِّ الأمواج[3].

مَعنى اللّام في ﴿ٱلۡبَحۡرِ﴾ ودلالتها:

النّظر إلى حقيقة الشّيء في الذّهن دون اعتبار للأفراد

جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ لفظ ﴿ٱلۡبَحۡرِ﴾ مُعرّفًا بـ(لام الحقيقة)، وتُسمّى أيضًا بلام الجنس، ولام العهد الذّهني[4]، وهي التي تبيّن الحقيقة بقطع النّظر عن الأفراد، وهي

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/ 171.
(2) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 435.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 472.
(4) القزويني، الإيضاح: 2/ 21.

تعرّف حقيقة ذهنيَّة يُراد بها فردٌ مُبهَم من أفراد الحقيقة باعتبار عهديّته في الذّهن لاشتمال الحقيقة عليه[1]، وقوله هنا: ﴿ٱلْبَحْرِ﴾ لم يَقصد به بحرًا معيَّنًا بل هناك أوصاف في الذّهن لمخلوق اسمه البحر؛ فكلّ ما تحقّقت فيه تلك الأوصاف الذّهنية يدخل في عموم الخطاب بـ(ال) الذِّهنيَّة.

فائدة التّخصيص في الآية:

الإشـــراف على الـغَـرَق مرعبٌ للنّفوس

في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ خصَّص مَسَّ الضرِّ بكونه ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾ والنّكتة في ذلك أنَّ الإنسان مُعرّض للهلاك في البحر أكثر من أيّ مكان آخر؛ إذ لا مَنْجى له من الغرق، فالمياه تُحيط به من كلّ جانب، والإشراف على الغرق مُرْعِبٌ للنّفوس[2]، ونظيره قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس: 22].

دلالة شِبه الجملة الحاليَّة في الآية:

تـغـيّرُ الـدّلالـة المعنويّة بتغيُّر صاحب الحال

تضمّن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ شبه الجملة ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾، ويَحتمل أن تكون في محلّ نصبٍ حالٍ من الفاعل أو من المفعول[3]، فإن كان صاحب الحال هو الفاعل وهو ﴿ٱلضُّرُّ﴾ فيكون المعنى: وإذا مسّكم الضرّ كائنًا في البحر، وأمّا إذا كان صاحب الحال هو المفعول، وهو ضمير خطاب الجمع المتّصل بالفعل ﴿مَسَّكُمُ﴾؛ فيكون المعنى: وإذا مسّكم الضُّرُّ حال كونِكم في البحر.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 263.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 472.
(3) محمود الصافي، الجدول: 08/ 81.

دلالة الفعل الماضي ﴿ضَلَّ﴾:

تحقّق عجز الآلهة الباطلة وفقدها عند الحاجة

استُعمِلَ الفعل الماضي ﴿ضَلَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ للدّلالة على تحقّق عجز آلهة المشركين الباطلة، وذلك لأنّ الإخبار عن الشّيء بصيغة الماضي مضمَّنه تحقّق الفعل، فإنّ المشركين إذا أدركهم الغرق ذهب عن أوهامهم وخواطرهم كلّ مَن يدعونه من صنم أو جنٍّ أو ملكٍ أو بشرٍ، وهذا مُتحقّق معهم في كل حالٍ يمسّهم فيها ضرُّ البحر.

بلاغة حذف مُتعلّق الفعل ﴿ضَلَّ﴾:

حذف ما يُعلم جائز وبليغ

حُذِفَ مُتَعَلِّقُ الفعل ﴿ضَلَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾؛ إذِ التقدير: (ذهب عن بالكم كلُّ مَنْ تدعون في مصائبكم)، والغرضُ من هذا الحذف هو الإيجاز؛ لأنّ المعنى غاب وانصرف ذكر الّذين عادتكم دعاؤهم عن ألسنتكم فلا تدعونهم، وذلك بقرينة ذِكْر الدّعاء هنا الذي متعلّقه اللّسان، فتعيّن أن ضلالهم هو ضلال ذِكْر أسمائهم، وهذا إيجاز بديع[1].

دلالةُ تعريف المُسنَدِ إليه بالموصوليّة:

تشريف العاقل على غيره في التّغليب

عُرِّف المُسنَدُ إليه في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ بالاسم الموصول ﴿مَن﴾، وهو اسم موصول مُشْتَرَكٌ دالٌّ في الأصل على العاقل، مع أنّ المشركين يدعون أيضًا مَن لا يعقل كالأصنام، والنّكتة في ذلك تغليب العاقل على غيره، والعدول إلى الموصوليّة أيضًا لما تُؤْذِنُ به الصِّلَةُ من عمل اللّسان ليتأتّى الإيجاز؛ بمعنى: مَن يتكرّر دعاؤكم إيّاهم[2].

دلالة الفعل المضارع في ﴿تَدْعُونَ﴾:

عُبِّرَ بالمضارع ﴿تَدْعُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 159.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 159.

تكرُّر دعاء المشركين لآلهتهم الباطلة دون جدوى

﴿فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾ دون غيره من الأزمنة؛ لما يُفيده المضارع من افتراض تَكَرُّرِ الحَدَثِ وتجدُّدِه واستمرارِه[1]، وفي ذلك دلالة على تكرّر دعائهم لآلهتهم الباطلة وتجدُّد ذلك منهم، والمعنى: غاب وانصرف ذِكْر الّذين عادتُكم دعاؤهم.

بلاغةُ حذفِ المفعول به للفعل ﴿تَدۡعُونَ﴾:

التّركيز على فعل الدّعاء دون المدعوّ

حُذِفَ العائدُ المُتَّصل المنصوب في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾ والتّقدير: (تدعونه)، وهو حذفٌ شائع في كلام العرب، والنُّكتة في حذفه: الإيجازُ والاقتصار على إثبات معنى الفعل لإفادة الوجود المُجرّد في الشّيء دون التعرّض للمعمول[2]، بمعنى التّركيز على فعل الدّعاء دون المدعوّ، فيجعل المُتعدّي كغير المُتعدّي في أنّك لا ترى له مفعولًا لا لفظًا ولا تقديرًا، وإذا كان الكلام مُنصبًّا إلى غرض من الأغراض جعل سياقه له وتوجّهه إليه، كأنّ ما سواه مرفوضٌ مُطَّرَحٌ[3].

بلاغة الاستثناء في الآية:

تغيُّر المعنى بين الاتّصال والانقطاع

تضمّن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾ الاستثناءَ بالأداة ﴿إِلَّآ﴾، وقد اختلف العلماء في نوع الاستثناء بين الاتّصال والانقطاع، فبعضهم جعل الاستثناء من عموم الموصول ﴿مَن﴾، فاسم اللّه ممّا يجري على ألسنتهم في الدعاء تارةً كما تجري أسماء الأصنام، فالاستثناء على هذا التّخريج مُتَّصلٌ.

وجوَّزَ بعضُهم أن يكون الاسم الموصول في قوله: ﴿مَن تَدۡعُونَ﴾ خاصًّا بأصنامهم؛ لأنّهم يكثر دعاؤهم إيّاها دون اسم اللّه تعالى، كما هو مُقتضى التجدّد، فإذا اشتدّ بهم الضُّرّ دعوا اللّه كما قال

---

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 78.

(2) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 153.

(3) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 8.

تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ٦٥﴾ [العنكبوت: 65]، ويكون الاستثناء منقطعًا، ونصبُ المستثنى لا يختلف في الوجهيْن جريًا على الفُصحى، ولعلّ هذا الوجه أرجح لأنّه أنسب بقوله: ﴿أَعۡرَضۡتُمۡۚ﴾[1].

معنى الفاء في ﴿فَلَمَّا﴾ ودلالتُها:

سرعةُ نسيان الإنسان نِعمَ الله المنّان

عُطِفَ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ﴾ على قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾ بالفاء؛ لأنّ العطف بالفاء يستدعي مزيد الاتّصال بين المعطوف والمعطوف عليه؛ لما في معنى الفاء من التّفريع والتّسبّب[2]، فتَنجيتُهم مُسبَّبة عن تضرّعهم إلى الله تعالى وإخلاصهم الدّعاء له، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ٦٥﴾ [العنكبوت: 65]، ويُشعِرُ استعمالَ الفاء الدّالّة على التعقيب بسرعة إعراضهم وتركهم الدّعاء بمجرّد نجاتهم من الغرق، وفيه دليلٌ على كفرهم وسرعة نسيان نِعم الله.

دلالة الفعل الماضي ﴿نَجَّىٰكُمۡ﴾:

لطفُ اللهِ بعباده وتنجيتهم من الكروب

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ﴾ استعمالُ الفعل الماضي ﴿نَجَّىٰكُمۡ﴾، وذلك لحكاية حالٍ ماضيةٍ، تحقَّق وقوعُها بما فيها من مشقّةٍ عليكم بوصفكم بشرًا قليلي الحيلة أمام الأخطار الجسام المعترِضة في عُرْضِ البحر، والمعبَّر عنه بصيغة تضعيف فعل الإنجاء.

إيثارُ صيغة ﴿نَجَّىٰكُمۡ﴾ دون (أنجاكم):

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ﴾ بصيغة ﴿نَجَّىٰكُمۡ﴾ دون (أنجاكم) للفرق في دلالة الصّيغة الصَّرفيَّة لكلّ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 160.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 160.

تغيُّر المبنى دالّ على تغيُّر المعنى

منهما، فإنّ (نَجَّى) على وزن (فعّل)، وهذه الصيغة تُفيد التَّمهُّل والتَّلبُّث والبقاء مثل: (علّم) و(أعلم)، فـ (علّم) تحتاج إلى وقت، أمّا (أعلم) فهو إخبار دفعة واحدة، ومثاله قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ۝٥٠﴾ [البقرة: 50]؛ لأنهم لم يمكثوا في البحر طويلًا، فقال: أنجيناكم، وكذلك في إبراهيم ﵇ قال: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ﴾ [العنكبوت: 24]، ولم يَقُلْ: (نجّاه) لأنَّه لم يلبث كثيرًا في النّار، كما أنّ صيغة (أنجى) لا تُفيد سوى مجرَّد التَّعدية، وأمّا (نجّى) فهي أكثر إفادةً لتكثير الفعل والمبالغة فيه على حدّ قوله تعالى: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ [يوسف: 23].

بلاغة التَّضمين في الآية:

تفنُّنُ العربيّة بالدّلالة بكلمة على معنى كلمتيْن

عُدّي الفعل (نجّى) في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ﴾ بحرف الجرّ ﴿إِلَى﴾، وهو خلاف الأصل؛ لأنّ الفعل (نجّى) يتعدَّى بنفسه دون حرف، فقال العلماء هنا بالتَّضمين، وهو أن تحمل كلمةٌ معنى كلمة أخرى، فتُعامل معاملة تلك الكلمة الأخرى نَحْويًّا، وفائدة التَّضمين أن يدلّ بكلمةٍ واحدةٍ على معنى كلمتيْن[1]، فلمّا عُدّي الفعل ﴿نَجَّىٰكُمۡ﴾ في هذه الآية بـ ﴿إِلَى﴾؛ دلّ على تضمينه معنى: أبلغكم وأوصلكم، فجَمَع ببلاغة التَّضمين بين معنييْن؛ وهو إنجاؤهم وإيصالهم إلى البرِّ.

دلالة حذف متعلّق الفعل ﴿نَجَّىٰكُمۡ﴾:

النجاة أهمّ ما يأمله الغريق

حُذِفَ مُتَعَلِّق الفعل ﴿نَجَّىٰكُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ﴾؛ والتّقدير: (نَجّاكُم منه)، والنّكتة في حذفه: التّركيز على فعل النَّجاة لأهمّيّته، والاقتصار على إثبات معنى الفعل لإفادة الوجود المُجرّد في الشيء دون التعرُّض للمعمول[2]، فيجعل المُتعدّي

(1) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 687.
(2) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 153.

كغير المُتعدّي في أنّك لا ترى له مفعولًا لا لفظًا ولا تقديرًا، وإذا كان الكلام مُنصبًّا إلى غرضٍ من الأغراض جعل سياقه له وتوجُّهه إليه، كأنّ ما سواه مرفوض مُطَّرَحٌ[1].

معنى ﴿إِلَى﴾ في الآية الكريمة:

دقّة البيان القرآني في اختيار حروف المعاني

تعدّى الفعل ﴿نَجَّىٰكُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ بحرف الجرّ ﴿إِلَى﴾ الدّالّة على الانتهاء، بمعنى أنّهم بمجرّد وصولهم إلى برّ الأمان وانتهوا إليه انتهاء تمكُّنٍ واستقرار؛ عادوا إلى سابق شِرْكِهم، وأعرضوا عن التّوحيد.

معنى اللّام في ﴿ٱلْبَرِّ﴾ ودلالتُها:

النّظر إلى حقيقة الشّيء في الذّهن دون اعتبار الأفراد

جاء لفظ ﴿ٱلْبَرِّ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ مُعرَّفًا باللّام الّتي يُسمّيها البلاغيّون (لام الحقيقة) وهي أل الذهنية، فقوله هنا ﴿ٱلْبَرِّ﴾ لم يقصد به بَرًّا معيَّنًا؛ بل أراد عمومَ البرّ حيث مَظِنَّةُ النجاة.

بلاغة الطِّباق في الآية:

توضيح المعنى بجمعِ اللّفظ وضدّه

في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْۚ﴾ طِباق بديعٌ بين لفظي ﴿ٱلْبَحْرِ﴾ و﴿ٱلْبَرِّ﴾، وهو مُحسِّنٌ معنويٌّ، فبين تقابل البحر موطن الهلاك والبرّ موطن النجاة وتخالفهما تضادٌّ يُروّع النّفس ويثير الذّهن ويجذب الانتباه، ويزيد الكلام حُسْنًا وطرافةً، كما يُقوّي المعنى؛ إذ بضدّها تتمايز الأشياء.

دلالة الفعل الماضي في ﴿أَعْرَضْتُمْۚ﴾:

إمعان المشركين في إعراضهم عن التّوحيد وجحودهم النعمة

في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْۚ﴾ آثر النظم القرآنيُّ استعمالَ الفعل الماضي ﴿أَعْرَضْتُمْۚ﴾، والنّكتة في ذلك حكاية

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 8.

حالٍ ماضية مُتحقِّقة، وقعت منهم إمعانًا في جحْد النعمة، وكفران المنّة بإنجائهم، وفيه تعريضٌ بسوء أدبهم مع الله تعالى.

بلاغة حذف مُتعلِّق الفعل ﴿أَعۡرَضۡتُمۡۚ﴾:

شناعة الإعراض بعد الإنعام

حُذِفَ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ﴾ مُتعلِّقُ الفعل ﴿أَعۡرَضۡتُمۡۚ﴾، والتقدير: (أَعۡرَضۡتُم عنه)، والدليل ورود هذا المتعلِّق في عدّة آيات منها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ﴾ [الأنعام: 68]، والنّكتة في حذفه: التّركيز على فعل الإعراض لشناعته، ففيه قلّة أدب مع المُنعِم ﷻ، والاقتصار على إثبات معنى الفعل لإفادة الوجود المُجرّد في الشّيء دون التّعرُّض للمعمول[1]، فيجعل المُتعدّي كغير المُتعدّي في أنّك لا ترى له مفعولًا لا لفظًا ولا تقديرًا، وإذا كان الكلام مُتوجِّهًا إلى غرضٍ من الأغراض؛ جعل سياقه له وتوجُّهه إليه، كأنّ ما سواه مرفوضٌ مُطَّرَحٌ[2].

بلاغةُ الكناية والمَجاز المرسل في ﴿أَعۡرَضۡتُمۡۚ﴾:

إظهارُ العُرض دالٌّ على التّرك والابتعاد

الإعراض في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ﴾ كناية عن صفة ترك الإخلاص بالدّعاء بعد النجاة، ووجه الكناية أنّ حقيقة الإعراض عدم الالتفات إلى الشيء بقصد التباعد عنه، مُشتقّ من العُرض - بضمّ العين - وهو الجانب؛ فيكون أصل الهمزة في الفعل (أعرض) للدّخول في الشيء؛ أي: دخل في عُرض المكان، أو الهمزة للصيرورة؛ أي: صار ذا عُرض؛ أيْ: جانب؛ أيْ: أظهر جانبَه لغيره، ولم يُظهر له وجهه، ثم استعمل استعمالًا شائعًا في التّرك؛ لأنه يتضمّن الإعراض غالبًا، يُقال: أعرض عنه كما يُقال: صَدَّ عنه، ولذلك كَثُر هذا اللفظ في أشعار المُتيَّمين رديفًا للصدود،

(1) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 153.

(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 8.

وهذا أقرب المعاني إلى المعنى الحقيقي، كما يَحْتَمِلُ أيضًا أن يكون الإعراض مَجازًا مُرسَلًا بعلاقة اللّزوم[1]، لأنّ إظهار العُرض؛ أيِ الجانب لازِمه التّركُ والابتعادُ.

معنى الواو في ﴿وَكَانَ﴾:

إشـراكُ جميع أفراد الإنسان في حُكم الكُفران

وُصِل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ بالجملة السابقة ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ بحرف الواو؛ لزيادة بيان كفر الإنسان للنِّعم، فبعد أن خصّ المشركين بالإعراض عن التّوحيد بمجرّد وصولهم إلى برّ الأمان ونسيانهم نعمة اللّه في كشف غمّهم؛ عطف عليه جنسَ الإنسان عمومًا لإشراك جميع أفراده في هذه الصّفة، إذ كلّ أحدٍ لا يكاد يُؤدّي شُكرَ نعم اللّه عليه[2].

بلاغة التَّعبير بفعل الكونِ ماضيًا ﴿وَكَانَ﴾:

الكفران مستقرٌّ في جِبِلّة الإنسان

في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ اختار النّظمُ الحكيم استعمالَ فعل (كان) الدّالّ على الدّوام، وفي ذلك إشارة إلى أنّ الكفران مستقرٌّ في جِبِلَّة هذا الإنسان؛ لأنّ الإنسان قلّما يشعر بما وراء عالم الحسّ، فإن الحواسّ تشغله بمدركاتها عن التفكّر فيما عدا ذلك من المعاني المُستقرّة في الحافظة والمُستنبَطة بالفكر، ولما كان الشّكر على النعمة متوقّفًا على تذكُّر النِّعمة؛ كانت شواغله عن تذكّر النِّعم الماضية مُغطّية عليها[3].

مَعْنى (أل) في ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ ودلالتُها:

عموم الكفران في جنس الإنسان

جاء لفظ ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ مُعرَّفًا بـ(أل) الدّالّة على تعريف الجنس، وهو مفيد للاستغراق، فهذا الاستغراق يجوز أن يكون استغراقًا عُرفيًّا بحمله على غالب نوع الإنسان، وهم أهل الإشراك وهم أكثر النّاس يومئذٍ، فتكون

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/ 108.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 82.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 161.

صيغة المبالغة من قوله: ﴿كَفُورًا﴾ راجعةً إلى قوّة صفة الكفران أو عدم الشّكر، فإنّ أعلاه إشراك غير المُنعم مع المنعم في نعمة لا حظّ له فيها.

ويجوز أن يكون الاستغراق حقيقيًّا؛ أيّ: كان نوع الإنسان كفورًا؛ أيّ: غير خالٍ من الكفران، فتكون صيغة المبالغة راجعةً إلى كثرة أحوال الكفران مع تفاوتها، وكثرة كفران الإنسان هي تكرُّر إعراضه عن الشّكر في موضع الشّكر ضلالًا أو سهوًا أو غفلةً؛ لإسناده النّعم إلى أسبابها المقارنة دون مُنْعِمها، ولفرضه منعِمينَ وهميّينَ لا حظّ لهم في الإنعام[1].

بلاغة صيغة المبالغة في ﴿كَفُورًا﴾:

كثرة الكفران وقلّة الشّكر من الإنسان

ورد لفظ ﴿كَفُورًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ على صيغة من صيغ المبالغة لاسم الفاعل (كافر)؛ للدّلالة على تكثير صدور فعل الكفر منه؛ أيّ: كثير الكفر، والكفر ضدّ الشّكر، وقد تكرّر وصف الإنسان عمومًا بالمبالغة في الكفر في كثير من الآيات نحو قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ٣٤﴾ [إبراهيم: 34]، وقد أظهر القرآن مبالغة الإنسان بالكفر وقلّة الشكر في قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ٣﴾ [الإنسان: 3]، فاستعمل اسم الفاعل للشّكر ﴿شَاكِرًا﴾ [الإنسان: 3]، وخصّ الكفر بالمبالغة ﴿كَفُورًا ٣﴾ [الإنسان: 3].

فلفظ (كافر) على وزن اسم الفاعل للدَّلالة على مَن قام بفعل الكفر ولو مرّةً واحدةً، وأمّا لفظ (كَفور) فإنّ صوغها على وزن (فَعول) يفيد الدّلالة على المبالغة مع التجدّد والاستمرار، كأنَّ المعنى أنّ الإنسان المبالغ في الكفر بمنزلة مادة تُستنفد في الكفر

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 160.

وتفنى فيه، وذلك لأنّه جاء على وزن منقول من أسماء الأشياء التي يُفعل بها؛ كالوضوء والوقود والسَّحور والغَسول والبَخور... إلخ، ومن هنا استُعير هذا البناء للدَّلالةِ على المبالغة التي ليس بعدها مزيد(1).

بلاغة التذييل في الآية الكريمة:

إبراز حكم الكفران في صورةٍ كلّيّةٍ لجنس الإنسان

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ تذييلٌ لكفر المشركين نعمةَ اللّه عليهم بإنجائهم من الغرق، والبلاغة في ذلك زيادة التعجيب منهم ومن أمثالهم، وفائدة التذييل غالبًا توكيد المُذَيَّل، وإبراز حكمه في صورة كليّة(2)، وذهب بعض المُفسِّرين إلى أنّ فائدة التذييل هنا عدم خطاب المشركين بالكفر؛ بل إسناد ذلك إلى الإنسان لطفًا بهم وإحالة على الجنس إذ كلّ أحد لا يكاد يؤدّي شكر نعم اللّه على وجهه(3).

توجيه المُتشابه اللفظيّ:

لجوء العبد إلى ربّه في كشف الضّرّ

يتّضح التَّشابه بين قول اللّه ﷻ: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ۝٥٣﴾ [النّحل: 53]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾ [الإسراء: 67]، في أنّ كلّا منهما حكاية لأحوال الإنسان مع ربّه إذا نزل به البلاء من شدّة التّضرّع إليه ليكشف عنه الضرّ، ثمّ سرعان ما يجحد هذا الإنسان نعمة اللّه عليه ويعود إلى سابق شِرْكِهِ وظُلْمِهِ، ووجهُ المغايَرَةِ بَيْنَهُما أنّ آية النَّحل أعمُّ دلالةً من آية الإسراء، فقد ذكر الضّرّ مُطلَقًا في سورة النّحل، وقيّده في الإسراء بضّرّ البحر، هذا من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى فقد ذَكَر في الإسراء لفظ الدعاء عمومًا، وخصّ موضع النَّحل برفع الصّوت فيه؛ وهو الجؤار.

تنوّع كفر الإنسان لنِعَمِ ربّه المنّان

بين قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ﴾ [الإسراء: 67] وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ۝٦٥﴾ [العنكبوت: 65] وقوله

(1) الدّوري، دقائق الفروق اللغوية، ص: 230.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/ 386.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 82.

تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ﴾ [لقمان: 32] وجوهُ تشابه ومغايرة، ويتّضح التّشابه بين هذه الآيات في أنّ كلّا منها حكاية حال الإنسان في تضرّعه إلى ربّه إذا حاق به خوف الغرق في البحر، كما تشترك جميعًا في بيان جحود هذا الإنسان بعد وصوله إلى برّ الأمان.

ووجْهُ المغايَرَةِ بَيْنَها: أنّ آية العنكبوت بُدئت بقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ﴾ [العنكبوت: 65]، فلمّا كان هؤلاء لا عقلَ لهم يمنعهم من العودة إلى الشّرك؛ ناسبه قولُه: ﴿إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ٦٥﴾ [العنكبوت: 65]، أمّا آية لقمان فقد بُدِئَتْ بقوله: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ﴾ [لقمان: 32]، فلمّا كان يسبق ذلك قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ٣١﴾ [لقمان: 31]، وكان ذلك ممّا يجعل هؤلاء مُلتزمين بما عاهدوا الله في البحر؛ ناسبه قوله: ﴿فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ﴾ [لقمان: 32]، وأمّا آية الإسراء فقد بُدئت بقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾؛ فلمّا كان السّياق في الدُّعاء، ناسبه قوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ﴾؛ أيّ: تركتم الدُّعاء بمجرد شعوركم بالأمان.

رسوخ الطّباع الذميمة في جبلّة الإنسان

تتشابه الآيات الكريمة: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ١١﴾ [الإسراء: 11]، و﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورٗا﴾، و﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ١٠٠﴾ [الإسراء: 100]، و﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ٥٤﴾ [الكهف: 54] في ذكر بعض الأوصاف الذّميمة للإنسان، فذكر في الموضع الأول العجلة، وفي الثّاني الكفر، وفي الثالث التّقتير، وفي الرّابع كثرة الجدل، كما تتشابه في دلالتها على رسوخ هذه الصفات في الجبلّة الإنسانية ولذلك عبّر عنها بـ(كان) المفيدة للدّوام والاستمرار وثبات الصفة،

وبصيغة المبالغة (فعول)، ولفظ (أكثر) للدّلالة على كثرتها في طبعه، ويظهر وجه المغايرة بينها من جهة السّياق:

فقد بُدئت الآية الأولى بقوله: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ﴾ [الإسراء: 11]، فلمّا كان الإنسان يستعجل الإجابة؛ ناسبه قوله: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ١١﴾ [الإسراء: 11].

أمّا الآية الثانية؛ فقد ورد فيها قوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ﴾، فلمّا كان الإعراض عن الشّكر كفرًا، ناسبه قوله: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾.

وأمّا الآية الثّالثة؛ فقد بُدئت بقوله: ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ﴾ [الإسراء: 100]، فلمّا كان ذلك بُخلًا وتضييقًا؛ ناسبه قوله: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ١٠٠﴾ [الإسراء: 100].

وأمّا آية الكهف فقد بُدئت بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ﴾ [الكهف: 54]، فلمّا كان السّياق في ذِكر الأمثال للنّاس؛ ناسبه ذِكْرُ جدال الإنسان بقوله: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ٥٤﴾ [الكهف: 54].

الفروقُ المُعجَميَّة:

المسُّ والإصابَةُ:

إطلاق المسّ على الشرّ، وعموم الإصابة في الخير والشرّ

بين لفظ ﴿مَسَّكُمُ﴾ و﴿أَصَٰبَكُمۡ﴾ [النّساء: 73] عمومٌ وخصوصٌ، فالإصابة عامّة لكلّ ما ينال الإنسانَ من خير أو شرّ، قال تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [النّساء: 73]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشّورى: 30].

وأمّا المسّ فأكثرُ ما يُطلَقُ في إصابةِ الشَّرِّ، قالَ تعالى: ﴿۞وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا﴾ [الزّمر: 8]، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ ٥١﴾ [فُصّلت: 51]، ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾ [الأعراف: 73][1].

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (مسس)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 316.

كما أنّ الإصابة تُطلق على الحقيقة، وأمّا المسّ فإنّه مَجازٌ في إِصابةِ الشَّيءِ وحُلولِه، لأنّ أصله اللّغوي يُطلق على جَسِّ الشَّيءِ باليَدِ[1]؛ فعبّر بالمسّ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾، وذلك مناسبة لسياق الآية من إصابة ضرّ البحر.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مسس).

﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾ [الإسراء: 68]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

توبيخ المشركين بالعَود إلى الكفر بعد الأمن

لـمّا أعرض المشركون عن إخلاص الدّعاء لله بعد إذ أنجاهم، فتسبّب عن ذلك أن فعلوا فعل الآمن؛ أنكر عليهم إعراضَهم عن الشّكر وعَوْدَهُم إلى الكفر لكونه من أجهل الجهل[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾: الأَمن: طمأنينةُ النَّفس وزوالُ الخوفِ[2]، وله معنيان مُتدانيان؛ أَحَدُهُما: الأَمانَةُ الَّتي هي ضِدُّ الخيانَة، ومعناها سُكونُ القَلْبِ؛ والآخَرُ: التَّصْديقُ[3]، يُقال: رَجلٌ أَمَنَةٌ، للَّذي يُصدِّق بكُلِّ ما يَسمع ولا يُكذِّب بِشَيءٍ[4]، ورَجُلٌ أَمَنَةٌ أَيْضًا: إِذا كانَ يَطمئن إِلى كُلِّ أحدٍ، يُقالُ: آمَنَ به قومٌ وكذَّب بِهِ قومٌ، فأَمّا (آمَنْتُه) المُتَعَدّي فَهو ضدُّ أَخَفْتُه[5]، والمقصودُ بالأَمنِ في الآية: النَّجاةُ مِنَ الخَوفِ، وهو أيضًا السَّلامَةُ مِنْ كُلِّ ما يُخافُ[6].

2) ﴿يَخْسِفَ﴾: أصلُ (خسف) يَدُلُّ على غُموضٍ وغُؤورٍ، وإليه يَرجِعُ فُروعُ البابِ[7]، فالخَسْفُ والخَسَفُ: زِلْزالٌ شَديدٌ تَنْشَقُّ بِهِ الأَرْضُ فَتَحْدُثُ بانْشِقاقِها هوَّةٌ عَظيمَةٌ تَسقُطُ فيها الدّيارُ والنّاسُ،

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 473.
(2) الرّاغب، المُفردات، والزَّبيدي، تاج العروس: (أمن)، والمناوي، التّوقيف على مهمات التَّعاريف، ص: 63، والزَّبيديّ، تاج العروس: (أمن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمن).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (أمن).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (أمن).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 255.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خسف).

ثُمَّ تَنْغَلِقُ الأَرْضُ عَلَى ما دَخَلَ فيها[1]، قالَ تَعالَى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: 81]، ومنه الخَسِيفُ: البِئر المحفورة في حجارة يخرج منها ماء كثير[2]، والمقصود بالخَسْفِ في الآية: انقلابُ ظاهرِ الأَرضِ في باطنها من الزِّلزالِ[3].

3) ﴿جَانِبَ﴾: أصلُ الجَنْبِ: الجارِحَةُ، ثمَّ استُعِيرَ للنّاحيةِ الَّتي تليها[4]، والجانِبُ: شِقُّ الإِنْسانِ وغَيْرِه، تَقولُ: قَعَدْتُ إلى جَنْبِ فُلانٍ وإِلَى جانِبه، بِمَعْنًى، والجَمعُ: جُنوبٌ وجَوانِبُ وجَنائِبُ، والجَنْبُ مِنْ كُلِّ شيءٍ: ناحيته[5]، ويأتي الجَنْبُ بمعنى: القُرْبِ[6]، والمقصودُ بالجانِبِ في الآية: هو الشِّقُّ الَّذي يُنْجيهم إِلَيْهِ، والمُراد به: الشّاطِئُ الَّذي يَرْسونَ عليه[7].

3) ﴿يُرْسِلَ﴾: (رسل) أَصْلٌ واحِدٌ مُطَّرِدٌ مُنْقاسٌ، يَدُلُّ على الانْبِعاثِ والامتِدادِ، فالرَّسْلُ: السَّيْرُ السَّهْلُ، وناقَةٌ رَسْلَةٌ: لا تُكَلِّفُكَ سياقًا، وشَعْرٌ رَسْلٌ، إذا كانَ مُسْتَرْسِلًا[8]، والإِرْسالُ يُقالُ في الإنسان، وفي الأشياء المحبوبة والمكروهة، وقد يكون ذلك بالتّسخير كإرسال الرّيح والمطر، وقد يكون ببعث مَنْ له اختيار، نحو إِرْسالِ الرّسل، وقد يكون ذلك بالتَّخلية وترك المنع، نحو قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم: 83][9]، والمقصودُ بالإرسالِ في الآية: بَعْثٌ مِنْ مَكانٍ بَعيدٍ[10].

4) ﴿حَاصِبًا﴾: (حصب) أَصْلٌ واحِدٌ، وهو جِنْسٌ مِنْ أَجْزاءِ الأَرْضِ، والحَصْباءُ جِنْسٌ من الحَصَى[11]، والحَصْبُ: رَمْيُكَ بالحَصْباء؛ أَيْ: صِغار الحَصَى أو كِبارها[12]، وتحاصب القَوْم: تقاذفوا بالحصى[13]، ويُقال للرّيح الَّتي تَحْمِل التُّرابَ والحَصى: حاصِبٌ، وللسَّحابِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 165.
(2) السَّمين، عُمدَة الحُفَّاظ: (خسف).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 162.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (جنب).
(5) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (جنب).
(6) الزَّبيديُّ، تاج العروس: (جنب).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 162.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سِيدَه، المُحْكَم، وابن منظور، لسان العرب: (رسل).
(9) الرّاغب، المُفردات، والسَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (رسل).
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/ 96.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حصب).
(12) الخليل، العين: (حصب).
(13) ابن دريد، جمهرة اللغة: (حصب).

يَرْمي بالبَرَد والثَّلْج: حاصِبٌ؛ لِأَنَّهُ يَرْمي بهما رَميًا[1].والمقصود بالحاصب في الآية: مطرُ حجارةٍ، وبَرَدٌ يُشْبِهُ الحِجارَةَ[2].

5) ﴿تَجِدُواْ﴾ أصلُ (وجد) يَدُلُّ على أَصْلٍ واحِدٍ، وهو الشَّيء يُلْفيه، يُقال: وجَد مَطْلوبَهُ، والشَّيْءُ يَجِدُه وُجودًا، ووجَدْتُّ الضّالَّةَ وِجْدانًا[3]، وأَوجده اللّه مطلوبَه؛ أَيْ: أظفرَه بِهِ[4]، والواجِدُ: الَّذي يَجد ما يقْضي بِهِ ديْنَه[5]، وفي أَسماء اللّه ﷻ: الواجدُ، وهو الغَنيُّ الَّذي لا يَفْتَقِرُ، والإيجادُ: الإنشاءُ من غير سَبقِ مِثالٍ[6]، والمُرادُ بالإيجاد في الآية: الإلفاءُ والمصادَفَة.

6) ﴿وَكِيلًا﴾ أَصْلُ (وكل) يَدُلُّ على اعْتِمادِ غَيْرِكَ في أَمرِكَ، من ذلك الوُكَلَةُ، والوكَلُ: الرَّجُلُ الضَّعيفُ[7]، والتَّوكُّلُ يُقال على وجهيْن، يُقالُ: تَوكَّلْتُ لفلان بمعنى: تولَّيتُ لَه، ويُقالُ: وكَّلْتُه فَتَوكَّلَ لي، وتَوكَّلْتُ عليه بمعنى: اعتمدته[8]، وواكَلَ فُلانٌ، إذا ضَيَّعَ أَمرَهُ مُتَّكِلًا على غَيْرِه، والوكيل: مَنْ يوكَلُ إليه الأَمرُ، والمواكَلَةُ: إذا اتَّكَلْتَ عليه واتَّكَلَ عليكَ[9]، والمقصودُ بالوكيلِ في الآيةِ: الموكَّلُ إليهِ القيامُ بِمُهِمِّ موكِّلِه، والمُدافِعُ عن حَقِّ موكِّلِه[10].

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

قُدرة الله تعالى لا يُعجزها شيءٌ في البحر ولا في البَرّ ولا في غيرهما

يقول اللّه سبحانه: (أفأمِنْتُم أن يجعَلَ اللّهُ الأرضَ تَنهارُ بكم في جانِبِ البَرِّ إنْ خَرَجتُم من البَحرِ سالِمينَ؟ فهو قادِرٌ على إهلاكِكم

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (حصب).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 152.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (وجد).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (وجد).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (وجد).
(6) ابن الأثير، النهاية، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (وجد).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وكل).
(8) الرّاغب، المُفردات، والسّمين، عُمدة الحُفّاظ: (وكل).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وكل).
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 162.

سواءٌ في البَحرِ أو في البَرِّ، أَوْ أَمِنْتُم أن يُرسِلَ اللّهُ عليكم حِجارةً من السَّماءِ فيُمطِرَكم بها فيُهلِكَكم، ثمَّ لا تَجِدوا لكم ناصِرًا يَدفَعُ عنكم العَذابَ، ويُنقِذُكم منه)[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة الاستفهام في ﴿أَفَأَمِنتُمۡ﴾:

الإنكار على الكفّار وتوبيخهم بنسيان النِّعَم

تضمّن قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ﴾ أسلوبَ استفهام بالهمزة في قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمۡ﴾، والغرض البلاغيُّ منه الإنكار على الكفّار وتوبيخهم على إعراضهم عن الشُّكر وعَوْدِهِم إلى الكفر[2]؛ لأنّ هذا من أجهل الجهل، فالقادر على إهلاكهم في جانب البحر بالغرق، قادرٌ على إهلاكهم في جانب البرّ بالخسف، فالجوانب والجهات كلها في قدرته سواء، ليس جانب البحر وحده مختصًّا بذلك، بل إن كان الغرق في جانب البحر، ففي جانب البرّ ما هو مثله وهو الخسف؛ فاللّه تعالى يقدر في البرّ على نحو ما يقدر عليه في البحر، فعلى العاقل أن يستوي خوفه من اللّه في جميع الجوانب[3].

معنى الفاء في ﴿أَفَأَمِنتُمۡ﴾ ودلالتها:

الشعور بالأمن عقب الشعور بخوف الغرق

في قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ﴾ عطفٌ باستعمال الفاء الدّالة على التعقيب، والتقدير: (أَنَجَوْتُم من البحر فَأَمِنْتُم بعد خروجكم منه)؟![4] كما أفادتِ الفاءُ التّفريعَ على جملة ﴿أَعۡرَضۡتُمۡۚ﴾، وفرّع الاستفهامُ التوبيخيُّ عن إعراضهم عن الشّكر وعَوْدِهِم إلى الكفر[5].

وذهب الزمخشريّ إلى أنّ الفاء للعطف على محذوف تقديره:

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 668 - 670، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 463.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 160.
(3) الزمخشريّ، الكشّاف: 2/ 679.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 473.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 161.

(أنجوتم فأمنتم)، وأنكر عليه أبو حيّان هذه الدَّعوى بأنّ الفاء والواو في مثل هذا التركيب للعطف على محذوف بين الهمزة وحرف العطف غير معروف، وانتصر لمذهب الجماعة أنّ لا محذوف هناك، وأنّ الفاء والواو للعطف على ما قبلها، وأنَّه اعتنى بهمزة الاستفهام لكونها لها صدرَ الكلام، فقُدِّمت والنيَّة التّأخير، وأنَّ التَّقدير: (فأمنتم)[1].

دلالة الماضي في ﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾:

اطمئنان المشركين واستقرار أَمنِهم في البرّ

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ استعمالُ الفعل الماضي ﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾، للدلالة على حكاية حالهم الماضية المُتحقّقة فِعلًا؛ فالمشركون بعد وصولهم للبرِّ زالَ فزعُهم واطمأنّوا بعدم الهلاك وثابَتْ إليهم السّكينة.

فائدة الخطاب في: ﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾:

توبيخ المشركين بالاغترار بالنّجاة من الغرق

في قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ توبيخٌ للمشركين على نسيانهم نعمةَ اللّه بإنجائهم من الغرق وإيصالهم إلى جانب البرّ، فأخبرهم اللّه بهذه الآية أنّ الجوانب والجهات كلّها في قدرته سواء؛ فالبرّ والبحر عنده سيّان يقدر في البَرِّ على نحوِ ما يقدر عليه في البحر، فعلى العاقل أن يستوي خوفُه من اللّه في جميع الجوانب[2].

دلالة المضارع ﴿يَخْسِفَ﴾:

تجدد إنزال العقوبات بالكفّار والمشركين

عُبِّرَ بالفعل ﴿يَخْسِفَ﴾ بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾؛ لأنّ المُضارِع يُفيدُ افْتِراض تجدّد الفعل واستمراره، فاللّه قادر على الخسف بالمشركين في كل مرّة يظنّون فيها أنّهم نجوا من بأسه في البحر، كما يُفيد المضارع

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 82.
(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 2/ 679.

الاستقبال، وفيه تهديدٌ للمشركين بأن لا يأمنوا عاقبة كفرهم، وأنّ العذاب سيأتيهم لا محالة وإنْ تأخّر لحكمةٍ يعلمها سبحانه.

بلاغة الالتفات في قراءة ﴿نَّخۡسِفَ﴾:

عظمة الرُّبوبيَّة تستوجب التمجيدَ، وتستدعي الخوفَ من الوعيد

في قول اللّه تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ﴾ قراءتان مشهورتان: فقرأ ابن كثير وأبو عَمرو بالنّون ﴿نَّخۡسِفَ﴾، ﴿نُرۡسِلَ﴾ وقرأ الباقون بالياء ﴿يَخۡسِفَ﴾، ﴿يُرۡسِلَ﴾[1].

وحُجّة مَنْ قرأ بالنّون: أنّه جعله من إخبار اللّه تعالى عن ذاته بضمير المُعظِّم نفسه سبحانه، وأنّ حُجّة مَن قرأ بالياء: أنّه جعله من إخبار النبيّ ﷺ عن ربّه ﷻ[2].

ويَحتمل أيضًا على قراءة الياء أن يكون من أسلوب الالتفات من خطاب اللّه تعالى لهم في قوله: ﴿أَفَأَمِنتُمۡ﴾ إلى الغائب بقوله ﴿أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ﴾ أيْ: (ربّكم)، وذلك لنكتة استحضار عظمة الرُّبوبيَّة المستوجبة للتَّوحيد والتَّمجيد والدّاعية للخوف من الوعيد بالعذاب الشديد.

دلالة التَّعبير بالمصدر المؤوَّل ﴿أَن يَخۡسِفَ﴾:

الوعد بالخسف مستمرُّ الزمن مقترنٌ بتجدُّد الإنكار

عبّر بلفظ المصدر المؤوَّل ﴿أَن يَخۡسِفَ﴾ دون الصَّريح؛ ليجتمع الإخبار عن الحدث مع الدّلالة على الزَّمان[3]، بمعنى أنّ المُراد تحديد زمان القول حاضرًا، ومستقبلًا؛ لأنَّ المصدرَ المُؤوَّلَ ذو دلالةٍ تجدُّديةٍ الآنَ، وفي المستقبلِ بدلالةِ ﴿أَن﴾ التي تخلّصُ الفعلَ للاستقبالِ فهو دالٌّ على الحدثِ والزّمنِ، ومعنى الاستمرار هذا هو المقصود؛ إذ إنه يَشمل الزمن عمومًا؛ ماضيًا، وحاضرًا، ومستقبلًا.

المُراد الخسفُ نفسه لا كيفيّته

ويُجاء بلفظ الفعل المُشتَقّ منه مع (أن) أيضًا، للدّلالة على مجرّد

(1) ابن الجَزَريّ، النشر: 2/ 308.
(2) ابن خَالويه، الحُجّة، ص: 292.
(3) السُّهيليّ، نتائج الفكر في النّحو، ص: 97.

معنى الحدث دون احتمالٍ زائدٍ عليه، ففيها - أي: (أن) - تحصينٌ للمعنى من الإشكال، وتخليصٌ من شوائب الاحتمال، وعوارضه المتَصوَّرة في الأذهان[1]؛ بمعنى أنّ المُرادَ الخسفُ نفسه لا كيفيّته وحجمه ومدى هوله، بوصفه مَظِنَّةً للعِبْرة والاتّعاظ، ولا خير فيمَنْ لا تعظه التجاربُ والأمثال.

مَعنى حرف الجرّ في ﴿بِكُمۡ﴾:

تهديد المشركين بنزول العذاب بهم حيثما كانوا

جاء في قوله تعالى: ﴿أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ﴾ استعمالُ حرف الجرّ الباء من ﴿بِكُمۡ﴾ دالًّا على تعدية ﴿يَخۡسِفَ﴾ بمعنى المصاحبة، وفيه تهديدٌ لهم بأنّ العذاب سيطالهم في أيِّ مكانٍ كانوا فيه بحرًا أو برًّا، فكلُّ مَنْ في السّماوات والأرض في قبضته سبحانه.

دلالة التقديم والتأخير في ﴿بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ﴾:

اختصاص المشركين بعذاب الخسف دون غيرهم

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿بِكُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ﴾؛ لنُكتةٍ بلاغية وهي الاختصاص الذي يجعله أئمة علم المعاني لازمًا للتّقديم[2]؛ والمعنى: اختصاص المشركين بنزول عذاب الخسف بهم دون غيرهم من العباد، وفي هذا تهديد لهم.

بلاغة الكناية في الآية:

الشاطئ أوّل البرّ بعد البحر

تضمّن قوله تعالى: ﴿أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ﴾ صورة بيانية في قوله: ﴿جَانِبَ ٱلۡبَرِّ﴾، وهي كنايةٌ عن موصوفٍ وهو الشاطئ؛ إذْ جعل البرَّ جانبًا لإرادة الشَّقّ الذي يُنجيهم إليه، وهو الشاطئ الذي يرسون عليه، إشارةً إلى إمكان حصول الخوف لهم بمجرد حلولهم بالبرّ بحيث يخسف بهم ذلك الشاطئ، أي إنَّ البرّ والبحر في قدرة اللّه تعالى سيّان[3].

(1) السهيلي، نتائج الفكر في النحو، ص: 97.
(2) السّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 233.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 162.

مَعنى ﴿أَوۡ﴾ ودلالتها:

تفصيل إهلاك المشركين بين الخسف أو الحاصب

استُعمل حرف العطف ﴿أَوۡ﴾ الدّالُّ على التّقسيم في قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا﴾، وهو تقسيمٌ يُفيد تفصيلَ إهلاكهم في البرّ سواء بالخسف، أو بالحاصب وهو مطر الحجارة، كما تُؤذِن بأنّ أحد الأمريْن غير مُعيَّن الحصول؛ لأنّه مستقبَلٌ ولكن لا يخلو حالهم عن أحدهما[1].

دلالة الفعل المضارع ﴿يُرۡسِلَ﴾:

تجدد إنزال العقوبات بالكفّار والمشركين

عبّرَ بالفعل المضارع ﴿يُرۡسِلَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا﴾؛ لأنّ المُضارِع يُفيدُ افْتِراض تجدّد الفعل واستمراره، فاللّه قادر على إهلاك المشركين بالحاصب في كل مرّة يظنّون فيها أنّهم نجوا من بأسه في البحر، كما يفيد المضارعُ الاستقبالَ، وفيه تهديدٌ للمشركين بأن لا يأمنوا عاقبة كفرهم، وأنّ العذاب سيأتيهم لا محالة وإن تأخّر لحِكمةٍ يعلمها سبحانه.

دلالة التّقديم والتّأخير في ﴿عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا﴾:

اختصاص المشركين بعذاب الحاصب دون غيرهم

تقدّم الجارُّ والمجرور ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا﴾ لنكتةٍ بلاغيَّةٍ وهي الاختصاص، بمعنى اختصاص المشركين بنزول مطر الحجارة عليهم دون غيرهم من العباد، وفي هذا تحذيرٌ لهم ووعيدٌ من هذا المصير المُخيف.

معنى حرف الجَرِّ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾:

إرسال الحاصب من السماء على رؤوس المشركين

في قوله تعالى: ﴿أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا﴾ آثر النَّظْمُ الكريم استعمالَ حرف الجرّ (على) الدّالّ على الاستعلاء، وهو استعلاء حقيقيّ؛ لأنّ الحاصب - وهو مطر الحجارة - ينزل عليهم من السّماء، فاستعمل لفظ (على) المختص بالعلوّ[2]، وفيه تخويفٌ شديدٌ وتصويرٌ مهيبٌ للعذاب.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 152.

(2) الراغب، التفسير: 2/ 289.

دلالة التنكير في ﴿حَاصِبًا﴾:

دلالة الإبهام على التّعظيم والتّفخيم

نُكِّرَ لفظ ﴿حَاصِبًا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبًا﴾ لنُكتةٍ بلاغيةٍ؛ إذْ يدلُّ التّنكير على الإبهام، والإبهام له علاقة مباشرة بالتّعظيم والتّفخيم، فإنّ مَن أراد أن يُعظّم شيئًا أبهمه بحيث لا يُكْتَنَهُ وصفُه وتذهب النّفس فيه كلَّ مذهب، فيهدِّد اللّه المشركين بإرسال حاصبٍ عظيمٍ من حجارة على رؤوسهم.

بلاغة الاستعارة في الآية:

رميُ السحابِ بالبَرَد الضخم كرمي الإنسان بالحجارة

تضمّن قوله تعالى: ﴿أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبًا﴾ صورةً بيانيَّةً، وهي الاستعارة في قوله: ﴿حَاصِبًا﴾، والحاصِبُ الرّامي بالحصباء، والتّقدير: (يرسل عليكم السّحاب كإنسانٍ رامٍ بالحجارة)، فجَعَلَ رَميَ السّحابِ بالبَرَد الضخم كرمي الإنسان بالحجارة، وهي استعارة غرضُها توضيحُ المعنى وتقويتُه.

معنى حرف العطف ﴿ثُمَّ﴾:

دقّة السّياق القرآنيّ في اختيار حروف المعاني

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا﴾ استُعمِل حرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ الدّالّ على التّرتيب والتّراخي[1]، فالمشركون بعد نزول العذاب بهم من خَسْفٍ أو حاصبٍ، لا يجدون لأنفسهم مَن يجادل اللّهَ عنهم أو يُطالبُه بما ألحق بهم من الخسف أو الإهلاك بالحاصب.

دلالة المضارع ﴿تَجِدُواْ﴾:

عدم وجود مَن يحفظ المشركين من عذاب الله في الحال والاستقبال

عُبِّر في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا﴾ بالفعل المضارع ﴿تَجِدُواْ﴾ الدّالّ على الحال والاستقبال؛ فالمشركون لا يجدون ولن يجدوا حافظًا ونصيرًا يمنعُهم من بأس اللّه برًّا أو بحرًا[2].

فائدة حرف الجرّ ﴿لَكُمۡ﴾:

أوثِرَ في قولِه تَعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا﴾ استعمالُ

---

(1) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 3/ 237.

(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 290.

عدم وجود نصيرٍ يجادل لأجل المشركين

حرفِ الجرِّ اللّام مِنْ ﴿لَكُمۡ﴾، وهيَ محمولةٌ على التّعليلِ؛ أيْ: لن يوجد لأجْلِكُم أيُّ نصيرٍ يمنعكم من بأس اللّه، ولن يجدَ المشركون لأنفسهم مَن يجادلُ اللّهَ عنهم أو يطالبه بما ألحقَ بهم من الخسف أو الإهلاك بالحاصب.

دلالة تنكيرِ ﴿وَكِيلًا﴾ وإفرادِهِ:

دلالة التّنكير على التّقليل

يتجلّى الغرض البلاغي من تنكيرِ لفظ ﴿وَكِيلًا﴾ وإفرادِه في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا﴾: هو التقليلُ، فالمشركون لن يجدوا ولو نصيرًا واحدًا يمنعهم من بأس اللّه، أو يَحولُ بينه وبين تعذيبهم.

فائدة التّقديم والتّأخير في ﴿لَكُمۡ وَكِيلًا﴾:

اختصاص المشركين بعدم وجود وكيل لهم

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿لَكُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا﴾ لنكتةٍ بلاغيّةٍ وهي الاختصاص، بمعنى اختصاص المشركين بعدمِ وجودِ الحافظ والنّصير دون المؤمنين، وقريبٌ من معناه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ١١﴾ [محمد ﷺ: 11].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأمن والطمأنينة:

الأمن حقيقةٌ والاطمئنان مجاز

يتجلّى الفرق بين الأمن والاطمئنان في الاختلاف الدَّلالي بينهما: فالأمنُ لا يُطلق إلّا في سياق الخوف من شيء، والاطمئنان لا يُشترط فيه ذلك، كما أنّ الأمن حقيقةٌ والاطمئنان مجاز، فالاطمئنان حقيقتُه في سكون الأجسام، وإطلاقُه على استقرار النَّفْس وانتفاء القلق مجازٌ بتشبيه القلق بالاضطراب والحركة، وشاع ذلك المجاز حتى صار مساويًا للحقيقة، يُقال: اطمأنّ بالُه واطمأنّ قلبه، وذلك كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾ [النساء: 103]؛ فالمُراد

بـ(الاطمئنان) الاستقرار في مكان الإقامة بعد السفر؛ أيِ: القفول من الغزو؛ لأنَّ في الرجوع إلى الأوطان سكونًا من قلاقل السفر واضطراب البدن، فإطلاقُ الاطمئنانِ عليه يُشبه أن يكون حقيقةً[1].

الخَسْفُ والقَلْبُ:

القلبُ ردُّ شيءٍ مـن جـهـةٍ إلى جـهـةٍ مطلَقًا، والـخـسـفُ هو قلبٌ خاصٌّ

بين الخسف والقلب عمومٌ وخصوص؛ فالقلبُ عامٌّ، والخسف خاصٌّ؛ وذلك لأنّ القلب ردُّ شيءٍ من جهةٍ إلى جهةٍ مطلَقًا[2]، أمّا الخسف فهو قلبٌ خاصٌّ، وحقيقته زِلزالٌ شديدٌ تنشقُّ به الأرض فتَحدثُ بانشقاقها هوَّةٌ عظيمة تسقط فيها الدّيار والنّاس، ثم تنغلق الأرض على ما دخل فيها، مثلما أصاب أهلَ بابل، ومكانُهم يُسمَّى خَسْفَ بابل، ومثلما أصاب قومَ لوط؛ إذ جعل الله عاليَها سافِلَها[3]، وذِكْرُ خصوصِ العذاب - وإن لم يُفصَّل في هَيْئَتِهِ وكيفيّته - أَدْعى للخوف والرهبة فالاتّعاظ؛ ولذا اختيرَ الخسفُ دون القلب.

الجانِب والشّاطِئ:

الجانبُ عـامٌّ في ناحية الـشّيء، والشاطئُ خاصٌّ بـجـانـب الـبرِّ في البحر ونحوه

بين الجانب والشّاطئ عمومٌ وخصوصٌ: فالجانبُ عامٌّ في ناحية الشّيء، والشّاطئُ خاصٌّ بجانب البرِّ في البحر ونحوه، فذُكِر في الآية العامّ (وهو الجانب) تنبيهًا على عظمة قدرة الله ﷻ، وأنّ عذابَه يَطالُهم في أيّ مكان يكونون فيه من البرِّ أو البحر، فلا عاصمَ من أمر الله إلّا مَن رَحِم، وعلى العاقل أن يستوي خوفُه من العظيم سبحانه في أيّ مكان برًّا أو بحرًا.

الحاصِب والرّيح:

بين الرّيح والحاصب عمومٌ وخصوصٌ، وذلك أنّ الرّيح أنواع كثيرة، منها الطيّب النافع، ومنها الضّارّ المُدمِّر، ومن المُدمِّر ريحٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 164.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قلب).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 165.

للعذاب تُسمّى: الحاصبَ؛ وهي ريح قويّة تحمل من شدّتها التّراب والحصباء، فتَحصِب بها النّاس، وتُغطي بها العمران، وقد تشتدُّ شدّة تقتلع الحجارة فترمي بها النّاس.

وقد عُذِّبت بهما أُمَّتانِ من الأمم الغابرة، كانتا من أشدّ الأمم عذابًا؛ كما قال اللّه تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ [العنكبوت: 40]، وهاتان الأمّتان هما: عاد وقوم لوط، كما في آيات كثيرة.

(وجَدَ) و(لقي):

تخصيص الوجود بالبحث وعموم اللُّقيّ

يتجلّى الاختلاف بين اللفظيْن في اشتقاق كلِّ فعلٍ من الفعليْن: (وجَدَ) و(لقيَ)، كما يظهر الفرق بينهما في المعنى فالفعل (وجد) لا يستعمل إلّا لِمَنْ كان يبحث عن الشيء؛ فيُقال: وجده بعد بحثٍ، وأمّا الفعل (لقيَ) فلا يدلّ على بحث أو سابق تخطيط وميعاد؛ بل هو توافي اثنَيْن متقابليْن[1]، ومن هنا ناسب الفعل ﴿تَجِدُوا﴾ سياق الآية من حيث بحثُ المشركين عن وكيلٍ يمنعهم من بأس اللّه، أو يحولُ بينهم وبين تعذيبهم ولن يجدوا.

الوكيل والنَّصير:

تغايُر المبنى دليل على تغايُر المعنى

يشترك لفظا (الوكيل) و(النَصير) في أنّ كليهما من أسماء اللّه الحسنى، وقد ورد وصف اللّه ﷻ بهما في القرآن الكريم: فورد وصفُه سبحانه بلفظ نصير في قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ۝٤٥﴾ [النِّساء: 45]، وورد وصفُه تعالى بلفظ وكيل في القرآن أربع عشرة مرةً.

والفرق بينهما من جهة الدلّالة: أنّ (النَّصيرَ) هو الموثوق منه بأن لا يُسْلِمَ وليَّه ولا يَخذلَه[2]، وأمّا الوكيل فهو الموكَلُ إليه القيامُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مسس).

(2) الحَلِيميّ، المنهاج: 1/ 205.

بمهمِّ موكِّله، والمُدافعُ عن حق موكِّله[1] فيتلخَّص في الوكيل ثلاثة معان: الكفيل، والكافي، والحفيظ؛ لذا فهو أنسبُ لسياق الآية بوصف المُشرك الباحث عن النّصير يتشبّث بمَن يمتلك القدرة على النُّصرة كفالةً وكفايةً وحفظًا؛ لكون المُتّصف بها أدعى للحماية، وأقدَرَ، ولكن هيهات!

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 162.

﴿أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا ٦٩﴾ [الإسراء: 69]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إظهار قدرة الجبّار بالانتقال من استدلال إلى استدلال

بعد أن بيَّنَ اللّه للمشركين قدرتَه على إهلاكهم في البرّ، أَضْرَبَ عن ذلك وانتقل معهم إلى استدلالٍ أوضحَ من السّابق تعريضًا بغباوتهم وجهلهم بقدرة العظيم سبحانه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُعِيدَكُمۡ﴾: أصلُ (عود) يَدُلُّ على تَثْنِيَةٍ في الأَمرِ؛ فالعَوْدُ: الرُّجوعُ إلى الشَّيء بعد الانصراف عنه؛ إمّا انصرافًا بالذّات، وإمّا بالقَولِ والعزيمةِ[2]، تَقولُ: بَدَأَ ثُمَّ عادَ، وعادَ إليه يَعودُ عَوْدَةً وعَوْدًا: رَجَعَ، والعَوْدَةُ: المَرَّةُ الواحِدَةُ، والمَعادُ: كُلُّ شَيْءٍ إليهِ المَصيرُ، والآخِرَةُ مَعادٌ لِلنّاسِ[3]، والعادَةُ: اسم لتكرير الفعل والانفعال حتى يصير ذلك سهلًا تعاطيه كالطّبع[4]، والمُرادُ بالعَوْدِ في الآية: الرُّجوعُ إلى شَيْءٍ بَعْدَ مُفارَقَتِه[5].

2) ﴿تَارَةً﴾: أصلُ الكلمة (تأر)، والتّائِر: المُداوِمُ على العَمَلِ بَعْدَ فُتور، والتَّأْرَةُ: الحينُ[6] والتّارَةُ أيضًا: المَرَّةُ المُتَكَرِّرَةُ، قيلَ عَيْنُه هَمزَةٌ ثُمَّ خُفِّفَتْ لِكَثْرَةِ الاِسْتِعْمالِ، وقيلَ: هيَ واوٌ، والأَوَّلُ أَظْهَرُ؛

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 474.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (عود).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عود).
(4) الراغب، المفردات: (عود).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/ 206.
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (تأر).

لِوُجودِهِ مَهموزًا، وهُم لا يَهمِزونَ حَرْفَ العِلَّةِ في اللُّغَةِ الفُصْحى[1]، ويَظْهَرُ أَنَّها اسْمٌ جامِدٌ لَيْسَ لَهُ أَصْلٌ مُشْتَقٌّ مِنْهُ، قالَ الأَزهريُّ: جَمعُها تِئَرٌ، مَهْموزَةٌ؛ ومِنْهُ يُقالُ: أَتأَرْتُ إِليه النَّظَرَ؛ أَي: أَدمته تارَةً بعد تارَةٍ[2]، والمرادُ بالتّارةِ في الآيةِ: كلُّ فعلَةٍ مُتجدِّدَةٍ.

3) ﴿قَاصِفًا﴾: أصلُ (قصف) يَدُلُّ على كَسْرٍ لِشَيْءٍ، فالقَصْف: الكَسْرُ، وفي التَّهْذيبِ: كَسَرَ القَناة ونَحْوها نِصفَيْن[3]، ويُقالُ: قَصَفَتِ الرّيحُ السَّفينَةَ في البَحْرِ، وريحٌ قاصِفٌ، والقَصِفُ: السَّريعُ الانْكِسارِ، والقَصيفُ: هَشيمُ الشَّجَرِ[4]، والقاصفُ: الرّيح الشَّديدَة الَّتي تقصِف الشَّجرَةَ[5]، والمقصود بالقاصِفِ في الآية: الَّتي تَقْصِفُ، أَيْ تَكْسِرُ، وغلَبَ وصْفُ الرّيح بِهِ[6].

4) ﴿ٱلرِّيحِ﴾: الجذر (روح) والرّيحُ: واحِدَةُ الرّياح، وهي الهَواءُ المُتَحَرِّكُ بين السَّماءِ والأَرْضِ، وكَذَلِكَ نَسيمُ كُلِّ شَيْءٍ[7]، قال ابنُ عاشور: وما قيلَ: إِنَّ الرّياحَ لِلْخَيْرِ والرّيحَ لِلْعَذابِ في القُرْآنِ هو غالِبٌ لا مُطَّرِد، ويأْتي بِمعنى الرّائِحَةِ، وهي ما يُدْرَكُ بِحاسَّةِ الشَّمِّ، ومنه قولهم: ريحٌ زَكيَّةٌ[8]، والمقصودُ بالرّيحِ في الآية: تَمَوُّجٌ شديدٌ في الهواءِ يَحْدُثُ مِنْ تَعاكُسِ الحَرارَةِ والبُرودَةِ، وتَنْتَقِلُ مَوْجاتُهُ كما تَنْتَقِلُ أَمواجُ البَحْرِ[9].

5) ﴿فَيُغْرِقَكُم﴾: أَصْلُ (غرق) يدلّ على بُلوغِ الشَّيْءِ أَقْصى نِهايَتِهِ[10]، فالغَرَقُ: نُزولُ الشَّيْءِ في الماءِ بِسَبَبِ ثِقَلِهِ، والغَريقُ: المَيِّتُ فيهِ، يُقالُ: غَرِقَ الرَّجُلُ في الماءِ، يَغْرَقُ، غَرَقًا؛ أَيْ: نَزَلَ فيهِ وغَلَبَهُ الماءُ فَهَلَكَ بالاخْتِناقِ أو كادَ، فهو غَرِقٌ وغارِقٌ وغَريقٌ، والجَمعُ: غَرْقى[11]، ويأْتي الغَرَقُ بِمعنى التَّعَمُّقِ والغَوْصِ، مثل: غَرِقَ في الوحْلِ، والإِغْراقُ: المُبالَغَةُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 163.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (تأر).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (قصف).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (قصف).
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والسَّمين، عمدة الحُفّاظ: (قصف).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 163.
(7) ابن منظور، لسان العرب: (روح)، والجوهريّ، الصّحاح: (روح).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 106.
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 259.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غرق).
(11) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة: (غرق).

ومُجاوزَةُ الحَدِّ[1]، والمرادُ بالغَرَقِ في الآيةِ: إحاطةُ الماءِ بالشَّخصِ ورُسوبُه فيه.

6) ﴿تَبِيعًا﴾: أَصْلُ (تبع) التُّلُوُّ والقَفْوُ، يُقالُ: تَبِعتُ فُلانًا إذا تَلوتَه واتَّبَعْتَه، وأَتْبَعْتُه إذا لَحِقْتَه[2] كأنَّما لَحِق أو التَصَق به وتَطَلَّبه مُتَّبِعًا له[3]، والاتِّباعُ: اقْتِفاءُ أَثَرِ الماشي، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ في العَمَلِ بِمِثْلِ عَمَلِ الغَيْرِ[4]، وأتبع فلانٌ فلانًا إذا تبعه يُريد بِهِ شرًّا[5]، والتَّبِيعُ: النَّصيرُ، والتَّبِعَةُ هي التَّباعَةُ[6]، والمرادُ بالتَّبيعِ في الآيةِ: المُتَتَبِّعُ غَيْرَهُ المُطالِبُ لِاقْتِضاءِ شَيْءٍ مِنْهُ[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الشدائد تكشف زيفَ جحودِ الإنسانِ وكفرَه بالله تعالى

الخطابُ في الآية الكريمة للمشركين الَّذين يلجؤون إلى اللّه في الشَّدائد عند اضطراب البحر، وهيجانه، ثمَّ يُعرضون عنه تعالى إذا نجّاهم منه، فيقول تعالى: أم أمِنْتُم - يا مَن أعرَضْتُم عن توحيدِ اللّهِ وإخلاصِ الدّينِ له بَعدَما اعترَفْتُم بذلك في البَحرِ فأنقَذَكم - أن يَرجِعَكم اللّهُ في البَحرِ مرَّةً أخرى، فيُرسِلَ اللّهُ عليكم في البَحرِ ريحًا شَديدةً تَكسِرُ سُفُنَكم، فيُغرِقَكم بسبَبِ كُفرِكم باللّهِ وإعراضِكم عنه، ثمَّ لا تَجِدوا لكم تابِعًا يثأرُ لكم، ويُطالِبُنا بما فعَلْنا بكم[8].

(1) الجوهري، الصِّحاح، وابن سِيدَه، المُحْكَم، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (غرق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تبع).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المُؤصَّل: (تبع).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 423.
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (تبع).
(6) الخليل، العين: (تبع).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 163.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 671، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 293، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 97، والدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 5/ 377.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مَعنَى ﴿أَمْ﴾ ودلالتها:

دلالـة (أم) علـى الإضـراب الانتقالي

ورد في قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ استعمالُ حرفِ العطف ﴿أَمْ﴾، وهي للإضراب الانتقالي؛ أيْ: بل أأمنتم، فالاستفهام مُقدَّر مع ﴿أَمْ﴾؛ لأنها خاصّة به؛ أيْ: أو: هل كنتم آمنين من العَوْد إلى ركوب البحر مرّةً أخرى فيرسل عليكم قاصفًا من الريح فيغرقكم؟[1].

دلالة الفعل الماضي ﴿أَمِنتُمْ﴾:

اغترار المشركين بأمنهم في البرّ

ورد في قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ استعمالُ الفعلِ الماضي ﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾؛ للدّلالة على تحقُّق اطمئنان المشركين واغترارِهم بالأمن في البرّ، فالمشركون بعد وصولهم للبَرِّ زال فزعُهم واطمأنّوا بعدم الهلاك، وثابَتْ إليهم السكينةُ، فهَدَّدَهمُ اللّه ﷻ بأنّه قادرٌ على أن يُعيدهم إلى البحر بأن يوجد فيهم الدّواعي المُلحَّة إلى العَوْد تهيئةً لإغراقِهم وإرادة الانتقامِ منهم[2].

مَعْنى ﴿أَن﴾ ودلالتها:

تـميُّزُ المصـدرِ المُـؤوَّلِ علـى الصّـريح ببيان الزَّمن

ورد في قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ استعمالُ الحرفِ المصدري ﴿أَن﴾، وهو يُؤَوَّلُ مع فعله بمصدر صريح، والتَّقدير: (أم أَمِنْتُم إعادتَكم فيه)، والنّكتةُ البلاغية في إيثار المصدر المُؤَوَّلِ على الصّريح أنّ المصدر المؤوَّلَ يبيّن الزمَن، فَدَلَّ قولُه تعالى: ﴿أَن يُعِيدَكُمْ﴾ على الاستقبال، فاللّه ﷻ قادر على أن يُعيدهم مستقبَلًا إلى البحر بأن يوجِد فيهم الدَّواعيَ المُلِحَّةَ إلى العَوْد تهيئةً لإغراقِهم وإرادةً للانتقام منهم[3].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 163.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 163.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 163.

دلالة الفعل المضارع ﴿يُعِيدَكُمۡ﴾:

قدرة الله على إعادة المشركين إلى البحر مستقبلًا

أوثِر التعبيرُ بالمضارع ﴿يُعِيدَكُمۡ﴾ دون غيره من الأزمنة لما يُفيدُه المضارع من الدّلالة على الاستقبال؛ فالمشركون بعد وصولهم للبرِّ زال فزعُهم واطمأنّوا بعدم الهلاك وثابَتْ إليهم السكينة، فهدَّدَهُمُ الله ﷻ بأنّه قادر على أنّ يُعيدهم مستقبلًا إلى البحر بأن يوجِد فيهم الدَّواعيَ المُلِحَّةَ إلى العَوْد تهيئةً لإغراقهم وإرادة الانتقام منهم[1].

بلاغة القراءة المتواترة في الآية:

تنوّع القراءات وأثرُه في ثراء المعاني

جاء في قوله تعالى: ﴿أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا﴾ قراءتان مشهورتان: فقرأ ابن كثير وأبو عَمرو بالنّون في ﴿نُّعِيدَكُمۡ﴾ و﴿فَنُرۡسِلَ﴾، وقرأ الباقون بالياء ﴿يُعِيدَكُمۡ﴾ و﴿فَيُرۡسِلَ﴾[2].

وحجّة مَنْ قرأ بالنون أنّه جعله من إخبار اللّه تعالى عن ذاته بضمير المُعظِّم نفسَه سبحانه، وحُجّة مَنْ قرأ بالياء أنه جعله من إخبار النبيّ ﷺ عن ربّه ﷻ[3].

ويَحتمل أيضًا على قراءة الياء أن يكون من أسلوب الالتفات من الخطاب في قوله ﴿أَمۡ أَمِنتُمۡ﴾ إلى الغائب بقوله ﴿يُعِيدَكُمۡ﴾، ﴿فَيُرۡسِلَ﴾ أي ربّكم، وذلك لنُكتةِ استحضار عظمة الربوبية المستوجِبة للتوحيد والتمجيد والدّاعية للخوف من الوعيد بالعذاب الشّديد.

مَعْنى حرف الجرِّ ﴿فِيهِ﴾:

الإعادة إلى مكان المخاطر والمهالك

استُعمل حرفُ الجرّ (في) من قوله: ﴿يُعِيدَكُمۡ فِيهِ﴾ الدّالُّ على الظَّرفيَّةِ المكانيّة؛ أي (في البحر)؛ لأنَّ المشركين تركوا إخلاصَ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 163.

(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 308.

(3) ابن خَالَوَيْه، الحُجّة، ص: 292.

الدّعاء للّه بعد وصولهم للبرّ ظَنًّا منهم بالنّجاة من البأس والهلاك، فهدَّدَهم اللّه ﷻ بأنّه قادر على أنْ يُعيدهم إلى المكان ذاته الذي ظنّوا أنّهم قد نَجَوا منه.

دلالة تقديم شبه الجملة ﴿فِيهِ﴾:

إعادة المشركين إلى مكان خوف الهلاك خصوصًا

قُدّم شبه الجملة ﴿فِيهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾؛ لنُكْتَةٍ بلاغيَّةٍ وهي الاختصاص، فأئمةُ علمِ المعاني يجعلون التَّخصيصَ لازمًا للتقديم[1]، بمعنى تهديد المشركين بإعادتهم إلى البحر خصوصًا، وذلك أنَّ الإنسان مُعرَّضٌ للهلاك في البحر أكثر من أيِّ مكانٍ آخر؛ إذ لا مَنْجى له من الغرق، فالمياه تحيط به من كل جانبٍ، والإشراف على الغرق مُرعِبٌ للنّفوس[2].

مَعْنى الفاء في ﴿فَيُرْسِلَ﴾ ودلالتُها:

تهديد المشركين بسرعة انتقام الله ﷻ منهم

عُطف في قوله تعالى: ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا﴾ باستعمال الفاء الدَّالَّةِ على التعقيب، فإرسالُ القاصفِ من الرّيح يكون فورَ عودتِهم إلى البحر، وفي ذلك من التّهديد والانتقام ما تَفزع له النفوس، كما أفادتِ الفاءُ التفريعَ على جملة ﴿أَن يُعِيدَكُمْ﴾، فإرسالُ الريح عليهم مُفَرَّعٌ ومُسَبَّبٌ عن إيجاد الدّواعي المُلِحَّة إلى العَوْدِ تهيئةً لإغراقِهم وإرادةِ الانتقام منهم[3].

دلالة الفعل المضارع ﴿فَيُرْسِلَ﴾:

تَوعُّدُ المشركين بالإهلاك في المستقبل

عبَّرَ بالمضارع ﴿فَيُرْسِلَ﴾ دون غيره من الأزمنة لِما يُفيده المضارعُ من الدّلالة على الاستقبال، فهَدَّد اللّه المشركين بأنّه قادر على أن يُعيدهم مُستقبَلًا إلى البحر، وبأنّه سيُرسِل عليهم حينئذٍ ريحًا شديدةً تكسر سفينَتَهم وتُغرقهمُ انتقامًا منهم.

(1) السّكّاكي، مفتاح العلوم، ص: 233.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 472.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 163.

البيان القرآني في اختيار حروف المعاني

مَعْنى حرف الجرِّ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾:

تعدّى الفعل (أرسل) في قوله تعالى: ﴿فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ بحرف الاستعلاء (على) دون غيره لتضمُّنِه معنى الغلبةِ والسّلطة المناسب لتهديد المشركين، فإرسالُ الرّيحِ القاصف لِسُفُنِهم لتدميرِهم وإغراقِهم والانتقام منهم.

اختصاص المشركين بإرسال الرّيح القاصف المدمّر

دلالة تقديم الجارّ والمجرور في الآية:

تقدّم الجارّ والمجرور ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ﴾ لنكتة بلاغيّة وهي الاختصاص، بمعنى اختصاص المشركين بإرسال الرّيح القاصف المُدمِّر لسفنهم والمُغرِق لهم دون غيرهم من العباد، وفي هذا تهديدٌ لهم.

دلالة الإبهام على التّعظيم والتّفخيم

دلالةُ التنكير في ﴿قَاصِفٗا﴾ وبلاغتُه:

في قوله تعالى: ﴿فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ آثر القرآنُ الكريمُ تنكيرَ لفظ ﴿قَاصِفٗا﴾، والنّكتة البلاغية في ذلك أنّ التّنكير يدلّ على الإبهام، والإبهام له علاقة مباشرة بالتّعظيم والتّفخيم، فإنّ مَن أراد أن يُعظّم شيئًا أَبهمَه بحيث لا يُكْتَنَهُ وصْفُهُ وتذهبُ النّفسُ فيه كلَّ مذهبٍ، فيهدِّد اللّه المشركين بإرسال ريحٍ قاصفٍ شديد يُدمّر سفنَهم ويُغرقهم.

الصّفات المختصّة بالمؤنّث لا تلحقها علامة التّأنيث

دلالة وصف الريح بـ ﴿قَاصِفٗا﴾ بالتّذكير:

ورد لفظ ﴿قَاصِفٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ وصفًا مُذكّرًا، والقاصف: الّتي تقصف؛ أيْ: تكسر، وأصلُ القَصْفِ: الكسرُ، وغلب وصف الرّيح به، وهي مؤنّثة، فَعومِل معاملةَ الصفات المختصّة بالمؤنث نحو: حائض، ومرضع، فلم يُلحِقوه علامةَ التّأنيث، مثل عاصف في قوله: ﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ﴾ [يونس:

22]، والمعنى: فيرسل عليكم ريحًا قاصِفًا؛ أيّ: تقصف الفُلْكَ؛ أيّ: تُعطبُه بحيث يغرق، ولذلك قال: ﴿فَيُغۡرِقَكُم﴾[1].

معنى حرف الجرِّ ﴿مِّنَ﴾ ودلالته:

بيانُ جنسِ القاصف الذي سيُدمِّر سُفن المشركين

يدلّ حرفُ الجَرِّ ﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ على البَيانِ؛ أيّ: بيانِ جنْسِ القاصف الذي يقصف؛ أي: يكسر سفنَهم ويُدمّرها، وهي الرّيح، فالرّيح جندٌ من جنود اللّه، وقد أهلك اللّه بها أقوامًا كعادٍ، فقال: ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ٦﴾ [الحاقّة: 6].

توجيهُ القراءات بين ﴿ٱلرِّيحِ﴾ و(الرّياح):

إرسال الرّيح للخير والشرّ

ورد في قوله تعالى: ﴿فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ قراءتان مشهورتان: فقرأ الجمهور ﴿مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ بالإفراد، وقرأ أبو جعفر ﴿مِّنَ ٱلرِّيَٰحِ﴾ بصيغة الجمع[2].

وقد علَّل بعض العلماء حجّة مَن أفرد بأنه جعلها عذابًا، واستدلَّ بما روي عن النبيّ ﷺ: "اللهمَّ اجْعَلْها رياحًا لا ريحًا"[3]، والحُجّة لَمن جمع: أنه فرّق بين رياح الرّحمة ورياح العذاب؛ فجَعَل ما أَفْرَدَه للعذاب، وما جَمَعَه جعله للرحمة[4].

والرّاجح أنّ هذا التّفريق غير مستقيم، فالحديث المرويُّ ضعيفٌ جدًّا لا تقوم به أدنى حجّة، وفي الحديث نكارة في مَتْنِه أيضًا؛ لأنَّ الريح ليست مذمومة على إطلاقها، فقد قال تعالى: ﴿وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾ [يونس: 22]؛ فهي هنا ليست عذابًا، فكيف يوصف العذاب بالطيّب؟! وقال تعالى عن سليمان عليه السلام: ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ٣٦﴾ [ص: 36].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 163.
(2) ابن الجَزَري، النَّشر: 2/ 223.
(3) ضعيف جدا، يُنظر: الألباني، السلسلة الضعيفة، الحديث رقم: (4217).
(4) ابن خَالويْه، الحُجّة، ص: 91.

ثمَّ إنّ القراءاتِ القرآنيةَ المتواترةَ تُبيّن بطلانَ هذا التَّفريق، فسياقُ هذه الآية هو تهديد المشركين بإرسال القاصف من الرّيح فتغرقهم، ومع هذا فقد قرأها أبو جعفر المدنيُّ ﴿ٱلرِّيَٰحِ﴾، وقرأها الباقون: ﴿ٱلرِّيحِ﴾، وفي هذا دليل على أنَّ كلا اللَّفظين يصلح للخير والشرّ.

وممّا يعزِّز بطلانَ التفريق أيضًا الحديثُ الصحيحُ الثّابت في صحيح مسلم أنه ﷺ كان يقول عند هبوب الرّيح: "اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أُرسلت به، وأعوذ بك من شرّها وشرّ ما فيها وشرّ ما أُرسلت به"(1)، فجَعل للرّيح خيرًا وشرًّا، وليس شرًّا فقط.

مَعْنى الفاء في ﴿فَيُغۡرِقَكُم﴾ ودلالتها:

تسبّب الرّيح القاصف في إغراق المشركين

عُطِفَ بالفاء الدّالّة على التّعقيب في قوله تعالى: ﴿فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ﴾، فإغراق المشركين يكون فورَ إرسال القاصف من الريح، وفي ذلك من التّهديد والانتقام ما تفزع له النفوس، كما أفادتِ الفاءُ التّفريعَ على جملة ﴿أَن يُعِيدَكُمۡ﴾، فإغراقهم مُفرَّع ومسبَّب عن إعادتهم إلى البحر مرّةً أخرى، وإرسال الريح القاصف عليهم.

دلالة الفعل المضارع ﴿فَيُغۡرِقَكُم﴾:

تهديد المشركين بالإغراق في المستقبل

عبَّرَ بالمضارع ﴿فَيُغۡرِقَكُم﴾ دون غيره لِما يفيده المضارع من الدلالة على الاستقبال، فهَدَّد اللّه المشركين بأنّه قادر على أن يُعيدهم مستقبَلًا إلى البحر، وبأنّه سيرسل عليهم حينئذٍ ريحًا شديدةً تكسر سفينتَهم، وبأنّه سيُغرِقهم انتقامًا منهم.

توجيه القراءات في ﴿فَيُغۡرِقَكُم﴾:

القراءة مع القراءة كالآية مع الآية

ورد في قوله تعالى: ﴿فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ﴾ أربع قراءاتٍ: فقرأ ابن كثير وأبو عَمرو بالنّون فيه ﴿فَنُغۡرِقَكُمۥ﴾ وقرأ الباقون بالياء ﴿فَيُغۡرِقَكُم﴾، إلّا أبا جعفر - بخُلْف عن ابن وردان - ورويسًا

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، الحديث رقم: (899).

فهي عندهم بالتّاء على التّأنيث ﴿فَتُغۡرِقَكُم﴾[1]، وقرأ ابن وردان في الوجه الثاني له: ﴿فَتُغَرِّقَكُم﴾ بالتاء وتشديد الرّاء[2].

وقد علَّل بعض العلماء بأنّ حجّة مَن قرأ بالنّون: أنّه جعله من إخبار اللّه تعالى عن ذاته بضمير المُعَظِّم نَفْسَهُ سبحانه، على الالتفات من ضمير الغَيْبة الذي في قوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ﴾ إلى ضمير التّكلّم.

وأنّ حجّة مَن قرأ بالياء: أنه جعله من إخبار النبيّ ﷺ عن ربّه ﷻ[3]، ويَحتمل أيضًا على قراءة الياء أن يكون من أسلوب الالتفات من الخطاب في قوله: ﴿أَفَأَمِنتُمۡ﴾ إلى الغائب بقوله: ﴿يَخۡسِفَ﴾؛ أيّ: (ربّكم)، وذلك لنكتة استحضار عظمة الرُّبوبية المُستوجِبة للتّوحيد والتّمجيد والدّاعية للخوف من الوعيد بالعذاب الشديد، وحجّة قراءة أبي جعفر ورويس عن يعقوب ﴿فَتُغۡرِقَكُم﴾ بمثناة فوقية؛ أنّ الضمير عائد إلى الرّيح على اعتبار التأنيث، أو على الرياح على قراءة أبي جعفر[4]، وقراءة تشديد الراء من (غرَّق) تدلّ على التكثير والتنويع؛ فهذه الريح ستغرِّق - من الكافرين باللّه - الكبير والصغير، والغني والفقير، مرة بعد مرة[5]، وبشتّى الأحوال.

معنى الباء في ﴿بِمَا﴾ ودلالتُها:

الذُّنوب سببٌ لنزول العذاب

معنى حرف الجرِّ (الباء) في قوله ﷻ: ﴿فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ﴾ دالٌّ على السَّببيَّةِ، أي: إنّ الانتقام منكم بالإغراق هو بسبَبِ كفركم وشرككم.

(1) ابن الجَزَريّ، النشر: 2/ 308.
(2) ابن الجَزَريّ، تحبير التيسير، ص: 439، وهي من زيادات متن الدّرة المضية على متن الطيبة.
(3) ابن خَالويْه، الحُجّة، ص: 292.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 164.
(5) الدِّجْوي، قمحاوي، قلائد الفِكْر، ص: 84.

دلالة التَّعبير بالحرف (ما):

علّة إغراق الكُفّار والانتقام منهم هو كفرهم

يجوز أن تكونَ (ما) في قوله تعالى: ﴿فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ﴾ مصدريَّةً، أو أن تكونَ موصولة بمعنى (الّذي)[1]: فعلى تقدير موصوليَّتِها، فإنّ الغرض من استعمالها هو التّنصيص على سبب إغراقهم وهو كفرهم، فوضْعُ الموصولِ موضعَ الاسم يسمح بوصفه بجملة الصِّلة، والغرضُ منه الإشعار بعلّة الحُكم[2].

وعلى تقدير كونِها مصدريّةً، فهي تُؤَوَّلُ مع فعلها بمصدرٍ صريح، والتقدير: (فيغرقكم بكفركم)، والنكتة البلاغية في إيثار المصدر المُؤَوَّلِ على الصريح أنّ المصدر المُؤَوَّل يُبيّن الزّمن، فدَلَّ قوله تعالى: ﴿بِمَا كَفَرۡتُمۡ﴾ على أنّ كفرهم السّابق هو سبب إغراقهم، وإرادة الانتقام منهم.

دلالة الفعل الماضي ﴿كَفَرۡتُمۡ﴾:

نـزول العذاب بالذنوب السّابقة

جاء الفِعْلُ ﴿كَفَرۡتُمۡ﴾ في قَولِه تَعالى: ﴿فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ﴾ بِصيغَةِ الماضي؛ لأَنَّ الإِخْبارَ عَنِ الشَّيْءِ بِصيغَةِ الماضي يَقْتَضي كَوْنَ المُخْبَرِ عَنْهُ مُتَقَدِّما عَلى ذَلِكَ الإِخْبارِ[3]، فَقَدْ سبق أن نجّى اللّه المشركين من ضرّ البحر وأوصلهم إلى البرّ سالمين؛ فكفروا نعمة اللّه عليهم، وعادوا إلى شركهم؛ فهدَّدهم اللّه بقدرته على إعادتهم إلى البحر وإغراقهم بسبب كفرهم.

معنى حرف العطف ﴿ثُمَّ﴾:

دقّة السّياق القرآني في اختيار حروف المعاني

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا﴾ استعمالُ حرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ الدّالّ على التّرتيب والتّراخي[4]، والنّكتة في ذلك هو التّرتيب الرُّتَبي كشأنها في عطفها الجمل، وهو ارتقاءٌ في

---

(1) السَّمين الحَلبي، الدُّرُّ المَصون: 7/ 386.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 113.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 2/ 283.

(4) فاضل السامرائي، معاني النحو: 3/ 237.

التّهديد بعدم وجود مُنقذٍ لهم، بعد تهديدهم بالغرق؛ لأنَّ الغريق قد يجد مُنقذًا[1].

دلالة الفعل المضارع ﴿تَجِدُواْ﴾:

تهديد الله المشركين بغياب نصير لهم

دلّ الفعل المضارع ﴿تَجِدُواْ﴾ من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا﴾ على الاستقبال، فهدّد اللّه المشركين بأنّه قادر على أن يُعيدهم مستقبَلًا إلى البحر، وأن يقصفَ سفنَهم بالريح ويُغرِقَهم، ويستمر في تهديدهم بأنّه بعد إغراقهم لن يجدوا لهم مُطالبًا يسأل اللّه ﷻ عمّا فعله بهم انتصارًا لهم.

مَعنى حرف الجرّ (اللّام):

عدم وجود نصير يطالب بثأر المشركين

يُحمل حرفُ الجرِّ اللّام في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا﴾ على التّعليلِ؛ أيْ: لن يوجد لأجْلِكُم أيُّ نصير يُطالب بثأركم من بأس اللّه، ولن يجد المشركون لأنفسهم مَنْ يُجادل اللّهَ عنهم أو يُطالبه بما ألحق بهم من الإغراق.

معنى حرف الجرّ (عَلى):

دقّة البيان القرآني في اختيار حروف المعاني

تعدّى الفعل (وجد) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا﴾ بحرف الاستعلاء (على) دون غيره لتضمُّنِه معنى الغَلَبَة والسُّلطة المناسب لتهديد المشركين بأنّهم بعد إغراقهم لن يجدوا مُطالبًا ينتصر لهم من بأس اللّه، فاللّه ﷻ غالبٌ على أمره، ولا معقِّب لحكمه وهو العزيز الحكيم.

معنى حرف الجرِّ (الباء) وعَوْد الضمير:

الذنوب سببٌ لنزول العذاب

يدلّ (الباء) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا﴾ على السَّببيَّة؛ أي: إنّ الانتقام منكم بإرسال القاصف من الرّيح والإغراق هو بسبَبِ كفركم وشرككم، والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ عائدٌ إمّا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 164.

إلى الإغراق المفهوم من ﴿فَيُغْرِقَكُم﴾، وإمّا إلى المذكور من إرسال القاصف وغيره[1].

سرُّ تقديم أشباه الجُمَلِ في الآية:

تتابع التّهديدات للمشركين بفظاعة العذاب

قدّم أشباه الجُمَلِ في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ﴾ على المفعول به ﴿تَبِيعًا﴾، لنكتة بلاغية وهي الاختصاص، بمعنى تهديد المشركين بالانتقام منهم خصوصًا بالإغراق، ولن يجدوا لهم - خصوصًا بسبب إغراقهم - أيّ مُطالِب بالثأر لهم.

نكتة تنكير ﴿تَبِيعًا﴾ وإفراده:

دلالة التنكير على التقليل

جاء لفظ ﴿تَبِيعًا﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾ مُنَكَّرًا مُفْرَدًا، والغرضُ البلاغيُّ من التَّنكير فيه والإفراد هو التّقليلُ، فالمشركون لن يجدوا ولو تبيعًا واحدًا يُطالب بثأرهم ويتبع آثار مَنْ ألحق بهم ضرًّا، كما يَحتمِل التّنكيرُ العمومَ؛ فلا مُطالِبَ لهم بحقٍّ أيًّا كان.

سرُّ إيثار صيغة المبالغة في ﴿تَبِيعًا﴾:

من أشدِّ الخسران فقدانُ الأمل

التّابع: هو الذي يتبعك لعمل شيء فيك، أمّا التّبيع فهو المُطالِبُ، يُقال: فلان على فلان تبيع؛ أيْ: مُسيطرٌ بحقِّه مطالِبٌ به، والمعنى: (إنْ فعلنا بكم هذه الأفعال؛ فلن تجدوا لكم تبيعًا يأخذ بثأركم أو ينتقم لكم)، إذن: (لا أملَ لكم في ناصر ينصركم، أو مُدافِعٍ يحميكم)[2].

بلاغة الاستعارة في الآية:

تصوير معنى العجز عن مغالبة الله ﷻ

تضمّن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾ صورةً بيانية بديعة، حيث استُعير لفظ التّبيع للنصير بجامع المطالبة بالحق، فالتَّبيعُ عند العرب هو المُطالِبُ المُسيطرُ بحقِّه المطالِب به،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 164.

(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 14/ 8679.

وفي الحديث: "إذا أُتْبِعَ أحَدُكُم على مَليٍّ؛ فَلْيَتْبَعْ"(1)، والمقصود بها هنا الدلالة على عدم وجْدِ نصير ينصر المشركين من عذاب اللّه.

توجيه المُتشابه اللفظيّ بين ﴿وَكِيلًا﴾ و﴿تَبِيعًا﴾:

تخصيص البرّ بالوكيل والبحر بالتّبيع

في قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا﴾ وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾ وجْهُ تَبايُنٍ، مع أنّ الآيتَين تهديدٌ للمشركين بقُدرةِ اللّه على إهلاكهم في البرّ أو إغراقهم في البحر.

ويتجلّى الفرق بينهما في أنّه ختم الآية الأولى بـ ﴿وَكِيلًا﴾، وختم الآية الثانية بـ ﴿تَبِيعًا﴾، والنّكتة في ذلك أنّ الوكيل هو الموكَلُ إليه القيامُ بمهمٍّ موكِّلِه، والمُدافعُ عن حق موكله؛ بمعنى: يا أيها المشركون لن تجدوا لأنفسكم مَن يجادلنا عنكم أو يُطالبنا بما ألحقناه بكم من الخسف أو الإهلاك بالحاصب، ولن تجدوا من قومكم وأوليائكم مَن يثأر لكم كشأن مَن يلحقه ضُرٌّ في قومه أن يدافع عنه ويُطالب بدمه أولياؤه وعصابتُه، وهذا المعنى مناسب لما يقع في البَرِّ.

التَّبيعُ هو المُتتبِّعُ غيرَه

وأمّا التَّبيعُ فهو مبالغة في التابع؛ أي المتتبِّعُ غيرَه المطالِبُ لاقتضاء شيء منه، بمعنى: يا أيها المشركون لن تجدوا مَن يسعى إلى اللّه ولا مَن يطالب لكم بثأر، فوصْفُ (تبيع) يُناسب حالَ الضُّرّ الذي يَلحقهم في البحر؛ لأنَّ البحر لا يصل إليه رجالُ قبيلة القوم وأولياؤهم، فلو راموا الثأرَ لهم لركبوا البحر ليُتابعوا آثارَ مَن ألحق بهم ضرًّا، فلذلك قيل هنا: ﴿تَبِيعًا﴾، وقيل في التي قبلها: ﴿وَكِيلًا﴾(2).

(1) رواه البخاري في صحيحه الحديث رقم: (2288)، ومسلم في صحيحه الحديث رقم: (1564).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/ 189.

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

التّارَةُ والمرَّةُ:

في (تارة) دلالةٌ على الزمن، و(مرّة) تدلُّ على الفعلة

يتجلّى الفرق بين لفظي ﴿تَارَةً﴾ و(مرّة) في كون التارة ظرفَ زمان تأتي بمعنى الحين، أمّا المرَّة فهي في الأصل الفعلة الواحدة، كقولك: ضربتُه مرَّةً واحدةً، كما أنّ لفظ ﴿تَارَةً﴾ دالٌّ على التَّكرّر بخلاف المرّة، ومعنى التَّكرار علّةٌ لاختيار اللَّفظ في سياق الآية بوصف أفعال المشركين لجوءًا إلى اللّه وإعراضًا؛ مرتبطة بالأمن وزواله.

أخرى وثانية:

دلالة العدد على الزيادة

يتجلّى الفرق بين لفظي ﴿أُخۡرَىٰ﴾ و(ثانية) في أصل اشتقاق كل لفظ منها: فالأخرى: مُؤنّث الآخَر، وهو يدلّ على خلاف الشَّيء، وأمّا الثانية: فهي مؤنّث الثاني من الثَّني وهو التّكرر، والفرق بينهما أيضًا في الاستعمال، فالثانية توحي بوجود ثالثة؛ إذ تستعمل الثانية فيما يليها ثالثة ورابعة ... وأمّا الأخرى فتُستعمل للدلالة على خلاف الشيء الأوّل دون نصّ على رتبته، ويوحي هذا الفرق وتحديدًا معنى الآخر على أنّه خلاف الشيء بأن كل تارّة من الإعادة تختلف عن سابقتها شدّةً، وكيفيّةً؛ فذلكم أدعى للترهيب والتخويف.

القاصِفُ والعاصِفُ:

قدرة الله في أنواع الرّياح وتعدد أوصافها

يشترك اللفظان في كونهما وصفَيْن من أوصاف الرّيح، فيُقال: ريح عاصف وريح قاصف، ويتجلّى الفرق بينهما في المعنى الدّلالي، فالعصف شدّة الهبوب، كقوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ [الأنبياء: 81]؛ أيّ: شديدة الهبوب، يُقال منه: عصفت الريح؛ أي: اشتدت؛ فهي ريح عاصف وعصوف، وفي لغة بني أسد: أعصفت الريح فهي معصِف ومعصِفة، والعَصْفُ: التِّبْنُ، فسُمّي به شدّة الريح؛ لأنَّها تعصفه بشدَّة تطيرها[1]، وأمّا القَصْفُ: فهو الكسر،

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 229.

والرّيح قاصفٌ تقصِف كلَّ شيء؛ أيْ: تكسره، قال اللّه تعالى: ﴿فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ وهي التي تقصف ما مرّت عليه من الشجر والبناء، ومن هنا فهي أدعى لشدّة العقوبة التي تناسب جحودَهم وكفرانَهم النعمةَ.

التَّبيعُ والنّاصِرُ:

اختلاف الاستعمال بين الحقيقة والمجاز

يتجلّى الفرق بين اللفظين في الدلّالة والاستعمال: فـ(التَّبيعُ) مبالغة في التّابع؛ أي المتتبِّعُ غيرَه المُطالِبُ لاقتضاءِ شيء منه، ولكنّه يُستعمل استعمالًا مجازيًّا؛ فيُستعمل للنَّصير بجامع المطالبة بالحق، فالتَّبيعُ عند العرب المُطالب، ويُقال: فلان على فلان تبيعٌ؛ أيْ: مسيطرٌ بحقِّه مطالبٌ به، وفي الحديث: "إذا أُتْبِعَ أَحَدُكُم على مَليءٍ فَلْيَتْبَعْ"[1]، ويدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا﴾؛ حيث استعار لفظَ (التَّبيع) للنَّصير، وأمّا لفظ (ناصرًا) فهو من يضمن النَّصرَ لوليّه، وهو يُستَعْمَلُ استعمالًا حقيقيًّا[2].

(1) أخرجه أحمد في مسنده، الحديث رقم: (8938)، والبخاري في صحيحه، الحديث رقم: (2287)، ومسلم في صحيحه، الحديث رقم: (1564) وغيرهم.
(2) درويش، إعراب القرآن: 5/ 472.

﴿۞وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ٧٠﴾

[الإسراء: 70]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تكريم بني آدم على جميع المخلوقات

لمّا قرر سبحانه بالآيات السابقة العبرةَ والمِنَّة على المشركين، اعتَرَضَ بذِكْرِ نِعَمِه على جميع الناس تكريمًا لهم على سائر مخلوقاته، كما هو شأنه في القدرة على ما يريد في المفاوتة بين الأمور التي كانت متساوية عند أول خلقه لها، ليستدلّوا بذلك على سهولة الإعادة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَرَّمۡنَا﴾: أصل (كرم) شَرَفُ الشَّيءِ، يُقالُ: كَرُمَ الشَّيءُ يَكْرُمُ كرَمًا، أيْ: شَرُفَ، ورَجُلٌ كَريمٌ؛ أيْ: شَريفٌ ذو فَضائِلَ[2]، ويأتي التَّكْريمُ بِمَعْنَى: التَّفْضيلِ، والكَرَمُ: الفَضْلُ[3]، والكَريم: الصَّفوح، وكارَمَني فكَرَمته أكْرُمُه: كنْتُ أكْرَمَ مِنْهُ، وأكْرَمَ الرَّجلَ وكَرَّمَه: أعْظَمه ونزَّهه[4]، والمُرادُ بالتَّكْريم في الآية: جَعْلُه كَريمًا مُفضَّلًا؛ أيْ: نَفيسًا غير مَبذولٍ ولا ذليل[5].

2) ﴿وَحَمَلۡنَٰهُمۡ﴾: (حمل) أَصْلٌ يَدُلُّ على إِقْلالِ الشَّيْءِ، يُقالُ: حَمَلْتُ الشَّيءَ أَحْمِلُهُ حَمْلًا[6]، والحَمْلُ ما كانَ في بَطْنٍ أو على رَأس شجرةٍ، وجمعُه: أَحْمالٌ[7]، والحَمولَةُ من الإبل: الَّتي تَحْمِلُ الأَحْمال

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 474، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 164.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كرم).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (كرم).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (كرم).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 165.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حمل).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصِّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حمل).

على ظُهورها[1]، والمقصود بالحَملِ في الآيةِ: الوضْعُ على المَرْكَبِ مِنَ الرَّواحِلِ[2].

3) ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ﴾: (فضل) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى زيادَةٍ في شَيْءٍ؛ مِنْ ذلِكَ: الفَضْلُ: الزِّيادَةُ في الشَّيْءِ[3]، سَواءً أكان مَحْمودًا أم مَذْمومًا، واسْتِعْمالُهُ في المَحْمودِ أَكْثَرُ[4]، والمرادُ بالتَّفضيل في الآية: التَّفْضيلُ المُشاهَدُ؛ لِأَنَّهُ مَوْضِعُ الامتِنانِ، وذلكَ الَّذي جِماعُهُ تَمكينُ الإِنْسانِ من التَّسَلُّطِ على جَميعِ المَخْلوقاتِ الأَرْضيَّةِ بِرَأْيِهِ وحيلَتِهِ، وكَفَى بذلكَ تَفْضيلًا على البَقيَّةِ[5].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

تكريم الله للإنسان مرهون بإنسانيته

ذكَر اللّه سبحانَه تكريمَه لبني آدمَ، وتفضيلَهم على كثيرٍ مِن المخلوقاتِ، فقال: ولقد شَرَّفْنا بني آدَمَ قاطِبةً بَرَّهم وفاجِرَهم بأنواعِ الشَّرَفِ والمحاسِنِ الكَثيرة، وبما أنعَمَ اللّهُ تعالى عليهم مِن النِّعَمِ الظّاهرةِ والباطِنةِ التي لا يُمكِنُ لهم حَصرُها؛ ومنها تَمييزُهم بالعَقلِ، وتَسخيرُ المخلوقاتِ لهم، وحَملُهم في البَرِّ على ظُهورِ الدَّوابِّ وغَيرِها مِن المَراكِبِ، وفي البَحرِ على ظُهورِ السُّفُنِ والقَوارِبِ، ورَزَقْناهم مِن سائِرِ ما يستلِذّونَه وينتَفِعونَ به، كأنواعِ المآكِلِ والمشارِبِ، وفضَّلْناهم على كثيرٍ مِن المخلوقاتِ تَفضيلًا عَظيمًا؛ وذلك بما منَحهم اللّهُ من النِّعَمِ والخَصائِصِ التي لم يُعطِها لِغَيرِهم من مَخلوقاتِه[6].

---

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (حمل).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 165.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فضل).
(4) ابن دريد، جمهرة اللغة، والرّاغب، المُفردات: (فضل).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 166.
(6) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/ 473، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 295، والسَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 463.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في ﴿وَلَقَدۡ﴾ ودلالتُها:

فضل الله على النّاس أجمعين مؤمنهم وكافرهم

صُدِّرَ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ بحرف الواو الدّالّة على العطف؛ لأنّه تعالى لمّا ذَكَر ما امتنّ به على المشركين، من إزجاء الفُلْكِ في البحر ومن تنجيتهم من الغرق؛ اعتَرض بذِكْر نعمته على جميع النّاس فذكر المِنَّةَ عليهم بتَكْرِمَتِهم ورِزْقِهم وتفضيلِهم[1]، وهذا يُشبه التَّذييلَ لأنّه ذَكَرَ به ما يشمل ما تقدم[2]، وفائدة التذييل غالبًا توكيدُ المُذيَّل، وإبرازُ حُكمِه في صورةٍ كلّيّة[3].

دلالة تعدُّد المؤكِّدات في الآية:

المبالغة في تأكيد تكريم بني آدم

اتّصل حرف (اللّام) في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ بحرف (قد)، وتسمّى هذه اللّام باللّام الموطِّئَة للقَسَم، ومعنى ذلك أنّه لولا هذه اللّام لم يُعلم أنّ في الكلام قَسَمًا مُقَدَّرًا، فقد مهّدت له الجواب؛ ولذا تُسمَّى ممهِّدةً ومُؤَذِنةً[4]، وقد دخلت هذه (اللّام) على (قد) الدّالّة على التحقيق مبالغةً في التّأكيد، وكَثُر في الكلام اقترانُ جملة جواب القَسَم بـ(قد)؛ لأنّ القَسَم يُهيّئ نفس السّامع لتوقّع خبرٍ مُهمٍّ فيُؤتى بـ(قد)؛ لأنّها تدلّ على تحقيق أمرٍ مُتوقَّع، والغرض من تأكيد هذا الخبر بكلّ هذه المؤكدات هو الامتنان بالتّأكيد على تكريم بني آدم قاطبةً تكريمًا شاملًا لبَرّهم وفاجِرهم.

دلالة الفعل الماضي ﴿كَرَّمۡنَا﴾:

تحقيق معنى التكريم واستمراره في ذرّيّة بني آدم

جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ التعبيرُ بالفعل ﴿كَرَّمۡنَا﴾ بصيغة الماضي تأكيدًا لتحقيق التّكريم الذي دلّ عليه دخول حرف التحقيق (قد) عليه، فتكريم جنس بني آدم مُتحقِّق

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 84.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 163.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/ 386.
(4) الشِّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/ 1 73.

ابتداءً من تكريم أبيهم آدم ﷺ ووصولًا إلى تكريم جميع ذرّيته قاطبةً تكريمًا شاملًا لبَرِّهم وفاجرهم.

سرُّ إيثار صيغة ﴿كَرَّمۡنَا﴾ على (أكرمنا):

في زيادةِ المَبنى زيادةٌ في المعنى

أوثِرَ استعمالُ صيغة ﴿كَرَّمۡنَا﴾ على (أكرمنا) في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾؛ لأنّ صيغة (فعّل) أكثر إفادة لتكثير الفعل والمبالغة فيه من (أفعل)، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ [يوسف: 23]، فتَغايُرُ المبنى يستلزم تغايُرَ المعنى.

دلالة إسناد فعل التَّكريم إلى ضمير العظمة:

استحضار عظمة الخالق في التفضيل بين مخلوقاته

أُسْنِدَ فعلُ التَّكريم (كرَّم) في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ إلى الضمير (نا)؛ للدّلالة على العظمة وعُلوّ القَدْر وتنزيله منزلة الجمع، لتعدّد صفاته الحميدة ومواهبه الجزيلة، فإنّ مثل هذا التّعبير يعبّر به الملوك والعظماء النافذ أمرهم ونهيهم، وفيه أيضًا إدخالُ المهابةِ في قلوب العباد، فالخالق عظيمٌ في جميع أفعاله من الخلق والتّكريم وغيرها.

معنى التّكريم في الآية:

تكريم النّوع الإنساني على غيره من الأنواع

نُسِب التّكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ إلى عموم بني آدم، والمُراد ببني آدم جميع النوع، فالأوصاف المُثبتة هنا إنّما هي أحكام للنَّوع من حيث هو كما هو شأن الأحكام التي تُسند إلى الجماعات، وقد فضّل الله جنسَ بني آدم قاطبةً بَرَّهم وفاجرَهم على جميع الأجناس الأخرى بفضائلَ ومحاسنَ جمّة لا يحيط بها نطاق الحصر، فالإنسان هو الموجود الوحيد الذي استطاع بما أودع الله في خلقته أن يتصرّف في مخلوقات الأرض بوجوهٍ عظيمةٍ لا تنتهي خلاف غيره من الحيوان[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 399.

سرُّ إيثار الجمع ﴿بَنِيٓ﴾ على (أبناء):

ارتـبـاط القلّة والكثرة بالوزن الصَّرفيّ للكلمة

في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ اختار الذِّكْرُ الحكيمُ الجمعَ ﴿بَنِيٓ﴾ على (أبناء)، وهذان الجمعان يشتركان في أصل الاشتقاق، ويختلفان في الصيغة الصَّرفيّة ودلالتِها، فبني و(بنو في الرفع) أصلها بنون وهو مُلحقٌ بجمع المُذكّر السّالم، فإذا أضيف المُذكَّر السّالم والمُثَّنى تُحذف النّون فتصير بنو آدم وبني آدم، وهو أكثر من (أبناء) من حيث العددُ، وذلك لأنّ أبناء على وزن (أفعال)، وهو من صيغ جموع القِلّة: (أفعُل، أفعال، أفعلة، فِعلة)، بينما لفظ (البنون) يدلّ على الكثرة، فمثلا بنو آدم كثير، ولم يَقُلْ: (أبناء آدم، وكذلك بنو إسرائيل كثير)، ولم يَقُلْ: (أبناء إسرائيل).

فائدة التصريح باسم ﴿ءَادَمَ﴾ عليه السلام:

تـكـريـمُ الآبـاء تكريمٌ للأبناء

صُرِّحَ باسم ﴿ءَادَمَ﴾ عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾؛ لتذكير بَنيهِ بنعمة اللّه على أبيهم، فأوّلُ مَنْ أَظهَرَ اللّه تكريمَه من جنس الإنسان هو آدم عليه السلام، فقد خلقه اللّه عز وجل بيده، ونفخ فيه من روحه، وأَسجَد له ملائكتَه، وأسكنَه دارَ كرامته ... إلخ، ثمّ سرى هذا التكريمُ في ذُرّيَّتِهِ بِناءً على أنّ تكريمَ الآباء تكريمٌ للأبناء وتشريفٌ لهم.

دلالة حذف أوجه التكريم:

ذِكْــــرُ أصـــلِ الـتـكـريـم دون أفـــراده قـصدُه العموم

في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ وردَ ذِكْرُ تكريم جنس بني آدم بأن جعلهم ذوي كرم؛ أي: شرف ومحاسن جمّة لا يحيط بها نطاق الحصر، وقد اختلف العلماء في تحديد وجوه التكريم؛ فقيل بالعقل، وقيل: بتناولهم الطعام بأيديهم لا بأفواههم كسائر الحيوانات، وقيل: بالنُّطق، وقيل: بتعديل القامة وامتدادها، وقيل: بالمطاعم واللّذّات، وقيل: بحُسْن الصورة...إلى آخره، والكلّ في

الحقيقة على سبيل التمثيل لا غير[1]، وهي كلّها من التكريم الذي أكّدت الآية على أصله دون ذكر أفراده.

والنكتةُ في عدم التصريح بها هي إفادةُ العموم، والاقتصار على إثبات معنى التكريم لإفادة الوجود المُجرّد في الشيء دون التّعرُّض للمعمول[2]، وإذا كان الكلام مُنصَبًّا إلى غرضٍ من الأغراض؛ جُعل سياقه له وتوجّهه إليه، كأنّ ما سواه مرفوضٌ مُطَّرَحٌ[3].

دلالة الواو ﴿وَحَمَلۡنَٰهُمۡ﴾:

عطف بعض أفراد التكريم تنويهًا بفضلها

عُطف قوله تعالى: ﴿وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ بحرف الواو الدّالّ على الاقتران، فبعد أن ذَكَر اللّه سبحانه تكريمَ بني آدم على سبيل العموم، عَطف عليه بعض أفراد التكريم من باب ذِكْر الخاصّ بعد العامّ للتنويه بفضله، فاللّه ﷻ حمل الإنسان في البَرِّ والبَحْرِ على أكباد رطبةٍ وأعواد يابسةٍ من الدَّوابّ والسّفن، فالمحمول عليه مُقدَّر بقرينة المقام، ودلالته على التّكريم واضحة؛ إذْ لا يثبت لشيء من الحيوانات سواهم.

دلالة الفعل الماضي في ﴿وَحَمَلۡنَٰهُمۡ﴾:

تفضيل الإنسان بركوب البرّ والبحر

أوثِر في قوله تعالى: ﴿وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ التّعبيرُ بالفعل ﴿وَحَمَلۡنَٰهُمۡ﴾ بصيغة الماضي للإشارة إلى قِدم تسخير البرّ والبحر للإنسان، وذلك لأنّ الإخبار عن الشّيء بصيغة الماضي يقتضي وقوعَ الفعل وتحقُّقَه، فتكريم جنس بني آدم بركوب البرّ والبحر مُتحقِّق وما زال الإنسان يُطوّر في المراكب بأنواع السُّفن والغوّاصات والعبّارات.

دلالة إسناد ﴿وَحَمَلۡنَٰهُمۡ﴾ إلى (نا):

أُسنِد في قوله تعالى: ﴿وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ فعلُ التَّكريم

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 8/ 112.
(2) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 153.
(3) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 8.

استحضار عظمة الخالق في تسخير البرّ والبحر للإنسان

﴿وَحَمَلۡنَٰهُمۡ﴾ إلى ضمير (نا) للدلالة على العظمة وعلوّ القَدْر وتنزيله منزلةَ الجمع، فالخالق العظيم هو مَنْ سخّر البرّ والبحر لركوبِ الإنسان والانتفاعِ بهما ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ١٤﴾ [الزخرف: 13 - 14].

الاستعارة في ﴿وَحَمَلۡنَٰهُمۡ﴾ وبلاغتها:

إلهام اللهِ الإنسانَ ركوبَ الدوابّ والسّفن

تضمّن قوله تعالى: ﴿وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ استعارةً تصريحيَّةً، لأنّ الحَمل في البحر هو الحصول في داخل السفينة، وإطلاق الحمل على ذلك الحصول استعارة من الحَمل على الراحلة وشاعت حتى صارت كالحقيقة، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ١١﴾ [الحاقّة: 11]، ومعنى حمل اللّه الناس في البحر: إلهامه إيّاهم استعمال السّفن والمجاذيف، فجعل تيسير ذلك كالحمل[1]، كما يمكن القول: إنّ الحمل في البحر مَجازٌ علاقته المكانية، فالإنسان لا يركب البحر؛ بل السفينةَ التي تمخر عُباب البحر.

معنى حرف الجرّ ﴿فِي﴾:

حمل الإنسان على أكبادٍ رطبةٍ وأعوادٍ يابسة

في قوله تعالى: ﴿وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ جاء استعِمالُ حرفِ الجرّ ﴿فِي﴾ الدّالّ على الظّرفيّة المكانيّة، فالبرّ والبحر كالظّرف يحتويان الإنسانَ الرّاكب فيهما.

معنى الواو في ﴿وَرَزَقۡنَٰهُم﴾:

عطف بعض أفراد التكريم تنويها بفضلها

عُطف قوله تعالى: ﴿وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ بحرف الواو الدّالّ على الاقتران، فبعد أن ذَكَر اللّه سبحانه تكريمَ بني آدم على سبيل العموم، عَطف عليه بعضَ أفراد التكريم من باب ذِكْر الخاصّ بعد العامّ للتنويه بفضله، فاللّه ﷻ إضافة إلى ما سبق من أنواع التكريم ألهم الإنسان أن يَطعم ما يشاء مما يروق له، وجعل في الطُّعوم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 165.

أماراتٍ على النفع، وجعل ما يتناوله الإنسان من المطعومات أكثرَ مما يتناوله غيره من الحيوان الذي لا يأكل إلا أشياء اعتادها[1].

دلالة الفعل الماضي ﴿وَرَزَقۡنَٰهُم﴾:

رزق الإنسان مضمون من الحياة إلى الممات

أوثِرَ التَّعبيرُ بصيغةِ الفعلِ الماضي في قوله تعالى: ﴿وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾؛ لِلإشارةِ إلى أنَّ الرِّزقَ قد تَحَقَّقَ، فاللّه الكريم رَزَقَ الإنسانَ منذ أن أوجده، فرَزَقَ الإنسانَ الأوّلَ آدمَ عليه السلام من ثمار الجنّة الكثيرة، ثمّ رزَقَه من خيرات الأرض المباركة بعد نزوله إليها، وما زال يَرزق الإنسانَ من الطيّبات، ويفيض عليه من أنواع الأطايب والثّمار، وضَمِنَ له رِزْقَه حتّى يتوفّاه.

دلالة إسناد الفعل ﴿وَرَزَقۡنَٰهُم﴾ إلى (نا):

استحضار عظمة الخالق في ضمان رزق الإنسان

أُسنِد في قوله تعالى: ﴿وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ فعلُ التَّكريم ﴿وَرَزَقۡنَٰهُم﴾ إلى ضمير (نا) للدّلالة على العظمة وعلوِّ القَدْر وتنزيله منزلة الجمع، فالخالق العظيم هو مَن يرزقهم، ولا رازقَ لهم سواه ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ ٢١﴾ [الملك: 21].

معنى حرف الجرّ ﴿مِّنَ﴾ ودلالته:

تشويق الإنسان للجنّة برزقه من الطيّبات

ورد في قوله تعالى: ﴿وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ استعمالُ حرف الجرّ ﴿مِّنَ﴾، ويَحتمِل في هذا السّياق أن تكون بيانيَّةً، بمعنى بيان جنس الرزق؛ وهو الطيّبات، كما يَحتمل أن تكون تبعيضيَّةً، فاللّه عز وجل رزقَ الإنسانَ في هذه الدّنيا بعض الطيّبات تشويقًا له للسعي على الحصول على الطيّبات كلّها في الدّار الطيّبة وهي الجنّة.

معنى (أل) في ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾:

عُرِّف لَفْظُ ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 165.

تعريف الجنس يقتضي العموم

بأداةِ التَّعريفِ (أل) الدّالّة على تعريف الجنس المُقتضي للعموم؛ أي جنس الطيّبات، فقد فضَّل الله الإنسانَ بأنواع الأطعمة والمستَلَذّات، ولا يتَّسع غيره من الحيوان في الرِّزق اتّساعَه لأنّه يكتسب المال ويلبس الثّياب ويأكل المُرَكَّبَ من الأطعمة بخلاف الحيوان، فإنه لا يكتسب ولا يلبس ولا يأكل غالبًا إلا لحمًا نيّئًا وطعامًا غيرَ مركَّبٍ[1].

دلالة الجمع في ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾:

كثرة الطيّبات التي فُضِّلَ بها الإنسان

جاء لَفْظُ ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ بصيغة الجمع، والنّكتة في ذلك الدّلالةُ على تكثير الطيّبات التي فضّل الله بها الإنسان على سائر المخلوقات، خاصّة أنّ هذا الجمع مُحلًّى بـ(أل) الجنسية الاستغراقية التي أفادتِ استغراقَ أصنافِ وأوصافِ الطيّبات من زروعٍ وثمارٍ، ولحوم وألبانٍ من سائر أنواع الطُّعوم والألوان المُشتهاة اللذيذة، والمناظر الحسنة، والملابس الرفيعة من سائر الأنواع، على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها، مما يصنعونه لأنفسهم، ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي[2].

دلالة الواو في ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ﴾:

زيادة التَّفضيل على أنواع التكريم

عُطف قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ بحرف الواو الدّالّ على الجمع والاقتران، فبعد أن ذَكَر الله سبحانه بعضَ صورِ تكريم بني آدم على سبيل العموم، عَطَف عليه التّفضيلَ على كثير من المخلوقات، زيادةً ومبالغةً في التكريم.

دلالة الفعل الماضي ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ﴾:

قِدَمُ تفضيل الإنسان منذ خلقه

جاء في قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ الفعلُ ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ﴾ بصيغة الماضي، وذلك للإشارة إلى تحقّق

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 85.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 97.

تفضيل الإنسان منذ خَلْقِه، فقد فضّل الله الإنسان الأوّل آدمَ عليه السلام بالتّعليم، وفضّله بإسجاد الملائكة له تكريمًا وتشريفًا.

دلالة إسناد ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ﴾ إلى ضمير العظمة:

عَظَمَة الخالق في التفضيل بين مخلوقاته

أُسنِد في قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ فعلُ ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ﴾ إلى ضمير (نا) للدّلالة على العَظَمَة وعلوّ القَدْر وتنزيله منزلة الجَمع، فالخالق العظيم هو مَن فضّل الإنسان على باقي المخلوقات بأن خَلَقَه بيدِه، ونَفخ فيه من روحه، وأَسْجَد له ملائكتَه، وأسكنَه دارَ كرامتِه.

معنى حرف الجرّ ﴿عَلَىٰ﴾ ودلالته:

عـلـوّ مرتبة الإنسان على مراتب المخلوقات الأخرى

في قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ آثر النَّظم الحكيم استعمالَ حرف الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ الدّالّ على الاستعلاء، فالله جل جلاله رَفَع وأَعلى مرتبةَ الإنسان على مراتب المخلوقات الأخرى، وجعله أرفعَ منها قَدْرًا وشَرَفًا وعِلْمًا ورِزْقًا، فسخَّر المخلوقات الأخرى له لينتفع بها في ركوبه ومطعمه وملبسه...إلخ.

دلالة تنكير ﴿كَثِيرٖ﴾:

دلالة التنكير على التكثير

جاء في قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ لفظ ﴿كَثِيرٖ﴾ نكرةً، والغرض البلاغي من التنكير فيها هو التّكثير كما يُشعِر به السّياق، فقد فضّل الله الإنسان على سائر الحيوانات والجمادات، وما أكثرَ عددَها وأنواعَها.

معنى تفضيل الإنسان على كثير من المخلوقات:

وجود مخلوقات غير مُفضَّلٍ عليها بنو آدم

ورد في قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ استعمالُ لفظ ﴿كَثِيرٖ﴾ في الآية، وقد اختَلَف العلماء في معنى الكثرة، فذهب بعضهم إلى أنّ كثيرًا هنا بمعنى (كلّ)، وردّه بعضهم بأنّه وإن كان واقعًا في اللغة إلّا أنّه بعيد عن سياق الآية، فلا فائدة من ذِكْره، وذهب بعضهم إلى أنّ لفظ ﴿كَثِيرٖ﴾ في الآية مُرادٌ منه

التقييد والاحتراز والتعليم الذي لا غرورَ فيه، فيُعلم منه أن ثَمّ مخلوقاتٍ غير مفضَّل عليها بنو آدم، تكون مساويةً أو أفضلَ إجمالًا أو تفصيلًا، وتبيينُه يُتَلقّى من الشريعة فيما بَيَّنَتْه من ذلك، وما سَكَتَتْ فلا نبحث عنه، فنسبة التّفاضل بين نوع الإنسان وأنواعٍ من الموجودات الخفيَّة كالملائكة والجنّ ليست مقصودة هنا؛ وإنّما تُعرف بأدلَّةٍ توقيفيَّةٍ من قِبَل الشريعة[1].

معنى حرف الجرّ (من):

بيان الجنس الذي فضّل عليه الإنسان

استُعمل في قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ حرفُ الجرّ (من)، ومعناها هنا البيانُ، بمعنى بيان جنس المُفضَّل عليهم وهم المخلوقات.

دلالة التعبير بالاسم الموصول (مَن):

تغليب العقلاء على غيرهم

عُبّر في قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ بالاسم الموصول المشترَك (مَنْ) الموضوع أصالةً للدّلالة على العاقل مُفردًا كان أو مُثنًّى أو مجموعًا، مُذكَّرًا أو مُؤنَّثًا، غير أنّ السّياق يقتضي تفضيلَ الإنسان على كثير من المخلوقات من غير العقلاء، فجاء النَّظْمُ بالاسم الموصول الموضوع للعاقل تغليبًا للعقلاء على غيرهم.

دلالة الفعل الماضي ﴿خَلَقۡنَا﴾:

قِدَمُ تفضيل الإنسان منذ خلقه

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ استعمالُ الفعل ﴿خَلَقۡنَا﴾ بصيغة الماضي للإشارة إلى أنّ قدم الخلق، فالإخبار عن الشيء بصيغة الماضي يقتضي كون المُخبَر عنه مُتقدِّمًا على ذلك الإخبار[2].

دلالة إسناد ﴿خَلَقۡنَا﴾:

الله خالق كل شيء

أُسْنِد في قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 166.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 2/ 283.

الفعل ﴿خَلَقْنَا﴾ إلى ضمير العظمة للدلالة على أن ما أُسنِد إليه أمر عظيم، وصدور عظام الأمور يدلُّ على كمال القدرة والحكمة، وأن حُكمه مُطاعٌ لا يتخلّف شيء عن إرادته، وفيه أيضًا التنويهُ بشأن الخلق، فالله العظيم هو خالق كل شيء، وهو وحده القادر على التّفضيل بين مخلوقاته، ألا له الخَلْقُ والأمرُ.

دلالةُ المفعول المُطلَق ﴿تَفۡضِيلٗا﴾:

بلاغة المصدر في توكيد عامله

تضمّن قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ الإتيانَ بالمفعول المطلَق ﴿تَفۡضِيلٗا﴾ لإفادةِ ما في التنكير من التعظيم؛ أي: تفضيلًا كبيرًا[1]، فَضْلًا عن أنّ المفعول المُطلَق مُؤكِّد لعامِلِه، فأفاد التأكيدَ على تفضيل الإنسان على كثيرٍ من المخلوقات.

سرُّ افتتاحِ الآية بالتكريم واختتامِها بالتفضيل:

التكريمُ بأمور خِلْقيَّة طبيعية ذاتية، والتفضيلُ بالعَقْلِ

افتُتح قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ بالتكريم ﴿كَرَّمۡنَا﴾، واختُتم بالتّفضيل ﴿تَفۡضِيلٗا﴾ لنكتة بلاغية، وهي إفادةُ العمومِ والخصوصِ، فالتكريمُ منظورٌ فيه إلى تكريمه في ذاته على سائر الحيوانات بأمور خِلْقيَّةٍ طبيعيةٍ ذاتيةٍ مثل النطق والخطّ والصورة الحسنة والقامة المديدة، والتفضيلُ منظورٌ فيه إلى تشريفِه فوقَ غيره بالعقلِ الذي به استصلاحُ شؤونه ودفعُ الأضرار عنه، وبأنواعِ المعارف والعلوم، واكتساب العقائد الحقّة والأخلاق الفاضلة[2].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

البَحْرُ واليَمُّ:

دلالة البحر على النِّعَم، واليمّ على النِّقَم

اليمّ والبحر يؤدّيان معنى متقاربًا في اللغة بمعنى المكان الواسع المليء بالماء، ولكن الاستعمال القرآني لهذيْن اللّفظيْن يدلّ على وجود

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 166.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 166، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 375.

فروق بينهما؛ فقد ذُكر لفظ (البحر) في القرآن ثلاثًا وثلاثين مرّةً، ودائمًا يأتي هذا اللفظ تذكيرًا بما أسبغه الله على عباده من النِّعم، مثل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: 97] و﴿۞وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾، وكقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: 63] ... إلى آخره.

أما لفظ (اليمّ) فقد ذُكر ثماني مرات في القرآن، وأحيانًا ما يُذكر في سياق التخويف والعقوبات كما في قوله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [القصص: 40]، و﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [الأعراف: 136].

﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا ٧١﴾ [الإسراء: 71]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ظهور تكريم الإنسان في الآخرة

لـمّا قرّر سبحانه قدرتَه على التّفضيل في الحياة الحسّية والمعنوية، والمفاضلة بين الأشياء، فثبت بذلك قدرته على البعث، وختم ذلك بذكر أنواعٍ من كرامات الإنسان في الدنيا؛ ذكر هنا شيئًا من أحوال الآخرة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَدۡعُواْ﴾: الأصل (دعو)، والدُّعاءُ: النِّداءُ، وأَصْلُه: إمالَةُ الشَّيْءِ إِلَيْكَ بِصَوْتٍ وكَلام يكون مِنْكَ، ومنه سُمّيَتِ الرَّغْبَةُ إلى اللّهِ تعالى دُعاءً، تقولُ: دَعَوْتُ فُلانًا، دُعاءً ودَعْوةً؛ أيْ: نادَيْتُه[2]، والدَّعْوةُ: المَرَّةُ الواحِدَةُ مِن الدُّعاءِ[3]، ويأْتي الدُّعاءُ بمعنى الطَّلَبِ والسُّؤالِ[4]، وبمعنى: العِبادة والضَّراعة[5]، وكذلك الحَثّ إلى الشَّيْءِ والتَّرْغيب فيهِ، فيُقال: دَعا قَوْمَهُ إلى اتِّباعِهِ؛ أيْ: حَثَّهُم ورَغَّبَهُم[6]، والمقصودُ بالدُّعاء في الآيةِ: القَوْلُ الدّالُّ على طَلَبِ عَمَلٍ مِنَ المُخاطَبِ[7].

2) ﴿أُنَاسِۭ﴾: (أَنس) أَصْلٌ واحِدٌ، وهو ظُهورُ الشَّيءِ، وكُلّ شَيْءٍ خالَفَ طَريقَةَ التَّوحُّش، قالوا: الإِنْسُ خِلافُ الجِنِّ، وسُمّوا بذلك

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 86، والبقاعي، نظم الدُّرر: 11/ 477.
(2) الجوهري، الصِّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن الأثير، النهاية في غريب الحديث: (دعا - دعو).
(3) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، وابن منظور، لسان العرب: (دعا).
(4) الفيومي، المصباح المنير: (دعو).
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/ 3644.
(6) الأمير الصنعاني، التَّحبير: 4/ 5.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 302.

لِظُهورِهِم، يُقالُ: آنَسْتُ الشَّيْءَ: إذا رَأَيْتَهُ، والأَنْسُ: أَنْسُ الإِنْسانِ بالشَّيْءِ إذا لَم يَسْتَوْحِشْ مِنْهُ[1]، والأَنَسُ: جَماعَةُ النّاسِ، وهُمُ الإنسُ[2]، والأُناسُ لغة في النّاس، والأَصل في النّاسِ الأُناسُ[3]، والمُراد في الآية: الجماعةُ من النّاس.

3) ﴿بِإِمَٰمِهِمۡۖ﴾: أصل (أمم) يدلّ على التَّقدُّم، وأَمَّ القَوْمَ؛ أيْ: تَقَدَّمَهُم[4]، والإِمامُ: كُلُّ مَن اقْتُدِيَ بِهِ وقُدِّمَ في الأُمورِ، والنَّبيُّ ﷺ إمامُ الأَئِمَّة، والخليفَةُ إمامُ الرَّعيَّة، والقُرْآنُ إمامُ المُسْلِمينَ، يُقالُ: ائْتَمَّ بِهِ؛ أيْ: اقْتَدَى بِهِ وقَدَّمَهُ أَمامَهُ[5]، وجَمعُ إِمام: أَئِمَّةٌ، والمقصود بالإمام في الآية: ما يُؤْتَمُّ بِهِ، والمُرادُ بِهِ هُنا مُبَيِّنُ الدّينِ (كتاب أعمالهم): مِنْ دينِ حَقٍّ لِلأُمَمِ المُؤْمِنَةِ، ومِنْ دينِ كُفْرٍ وباطِلٍ لِلأُمَمِ الضّالَّة[6].

4) ﴿بِيَمِينِهِۦ﴾: اليَمينُ يدلّ على القوّة، وأيضًا: الحَلِف والقَسَم؛ ولأنَّ اليدَ اليُمنى من شَأْنِها حفظ الشَّيْءِ، واليَمينُ: اليَدُ اليُمنَى، كُنِّيَ بِها عَنِ الاهْتِمامِ بالتَّمَكُّنِ مِنَ المأْخوذِ؛ لأَنَّ اليَمينَ أَقْوى عَمَلًا مِنَ الشِّمالِ لِكَثْرَةِ اسْتِخْدامِها، فَنِسْبَةُ التَّصَرُّفِ إليها شَهيرَةٌ، ولا يُدْرَى أَصْلُ اشْتِقاقِ كَلِمَةِ (يَمين)، ولا أَنَّ اليُمنَ أَصْلٌ لها أو فَرْعٌ عنها، والأَيْمانُ جَمعٌ قياسيٌّ[7]، واليُمْنُ: البَرَكَةُ، وهو مَيْمونٌ[8]، والمقصودُ باليَمين في الآية: اليَدُ الجارِحَة في مُقابَلَةِ اليَسار.

5) ﴿يُظۡلَمُونَ﴾: أَصْلُ (ظلم) وضْعُ الشَّيْءِ في غَيْرِ مَوْضِعِه، كَقَوْلِهم: ظَلَمَ الأَرْضَ: إذا حَفَرَها في غَيْرِ مَوْضِعِ حَفْرِها[9]، والظُّلْمُ: المَيْلُ عَنِ القَصْدِ[10]، وضِدُّه: العَدْلُ، والظُّلامةُ: مَظْلَمَتُكَ تطلُبُها عند الظّالم، وظَلَّمتُه تظليمًا إذا أَنْبَأْتَه بأنّه ظالمٌ، وظُلِمَ فلانٌ فاظَّلَمَ؛ أي: احتَمَلَ الظُّلْم بطيب نفسه[11]، والظُّلْمُ في الآية مُسْتَعْمَلٌ بِمَعْنَى النَّقْصِ، والمُرادُ: أَنَّ ما يُعْطاهُ مِنَ الجَزاءِ مِمّا يَرْغَبُ النّاسُ في ازْدِيادِهِ[12].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أنس).
(2) ابن عباد، المحيط في اللغة: (أنس).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (أنس).
(4) ابن سِيدَه، المُحكَم، وابن منظور، لسان العرب: (أمم).
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (أمم - أمَّ).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 168.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8 - ب/ 50، 29/ 146.
(8) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (يمن).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظلم).
(10) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ظلم).
(11) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة: (ظلم).
(12) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 169.

6) ﴿فَتِيلًا﴾: (فتل) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على لَيِّ شَيْءٍ، مِنْ ذلك: فَتَلْتُ الحَبْلَ وغَيْرَهُ، والفَتيلُ: ما يَكونُ في شِقِّ النَّواةِ كَأَنَّهُ قَدْ فُتِلَ، ويُقالُ: بَلِ الفَتيلُ ما يُفْتَلُ بَيْنَ الإِصْبَعَيْنِ[1]، ويُضْرَبُ المَثَلُ بالفتيل في الشَّيءِ الحَقيرِ[2]، والمقصودُ بالفَتيلِ في الآيةِ: الخيطُ الدَّقيق المُمتَدُّ في شَقِّ النَّواةِ طولًا، والمُرادُ به: المقدارُ البالغُ الغايةَ في القِلَّةِ مِنَ العَمَلِ؛ أَيْ: لا يَنْقُصونَ شَيْئًا ولَوْ قَليلًا جِدًّا[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

كلُّ إنسان يوم القيامة يُدعى للحساب بكتابه الَّذي فيه عمله

يُخبِر اللَّه تعالى عن حالِ الخَلْقِ يومَ القيامَة، فيقول: اذكُرْ يومَ القيامةِ حين نُنادي كُلَّ قومٍ بإمامِهم في الدُّنيا، فمَن أُعطيَ كتابَ أعمالِه بيَدِه اليُمنى، فأولئك يَقرؤونَ كِتابَهم هذا بفَرَحٍ وسُرورٍ؛ لِما يَرَونَ فيه مِن أعمالِهم الصّالحةِ التي عَمِلوها في الدُّنيا، ولا يَنقُصُهم اللَّهُ مِن جَزاءِ أعمالِهم الصّالحةِ شَيئًا، ولو كان يَسيرًا في غايةِ القِلَّةِ والحَقارةِ، كالخَيطِ الذي في شَقِّ نَواةِ التَّمرةِ[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة نصب ﴿يَوۡمَ﴾ في الآية الكريمة:

اختلاف التّقدير وأثره في التفسير

في نصب لفظ ﴿يَوۡمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ﴾ عشرة أقوال[5]، أهمّها: أنّه منصوب على الظرفيَّة، والعامل ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ﴾؛ أيْ: (فضَّلناهم بالثواب يوم ندعو)، وذلك أنّ فضل البشر على سائر الحيوان يوم القيامة بَيّنٌ، إذ هم المكلَّفون المُنَعَّمونَ المحاسَبون الذين لهم القدر، غير أنّ هذا الوجه يردُّه أن

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (فتل).
(2) الرّاغب، المُفردات: (فتل).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 169.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 8، والزّجّاج، معاني القرآن: 3/ 252، وابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/ 473، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 296، 297.
(5) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 7/ 389.

الكفّار يومئذ أخسَرُ من كل حيوان؛ لقولهم: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ٤٠﴾ [النَّبأ: 40]، وقد يُقال إنَّ تفضيل بعض أفراد الجنس كاف.

أو أنّه منصوب على الظَّرف، والعاملُ فيه (اذْكُر)، وردّ بأنّ هذا سهوٌ؛ كيف يعمل فيه ظرفًا؟ بل هو مفعول، **أو** أنه مرفوعُ المحلِّ على الابتداء، وإنّما بُني لإضافته إلى الجملة الفعليّة، والخبرُ الجملةُ بعده(1).

ولعلّ أقوى الأَوْجُهِ جميعًا أنّه مفعول به بإضمار (اذْكُر)، فهو - وإن كان أسهلَ التقادير - أظهَرُ مما تقدّم؛ إذ لا بُعْدَ فيه ولا إضمار كثير، كما أنّه مناسب لسياق الآية التي يأمر اللّه فيها نبيَّه ﷺ أن يَذْكُر يومَ القيامة وأهوالَ الحساب فيه.

فائدة الفعل المضارع ﴿نَدۡعُواْ﴾:

دلالــة صيغة المــضــارع على الاستقبال

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ﴾ استعمالُ الفعل ﴿نَدۡعُواْ﴾ بصيغة المضارع، وذلك؛ لأنّ السّياق هو دعاءُ النّاس يوم القيامة، وهو آتٍ في المستقبل؛ فعَبَّر بالمضارع الدّالِّ على الاستقبال.

دلالة صيغة العموم ﴿كُلَّ﴾:

تفاوت النّاس في الآخـرة بحسب أعـمـالـهـم في الدنيا

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ﴾ بلفظ ﴿كُلَّ﴾ الدّالّ على العموم، فيشمل حكم الدّعاء كلَّ الأمم والأفراد من بني آدم الذين فُعِلَ بهم في الدّنيا ما فُعِلَ من التّكريم والتّفضيلِ، وهذا شروعٌ في بيان تفاوتِ أحوالِهم في الآخرة بحسب أحوالِهم وأعمالهم في الدنيا(2).

معنى (الباء) في ﴿بِإِمَٰمِهِمۡۖ﴾ ودلالتُه:

دلالة الباء على الـتّـعـديـة أو المصاحبة

ورد في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ﴾ استعمالُ

---

(1) ابن عادل، اللّباب: 12/ 342.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 187.

حرفِ الجرّ (الباء)، ويجوز أن تكون الباء لتعديةِ فعلِ ﴿نَدۡعُواْ﴾؛ لأنه يتعدّى بالباء، يُقال: دعوتُه بكُنْيَتِه وتَداعَوا بشعارِهم، وأن تكون للحالِ فيتعلَّق بمحذوف؛ أيّ: ندعوهم مصاحبين لكتابهم[1].

دلالة الإفراد في ﴿بِإِمَٰمِهِمۡۖ﴾:

الإفـــــراد في الجنس أبلغ من المجموع

أُفرِدَ لفظ (إمام) في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ﴾، والنّكتة في ذلك أنّ الإفرادَ في الجنس أبلغُ من المجموع، والمُفرد أَحْرى باستغراقِ الجنس من الجَمع؛ لأنّ المُفرد استرسل على الجنس لا بصيغة لفظيّة، وأمّا الجمع فمردُّه إلى تَخيُّل الوحدان، ثم الاستغراق بعده بصيغة الجمع[2].

فائدة الإضافة في ﴿بِإِمَٰمِهِمۡۖ﴾:

نجاة التابعين في اختيار مَن يُنجيهم من المتبوعين

أُضيف لفظ ﴿بِإِمَٰمِهِمۡۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ﴾ إلى ضمير ﴿أُنَاسِۭ﴾، والنّكتة في ذلك أنّ النّاس يُدْعَوْنَ بمَنْ ائتَمّوا به من نبيٍّ أو مُقدَّمٍ في الدّين أو كتابٍ أو دينٍ، وقيل: بكتابِ أعمالِهم التي قدّموها فيُقال: يا أصحابَ كتابِ الخيرِ، يا أصحابَ كتابِ الشرِّ ... أو يا أهلَ دينِ كذا، يا أهلَ كتابِ كذا[3].

وفائدةُ ندائِهم بمتبوعيهم: التَّعجيلُ بالمسرَّة لأتباعِ الهُداة، وبالمساءَةِ لأتباعِ الغواةِ؛ لأنّهم إذا دُعوا بذلك رأَوْا متبوعيهم في المقامات المناسبة لهم فعلِموا مصيرَهم[4]، وفي الدّعاء بالإمام ترغيبٌ للإنسان أن يختار لنفسه مَن يُنجيه يوم القيامة.

بلاغة الحذف في الآية الكريمة:

حذف ما يعلم جائز وبليغ

تضمّن قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ﴾ إيجازًا

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 7/ 390.
(2) الجوينيّ، البرهان: 1/ 121.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 187.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 168.

بالحذف؛ إذ تقدير الكلام: (نَدْعوا كُلَّ أُناسٍ بِإمامِهم فَيُؤْتَوْنَ كُتُبَهُم)، والنكتة في حذفه: وضوحُه لدلالة ما بَعْدَهُ عليه، فقوله: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ عطفٌ على مُقدَّرٍ يقتضيه؛ تقديرُه: ندعوا كلَّ أناسٍ بإمامهم؛ أيْ: فيُؤْتَوْنَ كتبهم؛ أي: صحائف أعمالهم، وإيتاء الكتاب باليمين إلهام صاحبه إلى تناوله باليمين، وتلك علامة عناية بالمأخوذ؛ لأنَّ اليمين يأخذ بها مَن يعزم عملًا عظيمًا[1].

معنى الفاء في الآية ودلالتُها:

تفريع التّفصيل عن إيتاء الكتب

تُسَمّى الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ بـ(فاءَ التفريعِ)؛ وهي تُفيدُ أَنَّ الكَلامَ بَعْدَها مُتَرَتِّبٌ عَلى الكَلامِ الّذي قَبْلَها، فقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ تفريعُ التَّفصيل لما أَجْمَلَه من قوله: ﴿نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمْۖ﴾؛ أيْ: ومن النّاس مَن يُؤتى كتابَه، أيْ: كتاب أعماله بيمينه[2].

بلاغة أسلوب الشرط ودلالته:

ارتباط السعادة بإيتاء الكتاب باليمين

عُبِّر في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ بالجملة الشّرطيّة؛ لأنّ معنى الشرط أن يتوقّف وقوع الثاني على وقوع الأول؛ فإذا وقع الأول وقع الثاني، وكذلك في هذه الآية فإنّ قراءةَ الكتاب قراءةَ فرحةٍ وسعادةٍ موقوفٌ على تناوله باليمين.

دلالة الفعل الماضي ﴿أُوتِيَ﴾:

أدوات الشَّرط تقلب الماضي إلى الاستقبال

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ التّعبيرُ بالفعل الماضي في الجملة الشرطية ﴿فَمَنْ أُوتِيَ﴾، وقد ذهب النُّحاةُ إلى أن الشرط يُفيد الاستقبالَ وإن كان فعله ماضيًا، فإنّ أدوات الشرط تقلب الماضي إلى الاستقبال، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿فَإِن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 168.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 168.

قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْۗ﴾ [البقرة: 191]، وقوله: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ﴾ [آل عمران: 144]، ولا يُفيد الشرطُ المُضيَّ، بل كل ما ورد من ذلك مُؤَوَّلٌ(1)، والدليل على إرادة الاستقبال بالماضي قوله في جوابه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ﴾ على الاستقبال.

نكتة بناء ﴿أُوتِيَ﴾ لما لم يُسَمَّ فاعلُه:

الاهتمام بفوز المُعطَى كتابه باليمين

بُنيَ الفعل ﴿أُوتِيَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ لِما لم يُسَمَّ فاعله، فلم يُذكر الفاعل؛ لكونه معلومًا، فاللّه ﷻ وحده هو المحاسب لعباده، وكذلك لأنّ الغرض مسوقٌ إلى فعل (الإيتاء) دون فاعله، والغرض منه التّأكيد على فوز مَنْ أُعطي الكتابَ باليمين، ومعلوم إذا كان الكلام مُنصَبًّا إلى غرضٍ من الأغراض؛ جُعِل سياقُه له وتوجُّهُه إليه، كأنّ ما سواه مرفوض مُطَّرَح(2).

دلالة الإفراد في ﴿كِتَٰبَهُۥ﴾:

الحمل على لفظ (مَن) دون معناها

جاء لفظ ﴿كِتَٰبَهُۥ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ مفردًا؛ وذلك مراعاة للفظ (مَنْ) المحمول على الإفراد دون المعنى، وفي ذلك إشارة إلى أنّ كلّ إنسان سيُحاسَبُ وحده على انفرادٍ، وأنّ لكلّ إنسانٍ كتابًا خاصًّا بإحصاء عمله وحده دون غيره نحو قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: 13 - 14].

معنى الباء ووجه التعبير باليمين:

أثر حروف المعاني في إثراء المعنى

تَحْتَمِلُ (الباء) في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ الملابسةَ أو بمعنى (في)، فالسّعيدُ يتناول كتابه باليمين، أو يُؤتى كتابَه في يده اليُمنى، وجُعل إيتاؤه إيّاه بيمينه شعارًا للسّعادة لما هو

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 63.
(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 8.

مُتعارَف من أن اليد اليُمنى تتناول الأشياء الزَّكيّة، وهذا في غريزة البشر نشأ عن كونِ الجانب الأيمن من الجسد أقدَرَ وأَبْدَرَ للفعل الذي يتعلّق العزم بعمله؛ فارتكز في النّفوس أنَّ البركة في الجانب الأيمن حتى سَمَّوا البركة والسعادة يُمنًا، ووسَموا ضدَّها بالشُّؤم، فكانت بَركة اليمين ممّا وضعه الله تعالى في أصل فطرة الإنسان[1].

معنى الفاء في ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ ودلالتها:

إيتاء الكتاب باليمين علّة للتّكريم

وقع جوابُ الشرط في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ﴾ جملةً اسميَّةً، فوجب اقترانُها بالفاء[2]، والفاء في جواب الشرط وإن لم تكن عاطفةً، فإنّ ذلك لا يُخرجها من أن تكون بمنزلة العاطفة في أنَّها جاءت لتربط جملةً ليس من شأنها أن ترتبط بنفسها[3]، وهي تفيد أيضًا التعليلَ؛ بمعنى أنّ ما بعدها عِلَّةٌ لما قبلها، فقراءة أولئك لكتابهم قراءةَ بهجةٍ وكرامةٍ سببُه الإيتاءُ باليمين.

دلالة التَّعبير باسم الإشارة في ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾:

دلالة البعد المكاني على التّشريف والتكريم

في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ﴾ آثر الذِّكرُ الحكيم التّعبيرَ باسم الإشارة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾، وهو موضوع في اللُّغة للإشارة إلى البعيد، والمقصودُ بالدّلالةِ عَلى البُعْدِ الإشعارُ برِفْعةِ درجاتِهم؛ أيْ: أولئك المختصّون بتلك الكرامةِ التي يُشعِر بها الإيتاءُ باليمين[4].

الالتفاتُ من المُفرد إلى الجمع في الآية الكريمة:

الاجتماع على الخير سبيل الفلاح

وجهُ الالتفات في قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ من المفرد ﴿أُوتِيَ﴾ إلى الجمع (أولئك) مراعاة للحَملِ على معنى الجمع في (مَنْ) بعد مراعاة الإفراد في لفظه، وفي ذلك إيذانٌ بأنّهم حزبٌ مُجتمعون على شأنٍ جليلٍ، أو إشعارٌ بأنّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 222.
(2) ابن مالك، شرح الكافية: 3/ 1596.
(3) الجُرجانيّ، دلائل الإعجاز: 1/ 214.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 187.

قراءتَهم لكتبهم تكون على وجه الاجتماعِ لا على وجه الانفرادِ كما في حال الإيتاءِ[1].

دلالة الفعل المضارع ﴿يَقۡرَءُونَ﴾:

دلالة صيغة المضارع على الاستقبال

جاء الفعل ﴿يَقۡرَءُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ﴾ بصيغة المضارع، وذلك لأنّ سياق الآية هو الجزاء في يوم القيامة، وهو آتٍ في المستقبل، فعبَّر بالمضارع الدّالّ على الاستقبال، كما أن مجيئه بصيغة المضارع يقتضي تكرُّرَ الحدثِ ودوامَه واستمرارَه، فأصحابُ اليمين يُجدِّدون قراءتَه ويُكرِّرونها سرورًا بما فيه، كما هو دأبُ كلِّ مَن سُرَّ بكتابه[2].

وجه الإفراد في ﴿كِتَٰبَهُمۡ﴾:

الإفرادُ في الجنس أبلغُ من المجموع

ورد لفظ ﴿كِتَٰبَهُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ﴾ مفردًا، وكان المتبادر هو الجمع: (كُتُبَهم)، وذلك للدّلالة على الجنس المُقتضي للعموم، والإفراد في الجنس أبلغُ من المجموع، والمُفرد أحرى باستغراق الجنس من الجمع؛ لأنّ المُفرد استرسل على الجنس لا بصيغة لفظية، وأمّا الجمع فمردُّه إلى تخيُّل الوحدان، ثم الاستغراق بعده بصيغة الجمع[3].

معنى الواو في ﴿وَلَا﴾:

الجمع بين الإيتاء باليمين ومضاعفة الثواب

عُطف قوله تعالى: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا﴾ بحرف (الواو) الدّالّة على الجمع والاقتران، فأصحابُ الكرامةِ والسّعادةِ الذين أُعْطوا كتابَهم باليمين يقرؤون كتبَهم، ولا يُنْقَصون من أجورِ أعمالهم المُرتسمةِ في كتبِهم بل يُؤْتَوْنَها مضاعفةً[4].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 187.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 478.

(3) الجوينيّ، البرهان: 1/ 121.

(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 116.

دلالة الفعل المضارع المنفيّ ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ﴾:

الظلمُ منفيٌّ مُطلقًا عن الحَكَم العدل

عبّر بالفعل ﴿يُظۡلَمُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا﴾ بصيغة المضارع المَنْفيّ، وذلك لأنّ سياق الآية هو الجزاء في يوم القيامة، وهو آتٍ في المستقبل، فعبّر بالمضارع الدّالّ على الاستقبال، كما يُفيد دوامَ عدمِ التّعرُّض للظُّلم.

نكتة بناء ﴿يُظۡلَمُونَ﴾ لِما لم يُسَمَّ فاعلُه:

التأدّب في خطاب الله ﷻ

بُنيَ فعلُ الظُّلم المضارعُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا﴾ لما لم يُسَمَّ فاعلُه في ﴿يُظۡلَمُونَ﴾، ولم يَصَرَّحْ بالفاعل تنزيهًا للّه ﷻ عن نسبة أدنى شبهةِ ظُلم إليه، وقد حرّم اللّه الظُّلمَ على نفسه كما في الحديث القُدسيِّ: "يا عِبادي، إنّي حَرَّمتُ الظُّلْمَ علَى نَفْسي، وجَعَلْتُهُ بيْنَكُم مُحَرَّمًا، فلا تَظالَمُوا"[1]، وفي هذا تأديبٌ للعباد في مخاطبته بنسبة الخير دون الشرّ إليه لقوله ﷺ: "الخَيْرُ كُلُّهُ في يَدَيْكَ، والشَّرُّ لَيْسَ إلَيْكَ"[2] مع اعتقاد أنَّ الكلّ فعلُه، وتنبيهًا على أنّ الشَّرّ مما ينبغي التَّبرّؤ منه والبُعد عنه[3].

بلاغة المَجاز المُرسَل في ﴿يُظۡلَمُونَ﴾:

دلالة الظلم على النقصان

استُعمِلَ لفظُ (الظُّلم) في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا﴾ بمعنى النَّقْص كما في قوله تعالى: ﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [الكهف: 33]؛ لأنّ غالب الظُّلم يكون بانتزاع بعض ما عند المظلوم؛ فلزمه النقصان فأُطْلِقَ عليه مجازًا مرسَلًا، ويُفهم من هذا أنّ ما يُعطاه من الجزاء ممّا يرغب النّاس في ازدياده[4].

دلالة الإفراد في ﴿فَتِيلًا﴾:

دلالة التنكير على التقليل

ورد لفظ ﴿فَتِيلًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا﴾ مُنَكَّرًا،

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، الحديث رقم: (2577).
(2) رواه مسلم في صحيحه، الحديث رقم: (771).
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 482.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 169.

والغرض البلاغي من التّنكير فيه هو التّقليل، فـ"الفَتيلُ: شبهُ خيطٍ في شَقِّ نواة التّمرة، وقد شاع استعارته للقِلَّة؛ إذ هو لا يُنتفَع به ولا له مرأىً واضحٌ"(1)، فهو مَثَلٌ للشيء الحقير التّافه، أيْ: إنّ الناسَ لا يُنقصون شيئًا ولو قليلًا جدًّا(2).

بلاغة نيابة ﴿فَتِيلًا﴾ عن المفعول المطلَق:

تجسيد البراءة من النقصان في أقلّ شيء مُتصوَّر

جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾ استعمالُ ﴿فَتِيلًا﴾ نائبًا عن المفعول المُطلق، والنكتة في ذلك تجسيدُ البراءة من النقصان ولو أدنى شيء كالفتيل، وهو شبه الخيط يكون في شقّ النّواة، وسُمِّيَ بذلك لأنَّه إذا رامَ الإنسانُ إخراجَه انْفَتَل، وهذا مثلٌ يُضرب للشّيء الحقير التّافه، ومِثْلُه: القِطْمير والنَّقير، والمعنى: لا يُنقصون من الثواب بمقدار فتيلٍ، ونظيرُه ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ٦٠﴾ [مريم: 60](3).

بلاغة الكناية في ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾:

كناية الفتيل عن صفة القلّة

تضمّن قوله تعالى: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾ صورةً بيانيّةً تتمثّل في الكناية في قوله: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾، وهي كنايةٌ عن صفةِ القلّة، فالناس لا يُنقصون شيئًا ولو قليلًا جدًّا كالفتيل في الحقارة، فنَبَّه بالأدنى عن الأعلى.

دلالة حذف عاقبة الفريق الثاني:

قراءة أصحاب الشّمال لكتابهم لا معنى لها

خصَّصَ أصحابَ اليمينِ في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾ بأنّهم هم مَن يقرؤون كتابهم، كأنّ أصحابَ الشِّمال لا يقرؤون؛ لنكتةٍ بلاغيَّة؛ وهي أنّ أصحابَ الشّمال إذا اطّلعوا على ما في كتابهم، أَخَذَهُم ما يأخذُ المُطالَبَ بالنّداءِ على جناياتِه،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/ 84.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 169.
(3) ابن عادل، اللّباب: 12/ 354.

والاعترافِ بمساويهِ والتنكيلِ به والانتقامِ منه؛ من الحياءِ والخجلِ والانخزالِ، وحُبْسَةِ اللسانِ، فكأنّ قراءتَهم كلا قراءة.

وأمّا أصحابُ اليمينِ؛ فأَمرُهم على عكس ذلك، لا جَرَمَ أنّهم يقرؤون كتابهم أحسنَ قراءةٍ وأبيَنَها، ولا يَقنعون بقراءتهم وحْدَهم حتى يقول القارئُ لأهلِ المحشرِ: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ١٩﴾ [الحاقة: 19][1].

توجيه المتشابه اللفظي:

مناسبة (الفتيل) للحقارة، و(النقير) للقلّة، و(الشيء) وقوعه على الموجود والمعدوم

بَينَ قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ٤٩﴾ [النساء: 49]، وقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ١٢٤﴾ [النساء: 124]، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾، وقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ٦٠﴾ [مريم: 60] - فَرْقٌ من جهة السّياق.

فبَدَأَ الآيةَ الأولى بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النساء: 49]، فلمّا كان هؤلاء يقصدون بتزكية أنفسهم تعظيمَها، ونَفى اللهُ عنهم ذلك، ودَلَّ على حقارتهم؛ ناسَبَه ذِكْرُ (فتيل)؛ لأنَّه يُضرب به المَثَلُ في الحقارة، ولأنّه يناسبه الفاصلةُ اللاميَّةُ بقوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ٤٩﴾ [النساء: 49].

أمّا الآيةُ الثانيةُ فقد بُدِئَت بقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [النساء: 124]، فلمّا كان قوله: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [النساء: 124] إشارة إلى أقلّ القليل؛ ناسَبَه ذِكْرُ النَّقيرِ بقوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ١٢٤﴾ [النساء: 124]؛ لأنَّه يُضرب به المَثَلُ في القِلَّةِ، ولأنه يناسبُ الفاصلةَ الرّائيَّةَ.

وأمّا آية سورة مريم فقد بُدِئتْ بقوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 2/ 682.

صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [مريم: 60] ويَسبقها قولُه: ﴿۞فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝٥٩﴾ [مريم: 59]، فلمّا كانتِ التوبةُ عن ذلك مما يُتوهَّمُ معه أن يُنقص قَدْرٌ كبير من ثواب أهل الجنة يعادل ما هو معلوم من عقاب هذه الكبائر، ناسَبَه ذِكْرُ شيءٍ، لأنّه يقع على الموجود والمعدوم، ولأنّه ناسَبَ كثيرًا من فواصل السورة وزنًا وإيقاعًا مثل: ﴿حَيًّا ۝١٥﴾ [مريم: 15] ﴿غَيًّا ۝٥٩﴾ [مريم: 59] ﴿وَرِءۡيٗا ۝٧٤﴾ [مريم: 74]، ويناسِبُ فاصلةَ الهمزةِ التي تنتهي بكلمة ﴿شَيۡـٔٗا ۝٦٠﴾ [مريم: 60] خاصّة بقوله: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ۝٦٠﴾ [مريم: 60].

وأمّا قوله ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا﴾ فعائِدٌ إلى كلّ الناس لا إلى أصحاب اليمين بخاصّة؛ وإنما خَصَّهم بذلك؛ لأنَّهم يعلمون أنّهم لا يُظلمون ويعتقدون ذلك، بخلافِ أصحاب الشِّمالِ فإنهم يعتقدون أو يظنّون أنّهم يُظلمون؛[1]؛ فناسَبَه ذِكْرُ (الفتيل)، لأنه يُضرب به المثلُ في الحقارة، ولأنه يناسِبُه الفاصلةُ اللاميَّةُ.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الدُّعاء والنِّداء:

النِّداء هو رفع الصَّوْت بِما لَهُ معنى، والعربي يَقول لصاحبه: نادِ معي ليَكون ذَلِك أندى لصوتنا؛ أَي أبعد لَهُ، والدُّعاء يكون بِرَفْع الصَّوْت وخفضه؛ يُقَال دَعوته من بعيد، ودعوتُ اللّه في نَفسي، ولا يُقَال: ناديته في نَفسي، وأصل الدُّعاء طلب الفِعْل، دَعا يَدْعو وادّعى ادِّعاء؛ لِأَنَّهُ يَدْعو إِلَى مَذْهَبٍ من غير دَلِيل، وتداعى البناء يَدْعو بعضه بَعْضًا إِلَى السُّقوط، والدَّعْوى: مُطالبَة الرجل بِمال يَدْعو إِلَى أَن يُعطاه، وفي القُرْآن ﴿تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧﴾ [المعارج: 17]؛ أَيْ: يَأْخُذُهُ العَذاب كَأَنَّهُ يَدعوهُ إِلَيْهِ[2].

الإيتاء والإعطاء:

كثيرًا ما يُستعمل الإعطاءُ والإيتاءُ بمعنًى واحد، ولا يكاد اللغويّون يُفرّقون بينهما، ولكن ذهب الجوينيُّ إلى أن الإيتاء أقوى من الإعطاء في إثبات مفعوله؛ لأنّ الإعطاءَ له

(1) زكريا الأنصاري، فتح الرحمن، ص: 332.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 38.

الإيتاء أقوى من الإعطاء

مطاوِعٌ، تقول: أعطاني فَعَطَوْتُ، ولا يُقال في الإيتاء: آتاني فأَتَيْتُ؛ وإنّما يُقال: آتاني فأخذتُ، والفعل الّذي له مُطاوع أضعفُ في إثبات مفعوله من الفعل الذي لا مطاوعَ له، لأنّك تقول: قطعتُه فانقطَعَ، فيدلُّ على أنّ فعل الفاعل كان موقوفًا على قبول في المحلّ لولاه ما ثبت المفعول، ولهذا يصحّ: قطعتُه فما انقطع، ولا يَصحُّ فيما لا مطاوِعَ له ذلك، فلا يجوز ضربتُه فانْضَرَب أو فما انْضَرَب؛ لأنّ هذه أفعالٌ إذا صَدَرت من الفاعل ثَبَتَ لها المفعولُ في المحلِّ، والفاعلُ مستقِلٌّ بالأفعال التي لا مطاوِعَ لها؛ فالإيتاءُ أقوى من الإعطاءِ[1].

رأي مغايرٌ للزَّبيديّ

يرى الزَّبيديَّ أنَّ القاعدة التي ذكرها الجوينُيّ في المطاوعة لا يكاد ينسحب حُكمها على كلّ الأفعال؛ بل الذي يظهر خلافُ ما قاله؛ فإنَّ الإعطاء أقوى من الإيتاء، ولذا خُصّ في دفع الصدقات الإيتاءُ ليكون ذلك بسهولة من غير تطلُّع إلى ما يدفعه، وتأمَّلْ سائرَ ما ورد في القرآن تجدْ معنى ذلك فيه، والكوثَرُ لما كان عظيمًا شأنُه، غيرَ داخل في حيّز قدرة بشرية؛ استُعمل الإعطاء فيه، وقال الزَّبيديُّ بأنّ كلام الأئمة وسياقهم في الإيتاء لا يخالف ما ذكره[2].

والراجح في هذا الأمر

والظّاهر أنّ تفريقَ الجوينيِّ مقبولٌ غير أنّه أغلبيٌّ قد يتخلّف حسب السّياق، وسياقُ الآية المُصطفى فيه لفظُ الايتاء يوافق توجيه الجوينيِّ من حيث إنّ شأن كتاب أعمال المرء الذي يُؤتاه يوم القيامة عظيمٌ بوصفه مُتضمِّنًا دقائقَ أعماله، وتفصيلاتِها.

القِراءَةُ والتِّلاوةُ:

التّلاوة أعمّ من القراءة

يتّضح الفرقُ بين ﴿يَقْرَءُونَ﴾ و(يتلون) في علاقة العموم والخصوص، فالقراءة تكون للكلمة الواحدة؛ يُقال: قرأ فلانٌ اسمه ولا يُقال: تلا اسمه، وذلك أنّ أصلَ التلاوة إتباعُ الشيءِ الشيءَ،

(1) السّيوطي، الإتقان: 2/ 368.
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: 37/ 35.

يُقال: تلاه؛ إذا تبعه؛ فتكون التلاوة في الكلمات يتبع بعضها بعضًا، ولا تكون في الكلمة الواحدة إذْ لا يصحُّ فيها التَّلْو، بل لا تكون إلّا لكلمتيْن فصاعدًا.

كما أنّ التلاوة أعمُّ من القراءة، فالقراءة لما هو مكتوب، أمّا التلاوة فقد تعني القراءة، وقد تعني الإتباع مطلَقًا، قال تعالى: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: 121]؛ بمعنى: يُحلّون حلالَه ويُحرِّمون حرامَه، ولا يُحرِّفونه عن مواضعه، ولمّا كان كتابُ أعمال المرء مدوَّنًا فيه كلُّ عملٍ له وإنْ دقَّ، أو صَغُرَ، وذلكم مَظِنَّةُ القراءة تحقيقًا للعدل بشهادة المرء على أعماله؛ ناسَبَ اختيارَ لفظ القراءة.

﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٧٢﴾ [الإسراء: 72]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

حشرُ أصحابِ الشمالِ في أسوأ حالٍ

لمّا ذَكَرَ حالَ النّاس في الآخرة، وذَكَر القسمَ الأوّل منهم، وهم مَن أوتوا كتابَهم باليمين؛ عُلِمَ أنَّ القسمَ الآخرَ بضدِّ ذلك يُؤتى كتابَه بالشّمال، فاستُغْنِيَ عن ذِكر ذلك، وأُتيَ له بصِلَةٍ أخرى لبيانِ حُكم آخرَ من أحواله الفظيعة في ذلك اليوم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَعۡمَىٰ﴾: (عمي) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على سَتْرٍ وتَغْطِيَةٍ، وأَعْمى: اسْمٌ على وزْنِ (أَفْعَلَ)، مَأْخوذٌ مِن العمى، والعَمَى: ذَهابُ البَصَرِ كُلِّهِ، ولا يَقَعُ العَمَى إلّا على العَيْنَيْنِ جميعًا، يُقال: عَمِيَ يَعْمَى عَمًى فهو أَعْمَى: إذا فَقَدَ بَصَرَهُ فَلا يَرَى شَيْئًا[2]، ويُطلَق على فَقْدِ البَصيرَة، وهي إِدْراكُ القَلْبِ، يُقال: عَمِيَ فُلانٌ؛ أيْ: ضَلَّ عن رُشْدِه، وعَمِيَ عليه طريقُهُ؛ أَيْ: خَفِيَ، والجَمْعُ: عُميانٌ وعُميٌ، والأُنْثى: عَمياءُ[3]، والمُرادُ بالعَمَى في الآية: ما يَنْشأُ عن العَمَى من الحَيْرَةِ واضْطِرابِ البالِ، ووصْفُ ﴿أَعۡمَىٰ﴾ في المَرَّتَيْنِ مُرادٌ بِهِ مُجَرَّدُ الوصْفِ لا التَّفْضيلُ[4].

2) ﴿وَأَضَلُّ﴾: أصلُ (ضلل) يدلُّ على ضَياعِ الشَّيْءِ وذَهابِهِ في غَيْرِ حَقِّهِ[5]، والضَّلالُ: الغَيْبوبَةُ والخَفاءُ والسَّتْرُ، وضلَّ الكافِرُ: غابَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 169.
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عمي).
(3) الجوهريُّ، الصّحاح، وابن سِيدَه، المُحكَم، وابن منظور، لسان العرب: (عمي).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 170.
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ضلّ).

عن الحُجَّة[1]، والضَّلالُ أيضًا: الانحرافُ والمَيْلُ عنِ الطَّريقِ، يُقالُ: ضَلَّ فلانٌ يَضِلُّ ضَلالًا: انحرفَ وضاعَ ولم يهتد[2]، ورجلٌ مُضَلَّل؛ أيْ: لا يوفَّق لخيرٍ[3]، وضِدُّه: الاهتداءُ، والاستقامةُ، والرَّشادُ، والمقصود بالضَّلالِ في الآيةِ: الحَيْرَةُ في الطَّريقِ وعَدَمُ الاهْتِداءِ[4].

3) ﴿سَبِيلًا﴾: (سبل) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على إرسالِ شَيءٍ مِنْ عُلوٍّ إلى سُفْلٍ، وعلى امتِدادِ شَيءٍ، فالأَوَّلُ مِنْ قيلِكَ: أَسْبَلْتُ السِّتْرَ، إذا أرْخَيتَه، وأمّا الثّاني: فالمُمتَدُّ طولًا: السَّبيلُ وما وضَحَ مِنْهُ، وهو الطَّريقُ؛ سُمّيَ بذَلِكَ لامتِدادِه[5]، وجَمعُه: سُبُلٌ[6]، ومنه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: 9]، والمقصودُ بالسَّبيل في الآية: الطَّريق[7].

المَعْنى الإجْماليُّ:

مـآلُ عمى القلب في الدّنيا الحرمانُ في الآخرة

يُبيِّنُ الحقُّ تعالى في الآية سوءَ عاقبة مَن أوتي كتابَه بشماله فيقول: ومَن كان في الحياة الدُّنيا أعمى البصيرة عن حُجج اللّه وبيّناته، وعن كلِّ ما أولاه الخالق جلَّ شأنه مِنْ نِعَمٍ ظاهرةٍ وباطنةٍ، فهو في الآخرة أَعمى لا يهتدي إلى ما يُنجيه، ولا يجد ما يُجديه؛ لأَنّ عَماه في الدُّنيا بإعراضه عن توحيد اللّه أوجَبَ هذا التَّخبُّطَ في الآخرة والحرمانَ فيها، وعن ابن عبّاس: (ومَنْ كان في هذه النِّعم والآيات الَّتي رأى أَعْمى؛ فهو في الآخرة الَّتي لم يُعاين أعمى وأضلّ سبيلًا)، وقيل: ومَنْ كان في هذه الدُّنيا أَعمى القلب حُشر يوم القيامة أَعمى العين، كما قال تعالى: ﴿وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤﴾ [طه: 124][8].

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عبّاد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ضلَّ).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (ضلَّ).
(3) الخليل، العين: (ضلَّ).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 122.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبل).
(6) الخليل، العين، وابن سِيدَه، المُحْكَم، وابن منظور، لسان العرب: (سبل).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 122.
(8) مجمع البحوث الإسلامية، التّفسير الوسيط: 5/ 786.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في ﴿وَمَن﴾:

عطف القَسيم على قَسيمه بالواو

صُدِّرَ قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ بحرف (الواو) الدّالَّة على العطف والاقتران، وذلك لأنّ قوله تعالى في هذه الآية معطوفٌ عَطْفَ القسيم على قسيمه في الآية السابقة، فهو من حيِّز (أمّا) التفصيليّة، والتّقدير: (يوم ندعو كُلَّ أُناسٍ بإمامِهِم؛ فمَنْ أوتي كتابَهُ بيمينهِ... وأمّا مَن كان في هذه أعمى)، ولمّا كان القسيم المعطوف عليه هم مَنْ أوتوا كتابهم باليمين عُلم أنَّ المعطوف بضدّ ذلك يُؤتى كتابه بالشِّمال؛ فاستُغني عن ذِكْر ذلك، وأُتيَ له بصِلَةٍ أخرى وهي كونه أعمى، حكمًا آخرَ من أحواله الفظيعة في ذلك اليوم[1].

فائدة اسم الشرط (مَنْ):

تعليل جزاء الكفّار يوم القيامة

نكتة التّعبير بحرف الشّرط (مَنْ)، وبالجملة الشّرطيّة في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾؛ أنْ يتوقّف وقوع الجواب والجزاء على وقوع فعل الشّرط، فإذا وقع الأوّل وقع الثّاني، وكذلك في هذه الآية فإنّ مَنْ كان في هذه الدّنيا أعمى عن النظر في آيات اللّه وعِبَرِه ونِعَمِه والإيمان بأنبيائه، وهو فعل الشرط؛ تحقَّقَ فيه جزاء الشَّرط، وهو أن يكون في الآخرة أعمى وأضَلَّ سبيلًا.

دلالة الفعل الماضي ﴿كَانَ﴾:

الكَينونَةُ أقْوى تَأْكيدًا مِنَ الفِعْلِ

استُعمل فعل الكينونة ﴿كَانَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ﴾ الدّالّ على اقتران مضمون الجملة بالزّمن الماضي، وتقييدُ الفعل بالزّمن لا يدلّ على نَفيهِ عن غير ذلك الزّمن[2]، فالكافر في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 169.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 531.

دنياه كان أعمى عن النّظر في آيات اللّه، فَضْلًا عن دلالة ﴿كَانَ﴾ على زيادة اتّصاف الموصوف بالصّفة ورسوخها فيه، فعَمى الكافرِ عن الإيمان صفةٌ راسخةٌ فيه لازَمَتْه طوالَ حياته في الدّنيا.

معنى حرف الجرّ ﴿فِي﴾:

عمى الكافر في الدّنيا سببُ العمى في الآخرة

في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ﴾ استُعمِلَ حرفُ الجرّ ﴿فِي﴾، المرتبطُ معناه بمعنى الاسم المجرور به، على تقدير معنى ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ بأنّها الدنيا، فتكون ﴿فِي﴾ دالّةً على الظَّرفيّة الزّمانيّة، فالكافرُ قد عَميَ في زمن الحياة الدّنيا عن الإيمان ولوازمه في حياته الدّنيا، فاستَحَقَّ العمى في الحياة الآخرة.

بلاغة التَّعبير باسم الإشارة ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾:

تحقير دار الدّنيا والتّهوين من شأنها

جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ﴾ استِعمالُ اسم الإشارة ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾، والإشارة بـ ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ إلى معلوم من المقام وهو الدّنيا التي فُعل بهم فيها ما فُعل من فنون التّكريم والتفضيل[1]، وله نظائر في القرآن؛ فقد قال تعالى: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ ٩٩﴾ [هود: 99] وقد قال قبلها: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ [هود: 60]، والنّكتة البلاغية في ذلك تحقيرُ الحياة الدّنيا ودناءتُها وخِسَّتُها؛ فهي لا تستحقُّ أن تُذكر بالاسم الظاهر، على النقيض من الحياة الآخرة التي أشار إليها بالبعيد تشريفًا لها في قوله: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣﴾ [القصص: 83].

بلاغة تقديم ﴿فِي هَٰذِهِۦٓ﴾:

تخصيص الدنيا بكونها دار العمل والآخرة دار الجزاء

قُدّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿فِي هَٰذِهِۦٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ﴾؛ لنكتة بلاغيّةٍ وهي الاختصاصُ، بمعنى أنّه مَنْ كان

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 187، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 170.

في الدّنيا خصوصًا مُعرِضًا عن الإيمان وشُكرِ النِّعَم، فهو في الآخرة أعمى وأضلُّ سبيلًا.

بلاغة الاستعارة في ﴿أَعۡمَىٰ﴾:

تجسيدُ معنى الضلال وإبرازُه في صورة محسوسة

اتّفق العلماء على أنّ العمى المقصودَ في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ﴾ ليس عمى البصر، والمعنى أنّ النظمَ القرآنيَّ استعارَ لفظَ (العمى) للضّلالةِ في الدين بجامعِ الحَيْرَةِ واضطرابِ البالِ[1]، والغرضُ البلاغيُّ منها هو تجسيدُ معنى الضلال وإبرازُه في صورة محسوسة.

معنى الفاء في ﴿فَهُوَ﴾ ودلالتُها:

العمى عن الإيمان علّةُ العمى في الآخرة

وقع جواب الشّرط ﴿فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ جملةً اسميَّةً؛ فوجب اقترانُها بالفاء[2]، والفاء في جواب الشرط وإن لم تكن عاطفةً، فإن ذلك لا يُخرِجُها من أن تكون بمنزلة العاطفة في أنَّها جاءت لتربطَ جملةً ليس من شأنها أن ترتبط بنفسها[3]، وهي أيضًا تُفيد التَّعليلَ؛ بمعنى أن ما بعدها مُسبَّبٌ عمّا قبلها، فالعمى في الآخرة وشدّة الضلال فيها سببُه العمى في الدنيا عن الإيمان.

دلالة حرف الجرِّ ﴿فِي﴾:

عمى الكافر في زمن الآخرة بسبب العمى في الدنيا

استُعملَ حرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ الوارد في قوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ﴾ للدّلالة على الظرفيَّةِ الزّمانيَّة، فالكافرُ الذي عَمِيَ عن الإيمان ولوازِمه في زمنِ الحياةِ الدنيا؛ يُجازى عن ذلك بالعمى في زمن الحياة الآخرة.

معنى اللّام في ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ ودلالتها:

إيمان المؤمنين بدار أخرى بعد الموت

(أل) في لفظ ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ دالّة على العهد، فالآخرة عند المؤمنين يُعَبَّرُ بها عن النَّشْأَةِ الثّانيَةِ التي يكون فيها الجزاء عن الأعمال، كَما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 169.
(2) ابن مالك، شرح الكافية: 3/ 1596.
(3) الجُرجانيّ، دلائل الإعجاز: 1/ 214.

يُعَبَّرُ بالأولى عن النّشْأَةِ الأولى وهي دار الدنيا[1]، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ۝١٣﴾ [اللّيل: 13].

بلاغة تقديم ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾:

تخصيص الآخرة بشدّة عمى الكافرين وضلالهم

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ لنكتةٍ بلاغيَّةٍ وهي الاختصاص، بمعنى أنّ جزاءَ عمى الكافر عن الطريق المستقيم في الدّنيا سيكون في الآخرة خصوصًا بأن يَعمى عن طريق الجنّة، وبأن يُحشر أعمى البصر.

دلالة الاختلاف في ﴿أَعْمَىٰ﴾ الثانية:

تنوّع الدلالة بين عمى القلب وعمى البصر

ورد لفظ ﴿أَعْمَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ مرّتين، فأمّا ﴿أَعْمَىٰ﴾ الأولى فلا خلافَ أنّ المقصود بها عمى القلب لا عمى البصر، وأمّا قوله: ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ ففيه قولان:

القول الأول: أنّ المراد منه عمى القلب أيضًا، قال مجاهد: فهو في الآخرةِ أعمى عن حُجَّته[2]، فهو لا يهتدي إلى ما يُنْجيه ولا يَظْفَر بما يُجديه؛ لأنَّ العمَى الأولَ موجِبٌ للثاني[3]، وقيل: مَنْ كان في الدنيا أعمى عن إبصار الحق والاعتبار؛ فهو في الآخرة أعمى عن الاعتذار.

القول الثاني: أن يُحمل العمى الثاني على عمى العين والبصر؛ فمَنْ كان في هذه الدنيا أعمى القلب حُشر يوم القيامة أعمى العين والبصر، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥﴾ [طه: 125] وقال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: 97] وهذا العمى زيادة في عقوبتهم والله أعلم[4].

(1) الرّاغب، المُفردات: (أخر).

(2) الثّعالبي، الجواهر الحسان: 3/ 487.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 187.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 377.

الاختلاف الصَّرْفيُّ والقِرائيُّ في ﴿أَعۡمَىٰ﴾ الثانية:

الخلافُ الصَّرْفيُّ في بنية كلمة ﴿أَعۡمَىٰ﴾ تابعٌ للخلاف في القراءة، فقد قرأ شعبة - في رواية - وحمزة والكِسائي وخلف: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ﴾ الموضعين بالإمالة، وقرأ أبو عمروٍ ويعقوب الموضع الأول بالإمالة، والموضعَ الثاني بالفتح، مُغايرًا بين الموضعين، وقرأ الباقون بالفتح في الموضعين، ولورش وجهان: التقليل والفتح[1].

أمال عمى العين وفتح عمى القلب للفرق

فأمّا ﴿أَعۡمَىٰ﴾ الأولى؛ فهي صفة مُشبَّهة من العمى، وأمّا ﴿أَعۡمَىٰ﴾ الثانية ففيها قولان، **الأوّل:** أنّها صفة مُشبّهة كـ ﴿أَعۡمَىٰ﴾ الأولى؛ أيْ: (مَن كان في هذه الدار أعمى عن النظر في آيات اللّه وعِبَرِه والإيمان بأنبيائه؛ فهو في شأن الآخرة أعمى لا يتوجَّه له صوابٌ ولا يَلوح له نُجْحٌ، وهو أعمى عن حُججه).

والقول الثاني: أنَّها اسمُ تفضيلٍ من العمى القلبيّ؛ أيْ: (مَنْ كان في الدنيا أعمى القلب فهو في الآخرة أشدُّ عمًى وحيرةً)؛ لأنه قد باشر الخَيْبة ورأى مخايل العذاب، ويُقوّي هذا التَّأويلَ قولُه عطفًا عليه: ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ الذي هو (أَفْعَلُ مِنْ كَذا)، والعمى في هذه الآية هو عَمَى القلب[2]، فيقال: ما أشدّ عماه، في عمى العين، و(ما أعماه)، في عمى القلب، لأنّ عمى القلب حمق، ومثله من يقول: (ما أسودَه)، من السّؤدد، لا من سواد اللّون، وما أَحْمَرَه من البلادة كأنّه حمار لا من الحُمرة[3].

وأمّا عن علاقة الإمالة بالميزان الصرفي فقد قال أبو علي الفارسيُّ: "الوجهُ في تصحيح قراءة أبي عَمرٍو أنّ المراد بالأعمى في

(1) ابن الجَزَريّ، النشر: 2/ 43.
(2) الثّعالبيّ، الجواهر الحِسَان: 3/ 487.
(3) ابن خالويه، إعراب القراءات السبع: 1/ 378.

الكلمة الأولى كونه في نفسه أعمى وبهذا التقدير تكون هذه الكلمة تامَّة فتقبل الإمالة، وأمّا في الكلمة الثانية فالمراد من الأعمى أفعلُ التفضيل؛ فكانت بمعنى: (أفعل من)، وبهذا التقدير لا تكون لفظة (أعمى) تامّة فلم تقبل الإمالة، والحاصلُ أن إدخال الإمالة في الأولى دلّ على أنه ليس المُراد أفعل التفضيل، وتركها في الثانية يدلّ على أنّ المُراد منها أفعل التفضيل، ويؤكّد ذلك ظاهر ما عطف عليه من قوله: وأضلّ سبيلًا"[1]، وهو تعليل وجيه.

دلالة الواو في ﴿وَأَضَلُّ﴾:

الجمع للكافر بين العمى وشدّة الضلال

عُطِفَ قوله تعالى: ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ على قوله: ﴿فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ بحرف (الواو) الدّالَّة على الجمع والاقتران، فجُمِع للكافر في الآخرة بين العمى والضلال، بمعنى أنّه أبعد عن إدراك الطريق المستقيم؛ لأنّه في الآخرة قد انتهى وقت العمل وفيها الجزاء، أو لأنّ عمى الدنيا قد يُعوَّض بجارحة أخرى كالسّمع واللّمس، أمّا عمى الآخرة؛ فلا يوجد فيه معوّض عن البصر، ولأنّ عمى الدنيا قد تدركه التوبة ففي الزّمان متّسع لها؛ أمّا الآخرة فالعمى فيها لا يُستدرك بتوبة، إنّما زمن الاستدراك في الحياة الدنيا[2].

بلاغة صيغة التفضيل ﴿وَأَضَلُّ﴾:

لا خلاصَ من ضلال الآخرة

اسم التفضيل ﴿وَأَضَلُّ﴾ الوارد في قوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ مُشتقٌّ من الضلال، ووجهُ التفضيل فيه أنّه لمّا كان وجه الشّبه في أحوال الكافر في الآخرة أقوى منه في حاله في الدنيا؛ أُشير إلى شدّة تلك الحالة بقوله: ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ القائمِ مقامَ صيغة التّفضيل في العمى، وذلك لأنّ عَماه في الدّنيا كان في مُكْنَتِه أن ينجو منه بطلب ما يُرشده إلى السبيل الموصِل من هَدْيٍ

---

(1) ابن خالوَيْه، الحُجَّة: 5/ 113.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4429.

الرسول ﷺ والقرآن، مع كونه خليًّا عن لحاق الألم به، وأمّا ضلاله في الآخرة فهو ضلال لا خلاصَ منه، وهو مقارِنٌ للعذاب الدائم، فلا جَرَمَ أنْ كان ضلالُه في الآخرة أَدْخَلَ في حقيقة الضلال وماهيَّتِه[1].

بلاغة الاحتباك في الآية:

الاستدلال بالمذكور على المحذوف

في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ فنٌّ بديعٌ من فنون البلاغة، وهو الاحتباُك، وهو أن يُحْذَفَ من الأوائل ما جاء نظيرُه أو مقابلُه في الأواخر، ويُحْذَفَ من الأواخر ما جاء نظيرُه أو مقابلُه في الأوائل[2]، فقد قال تعالى في أصحاب اليمين: ﴿فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا﴾؛ فأَثبتَ الإيتاءَ باليمين والقراءة أوّلًا دليلًا على حذف ضدِّهما ثانيًا (وهو الإيتاء بالشّمال والاستحياء من القراءة)، وأَثبتَ في قوله: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ العمى ثانيًا دليلًا على حذف ضدّه أولًا[3] (وهو أنّ أصحاب اليمين مبصِرون للهُدى في الدنيا والآخرة).

بلاغة الإطناب في الآية:

زيادة الألفاظ عن المعاني لمزيد التّفصيل

تضمَّن قولُه تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ إطنابًا مُحدَّدًا في جملة ﴿أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾؛ إذ عَدَلَ عن لفظ (أشدّ) ونحوه ما يتوسّل به إلى التّفضيل عند تعذّر اشتقاق صيغة (أفعل) ليتأتّى ذِكْر السّبيل، لما في الضّلال عن السّبيل من تمثيل حال العمى وإيضاحه؛ لأن ضلال فاقدِ البصر عن الطّريق في حال السّير أشدّ وقعًا في الإضرار منه وهو قابع بمكانه، فعَدَل عن اللفظ الوجيز إلى التّركيب المطنب لما في الإطناب

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 170.
(2) الميداني، البلاغة العربية: 2/ 54.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 479.

من تمثيل الحال وإيضاحه وإفظاعه، وهو إطناب بديع، وقد أُفيدَ بذلك أنّ عماهُ في الداريْن عمى ضلال عن السّبيل الموصِل، ومعنى المفاضلة راجع إلى مفاضلة إحدى حالتيْه على الأخرى في الضّلال وأثره لا إلى حال غيره؛ فالمعنى: وأضلُّ سبيلًا منه في الدنيا[1].

دلالة استعمال لفظ ﴿سَبِيلٗا﴾ من حيث الدلالة والتنكير:

ضلال الكفّار في الدنيا والآخرة

نُكّرَ لفظُ ﴿سَبِيلٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾؛ لأنّه وقع تمييزًا يبيّن الإبهامَ الواقعَ في نسبته إلى الضلال، كما يُستفاد من تنكيره العمومُ، فالكافر ضالّ في أيّ سبيل يسلكه في الدّنيا والآخرة، لا جَرَمَ أنّ ضلالَه في سبيل الآخرة أشدُّ لحلولِ العذاب وفواتِ التدارك.

وهو تَمثيلٌ لِحالِ ضَلالِهِم بِحالِ الَّذي وقَفَ في فَيْفاءَ لا يَدْري مِنْ أَيَّةِ جِهَةٍ يَسْلُكُ إلى المَقْصودِ[2].

بلاغة الالتفات في الآيتيْن الكريمتيْن:

جلبُ الانتباه بتنويع أساليب الخطاب

في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ التفاتٌ من ضمير الجمع في ﴿يَقۡرَءُونَ﴾ من قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا﴾ إلى المفرد في: ﴿فَهُوَ﴾ في هذه الآية، وذلك حَملًا على لفظ (من) فهو مفرد، وللتفريق بين حال أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، فأصحاب اليمين حزبٌ مجتمعون على شأن جليل كما قال تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ٦٧﴾ [الزُّخرف: 67]، وقراءتُهم لكُتُبِهم تكون على وجه الاجتماعِ لا على وجه الانفرادِ[3].

أمّا أصحاب الشّمال - والعياذ بالله - فإنّ كل واحد منهم مُهتمٌّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 170.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 122.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 187.

بمصيره، ولا يغني عنه أمثالُه من ألم العذاب شيئًا، قال تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ٣٩﴾ [الزخرف: 39].

والالتفات من افتنان العرب في الكلام وحُسْنِ تَصرُّفِهم فيه، ولأنّ الكلام إذا نُقل من أسلوبٍ إلى أسلوبٍ كان ذلك أحسنَ تطريةً لنشاط السّامع، وإيقاظًا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الآخرة والقيامة:

القيامة يومٌ من أيّام الآخرة

بين اللفظيْن عموم وخصوص؛ فالآخرةُ صفة لموصوف محذوف تقديره: الدار الآخرة أو الحياة الآخرة، وهي عامّة في كلّ ما يحصل للإنسان بعد موته، أمّا القيامة فالمقصود منها يوم عند الله من أيّام الآخرة، يُحيي فيه الله كلّ الأموات، وتتشقّقُ الأرض عن أجسادهم فيخرجون منها للحساب، فهو يوم يقوم الناس لربّ العالمين، ولعموم لفظ الآخرة وتضمُّنِه كلَّ ما يحصل للإنسان بعد موته من أحوال التي منها حال عماه المستدامة بسبب ضلاله في الدنيا - أوثِرَ على لفظ القيامة المُحدَّد معناه بيوم القيام والبعث.

السبيل والطريق:

عموم الدلالة في السبيل وكثرة استعمالاتها المجازية

يشترك لفظا (السبيل) و(الطريق) في الدلالة على المسلك، ويفترقان في الاشتقاق: فالسبيل مأخوذ من امتِدادِ الشَيءِ طولًا؛ وقد سُمّيَ بِذَلِكَ لِامتِدادِه[2]، وأمّا (الطريق) فهو (فعيل) بمعنى (مفعول)، يَطرقُه النّاس بأقدامهم.

وقد فَرَّق بعض العلماء بينهما بأنّ السّبيل أعمُّ دلالة من الطّريق، فهو اسم يقع على ما يقع عليه الطّريق، وعلى ما لا يقع عليه الطّريق،

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 1/ 14، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/ 245.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبيل).

تقول: سبيل اللّه وطريق اللّه، وتقول: سبيلك أن تفعل كذا ولا تقول: طريقك أن تفعل به، ويُراد به سبيل ما يقصده فيُضاف إلى القاصد ويُراد به القصد، كما يمكن التَّفريق بينهما بأنّ السّبيل أغلبُ وقوعًا في الخير، ولا يكاد اسم الطريق يُراد به الخير إلا مُقترنًا بوصف أو إضافة تخلصه لذلك[1].

ويمكن أن يُقال أيضًا: إنّ السبيل تَرِد في استعمالات مجازية أكثر من الطريق، فيُطلق السبيل على الحيلة نحو قوله: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ٤٦﴾ [الشورى: 46]، والحَرَج نحو: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ٤١﴾ [الشورى: 41]، والحُجّة نحو: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ١٤١﴾ [النساء: 141]، واللّوم والعتاب نحو: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ﴾ [آل عمران: 75]، ولعمومِ لفظ السبيل اختير في الآية ليُناسِبَ عمومَ ضلالِ المشرِك في الآخرة.

(1) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 313.

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ٧٣﴾ [الإسراء: 73]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الامتنان على سيّد السّعداء بعصمته من كيد الأشقياء

لـمّا عدّد تعالى نِعَمَه على بني آدم، ثم ذَكر حالَهم في الآخرة من إيتاء الكتاب باليمين لأهل السّعادة، ومن عمى أهل الشّقاوة؛ أَتْبَعَ ذلك بما يَهمّ به الأشقياءُ في الدّنيا من المكر والخداع والتّلبيس على سيّدِ أهل السّعادة المقطوعِ له بالعصمة ﷺ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَادُواْ﴾: أصلُ (كيد) يَدُلُّ على مُعالَجَةٍ لِشَيْءٍ بِشِدَّةٍ، قالَ أهلُ اللُّغَةِ: الكَيْدُ: المُعالَجَةُ، قالوا: وكُلُّ شَيْءٍ تُعالِجُهُ فأَنْتَ تَكيدُهُ[2]، هذا هو الأَصْلُ في البابِ[3]، والفعل (كاد) موضوع عند العرب لمقاربة الفعل، كِدْتُ أَفْعَلُ مَعْناهُ عِنْدَهم: قاربْتُ الفِعْلَ ولَم أفعل، وما كِدْتُ أَفعَلُ مَعْناهُ: فَعَلْتُ بَعْدَ إِبْطاء[4]، وعليه؛ فالمُرادُ بالكيد في الآية: فِعلٌ يدُلُّ على قُرْبِ حدوثِ الخبرِ؛ أي: (همّوا وقاربوا)[5].

2) ﴿لَيَفۡتِنُونَكَ﴾: أَصلُ الفِتْنَةِ من الفَتْنِ؛ وهو الإحْراقُ[6]، يُقالُ: فَتَنْتُ الذَّهَبَ؛ أيْ: أَحْرَقْتَهُ بالنّارِ لِتمييزِ الجيِّدِ من الرَّديءِ[7]، والفَتْنُ والفُتونُ: مُعامَلَةٌ يَلْحَقُ منها ضُرٌّ واضْطِرابُ النَّفْسِ في أَنْواعٍ من الـمُعامَلَةِ يَعْسُرُ دَفْعُها، من تَغَلُّبٍ على القوَّةِ وعلى الفِكْرِ[8]، والفِتْنَةُ:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 89.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (كيد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن الأثير، النهاية، وابن منظور، لسان العرب: (كيد).
(4) الأزهري، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والفيوميّ، المصباح المنير: (كيد).
(5) الواحديّ، التفسير الوسيط: 3/ 119، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 14/ 8688.
(6) الخليل، العين: (فتن).
(7) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المُؤَصَّل: (فتن).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 171.

الابْتِلاءُ والامتِحانُ والاخْتِبارُ، يُقالُ: فَتَنْتُه، أَفْتِنُهُ، فَتْنًا وفُتوناً: إذا امتَحَنْتَهُ[1]، والمقصودُ بالفَتْنِ في الآية: اضْطِرابُ الحالِ الشَّديدِ الَّذي يَظْهَرُ بِهِ مِقْدارُ صَبْرٍ وثَباتِ مَنْ يَحِلُّ به، والمُرادُ به: الصَّرفُ؛ أي: (كادوا يَصْرِفونَكَ)[2].

3) ﴿لِتَفْتَرِىَ﴾: أَصْلُ (فرى) مِنَ الفَرْيِ، وهو القَطْعُ والشَّقُّ، يُقالُ: أَفْرَى الذِّئْبُ بَطْنَ الشَّاةِ يُفْري فَرْيًا؛ أي: شَقَّهُ، ومِنْهُ الفراءُ وهو الجِلْدُ؛ لِأَنَّهُ يُقْطَعُ[3]، ويَأْتي الفَرْيُ بِمَعْنَى الصُّنْعِ والاِخْتِلاقِ[4]، وقيلَ الاِفْتِراءُ: الكَذِبُ العَظيمُ[5]، وقيلَ: الكَذِبُ المتَعَلِّقُ بالأَعْراضِ، ويَأْتي الافْتِراءُ بِمَعْنَى البُهْتانِ والظُّلْمِ[6]، والمقصود بالِافْتِراءِ في الآية: الاِخْتِلاقُ وإيجادُ خَبَرٍ لا مُخْبِرَ لَهُ[7].

4) ﴿لَّٱتَّخَذُوكَ﴾: أصل (أخذ) حَوْزُ الشَّيْءِ وجَبْيُهُ وجَمْعُهُ، قالَ الخَليلُ: هو خِلافُ العَطاءِ، وهو التَّناوُلُ[8]، والاِتِّخاذ: جَعْلُ شَيْءٍ لِفائِدَةِ الجاعِلِ؛ لِأَنَّ المُتَّخِذَ يَأْخُذُ الشَّيْءَ الَّذي يَصْطَفيهِ[9]، والاتِّخاذُ أيضًا: الاقْتِناءُ، يُقال: أَخَذَ الشَّيْءَ، يأْخُذُهُ، أَخْذًا؛ أي: اقْتَناهُ، ويُطلَقُ على الاكْتِساب، يُقال: اتَّخَذَ فُلانٌ مالاً، يَتَّخِذُهُ، اتِّخاذًا: إذا كَسَبَهُ[10]، والمقصود بالِاتِّخاذِ في الآية: جَعْلُ الشَّخْصِ الشَّيْءَ لِنَفْسِهِ[11].

5) ﴿خَلِيلًا﴾: أَصْلُ الخُلَّة مِنَ الخَلَلِ، وهو الفُرْجَةُ بَيْنَ شَيْئَيْنِ، وهي الصَّداقَةُ والمَحَبَّةُ[12]، والخَليل: الصّاحِبُ المُلازِمُ الَّذي لا يَخْفَى عَنْهُ شَيْءٌ مِنْ أُمورِ صاحِبِهِ، والخَليلُ أيضًا: الفَقيرُ، وسُمّيَتِ المَحَبَّةُ خُلَّةً؛ لِأَنَّها تَخَلَّلَتِ القَلْبَ فَصارَتْ في باطِنِه، والتَّخَلُّلُ: النَّفاذُ[13]،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فتن).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 259.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المُفردات: (فرى).
(4) ابن سِيدَه، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (فرى).
(5) السجستانيّ، غريب القرآن، ص: 103.
(6) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (فرى).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 173.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أخذ).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 226.
(10) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللغة، وابن الأثير، النهاية، وابن منظور، لسان العرب: (أخذ)، والمناوي، التوقيف، ص: 37.
(11) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 163.
(12) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلل).
(13) ابن عباد، المحيط في اللغة: (خلل)، والحميدي، تفسير غريب ما في الصحيحين، ص: 478.

ومِنْهُ الخَلَّةُ: الفَقْرُ؛ لِأَنَّه فُرْجَةٌ في حالِه[1]، والمُرادُ بالخليل في الآية: الصَّفيُّ والصّاحِبُ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الثّـبـات على الحـق يُبطل تلبيس أربـاب الضّلال ومكرهم

الآيةُ إخبارٌ عن جانبٍ من المسالك الخبيثة الَّتي سلكها المشركون مع النَّبي ﷺ لزحزحته عن التَّمسُّك بدعوته، وكيف أنّ اللّه تعالى قد عصمه من كيدهم، فقال سبحانه: وإنَّ المشركين قاربوا بخداعهم أنْ يوقعوك في الفتنة بصرفك عمّا أوحيناه إليك من الأحكام، لتتقوَّل علينا غير الَّذي أوحيناه إليك ممّا اقترح عليك، ولو فعَلْتَ يا مُحَمَّدُ ﷺ ما دعاك إليه قومُك من مخالفةِ القُرآنِ، واتِّباعِ أهوائِهم؛ لجَعَلوك حَبيبًا ووليًّا وصَفيًّا لهم[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في ﴿وَإِن﴾ ودلالتها:

حكاية فنّ آخر من أفانين عمى الكفّار

صُدِّرَ قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ بحرف (الواو) الدّالّة على العطف والاقتران، وذلك لأنّ قوله تعالى في هذه الآية حكايةُ فَنٍّ من أفانين ضلال الكفّار وعَماهُم في الدنيا، فالجملةُ عطفٌ على جملة ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ﴾، وهو انتقال من وصف حالهم وإبطال مقالهم في تكذيب النبيّ ﷺ إلى ذِكْرِ حالٍ آخر من حال معارضتهم وإعراضهم، وهي حالُ طمعِهم في أن يَستنزِلوا النبيَّ ﷺ لأن يقولَ قولًا فيه حُسْنُ ذِكْرٍ لآلهتهم ليتنازلوا إلى مصالحته وموافقته إذا وافقهم في بعض ما سألوه، وهذا على أحد الأقوال في سبب نزول الآية[3].

(1) الجوهري، الصّحاح: (خلل).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 15، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 300، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 464.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 171.

معنى (إِنْ) ودلالتها:

تأكيد مقاربة الكفّار لفتنة الرسول ﷺ

أوثِر في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ استعمالُ (إنْ)، ويَحتمِل في اللّغة أن تكون (إنْ) نافيةً مشبَّهةً بـ(ليس)، أو أن تكون مُخفَّفة من (إنّ) المُشدّدة المُستعملة للتّوكيد، والضّابط في التّفريق بينهما هو وجودُ اللّام الفارقة، وهي موجودة في هذه الآية، فاللّام في ﴿لَيَفۡتِنُونَكَ﴾ هي اللّام الفارِقةُ بين (إنْ) المُخفَّفة من الثّقيلة وبين (إنْ) النّافية، وعليه تكون (إنْ) من قوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ﴾ مُخفَّفةً من (إنّ) المشدّدة، واسمُها ضميرُ شأنٍ محذوفٌ[1]، والمقصودُ من استعمالها تأكيدُ مقاربةِ الكفّار لفتنة النبيّ ﷺ لصرفه عن بعض ما أوحي إليه من القرآن[2].

دلالة استعمال ﴿كَادُواْ﴾ ماضيًا:

حكايةُ الوقائع السّابقة بالزّمن الماضي

استُعمِلَ فعلُ المقاربة ﴿كَادُواْ﴾ ماضيًا في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، والنكتةُ في ذلك الإشعارُ بوقوع حادثة سابقة قارَبَ الكفّارُ فيها فتنةَ الرسول ﷺ، وذلك لأنّ الإخبار عن الشيء بصيغة الماضي يقتضي كونَ المُخبَر عنه مُتقدِّمًا على ذلك الإخبار[3].

توجيه المتشابه اللفظي:

سعيُ الكفّار في أذى النبيّ ﷺ

تتشابه آيتا سورة الإسراء: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ﴾، و﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ﴾ [الإسراء: 76] في ذكر موقفيْن قارَبَ فيهما الكفّارُ من إيذاء النبيّ ﷺ، وتختلفان في نوع الأذى؛ فالآية الأولى ذَكرتْ مقاربةَ الكفّار لفَتْنِ النبيّ ﷺ عن بعض ما أوحى اللّه إليه من أحكام الشريعة، فيتنازل عنها لأجلهم، وذكرتِ الآيةُ الثانية مقاربةَ الكفّار

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 173.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 377.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 2/ 283.

أن يُخرِجوا النبيَّ ﷺ من مكّة المكرّمة، وقد عصمَ اللّه ﷻ نبيَّه من الوقوع في كيدهم وأيَّدَه بحفظه.

معنى اللّام في ﴿لَيَفۡتِنُونَكَ﴾ ودلالتها:

أثرُ اللّام الفارقة في الفرق بين النّفي والتأكيد

دخل في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ حرفُ (اللّام) على خبر (إنْ) المخفّفة من الثقيلة فرقًا بينها وبين (إن النافية)، ودلالة هذا الحرف مهمّة في تحديد سياق الكلام من النفي أو ضدّه من التّأكيد، فدَلَّ وجودُها في هذه الآية على تأكيد مقاربة الكفّار لفتنةِ النبيّ ﷺ لصرفِهِ عن بعض ما أوحي إليه من القرآن.

بلاغة الفعل المضارع ﴿لَيَفۡتِنُونَكَ﴾:

تجدُّدُ فَتْنِ الكفّار للنبيّ الكريم ﷺ

عُبِّر بالفعل المضارع الدّالّ على التَّجدُّدِ ﴿لَيَفۡتِنُونَكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾؛ للإشعارِ بسعي الكُفّار الحثيثِ الدّائم لمحاولة صرفِ النبيّ ﷺ عن الذي أوحي إليه من القرآن، وقد تكرّر ذلك منهم لاستمالَتِه لولا عصمةُ اللّه لنبيّه الكريم.

أثر تعدية الفعل بحرف الجرّ ﴿عَنِ﴾:

الدلالة بكلمة على معنى كلمتيْن

تعدّي الفعل ﴿لَيَفۡتِنُونَكَ﴾ بالحرف ﴿عَنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ خلافُ الأصل؛ لأنّ الفعل (فتن) يتعدّى بنفسه دون حرف، فدَلَّ ذلك على التّضمين، وهو أن تَحمل كلمةٌ معنى كلمة أخرى، فتُعامَلُ معاملةَ تلك الكلمة الأخرى نحويًّا، وفائدة التّضمين أن يدلّ بكلمة واحدة على معنى كلمتين[1]، فلمّا عُدِّيَ الفعلُ ﴿لَيَفۡتِنُونَكَ﴾ في هذه الآية بـ ﴿عَنِ﴾ دلّ على تضمينه معنى فعلٍ كان الفَتْن لأجله، وهو ما فيه من معنى (يصرفونك)[2]، فضلًا عن دلالة حرف الجرّ ﴿عَنِ﴾ على البُعد، فجمع ببلاغة التَّضمين بين الفتن والاختبار، وبين الصرف والإبعاد.

---

(1) ابن هشام، مُغني اللّبيب، ص: 687.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 171.

سرُّ التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِيٓ﴾:

أثـر الصّلة في تعليل الحكم

النّكتة البلاغية في إيثار وضع الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِيٓ﴾ موضع الاسم الظّاهر في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ أنّه يسمح بوصفه بجملة الصّلة، فدَلَّ قولُه: ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ على نبوّة النَّبيّ ﷺ وتلقّيه القرآنَ من عند ربّه ﷻ، فهذه الآية مسوقةٌ مساقَ المَنِّ على النَّبيّ بعصمة الله إيّاه من الخطأ في الاجتهاد[1]، لأنّه مُسدَّد مُؤيَّد بالوحي، وفي ذلك تثبيت للنَّبيّ ﷺ وللمؤمنين وتأييسٌ للمشركين بأنّ النبيّ ﷺ محفوظٌ معصومٌ من الزَّلل.

أثر استعمال الفعل الماضي ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾:

حفظ الوحي من التغيير والتّبديل

عُبِّر بالفعل ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ بصيغة الماضي للدّلالة على محاولة الكفّار صرفَ النبيّ ﷺ عن الّذي سَبق أن أوحي إليه، وتحقّق لديه أنّه من ربّه ﷻ.

دلالة إسناد الفعل ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾:

وحيُ العظيمِ محفوظٌ من التّبديل

أُسْنِد في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ الفعلُ ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ إلى ضمير (نا) للدّلالة على عظمة الموحي ﷻ وعلوِّ قَدْرِه، وفي ذلك تثبيتٌ للنبيّ ﷺ وتأييسٌ للمشركين بأنّ وحيَ العظيم محفوظٌ من التّبديل كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾ [النّمل: 6].

معنى حرف الجرّ (إلى):

بلوغ الوحي للنبيّ ﷺ

عُدّيَ الفعل ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ بحرف الجرّ (إلى) الدّالّ على الوصول والانتهاء، للتّعبير عن بلوغِ الوحي للنبيّ ﷺ وانْتهائِهِ إليه انتهاءَ تَمَكُّنٍ واستقرارٍ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 172.

طمعُ المشركين في تغيير الوحي حسبَ أهوائِهم

معنى اللّام في ﴿لِتَفۡتَرِيَ﴾ ودلالتها:

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ﴾ دالّةٌ على التّعليل، والمعنى أنّهم يفعلون ذلك إضمارًا منهم وطمعًا في أن يفتري الرّسول ﷺ على الله غير ما أوحي إليه، وهذا طمعٌ من المشركين في أن يستدرجوا النبيّ ﷺ من سؤال إلى آخر(1)، لاستمالته وتنازله.

محاولةُ فتنِ النّبيّ ﷺ حالًا واستقبالًا

دلالةُ الفعلِ المضارعِ في الآية:

عُبّرَ بالفعل ﴿لِتَفۡتَرِيَ﴾ مضارعًا في قوله تعالى: ﴿لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ﴾ للدلالّة على الاستقبال، فقد حاولوا صرفَ النَّبيّ ﷺ عن الّذي أوحي إليه من القرآن من أجل أن يوافقهم حالًا ومستقبلًا في بعض أهوائهم.

أثر أسباب النزول في تحديد المقصود

دلالة ﴿لِتَفۡتَرِيَ﴾ بين الحقيقة والكناية:

اختلف العلماء في تفسير قوله تعالى: ﴿لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ﴾ اختلافًا كبيرًا تَبَعًا لاختلافهم في سبب نزولها؛ فقد قال بعضهم إنّها نزلت في ثقيفٍ، وقيل: نَزلتْ في قريش ... إلى غير ذلك من الأقوال في سبب نزولها ممّا يتضمَّن بعضُها قَدْحًا في عصمة الرّسول ﷺ، فمَنْ أخذ بهذه الآثار جعل قوله تعالى: ﴿لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ﴾ على ظاهره؛ أيْ: لتتقوَّل علينا غيرَ الذي أوحينا إليك مما اقترحَتْه ثقيفٌ أو قريشٌ حسبما نُقِل(2).

المناهضون لهذا الرأي

وبعض العلماء رأى أنّ هذه الآثار تَقدحُ في عصمة النَّبيّ، فجعل قوله تعالى: ﴿لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ﴾ كنايةً عن طمع المشركين في أن يفتري الرسول غير ما أوحي إليك، وليس في الكلام ما يقتضي أن النَّبي ﷺ هَمَّ بذلك كما فهمه بعض المفسرين، إذ لام التعليل لا تقتضي أكثر من غرض فاعل الفعل المعلل، ولا تقتضي غرض المفعول ولا علمه(3).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 173.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 188.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 173.

معنى حرف الجرّ (على):

دقة البيان القرآني في اختيار حروف المعاني

عُدّي الفعل (افترى) في قوله تعالى: ﴿لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ﴾ بحرف الاستعلاء (على) للدّلالة على الاستعلاء والزّيادة، فالافتراء زيادة أخبار كاذبة على أصل الوحي، فضلًا عمّا يدلّ عليه حرف (على) من المضادّة والمُناوأةِ المُتحقّقَيْنِ بالتسلّط.

دلالة (نا) في ﴿عَلَيۡنَا﴾:

الافتراءُ على العظيمِ عظيمٌ

اتّصل في قوله تعالى: ﴿لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ﴾ حرفُ الجرّ (على) بضمير (نا) للدّلالة على عظمة اللّه ﷻ وعلوِّ قدْرِه، وفيه أيضًا إدخالُ المهابةِ في قلوب العباد، فالافتراء على العظيم عظيم.

دلالة تقديم الجارِّ والمجرور في الآية:

الافتراء على الله ﷻ خصوصًا أمر عظيم

تقدّم في قوله تعالى: ﴿لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ﴾ الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَيۡنَا﴾ لنكتة بلاغية وهي الاهتمامُ؛ فالافتراء على اللّه ﷻ أمر عظيم ليس كأي افتراء آخر على غيره، ونظيرُه قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ۝٤٥﴾ [الحاقة: 44 - 45].

معنى الواو في ﴿وَإِذٗا﴾ ودلالتها:

سعي الكفّار لاستمالة النبيّ ﷺ إلى جانبهم

أوثِرَ العطفُ بحرف (الواو) الدّالِّ على الجمع والاقتران في قوله تعالى: ﴿وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا﴾؛ لأنّ جملة: ﴿وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا﴾ معطوفةٌ على جملة: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ﴾ عَطْفَ النّتيجةِ على السبب؛ بمعنى: لوِ اتبعتَ أهواءَهم لكنتَ لهم وليًّا ولخرجتَ من ولايتي[1].

معنى حرف (إذًا):

ترتيب الجزاء على الشّرط

استُعمل في قوله تعالى: ﴿وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا﴾ حرف (إذًا) وهو دالّ على الجزاء، والنّون التي بآخرها نونُ كلمة وليست تنوينَ تمكينٍ، فتكون جزاءً لفعل ﴿لَيَفۡتِنُونَكَ﴾ بما معه من المُتعلِّقات مُقحَمًا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 188.

بين المتعاطفيْن، ولتصيير واو العطف مع (إذًا) مفيدةً معنى فاء التّفريع، بمعنى اتخاذِ الكفّارِ النَّبيَّ ﷺ خليلًا مفرَّعٌ ومسبَّبٌ عن تَرْكِ ما أوحي إليه من ربّه[1].

معنى اللّام في ﴿لَّٱتَّخَذُوكَ﴾ ودلالتها:

دلالة اللّام على القَسَم المُقدَّر

اتّصل في قوله تعالى: ﴿وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا﴾ حرف (اللّام) بالفعل (اتَّخَذوكَ)، وهذه اللّام هي اللّام الموطِّئة للقَسَم، وذلك لأنّ الكلام على تقدير الشّرط: وهو لو صرفوك عن الذي أوحينا إليك لاتَّخَذوك خليلًا[2].

دلالة الفعل الماضي ﴿لَّٱتَّخَذُوكَ﴾:

الشَّرط يُفيد الاستقبال وإن كان فعلُه ماضيًا

في قوله تعالى: ﴿وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا﴾ اختار النَّظْمُ الحكيم استعمالَ فعلِ ﴿لَّٱتَّخَذُوكَ﴾ ماضيًا في جملة شرطيَّة، وقد ذهب النُّحاة إلى أنّ الشَّرط يُفيد الاستقبال وإن كان فعله ماضيًا، فإنّ أدوات الشّرط تقلِبُ الماضي إلى الاستقبال، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ﴾ [البقرة: 191]، وقوله: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ﴾ [آل عمران: 144]، ولا يُفيد الشّرطُ المُضيَّ، بل كل ما ورد من ذلك مُؤَوَّل[3]، فيكون المقصود أنّ الكفّار سيتخذون النبيَّ ﷺ خليلًا إذا تحقّق شرط ذلك من اتّباع أهوائهم.

بلاغة أسلوب الشرط المُقدَّر في الآية:

تحقق الخلّة بشرط موافقة الأهواء

تضمّن قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا﴾ أسلوبَ شرط مُقدَّر، تقديره: لو صرفوك عن الذي أوحينا إليك لاتّخذوك خليلًا، والنّكتة من التّعبير بالجملة الشّرطيّة أن يتوقّف وقوع الجواب والجزاء على وقوع فعل الشَّرط، فإذا وقع الأول وقع الثّاني.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 173.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 173.
(3) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 63.

إيثار لفظ ﴿خَلِيلٗا﴾:

ولاية الكفّار سببٌ لانقطاع ولاية الرَّحمن

ذهب الجمهور إلى أنَّ لفظَ ﴿خَلِيلٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا﴾ هو بمعنى صديقًا؛ أيْ: لو فعلتَ لَيَتَّخِذنَّكَ الكفّار صديقًا لهم، وكان المُراد ليكوننَّ بينك وبينهم صداقة وهم أعداء اللّه تعالى، فمخاللتُهم تقتضي الانقطاعَ عن ولايته ﷻ[1]، وقيل: الخليل هذا من الخَلَّةِ بمعنى الحاجة؛ أيْ: لاتَّخَذوكَ فقيرًا محتاجًا إليهم[2]، والأوّل أشهر.

ولعلّ سببَ الخلاف هو بالنظر إلى أصل اشتقاق الخليل، فقيل: من الخُلّة بضم الخاء، وهي إمّا من الخِلال بكسر الخاء فإنها مودَّةٌ تتخلَّل النفسَ وتُخالِطُها مخالطةً معنويَّةً، فالخليلُ مَن بلغتْ مودَّتُه هذه المرتبةَ، وإمّا من الخَلل كما قيل على معنى أنَّ كلًّا من الخليلَيْن يُصلِح خللَ الآخر، وإمّا من الخَلّة بفتح الخاء، وهي إمّا بمعنى الخَصْلة والخُلُق؛ لأنّ الخليلَيْن يتوافقان في الخصال والأخلاق، وقد جاء في حديث أبي هريرة: أنّ النّبيّ ﷺ قال: "الرَّجلُ على دين خليلِهِ، فلينظرْ أحدُكم مَن يُخالِلُ"[3]، أو بمعنى الفقر والحاجّة؛ لأنّ كلًّا منهما محتاجٌ إلى الآخر غيرُ مُستغنٍ عنه، أو بمعنى الطريق في الرَّمل لأنَّهما يتوافقان على طريقة[4].

دلالة التنكير في ﴿خَلِيلٗا﴾:

اقتضاء الإبهام التّفخيم والتّعظيم

جاء لفظ ﴿خَلِيلٗا﴾ نكرةً في قوله تعالى: ﴿وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا﴾، ويُستفاد من تنكيره وإبهامِه التفخيمُ والتّعظيمُ، بمعنى أنّ المشركين سيتخذونك خليلًا مُقرَّبًا مفخَّمَ القَدْر لو نجحوا في صرفك عن وحي اللّه إليك.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 173، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 123.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 300.

(3) أخرجه التّرمذي في جامعه برقم: (2378)، وأحمد في المسند برقم (8028).

(4) الآلوسي، روح المعاني: 3/ 148.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفَتْنُ والصَّرْفُ:

دلالة الفتن على الاختبار، ودلالة الصرف على التغيير

يَختلف لفظا (الفَتْن) و(الصَّرْف) في المعنى الدّلالي لكلّ منهما، فلفظُ ﴿لَيَفۡتِنُونَكَ﴾ مأخوذٌ من الفَتْنِ، وهو إدخالُ الذهبِ النّارَ لتظهرَ جودتُه من رداءته، ثمّ أُطْلِق مجازًا على الامتحان بالمشاقّ والشّدائد ليتميَّزَ الصادق من الكاذب.

وأمّا لفظُ (يصرفونك) فهو من الصَّرْف، وهو ردُّ الشَّيء من حالة إلى حالة، أو إبدالُه بغيره، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ﴾ [آل عمران: 152]، وقوله تعالى: ﴿فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗاۚ﴾ [الفرقان: 19]، أي: لا يَقْدِرون أن يَصرِفوا عن أنفسهم العذابَ، أو أن يصرفوا أنفسَهم عن النار، ولمّا كان المقصود امتحانَه ﷺ واختبارَه بالمشاقّ والشّدائد؛ اختير التعبير بـ ﴿لَيَفۡتِنُونَكَ﴾.

الخليل والصّاحب والصَّديق:

الخُلّة أعلى مراتب القُرْب والمَوَدَّة

تتقارب هذه الألفاظ في الدّلالة على معنى القُرب والمُصافاة، وتختلف فيما بينها بدرجة القرب وفي أصل الاشتقاق، وبيان ذلك أنّ الخليل مشتقٌّ من الخُلَّة؛ وهي المودّةُ والمحبّةُ التي تخلَّلتِ القلبَ فصارت خِلالَه؛ أيْ: في باطنِه.

والصاحب مُشتقٌّ من الصُّحْبة وهي المصاحبةُ في شيء والمعاشرةُ، يُقال صَحِبه وصاحَبَه؛ أي: عاشَرَه، والصاحب المُعاشِر، وأصلُه في العربية الحفظُ، ومنه يُقال: صَحِبَك اللّه وسِرْ مُصاحَبًا؛ أيْ: محفوظًا، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ ٤٣﴾ [الأنبياء: 43]؛ أيْ: يُحفظون.

أمّا الصّديقُ فمشتقٌّ من الصَّداقةِ وهي مصدر الصَّديق، واشتقاقُه أنه صَدَقَه المَوَدَّة والنَّصيحةَ، والصَّديقُ: المُصادِقُ لك، والجمع صُدَقاء وصُدْقانٌ وأَصْدِقاء.

وقد دلَّتْ نصوصُ الوحيِ على أنّ الخليلَ أرفعُ هذه المراتب وأعمقُ دلالةً، ويدلّ لذلك ما في الحديث: "لو كنتُ متَّخِذًا خليلًا لاتَّخذتُ أبا بكر خليلاً، ولكنّه أخي وصاحبي، وقدِ اتَّخَذَ اللّهُ ﷻ صاحِبَكم خليلاً"[1]، ولمّا كانت الخُلّة والمودّة والمحبّة أعلى درجة من الصحبة والصداقة؛ كانت مناسبةً لتكون كِفاءً لافترائه على الله تعالى، حاشاه من ذلك صلوات ربّي عليه!.

(1) رواه مسلم في صحيحه، الحديث رقم: (2383).

﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ٧٤﴾

[الإسراء: 74]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تذكير النبيّ الكريم بفضل الله العظيم

لـمّا ذَكَّر اللّه سبحانه رسوله بما كان في ذلك من رُشده صلّى اللّه عليه وعلى آله وسلّم، أَتْبَعَه ببيان أنّه إنّما كان بعصمةِ اللّه له ليزداد شكرًا[1].

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ثَبَّتۡنَٰكَ﴾: أصلُ (ثبت) يدلُّ على دَوام الشَّيءِ، يُقالُ: ثَبَتَ ثَباتًا وثُبوتًا[2]، ومنه: ثَبْتُ الجَنانِ: ماضٍ في الأمرِ والحَرْبِ، وأَثْبَتَ حُجَّتَهُ: أقامَها، وثَبَتَ القَوْلُ والأمرُ: وضَحَ، ورَجُلٌ ثَبْتٌ: أي حُجَّةٌ، والثّابِتُ: اللاّزِمُ الواقِفُ[3]، والثَّبْتُ: المُتَثَبِّتُ في الأُمورِ[4]، وحَقيقَةُ التَّثبيت في الآية: تَثْبيتُ فَهْمِ النَّبيِّ ﷺ ورَأْيِه[5].

2) ﴿تَرۡكَنُ﴾: أصلُ (ركن) يَدُلُّ على قوَّةٍ[6]، فالرُّكونُ: السُّكونُ والاِطْمِئْنانُ إلى الشَّيْءِ، يُقال: رَكَنَ إِلَيْهِ: إذا اطْمَأَنَّ وسَكَنَ إِلَيْه، ويأْتي بِمعنى المَيْلِ إلى الشَّيْءِ وقَصْدِهِ، ومِنْهُ الرُّكْنُ، وهو الجانِبُ الأَقْوى؛ لأنّ الشَّخْصَ يَميلُ ويَسْكُنُ إِلَيْه[7]، والمُراد بالرُّكونِ في الآية: المَيْلُ بالرُّكْنِ؛ أَيْ: بالجانِبِ مِنَ الجَسَدِ واسْتُعْمِلَ في الموافَقَةِ بِعَلاقَةِ القُرْبِ[8].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 486.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثبت).
(3) ابن عبّاد، المحيط في اللغة: (ثبت).
(4) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 2/ 347.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 174.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ركن).
(7) الجوهري، الصِّحاح، وابن سِيدَه، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (ركن).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 175.

3) ﴿قَلِيلًا﴾: أصلُ (قلَّ) يَدُلُّ على نَزارَةِ الشَّيءِ، قَلَّ الشَّيْءُ يَقِلُّ قِلَّةً فَهو قَليلٌ، والقُلُّ: القِلَّةُ، وذلكَ كالذُّلِّ والذِّلَّة[1]، والقِلَّةُ: خِلاف الكَثْرَةِ، والقُلُّ: خِلافُ الكُثْر، وقَدْ قَلَّ يَقِلُّ قِلَّةً وقُلًّا، فَهو قَليلٌ[2]، والقِلَّةُ والكثرة يُستعملان في الأعداد، كما أنَّ العِظَم والصِّغَر يُستعملان في الأجسام، ثمَّ يُستعار كلُّ واحدٍ من الكثرة والعِظَم[3]، والمُرادُ بالقِلَّة في الآيةِ: خلافُ الكثرةِ.

المَعْنى الإِجْماليُّ:

لا عِصمةَ عن المعاصي إلّا بتوفيق الله تعالى

يُبيِّن الحقُّ تعالى بعضَ مظاهر فضله على نبيِّه ﷺ قائلًا: ولولا أنْ ثبَّتْناك يا مُحَمَّدُ ﷺ على الحَقِّ، وعَصَمناك مِنَ الانخداع بحيَلِ قَومِك الكُفّارِ؛ لقارَبْتَ أن تَميلَ إليهم شَيئًا قَليلًا، فتفعَلَ بعضَ الَّذي سألوك فِعْلَه[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في ﴿وَلَوۡلَآ﴾ ودلالتها:

تمام المنّة في العصمة والنّجاة من الفتنة

صُدِّرَ قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ بحرف (الواو) الدّالّة على العطف والاقتران؛ وذلك لأنّ قوله تعالى في هذه الآية من تكملة الآية التي قبلها وهي قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا﴾ فيكون الركون إليهم ركونًا فيما سألوه منه من التّنازل عن بعض أحكام اللّه الّتي أوحاها إليه[5].

معنى (لولا) وبلاغة أسلوب الشرط:

امتناع ركونه ﷺ لأهواء المشركين

جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ

(1) الجوهري، الصِّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (قلل - قلّ).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (قلل).
(3) الرّاغب، المُفردات، والسمين، عُمدة الحُفّاظ: (قلل).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 15، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 300.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 174.

﴿شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ استعمال حرف (لولا)، وهو حرف امتناع لوجود؛ أيّ: يقتضي امتناعًا لوجودٍ؛ أيّ: يقتضي امتناعَ جوابه لوجودِ شرطه؛ أيّ: بسبب وجود شرطه[1]، بمعنى امتناع ركونه ﷺ لأهواء المشركين لوجود تثبيت اللّه له.

دلالة التعبير بالمصدر المؤوّل مع الفعل الماضي ﴿أَن ثَبَّتۡنَٰكَ﴾:

تميّز المصدر المؤوَّل على الصريح ببيان الزمن

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ استعمال الحرف المصدري ﴿أَن﴾، وهو يُؤوَّل مع فعله بمصدر صريح، والتّقدير: (ولولا تثبيتُنا لك)، والنّكتة البلاغية في إيثار المصدر المُؤوَّلِ على الصّريح أنّ المصدر المُؤوَّل يبيّن الزمنَ، فدَلَّ قولُه تعالى: ﴿أَن ثَبَّتۡنَٰكَ﴾ على أنّ التثبيت قد وقع في حادثة سابقة.

تثبيت الله للنّبيّ ﷺ على الدّوام

وعُبّر بالفعل الماضي ﴿ثَبَّتۡنَٰكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾؛ إشعارًا بوقوع حادثة سابقة ثبّت اللّه فيها رسولَه ﷺ، كما يقتضي تحقّق تثبيت اللّه للنّبيّ ﷺ.

بلاغة إسناد الفعل إلى ضمير العظمة:

تثبيت الله العظيم لرسوله الكريم

أُسنِدَ في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ﴾ الفعلُ ﴿ثَبَّتۡنَٰكَ﴾ إلى ضمير (نا) للدّلالة على عظمة اللّه ﷻ وعلوّ قدْرِه، وفي ذلك تأييدٌ للنبيّ ﷺ وتأييسٌ للمشركين بأنّ اللّه العظيم يُثبِّت عبدَه ورسوله الكريم.

بلاغة الاستعارة في ﴿ثَبَّتۡنَٰكَ﴾:

تثبيتُ رأي النبيّ ﷺ من الزّيغ

تضمّن قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ﴾ صورةً بيانيَّةً تتمثّل في الاستعارة في لفظ ﴿ثَبَّتۡنَٰكَ﴾؛ إذِ التثبيتُ جعلُ الشيءِ ثابتًا؛ أيّ: مُتمكّنًا من مكانه غيرَ مُقَلْقَلٍ ولا مَقْلوعٍ، وهو مستعارٌ في هذه الآية لبقاءِ النبيّ ﷺ على حاله غيرَ متغيِّرٍ، وعُدِّيَ التثبيتُ إلى ضمير

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 174.

النبيّ ﷺ الدّالّ على ذاته، والمُرادُ تثبيتُ فهمِه ورأيِه، وهذا من الحُكم على الذّات، والمُراد بعض أحوالها بحسب دلالة المقام، مثل ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ﴾ [النّساء: 23]، فالمعنى: ولولا أن ثبَّتْنا رأيَكَ فأقْرَرْناه على ما كان عليه في معاملة المشركين؛ لقاربتَ أن تَرْكَنَ إليهم[1].

معنى اللام في ﴿لَقَدۡ﴾:

دلالة اللّام على قَسَم مُقدَّر

ورد في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ حرفُ (اللّام) متّصلًا بحرف (قد)، وهي اللّام الموطِّئة للقَسَم، فيُؤكِّد اللّه ﷻ على أنّه لولا تثبيتُه لنبيِّه لقارَبَ الركونَ إليهم شيئًا قليلًا.

معنى (قد) في الآية:

تحقيق مقاربة الركون لولا التثبيت

في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ آثر النَّظْم الكريمُ استعمالَ الفعل (كاد) بصيغة الماضي المصحوبِ بـ(قد) الدّالّة على التّحقيق، وقد دخلت (اللّام) على (قد) مبالغةً في التّأكيد، وكثُر في الكلام اقترانُ جملة جواب القسم بـ(قد)؛ لأنّ القَسَمَ يُهيِّئ نفسَ السّامع لتوقُّعِ خبرٍ مُهمٍّ فيُؤتى بقد لأنّها تدلّ على تحقيق أمرٍ مُتوقَّعٍ، والغرضُ من ذلك هو تأكيدُ حفظِ اللّه لنبيّه وتثبيتِه وعصمتِه من الزَّلَل، وبيانُ فضل اللّه عليه.

دلالة الفعل الماضي ﴿كِدتَّ﴾:

(كاد) إثباتُها نفيٌ ونفيُها إثباتٌ

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ بالفعل الماضي ﴿كِدتَّ﴾، وهو من أفعال المقاربة، بمعنى: ولولا تثبيتُنا لك وعصمتُنا لقاربتَ أن تميل إلى خُدَعِهم ومكْرِهم، وهذا من اللّه فضلُ تثبيتٍ لنبيِّه[2]، والمشهور عند أهل اللغة أنّ (كاد)

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 174.
(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 2/ 684.

إثباتها نفي ونفيها إثبات؛ فإذا قيل: كاد يفعل؛ فمعناه أنّه لم يفعل، وإذا قيل: لم يَكَدْ يفعل؛ فمعناه أنّه فعله[1]، ولهذا نفى بعضُ المُفسِّرين المقارَبةَ أصلًا.

رأي ابن هشام

وقد أنكر ابنُ هشام هذا الضّابط في (كاد) في الباب السادس من كتابه (المُغني) في التحذير من أمور اشتَهَرت بين المُعرِبين، والصوابُ خلافُها، وقال إنّ الصواب في (كاد) أن حكمها حكم سائر الأفعال في أن نفيَها نفيٌ وإثباتَها إثباتٌ، وبيانه: أن معناها المقارَبَة ولا شكّ أن معنى (كاد يفعل) قارَبَ الفعل، وأنَّ معنى (ما كاد يفعل) ما قارَبَ الفعل، فخبرُها منفيٌّ دائمًا[2].

معنى حرف الجر (إلى):

التحذير من انتهاء الغاية إلى موافقة الكفّار

عُدِّيَ الفعل ﴿تَرۡكَنُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ بـ(إلى) الدّالَّةِ على انتهاء الغاية، بمعنى: أنّه لولا تثبيتُ اللّه لك لقارَبَ أن يكون غايةُ أمرِك موافقتَهم والمَيْلَ إلى اتّباع أهوائهم.

بلاغة الاستعارة في الآية:

تجسيد المعنى المعقول في شيء محسوس

تضمَّنَ قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ صورةً بيانيَّةً من نوع الاستعارة، إذ الركون: المَيْلُ بالرُّكن؛ أي: بالجانب من الجسد، فاستُعير هنا للموافقة بعلاقة القُرْب؛ لأنَّ المائل يُدني جَنبَهُ إلى الشيء المُمال إليه[3].

بلاغة التقديم في الآية:

عصمة النبيّ ﷺ من الركون إلى موافقة الكفّار

جاء في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾ لنكتة بلاغية وهي الاختصاصُ، بمعنى: أنّه لولا تثبيتُ اللّه لك لكان مَيْلُك إلى موافقتهم هم خصوصًا.

---

(1) درويش، إعراب القرآن: 5/ 481.

(2) ابن هشام، المُغني، ص: 869.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 175.

دلالة التّنكير في ﴿شَيۡـٔٗا﴾:

ورد في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا﴾ لفظ ﴿شَيۡـٔٗا﴾ مُنَكَّرًا مُفۡرَدًا، والغرضُ البلاغيُّ من التنكيرِ فيه والإفرادِ هو التقليلُ، بمعنى أنّه لولا تثبيتُ اللّه لنبيّه لقارَبَ أن يميل إلى موافقتهم مَيۡلًا يسيرًا.

خطورة الركون إلى الكفّار ولو بالقدر القليل

فائدة حذف المفعول المطلق:

انتصب ﴿شَيۡـٔٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ على المفعوليّة المُطلقة لـ﴿تَرۡكَنُ﴾؛ أيۡ: شيئًا من الركون، ووجهُ العدولِ عن مصدر ﴿تَرۡكَنُ﴾ هو طلبُ الخِفَّة؛ لأنّ مصدر تركن وهو الركون فيه ثِقلٌ فتركُه أفصحُ، وإنَّما لم يقتصر على ﴿قَلِيلًا﴾؛ لأنّ تنكيرَ ﴿شَيۡـٔٗا﴾ مفيدٌ التقليلَ، فكان في ذِكۡره تهيئة لتوكيد معنى التقليل، فإنّ كلمة (شيء) لتوغُّلِها في إبهام جنسِ ما تُضاف إليه أو جنس الموجود مُطلقًا مفيدةٌ للتّقليل غالبًا؛ كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ﴾ [النّساء: 20][(1)].

العدول عن المصدر طلبًا للخِفَّة

فائدة النعت في ﴿قَلِيلًا﴾:

عُبِّر في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ بلفظ ﴿قَلِيلًا﴾ نعتًا لـ﴿شَيۡـٔٗا﴾، والغرضُ من ذلك المبالغةُ في التّقليل، فإنّ كلمة (شيء) مفيدةٌ للتّقليل غالبًا، ثمّ تنكيرُها مفيدٌ للتّقليل أيضًا، ثمّ وصفُها بـ ﴿قَلِيلًا﴾ مبالغة في التقليل، فَرُكونُ النبيّ ﷺ إليهم غيرُ واقعٍ ولا مقارِب الوقوعَ؛ لأنّ الآية قد نفَتۡه بأربعة أمور، وهي: (لولا) الامتناعية، وفعل المقاربة المقتضي أنّه ما كان يقع الركون ولكن يقع الاقتراب منه، والتّحقير المُستفاد من ﴿شَيۡـٔٗا﴾، والتقليل المُستفاد من ﴿قَلِيلًا﴾[(2)].

المبالغة في التقليل تنزيهًا لقَدۡرِ النبيّ الجليل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 175.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 175.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الرُّكون والمَيْل:

الميلُ أعمُّ دلالةً من الركون

يتجلّى الفرقُ بين (الرُّكون) و(المَيْل) في الاشتقاق اللُّغويِّ لكلّ منهما، فلفظ ﴿تَرْكَنُ﴾ مُشتقٌّ من (الرُّكن) وهو جانب الشيء الّذي يُسكن إليه[1]، فمعنى ﴿تَرْكَنُ﴾ تستند بالرُّكن؛ أيْ: بالجانب من الجسد، فاستُعير هنا للموافقة، بعلاقة القُرْب، لأنّ الراكن يُدني جنبه إلى الشيء المُستنِد إليه، وأمّا لفظ (تميل) فهو من المَيْل وهو انحرافٌ في الشّيء إلى جانبٍ منه[2].

(1) الرّاغب، المُفردات: (ركن).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مال).

﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ٧٥﴾ [الإسراء: 75]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الوعيدُ الشّديد لِمَنْ يركن إلى المشركين

لـمّا كان الرّسول ﷺ معصومًا عن الرُّكونِ للمشركين، ولـمّا كان غيرُه ليس بمعصوم؛ فقد أَردفَ اللّه تحذيرَ أُمّته بالوعيدِ الشديدِ لئلّا يَركَنَ أحدٌ منهم إلى المشركين في شيءٍ من أحكام اللّه تعالى وشرائعه(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَّأَذَقْنَٰكَ﴾: أصلُ (ذوق) يدلُّ على اخْتِبار الشَّيْءِ مِنْ جهَةِ تَطَعُّم، ثُمَّ يُشْتَقُّ مِنْهُ مَجازًا فيُقالُ: ذُقْتُ الـمَأْكولَ أذوقُهُ ذَوْقًا، وذُقْتُ ما عِنْدَ فُلانٍ: اخْتَبَرْتُهُ(2)، وذَوَّقَهُ الطَّعامَ: جَعَلَهُ يَخْتَبِرُ طَعْمَهُ بِلِسانِه، والذَّوْقُ أيضًا: طَعْمُ الشَّيْءِ، وفي كِتابِ الخَليلِ: كُلُّ ما نَزَلَ بِإِنْسانٍ مِنْ مَكْروهٍ فَقَدْ ذاقَهُ(3)، والمُرادُ بالإِذاقَةِ في الآيةِ: مَجازٌ في الإِصابَةِ، وذِكْرُ الإِذاقةِ هنا في مقام التَّحذير يُنبِئُ بأَنَّها إذاقةُ عَذابٍ(4).

2) ﴿ضِعْفَ﴾: أصلُ (ضعف) يَدُلُّ على أَنْ يُزادَ الشَّيءُ مِثْلَهُ، قالَ الخَليلُ: أَضْعَفْتُ الشَّيءَ إِضْعافًا، وضَعَّفْتُه تَضْعيفًا، وضاعَفْتُهُ مُضاعَفَةً، وهو أَنْ يُزادَ على أَصْلِ الشَّيءِ فَيُجْعَلَ مِثْلَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ(5)، وهو مِنَ الأَلفاظِ الدّالَّةِ على مَعْنًى نِسْبيٍّ يَقْتَضي وُجودَ مَعْنًى آخَرَ، كالزَّوْجِ والنِّصْفِ، ويُخْتَصُّ بالمِقْدارِ والعَدَدِ، وقَدْ يُسْتَعْمَلُ فِعْلُهُ في مُطْلَقِ التَّكْثيرِ؛ وذلكَ إذا أُسْنِدَ إلى ما لا يَدْخُلُ تَحتَ المِقْدارِ، مِثْلَ

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 90.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذوق).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن سِيدَه، المُحكَم: (ذوق).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 176.
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ضعف).

العَذابِ في قَوْلِه تَعالَى: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الفرقان: 69]، والمُرادُ بالضِّعْفِ في الآيةِ: تَكريرُ المِقْدارِ وتَكْريرُ القوَّةِ، وأُطْلِقَ هُنا على القَويِّ الشَّديدِ؛ لِعَدَمِ حَملِ الضِّعْفِ على حَقيقَتِه، إذْ لَيْسَ ثَمَّ عِلْمٌ بِمِقْدارِ العَذابِ يُرادُ تَضْعيفُهُ[1].

3) ﴿ٱلۡمَمَاتِ﴾: أَصْلُ (موت) يَدُلُّ على ذَهابِ القوَّةِ مِنَ الشَّيءِ[2]، يُقال: ماتَ، يَموتُ، مَوْتًا، فهو مَيّتٌ، وجَمعُه: أمواتٌ، ومَيِّتون، ومَيْتون، ويُطلَق أيضًا على مَن في حُكْمِ الميِّتِ وليس به، ويُجْمَعُ على مَوْتَى وأَمواتٌ[3]، والمَحْيا والمَماتُ: مَصْدَرانِ ميميّانِ أوِ اسْما زَمانٍ، مِنْ حَييَ وماتَ، والمقصود بالمماتِ في الآية: ما بعد الحياة.

4) ﴿نَصِيرًا﴾: أصلُ (نصر) يَدُلُّ على إتْيانِ خَيْرٍ وإيتائِه، فالنَّصرُ: عَوْنُ المظلوم، والنُّصْرة: حُسْنُ المَعونة[4]، والنَّصير فَعيلٌ بِمَعْنَى فاعِلٍ أَو مَفْعولٍ؛ لأَنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنَ المُتَناصِرَيْن ناصِرٌ ومَنْصورٌ، والاسْتِنْصارُ: اسْتِمدادُ النَّصْر، والتَّناصُر: التَّعاون عَلَى النَّصْر[5]، والمُرادُ بالنَّصيرِ في الآية: المُخَلِّصُ مِنَ الغَلَبَةِ أَوِ الَّذي يَثْأَرُ لِلْمَغْلوبِ[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

كـلَّـما كـانت الـدَّرَجـةُ أعلى؛ كان العذابُ عند المُخالفةِ أعظَمَ

يُخبر الله تعالى عمّا كان سيترتب على الرُّكون إلى المشركين - على سبيل الفَرض - من عِقابٍ، فقال سبحانه: (لو قاربتَ الرُّكونَ إليهم يا محمَّد ﷺ لجمعنا عليك عذابًا مُضاعفًا في الدُّنيا والآخرة،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8 - ب/ 122، 15/ 176.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (موت).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سِيدَه، المحكم، وابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، وابن منظور، لسان العرب: (موت).
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (نصر).
(5) الرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نصر).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 177.

حيث يكون هذا العذاب ضِعفَ ما يُعَذَّبُ به غيرُك في الدّارَيْن إذا فعل مثل هذا الفعل)؛ لأنَّه كلما كانت الدرجة أعلى والمنزلة أسمى؛ كانت المؤاخذة على الخطيئة أَشدَّ وأقوى، ثمَّ لا تَجِدُ لك ناصِرًا يَنصُرُك ويَمنَعُك مِن عذابِنا[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّة فَصْلِ هذه الآية عمّا قبلها:

التحذير من جزاء الرّكون إلى الكفّار

فُصِلَ قوله تعالى: ﴿إِذَا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ عن الآية السابقة وهي قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ لوقوعها جزاءً لها؛ والمعنى: لو تركن إليهم لأذقناك ضِعفَ الحياة وضِعفَ الممات[2]، ففُصِلَتْ فَصْلَ جزاءِ الشّرط عن فعله.

معنى ﴿إِذَا﴾ ودلالتها:

توجيهُ الأُمَّةِ بعدم الرّكون إلى المشركين

صُدِّرَ قوله تعالى: ﴿إِذَا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ بحرف ﴿إِذَا﴾ الدّالِّ على الجزاء، بمعنى أنّك لو تركن إلى المشركين لكان جزاؤك أن نُذيقك ضِعفَ عذاب الحياة، وضِعفَ عذاب الممات، ولِما في (إذن) من معنى الجزاء استُغني عن ربط الجملة بحرف التّفريع، والمعنى: لقد كِدتَ تركنُ فلأذقناكَ، قال ابن عباس: كان الرسول ﷺ معصومًا، ولكن هذا تعريفٌ للأُمَّةِ لئلّا يَركَنَ أحدٌ منهم إلى المشركين في شيء من أحكام اللّه تعالى وشرائعه[3].

معنى اللّام ودلالتها:

دلالة اللّام على القَسَم المُقَدَّر

اتّصل في قوله تعالى: ﴿إِذَا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ حرف (اللّام) بالفعل ﴿لَّأَذَقْنَٰكَ﴾، وهذه اللّام هي

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 18، والسَّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 464، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 5/ 788.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 176.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 90.

اللّام الموطِّئةُ للقَسَم، فيكون التّقدير: (واللّه إنْ حصل ركونٌ ليَكونَنَّ كذا)[1].

دلالة الفعل الماضي في الآية:

الشّرطُ يُفيد الاستقبالَ وإن كان فعله ماضيًا

في قوله تعالى: ﴿إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ﴾ آثر القرآنُ الكريمُ استعمالَ فعل ﴿لَّأَذَقۡنَٰكَ﴾ ماضيًا في جملة شرطيّة، وذلك لأنّ ﴿إِذٗا﴾ تقتضي الاستقبالَ لأنّها من حيث المعنى جزاءٌ فيُقَدَّر موضعُها بأداة الشرط[2]، وقد ذهب النُّحاة إلى أن الشّرط يُفيد الاستقبالَ وإنْ كان فعلُه ماضيًا، فإن أدواتِ الشرط تقلِب الماضي إلى الاستقبال، ولا يُفيد الشرط المُضيَّ، بل كل ما ورد من ذلك مُؤَوَّل[3]، فيكون المقصود أنّه لو حصل أدنى ركونٍ منك إلى المشركين لكان جزاؤك أن نُذيقَك ضِعفَ عذاب الحياة، وضِعفَ عذابِ الممات[4].

بلاغة الاستعارة في الآية:

شيوع التّعبير بالإذاقة في البلايا

تضمّن قوله تعالى: ﴿إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ﴾ استعارَةَ لفظ (الذّوق) للإصابة بجامع الإحساس، على طريقة الاستعارة المَكنيَّةِ التّخييليَّةِ، وذلك لأنّ الإذاقةَ كادت تجري عند العرب مجرى الحقيقةِ لشيوعِها في البلايا؛ فيقولون: ذاقَ فلانٌ البؤسَ والضّرر، فشبّه ما يُدرَك منهما من أثر الضّرر والألم بما يُدرك من طعم المُرِّ البَشِعِ[5].

معنى اللّام في ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾:

دلالة تعريف الجنس على حقيقة الشيء

عُرِّف لفظُ ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ﴾

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 90.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 89.
(3) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 63.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 176.
(5) درويش، إعراب القرآن: 5/ 376.

بـ(ال) الدّالَّةِ على تعريف الجنس؛ أيِ الحياة الّتي يحياها كلُّ أحدٍ المعروفة بالدّنيا؛ أيِ الأولى والقريبة من النّاس، وأُطلقتِ الحياة الدّنيا على أحوالها، أو على مُدَّتِها[1].

دلالة حذف الموصوف في الآية:

قَدْرُ الخطأ على قَدْرِ مُرتَكِبِه

ذُكِرَ في قوله تعالى: ﴿إِذَا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ صفةً ﴿ضِعْفَ﴾ لموصوفٍ محذوفٍ وهو (العذاب)، والمعنى: لو قاربتَ أن تركنَ إليهم أدنى رُكنة لأذقناكَ عذابًا ضِعفًا في الحياة وعذابًا ضِعفًا في الممات؛ بمعنى: مُضاعفًا، ثم حُذف الموصوفُ وأُقيمت الصِّفةُ مُقامَه ثم أضيفت إضافةَ موصوفِها، فقيل: ضعف الحياة وضعف الممات، كما لو قيل: أذقناك أليمَ الحياة وأليمَ الممات، والمعنى ضِعفَ ما يُعذَّب به في الداريْن بمثل هذا الفعلِ غيرُك؛ لأنّ خطأَ الخطيرِ خطيرٌ[2].

والنّكتة البلاغية في حذف الموصوف الّذي هو (العذاب) هو تكريمُ مقام النبي ﷺ وإجلاله عن مجابهته بالعذاب، ومن نكت هذه الآية أيضًا التّنبيه على أنّ الذَّنب يعظُم بحسب فاعله[3]، وذلك أنّ في ذِكْر الكَيْدودَة وتقليلها، مع إتباعها الوعيد الشديد بالعذاب المضاعف في الداريْن - دليلٌ بَيّنٌ على أن القبيح يعظُم قُبْحُه بمقدار عِظَم شأنِ فاعله وارتفاع منزلته[4].

ونظيرُ ذلك من وجهٍ ما جاء في نسائه ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: 30]، وذُكِرَ في وجْهِ مضاعفةِ جزاءِ خطأِ الخطيرِ أنّه يكون سببًا لارتكاب غيرِه مثلَه والاحتجاج به، فكأنّه سَنَّ ذلك، وقد

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 193.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 188.

(3) درويش، إعراب القرآن: 5/ 480.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 685.

جاء في الحديث: "مَنْ سَنَّ سيئةً فعليهِ وِزْرُها ووِزرُ مَن عَمِل بها إلى يوم القيامة"[1].

سرّ تكرار لفظ (الضِّعْف):

العذاب عذابان عذابٌ في المحيا، وعذابٌ في الممات

جاء في قوله تعالى: ﴿إِذَا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ لفظُ ﴿ضِعْفَ﴾ مُكرَّرًا، والنكتةُ في تكريره أنّ العذاب عذابان: عذابٌ في الممات وهو عذاب القبر، وعذابٌ في حياة الآخرة وهو عذاب النار، والضِّعْفُ يوصَف به، نحو قوله: فَآتِهِم عَذابًا ضِعْفًا مِنَ النّارِ، بمعنى: مُضاعَفًا، فكان أصل الكلام: لأذقناك عذابًا ضِعفًا في الحياة، وعذابًا ضعفًا في الممات، ثم حذف الموصوف وأُقيمت الصفةُ مقامَه وهو الضعف، ثم أضيفت الصِّفة إضافة الموصوف فقيل: ضعف الحياة وضعف الممات[2].

دلالة الإضافة في الآية:

دلالــة (في) على الظرفيّة الزمانيّة

أُضيفَ في قوله تعالى: ﴿إِذَا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ لفظُ ﴿ضِعْفَ﴾ إلى ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾ وإلى ﴿ٱلْمَمَاتِ﴾، وهذه الإضافة على معنى (في)، فإنّ تقدير معنى (في) بين المُتضايفيْن لا يختصّ بإضافة ما يُضاف إلى الأوقات، فالتقديرُ: (لأذقناك ضِعفًا في الحياة وضِعفًا في الممات)[3].

بلاغة الكناية في التَّعبير بلفظ الضِّعْفِ:

كناية الضِّعف عــن الــعــذاب الشَّديد

تضمّنَ قوله تعالى: ﴿إِذَا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ أسلوبًا بيانيًّا في إطلاق لفظ (ضعف)، فهو هنا كناية عن العذاب القويّ الشّديد لعدم حمل الضِّعف على حقيقته إذ ليس ثَمَّ علمٌ بمقدار العذاب فيُراد تضعيفُه كقوله: ﴿فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، الحديث رقم: (1017).
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 685.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 176.

﴿ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: 38]، ومعنى ضِعف عذاب الحياة: هو تراكمُ المصائب والأرزاء في مدة الحياة؛ أي العُمُر بزوال ما كان يناله من بهجة وسرور بتمام دعوته وانتظام أمته، ذلك أن يتمكن منه أعداؤه، وعذابُ الممات: أن يموت مكمودًا مُستذَلًّا بين كفّار يرون أنّهم قد فازوا عليه بعد أن أشرفوا على السقوط أمامه[1].

معنى اللّام في ﴿ٱلۡمَمَاتِ﴾:

دلالـة تعريف الـجـنـس على حقيقة الشيء

عُرِّفَ في قوله تعالى: ﴿إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ﴾ لفظُ ﴿ٱلۡمَمَاتِ﴾ بـ(ال) الدّالّةِ على تعريف الجنس؛ أيِ المماتِ الذي يموته كلّ أحد، وقال كثيرٌ من أئمة اللغة: الموت انعدام الحياة بعد وجودها[2].

إيثار لفظ ﴿ٱلۡمَمَاتِ﴾ على (الموت):

قـوة الـدّلالـة في الـمـصـدر الـمـيـمـيّ وتأكيدها

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ﴾ لفظُ ﴿ٱلۡمَمَاتِ﴾ على لفظ (الموت) لما يتميّز به لفظ ﴿ٱلۡمَمَاتِ﴾ من خصائصَ صرفيَّةٍ ودَلاليَّةٍ، فهو مصدرٌ ميميٌّ، والموت مصدر أصلي، والمصدر الميمي يعمل عمل المصدر الأصلي ويُفيد معناه مع قوة الدّلالة وتأكيدها[3]، وذلك لأنّ المصدر الميمي يصوِّرُ المعنى المصدريَّ واقعًا قائمًا مُتحقّقًا في الوجود، أمّا المصدر غير الميميِّ فيُصَوِّرُ المعنى مُجرَّدًا[4].

وكذلك يحمل المصدرُ الميميُّ في الغالب معه عنصرَ الذات، بخلاف المصدر غير الميمي؛ فإنّه حدثٌ مُجرّدٌ من كل شيء ... هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية: إن المصدر الميمي في كثير من التعبيرات يحمل معنًى لا يحمله المصدر غيرُ الميمي، فإن (المصير) مثلًا يعني

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 176.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 376.
(3) عبّاس حسن، النحو الوافي: 2/ 236.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/ 647.

نهاية الأمر بخلاف الصيرورة، ومثله (المآب) و(الإياب) فإن المآب يعني نهاية الأَوْب، وأما الإياب فإنّه الرّجوع ولا يعني منتهى الأَوْب[1].

عدمُ الخلاصِ من العذابِ أهمُّ من إذاقته

معنى حرف العطف ﴿ثُمَّ﴾:

عُطِف في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ بحرف العطف ﴿ثُمَّ﴾، وهو مُستعمَل هنا للترتيب الرُّتْبيّ، وذلك لأنَّ عدم الخلاص من العذاب أهمّ من إذاقته، فرتبتُه في الأهمّيّة أرقى[2].

دلالة صيغة المضارع على الحال والاستقبال

دلالة الفعل المضارع ﴿تَجِدُ﴾:

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ اختار النَّظْم الكريم التعبيرَ بصيغة المضارع الدّالّة على الاستقبال ﴿تَجِدُ﴾، أي أنّه لو حصل أدنى ركونٍ منك إلى المشركين لكان جزاؤك أن نُذيقكَ ضِعفَ عذابِ الحياة، وضِعفَ عذابِ الممات، ثم لا تجدُ لنفسك بعد ذلك مَن ينتصر لك فيَصُدَّنا عن إلحاق ذلك بك أو يثأر لك منّا[3].

عدم وجود نصير يمنع من بأس الله

معنى اللّام في ﴿لَكَ﴾:

ورَدَ في قولِه تَعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ استعمالُ حرفِ الجرِّ اللّامِ مِنْ ﴿لَكَ﴾، وهيَ محمولةٌ على التّعليلِ، أيْ: لن يوجَد لأجلِك أيُّ نصيرٍ يمنعُك من بأس اللّه، ولن تجدَ لنفسك بعد ذلك مَنْ ينتصر لك فيصدَّنا عن إلحاق ذلك بك أو يثأر لك منّا[4].

دقّة البيان القرآنيّ في اختيار حروف المعاني

معنى حرف الجرّ (على):

تعدّى في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ الفعل ﴿تَجِدُ﴾ بحرف الاستعلاء (على) للدلالة على الاستعلاء والمضادّة، فلا يوجَدُ نصيرٌ يعلو على اللّه، فاللّه لا غالبَ له ولا رادَّ لأمره.

(1) فاضل السامرّائي، معاني الأبنية، ص: 31.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 176.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 177.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 177.

دلالة استعمال (نا) في قوله: ﴿عَلَيۡنَا﴾:

الافـتراءُ على العظيمِ عظيمٌ

اتّصل في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرًا﴾ حرفُ الجرّ (على) بضمير (نا) للدّلالة على عظمة اللّه ﷻ وعلوِّ قَدْرِه وتنزيله منزلة الجمع، لتعدّد صفاته الحميدة ومواهبه الجزيلة، فإنّ مثلَ هذا التّعبير يُعبِّر به الملوك والعظماء النافذُ أمرُهم ونهيهُم، وفيه أيضًا إدخالُ المهابة في قلوب العباد، فقضاء اللّه لا غالبَ له، ولا يوجد أيُّ نصيرٍ يمنع من بأس اللّه العظيم.

بلاغة تقديم الجارّ والمجرور:

دلالـة التّقديم على الاختصاص

تقدّم الجار والمجرور ﴿لَكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرًا﴾ لنكتةٍ بلاغيَّةٍ وهي الاختصاصُ؛ بمعنى: لن يوجَد لأجلك خصوصًا أيُّ نصير يمنعُك من عذاب اللّه، ولن تجد لنفسك بعد ذلك مَن ينتصر لك فيصدَّنا عن إلحاق ذلك بك، أو يثأر لك منّا.

دلالة التعبير بـ ﴿نَصِيرًا﴾:

تغايرُ المبنى دليلٌ على تغايُرِ المعنى

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرًا﴾ اختار النَّظم القرآنيُّ التعبيرَ بلفظ ﴿نَصِيرًا﴾ لقوَّة دلالتِه على المعنى، فهو على صيغةٍ من صيغ المبالغة لاسم الفاعل (ناصرًا) للدلالة على تكثير صدور الفعل منه، ويأتي فعيلٌ معدولًا كثيرًا عن فاعل نحو: رحيم، وعليم، بمعنى: راحم، وعالم[1]، وقد ورد وصف اللّه ﷻ بصفة (ناصرًا) و﴿نَصِيرًا﴾ في القرآن الكريم، فورَدَ وصْفُه سبحانه بلفظ (ناصر) مجموعًا في قوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ١٥٠﴾ [آل عمران: 150]، وورَدَ وصْفُه سبحانه بأنّه نصيرٌ في قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا ٤٥﴾ [النّساء: 45]، فالنّاصر معناه المُيسِّر للغَلَبَة، وأمّا النصير فمعناه: الموثوق منه بأن لا يُسْلِم وليَّه ولا يَخذلَه[2].

(1) الغلايينيّ، جامع الدّروس العربيّة: 1/ 188.
(2) الحَليمي، المنهاج: 1/ 205.

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ٧٦﴾ [الإسراء: 76]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

كلما أبرم أهلُ الكفر أمرًا، أبرم اللهُ أمرًا

لمّا ذكر في الآيات السّابقة استمالَتَهم له ﷺ بالرِّفْقِ والإفتانِ بالمُلاطفَةِ والمُهاودة؛ أخبر في هذه الآية عن إفْتانِهم له بالمُشاكسةِ والمُخاشَنَة وإظهارِ العداوةِ والسَّعيِ في إخراجِه منهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَيَسۡتَفِزُّونَكَ﴾: أصلُ (فزّ) يَدُلُّ عَلَى خِفَّةٍ وما قارَبَها، تَقولُ: فَزَّهُ واسْتَفَزَّهُ؛ إذا اسْتَخَفَّهُ، ورَجُلٌ فَزٌّ، أَي: خَفيفٌ[2]، وفَزَّه فَزًّا وأَفَزَّه: أَفزعه وأَزعجه، وطَيَّر فُؤادَه، واسْتَفَزَّه مِنَ الشَّيْءِ: أَخرجَه، واسْتَفَزَّه: خَتَلَه حَتَّى أَلقاه في مَهْلَكة[3]، والاستِفزازُ: طَلَبُ الفَزِّ، وهو الخِفَّةُ والانزعاجُ وتركُ التَّثاقُلِ، والمقصودُ بالاسْتِفْزازِ في الآية: الحَملُ على التَّرحُّلِ، وهو اسْتِفعالٌ مِنْ فَزَّ بِمَعْنَى: بارَحَ المكانَ، أَيْ: كادوا أَنْ يَسْعَوا أَنْ تكونَ فازًّا، أَيْ: خارِجًا مِنْ مَكَّةَ[4].

2) ﴿يَلۡبَثُونَ﴾: أصلُ (لبث) يَدُلُّ على تَمَكُّثٍ وانتظارٍ واستبطاءٍ، قيلَ: اللَّبْثُ الاسْمُ، واللُّبْثُ - بالضَّمِّ - المَصْدَرُ[5]، يُقالُ: لَبِثَ بالمَكانِ: أقام به مُلازمًا له، وأَلْبِثْ عن فلانٍ، أي: انْتَظِرْهُ حَتّى يُبْدِيَ انْتظارُكَ إيّاه خَطَأَ رَأْيِه[6]، واسْتَلْبَثَهُ؛ إذا اسْتَبْطَأَهُ، وهو استَفْعَلَ مِنَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 489.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (فزَّ، فزز).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (فزز).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 153، 178.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (لبث).
(6) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (لبث).

اللَّبْثِ، وهو الإبطاءُ والتَّأَخُّر[1]، وحقيقةُ اللُّبْثِ في الآية: الاِسْتِقْرارُ في المَكانِ، أَيْ: لا يَسْتَقِرّونَ في مَكَّةَ، بَلْ يَخْرُجونَ منها، فَلا يَرْجِعونَ[2].

3) ﴿خِلَٰفَكَ﴾: أصلُ (خلف) يدلُّ على مجيءِ شَيءٍ بعد شيءٍ، وقيامِه مَقامَه، والخَلَفُ: ما جاءَ بَعْدُ، تَقولُ: قَعَدْتُ خِلافَ فُلانٍ، أَيْ: بَعْدَهُ، ويَقولونَ: هو خَلَفُ صِدْقٍ مِنْ أَبيه، وخَلْفُ سَوْءٍ مِنْ أَبيه، فإذا لَم يَذْكُروا صِدْقًا ولا سوءًا؛ قالوا للجَيِّد: خَلَفٌ، وللرَّديِّ: خَلْفٌ[3]، وخِلاف: مَصْدَرٌ مِنْ قَوْلِ القائِلِ: خالَفَ فُلانٌ فُلانًا؛ فهو يُخالِفُهُ خِلافًا، كَما يُقالُ: قاتَلَهُ؛ فهو يُقاتِلُهُ قِتالًا[4]، وأُريد بـ ﴿خِلَٰفَكَ﴾ في الآية: بَعْدَكَ، أَي: لا يَلْبَثونَ بَعْدَكَ[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

لا قيمةَ لتهديدِ الكفّارِ رُسلَهم بالطَّردِ أمامَ تهديدِ الله، فالأوَّلُ يتبدَّدُ، والثّاني يتحقَّقُ

أي: أنّ هؤلاء المشركين من قومك أيُّها النَّبيّ (ﷺ)، قد أعنتوك، وأجلَبوا عليك بكلِّ ما استطاعوا من صور البغي والعُدوان؛ حتّى أوشكوا أن يُخرِجوك مِنَ الأرض الَّتي على تُرابها وُلدتَ، وفيها نشأتَ، ولو أخرَجوك منها؛ فلن يَبْقَوا فيها بَعدَك إلّا قليلًا، حتّى يُهلِكَهمُ اللّهُ بعَذابٍ عاجِلٍ[6].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ بين الاستئنافِ والعطفِ:

مَنْ كادَ لوليِّ اللهِ؛ كاد الله به

الواوُ في قوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ عاطفةٌ مدخولَها على قوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: 73] تعديدًا

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (لبث).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 179.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 11/ 602.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 179.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 18، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 301، 302، والخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 531.

لِحيَلِهم معه ﷺ، فهو من باب عطف الحالِ على الحال والقصَّةِ على القصَّة، والحيلَتان متقابلتان: فالأولى في قوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ٧٣﴾ [الإسراء: 73]، حيلةٌ للاحتلافِ معه بتقريبه وترويضِه والتَّعايشِ معه، والثّانيةُ في قوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ﴾، وهي حيلةٌ لاستبعادِه وإقصائِه ونَفْيِه والبراءةِ منه وإظهارِ معاداته(1).

ويصحُّ أنْ تكون الواو للاستئنافِ النَّحويِّ؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ﴾ شروعٌ في كلامٍ جديدٍ بعد تمامِ آنِفٍ سابقٍ، والاستئنافُ يبرزُ استقلاليَّةَ الجملة في خَطَرِ مضمونِها عن أفعالِهم الكائدةِ المذكورةِ من قبلُ، ومعنى الاستئنافِ والعطفِ متقاربٌ؛ إذ إنَّ عطفَ القصَّةِ على القصَّة فيه معنى الاستئنافِ؛ لأنَّه يَشرعُ في معنًى جديدٍ كليٍّ على معنًى كليٍّ سابقٍ(2).

وجهُ استعمالِ (إنِ) المخفَّفةِ دون (إذا):

مُقاربَةُ الفِعل بـاتِّـيـوائـه والتَّخطيطِ له جزءٌ من صميم العملِ

لم يقل في السّياق الكريم: (وإذا كادوا)؛ لأنَّ (إذا) تحقيقيَّةُ الوقوع تدلُّ على كثرة المُزاولة للفعل، واستعمالُ (إنْ) في ﴿وَإِن كَادُواْ﴾ مع أنَّهم كادوا بالفعل، للمبالغة في تقليل الكيدودة المذكورةِ من حيثُ خشونةُ المزاولة لها، وجسارةُ الجَهارة بها، فلِتضمُّنِ ذلك التَّخطيط معانيَ المُلاينة والسّياسة التي تتطلَّب التُّؤَدة والموارَاةَ والمُجاراة في استدراج الخصم؛ عبَّر بـ(إن) المخفَّفة منَ الثقيلة، ليدلَّ على التَّخفُّف والاستبطاء في التَّحايل والمكْرِ به(3).

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 489.
(2) صافي، الجدول: 15/ 93.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 480.

فائدةُ دخولِ (إنْ) المخفَّفةِ على الجملة الفعليَّةِ:

أفادت (إن) توكيدَ معنى الجملة، وأفادتِ التَّحقيقَ واليقينَ لمضمونها، وهي بمنزلة (قد) في إفادتها تحقيقَ الجمل الفعليَّةِ وتوكيدَها؛ إذا دخلت عليها[1]، وجاءت هنا لتوكيد الحدَثِ الفعليِّ في فِعل المقاربَة ﴿كَادُواْ﴾[2].

تحقُّقُ العزْمِ موجِبٌ للمُؤاخذةِ عليه

دلالةُ الفعلِ (كاد) مجموعًا:

جاء الفعلُ (كاد) مجموعًا في قوله: ﴿وَإِن كَادُواْ﴾ للدَّلالة على التَّمالُؤِ الجمعيِّ في الكيدودة المذكورة، فهو تخطيطٌ جماعيٌّ وتربُّصُ متعدِّدُ المُقارباتِ والتَّدابير[3].

من كان الله معه لن يضُرَّه اجتماعُ المتآمِرين عليه

بلاغةُ التَّوكيدِ في ﴿لَيَسۡتَفِزُّونَكَ﴾:

جاء الفعلُ المضارعُ ﴿لَيَسۡتَفِزُّونَكَ﴾ مؤكَّدًا باللّام الفارقةِ[4]؛ للإيذان بقَصْديَّتهم في إيقاع الفِعل، وقيامِهم الآكَدِ على التَّخطيطِ له والتَّوسُّلِ إليه بالأسبابِ والحيَلِ التي تُقارِبُ من مُلابستِه وحصولِه.

كشفُ المؤامراتِ الخفيَّةِ يحتاجُ إلى توكيدٍ وتحقيقٍ

دلالةُ صيغةِ الاستفعال:

السّين والتّاء في قوله: ﴿لَيَسۡتَفِزُّونَكَ﴾ للدَّلالةِ على الطَّلبِ المجازيِّ، الذي يفيدُ التَّأكيدَ والمبالغةَ في الفِعل، أي: يبالغون في إفْزازِك ومحاولةِ إخراجِك، وصيغةُ الاستفعال تُصوِّرُ مدى جهدِهم في محاولةِ دحضِه وإبعادِه عن أرضه، وتُصوِّرُ مدى انفعالِهم بالغيظِ والكيدِ الدّافعِ لهم في إنفاذ ذلك وإمضائِه[5]، فالاستفزازُ: الحملُ على التَّرحُّلِ، وهو استفعالٌ من فزَّ بمعنى بارحَ المكانَ، أي: كادوا أنْ يَسْعَوا أن تكون فازًّا، أي: خارجًا من مكَّةَ[6].

الاستفزازُ كنايةٌ عن إرادةِ التَّشريدِ وسَلْبِ الأمنِ وزعزعةِ الاستقرارِ

(1) السيوطيّ، همع الهوامع: 1/ 514.
(2) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 1/ 245.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 480.
(4) السيوطيّ، همع الهوامع: 1/ 512.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 14/ 8693، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4434.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 178.

الكافرُ جاهزٌ بخُططِه في مُحاربَةِ الحقِّ، والله من ورائِه محيطٌ

فائدةُ اللّامِ الفارقةِ:

اللّام الدّاخلةُ على خبر (إنْ) المخفَّفةِ أو على ما تعلَّق بخبرها، كما في قوله: ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ هي الفارقةُ، فالجملةُ الفعليَّةُ هي خبرٌ لخبرِ (إن)، وهو ﴿كَادُواْ﴾، على اعتبارِ إعمالِ (إن)، ولهذه اللّامِ الفارقةِ ثلاثُ وظائفَ: الأولى: التَّفريقُ بين (إن) النّافيةِ التي بمعنى (ما)، و(إن) الموجبَةِ المخفَّفةِ مِنَ الثَّقيلة، والوظيفةُ الثّانيةُ: تأكيدُ مضمونِ الخبر، وتحقيقُ النِّسبة بينه وبين المبتدأ، والوظيفةُ الثّالثةُ: تخليصُ الفعلِ المضارعِ لزمن الحالِ، أي: يَستفزّونك في الوقتِ الحاضرِ[1].

لُطفُ اللهِ أنفذُ وأعجَلُ وأخفَى مِن حيثُ لا يحتسِبُ العبدُ

سرُّ استعمالِ الفعلِ مضارعًا:

جيءَ بفعل الاستفزاز مضارعًا في قوله: ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾؛ للدَّلالةِ على قرب وقوعه في الحال، إلّا أنَّه لم يقع بعدُ، كأنَّهم على حدِّ الفِعل وطرَفِه، كالدّاخل فيه، لا زمانَ بينهم وبين ملابستِه ودخولِه، ولا يخفى وجوبُ مجيءِ الفعل مضارعًا لوقوعه خبرًا لـ(كاد)، المشروطُ في خبرِه المضارَعةُ[2].

سُبحانَ من أكرمَ خيرَ خلْقِه بعِصمتِه له

عوْدُ ضميرِ الخطابِ:

ضميرُ الخطابِ في قوله: ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ عائدٌ على شخصِ الرَّسولِ ﷺ، وهو ظاهرٌ لا يخفَى، وفائدةُ الخطابِ في هذا المقامِ: التَّحذيرُ من خطرِهم عليه، فخوطِبَ خطابَ النَّصيحةِ والتَّوجيهِ بكشْفِ ما قد يخفَى أمرُه من مكيدتِهم به واحتيالِهم عليه.

يَكفِي اللهُ عبدَه ولو كان عدوُّه أقربَ منه كالأرضِ التي تحتَه

معنَى ﴿مِنَ﴾:

﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ ابتدائيَّةٌ، أي: من جهة الأرض التي أنت كائنٌ فيها.

(1) ابن هشام، مغني اللّبيب: 1/ 40، 305.

(2) ابن يعيش، شرح المفصّل: 4/ 376.

معنَى التَّعريفِ في كلمةِ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

تسميةُ الشّيءِ بلفظِ جنسِه تشريفٌ له

تعريفُ لفظِ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ في قوله: ﴿لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ للعهدِ، أي: الأرض التي أنت فيها معهم، وهي مكّةُ حرسَها اللّه[1].

دلالةُ اللّامِ في ﴿لِيُخۡرِجُوكَ﴾:

المصدرُ المُؤوّلُ ينتظِمُ فيه معنى الاسميَّةِ والفعليَّةِ في قالبٍ واحدٍ

اللّام في قوله: ﴿لِيُخۡرِجُوكَ﴾ هي لامُ الجرِّ جرَّتِ المصدرَ المؤوَّلَ المُنسَبِكَ من أنِ المصدريَّةِ المضمرةِ والفعلِ المضارع المنصوبِ بها[2]، ومعناها التَّعليلُ، فـ"قوله: ليخرجوك تعليلٌ للاستفزاز، أي: استفزازًا لقصدِ الإخراج"[3].

سِرُّ استعمالِ المضارعِ ﴿لِيُخۡرِجُوكَ﴾:

لا يَسلَمُ المؤمنُ من كيْدِ خصومِه في عاجِلِه وآجِلِه

عبَّرَ بالمضارعِ في قوله: ﴿لِيُخۡرِجُوكَ﴾؛ لإرادةِ الاستقبالِ المُتمحِّضِ من (أن) المصدريَّةِ المُضمرة، ولم يَجِئْ بغير المضارعةِ لامتناعِ ذلك؛ لأنَّ الجملةَ الفعليَّةَ المؤوَّلةَ بالمصدر - وهي قوله: ﴿لِيُخۡرِجُوكَ﴾ - مُعلَّلةٌ عن مضارعٍ، وهو قوله: ﴿لَيَسۡتَفِزُّونَكَ﴾، فكذلك ما عُلِّل به، وترتَّبَ عليه وجوبُ كونِه مضارعًا، والمعنى: كادوا لَيستفزّونك في (الحال)؛ لإخراجك بعد ذلك في (الاستقبال).

علَّةُ إيثارِ فعْلِ الإخراج:

الإخراجُ مفارقةُ المكانِ من غيرِ عوْدٍ

أوثِرَ فعلُ الإخراج في قوله: ﴿لِيُخۡرِجُوكَ﴾؛ لأنَّ المرادَ به "مفارقةُ المكان دون رجوع، وبهذا الاعتبارِ جُعِلَ علَّةً للاستفزاز؛ لأنَّ الاستفزازَ أعمُّ مِنَ الإخراج"[4].

نكتةُ تَكرارِ (من)، وعوْدِ الضَّميرِ فيه:

مهما اسْتَحكمت بالمؤمنِ الشّدائد، ففرجُ الله أعجلُ إليه

تكرَّرت (مِن) في قوله: ﴿لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ﴾؛ لئلّا يُتوهَّمَ أنَّ استفزازَه في موضعٍ، وإخراجَه من موضعٍ آخرَ، ولذا قال:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 178، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4434.
(2) صافي، الجدول: 15/ 92.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 178.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 178.

﴿مِنۡهَاۖ﴾ عوْدًا بالضَّمير على الأرضِ المعهودةِ في قوله: ﴿مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ وهي مكَّةُ.

توجيهُ جملةِ ﴿وَإِذٗا﴾ بين العطفِ والاعتراضِ:

تحقيق وقوع الوعيد بالإخراج، فالجزاء من جنس العمل

﴿وَإِذٗا﴾ في قوله: ﴿وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ﴾ اعتراضٌ بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه بين قوله: ﴿لَيَسۡتَفِزُّونَكَ﴾ وقوله: ﴿يَلۡبَثُونَ﴾، أوِ اعتراضٌ في آخر الكلام على التَّقديم والتَّأخيرِ، أي: (يستفزّونك، ولا يلبثون خلافك إذًا)، والواوُ على الوجهين للاعتراض، لدخولِها على محلِّه، ويجوزُ أن يكون (إذًا) حرفَ جوابٍ وجزاءٍ لكلام سابقٍ[1]، والأصلُ فيها أن يكون الفعلُ بعدها منصوبًا بـ(أَنْ) مُضمرةً، فإذا وقعت بعد عاطفٍ؛ جاز رفعُ المضارع بعدَها ونصبُه، وتُفيد (إذًا) التَّحقيقَ لجملةِ الجوابِ في الوعيدِ؛ إذا تحقَّقَ شرطُه منَ الإخراجِ[2]، ويجوزُ أن تكون (إذًا) ظرفًا للزَّمان، وتنوينُها عوضٌ عن جملةٍ محذوفةٍ على قول جماعةٍ من نحاةِ الكوفة، وهو غيرُ بعيد، بدليل أنَّها إذا وقعتْ بعد عاطفٍ؛ لم ينتصب بعدَها المضارعُ إلّا نادرًا؛ لانتفاء معنى التَّسبُّبِ، ولأنَّها حينئذٍ لا يظهرُ فيها معنى الجوابِ والجزاءِ[3].

بلاغةُ جُملةِ الاستثناءِ المفرَّغِ:

عقوباتُ الله العامَّةُ أمارةُ عمومِ الفسادِ والمخالفةِ

الاستثناءُ المفرَّغُ في قوله: ﴿لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أعمُّ وأشملُ في إفادة القصرِ، فهو استثناءٌ من عموم الأحوالِ، ليقعَ نفيُ اللَّبْثِ والاستقرارِ عنهم من جميع الوجوه، ليدلَّ على تمكُّنِ الإزاحةِ والزَّعزعةِ منهم تمكُّنًا مُحيطًا[4].

---

(1) وهي التي نونُها حرفٌ منَ الكلمة (إذَن)، ولكن كثرت كتابتُها بألفٍ في صورة الاسم المنوّنِ (إذًا).

(2) على تقدير: وإذا أخرجوك لا يلبثون بعد إخراجك، ولو أخرجوك، يُنظر: البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 489.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 489، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 179، والخطيب، التّفصيل في الإعراب: 8/ 159.

(4) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 2/ 250، 4/ 206.

دلالةُ النَّفيِ بـ﴿لَّا﴾:

الجنايات تستتبع العقوبات المجانسة لها

﴿لَّا﴾ النّافيةُ في قوله: ﴿لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ﴾ أفادتِ الاستقبال، فهي تنفي المضارعَ في الحال أوِ الاستقبال أوِ الاستمرار بحسبِ سياقِه في الجملة، وإن كان النُّحاةُ يَرَون أنَّها تُخلِّصه للاستقبال[1]، والظّاهرُ أنَّها قد تكون للحال، كقوله: ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ٩٢﴾ [الصافات: 92]، و﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ﴾ [النمل: 20]، وقد تكونُ للاستقبال كهذه الآية، وكقوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾ [البقرة: 174]، وقد تكون للاستمرار، وذلك نحو قولِه: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ [البقرة: 255]، وقولِه: ﴿۞لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [النساء: 148].

إيثارُ لفظِ اللَّبثِ:

لا يُبتلَى المرءُ بمثلِ زعزعةِ أمنِه

اللَّبْثُ المنفيُّ في قوله: ﴿لَّا يَلۡبَثُونَ﴾ نفيٌ للمُكْثِ الزَّمنيِّ والمكانيِّ بعد رسول الله ﷺ إنْ هم استفزّوه، وأخرجوه، ومعنى النَّفي الزَّمانيِّ والمكانيِّ: إخراجُهم عن حيِّز الزَّمان والمكان بالإهلاك والإزاحةِ منَ الوجود، وكأنَّ التَّعبيرَ بلفظ: (اللَّبث) مُؤْذنٌ بأنَّ الجزاءَ من جنس العمل، أي: إخراجُهم لرسول الله عن لبْثِه ومُكْثِه يقتضي عقوبتَهم بإخراجِهم عن مُكثِهم واستفزازِهم وإزاحتِهم عن مواضع استقرارِهم في الحياة، وأيضًا: اصطفاءُ لفظِ: ﴿يَلۡبَثُونَ﴾ ينتظمُ في المناسبة والتّناغم مع قوله: ﴿خِلَٰفَكَ﴾ أو ﴿خَلۡفَكَ﴾ على القراءتين[2]؛ لأنَّ اللَّفظين: ﴿خِلَٰفَكَ﴾، ﴿خَلۡفَكَ﴾ في الأصل منَ الظُّروف المكانيَّة، بمعنى: الوراء، فتُجوِّزَ فيهما، واستُعملا للبَعديَّة الزَّمانيَّة، فكان في قوله: ﴿لَّا يَلۡبَثُونَ﴾ إسنادٌ للفعل الزَّمنيِّ والمكانيِّ منَ المظروف إلى الظَّرف الملائم له، واللَّبْثُ: الاستقرارُ والإقامةُ

---

(1) سيبويه، الكتاب: 3/ 117.

(2) قرأ ابن عامر ويعقوب وحفص وحمزة والكسائي وخلف: ﴿خِلَٰفَكَ إِلَّا﴾ بكسر الخاء وفتح اللام وألف بعدها، والباقون بفتح الخاء وإسكان اللّام ﴿خَلۡفَكَ إِلَّا﴾، يُنظر: ابن الجزريّ، تحبير التّيسير في القراءات العشر: 1/ 439.

الطويلةُ والمُلازَمةُ الممتدَّةُ للزَّمان أوِ المكان، ومعناه في الآية أنَّهم لا يَستقرّون في مكَّةَ، بل يخرجون منها، فلا يرجعون[1].

الفرقُ بين الخلافِ والخَلْفِ في توجيهِ القراءةِ:

لفظُ (خِلاف) - (فِعال) يدلُّ على المُفارقَةِ عن جموحٍ وشرودٍ

(خلافٌ) لغةٌ في (خلْف)، يقال: أقام خِلاف الحيِّ، بمعنى: بَعدَهُم، أي: ظَعَنوا، ورحلوا، وغادروا، ولم يفعل[2]، ومن نكتة اختيار لفظ (خِلاف) دون (خلْف) في إحدى القراءتين الدَّلالةُ على أنَّ عدم لبْثِهم بعد رسول الله بسببِ مُخالفتِهم له ونَفارهم عنه، فاستوجَبوا أن يكونوا خِلافَه عقوبةً؛ لمّا كانوا خِلافَه اتِّباعًا ومنهجًا[3].

بلاغةُ المجازِ في قراءة ﴿خَلْفَكَ﴾:

من رضيَ مخالفةَ الرَّسول؛ فقدِ استحقَّ موضعَ الوراءِ والخلْفِ

قولُه: ﴿خِلَٰفَكَ﴾ أو ﴿خَلْفَكَ﴾ على القراءتين[4]؛ لأنَّ اللَّفظَين: ﴿خِلَٰفَكَ﴾ ، ﴿خَلْفَكَ﴾ في الأصل منَ الظُّروف المكانيَّة، بمعنى: الوراء، فتُجوِّزَ فيهما، واستُعمِلا للبَعديَّة الزَّمانيَّة، وقدِ اطَّرد إضافتُهما كـ(قبل) و(بعد) إلى أسماء الأعيان على حذف مضافٍ يدلُّ عليه ما قبله، أي: لا يلبثون خلف استفزازك وخروجك، أي: بعدك[5]، فـ"أصلُ الخلْفِ الوراءُ، فاستُعمل مجازًا في البَعديَّة، أي: (لا يلبثون بعدك)"[6].

وجهُ استعمالِ لفْظِ القليلِ مُنكَّرًا:

حظُّ المُخالِفِ الكائدِ القِلَّةُ والبَخسُ

تنكيرُ لفظ ﴿قَلِيلًا﴾ في قوله: ﴿لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، للتَّهوين والتَّحقير في موصوفِه المحذوفِ، أي: لا يلبثون خِلافَك إلّا لبثًا قليلًا، أو زمانًا قليلًا[7].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 179.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/ 316، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/ 280.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/ 316، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/ 280.
(4) ابن الجزريّ، تحبير التّيسير في القراءات العشر: 1/ 439.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 124.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 179.
(7) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 124.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإخراجُ والإبعادُ:

الإبعادُ قد يكون تجْنيبًا من غير إخراجٍ ومُغادرةٍ

الإخراجُ: مجانبةُ الحيِّزِ بمفارقتِه التّامَّة، وأصلُه: البروزُ عنِ المَقرِّ والحال، والإبعادُ: مُجانبةُ شيءٍ عن شيء، سواءٌ خرجَ عنِ الحيِّزِ الذي فيه، أم كان في ناحيةٍ منه بعيدةٍ؛ ولذا كان الإخراجُ ضدَّ الإدخال، والإبعادُ ضدَّ التَّقريب[1].

فالإخراجُ: إزاحةٌ عن حدودِ المنطقة والمُحيطِ، والإبعادُ قد يكون تجنيبًا من غير إخراجٍ ومغادرةٍ، وقال هنا: ﴿لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ﴾ دون (يُبعِدوك) لإفادةِ الإزاحةِ خارجَ الحدِّ، وهو الإبعادُ الذي يتجاوزُ مخرَجَ البلدِ، فيكونُ على مدخَلِ بلدٍ أخرى، فأفادَ قصْدَهم في ترحيله عن مكَّةَ إلى غيرها، ولو قال: (يبعِدوك)؛ لصحَّ أن يكون إبعادًا داخلَ النِّطاق والأرضِ.

اللَّبْثُ والمُكْثُ:

الـلَّـبْـثُ أعـمُّ والمكثُ أخصُّ

اللَّبْثُ: الإقامةُ الطويلةُ والمُلازَمةُ الممتدَّةُ للزَّمان أوِ المكان[2]، والمُكْث: ثباتٌ وتوقُّفٌ وانتظارٌ وأناةٌ، ويتعلَّق أيضًا بحيِّز الزَّمان والمكانِ[3]، والفرقُ بينهما: أنَّ اللَّبْثَ يَصِفُ نِسبةَ المظروف للظَّرف ساعةَ تلبُّسِه به، أي: يتعلَّقُ بوضعيَّةِ الفاعل (المظروف) ونِسبتِه إلى مكانه وزمانِه (الظَّرف).

والمُكْث: يَصِفُ كيفيَّةً مخصوصةً تتعلَّقُ بالمظروف (الفاعل)، وهي حالُ الانتظار والأناةِ والتَّريُّث، وهو لابثٌ في المكان والزَّمان، فقد يَلبَثُ الفاعلُ، ولا يكونُ ماكِثًا؛ لأنَّه قد يعجَلُ، أو قد يُقْهَرُ على

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بعد، خرج).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (لبث).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مكث).

لبْثِه، فالمُكْثُ يدلُّ على صفةٍ تتعلَّقُ بالماكث، وهي من ضروب القصدِ والاختيارِ والإرادة؛ لأنَّ الانتظارَ والأناةَ والثَّبات تحتاج إلى قصدٍ ونيَّةٍ، وعليه: فاللَّبْثُ أعمُّ، والمكث أخصُّ، ومن هنا فاللَّبْثُ المنفيُّ في قوله: ﴿لَّا يَلۡبَثُونَ﴾ أنسبُ للسّياق بوصْفِه نفيًا لِلمُكْثِ الزَّمنيِّ والمكانيِّ بعد رسول الله ﷺ إنْ همُ استفزّوه، وأخرجوه؛ لمناسبتِه قبيحَ فعلِهم، ومقابلتِه رديَّ نيَّتِهم بالإخراج عن طريق الاستفزازِ.

﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ۝٧٧﴾

[الإسراء: 77]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الحقُّ ثابتٌ لا يتبدَّلُ وسُنَّةُ اللهِ مُطَّرِدةٌ لا تتحوَّلُ

لمّا أخبر في الآية السّابقةِ عن تربُّصِهم به ﷺ لإخراجِه، وأنَّهم إنْ أنفذوا فيه كيدَهم؛ أنفذَ اللّهُ فيهم إهلاكًا واستئصالًا، فلا يتمتَّعون بعدَه؛ فأخبر هنا في هذه الآية عن أنَّ هذا الوعيدَ حقٌّ لا يتبدَّلُ وسنَّةٌ في جميع الرُّسل لا تتحوَّلُ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سُنَّةَ﴾: أَصْلُ كَلِمَةِ السُّنَّةِ مِنَ السَّنِّ، وهو جَرَيانُ الشَّيْءِ في سُهولَةٍ، يُقالُ: سَنَنْتُ الماءَ على وجْهي أَسُنُّه سَنًّا؛ إذا أَجْرَيْتُه، وممّا اشْتُقَّ مِنْه السُّنَّةُ، وهي السّيرَةُ، وسُنَّةُ رَسولِ اللّه ﷺ: سيرَتُه[2]، والسُّنَّةُ: الطَّريقَةُ حَميدَةً كانَتْ أَم ذَميمَةً[3]، وسُنَّةُ الرَّجُلِ: طَريقَتُه، والجَمعُ سُنَنٌ، وكُلُّ مَنِ ابْتَدَأَ شَيْئًا، ثُمَّ عَمِلَ بِهِ غَيْرُهُ مِنْ بَعْدِه، فهو الَّذي سَنَّهُ، واسْتَنَّ بالشَّيْءِ: عَمِلَ بِهِ[4]، والمرادُ بالسُّنَّةِ في الآيةِ: العادَةُ والسّيرَةُ الَّتي يَلْتَزِمُها صاحِبُها.

2) ﴿تَحْوِيلًا﴾: أصل (حول) تَحَرُّكٌ في دَوْرٍ، فالحَوْلُ العَامُ، وذَلِكَ أَنَّهُ يَحولُ، أَيْ يَدورُ[5]، والتَّحويلُ: مَصْدَرُ حَوَّلْتَ الشَّيْءَ عنِ المَوْضِعِ تَحْويلًا وحَويلًا؛ إذا نَقَلْتَهُ مِن مَوْضِعٍ إلى مَوْضِعٍ، وأَزَلْتَهُ عن الأَوَّلِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 490.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سنَّ).
(3) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (سنن).
(4) أبو جيب، القاموس الفقهيّ لغة واصطلاحًا، ص: 183.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حول).

إلى غَيْرِهِ[1]، ومنه: حَوَّلْتُ الرِّداءَ: إذا نَقَلْتُ كُلَّ طَرَفٍ إلى مَوْضِعِ الآخَرِ، والحائلُ: كلُّ شَيْءٍ يَتَحرَّكُ مِن مَكانِه، أو يَتَحوَّلُ مِن مَوْضِعٍ إلى مَوْضِعٍ، ومِن حالٍ إلى حالٍ[2]، والحَوْلُ: الحَرَكةُ، يُقال: حالَ الشَّخصُ؛ إذا تَحرَّكَ[3]، وحقيقةُ التَّحْويل في الآية: تَغييرُ الحالِ، وهو التَّبْديلُ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

نُصرةُ الله تعالى لرُسُلِهِ سُنَّةٌ مِنْ سُننه الَّتي لا تتخلَّفُ

يقول اللّه تعالى: (لو أخرجَك الكُفّارُ - يا مُحَمَّدُ ﷺ - من مَكَّةَ؛ فلن يلبثوا فيها إلّا قليلًا حتَّى نُهلِكَهم بعذابِنا، كما هي عادَتُنا في إهلاكِ الأُمَمِ الكافرةِ التي أرسَلْنا إليهم رُسُلًا من قَبلِك، فآذَوْهم، وأخرَجوهم مِن بلادِهم، ولا تَجِدُ - يا مُحَمَّدُ ﷺ - تغييرًا عمّا جَرَت به عادتُنا، ولا يَقدِرُ أحَدٌ على تَغييرِها)[4].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفصلِ في الآيةِ:

تعليلُ الأحكامِ ببواعثِها

فُصِلَتْ جملةُ ﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا﴾ عمّا قبلها، لوقوعِها استئنافًا بيانيًّا[5]، لتوضيحِ سببِ الوعيدِ المتضمَّنِ في قوله: ﴿لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾، فالجملةُ في موقع الجواب على من يسألُ عن سببِ ذلك، ويصحُّ أنْ تكون استئنافًا انتُقِل فيه مِنَ الخاصِّ إلى العامِّ، فقوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ﴾... ﴿وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ حالٌ خاصَّةٌ بالنَّبيِّ وقومه، وقولُه: ﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا﴾ استدلالٌ على هذا الخصوص بالقانون العامِّ، كما يستدِلُّ القاضي

---

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (حول).

(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حول).

(3) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (حول).

(4) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 21، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 302، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 101.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 180.

على حكْمِه الخاصِّ في حال العَيْن بذكْر الحيثيَّةِ العامَّة للحُكم، وهو مُنْطَلَقُه الذي نشأ عنه، وفي هذا إلماحٌ إلى أنَّ النَّبيَّ ﷺ ليس بِدعًا منَ الرُّسل في وجوب احترامِه والإذعانِ له، وليس قومُه بِدعًا من أقوام الرُّسل السّابقين الذين هلكوا بمخالفة الرُّسلِ، ولذا حُقَّ لهذه الجملة أنْ تُفصَل، وتخلو عن حرف الوصل؛ لأنَّها مُستَصحَبَةٌ مع ما قبلها استصحابَ القوانين الكبرى لِلأحكام الصُّغرى الصّادرةِ بموجِبها، وهذا الاستصحابُ يقتضي أنْ تُذْكَر بإزائها مفصولةً عنها لا معطوفةً عليها، ولا يخفَى ما في هذا الاستئنافِ والتَّعقيب به من تشديد الوعيدِ عليهم، إذا هم أخرجوا النَّبيَّ ﷺ؛ لأنَّ الحكمَ بالعقوبة على الجاني ثمَّ الاستشهادَ على الحكم بما يُثبِّته، فيه زيادةُ إلزامٍ وتقريعٍ وكنايةٍ عن أنَّه وعيدٌ لا يتخلَّفُ، ولا يُراجَع.

دلالةُ التَّعبير بالمصدرِ المؤكِّدِ: ﴿سُنَّةَ﴾:

التَّعبيرُ بالمصدر المؤكَّد[1] في قوله: ﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا﴾ على تقدير: (سَنَنّا سُنَّة) بليغٌ في إيجازه بحذف الفعلِ، وبليغٌ في تأكيده بالافتتاح المصدريِّ للجملة، وبليغٌ في تقرير مضمونِ الجملةِ بالأسلوب الجامعِ بين دلالة الفعليَّةِ (سَنَنّا) في تصوير معنى الحدوثِ المستمرِّ في الزَّمن، ودلالةِ الاسميَّة ﴿سُنَّةَ﴾ في تقرير المعنى المجرَّدِ للحدث للدَّلالةِ على الثُّبوت المطلَق للمضمونِ الذي لا يتخلَّفُ، ولا يزولُ، وفي حذف الفعل نكتةٌ بديعةٌ: وهي طَيُّ الحركة الزَّمنيَّةِ للفعل عنِ السّامع ليتفرَّغَ لأصل المعنَى وهو حقيقةُ (السُّنَّة)، فتنفعلَ نفسُه لِقدسيَّتِها وجلالِها في دوامِها دوامَ الدَّساتيرِ التّالِدةِ التي لا تُنْقَضُ، ولا تنحلُّ.

أبى اللهُ إلّا أنْ يُنْفِذَ سُنَنَه ويَنصرَ رُسُلَه

وجهُ التَّعبيرِ بالموصول ﴿مَن﴾:

التَّعبيرُ بـ﴿مَن﴾ في قوله: ﴿مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا﴾ لإرادة الإبهامِ والعموم،

---

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 565.

إنَّ الله لا يُخلِفُ وعدَه رُسلَه

ومعنى الإبهام: الدَّلالةُ على مُتَعَلَّقٍ غيرِ محدَّدِ العَيْنِ والذّات، لِغرضِ التَّنبيه على أنَّها سنَّةٌ شائعةٌ مُطَّرِدةٌ في شؤون الرُّسل بغضِّ النَّظرِ عن تحديد أفرادِهم، سواءٌ عَلِمَهُم المخاطَبُ أم لم يعلمهم، ففي الإبهام تعظيمٌ لشأن السُّنَّة المذكورة، أي: إنَّها ماضيةٌ على كلِّ حالٍ مع أيِّ رسولٍ، ومعنى العموم: الدَّلالةُ على استغراقها في فاعليَّتِها ونُفوذِها لأفراد الرُّسل كافَّةً.

سرُّ إسقاطِ الجارّ:

سُنَّةُ الله عامَّةٌ لا تتخلَّفُ عن مُستحقٍّ لها

لم يقل في السّياق الكريم: (سنَّة من قد أرسلنا من قبلك) لاستغراق زمانِ القَبليَّة جميعِه، أي: هذه سنَّتُنا منذ أنْ كانَ وحصلَ إرسالٌ للرُّسُل قبلك، فحذْفُ (مِن) تشديدٌ على عدم التَّخلُّف والانخرام في أي قطعةٍ منَ الزَّمن قبْلَ النَّبيِّ ﷺ[1].

بلاغةُ المجازِ العقليِّ في إضافة السُّنَّةِ للرُّسل:

لمّا كانت السُّنَّةُ حاصِلة لأجل رسُلِه وبسببِهم؛ أسندَ الحدثَ لسبَبِه

في إسناد (السُّنَّة) إلى (الرُّسل) في قوله: ﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا﴾ مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّها سنَّةُ اللّه، فهي مِنْهُ وبه، فأصلُ إضافتها للّه سبحانه، بدليل قوله بعدَها: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا﴾، ولكن لمّا كانتِ السُّنَّةُ حاصِلةً لأجل رسُلِه وبسببهم أسندَ الحدثَ لسببَه[2].

وجهُ التَّوكيدِ بـ﴿قَدۡ﴾:

إرسالُ الرُّسل سُنَّةٌ ضروريَّةٌ تستوجبُ موالاةَ الله لهم

﴿قَدۡ﴾ في قوله: ﴿قَدۡ أَرۡسَلۡنَا﴾ لتحقيق جملةِ الصِّلة وتأكيدِ مضمونها، وتحقيقِ جملة الصِّلةِ مع كونها كاملةً في تعريفها تامَّةً بموصولها، للإيماء إلى نُكتةٍ بديعة، وهي الإشارةُ إلى تحقيق هذه السُّنَّةِ المذكورة في إنفاذها وعدم تفويتِها؛ لأنَّ قوَّةَ المضاف من قوَّة ما أضيفَ إليه، والسُّنَّةُ أضيفت إلى الموصول وصلتِه المحقَّقَةِ بـ﴿قَدۡ﴾، فدلَّ على تأكُّدِها بتأكُّدِ ما أُضيفت إليه.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 490.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 126.

إيثارُ التَّعبيرِ بالإرسالِ دون البعثِ:

الإرسـال يـدلُّ عـلى الإطـلاق المُـتــوالي المُتسلسِل

عبَّر بالإرسال دون البعثِ في قوله: ﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا﴾، ولم يقل: (بعثنا) ليتجانسَ، ولا يتنافرَ مع قوله: ﴿رُّسُلِنَاۖ﴾ فهذا أتمُّ لفظًا وأكملُ صوتًا وإيقاعًا، ومن جهة المعنَى فهو أبلغُ وأوفَى من (بعثنا)، لاقتضاءِ السّياق للإرسالِ دون البعث؛ لأنَّه سَبَقَ التَّنويهُ عن نكتةِ إخلاء تركيبِ الظَّرفيَّة ﴿قَبۡلَكَ﴾ من حرف الجرِّ (مِن)، فلم يقل: (من قبلك) للدَّلالةِ على استغراق الزَّمانِ كلِّه دون خلوِّ زمنٍ منه عن وقوع هذه السُّنَّةِ الإلهيَّةِ المذكورة، فالاستغراقُ الزَّمنيُّ لهذه السُّنَّة يوافقُه أن يعبِّرَ بالإرسال لا بالبعث؛ لأنَّ البعثَ استنفارٌ بعد همودٍ، واستدعاءٌ بعد انقطاعٍ، وإطلاقٌ بعد إمساكٍ، فهو يعبِّرُ عن فَجْوةٍ يعقُبُها صَحوةٌ، وهذا لا يتناسبُ أبدًا مع معنى اليقظَةِ المُطَّرِدة للسُّنَّة في كلِّ زمانِ الإرسال قبل النَّبيِّ ﷺ من غير فجوةٍ ولا انقطاع، فالسُّنَّةُ ماضيةٌ لا تتخلَّفُ، ويَقظَةٌ لا تغفو، ومستمرَّةٌ لم تنقطع، وهذا يناسبُه لفظُ الإرسال الذي يدلُّ على الإطلاقِ المُتوالي المُتسلسِل، ولا يناسبُه لفظُ البعث المتضمِّنُ لمعنى سبْق الانقطاع والفجْوة؛ ولذا يرتبطُ البعثُ بمفهوم الإحياء بعد مَوات، سواءٌ الإحياءُ المعنوي لِمَواتِ البصائر والضَّمائر، أوِ الإحياءُ المادّي لِمَوات الأعضاءِ والأجسادِ.

ناسبَ الإرسالُ الـتَّـنـبـيـهَ على أصـلِ مـعـنـى إرسـالِ الـرُّسـلِ بغضِّ النَّظرِ عنِ المبعوثِ لهم

وأيضًا: إيثارُ لفظِ (الإرسال) على (البعث) لارتباطِ لفظِ البعثِ في مقام الرِّسالاتِ بِذِكْرِ المبعوثِ لهم، ولذا لم يردْ في القرآن الكريم بعْثُ الرُّسل أو بعْثُ الرَّسول إلّا ويُذكَرُ معه المفعولُ، وهو الطَّرَفُ المبعوثُ إليهم مِنَ الأمم أوِ الأمَّة ونحوِ ذلك، فيقول: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا﴾ [النحل: 36]، فذكرَ (الأمَّة) المبعوثَ لهم، وقال: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا﴾ [آل عمران: 164] فذكرَ ضميرَهم: ﴿فِيهِمۡ﴾ [آل عمران: 164]، وذلك لخطورة أمرِ البعث، ولأنَّ المقصودَ - أصلًا - ببعث الرُّسل: هو إنفاذُ فاعليَّة هذا البعثِ

في الأمم بإحيائها وإنعاشِها بعد موتها بالفسادِ والكفرِ، وأمّا هنا في هذه الآية؛ فلم يُذكَرِ المفعولُ، وهم (الأمم أو القوم) لعدم تعلُّقِ الغرض بالمرسَل إليهم، فلم يناسبْ ذكرُ البعث حينئذٍ، وناسبَ الإرسالُ لغرض التَّنبيهِ على أصل معنى إرسال الرُّسل بغضِّ النَّظر عنِ القوم المُرسَل إليهم[1].

نكتةُ إسنادِ فعلِ الإرسالِ إلى ضميرِ التَّعظيم:

لا يُضيف اللهُ لنفسِه إلّا ما هو عظيمٌ شريفٌ

أُسنِد الإرسالُ إلى نون العظمةِ في قوله: ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ لتعظيم الفاعلِ، وهو اللّه الجليلُ ﷻ، ولتعظيم فعلِ الإرسال الذي أُسند إلى ضمير التَّعظيم، كأنَّه يشيرُ إلى أنَّ الإرسال أمرُه جسيمٌ وشأنُه عظيمٌ، فلا يضطلعُ به إلّا ذو عظَمَةٍ وذو كبرياءٍ وذو جلال، ولتعظيم شأن السُّنَّةِ التي قضاها اللّه، وعرَّفَها بإضافتِها للجملةِ الموصولة: ﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا﴾، كأنَّه قال: (إذا قَدَرْنا بعظمتِنا على الأمر العظيم، وهو إرسالُ الرُّسل، فقُدرتُنا على إمضاء هذه السُّنَّةِ التي تعلَّقتْ بإرسالهم أهونُ وأيسرُ)[2].

معنَى ﴿مِن﴾:

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن رُّسُلِنَاۖ﴾ للتَّأكيدِ والاستغراقِ، أي: من كلِّ رُسلنا، وهي بيانيَّةٌ لِفعل الإرسال.

بلاغةُ الإطناب في لفظ ﴿قَبۡلَكَ﴾:

الأزمنةُ أوعيَةُ العِبَر

لم يقل في السّياق الكريم: (سنَّة من قد أرسلنا من رسلنا) وإنَّما أطنَبَ بزيادة الظرف ﴿قَبۡلَكَ﴾ للدَّلالةِ على أنَّها عادةٌ مطَّرِدةٌ في الأمثال والنُّظَراء الماضين، وإذا كانت قد وقعتْ بالفعل، وكان وقوعُها عادةً تتكرَّرُ بتكرار أسبابها؛ فهذا أدعى لتوقُّعِها بيقينٍ وعدمِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بعث، رسل).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 490.

استبعادها أوِ الشكِّ فيها، والإتيانُ بالظَّرف مبالغةٌ في تأكيد ذلك، بتحديد زمانِها السّابق، فإنَّ تحديدَ الزَّمن السّابق يُؤْذِنُ بمُقابِله منَ الزَّمن اللّاحقِ، فتقعُ في وقتِ البَعديَّة اللّاحق، كما وقعت في نظيره في زمن القبليَّة السّابقِ، فكما أنَّ الزَّمانَ هو الزَّمان، فلا مانعَ فيه يحجبُ وقوعَها، فكذلك قومُك والأقوامُ قبلهم لا فرق!

نكتةُ إضافةِ الرُّسل إلى ضمير التَّعظيمِ:

للرُّسلِ مكانٌ منَ اللهِ لا يُبارَى

إضافةُ الرُّسل إلى ضمير التَّعظيم في قوله: ﴿رُّسُلِنَا﴾ إشعارٌ بمكانِ الرُّسل منَ الله، وأنَّه لتلك المكانةِ أضافَهم إلى ضمير جلالِه وعظمتِه، ولأجل تلك المكانة سنَّ هذه السُّنَّةَ.

موقعُ جملةِ ﴿وَلَا تَجِدُ﴾ ممّا قبلَها:

سنَّةٌ لا تتخلَّفُ ولا يفوتُ مِنَ التَّحاكُمِ إليها أحدٌ

جاءت جملة ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا﴾ استئنافيَّة، تذييلًا بما هو في حكمِ التَّعليل لمضمون ما قبله، كأنَّه قيل: سنَّ سُنَّةً لا تتخلَّفُ، ولا يفوتُ من التَّحاكُم إليها أحدٌ؛ لأنَّه لا أحدَ بمقدوره أن يتحوَّل عنها، ولا هي تتحوَّلُ عن أحدٍ بإهمالِه، فليستْ متحوِّلةً، ولا مُتَحَوَّلًا عنها، أي: لا تنفكُّ عن مستحقّيها، ولا مستحقّوها بمنفكّين منها.

ما أُجريَ على الأممِ السّالفةِ يجري على الخالفةِ

ويصحُّ كونُها اعتراضيَّةً لتكملة البيان؛ تأديةً لمعنى استحالة التَّحويلِ، أي: إنَّ ذلك الحكمَ كائنٌ لا محالةَ؛ لأنَّنا أجريناه على الأمم السّالفة، ولأنَّ عادتَنا لا تتحوَّلُ[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بـ﴿وَلَا تَجِدُ﴾ مُضارعًا، ونفيه بـ(لا):

عينُ اليقينِ في معاملةِ الله، ومن ارتابَ؛ خابَ

قولُه: ﴿وَلَا تَجِدُ﴾ مِنْ (وجَدَ) بمعنى (عَلِم) من أفعال اليقين، وهذا الفعلُ منقولٌ من: وجَدَ الشيءَ ولَقيَهُ، فأصلُه في إفادة العثورِ والتَّحصُّل المادّيِّ للأمور الحسيَّةِ، ثم نُقل معناه إلى الأمور القلبيَّة (العثورُ القلبيُّ)، فقوله: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا﴾، معناه: أنَّه سيجِدُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 180.

سُنَّةَ اللّهِ ثابتةً غيرَ متحوِّلَةٍ بيقينٍ، كما يُشاهِدُ الأمورَ المحسوسةَ، فلا يُداخِلُه شَكٌّ فيها، فلمّا كان وُجدان الشَّيءِ بالعثور عليه أمرًا يقينيًّا؛ كان الأمر العقليُّ بمنزلته، ولذا أفاد العِلمَ؛ لأنَّ من وجد الشَّيءَ على حقيقتِه؛ فقد علِمَه، ونفيُ الوُجدان في هذه الآية لنفي الوجودِ الحسّيِّ والمعنويِّ لخرقِ سُنَنِ اللّه سبحانه، وجاء به مُضارعًا؛ لنفيِه بـ(لا)، فهي مختصَّةٌ بنفي المضارع، والمضارعُ - هنا - أفاد الاستمرارَ في الحال والاستقبال، أي: نفيُ الفِعل هنا مستمرٌّ لا ينقطعُ حالًا واستقبالًا[1]، وفي استغراقِه امتدادَ الزَّمان مبالغةٌ في انتفاء الإيجاد[2].

دلالةُ اللّام، وسرُّ تقديمِها ومجرورِها:

تتحوَّلُ الأشياءُ حين تفقِدُ ارتباطَها بالله سبحانه

اللّام في ﴿لِسُنَّتِنَا﴾ للتَّعدية، وتقديمُها ومجرورُها على مفعول الوجود، للاختصاص والرِّعايةِ، أي: لا تجدُ لسنَّتنا خاصَّةً، فالاختصاصُ، أي: في المعنى، والرِّعايةُ، أي: للفاصلة؛ لئلّا تنخرمَ.

سِرُّ تَكرار لفظِ (سُنَّة)، وإضافتِه إلى الضَّمير:

التَّكرارُ زيادةٌ لمعنًى مُقرَّرٍ

كرَّرَ لفظَ (سُنَّة) في قوله: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا﴾، ولم يقل: (ولا تجِد لها تحويلًا)؛ اعتمادًا على ذِكْرها في قوله: ﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا﴾، لتغايُرِهما في الإضافة في الموضعَين، فالسُّنَّة الأولَى مُضافةٌ إلى المفعول، والسُّنَّةُ الثّانية مُضافةٌ إلى الفاعل، فالمعنى في الأولَى أخصُّ، وفي الثّانية أعمُّ، فالمرادُ بالسُّنَّة في: ﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا﴾ سُنَّةُ التعذيب للأمم؛ إذا هم أخرجوا الرُّسلَ، والكلامُ على حذف مضاف، أي: سنَّةَ أمم مَن قد أرسلنا[3]، يعني: عقوبةَ أمم الرُّسل، وأضيفتْ للرُّسل؛ لأنَّها لأجلهم على نحوِ ما بُيِّن من قبلُ، وأمّا السُّنَّة

---

(1) خالد الأزهريّ، التّصريح بمضمون التّوضيح: 1/ 359، وفاضل السّامرائيّ: معاني النّحو: 2/ 12.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 180.

(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 13/ 427.

المضافةُ للفاعل في قوله: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ فالمرادُ بها عمومُ سنَّة اللّهِ في أقضيته وأحكامه كافَّةً، ومنها سنَّةُ العقاب والتَّعذيب، فكأنَّه علَّل الخاصَّ بالعامِّ المُندرجِ تحته، كأنَّه قيل: لا شيءَ في سُنَنِنا كافَّةً يتحوَّلُ، ويتغيَّر، فأولَى بذلك سُنَّتُنا الخاصَّةُ في إنزال العقوبات بالأمم المُعتَدِيَةِ على رُسُلِ اللّه، ففي التَّكرار زيادةٌ في المعنى المُقَرَّر، وفي الإضافة إلى الضَّمير إظهارٌ ما لهذه السُّنَّة مِنَ العظمة[1].

سرُّ التَّعبيرِ بصيغةِ التَّفعيل:

(التَّحويلُ) في قوله: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ مصدرٌ قياسيٌّ من (فعَّل - حوَّل) المتعدّي الرُّباعي، على زِنَةِ (تفعيل)[2]، وصيغةُ تفعيل - هنا - تدلُّ على المُطاوعة المنفيَّة، أي: حوَّلَه، فتحوَّلَ تحويلًا، للدَّلالة على ثبوتِ سنَّة اللّه سبحانه، وأنَّها لا تتطاوع بحالٍ، ولا تتأثَّرُ لإرادةِ المجرمين فيها بالتَّحويل، وللمبالغة في حصول فِعل التَّحويل بما يدلُّ على كثرةِ المتربِّصين القاصدين للتَّحويل المُحاولين في إنفاذه، ومع ذلك فسنَّةُ اللّهِ عَصيَّةٌ أبيَّةٌ على المُطاوعةِ والتَّأثُّر، ولم يقل في السياق: (ولا تجد لسنَّتنا تَحوُّلًا)؛ لأنَّ (التَّحوُّل) مصدر (تحوَّلَ) القاصِر، فلا مُطاوعَ له، ولو قال: (تحوُّلًا)؛ لاقتضى أنَّ سنَّة اللّه يعتريها الأغيارُ فتتحوَّلُ من تلقاء نفسها، فيكونُ هذا هو التَّحوُّلُ المنفيُّ عنها فقط، وهذا غيرُ واردٍ؛ لأنَّ سنَّة اللّه لا يطرأُ عليها التَّحوُّلُ الذّاتيُّ، كما يطرأ على الأعيان والأجسام، ويكونُ تحويل المجرمين لها بالإفساد والكفر غيرَ منفيٍّ، وهذا فسادٌ للمعنى عريضٌ.

سنَّةُ الله ثابتةٌ لا تتطاوعُ، ولا تتأثَّرُ بكثرةِ المتربِّصين القاصدين للتَّحويلِ

۞ الفروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّحويلُ والتَّبديلُ:

التَّحويلُ: فصْلُ الشَّيء وإزاحتُه عن موقعه، أو تغييرُ وضْعِه وصِفَتِه.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 491.

(2) صافي، الجدول: 15/ 71.

التَّحويلُ أخفُّ مِنَ التَّبديل

والتَّبديلُ: جعْلُ شيءٍ مكانَ شيءٍ بديلًا عنه، أوِ التَّغييرُ المطلَق للشَّيء سواءٌ أتى ببديلٍ أم لا[1].

والفرقُ بينهما: أنَّ التَّحويل أخفُّ منَ التَّبديل، فالتَّبديل أشدُّ وأقوى؛ لأنَّ التَّحويلَ في أصلِه: هو تحرُّكُ الشَّيء عن منطقةِ الحَوْل، وهو موضِعُه الذي كان فيه، ويدور في مَدارِه، فإذا أخرجتَه عن هذا الوضع؛ فقد حوَّلتَه؛ لأنَّك نزعتَه عن حَوالَيْه، وهو حالُه أو صِفتُه أو مكانُه الذي كان يَحولُه عن غيره، أي: يمنعُه؛ ولذا كان التَّحويل مُعبِّرًا عن أدنى تغييرٍ في الشَّيء؛ لأنَّه يحصلُ من أقرب مكانٍ، وهو حوالَيِ الشَّيء، وأمّا التَّبديلُ؛ فأعمُّ وأقوى؛ لأنَّه تغييرٌ كلّيٌّ لا يتقيَّدُ بنمطٍ أو حيِّزٍ أو جهة، فليس هذا في معنى مادَّتِه، بل هو يعبِّرُ عن انقلابِ شيءٍ إلى شيءٍ آخرَ سواه، ولذا عبَّر هنا بالتَّحويل دون التَّبديل، ليدلَّ على ثبوت السُّنَّةِ الإلهيَّة وعدمِ تأثُّرها بأدنى مُلابسةٍ لمحاولاتِ التَّغيير والتَّبديلِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بدل، حول).

المحتويات

